

المعهد الإسلامي للدراسات الدينية

حياتي وكمي في القرآن والنفس

تحرير

رياض أبو ودي
علاء ربيع
حسن البطوش
عوار علي

بإشراف

يوسف قرضاوي



عيسى و مريم
في القرآن والشفاعة

تمَّ إِنْجَازُ هَذَا الْكِتَابِ عَلَى نَفْقَةٍ
زَيْنِ الْعَاصِدِينَ مَمِّيَّاسِي

المعهد الإسلامي للدراسات الدينية

عيسى ورسوله في القرآن والنفس

تحرير

رياض أبو وندى علاء ربيع
حسن البطوش عواد علي

بإشراف

يوسف قزما خوري



1996

تأسس المعهد الملكي للدراسات الدينية في عمان سنة ١٩٩٤ وهو يهدف إلى تعميق
الفهم المتبادل بين الإسلام والمسيحية عن طريق الأبحاث والحوار العلمي

العنوان : صندوق بريد ٨٣٠٥٦٢ عمان ١١١٨٣
فاكس : ٦١٨٠٥٣ - ٦ - ٩٦٢ / المملكة الأردنية الهاشمية



1996

الناشر

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

هاتف : ٦١٨١٩٠ / ٦١٨١٩١ / ٦٢٤٣٢١ فاكس : ٦١٠٠٦٥
ص.ب. : ٩٢٦٤٦٣ الرمز البريدي ١١١١٠ عمان - الأردن

■ دار الشروق للنشر والتوزيع

رام الله - فلسطين

التوزيع

■ المركز العربي للمطبوعات ش.م.م.

ص.ب. : ٥٦٨٧ / ١٣ تلفاكس : ٨٦٢٩٩٤ بيروت - لبنان

■ التنضيد القرآني والصف والمأكيث : المركز العربي للمطبوعات

■ الطباعة والتجليد : مطبعة العلوم

■ رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(١٩٩٦ / ٣ / ٤٣٦)

رقم التصنيف: ٢٢٨

المؤلف ومن هو في حكمه : المعهد الملكي للدراسات الدينية

عنوان المصنف : عيسى ومريم في القرآن والتفسير

الموضوع الرئيسي : ١- الديانات

٢- القرآن الكريم - قصص

رقم الايداع: (١٩٩٦ / ٣ / ٤٣٦)

بيانات النشر: عمان - دار الشروق

• تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

المحتويات

الصفحة

التمهيد	ز
١ - سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٨٧	١
٢ - سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١١٦	١٩
٣ - سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١٣٦	٢٩
٤ - سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢٥٣	٣٣
٥ - سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٣٥-٣٧	٤٢
٦ - سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٤٢-٥٩	٦٧
٧ - سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٨٤-٨٥	١٣٧
٨ - سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٥٦-١٥٩	١٤٩
٩ - سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٦٣	١٩١
١٠ - سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٧١-١٧٢	١٩٤
١١ - سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١٧	٢٢٩
١٢ - سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٤٦	٢٤٢
١٣ - سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٧٢-٧٨	٢٤٧
١٤ - سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١١٠-١١٩	٢٥٧
١٥ - سورة الأنعام، رقم ٦، الآية ٨٥	٣٣٦
١٦ - سورة التوبة، رقم ٩، الآية ٣٠-٣١	٣٣٨
١٧ - سورة يونس، رقم ١٠، الآية ٦٨-٦٩	٣٧٣
١٨ - سورة النحل، رقم ١٦، الآية ٥١	٣٨١
١٩ - سورة الإسراء، رقم ١٧، الآية ١١١	٣٨٧
٢٠ - سورة الكهف، رقم ١٨، الآية ٤-٦	٣٩٣
٢١ - سورة مريم، رقم ١٩، الآية ١٦-٣٦	٤٠٤
٢٢ - سورة مريم، رقم ١٩، الآية ٨٨-٩٤	٤٦٠
٢٣ - سورة الأنبياء، رقم ٢١، الآية ٢٦-٢٧	٤٦٥
٢٤ - سورة الأنبياء، رقم ٢١، الآية ٩١	٤٦٧
٢٥ - سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٥٠	٤٦٩

٤٧٣	٢٦- سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٩١- ٩٢
٤٧٩	٢٧- سورة الفرقان، رقم ٢٥، الآية ٢
٤٨٣	٢٨- سورة الأحزاب، رقم ٣٣، الآية ٧
٤٨٧	٢٩- سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ٤
٤٨٩	٣٠- سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ١٥٢
٤٩٢	٣١- سورة الزمر، رقم ٣٩، الآية ٤
٤٩٦	٣٢- سورة الشورى، رقم ٤٢، الآية ١٣
٥٠١	٣٣- سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٥٧- ٥٩
٥٠٧	٣٤- سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٦٣- ٦٤
٥١١	٣٥- سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٨١
٥١٦	٣٦- سورة الحديد، رقم ٥٧، الآية ٢٧
٥٢٥	٣٧- سورة الصف، رقم ٦١، الآية ٦
٥٣٣	٣٨- سورة الصف، رقم ٦١، الآية ١٤
٥٣٨	٣٩- سورة التحريم، رقم ٦٦، الآية ١٢
٥٤٣	٤٠- سورة الجن، رقم ٧٢، الآية ٣- ٤
٥٥٠	٤١- سورة الإخلاص، رقم ١١٢، ١- ٤
٥٨٣	المصادر

التمهيد

يضم هذا الكتاب ١٢٠ آية من القرآن الكريم تأتي على ذكر موضوع «المسيح عيسى ابن مريم» و «مريم ابنة عمران»، تمثل حوالي اثنين بالمئة من مجموع آياته. يتبادر إلى ذهن القارئ، بادية ذي بدء، السؤال عن الكيفية التي أتى بها القرآن على ذكر الموضوع. لذلك نورد هنا، على سبيل المثال لا الحصر، نماذج ست منها:

١ - ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (البقرة، ٨٧ و ٢٥٣).

٢ - ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَكْفُرُ بِكِ كَلِمَةً مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ. وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران، ٤٥ - ٤٦).

٣ - ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء، ١٧١ - ١٧٢).

٤ - ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ (المؤمنون، ٥٠).

٥ - ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران، ٤٢).

٦ - ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء، ٩١).

علماً أنه ورد اسم «عيسى» في ٢٥ آية، واسم «المسيح» في ١١ آية، واسم «مريم» في ٣٤ آية، موزعين على النحو التالي: «عيسى» ٩ مرات، و «عيسى ابن مريم» ١٣ مرة، و «المسيح» ٣ مرات، و «المسيح ابن مريم» ٥ مرات، و «المسيح عيسى ابن مريم» ٣ مرات، و «ابن مريم» مرتان؛ و «مريم» ١٠ مرات، و «مريم ابنة عمران» مرة واحدة.

لقد ذكرت الآية أولاً ثم تلتها تفاسيرها في عدد مختار من كتب التفسير. إن الغرض من علم التفسير، على حد تعريف حاجي خليفة صاحب كتاب كشف الظنون، هو «معرفة نظم القرآن، وفائدته حصول القدرة على استنباط الأحكام الشرعية على وجه الصحة، وموضوعه كلام الله سبحانه وتعالى الذي هو منبع كل حكمة ومعدن كل فضيلة... ولا بد للمفسر من التبحر في كل العلوم» (عمود ٤٢٧). نورد هنا ما جاء في هذا الكتاب القيم، الذي يعد من أهم المراجع في تعريف المصنفات العربية، لثلاثة من كتب التفسير المعتمدة:

١ - تفسير ابن جرير الطبري: «وكتابه أجلّ التفاسير وأعظمها، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض والإعراب والاستنباط، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين (عمود ٤٣٧).

٢ - الكشف عن حقائق التنزيل للزمخشري: «ثم جاءت فرقة أصحاب النظر في علوم البلاغة التي بها يدرك وجه الإعجاز، وصاحب الكشف هو سلطان هذه الطريقة، فلذا طار كتابه في أقدى المشرق والمغرب» (عمود ١٤٧٦).

٣ - أنوار التنزيل للبيضاوي: «وتفسيره هذا كتاب عظيم الشأن، غني عن البيان، لخص فيه من الكشف [للمخشي] ما يتعلق بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير [للرازي] ما يتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب [أبو القاسم الحسين الراغب الأصفهاني] ما يتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الاشارات، وضم إليه ما وري زناد فكره من الوجوه المعقولة والتصرفات المقبولة، فجلا رين الشك عن السريرة وزاد في العلم بسطة وبصيرة» (عمود ١٨٧). هذا غيض من فيض مما قيل في أهمية كتب التفاسير.

ونظراً لاتساع مادة التفاسير، التي تزيد على ثلاث مجلدات كبيرة الحجم، وتجنباً للتكرار، اقتصر على ايراد الأصول من هذه التفاسير واستبعدت الفقرات المنقولة حرفياً بحذافيرها، كما اقتصر في الأحاديث «المعنونة» على ذكر السند الأول والسند الأخير فقط. راجين أن يسهم هذا الكتاب بمساعدة الباحثين بإلقاء بعض الضوء على دراسة موضوع «الديانات المقارنة» بالعمق المتوخى.

يوسف قزما خوري

٣٠ آذار ١٩٩٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٨٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١	ص ٣١٩ - ٣٢١	ابن كثير	ج ١	ص ١٢٢ - ١٢٣
الزمخشري	ج ١	ص ٢٩٤ - ٢٩٥	الجلالان	ج ١	ص ١٧
الرازي	ج ٣	ص ١٧٥ - ١٧٨	الشوكاني	ج ١	ص ١١٠ - ١١٢
الطبرسي	ج ١	ص ٣٤٦ - ٣٤٩	الآلوسي	ج ١	ص ٣١٦ - ٣١٨
ابن عربي	ج ١	ص ٧١ - ٧٣	القاسمي	ج ٢	ص ١٨٥ - ١٨٦
البيضاوي	ج ١	ص ١٦٨ - ١٦٩	محمد عبده	ج ١	ص ٣٧٦ - ٣٧٨
الخازن	ج ١	ص ٨٠ - ٨١	الطباطبائي	ج ١	ص ٢٢٠ - ٢٢٣
البغوي	ج ١	ص ٥٧ - ٥٨	جوهري	ج ١	ص ٩٦
الماوردي	ج ١	ص ١٥٥ - ١٥٦	المراسي	ج ١	ص ١٦٣ - ١٦٥
القرطبي	ج ٢	ص ٢٣ - ٢٥	سيد قطب	ج ١	ص ٨٨ - ٨٩
أبو حيان الأندلسي	ج ١	ص ٢٩٨ - ٣٠١			

الطبري ج ١ ص ٢١٩ - ٢٢١

يعني على منهاجه وشريعته والعمل بما كان يعمل به .
القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ يعني بقوله ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ التي آتاه الله إياها ما أظهر على يديه من الحجج والدلالة على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكف ونحو ذلك من الآيات التي أبانت منزلته من الله ودلت على صدقه وصحة نبوته كما حدثنا ابن حميد . . . عن ابن عباس ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير ثم ينفخ فيه فيكون طائراً بإذن الله وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب مما يدخرون في بيوتهم وما ردّ عليهم من التوراة مع الإنجيل الذي أحدث الله إليه .

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أما معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ فإنه قويناه فأعناه كما حدثني المشي . . . عن الضحاك ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ يقول نصرناه يقال منه أيدك الله أي قواك وهو رجل ذو أيد وذو آد يراد ذو قوة

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه آتينا موسى الكتاب أنزلناه إليه وقد بينا أن معنى الإيتاء الاعطاء فيما مضى قبل والكتاب الذي آتاه الله موسى عليه السلام هو التوراة وأما قوله ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ فإنه يعني وأردفنا وأتبعنا بعضهم خلف بعض كما يقفو الرجل الرجل إذا سار في أثره من ورائه وأصله من القفا يقال منه قفوت فلاناً إذا صرت خلف قفاه كما يقال دبرته إذا صرت في دبره ويعني بقوله ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ من بعد موسى ويعني بالرسول الأنبياء وهم جمع رسول يقال هو رسول وهم رسل كما يقال هو صبور وهم قوم صبر وهو رجل شكور وهم قوم شكر وإنما يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أتبعنا بعضهم بعضاً على منهاج واحد وشرعة واحدة لأن كل من بعثه الله نبياً بعد موسى ﷺ إلى زمان عيسى ابن مريم فإنما بعثه يأمر بني اسرائيل بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ما فيها فلذلك قيل وقفينا من بعده بالرسول

ومنه قول العجاج من أن تبدلت بآدي آدا يعني بشبابي قوة المشيب ومنه قول الآخر:

إن القдах إذا اجتمعن فرامها

بالكسر ذو جلد وبطش أيد

يعني بالأيدي القوي ثم اختلف في تأويل قوله ﴿يُرُوحُ الْقُدُّسُ﴾ فقال بعضهم روح القدس الذي أخبر الله تعالى ذكره أنه أيد عيسى به هو جبريل عليه السلام ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى . . . عن قتادة في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال هو جبريل حدثني موسى بن هرون . . . عن السدي قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال هو جبريل عليه السلام حدثني المثنى . . . عن الضحاك في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال روح القدس جبريل حدثت عن عمار . . . عن الربيع ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال أيد عيسى بجبريل وهو روح القدس وقال ابن حميد حدثنا سلمة . . . عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفراً من اليهود سألو رسول الله ﷺ فقالوا أخبرنا عن الروح قال أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو يأتيني قالوا نعم . وقال آخرون الروح الذي أيد الله به عيسى هو الإنجيل ذكر من قال ذلك حدثني يونس . . . عن ابن زيد في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال الله ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال آخرون هو الاسم الذي كان عيسى يحيي به الموتى ذكر من قال ذلك حدثت عن المنجاب . . . عن ابن عباس ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال هو الاسم الذي كان يحيي عيسى به الموتى وأولى التأويلات في ذلك بالصواب قول من قال الروح في هذا الموضع جبريل لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْنَاكَ بِرُوحِ الْقُدُّسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] فلو كان الروح الذي أيد الله به هو الإنجيل لكان قوله إذا أيدتك بروح القدس وإذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل تكرير قول لا معنى له وذلك أنه على تأويل قول من قال معنى إذ

أيدتك بالإنجيل وإذا علمتك الإنجيل وهو لا يكون به مؤيداً إلا وهو معلمه فذلك تكرير كلام واحد من غير زيادة معنى في أحدهما على الآخر وذلك خلف من الكلام والله تعالى ذكره يتعالى عن أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به فائدة وإذا كان ذلك كذلك فبين فساد قول من زعم أن الروح في هذا الموضع الإنجيل وإن كان جميع كتب الله التي أوحاها رسله روحاً منه لأنها تحيا بها القلوب الميتة وتتبع بها النفوس المولية وتهتدي بها الأحلام الضالة وإنما سمي الله تعالى جبريل روحاً وأضافه إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده فسماه بذلك روحاً وأضافه إلى القدس والقدس هو الطهر كما سمي عيسى به مريم روحاً له من أجل تكوينه له وروحاً من عنده من غير ولادة والد ولده . وقد بينا فيما مضى من كتابنا هذا أن معنى التقديس التطهير والقدس الطهر من ذلك وقد اختلف أهل التأويل في معناه في هذا الموضع نحو اختلافهم في الموضع الذي ذكرناه . حدثني موسى . . . عن السدي قال القدس البركة حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبي جعفر . . . عن أبيه قال القدس هو الرب تعالى ذكره حدثني يونس . . . عن ابن زيد ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ قال الله القدس وأيد عيسى بروحه قال نعت الله القدس وقرأ قول الله جل ثناؤه ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣] قال القدس والقدوس واحد . حدثني يونس . . . عن عطاء بن يسار قال قال كعب الله القدس .

القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ﴾ اليهود من بني إسرائيل حدثني بذلك محمد بن عمرو عن أبو جعفر يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل لقد آتينا موسى التوراة وتابعا من بعده بالرسول اليكم وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجيج إذ بعثناه إليكم وقويناه بروح القدس وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم تجبروا بغيا استكبار أمامكم ابليس فكذبتم بعضاً منهم وقتلتم بعضاً فهذا فعلكم أبدا برسلي . وقوله ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ وإن كان خرج مخرج التقرير في الخطاب فهو بمعنى الخبر .

الزمخشري ج ١ ص ٢٩٤ - ٢٩٥

فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة. وقيل لأنه لم تضعه الأصلاب ولا أرحام طوامث، وقيل بجبريل، وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره، والمعنى: ولقد آتينا يا بني إسرائيل أنبياءكم ما آتيناكم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَمْرِنَا فَتَوَلَّيْتُمْ﴾ [الشورى: ٥٢] منهم بالحق ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان به فوسط بين الفاء وما تعلقت به همزة التوبيخ والتعجب من شأنهم، ويجوز أن يريد: ولقد آتيناكم ما آتيناكم ففعلتم ما فعلتم ثم وبخهم على ذلك، ودخول الفاء لعطفه على المقدر. فإن قلت: هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ قلت: هو على وجهين أن تراد الحال الماضية لأن الأمر فظيع، فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب، وأن يراد وفريقاً تقتلونهم بعد لأنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم، ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة. وقال ﷺ عند موته «ما زالت أكلة خبير تعادوني فهذا أوان انقطاع أبهري» . . .

﴿الْكِتَابِ﴾ التوراة آتاه إياها جملة واحدة ويقال فقاه إذا اتبعه من القفا نحو ذنبه من الذنب، وفقاه به أتبعه إياه. يعني وأرسلنا علي أثره الكثير من الرسل كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وهم يوشع واشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقييل وإلياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم، وقيل ﴿عِيسَى﴾ بالسريانية يشوع، و﴿مَرْيَمَ﴾ بمعنى الخادم، وقيل المريم بالعربية من النساء كالزير من الرجال وبه فسر قول رؤبة. «قلت لزير لم تصله مريم». ووزن مريم عند النحويين مفعول لأن فعلاً بفتح الفاء لم يثبت في الأبنية كما ثبت نحو عتير وعليب ﴿أَلْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات والحجج كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والإخبار بالمغيبات، وقرىء وأيدناه، ومنه آجده بالجميم إذا قواه، يقال الحمد لله الذي آجديني بعد ضعف وأوجدني بعد فقر ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كما تقول: حاتم الجود ورجل صدق. ووصفها بالقدس كما قال وروح منه

الرازي ج ٣ ص ١٧٥ - ١٧٨

المسألة الثانية: روى أن بعد موسى عليه السلام إلى أيام عيسى عليه السلام كانت الرسل تتواتر ويظهر بعضهم في أثر بعض والشرعة واحدة إلى أيام عيسى عليه السلام فإنه صلوات الله عليه جاء بشرعة جديدة، واستدلوا على صحة ذلك بقوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا مِّنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ فإنه يقتضي أنهم على حد واحد في الشرعة يتبع بعضهم بعضاً فيها، قال القاضي إن الرسول الثاني لا يجوز أن يكون على شريعة الأول حتى لا يؤدي إلا تلك الشرعة بعينها من غير زيادة ولا نقصان مع أن تلك الشرعة محفظة يمكن معرفتها بالتواتر عن الأول لأن الرسول إذا كان هذا حاله لم يمكن أن يعلم من جهة إلا ما كان قد علم من قبل أو يمكن أن يعلم من قبل فكما لا يجوز أن يبعث الله تعالى رسولاً لا شريعة معه أصلاً، تبين العقليات لهذه العلة، فكذا القول في مسألتنا ثبت أنه لا بد في الرسل الذين جاؤا من بعد موسى عليه السلام أن يكونوا قد أتوا بشرعة جديدة إن كانت

. . . اعلم أن هذا نوع آخر من النعم التي أفاضها الله عليهم ثم إنهم قابلوه بالكفر والأفعال القبيحة وذلك لأنه تعالى لما وصف حال اليهود من قبل بأنهم يخالفون أمر الله تعالى في قتل أنفسهم إخراج بعضهم بعضاً من ديارهم وبين أنهم بهذا الصنيع اشتروا الدنيا بالآخرة زاد في تبيكتهم بما ذكره في هذه الآية. أما الكتاب فهو التوراة آتاه الله إياها جملة واحدة، روي عن ابن عباس أن التوراة لما نزلت أمر الله تعالى موسى بحملها فلم يطق ذلك، فبعث الله لكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله على موسى فحملها.

وأما قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا مِّنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قفينا أتبعنا مأخوذ من الشيء يأتي في فقاه الشيء أي بعد نحو ذنبه من الذنب، ونظيره قوله ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

بالروح فإنه هو المتولى لإنزال الوحي إلى الأنبياء والمكلفون في ذلك يحيون في دينهم. الثالث: أن الغالب عليه الروحانية وكذلك سائر الملائكة غير أن روحانيته أتم وأكمل. الرابع: سمى جبريل عليه السلام روحاً لأنه ما ضمته أصلاب الفحول وأرحام الأمهات، وثانيها: المراد بروح القدس الإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وسمي به لأن الدين يحيا به ومصالح الدنيا تنتظم لأجله. وثالثها: أنه الاسم الذي كان يحيي به عليه السلام الموتى، عن ابن عباس وسعيد بن جبير، ورابعها: أنه الروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى فنسب روح عيسى عليه السلام إلى نفسه تعظيماً له وتشريفاً، كما يقال: بيت الله وناقة الله، عن الربيع، وعلى هذا المراد به الروح الذي يحيا به الإنسان.

واعلم أن إطلاق اسم الروح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى الاسم الأعظم مجاز لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان ومنافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أنه سمي كل واحد من هذه الثلاثة بالروح على سبيل التشبيه من حيث أن الروح كما أنه سبب لحياة الرجل فكذلك جبريل عليه السلام سبب لحياة القلوب بالعلوم، والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها والاسم الأعظم سبب لأن يتوسل به إلى تحصيل الأغراض إلا أن المشابهة بين مسمى الروح وبين جبريل أتم لوجوه أحدها: لأن جبريل عليه السلام مخلوق من هواء نورا، لطيف فكانت المشابهة أتم فكان إطلاق اسم الروح على جبريل أولى، وثانيها: أن هذه التسمية فيه أظهر منها فيما عداه، وثالثها أن قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني قويناه والمراد من هذه التقوية الإعانة وإسناد الإعانة إلى جبريل عليه السلام حقيقة وإسنادها إلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز فكان ذلك أولى، ورابعها: وهو أن اختصاص عيسى بجبريل عليهما السلام من أكد وجوه الاختصاص بحيث لم يكون لأحد من الأنبياء عليهم السلام مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادتها وإنما ولد عيسى عليه السلام من نفخة جبريل عليه السلام وهو الذي رباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حين صعد إلى السماء.

الأولى محفوظة أو محيية لبعض ما اندرس من الشريعة الأولى. والجواب: لم لا يجوز أن يكون المقصود من بعثة هؤلاء الرسل تنفيذ تلك الشريعة السالفة على الأمة أو نوع آخر من الألفاظ لا يعلمها إلا الله، وبالجملية فالقاضي ما أتى في هذه الدلالة إلا بإعادة الدعوى، فلما قال إنه لا يجوز بعث هؤلاء الرسل إلا لشريعة جديدة أو لإحياء شريعة اندرست وهل النزاع وقع إلا في هذا؟.

المسألة الثالثة: هؤلاء الرسل هم: يوشع، وشموئيل، وشمعون، وداود، وسليمان، وشعيا، وأرميا، وعزير، وحزقييل، وإلياس، واليسع، ويونس، وزكريا، ويحيى، وغيرهم.

أما قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: السبب في أن الله تعالى أجمل ذكر الرسول ثم فصل ذكر عيسى لأن من قبله من الرسل جاءوا بشريعة موسى فكانوا متبعين له، وليس كذلك عيسى لأن شرعه نسخ أكثر شرع موسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قيل عيسى بالسريانية أيشوع، ومريم بمعنى الخادم وقيل مريم بالعبرانية من النساء كزير من الرجال، وبه فسر قول رؤبة:

«قلت لوزير لم تصله مريم»

المسألة الثالثة: في البيئات وجوه. أحدها: المعجزات من إحياء الموتى ونحوها عن ابن عباس، وثانيها: أنها الإنجيل. وثالثها: وهو الأقوى أن الكل يدخل فيه، لأن المعجز يبين صحة نبوته كما أن الإنجيل يبين كيفية شريعته فلا يكون للتخصيص معنى.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ففيه مسائل.

- المسألة الأولى - قرء وأيدناه قرأ ابن كثير «القدس» بالتخفيف والباقون بالتثنية وهما لغتان مثل رعب ورعب.

- المسألة الثانية: اختلفوا في الروح على وجوه.

أحدها: أنه جبريل عليه السلام وإنما سمي بذلك لوجوه، الأول: أن المراد من الروح القدس الروح المقدسة كما يقال حاتم الجود ورجل صدق فوصف جبريل بذلك تشريفاً له وبياناً لعلو مرتبته عند الله تعالى. الثاني: سمي جبريل عليه السلام بذلك لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن

أما قوله تعالى ﴿فَقَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا نَقَلْتُمْ﴾^١ فللقائل أن يقول: هلا قيل وفريقاً قتلتم؟ وجوابه من وجهين: أحدهما أن يراد الحال الماضية لأن الأمر فطيع فأريد استحضاره في النفوس وتصويره في القلوب. الثاني: أن يراد فريقاً تقتلونهم بعد لأنكم حاولتم قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسممت له الشاة. وقال عليه السلام عند موته «ما زالت أكلة خيبر تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» والله أعلم.

الطبرسي ج ١ ص ٣٤٦ - ٣٤٩

الضحاك عن ابن عباس أن الروح الاسم الذي كان عيسى (ع) يحيي به الموتى. وقال الربيع: هو الروح الذي نفخ فيه فأضافه إلى نفسه تشريعاً كما قال: بيت الله، وناقاة الله. وأقوى الأقوال والوجه قول من قال هو جبرائيل (ع) وإذا قيل لم خص عيسى (ع) من بين الأنبياء بأنه مؤيد بجبرائيل، وكل نبي مؤيد به فالقول فيه إنه إنما خص بذلك لثبوت اختصاصه به من صغره إلى كبره، فكان يسير معه حيث سار. ولما همَّ اليهود بقتله لم يفارقه حتى صعد به إلى السماء، وكان تمثل لمريم عند حملها به وبشرها به ونفخ فيها. واختلف في معنى القدس فقيل هو الطهر وقيل هو البركة. عن السدي. وحكى قطرب أنهم يقولون قدس عليه الأنبياء أي برکوا. وعلى هذا فإنه كدعاء إبراهيم (ع) للحر: رب اجعل هذا بلداً آمناً، وكقول زكريا: واجعله رب رضياً. وقيل القدس هو الله تعالى. عن الحسن والربيع وابن زيد، وقالوا القدوس والقدس واحد وقوله ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ خطاب لليهود فكأنه قال يا معشر يهود بني إسرائيل! أكلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه أنفسكم تعظمتم وتجبرتم وانفتم من قبول قوله ﴿فَقَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَقَرِيقًا نَقَلْتُمْ﴾ أي فكذبتم منهم بعضاً ممن لم تقدروا على قتله مثل عيسى (ع) ومحمد ﷺ وقتلتم بعضاً مثل يحيى وزكريا وغيرهما. وظاهر الخطاب وإن خرج مخرج التقرير فهو بمعنى الخبر. وإنما أضاف هذا الفعل إليهم وإن لم يباشروه بنفوسهم لأنهم رضوا بفعل أسلافهم فأضيف الفعل إليهم وإن فعله أسلافهم.

أما قوله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فهو نهاية الذم لهم لأن اليهود من بني إسرائيل كانوا إذا أتاهم الرسول بخلاف ما يهونون كذبوه وإن تهيأ لهم قتله قتلوه. وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الرفعة في الدنيا وطلبهم لذاتها والثروس على عامتهم وأخذ أموالهم بغير حق وكانت الرسل تبطل عليهم ذلك فيكذبونهم لأجل ذلك ويوهمون عوامهم كونهم كاذبين ويحتجون في ذلك بالتحريف وسوء التأويل، ومنهم من كان يستكبر على الأنبياء استكبار إبليس على آدم.

... ثم ذكر سبحانه أنعامه عليهم بإرسال رسله إليهم وما قبلوه به من تكذيبهم فقال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي أعطينا التوراة وأنزلناه إليه ﴿وَوَقَّعْنَا مِنْهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْ بَعْدِ مَوْسَى﴾ أي أتبعنا من بعد موسى ﴿يَا رُسُلُ﴾ رسولا بعد رسول يتبع الآخر الأول في الدعاء إلى وحدانية الله تعالى والقيام بشرائعه على منهاج واحد، لأن كل من بعثه الله تعالى نبياً بعد موسى إلى زمن عيسى عليهما السلام فإنما بعثه بإقامة التوراة والعمل بما فيها والدعاء إلى ذلك ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي أعطينا المعجزات والدلالات على نبوته من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ونحو ذلك من الآيات الدالة على صدقه وصحة نبوته. وقال بعضهم أراد بالبينات الإنجيل وما فيه من الأحكام والآيات الفاصلة بين الحلال والحرام ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه وأعانه بجبريل (ع). عن قتادة والسدي والضحاك والربيع. واختلف في سبب تسمية جبرائيل عليه السلام روحاً على وجوه: أحدها: أنه يحيي بما يأتي به من البينات الأديان كما يحيي بالأرواح الأبدان.

وثانيها: أنه سمي بذلك لأن الغالب عليه الروحانية، وكذلك سائر الملائكة. وإنما خص بهذا الاسم تشريفاً له. وثالثها: أنه سمي به وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله تعالى إياه روحاً من عنده من غير ولادة والد ولده. وقال ابن زيد: المراد بروح القدس الإنجيل كما سمي الله تعالى القرآن روحاً فقال: وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا، فكذلك سمي الإنجيل روحاً. وروى

البيضاوي ج ١ ص ١٦٨ - ١٦٩

الأعظم الذي كان يحيي به الموتى وقرأ ابن كثير القدس بالاسكان في جميع القرآن ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ﴾ بما لا تحبه يقال هوى بالكسر هوى إذا أحب وهوى بالفتح هوى بالضم إذا سقط وسطت الهمزة بين الفاء وما تعلق به تويخاً لهم على تعقيبهم ذاك بهذا وتعجباً من شأنهم ويحتمل أن يكون استئنافاً والفاء للعطف على مقدر ﴿أَسْتَغْبِثُكُمْ﴾ عن الإيمان واتباع الرسل ﴿فَقَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ كموسى وعيسى عليهما السلام والفاء للسببية أو للتفصيل ﴿وَقَرِيقًا نَّفَّلْتُمْ﴾ كزكريا ويحيى عليهما السلام وإنما ذكر بلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية استحضاراً لها في النفوس فإن الأمر فطيع أو مراعاة للفواصل أو للدلالة على أنكم بعد فيه فإنكم تحومون حول قتل محمد ﷺ لولا أنني أعصمه منكم ولذلك سحرتموه وسمتم له الشاة.

الخازن ج ١ ص ٨٠ - ٨١

الْقُدُّسُ قيل أراد بالروح الذي نفخ فيه والقدس هو الله تعالى وأضاف روح عيسى إليه تشريفاً وتكريماً وتخصيصاً له كما تقول عبدالله وأمة الله وبيت الله وناقة الله وقال ابن عباس هو اسم الله الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى وقيل هو الإنجيل لأنه حياة القلوب سماه روحاً كما سمى القرآن روحاً وقيل هو جبريل ووصف بالقدس وهو الطهارة لأنه لم يقترب ذنباً قط وقيل القدس هو الله تعالى والروح جبريل كما تقول عبدالله، سمي جبريل روحاً للطافته لأنه روحاني خلق من النور وقيل سمي روحاً لمكانه من الوحي الذي هو سبب حياة القلوب وحمل روح القدس هنا على جبريل أولى لأنه تعالى قال وأيدناه أي قويناه بجبريل وذلك أنه أمر أن يكون مع عيسى ويسير معه حيث سار فلم يفارقه حتى صعد به إلى السماء فلما سمعت اليهود بذكر عيسى قالوا يا محمد لا مثل عيسى كما تزعم عملت ولا كما يقص علينا من أخبار

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ أي التوراة ﴿وَوَفَّقَيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ أي أرسلنا على أثره الرسل كقوله سبحانه وتعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون ٤٤] يقال قفاه إذا تبعه وقفاه به إذا أتبعه إياه من القفا نحو ذنبه من الذنب ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات الواضحات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص والأخبار بالمغيبات أو الإنجيل وعيسى بالعبرية أيشوع ومريم بمعنى الخادم وهو بالعربية من النساء كالزير من الرجال قال رؤبة «قلت لزير لم تصله مريمه» ووزنه مفعول إذا لم يثبت فاعيل ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ وقويناه وقرىء أيدناه بالمد ﴿بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ بالروح المقدسة كقولك حاتم الجود ورجل صدق وأراد به جبريل وقيل روح عيسى عليه الصلاة والسلام ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أو لكرامته على الله سبحانه وتعالى ولذلك أضافه إلى نفسه تعالى أو لأنه لم تضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث أو الإنجيل أو اسم الله

قوله عز وجل ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ أي أعطينا ﴿مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة جملة واحدة ﴿وَوَفَّقَيْنَا﴾ أي وأتبعنا من التقفية وهو أن يقفو أثر الآخر ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ بِالرُّسُلِ يعني رسولاً بعد رسول وكانت الرسل بعد موسى إلى زمن عيسى عليهم السلام متواترة يظهر بعضهم في أثر بعض والشرعية واحدة: قيل إن الرسل بعد موسى يوشع بن نون وأشمويل وداود وسليمان وأرميا وحزقيال وإلياس ويونس وزكرياء ويحيى وغيرهم وكانوا يحكمون بشرية موسى إلى أن بعث الله تعالى عيسى عليه السلام فجاءهم بشرية جديدة وغير بعض أحكام التوراة فذلك قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ أي الدلالات الواضحات وهي المعجزات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وقيل هي الإنجيل. واسم عيسى بالمرىانية أيشوع ومريم بمعنى الخادم وقيل هو اسم علم لها كزير من الرجال ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أي وقويناه ﴿بِرُوحِ

صلى الله عليهما وسلم ﴿وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني مثل زكريا ويحيى وسائر من قتلوه، وذلك أن اليهود كانوا إذا جاءهم رسول بما لا يهودون كذبوه فلن تهياً لهم قتلوه قتلوه وإنما كانوا كذلك لإرادتهم الدنيا وطلب الرياسة.

القرطبي ج ٢ ص ٢٣ - ٢٥

وجل. وكذا قال الحسن: القدس هو الله، وروحه جبريل. وروى أبو رزق عن الضحاك عن ابن عباس: «بِرُوحِ الْقُدُسِ» قال: هو الاسم الذي كان يحيى به عيسى الموتى؛ وقاله سعيد بن جبيرة وعبيد بن عمير، وهو اسم الله الأعظم. وقيل: المراد الإنجيل؛ سماء روحاً كما سمي الله القرآن روحاً في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. والأول أظهر، والله تعالى أعلم. والقدس: الطهارة. وقد تقدم.

قوله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ رَّبِّكُمْ قَالُوا سَاحِرٌ كَذِبٌ﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها؛ وحذفت الهاء لطول الاسم؛ أي بما لا تهواه. ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن إجابته احتقاراً للرسول، واستبعاداً للرسالة. وأصل الهوى الميل إلى الشيء؛ ويجمع أهواء، كما جاء في التنزيل، ولا يجمع أهوية؛ على أنهم قد قالوا في ندى أنديّة؛ قال الشاعر:

في ليلة من جمادى ذات أنديّة

لا يُبصر الكلب في ظلماتها الطُّبَا

قال الجوهري: وهو شاذ. وسُمِّيَ الْهَوَى هَوَى لأنه يهوى بصاحبه إلى النار؛ ولذلك لا يستعمل في الغالب إلا فيما ليس بحق وفيما لا خير فيه؛ وهذه الآية من ذلك. وقد يستعمل في الحق، ومنه قول عمر رضي الله عنه في أساري بدر: فَهَوَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ما قال أبو بكر ولم يَهْوَ ما قلت. وقالت عائشة للنبي ﷺ في صحيح الحديث: والله ما أرى ربك إلا يُسارع في هواك. أخرجهما مسلم.

قوله تعالى ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ ﴿فَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ فكان ممن كذبوه عيسى ومحمد عليهما السلام، ومن قتلوه يحيى وزكريا عليهما السلام.

الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقاً قال الله تعالى ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ﴾ يعني يا معشر اليهود ﴿رَسُولٌ مِّنَّا لَا نُهَوِّى﴾ تقبل ﴿أَنفُسُكُمْ أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ أي تعظمتم عن الإيمان به ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ﴾ يعني مثل عيسى ومحمد

قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا. والتقفية: الإتباع والإرداف، مأخوذ من إتباع القفا وهو مؤخر العنق. تقول أستقفيته إذا جئت من خلفه؛ ومنه سُمِّيت قافية الشعر؛ لأنها تتلو سائر الكلام. والقافية: القفا؛ ومنه الحديث: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ عَلَى قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ». والقَفْيُ والقَفَاوة: ما يدخر من اللبن وغيره لمن تريد إكرامه. وقفوت الرجل: قذفه بفجور. وفلان قفوتي أي تهمتي. وقفوتي أي خيرتي. قال ابن دريد كأنه من الأضداد. قال العلماء: وهذه الآية مثل قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤].

وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر/ بلزومها إلى عيسى عليه السلام. ويقال: رُسُل ورُسُل لغتان؛ الأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم؛ وسواء كان مضافاً أو غير مضاف. وكان أبو عمرو يخفف إذا أضاف إلى حرفين، ويثقل إذا أضاف إلى حرف واحد.

قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ أي الحجج والدلالات؛ وهي التي ذكرها الله في «آل عمران» و«المائدة»؛ قاله ابن عباس. ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أي قويناه. وقرأ مجاهد وابن مُحَيِّص «أيدناه» بالمد، وهما لغتان. ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ روى أبو مالك وأبو صالح عن ابن عباس ومَعْمَر عن قتادة قالوا: جبريل عليه السلام. وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا

ورُوحُ الْقُدُسِ ليس به خفاء

قال النحاس: وسُمِّيَ جبريل روحاً وأضيف إلى القدس؛ لأنه كان بتكوين الله عز وجل له روحاً من غير ولادة والد ولده؛ وكذلك سُمِّيَ عيسى روحاً لهذا. وروى غالب بن عبد الله عن مجاهد قال: القدس هو الله عز

أبو حيان الأندلسي ج ١ ص ٢٩٨ - ٣٠١

باتباعها والبقاء على التزامها. وقرأ الجمهور بالرسول بضم السين. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر بتسكينها وقد تقدم أنهما لغتان ووافقهما أبو عمر وإن أضيف إلى ضمير جمع نحو رسلهم ورسلكم ورسلنا استثقل توالي أربع متحركات فسكن تخفيفاً ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أضاف عيسى إلى أمه رداً على اليهود فيما أضافوه إليه ﴿الْبَيْتَاتِ﴾ وهي الحجج الواضحة الدالة على نبوته فيشمل كل معجزة أوتيتها عيسى عليه السلام وهذا هو الظاهر. وقيل الإنجيل. وقيل الحجج التي أقامها الله على اليهود. وقيل إبراء الأكمة والأبرص والإخبار بالمغيبات وإحياء الموتى وهم أربعة سام بن نوح والعازر وابن العجوز وبنو العشار ومن الطير الخفاش فليل لم يكن من قبل عيسى بل هو صورته والله نفخ فيه الروح. وقيل كان قبله فوضع عيسى على مثاله قالوا وإنما اختص هذا النوع من الطير لأنه ليس شيء من الطير أشد خلقاً منه لأنه لحم كله وأجمل الله ذكر الرسل وفصل ذكر عيسى لأن من قبله كانوا متبعين شريعة موسى وأما عيسى فنسخ شرعه كثيراً من شرع موسى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قرأه الجمهور على وزن فعلناه. وقرأ مجاهد والأعرج وحמיד وابن محيصن وحسين عن أبي عمرو أيديناه على وزن أفعلناه وتقدم الكلام على ذلك في المفردات وفرق بعضهم بينهما فقال إما المد فمعناه القوة وأما القصر فالتأييد والنصر والأصح أنهما بمعنى قويناه وكلاهما من الأيد وهو القوة ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قراءة الجمهور بضم القاف والدال. وقرأ مجاهد وابن كثير بسكون الدال حيث وقع وفيه لغة فتحها. وقرأ أبو حيوة القدوس بواو. والروح هنا اسم الله الأعظم الذي كان به عيسى عليه السلام يحيي الموتى قاله ابن عباس أو الإنجيل كما سمي الله القرآن روحاً قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] قاله ابن زيد أو الروح التي نفخها تعالى في عيسى عليه السلام أو جبريل عليه السلام قاله قتادة والسدي والضحاك والربيع ونسب هذا القول لابن عباس قاله ابن عطية وهذا أصح الأقوال وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت أهج قريشاً وروح

﴿وَلَقَدْ أَتَيْنَا مُوسَى الْكَتَبَ﴾ تقدم الكلام في هذه اللام ويحتمل أن تكون للتأكيد وأن تكون جواب قسم ومناسبة هذا لما قبله أن إتياء موسى الكتاب هو نعمة لهم إذ فيه أحكامهم وشرائعهم ثم قابلوا تلك النعمة بالكفران وذلك جرى على ما سبق من عادتهم إذ قد أمروا بأشياء ونهوا عن أشياء فخالفوا أمر الله ونهيه فناسب ذكر هذه الآية ما قبلها والإتياء الإعطاء فيحتمل أن يراد به الإنزال لأنه أنزله عليه جملة واحدة ويحتمل أن يراد آتياء أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك مما فيه فيكون على حذف مضاف آتياء موسى علم الكتاب أو فهم الكتاب وموسى هو نبي الله موسى بن عمران صلى الله على نبينا وعليه وسلم. والكتاب هنا التوراة في قول الجمهور والألف واللام فيه للعهد إذ قرن بموسى وانتصابه على أنه مفعول ثان لآتياء. وقد تقدم أنه مفعول أول عند السهلي وموسى هو الثاني عنده ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ هذه الياء أصلها الواو إلا إنها متى وقعت رابعة أبدلت ياء كما تقول غزيت من الغزو والتضعيف الذي في قفينا ليس للتعدي إذ لو كان للتعدي لكان يتعدى إلى اثنين لأن قفوت يتعدى إلى واحد تقول قفوت زيدا أي تبعته فلو جاء على التعدي لكان وقفينا من بعده الرسل وكونه لم يجيء كذلك في القرآن يبعد أن تكون الباء زائدة في المفعول الأول ويكون المفعول الثاني جاء محذوفاً ألا ترى إلى قوله ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم ولكنه ضمن معنى جئنا كأنه قال وجئنا من بعده بالرسول يقفو بعضهم بعضاً ومن في ﴿مِّنْ بَعْدِهِ﴾ لا ابتداء الغاية وهو ظاهر لأنه يحكى أن موسى لم يمت حتى نبى يوشع ﴿يَا رُسُلُ﴾ أرسل الله على أثر موسى رسلاً وهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيال والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى وغيرهم والباء في بالرسول متعلقة بقفينا والألف واللام يحتمل أن تكون للجنس الخاص ويحتمل أن تكون للعهد لما استفيد من القرآن وغيره إن هؤلاء بعثوا من بعده ويحتمل أن تكون التقفية معنوية وهي كونهم يتبعونه في العمل بالتوراة وأحكامها ويأمرون

القدس معك ومرة قال له وجبريل معك انتهى كلامه قالوا ويقوى ذلك قوله تعالى إذ أيدتك بروح القدس . وقال حسان:

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس له كفاء

وتسمية جبريل بذلك لأن الغالب على جسمه الروحانية وكذلك سائر الملائكة أو لأنه يحيا به الدين كما يحيا البدن بالروح فإنه هو المتولي لإنزال الوحي أو لتكوينه روحاً من غير ولادة وتأيد الله عيسى بجبريل عليهما السلام لإظهار حجته وأمر دينه أو لدفع اليهود عنه إذ أرادوا قتله أو في جميع أحواله واختار الزمخشري أن معناه بالروح المقدسة قال كما يقال حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال وروح منه فوصفه بالاختصاص والتقريب للكرامة انتهى كلامه وقد تقدّم معنى القدس إنه الطهارة أو البركة .

وقال مجاهد والربيع القدس من أسماء الله تعالى كالقدّوس قالوا واطلاق الروح على جبريل وعلى الإنجيل وعلى اسم الله الأعظم مجاز لأن الروح هو الريح المتردد في مخارق الإنسان في منافذه ومعلوم أن هذه الثلاثة ما كانت كذلك إلا أن كلاً منها أطلق الروح عليه على سبيل التشبيه من حيث أن الروح سبب للحياة فجبريل هو سبب لحياة القلوب بالعلوم والإنجيل سبب لظهور الشرائع وحياتها والاسم الأعظم سبب لأن يتوصل به إلى تحصيل الأغراض والمشابهة بين جبريل والروح أتم ولأن هذه التسمية فيه أظهر ولأن المراد من أيدناه قوّيناه وأعناه واسنادها إلى جبريل حقيقة وإلى الإنجيل والاسم الأعظم مجاز ولأن اختصاص عيسى بجبريل من أكد وجوه الاختصاص إذا لم يكن لأحد من الأنبياء مثل ذلك لأنه هو الذي بشر مريم بولادته وتولد عيسى بنفخه ورباه في جميع الأحوال وكان يسير معه حيث سار وكان معه حيث صعد إلى السماء ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ ﴾ الهمزة أصلها للاستفهام وهي هنا للتوبيخ والتفريع والفاء لعطف الجملة على ما قبلها واعتنى بحرف الاستفهام فقدم والأصل فأكلما ويحتمل أن لا يقدر قبلها محذوف بل يكون العطف على الجمل التي قبلها كأنه قال ولقد آتينا يا بني إسرائيل آتيناكم ما آتيناكم فكلما جاءكم رسول

ويحتمل أن يقدر قبلها محذوف أي فعلتم ما فعلتم من تكذيب فريق وقتل فريق وقد تقدم الكلام على كلما في قوله تعالى ﴿ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا ﴾ [البقرة: ٢٥] فأغنى عن إعادته والناصب لها قوله استكبرتم والخطاب في جاءكم يجوز أن يكون عاماً لجميع بني إسرائيل إذ كانوا على طبع واحد من سوء الأخلاق وتكذيب الرسل وكثرة سؤالهم لأنبيائهم والشك والارتياب فيما أتوهم به أو يكون عائداً إلى أسلافهم الذين فعلوا ذلك وسياق الآيات يدل عليه أو إلى من بحضرة رسول الله ﷺ من أبنائهم لأنهم راضون بفعلهم والراضي كالفاعل وقد كذبوا رسول الله ﷺ فيما جاء به وسقوه السم ليقتلوه وسحروه . وبما متعلق بقوله جاءكم وما موصولة والعائد محذوف أي لا تهواه وأكثر استعمال الهوى فيما ليس بحق ومنه هذه الآية وأسند الهوى إلى النفس ولم يسند إلى ضمير المخاطب فكان يكون بما لا تهوون اشعاراً بأن النفس يسند إليها غالباً الأفعال السيئة ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] ، ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ ﴾ [المائدة: ٣٠] ﴿ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ [يوسف: ١٨] . استكبرتم استفعل هنا بمعنى تفعل وهو أحد معاني استفعل وفسر رسول الله ﷺ الكبر بأنه سفه الحق وغمط الناس والمعنى قيل استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول أو استبعاداً للرسالة وفي ذلك ما كانوا عليه من طبيعة الاستكبار الذي هو محل النقائص ونتيجة الإعجاب وهو نتيجة الجهل بالنفس المقارن للجهل بالخالق وإن ذلك كان يتكرر منهم بتكرر مجيء الرسل إليهم وهو كما ذكرنا استكبار بمعنى التكبر وهو مشعر بالتكلف والتفعل لذلك لا أنهم يصيرون بذلك كبراء عظماء بل يتفعلون ذلك ولا يبلغون حقيقته لأن الكبرياء إنما هي لله تعالى فمحال أن يتصف بها غيره حقيقة ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ ظاهره أنه معطوف على قوله استكبرتم فنشأ عن الاستكبار مبادرة فريق من الرسل بالتكذيب فقط حيث لا يقدرون على قتله وفريق بالقتل إذا قدروا على قتله وتهياً لهم ذلك ويضمن أن من قتلوه فقد كذبوه واستغنى عن التصريح بتكذيبه للعلم بذلك فذكر أتيح أفعالهم معه وهو قتله وأجاز أبو القاسم الراغب أن يكون ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ معطوفاً على قوله وأيدناه ويكون قوله

لأنهم يرومون قتل رسول الله ﷺ ولذلك سحروه وسمموه وقال ﷺ عند موته «ما زالت أكلة خبير تعادوني فهذا أوان انقطاع أبهري» وكان في ذلك على هذا الوجه تنبيه على أن عادتهم قتل أنبيائهم لأن هذا النبي المكتوب عندهم في التوراة والإنجيل وقد أمروا بالإيمان به والنصر له يرومون قتله فكيف من لم يكن فيه تقدم عهد من الله فقتله عندهم أولى قال ابن عطية عن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي ثم تقوم سوقهم آخر النهار . وروي سبعين نبياً ثم تقوم سوق نقلهم آخر النهار .

ابن كثير ج ١ ص ١٢٢ - ١٢٣

بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالإلزام بأحكام التوراة التي قد تصرفوا في مخالفتها، فهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى ﴿ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ .

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود في تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسماعيل بن خالد والسدي والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة مع قوله تعالى ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤] ما قال البخاري . قال ابن أبي الزناد . . . عن عائشة أن رسول الله ﷺ وضع لحسان بن ثابت منبراً في المسجد فكان ينافح عن رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ «اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك» فهذا من البخاري تعليقاً وقد رواه أبو داود في سننه . . . عن عائشة به قال الترمذي حسن صحيح وهو حديث أبي الزناد وفي الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة . . . عن أبي هريرة أن عمر ابن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبي هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله ﷺ يقول «أجب عني اللهم أيده بروح القدس» فقال اللهم نعم وفي بعض الروايات أن رسول الله ﷺ قال لحسان «اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك» وفي شعر حسان قوله :

أفكلما مع ما بعده فصلاً بينهما على سبيل الإنكار والأظهر في ترتيب الكلام الأول وهذا أيضاً محتمل وآخر العامل وقدم المفعول ليتواخى رؤوس الآي وثم محذوف تقديره ففريقاً منهم كذبتم وبدأ بالكذب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ولأنه المشترك بين الفريقين المكذب والمقتول ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ وأتى بفعل القتل مضارعاً إما لكونه حكيت به الحال الماضية إن كانت أريدت فاستحضرت في النفوس وصور حتى كأنه ملتبس به مشروع فيه ولما فيه من مناسبة رؤوس الآي التي هي فواصل وأما لكونه مستقبلاً

ينعت تبارك وتعالى بني إسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم إنما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى أنه أتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها، وأرسل الرسل والأنبياء من بعده الذي يحكمون بشريعته كما قال تعالى ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ ﴾ [المائدة: ٤٤] ولهذا قال تعالى ﴿ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ قال السدي عن أبي مالك : أتبعنا . وقال غيره . أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا تَتْرًا ﴾ [المؤمنون: ٤٤] حتى ختم أنبياء بني إسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة في بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهي المعجزات . قال ابن عباس من إحياء الموتى، وخلقه من الطين كهية الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله، وإبراء الأسقام، وإخباره بالغيوب، وتأنيده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - ما يدلهم على صدقه فيما جاءهم به، فاشتد تكذيب بني إسرائيل له وحسداهم وعنادهم لمخالفة التوراة في البعض كما قال تعالى إخباراً عن عيسى ﴿ وَلَا جِدَّ لَكُمْ بِهِ عِزٌّ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ وَبِحُكْمِكُمْ يَأْتِيهِمْ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [آل عمران: ٥٠] فكانت بنو إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقاً يكذبونه، وفريقاً يقتلونهم، وما ذاك إلا لأنهم يأتونهم

وجبريل رسول الله فينا

وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن اسحق . . . عن شهر بن حوشب الأشعري أن نفرأ من اليهود سألوا رسول الله ﷺ قالوا أخبرنا عن الروح فقال «أنشدكم بالله وبأيامه عند بني إسرائيل هل تعلمون أنه جبرائيل وهو الذي يأتيني؟» قالوا نعم: وفي صحيح ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال «إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا في الطلب». أقوال أخر - قال ابن أبي حاتم . . . عن ابن عباس ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: هو الاسم الأعظم الذي كان عيسى يحيي به الموتى. وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبي حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبي عن عبيد بن عمير أيضاً قال: وهو الاسم الأعظم. وقال ابن أبي نجيج: الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس. القدس هو الرب تبارك وتعالى. وهو قول كعب وحكى القرطبي عن مجاهد والحسن البصري أنهما قالا. القدس هو الله تعالى وروحه جبريل. فعلى هذا يكون القول الأول وقال السدي: القدس البركة. وقال العوفي عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ قال: أيد الله عيسى بالإنجيل روحاً كما جعل القرآن روحاً كلاهما روح الله كما قال تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات في ذلك بالصواب

قول من قال الروح في هذا الموضع جبرائيل فإن الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ يِعْمَقِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ لَدَيْكَ إِذْ أَنبَأْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] الآية فذكر أنه أيد به فلو كان الروح الذي أيد به هو الإنجيل لكان قوله ﴿إِذْ أَنبَأْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ . . . وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: ١١٠] تكرير قول لا معنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لا يفيدهم به (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ما تقدم من أول السياق والله الحمد، وقال الزمخشري ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] فوصفه بالاختصاص والتقريب تكربة وقيل لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما قال في القرآن ﴿رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقيل باسم الله الأعظم الذي كان يحيي الموتى بذكره فتضمن كلامه قولاً آخو وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة وقال الزمخشري في قوله تعالى ﴿فَفَرِّقْنَاهُ فَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْنَلُونَ﴾ إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم في المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبي ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام في مرض موته «ما زالت أكلة خبير تعاودني فهذا أوان انقطاع أبهري» (قلت) وهذا الحديث في صحيح البخاري وغيره.

الجلالان ص ١٧

﴿أَنفُسُكُمْ﴾ من الحق ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ تكبرتم عن اتباعه جواب كلما وهو محل الاستفهام، والمراد به التوبيخ ﴿فَفَرِّقْنَاهُ مِنْهُمْ﴾ كعيسى ﴿وَفَرِيقًا تَقْنَلُونَ﴾ المضارع لحكاية الحال الماضية: أي قتلتم كزكريا ويحيى.

﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ المعجزات كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قويناه ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ من إضافة الموصوف إلى الصفة أي الروح المقدسة جبريل لطهارته يسير معه حيث سار فلم تستقيموا ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ﴾ تحب

الشوكاني ج ١ ص ١١٠ - ١١٢

الفريق المقتولين يحيى وزكريا . . .

وقد أخرج ابن عساكر عن ابن عباس في قوله ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ يعني به التوراة جملة واحدة مفصلة محكمة ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يعني رسولا يدعى اشمويل من بابل، ورسولا يدعى منشايل، ورسولا يدعى شعيا، ورسولا يدعى حزقيل، ورسولا يدعى أرميا وهو الخضر، ورسولا يدعى داود وهو أبو سليمان ورسولا يدعى المسيح عيسى ابن مريم، فهؤلاء الرسل ابتهتهم الله وانتخبهم من الأمة بعد موسى فأخذنا عليهم ميثاقاً غليظاً أن يؤدوا إلى أمتهم صفة محمد ﷺ وصفة أمته. وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ قال: هي الآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهية الطير، وإبراء الأسقام. والخبر بكثير من الغيوب، وما ورد عليهم من التوراة والإنجيل الذي أحدث الله إليه. وأخرج ابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ قال: قويناه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عنه قال: روح من القدس الاسم الذي كان عيسى يحيى به الموتى. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: القدس الله تعالى. وأخرج عن الربيع بن أنس مثله. وأخرج عن ابن عباس قال: القدس الطهر. وأخرج عن السدي قال: القدس البركة. وأخرج عن إسماعيل بن أبي خالد أن روح القدس جبريل. وأخرج عن ابن مسعود مثله وأخرج أبو الشيخ في العظمة عن جابر عن النبي ﷺ قال: روح القدس جبريل. وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال: «اللهم أيد حسان بروح القدس» وأخرج ابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير في قوله ﴿فَفَرِّقَا﴾ قال: طائفة.

الألوسي ج ١ ص ٣١٦ - ٣٢٥

مفعول أول، والمراد بإتيانها له إنزالها عليه. وقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن التوراة نزلت جملة واحدة فأمر الله تعالى موسى عليه السلام بحملها فلم يطق فبعث بكل حرف منها ملكاً فلم يطيقوا حملها فخففها الله

الكتاب: التوراة، والتقفية: الإتيان والإرداف، مأخوذة من القفا وهو مؤخر العنق، تقول: استقفيته: إذا جئت من خلفه، ومنه سميت قافية الشعر لأنها تتلو سائر الكلام. والمراد أن الله سبحانه أرسل على أثره رسلاً جعلهم تابعين له وهم أنبياء بني إسرائيل المبعوثون من بعده. و﴿أَلْبَيْنَتِ﴾ الأدلة التي ذكرها الله في آل عمران والمائدة. والتأييد: التقوية. وقرأ مجاهد وابن محيصن (وَأَيَّدْنَاهُ) بالمدّ وهما لغتان. وروح القدس من إضافة الموصوف إلى الصفة: أي الروح المقدسة. والقدس: الطهارة، والمقدس: المطهر - وقيل هو جبريل أيد الله به عيسى، ومنه قول حسان:

وجبريل أمين الله فينا

وروح القدس ليس به خفاء

قال النحاس: وسمى جبريل روحاً وأضيف إلى القدس لأنه كان بتكوين الله له من غير ولادة - وقيل القدس هو الله عز وجل، وروحه جبريل وقيل المراد بروح القدس: الاسم الذي كان عيسى يحيى به الموتى؛ وقيل المراد به الإنجيل؛ وقيل المراد به الروح المنفوخ فيه، أيده الله به لما فيه من القوة. وقوله ﴿يَمَّا لَا تَهْوِي أُنْفُسُكُمُ﴾ أي بما لا يوافقها ويلائمها، وأصل الهوى: الميل إلى الشيء. قال الجوهري: وسمى الهوى لأنه يهوي بصاحبه إلى النار. ويخبرهم الله سبحانه بهذا الكلام المعنون بهمة التوبيخ فقال ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يُمْأَلًا﴾ يوافق ما تهوونه استكبرتم عن إجابته احتقاراً للرسول واستبعاداً للرسالة، والفاء في قوله ﴿أَفَكُلَّمَا﴾ للعطف على مقدر أي آتيناكم يا بني إسرائيل من الأنبياء ما آتيناكم ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ وفريقاً منصوب بالفعل الذي بعده والفاء للتفصيل، ومن الفريق المكذبين عيسى ومحمد، ومن

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ شروع في بيان بعض آخر من جنائياتهم وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به، و- الإتياء - الإعطاء، و﴿الْكِتَابَ﴾ التوراة في قول الجمهور وهو مفعول ثان - لآتيناه - وعند السهيلي

عندي أن التسمية وقعت بالعبري لا بالعربي بل يكاد يتعين ذلك كما لا يخفى على المنصف؛ وعن الأزهرى المريم المرأة التي لا تحب مجالسة الرجال وكأنه قيل لها ذلك تشبيهاً لها بمريم البتول ووزنه عربياً مفعول لا فاعلاً لأنه لم يثبت في الأبنية على المشهور، وأثبت الصاغانى في الذيل، وقال: إنه مما فات سيبويه، ومنه عثير للغبار، وضهيد - بالمهمل والمعجمة - للصلب واسم موضع، ومدين على القول بأصالة ميمه، وضهيد بالقصر وهي المرأة التي لا تحيض أو لا ثدي لها من المضاهاة كأنها أطلق عليها ذلك لمشابهتها الرجل؛ وابن جني يقول: إن ضهيد وعثير مصنوعان فلا دلالة فيهما على إثبات فاعل، وذكر السالكيوتى أن عثير بمعنى الغبار - بكسر العين - وإذا كان مفعلاً فهو أيضاً على خلاف القياس إذ القياس إعلاله بنقل حركة الياء إلى الراء وقلبها ألفاً نحو مباع لكنه شذ كما شذ مدين، ومزيد، وإذا كان من رام يريم إذا فارق وبرح فالقياس كسرياته أيضاً ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ أي قويناه بجبريل عليه السلام وإطلاق (روح القدس) عليه شائع فقد قال سبحانه: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [التحل: ١٠٢] وقال ﷺ لحسان رضي الله تعالى عنه «اهجهم وروح القدس معك» ومرة قال له: «وجبريل معك» وقال حسان:

وجبريل وروح القدس فينا

روح القدس ليس له كفاء
﴿الْقُدُسِ﴾ الطهارة والبركة، أو - التقديس - ومعناه التطهير. والإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة للمبالغة في الاختصاص، وهي معنوية بمعنى - اللام - فإذا أضيف العلم كذلك يكون مؤلاً بواحد من المسمين به. وقال مجاهد والربيع: ﴿الْقُدُسِ﴾ من أسماء الله تعالى - كالقدوس - وزعم بعضهم أن إطلاق الروح على جبريل مجاز لأنه الريح المتردد في مخارق الإنسان - ومعلوم أن جبريل ليس كذلك - لكنه أطلق عليه على سبيل التشبيه من حيث إن - الروح - سبب الحياة الجسمانية، وجبريل سبب الحياة المعنوية بالعلوم، وكأن هذا الزعم نشأ من كثافة روح الزاعم وعدم تغذيتها بشيء من العلوم، وخص عيسى عليه السلام بذكر التأييد بـ (روح القدس) لأنه تعالى خصه

تعالى لموسى عليه السلام فحملها، وقيل: يحتمل أن يكون - آتيناً - إلخ أفهمناه ما انطوى عليه من الحدود والأحكام والأنباء والقصص وغير ذلك مما فيه، والكلام على حذف مضاف أي علم - الكتاب - أو فهمه وليس بالظاهر ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال - قفاه - إذا اتبعه - وقفاه - به إذا أتبعه إياه من - القفا - وأصل هذه الياء واو لأنها متى وقعت رابعة أبدلت كما تقول عريت من العرو أي أرسلناهم على أثره كقوله تعالى ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا﴾ [المؤمنون: ٤٤] وكانوا إلى زمن عيسى عليه السلام أربعة آلاف، وقيل: سبعين ألفاً وكلهم على شريعته عليه السلام منهم يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيا وأرميا وعزير وحزقيال والياس واليسع ويونس وزكريا ويحيى. وغيرهم عليهم الصلاة والسلام. وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر - بالرسل - بتشكين السين، وهو لغة أهل الحجاز والتحريك لغة تميم ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْنَتِ﴾ أي الحجج الواضحة الدالة على نبوته فتشمل كل معجزة - أوتياها - عليه السلام وهو الظاهر، وقيل: الإنجيل، وعيسى أصله بالعبرانية أي شوع بهزمة مماله بين بين، أو مكسورة - ومعناه السيد - وقيل: المبارك فعرب والنسبة إليه عيسى وعيسوي وجمعه عيسون بفتح السين - وقد تضم - وأفرده عن الرسل عليه السلام لتمييزه عنهم لكونه من أولي العزم وصاحب كتاب، وقيل: لأنه ليس متبعاً لشريعة موسى عليه السلام حيث نسخ كثيراً من شريعته. وأضافه إلى أمه رداً على اليهود إذ زعموا أن له أباً، ومريم بالعبرية الخادم وسميت أم عيسى به لأن أمها نذرتها لخدمة بيت المقدس، وقيل: العابدة. وبالعربية من النساء من تحب محادثة الرجال فهي كالزير من الرجال، وهو الذي يحب محادثة النساء، قيل: ولا يناسب مريم أن يكون عربياً لأنها كانت برية عن محبة محادثة الرجال اللهم إلا أن يقال سميت بذلك تمليحاً كما يسمى الأسود كافوراً. وقال بعض المحققين: لا مانع من تسميتها بذلك بناء على أن شأن من تخدم من النساء ذلك، وفي القاموس هي التي تحب محادثة الرجال ولا تفجر - وعليه لا بأس بالتسمية كما ذكره المولى عصام - والأولى

من تأخير حيث إن محلها بعد العاطف خلاف مشهور بين أهل العربية، وبعض المحققين يحملها في بعض المواضع - على هذا - وفي البعض - على ذلك - بحسب مقتضى المقام ومساق الكلام - والقلب يميل إليه - قيل: ولا يلزم بطلان صدارة - الهمزة - إذ لم يتقدمها شيء من الكلام الذي دخلت هي عليه، وتعلق معناها بمضمونه غاية الأمر أنها توسطت بين كلامين لإفادة إنكار جمع الثاني مع الأول، أو لوقوعه بعده متراحياً أو غير متراح، وهذا مراد من قال: إنها مقحمة مزيدة لتقرير معنى الإنكار أو التقرير، أي مقحمة على المعطوف مزيدة بعد اعتبار عطفه، ولم يرد أنها صلة (تهوى) من - هوى - بالكسر إذا أحب، ومصدره - هوى - بالقصر، وأما - هوى - بالفتح فبمعنى سقط، ومصدره - هوى - بالضم وأصله فاعول فاعل. وقال المرزوقي: - هوى - انقض انقضا من النجم والظاهر، والأصمعي يقول: هوت العقاب إذا انقضت لغير الصيد. وأهوت إذا انقضت للصيد، وحكى بعضهم أنه يقال: هوى يهوى هويًا - بفتح الهاء - إذا كان القصد من أعلى إلى أسفل، وهو يهوى هويًا بالضم إذا كان من أسفل إلى أعلى - وما ذكرناه أولاً هو المشهور - والهوى - يكون في الحق وغيره، وإذا أضيف إلى النفس فالمراد به الثاني في الأكثر، ومنه هذه الآية. وعبر عن المحبة بذلك للإيدان بأن مدار الرد والقبول عندهم هو المخالفة لأهواء أنفسهم والموافقة لها لا شيء آخر، ومتعلق ﴿أَسْتَكَبَرْتُمْ﴾ محذوف أي عن الإيمان بما جاء به مثلاً، واستفعل هنا بمعنى تفعل. ﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْنَلُونَ﴾ الظاهر أنه عطف على ﴿أَسْتَكَبَرْتُمْ﴾ والفاء للسببية إن كان التكذيب والقتل مرتبين على الاستكبار، وللتفصيل إن كانا نوعين منه، وجوز الراجح أن يكون عطفاً على ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ ويكون ﴿أَفْكَلَّمَا﴾ مع ما بعده فصلاً بينهما على سبيل الإنكار، وقدم (فريقاً) في الموضعين للاهتمام وتشويق السامع إلى ما فعلوا بهم لا للقصر، وثم محذوف أي (فريقاً) منهم. وبدأ بالتكذيب لأنه أول ما يفعلونه من الشر ولأنه المشترك بين المكذب والمقتول، ونسب القتل إليهم مع أن القاتل آباؤهم لرصاهم به ولحقوق

به من وقت صباه إلى حال كبره، كما قال تعالى ﴿إِذَا أَيْدَتْكَ أَفْئِدَةُ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠] ولأنه حفظه حتى لم يدن منه الشيطان، ولأنه بالغ اثنا عشر ألف يهودي لقتله، فدخل عيسى بيتاً فرفعه عليه السلام مكاناً علياً. وقيل: - الروح - هنا اسم الله تعالى الأعظم الذي كان يحيي به الموتى - وروي ذلك كالأول عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - وقال ابن زيد: الإنجيل - كما جاء في شأن القرآن - قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَزْهَبْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وذلك لأنه سبب للحياة الأبدية والتحلي بالعلوم والمعارف التي هي حياة القلوب وانتظام المعاش الذي هو سبب الحياة الدنيوية، وقيل: روح عيسى عليه السلام نفسه، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان، أو لكرامته عليه تعالى - ولذلك أضافها إلى نفسه - أو لأنه لم يضمه الأصلاب ولا أرحام الطوامث، بل حصل من نفخ جبريل عليه السلام في درع أمه فدخلت النفخة في جوفها. وقرأ ابن كثير ﴿الْقُدُسِ﴾ - بسكون الدال - حيث وقع، وأبو حيوة (القدوس) بواو.

﴿أَفْكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكَبَرْتُمْ﴾ مسبب عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا﴾ بحيث لا يتم الكلام السابق بدونه كالشرط بدون الجزاء، وقد أدخلت الهمزة - بين السبب والمسبب للتوبيخ على تعقيبهم ذلك بهذا، والتعجب من شأنهم على معنى ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وأنعمنا عليكم بكذا وكذا لشكروا بالتلقي بالقبول - فعكستم بأن كذبتم - ويحتمل أن يكون ابتداء كلام - والفاء - للعطف على مقدر كأنه قيل: أفعلتم ما فعلتم - فكلما جاءكم - ثم المقدر يجوز أن يكون عبارته كما وقع بعد - الفاء - فيكون العطف للتفسير، وأن يكون غيره مثل (أكفرتم النعمة واتبعتم الهوى) فيكون لحقيقة التعقيب، وضعف هذا الاحتمال بما ذكره الرضي أنه لو كان كذلك لجاز وقوع - الهمزة - في الكلام قبل أن يتقدمه ما كان معطوفاً عليه - ولم تجيء إلا مبنية على كلام متقدم، وفي كون الهمزة الداخلة على جملة معطوفة - بالواو، أو الفاء، أو ثم - في محلها الأصلي، أو مقدمة

من القتل مباشرة الأسباب الموجبة لزوال الحياة سواء ترتب عليه أولاً، وقيل: لا حاجة إلى التعميم لأنه ﷺ قتل حقيقة بالسم الذي ناولوه على ما وقع في الصحيح بلفظ «وهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من ذلك السم» وفيه أنه لم يتحقق منهم القتل زمان نزول الآية بل مباشرة الأسباب فلا بد من التعميم.

مذمته بهم، وعبر بالمضارع حكاية للحال الماضية واستحضاراً لصورتها لفظاتها واستعظامها، أو مشكلة للأفعال المضارعة الواقعة في الفواصل فيما قبل، أو للدلالة على أنكم الآن فيه فإنكم حول قتل محمد ﷺ ولولا أنني أعصمه لقتلتموه ولذلك سحرتموه وسممتم له الشاة. فالمضارع للحال ولا ينافيه قتل البعض. والمراد

القاسمي ج ٢ ص ١٨٥ - ١٨٦

عن غيره ممن خلق. قال تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] ولذا كان له، عليه الصلاة والسلام، بالروح مزيد اختصاص لكثرة ما أحيى من الموتى. وعن الحسن البصري: القدس هو الله. وروحه جبريل. والإضافة للتشريف. والمعنى: أعتاه بجبريل. قال الرازي: والذي يدل على أن روح القدس جبريل قوله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢] والله أعلم.

وتخصيصه من بين الرسل عليهم السلام بالذكر ووصفه بما ذكر من إيتاء البينات والتأييد بروح القدس لحسم مادة اعتقادهم الباطل في حقه عليه السلام، ببيان حقيقة وإظهار نهاية قبح ما فعلوا به عليه السلام ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمْ﴾ من الحق، أي لا تحبه. ومن هوي كفرح، إذا أحب ﴿أَسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الاتباع له والإيمان بما جاء به من عند الله تعالى ﴿فَقَرِيفًا﴾ منهم ﴿كَذَّبْتُمْ﴾ إذ لم تنل أيديكم مضرتهم ﴿وَفَرِيفًا﴾ آخر منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ غير مكتفين بتكذيبهم.

محمد عبده ج ١ ص ٣٧٦ - ٣٧٨

خص بالذكر المسيح عليه السلام فقال ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَتِّينَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ فأما البينات فهي ما يتبين به الحق من الحجج القيمة والآيات الباهرة. وقال الأستاذ الإمام: المراد بها ما دعا إليه من أحكام التوراة. وأما روح القدس فهو روح الوحي الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم؛ وهو هو المراد بقوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]. ويطلق عليه روح القدس لأن التعليم الذي يكون به مقدس أو لأنه يقدس النفوس كما

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ شروع في بيان بعض آخر من جنایاتهم. وتصديره بالجملة القسمية لإظهار كمال الاعتناء به. والمراد بالكتاب التوراة. ﴿وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ يقال: قفاه به أتبعه إياها، من التفتية وهي متابعة شيء شيئاً. كأنه يتلو قفاه، وقفا الصورة منها، خلفها المقابل للوجه. والمعنى لم تقتصر على الضبط بالكتاب الذي تركه فيكم موسى، بل أرسلنا من بعده الرسل تترا، ليجددوا لكم أمر الدين ويؤكدوا عليكم اليهود. ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى﴾ اسم معرب أصله يسوع. لفظة يونانية بمعنى مخلص. ومثله يشوع، بالمعجمة، في اللغة العبرانية. ﴿ابْنِ مَرْيَمَ الْبَتِّينِ﴾ المعجزات الواضحات التي لا مرية فيها لذي عقل. كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ﴿وَأَيَّدْنَاهُ﴾ أي قويناه على ذلك كله ﴿بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ بالروح المقدسة كما تقول: حاتم الجود ورجلٌ صدق. وهي الروح الطاهرة التي نفخها الله فيه وميزه بها

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ فلم يمر زمن بين موسى وعيسى آخر أنبيائهم إلا وكان فيه نبي مرسل أو أنبياء متعددون يأمرهم وينهون كأنه يقول اعلموا يا بني إسرائيل أنه إن كان لطول الأمد على النبوة وبعد العهد بالرسول يد في تغيير الأوضاع ونسيان الشرائع، وكان في ذلك وجه لاعتذار بعض المتأخرين، فإن ذلك لا يتناولكم، فإن الرسل قد جاءكم تراثهم كان من أمركم معهم ما كان.

ذكر رسل بني إسرائيل بالإجمال لبيان ما ذكر، ثم

الخطاب وأدمجها في الاستفهام لتفاجيء النفوس بقوة التشنيع والتقبيح، وتبرز لها في ثوب الإنكار والتوبيخ، وفي ذلك الإيماء إلى أن هذه المعاملة السوء مما لا يخفى خبرها، ولا تغيب عن الإنكار صورها، فلا ينبغي الإلماع إليها، إلا في سياق تقرير مجترحيها، وهذا من إيجاز القرآن، الذي لا يعرج إليه فكر الإنسان، وانظر كيف أورد خبر القتل بصيغة المضارع التي تدل على الحال لاستحضار تلك الصورة الفظيعة وتمثيلها للسامع حتى يمثلها في الخيال، وإن مرت عليها القرون والأحوال لأنها أفاعيل لا تخلق جدتها، ودماء لا تطير رغوتها، وإن مثل هذا التعبير ليمثل تلك الصورة المشوهة لأن الألفاظ إذا قرعت الذهن بمفهومها يتناول الخيال ذلك المفهوم ويصوره بالصورة اللائقة به، فيكون له من التأثير ما يناسبه. قتلوا من الأنبياء المرسلين زكريا ويحيى عليهما السلام، ويروى أنهم قتلوا في يوم واحد مائة وخمسين نبياً، فإن صح هذا فالمراد بأولئك الأنبياء من كانت نبوتهم محصورة في الدعوة إلى إقامة التوراة، ودليلها محصوراً في الإنبياء ببعض المغيبات وكان هذا الفريق منتشراً في أسباط بني إسرائيل وكثيراً بكثرتهم.

وفي هذه الآية حجتان للنبي ﷺ - حجة على بني إسرائيل وحجة على الذين يعجبون لعدم إيمانهم به وإجابتهم دعوته، وبيان أن المجاهدة والمعاندة من شأنهم ومما عرف من شئنتهم، وناسب بعد هذا أن يذكر ما كانوا يعتذرون به عن الإيمان به، والاهتداء بكتابه، بعد تقرير الدعوة، وإقامة الحجة.

جوهري ج ١ ص ٩٦

أو الإنجيل ﴿ أَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى ﴾ بما لا تحب ﴿ أَنْفُسَكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ ﴾ تعظمتن عن قبوله ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ ﴾ كعيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام ﴿ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كزكريا ويحيى.

يطلق عليه «الروح الأمين» لأن النبي الموحى إليه يكون على بينة من ربه فيه يأمن معها التلبس فيما يلقي إليه، قال تعالى في القرآن ﴿ نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۚ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٤].

(ثم قال الأستاذ): ذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بروح القدس الملك المسمى بجبريل الذي ينزل على الأنبياء، ومنه يستمدون الشرائع عن الله تعالى وهو على حد قولهم «حاتم الجود» وذكر بعضهم وجهاً آخر وهو أن المراد بها روح عيسى نفسه، ووصفها بالقداسة والطهارة بمعنى إعادته من الشيطان أن يكون له حظ فيه، أو لأنه أنزل عليه الإنجيل بالتحاليم التي تقدر النفوس، بل قال بعضهم: إن روح القدس هو الإنجيل، والمراد من الكل واحد، وهو أن الله تعالى أرسل إليهم عيسى بعد ظهور رسل كثيرين فيهم بعد موسى وأعطاه ما لم يعط كل رسول من أولئك الرسل من الوحي أو من قوة الروح، وزكاء النفس ومكارم الأخلاق، ونسخ بعض الأحكام، وقد كان حظه مع ذلك منهم كحظ سابقه الذين لم يؤتوا من المواهب مثل ما أوتي.

ماذا كان حظ أولئك الرسل من بني إسرائيل؟ كان حظهم منهم ما أفاده الاستفهام التوبيخي في قوله ﴿ أَكَلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسَكُمْ أَتَكْبَرْتُمْ ﴾ فاتبعتم الهوى وأطعتم الشهوات، وعصيتهم الرسل واحتميتهم عليهم أن أندروكم ودعوكم إلى أحكام كتابكم ﴿ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ كان المعهود في التخاطب وكلام الناس أن تذكر هذه المساوي ثم يوبخون عليها، ولكن طواها في

يقول تعالى ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ ﴾ التوراة ﴿ وَفَقَيْنَا ﴾ أنبئنا ﴿ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ﴾ المعجزات الواضحة ﴿ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ أي الروح المقدسة، قيل جبريل

المراغي ج ١ ص ١٦٣ - ١٦٥

ثم خصّ من أولئك الرسل عيسى عليه السلام فقال :
﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾
﴿أي وأعطينا عيسى المعجزات الباهرة التي تدل على
صدق نبوته وأنه موحى إليه من ربه، وأيدناه بروح الوحي
الذي يؤيد الله تعالى به أنبياءه في عقولهم ومعارفهم كما
قال : ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَنَا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا
الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢]، وأرسلناه بعد ظهوره
كثير من الرسل ولم يكن حظه بينهم أحسن من حظ
سابقه .

ثم بين ماذا كان حظ الرسل من بني إسرائيل فقال :
﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ﴾
أي أبلغ الأمر بكم أنكم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير
الذي تهوى نفوسكم استكبرتم عليه تجبراً وبغياً في
الأرض؟

﴿فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ أي فبعضاً منهم
تكذبون كعيسى ومحمد عليهما السلام، وبعضاً تقتلون
كزكريا ويحيى عليهما السلام، فلا عجب بعد هذا إن لم
تؤمنوا بدعوة محمد ﷺ فإن العناد والجحود من طبعكم،
وسجية عرفت عنكم. ولا غرابة في صدور ما صدر
منكم.

سيد قطب ج ١ ص ٨٨ - ٨٩

وفيما تقدم واجههم بالكثير من مواقفهم مع نبيهم
موسى - عليه السلام - وقد آتاه الله الكتاب . ويزيد هنا أن
رسلهم توالى تترأ، يقفو بعضهم بعضاً، وكان آخرهم
عيسى بن مريم . وقد آتاه الله المعجزات البينات، وأيده
روح القدس جبريل - عليه السلام - فكيف كان استقبالهم
لذلك الحشد من الرسل ولآخرهم عيسى عليه السلام؟
كان هذا الذي يستنكره عليهم، والذي لا يملكون هم
إنكاره، وكتبهم ذاتها تقرره وتشهد به : ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ
رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا
تَقْتُلُونَ﴾!

جرت سنة الله في البشر أنه إذا طال عليهم الأمد بعد أن
تأتيهم الرسل تقسو منهم القلوب، ويذهب أثر الموعظة
من الصدور، ويفسقون عن أمر ربهم، ويحرفون ما
جاءهم من الشرائع بضروب من التأويل، وينسئون ما
أنذروا به من قبل، يرشد إلى هذا قوله تعالى ﴿أَلَمْ يَأْنِ
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا
يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ
قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَعِثُوا﴾ [الحديد: ١٦]

من أجل هذا كان سبحانه يرسل الرسل بعضهم إثر
بعض حتى لا يطول الإنذار فتقسو القلوب، وقد كان
الشعب الإسرائيلي أكثر الشعوب حظاً في عدد الرسل
الذين أرسلوا إليهم، فليس لهم من العذر ما يسوغ نسيان
الشرائع أو تحريفها وتأويلها، ولكن كانوا يطيعون
أهواءهم، ويتبعون شهواتهم، ويعصون رسلهم، فمنهم
من كذبوه، ومنهم من قتلوه.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَفَقَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ
يَا لِرُسُلٍ﴾ أي ولقد أعطينا موسى الكتاب المقدس وهي
التوراة، ثم أنبعنا من بعده رسلاً بعد رسول مقتفين أثره،
فلم يمض زمن إلا كان فيه نبي أو أنبياء يأمرهم وينهون،
فلا عذر لهم في نسيان الشرائع أو تحريفها وتغيير
أوضاعها.

ثم يمضي السياق يواجه بني إسرائيل بمواقفهم تجاه
النبوات وتجاه الأنبياء . . أنبيائهم هم . وما كان من سوء
صنيعهم معهم كلما جاءهم بالحق، الذي لا يخضع
للأهواء .

ولقد كانت حجة بني إسرائيل في إعراضهم عن
الإسلام، وإبائهم الدخول فيه، أن عندهم الكفاية من
تعاليم أنبيائهم، وأنهم ماضون على شريعتهم
ووصاياهم . . فهنا يفضحهم القرآن ويكشف عن حقيقة
موقفهم من أنبيائهم وشرائعهم ووصاياهم . ويثبت أنهم
هم هم كلما واجهوا الحق، الذي لا يخضع لأهوائهم.

ومحاولة إخضاع الهداة والشرائع للهوى الطارئ والنزوة المتقلبة. ظاهرة تبدو كلما فسدت الفطرة، وانطمست فيها عدالة المنطق الإنساني ذاته. المنطق الذي يقتضي أن ترجع الشريعة إلى مصدر ثابت - غير المصدر الإنساني المتقلب - مصدر لا يميل مع الهوى، ولا تغلبه النزوة. وأن يرجع الناس إلى ذلك الميزان الثابت الذي لا يتأرجح مع الرضى والغضب، والصحة والمرض، والنزوة والهوى، لا أن يخضعوا الميزان ذاته للنزوة والهوى ولقد قص الله على المسلمين من أنباء بني إسرائيل في

هذا ما يحذرهم من الوقوع في مثله، حتى لا تسلب منهم الخلافة في الأرض والأمانة التي ناطها بهم الله، فلما وقعوا في مثل ما وقع فيه بنو إسرائيل، وطرحوا منهج الله وشريعته، وحكموا أهواءهم وشهواتهم، وقتلوا فريقاً من الهداة وكذبوا - فريقاً. ضربهم الله بما ضرب به بني إسرائيل من قبل، من الفرقة والضعف، والذلة والهوان، والشقاء والتعاسة. إلا أن يستجيبوا لله ورسله، وإلا أن يخضعوا أهواءهم لشريعته وكتابه، وإلا أن يفوا بعهد الله معهم ومع أسلافهم، وإلا أن يأخذوه بقوة، ويذكروا ما فيه لعلهم يهتدون.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾

٢

﴿قَلِيلُونَ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١١٦)

مصادر تفاسير الآية

ص ١٦٠	ج ١	ابن كثير	ص ٤٠٣ - ٤٠٤	ج ١	الطبري
ص ٢٣		الجلالان	ص ٣٠٧	ج ١	الزمخشري
ص ١٣٥ - ١٣٢	ج ١	الشوكاني	ص ٢٢ - ٢٥	ج ٤	الرازي
ص ٣٦٧ - ٣٦٦	ج ١	الألوسي	ص ٤٣٣ - ٤٣٤	ج ١	الطبرسي
ص ٢٣٤ - ٢٣٢	ج ٢	القاسمي	ص ٨٠ - ٨١	ج ١	ابن عربي
ص ٤٣٧ - ٤٣٦	ج ١	محمد عبده	ص ١٨٢ - ١٨٣	ج ١	البيضاوي
ص ٢٦٥ - ٢٦٣	ج ١	الطباطبائي	ص ٩٩ - ١٠٠	ج ١	الخان
ص ١١٤	ج ١	جوهري	ص ٧١	ج ١	البغوي
ص ١٩٢ - ١٨٩	ج ١	المراغي	ص ١٧٧ - ١٧٨	ج ١	الماوردي
ص ١٠٦ - ١٠٥	ج ١	سيد قطب	ص ٨٤ - ٨٦	ج ٢	القرطبي
			ص ٣٦٢ - ٣٦٤	ج ١	أبو حيان الاندلسي

الطبري ج ١ ص ٤٠٣ - ٤٠٤

القول في تأويل قوله تعالى ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ يختلف أهل التأويل في تأويل ذلك فقال بعضهم معنى ذلك مطيعون ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ مطيعون. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ قال مطيعون قال طاعة الكافر في سجود ظله. حدثني... المثنى عن مجاهد بمثله إلا أنه زاد بسجود ظله وهو كاره. حدثنا موسى... عن السدي ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ يقول كل له مطيعون يوم القيامة. حدثني المثنى... عن عكرمة ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ قال الطاعة. حدثت عن المنجاب بن الحرث... عن ابن عباس ﴿قَلِيلُونَ﴾ مطيعون. وقال آخرون معنى ذلك كل له مقرّون بالعبودية ذكر من قال ذلك. حدثنا ابن حميد... عن عكرمة ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ كل مقر له بالعبودية. وقال آخرون بماحدثني به المثنى... عن الربيع قوله ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلِيلُونَ﴾ قال كل له قائم يوم القيامة. وللقنوت في كلام العرب معان أحدها الطاعة والآخر القيام والثالث الكف عن الكلام

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ الذين منعوا مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على قوله ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهَا﴾ [البقرة: ١١٤] وتأويل الآية ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها وقالوا اتخذ الله ولدا وهم النصارى الذين زعموا أن عيسى ابن الله فقال الله جل ثناؤه مكذباً قيلهم ما قالوا من ذلك ومنفياً ما نحلوه وأضافوا إليه بكذبهم وفريتهم ﴿سُبْحَنَهُ﴾ يعني بها تنزيهاً وتبرئاً من أن يكون له ولد وعلواً وارتفاعاً عن ذلك وقد دللنا فيما مضى على معنى قول القائل (سبحان الله) بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع ثم أخبر جل ثناؤه أن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً ومعنى ذلك وكيف يكون المسيح لله ولداً وهو لا يخلو إما أن يكون في بعض هذه الأماكن إما في السموات وإما في الأرض والله ملك ما فيهما ولو كان المسيح ابناً كما زعمتم لم يكن كسائر ما في السموات والأرض من خلقه وعبيده في ظهور آيات الصنعة فيه.

والإمساك عنه وأولى معاني القنوت في قوله ﴿كُلُّ لَمْ قَلِينُونَ﴾ الطاعة والإقرار لله عز وجل بالعبودية بشهادة أجسامهم بما فيها من آثار الصنعة والدلالة على وحدانية الله عز وجل وأن الله تعالى ذكره بارئها وخالقها وذلك أن الله جل ثناؤه أكذب الذين زعموا أن الله ولدًا بقوله ﴿بَلْ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً وخلقاً ثم أخبر عن جميع ما في السموات والأرض أنها مقرة بدلائها على ربها وخالقها وأن الله تعالى بارئها وصانعها وإن جحد ذلك بعضهم فالستهم مدعنة له بالطاعة بشهادتها له بآثار الصنعة التي فيها بذلك وأن المسيح أحدهم فإنني يكون الله

ولدًا وهذه صفته! وقد زعم بعض من قصرت معرفته عن توجيه الكلام وجهته أن قوله ﴿كُلُّ لَمْ قَلِينُونَ﴾ خاصة لأهل الطاعة وليست بعامة وغير جائز ادعاء خصوص في آية عام ظاهرها إلا بحجة يجب التسليم لها لما قد بينا في كتابنا «كتاب البيان عن أصول الأحكام». وهذا خبر من الله جل وعز عن أن المسيح الذي زعمت النصارى أنه ابن الله مكذبهم هو والسموات والأرض وما فيها إما باللسان وإما بالدلالة. وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر عن جميعهم بطاعتهم إياه وإقرارهم له بالعبودية عقيب قوله ﴿وَقَالُوا أَتُخَذُ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فدل ذلك على صحة ما قلنا.

الزمخشري ج ١ ص ٣٠٧

ويجوز أن يراد كل من جعلوه لله ولدًا له قانتون مطيعون عابدون مقرّون بالربوبية منكرون لما أضافوا إليهم. فإن قلت: كيف جاء بما التي لغير أولي العلم مع قوله قانتون؟ قلت: هو كقوله سبحانه ما سخركن لنا، وكأنه جاء بما دون من تحقيقاً لهم وتصغيراً لشأنهم كقوله: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ [الصافات: ١٥٨] يقال بدع الشيء فهو بديع كقولك: بزع الرجل فهو بزيع.

﴿وَقَالُوا﴾ وقرئ بغير واو، يريد الذين قالوا المسيح ابن الله وعزير ابن الله والملائكة بنات الله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن ذلك وتبعيد ﴿بَلْ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هو خالقه ومالكة ومن جملة الملائكة وعزير والمسيح ﴿كُلُّ لَمْ قَلِينُونَ﴾ منقادون لا يمتنع شيء منهم على تكوينه وتقديره ومشيتته، ومن كان بهذه الصفة لم يجانس، ومن حق الولد أن يكون من جنس الوالد والتنوين في كل عوض من المضاف إليه: أي كل ما في السموات والأرض،

الرازي ج ٤ ص ٢٢ - ٢٥

فهو كلمة تنزيه ينزه بها نفسه عما قالوه، كما قال تعالى في موضع آخر ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدًا﴾ فمرة أظهره، ومرة اقتصر عليه لدلالة الكلام عليه، واحتج على هذا التنزيه بقوله ﴿لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٧١] ووجه الاستدلال بهذا على فساد مذهبهم من وجوه (الأول) أن كل ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته محدث، وكل محدث فهو مخلوق لواجب الوجود، والمخلوق لا يكون ولدًا، أما بيان أن ما سوى الموجود الواجب ممكن لذاته، فلأنه لو وجد موجودان واجبان لذاتهما لاشتراكا في وجوب الوجود، ولامتاز كل واحد منهما عن الآخر بما به التعين، وما به المشاركة، غير ما به الممايزة، ويلزم تركب كل واحد

... اعلم أن هذا هو النوع العاشر من مقابح أفعال اليهود والنصارى والمشركين، واعلم أن الظاهر قوله تعالى ﴿وَقَالُوا أَتُخَذُ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أن يكون راجعاً لإلا قوله ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١١٤] وقد ذكرنا أن منهم من تأوله على النصارى ومنهم من تأوله على مشركي العرب، ونحن قد تأولناه على اليهود وكل هؤلاء أثبتوا الولد لله تعالى، لأن اليهود قالوا: عزير ابن الله، والنصارى قالوا: المسيح ابن الله، ومشركو العرب قالوا: الملائكة بنات الله فلا جرم صحت هذه الحكاية على جميع التقديرات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أنها نزلت في كعب بن الأشرف، وكعب بن أسد، وهب بن يهودا فإنهم جعلوا عزيراً بن الله، أما قوله تعالى ﴿سُبْحَنَهُ﴾

على من يصح عليه الفقر والعجز والحاجة، فإذا كان كل ذلك محال كان إيجاد الولد عليه سبحانه وتعالى محالاً، واعلم أنه تعالى حكى في مواضع كثيرة عن هؤلاء الذين يضيفون إليه الأولاد قولهم، واحتج عليهم بهذه الحجة وهي أن كل من في السموات والأرض عبد له، وبأنه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، وقال في مريم ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَارُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤] وقال أيضاً في آخر هذه السورة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٣] فإن قيل: ما الحكمة في أنه تعالى استدل في هذه الآية بكونه مالكا لما في السموات والأرض، وفي سورة مريم بكونه مالكا لمن في السموات والأرض على ما قال ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] قلنا: قوله تعالى في هذه السورة ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أتم، لأن كلمة (ما) تتناول جميع الأشياء، وأما قوله تعالى ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلْبُونُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى - القنوت: أصله الدوام، ثم يستعمل على أربعة أوجه: الطاعة، كقوله تعالى ﴿يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ﴾ [آل عمران: ٤٣] وطول القيام، كقوله عليه السلام لما سئل: أي الصلاة أفضل؟ قال «طول القنوت» وبمعنى السكون، كما قال زيد بن أرقم: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزل قوله تعالى ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَلْبَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٨] فأمسكنا عن الكلام. ويكون بمعنى الدوام، إذا عرفت هذا فنقول: قال بعض المفسرين ﴿كُلُّ لَكُمْ قَلْبُونُونَ﴾ أي كل ما في السموات والأرض قانطون مطيعون، والتنوين في كل عوض عن المضاف إليه وهو قول مجاهد وابن عباس، فقيل لهؤلاء الكفار: ليسوا مطيعين، فعند هذا قال آخرون: المعنى أنهم يطيعون يوم القيامة، وهو قول السدي، فقيل لهؤلاء: هذه صفة المكلفين، وقوله ﴿كُلُّ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يتناول من لا يكون مكلفاً فعند

منهما من قديين، وكل مركب فإنه مفتقر إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه من غيره، فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته فكل واحد من الموجودين الواجبين لهما ممكن لذاته، هذا خلف، ثم نقول: إن كان كل واحد من ذينك الجزئين واجباً عاد التقسيم المذكور فيه، ويقضي إلى كونه مركباً من أجزاء غير متناهية، وذلك محال، ومع تسليم أنه غير محال فالمقصود حاصل، لأن كل كثرة فلا بد فيها من الواحد، فتلك الآحاد إن كانت واجبة لذواتها كانت مركبة على ما ثبت، فالبسيط مركب هذا خلف، وإن كانت ممكنة كان المركب المفتقر إليها أولى بالإمكان، فثبت بهذا البرهان أن كل ما عدا الموجود الموجب ممكن لذاته، وكل ممكن لذاته فهو محتاج إلى المؤثر، وتأثير ذلك المؤثر فيه إما أن يكون حال عدمه أو حال وجوده فإن كان الأول فذلك الممكن محدث وإن كان الثاني فاحتياج ذلك الموجود إلى المؤثر إما أن يكون حال بقاءه أو حال حدوثه والأول محال لأنه يقتضي إيجاد الوجود فتعين الثاني وذلك يقتضي كون ذلك الممكن محدثاً فثبت أن كل ما سوى الله محدث مسبوق بالعدم وأن وجوده إنما حصل بخلق الله تعالى وإيجاده وإبداعه فثبت أن كل ما سواه فهو عبده وملكه فيستحل أن يكون شيء مما سواه ولداً له، وهذا البرهان إنما استفدناه من قوله ﴿بَلْ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي له كل ما سواه على سبيل الملك والخلق والإيجاد والإبداع (والثاني) أن هذا الذي أضيف إليه بأنه ولده إما أن يكون قديماً أزلياً أو محدثاً، فإن كان أزلياً لم يكن حكمنا بجعل أحدهما ولداً والآخر والدأ أولى من العكس، فيكون ذلك الحكم حكماً مجرداً من غير دليل وإن كان الولد حادثاً كان مخلوقاً لذلك القديم وعبداً له فلا يكون ولداً له (الثالث) أن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد، فلو فرضنا له ولداً لكان مشاركاً له من بعض الوجوه، وممتازاً عنه من وجه آخر، وذلك يقتضي كون كل واحد منهما مركباً ومحدثاً وذلك محال فإذن المجانسة ممتنعة فالولدية ممتنعة (الرابع) أن الولد إنما يتخذ للحاجة إليه في الكبر ورجاء الانتفاع بمعونته حال عجز الأب عن أمور نفسه، فعلى هذا إيجاد الولد إنما يصح

رضي الله عنه: فإن كان عيسى إلهاً فالإله كيف يعبد غيره إنما العبد هو الذي يليق به العبادة، فانقطع النصراني .
المسألة الثانية - لما كان القنوت في أصل اللغة عبارة عن الدوام كان معنى الآية أن دوام الممكنات وبقائها به سبحانه ولاجله وهذا يقتضي أن العالم حال بقاءه واستمراره محتاج إليه سبحانه وتعالى، فثبت أن الممكن يقتضي أن لا تنقطع حاجته عن المؤثر لا حال حدوثه ولا حال بقاءه .
المسألة الثالثة - يقال كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قَلْبِنُونُ﴾ جوابه: كأنه جاء بما دون من تحقيراً لشأنهم .

الطبرسي ج ١ ص ٤٣٣ - ٤٣٤

السماء والمسيح الذي هو في الأرض ولدأ له، فنبه بذلك على أن المسيح وغيره عبيد له مخلوقون مملوكون فهم بمنزلة سائر الخلق، وقيل معناه بل له ما في السموات والأرض فعلاً والفعل لا يكون من جنس الفاعل، والولد لا يكون إلا من جنس أبيه، فإن من تبنى إنساناً فالذي تبناه لا بد من أن يكون من جنسه وقوله ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبِنُونُ﴾ قال ابن عباس ومجاهد معناه مطيعون . . . وقال الحسن كل له قائم بالشهادة أنه عبده، وقال الجبائي كل دائم على حال واحد بالشهادة بما فيه من آثار الصنعة والدلالة على الربوبية . وقال أبو مسلم: كل في ملكه وقهره يتصرف فيه كيف يشاء لا يمتنع عليه .

ابن عربي ج ١ ص ٨٠ - ٨١

معدومون بذواتهم، وهو غاية الطاعة، والقيام بحقه إذ هو الوجود المطلق، فلا يوجد بدون شيء، والوجودات المعينة صفاته وأسماءه، لامتيازها بتعيناتها، التي هي أمور إمكانية عدمية، ليست عينه بالاعتبار العقلي الذي يقسمها إلى الوجود والماهية، التي هي بدون الوجود ليست شيئاً في الخارج، لكن في العقل والعقليات باطنه، فهي في الحقيقة ليست غيره، فلا يكون غيره موجوداً حتى يكون ولدأ، أي معلولاً، أو مخلوقاً، أو ما شئت فسمه .

هذا فسروا القنوت بوجوه آخر (الأول) بكونها شاهدة على وجود الخالق سبحانه بما فيها من آثار الصنعة وأمارات الحدوث والدلالة على الربوبية (الثاني) كون جميعها في ملكه وقهره يتصرف فيها كيف يشاء، وهو قول أبي مسلم، وعلى هذين الوجهين الآية عامة (الثالث) أراد به الملائكة وعزيراً والمسيح، أي كل من هؤلاء الذين حكموا عليهم بالولد أنهم قانتون له، يحكى عن علي بن أبي طالب قال لبعض النصاري لولا تمرد عيسى عن عبادة الله لصرت على دينه، فقال النصراني: كيف يجوز أن ينسب ذلك إلى عيسى مع جده في طاعة الله، فقال علي

... لما حكى الله سبحانه قول اليهود في أمر القبلة ورد عليهم قولهم ذكر مقاتلهم في التوحيد راداً عليهم قال ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ أي إجلالاً له عن اتخاذ الولد وتنزيهاً عن القبائح والسوء والصفات التي لا تليق به . وروي عن طلحة به عبيد الله أنه سأل النبي ﷺ عن معنى قوله سبحانه فقال: تنزيهاً لله عن كل سوء بل له ما في السموات والأرض هذا رد عليهم قولهم اتخذ الله ولدأ أي ليس الأمر كما زعموا ﴿بَلْ لَمْ يَلَمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ملكاً والولد لا يكون ملكاً للأب لأن البنوة والملك لا يجتمعان فكيف يكون الملائكة الذين هم في

... ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ أي أوجد موجوداً مستقلاً بذاته، مخصوصاً بدونه، سبحانه، تنزهه عن أن يكون غيره شيء فضلاً عما يجانسه، بل له ما في السموات والأرض، أي له عالم الأرواح والأجساد، وهي باطنه وظاهره، كما تقول: له الذات، والوجه، والصفات، وأمثال ذلك .

﴿كُلُّ لَمْ قَلْبِنُونُ﴾ موجودون بوجوده، فاعلون بفعله،

أبو حيان الأندلسي ج ١ ص ٣٦٢ - ٣٦٤

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ نزلت في اليهود إذ قالوا عزير ابن الله أو في النصارى إذ قالوا المسيح ابن الله أو في المشركين إذ قالوا الملائكة بنات الله أو في النصارى والمشركين أقوال أربعة والأخير قاله الزجاج ولاختلافهم في سبب النزول اختلفوا في الضمير في وقالوا على من يعود فقيل هو عائد على الجميع من غير تخصيص فإن كلاً منهم قد جعل لله ولداً قاله ابن اسحق والجمهور على قراءة وقالوا بالواو وهو أكد في الربط فيكون عطف جملة خبرية على جملة مثلها. وقيل هو عطف على قوله ﴿وَسَعَى فِي خَرَابِهِمَا﴾ [البقرة: ١١٤] فيكون معطوفاً على معطوف على الصلة وفصل بينهما بالجملة الكثيرة وهذا بعيد جداً ينزه القرآن عن مثله. وقرأ ابن عباس، وابن عامر، وغيرهما قالوا بغير واو ويكون على استئناف الكلام أو ملحوظاً فيه معنى العطف واكتفى بالضمير والربط به عن الربط بالواو، وقال الفارسي وبغير واو هي في مصاحف أهل الشام تقدم أن اتخذ، افتعل من الأخذ وأنها تارة تتعدى إلى واحد نحو قوله ﴿أَتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ [العنكبوت: ٤١] قالوا معناه صنعت وعملت وإلى اثنين فتكون بمعنى صير وكلا الوجهين يحتمل هنا وكل من الوجهين يقتضي تصوره باستحالة الولد لأن الولد يكون من جنس الوالد. فإن جعلت اتخذ بمعنى عمل وصنع استحالة ذلك لأن الباري تعالى منزّه عن الحدود قديم لا أولية لقدمه وما عمله محدث فاستحالة أن يكون ولد له وإن جعلت اتخذ بمعنى صير استحالة أيضاً لأن التصيير هو نقل من حال إلى حال وهذا لا يكون إلا فيما يقبل التغيير وفرضية الولد به تقتضي أن يكون من جنس الوالد لا تقتضي التغيير فقد استحالة ذلك وإذا جعلت اتخذ بمعنى صير كان أحد المفعولين محذوفاً التقدير وقالوا اتخذ بعض الموجودات ولداً والذي جاء في القرآن إنما ظاهره التعدى إلى واحد قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. وَمَا يَلْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩١-٩٢]. وقال القشيري أتى بالولد وهو إحدى الذات لا جزء لذاته ولا تجوز الشهوة في صفاته انتهى. ولما كانت هذه المقالة من أفسد الأشياء وأوضحها في الاستحالة أتى باللفظ الذي يقتضي التنزيه والبراءة من الأشياء التي لا

تجوز على الله تعالى قبل أن يضرب عن مقاتلهم ويستدل على بطلان دعواهم وكان ذكر التنزيه أسبق لأن فيه ردعا لمدعى ذلك وأنهم ادعوا أمراً تنزه الله عنه وتقدس ثم أخذ في إبطال تلك المقالة فقال ﴿بَلْ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي جميع ذلك مملوك له ومن جملتهم من ادعوا أنه ولد الله والولادة تنافي الملكية لأن الوالد لا يملك ولده وقد ذكر بعض المفسرين هنا مسألة من اشترى والده أو ولده أو أحداً من ذوي رحمه وموضوعها علم الفقه ولما ذكر أن الكل مملوك لله تعالى ذكر أنهم كلهم قانتون له أي مطيعون خاضعون له، وهذه عادة المملوك أن يكون طائعاً لمالكة ممتثالاً لما يريده منه واستدل بنتيجة الطواغية على ثبوت الملكية ومن كان بهذه الصفة لم يجانس الوالد إذ الولد يكون من جنس الوالد وأتى بلفظ ما في قوله ﴿بَلْ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ وإن كانت لما لا يعقل لأن ما لا يعقل إذا اختلط بمن يعقل جاز أن يعبر عن الجميع بما ولذلك قال سيبويه وأما ما فإنها مبهمة تقع على كل شيء ويدل على اندراج من يعقل تحت مدلول ما جمع الخبر بالواو والنون التي هي حقيقة فيما يعقل واندراج فيه ما لا يعقل على حكم تغليب من يعقل فحين ذكر الملك أتى بلفظة ما وحين ذكر القنوت أتى بجمع ما يعقل فدل على أن ذلك شامل لمن يعقل وما لا يعقل. قال الزمخشري فإن قلت كيف جاء بما الذي لغير أولي العلم مع قوله ﴿قَلْبُنَا﴾ قلت هو كقوله سبحانه «ما سخركن لنا» وكأنه جاء بما دون من تحقيقاً لهم وتصغيراً لشأنهم كقوله ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا﴾ [الصافات: ١٥٨] انتهى كلامه، وهو جنوح منه إلى أن ما وقعت على من يعلم ولذلك جعله كقوله «ما سخركن لنا» يريد أن المعنى سبحانه من سخركن لنا لأنها يراد بها الله تعالى وما عندنا لا يقع إلا لما لا يعقل إلا إذا اختلط بمن يعقل فيقع عليهما كما ذكرناه أو كان واقعاً على صفات من يعقل فيعبر عنها بما وأما أن يقع لمن يعقل خاصة حالة إفراده أو غير إفراده فلا. وقد أجاز ذلك بعض النحويين وهو مذهب لا يقوم عليه دليل إذ جميع ما احتج به لهذا المذهب محتمل وقد يؤول فيؤول قوله سبحانه «ما سخركن» على أن سبحانه

غير مضاف وأنه علم لمعنى التسييح . . .

وما ظرفية مصدرية أي مدت تسخيركن لنا والفاعل بسخر مضمرة يفسره المعنى وسياق الكلام إذ معلوم أن مسخرهن هو الله تعالى وقول الزمخشري وكأنه جاء بما دون من تحقيراً لهم وتصغيراً لشأنهم ليست ما هنا مختصة بمن يعقل فتقول عبر عنهم بما التي لما لا يعقل تحقيراً لهم وإنما هي عامة لمن يعقل ولما لا يعقل ومعنى قانتون: قائمون بالشهادة قاله الحسن، أو في القيامة للعرض قاله الربيع أو مطيعون قاله قتادة أو مقرون بالعبودية قاله عكرمة وقيل قائمون بالله. وأورد على من يقول القنوط القيام بالله بالشهادة والعبودية أنه كيف عم بهذا القول وكثير ليس بمطيع. وأجيب أن ظاهره العموم والمعنى الخصوص أي أهل كل طاعة له قانتون وبأن

الكفار يسجد ظلالهم وبظهور أثر الصنعة فيه وجرى أحكام الله عليه وذلك دليل على تذلله الله تعالى ذكره ابن الأنباري ﴿كُلُّ لَمْ﴾ مرفوع بالابتداء والمضاف إليه محذوف وهو عبارة عن من في السموات والأرض أي كل من في السموات والأرض وهو المحكوم عليهم بالملك . . . ﴿قَلْبُونُ﴾ خبر عن كل وجمع حملاً على المعنى وكل إذا حذف ما تضاف إليه جاز فيها مراعاة المعنى فتجمع ومراعاة اللفظ فتفرد وإنما حسنت مراعاة الجمع هنا لأنها فاصلة رأس آية ولأن الأكثر في لسانهم أنه إذا قطعت عن الإضافة كان مراعاة المعنى أكثر وأحسن قال تعالى ﴿وَكُلُّ كَانُوا ظَلِيمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٤] ﴿وَكُلُّ أَوَّه دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧] ﴿كُلُّ فِي فَلَايَ يَسْبَحُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣] وقد جاء أفراد الخبر كقوله قل كل يعمل على شاكلته . . .

ابن كثير ج ١ ص ١٦٠

. . . ﴿بَلْ لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيد له وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولداً من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك في عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد؟ . . . وقال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَتَشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًا. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨ - ٩٤] وقال تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ. لَمْ يَكِلْ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدًا﴾ [الإخلاص ١ - ٤] فقرر تعالى في

هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذي لا نظير له ولا شبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد؟ . . . وفي الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم» وقوله ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ قال ابن أبي حاتم . . . عن ابن عباس قال (قانتين) مصلين . . . وقال سعيد بن جبیر ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ يقول الاخلاص . . . وقال خصيف عن مجاهد ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ قال مطيعون كن إنساناً فكان، وقال ابن أبي نجيع عن مجاهد ﴿كُلُّ لَمْ قَلْبُونُ﴾ مطيعون قال طاعة الكافر في سجود ظله وهو كاره وقال كن حماراً فكان، وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو إن القنوت والطاعة والاستكانة إلى الله وهو شرعي وقدري كما قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظُلُمًا أَغْدُوً وَالْأَصَالُ﴾ [الرعد: ١٥] . . .

الآلوسي ج ١ ص ٣٦٦-٣٦٧

المختصة بغير أولي العلم كما قاله بعضهم: محتجاً بقصة الزبيري مخالفاً لما عليه الرضى من أنها في الغالب لما لا يعلم، ولما عليه الأكثرون من عمومها كما في التلويح، واعتبر التغليب في ﴿قَلْبُونُ﴾ إشارة إلى أن هؤلاء الذين جعلوهم ولد الله تعالى سبحانه وتعالى في جنب عظمتهم جمادات مستوية الأقدام معها في عدم الصلاحية لاتخاذ الولد، وقيل: أتى بما في الأول لأنه إشارة إلى مقام الألوهية، والعقلاء فيه بمنزلة الجمادات، ويجمع العقلاء في الثاني لأنه إشارة إلى مقام العبودية، والجمادات فيه بمنزلة العقلاء.

ويحتمل أن يقدر المضاف إليه كل ما جعلوه ولداً لدلالة المقول لا عاماً لدلالة مبطله، ويراد بالقنوت الانقياد لأمر التكليف كما أنه على العموم الانقياد لأمر التكوين، وحينئذ لا تغليب في ﴿قَلْبُونُ﴾ وتكون الجملة إلزاماً بأن ما زعموه ولداً مطيع لله تعالى مقر بعبوديته بعد إقامة الحجة عليهم بما سبق، وترك العطف للتنبية على استقلال كل منهما في الدلالة على الفساد واختلافهما في كون أحدهما حجة والآخر إلزاماً، وعلى الأول يكون الأخير مقررراً لما قبله، وذكر الجصاص إن في هذه الآية دلالة على أن ملك الإنسان لا يبقى على ولده لأنه نفى الولد باثبات الملك باعتبار أن اللام له فمتى ملك ولده عتق عليه، وقد حكم صلى الله تعالى عليه وسلم بمثل ذلك في الوالد إذا ملكه ولده؛ ولا يخفى أن هذا بعيد عما قصد بالآية لا سيما إذا كان الأظهر الاختصاص كما علمت.

... ﴿بَلْ لَّمْ يَأْتِ فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ إبطال لما زعموه وإضراب عما تقتضيه مقاتلهم الباطلة من التشبيه بالمحدثات في التناسل والتوالد، والحاجة إلى الولد في القيام بما يحتاج الوالد إليه، وسرعة الفناء لأنه لازم للتركيب اللازم للحاجة، وكل محقق قريب سريع، ولأن الحكمة في التوالد هو أن يبقى النوع محفوظاً بتوارد الأمثال فيما لا سبيل إلى بقاء الشخص بعينه مدة بقاء الدهر. وكل ذلك يمتنع على الله تعالى فإنه الأبدى الدائم والغني المطلق المنزه عن مشابهة المخلوقات. واللام في (له) قيل للملك. وقيل: إنها كالتي في قولك لزيد - ضرب تغيد نسبة الأثر إلى المؤثر، وقيل: للاختصاص بأي وجه كان، وهو الأظهر، والمعنى ليس الأمر كما افترضوا بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها ما زعموه ولداً، والخالق لكل موجود لا حاجة له إلى الولد إذ هو يوجد ما يشاء منزهاً عن الاحتياج إلى التوالد ﴿كُلُّ لَمُوقَلْبُونُ﴾ أي كل ما فيهما كائناً ما كان جميعاً متقادون له لا يستعصي شيء منهم على مشيئته وتكوينه إيجاداً وإعداماً وتغيراً من حال إلى حال، وهذا يستلزم الحدوث والإمكان المنافي للوجوب الذاتي فكل من كان متصفاً بهذه الصفة لا يكون ولداً لأن من حق الولد أن يشارك والده في الجنس لكونه بعضاً منه، وإن لم يماثله، وكان الظاهر كلمة من مع ﴿قَلْبُونُ﴾ كيلا يلزم اعتبار التغليب فيه، ويكون موافقاً لسوق الكلام فإن الكلام في العزيز والمسيح والملائكة وهم عقلاء إلا أنه جاء بكلمة (ما)

القاسمي ج ٢ ص ٢٣٢-٢٣٤

قال الراغب في تفسيره: نبه على أقوى حجة على نفى ذلك. وبيانها: هو أن لكل موجود في العالم، مخلوقاً طبيعياً، أو معمولاً صناعياً، غرضاً وكما لا أوجد لأجله. وإن كان قد يصلح لغيره على سبيل العرض، كاليد للبشر، والرجل للمشى، والسكين لقطع مخصوص، والمنشار للنشر، وإن كانت اليد قد تصلح للمشى في

... وكلمة «بَلْ» للإضراب عما تقتضيه مقاتلهم الباطلة من مجانسته سبحانه وتعالى لشيء من المخلوقات. أي ليس الأمر كما زعموا، بل هو خالق جميع الموجودات التي من جملتها عزيز والمسيح والملائكة، والتنوين في «كُلُّ» عوضاً عن المضاف إليه. أي كل ما فيهما، كائناً ما كان من أولي العلم وغيرهم...

مَنْ شَيْءٍ إِلَّا يَسْبَحُ بِحَمْدِهِ [الإسراء: ٤٤] وهذا أبلغ حجة لمن هو على المحجة .

ثم قال الراغب: إن قيل من أين وقع لهم الشبهة في نسبة الولد إلى الله تعالى؟ قيل قد ذكر في الشرائع المتقدمة: كانوا يطلقون على الباري تعالى اسم الأب وعلى الكبير منهم اسم الإله، حتى إنهم قالوا: إن الأب هو الرب الأصغر وإن الله هو الأب الأكبر، وكانوا يريدون بذلك أنه تعالى هو السبب الأول في وجود الإنسان، وإن الأب هو السبب الأخير في وجوده وإن الأب هو معبود الابن من وجه أي مخدومه. وكانوا يقولون للملائكة: آلهة. كما قالت العرب للشمس: إلهة. وكانوا يقصدون معنى صحيحاً كما يقصد علماؤنا بقولهم: الله محب ومحبوب، ومريد ومراد ونحو ذلك من الألفاظ. كما يقال للسلطان: الملك. وقول الناس: رب الأرباب وإله الآلهة وملك الملوك، مما يكشف عن تقدم ذلك التعارف. ويقوي ذلك ما يروى أن يعقوب كان يقال له بكر الله، وأن عيسى كان يقول: أنا ذاهب إلى أبي. ونحو ذلك من الألفاظ. ثم تصور الجهلة منهم، بآخرة، معنى الولادة الطبيعية. فصار ذلك مهياً عن التفوه به في شرعنا، تنزهاً عن هذا الاعتقاد، حتى صار إطلاقه، وإن قصد به ما قصده هؤلاء، قرين الكفر، اهـ كلام الراغب رحمه الله .

محمد عبده ج ١ ص ٤٣٦ - ٤٣٧

بعض اليهود لا كلهم، وكذلك اعتقاد كون الملائكة بنات الله لم يكن عاماً في مشركي العرب، وإنما عرف عن بعضهم. ثم رد على مدعى اتخاذ الولد بقوله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ بل ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ ﴿وَالْأَرْضُ كُلُّ لَمْ تَلِدْنِ﴾ ﴿نَزَّ﴾ تعالى نفسه بكلمة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ التي تفيد التنزيه، مع التعجب مما ينافيه، كأن الذي يعرفه تعالى لا ينبغي أن يصدر عنه مثل هذا القول الذي يشعر بأن له تعالى جنساً يماثله، فإن قائل ذلك لا يكون على علم بالله تعالى وإنما يكون زاعماً فيه المزاعم وظاناً فيه الظنون، أي تنزيهاً له أن يكون له ولد كما زعم هؤلاء الجاهلون الظانون بالله غير الحق، فإنه لا جنس له فيكون له ولد منه؛ وهذا الولد الذي نسبوه إليه تعالى لا بد أن يكون من العالم العلوي وهو السماء،

حال، والرجل للتناول، لكن ليس على التمام. والغرض في الولد للإنسان إنما هو لأن يبقى به نوعه، وجزء منه، لَمْ يَلِدْ لم يجعل الله له سبيلاً إلى بقاءه بشخصه، فجعل له بذراً لحفظ نوعه. ويقوى ذلك، أنه لم يجعل للشمس والقمر وسائر الأجرام السماوية بذراً واستخفافاً، لَمْ يَلِدْ لم يجعل لها فناء النبات والحيوان. ولما كان الله تعالى هو الباقي الدائم، بلا ابتداء ولا انتهاء، لم يكن لاتخاذ الولد لنفسه معنى. ولهذا قال ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ يَلِدْ﴾ [النساء: ١٧١] أي هو منزّه عن السبب المقتضى للولد ثم لما كان اقتناء الولد لفقر ما، وذلك لما تقدم، أن الإنسان افتقر إلى نسل يخلفه لكونه غير كامل إلى نفسه - بين تعالى بقوله: ﴿لَمْ يَلِدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أنه لا يتوهم له فقر، فيحتاج إلى اتخاذ ما هو سدّ لفقره، فصار في قوله ﴿لَمْ يَلِدْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ دلالة ثانية. ثم زاد حجة بقوله ﴿قَلِيلُونَ﴾ وهو أنه لما كان الولد يعتقد فيه خدمة الأب ومظاهرتة كما قال ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْزَلِكُمْ بَيْنَ وَحَدَّةً﴾ [النحل: ٧٢] بين أن كل ما في السموات والأرض، مع كونه ملكاً له، قانت أيضاً، إما طائعاً، وإما كارهاً، وإما مسخراً. كقوله ﴿يَسْجُدْ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥] وقوله ﴿وَإِنْ

ثم عاد الكتاب إلى النسق السابق في تعداد مخازي أهل الكتاب والمشرّكين بعدما ذكر من وعيد من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ما ذكر وبين أنه يعبد في كل مكان، فقال جل وعز ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فهذا عطف على قوله تعال ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا﴾ [البقرة: ١١١] وقوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ أَنْصَرِي عَلَى شَيْءٍ﴾ [البقرة: ١١٣] إلخ ويصح أن ينسب هذا إلى اليهود والنصارى والذين لا يعلمون جميعاً، وإلى فرقة واحدة منهم... ولا فرق في الأحكام التي تسند إلى الأمم بين كونها صدرت من جميع أفراد الأمة أو صدرت من بعضهم، فإن مثل هذا الإسناد منبئ بتكافل الأمم كما تقدم غير مرة. وقد نقل أن كلمة: عزيز ابن الله: قالها

وقد غلب في الملكية ما لا يعقل فقال ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ لأن المراد بتسخيرها له التسخير الطبيعي الذي لا يشترط فيه الاختيار، لا التسخير الشرعي المعبر عنه بالتكليف الذي يفعله الكاسب باختياره، ويستوي في التسخير الطبيعي العاقل وغيره، ولكنه في غير العاقل أظهر. ولما ذكر القنوت له تعالى جمعه بضمير العاقل فغلب فيه العقلاء لأن من شأن القنوت أن يكون من العاقل الذي يشعر بموجبه ويفعله باختياره، وإن كان غير العاقل قنوت يليق به. وجملة القول: أن الآية ناطقة بأن ما في السموات والأرض ملك لله تعالى ومسخر لإرادته ومشيئته لا فرق بين العاقل وغيره. فقد حكم على الجميع بالملكية وبالقنوت الذي يراد به التسخير وقبول تعلق الإرادة والقدرة، ولكنه عند ذكر الملك عبر عنه بالكلمة التي تستعمل غالباً في غير العاقل وهي كلمة (ما) لأن المعهود في ذوق اللغة وعرف أهلها أن الملك يتعلق بما لا يعقل، وعند ذكر القنوت عبر عنه بضمير العقلاء لأنه من أعمالهم، ومما يعهد منهم ويسند إليهم لغة وعرفاً. وهذا كما ترى من أدق التعبير وأطفه، وأعلى البيان وأشرفه.

سيد قطب ج ١ ص ١٠٥ - ١٠٦

والصلبية العالمية، والشوعية العالمية، وهي أشد كفراً من المشركين في ذلك الحين! - ومن هذا الإدماج تسقط دعوى اليهود والنصارى في أنهم وحدهم المهتدون؛ وها هم أولاء يستون مع المشركين! وقبل أن يمضي إلى الجوانب الفاسدة الأخرى من تصورهم لشأن الله - سبحانه - يبادر بتنزيه الله عن هذا التصور، وبيان حقيقة الصلة بينه وبين خلقه جميعاً: ﴿سُبْحَنَهُ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَلْبُونٌ﴾...

هنا نصل إلى فكرة الإسلام التجريدية الكاملة عن الله سبحانه، وعن نوع العلاقة بين الخالق وخلق، وعن طريقة صدور الخلق عن الخالق، وهي أرفع وأوضح تصور عن هذه الحقائق جميعاً. . لقد صدر الكون عن خالقه، عن طريق توجه الإرادة المطلقة القادرة: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾. فتوجه الإرادة إلى خلق كائن ما كفيل وحده

أو من العالم السفلي وهو الأرض، ولا يصلح شيء منهما أن يكون مجانساً له عز وجل، لأن جميع ما في السموات والأرض ملك له، قانت لعزته وجلاله، أي خاضع لقهره مسخر لمشيئته، فإذا كانوا سوءاً في كونهم مسخرين له بفطرتهم، منقادين لإرادته بطبيعتهم واستعدادهم، فلا معنى حينئذ لتخصيص واحد منهم بالانتساب إليه وجعله ولداً مجانساً له ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مریم: ٩٣] نعم إن له سبحانه أن يختص من شاء بما شاء كما اختص الأنبياء بالوحي ولكن هذا التخصيص لا يرتقي بالمخلوق إلى مرتبة الخالق، ولا يعرج بالموجود الممكن إلى درجة الوجود الواجب، وإنما يودع سبحانه في فطرة من شاء ما يؤهله لما شاء منه ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٥٠] وليست شبهة الذين اتخذوا بعض البشر آلهة بأمثل من شبهة الذين اتخذوا بعض الكواكب آلهة، إذ التفاوت بين الشمس والقمر أظهر مثلاً من التفاوت بين المسيح وبين سائر الناس الذين عبدوه وقالوا هو ابن الله أو هو الله.

... بعد ذلك يستعرض السياق ضلال تصورهم لحقيقة الألوهية، وانحرافهم عن التوحيد الذي هو قاعدة دين الله، وأساس التصور الصحيح في كل رسالة. ويقرن تصورهم المنحرف إلى تصورات الجاهلية عن ذات الله - سبحانه - وصفاته. ويقرر التشابه بين قلوب المشركين من العرب وقلوب المشركين من أهل الكتاب، ويصحح للجميع انحرافهم إلى الشرك، ويوضح لهم قاعدة التصور الإيماني الصحيح:

... وهذه المقولة الفاسدة: ﴿أَتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾.

ليست مقولة النصارى وحدهم في المسيح، فهي كذلك مقولة اليهود في العزيز. كما كانت مقولة المشركين في الملائكة ولم تفصل الآية هنا هذه المقولات، لأن السياق سياق إجمال للفرق الثلاث التي كانت تناهض الإسلام يومئذ في الجزيرة - ومن عجب أنها لا تزال هي التي تناهضه اليوم تماماً، ممثلة في الصهيونية العالمية

المنهج ابتداء. فلما أن أراد بعض متفلسفتهم متأثرين بأصداء الفلسفة الإغريقية - على وجه خاص - أن يتناولوا إلى ذلك المرتقى، باءوا بالتعقيد والتخليط، كما باء أساتذتهم الإغريق! ودسوا في التفكير الإسلامي ما ليس من طبيعته، وفي التصور الإسلامي ما ليس من حقيقته. . . وذلك هو المصير المحتوم لكل محاولة للعقل البشري وراء مجاله، وفوق طبيعة خلقته وتكوينه. . .

والنظرية الإسلامية: أن الخلق غير الخالق. وأن الخالق ليس كمثله شيء. . . ومن هنا تنتفي من التصور الإسلامي فكرة: «وحدة الوجود» على ما يفهمه غير المسلم من هذا الاصطلاح - أي بمعنى أن الوجود وخالقه وحدة واحدة - أو أن الوجود إشعاع ذاتي للخالق، أو أن الوجود هو الصورة المرئية لموجده. . . أو على أي نحو من أنحاء التصور على هذا الأساس. . . والوجود وحدة في نظر المسلم على معنى آخر: وحدة صدوره عن الإرادة الواحدة الخالقة، ووحدة ناموسه الذي يسير به، ووحدة تكوينه وتناسقه واتجاهه إلى ربه في عبادة وخشوع:

﴿بَلْ لَكُمْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَوْ قَلِيلُونَ﴾ . . .

فلا ضرورة لتصور أن له من بين ما في السماوات والأرض ولداً. . . فالكل من خلقه بدرجة واحدة، وبأداة واحدة. . .

بوجود هذا الكائن، على الصورة المقدرة له، بدون وسيط من قوة أو مادة. . . أما كيف تتصل هذه الإرادة التي لا نعرف كنهها، بذلك الكائن المراد صدوره عنها، فذلك هو السر الذي لم يكشف للإدراك البشري عنه، لأن الطاقة البشرية غير مهيأة لإدراكه. وهي غير مهيأة لإدراكه لأنه لا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها. . . وبقدر ما وهب الله للإنسان من القدرة على كشف قوانين الكون التي تفيده في مهمته، وسخر له الانتفاع بها، بقدر ما زوى عنه الأسرار الأخرى التي لا علاقة لها بخلافته الكبرى. . . ولقد ضربت الفلسفات في تيه لا منارة فيه، وهي تحاول كشف هذه الأسرار؛ وتفترض فروضاً تنبع من الإدراك البشري الذي لم يهيأ لهذا المجال، ولم يزود أصلاً بأدوات المعرفة فيه والارتداد. فتجسيء هذه الفروض مضحكة في أرفع مستوياتها. مضحكة إلى حد يحير الإنسان: كيف يصدر هذا عن «فيلسوف»! وما ذلك إلا لأن أصحاب هذه الفلسفات حاولوا أن يخرجوا بالإدراك البشري عن طبيعة خلقته، وأن يتجاوزوا به نطاقه المقدور له! فلم ينتهوا إلى شيء يطمأن إليه؛ بل لم يصلوا إلى شيء يمكن أن يحترمه من يرى التصور الإسلامي ويعيش في ظله. وعصم الإسلام أهله المؤمنين بحقيقته أن يضربوا في هذا التيه بلا دليل، وأن يحاولوا هذه المحاولة الفاشلة، الخاطئة

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا سَمْعِيلَ وَلَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ
وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ
أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ١٣٦)

مصادر تفاسير الآية

١ ج	٤٤٢ - ٤٤٣	ابن كثير	١ ج	١٨٦ - ١٨٧
١ ج	٣١٤ - ٣١٥	الجلالان	١ ج	٢٦
٤ ج	٨٢ - ٨٣	الشوكاني	١ ج	١٤٥ - ١٤٩
١ ج	٤٨٨ - ٤٩٠	الآلوسي	١ ج	٣٥٢ - ٣٥٤
١ ج	٨٨ - ٩٠	القاسمي	٢ ج	٢٧٠ - ٢٧١
١ ج	١٩٢ - ١٩٣	محمد عبده	١ ج	٤٨٢ - ٤٨٤
١ ج	١١٤ - ١١٥	الطباطبائي	١ ج	٣١٢ - ٣١٨
١ ج	٨٠ - ٨١	جوهري	١ ج	١٢٦
١ ج	١٩٤ - ١٩٥	المراغي	١ ج	٢١٤ - ٢١٨
٢ ج	١٣٩ - ١٤١	سيد قطب	١ ج	١١٨
١ ج	٣٩٧ - ٤١١			

الطبري ج ١ ص ٤٤٢ - ٤٤٣

قوله تعالى ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَلَا سَمْعِيلَ وَلَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء اليهود والنصارى الذين قالوا لكم ﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا ﴾ [البقرة: ١٣٥] أي صدقنا ﴿ ءَامَنَّا بِاللَّهِ ﴾ وقد دللنا فيما مضى أن معنى الإيمان التصديق بما أغنى عن إعادته. ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾ يقول أيضاً صدقنا بالكتاب الذي أنزل الله إلى نبينا محمد ﷺ فأضاف الخطاب بالتنزيل إليهم إذ كانوا متبعيه ومأمورين منه به فكان وإن كان تنزيلاً إلى رسول الله ﷺ بمعنى التنزيل إليهم للذي لهم فيه من المعاني التي وصفت. ويعني بقوله ﴿ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا مِنْ رَبِّهِمْ ﴾ صدقنا أيضاً وآمنا بما أنزل إلى إبراهيم ﷺ ﴿ وَلَا سَمْعِيلَ وَلَا إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ ﴾ وهم الأنبياء من ولد يعقوب. وقوله ﴿ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ﴾ يعني وآمنا أيضاً بالتوراة التي آتاها الله موسى وبإنجيل الذي آتاه الله عيسى والكتب التي آتى

النبين كلهم وأقرنا وصدقنا أن ذلك كله حق وهدى ونور من عند الله وأن جميع من ذكر الله من أنبيائه كانوا على حق وهدى يصدق بعضهم بعضاً على منهاج واحد في الدعاء إلى توحيد الله والعمل بطاعته ﴿ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ﴾ يقول لا نؤمن ببعض الأنبياء ونكفر ببعض ونتبرأ من بعض ونتولى بعضاً كما تبرأت اليهود من عيسى ومحمد عليهما السلام وأقرت بغيرهما من الأنبياء وكما تبرأت النصارى من محمد ﷺ وأقرت بغيره من الأنبياء بل نشهد لجميعهم أنهم كانوا رسل الله وأنبياءه بعثوا بالحق والهدى. وأما قوله ﴿ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره ونحن له خاضعون بالطاعة مذعنون له بالعبودية. فذكر أن نبي الله ﷺ قال ذلك لليهود فكفروا بعيسى وبمن يؤمن به كما حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ نفر من يهود فيهم أبو ياسر بن أخطب، ورافع بن أبي رافع، وعازر، وخالد، وزيد، وازار بن أبي ازار، وأشيع فسألوه عمن يؤمن به من الرسل فقال أؤمن بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب

والأسباط وما أوتي موسى وعيسى وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون فلما ذكر عيسى جحدوا نبوته وقالوا: لا نؤمن بعيسى ولا نؤمن بمن آمن به فأنزل الله فيهم ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقِمْوْنَ مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَمَا أَنزَلَ إِلَيْنَا وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنَّ أَكْثَرَهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]. حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ فذكر نحوه إلا أنه قال ونافع بن أبي نافع مكان رافع. بن أبي رافع وقال قتادة أنزلت هذه الآية أمراً من الله تعالى ذكره للمؤمنين بتصدق رسله كلهم كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ﴾ إلى قوله ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا ويصدقوا بأنبيائه ورسله كلهم ولا يفرقوا بين أحد منهم. وأما الأسباط الذين ذكرهم فهم اثنا عشر رجلاً من ولد يعقوب بن اسحق بن إبراهيم. ولد كل رجل منهم أمة من الناس، فسموا أسباطاً كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قال الأسباط يوسف وإخوته بنو يعقوب ولد اثني عشر رجلاً فولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا أسباطاً. حدثني موسى...

عن السدي أما الأسباط فهم بنو يعقوب يوسف وبنيامين وروبل ويهوذا وشمعون ولاوي ودان وقهاث. حدثني المثنى... عن الربيع قال الأسباط يوسف وأخوته بنو يعقوب اثنا عشر رجلاً فولد لكل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط حدثنا ابن حميد... عن محمد بن اسحق قال نكح يعقوب بن اسحق وهو اسراييل ابنة خاله ليا ابنة ليان بن توبيل بن الياس فولدت له روبيل بن يعقوب وكان أكبر ولده وشمعون بن يعقوب ولاوي بن يعقوب ويهوذا ابن يعقوب وريالون بن يعقوب ويشجر بن يعقوب ودينة بنت يعقوب ثم توفيت ليا بنت ليان ف خلف يعقوب على أختها راحيل بنت ليان بن توبيل بن الياس فولدت له يوسف بن يعقوب وبنيامين وهو بالعربية أسد وولد له من سريتين له اسم أحدهما زلفة واسم الأخرى بلهية أربعة نفر: دان بن يعقوب ونفثالي بن يعقوب وجاد بن يعقوب واشرب بن يعقوب فكان بنو يعقوب اثني عشر رجلاً نشر الله منهم اثني عشر سبطاً لا يحصى عددهم ولا يعلم أنسابهم إلا الله يقول الله تعالى ﴿وَقَطَعْنَهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةً أَسْبَاطًا أُمَّمًا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الرازي ج ٤ ص ٨٢ - ٨٣

... اعلم أنه تعالى لما أجاب بالجواب الجدلي أولاً، ذكر بعده جواباً برهانياً في هذه الآية وهو: أن الطريق إلى معرفة نبوة الأنبياء عليهم السلام ظهور المعجز عليهم، ولما ظهر المعجز على يد محمد ﷺ وجب الاعتراف بنبوته والإيمان برسالته، فإن تخصيص البعض بالقبول وتخصيص البعض بالرد يوجب المناقضة في الدليل وأنه ممنوع عقلاً، فهذا هو المراد من قوله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ إلى آخر الآية، وهذا هو الغرض الأصلي من ذكر هذه الآية، فإن قيل: كيف يجوز الإيمان بإبراهيم وموسى وعيسى مع القول بأن شرائعهم منسوخة. قلنا: نحن نؤمن بأن كل واحد من تلك الشرائع كان حقاً في زمانه فلا يلزم منا المناقضة، أما اليهود والنصارى لما اعترفوا بنبوة بعض من ظهر المعجز عليه، وأنكروا نبوة محمد ﷺ مع قيام المعجز على يده، فحينئذ يلزمهم

المناقضة فظهر الفرق، ثم نقول في الآية مسائل: المسألة الأولى: أن الله تعالى لما حكى عنهم أنهم قالوا ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى﴾ [البقرة: ١٣٥] ذكرنا في مقابلته للرسول عليه السلام ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٥] ثم قال لأتمته ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ وهذا قول الحسن وقال القاضي قوله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ يتناول جميع المكلفين، أعني النبي عليه السلام وأتمته، والدليل عليه وجهان: (أحدهما) أن قوله ﴿قُولُوا﴾ خطاب عام فيتناول الكل (الثاني) أن قوله ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ لا يليق إلا به ﷺ، فلا أقل من أن يكون هو داخلاً فيه، واحتج الحسن على قوله بوجهين (الأول) أنه عليه السلام أمر من قبل بقوله ﴿قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (الثاني) أنه في نهاية الشرف، والظاهر إفراده بالخطاب. (والجواب) أن هذه القرائن وإن كانت محتملة إلا أنها

ذلك كانت المناقضة لازمة على الدليل وذلك غير جائز. (الثاني) لا نفرق بين أحد منهم، أي لا نقول: إنهم متفرون في أصول الديانات، بل هم مجتمعون على الأصول التي هي الإسلام، كما قال الله تعالى ﴿وَصَحَّىٰ بِهِ نُوْحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تُلَفِّرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] (والوجه الأول) أليق بسياق الآية.

أما قوله ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فالمعنى إن إسلامنا لأجل طاعة الله تعالى لا لأجل الهوى، وإذا كان كذلك فهو يقتضي أنه متى ظهر المعجز وجب الإيمان به، فأما تخصيص بعض أصحاب المعجزات بالقبول، والبعض بالرد، فذلك يدل على أن المقصود من ذلك الإيمان ليس طاعة الله والانقياد له، بل اتباع الهوى والميل.

محمد عبده ج ١ ص ٤٨٢ - ٤٨٤

وذلك أن إنزال الوحي على نبي لا يستلزم إعطائه كتاباً يؤثر عنه، وهذا ظاهر إذا كان النبي غير مرسل فإن الوحي إليه يكون خاصاً به، ويكون إرشاده للناس أن يعملوا بشرع رسول آخر إن كان بعث فيهم رسول وإلا كان قدوة في الخير ومعداً للنفوس لبعثة نبي مرسل، وأما النبي المرسل فقد يؤمر بالتبليغ الشفاهي ولا يعطى كتاباً باقياً وقد يكتب ما يوحى إليه في عصره فيضيع من بعده، فهؤلاء الرسل الكرام الذين عبر عنهم بقوله ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا بِإِذْنِهِمْ وَلَا تَسْمِعُ لِمَنْ يُرِيدُ﴾ لا يؤثر عن أحد منهم كتاب مسند صحيح ولا غير صحيح، وإننا نؤمن بأنهم كانوا أنبياء. وأن ما نزل عليهم هو دين الله الحق، وأنه موافق في جوهره وأصوله لما أنزل على من بعدهم. وما ذكر الله من ملة إبراهيم بالنص هو روح ذلك الوحي كله. وقد جاء في سورة النجم وسورة الأعلى ذكر صحف إبراهيم. وقال الجلال هنا: إنها عشر. فنؤمن أنه كان له صحف ولا نزيد على ما ورد شيئاً، وأما اسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط فلم يثبت أن لهم صحفاً ولا كتباً، فنؤمن بما أنزل إليهم بالإجمال ونعتقد أنه عين ملة إبراهيم وجاء التعبير عن وحي الذين كان لهم كتب تؤثر بقوله

لا تبلغ في القوة إلى حيث تقتضي تخصيص عموم قوله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ أما قوله ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ فإنما قدمه لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالشرائع، فمن لا يعرف الله استحال أن يعرف نبياً أو كتاباً. وهذا يدل على فساد مذهب التعليمية والمقلدة القائلين بأن طريق معرفة الله تعالى: الكتاب والسنة.

أما قوله ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ قال الخليل: السبط في بني إسرائيل كالقبيلة في العرب، وقال صاحب الكشف السبط، الحافد، وكان الحسن والحسين سبطي رسول الله ﷺ، والأسباط: الحفدة وهم حفدة يعقوب عليه السلام وذراى أبنائه الاثني عشر.

أما قوله ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ ففيه وجهان (الأول) إنا لا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، فإننا لو فعلنا

... أي لا تكن دعوتكم إلى شيء خاص بكم يفصل بينكم وبين سائر أهل الأديان السماوية بل انظروا إلى جهة الجمع والاتفاق، وادعوا إلى أصل الدين وروحه الذي لا خلاف فيه ولا نزاع، وهو التسليم بنوثة جميع الأنبياء والمرسلين، مع الاسلام لرب العالمين، لا نعبد إلا الله، ولا نفرق بين أحد من رسل الله. والأسباط أولاد يعقوب. والفرق أو الشعوب الاثني عشر المتشعبة منهم. قال تعالى: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا﴾ [الاعراف: ١٦٠] وقد ورد أن أولاد يعقوب كانوا أنبياء ولم يرد أنهم كانوا مرسلين فإن صح هذا كما يفهم من إطلاق الأستاذ الإمام في الدرس فالمراد بالأسباط الاطلاق الأول وإلا كان في الكلام تقدير مضاف أي أنبياء الأسباط، كأنه قال: وسائر أنبياء بني إسرائيل وهو المختار، ولم يصح في نبوة غير يوسف من أبناء يعقوب شيء.

﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْفَىٰ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ قال الأستاذ الإمام وههنا نقطة دقيقة في اختلاف التعبير عن الوحي الذي منحه الله الأنبياء إذ عبر بأنزل تارة وبأوتي تارة أخرى، وهي أن التعبير بأنزل ذكر هنا في جانب الأنبياء الذين ليس لهم كتب تؤثر، ولا صحف تنقل،

﴿وَمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أَوْقَىٰ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ فهو يشير بالإيتاء إلى أن ما أوحى إليهم له وجود يمكن الرجوع إليه والنظر فيه فإن أقوامهم يأترون عنهم كتباً.

وأقول الآن: إن المراد بالإيمان بما أنزل الله تعالى وما أعطاه لأولئك النبيين والمرسلين إجمالاً، وأنه كان حياً من الله فلا تكذب أحداً منهم بما ادعاه ودعا إليه في عصره، بصرف النظر عما طرأ عليه من ضياع بعضه وتحريف بعض. فإن ذلك لا يضرنا، لأن الإيمان التفصيلي والعمل مقصور على أما أنزل إلينا، . . . روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن معقل بن يسار مرفوعاً «آمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور وليسمعكم القرآن» وأما ما ذكره شيخنا من نقطة اختلاف التعبير فيشكل بقوله في أول الآية ﴿وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا﴾ أي معشر المسلمين وهو القرآن وقوله بعد ﴿وَمَا أَوْقَىٰ النَّبِيُّونَ﴾ ولم يعلم أنه كان لغير داود منهم كتاب منزل. على أن عدم العلم بكتب أنزلت على إبراهيم

وإسماعيل وإسحق لا يدل على عدم تلك الكتب. ولعل نقطة اختلاف التعبير أن يشمل ما أوتى موسى وعيسى تلك الآيات التي أيدهما بها كما قال ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ [الإسراء: ١٠١] وقال ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٨٧] ثم قال ﴿وَمَا أَوْقَىٰ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ ليدل على أن ذلك لم يكن خاصاً بموسى وعيسى والله أعلم. وقال بعد ما ذكر الفريقين ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَكَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِنَا﴾ أي سواء منهم من له كتاب يؤثر ومن ليس له ذلك، نؤمن بالجميع إجمالاً ونأخذ التفصيل عن خاتمهم الذي بين لنا أصل ملتهم التي كانوا عليها وزادنا من الحكم والأحكام. ما يناسب هذا الزمان وما بعده من الأزمان، والعمدة في الدين على إسلام القلب لله تعالى ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُّسْلِمُونَ﴾ أي مدعونون منقادون كما يقتضي الإيمان الصحيح ولستم كذلك أهل الكتاب وإنما أنتم متبعون لأهوائكم وتقاليديكم لا تحولون عنها.

سيد قطب ج ١ ص ١١٨

في الدرب على هدى ونور. والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد. والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام. . .

. . . تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات جميعاً، وبين الرسل جميعاً، هي قاعدة التصور الإسلامي وهي التي تجعل من الأمة المسلمة، الأمة الوارثة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض، الموصولة بهذا الأصل العريق، السائرة

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ۚ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

(سورة البقرة، رقم ٢، الآية ٢٥٣)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٣	ص ٢ - ٣	ابن كثير
الزمخشري	ج ١	ص ٣٨٢ - ٣٨٤	الجلالان
الرازي	ج ٦	ص ١٩٤ - ٢٠٥	الشوكاني
الطبرسي	ج ٢	ص ٢٩٤ - ٢٩٦	الألوسي
ابن عربي	ج ١	ص ١٤٠ - ١٤٢	القاسمي
البيضاوي	ج ١	ص ٢٥٦ - ٢٥٧	محمد عبده
الخازن	ج ١	ص ٢٦٥ - ٢٦٧	الطباطبائي
البغوي	ج ١	ص ١٧٧ - ١٧٨	جوهري
الماوردي	ج ١	ص ٣٢١ - ٣٢٢	المراغي
القرطبي	ج ٣	ص ٢٦١ - ٢٦٥	سيد قطب
أبو حيان الاندلسي	ج ٢	ص ٢٧١ - ٢٧٥	
	ج ١	ص ٢٧٧ - ٢٩٦	
	ج ٢	ص ٢ - ٣	
	ج ٣	ص ٥٢ - ٥٣	
	ج ١	ص ٢٦٨ - ٢٧٠	
	ج ٢	ص ٢ - ٤	
	ج ٣	ص ٦٥٤ - ٦٥٦	
	ج ٢	ص ٢ - ١٥	
	ج ٢	ص ٣٢٤ - ٣٤٤	
	ج ١	ص ٢٣٢ - ٢٥٨	
	ج ٢	ص ٣ - ٨	
	ج ١	ص ٢٧٧ - ٢٩٦	

الطبري ج ٣ ص ٢ - ٣

عيسى ابن مريم وقد جاءهم من الآيات بما فيه مزدجر لمن هداه الله ووفقه. ويعني بقوله ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يعني من بعدما جاءهم من آيات الله ما أبان لهم الحق وأوضح لهم السبيل. وقد قيل إن الهاء والميم في قوله ﴿ مِنْ بَعْدِهِمْ ﴾ من ذكر موسى وعيسى. ذكر من قال ذلك حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يقول من بعد موسى وعيسى. حدثت عن عمار... عن الربيع قوله ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يقول من بعد موسى وعيسى. القول في تأويل قوله ﴿ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك ولكن اختلف هؤلاء الذين من بعد الرسل لما لم يشأ الله منهم تعالى ذكره أن لا يقتتلوا فاقْتَلُوا ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ من عند ربهم بتحريم

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ تعالى ذكره بذلك ﴿ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ وآتيناه عيسى بن مريم الحجج والأدلة على نبوته من إبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى وما أشبه ذلك مع الإنجيل الذي أنزلته إليه فبينت فيه ما فرضت عليه. ويعني تعالى ذكره بقوله وأيدناه وقويناؤه وأعانه ﴿ بِرُوحِ الْقُدُسِ ﴾ يعني بروح الله وهو جبريل وقد ذكرنا اختلاف أهل العلم في معنى روح القدس والذي هو أولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى قبل فأغنى ذلك عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يعني تعالى ذكره بذلك ولو أراد الله ﴿ أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ يعني من بعد الرسل الذين وصفهم بأنه فضل ﴿ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾ ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ﴾ وبعد

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ يقول ولو أراد الله أن يحجزهم بعصمته وتوفيقه إياهم عن معصيته فلا يقتتلوا ما اقتتلوا ولا اختلفوا ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ بأن يوفق هذا لطاعته والإيمان به فيؤمن به ويطيعه ويخذل هذا فيكفر به ويعصيه.

الرازي ج ٦ ص ١٩٤ - ٢٠٤

القدس، قد نالهم من قومهم ما ذكرناه بعد مشاهدة المعجزات، وأنت رسول مثلهم فلا تحزن على ما ترى من قومك، فلو شاء الله لم تختلفوا أنتم وأولئك، ولكن ما قضى الله فهو كائن، وما قدره فهو واقع وبالجمله فالمقصود من هذا الكلام تسلية الرسول ﷺ على إيذاء قومه له.

المسألة الرابعة: أجمعت الأمة على أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، وعلى أن محمداً ﷺ أفضل من الكل، ويدل عليه وجوه (أحدها) قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] فلما كان رحمة لكل العالمين لزم أن يكون أفضل من كل العالمين.

الحجة الثانية: قوله تعالى ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: ٤] ف قيل فيه لأنه قرن ذكر محمد بذكره في كلمة الشهادة وفي الأذان وفي التشهد ولم يكن ذكر سائر الأنبياء كذلك.

الحجة الثالثة: أنه تعالى قرن طاعته بطاعته، فقال ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] وبيعه ببيعه فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠] وعزته بعزته فقال ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ﴾ [المنافقون: ٨] ورضاه برضاه فقال ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضَوْهُ﴾ [التوبة: ٦٢] وإجابته بإجابته فقال ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال: ٢٤].

الحجة الرابعة: أن الله تعالى أمر محمداً بأن يتحدى بكل سورة من القرآن فقال ﴿فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣] وأقصر السور سورة الكوثر وهي ثلاث آيات، وكان الله تحداهم بكل ثلاث آيات من القرآن، ولما كان كل القرآن ستة آلاف آية، وكذا آية، لزم أن لا يكون معجز

الاقتتال والاختلاف وبعد ثبوت الحجة عليهم بوحداية الله ورسالة رسله ووحى كتابه فكفر بالله وآياته بعضهم وآمن بذلك بعضهم فأخبر تعالى ذكره أنهم أتوا ما أتوا من الكفر والمعاصي بعد علمهم بقيام الحجة عليهم بأنهم على خطأ تعمدوا منهم للكفر بالله وآياته. ثم قال تعالى ذكره لعباده

﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَيَنْهَضُ مِنْ ءَامِنٍ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: (تلك) ابتداء، وإنما قال (تلك) ولم يقل أولئك الرسل، لأنه ذهب إلى الجماعة، كأنه قيل: تلك الجماعة الرسل بالرفع، لأنه صفة لتلك وخبر الابتداء ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾.

المسألة الثانية: في قوله ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ﴾... الذين أرسلهم الله لدفع الفساد، الذين إليهم الإشارة بقوله تعالى ﴿وَلَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

المسألة الثالثة: وجه تعليق هذه الآية بما قبلها ما ذكره أبو مسلم وهو أنه تعالى أنبا محمداً ﷺ من أخبار المتقدمين مع قومهم، كسؤال قوم موسى ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ [النساء: ١٥٣] وقولهم ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الاعراف: ١٣٨] وكقوم عيسى بعد أن شاهدوا منه إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص بإذن الله فكذبوه وراموا قتله، ثم أقام فريق على الكفر به وهم اليهود، وفريق زعموا أنهم أولياؤه وادعت على اليهود من قتله وصلبه ما كذبهم الله تعالى فيه كالملا من بني إسرائيل حسدوا طالوت ودفعوا ملكه بعد المسألة، وكذلك ما جرى من أمر النهر، فعزى الله رسوله عما رأى من قومه من التكذيب والحسد، فقال: هؤلاء الرسل الذين كلم الله تعالى بعضهم، ورفع الباقي درجات وأيد عيسى بروح

القرآن معجزاً واحداً بل يكون ألفي معجزة وأزيد.

وإذا ثبت هذا فنقول: إن الله سبحانه ذكر تشريف موسى بتسع آيات بينات، فلأن يحصل التشريف لمحمد بهذه الآيات الكثيرة كان أولى.

الحجة الخامسة: أن معجزة رسولنا ﷺ أفضل من معجزات سائر الأنبياء فوجب أن يكون رسولنا أفضل من سائر الأنبياء.

بيان الأول قوله عليه السلام «القرآن في الكلام كآدم في الموجودات».

بيان الثاني أن الخلعة كلما كانت أشرف كان صاحبها أكرم عند الملك.

الحجة السادسة: أن معجزته عليه السلام هي القرآن وهي من جنس الحروف والأصوات وهي أعراض غير باقية وسائر معجزات سائر الأنبياء من جنس الأمور الباقية ثم أنه سبحانه جعل معجزة محمد ﷺ باقية إلى آخر الدهر، ومعجزات سائر الأنبياء فانية منقضية.

الحجة السابعة: أنه تعالى بعدما حكى أحوال الأنبياء عليهم السلام قال ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَّتْهُمْ أَفْتَدَةً﴾ [الأنعام: ٩٠] فأمر محمداً ﷺ بالافتداء بمن قبله، فأما أن يقال: إنه كان مأموراً بالافتداء بهم في أصول الدين وهو غير جائز لأنه تقليد، أو في فروع الدين وهو غير جائز، لأنه شرعه نسخ سائر الشرائع، فلم يبق إلا أن يكون المراد محاسن الأخلاق، فكأنه سبحانه قال: إنا أطلعناك على أحوالهم وسيرهم، فاختر أنت منها أجودها وأحسنها وكن مقتدياً بهم في كلها، وهذا يقتضي أنه اجتمع فيه من الخصال المرضية ما كان متفرقاً فيهم، فوجب أن يكون أفضل منهم.

الحجة الثامنة: أنه عليه السلام بعث إلى كل الخلق وذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر، فوجب أن يكون أفضل، أما إنه بعث إلى كل الخلق فلقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾ [سبا: ٢٨] وأما أن ذلك يقتضي أن تكون مشقته أكثر فلا أنه كان إنساناً فرداً من غير مال ولا أعوان وأنصار، فإذا قال لجميع العالمين ﴿قُلْ يَتَّبِعُوا آلَ الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] صار الكل أعداء له،

وحينئذ يصير خائفاً من الكل، فكانت المشقة عظيمة، وكذلك فإن موسى عليه السلام لما بعث إلى بني إسرائيل فهو ما كان يخاف أحداً إلا من فرعون وقومه، وأما محمد عليه السلام فالكل كانوا أعداء له، يبين ذلك أن إنساناً لو قيل له: هذا البلد الخالي عن الصديق والرفيق فيه رجل واحد ذو قوة وسلاح فاذهب إليه اليوم وحيداً وبلغ إليه خبراً يوحشه ويؤذيه، فإنه قلما سمحت نفسه بذلك، مع أنه إنسان واحد، ولو قيل له: اذهب إلى بادية بعيدة ليس فيها أنيس ولا صديق، وبلغ إلى صاحب البادية كذا وكذا من الأخبار الموحشة لشق ذلك على الإنسان، أما النبي ﷺ فإنه كان مأموراً بأن يذهب طول ليله ونهاره في كل عمره إلى الجن والإنس الذين لا عهد له بهم، بل المعتاد منهم أنهم يعادونه ويؤذونه ويستخفونه، ثم إنه عليه السلام لم يمل من هذه الحالة ولم يتلأأ، بل سارع إليها سامعاً مطيعاً، فهذا يقتضي أنه تحمل في إظهار دين الله أعظم المشاق، ولهذا قال تعالى ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَتْلًا﴾ [الحديد: ١٠] ومعلوم أن ذلك البلاء كان على الرسول ﷺ، فإذا عظم فضل الصحابة بسبب تلك الشدة فما ظنك بالرسول، وإذا ثبت أن مشقته أعظم من مشقة غيره وجب أن يكون فضله أكثر من فضل غيره لقوله عليه السلام «أفضل العبادات أحمرها».

الحجة التاسعة: أن دين محمد عليه السلام أفضل الأديان، فيلزم أن يكون محمد ﷺ أفضل الأنبياء، بيان الأول أنه تعالى جعل الإسلام ناسخاً لسائر الأديان، والناسخ يجب أن يكون أفضل لقوله عليه السلام «من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة» فلما كان هذا الدين أفضل وأكثر ثواباً، كان واضعه أكثر ثواباً من واضعي سائر الأديان، فيلزم أن يكون محمد عليه السلام أفضل من سائر الأنبياء.

الحجة العاشرة: أمة محمد ﷺ أفضل الأمم، فوجب أن يكون محمد أفضل الأنبياء، بيان الأول قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] بيان الثاني أن هذه الأمة إنما نالت هذه الفضيلة لمتابعة محمد ﷺ، قال تعالى ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾

موسى كلمته تكليماً، وقال آخر: فعيسى كلمة الله وروحه، وقال آخر: آدم اصطفاه الله فخرج رسول الله ﷺ وقال: قد سمعت كلامكم وحجتكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، وموسى نجي الله وهو كذلك، وعيسى روح الله وهو كذلك، وآدم اصطفاه الله تعالى وهو كذلك، أنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلقة الجنة فيفتح لي فأدخلها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر.

الحجة الرابعة عشرة: روى البيهقي في فضائل الصحابة أنه ظهر علي بن أبي طالب من بعيد فقال عليه السلام: هذا سيد العرب فقالت عائشة: ألسنت أنت سيد العرب؟ فقال أنا سيد العالمين وهو سيد العرب، وهذا يدل على أنه أفضل الأنبياء عليهم السلام.

الحجة الخامسة عشرة: روى مجاهد عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي ولا فخر، بعثت إلى الأحمر والأسود وكان النبي قبلي يبعث إلى قومه، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، ونصرت بالرعب أمامي مسيرة شهر، وأحللت لي الغنائم ولم تكن لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة فأدخرتها لأمتي، فهي نائلة إن شاء الله تعالى لمن لا يشرك بالله شيئا» وجه الاستدلال أنه صريح في أن الله فضله بهذه الفضائل على غيره.

الحجة السادسة عشرة: قال محمد بن عيسى الحكيم الترمذي في تقرير هذا المعنى: إن كل أمير فإنه تكون مؤنة على قدر رعيته، فالأمير الذي تكون أمارته على قرية تكون مؤنة بقدر تلك القرية، ومن ملك الشرق والغرب احتاج إلى أموال وذخائر أكثر من أموال أمير تلك القرية فكذا كل رسول بعث إلى قومه فأعطي من كنوز التوحيد وجواهر المعرفة على قدر ما حمل من الرسالة، فالمرسل إلى قومه في طرف مخصوص من الأرض إنما يعطى من هذه الكنوز الروحانية بقدر ذلك الموضع، والمرسل إلى كل أهل الشرق والغرب إنهم وجنهم لا بد وأن يعطى من

الله ﷻ [آل عمران: ٣١] وفضيلة التابع توجب فضيلة المتبوع، وأيضاً أن محمداً ﷺ أكثر ثواباً لأنه مبعوث إلى الجن والإنس، فوجب أن يكون ثوابه أكثر، لأن لكثرة المستجيبين أثراً في علو شأن المتبوع.

الحجة الحادية عشرة: أنه عليه السلام خاتم الرسل، فوجب أن يكون أفضل، لأن نسخ الفاضل بالمفضول قبيح في المعقول.

الحجة الثانية عشرة: أن تفضيل بعض الأنبياء على بعض يكون لأمر منها: كثرة المعجزات التي هي دالة على صدقهم ومروجة لتشريفهم، وقد حصل في حق نبينا عليه السلام ما يفضل على ثلاثة آلاف، وهي بالجملة على أقسام، منها ما يتعلق بالقدر، كشبايع الخلق الكثير من الطعام القليل، وإروائهم من الماء القليل، ومنها ما يتعلق بالعلوم كالإخبار عن الغيوب، وفصاحة القرآن، ومنها اختصاصه في ذاته بالفضائل، نحو كونه أشرف نسباً من أشرف العرب، وأيضاً كان في غاية الشجاعة، كما روي أنه قال بعد محاربة علي رضي الله عنه لعمر بن ود: كيف وجدت نفسك يا علي، قال: وجدتها لو كان كل أهل المدينة في جانب وأنا في جانب لقدرت عليهم فقال: تأهب فإنه يخرج من هذا الوادي فتى يقاتلك، الحديث إلى آخره وهو مشهور، ومنها في خلقه وحلمه ووفائه وفصاحته وسخائه، وكتب الحديث ناطقة بتفصيل هذه الأبواب.

الحجة الثالثة عشرة: قوله عليه السلام «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة» وذلك يدل على أنه أفضل من آدم ومن كل أولاده، وقال عليه السلام «أنا سيد ولد آدم ولا فخر». وقال عليه السلام «لا يدخل الجنة أحد من النبيين حتى أدخلها أنا، ولا يدخلها أحد من الأمم حتى تدخلها أمتي» وروى أنس قال ﷺ «أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر» وعن ابن عباس قال: جلس ناس من الصحابة يتذكرون فسمع رسول الله ﷺ حديثهم فقال بعضهم: عجباً إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وقال آخر: ماذا بأعجب من كلام

لمحمد ﷺ، وعيسى أنطقه الله في الطفولية وأقدره على إحياء الموتى وإبراء الأكهم والأبرص وما كان ذلك حاصلاً لمحمد ﷺ.

الحجة الثانية: أنه تعالى سمى إبراهيم في كتابه خليلاً، فقال ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: ١٢٥] وقال في موسى عليه السلام ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقال في عيسى عليه السلام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وشيء من ذلك لم يقله في حق محمد عليه السلام.

الحجة الثالثة: قوله عليه السلام «لا تفضلوني على يونس بن متى» وقال ﷺ «لا تخيروا بين الأنبياء».

الحجة الرابعة: روى عن ابن عباس قال: كنا في المسجد نتذاكر فضل الأنبياء فذكرنا نوحاً بطول عبادته، وإبراهيم بخلته، وموسى بتكليم الله تعالى إياه، وعيسى برفعه إلى السماء، وقلنا رسول الله أفضل منهم، بعث إلى الناس كافة، وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وهو خاتم الأنبياء، فدخل رسول الله فقال: فيم أنتم؟ فذكرنا له فقال «لا ينبغي لأحد أن يكون خيراً من يحيى ابن زكريا» وذلك أنه لم يعمل سيئة قط ولم يهمل بها.

والجواب: أن كون آدم عليه السلام مسجوداً للملائكة لا يوجب أن يكون أفضل من محمد عليه السلام، بدليل قوله ﷺ «آدم ومن دونه تحت لوائي يوم القيامة» وقال «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» ونقل أن جبريل عليه السلام أخذ بركاب محمد ﷺ ليلة المعراج، وهذا أعظم من السجود، وأيضاً أنه تعالى صلى بنفسه على محمد، وأمر الملائكة والمؤمنين بالصلاة عليه، وذلك أفضل من سجود الملائكة، ويدل عليه وجوه: (الأول) أنه تعالى أمر الملائكة بسجود آدم تأديباً، وأمرهم بالصلاة على محمد ﷺ: تقريباً، (والثاني) أن الصلاة على محمد عليه السلام دائمة إلى يوم القيامة، وأما سجود الملائكة لآدم عليه السلام ما كان إلا مرة واحدة، (الثالث) أن السجود لآدم إنما تولاه الملائكة، وأما الصلاة على محمد ﷺ فإنما تولاه رب العالمين ثم أمر بها الملائكة والمؤمنين، (الرابع) أن الملائكة أمروا بالسجود لآدم لأجل أن نور

المعرفة بقدر ما يمكنه أن يقوم بسعيه بأمور أهل الشرق والغرب، وإذا كان كذلك كانت نسبة نبوة محمد ﷺ إلى نبوة سائر الأنبياء كنسبة كل المشارق والمغرب إلى ملك بعض البلاد المخصوصة، ولما كان كذلك لا جرم أعطي من كنوز الحكمة والعلم ما لم يعط أحد قبله، فلا جرم بلغ في العلم إلى الحد الذي لم يبلغه أحد من البشر قال تعالى في حقه ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدِيهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠] وفي الفصاحة إلى أن قال «أوتيت جوامع الكلم» وصار كتابه مهيمناً على الكتب وصارت أمته خير الأمم.

الحجة السابعة عشرة: روى محمد بن الحكيم الترمذي رحمه الله في كتاب النوادر: عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال «إن الله اتخذ إبراهيم خليلاً، وموسى نجياً، واتخذني حبیباً ثم قال وعزتي وجلالي لأوثرن حبيبي على خليلي ونجسي».

الحجة الثامنة عشرة: في الصحيحين عن همام بن منبه عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل ابتنى بيوتاً فأحسنها وأجملها وأكملها إلا موضع لبنة من زاوية من زواياها، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البنیان فيقولون: ألا وضعت ههنا لبنة فيتم بناؤك؟ فقال محمد: كنت أنا تلك اللبنة».

الحجة التاسعة عشرة: أن الله تعالى كلما نادى نبياً في القرآن ناداه باسمه ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ [الصافات: ١٠٤]، ﴿يَا مُوسَىٰ﴾ [إِذْ أَنَا رَبُّكَ﴾ [طه: ١١ - ١٢]، وأما النبي عليه السلام فإنه ناداه بقوله ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ﴾ [المائدة: ٤١] وذلك يفيد الفضل.

واحتج المخالف بوجوه: (الأول) أن معجزات الأنبياء كانت أعظم من معجزاته، فإن آدم عليه السلام كان مسجوداً للملائكة، وما كان محمد عليه السلام كذلك، وإن إبراهيم عليه السلام ألقي في النيران العظيمة فانقلبت روحاً وريحاناً عليه، وأن موسى عليه السلام أوتي تلك المعجزات العظيمة، ومحمد ما كان له مثلها، وداود لان له الحديد في يده، وسليمان كان الجن والإنس والطير والوحش والرياح مسخرين له، وما كان ذلك حاصلاً

محمد عليه السلام في جبهة آدم.

فإن قيل: إنه تعالى خص آدم بالعلم، فقال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: ٣١] وأما محمد عليه السلام فقال في حقه ﴿مَا كُنْتُ نَذْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ [الضحى: ٧] وأيضاً فمعلم آدم هو الله تعالى، قال ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ﴾ ومعلم محمد عليه السلام جبريل عليه السلام لقوله ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥].

(والجواب): أنه تعالى قال في علم محمد ﷺ ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ [النساء: ١١٣] وقال عليه السلام «أدبني ربي فأحسن تأديبي» وقال تعالى ﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرحمن: ١-٢] وكان عليه السلام يقول «أرنا الأشياء كما هي» وقال تعالى لمحمد عليه السلام ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وأما الجمع بينه وبين قوله تعالى ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] فذاك بحسب التلقين، وأما التعليم فمن الله تعالى، كما أنه تعالى قال ﴿قُلْ يَتُوقِنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ﴾ [السجدة: ١١] ثم قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

فإن قيل: قال نوح عليه السلام ﴿وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١١٤] وقال الله تعالى لمحمد عليه السلام ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ [الأنعام: ٥٢] وهذا يدل على أن خلق نوح أحسن.

قلنا: إنه تعالى قال ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [نوح: ١] فكان أول أمره العذاب، وأما محمد عليه السلام فقليل فيه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ إلى قوله ﴿رَبُّوهُ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨] فكان عاقبة نوح أن قال ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦] وعاقبة محمد عليه السلام الشفاعة ﴿عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩] وأما سائر المعجزات فقد ذكر في كتب دلائل النبوة في مقابلة كل واحد منها معجزة أفضل منها لمحمد ﷺ، وهذا الكتاب لا يحتمل أكثر مما ذكرناه، والله أعلم.

وأما قوله تعالى ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد منه من كلمة الله تعالى، والهاء تحذف كثيراً كقوله تعالى ﴿وَفِيهَا مَا قَتَلْتَنَّهُ لَئِنْ كُنْتُ تُنْفُسُ وَتَكَلَّمَ الْأَعْيُنُ﴾ [الزخرف: ٧١].

المسألة الثانية: قرئ ﴿كَلَّمَ اللَّهُ﴾ بالنصب، والقراءة الأولى أدل على الفضل، لأن كل مؤمن فإنه يكلم الله على ما قال عليه السلام «المصلي مناج ربه» إنما الشرف في أن يكلمه الله تعالى، وقرأ اليماني «كالم الله» من المكاملة، ويدل عليه قولهم: كلم الله بمعنى مكالمه.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أن من كلمه الله فالمسموع هو الكلام القديم الأزلي، الذي ليس بحرف ولا صوت أم غيره؟ فقال الأشعري وأتباعه: المسموع هو ذلك فإنه لما لم يمتنع رؤية ما ليس بمكيف، فكذا لا يستبعد سماع ما ليس بمكيف، وقال الماتريدي: سماع ذلك الكلام محال، وإنما المسموع هو الحرف والصوت.

المسألة الرابعة: ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ قالوا وقد سمع من قوم موسى السبعون المختارون وهم الذين أرادهم الله بقوله ﴿وَأَخَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥] وهل سمعه محمد ﷺ ليلة المعراج؟ اختلفوا فيه منهم من قال: نعم بدليل قوله ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠].

فإن قيل: إن قوله تعالى ﴿مِّنْهُمْ مَّنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ المقصود منه بيان غاية منقبة أولئك الأنبياء الذين كلم الله تعالى، ولهذا السبب لما بالغ في تعظيم موسى عليه السلام، قال ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] ثم جاء في القرآن مكاملة بين الله وبين إبليس، حيث قال ﴿فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ. قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ. إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ﴾ [الحجر: ٣٦-٣٨] إلى آخر هذه الآيات وظاهر هذه الآيات يدل على مكاملة كثيرة بين الله وبين إبليس فإن كان ذلك يوجب غاية الشرف فكيف حصل لإبليس الذم وإن لم يوجب شرفاً فكيف ذكره في معرض التشريف لموسى عليه السلام حيث قال ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]؟

(والجواب): أن قصة إبليس ليس فيها ما يدل على أنه

تعالى قال تلك الجوابات معه من غير واسطة فلعل الواسطة كانت موجودة.

أما قوله تعالى ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ ففيه قولان (الأول) أن المراد منه بيان أن مراتب الرسل متفاوتة، وذلك لأنه تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يوت أحداً مثله هذه الفضيلة، وجمع لداود الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره، وسخر لسليمان الإنس والجن والطير والرياح، ولم يكن هذا حاصلاً لأبيه داود عليه السلام، ومحمد عليه السلام مخصوص بأنه مبعوث إلى الجن والإنس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع، وهذا إن حملنا الدرجات على المناصب والمراتب، أما إذا حملناها على المعجزات ففيه أيضاً وجه، لأن كل واحد من الأنبياء أوتي نوعاً آخر من المعجزة لاثقاً بزمانه فمعجزات موسى عليه السلام، وهي قلب العصا حية، واليد البيضاء، وفلق البحر، كان كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه وهو السحر، ومعجزات عيسى عليه السلام وهي إبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى، كانت كالشبيه بما كان أهل ذلك العصر متقدمين فيه، وهو الطب، ومعجزة محمد عليه السلام، وهي القرآن كانت من جنس البلاغة والفصاحة والخطب والأشعار، وبالجمله فالمعجزات متفاوتة بالقلة والكثرة، وبالبقاء وعدم البقاء، وبالقوة وعدم القوة، وفيه وجه ثالث، وهو أن يكون المراد بتفاوت الدرجات ما يتعلق بالدنيا، وهو كثرة الأمة والصحابة وقوة الدولة، فإذا تأملت الوجوه الثلاثة علمت أن محمداً ﷺ كان مستجمعاً لكل فمنصبه أعلى ومعجزاته أبهى وأقوى وقومه أكثر ودولته أعظم وأوفر.

القول الثاني: أن المراد بهذه الآية محمد عليه السلام، لأنه هو المفضل على الكل، وإنما قال ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ على سبيل التنبيه والرمز كمن فعل فعلاً عظيماً فيقال له: من فعل هذا فيقول: أحذكم أو بعضكم ويريد به نفسه، ويكون ذلك أفخم من التصريح به، وسئل الحطيثة عن أشعر الناس، فذكر زهيراً والنابعة، ثم قال: ولو شئت لذكرت الثالث أراد نفسه، ولو قال: ولو شئت لذكرت نفسي لم يبق فيه فخامة.

فإن قيل: المفهوم من قوله ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ هو المفهوم من قوله ﴿تِلْكَ أَلْسُنُ الْقُرْآنِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ فما الفائدة في التكرير؟ وأيضاً قوله ﴿تِلْكَ أَلْسُنُ الْقُرْآنِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ كلام كلي، وقوله بعد ذلك ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ شروع في تفصيل تلك الجملة، وقوله بعد ذلك ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ إعادة لذلك الكلي، ومعلوم أن إعادة الكلام بعد الشروع في تفصيل جزئياته يكون مستدركاً.

(والجواب): أن قوله ﴿تِلْكَ أَلْسُنُ الْقُرْآنِ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ يدل على إثبات تفضيل البعض على البعض، فأما أن يدل على أن ذلك التفضيل حصل بدرجات كثيرة أو بدرجات قليلة فليس فيه دلالة عليه فكان قوله ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ فيه فائدة زائدة فلم يكن تكريراً. أما قوله تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ ففيه سؤالات:

السؤال الأول: أنه تعالى قال في أول الآية ﴿فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ثم عدل عن هذا النوع من الكلام إلى المغايبة فقال ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ ثم عدل من المغايبة إلى النوع الأول فقال ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ فما الفائدة في العدول عن المخاطبة إلى المغايبة ثم عنها إلى المخاطبة مرة أخرى؟

(والجواب): أن قوله ﴿مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ أهيب وأكثر وقعاً من أن يقال: منهم من كلمنا، ولذلك قال ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] فهذا المقصود اختار لفظة الغيبة.

وأما قوله ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ﴾ فإنما اختار لفظ المخاطبة، لأن الإضمير في قوله ﴿وَأَتَيْنَا﴾ ضمير التعظيم وتعظيم المؤتى يدل على عظمة الإتياء.

السؤال الثاني: لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر؟ وهل يدل ذلك على أنهما أفضل من غيرهما؟

(والجواب): سبب التخصيص أن معجزاتهما أبر وأقوى من معجزات غيرهما وأيضاً فأمتهما موجودون حاضرون في هذا الزمان وأسم سائر الأنبياء ليسوا موجودين فتخصيصهما بالذكر تنبيه على الطعن في

ثم قال تعالى ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَفْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: تعلق هذه بما قبلها هو أن الرسل بعدما جاءتهم البينات، ووضحت لهم الدلائل والبراهين، اختلفت أقوامهم، فمنهم من آمن ومنهم من كفر، وبسبب ذلك الاختلاف تقاتلوا وتحاربوا.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن كل الحوادث بقضاء الله وقدره بهذه الآية... والمعنى أن عدم الاقتتال لازم لمشيئة عدم الاقتتال، وعدم اللازم يدل على عدم الملزوم، فحيث وجد الاقتتال علمنا أن مشيئة عدم الاقتتال مفقودة، بل كان الحاصل هو مشيئة الاقتتال، ولا شك أن ذلك الاقتتال معصية، فدل ذلك على أن الكفر والإيمان والطاعة والعصيان بقضاء الله وقدره ومشيئته، وعلى أن قتل الكفار وقتالهم للمؤمنين بإرادة الله تعالى.

وأما المعتزلة فقد أجابوا عن الاستدلال، وقالوا: المقصود من الآية بيان أن الكفار إذا قتلوا فليس ذلك بغلبة منهم لله تعالى وهذا المقصود يحصل بأن يقال: إنه تعالى لو شاء لأهلكهم وأبادهم أو يقال: لو شاء لسلب القوى والقدر منهم أو يقال: لو شاء لمنعهم من القتال جبراً أو قسراً وإذا كان كذلك فقلوه ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ﴾ المراد منه هذه الأنواع من المشيئة، وهذا كما يقال: لو شاء الإمام لم يعبد المجوس النار في مملكته، ولم تشرب النصاري الخمر، والمراد منه المشيئة التي ذكرناها، وكذا ههنا، ثم أكد القاضي هذه الأجوبة وقال: إذا كانت المشيئة تقع على وجوه وتنتفي على وجوه لم يكن في الظاهر دلالة على الوجه المخصوص، لا سيما وهذه الأنواع من المشيئة متباينة متنافية.

(والجواب): أن أنواع المشيئة وإن اختلفت وتباينت إلا أنها مشتركة في عموم كونها مشيئة، والمذكور في الآية في معرض الشرط هو المشيئة من حيث إنها مشيئة، لا من حيث إنها مشيئة خاصة، فوجب أن يكون هذا المسمى حاصلاً، وتخصيص المشيئة بمشيئة خاصة، وهي إما مشيئة الهلاك، أو مشيئة سلب القوى والقدر، أو مشيئة القهر والإجبار، تنقيد للمطلق وهو غير جائز، وكما أن

أمتهم، كأنه قيل: هذان الرسولان مع علو درجتهما وكثرة معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهم، بل نازعوا وخالفوا، وعن الواجب عليهم في طاعتهم أعرضوا.

السؤال الثالث: تخصيص عيسى ابن مريم بإيتاء البينات، يدل أو يوهم أن إيتاء البينات ما حصل في غيره، ومعلوم أن ذلك غير جائز فإن قلتم: إنما خصهما بالذكر لأن تلك البينات أقوى؟ فنقول: إن بينات موسى عليه السلام كانت أقوى من بينات عيسى عليه السلام، فإن لم تكن أقوى فلا أقل من المساواة.

(الجواب): المقصود منه التنبيه على قبح أفعال اليهود، حيث أنكروا نبوة عيسى عليه السلام مع ما ظهر على يديه من البينات اللائحة.

السؤال الرابع: البينات جمع قلة، وذلك لا يليق بهذا المقام.

قلنا: لا نسلم أنه جمع قلة، والله أعلم.

أما قوله تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: القدس تنقله أهل الحجاز وتخففه تميم.

المسألة الثانية: في تفسيره أقوال: (الأول) والمعنى أعانه بجبريل عليه السلام في أول أمره وفي وسطه وفي آخره، أما في أول الأمر فقلوه ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] وأما في وسطه فلأن جبريل عليه السلام علمه العلوم، وحفظه من الأعداء، وأما في آخر الأمر فحين أرادت اليهود قتله أعانه جبريل عليه السلام ورفعته إلى السماء. والذي يدل على أن روح القدس جبريل عليه السلام قوله تعالى ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ﴾ [النحل: ١٠٢].

والقول الثاني: وهو المنقول عن ابن عباس أن روح القدس هو الاسم الذي كان يحيى به عيسى عليه السلام الموتى.

والقول الثالث: وهو قول أبي مسلم: أن روح القدس أيد به يجوز أن يكون الروح الطاهرة التي نفخها الله تعالى فيه، وأبانه بها عن غيره ممن خلق من اجتماع نطفتي الذكر والأنثى.

ثم قال ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَتَلُوا﴾ فإن قيل: فما الفائدة في التكرير؟

قلنا: قال الواحدي رحمه الله تعالى: إنما كرره تأكيداً للكلام وتكذيباً لمن زعم أنهم فعلوا ذلك من عند أنفسهم ولم يجرب به قضاء ولا قدر من الله تعالى.

ثم قال ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ فيوفق من يشاء ويخذل من يشاء لا اعتراض عليه في فعله.

واحجّ الأصحاب بهذه الآية على أنه تعالى هو الخالق لإيمان المؤمنين، وقالوا: لأن الخصم يساعد على أنه تعالى يريد الإيمان من المؤمن، ودلت الآية على أنه يفعل كل ما يريد، فوجب أن يكون الفاعل لإيمان المؤمن هو الله تعالى، وأيضاً لما دل على أنه يفعل كل ما يريد فلو كان يريد الإيمان من الكفار لفعل فيهم الإيمان، ولكانوا مؤمنين، ولما لم يكن كذلك دل على أنه تعالى لا يريد الإيمان منهم، فكانت هذه الآية دالة على مسألة خلق الأعمال وعلى مسألة إرادة الكائنات، والمعتزلة يقيدون المطلق ويقولون: المراد يفعل كل ما يريد من أفعال نفسه، وهذا ضعيف لوجوه. أحدها: أنه تقييد للمطلق. والثاني: أنه على هذا التقييد تصير الآية بياناً للواضحات فإنه يصير معنى الآية أنه يفعل ما يفعله، الثالث: أن كل أحد كذلك فلا يكون في وصف الله تعالى بذلك دليلاً على كمال قدرته وعلو مرتبته والله أعلم.

هذا التخصيص على خلاف ظاهر اللفظ فهو على خلاف الدليل القاطع، وذلك لأن الله تعالى إذا كان عالمًا بوقوع الاقتتال، والعلم بوقوع الاقتتال حال عدم وقوع الاقتتال جمع بين النفي والإثبات، وبين السلب والإيجاب، فحال حصول العلم بوجود الاقتتال لو أراد عدم الاقتتال لكان قد أراد الجمع بين النفي والإثبات وذلك محال، فثبت أن ظاهر الآية على ضد قولهم، والبرهان القاطع على ضد قولهم وبالله التوفيق.

ثم قال ﴿وَلَكِنْ اٰخْتَلَفُوْا فَمِنْهُمْ مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُمْ مَّنْ كَفَرَ﴾ فقد ذكرنا في أول الآية أن المعنى: ولو شاء لم يختلفوا، وإذا لم يختلفوا لم يقتتلوا، وإذا اختلفوا فلا جرم اقتتلوا، وهذه الآية دالة على أن الفعل لا يقع إلا بعد حصول الداعي، لأنه بين أن الاختلاف يستلزم القتال، والمعنى أن اختلافهم في الدين يدعوهم إلى المقاتلة، وذلك يدل على أن المقاتلة لا تقع إلا لهذا الداعي، وعلى أنه متى حصل هذا الداعي وقعت المقاتلة، فمن هذا الوجه يدل على أن الفعل ممتنع الوقوع عند عدم الداعي، وواجب عند حصول الداعي، ومتى ثبت ذلك ظهر أن الكل بقضاء الله وقدره، لأن الدواعي تستند لا محالة إلى داعية يخلقها الله في العبد دفعاً للتسلسل، فكانت الآية دالة أيضاً من هذا الوجه على صحة مذهبنا.

محمد عبده ج ٣ ص ٢ - ١٥

إن روح القدس عبارة عن الروح الطيبة المقدسة التي أيد بها عيسى عليه السلام. وقد سبقت هذه العبارة في آية «٨٧» من هذه السورة فلا نطيل في إعادة تفسيرها ولعل النقطة في ذكر اسم عيسى عليه الصلاة والسلام: أن ما آتاه إياه لما كان مشتركاً كان ذكره بالإبهام غير صريح في كونه ممن فضل به أو الرد على الذين غلوا فيه، فزعموا أنه إله لا رسول مؤيد بآيات الله ظهر لي هذا عند الكتابة، ثم راجعت تفسير أبي السعود فإذا هو يقول: وافراده عليه السلام بما ذكر لرد ما بين أهل الكتابين في شأنه عليه السلام من التفريط والإفراط...

... ثم قال تعالى ﴿وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ البيّنات هي ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل كما قال في هذه السورة ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [البقرة: ٩٢] وروح القدس هو روح الوحي الذي يؤيد الله به رسله كما قال لنبينا ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنَّ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقال له في سورة النحل ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢] وقال أبو مسلم:



﴿ إِذْ قَالَتْ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُمُ أَنَّىٰ لَكَ هَذَا قَالَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ

حِسَابٍ ﴿

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٣٥ - ٣٧)

مصادر تفاسير الآية

٤٤٤ - ٤٣٢ ص	ج ٢	أبو حيان الأندلسي	١٦٧ - ١٥٧ ص	ج ٢	الطبري
٣٦٠ - ٣٥٨ ص	ج ١	ابن كثير	٤٢٧ - ٤٢٤ ص	ج ١	الزمخشري
٦٨ ص		الجلالان	٣٢ - ٢٣ ص	ج ٨	الرازي
٣٣٦ - ٣٣٤ ص	ج ١	الشوكاني	٦٩ - ٦٣ ص	ج ٣	الطبرسي
١٤٤ - ١٣٣ ص	ج ٢	الآلوسي	١٨٢ - ١٨١ ص	ج ١	ابن عربي
٨٣٧ - ٨٣١ ص	ج ٤	القاسمي	١٧ - ١٤ ص	ج ٢	البيضاوي
٣٤١ - ٢٨٦ ص	ج ٣	محمد عبده	٣٤٢ - ٣٣٩ ص	ج ١	الخازن
٢٠٢ - ١٨٣ ص	ج ٣	الطباطبائي	٢٢٩ - ٢٢٦ ص	ج ١	البغوي
١٠٣ - ١٠١ ص	ج ٢	جوهرى	٣٨٩ - ٣٨٧ ص	ج ١	الماوردي
١٤٢ - ١٣٧ ص	ج ٣	المراغي	٧٢ - ٦٤ ص	ج ٤	القرطبي
٣٩٤ - ٣٩٢ ص	ج ١	سيد قطب			

الطبري ج ٣ ص ١٥٦ - ١٦٧

إني جعلت لك يا رب نذراً أن لك الذي في بطني محرراً
لعبادتك يعني بذلك: حبسته على خدمتك وخدمة قدسك
في الكنيسة عتيقة من خدمة كل شيء سواك مفرغة لك
خاصة. ونصب ﴿مُحَرَّرًا﴾ على الحال من ما في الصفة من
ذكر الذي. ﴿فَتَقَبَّلَ مِنِّي﴾ أي: فتقبل مني ما نذرت لك يا
رب ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ يعني أنك أنت يا رب
﴿السَّمِيعُ﴾ لما أقول وأدعو ﴿الْعَلِيمُ﴾ لما أنوي في نفسي
وأريد لا يخفى عليك سر أمري وعلايته. وكان سبب نذر
حنة ابنة فاقوذ امرأة عمران الذي ذكره الله في هذه الآية
فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد... عن محمد بن اسحق
قال تزوج زكريا وعمران أختين فكانت أم يحيى عند زكريا
وكانت أم مريم عند عمران فهلك عمران وأم مريم حامل
بمريم فهي جنين في بطنها قال وكانت فيما يزعمون قد
أمسك عنها الولد حتى أسنت وكانوا أهل بيت من الله جل

القول في تأويل قوله ﴿إِذْ قَالَتْ أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي
نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
يعني بقوله جل ثناؤه إذ قالت امرأة عمران رب إني نذرت
لك ما في بطني محرراً فتقبل مني فـ ﴿إِذْ﴾ من صلة
سميع. وأما ﴿أُمُّرَاتُ عِمْرَانَ﴾ فهي أم مريم ابنة عمران أم
عيسى ابن مريم صلوات الله عليه وكان اسمها فيما ذكر لنا
حنة ابنة فاقوذ بن قبيل كذلك: حدثنا به محمد بن
حميد... عن ابن اسحق في نسبه. وقال غير ابن حميد
ابنة فاقوذ بالدال ابن قبيل فأما زوجها ﴿عِمْرَانُ﴾ فإنه
عمران بن ياشهم بن أمون بن منشا بن حزقيا بن احزيق بن
يوثم بن عزاريا بن أمصيا بن ياوش بن احزيهو بن يازم بن
يهفاشاط بن اسابرين أبيا بن رجبعم بن سليمان بن داود بن
ايشا، كذلك: حدثنا ابن حميد عن ابن اسحق في نسبه.
وأما قوله ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ فإن معناه

قال كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها قال وكانوا
إنما يحررون الذكور فكان المحرور إذا حرر جعل في الكنيسة
لا يبرحها يقوم عليها ويكنسها. حدثت عن الحسين بن
الفرج . . . عن الضحاك في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي
مُحَرَّرًا﴾ قال جعلت ولدها لله وللذين يدرسون الكتاب
ويتعلمونه . . . حدثنا القاسم . . . عن عكرمة وأبي بكر عن
عكرمة أن امرأة عمران كانت عجزراً عاقراً تسمى حنة
وكانت لا تلد فجعلت تغبط النساء لأولادهن فقالت اللهم
إن عليّ نذراً شكراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت
المقدس فيكون من سديته وخدامه قال وقوله ﴿نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ إنها للمحرة ابنة الحرائر ﴿مُحَرَّرًا﴾
للكنيسة يخدمها. حدثني محمد بن سنان . . . عن الحسن
في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ الآية كلها قال نذرت ما
في بطنها ثم سيبتها. القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ
الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَلِإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله
﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ فلما وضعت حنة النذيرة ولذلك أنثى.
ولو كانت الهاء عائدة على ما التي في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ
لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ لكان الكلام فلما وضعت قالت رب
إني وضعت أنثى ومعنى قوله ﴿وَضَعْتُهَا﴾ ولدتها يقال منه
«وضعت المرأة تضع وضعا» ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾
أي ولدت النذيرة أنثى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ واختلف
القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة القراء ﴿وَضَعْتُ﴾ خبراً
من الله عز وجل عن نفسه أنه العالم ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾ من
غير قيلها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وقرأ ذلك بعض
المتقدمين والله أعلم ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾ على وجه الخبر
بذلك عن أم مريم أنها هي القائلة والله أعلم بما ولدت مني
وأولى القراءتين بالصواب ما نقلته الحجة مستفيضة فيها
قراءته بينها لا يتدافعون صحتها وذلك قراءة من قرأ والله
أعلم ﴿بِمَا وَضَعْتَ﴾ ولا يعترض بالشاذ عنها عليها.
فتأويل الكلام إذا والله أعلم من كل خلقه بما وضعت ثم
رجع جل ذكره إلى الخبر عن قولها وأنها قالت اعتذاراً إلى
ربها مما كانت نذرت في حملها فحررت لخدمة ربها
﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ لأن الذكر أقوى على الخدمة وأقوم

ثناؤه بمكان فيبينا هي في ظل شجرة نظرت إلى طائر يطعم
فرخاً له فتحركت نفسها للولد فدعت الله أن يهب لها ولداً
فحملت بمريم وهلك عمران فلما عرفت أن في بطنها
جنيناً جعلته لله نذيرة والنذيرة أن تعبد لله فتجعله حبساً في
الكنيسة لا ينتفع به بشيء من أمور الدنيا. حدثنا ابن
حميد . . . عن محمد بن جعفر بن الزبير قال ثم ذكر امرأة
عمران وقولها ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ أي
نذرتة تقول جعلته عتيقاً لعبادة الله لا ينتفع به بشيء من
أمور الدنيا ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ حدثني عبد
الرحمن بن الأسود الطفاوي . . . عن مجاهد في قوله
﴿مُحَرَّرًا﴾ قال خادماً للبيعة. حدثنا أبو كريب . . . عن
مجاهد قال خادماً للكنيسة. حدثنا أبو كريب . . . عن
الشعبي في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال
فرغته للعبادة. حدثني يعقوب بن إبراهيم . . . عن الشعبي
في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال جعلته في
الكنيسة وفرغته للعبادة. حدثني المشي . . . عن الشعبي
نحوه. حدثني محمد بن عمرو . . . عن مجاهد في قوله
﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال للكنيسة يخدمها.
حدثني المشي . . . عن مجاهد مثله. حدثنا ابن وكيع . . .
عن مجاهد ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال خالصاً
لا يخالطه شيء من أمر الدنيا. حدثنا ابن حميد . . . عن
سعيد بن جببر ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال للبيعة
والكنيسة. حدثني المشي . . . عن سعيد ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ قال محرراً للعبادة. حدثنا بشر . . . عن
قتادة قوله ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ الآية كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها
وكانوا إنما يحررون الذكور وكان المحرور إذا حرر جعل
في الكنيسة لا يبرحها يقوم عليها ويكنسها. حدثنا الحسن
بن يحيى . . . عن قتادة في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي
مُحَرَّرًا﴾ قال نذرت ولدها للكنيسة. حدثني موسى . . .
عن السدي ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ قال وذلك أن
امرأة عمران حملت فظنت أن ما في بطنها غلام فوهته لله
محرراً لا يعمل في الدنيا. حدثني المشي . . . عن الربيع

بها وأن الأنثى لا تصلح في بعض الأحوال لدخول القدس والقيام بخدمة الكنيسة لما يعترها من الحيض والنفاس ﴿وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرَّةً﴾ كما حدثني ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ أي لما جعلتها له محررة نذيرة. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ لأن الذكر هو أقوى على ذلك من الأنثى. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ كانت المرأة لا تستطيع أن يصنع بها ذلك يعني أن تحرر للكنيسة فتجعل فيها تقوم عليها وتكنسها فلا تبرحها مما يصيبها من الحيض والأذى فعند ذلك قالت ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة قالت ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وإنما كانوا يحرون الغلمان - الـ ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرَّةً﴾ حدثني المثنى... عن الربيع قال كانت امرأة عمران حررت لله ما في بطنها وكانت على رجاء أن يهب لها غلاماً لأن المرأة لا تستطيع ذلك يعني القيام على الكنيسة لا تبرحها وتكنسها لما يصيبها من الأذى. حدثني موسى... عن السدي أن امرأة عمران ظنت أن ما في بطنها غلام فوهته لله فلما وضعت إذا هي جارية فقالت تعذر إلى الله ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ تقول إنما يحرر الغلمان يقول الله ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ فقالت ﴿وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرَّةً﴾ حدثنا القاسم... عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ يعني في المحيض ولا ينبغي لامرأة أن تكون مع الرجال أمها تقول ذلك. القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ تعين بقولها ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ وإني أجعل معاذها ومعاذ ذريتها من الشيطان الرجيم بك وأصل المعاذ الموثل والملجأ والمعقل فاستجاب الله لها فأعازها الله وذريتها من الشيطان الرجيم فلم يجعل له عليها سبيلاً. حدثنا أبو كريب عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من نفس مولود يولد إلا والشيطان ينال منه تلك الطعنة

وبها يستهل الصبي إلا ما كان من مريم ابنة عمران فإنها لما وضعتها قالت ﴿رَبِّ إِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فضرِب دونها حجاب فطعن فيه». حدثنا أبو كريب... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل مولود من ولد آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل الصبي إلا ما كان من مريم ابنة عمران ولولدها فإن أمها قالت حين وضعتها ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فضرِب دونها حجاب فطعن في الحجاب». حدثني ابن حميد... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ بنحوه. حدثني ابن حميد... عن سعيد ابن المسيب قال سمعت أبا هريرة يقول سمعت النبي ﷺ يقول «ما من بني آدم مولود يولد إلا قد مسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً بمسه آياه عدا مريم وأبنها» فقال أبو هريرة أقرأوا إن شئتم أني أعيدها بلا وذريتها من الشيطان الرجيم. حدثني يونس... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «كل مولود يولد من بني آدم يمسسه الشيطان باصبه إلا مريم وابنها». حدثني أحمد بن عبد الرحمن بن وهب... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال «كل بني آدم يمسسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها». حدثني يونس... عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ مثله وحدثني الحسن بن يحيى... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا يمسسه الشيطان فيستهل صارخاً من مسه الشيطان إلا مريم وابنها». ثم يقول أبو هريرة أقرأوا إن شئتم ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ حدثني المثنى... عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ «ما من مولود يولد إلا وقد عصره الشيطان عصرة أو عصرتين إلا عيسى ابن مريم ومريم». ثم قرأ رسول الله ﷺ ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال ما ولد مولود إلا وقد استهل غير المسيح ابن مريم لم يسلط عليه الشيطان ولم ينهزه. حدثنا الحسن بن يحيى أخبرنا المنذر بن النعمان الأفيطس أنه سمع وهب بن منبه يقول لما ولد عيسى أتت الشياطين إبليس فقالوا أصبحت الأصنام قد نكست رؤوسها فقال هذا في حادث حدث فقال مكانكم فطار حتى جاء خافقي

فلان كلاماً ولو أخرج المصدر على الفعل لقليل تكلم فلان تكلماً ومنه قوله ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ ولم يقل انبأناً حسناً وذكر عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال لم نسمع العرب تضم القاف في قبول وكان القياس الضم لأنه مصدر مثل الدخول والخروج قال ولم أسمع بحرف آخر في كلام العرب يشبهه حدثت بذلك . . . عن أبي عبيد قال أخبرني اليزيدي عن أبي عمرو وأما قوله ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فإن معناه وأنبتها ربها في غذائه ورزقه نباتاً حسناً حتى تمت فكمملت امرأة بالغة تامة كما حدثنا القاسم قال عن ابن جريج قال قال الله عز وجل فتقبلها ربها بقبول حسن قال تقبل من أمها ما أرادت بها للكنيسة وأجرها فيها وأنبتها قال نبتت في غذاء الله. القول في تأويل قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ اختلفت القراء في قراءة قوله ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ فقرأته عامة قراء أهل الحجاز والمدينة والبصرة ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ مخففة الفاء بمعنى ضمها زكريا إليه اعتباراً بقول الله عز وجل ﴿يُلْقُونَ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وكفلها زكريا بمعنى ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ الله زكريا وأولى القراءتين بالصواب في ذلك عندي قراءة من قرأ وكفلها مشددة الفاء بمعنى وكفلها الله زكريا بمعنى وضمها الله إليه لأن زكريا أيضاً ضمها إليه بإيجاب الله له ضمها إليه بالقرعة التي أخرجها الله له والآية التي أظهرها لخصومه فيها فجعله بها أولى منهم إذ قرع فيها من شاحه فيها وذلك أنه بلغنا أن زكريا وخصومه في مريم إذ تنازعوا فيها أيهم تكون عنده تساهموا بقداحهم فرموا بها في نهر الأردن فقال بعض أهل العلم ارتز [ثبت] قرح زكريا فقام ولم يجر به الماء وجرى بقداح الآخرين الماء، فجعل الله ذلك لزكريا أنه أحق المتنازعين فيها. وقال آخرون بل أصاعد قرح زكريا في النهر وانحدرت قداح الآخرين مع جرية الماء وذهبت فكان ذلك له علماً من الله في أنه أولى القوم بها وأي الأمرين كان من ذلك فلا شك أن ذلك كان قضاء من الله بها لزكريا على خصومه بأنه أولاهم بها. وإذا كان ذلك كذلك فإنما ضمها زكريا إلى نفسه بضم الله إياها إليه بقضائه له بها على خصومه عند تشاحهم فيها واختصاصهم في أولاهم بها. وإذا كان ذلك كذلك كان بينا أن أولى

الأرض فلم يجد شيئاً ثم جاء البحار فلم يجد شيئاً ثم طار أيضاً فوجد عيسى قد ولد عند مذود حمار وإذا الملائكة قد حفت حوله فرجع إليهم فقال إن نبياً قد ولد البارحة ما حملت أنثى قط ولا وضعت إلا أنا بحضرتها إلا هذه فأيسوا أن تعبد الأصنام بعد هذه الليلة ولكن اتوا بني آدم من قبل الخفة والعجلة. حدثنا بشر عن قتادة ﴿وَلَقَدْ أُعِيدَهَا يَلَكُ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «كل بني آدم طعن الشيطان في جنبه إلا عيسى ابن مريم وأمه جعل بينهما وبينه حجاب فأصابته الطعنة الحجاب ولم ينفذ إليهما شيء» وذكر لنا إنهما كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها سائر بني آدم وذكر لنا أن عيسى كان يمشي على البحر كما يمشي على البر مما أعطاه الله تعالى من اليقين والإخلاص. حدثني المثنى . . . عن الربيع ﴿وَلَقَدْ أُعِيدَهَا يَلَكُ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ قال إن نبي الله ﷺ قال «كل آدمي طعن الشيطان في جنبه غير عيسى وأمه كانا لا يصيبان الذنوب كما يصيبها بنو آدم». قال وقال عيسى ﷺ فيما يثني على ربه وأعاذني وأمي من الشيطان الرجيم فلم يكن له علينا سبيل. حدثنا الربيع بن سليمان . . . عن عبد الرحمن بن هرمز أنه قال قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «كل بني آدم يطعن الشيطان في جنبه حين تلده أمه إلا عيسى ابن مريم ذهب يطمئن فطمئن في الحجاب». حدثنا الربيع . . . عن عبد الرحمن بن هرمز أنه قال قال أبو هريرة أرأيت هذه الصرخة التي يصرخها الصبي حين تلده أمه فإنها منها. حدثني أحمد بن الفرج عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال «ما من بني آدم مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد يستهل صارخاً». القول في تأويل قوله ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ يعني بذلك أن الله جل ثناؤه تقبل مريم من أمها حنة بتحريها إياها للكنيسة وخدمتها وخدمة ربها بقبول حسن والقبول مصدر من قبلها ربها فأخرج المصدر على غير لفظ الفعل ولو كان على لفظه لكان فتقبلها ربها تقبلاً حسناً وقد تفعل العرب ذلك كثيراً أن يأتوا بالمصادر على أصول الأفعال وإن اختلفت ألفاظها في الأفعال بالزيادة وذلك كقولهم تكلم

القراءتين بالصواب ما اخترنا من تشديد ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ وأما ما اعتل به القارؤون ذلك بتخفيف الفاء من قول الله ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وأن ذلك موجب صحة اختيارهم التخفيف في قوله ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ فحجة دالة على ضعف اختيار المحتج بها. وذلك أنه غير ممتنع ذو عقل من أن يقول قائل «كفل فلان فلاناً فكفله فلاناً» فكذلك القول في ذلك ألقى القوم أقلامهم أيهم يكفل مريم بتكفيل الله إياه بقضائه الذي يقضي بينهم فيها عند إلقائهم الأقلام. وكذلك اختلفت القراءة في قراءة ﴿زَكْرِيَّا﴾ فقرأته عامة قراء المدينة بالمد. وقرأته عامة قراء الكوفة بالقصر. وهما لغتان معروفتان وقراءتان مستفيضتان في قراءة المسلمين وليس في القراءة بإحدهما خلاف لمعنى القراءة الأخرى فبأيتهما قرأ القارئ فهو مصيب. غير أن الصواب عندنا إذا مد زكريا أن ينصب بغير تنوين لأنه اسم من أسماء العجم لا يجري ولأن قراءتنا في ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بالتشديد وتثقل الفاء فزكريا منصوب بالفعل الواقع عليه وفي ﴿زَكْرِيَّا﴾ لغة ثالثة لا تجوز القراءة بها لخلافها مصاحف المسلمين وهو زكري بحذف المدة والياء الساكنة تشبهه العرب بالمنسوب من الأسماء فتنونه وتجريه في أنواع الأعراب مجاري ياء النسبة فتأويل الكلام وضمها الله إلى زكريا من قول الشاعر: «فهو لضلال الهوام كافل»، يراد به لما ضل من متفرق النعم ومتشره ضام إلى نفسه وجامع. وقد روى: «فهو لضلال الهوامي كافل»، بمعنى أنه لما ند فهرب من النعم ضام من قولهم هفا الظليم إذا أسرع الطيران. يقال منه للرجل «مالك تكفل كل ضالة» يعني به تضمها إليك وتأخذها وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني عبد الرحمن بن الأسود الطفاوي... عن عكرمة في قوله ﴿إِذْ يَقُولُ أَفَلَمْ يَكْفُلْ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] قال ألقوا أقلامهم فجرت بها الجرية إلا قلم زكريا أصاعد فكفلها زكريا. حدثني المثنى... عن الربيع قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ قال ضمها إليه قال ألقوا أقلامهم يقول عصيهم قال فألقوها تلقاء جرية الماء فاستقبلت عصا زكريا جرية الماء فقرعهم. حدثني موسى عن السدي قال

الله عز وجل ﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ فانطلقت بها أمها في خرقتها يعني أم مريم بمريم حين ولدتها إلى المحراب وقال بعضهم انطلقت حين بلغت إلى المحراب وكان الذين يكتبون التوراة إذا جاؤا إليهم بإنسان يجربونه اقترعوا عليه أيهم يأخذه فيعلمه. وكان زكريا أفضلهم يومئذ وكان بينهم وكانت خالة مريم تحته فلما أتوا بها اقترعوا عليها وقال لهم زكريا أنا أحقكم بها تحتي خالتها فأبوا فخرجوا إلى نهر الأردن فألقوا أقلامهم التي يكتبون بها أيهم يقوم قلمه فيكفلها فجرت الأقلام وقام قلم زكريا على قرنته كأنه في طين فأخذ الجارية. وذلك قول الله عز وجل ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ فجعلها زكريا معه في بيته وهو المحراب. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ يقول ضمها إليه، حدثني محمد بن عمر... عن مجاهد في قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ قال سهمهم بقلمه. حدثني المثنى... عن مجاهد نحوه حدثني المثنى... عن قتادة قال كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم قال فتشاح عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها قال قتادة وكان زكريا زوج خالتها فكلفها وكانت عنده وحضنها. حدثنا القاسم... عن عكرمة وأبي بكر عن عكرمة قال ثم خرجت بها يعني أم مريم بمريم في خرقتها تحملها إلى بني الكاهن بن هرون أخي موسى بن عمران قال وهم يومئذ يلون من بيت المقدس ما يلي الحجة من الكعبة، فقالت لهم دونكم هذه النذيرة فإني حررتها وهي ابنتي ولا يدخل الكنيسة حائض وأنا لا أردّها إلى بيتي فقالوا هذه ابنة إمامنا وكان عمران يؤمهم في الصلاة وصاحب قرباننا فقال زكريا ادفعوها إليّ فإن خالتها عندي قالوا لا تطيب أنفسنا هي ابنة إمامنا فذلك حين اقترعوا فاقترعوا بأقلامهم عليها بالأقلام التي يكتبون بها التوراة فقرعهم زكريا. فكفلها حدثنا القاسم... عن ابن عباس قال جعلها زكريا معه في محرابه قال الله عز وجل ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ قال حجاج قال ابن جريج الكاهن في كلامهم العالم. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ بعد أبيها وأمها يذكرها باليتيم ثم قص خبرها وخبر زكريا. حدثنا المثنى عن سعيد

بن جببر قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال كانت عند. حدثني علي بن سهل... عن سعيد بن جببر قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ قال جعلها زكريا معه في محرابه. حدثني محمد بن سنان عن الحسن في قوله ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ وتقارعها القوم فقرع زكريا فكفلها زكريا. وقال آخرون بل كان زكريا بعد ولادة حنة ابنتها مريم كفَّلها بغير اقتراع ولا استهم عليها ولا منازعة أحد إياه فيها وإنما كفَّلها لأن أمها ماتت بعد موت أبيها وهي طفلة وعند زكريا خالتها ايشاع ابنة فاقوذ وقد قيل إن اسم أم يحيى خالة عيسى أشيع حدثنا بذلك القاسم... عن شعيب الحياتي أن اسم أم يحيى أشيع. فضمها إلى خالتها أم يحيى فكانت إليهم ومعهم حتى إذا بلغت أدخلوها الكنيسة لنذر أمها التي نذرت فيها قالوا: والاقتراع فيها بالأقلام إنما كان بعد ذلك بمدة طويلة لشدة إصابتهم ضعف زكريا عن حمل مؤنتها.

فتدافعوا حمل مؤنتها لا رغبة منهم ولا تنافساً عليها وعلى احتمال مؤنتها وسنذكر قصتها على قول من قال ذلك إذا بلغنا إليها إن شاء الله تعالى. حدثنا بذلك ابن حميد... عن محمد بن اسحق فعلى هذا التأويل تصح قراءة من قرأ «وكفلها زكريا» بتخفيف الفاء لو صح التأويل. غير أن القول متظاهر من أهل التأويل بالقول الأول أن استهم القوم فيها كان قبل كفالة زكريا إياها وأن زكريا إنما كفَّلها بإخراج سهمه منها فالجأ على سهام خصومه فيها فلذلك كانت قراءته بالتشديد عندنا أولى من قراءته بالتخفيف. القول في تأويل قوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ يعني بذلك جل ثناؤه أن زكريا كان كلما دخل عليها المحراب بعد إدخاله إياها المحراب وجد عندها رزقاً من الله لغنائها فقل إن ذلك الرزق الذي كان يجده زكريا عندها فأكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء ذكر من قال ذلك: حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال وجد عندها عنباً في مكتل في غير حينه. حدثنا ابن حميد... عن سعيد في قوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال العنب في غير حينه.

حدثني يعقوب... عن إبراهيم في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال فأكهة في غير حينها. حدثني يعقوب... عن الضحاك أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف يعني في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك مثله. حدثني المثنى... عن الضحاك مثله. حدثنا القاسم... عن الضحاك مثله. حدثنا يعقوب... عن مجاهد قال كان يجد عندها العنب في غير حينه. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال عنباً وجده زكريا عند مريم في غير زمانه. حدثني المثنى... عن مجاهد نحوه. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. حدثنا بشر... عن قتادة في قوله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال كنا نحدث أنها كانت تؤتى بفاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة وجد عندها رزقاً قال وجد عندها ثمرة في غير زمانها. حدثني المثنى... عن الربيع قال جعل زكريا دونها عليها سبعة أبواب فكان يدخل عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف في الشتاء حدثني موسى بن عبد الرحمن... عن السدي قال جعلها زكريا معه في بيت وهو المحراب فكان يدخل عليها في الشتاء فيجد عندها فاكهة الصيف ويدخل في الصيف فيجد عندها فاكهة الشتاء. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال كان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء. حدثنا القاسم... عن ابن عباس ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ قال وجد عندها ثمار الجنة فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال حدثني بعض أهل العلم أن زكريا كان يجد عندها ثمرة الشتاء في الصيف وثمره الصيف في الشتاء. حدثني محمد بن سنان... عن الحسن قال كان زكريا إذا دخل عليها يعني على مريم المحراب وجد عندها رزقاً من السماء من الله ليس من عند الناس وقالوا لو أن زكريا كان

والمحاريب جمع محراب وقد يجمع على محارب .
القول في تأويل قوله ﴿ قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ
عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ يعني بذلك جل
ثناؤه ﴿ قَالَ ﴾ زكريا ﴿ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ من أي وجه
لك هذا الذي أرى عندك من الرزق قالت مريم مجيبة له
﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ تعني أن الله هو الذي رزقها ذلك فساقه
إليها وأعطاه . وإنما كان زكريا يقول ذلك لها لأنه كان
فيما ذكر لنا يغلط عليها سبعة أبواب ويخرج ثم يدخل
عليها فيجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف وفاكهة الصيف
في الشتاء فكان يعجب مما يرى من ذلك ويقول لها تعجباً
مما يرى ﴿ أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ فتقول من عند الله . حدثني
بذلك المثنى . . . عن الربيع . حدثنا ابن حميد . . . عن
ابن اسحق قال حدثني بعض أهل العلم فذكر نحوه .
حدثني محمد بن سعد . . . عن ابن عباس قوله ﴿ يَمْرُؤُا أَنَّى
لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴾ قال فإنه وجد عندها
الفاكهة الغضة حين لا توجد الفاكهة عند أحد فكان زكريا
يقول ﴿ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ وأما قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ
يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ فخير من الله أنه يسوق إلى من يشاء
من خلقه رزقه بغير احصاء ولا عدد يحاسب عليه عبده
لأنه جل ثناؤه لا ينقص سوقه ذلك إليه كذلك خزائنه ولا
يزيد اعطاؤه إياه ومحاسبته عليه في ملكه وفيما لديه شيئاً
ولا يغرب عنه علم ما يرزقه وإنما يحاسب من يعطى ما
يعطيه من يخشى النقصان من ملكه بخروج ما خرج من
عنده بغير حساب معروف ومن كان جاهلاً بما يعطى على
غير حساب .

يعلم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه . وقال
آخرون : بل معنى ذلك أن زكريا كان إذا دخل إليها
المحراب وجد عندها من الرزق فضلاً عما كان يأتيها به
الذي كان يموئها في تلك الأيام . ذكر من قال ذلك : حدثنا
ابن حميد . . . عن محمد بن اسحق قال كفلها بعد هلاك
أمها فضمها إلى خالتها أم يحيى حتى إذا بلغت أدخلوها
الكنيسة لنذر أمها الذي نذرت فيها فجعلت تنبت وتزيد .
قال ثم أصابت بني إسرائيل أزمة وهي على ذلك من حالها
حتى ضعف زكريا عن حملها فخرج على بني إسرائيل
فقال يا بني إسرائيل أتعلمون والله لقد ضعفت عن حمل
ابنة عمران فقالوا ونحن لقد جهدنا وأصابنا من هذه السنة
ما أصابكم فتدافعوها بينهم وهم لا يرون لهم من حملها
بدا حتى تقارعوا بالأفلام فخرج السهم بحملها على رجل
من بني إسرائيل نجار يقال له جريج قال فعرفت مريم في
وجهه شدة مؤونة ذلك عليه فكانت تقول له يا جريج
أحسن بالله الظن فإن الله سيرزقنا فجعل جريج يرزق
بمكانها فيأتيها كل يوم من كسبه بما يصلحها فإذا أدخله
عليها وهي في الكنيسة أنما الله وكثره فدخل عليها زكريا
فيرى عندها فضلاً من الرزق وليس بقدر ما يأتيها به جريج
فيقول ﴿ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا ﴾ فتقول ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ
اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ . وأما ﴿ الْمَحْرَابَ ﴾ فهو
مقدم كل مجلس ومصلى وهو سيد المجالس وأشرفها
وأكرمها وكذلك هو من المساجد ومنه قول عدي بن زيد :

كدمي العاج في المحاريب أو كال

بيض في الروض زهرة مستنير

الرازي ج ٨ ص ٣٥ - ٣٧

مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ .

وفيه مسائل :

المسألة الأولى : في موضع (إذ) من الإعراب أقوال :
(الأول) قال أبو عبيدة : إنها زائدة لغواً ، والمعنى : قالت
امرأة عمران ، ولا موضع لها من الإعراب ، قال الزجاج :
لم يصنع أبو عبيدة في هذا شيئاً ، لأنه لا يجوز إلغاء حرف
من كتاب الله تعالى ، ولا يجوز حذف حرف من كتاب الله

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي
بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . فَلَمَّا وَضَعَتْهَا
قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ
كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا
حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا
رِزْقًا قَالَ يَمْرُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ

بإلهام من الله ولولاه ما فعلت كما رأى إبراهيم ذبح ابنه في المنام فعلم أن ذلك أمر من الله وإن لم يكن عن وحي، وكما ألهم الله أم موسى فقلته في اليم وليس بوحى.

المسألة الثالثة: المحرر الذي يجعل حراً خالصاً، يقال: حررت العبد إذا خلصته عن الرق، وحررت الكتاب إذا أصلحته، وخلصته فلم تبق فيه شيئاً من وجوه الغلط، ورجل حر إذا كان خالصاً لنفسه ليس لأحد عليه تعلق، والطين الحر الخالص عن الرمل والحجارة والحماة والعيوب أما التفسير فقليل مخلصاً للعبادة عن الشعبي، وقيل: خادماً للبيعة، وقيل: عتيقاً من أمر الدنيا لطاعة الله، وقيل: خادماً لمن يدرس الكتاب، ويعلم في البيع . . . قال الأصم: لم يكن لبني إسرائيل غنيمة ولا سبي، فكان تحريرهم جعلهم أولادهم على الصفة التي ذكرنا، وذلك لأنه كان الأمر في دينهم أن الولد إذا صار بحيث يمكن استخدامه كان يجب عليه خدمة الأبوين، فكانوا بالنذر يتركون ذلك النوع من الإنتفاع، ويجعلونهم محررين لخدمة المسجد وطاعة الله تعالى، وقيل: كان المحرر يجعل في الكنيسة يقوم بخدمتها حتى يبلغ الحلم، ثم يخير بين المقام والذهاب، فإن أبى المقام وأراد أن يذهب ذهب، وإن اختار المقام فليس له بعد ذلك خيار، ولم يكن نبي إلا ومن نسله محرر في بيت المقدس.

المسألة الرابعة: هذا التحرير لم يكن جائزاً إلا في الغلمان أما الجارية فكانت لا تصلح لذلك لما يصيبها من الحيض والأذى، ثم إن حنة نذرت مطلقاً إما لأنها بنت الأمر على التقدير، أو لأنها جعلت ذلك النذر وسيلة إلى طلب الذكر . . .

ثم قال الله تعالى حاكياً عنها ﴿فَقَبَّلَ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ التقبل: أخذ الشيء على الرضا، قال الواحدي: وأصله من المقابلة لأنه يقبل بالجزاء، وهذا كلام من لا يريد بما فعله إلا الطلب لرضا الله تعالى والإخلاص في عبادته، ثم قالت ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمعنى: أنك أنت السميع لتضرعي ودعائي وندائي، العليم بما في ضميري وقلبي ونيتي.

واعلم أن هذا النوع من النذر كان في شرع بني إسرائيل

تعالى من غير ضرورة. (والثاني) قال الأخفش والمبرد: التقدير «اذكر إذ قالت امرأة عمران» ومثله في كتاب الله تعالى كثير. (الثالث) قال الزجاج، التقدير: واصطفى آل عمران على العالمين ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ﴾ وطعن ابن الأنباري فيه وقال: إن الله تعالى قرن اصطفاء آل عمران باصطفاء آدم ونوح، ولما كان اصطفاؤه تعالى آدم ونوحاً قبل قول امرأة عمران استحال أن يقال: إن هذا الاصطفاء مقيد بذلك الوقت الذي قالت امرأة عمران هذا الكلام فيه ويمكن أن يجاب عنه بأن أثر اصطفاء كل واحد إنما ظهر عند وجوده، وظهور طاعته، فجاز أن يقال: إن الله اصطفى آدم عند وجوده، ونوحاً عند وجوده، وآل عمران عندما قالت امرأة عمران هذا الكلام. (الرابع) قال بعضهم: هذا متعلق بما قبله، والتقدير: والله سميع عليم إذا قالت امرأة عمران هذا القول.

فإن قيل: إن الله سميع عليم قبل أن قالت المرأة هذا القول، فما معنى هذا التقييد؟

قلنا: إن سمعه تعالى لذلك الكلام مقيد بوجود ذلك الكلام وعلمه تعالى بأنها تذكر ذلك مقيد بذكرها لذلك والتغير في العلم والسمع إنما يقع في النسب والمتعلقات. **المسألة الثانية:** إن زكريا بن اذن، وعمران بن ماثان، كانا في عصر واحد، وامرأة عمران حنة بنت فاقوذ، وقد تزوج زكريا بابنته ايشاع أخت مريم، وكان يحيى وعيسى عليهما السلام ابني خالة، ثم في كيفية هذا النذر روايات:

الرواية الأولى: قال عكرمة. إنها كانت عاقراً لا تلد، وكانت تغبط النساء بالأولاد، ثم قالت: اللهم إن لك عليّ نذراً إن رزقتني ولداً أن أتصدق به على بيت المقدس ليكون من سدنته.

والرواية الثانية: قال محمد بن إسحق: إن أم مريم ما كان يحصل لها ولد حتى شاخت، وكانت يوماً في ظل شجرة فرأت طائراً يطعم فرخاً له فتحركت نفسها للولد، فدعت ربها أن يهب لها ولداً فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما عرفت جعلته لله محرراً، أي خادماً للمسجد. قال الحسن البصري: إنها إنما فعلت ذلك

العبادة، ولا يصح ذلك في الأنثى لمكان الحيض وسائر عوارض النسوان. و (الثالث) الذكر يصلح لقوته وشدته للخدمة دون الأنثى فإنها ضعيفة لا تقوى على الخدمة. و (الرابع) أن الذكر لا يلحقه عيب في الخدمة والاختلاط بالناس وليس كذلك الأنثى. و (الخامس) أن الذكر لا يلحقه من التهمة عند الاختلاط ما يلحق الأنثى فهذه الوجوه تقتضي فضل الذكر على الأنثى في هذا المعنى.

والقول الثاني: أن المقصود من هذا الكلام ترجيح هذه الأنثى على الذكر، كأنها قالت الذكر مطلوبي وهذه الأنثى موهوبة الله تعالى، وليس الذكر الذي يكون مطلوبي كالأنثى التي هي موهوبة لله، وهذا الكلام يدل على أن تلك المرأة كانت مستغرقة في معرفة جلال الله عالمة بأن ما يفعله الرب بالعبد خير مما يريد العبد لنفسه.

ثم حكى تعالى عنها كلاماً ثانياً وهو قولها ﴿وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيماً﴾ وفيه أبحاث:

البحث الأول: أن ظاهر هذا الكلام يدل على ما حكينا من أن عمران كان قد مات في حال حمل حنة بمريم، فلذلك تولت الأم تسميتها، لأن العادة أن ذلك يتولاه الآباء.

البحث الثاني: أن مريم في لغتهم: العابدة، فأرادت بهذه التسمية أن تطلب من الله تعالى أن يعصمها من آفات الدين والدنيا، والذي يؤكد هذا قولها بعد ذلك ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾.

البحث الثالث: أن قوله ﴿وَإِنِّي سَمِعْتُهَا مَرِيماً﴾ معناه: وإني سميتها بهذا اللفظ أي جعلت هذا اللفظ اسماً لها، وهذا يدل على أن الاسم والمسمى والتسمية أمور ثلاثة متغايرة.

ثم حكى الله تعالى عنها كلاماً ثالثاً وهو قولها ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وذلك لأنه لما فاتها ما كانت تريد من أن يكون رجلاً خادماً للمسجد تضرعت إلى الله تعالى في أن يحفظها من الشيطان الرجيم، وأن يجعلها من الصالحات القانتات، وتفسير الشيطان الرجيم قد تقدم في أول الكتاب.

ولما حكى الله تعالى عن حنة هذه الكلمات قال

وغير موجود في شرعنا، والشرائع لا يمتنع اختلافها في مثل هذه الأحكام.

قال تعالى ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ واعلم أن هذا الضمير إما أن يكون عائداً إلى الأنثى التي كانت في بطنها وكان عالماً بأنها كانت أنثى أو يقال: إنها عادت إلى النفس والنسمة أو يقال: عادت إلى المنذورة.

ثم قال تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ واعلم أن الفائدة في هذا الكلام أنه تقدم منها النذر في تحرير ما في بطنها، وكان الغالب على ظنها أنه ذكر فلم تشترط ذلك في كلامها، وكانت العادة عندهم أن الذي يحرر ويفرغ لخدمة المسجد وطاعة الله هو الذكر دون الأنثى فقالت ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ خائفة أن نذرهما لم يقع الموقع الذي يعتد به ومعتذرة من إطلاقها النذر المتقدم فذكرت ذلك لا على سبيل الإعلام لله تعالى، تعالى الله عن أن يحتاج إلى إعلامها، بل ذكرت ذلك على سبيل الاعتذار.

ثم قال الله تعالى ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ قرأ أبو بكر عن عاصم وابن عامر ﴿وَضَعَتْ﴾ برفع التاء على تقدير أنها حكاية كلامها، والفائدة في هذا الكلام أنها لما قالت ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ خافت أن يظن بها أنها تخبر الله تعالى، فأزالت الشبهة بقولها ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ وثبت أنها إنما قالت ذلك للاعتذار لا للإعلام، والباقيون بالجزم على أنه كلام الله، وعلى هذه القراءة يكون المعنى أنه تعالى قال: والله أعلم بما وضعت تعظيماً لولدها، وتجهيلاً لها بقدر ذلك الولد، ومعناه: والله أعلم بالشيء الذي وضعت وبما علق به من عظام الأمور، وأن يجعله وولده آية للعالمين، وهي جاهلة بذلك لا تعلم منه شيئاً فلذلك تحسرت، وفي قراءة ابن عباس ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ على خطاب الله لها، أي: أنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب والله هو العالم بما فيه من العجائب والآيات.

ثم قال تعالى حكاية عنها ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ وفيه قولان: (الأول) أن مرادها تفضيل الولد الذكر على الأنثى، وسبب هذا التفضيل من وجوه: (أحدها) أن شرعهم أنه لا يجوز تحرير الذكور دون الإناث. و (الثاني) أن الذكر يصح أن يستمر على خدمة موضع

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: إنما قال ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾ ولم يقل: فتقبلها ربها بتقبل لأن القبول والتقبل متقاربان قال تعالى ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: ١٧] أي إنباتاً، والقبول مصدر قولهم: قبل فلان الشيء قبولاً إذا رضي به، قال سيويه: خمسة مصادر جاءت على فعول: قبول وطهور ووضوء ووقود وولوغ، إلا أن الأكثر في الوقود إذا كان مصدراً الضم، وأجاز الفراء والزجاج: قبولاً بالضم، وروى ثعلب عن ابن الأعرابي يقال: قبلته قبولاً وقبولاً، وفي الآية وجه آخر وهو أن ما كان من باب الفعل فإنه يدل على شدة اعتناء ذلك الفاعل بإظهار ذلك الفعل كالمتصبر والتجلد ونحوهما فإنهما يفيدان الجهد في إظهار الصبر والجلادة، فكذا ههنا التقبل يفيد المبالغة في إظهار القبول.

فإن قيل: فلم لم يقل: فتقبلها ربها بتقبل حسن حتى صارت المبالغة أكمل؟

و (الجواب) أن لفظ التقبل وإن أفاد ما ذكرنا إلا أنه يفيد نوع تكلف على خلاف الطبع، أما القبول فإنه يفيد معنى القبول على وفق الطبع فذكر التقبل ليفيد الجهد والمبالغة، ثم ذكر القبول ليفيد أن ذلك ليس على خلاف الطبع، بل على وفق الطبع، وهذه الوجوه وإن كانت ممتنعة في حق الله تعالى، إلا أنها تدل من حيث الاستعارة على حصول العناية العظيمة في تربيتها، وهذا الوجه مناسب معقول.

المسألة الثانية: ذكر المفسرون في تفسير ذلك القبول الحسن وجوهاً:

الوجه الأول: . . . طعن القاضي في هذا الخبر وقال: إنه خبر واحد على خلاف الدليل فوجب رده، وإنما قلنا: إنه على خلاف الدليل لوجوه: (أحدها) أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من يعرف الخير والشر والصبي وليس كذلك. و (الثاني) أن الشيطان لو تمكن من هذا النخس لفعل أكثر من ذلك من إهلاك الصالحين وإفساد أحوالهم و (الثالث) لم خص بهذا الاستثناء مريم وعيسى عليهما السلام دون سائر الأنبياء عليهم السلام. (الرابع) أن ذلك

النخس لو وجد بقي أثره، ولو بقي أثره لدام الصراخ والبكاء، فلما لم يكن كذلك علينا بطلانه، واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وبأمثالها لا يجوز دفع الخبر والله أعلم. الوجه الثاني: في تفسير أن الله تعالى تقبلها بقبول حسن، ما روي أن حنة حين ولدت مريم لفتها في خرقة وحملتها إلى المسجد ووضعتها عند الأحبار أبناء هارون، وهم في بيت المقدس كالحجبة في الكعبة، وقالت: خذوا هذه النذيرة. . .

الوجه الثالث: روى القفال عن الحسن أنه قال: إن مريم تكلمت في صباها كما تكلم المسيح ولم تلتقم ثدياً قط، وإن رزقها كان يأتيها من الجنة.

الوجه الرابع: في تفسير القبول الحسن أن المعتاد في تلك الشريعة أن التحرير لا يجوز إلا في حق الغلام حين يصير عاقلاً قادراً على خدمة المسجد، وههنا لما علم الله تعالى تضرع تلك المرأة قبل تلك الجارية حال صغرها وعدم قدرتها على خدمة المسجد، فهذا كله هو الوجوه المذكورة في تفسير القبول الحسن.

ثم قال الله تعالى ﴿وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ قال ابن الأنباري: التقدير أنبتها فنبتت هي نباتاً حسناً ثم منهم من صرف هذا النبات الحسن إلى ما يتعلق بالدنيا، ومنهم من صرفه إلى ما يتعلق بالدين، أما الأول فقالوا: المعنى أنها كانت تنبت في اليوم مثل ما ينبت المولود في عام واحد، وأما في الدين فلأنها نبئت في الصلاح والسداد والعفة والطاعة.

ثم قال الله تعالى ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: يقال: كفل يكفل كفالة وكفلاً فهو كافل، وهو الذي ينفق على إنسان ويهتم بإصلاح مصالحه، وفي الحديث «أنا وكافل اليتيم كهاتين» وقال الله تعالى ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾ [ص: ٢٣].

المسألة الثانية: قرأ عاصم وحمة والكسائي ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بالتشديد، ثم اختلفوا في زكريا فقرأ عاصم بالمد، وقرأ حمزة والكسائي بالقصر على معنى ضمها الله تعالى إلى زكريا، فمن قرأ (زكريا) بالمد أظهر النصب ومن قرأ بالقصر كان في محل النصب والباقون قرأوا بالمد

والرفع على معنى ضمها زكرياء إلى نفسه، وهو الاختيار، لأن هذا مناسب لقوله تعالى ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٤] وعليه الأكثر، وعن ابن كثير في رواية ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ بكسر الفاء، وأما القصر والمد في زكريا فهما لغتان، كالهيجاء والهيجاء، وقرأ مجاهد (فتقبلها ربها، وأنبئها، وكفلها) على لفظ الأمر في الأفعال الثلاثة، ونصب ﴿رَبُّهَا﴾ كأنها كانت تدعو الله فقالت: اقبلها يا ربها، وأنبئها يا ربها، واجعل زكريا كافلاً لها.

المسألة الثالثة: اختلفوا في كفالة زكريا عليه السلام إياها متى كانت، فقال الأكثرون: كان ذلك حال طفوليتها، وبه جاءت الروايات، وقال بعضهم: بل إنما كفّلها بعد أن فطمت، واحتجوا عليه بوجهين: (الأول) أنه تعالى قال ﴿وَأَنبَأَهَا نَبَأًا حَسَنًا﴾ ثم قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا﴾ وهذا يوهّم أن تلك الكفالة بعد ذلك النبات الحسن و (الثاني) أنه تعالى قال ﴿وَكَفَّلَهَا زَكْرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِؤُا لَئِنْ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ وهذا يدل على أنها كانت قد فارقت الرضاع وقت تلك الكفالة، وأصحاب القول الأول أجابوا بأن الواو لا توجب الترتيب، فلعل الإنبات الحسن وكفالة زكرياء حصلوا معاً.

وأما الحجة الثانية: فلعل دخوله عليها وسؤاله منها هذا السؤال إنما وقع في آخر زمان الكفالة.

ثم قال الله ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكْرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿الْمِحْرَابَ﴾ الموضع العالي الشريف، قال عمر بن أبي ربيعة:

ربّة محراب إذا جئته

لم أدن حتى أرتقي سلماً
واحتج الأصمعي على أن المحراب هو الغرفة بقوله تعالى ﴿وَإِذْ سَأَلُوا الْمِحْرَابَ﴾ [ص: ٢١] والتسور لا يكون إلا من علو، وقيل: المحراب أشرف المجالس وأرفعها، يروى أنها لما صارت شابة بنى زكريا عليه السلام لها غرفة في المسجد، وجعل بابها في وسطه لا يصعد إليه إلا بسلم، وكان إذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: المراد من ذلك هو أن الله تعالى خلق لها ولداً من غير ذكر؟

قلنا: ليس هذا بآية، بل يحتاج تصحيحه إلى آية، فكيف نحمل الآية على ذلك، بل المراد من الآية ما يدل على صدقها وطهارتها، وذلك لا يكون إلا بظهور خوارق العادات على يدها كما ظهرت على يد ولدها عيسى عليه السلام. (الخامس) ما تواترت الروايات به أن زكريا عليه السلام كان يجد عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف في الشتاء. فثبت أن الذي ظهر في حق مريم عليها السلام كان فعلاً خارقاً للعادة، فنقول: إما أن يقال: إنه

الضعف، لأنه لو كان ذلك معجزاً لذكرها عليه السلام كان مأذوناً له من عند الله تعالى في طلب ذلك، ومتى كان مأذوناً في ذلك الطلب كان عالمياً قطعاً بأنه يحصل، وإذا علم ذلك امتنع أن يطلب منها كيفية الحال، ولم يبق أيضاً لقوله ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ فائدة، وهذا هو الجواب بعينه عن الوجه الثاني.

وأما سؤاله الثالث ففي غاية الركاقة لأن هذا التقدير لا يبقى فيه وجه اختصاص لمريم بمثل هذه الواقعة، وأيضاً فإن كان في قلبه احتمال أنه ربما أتاها هذا الرزق من الوجه الذي لا ينبغي فبمجرد إخبارها كيف يعقل زوال تلك التهمة فعلمنا سقوط هذه الأسئلة وبالله التوفيق.

أما المعتزلة فقد احتجوا على امتناع الكرامات بأنها دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير الأنبياء، كما أن الفعل المحكم لما كان دليلاً على العلم لا جرم لا يوجد في حق غير العالم.

والجواب من وجوه: (الأول) وهو أن ظهور الفعل الخارق للعادة دليل على صدق المدعي، فإن ادعى صاحبه النبوة فذاك الفعل الخارق للعادة يدل على كونه نبياً، وإن ادعى الولاية فذلك يدل على كونه ولياً. و (الثاني) قال بعضهم: الأنبياء مأمورون بإظهارها، والأولياء مأمورون بإخفائها. و (الثالث) وهو أن النبي يدعي المعجز ويقطع به، والولي لا يمكنه أن يقطع به. و (الرابع) أن المعجزة يجب انفكاكها عن المعارضة، والكرامة لا يجب انفكاكها عن المعارضة، فهذا جملة الكلام في هذا الباب وبالله التوفيق.

ثم قال تعالى حكاية عن مريم عليها السلام ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ فهذا يحتمل أن يكون من جملة كلام مريم، وأن يكون من كلام الله سبحانه وتعالى، وقوله ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير تقدير لكثرت، أو من غير مسألة سألها على سبيل يناسب حصولها، وهذا كقوله ﴿وَيَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] وههنا آخر الكلام في قصة حنة...

كان معجزة لبعض الأنبياء أو ما كان كذلك، والأول باطل لأن النبي الموجود في ذلك الزمان هو زكريا عليه السلام، ولو كان ذلك معجزة له لكان عالمياً بحاله وشأنه، فكان يجب أن لا يشبه أمره عليه وأن لا يقول لمريم ﴿أَنْ لَّيْسَ هَكَذَا﴾ وأيضاً فقوله تعالى ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ﴾ مشعر بأنه لما سألها عن أمر تلك الأشياء ثم أنها ذكرت له أن ذلك من عند الله فهنالك طمع في انخراق العادة في حصول الولد من المرأة العقيمة الشیخة العاقر وذلك يدل على أنه ما وقف على تلك الأحوال إلا بأخبار مريم، ومتى كان الأمر كذلك ثبت أن تلك الخوارق ما كانت معجزة لزكريا عليه السلام فلم يبق إلا أن يقال: إنها كانت كرامة لعيسى عليه السلام، أو كانت كرامة لمريم عليها السلام، وعلى التقديرين فالمقصود حاصل، فهذا هو وجه الاستدلال بهذه الآية على وقوع كرامات الأولياء.

اعترض أبو علي الجبائي وقال: لم لا يجوز أن يقال إن تلك الخوارق كانت من معجزات زكريا عليه السلام، وبيانه من وجهين: (الأول) أن زكريا عليه السلام دعا لها على الإجمال أن يوصل الله إليها رزقاً، وأنه ربما كان غافلاً عن تفاصيل ما يأتيها من الأرزاق من عند الله تعالى، فإذا رأى شيئاً بعينه في وقت معين قال لها ﴿أَنْ لَّيْسَ هَكَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فعند ذلك يعلم أن الله تعالى أظهر بدعائه تلك المعجزة. و (الثاني) يحتمل أن يكون زكريا يشاهد عند مريم رزقاً معتاداً إلا أنه كان يأتيها من السماء، وكان زكريا يسألها عن ذلك حذراً من أن يكون يأتيها من عند إنسان يبعثه إليها، فقالت هو من عند الله لا من عند غيره.

المقام الثاني: إنا لا نسلم أنه كان قد ظهر على مريم شيء من خوارق العادات، بل معنى الآية أن الله تعالى كان قد سبب لها رزقاً على أيدي المؤمنين الذين كانوا يرغبون في الإنفاق على الزاهدات العابدات، فكان زكريا عليه السلام إذا رأى شيئاً من ذلك خاف أنه ربما أتاها ذلك الرزق من وجه لا ينبغي، فكان يسألها عن كيفية الحال، هذا مجموع ما قاله الجبائي في تفسيره وهو في غاية

ابن عربي ج ١ ص ١٨١ - ١٨٢

ونياته فاسدة رديئة، جاء ولده فاسقاً، أو كافراً خبيثاً. إذ النطفة التي يتكوّن الولد منها متولدة من ذلك الغذاء، مربّاة بتلك النفس فتناسبها، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «الولد سرّ أبيه» فكان صدق مريم، وبنوة عيسى، بركة صدق أبيها.

﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾، يجوز أن يراد به الرزق الروحاني، من المعارف والحقائق والعلوم، والحكم الفائضة عليها من عند الله، إذ الاختصاص بالعندية، يدل على كونها من الأرزاق اللدنية.

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ حين قالت امرأة عمران ربّ إنني نذرت، لقولها: ﴿عَلَيْسَ﴾ بنيتها كما شهدت بقولها: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾.

واعلم أن النيات وهيئات النفس، مؤثرة في نفس الولد كما أن الأغذية مؤثرة في بدنه، فمن كان غذاؤه حلالاً طيباً، وهيئات نفسه نورية، ونياته صادقة حقانية، جاء ولده مؤمناً صديقاً، أو ولياً أو نبياً. ومن كان غذاؤه حراماً، وهيئات نفسه ظلمانية خبيثة،

الألوسي ج ٢ ص ١٣٣ - ١٤٤

الأب على أن عمران نكح أولاً أم حنة فولدت له إيشاع ثم نكح حنة بناءً على حل نكاح الربائب في شريعتهم فولدت مريم فكانت إيشاع أخت مريم من الأب وخالتها من الأم لأنها أخت حنة من الأم، وفيه أنه مخالف لما ذكره محيي السنة من أن إيشاع وحنة بنتا فاقوذاً على أنه بعيد لعدم الرواية في الأمرين.

أخرج ابن عساكر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن حنة امرأة عمران كانت حبست عن الولد والمحيض فبينما هي ذات يوم في ظل شجرة إذ نظرت إلى طير يزق فرحاً له فتحرّكت نفسها للولد فدعت الله تعالى أن يهب لها ذكراً فحاضت من ساعتها فلما طهرت أتاه زوجها فلما أيقنت بالولد قالت: لئن نجاني الله تعالى ووضعت ما في بطني لأجعله محرراً ولم يكن يحرق في ذلك الزمان إلا الغلمان فقال لها زوجها: أرايت إن كان ما في بطنك أنثى - والأنثى عورة - فكيف تصنعين؟ فاعتمت لذلك فقالت عند ذلك:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي﴾ وهذا في الحقيقة استدعاء للولد الذكر لعدم قبول الأنثى فيكون المعنى - ربّ إنني نذرت لك ما في بطني فأجعله ذكراً على حدّ اعتق عبدك عني - وجعله بعض الأئمة تأكيداً لنذرها وإخراجاً له عن صورة التعليق إلى هيئة التنجيز واللام من (لك) للتعليل، والمراد لخدمة بيتك - والمحرر - من لا

﴿إِذْ قَالَتْ أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ﴾ تقرير للاصطفاء وبيان كلفيته، والظرف في حيز النصب على المفعولية بفعل محذوف أي اذكر لهم وقت قولها، وقيل: هو منصوب على الظرفية لما قبله، وهو ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ على سبيل التنازع أو - السميع - ولا يضر الفصل بينهما بالأجنبي لتوسعهما في الظروف، وقيل: هو ظرف لمعنى الاصطفاء المدلول عليه - باصطفى - المذكور كأنه قيل: واصطفى آل عمران ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ إلخ فكان من عطف الجمل على الجمل لا المفردات على المفردات ليلزم كون اصطفاء الكل في ذلك الوقت، و﴿أَمْرَأْتُ عِمْرَانُ﴾ هي حنة بنت فاقوذا - كما رواه إسحق ابن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه. والحاكم عن أبي هريرة - وهي جدة عيسى عليه الصلاة والسلام وكان لها أخت اسمها إيشاع تزوجها زكريا عليه الصلاة والسلام - هي أم يحيى - فعيسى ابن بنت خالة يحيى - كما ذكر ذلك غير واحد من الإخباريين - ويشكل عليه ما أخرجه الشيخان في حديث المعراج من قوله ﷺ: «إذا أنا با بني الخالة عيسى ابن مريم. ويحيى بن زكريا» وأجاب صاحب التقريب بأن الحديث مخرج على المجاز فإنه كثيراً ما يطلق الرجل اسم الخالة على بنت خالته لكرامتها عليه، والغرض أن بينهما عليهما الصلاة والسلام هذه الجهة من القرابة وهي جهة الخولة، وقيل: كانت إيشاع أخت حنة من الأم وأخت مريم من

بمؤث لفظي يصلح للمذكر والمؤنث - كالنفس والحيلة والنسمة - فلا يشكل التأنيث ولا يلغو (أنثى) بل هي حال مبينة - كذا قيل - ولا يخلو عن نظر، فالحق أن الضمير لما - في بطني - والتأنيث في الأول لما أن المقام يستدعي ظهور أنوثته واعتباره في حيز الشرط إذ عليه يترتب جواب (لما) لا على وضع ولد ما، والتأنيث في الثاني للمسارعة إلى عرض ما دهمها من خيبة الرجاء وانقطاع حبل الأمل، و(أنثى) حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه، وليس الغرض من هذا الكلام الإخبار لأنه إما للفائدة أو للازمها، وعلم الله تعالى محيط بهما بل لمجرد التحسر والتحزن، وقد قال الإمام المرزوقي: إنه قد يرد الخبر صورة لأغراض سوى الإخبار كما في قوله:

قومي هم قتلوا أميم أخي

فلذا رميت (يصينني سهمي)

فإن هذا الكلام تحزن وتفجع وليس بإخبار، وحاصل المعنى هنا على ما قرر - فلما وضعت بنتاً تحسرت إلى مولاه وتفجعت إذ خاب منها رجاءها - وعلى هذا لا إشكال أصلاً في التأنيث. ولا في الجزاء نفسه. ولا في ترتيبه على الشرط، وما قيل: إنه يحتمل أن يكون فائدة هذا الكلام - التحقير للمحرر استجلاباً للقبول لأنه من تواضع لله تعالى رفعه الله سبحانه - فمستحقر من القول بالنسبة إلى ما ذكرنا؛ والتأكيد هنا قيل: للرد على اعتقادها الباطل وربما أنه يعود إلى الاعتناء والمبالغة في التحسر الذي قصده والرمز إلى أنه صادر عن قلب كسير وفؤاد بقيود الحرمان أسير ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ ليس المراد الرد عليها في إخبارها بما هو سبحانه أعلم به كما يترأى من السياق بل الجملة اعتراضية سبقت لتعظيم المولود الذي وضعته وتفخيم شأنه والتجهيل لها بقدره - أي والله أعلم بالشيء الذي وضعته وما علق به من عظام الأمور ودقائق الأسرار وواضح الآيات، وهي غافلة عن ذلك كله، و(ما) على هذا عبارة عن الموضوع، قيل: والإتيان بها دون - من - يلائم التجهيل فإنها كثيراً ما يؤتي بها لما يجهل به وجعلها عبارة عن الواضحة - أي والله تعالى أعلم بشأن أم مريم حين تحسرها وتحزنها من توهم خيبة رجاءها

يعمل للدنيا ولا يتزوج ويتفرغ لعمل الآخرة ويعبد الله تعالى ويكون في خدمة الكنيسة - قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - وقال مجاهد: المحرر الخادم للبيعة، وفي رواية عنه الخالص الذي لا يخالطه شيء من أمر الدنيا، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: أرادت عتيقاً خالصاً لطاعتك لا أصرفه في حوائجي، وعلى كل هو من الحرية - وهي ضربان - أن لا يجري عليه حكم السبي وأن لا تتملكه الأخلاق الرديئة والردائل الدنيوية.

وانتصابه على الحالية من (ما) والعامل فيه (نذرت)؛ وقيل: من الضمير الذي في الجار والمجرور، والعامل فيه حيثل الاستقرار - ولا يخفى رجحان الوجه الأول - والحال إما مقدرة أو مصاحبة، وجوز أبو حيان أن ينصب على المصدر أي - تحريراً - لأنه بمعنى النذر، وتأكيد الجملة للإيدان بوفور الرغبة في مضمونها وتقديم الجار والمجرور لكمال الاعتناء به والتعبير عن الولد بما لإبهام أمره وقصوره عن درجة العقلاء، - والتقبل - أخذ الشيء على وجه الرضا وأصله المقابلة بالجزاء - وتقبل - هنا بمعنى اقبل ﴿إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ﴾ لسائر المسموعات فتسمع دعائي ﴿أَلْعَلِيمُ﴾ بما كان ويكون فتعلم نيتي وهو تعليل لاستدعاء القبول من حيث أن علمه تعالى بصحة نيتها وإخلاصها مستدع لذلك تفضلاً وإحساناً، وتأكيد الجملة لغرض قوة يقينها بمضمونها وقصر صفتي السمع والعلم عليه تعالى لغرض اختصاص دعائها وانقطاع حبل رجائها عما عداه سبحانه بالكلية مبالغة في الضراعة والابتهال - قاله شيخ الإسلام - وتقديم صفة السمع لأن متعلقاتها وإن كانت غير متناهية إلا أنها ليست كمتعلقات صفة العلم في الكثرة ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا﴾ الضمير - لما - ولما علم المتكلم أن مدلولها مؤث جاز له تأنيث الضمير العائد إليه وإن كان اللفظ مذكراً، وأما التأنيث في قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ فليس باعتبار العلم بل باعتبار أن كل ضمير وقع بين مذكر ومؤث هما عبارتان عن مدلول واحد جاز فيه التذكير والتأنيث نحو الكلام يسمى جملة، و(أنثى) حال بمنزلة الخبر فأنت العائد إلى (ما) نظراً إلى الحال من غير أن يعتبر فيه معنى الأنوثة ليلزم اللغو أو باعتبار التأويل

مطلوبها أي وليس الذكر الذي هو مطلوب كالأُنثى التي وهبها الله تعالى لي علماً منها بأن ما يفعله الرب خير مما يريده العبد - وفيه نظر - أما أولاً فلأن اللام في الذكر والأُنثى على هذا يكون للعهد وهو خلاف الظاهر الذي ذهب إليه أكثر المفسرين، وأما ثانياً فلأنه ينافي التحسر والتحزن المستفاد من قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ فإن تحزنها ذلك إنما هو لترجيحها الذكر على الأُنثى، والمفهوم من هذا الجواب ترجيحها الأُنثى على الذكر اللهم إلا أن يحمل قولها ذلك على تسلية نفسها بعدما تحزنت على هبة الأُنثى بدل الذكر الذي كانت طلبته إلا أنه تبقى مخالفة الظاهر على ما هي، فالأولى في الجواب عدم الخروج عما هو الظاهر والبحث فيما اقتضته العادة فقد قال في الانتصاف بعد نقل الإيراد وذكر القاعدة: وقد وجدت الأمر في ذلك مختلفاً فلم يثبت لي تعيين ما قالوه ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿لَسْتُ نَافِيَةً كَأَنَّكَ كَادِحٌ مِنْ آلِيسَاءِ﴾ [الأحزاب: ٣٢] فنفي عن الكامل شبه الناقص لأن الكامل لأزواج النبي ﷺ ثابت بالنسبة إلى عموم النساء - وعلى ذلك جاءت عبارة امرأة عمران - ومنه أيضاً ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ﴾ [النحل: ١٧] انتهى.

وتمام الكلام في هذا المقام ما ذكره بعض المحققين أنه إذا دخل نفي بلا. أو غيرها. أو ما في معناه على تشبيه مصرح بأركانه، أو ببعضها احتمل معنيين تفضيل المشبه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه بكذا لأن وجه الشبه فيه أولى وأقوى - كقولك ليس زيد كحاتم في الجود - ويحتمل عكسه بأن يكون المعنى أنه لا يشبه به لبعد المسافة بينهما كقول العرب - ماء ولا كصداء. ومرعى ولا كالسعدان وفتي ولا كمالك - وقوله:

* طرف الخيال ولا كليلة مدلج *

ووقع في شروح المقامات وغيرها أن العرب لم تستعمل النفي بلا على هذا الوجه إلا للمعنى الثاني وأن استعماله لتفضيل المشبه من كلام المولدين حتى اعترضوا على قول الحريري في قوله:

* غدوت ولا اغتداء الغراب *

وعيب قول صاحب التلويح في خطبته: نال حظاً من

وأنها ليست من الولي إلى الله تعالى في شيء إذ لها مرتبة عظمى وتحريرها تحرير لا يوجد منه - مما لا وجه له وجزالة النظم تأباه، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ﴿يَمَّا وَضَعَتْ﴾ على خطاب الله تعالى لها، والمراد به تعظيم شأن الموضوع أيضاً أي إنك لا تعلمين قدر ما وضعته وما أودع الله تعالى فيه.

وقرأ ابن عامر وأبو بكر عن عاصم ويعقوب ﴿يَمَّا وَضَعَتْ﴾ على أنه من كلامها قالت اعتذاراً إلى الله تعالى حيث وضعت مولوداً لا يصلح للغرض، أو تسلية لنفسها أي ولعل الله تعالى في ذلك سراً وحكمة - ولعل هذه الأُنثى خير من الذكر فالجملة حيث لا نفي العلم لا للتجهيل لأن العبد ينظر إلى ظاهر الحال ولا يقف على ما في خلاله من الأسرار، وحمل قراءة ابن عباس رضي الله تعالى عنهما على هذا المعنى بجعل الخطاب منها لنفسها في غاية البعد، ووضع الظاهر موضع ضمير المخاطب إظهاراً لغاية الإجلال ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ اعتراض آخر مبين لما اشتمل عليه الأول من التعظيم وليس بياناً لمنطوقه حتى يلحق بعطف البيان الممتنع فيه العطف.

واللام في الذكر والأُنثى للعهد، أما التي في الأُنثى فسبق ذكرها صريحاً في قوله سبحانه حكاية: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وأما التي في الذكر فلقولها: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ﴾ إلخ إذ هو الذي طلبته والتحرير لا يكون إلا للذكر وسمى هذا العهد التقديري - وهو غير الذهني لأن قولها: ﴿مَا فِي بَطْنِي﴾ صالح للصنفين، وقولها: ﴿مُحَرَّرًا﴾ تمن لأن يكون ذكراً فأشير إلى ما في البطن حسب رجائها، وجوز أن تكون الجملة من قولها فيكون مرادها نفي مماثلة الذكر للأُنثى، فاللام للجنس - كما هو الظاهر - لأنه لم يقصد خصوص ذكر وأنثى بل إن المراد أن هذا الجنس ليس كهذا الجنس، وأورد عليه أن قياس كون ذلك من قولها أن يكون وليست الأُنثى كالذكر فإن مقصودها تنقيص الأُنثى بالنسبة إلى الذكر والعادة في مثله أن ينفي عن الناقص شبهه بالكامل لا العكس، وأجيب بأنه جار على ما هو العادة في مثله أيضاً لأن مراد أم مريم ليس تفضيل الذكر على الأُنثى بل العكس تعظيماً لعطية الله تعالى على

الغرض من ذلك إظهار أنها غير راجعة عن نيتها وإن كان ما وضعته أنثى وأنها وإن لم تكن خليفة بسدانة بيت المقدس فلتكن من العابدات فيه واستقلالها بالتسمية لكون أبيها قد مات وأما حامل بها فتقديم المسند إليه للتخصيص يعني التسمية مني لا يشاركني فيها أبوها، قيل: وفي ذلك تعريض بيتها استعطافاً له تعالى وجعلاً لبيتها شافعاً لها، والقول: بأن فائدة عرض تسميتها التحسر والتحزن أيضاً أي إني سميتها لا أبوها لعدم احتفاله بها والتفاتة إليها لكرامة الرجال في الغالب البنات فمع أنه خلاف ما دل عليه أكثر الآثار ونطق به غالب الأخبار من موت أبيها وهي حمل يجر إلى ما ينبغي أن تنزه عنه ساحة الرجل الصالح عمران كما لا يخفى، وقد تقدم الكلام في (مريم) وزناً ومعنى، وقد اختار بعض المتأخرين أنها معربة مارية بمعنى - جارية - ويقرب أن يكون القول المعول عليه، واستدل بالآية على جواز تسمية الأطفال يوم الولادة لا يوم السابع لأن الظاهر أنها إنما قالت ذلك بإثر الوضع، واستدل بتغاير المفعولين على تغاير الاسم والمسمى، وقد تقدم البحث فيه ﴿وَلِإِيَّائِي أُعِيدُهَا بِكَ﴾ عطف على ﴿وَلِإِيَّائِي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ وأتى هنا بخبر إن فعلاً مضارعاً دلالة على طلبها استمرار الاستعادة دون انقطاعها وهذا بخلاف ﴿وَضَعْتُهَا﴾، و﴿سَمَّيْتُهَا﴾ حيث أتى بالخبرين ماضيين لانقطاعهما وقدم المعاذ به على المعطوف الآتي اهتماماً به، ومعنى ﴿أُعِيدُهَا بِكَ﴾ أمنعها وأجيرها بحفظك، وأصل العوذ كما قال الرغب: الالتجاء إلى الغير والتعلق به يقال: عاذ فلان بفلان إذا استجار به، ومنه أخذت العوذة وهي التيممة والرقية؛ وقرأ أبو جعفر - ونافع - إني - بفتح ياء المتكلم وكذا في سائر المواضع التي بعد الباء ألف مضمومة إلا في موضعين (بعهدي أوف) و(أتوني أفرغ) ﴿وَوَدَّيْتُهَا﴾ عطف على الضمير المنصوب، وفي التنصيص على إعادتها وإعادة ذريتها رمز إلى طلب بقائها حية حتى تكبر، وطلب للتنازل منها هذا إذا أريد بالإعادة ﴿مِنْ أَلَشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ أي المطرود، وأصل الرجم الرمي بالحجارة الحفظ من إغوائه الموقع في الخطايا لأنه إنما

الاشتهار ولا اشتهار الشمس نصف النهار، ومبني الاعتراض على هذا، ولعله ليس بلام كما أشار إليه صاحب الانتصاف بما أورد من الآيات، ومما أورده الثعالبي من خلافه أيضاً في كتابه المنتخب - فلان حسن ولا القمر. وجواد ولا المطر - على أنه لو سلم ما ذكره فالمعاني لا حجر فيها على أن ما ورد في النفي بلا المعترضة بني الطرفين لا في كل نفي انتهى.

- وهو كما قال: من نفائس المعاني التي ينبغي حفظها - وقوله تعالى: ﴿وَلِإِيَّائِي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى﴾ المنصوبة المحل على المفعولية للقول - وما بينهما كما علمت - اعتراض بجملتين غير محكيتين الثانية من تنمة الأولى معنى على ما بين - ولهذا أجراه البعض مجرى الاعتراض في الاعتراض فجعله نظير قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّمْ لَقَسْتُمْ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا﴾ [الواقعة: ٧٦].

واعترض بأنه كيف يجوز الاعتراض بين كلامي أم مريم وكلام متكلم لا يجوز أن يكون معترضاً بين كلامي متكلم آخر، وأجيب بأن كلام أم مريم من كلام الله تعالى نقلاً عن أم مريم ولا بعد في أن يكون كلامه تعالى اعتراضاً بين كلاميها اللذين هما من كلام الله تعالى نقلاً عنها، هذا على تقدير أن لا تكون تانك الجملتان من كلام أم مريم أما إذا كانتا من كلامها بناءً على ما سبق من القراءة والاحتمال فلا اعتراض.

قيل: والغرض من عرض التسمية على (علام الغيوب) التقرب إليه تعالى واستدعاء العصمة لها فإن (مريم) في لغتهم بمعنى العابدة - ولا يخفى بعده - إذ مجرد ذكر تسميتها مريم لا يكاد يكون مقرباً لها إليه تعالى لأن التقرب إليه تعالى إنما يكون بسبب العبادة - ومجرد عرض التسمية ليس بعبادة - فكيف يكون مقرباً اللهم إلا أن يقال: إن التقرب إلى الله تعالى بحبها للعبادة الذي أشعر به تسميتها بنتها عابدة، أو اعتقاد أن الله تعالى مستعاذ يجير من يستعذ به عما يخافه.

واعترض بأن هذا لا يدفع الشبهة بل هي باقية أيضاً لأن المقرب حينئذ ما في القلب من الحب والاعتقاد لا عرض ذلك على من لا تخفى عليه خافية، والأولى أن يقال: إن

يكون بعد البلوغ إذ لا تكليف قبله، وأما إذا أريد منها الحفظ منه مطلقاً فيفهم طلب الأمرين من الأمر الأخير، ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل من مسه صارخاً إلا مريم وابنها» وفي بعض طرقه أنه ضرب بينه وبينها حجاب وأن الشيطان أراد أن يطعن بإصبعه فوقعت الطعنة في الحجاب، وفي رواية إسحق بن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «قال رسول الله ﷺ: كل ولد آدم ينال منه الشيطان يطعنه حين يقع بالأرض بإصبعه ولهذا يستهل إلا ما كان من مريم وابنها فإنه لم يصل إبليس إليهما». وطعن القاضي عبد الجبار بإصبع فكره في هذه الأخبار بأنها خبر واحد على خلاف الدليل، وذلك أن الشيطان إنما يدعو إلى الشر من له تمييز ولأنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين، وأيضاً لم خص عيسى وأمه دون سائر الأنبياء، وأنه ولو وجد المس أو النخس لدام أثره وليس فليس، والزمخشري زعم أن المعنى على تقدير الصحة أن كل مولود يطعم الشيطان في إغوائه إلا مريم وابنها فإنهما كانا معصومين، وكذلك كل من كان في صفتهم كقوله تعالى: ﴿وَلَا غَوِيَّتُهُمْ أَجْمَعِينَ﴾. إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ [الحجر: ٣٩-٤٠] واستهلاله صارخاً من مسه تخيل وتصوير لطمعه فيه كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ونحوه من التخييل قول ابن الرومي:

لما تؤذن الدنيا به من صروفها

يكون بكاء الطفل ساعة يولد
وأما حقيقة النخس والمس كما يتوهم أهل الحشو فكلا ولو سلط إبليس على الناس ينخسهم لامتلات الدنيا صراخاً وعياطاً مما يبلون به من نخسه انتهى.

ولا يخفى أن الأخبار في هذا الباب كثيرة وأكثرها مدون في الصحاح والأمر لا امتناع فيه، وقد أخبر به الصادق عليه الصلاة والسلام فليتلق بالقبول، والتخييل الذي ركن إليه الزمخشري ليس بشيء لأن المس باليد ربما يصلح لذلك أما الاستهلال صارخاً فلا على أن أكثر الروايات لا يجري فيها مثل ذلك، وقوله: لامتلات الدنيا

عياطاً قلنا: هي مليئة فما من مولود إلا يصرخ، ولا يلزم من تمكنه من تلك النخسة تمكنه منها في جميع الأوقات كيف وفي الصحيح «لولا أن الملائكة يحفظونكم لاحتوشتكم الشياطين كما يحتوش الذباب العسل»؟ «لاختطفتم الجن» وفسر قوله تعالى ﴿لَمْ مَعَقَيْتُمْ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ [الرعد: ١١] في أحد الوجوه به، وبهذا يندفع أيضاً قول القاضي: من أنه لو تمكن من هذا الفعل لجاز أن يهلك الصالحين وبقاء الأثر بل وحصوله أيضاً ليس أمراً ضرورياً للمس ولا للنخس والحصر باعتبار الأغلب والاقتصار على عيسى عليه السلام وأمه إيداناً باستجابة دعاء امرأة عمران على أتم وجه ليتوجه أرباب الحاج إلى الله تعالى بشر اشهرهم، أو يقدر له ما يخصه، وعلى التقديرين يخرج النبي ﷺ من العموم فلا يلزم تفضيل عيسى عليه الصلاة والسلام في هذا المعنى، ويؤيده خروج المتكلم من عموم كلامه، وقد قال به جمع ويشهد له ما روى الجلال في البهجة السنية عن عكرمة قال: لما ولد النبي ﷺ أشرقت الأرض نوراً فقال إبليس: لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا فقالت له جنوده: لو ذهبت إليه فجاءه فركضه جبريل عليه السلام فوقع بعدن، وهذا أولى من إبقاء العام على عموميه، والقول بأنه لا يبعد اختصاص عيسى وأمه بهذه الفضيلة دون الأنبياء عليهم السلام ولا يلزم منه تفضيله عليهم السلام إذ قد يوجد في الفاضل ما لا يوجد في الأفضل، وعلى كلا الأمرين الفاضل والمفضول لا إشكال في الإخبار من تلك الحثية، نعم قد يشكل على ظاهرها أن إعادة أم مريم كانت بعد الوضع فلا يصح حملها على الإعادة من المس الذي يكون حين الولادة، وأجيب بأن المس ليس إلا بالانفصال وهو الوضع ومعه الإعادة، غايته أنه عبر عنه بالمضارع كما أشرنا إليه لقصد الاستمرار فليتأمل، والعجب من بعض أهل السنة كيف يتبع المعتزلة في تأويل مثل هذه الأحاديث الصحيحة لمجرد الميل إلى ترهات الفلاسفة مع أن إبقاءها على ظاهرها مما لا يرنق لهم شرباً ولا يضيق عليهم سرباً، نسأل الله تعالى أن يوفقنا لمراضيه ويجعل مستقبل حالنا خيراً من ماضيه ﴿فَقَبِّلْهَا﴾ أي

السابق بحذف الزوائد أي قبلها قبولاً حسناً، وعدل عن الظاهر للإيذان بمقارنة التقبل لكمال الرضا وموافقته للعناية الذاتية فإن صيغة التفعّل مشعرة بحسب أصل الوضع بالتكلف وكون الفعل على خلاف طبع الفاعل وإن كان المراد بها في حقه تعالى ما يترتب عليه من كمال قوة الفعل وكثرته، ويحتمل على بعد بعيد أن تكون الباء للمصاحبة بمعنى مع - أي تقبل نذرها - مع قبول حسن لدعاء أمها في حق ذريتها حيث أعادها من الشيطان الرجيم من أول الولادة إلى خاتمة الحياة ﴿وَأَلْبَسْتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ أي رباها الرب تربية حسنة في عبادة وطاعة لربها قاله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وفي رواية عنه أنه سوى خلقها فكانت تشب في يوم ما يشب غيرها في عام، وقيل: تعهدا بما يصلحها في سائر أحوالها، ففي الكلام استعارة تمثيلية أو مجاز مرسل بعلاقة اللزوم فإن الزارع يتعهد زرع بسقيه عند الاحتياج وحمايته عن الآفات وقلع ما يخنقه من النبات. و(نباتاً) هنا مصدر على غير لفظ الفعل المذكور وهو نائب عن إنبات، وقيل: التقدير فنبئت نباتاً، والنبات والنبت بمعنى. وقد يعبر بهما عن النبات ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وهو من ولد سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام - أي ضمها الله تعالى إليه وجعله كافلاً لها وضامناً لمصالحها - على ما ذكر في حديث ابن عباس، وكل ذلك من آثار قدرته تعالى، ولم يكن هناك وحى إليه بذلك، وقرأ بتشديد الفاء حمزة. والكسائي. وعاصم وقصروا (زكريا) غير عاصم في رواية ابن عياش - وهو مفعول به لكفلها - وقرأ الباقون بتخفيف الفاء ومدوا (زكريا) ورفعوه على الفاعلية - وفيه لغتان أخريان - إحداهما - زكري - بياء مشددة من غير ألف، وثانيتها - زكر - بغير ياء ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة، وقيل: لألف التأنيث، وقرأ أبي وأكفلها، وقرأ مجاهد - فتقبلها ربها. وأنبتها وكفلها - على صيغة الدعاء في الأفعال الثلاثة ونصب - ربها - على النداء أي فاقبلها يا ربها وربها، واجعل زكريا كافلاً لها، وقد استجاب الله تعالى دعاءها في جميع ذلك، والذي عليه الأكثرون وشهدت له الأخبار أن كفالة زكريا كانت

رضى بمريم في النذر مكان الذكر ففيه تشبيه النذر بالهدية ورضوان الله تعالى بالقبول ﴿رَبُّهَا﴾ أي رب مريم المبلغ لها إلى كمالها اللائق بها، وقيل: الضمير لامرأة عمران بدليل أنها التي خاطبت ونادت بقولها ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا﴾ إلخ، والأول أولى ﴿يَقْبُولُ حَسَنٌ﴾ الباء مثلها في - كتبت بالقلم - و - القبول - ما يقبل به الشيء - كالسقوط والدود - ما يسقط به ويلد أي تقبلها بوجه حسن تقبل به النذائر وهو اختصاصه سبحانه إياها بإقامتها مقام الذكر في النذر ولم يقبل قبلها أنثى، أو تسلمها من أمها عقب الولادة قبل أن تنشأ وتصلح للسدانة والخدمة.

فقد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: لما وضعتها خشيت حنة أن لا تقبل الأنثى محررة فلفتها في الخرقه ووضعتها في بيت المقدس عند القراء فتساهم القراء عليها - لأنها كانت بنت إمامهم - أيهم يأخذها فقال زكريا وهو رأس الأحزاب: أنا آخذها وأنا أحقهم بها لأن خالتها عندي، فقالت القراء: ولكننا نتساهم عليها فمن خرج سهمه فهو أحق بها فدعوا بأقلامهم التي يكتبون بها الوحي وجمعوها في موضع ثم غطوها، وقال زكريا لبعض من الغلمان الذين لم يبلغوا الحلم ممن في بيت المقدس: أدخل يدك فأخرج فأدخل يده فأخرج قلم زكريا فقالوا: لا نرضى ولكن نلقي الأقلام في الماء فمن خرج قلمه في جرية الماء ثم ارتفع فهو يكفلها فآلقوا أقلامهم في نهر الأردن فارتفع قلم زكريا في جري الماء فقالوا: نقترع الثالثة فمن جرى قلمه مع الماء فهو يكفلها فآلقوا أقلامهم فجرى قلم زكريا مع الماء وارتفعت أقلامهم في جرية الماء وقبضها عند ذلك زكريا، ويجوز أن تكون الباء للملابسة، و - القبول - مصدر وهو من المصادر الشاذة وهناك مضاف محذوف، والمعنى رضي بها متلبسة بأمر ذي قبول، ووجه ذي رضا وهو ما يقيمها مقام الذكور لما اختصت به من الإكرام، ويجوز أن يكون تفعّل بمعنى استعمل - كتعجل بمعنى استعجل - والمعنى فاستقبلها ربها وتلقاها من أول وهلة من ولادتها بقبول حسن وأظهر الكرامة فيها حيثئذ - وفي المثل خذ الأمر بقوابله - وجوز أن تكون الباء زائدة، و - القبول - مصدر مؤكد للفعل

عليه الصلاة والسلام استأجر لها ظئراً فلما تم لها حولان فطمت وتركت في المحراب وحدها وأغلقت عليها الباب ولم يتعهد أمرها سواه ﴿قَالَ يَمْرُومُ﴾ استئناف بياني ﴿أَنْ لَّكَ هَذَا﴾ أي من أين لك هذا الرزق الذي لا يشبه أرزاق الدنيا والأبواب مغلقة دونك، ومجىء ﴿أَنْ﴾ بمعنى من أين، أو كيف تقدم الكلام عليه، واستشهد للأول بقوله:

تمنى بوادي الرمث زينب ظلة

فكيف ومن (أنى) بذي الرمث تطرق

وللثاني بقوله:

- أنى ومن أين - أبك الطرب

من حيث لا صهوة ولا ريب

وحذف حرف الجر من (أنى) نحو حذف - في - من الظروف اللازمة للظرفية من نحو - مع، وسحر - لأن الشيء إذا علم في موضع جاز حذفه، والتحقيق أن الظروف محل التوسع لكثرة استعمالهم إياها وكل ظرف يستعمل مع حرف صلته التي يكثر معها استعمالها - لأن اتصالها بمطروفاً بتلك الحروف - فجاز حذفها كما جاز حذف - في - إلا أنها لما كانت الأصل لوضعها للظرفية أطردها من المتصرف وغير المتصرف، وغيرها من صلات الظروف لا يحذف إلا مع ما يكثر من غير المتصرف خطأ لرتبتها عن رتبة - في - كما في الكشف، واستدل بالآية على جواز الكرامة للأولياء لأن مريم لا نبوة لها على المشهور، وهذا هو الذي ذهب إليه أهل السنة والشيعة وخالف في ذلك المعتزلة، وأجاب البلخي منهم عن الآية بأن ذلك كان إرهاباً وتأسيساً لنبوة عيسى عليه الصلاة والسلام، وأجاب الجبائي بأنه كان معجزة لزكريا عليه الصلاة والسلام، ورد الأخير بأن اشتباه الأمر عليه يأبى ذلك، ولعله مبني على الظاهر، وإلا ففي اقتضاء هذه العبارة في نفس الأمر الاشتباه نظر لأنه يجوز أن يكون لإظهار ما فيها من العجب بتكلمها ونحوه، والقول - بأن اشتباه زكريا في أنها معجزة لا ينافي كونها معجزة لاشتباه أنه من الجنة أو من بساتين الدنيا ليس بشيء كما لا يخفى ﴿قَالَتْ﴾ استئناف كالذي قبله ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ قيل:

من أول أمرها، وزعم بعضهم أنه كفلهما بعد أن فطمت ونبتت النبات الحسن وليس بالقوى ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ﴾ بيان لقبولها ولهذا لم يعطف، والمحراب على ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما غرفة بنيت لها في بيت المقدس وجعلت بابها في وسط الحائط وكانت لا يصعد عليها إلا بسلم مثل باب الكعبة، وقيل: المراد به المسجد إذ قد كانت مساجدهم تسمى المحاريب؛ وقيل: أشرف مواضعه ومقدمها وهو مقام الإمام من المسجد في رأي، وأصله مفعال صيغة مبالغة - كمطعمان - فسمى به المكان لأن المحاريبين نفوسهم كثيرون فيه، وقيل: إنه يكون اسم مكان وسمي به لأن محل محاربة الشيطان فيه أو لتنافس الناس عليه ولبعض المغاربة في المدح:

جمع الشجاعة والخشوع لسربه

ما أحسن المحراب في المحراب

وتقديم الظرف على الفاعل لإظهار كمال العناية بأمرها، ونصب (المحراب) على التوسع إذ حق الفعل أن يتعدى بفي، أو بالي وإظهار الفاعل قيل: لفصل الجملة، و(كلما) ظرف على أن (ما) مصدرية، والزمان محذوف أو نكرة موصوفة معناها الوقت، والعائد محذوف والعامل فيها جوابها بالاتفاق لأن ما في حيز المضاف إليه لا يعمل في المضاف ولا يجري فيها الخلاف المذكور في أسماء الشرط، ومن الناس من وهم فقال: إن ناصبه فعل الشرط، وادعى أنه الأنسب معنى فزاد في الشطرنج جملاً والمعنى كل زمان دخل عليها أو كل وقت دخل عليها فيه ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ أي أصاب ولقي بحضرتها ذلك أو ذلك كائناً بحضرتها، أخرج ابن جرير عن الربيع قال: إنه كان لا يدخل عليها غيره وإذا خرج أغلق عليها سبعة أبواب فكان يجد عندها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، والتنوين للتعظيم فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن ذلك من ثمار الجنة والذي عليه الجدل أن ذلك عوض لها عن الرضاعة، فقد روي أنها لم ترضع ثدياً قط، وقيل: إن هذا كان بعد أن ترعرعت، ففي رواية ابن بشر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن زكريا

وبين الاعتراض والاعتراض ولا تصح إلا ممن نسي الكل
واستغرق في مشاهدة المحبوب وفنى فيه
خليل لي لو أحببتما لعلمتما
محل الهوى من مغرم القلب صبه
تذكر والذكرى تشوق وذو الهوى
يتوق ومن يعلق به الحب يصبه
غرام على رأس الهوى ورجائه
وشوق على بعد المبراد وقربه
وقد يقال: المحبة ثلاثة أقسام، القسم الأول محبة
العوام وهي مطالعة المنة من رؤية إحسان المحسن جبلت
القلوب على محبة من أحسن إليها وهو حب يتغير وهو
لمتابعي الأعمال الذين يطلبون أجراً على ما يعملون، وفيه
يقول أبو الطيب:

وما أنا بالباضي على الحب رشوة

ضعيف سوى يرجي عليه ثواب
القسم الثاني: محبة الخواص المتبعين للأخلاق الذين
يحبونه إجلالاً وإعظاماً ولأنه أهل لذلك، وإلى هذا القسم
أشار ﷺ بقوله: «نعم العبد صهيب لو لم يخف الله لم
يعصه»، وقالت رابعة رحمها الله تعالى:

أحبك حين حب الهوى

وحب لأنك أهل لذاكا
وهذا الحب لا يتغير إلى الأبد لبقاء الجمال والجلال
إلى السرم.

القسم الثالث: محبة خواص الخواص المتبعين
للأحوال وهي الناشئة من الجذبة الالهية في مكان «كنت
كترأ مخفياً» وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال
المعرفة، وحقيقتها أن يفنى المحب بسطوتها فيبقى بلا هو
وربما بقي صاحبها حيران سكران لا هو حي فيرجى ولا
ميت فيبكي، وفي مثل ذلك قيل:

يقولون إن الحب كالنار في الحشا
ألا كذبوا فالنار تذكوا وتخمدا
وما هو إلا جذوة مس عودها
ندى فهي لا تذكوا ولا تنوقد
ويكفي في شرح الحب لفظه فإنه - حاء - وباء - والحاء
من حروف الحلق، والباء شفوية، ففيه إشارة إلى أن

أرادت من الجنة، وقيل: مما رزقنيه هو لا بواسطة البشر
فلا تعجب ولا تستبعد، وقيل: تكلمت بذلك صغيرة
كعيسى عليه الصلاة والسلام وقد جمع من تكلم كذلك
فبلغوا أحد عشر نفساً، وقد نظمهم الجلال السيوطي
فقال:

تكلم في المهد النبي (محمد)
(ويحيى وعيسى والخليل ومريم)
ومبرى (جريج) ثم (شاهد يوسف)
(وطفل لذي الأخدود) يرويه مسلم
(وطفل) عليه مرب الأمانة التي
يقال لها تنزي ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون (طفلها)

وفي زمن الهادي (المبارك) يختم
أو بمن اتصف بمقام العبودية وانقطع إليه بالكلية ﴿قُلْ
إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾ [آل عمران: ٣١] إني سيد
المحبين ﴿يُحِبِّبْكُمْ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١] وحقيقة المحبة
عند العارفين احتراق القلب بنيران الشوق، وروح الروح
بلذة العشق، واستغراق الحواس في بحر الأنس، وطهارة
النفس بمياه القدس، ورؤية الحبيب بعين الكل، وغمض
عين الكل عن الكونين، وطيوان السر في غيب الغيب،
وتخلق المحب بخلق المحبوب - وهذا أصل المحبة -
وأما فرعها فهو موافقة المحبوب في جميع ما يرضاه
وتقبل بلائه بنعت الرضا والتسليم في قضائه وقدره بشرط
الوفا، ومتابعة سنة المصطفى ﷺ، وأما آدابها فالانقطاع
عن الشهوات واللذات المباحة والسكون في الخلوات،
والمراقبات، واستنشاق نفحات الصفات، والتواضع
والذل في الحركات والسكنات:

مساكين أهل العشق حتى قبورهم

عليها تراب الذل بين المقابر
وهذا لا يكون إلا بعد أن ترى الروح بعين السر مشاهدة
الحق بنعت الجمال وحسن القدم لا بنعت الآلاء والنعم
لأن المحبة متى كانت من تولد رؤية النعماء كانت معلولة
وحقيقة المحبة ما لا علة فيها بين المحب والحبيب سوى
ذات الحبيب، ولذا قالوا: لا تصح المحبة ممن يميز بين
النار والجنة وبين السرور والمحنة وبين الفرض والسنة

الله تعالى المريرين عن موالاة المنكرين لأن ظلمة الإنكار - والعياذ بالله تعالى - تحاكي ظلمة الكفر وربما تراكمت فسدت طريق الايمان، ومن يفعل ذلك فليس من ولاية الله تعالى في شيء معتد به إذ ليس فيه نورية صافية يناسب بها الحضرة الالهية ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتَفُوا مِنْهُمْ ثَقَلَةً﴾ [آل عمران: ٢٨] فحينئذ تجوز المولاة ظاهراً، وهذا بالنسبة للضعفاء وأما من قوى يقينه فلا يخشى إلا الله تعالى ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾ [آل عمران: ٢٨] أي يدعوكم إلى التوحيد العياني لئلا يكون خوفكم من غيره ﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨] فلا تحذروا إلا إياه، والأكثر على أن هذا خطاب للخواص العارفين إذ لا يحذر نفسه من لا يعرفه وقد حذر من دونهم بقوله سبحانه: ﴿وَأَتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١] قال إبراهيم الخواص: علامة الخوف في القلب دوام المراقبة وعلامة المراقبة التفقد للأحوال النازلة ﴿قُلْ إِنْ تُخَفُّوْا مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٩] من المولاة ﴿أَوْ تُبَدِّلُوهُ بِعَمَلِهِ﴾ [آل عمران: ٢٩] لأنه مع كل نفس وخطرة ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي سَمَوَاتِ الْأَرْوَاحِ وَأَرْضِ الْأَجْسَامِ﴾ [وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ] [آل عمران: ٢٩] فلا يشغله شأن عن شأن ولا يقيد مظهر عن مظهر ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُخَضَّراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ﴾ [آل عمران: ٣٠] لأن كل ما يعمل الإنسان أو يقوله ينتقش منه أثر في نفسه ويسطر في صحائف النفوس السماوية إلا أنه لاشتغاله بالشواغل الحسية والادراكات الوهمية والخيالية لا يرى تلك النقوش ولا يبصر هاتيك السطور فإذا تجرد عن عالم الكثافة بصر ورأى وشاهد ما به قلم الاستعداد جرى فإذا وجد سوءاً تود نفسه وتتمنى ﴿لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠] لتعذيبها به ﴿وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسُهُ﴾ كرهه تأكيداً لئلا يعملوا ما يستحقون به عقابه ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعَبَادِ﴾ [آل عمران: ٣٠] أي بسائرهم فلهذا حذرهم، الرحمة فكأنه قيل لهم: اتبعوني بالأعمال الصالحة يخصصكم الله تعالى برحمته، وتعلقت بالخواص من حيث الفضل فكأنه قيل لهم: اتبعوني بمكارم الأخلاق يخصصكم بتجلي صفات الجمال، وتعلقت بخواص الخواص من حيث الجذبة

الهوى ما لم يستول على قلبه ولسانه وباطنه وظاهره وسره وعلنه لا يقال له: حب، وشرح ذاك يطول، وهذه محبة العبد لربه، وأما محبة ربه سبحانه له فمختلفة أيضاً، وإن صدرت من محل واحد فتعلقت بالعوام من حيث ﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ من عباده أن يرزقه ﴿يَغْفِرُ حَسَابٍ﴾ تقدم معناه، والجملة تعليل لكونه من عند الله، والظاهر أنها من كلام مريم فحينئذ تكون في محل النصب داخله تحت القول، وقال الطبري: إنها ليست من كلامها بل هي مستأنفة من كلامه تعالى إخباراً لنبيه ﷺ أقام أياماً لم يطعم طعاماً حتى شق ذلك عليه فطاف في منازل أزواجه فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً فأتى فاطمة فقال: يا بنية هل عندك شيء أكله فيني جائع؟ فقالت: لا والله فلما خرج من عندها بعثت إليها جارة لها برغيفين وقطعة لحم فأخذته منها فوضعت في جفنة لها وقالت: لأوثرن بهذا رسول الله ﷺ على نفسي ومن عندي وكانوا جميعاً محتاجين إلى شعبة طعام فبعثت حسناً أو حسيناً إلى رسول الله ﷺ فرجع إليها فقالت له: بي أنت وأمي قد أتى الله تعالى بشيء خبأته لك قال: هلمي يا بنية بالجفنة فكشفت عن الجفنة فإذا هي مملوءة خبزاً ولحماً فلما نظرت إليها بهتت وعرفت أنها بركة من الله تعالى فحمدت الله تعالى وقدمته إلى النبي ﷺ فلما رآه حمد الله تعالى، وقال: من أين لك هذا يا بنية؟ قالت: يا أبتى هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب فحمد الله سبحانه ثم قال: الحمد لله الذي جعلك شبيهة سيدة نساء بني إسرائيل فإنها كانت إذا رزقها الله تعالى رزقاً فستلت عنه قالت: هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب ثم جمع عليا والحسن والحسين وجمع أهل بيته حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو فأوسعت فاطمة رضي الله تعالى عنها وعلى جيرانها.

هذا (ومن باب الإشارة في الآيات) ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ نهى عن موالاة المؤمنين الكافرين لعدم المناسبة بينهم في الحقيقة ولفرق بين الظلمة والنور والظل والحرور، والولاية تقتضي المناسبة ومتى لم تحصل كانت الولاية عن محض رياء أو نفاق والله تعالى لا يحب المرائين ولا المنافقين، ومن هنا نهى أهل

ورماه فيها بمنجنيق الشهوات، وآله القوى الروحانية، وعمران هو العقل الإمام في بيت مقدس البدن، وآله التابعون له في ذلك البيت المقتدون به، وكل ذلك ذرية بعضها من بعض لوحدة المورد واتفاق المشرب ﴿إِذْ قَالَتِ أَمْرَاتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ عن رق النفس مخلصاً في عبادتك عن الميل إلى السوي ﴿فَنَقَبَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا﴾ قال الواسطي: محفوظ عن إدراك الخلق ﴿وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا﴾ حيث سقاها من مياه القدرة وأثمرها شجرة النبوة ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ لطهارة سره، وشبيه الشيء المنجذب إليه ﴿كَلَّمَادْخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ هو ما علمت، ويجوز أن يراد الرزق الروحاني من المعارف والحقائق والعلوم والحكم الفائضة عليها من عند الله تعالى إذا الاختصاص بالعندية يدل على كونه أشرف من الأرزاق البدنية.

وأخرج ابن أبي حاتم من بعض الطرق عن مجاهد أنه قال: رزق أي علماً، وقد يقال على نحو الأول ليم تطبيق ما في الآفاق على ما في الأنفس ﴿إِذْ قَالَتِ أَمْرَاتُ عِمْرَانَ﴾ وهي النفس في أول مراتب طاعتها لعمران العقل ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي﴾ وهو غلام القلب ﴿مُحَرَّرًا﴾ ليس في رق شيء من المخلوقات ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ وهي نفس أيضاً إلا أنها أكمل منها في المرتبة، والجنس يلد الجنس ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ لعلمه أنه سيظهر من هذه الأنثى العجب العجيب، وغيره سبحانه تخفى عليه الأسرار ﴿وَإِنِّي سَمِيتُهَا مَرْيَمَ﴾ وهي العابدة ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ وهو الشهوات النفسانية الحاجية للنفس القدسية عن رياض الملكوت ﴿فَنَقَبَهَا رَبُّهَا يَقْبُولُ حَسَنًا﴾ وهو اختصاصه إياها بإفاضة أنواره عليها ﴿وَأَلْبَسَهَا ثِيَابًا حَسَنًا﴾ ورقاها فيما تكمل به نشأتها ترقياً حسناً غير مشوب بالعوائق والعلائق ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ الاستعداد ﴿كَلَّمَادْخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا﴾ وتوجه نحوها في محراب تعييدها المبني لها في بيت مقدس القلب ﴿وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ تغذي به الأرواح في عالم الملكوت ﴿قَالَ يَمْرُؤُا لَوْ لَدَّ هَذَا﴾ الرزق العظيم قالت: هو مفاض من عند الله منزّه عن

فكأنه قيل لهم: اتبعوني ببذل الوجود يخصصكم بجذبه لكم إلى نفسه، وهناك يرتفع البون من البين، ويظهر الصبح لذي عينين والقطرة من هذه المحبة تغنى عن الغدير:

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة

ترى الدهر عبداً طائعاً وله الحكم
﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١] أي معاصيكم التي سلفت منكم على خلاف المتابعة ولا يعاقبكم عليها أو يغفر لكم ذنوبكم بستر ظلمة صفاتكم بأنوار صفاته أو يغفر لكم ذنوب وجودكم ويشيكم مكانه وجوداً لا يفنى كما قال: «إذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به» الحديث ﴿وَاللَّهُ عَفُورٌ﴾ [آل عمران: ٣١] يكفر خطاياكم ويمحو ذنوب صفاتكم ووجودكم ﴿رَحِيمٌ﴾ يهب لكم عوض ذاك حسنات وصفات وجوداً حقانية خيراً من ذلك ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ فإن المرید يلزمه متابعة المراد ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ أي فإن أعرضوا فهم كفار منكرون محجوبون ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢] لقصور استعدادهم عن ظهور جماله فيهم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٣٣] الاصطفاء أعم من المحبة والخلة فيشمل الأنبياء كلهم وتتفاضل فيه مراتبهم كما يشير إليه قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] فأخص المراتب هو المحبة، وإليه يشير قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣] ثم الخلة، وفي لفظها إشارة إلى ذلك من طريق مخارج الحروف وأعمها الاصطفاء، فاصطفى آدم بتعليم الصفات وجمع الديدن وإسجاد الأكوان له، ونوحا الذي هو الأب الثاني بتلك الأبوة وبما كان له مع قومه، واصطفى آل إبراهيم وهم الأنبياء من ذريته بظهور أنوار تجليه الخاص على آفاق وجودهم، وآل عمران بجعلهم آية للعالمين ذرية بعضها من بعض في الدين والحقيقة إذ الولادة قسمان: صورية ومعنوية، وكل نبي تبع نبياً في التوحيد والمعرفة وما يتعلق بالباطن من أصول الدين فهو ولده كأولاد المشايخ والولد سر أبيه، ويمكن أن يقال: آدم هو الروح في أول مقامات ظهورها، ونوح هو في مقامها الثاني من مقامات التنزل وإبراهيم هو القلب الذي ألقاه نمرود النفس في نيران الفتنة

قابليتهم ﴿يَعْتَرِ حِسَابٌ﴾ فسبحانه من إله جواد كريم وهاب.

الحمل بيد الأفكار ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ الجامع لصفات الجمال والجلال ﴿يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ﴾ ويفيض عليهم من علمه حسب

محمد عبده ج ٣ ص ٢٨٦ - ٣٤١

١٢ فأجاب يسوع وقال له إنه قيل لا تجرب الرب إلهك
١٣ ولما أكمل إبليس كل تجربة فارقه إلى حين» اهـ.

فهذا صريح في أن إبليس كان يوسوس للمسيح عليه السلام حتى يحمله ويأخذه من مكان إلى مكان، وقصارى الأمر أنه لم يكن يطيعه فيما أمر به من السجود له ومن امتحان الرب إلهه (أي إله المسيح) وقوله لا تجرب الرب إلهك يراد به ما ورد في سفر التثنية آخر أسفار التوراة (٦): (١٦) ومثله قوله «ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان». وقوله للرب إلهك تسجد الخ وذلك مما يدل على أنه كان متبعاً للتوراة.

هذا وقد تقدم تحقيق القول في الشيطان ووسوسته في سورة البقرة (١) والمحقق عندنا أنه ليس للشيطان سلطان على عباد الله المخلصين، وخبرهم الأنبياء والمرسلون، وأما ما ورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما وحديث إسلام شيطان النبي ﷺ وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنية لأنه من رواية الآحاد. ولما كان موضوعها عالم الغيب والإيمان بالغيب من قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨] كنا غير مكلفين الإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا وقال بعضهم: يؤخذ فيها بأحاديث الآحاد لمن صحت عنده، ومذهب السلف في هذه الأحاديث تفويض العلم بكيفيتها إلى الله تعالى: فلا نتكلم في كيفية مس الشيطان ولا في كيفية إخراج حظه من القلب، وإنما نقول إن ما قاله الرسول حق وأنه يدل على مزية لمريم وابنها وللنبي ﷺ لا يشاركهم فيها سواهم من عباد الله الذين ليس للشيطان عليهم سلطان، وهذه المزية لا تقتضي وحدها أن يكون كل واحد منهم أفضل من سائر عباد الله المخلصين، إذ قد يوجد في المفضول من المزايا ما لا يوجد في الفاضل، فليست مريم أفضل من إبراهيم وموسى عليهما الصلاة

﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. إِذْ قَالَتْ أَمْرًا تُرَى رَيْبٌ لِيَّ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُعَرَّرًا فَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»...

والمسيحيون لا يعترفون بأن أبا مريم يدعى عمران ولا ضير في ذلك فإنه لا يلزم أن تكون كل حقيقة معروفة عندهم وليس لهم سند لنسب المسيح يحتج به فهو كسلسلة الطريق عند المتصوفة يزعمون أنها متصلة بعلي أو بالصديق وليس لهم في ذلك سند متصل يحتج بمثله. وأقول: إن نسب المسيح في إنجيلي متى ولوقا مختلف. ولو كتب عن علم لما وقع فيه الخلاف...

وهذا ما يشاغب به دعاة النصرانية عوام المسلمين مستدلين بالحديث على تفضيل عيسى على محمد: عليهما الصلاة والسلام، أو على أنه فوق البشر. فالجواب أن كتاب هؤلاء الدعاة حجة عليهم، ففي الفصل الرابع من انجيل مرقس ما نصه:

«أما يسوع فرجع من الأردن مملئاً من الروح القدس وكان يقتاد بالروح في البرية ٢ أربعين يوماً يجرب من إبليس ولم يأكل شيئاً في تلك الأيام ولما تمت جاع أخيراً ٣ وقال له إبليس إن كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزاً ٤ فأجابه يسوع قائلاً: مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة من الله ثم أبعده إبليس إلى جبل عال وأراه جميع ممالك المسكونة في لحظة من الزمان ٦ وقال له إبليس لك أعطي هذا السلطان كله ومجدهن لأنه إلهي قد دفع وأنا أعطيه لمن أريد ٧ فإن سجدت أمامي يكون لك الجميع ٨ فأجابه يسوع وقال «أذهب يا شيطان» أنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد ٩ ثم جاء به إلى اورشليم وأقامه على جناح الهيكل وقال له إن كنت ابن الله فاطرح نفسك من هنا إلى أسفل ١٠ لأنه مكتوب أنه يوصي ملائكته بك لكي يحفظوك ١١ وأنهم على أياديهم يحملونك لكي لا تصدم بحجر رجلك

رد عليهم بما يعرفونه من أن آدم أبو البشر وأن الله اصطفاه بجعله أفضل من كل أنواع الحيوان وتمكينه هو وذريته من تسخيرها وهذا متفق عليه بين المشركين وأهل الكتاب، ومن اصطفاه نوع وجعله أبا البشر الثاني وجعل ذريته هم الباقين، ومن اصطفاه إبراهيم وآله على البشر. فإن العرب وأهل الكتاب كانوا يعرفون ذلك فالأولون يفخرون بأنهم من ولد إسماعيل وعلى ملة إبراهيم كما يفخر الآخرون باصطفاء آل عمران من بني إسرائيل حفيد إبراهيم. فالله سبحانه وتعالى يرشد هؤلاء وأولئك وجميع البشر إلى أنه هو الذي اصطفى هؤلاء بغير مزية سبقت منهم تقتضي ذلك وتوجهه عليه. فإذا كان الأمر له في اصطفاء من يشاء من عباده وبذلك اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم. فما المانع له من اصطفاء محمد ﷺ بعد ذلك على العالمين كما اصطفى أولئك؟ لا مانع يمنع ذلك عند من يعقل. فإن قيل إنه لم يعهد أن بعث نبياً من غير بني إسرائيل بعد وجودهم. قلنا ولم اصطفى بني إسرائيل عند وجودهم؟ أليس ذلك بمحض مشيئته؟ بلى. وبمحض مشيئته اصطفى محمداً ﷺ. فهذه المثل مسوقة لبيان أنه تعالى يصطفي من خلقه من يشاء. أما الدليل على كونه شاء اصطفاه فاصطفاه بالفعل فهو أنه اصطفاه بالفعل إذ جعله هادياً للناس مخرجاً لهم من ظلمات الشرك والجهل والفساد، إلى نور الحق الجامع للتوحيد والعلم والصلاح، ولم يكن أثر غيره من آل إبراهيم وآل عمران في الهداية بأظهر من أثره، بل أثره أظهر، ونوره أسطع، ﷺ وعلى كل عبد مصطفى - وهذا بيان لوجه اتصال القصة بما قبلها من أول السورة.

ومن هذه المثل قصة مريم فإن أمها إذا كانت قد ولدتها وهي عاقرة على خلاف المعهود كما نقل أو يقال إذا كان قبول الأنثى محررة لخدمة بيت الله على خلاف المعهود عندهم وقد تقبله الله فلماذا لا يجوز أن يرسل الله محمداً من غير بني إسرائيل على خلاف المعهود عندهم؟ ومثل هذا يقال في قصة زكريا عليه السلام الآتية ومن ذلك كله. يعلم أن أعماله تعالى لا تأتي دائماً على ما يعهد الناس ويألفون.

والسلام لأن اختصاص الله إياهما بالنبوة والرسالة والخلة والتكليم يعلو كون الشيطان لم يمسهما عند الولادة. على أن الحديث ورد في تفسير كونه تعالى تقبل من أمها إعادتها وذريتها من الشيطان. وهذه الإعادة قد كانت بعد ولادتها والعلم بأنها أنثى وظاهر الحديث أن المس يكون عند الوضع. والله ورسوله أعلم بمرادها. . .

﴿إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ ولا توقع من المرزوق، أو رزقاً واسعاً وأنت ترى أنه لا دليل في الآية على أن الرزق كان من خوارق العادات. وإسناد المؤمنين الأمر إلى الله في مثل هذا المقام معهود في القديم والحديث. قال الأستاذ الإمام ما مثاله مبسوطاً: أن القرآن نزل سائغاً يسهل على كل أحد فهمه من غير حاجة إلى عناء ولا ذهاب في الدفاع عن شيء خلاف الظاهر، فعلينا أن لا نخرج عن سنته ولا نضيف إليه حكايات إسرائيلية أو غير إسرائيلية لجعل هذه القصة من خوارق العادات والبحث عن ذلك الرزق ما هو، ومن أين جاء؟ فضول لا يحتاج إليه لفهم المعنى ولا لمزيد العبرة. ولو علم الله أن في بيانه خيراً لنا لبينه.

أما ما سبقت القصة لأجله وهو الذي يجب أن نبحث فيه، ونستخرج العبر من قوادمه وخوافيه، فهو تقرير نبوة النبي ﷺ ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصاً بشعب إسرائيل وشبهه المشركين الذين كانوا ينكرون نبوته لأنه بشر. وبيان ذلك: أن المقصد الأول من مقاصد الوحي هو تقرير عقيدة الألوهية وأهم مسائلها مسألة الوحدانية، وتقرير عقيدة البعث والجزاء وعقيدة الوحي والأنبياء. وقد افتتحت السورة بذكر التوحيد وإنزال الكتاب ثم كانت الآيات من أولها إلى هذه القصة أو قبيل هذه القصة في الألوهية والجزاء بعد البعث بالتفصيل وإزالة الشبهات والأوهام في ذلك، ثم بين أن الإيمان بالله وإدعاء حبه ورجاء النجاة في الآخرة والفوز بالسعادة فيها إنما تكون باتباع رسوله، وفقى على ذلك بهذه القصة التي تزيل شبه المشركين وأهل الكتاب في رسالته وتردها على وجوههم.

سيد قطب ج ١ ص ٣٩٢ - ٣٩٤

من الشيطان الرجيم . .

وهذه كذلك كلمة القلب الخالص، ورغبة القلب الخالص. فما تود لوليدتها أمراً خيراً من أن تكون في حياطة الله من الشيطان الرجيم!

﴿فَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ . .

جزاء هذا الإخلاص الذي يعمر قلب الأم، وهذا التجرد الكامل في النذر. وإعداداً لها أن تستقبل نفخة الروح، وكلمة الله، وأن تلد عيسى - عليه السلام - على غير مثال من ولادة البشر.

﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ . .

أي جعل كفالتها له، وجعله أميناً عليها. . وكان زكريا رئيس الهيكل اليهودي. من ذرية هارون الذين صارت إليهم سدانة الهيكل.

ونشأت مباركة مجدودة. يهيء لها الله من رزقه فيضاً من فيوضاته:

﴿كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَمْرِئُؤُا أَنَّى لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

ولا نخوض نحن في صفة هذا الرزق كما خاضت الروايات الكثيرة. فيكفي أن نعرف أنها كانت مباركة يفيض من حولها الخير ويفيض الرزق من كل ما يسمى رزقاً. حتى ليعجب كافلها - وهو نبي - من فيض الرزق. فيسألها: كيف ومن أين هذا كله؟ فلا تزيد على أن تقول في خشوع المؤمن وتواضعه واعترافه بنعمة الله وفضله، وتفويض الأمر إليه كله:

﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ .

وهي كلمة تصور حال المؤمن مع ربه، واحتفاظه بالسر الذي بينه وبينه. والتواضع في الحديث عن هذا السر. لا التنفج به والمباهاة! كما أن ذكر هذه الظاهرة غير المألوفة التي تثير عجب نبي الله زكريا. هي التمهيد للعجائب التي تليها في ميلاد يحيى وميلاد عيسى . .

. . . وهذا الدعاء الخاشع من امرأة عمران، بأن يتقبل ربها منها نذرها - وهو فلذة كبدها - ينم عن ذلك الإسلام الخالص لله، والتوجه إليه كلية، والتحرر من كل قيد، والتجرد إلا من ابتغاء قبوله ورضاه:

﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ . .

ولكنها وضعتها أنثى؛ ولم تضعها ذكراً! ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ .

لقد كانت تنتظر ولداً ذكراً؛ فالنذر للمعابد لم يكن معروفاً إلا للصبيان، ليقدموا الهيكل، وينقطعوا للعبادة والتبتل. ولكن ها هي ذي تجدها أنثى؛ فتتوجه إلى ربها في نعمة أسيفة:

﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ﴾ . .

﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعْتَ﴾ . .

ولكنها هي تتجه إلى ربها بما وجدت، وكأنها تعتذر أن لم يكن لها ولد ذكر ينهض بالمهمة.

﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ﴾ . .

ولا تنهض الأنثى بما ينهض به الذكر في هذا المجال:

﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ . .

وهذا الحديث على هذا النحو فيه شكل المناجاة القريبة. من يشعر أنه منفرد بربه. يحدثه بما في نفسه، وبما بين يديه، ويقدم له ما يملك تقديماً مباشراً لطيفاً. وهي الحال التي يكون فيها هؤلاء العباد المختارون مع ربهم. حال الود والقرب والمباشرة، والمناجاة البسيطة العبارة، التي لا تكلف فيها ولا تعقيد. من يحس أنه يحدث قريباً ودوداً سميعاً مجيباً.

﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذَرَيْتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ . .

وهي الكلمة الأخيرة حيث تودع الأم هديتها بين يدي ربها، وتدعها لحمايته ورعايته، وتعيذها به هي وذريتها

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِيْنَ . يَمْرِيْمُ اقْنُيْ لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِيْ مَعَ الرَّاكِعِيْنَ . ذَٰلِكَ مِنْ اَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيْهِ اِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ اِذْ يُلْقُوْنَ اَقْلَمَهُمْ اَيْتُهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ اِذْ يَخْتَصِمُوْنَ . اِذْ قَالَتِ الْمَلَأِكَةُ يَمْرِيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيْحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيْهًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِيْنَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِى الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّٰلِحِيْنَ . قَالَتْ رَبِّ اَنْىَ يَكُوْنُ لِيْ وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسْسَنِيْ بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اَلَلَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ اِذَا قَضَىْ اَمْرًا فَاِذَا يَقُوْلُ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ . وَيُعَلِّمُهُ الْكِتٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْاِنْجِيْلَ . وَرَسُولًا اِلَىٰ بَنِيْ اِسْرٰءِيْلَ اَنِيْ قَدْ جَعَلْتُكُمْ بَنِيَّ مِنْ رَّبِّكُمْ اَنِيْ اَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطِّيْنِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاَنْفُخُ فِيْهِ فَيَكُوْنُ طَيْرًا يٰۤاِذْنَ اَلَلَّهُ وَاُتْرِثُ الْاَكْثَمَهُ وَالْاَبْرَصَ وَاُخِي الْمَوْقُ يٰۤاِذْنَ اَلَلَّهُ وَاُنْبِشُّكُمْ بِمَا تَاْكُلُوْنَ وَمَا تَدْخِرُوْنَ فِى بُيُوْتِكُمْ اِنَّ فِىْ ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ اِنْ كُنْتُمْ مُّؤْمِنِيْنَ . وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِاُحْمِلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اَلَلَّهُ وَاطِيعُوْنَ . اِنَّ اَلَلَّهُ رَبِّىْ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوْهُ هٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيْمٌ . ﴿ فَلَمَّا اَحْسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ اَنْصَارِىْ اِلَى اَلَلَّهُ قَالَ الْخَوَارِیُّوْنَ نَحْنُ اَنْصَارُ اَلَلهِ ءَاْمَنَّا بِاللّٰهِ وَاَشْهَدُ اَنَّآ مُسْلِمُوْنَ . رَبَّنَا ءَاْمَنَّا بِمَا اَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُوْلَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّٰهِدِيْنَ . وَمَكْرُوْا وَمَكَّرَ اَلَلَّهُ وَاللّٰهُ خَيْرُ الْمَكْرِیْنَ . اِذْ قَالَ اَلَلَّهُ لِيَّعِیْسَى اِنِّیْ مُتَوَفِّیْكَ وَرَافِعُكَ اِلَیَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِیْنَ كَفَرُوْا وَجَاعِلُ الَّذِیْنَ اتَّبَعُوْكَ فَوْقَ الَّذِیْنَ كَفَرُوْا اِلَیْ یَوْمِ الْقِيَمَةِ ثُمَّ اِلَیْ مَرْجِعُكُمْ فَاَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِیْمَا كُنْتُمْ فِیْهِ تَخْتَلِفُوْنَ . فَاَمَّا الَّذِیْنَ كَفَرُوْا فَاَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيْدًا فِى الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّصْرِیْنَ . وَاَمَّا الَّذِیْنَ ءَاْمَنُوْا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحٰتِ فَاُوْفِّیْهِمْ اُجُوْرَهُمْ وَاللّٰهُ لَا یُحِبُّ الظَّٰلِمِیْنَ . ذَٰلِكَ نَتْلُوْهُ عَلَیْكَ مِنَ الْاٰیٰتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِیْمِ . اِنَّ مَثَلَ عِیْسَى عِنْدَ اَلَلهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقْنٰهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُوْنُ ﴿

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٤٢ - ٥٩)

مصادر تفاسیر الآية

٣ ج	ص ١٧٩ - ٢٠٩	أبو حیان الاندلسي	ج ٢	ص ٤٥٤ - ٤٧٨
ج ١	ص ٤٢٩ - ٤٣٣	ابن كثير	ج ١	ص ٣٦٢ - ٣٦٨
ج ٨	ص ٤٢ - ٧٦	الجلالان		ص ٦٩ - ٧٢
ج ٣	ص ١٠٢ - ٧٦	الشوكاني	ج ١	ص ٣٣٦ - ٣٤٨
ج ١	ص ١٨٤ - ١٩٣	الالوسي	ج ٣	ص ١٥٤ - ١٨٧
ج ٢	ص ١٨ - ٢٢	القاسمي	ج ٤	ص ٩٦ - ١١١
ج ١	ص ٣٤٦ - ٣٥٩	محمد عبده	ج ٣	ص ٢٩٩ - ٣٢١
ج ١	ص ٢٣١ - ٢٤٠	الطباطبائي	ج ٣	ص ٢٠٣ - ٢٤٢
ج ١	ص ٣٩٢ - ٣٩٨	جوهرى	ج ٢	ص ١٠٤ - ١٢٨
ج ٤	ص ٨٢ - ١٠٣	المراغى	ج ٣	ص ١٤٩ - ١٧٤
		سيد قطب	ج ١	ص ٣٩٥ - ٤٠٥
الطبري				
الزمخشري				
الرازي				
الطبرسي				
ابن عربي				
البيضاوي				
الخان				
البغوي				
الماوردي				
القرطبي				

الطبري ج ٣ - ص ١٧٩ - ٢٠٩

وَأَصْطَفَيْكَ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠٩﴾ قال كان ثابت البناني يحدث عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال «خير نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». حدثني المثنى... عن أبي موسى الأشعري قال قال رسول الله ﷺ «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد». حدثني المثنى. عن محمد بن عبد الرحمن بن عمرو بن عثمان أن فاطمة بنت رسول الله ﷺ قالت «دخل رسول الله ﷺ يوماً وأنا عند عائشة فناجاني فبكيت ثم ناجاني فضحكت فسألتني عائشة عن ذلك فقلت لقد عجلت أخبرك بسر رسول الله ﷺ فتركتني فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها عائشة فقالت نعم ناجاني فقال جبريل كان يعارض القرآن كل عام مرة وأنه قد عارض القرآن مرتين وأنه ليس من نبي إلا عمر نصف عمر الذي كان قبله وإن عيسى أخى كان عمره عشرين ومائة سنة وهذه لي ستون وأحسبني ميتاً في عامي هذا وأنه لم ترزأ امرأة من نساء العالمين بمثل ما رزئت ولا تكوني دون امرأة صبراً قالت فبكيت ثم قال أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول فتوفي عامه ذلك». حدثني المثنى قال... أنه سمع عمار بن سعد يقول قال رسول الله ﷺ «فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين». وبمثل الذي قلنا في معنى قوله وطهرتك أنه وطهر دينك من الدنس والريب. قال مجاهد حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﷻ ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾ قال جعلك طيبة إيماناً. حدثني المثنى قال ثنا أبو حذيفة قال ثنا شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد مثله حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قال ذلك للعالمين يومئذ. وكانت الملائكة فيما ذكر ابن اسحق تقول ذلك لمريم شفها. حدثنا ابن حميد قال... حدثنا ابن اسحق قال كانت مريم حبساً في الكنيسة ومعها في الكنيسة غلام اسمه يوسف وقد كان أمه وأبوه جعلاه نذيراً حبساً فكانا

القول في تأويل قوله ﴿وَلَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا ﴿٢٠٩﴾ وَلَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَمَعْنَى قَوْلِهِ ﴿أَصْطَفَاكِ﴾ اختارك واجتباك لطاعته وما خصك به من كرامته وقوله ﴿وَطَهَّرَكِ﴾ يعني طهر دينك من الريب والأدناس التي في أديان نساء بني آدم. ﴿وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ يعني اختارك على نساء العالمين في زمانك بطاعتك إياه ففضلك عليهم كما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة بنت خويلد» يعني بقوله خير نسائها خير نساء أهل الجنة. حدثني بذلك الحسين بن علي الصدائي... عن عبد الله بن جعفر قال سمعت علياً بالعراق يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول «خير نسائها مريم بنت عمران وخير نسائها خديجة». حدثني يونس... عن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب أن رسول الله ﷺ قال «خير نساء الجنة مريم بنت عمران وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد». حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿وَلَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «حسبك بمريم بنت عمران وامرأة فرعون وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد من نساء العالمين» قال قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يقول «خير نساء ركن الإبل صوالح نساء قريش أحناه على ولد في صغره وأرعاه على زوج في ذات يده» قال قتادة وذكر لنا أنه كان يقول «لو علمت أن مريم ركب الإبل ما فضلت عليها أحداً». حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ قال كان أبو هريرة يحدث أن النبي ﷺ قال «خير نساء ركن الإبل صلح نساء قريش أحناه على ولد وأرعاه لزوج في ذات يده». قال أبو هريرة ولم تترك مريم بعيداً قط. حدثت عن عمار قال ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه قوله ﴿وَلَا قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ

﴿أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال أطيعي ربك. حدثني موسى عن السدي افتني لربك أطيعي ربك حدثني المثنى عن أبي سعيد الخدري... عن النبي ﷺ قال: «كل حرف يذكر فيه القنوت من القرآن فهو طاعة لله». حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال يقول إعبدي ربك. قال أبو جعفر وقد بينا أيضاً معنى «الركوع» و«السجود» بالأدلة الدالة على صحته وأنهما بمعنى الخشوع لله والخضوع له بالطاعة والعبودية فتأويل الآية إذا يا مريم أخلصي عبادة ربك لوجهه خالصاً واخشعي لطاعته وعبادته مع من خشع له من خلقه شكراً له على ما أكرمك به من الاصطفاء والتطهير من الأدناس والتفضيل على نساء عالم دهرك.

القول في تأويل قوله ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ذلك الأخبار التي أخبر بها عباده عن امرأة عمران وابنتها مريم وزكريا وابنه يحيى وسائر ما قص في الآيات من قوله إن الله اصطفي آدم ونوحاً ثم جمع جميع ذلك تعالى ذكره بقوله ذلك فقال هذه الأنباء من أنباء الغيب أي من أخبار الغيب ويعني بالغيب أنها من خفي أخبار القوم التي لم تطلع أنت يا محمد عليها ولا قومك ولم يعلمها إلا قليل من أخبار أهل الكتابين ورهبانهم ثم أخبر تعالى ذكره نبيه محمداً ﷺ أنه أوحى ذلك إليه حجة على نبوته وتحقيقاً لصدقه وقطعاً منه به عذر منكري رسالته من كفار أهل الكتابين الذين يعلمون أن محمداً لم يصل إلى علم هذه الأنباء مع خفائها، ولم يدرك معرفتها مع حملها عند أهلها إلا بإعلام الله ذلك إياه، إذ كان معلوماً عندهم أن محمداً ﷺ أمي لا يكتب فيقرأ الكتب، فيصل إلى علم ذلك من قبل الكتب ولا صاحب أهل الكتب فيأخذ علمه من قبلهم وأما «الغيب» فمصدر من قول القائل: «غاب فلان عن كذا فهو غيب عنه غيباً وغيبة» وأما قوله نوحيه إليك فإن تأويله: ننزله إليك وأصل «الإيحاء» إلقاء الموحى إلى الموحى إليه، وذلك قد يكون بكتاب وإشارة وإيماء وإلهام وبرسالة كما قال جل ثناؤه ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾ [النحل: ٦٨] بمعنى: ألقى ذلك إليها فألهمها وكما قال ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى

في الكنيسة جميعاً وكانت مريم إذا نفذ ماؤها وماء يوسف أخذاً قلتيهما فانطلقا إلى المغارة التي فيها الماء الذي يستعذبان منه فيملآن قلتيهما ثم يرجعان إلى الكنيسة والملائكة في ذلك مقبلة على مريم ﴿يَكْمُرُ إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ﴾ فإذا سمع ذلك زكريا قال: إن لابنة عمران لشأناً. القول في تأويل قوله ﴿وَأَسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله - خبراً عن قيل ملائكته ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ - أخلصي الطاعة لربك وحده وقد دللنا على معنى «القنوت» بشواهد فيما مضى قبل والاختلاف بين أهل التأويل فيه في هذا الموضع نحو اختلافهم فيه هنالك. وسنذكر قول بعضهم أيضاً في هذا الموضع، فقال بعضهم معنى افتني أطيلي الركود، ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو قال... عن مجاهد ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال أطيلي الركود يعني القنوت، حدثني المثنى... عن مجاهد مثله حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال قال مجاهد أطيلي الركود في الصلاة يعني القنوت. حدثني المثنى... عن مجاهد قال لما قيل لها ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قامت حتى ورم كعباها. حدثنا القاسم... عن مجاهد قال لما قيل لها يا مريم افتني لربك قامت حتى ورمت قدماها حدثني المثنى قال... عن مجاهد ﴿أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال أطيلي الركود. حدثت عن عمار... عن الربيع ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال القنوت الركود يقول: قومي لربك في الصلاة، يقول: اركدي لربك أي انتصبي له في الصلاة واسجدي واركعي مع الراكعين. حدثني محمد بن سنان... عن مجاهد ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال: كانت تصلي حتى ترم قدماها. حدثني ابن البرقي قال ثنا عمرو قال: ثنا الأوزاعي ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال: كانت تقوم حتى يسيل القيع من قدميها.

وقال آخرون معناه: أخلصي لربك ذكر من قال ذلك حدثني المثنى... عن سعيد ﴿يَكْمُرُ أَفْتَنِي لِرَبِّكَ﴾ قال أخلصي لربك. وقال آخرون معناه أطيعي ربك ذكر من قال: ذلك حدثني الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله

أَلْحَوَاتِينَ ﴿المائدة: ١١١﴾ بمعنى ألقيت إليهم علم ذلك إلهاماً، وكما قال الراجز:

* أوحى لها القرار فاستقرت *

بمعنى ألقى إليها ذلك أمراً، وكما قال جل ثناؤه ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] بمعنى: فألقى ذلك إليهم إيماء. والأصل فيه ما وصفت من إلقاء ذلك إليهم. وقد يكون القاءه ذلك إليهم إيماء ويكون بكتاب. ومن ذلك قوله ﴿وَلَنْ الشَّيَاطِينُ لِيُؤْخَوْنَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١] يلقون إليهم ذلك وسوسة، وقوله ﴿وَأَوْحَى إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنُ لِأَتَذْكُرَكَ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ألقى إليّ بمجيء جبريل عليه السلام به إليّ من عند الله عز وجل. وأما الوحي فهو الواقع من الموحى إلى الموحى إليه، ولذلك سمت العرب الخط والكتاب «وحيّاً» لأنه واقع فيما كتب ثابت فيه كما قال كعب بن زهير:

أتى العجم والآفاق منه قصائد

بقين بقاء الوحي في الحجر الأصم
يعني به: الكتاب الثابت في الحجر. وقد يقال في الكتاب خاصة إذا كتبه الكاتب. «وحي» بغير ألف ومنه قول رؤبة:

كانه بعد رياح تدهمه

ومرئعات الدجور تئمه

انجيل أخبار روعي منمنه

القول في تأويل قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ وما كنت، يا محمد، عندهم فتعلم ما نعلمك من أخبارهم التي لم تشهدها، ولكنك إنما تعلم ذلك فتدرك معرفته بتعريفناكه. ومعنى قوله ﴿لَدَيْهِمْ﴾ عندهم. ومعنى قوله ﴿إِذْ يَقُولُ﴾ حين يلقون أقلامهم. وأما أقلامهم فسهامهم التي استهم بها المستهمون من بني إسرائيل على كفالة مريم على ما قد بينا قبل في قوله ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني المثنى... عن قتادة في قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾ يعني محمداً ﷺ حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾

زكريا وأصحابه استهموا بأقلامهم على مريم حين دخلت عليهم. حدثني المثنى... عن مجاهد مثله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وما كنت لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، كانت مريم ابنة إمامهم وسيدهم فتشاح عليها بنو إسرائيل، فاقتروا فيها بسهامهم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا وكان زوج أختها فكفلها زكريا يقول: ضمها إليه، حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ قال تساهموا على مريم أيهم يكفلها فقرعهم زكريا. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وإن مريم لما وضعت في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي، فاقتروا بأقلامهم أيهم يكفلها فقال الله عز وجل لمحمد ﷺ ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ وما كنت لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ قال حيث اقترعوا على مريم وكان غيباً عن محمد ﷺ حين أخبره الله. وإنما قيل ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ لأن إلقاء المستهمين أقلامهم على مريم إنما كان لينظروا أيهم أولى بكفالتها وأحق. ففي قوله عز وجل ﴿إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ دلالة على محذوف من الكلام وهو «لينظروا أيهم يكفل وليتبنوا ذلك ويعلموه» فإن ظن ظناً أن الواجب في ﴿أَيُّهُمْ﴾ النصب إذ كان ذلك معناه فقد ظن خطأ وذلك أن «النظر» و«التبين» و«العلم» مع «أي» يقتضي استفهاماً واستخباراً، وحظ أي في الاستخبار، الابتداء وبطول عمل المسئلة والاستخبار عنه. وذلك أن معنى قول القائل «لأنظرون أيهم قام» لاستخبرن الناس أيهم قام وكذلك قولهم «لأعلمن». وقد دللنا فيما مضى قبل أن معنى ﴿يَكْفُلُ﴾ يضم بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُ أَقْلَمَهُمْ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه وما كنت يا محمد عند قوم مريم إذ

الله. وأقرب الوجوه إلى الصواب عندي القول الأول وهو أن الملائكة بشرت مريم بعيسى عن الله عز وجل برسالته وكلمته التي أمرها أن تلقىها إليها أن الله خالق منها ولداً من غير بعل ولا فحل ولذلك قال عز وجل ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان وإنما هي بمعنى البشارة فذكرت كنياتها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب على ما قد بيناه قبل فيما مضى. فتأويل ذلك كما قلنا أنفاً من أن معنى ذلك إن الله يبشرك ببشرى ثم بين عن البشرى أنها ولد اسمه المسيح. وقد زعم بعض نحويي البصرة أنه إنما ذكر فقال ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ وقد قال ﴿يَكَلِمَةً مِنْهُ﴾ والكلمة عنده هي عيسى لأنه في المعنى كذلك كما قال جل ثناؤه ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ بِحَسْرَةٍ﴾ [الزمر: ٥٦] ثم قال ﴿بَلَى قَدْ جَاءَ تِلْكَ أَيْتِي فَكَذَّبَتْ بِهَا﴾ [الزمر: ٥٩] وكما يقال ذو الثدية لأن يده كانت قصيرة قريبة من ثديه فجعلها كأن اسمها ثدية ولولا ذلك لم تدخل الهاء في التصغير. وقال بعض نحويي الكوفة نحو قول من ذكرنا من نحويي البصرة في أن الهاء من ذكر الكلمة وخالفه في المعنى الذي من أجله ذكر قوله ﴿أَسْمُهُ﴾ والكلمة متقدمة قبله. فزعم أنه إنما قيل ﴿أَسْمُهُ﴾ وقد قدمت الكلمة ولم يقل اسمها لأن من شأن العرب أن تفعل ذلك فيما كان من النعوت والألقاب والأسماء التي لم توضع لتعريف المسمى به كفلان وفلان وذلك مثل الذرية والخلقة والدابة ولذلك جاز عنده أن يقال ذرية طيبة وذرية طيباً ولم يجز أن يقال «طلحة أقبلت ومغيرة قامت». وأنكر بعضهم اعتلال من اعتل في ذلك بذوي الثدية وقالوا إنما أدخلت الهاء في ذي الثدية لأنه أريد بذلك القطعة من الثدي كما قيل «كنا في لحمة ونبيلة» يراد به القطعة منه وهذا القول نحو قولنا الذي قلناه في ذلك: وأما قوله ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فإنه جل ثناؤه أنبأ عباده عن نسبة عيسى وأنه ابن أمه مريم ونفى بذلك عنه ما أضاف إليه الملحدون في الله جل ثناؤه من النصارى من إضافتهم بنوته إلى الله عز وجل وما قذفت أمه به المفترية عليها من اليهود كما حدثني به ابن حميد... عن محمد

يختصمون فيها أيهم أحق بها وأولى. وذلك من الله عز وجل وإن كان خطاباً لنبيه ﷺ فتوبيخ منه عز وجل للمكذبين به من أهل الكتابين. يقول كيف يشك أهل الكفر بك منهم وأنت تنبئهم هذه الأنباء ولم تشهدا ولم تكن معهم يوم فعلوا هذه الأمور ولست ممن قرأ الكتب فعلم نبأهم ولا جالس أهلها فسمع خبرهم. كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَمَا كُنْتُ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي ما كنت معهم إذ يختصمون فيها. يخبره بخفي ما كنتموا منه من العلم عندهم لتحقيق نبوته والحجة عليهم لما يأتيهم به مما أخفوا منه. القول في تأويل قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ وما كنت لديهم إذ يختصمون وما كنت لديهم أيضاً إذ قالت الملائكة ﴿يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾ والتبشير إخبار المرء بما يسره من خبر وقوله ﴿يَكَلِمَةً مِنْهُ﴾ يعني برسالة من الله وخبر من عنده وهو من قول القائل «ألقى فلان إليّ كلمة سرنى بها» بمعنى أخبرني خبراً فرحت به كما قال جل ثناؤه ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء: ١٧١] يعني بشر الله مريم بعيسى ألفاها إليها. فتأويل الكلام وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة لمريم يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى بن مريم. وقد قال قوم وهو قول قتادة إن الكلمة التي قال الله عز وجل ﴿يَكَلِمَةً مِنْهُ﴾ هو قوله كن. حدثنا بذلك الحسن بن يحيى... عن قتادة قوله ﴿يَكَلِمَةً مِنْهُ﴾ قال قوله كن فسماه الله عز وجل كلمته لأنه كان عن كلمته كما يقال لما قدر الله من شيء «هذا قدر الله وقضاؤه» يعني به هذا عن قدر الله وقضائه حدث وكما قال جل ثناؤه ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ [النساء: ٤٧] يعني به ما أمر الله به وهو المأمور [به] الذي كان عن أمر الله عز وجل. وقال آخرون بل هي اسم لعيسى سماه الله بها كما سمى سائر خلقه بما شاء من الأسماء. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال الكلمة هي عيسى. حدثنا ابن وكيع... عن ابن عباس في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ قال عيسى هو الكلمة من

ف ﴿وَيُكَلِّمُ﴾ وإن كان مرفوعاً لأنه في صورة يفعل بالسلامة من العوامل فيه فإنه في موضع نصب وهو نظير قول الشاعر:

بت أعشيها بعضب باتر

يقصد في أسوقها وجائر

وأما المهد فإنه يعني به مضجع الصبي في رضاعه كما حدثنا القاسم... عن ابن عباس ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ قال مضجع الصبي في رضاعه. وأما قوله ﴿وَكَهْلًا﴾ فإنه ومحتكاً فوق الغلومة ودون الشيخوخة يقال منه رجل كهل وامرأة كهلة كما قال الراجز:

ولا أعود بعدهما كرياً

أمارس الكهولة والصبي

وإنما عنى جل ثناؤه بقوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ويكلم الناس طفلاً في المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها وحجة له على نبوته وبالغاً كبيراً بعد احتناكه بوحى الله الذي يوحى إليه وأمره ونهيه وما ينزل عليه من كتابه. وإنما أخبر الله عز وجل عبده بذلك من أمر المسيح وأنه كذلك كان وإن كان الغالب من أمر الناس أنهم يتكلمون كهولاً وشيوخاً احتجاجاً به على القائلين فيه من أهل الكفر بالله من النصارى بالباطل وأنه كان منذ أنشأه مولوداً طفلاً ثم كهلاً يتقلب في الأحداث ويتغير بمرور الأزمنة عليه والأيام من صغر إلى كبر ومن حال إلى حال وأنه لو كان كما قال الملحدون فيه كان ذلك غير جائز عليه فكذب بذلك ما قاله الوفد من أهل نجران الذين حاجوا رسول الله ﷺ فيه واحتج به عليهم لنبيه محمد ﷺ وأعلمهم أنه كان كسائر بني آدم إلا ما خصه الله به من الكرامة التي أبانه بها منهم، كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ﴾ يخبرهم بحالاته التي يتقلب بها في عمره كتقلب بني آدم في أعمارهم صغاراً وكباراً إلا أن الله خصه بالكلام في مهده آية لنبوته وتعريفاً للعباد مواقع قدرته. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ﴾ يقول يكلمهم صغيراً وكبيراً. حدثني المشنى... عن الربيع ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ

بن جعفر بن الزبير ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشَرِكِ يَقُولُ إِنَّهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ أي هكذا كان أمره لا ما يقولون فيه. وأما ﴿الْمَسِيحُ﴾ فإنه فعيل صرف من مفعول إلى فعيل وإنما هو ممسوح يعني مسحه الله فطهره من الذنوب ولذلك قال إبراهيم ﴿الْمَسِيحُ﴾ الصديق وقال آخرون مسح بالبركة. حدثنا ابن وكيع... عن إبراهيم مثله. حدثنا ابن حميد عن إبراهيم مثله. حدثنا ابن البرقي... عن سعيد إنما سمي المسيح لأنه مسح بالبركة. القول في تأويل قوله ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يعني بقوله ﴿وَجِيهًا﴾ ذا وجه ومنزلة عالية عند الله وشرف وكرامة ومنه يقال للرجل الذي يشرف وتعظمه الملوك والناس وجيه يقال منه «ما كان فلان وجيهاً ولقد وجهه وجاهة»، وإن له لوجهاً عند السلطان وجاهاً ووجاهة والجاه مقولوب قلبت واوه من أوله إلى موضع العين منه فقليل جاء وإنما هو وجه وفعل من الجاه جاء يعوجه مسموع من العرب «أخاف أن يجوهني بأكثر من هذا» بمعنى أن يستقبلني في وجهي بأعظم منه. وأما نصب الوجيه فعلى القطع من عيسى لأن عيسى معرفة ووجيه نكرة وهو من نعتة ولو كان مخفوضاً على الرد على الكلمة كان جائزاً. وكما قلنا من أن تأويل ذلك وجيهاً في الدنيا والآخرة عند الله قال فيما بلغنا محمد بن جعفر. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَجِيهًا﴾ قال وجيهاً في الدنيا والآخرة عند الله. وأما قوله ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ فإنه يعني أنه ممن يقربه الله يوم القيامة فيسكنه في جواره ويدنيه منه كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قوله ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يقول من المقربين عند الله يوم القيامة حدثت عن عمار بن الحسن... عن الربيع قوله ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ يقول من المقربين عند الله يوم القيامة. حدثني المشنى... عن الربيع مثله.

القول في تأويل قوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّبِيِّينَ﴾ أما قوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ فإن معناه إن الله يشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيهاً عند الله ومكلماً الناس في المهد.

وَكَهَلًا ﴿١﴾ قال يكلمهم صغيراً وكبيراً. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿٢﴾ وَكَهَلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٣﴾ قال الكهل الحليم. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قال كلمهم صغيراً وكبيراً وقال ابن جريج وقال مجاهد الكهل الحليم. حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿٤﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴿٥﴾ قال كلمهم في المهد صبيّاً وكلمهم كبيراً. وقال آخرون معنى قوله ﴿٦﴾ وَكَهَلًا ﴿٧﴾ أنه سيكلمهم إذا ظهر. ذكر من قال ذلك حدثني يونس قال أخبرنا ابن وهب قال سمعته يعني ابن زيد يقول في قوله ﴿٨﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا ﴿٩﴾ قال قد كلمهم عيسى في المهد وسيكلمهم إذا قتل الدجال وهو يومئذ كهل. ونصب ﴿١٠﴾ وَكَهَلًا ﴿١١﴾ عطفاً على موضع ﴿٨﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ ﴿١٢﴾ وأما قوله ﴿١٣﴾ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٤﴾ فإنه يعني من عدادهم وأوليائهم لأن أهل الصلاح بعضهم من بعض في الدين والفضل. القول في تأويل قوله ﴿١٥﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١٦﴾ يعني بذلك جل ثناؤه قالت مريم إذ قالت لها الملائكة إن الله يبشرك بكلمة منه ﴿١٧﴾ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴿١٨﴾ من أي وجه يكون لي ولد أمن قبل زوج أتزوجه وبعل أنكحه أو تبتدىء في خلقه من غير بعل ولا فحل ومن غير أن يمسنى بشر؟ فقال الله لها ﴿١٩﴾ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٠﴾ يعني هكذا يخلق الله منك ولداً لك من غير أن يمسك بشر، فيجعله آية للناس وعبرة، فإنه يخلق ما يشاء ويصنع ما يريد فيعطي الولد من يشاء من غير فحل ومن فحل، ويحرم ذلك من يشاء من النساء، وإن كانت ذات بعل لأنه لا يتعذر عليه خلق شيء أراد خلقه إنما هو أن يأمر إذا أراد شيئاً ما أراد فيقول له ﴿٢١﴾ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٢﴾ ما شاء مما يشاء، وكيف شاء كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿٢٣﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٤﴾ من بشر أو غير بشر، أي ﴿٢٥﴾ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٦﴾ مما يشاء وكيف يشاء ﴿٢٧﴾ فَيَكُونُ ﴿٢٨﴾ ما أراد. القول في تأويل قوله ﴿٢٩﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣٠﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والمدينة وبعض

قراء الكوفيين ﴿٣١﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسْمَةَ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٣٢﴾ بالياء رداً على قوله ﴿٣٣﴾ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٤﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴿٣٥﴾ فالحقوا الخبر في قوله ﴿٣٦﴾ وَيُعَلِّمُهُ ﴿٣٧﴾ بنظير الخبر في قوله ﴿٣٨﴾ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴿٣٩﴾ وقوله ﴿٤٠﴾ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤١﴾ وقرأ ذلك عامة قراء الكوفيين وبعض البصريين ونعلمه بالنون عطفاً به على قوله ﴿٤٢﴾ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿٤٣﴾ كأنه قال ﴿٤٤﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴿٤٥﴾ [آل عمران: ٤٤] ﴿٤٦﴾ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴿٤٧﴾ وقالوا ما بعد نوحيه في صلتة إلى قوله ﴿٤٨﴾ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٩﴾ ثم عطف بقوله ونعلمه عليه. والصواب من القول في ذلك عندنا أنهماء قراءتان مختلفتان غير مختلفتي المعاني فبأيهما قرأ القارئ فهو مصيب الصواب في ذلك لاتفاق معنى القراءتين في أنه خبر عن الله بأنه يعلم عيسى الكتاب وما ذكر أنه يعلمه. وهذا ابتداء خبر من الله عز وجل لمريم ما هو فاعل بالولد الذي بشرها به من الكرامة ورفعته المنزلة والفضيلة، فقال كذلك الله يخلق منك ولداً من غير فحل ولا بعل فيعلمه الكتاب وهو الخط الذي يخطه بيده، والحكمة وهي السنة التي نوحياها إليه في غير كتاب، والتوراة وهي التوراة التي أنزلت على موسى كانت فيهم من عهد موسى، والإنجيل انجيل عيسى ولم يكن قبله ولكن الله أخبر مريم قبل خلق عيسى أنه موحيه إليه، وإنما أخبرها بذلك فسماه لها لأنها قد كانت علمت فيما نزل من الكتب أن الله باعث نبياً يوحى إليه كتاباً اسمه الإنجيل، فأخبرها الله عز وجل أن ذلك النبي ﷺ الذي سمعت بصفته الذي وعد أنبياءه من قبل أنه منزل عليه الكتاب الذي يسمى انجيلاً هو الولد الذي وهبه لها وبشرها به. ونحن ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم... عن ابن جريج ونعلمه الكتاب قال بيده. حدثنا بشر... عن قتادة ونعلمه الكتاب والحكمة، قال الحكمة السنة حدثنا المثنى... عن قتادة في قوله ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل، قال ﴿٥٠﴾ وَالْحِكْمَةَ ﴿٥١﴾ السنة ﴿٥٢﴾ وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٥٣﴾ قال كان عيسى يقرأ التوراة والإنجيل. حدثنا القاسم... عن ابن جريج ونعلمه الكتاب والحكمة، قال

الحكمة السنة. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير قال أخبرها يعني أخبر الله مريم ما يريد به فقال ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ﴾ التي كانت فيهم من عهد موسى ﴿وَأَلَّا يُغَيَّلَ﴾ كتاباً آخر أحدثه إليه لم يكن عندهم علمه إلا ذكره أنه كائن من الأنبياء قبله.

القول في تأويل قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿وَرَسُولًا﴾ ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل فترك ذكر ونجعله لدلالة الكلام عليه كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الرغى

مقلداً سيفاً ورمحاً

وقوله ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني ونجعله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنه نبي وبشير ونذير وحجتي على صدقي على ذلك ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ يعني بعلامة من ربكم تحقق قولي وتصديق خبري أني رسول من ربكم إليكم كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي يحقق بها نبوتي وأنني رسول منه إليكم. القول في تأويل قوله ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ ثم بين عن الآية ما هي فقال ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾. فتأويل الكلام ورسولاً إلى بني إسرائيل بأنني قد جئتكم بآية من ربكم بأن أخلق لكم من الطين كهية الطير ﴿وَالطَّيْرِ﴾ جمع طائر. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقراه بعض أهل الحجاز «كهية الطائر فانفخ فيه فيكون طائراً» على التوحيد. وقراه آخرون ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ على الجماع فيهما. وأعجب القراءات إليّ في ذلك قراءة من قرأ ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا﴾ على الجماع فيهما جميعاً لأن ذلك كان من صفة عيسى أنه يفعل ذلك بإذن الله وأنه موافق لخط المصحف واتباع خط المصحف. مع صحة المعنى واستفاضة القراءة به أعجب إليّ من خلاف المصحف. وكان خلق عيسى ما كان يخلق من الطير كما

حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق أن عيسى صلوات الله عليه جلس يوماً مع غلمان من الكتاب فأخذ طيناً ثم قال أجعل لكم من هذا الطين طائراً قالوا وتستطيع ذلك قال نعم بإذن ربي. ثم هياه حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه ثم قال «كن طائراً بإذن الله» فخرج يطير بين كفيه، فخرج الغلمان بذلك من أمره فذكروه لمعلمهم، فافشوه في الناس وترعرع، فهمت به بنو إسرائيل، فلما خافت أمه عليه حملته على حمير لها ثم خرجت به هاربة. وذكر أنه لما أراد أن يخلق الطير من الطين سألهم أي الطير أشد خلقاً، فقبل له الخفاش كما حدثنا القاسم... عن ابن جريج قال قوله ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ قال أي الطير أشد خلقاً قالوا الخفاش إنما هو لحم قال ففعل فإن قال قائل وكيف قيل ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ وقد قيل ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ قيل لأن معنى الكلام فأنفخ في الطير ولو كان ذلك، فأنفخ فيها كان صحيحاً جائزاً كما قال في المائدة ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ [المائدة: ١١٠] يريد فأنفخ في الهيئة، وقد ذكر أن ذلك في إحدى القراءتين فأنفخها بغير في وقد تفعل العرب مثل ذلك فنقول «رب ليلة قد بتها وبث فيها» قال الشاعر:

ما شق جيب ولا قامت نائحة

ولا بكتك جواد عند أسلاب

بمعنى ولا قامت عليك. وكما قال آخر:

إحدى بني عيذا الله استمر بها

حلو العصرة حتى ينفخ الصور

القول في تأويل قوله ﴿وَأُتْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ و﴿وَأُتْرِئُ﴾ يعني بقوله ﴿وَأُتْرِئُ﴾ وأشفي يقال منه أبرأ الله المريض إذا شفاه منه فهو يبرئه إبراء الأكمه، وبرأ المريض فهو يبرأ برأ، وقد يقال أيضاً برىء المريض فهو يبرأ لغتان معروفتان. واختلف أهل التأويل في معنى الأكمه فقال بعضهم هو الذي لا يبصر بالليل ويبصر بالنهار. ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿وَأُتْرِئُ الْأَكْمَةَ﴾ قال الأكمه الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل فهو يتكمه. حدثني المثني... عن مجاهد مثله. وقال آخرون هو الأعمى

خلق ممن يعالج ذلك وليسوا الله أنبياء ولا رسلاً» ففي ذلك دلالة بينة على صحة ما قلنا من أن ﴿الْأَكْمَهَ﴾ هو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً ليلًا ولا نهاراً، وهو بما قال قتادة من أنه المولود كذلك أشبه لأن علاج مثل ذلك لا يدّعيه أحد من البشر إلا من أعطاه الله مثل الذي أعطى عيسى، وكذلك علاج الأبرص.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾. وكان إحياء عيسى الموتى بدعاء الله يدعو لهم فيستجيب له كما حدثني محمد بن سهل بن عسكر... عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهب بن منبه يقول لما صار عيسى ابن اثنتي عشرة سنة أوحى الله إلى أمه وهي بأرض مصر، وكانت هربت من قومها حين ولدته إلى أرض مصر أن اطلعي به إلى الشام. ففعلت الذي أمرت به فلم تزل بالشام حتى كان ابن ثلاثين سنة، وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفعه الله إليه قال وزعم وهب أنه ربما اجتمع على عيسى من المرضى في الجماعة الواحدة خمسون ألفاً من أطاق منهم أن يبلغه بلغه، ومن لم يطق منهم ذلك أتاه عيسى يمشي إليه، وإنما كان يداويهم بالدعاء إلى الله. وأما قوله ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنه يعني وأخبركم بما تأكلون مما لم أعاينه وأشاهده معكم في وقت أكلكموه ﴿وَمَا تَدْخِرُونَ﴾ يعني بذلك وما ترفعونه فتخبؤنه ولا تأكلونه. يعلمهم أن من حجته أيضاً على نبوته مع المعجزات التي أعلمهم أنه يأتي بها حجة على نبوته، وصدقه في خبره أن الله أرسله إليهم من خلق الطير من الطين، وإبراء الأكمه والأبرص، وإحياء الموتى بإذن الله التي لا يطيقها أحد من البشر إلا من أعطاه الله ذلك علماً له على صدقه، وآية له على حقيقة قوله من أنبيائه ورسله ومن أحب من خلقه إنباءه عن الغيب الذي لا سبيل لأحد من البشر الذين سبيلهم سبيله عليه. فإن قال قائل وما كان في قوله لهم ﴿وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ من الحجة له على صدقه وقد رأينا المتننجة والمتكهنة تخبر بذلك كثيراً فتصيب؟ قيل أن المتننجم والمتكهن معلوم منهما عند من يخبره بذلك أنهما ينثان به

الذي ولدته أمه كذلك. ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر قال... عن قتادة قال كنا نحدث أن ﴿الْأَكْمَهَ﴾ الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين. حدثني المثنى... عن قتادة في قوله ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال كنا نحدث أن الأكمه الذي ولد وهو أعمى مضموم العينين. حدثت عن المنجاب... عن ابن عباس قال الأكمه الذي يولد وهو أعمى. وقال آخرون بل هو الأعمى. ذكر من قال ذلك حدثني موسى بن هرون عن السدي ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ هو الأعمى. حدثنا القاسم... عن ابن عباس الأعمى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال الأكمه الأعمى حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال الأكمه. وقال آخرون هو الأعمش. ذكر من قال ذلك حدثني المثنى... عن عكرمة في قوله ﴿وَأُخِي الْمَوْتُ يَأْذَنُ لِلَّهِ وَأَنْتُمْ كَمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال الأكمه. والمعروف عند العرب من معنى الكمه العمى يقال منه «كمهت عينه فهي تكمه كمهاً وأكمتها أنا» إذا أعميتها كما قال سويد بن أبي كاهل:

كمهت عيناه حتى ابيضتا

فهو يلحى نفسه لما نزع

ومنه قول رؤبة:

هزجت فارتداد ارتداد الأكمه

في غائلات الحائر المتته

وإنما أخبر الله عز وجل عن عيسى صلوات الله عليه أنه يقول ذلك لبني إسرائيل احتجاجاً منه بهذه العبر والآيات عليهم في نبوته وذلك أن الكمه والبرص لا علاج لهما فيقدر على إبراؤه ذو طب بعلاج. فكان ذلك من أدلته على صدق قوله إنه الله رسول لأنه من المعجزات مع سائر الآيات التي أعطاها الله إياها دلالة على نبوته. فأما ما قال عكرمة من أن الكمه العمش، وما قاله مجاهد من أنه سوء البصر بالليل فلا معنى لهما. لأن الله لا يحتاج على خلقه بحجة تكون لهم السبيل إلى معارضته فيها، ولو كان مما احتج به عيسى على بني إسرائيل في نبوته أنه يبرئ الأعمش، أو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل لقدروا على معارضته بأن يقولوا «وما في هذا لك من الحجة وفينا

عن عطاء ابن أبي رباح يعني قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال الطعام والشيء يدخرونه في بيوتهم غيباً علمه الله إياه. حدثني المثنى... عن الربيع في قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال ما تأكلون ما أكلتم البارحة من طعام، وما خبأتم منه. حدثني موسى بن هرون... عن السدي قال كان يعني عيسى ابن مريم يحدث الغلمان وهو معهم في الكتاب بما يصنع آبائهم وبما يرفعون لهم وبما يأكلون. ويقول للغلام انطلق فقد رفع لك أهلك كذا وكذا وهم يأكلون كذا وكذا، فينطلق الصبي فيبكي على أهله حتى يعطوه ذلك الشيء، فيقولون له من أخبرك بهذا، فيقول عيسى فذلك قول الله عز وجل ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فحبسوا صبيانهم عنه وقالوا لا تلعبوا مع هذا الساحر فجمعوهم في بيت، فجاء عيسى يطلبهم فقالوا ليس هم ههنا، فقال ما في هذا البيت؟ فقالوا خنازير، قال عيسى كذلك يكونون، ففتحوا عنهم فإذا هم خنازير فذلك قوله ﴿عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٨] حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال ما تخبئون مخافة الذي يمسك أن لا يخلفه شيء. وقال آخرون إنما عني بقوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ ما تأكلون من المائدة التي تنزل عليكم وما تدخرون منها. ذكر من قال ذلك حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فكان القوم لما سألوا المائدة فكانت حراباً ينزل عليه أينما كانوا ثمراً من ثمار الجنة فأمر القوم أن لا يخونوا فيه ولا يخبؤا ولا يدخروا لغد بلاء ابتلاههم الله به، فكانوا إذا فعلوا من ذلك شيئاً أنبأهم به عيسى ابن مريم، فقال ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ﴾ قال أنبئكم بما تأكلون من المائدة وما تدخرون منها قال فكان أخذ عليهم في المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا فادخروا وخانوا، فجعلوا خنازير حين ادخروا وخانوا فذلك قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا

عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه، ومن سائر أنبياء الله ورسله، وإنما كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفة باحتيال ولكن ابتداء بإعلام الله إياه من غير أصل تقدم ذلك احتذاه، أو بنى عليه، أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه، والمتكهن إلى رثيه فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وأخبارهم عنها، وبين علم سائر المتكذبة على الله أو المدعية علم ذلك. كما حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال لما بلغ عيسى تسع سنين أو عشراً أو نحو ذلك أدخلته أمه الكتاب فيما يزعمون، فكان عند رجل من المكتبين يعلمه كما يعلم الغلمان فلا يذهب، يعلمه شيئاً مما يعلمه الغلمان إلا بدره إلى علمه قبل أن يعلمه إياه، فيقول ألا تعجبون لابن هذه الأرملة ما أذهب أعلمه شيئاً إلا وجدته أعلم به مني! حدثني موسى... عن السدي لما كبر عيسى أسلمته أمه يتعلم التوراة، فكان يلعب مع الغلمان، غلمان القرية التي كان فيها فيحدث الغلمان بما يصنع آبائهم. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن سعيد بن جبير في قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال كان عيسى ابن مريم إذ كان في الكتاب يخبرهم بما يأكلون في بيوتهم، وما يدخرون. حدثنا القاسم... عن سعيد بن جبير يقول ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال أن عيسى ابن مريم كان يقول للغلام في الكتاب «يا فلان أن أهلك قد خبأ لك كذا وكذا من الطعام فتطعمني منه». فهكذا فعل الأنبياء وحجبها إنما تأتي بما أتت به من الحجج بما قد يوصل إليه ببعض الحيل على غير الوجه الذي يأتي به غيرها بل من الوجه الذي يعلم الخلق أنه لا يوصل إليه من ذلك الوجه بحيلة إلا من قبل الله. وبنحو ما قلنا في تأويل قوله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿وَأَنْتِشْكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ قال بما أكلتم البارحة، وما خبأتم منه عيسى ابن مريم بقوله. حدثني المثنى... عن مجاهد مثله. حدثنا القاسم...

أَعَذَّبَهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾. قال ابن يحيى... عن عمار بن ياسر ذلك وأصل يدخرون من الفعل يفتعلون من قول القائل ذخرت الشيء بالذال فأنا أذخره ثم قيل يدخر كما قيل يذكر من ذكرت الشيء يراد به يذخر، فلما اجتمعت الذال والتاء وهما متقاربتا المخرج ثقل اظهارهما على اللسان فادغمت إحداهما في الأخرى، وصيرتا دالاً مشددة صيروها عدلاً بين الذال والتاء. ومن العرب من يغلب الذال على التاء فيدغم التاء في الذال فيقول وما تدخرون، وهو مذخر لك وهو مذكر. واللغة التي بها القراءة الأولى وذلك ادغام الذال في التاء، وإبدالهما دالاً مشددة. لا يجوز القراءة بغيرها لتظاهر النقل من القراءة بها وهي اللغة الجودي كما قال زهير:

إن الكريم الذي يعطيك نائله

عفواً ويظلم أحياناً فيظلم

يروى بالطاء يريد فيفتعل من الظلم، ويروى بالطاء أيضاً. القول في تأويل قوله ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه أن في خلقي من الطين الطير بإذن الله، وفي إبرائي الأكمه والأبرص وإحيائي الموتى وإنبائي إياكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ابتداء من غير حساب وتنجيم ولا كهانة وعرافة لعبرة لكم ومتفكراً تفكرون في ذلك، فتعتبرون به أني محق في قولي لكم «إني رسول من ربكم إليكم» وتعلمون به أني فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ﴿إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ يعني إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته مقرين بتوحيده ونبيه موسى والتوراة التي جاءكم بها.

القول في تأويل قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه وبأنني قد جئتكم بآية من ربكم، وجئتكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة، ولذلك نصب ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال من ﴿جِئْتُكُمْ﴾. والذي يدل على أنه نصب على قوله وجئتكم دون العطف على قوله ﴿وَجِيهًا﴾ قوله ﴿لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. ولو كان عطفاً على قوله وجيهاً لكان الكلام ومصدقاً لما بين يديه من التوراة وليحل لكم بعض الذي حرم عليكم. وإنما قيل ﴿وَمُصَدِّقًا﴾

لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ﴿١﴾ لأن عيسى صلوات الله عليه كان مؤمناً بالتوراة مقراً بها، وأنها من عند الله، وكذلك الأنبياء كلهم يصدقون بكل ما كان قبلهم من كتب الله ورسله، وإن اختلف بعض شرائع أحكامهم لمخالفة الله بينهم في ذلك مع أن عيسى كان فيما بلغنا عاملاً بالتوراة لم يخالف شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها في الإنجيل مما كان مشدداً عليهم فيها كما حدثني المثنى... عن وهب بن منبه يقول: إن عيسى كان على شريعة موسى صلى الله عليهما وسلم وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس، فقال لبني إسرائيل إني لم أدعكم إلى خلاف حرف مما في التوراة إلا لأحل لكم بعض الذي حرم عليكم وأضع عنكم من الآصار. حدثني بشر عن قتادة ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ كان الذي جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب وأشياء من الطير والحيتان... حدثني المثنى... عن الربيع في قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى قال وكان حرم عليهم فيما جاء به موسى من التوراة لحوم الإبل والثروب فأحلها لهم على لسان عيسى، وحرمت عليهم الشحوم وأحلّت لهم فيما جاء به عيسى وفي أشياء من السمك، وفي أشياء من الطير مما لا صيصية له، وفي أشياء حرّمها عليهم وشدها عليهم فجاءهم عيسى بالتخفيف منه في الإنجيل فكان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى صلوات الله عليه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ قال: لحوم الإبل والشحوم لما بعث عيسى أحلها لهم، وبعث إلى اليهود فاختلفوا وتفرقوا. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي لما سبقني منها ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ أي أخبركم أنه كان حراماً عليكم فتركتموه، ثم أحله لكم تخفيفاً عنكم فتصيبون يسره وتخرجون من تبعاته. حدثني

فرأي ولا يعترض بالرأي على الحجة . وهذه الآية وإن كان ظاهرها خبراً ففيه الحجة البالغة من الله لرسوله محمد ﷺ على الوفد الذين حاجوه من أهل نجران بإخبار الله عز وجل عن أن عيسى كان بريئاً مما نسب إليه من نسبه إلى غير الذي وصف به نفسه منه أنه الله عبد كسائر عبيده من أهل الأرض إلا ما كان الله جل ثناؤه خصه به من النبوة والحجج التي آتاه دليلاً على صدقه كما أتى سائر المرسلين غيره من الأعلام والأدلة على صدقهم، والحجة على نبوتهم .

القول في تأويل قوله عز وجل ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ ﴾ فلما وجد عيسى منهم الكفر . والإحساس هو الوجود، ومنه قول الله عز وجل ﴿ هَلْ نَحْصِي مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ ﴾ [مريم: ٩٨] فأما الحس بغير ألف فهو الإفناء والقتل، ومنه قوله إذ ﴿ تَحْصُونَهُمْ بِأَذْنِهِ ﴾ [آل عمران: ١٥٢] والحس أيضاً العطف والركة ومنه قول الكميت:

هل من بكى السدار راج أن تحس له

أو ييكى السدار ماء العبرة الخضل
يعني بقوله أن تحس له . أن ترق له فتأويل الكلام فلما وجد عيسى من بني إسرائيل الذين أرسله الله إليهم جحوداً لنبوته، وتكذيباً لقوله، وصدأ عما دعاهم إليه من أمر الله ﴿ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾ يعني بذلك قال عيسى من أعواني على المكذبين بحجة الله، والمولين عن دينه، والجاحدين نبوة نبيه ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ عز وجل . ويعني بقوله ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ مع الله . وإنما حسن أن يقال ﴿ إِلَى اللَّهِ ﴾ بمعنى مع الله لأن من شأن العرب إذا ضموا الشيء إلى غيره، ثم أرادوا الخبر عنهما بضم أحدهما مع الآخر إذا ضم إليه جعلوا مكان مع إلى أحياناً، وأحياناً تخبر عنهما بمع فتقول «الذود إلى الذود إبل بمعنى إذا ضمنت الذود إلى الذود صارت إبلاً . فأما إذا كان الشيء مع الشيء لم يقولوه بإلى، ولم يجعلوا مكان مع إلى . غير جائز أن يقال «قدم فلان وإليه مال» بمعنى ومعه مال . وبمثل ما قلنا في

محمد بن سنان... عن الحسن ﴿ وَلَا تُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ قال: كان حرم عليهم أشياء فجاءهم عيسى ليحل لهم الذي حرم عليهم يبتغي بذلك شكرهم .

القول في تأويل قوله ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يعني بذلك وجئتكم بحجة وعبرة من ربكم تعلمون بها حقيقة ما أقول لكم كما حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ قال: ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه . حدثني المثنى... عن مجاهد ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها، ويعني بقوله من ربكم من عند ربكم .

القول في تأويل قوله ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ يعني بذلك وجئتكم بآية من ربكم تعلمون بها يقيناً صدقي فيما أقول ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ يا معشر بني إسرائيل فيما أمركم به، ونهاكم عنه في كتابه الذي أنزله على موسى، فأوفوا بعهده الذي عاهدتموه فيه ﴿ وَأَطِيعُوا ﴾ فيما دعوتكم إليه من تصديقي فيما أرسلني به إليكم ربي وربكم، فاعبدوه فإنه بذلك أرسلني إليكم وبإحلال بعض ما كان محرماً عليكم في كتابكم، وذلك هو الطريق القويم والهدى المتين الذي لا اعوجاج فيه كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَرَبُّكُمْ ﴾ تبرياً من الذي يقولون فيه يعني ما يقول فيه النصارى، واحتجاجاً لربه عليهم ﴿ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ أي هذا الذي قد حملتكم عليه، وجئتكم به . واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبٌّ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ﴾ فقراءته عامة قراء الأمصار إن الله ربي وربكم فاعبدوه بكسر ألف ﴿ إِنَّ ﴾ على ابتداء الخبر . وقراء بعضهم أن الله ربي وربكم بفتح ألف أن بتأويل ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ أن الله ربي وربكم على رد أن على الآية والإبدال منها . والصواب من القراءة عندنا ما عليه قراءة الأمصار وذلك كسر ألف ﴿ إِنَّ ﴾ على الابتداء لاجتماع الحجة من القراء على صحة ذلك، وما اجتمعت عليه فحجة، وما انفرد به المنفرد عنها

تأويل قوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال جماعة من أهل التأويل . ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن الحسين . . . عن السدي قوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ يقول مع الله . حدثنا القاسم عن ابن جريج من أنصاري إلى الله يقول مع الله وأما سبب استنصار عيسى عليه السلام من استنصر من الحواريين فإن بين أهل العلم فيه اختلافاً . فقال بعضهم كان سبب ذلك ما حدثني به موسى بن هرون . . . عن السدي لما بعث الله عيسى فأمره بالدعوة نفته بنو إسرائيل ، وأخرجوه فخرج هو وأمه يسيحون في الأرض ، فنزل في قرية على رجل ، فضافهم وأحسن إليهم ، وكان لتلك المدينة ملك جبار معتد ، فجاء ذلك الرجل يوماً وقد وقع عليه هم وحزن ، فدخل منزله ومريم عند امرأته ، فقالت مريم لها «ما شأن زوجك أراه حزينا» قالت «لا تسألي» قالت «أخبريني لعل الله يفرج كربته» ، قالت «فإن لنا ملكاً يجعل على كل رجل منا يوماً يطعمه هو وجنوده ويسقيهم من الخمر ، فإن لم يفعل عاقبه ، وإنه قد بلغت نوبته اليوم الذي يريد أن نصنع له فيه وليس لذلك عندنا سعة» ، قالت «فقلولي له لا يهتم فإني أمر ابني فيدعو له فيكفي ذلك» ، قالت مريم لعيسى في ذلك ، قال عيسى «يا أماه إني إن فعلت كان في ذلك شر» قالت «فلا تبال فإنه قد أحسن إلينا وأكرمنا» ، قال عيسى «فقلولي له إذا اقترب ذلك فاملاً قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني» ، قال فلما ملأهن أعلمه فدعا الله فتحول ما في القدور لحماً ومرقاً وخبزاً ، وما في الخوابي خمرأ لم ير الناس مثله قط ، وإياه طعاماً ، فلما جاء الملك أكل فلما شرب الخمر سأل من أين هذه الخمر ، قال له هي من أرض كذا وكذا ، قال الملك فإن خمري أوتي بها من تلك الأرض فليس هي مثل هذه ، قال هي من أرض أخرى فلما خلط على الملك اشتد عليه قال فأنا أخبرك عندي غلام لا يسأل الله شيئاً إلا أعطاه إياه ، وإنه دعا الله فجعل الماء خمرأ ، قال الملك وكان له ابن يريد أن يستخلفه فمات قبل ذلك بأيام ، وكان أحب الخلق إليه فقال إن رجلاً دعا الله حتى جعل الماء خمرأ ليستجاب له حتى يحيي ابني . فدعا عيسى فكلمه ، فسأله أن يدعو الله فيحيي ابنه ، فقال عيسى لا تفعل ، فإنه إن عاش كان

شراً ، فقال الملك لا أبالي أليس أراه؟ فلا أبالي ما كان ، فقال عيسى عليه السلام فإن أحبيته تتركوني أنا وأمي نذهب أينما شئنا ، قال الملك نعم ، فدعا الله فعاش الغلام ، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تنادوا بالسلاح ، وقالوا أكلنا هذا حتى إذا دنا موته يريد أن يستخلف ابنه فيأكلنا كما أكلنا أبوه ، فافتتلوا ، وذهب عيسى وأمه وصحبهما يهودي ، وكان مع اليهودي رغيفان ، ومع عيسى رغيف ، فقال له عيسى شاركني ، فقال اليهودي نعم ، فلما رأى أنه ليس مع عيسى إلا رغيف ندم ، فلما ناما جعل اليهودي يريد أن يأكل الرغيف ، فلما أكل لقمة قال له عيسى ما تصنع؟ فيقول لا شيء فيطرحها حتى فرغ من الرغيف كله فلما أصبحا قال له عيسى هلم طعامك فجاء برغيف ، فقال له عيسى أين الرغيف الآخر؟ قال ما كان معي إلا واحد ، فسكت عنه عيسى؟ فانطلقوا فمروا براعي غنم ، فنادى عيسى يا صاحب الغنم أجزرنا شاة من غنمك ، قال نعم أرسل صاحبك يأخذها ، فأرسل عيسى اليهودي ، فجاء بالشاة فذبحوها وشوها ، ثم قال لليهودي كل ولا تكسرن عظماً ، فأكلا ، فلما شبعوا قذف عيسى العظام في الجلد ، ثم ضربها بعصاه ، وقال قومي بإذن الله ، فقامت الشاة تنغو ، فقال يا صاحب الغنم خذ شاتك ، فقال له الراعي من أنت؟ فقال أنا عيسى ابن مريم ، قال أنت الساحر ، وفر منه ، قال عيسى لليهودي بالذي أحيا هذه الشاة بعدما أكلناها كم كان معك رغيفاً ، فحلف ما كان معه إلا رغيف واحد ، فمروا بصاحب بقر فنادى عيسى ، فقال يا صاحب البقر أجزرنا من بقرك هذه عجلاً ، قال ابعث صاحبك يأخذها ، قال انطلق يا يهودي فجيء به ، فانطلق فجاء به فذبحه وشواه وصاحب البقرة ينظر ، فقال له عيسى كل ولا تكسرن عظماً ، فلما فرغوا قذف العظام في الجلد ، ثم ضربها بعصاه ، وقال قم بإذن الله ، فقام وله خوار ، قال خذ عجلك ، قال ومن أنت؟ قال أنا عيسى قال أنت الساحر ، ثم فر منه ، قال اليهودي يا عيسى أحبيته بعدما أكلناه ، قال عيسى فبالذي أحيا الشاة بعدما أكلناها والعجل بعدما أكلناه كم كان معك رغيفاً؟ فحلف بالله ما كان معه إلا رغيف واحد ، فانطلقا حتى نزلا

قرية، فنزل اليهودي أعلاها وعيسى في أسفلها، وأخذ اليهودي عصا مثل عصا عيسى، وقال أنا الآن أحيي الموتى، وكان ملك تلك المدينة مريضاً شديداً المرض، فانطلق اليهودي ينادي من يتنغي طبيباً حتى أتى ملك تلك القرية فأخبر بوجعه، فقال أدخلوني عليه فأنا أبرئه، وإن رأيتموه قد مات فأنا أحييه، فقبل له إن وجع الملك قد أعيا الأطباء قبلك ليس من طبيب يداويه ولا يفي دواؤه شيئاً إلا أمر به فصلب، قال أدخلوني عليه فلاني سأبرئه، فأدخل عليه، فأخذ برجل الملك فضربه بعصاه حتى مات، فجعل يضربه بعصاه وهو ميت ويقول قم بإذن الله، فأخذ ليصلب، فبلغ عيسى فأقبل إليه وقد رفع على الخشبة، فقال أرايتم إن أحييت لكم صاحبكم أتركون لي صاحبي؟ قالوا نعم، فأحيا الله الملك لعيسى، فقام وأنزل اليهودي، فقال يا عيسى أنت أعظم الناس عليّ منه والله لا أفارقك أبداً، قال عيسى فيما حدثنا به محمد بن الحسين بن موسى... عن السدي لليهودي أنشدك بالذي أحيا الشاة والعجل بعدما أكلناهما وأحيا هذا بعدما مات، وأنزلك من الجذع بعدما رفعت عليه لتصلب كم كان معك رغيفاً؟ قال فحلّفت بهذا كله ما كان معه إلا رغيف واحد، قال لا بأس فانطلقا حتى مرا على كنز قد حفرت السباع والدواب، فقال اليهودي يا عيسى لمن هذا المال؟ قال عيسى دعه فإن له أهلاً يهلكون عليه، فجعلت نفس اليهودي تطلع إلى المال، ويكره أن يعصي عيسى، فانطلق مع عيسى، ومر بالمال أربعة نفر فلما رأوه اجتمعوا عليه فقال اثنان لصاحبيهما انطلقا فابتاعا لنا طعاماً وشراباً ودواباً نحمل عليها هذا المال، فانطلق الرجلان فابتاعا دواباً وطعاماً وشراباً، وقال أحدهما لصاحبه هل لك أن نجعل لصاحبيننا في طعامهما سماً فإذا أكلتا ماتا فكان المال بيني وبينك؟ فقال الآخر نعم، ففعلا، وقال الآخران إذا ما أتينا بالطعام فليقم كل واحد إلى صاحبه فيقتله فيكون الطعام والدواب بيني وبينك، فلما جاءا بطعامهما قاما فقتلاه ثم قعدا على الطعام فأكلتا منه فماتا. وأعلم ذلك لعيسى فقال لليهودي أخرجه حتى تقتسمه، فأخرجه فقسّمه عيسى بين ثلاثة، فقال اليهودي يا عيسى اتق الله

ولا تظلمني فإنما هو أنا وأنت ما هذه الثلاثة؟ قال له عيسى هذا لي، وهذا لك، وهذا الثلث لصاحب الرغيف، قال اليهودي فإن أخبرتك بصاحب الرغيف تعطيني هذا المال؟ فقال عيسى نعم، قال أنا هو، قال عيسى خذ حظي وحظك وحظ صاحب الرغيف فهو حظك من الدنيا والآخرة، فلما حمّله مشى به شيئاً فخسف به، وانطلق عيسى ابن مريم فمر بالحواريين وهم يصطادون السمك، فقال ما تصنعون؟ فقالوا نصطاد السمك، فقال أفلا تمشون حتى نصطاد الناس؟ قالوا ومن أنت؟ قال أنا عيسى ابن مريم، فأمنوا به وانطلقوا معه. فذلك قول الله عز وجل ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾. حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ الآية قال استنصر فنصره الحواريون وظهر عليهم. وقال آخرون كان سبب استنصار عيسى من استنصر لأن من استنصر الحواريين عليه كانوا أرادوا قتله. ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم... عن مجاهد فلما أحس عيسى منهم الكفر قال كفروا وأرادوا قتله، فذلك حين استنصر قومه قال ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾. «والأنصار» جمع «نصير» كما «الأشراف» جمع «شريف» و «الأشهاد» جمع «شهيد». وأما ﴿الْخَوَارِثُ﴾ فإن أهل التأويل اختلفوا في السبب الذي من أجله سمو حواريين. فقال بعضهم سمووا بذلك لبياض ثيابهم. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبيد المحاربي... عن سعيد بن جبير قال إنما سمو الحواريين ببياض ثيابهم. وقال آخرون سمووا بذلك لأنهم كانوا قصّارين يبيّضون الثياب. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن أبي أرطاة قال: ﴿الْخَوَارِثُ﴾ الغسالون الذين يحوِّرون الثياب، يغسلونها. وقال آخرون: هم خاصة الأنبياء وصفوتهم. ذكر من قال ذلك: حدثنا يعقوب بن إبراهيم... أن قتادة ذكر رجلاً من أصحاب النبي ﷺ فقال: كان من الحواريين. فقبل له: من الحواريون؟ قال: الذين تصلح لهم الخلافة. حدث عن المنجاب... عن الضحّاك في

قوله: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ قال: أصفياء الأنبياء. وأشبه الأقوال التي ذكرنا في معنى «الحواريين» قول من قال: «سموا بذلك لبياض ثيابهم ولأنهم كانوا غسالين». وذلك أن «الحور» عند العرب شدة البياض ولذلك سمي «الحواري» من الطعام «حواري» لشدة بياضه، ومنه قيل للرجل الشديد بياض مقلّة العينين «أحور»، وللمرأة «حوراء». وقد يجوز أن يكون حواريو عيسى كانوا سمّوا بالذي ذكرنا، من تبييضهم الثياب، وأنهم كانوا قصّارين فعرفوا بصحبة عيسى، واختياره إياهم لنفسه أصحاباً وأنصاراً، فجرى ذلك الاسم لهم، واستعمل حتى صار كل خاصة للرجل من أصحابه وأنصاره: «حواريه» ولذلك قال النبي ﷺ «إن لكل نبي حواريّاً وحواريّ الزبير». يعني خاصته. وقد تسمي العرب النساء اللواتي مساكنهن القرى والأمصار «حواريّات»، وإنما سمين بذلك لغلبة البياض عليهن، ومن ذلك قول أبي جلدّة الشكري:

فقل للحواريات يكيّن غيرنا

ولا تبكنا إلا الكلاب النوائح

وعني بقوله ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ قال هؤلاء الذين صفتهم ما ذكرنا، من تبييضهم الثياب ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ صدّقنا بالله، وأشهد أنت يا عيسى بأننا مسلمون. وهذا خبر من الله عز وجل أن الإسلام دينه الذي ابتعث به عيسى والأنبياء قبله لا النصرانية ولا اليهودية، وتبرئة من الله لعيسى ممن انتحل النصرانية، ودان بها كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام، وذلك احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه ﷺ على وفد نجران، كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ﴾ والعدوان ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، وهذا قولهم الذي أصابوا به الفضل من ربهم ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ لا كما يقول هؤلاء الذي يحاجونك فيه، يعني وفد نصارى نجران. القول في تأويل قوله ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، وهذا خبر من الله عز وجل عن الحواريين أنهم قالوا ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا﴾ أي صدّقنا ﴿بِمَا أَنْزَلْتَ﴾ يعني بما أنزلت على نبيك عيسى

من كتابك ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ يعني بذلك صرنا أتباع عيسى على دينك الذي ابتعثته به، وأعوّاه على الحق الذي أرسلته به إلى عبادك وقوله ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ يقول فأنبت أسماءنا مع أسماء الذين شهدوا بالحق، وأقرّوا لك بالتوحيد وصدّقوا رسلك واتبعوا أمرك ونهيك فاجعلنا في عدادهم ومعهم فيما تكرمهم به من كرامتك، وأحلنا محلهم ولا تجعلنا ممن كفر بك، وصد عن سبيلك، وخالف أمرك ونهيك. يعرّف خلقه جل ثناؤه بذلك سبيل الدين رضى أقوالهم وأفعالهم ليحتذوا طريقهم، ويتبعوا منهاجهم فيصلوا إلى مثل الذي وصلوا إليه من درجات كرامته، ويكذب بذلك الذين انتحلوا من الملل غير الحنيفية المسلمة في دعواهم على أنبياء الله أنهم كانوا على غيرها، ويحتج به على الوفد الذين حاجوا رسول الله ﷺ من أهل نجران بأن قيل من رضى الله عنه من أتباع عيسى كان خلاف قيلهم، ومنهاجهم غير منهاجهم كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر ابن الزبير ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي هكذا كان قولهم وإيمانهم.

القول في تأويل قوله ﴿وَمَكْرُوءًا وَمَكْرًا أَلَّهِ خَيْرُ الْمَكْرَيْنِ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ومكر الذين كفروا من بني إسرائيل، وهم الذين ذكر الله أن عيسى أحس منهم الكفر. وكان مكرهم الذي وصفهم الله به مواطاة بعضهم بعضاً على الفتك بعيسى وقتله. وذلك أن عيسى صلوات الله عليه بعد إخراج قومه إياه وأمه من بين أظهرهم عاد إليهم، فيما حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي ثم إن عيسى سار بهم، يعني بالحواريين الذين كانوا يصطادون السمك، فأمّنوا به واتبعوه إذ دعاهم حتى أتى بني إسرائيل ليلاً فصاح فيهم، فذلك قوله ﴿فَتَأْمَنَّتْ ظُلُفُهُ مِنْ نَبْتِ إِسْرَئِيلَ وَكُفِّرَتْ ظُلُفُهُ﴾ [الصف: ١٤] وأما مكر الله بهم فإنه، فيما ذكر السدي، القاؤه شبه عيسى على بعض أتباعه حتى قتله الماكرون بعيسى، وهم يحسبونه عيسى، وقد رفع الله عز وجل عيسى قبل ذلك كما حدثني محمد بن الحسين... عن السدي، ثم إن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه

من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة، فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ﴾. فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر، فأخبروهم أن عيسى قد صعد به إلى السماء، فجعلوا يعدّون القوم فيجدونهم ينقصون رجلاً من العدة، ويرون صورة عيسى فيهم فشكوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم يرون أنه عيسى وصلبوه، فذلك قول الله عز وجل ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، وقد يحتمل أن يكون معنى مكر الله بهم استدراجه إياهم ليلبغ الكتاب أجله كما قد بينا ذلك في قول الله ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥].

القول في تأويل قوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني بذلك جل ثناؤه، ومكر الله بالقوم الذين حاولوا قتل عيسى مع كفرهم بالله، وتكذيبهم عيسى فيما اتّاهم به من عند ربهم، إذ قال الله جل ثناؤه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ فـ ﴿إِذْ﴾ صلة من قوله ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ يعني ومكر الله بهم حين قال الله لعيسى إني متوفيك، ورافعك إليّ فتوفاه ورفعاه إليه. ثم اختلف أهل التأويل في معنى الوفاة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية، فقال بعضهم «هي وفاة نوم»، وكان معنى الكلام على مذهبهم إني منيمك ورافعك في نومك. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن الربيع في قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قال يعني وفاة المنام، رفعه الله في منامه. قال الحسن قال رسول الله ﷺ لليهود إن عيسى لم يمت، وإنه راجع إليكم قبل يوم القيامة. وقال آخرون: معنى ذلك أني قابضك من الأرض فرافعك إليّ، قالوا ومعنى الوفاة القبض كما يقال «توفيت من فلان مالي عليه» بمعنى قبضته واستوفيته، قالوا فمعنى قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ﴾ أي قابضك من الأرض حياً إلى جوارى، وأخذك إلى ما عندي بغير موت، ورافعك من بين المشركين وأهل الكفر بك. ذكر من قال ذلك: حدثنا علي بن سهل... عن مطر الوراق في قول الله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ قال متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت. حدثنا الحسن بن يحيى... عن الحسن في قوله ﴿إِنِّي

مُتَوَفِّيكَ﴾ قال متوفيك من الأرض. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال رفعه إياه، إليه توفيه إياه، وتطهيره من الذين كفروا. حدثني المثنى... عن معاوية بن صالح أن كعب الأحبار قال: ما كان الله عز وجل ليميت عيسى ابن مريم، إنما بعثه الله داعياً ومبشراً يدعو إليه وحده، فلما رأى عيسى قلة من اتبعه، وكثرة من كذبه شكاً ذلك إلى الله عز وجل، فأوحى الله إليه ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وليس من رفعته عندي ميتاً، وإني سأبعثك على الأعور الدجال فتقتله، ثم تعيش بعد ذلك أربعاً وعشرين سنة، ثم أميتك ميتة الحي. قال كعب الأحبار وذلك يصدق حديث رسول الله ﷺ حيث قال: «كيف تهلك أمة أنا في أولها وعيسى في آخرها». حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي قابضك. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ قال ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ قابضك قال ر ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ ﴿وَرَافِعُكَ﴾ واحد، قال ولم يمت بعد حتى يقتل الدجال، وسيموت. وقرأ قول الله عز وجل ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهَدِ وَكَهَلًا﴾ قال رفعه الله إليه قبل أن يكون كهلاً، قال وينزل كهلاً. حدثنا محمد بن سنان... عن الحسن في قول الله عز وجل ﴿يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ الآية كلها، قال رفعه الله إليه فهو عنده في السماء. وقال آخرون معنى ذلك إني متوفيك وفاة موت. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يقول إني مميتك. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه اليماني أنه قال: توفى الله عيسى ابن مريم ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه. حدثنا ابن حميد... عن ابن اسحق قال: والنصارى يزعمون أنه توفاه سبع ساعات من النهار ثم أحياه الله. وقال آخرون: معنى ذلك إذ قال الله يا عيسى إني رافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد انزالي إياك إلى الدنيا، وقال هذا من المقدم الذي معناه التأخير، والمؤخر الذي معناه التقديم. وأولى هذه الأقوال بالصحة عندنا قول من قال «معنى ذلك: إني قابضك من الأرض

عليهم فيما أُنزِلوا لليهود بصلبه كيف رفعه وطهره منهم فقال ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ سَلِّمْ عَلَيْكَ وَأَقْبَلَ إِلَيْكَ﴾. وأما ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فإنه يعني: منظفك فمخلصك ممن كفر بك وجحد ما جنتهم به من الحق من اليهود وسائر الملل غيرها كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر ابن الزبير ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: اذهبوا منك بما هموا. حدثني محمد بن سنان... عن الحسن في قوله ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه.

القول في تأويل قوله عز وجل ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة يعني بذلك جل ثناؤه وجاعل الذين اتبعوك على مناهجك وملتك من الإسلام وفطرته فوق الذين جحدوا نبوتك وخالفوا بسبيلهم [من] جميع أهل الملل، فكذبوا بما جئت به وصدوا عن الإقرار به فمصيرهم فوقهم ظاهرين عليهم، كما حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته، فلا يزالون ظاهرين على من ناوهم إلى يوم القيامة. حدثنا المثنى... عن الربيع في قوله: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة ثم ذكر نحوه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة ثم ذكر نحوه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة قال: ناصر من اتبعك على الإسلام على الذين كفروا إلى يوم القيامة. حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة أما ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ فيقال: هم المؤمنون وليس هم الروم. حدثني محمد بن سنان... عن الحسن ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى يوم القيامة قال: جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. قال: المسلمون من فوقهم وجعلهم أعلى ممن ترك الإسلام إلى يوم القيامة.

ورافعك إليّ لتواتر الأخبار عن رسول الله ﷺ أنه قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الدجال ثم يمكث في الأرض مدة ذكرها اختلفت الرواية في مبلغها ثم يموت فيصلي عليه المسلمون ويدفونونه. حدثنا ابن حميد... عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول ليهبطن الله عيسى ابن مريم حكماً عادلاً وإماماً مقسطاً يكسر الصليب ويقتل الخنزير ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يجد من يأخذه وليسلكن الروحاء حاجاً أو معتمراً أو ليُنْتَبِئَ بهما جميعاً. حدثنا ابن حميد... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الأنبياء إخوة لعلات أمهاتهم شتى ودينهم واحد. وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه لم يكن بيني وبينه نبي وإنه خليفتي على أمتي وإنه نازل فإذا رأيتموه فاعرفوه: فإنه رجل مربوع الخلق إلى الحمرة والبياض سبط الشعر كأن شعره يقطر وإن لم يصبه بلل بين مُصْطَرِّتين يدق الصليب ويقتل الخنزير ويفيض المال ويقاتل الناس على الإسلام حتى يهلك الله في زمانه الملل كلها ويهلك الله في زمانه مسيح الضلالة الكذاب الدجال. وتقع في الأرض الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمر مع البقر والذئاب مع الغنم وتلعب الغلمان بالحيات لا يضر بعضهم بعضاً فيثبت في الأرض أربعين سنة ثم يتوفى ويصلي المسلمون عليه ويدفونونه. ومعلوم أنه لو كان قد أماته الله عز وجل لم يكن بالذي يميته ميتة أخرى فيجمع عليه ميتتين لأن الله عز وجل إنما أخبر عباده أنه يخلقهم ثم يميتهم ثم يحييهم كما قال جل ثناؤه ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يَمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا﴾ [الروم: ٤٠] فتأويل الآية إذا: قال الله لعيسى: يا عيسى إني قابضك من الأرض ورافعك إلي ومطهرك من الذين كفروا فجحدوا نبوتك. وهذا الخبر وإن كان مخرجه مخرج خبر فإن فيه من الله عز وجل احتجاجاً على الذين حاجوا رسول الله ﷺ في عيسى من وفد نجران بأن عيسى لم يقتل ولم يصلب كما زعموا وأنهم واليهود الذين أقروا بذلك وادعوا على عيسى كذبة في دعواهم وزعمهم كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير: ثم أخبرهم يعني الوفد من نجران ورد

تَصِيرِينَ ﴿٢٢﴾ يقول: وما لهم من عذاب الله مانع، ولا عن أليم عقابه لهم دافع بقوة ولا شفاعا، لأنه العزيز ذو الانتقام. وأما قوله ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فإنه يعني تعالى ذكره: وأما الذين آمنوا بك يا عيسى - يقول: صدقوك - فأقروا بنبوتك وبما جثتهم به من الحق من عندي، ودانوا بالإسلام الذي بعثتك به، وعملوا بما فرضت من فرائضي على لسانك، وشرعت من شرائعي، وسنتت من سنني كما: حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ يقول: أدوا فرائضي ﴿فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ﴾، يقول: فيعطيههم جزاء أعمالهم الصالحة كاملاً، لا يبخسون منه شيئاً ولا ينقصونه. وأما قوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ فإنه يعني: والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه. فنفي جل ثناؤه عن نفسه بذلك أن يظلم عباده، فيجازي المسيء ممن كفر جزاء المحسنين ممن آمن به أو يجازي المحسن ممن آمن به واتبع أمره وانتهى عما نهاه عنه فأطاعه، جزاء المسيئين ممن كفر به وكذب رسله وخالف أمره ونهيه. فقال إني لا أحب الظالمين، فكيف أظلم خلقي؟ وهذا القول من الله تعالى ذكره وإن كان خرج مخرج الخبر، كأنه وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله، لأنه أعلم الفريقين جميعاً أنه لا يبخس هذا المؤمن حقه، ولا يظلم كرامته فيضعها فيمن كفر به وخالف أمره ونهيه، فيكون لها بوضعها في غير أهلها ظالماً.

القول في تأويل قوله ﴿ذَلِكَ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿ذَلِكَ﴾ هذه الأنباء التي أنبأ بها نبيه عن عيسى وأمه مريم وأما حنة وذكريا وابنه يحيى، وما قص من أمر الحواريين واليهود من بني إسرائيل ﴿تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ﴾ يا محمد يقول نقرؤها عليك يا محمد على لسان جبريل ﷺ، بوحيناها إليك ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ يقول: من العبر والحجج على من حاجك من وفد نصارى نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جثتهم به من الحق من عندي، ﴿وَالذِّكْرِ﴾ يعني القرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾ يعني: ذي الحكمة الفاصلة بين الحق

وقال آخرون: معنى ذلك: وجاعل الذين اتبعوك من النصارى فوق اليهود. ذكر من قال ذلك حدثني يونس... عن ابن زيد في قول الله ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال: الذين كفروا من بني إسرائيل وجاعل الذين اتبعوك ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِهِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ﴾ فوق الذين كفروا ﴿النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة. قال: فليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق يهود في شرق ولا غرب، هم في البلدان كلها مستدلون.

القول في تأويل قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه ﴿ثُمَّ إِلَىٰ﴾ ثم إلى الله أيها المختلفون في عيسى ﴿مَرْجِعِكُمْ﴾ يعني: مصيركم يوم القيامة ﴿فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ يقول: فأقضي حيثنذب بين جميعكم في أمر عيسى بالحق ﴿فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ من أمره. وهذا من الكلام الذي صرف من الخبر عن الغائب إلى المخاطبة، وذلك أن قوله ﴿ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ إنما قصد به الخبر عن متبعي عيسى والكافرين به. وتأويل الكلام وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ثم إلي مرجع الفريقين: الذين اتبعوك، والذين كفروا بك، فأحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون، ولكن رد الكلام إلى الخطاب لسوق القول على سبيل ما ذكرنا من الكلام الذي يخرج على وجه الحكاية، كما قال ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَبَئَةٍ﴾ [يونس: ٢٢].

القول في تأويل قوله ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَعَذِبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَّاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أَجْرَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ يعني بقوله جل ثناؤه ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فأما الذين جحدوا نبوتك يا عيسى، وخالفوا ملتك، وكذبوا بما جثتهم به من الحق، وقالوا فيك الباطل، وأضافوك إلى غير الذي ينبغي أن يضيفوك إليه من اليهود والنصارى وسائر أصناف الأديان، فإني أعلبهم عذاباً شديداً، أما في الدنيا فبالقتل والسبأ والدلة والمسكنة، وأما في الآخرة فبنار جهنم خالدين فيها أبداً ﴿وَمَا لَهُمْ مِنْ

والباطل، وبينك وبين ناسبي المسيح إلى غير نسبه، كما حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ القاطع الفاصل الحق الذي لم يخلطه الباطل من الخبر عن عيسى، وعما اختلفوا فيه من أمره فلا يقبلن خبراً غيره. حدثني المثنى... عن الضحاك ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ قال: القرآن. حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿وَالذِّكْرِ﴾ يقول القرآن ﴿الْحَكِيمِ﴾ الذي قد كمل في حكمته.

القول في تأويل قوله جل ثناؤه ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يعني جل ثناؤه: أن شبه عيسى في خلقي إياه من غير فعل فأخبر به يا محمد الوفد من نصارى نجران عندي كشبه آدم الذي خلقته من تراب ثم قلت له ﴿كُنْ﴾ فكان من غير فعل ولا ذكر ولا أنثى. يقول: فليس خلقي عيسى من أمه من غير فعل بأعجب من خلقي آدم من غير ذكر ولا أنثى، وأمرى إذ أمرته أن يكون فكان لهما يقول: فكذلك خلقي عيسى أمرته أن يكون فكان. وذكر أهل التأويل أن الله عز وجل أنزل هذه الآية احتجاجاً لنبيه ﷺ على الوفد من نصارى نجران الذين حاجوه في عيسى. ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد... عن عامر قال: كان أهل نجران أعظم قوم من النصارى في عيسى قولاً فكانوا يجادلون النبي ﷺ فأنزل الله عز وجل هذه الآية في سورة آل عمران ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ إلى قوله: ﴿فَنَجْعَلُ لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٦١] حدثني محمد بن سعد عن ابن عباس قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وذلك أن رهطاً من أهل نجران قدموا على محمد ﷺ وكان فيهم السيد والعاقب فقالوا لمحمد ما شأنك تذكر صاحبنا فقال: من هو قالوا: عيسى تزعم أنه عبدالله فقال محمد أجل إنه عبدالله قالوا له: فهل رأيت مثل عيسى أو أنبت به ثم خرجوا من عنده، فجاءه جبريل ﷺ بأمر ربنا السميع العليم فقال: قل لهم إذا أتوك ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ

كَمَثَلِ آدَمَ﴾ إلى آخر الآية. حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ذكر لنا أن سيدي أهل نجران وأسقفهم السيد والعاقب لقيا نبي الله ﷺ فسألاه عن عيسى فقالا: كل آدمي له أب فما شأن عيسى لا أب له فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ﴾ لما بعث رسول الله ﷺ وسمع به أهل نجران أتاه منهم أربعة نفر من خيارهم. منهم: العاقب والسيد وماسرجس وماريحز فسألوه ما يقول في عيسى فقال: هو عبدالله وروحه وكلمته قالوا هم: لا ولكنه هو الله نزل من ملكه فدخل في جوف مريم، ثم خرج منها فأرانا قدرته وأمره فهل رأيت إنساناً خلق من غير أب فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ حدثنا القاسم... عن عكرمة قوله: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قال: نزلت في العاقب والسيد من أهل نجران وهما نصرانيان قال ابن جريج بلغنا أن نصارى أهل نجران قدم وفدهم على النبي ﷺ فيهم السيد والعاقب وهما يومئذ سيدا أهل نجران فقالوا: يا محمد فيم تشتم صاحبنا قال: من صاحبكما قالوا: عيسى ابن مريم، تزعم أنه عبد قال رسول الله ﷺ: أجل إنه عبد الله وكلمته ألهاها إلى مريم وروح منه، فغضبوا وقالوا إن كنت صادقاً فأرنا عبداً يحيي الموتى ويبرئ الأكفم ويخلق من الطين كهيئة الطير، فينفخ فيه، الآية، لكنه الله. فسكت حتى أتاه جبريل فقال: يا محمد ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢] الآية، فقال رسول الله ﷺ: يا جبريل إنهم سألوني أن أخبرهم بمثل عيسى، قال: جبريل مثل عيسى كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون، فلما أصبحوا عادوا فقرأ عليهم الآيات. حدثنا ابن حميد... عن محمد بن جعفر بن الزبير ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾ فاسمع ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُم مِّنْ تُرَابٍ

فإنما قال ﴿فَيَكُونُ﴾ وقد ابتدأ الخبر عن خلق آدم، وذلك خبر عن أمر قد تقضى وقد أخرج الخبر عنه مخرج الخبر عما قد مضى فقال جل ثناؤه ﴿خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ لأنه بمعنى الإعلام من الله بنيه أن تكوينه الأشياء بقوله ﴿كُنْ﴾ ثم قال ﴿فَيَكُونُ﴾ خبراً مبتدأ، وقد تناهى الخبر عن أمر آدم عند قوله ﴿كُنْ﴾ فتأويل الكلام إذا ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ واعلم يا محمد أن ما قال له ربك ﴿كُنْ﴾ فهو كائن فلما كان في قوله ﴿كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ﴾ دلالة على أن الكلام يراد به إعلام نبي الله ﷺ وسائر خلقه أنه كائن ما كونه ابتداء من غير أصل ولا أول ولا عنصر استغنى بدلالة الكلام على المعنى، وقيل ﴿فَيَكُونُ﴾ فعطف بالمستقبل على الماضي على ذلك المعنى. وقد قال بعض أهل العربية ﴿فَيَكُونُ﴾ رفع على الابتداء، ومعناه: كن فكان فكأنه قال: فإذا هو كائن.

ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ، فإن قالوا خلق عيسى من غير ذكر، فقد خلقت آدم من تراب بتلك القدرة من غير أنثى ولا ذكر، فكان كما كان عيسى لحماً ودماً وشعراً وبشراً، فليس خلق عيسى من غير ذكر بأعجب. من هذا حدثني يونس عن ابن زيد في قول الله عز وجل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾، قال أتى نجرانيان إلى رسول الله ﷺ فقالا له: هل علمت أن أحداً ولد من غير ذكر، فيكون عيسى كذلك؟ قال فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أكان لآدم أب أو أم كما خلقت هذا في بطن هذه؟ فإن قال قائل: فكيف قال «كمثل آدم خلقه» و«آدم» معرفة، والمعارف لا توصل؟ قيل إن قوله ﴿خَلَقْتُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ غير صلة لآدم، وإنما هو بيان عن أمره على وجه التفسير عن المثل الذي ضربه، وكيف كان. وأما قوله ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

الرازي ج ٨ ص ٤٢ - ٦٨

الأنبياء لقوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وإذا كان كذلك كان إرسال جبريل عليه السلام إليها إما أن يكون كرامة لها، وهو مذهب من يجوز كرامات الأولياء، أو إرهاباً لعيسى عليه السلام، وذلك جائز عندنا، وعند الكعبي من المعتزلة، أو معجزة لذكرياً عليه السلام، وهو قول جمهور المعتزلة، ومن الناس من قال: إن ذلك كان على سبيل النفث في الروح والإلهام والإلقاء في القلب، كما كان في حق أم موسى عليه السلام في قوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُورُؤْسَىٰ﴾ [القصص: ٧].

المسألة الرابعة: اعلم أن المذكور في هذه الآية أولاً هو الاصطفاء، وثانياً التطهير، وثالثاً الاصطفاء على نساء العالمين، ولا يجوز أن يكون الاصطفاء أولاً من الاصطفاء الثاني، لما أن التصريح بالتكرير غير لائق، فلا بد من صرف الاصطفاء الأول إلى ما اتفق لها من الأمور الحسنة في أول عمرها، والاصطفاء الثاني إلى ما اتفق لها في آخر عمرها.

وصفه طهارة مريم صلوات الله عليها قوله سبحانه وتعالى ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَمْرُؤُا أَقْبَىٰ لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَزْكِىٰ مَعَ الرَّاكِعِينَ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: عامل الإعراب ههنا في (إذ) هو ما ذكرناه في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ﴾ [آل عمران: ٣٥] من قوله ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٤]، ثم عطف عليه ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾، وقيل: تقديره واذكر إذ قالت الملائكة.

المسألة الثانية: قالوا المراد بالملائكة ههنا جبريل وحده، وهذا كقوله ﴿يُنْزِلُ الْمَلَائِكَةُ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِ﴾ [النحل: ٢] يعني جبريل، وهذا وإن كان عدولاً عن الظاهر إلا أنه يجب المصير إليه، لأن سورة مريم دلت على أن المتكلم مع مريم عليها السلام هو جبريل عليه السلام، وهو قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧].

المسألة الثالثة: اعلم أن مريم عليها السلام ما كانت من

أوجب عليها مزيد الطاعات، شكراً لتلك النعم السنية، وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم ذكر السجود على ذكر الركوع؟ والجواب من وجوه: (الأول): أن الواو تفيد الاشتراك ولا تفيد الترتيب. (الثاني): أن غاية قرب العبد من الله أن يكون ساجداً قال عليه الصلاة والسلام «أقرب ما يكون العبد من ربه إذا سجد»، فلما كان السجود مختصاً بهذا النوع من الرتبة والفضيلة لا جرم قدمه على سائر الطاعات.

ثم قال ﴿وَأَزَكِّي مَعَ الرُّكُوعِ﴾، وهو إشارة إلى الأمر بالصلاة، فكانه تعالى يأمرها بالمواظبة على السجود في أكثر الأوقات، وأما الصلاة فإنها تأتي بها في أوقاتها المعينة لها. (الثالث): قال ابن الأنباري: قوله تعالى (اقتني) أمر بالعبادة على العموم، ثم قال بعد ذلك ﴿وَأَسْجُدِي وَأَزَكِّي﴾ يعني استعملي السجود في وقته اللائق به، واستعملي الركوع في وقته اللائق به، وليس المراد أن يجمع بينهما، ثم يقدم السجود على الركوع والله أعلم. (الرابع): أن الصلاة تسمى سجوداً كما قيل في قوله ﴿وَأَدْبَرَ الشُّجُودِ﴾ [ق: ٤٠]. وفي الحديث «إذا دخل أحدكم المسجد فليسجد سجدة»، وأيضاً المسجد سمي باسم مشتق من السجود والمراد منه موضع الصلاة، وأيضاً أشرف أجزاء الصلاة السجود وتسمية الشيء باسم أشرف أجزائه نوع مشهور في المجاز.

إذا ثبت هذا فنقول قوله ﴿يَمْرُؤٌ أَقْنَى﴾ معناه: يا مريم قومي، وقوله ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أي صلي فكان المراد من هذا السجود الصلاة، ثم قال: ﴿وَأَزَكِّي مَعَ الرُّكُوعِ﴾ إما أن يكون أمراً لها بالصلاة بالجماعة فيكون قوله ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أمراً بالصلاة حال الانفراد، وقوله ﴿وَأَزَكِّي مَعَ الرُّكُوعِ﴾ أمراً بالصلاة في الجماعة. أو يكون المراد من الركوع التواضع ويكون قوله ﴿وَأَسْجُدِي﴾ أمراً ظاهراً بالصلاة، وقوله ﴿وَأَزَكِّي مَعَ الرُّكُوعِ﴾ أمراً بالخضوع والخشوع بالقلب.

الوجه الخامس في الجواب: لعله كان السجود في ذلك الدين متقدماً على الركوع.

النوع الأول من الاصطفاء: فهو أمور: (أحدها): أنه تعالى قبل تحريرها مع أنها كانت أنثى، ولم يحصل مثل هذا المعنى لغيرها من الإناث. و(ثانيها): قال الحسن: إن أمها لما وضعتها ما غدتها طرفة عين، بل ألقتها إلى زكريا، وكان رزقها يأتيها من الجنة و(ثالثها): أنه تعالى فرغها لعبادته، وخصها في هذا المعنى بأنواع اللطف والهداية والعصمة و(رابعها): أنه كفاها أمر معيشتها، فكان يأتيها رزقها من عند الله تعالى على ما قال الله تعالى ﴿أَنَّ لِلَّهِ هَذَا قَوْلَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾. و(خامسها): أنه تعالى أسمعها كلام الملائكة شفاها، ولم يتفق ذلك لأنثى غيرها، فهذا هو المراد من الاصطفاء الأول، وأما التطهير ففيه وجوه: (أحدها): أنه تعالى طهرها عن الكفر والمعصية، فهو كقوله تعالى في أزواج النبي ﷺ ﴿وَيُطَهِّرُكَ تَطْهِيراً﴾ [الأحزاب: ٣٣] و(ثانيها): أنه تعالى طهرها عن مسيس الرجال. و(ثالثها): طهرها عن الحيض، قالوا: كانت مريم لا تحيض و(رابعها): وطهرها من الأفعال الذميمة، والعادات القبيحة. و(خامسها): وطهرها عن مقالة اليهود وتهمتهم وكذبهم.

وأما الاصطفاء الثاني: فالمراد أنه تعالى وهب لها عيسى عليه السلام من غير أب، وأنطق عيسى حال انفصاله منها حتى شهد بما يدل على براءتها عن التهمة، وجعلها وابنها آية للعالمين، فهذا هو المراد من هذه الألفاظ الثلاثة.

المسألة الخامسة: روى أنه عليه الصلاة والسلام قال «حسبك من نساء العالمين أربع: مريم وآسية امرأة فرعون، وخديجة، وفاطمة عليهن السلام»، فقيل هذا الحديث دل على أن هؤلاء الأربع أفضل من النساء، وهذه الآية دلت على أن مريم عليها السلام أفضل من الكل، وقول من قال المراد إنها مصطفاة على عالمي زمانها، فهذا ترك الظاهر.

ثم قال تعالى ﴿يَمْرُؤٌ أَقْنَى لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي﴾، وقد تقدم تفسير القنوت في سورة البقرة في قوله تعالى ﴿وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] وبالجملتين فلما بين تعالى أنها مخصوصه بمزيد المواهب والعطايا من الله

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وقال في الشياطين يوحون إلى أوليائهم، وقال ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] فلما كان الله سبحانه ألقى هذه الأشياء إلى الرسول ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام بحيث يخفى ذلك على غيره سماه وحياً.

أما قوله تعالى ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾

ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تلك الأقلام وجوهاً: (الأول): المراد بالأقلام التي كانوا يكتبون بها التوراة وسائر كتب الله تعالى، وكان القراع على أن كل من جرى قلمه على عكس جري الماء فالحق معه، فلما فعلوا ذلك صار قلم زكريا كذلك، فسلموا الأمر له وهذا قول الأكثرين. (والثاني): أنهم ألقوا عصيهم في الماء الجاري جرت عصا زكريا على ضد جرية الماء فغلبهم، وهذا قول الربيع. (والثالث): قال أبو مسلم: معنى يلقون أقلامهم مما كانت الأمم تفعله من المساهمة عند التنازع فيطرحون منها ما يكتبون عليها أسماءهم فمن خرج له السهم سلم له الأمر، وقد قال الله تعالى: ﴿فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، وهو شبيه بأمر القداح التي تتقاسم بها العرب لحم الجزور، وإنما سميت هذه السهام أقلاماً لأنها تقلم وتبري، وكل ما قطعت منه شيئاً بعد شيء فقد قلمته، ولهذا السبب يسمى ما يكتب به قلماً.

قال القاضي: وقوع لفظ القلم على هذه الأشياء وإن كان صحيحاً نظراً إلى أصل الاشتقاق، إلا أن العرف أوجب اختصاص القلم بهذا الذي يكتب به، فوجب حمل لفظ القلم عليه.

المسألة الثانية: ظاهر الآية يدل على أنهم كانوا يلقون أقلامهم في شيء على وجه يظهر به امتياز بعضهم عن البعض في استحقاق ذلك المطلوب، وإما ليس فيه دلالة على كيفية ذلك الإلقاء، إلا أنه روى في الخبر أنهم كانوا يلقونها في الماء بشرط أن من جرى قلمه على خلاف جري الماء فاليد له، ثم إنه حصل هذا المعنى لزكريا عليه السلام، فلا جرم صار هو أولى بكفالتها والله أعلم.

المسألة الثالثة: اختلفوا في السبب الذي لأجله رغبوا

السؤال الثاني: ما المراد من قوله ﴿وَأَرْكَعِي مَعَ الْأَرْكَعِيَّ﴾.

(والجواب): قيل: معناه: افعلي كفعلهم، وقيل المراد به الصلاة في الجماعة كانت مأمورة بأن تصلي في بيت المقدس مع المجاورين فيه، وإن كانت لا تختلط بهم.

السؤال الثالث: لم لم يقل واركعي مع الراكعات؟

(والجواب): لأن الاقتداء بالرجال حال الاختفاء من الرجال أفضل، من الاقتداء بالنساء.

واعلم أن المفسرين قالوا: لما ذكرت الملائكة هذه الكلمات مع مريم عليها السلام شفاها، قامت مريم في الصلاة حتى رمت قدمها وسال الدم والقيح من قدميها. قوله تعالى ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: «ذلك» إشارة إلى ما تقدم، والمعنى أن الذي مضى ذكره من حديث حنة وزكريا ويحيى وعيسى ابن مريم، إنما هو من إخبار الغيب فلا يمكنك أن تعلمه إلا بالوحي.

فإن قيل: لم نفيت هذه المشاهدة، وانتفاؤها معلوم بغير شبهة، وترك نفي استماع هذه الأشياء من حفاظها وهو موهوم؟

قلنا: كان معلوماً عندهم علماً يقينياً أنه ليس من أهل السماع والقراءة، وكانوا منكرين للوحي، فلم يبق إلا المشاهدة، وهي وإن كانت في غاية الاستبعاد إلا أنها نفيت على سبيل التهكم بالمنكرين للوحي مع علمهم بأنه لا سماع ولا قراءة، ونظيره ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفَرْقِ﴾ [القصص: ٤٤]، ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ﴾ [القصص: ٤٦]، ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ [يوسف: ١٠٢]، ﴿مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩].

المسألة الثانية: الأنباء: الإخبار عما غاب عنك، وأما الإيحاء فقد ورد الكتاب به على معان مختلفة، يجمعها تعريف الموحى إليه بأمر خفي من إشارة أو كتابة أو غيرهما، وبهذا التفسير يعد الإلهام وحياً كقوله تعالى:

﴿إِذْ الْأُولَى فِي قَوْلِهِ﴾ إِذْ قَالَتْ أَمْرًا تُعَمَّرَنَّ ﴿آل عمران: ٣٥﴾ وقيل التقدير: إن ما وصفته من أمور زكريا، وهبة الله له يحيى كان إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك، وأما أبو عبيدة: فإنه يجري في هذا الباب على مذهب له معروف، وهو أن «إذ» صلة في الكلام وزيادة. واعلم أن القولين الأولين فيهما بعض الضعف وذلك لأن مريم حال ما كانوا يلقون الأقلام وحال ما كانوا يختصمون ما بلغت الحد الذي تبشر فيه بعيسى عليه السلام، إلا قول الحسن: فإنه يقول إنها كانت عاقلة في حال الصغر، فإن ذلك كان من كراماتها، فإن صح ذلك جاز في تلك الحال أن يرد عليها البشرى من الملائكة، وإلا فلا بد من تأخر هذه البشرى إلى حين العقل، ومنهم من تكلف الجواب، فقال: يحتمل أن يقال الاختصام والبشرى وقعا في زمان واسع، كما تقول لقيته في سنة كذا، وهذا الجواب بعيد والأصوب هو الوجه الثالث، والرابع، أما قول أبو عبيدة: فقد عرفت ضعفه، والله أعلم.

المسألة الثانية: ظاهر قوله ﴿إِذْ قَالَتْ أَلَمْ تَكُنْ فِي يَدِ الْجَمْعِ إِلَّا أَنْ الْمَشْهُورَ أَنَّ ذَلِكَ الْمُنَادِي كَانَ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَدْ قَرَّرْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ، وَأَمَّا الْبَشَارَةُ فَقَدْ ذَكَرْنَا تَفْسِيرَهَا فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي قَوْلِهِ ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [البقرة: ٢٥].

وأما قوله تعالى ﴿يَكَلِّمُهُمُنَّ﴾ فقد ذكرنا تفسير الكلمة من وجوه وأيقها بهذا الموضع وجهان: (الأول): أن كل علق وإن كان مخلوقاً بواسطة الكلمة وهي قوله ﴿كُنْ﴾ إلا أن ما هو السبب المتعارف كان مفقوداً في حق عيسى عليه السلام وهو الأب، فلا جرم كان إضافة حدوثه إلى الكلمة أكمل وأتم فجعل بهذا التأويل كأنه نفس الكلمة كما أن من غلب عليه الجود والكرم والإقبال يقال فيه على سبيل المبالغة إنه نفس الجود، ومحض الكرم، وصريح الإقبال، فكذا ههنا.

(والوجه الثاني): أن السلطان العادل قد يوصف بأنه ظل الله في أرضه، وبأنه نور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل، ونور الإحسان، فكذلك كان عيسى عليه السلام سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته وإزالة

في كفالتها حتى أدتهم تلك الرغبة إلى المنازعة، فقال بعضهم: إن عمران أباهما كان رئيساً لهم ومقداً عليهم، فلأجل حق أبيها رغبوا في كفالتها، وقال بعضهم: إن أمها حررتها لعبادة الله تعالى ولخدمة بيت الله تعالى، ولأجل ذلك حرصوا على التكفل بها، وقال آخرون: بل لأن في الكتب الإلهية كان بيان أمرها وأمر عيسى عليه السلام حاصلاً فتقربوا لهذا السبب حتى اختصموا.

المسألة الرابعة: اختلفوا في أن أولئك المختصمين من كانوا؟ فمنهم من قال: كانوا هم خدمة البيت، ومنهم من قال: بل العلماء والأخبار وكتاب الوحي، ولا شبهة في أنهم كانوا من الخواص وأهل الفضل في الدين والرغبة في الطريق.

أما قوله ﴿أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ففيه حذف والتقدير: يلقون أقلامهم لينظروا أيهم يكفل مريم وإنما حسن لكونه معلوماً.

أما قوله ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فالمعنى وما كنت هناك إذ يتقارعون على التكفل بها، وإذ يختصمون بسببها فيحتمل أن يكون المراد بهذا الاختصام ما كان قبل الإقراع، ويحتمل أن يكون اختصاماً آخر حصل بعد الإقراع، وبالجملة كالمقصود من الآية شدة رغبتهم في التكفل بشأنها، والقيام بإصلاح مهماتها، وما ذاك إلا لدعاء أمها حيث قالت ﴿فَتَقَبَّلَ مِنْهُ إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [آل عمران: ٣٥] وقالت ﴿وَلَوْ أَنِّي أُعِيدُهَا بِلَيْكِ وَدُرَيْتَهَا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦].

قوله سبحانه وتعالى ﴿إِذْ قَالَتْ أَلَمْ تَكُنْ فِي يَدِ اللَّهِ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ.

اعلم أنه تعالى لما شرح حال مريم عليها السلام، في أول أمرها، وفي آخر أمرها شرح كيفية ولادتها لعيسى عليه السلام، فقال ﴿إِذْ قَالَتْ أَلَمْ تَكُنْ فِي يَدِ اللَّهِ﴾ وفيه مسألتان: المسألة الأولى: اختلفوا في العامل في «إذ» قيل: العامل فيه. وما كنت لديهم إذ قالت الملائكة، وقيل: يختصمون إذ قالت الملائكة، وقيل: إنه معطوف على

الشبهات والتحريفات عنه فلا يبعد أن يسمى بكلمة الله تعالى على هذا التأويل.

فإن قيل: ولم قلت إن حدوث الشخص من غير نقطة الأب ممكن؟ قلنا: أما على أصول المسلمين فالأمر فيه ظاهر ويدل عليه وجهان: (الأول): أن تركيب الأجسام وتأليفها على وجه يحصل فيها الحياة والفهم، والنطق أمر ممكن، وثبت أنه تعالى قادر على الممكنات بأسرها، وكان سبحانه وتعالى قادراً على إيجاد الشخص، لا من نقطة الأب، وإذا ثبت الإمكان، ثم إن المعجز قام على صدق النبي، فوجب أن يكون صادقاً، ثم أخبر عن وقوع ذلك الممكن، والصادق إذا أخبر عن وقوع الممكن وجب القطع بكونه كذلك، فثبت صحة ما ذكرناه. (الثاني): ما ذكره الله تعالى في قوله ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فلما لم يبعد تخليق آدم من غير أب فلأن لا يبعد تخليق عيسى من غير أب كان أولى وهذه حجة ظاهرة، وأما على أصول الفلاسفة فالأمر في تجويزه ظاهر ويدل عليه وجوه: (الأول): أن الفلاسفة اتفقوا على أنه لا يمتنع حدوث الإنسان على سبيل التوالد من غير تولد قالوا: لأن بدن الإنسان إنما استعد لقبول النفس الناطقة التي تدبر بواسطة حصول المزاج المخصوص في ذلك البدن، وذلك المزاج إنما جعل لامتزاج العناصر الأربعة على قدر معين في مدة معينة، فحصول أجزاء العناصر على ذلك القدر الذي يناسب بدن الإنسان غير ممتنع وامتزاجها غير ممتنع، فامتزاجها يكون عند حدوث الكيفية المزاجية واجباً، وعند حدوث الكيفية المزاجية يكون تعلق النفس بذلك البدن واجباً، فثبت أن حدوث الإنسان على سبيل التولد معقول ممكن، وإذا كان الأمر كذلك فحدوث الإنسان لا عن الأب أولى بالجواز والإمكان.

(الوجه الثاني): وهو أنا نشاهد حدوث كثير من الحيوانات على سبيل التولد، كتولد الفأر عن المدر، والحيات عن الشعر، والعقارب عن البازوج، وإذا كان كذلك فتولد الولد لا عن الأب أولى أن لا يكون ممتنعاً. (الوجه الثالث): وهو أن التخيلات الذهنية كثيراً ما

تكون أسباباً لحدوث الحوادث الكثيرة ليس أن تصور المنافي يوجب حصول كيفية الغضب، ويوجب حصول السخونة الشديدة في البدن أليس اللوح الطويل إذا كان موضوعاً على الأرض قدر الإنسان على المشي عليه ولو جعل كالقنطرة على وهدة لم يقدر على المشي عليه، بل كلما مشى عليه يسقط وما ذاك إلا أن تصور السقوط يوجب حصول السقوط، وقد ذكروا في كتب الفلسفة أمثلة كثيرة لهذا الباب، وجعلوها كالأصل في بيان جواز المعجزات والكرامات، فما المانع من أن يقال إنه لما تخيلت صورته عليه السلام كفى ذلك في علوق الولد في رحمها، وإذا كان كل هذه الوجوه ممكنة محتملة كان القول بحدوث عيسى عليه السلام من غير واسطة الأب قولاً غير ممتنع، ولو أنك طالبت جميع الأولين والآخرين من أرباب الطبائع والطب والفلسفة على إقامة حجة إقناعية في امتناع حدوث الولد من غير الأب لم يجدوا إليه سبيلاً إلا الرجوع إلى استقراء العرف والعادة، وقد اتفق علماء الفلاسفة على أن مثل هذا الاستقراء لا يفيد الظن القوي فضلاً عن العلم، فعلمنا أن ذلك أمر ممكن فلما أخبر العباد عن وقوعه وجب الجزم به والقطع بصحته.

أما قوله تعالى ﴿يَكَلِّمُهُ مِّنْهُ﴾ فلفظة «من» ليست للتبعيض ههنا إذ لو كان كذلك لكان الله تعالى متجزئاً متبعضاً متحتملاً للاجتماع والافتراق وكل من كان كذلك فهو محدث وتعالى الله عنه، بل المراد من كلمة «من» ههنا ابتداء الغاية وذلك لأن في حق عيسى عليه السلام لما لم تكن واسطة الأب موجودة صار تأثير كلمة الله تعالى في تكوينه وتخليقه أكمل وأظهر فكان كونه كلمة «الله» مبدأ لظهوره ولحدوثه أكمل فكان المعنى لفظ ما ذكرناه لا ما يتوهمه النصارى والحلولية.

وأما قوله تعالى ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ففيه

سؤالات:

السؤال الأول: المسيح: هل هو اسم مشتق، أو موضوع؟

والجواب: فيه قولان: (الأول): قال أبو عبيدة والليث: أصله بالعبرانية مشيحاً، فعرته العرب وغيروا

(الجواب): أن المسيح كالقلب الذي يفيد كونه شريفاً رفيع الدرجة، مثل الصديق والفاروق فذكره الله تعالى أولاً بقلبه ليفيد علو درجته، ثم ذكره باسمه الخاص.

السؤال الثالث: لم قال عيسى ابن مريم والخطاب مع مريم؟

(الجواب): لأن الأنبياء ينسبون إلى الآباء لا إلى الأمهات، فلما نسب الله تعالى إلى الأم دون الأب، كان ذلك إعلالاً لها بأنه محدث بغير الأب، فكان ذلك سبباً لزيادة فضله وعلو درجته.

السؤال الرابع: الضمير في قوله: اسمه عائد إلى الكلمة وهي مؤنثة فلم ذكر الضمير؟

(الجواب): لأن المسمى بها مذكر.

السؤال الخامس: لم قال اسمه المسيح عيسى ابن مريم؟ والاسم ليس إلا عيسى، وأما المسيح فهو لقب، وأما ابن مريم فهو صفة.

(الجواب): الاسم علامة المسمى ومعرف له، فكانه قيل: الذي يعرف به هو مجموع هذه الثلاثة. أما قوله تعالى ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى الوجيه: ذو الجاه والشرف والقدرة، يقال: وجه الرجل، يوجه وجهه فهو وجيه، إذا صارت له منزلة رفيعة عند الناس والسلطان، وقال بعض أهل اللغة: الوجيه: هو الكريم، لأن أشرف أعضاء الإنسان وجهه فجعل الوجه استعارة عن الكرم والكمال.

واعلم أن الله تعالى وصف موسى ﷺ بأنه كان وجيهاً قال الله تعالى ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَادُوا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً﴾ [الأحزاب: ٦٩] ثم للمفسرين أقوال: (الأول): قال الحسن: كان وجيهاً في الدنيا بسبب النبوة، وفي الآخرة بسبب علو المنزلة عند الله تعالى (الثاني): أنه وجيه عند الله تعالى، وأما عيسى عليه السلام، فهو وجيه في الدنيا بسبب أنه يستجاب دعاؤه ويحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص بسبب دعائه، ووجيه في الآخرة بسبب أنه يجعله شفيع أمته المحقين ويقبل شفاعتهم فيهم كما يقبل شفاعة أكابر

لفظه، وعيسى: أصله يشوع كما قالوا في موسى: أصله موسى، أو ميشا بالعبرانية، وعلى هذا القول لا يكون له اشتقاق.

(القول الثاني): إنه مشتق وعليه أكثر، ثم ذكروا فيه وجوهاً: (الأول): قال ابن عباس: إنما سمي عيسى عليه السلام مسيحاً، لأنه ما كان يمسح بيده ذا عاهة، إلا برىء من مرضه. (الثاني): قال أحمد بن يحيى: سمي مسيحاً لأنه كان يمسح الأرض أي يقطعها، ومنه مساحة أقسام الأرض، وعلى هذا المعنى يجوز أن يقال: لعيسى مسيح بالتشديد على المبالغة كما يقال للرجل فسيق وشريب. (الثالث): أنه كان مسيحاً، لأنه كان يمسح رأس اليتامى لله تعالى، فعلى هذه الأقوال: هو فعيل بمعنى: فاعل، كرحيم بمعنى: راحم. (الرابع): أنه مسح من الأوزار والآثام. (والخامس): سمي مسيحاً لأنه ما كان في قدمه خمص، فكان ممسوح القدمين. (والسادس): سمي مسيحاً لأنه كان ممسوحاً بدهن طاهر مبارك يمسح به الأنبياء، ولا يمسح به غيرهم. ثم قالوا: وهذا الدهن يجوز أن يكون الله تعالى جعله علامة حتى تعرف الملائكة أن كل من مسح به وقت الولادة فإنه يكون نبياً. (السابع): سمي مسيحاً لأنه مسحه جبريل ﷺ بجناحه وقت ولادته ليكون ذلك صوناً له عن مس الشيطان. (الثامن): سمي مسيحاً لأنه خرج من بطن أمه ممسوحاً بالدهن، وعلى هذه الأقوال يكون المسيح، بمعنى: الممسوح، فعيل بمعنى: مفعول. قال أبو عمرو بن العلاء المسيح: الملك. وقال النخعي: المسيح والصديق والله أعلم. ولعلهما قالاً ذلك من جهة كونه مدحاً لا لدلالة اللغة عليه، وأما المسيح الدجال فإنما سمي مسيحاً لأحد وجهين: (أحدهما): لأنه ممسوح أحد العينين. (والثاني): أنه يمسح الأرض أي يقطعها في المدة القليلة، قالوا: ولهذا قيل له: دجال لضربه في الأرض، وقطعه أكثر نواحيها، يقال: قد دجل الدجال إذا فعل ذلك، وقيل: سمي دجالاً من قوله: دجل الرجل إذا موه ولبس.

السؤال الثاني: المسيح كان كالقلب له، وعيسى كالاسم فلم قدم القلب على الاسم؟

أمه. و(الثاني): هو هذا الشيء المعروف الذي هو مضجع الصبي وقت الرضاع، وكيف كان فالمراد منه: فإنه يكلم الناس في الحالة التي يحتاج الصبي فيها إلى المهد، ولا يختلف هذا المقصود سواء كان في حجر أمه أو كان في المهد.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَكَهَلًا﴾ عطف على الظرف من قوله ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ كأنه قيل: يكلم الناس صغيراً وكهلاً وههنا سؤالات:

السؤال الأول: ما الكهل؟

(الجواب): الكهل في اللغة ما اجتمع قوته وكمل شبابه، وهو مأخوذ من قول العرب اكتهل النبات إذا قوي وثم قال الأعشى:

يضاحك الشمس منها كوكب شرق

مؤزر بحميم النبت مكتهل

أراد بالمكتهل المتناهي في الحسن والكمال.

السؤال الثاني: أن تكلمه حال كونه في المهد من المعجزات، فأما تكلمه حال الكهولة فليس من المعجزات، فما الفائدة في ذكره؟

و(الجواب): من وجوه: (الأول): أن المراد منه بيان كونه متقلباً في الأحوال من الصبا إلى الكهولة والتغير على الإله تعالى محال، والمراد منه الرد على وفد نجران في قولهم: إن عيسى كان إلهاً. و(الثاني): المراد منه أن يكلم الناس مرة واحدة في المهد لإظهار طهارة أمه، ثم عند الكهولة يتكلم بالوحي والنبوة. و(الثالث): قال أبو مسلم: معناه أنه يكلم حال كونه في المهد، وحال كونه كهلاً على حد واحد وصفة واحدة وذلك لا شك أنه غاية في المعجز. (الرابع): قال الأصم: المراد منه أنه يبلغ حال الكهولة.

السؤال الثالث: نقل أن عمر عيسى عليه السلام إلى أن رفع كان ثلاثاً وثلاثين سنة وستة أشهر، وعلى هذا التقدير: فهو ما بلغ الكهولة.

و(الجواب): من وجهين: (الأول): بينا أن الكهل في أصل اللغة عبارة عن الكامل التام، وأكمل أحوال الإنسان إذا كان بين الثلاثين والأربعين، فصح وصفه بكونه كهلاً

الأنبياء عليهم السلام و(الثالث): أنه وجهه في الدنيا بسبب أنه كان مبرأ من العيوب التي وصفه اليهود بها، ووجهه في الآخرة بسبب كثرة ثوابه وعلو درجته عند الله تعالى.

فإن قيل: كيف كان وجهاً في الدنيا واليهود عاملوه بما عاملوه، قلنا: قد ذكرنا أنه تعالى سمى موسى عليه السلام بالوجيه مع أن اليهود طعنوا فيه، وأذوه إلى أن برأه الله تعالى مما قالوا، وذلك لم يقدح في وجاهة موسى عليه السلام، فكذا ههنا.

المسألة الثانية: قال الزجاج «وجيهاً» منصوب على الحال، المعنى: أن الله يشرك بهذا الولد وجهياً في الدنيا والآخرة، والفراء يسمي هذا قطعاً كأنه قال: عيسى ابن مريم الوجهية فقطع منه التعريف.

أما قوله ﴿وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥] ففيه وجوه: (أحدها): أنه تعالى جعل ذلك كالمدح العظيم للملائكة فألحقه بمثل منزلتهم ودرجتهم بواسطة هذه الصفة. و(ثانيها): أن هذا الوصف كالتنبيه على أنه عليه السلام سيرف إلى السماء وتصاحبه الملائكة. و(الثالث): أنه ليس كل وجه في الآخرة يكون مقرباً لأن أهل الجنة على منازل ودرجات، ولذلك قال تعالى ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾ [الواقعة: ٧] إلى قوله ﴿وَالسَّانِقُونَ . أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [الواقعة: ١٠ و ١١].

أما قوله تعالى ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: الواو للعطف على قوله «وجيهاً» والتقدير كأنه قال: وجهياً ومكلماً للناس وهذا عندي ضعيف، لأن عطف الجملة الفعلية على الإسمية غير جائز إلا للضرورة، أو الفائدة والأولى أن يقال تقدير الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] الوجهية في الدنيا والآخرة المعدود من المقربين، وهذا المجموع جملة واحدة، ثم قال ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ فقوله ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ عطف على قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ﴾.

المسألة الثانية: في المهد قولان: (أحدهما): أنه حجر

ثم قال تعالى ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

فإن قيل: كون عيسى كلمة من الله تعالى، وكونه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾، وكونه من المقربين عند الله تعالى، وكونه مكلماً للناس في المهد، وفي الكهولة كل واحد من هذه الصفات أعظم وأشرف من كونه صالحاً فلم ختم الله تعالى أوصاف عيسى بقوله ﴿وَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾.

قلنا: إنه لا رتبة أعظم من كون المرء صالحاً لأنه لا يكون كذلك إلا ويكون في جميع الأفعال والتروك مواظباً على النهج الأصح، والطريق الأكمل، ومعلوم أن ذلك يتناول جميع المقامات في الدنيا والدين في أفعال القلوب، وفي أفعال الجوارح، فلما ذكر الله تعالى بعض التفاصيل أردفه بهذا الكلام الذي يدل على أرفع الدرجات.

قوله تعالى ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ﴾ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

قال المفسرون: إنها إنما قالت ذلك لأن التبشير به يقتضي التعجب مما وقع على خلاف العادة وقد قررنا مثله في قصة زكريا عليه السلام، وقوله ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تقدم تفسيره في سورة البقرة.

أما قوله تعالى ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِسَابَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ ففيه مسألان:

المسألة الأولى: قرأ نافع، وعاصم «ويعلمه» بالياء والباقون بالنون، أما الياء فعطف على قوله ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ وقال المبرد عطف على ييشرك بكلمة، وكذا وكذا ﴿وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ﴾ ومن قرأ بالنون قال تقدير الآية أنها: قالت رب أنى يكون لي ولد فقال لها الله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهذا وإن كان إخباراً على وجه المغاية، فقال ﴿وَيُعَلِّمُهُ﴾ لأن معنى قوله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ معناه: كذلك نحن نخلق ما نشاء «ونعلمه الكتاب والحكمة» والله أعلم.

المسألة الثانية: في هذه الآية أمور أربعة معطوف بعضها على بعض بواو العطف، والأقرب عندي أن يقال: المراد من الكتاب تعليم الخط والكتابة، ثم المراد

في هذا الوقت. و(الثاني): هو قول الحسين بن الفضل البجلي: أن المراد بقوله ﴿وَكَهْلًا﴾ أن يكون كهلاً بعد أن ينزل من السماء في آخر الزمان، ويكلم الناس، ويقتل الدجال، قال الحسين بن الفضل: وفي هذه الآية نص في أنه عليه الصلاة والسلام سينزل إلى الأرض.

المسألة الرابعة: أنكرت النصارى كلام المسيح عليه السلام في المهد، واحتجوا على صحة قولهم بأن كلامه في المهد من أعجب الأمور وأغربها، ولا شك أن هذه الواقعة لو وقعت لوجب أن يكون وقوعها في حضور الجمع العظيم الذي يحصل القطع واليقين بقولهم، لأن تخصيص مثل هذا المعجز بالواحد والاثنين لا يجوز، ومتى حدثت الواقعة العجيبة جداً عند حضور الجمع العظيم فلا بد وأن تتوفر الدواعي على النقل فيصير ذلك بالغاً حد التواتر، وإخفاء ما يكون بالغاً إلى حد التواتر ممتنع، وأيضاً فلو كان ذلك لكان ذلك الإخفاء هنا ممتنعاً لأن النصارى بالغوا في إفراط محبته إلى حيث قالوا إنه كان إلهاً، ومن كان كذلك يمتنع أن يسعى في إخفاء مناقبه وفضائله بل ربما يجعل الواحد ألفاً فثبت أن لو كانت هذه الواقعة موجودة لكان أولى الناس بمعرفتها النصارى، ولما أطبقوا على إنكارها علمنا أنه ما كان موجوداً البتة.

أجاب المتكلمون عن هذه الشبهة، وقالوا: إن كلام عيسى عليه السلام في المهد إنما كان للدلالة على براءة حال مريم عليها السلام من الفاحشة، وكان الحاضرون جمعاً قليلين، فالسامعون لذلك الكلام، كان جمعاً قليلاً، ولا يبعد في مثله التواطؤ على الإخفاء، وبتقدير: أن يذكروا ذلك إلا أن اليهود كانوا يكذبونهم في ذلك وينسبونهم إلى البهت، فهم أيضاً قد سكتوا لهذه العلة فلاجل هذه الأسباب بقي الأمر مكتوماً مخفياً إلى أن أخبر الله سبحانه وتعالى محمداً ﷺ بذلك، وأيضاً فليس كل النصارى ينكرون ذلك، فإنه نقل عن جعفر بن أبي طالب: لما قرأ على النجاشي سورة مريم، قال النجاشي: لا تفاوت بين واقعة عيسى، وبين المذكور في هذا الكلام بذرة.

الأكمه والأبرص، والإخبار عن المغيبات فكان المراد من قوله ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الجنس لا الفرد.

ثم قال ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

اعلم أنه تعالى حكى ههنا خمسة أنواع من معجزات عيسى عليه السلام:

النوع الأول: ما ذكره ههنا في هذه الآية وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة «أني» بفتح الهمزة، وقرأ نافع بكسر الهمزة فمن فتح «أني» فقد جعلها بدلاً من آية كأنه قال: وجئتكم بأني أخلق لكم من الطين، ومن كسر فله وجهان: (أحدهما): الاستئناف وقطع الكلام مما قبله. (والثاني): أنه فسر الآية بقوله ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ﴾ ويجوز أن يفسر الجملة المتقدمة بما يكون على وجه الابتداء قال الله تعالى ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [المائدة: ٩] ثم فسر الموعود بقوله ﴿لَهُمْ مَغْفِرَةٌ﴾ [المائدة: ٩] وقال ﴿إِنِّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم فسر المثل بقوله ﴿خَلَقْتُم مِّن تَرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] وهذا الوجه أحسن لأنه في المعنى كقراءة من فتح «أني» على جعله بدلاً من آية.

والمسألة الثانية: ﴿أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ أي أفدر وأصور وقد بينا في تفسير قوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١] إن الخلق هو التقدير ولا بأس بأن نذكره ههنا أيضاً فنقول الذي يدل عليه القرآن والشعر والاستشهاد، أما القرآن فأيات (أحدها): قوله تعالى ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] أي المقدرين، وذلك لأنه ثبت أن العبد لا يكون خالقاً بمعنى التكوين والإبداع فوجب تفسير كونه خالقاً بالتقدير والتسوية (وثانيها): أن لفظ الخلق يطلق على الكذب قال تعالى في سورة الشعراء ﴿إِنَّ هَذَا إِلاَّ خُلُقٌ أَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٧] وفني العنكبوت ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧] وفي سورة ص ﴿إِنَّ هَذَا إِلاَّ أَخْلُقٌ﴾ [ص: ٧] والكاذب إنما سمي خالقاً لأنه يقدر الكذب في خاطره ويصوره (ثالثها): هذه الآية التي نحن في تفسيرها وهي قوله ﴿أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾ أي أصور وأفدر وقال

بالحكمة تعليم العلوم وتهذيب الأخلاق لأن كمال الإنسان في أن يعرف الحق لذاته والخير لأجل العمل به ومجموعهما هو المسمى بالحكمة، ثم بعد أن صار عالماً بالخط والكتابة، ومحيطاً بالعلوم العقلية والشرعية، يعلمه التوراة، وإنما أخرج تعليم التوراة عن تعليم الخط والحكمة، لأن التوراة كتاب إلهي، وفيه أسرار عظيمة، والإنسان ما لم يتعلم العلوم الكثيرة لا يمكنه أن يخوض في البحث على أسرار الكتب الإلهية، ثم قال في المرتبة الرابعة والإنجيل، وإنما أخرج ذكر الإنجيل عن ذكر التوراة لأن من تعلم الخط، ثم تعلم علوم الحق، ثم أحاط بأسرار الكتاب الذي أنزله الله تعالى على من قبله من الأنبياء فقد عظمت درجته في العلم فإذا أنزل الله تعالى عليه بعد ذلك كتاباً آخر وأوقفه على أسرارهِ فذلك هو الغاية القصوى، والمرتبة العليا في العلم، والفهم والإحاطة بالأسرار العقلية والشرعية، والاطلاع على الحكم العلوية والسفلية، فهذا ما عندي في ترتيب هذه الألفاظ الأربعة.

ثم قال تعالى ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِتَايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في هذه الآية وجوه: (الأول): تقدير الآية: ونعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل ونبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلًا: أني قد جئتكم بآية من ربكم، والحذف حسن إذا لم يفض إلى الاشتباه. (الثاني): قال الزجاج: الإختبار عندي أن تقديره: ويكلم الناس رسولاً، وإنما أضمرنا ذلك لقوله ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ﴾ والمعنى: ويكلمهم رسولاً بأني قد جئتكم، (الثالث) قال الأخفش: إن شئت جعلت الواو زائدة، والتقدير: ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة، والإنجيل رسولاً إلى بني إسرائيل، قائلًا: أني قد جئتكم بآية.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أنه ﷺ كان رسولاً إلى كل بني إسرائيل بخلاف قول بعض اليهود إنه كان مبعوثاً إلى قوم مخصوصين منهم.

المسألة الثالثة: المراد بالآية الجنس لا الفرد لأنه تعالى عدد ههنا أنواعاً من الآيات، وهي إحياء الموتى، وإبراء

معناه: أصور وأقدر وقوله ﴿كَهَيْشَةَ الطَّيْرِ﴾ فالهيئة الصورة المهيئة من قولهم هيأت الشيء إذ قدرته وقوله ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ أي في ذلك الطين المصور وقوله ﴿فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ نافع «فيكون طائراً» بالألف على الواحد، والباقون (طيراً) على الجمع، وكذلك في المائدة والطيور اسم الجنس يقع على الواحد وعلى الجمع.

يرى أن عيسى عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات، أخذوا يتعنتون عليه وطالبوه بخلق خفاش، فأخذ طيناً وصوره، ثم نفخ فيه، فإذا هو يطير بين السماء والأرض، قال وهب: كان يطير ما دام الناس ينظرون إليه، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً، ثم اختلف الناس فقال قوم: إنه لم يخلق غير الخفاش، وكانت قراءة نافع عليه. وقال آخرون: إنه خلق أنواعاً من الطير وكانت قراءة الباقيين عليه.

المسألة الثانية: قال بعض المتكلمين: الآية تدل على أن الروح جسم رقيق كالريح، ولذلك وصفها بالفتح، ثم ههنا بحث، وهو أنه هل يجوز أن يقال: إنه تعالى أودع في نفس عيسى عليه السلام خاصية، بحيث متى نفخ في شيء كان نفخه فيه موجباً لصيرورة ذلك الشيء حياً، أو يقال: ليس الأمر كذلك بل الله تعالى كان يخلق الحياة في ذلك الجسم بقدرته عند نفخة عيسى عليه السلام فيه على سبيل إظهار المعجزات، وهذا الثاني هو الحق لقوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] وحكى عن إبراهيم عليه السلام أنه قال في مناظرته مع الملك ﴿رَبِّیَ الَّذِی یُحْیِی وَیُمِیتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨] فلو حصل لغيره، هذه الصفة لبطل ذلك الاستدلال.

المسألة الثالثة: القرآن دل على أنه عليه الصلاة والسلام إنما تولد من نفخ جبريل عليه السلام في مريم وجبريل ﷺ روح محض وروحاني محض فلا جرم كانت نفخة عيسى عليه السلام للحياة والروح.

المسألة الرابعة: قوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه بتكوين الله تعالى وتخليقه لقوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥] أي إلا بأن يوجد الله

تعالى في المائدة ﴿وَلِإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْشَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وكل ذلك يدل على أن الخلق هو التصوير والتقدير (رابعها): قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩] وقوله ﴿خَلَقَ﴾ إشارة إلى الماضي، فلو حملنا قوله ﴿خَلَقَ﴾ على الإيجاد والإبداع، لكان المعنى: أن كل ما في الأرض فهو تعالى قد أوجده في الزمان الماضي، وذلك باطل بالاتفاق، فإذا وجب حمل الخلق على التقدير حتى يصح الكلام وهو أنه تعالى قدر في الماضي كل ما وجد الآن في الأرض، وأما الشعر فقوله:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض

القوم يخلق ثم لا يفري

وقوله:

ولا يعطي بأيدي الخالقين ولا

أيدي الخوالق إلا جيد الأدم

وأما الاستشهاد: فهو أنه يقال: خلق النعل إذا قدرها وسواها بالقياس والخلق المقدار من الخير، وفلان خالق بكذا، أي له هذا المقدار من الإستحقاق، والصخرة الخلقاء الملساء، لأن الملاسة استواء، وفي الخشونة اختلاف، فثبت أن الخلق عبارة عن التقدير والتسوية. إذا عرفت هذا فنقول: اختلف الناس في لفظ «الخالق» قال أبو عبد الله البصري: إنه لا يجوز إطلاقه على الله في الحقيقة، لأن التقدير والتسوية عبارة عن الظن والحسبان وذلك على الله محال، وقال أصحابنا: الخالق، ليس إلا الله، واحتجوا عليه بقوله تعالى ﴿خَلَقْتُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ١٦] ومنهم من احتج بقوله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر: ٣] وهذا ضعيف، لأنه تعالى قال ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرَ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ﴾ [فاطر: ٣] فالمعنى هل من خالق غير الله موصوف بوصف كونه رازقاً من السماء ولا يلزم من صدق قولنا الخالق الذي يكون هذا شأنه، ليس إلا الله، صدق قولنا أنه لا خالق إلا الله.

وأجابوا عن كلام أبي عبد الله بأن التقدير والتسوية عبارة عن العلم والظن لكن الظن وإن كان محالاً في حق الله تعالى فالعلم ثابت.

إذا عرفت هذا فنقول ﴿أَنَّى خَلَقَ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ﴾

نزل المائدة، وذلك لأن القوم نهوا عن الإذخار، فكانوا يخزنون ويدخرون، فكان عيسى عليه السلام يخبرهم بذلك.

المسألة الثانية: الإخبار عن الغيوب على هذا الوجه معجزة، وذلك لأن المنجمين الذين يدعون استخراج الخبر لا يمكنهم ذلك إلا عن سؤال يتقدم ثم يستعينون عند ذلك بآلة ويتوصلون بها إلى معرفة أحوال الكواكب، ثم يعترفون بأنهم يغلطون كثيراً، فأما الإخبار عن الغيب من غير استعانة بآلة، ولا تقدم مسألة لا يكون إلا بالوحي من الله تعالى.

ثم إنه عليه السلام ختم كلامه بقوله ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾.

والمعنى إن في هذه الخمسة لمعجزة قاهرة قوية دالة على صدق المدعي اكل من آمن بدلائل المعجزة في الحمل على الصدق، على من أنكر دلالة أصل المعجز على صدق المدعي، وهم البراهمة، فإنه لا يكفيه ظهور هذه الآيات، أما من آمن بدلالة المعجز على الصدق لا يبقى له في هذه المعجزات كلام البتة.

قوله تعالى ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَحَدٍ لَّكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

اعلم أنه عليه السلام لما بين بهذه المعجزات الباهرة كونه رسولاً من عند الله تعالى، بين بعد ذلك إنه بماذا أرسل وهو أمران: (أحدهما): قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾.

وفيه مسألان:

المسألة الأولى: قد ذكرنا في قوله ﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ﴾ أن تقديره وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ﴾ فقله ﴿وَمُصَدِّقًا﴾ معطوف عليه والتقدير: وأبعثه رسولاً إلى بني إسرائيل قائلاً «أني قد جئتكم بآية»، وإني بعثت ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ وإنما حسن حذف هذه الألفاظ لدلالة الكلام عليها.

الموت، وإنما ذكر عيسى عليه السلام هذا القيد لإزالة للشبهة، وتنبهاً على إني أعمل هذا التصوير، فأما خلق الحياة فهو من الله تعالى على سبيل إظهار المعجزات على يد الرسل.

وأما النوع الثاني والثالث والرابع من المعجزات:

فهو قوله ﴿وَأُتِرِثُ الْأَكَمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُتَى الْمَوْتُ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

ذهب أكثر أهل اللغة إلى أن الأكمة هو الذي ولد أعمى، وقال الخليل وغيره هو الذي عمي بعد أن كان بصيراً، وعن مجاهد هو الذي لا يبصر بالليل، ويقال: إنه لم يكن في هذه الأمة أكمة غير قتادة بن دعامة السدوسي صاحب التفسير، وروي أنه عليه الصلاة والسلام ربما اجتمع عليه خمسون ألفاً من المرضى من أطاق منهم أتاؤه، ومن لم يطق أتاؤه عيسى عليه السلام، وما كانت مداواته إلا بالدعاء وحده، قال الكلبي: كان عيسى عليه السلام يحيي الأموات بـ«يا حي يا قيوم». وأحيا عاذر، وكان صديقاً له، ودعا سام بن نوح من قبره، فخرج حياً، ومر على ابن ميت لعجوز فدعا الله، فنزل عن سريرته حياً، ورجع إلى أهله وولد له، وقوله ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ رفع لتوهم من اعتقد فيه الإلهية.

وأما النوع الخامس:

من المعجزات إخباره عن الغيوب فهو قوله تعالى حكاية عنه ﴿وَأَنبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ وفيه مسألان:

المسألة الأولى: في هذه الآية قولان: (أحدهما): أنه عليه الصلاة والسلام كان من أول مرة يخبر عن الغيوب، روى السدي: أنه كان يلعب مع الصبيان، ثم يخبرهم بأفعال آبائهم وأمهاتهم، وكان يخبر الصبي بأن أمك قد خبأت لك كذا فيرجع الصبي إلى أهله ويكي إلى أن يأخذ ذلك الشيء ثم قالوا للصبيانهم: لا تلعبوا مع هذا الساحر، وجمعوهم في بيت، فجاء عيسى عليه السلام يطلبهم، فقالوا له، ليسوا في البيت، فقال: فمن في هذا البيت، قالوا: خنازير قال عيسى عليه السلام كذلك يكونون فإذا هم خنازير.

(والقول الثاني): إن الإخبار عن الغيوب إنما ظهر وقت

عيسى عليه السلام رفع كثيراً من أحكام التوراة، ولم يكن ذلك قادحاً في كونه مصداقاً بالتوراة على ما بيناه ورفع السبب ووضع الأحد قائماً مقامه وكان محققاً في كل ما عمل لما بينا أن الناسخ والمنسوخ كلاهما حق وصدق.

ثم قال ﴿وَجِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ وإنما أعاده لأن إخراج الإنسان عن المألوف المعتاد من قديم الزمان عسر فأعاد ذكر المعجزات ليصير كلامه ناجعاً في قلوبهم ومؤثراً في طباعهم، ثم خوفهم فقال ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ لأن طاعة الرسول من لوازم تقوى الله تعالى فبين أنه إذا لمحكم أن تتقوا الله لزمكم أن تطيعوني فيما أمركم به عن ربي، ثم إنه ختم كلامه بقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ومقصوده إظهار الخضوع والاعتراف بالعبودية لكي لا يتقولوا عليه الباطل فيقولون: إنه إله وابن إله لأن إقراره الله بالعبودية يمنع مما تدعيه جهال النصارى عليه، ثم قال ﴿فَاعْبُدُوهُ﴾ والمعنى: أنه تعالى لما كان رب الخلائق بأسرهم وجب على الكل أن يعبدوه، ثم أكد ذلك بقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

قوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ. رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ. وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما حكى بشارة مريم بولد مثل عيسى واستقصى في بيان صفاته وشرح معجزاته وترك ههنا قصة ولادته، وقد ذكرها في سورة مريم على الاستقصاء، شرع في بيان أن عيسى لما شرح لهم تلك المعجزات، وأظهر لهم تلك الدلائل فهم بماذا عاملوه فقال تعالى ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: الإحساس عبارة عن وجدان الشيء بالحاسة وههنا وجهان: (أحدهما): إن يجري اللفظ على ظاهره، وهو إنهم تكلموا بالكفر، فأحس ذلك بإذنه. (الثاني): أن نحمله على التأويل، وهو أن المراد أنه عرف منهم إصرارهم على الكفر، وعزمهم على قتله، ولما كان ذلك العلم علماً لا شبهة فيه، مثل العلم الحاصل

المسألة الثانية: إنه يجب على كل نبي أن يكون مصداقاً لجميع الأنبياء عليهم السلام، لأن الطريق إلى ثبوت نبوتهم هو المعجزة، فكل من حصل له المعجز، وجب الاعتراف بنبوته، فلهذا قلنا: بأن عيسى عليه السلام يجب أن يكون مصداقاً لموسى بالتوراة، ولعل من جملة الأغراض في بعثة عيسى عليه السلام إليهم تقرير التوراة وإزالة شبهات المنكرين وتحريفات الجاهلين.

وأما المقصود الثاني من بعثة عيسى عليه السلام قوله ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾.

وفيه سؤال: وهو أنه يقال: هذه الآية الأخيرة مناقضة لما قبلها لأن هذه الآية الأخيرة صريحة في أنه جاء ليحل بعض الذي كان محرماً عليه في التوراة، وهذا يقتضي أن يكون حكمه بخلاف حكم التوراة، وهذا يناقض قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾.

و(الجواب): إنه لا تناقض بين الكلام، وذلك لأن التصديق بالتوراة لا معنى له إلا اعتقاد أن كل ما فيها فهو حق وصواب، وإذا لم يكن الثاني مذكوراً في التوراة لم يكن حكم عيسى بتحليل ما كان محرماً فيها، مناقضاً لكونه مصداقاً بالتوراة، وأيضاً إذا كانت الإشارة بعيسى عليه السلام موجودة في التوراة لم يكن معجىء عيسى عليه السلام وشرعه مناقضاً للتوراة، ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه عليه السلام ما غير شيئاً من أحكام التوراة، قال وهب بن منبه: إن عيسى عليه السلام كان على شريعة موسى عليه السلام، كان يقرر السبب ويستقبل بيت المقدس، ثم إنه فسر قوله ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ بأمرين: (أحدهما): إن الأحبار كانوا قد وضعوا من عند أنفسهم شرائع باطلة ونسبوها إلى موسى، فجاء عيسى عليه السلام ورفعها وأبطلها وأعاد الأمر إلى ما كان في زمن موسى عليه السلام. (والثاني): أن الله تعالى كان قد حرم بعض الأشياء على اليهود عقوبة لهم على بعض ما صدر عنهم من الجنایات كما قال الله تعالى ﴿فَيُظَاهَرُ مِنْ أَلَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٦٠] ثم بقي ذلك التحريم مستمراً على اليهود فجاء عيسى عليه السلام ورفع تلك التشديدات عنهم، وقال آخرون: إن

من الحواس، لا جرم عبر عن ذلك العلم بالإحساس.

المسألة الثانية: اختلفوا في السبب الذي به ظهر كفرهم على وجوه: (الأول): قال السدي: إنه تعالى لما بعثه رسولا إلى بني إسرائيل جاءهم ودعاهم إلى دين الله فتمردوا وعصوا فخافهم واختفى عنهم، وكان أمر عيسى عليه السلام في قومه كأمر محمد ﷺ وهو بمكة فكان مستضعفاً، وكان يختفي من بني إسرائيل كما اختفى النبي ﷺ في الغار، وفي منازل من آمن به لما أرادوا قتله، ثم إنه عليه الصلاة والسلام خرج مع أمه يسيحان في الأرض، فاتفق أنه نزل في قرية على رجل فأحسن ذلك الرجل ضيافته وكان في تلك المدينة ملك جبار فجاء ذلك الرجل يوماً حزينا، فسأله عيسى عن السبب فقال: ملك هذه المدينة رجل جبار ومن عادته أنه جعل على كل رجل منا يوماً يطعمه ويسقيه هو وجنوده، وهذا اليوم نوبتي والأمر متعذر علي، فلما سمعت مريم عليها السلام ذلك، قالت: يا بني ادع الله ليكفي ذلك، فقال: يا أماه إن فعلت ذلك كان شر، فقالت: قد أحسن وأكرم ولا بد من إكرامه فقال عيسى عليه السلام: إذا قرب مجيء الملك فاملا قدورك وخوابيك ماء ثم أعلمني، فلما فعل ذلك دعا الله تعالى فتحول ما في القدور طيخاً، وما في الخوابي خمراً، فلما جاءه الملك أكل وشرب وسأله من أين هذا الخمر؟ فتعلل الرجل في الجواب فلم يزل الملك يطالبه بذلك حتى أخبره بالواقعة فقال: إن من دعا الله حتى جعل الماء خمراً إذا دعا أن يحيي الله تعالى ولدي لا بد وأن يجاب، وكان ابنه قد مات قبل ذلك بأيام، فدعا عيسى عليه السلام وطلب منه ذلك، فقال عيسى: لا نفعل، فإنه إن عاش كان شراً، فقال: ما أبالي ما كان إذا رأيته، وإن أحييته تركتكم على ما تفعل، فدعا الله عيسى، فعاش الغلام، فلما رآه أهل مملكته قد عاش تبادروا بالسلاح واقتتلوا، وصار أمر عيسى عليه السلام مشهوراً في الخلق، وقصد اليهود قتله، وأظهروا الطعن فيه والكفر به.

(القول الثاني): إن اليهود كانوا عارفين بأنه هو المسيح المبشر به في التوراة، وأنه ينسخ دينهم، فكانوا من أول الأمر طاعنين فيه، طالبيين قتله، فلما أظهر الدعوة

اشتد غضبهم، وأخذوا في إيذائه وإيحاشه وطلبوا قتله.

(القول الثالث): أن عيسى عليه السلام ظن من قومه الذين دعاهم إلى الإيمان أنهم لا يؤمنون به وأن دعوته لا تنجح فيهم فأحب أن يمتحنهم ليتحقق ما ظنه بهم فقال لهم ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ فما أجابه إلا الحواريون، فعند ذلك أحس بأن من سوى الحواريين كفرون مصرون على إنكار دينه وطلب قتله.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: في الآية أقوال: (الأول): أن عيسى عليه السلام لما دعا بني إسرائيل إلى الدين، وتمردوا عليه فر منهم وأخذ يسبح في الأرض فمر بجماعة من صيادي السمك، وكان فيهم شمعون ويعقوب ويوحنا ابنا زبدي وهم من جملة الحواريين الاثنى عشر فقال عيسى عليه السلام: الآن تصيد السمك، فإن تبعثني صرت بحيث تصيد الناس لحياة الأبد، فطلبوا منه المعجزة، وكان شمعون قد رمى شبكته تلك الليلة في الماء فما اصطاد شيئاً فأمره عيسى بإلقاء شبكته في الماء مرة أخرى، فاجتمع في تلك الشبكة من السمك ما كادت تتمزق منه، واستعانوا بأهل سفينة أخرى، وملؤا السفينتين، فعند ذلك آمنوا بعيسى عليه السلام.

(القول الثاني): أن قوله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ إنما كان في آخر أمره حين اجتمع اليهود عليه طلباً لقتله، ثم وهنا احتمالات: (الأول): أن اليهود لما طلبوه للقتل وكان هو في الهرب عنهم قال لأولئك الاثنى عشر من الحواريين: أيكم يجب أن يكون رفيقي في الجنة على أن يلقي عليه شبهي يقتل مكاني؟.

فأجابه إلى ذلك بعضهم وفيما تذكره النصارى في إنجيلهم: أن اليهود لما أخذوا عيسى سل شمعون سيفه فضرب به عبداً كان فيهم لرجل من الأحبار عظيم فرمى بأذنه، فقال له عيسى: حسبك ثم أخذ أذن العبد فرددها إلى موضعها، فصارت كما كانت، والحاصل أن الغرض من طلب النصرة إقدامهم على دفع الشر عنه.

(والاحتمال الثاني): أنه دعاهم إلى القتال مع القوم

(القول الأول): أن الحوارية اسم موضوع لخاصة الرجل، وخالصته، ومنه يقال للدقيق حوارية، لأنه هو الخالص منه، وقال ﷺ للزبير «إنه ابن عمي، وحواري من أمتي» والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود، فعلى هذا الحواريون هم صفوة الأنبياء الذين خلصوا وأخلصوا في التصديق بهم وفي نصرتهم.

(القول الثاني): الحوارية أصله من الحور، وهو شدة البياض، ومنه قيل للدقيق حوارية، ومنه الأهور، والحور نقاء بياض العين، وحورت الثياب: بيضتها، وعلى هذا القول اختلفوا في أن أولئك لم سموا بهذا الاسم؟ فقال سعيد بن جبيرة: لبياض ثيابهم، وقيل كانوا قصارين، يبيضون الثياب، وقيل لأن قلوبهم كانت نقية طاهرة من كل نفاق وريبة فسموا بذلك مدحاً لهم، وإشارة إلى نقاء قلوبهم، كالثوب الأبيض، وهذا كما يقال فلان نقي الجيب، طاهر الذيل، إذا كان بعيداً عن الأفعال الذميمة، وفلان دنس الثياب: إذا كان مقدماً على ما لا ينبغي.

(القول الثالث): قال الضحاك: مر عيسى عليه السلام بقوم من الذين كانوا يغسلون الثياب، فدعاهم إلى الإيمان فآمنوا، والذي يغسل الثياب يسمى بلغة النبط حوارية، وهو القصار فعربت هذه اللفظة فصارت حوارية، وقال مقاتل بن سليمان الحواريون: هم القصارون، وإذا عرفت أصل هذا اللفظ فقد صار يعرف الاستعمال دليلاً على خواص الرجل وبطانته.

المسألة الثانية: اختلفوا في أن هؤلاء الحواريين من كانوا؟

(القول الأول): إنه عليه السلام مر بهم وهم يصطادون السمك فقال لهم «تعالوا نصطاد الناس» قالوا: من أنت؟ قال «أنا عيسى ابن مريم، عبد الله ورسوله» فطلبوا منه المعجز على ما قال فلما أظهر المعجز آمنوا به، فهم الحواريون.

(القول الثاني): قالوا: سلمته أمه إلى صباغ، فكان إذا أراد أن يعلمه شيئاً كان هو أعلم به منه وأراد الصباغ أن يغيب لبعض مهماته، فقال له: ههنا ثياب مختلفة، وقد علمت على كل واحد علامة معينة، فاصبغها بتلك

لقلوله تعالى في سورة أخرى ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

المسألة الثانية: قوله ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ فيه وجوه: (الأول): التقدير: من أنصاري حال ذهابي إلى الله أو حال التجائي إلى الله. (الثاني): التقدير: من أنصاري إلى أن أبين أمر الله تعالى، وإلى أن أظهر دينه ويكون إلى ههنا غاية كأنه أراد من يثبت على نصرتي إلى أن تتم دعوتي، ويظهر أمر الله تعالى. (الثالث): قال الأكثرون من أهل اللغة إلى ههنا بمعنى مع قال تعالى ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي معها، وقال ﷺ «الذود إلى الذود إبل» أي مع الذود.

قال الزجاج: كلمة «إلى» ليست بمعنى مع فإنك لو قلت ذهب زيد إلى عمرو لم يجز أن تقول: ذهب زيد مع عمرو لأن «إلى» تفيد الغاية و«مع» تفيد ضم الشيء إلى الشيء، بل المراد من قولنا أن «إلى» ههنا بمعنى «مع» هو أنه يفيد فائدتها من حيث أن المراد من يضيف نصرته إلى نصرة الله إياي وكذلك المراد من قوله ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ [النساء: ٢] أي لا تأكلوا أموالهم مضمومة إلى أموالكم، وكذلك قوله عليه السلام «الذود إلى الذود إبل» معناه: الذود مضموماً إلى الذود إبل. (الرابع): أن يكون المعنى من أنصاري فيما يكون قرابة إلى الله ووسيلة إليه، وفي الحديث أنه ﷺ كان يقول إذا ضحى «اللهم منك وإليك» أي تقرباً إليك، ويقول الرجل لغيره عند دعائه إياه «إلى» أي الضم إلى، فكذا ههنا المعنى من أنصاري فيما يكون قرابة إلى الله تعالى. (الخامس): أن يكون «إلى» بمعنى اللام كأنه قال: من أنصاري لله نظيره قوله تعالى ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ﴾ [يونس: ٣٥]. و(السادس): تقدير الآية: من أنصاري في سبيل الله. و«إلى» بمعنى (في) جائز، وهذا قول الحسن.

أما قوله تعالى ﴿قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في لفظ «الحواري» وجوهاً:

ثم قالوا ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وذلك لأن إسهادهم عيسى عليه السلام على أنفسهم، إسهاد الله تعالى أيضاً، ثم فيه قولان: الأول: المراد واشهد أنا منقادون لما تريده منا في نصرتك، والذب عنك، مستسلمون لأمر الله تعالى فيه. الثاني: أن ذلك إقرار منهم بأن دينهم الإسلام، وأنه دين كل الأنبياء صلوات الله عليهم.

واعلم أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إيمانهم وعلى إسلامهم تضرعوا إلى الله تعالى، وقالوا ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ وذلك لأن القوم آمنوا بالله حين قالوا في الآية المتقدمة ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾، ثم آمنوا بكتب الله تعالى حيث قالوا ﴿ءَامَنَّا بِمَا أَرْزَلْتَ﴾، وآمنوا برسول الله حيث قالوا ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾، فعند ذلك طلبوا الزلفة والثواب، فقالوا ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، وهذا يقتضي أن يكون للشاهدين فضل يزيد على فضل الحواريين، ويفضل على درجته، لأنهم هم المخصوصون بأداء الشهادة، قال الله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. والثاني: وهو منقول أيضاً عن ابن عباس ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي اكتبنا في زمرة الأنبياء لأن كل نبي شاهد لقومه قال الله تعالى ﴿فَلَنَسْتَكَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَكُنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦].

وقد أجاب الله تعالى دعاءهم وجعلهم أنبياء ورسلًا، فأحيوا الموتى، وصنعوا كل ما صنع عيسى عليه السلام. و(القول الثالث): ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي اكتبنا في جملة من شهد لك بالتوحيد لأنبيائك بالتصديق، والمقصود من هذا أنهم لما أشهدوا عيسى عليه السلام على إسلام أنفسهم، حيث قالوا ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ فقد أشهدوا الله تعالى على ذلك تأكيداً للأمر، وتقوية له، وأيضاً طلبوا من الله مثل ثواب كل مؤمن شهد الله بالتوحيد ولأنبيائه بالنبوة.

(القول الرابع): إن قوله ﴿فَاكْتُتِبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ إشارة إلى أن كتاب الأبرار إنما يكون في السموات مع الملائكة، قال الله تعالى ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْأَبْرَارِ لَفِي

الألوان، بحيث يتم المقصود عند رجوعي، ثم غاب فطبخ عيسى عليه السلام جباً واحداً، وجعل الجميع فيه، وقال «كوني بإذن الله كما أريد» فرجع الصباغ فأخبره بما فعل فقال: قد أفسدت عليّ الثياب، قال «قم فانظر» فكان يخرج ثوباً أحمر، وثوباً أخضر، وثوباً أصفر كما كان يريد، إلى أن أخرج الجميع على الألوان التي أرادها، فتعجب الحاضرون منه، وآمنوا به فهم الحواريون.

(القول الثالث): كانوا الحواريون اثني عشر رجلاً اتبعوا عيسى عليه السلام، وكانوا إذا قالوا: يا روح الله جعنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج لكل واحد رغيفان، وإذا عطشوا قالوا يا روح الله: عطشنا، فيضرب بيده إلى الأرض، فيخرج الماء فيشربون، فقالوا: من أفضل منا إذا شئنا أطعمتنا، وإذا شئنا سقيتنا، وقد آمننا بك فقال «أفضل منكم من يعمل بيده، ويأكل من كسبه» فصاروا يغسلون الثياب بالكراء، فسموا حواريين.

(القول الرابع): أنهم كانوا ملوكاً قالوا وذلك أن واحداً من الملوك صنع طعاماً، وجمع الناس عليه، وكان عيسى عليه السلام على قصعة منها، فكانت القصعة لا تنقص، فذكروا هذه الواقعة لذلك الملك، فقال: تعرفونه؟ قالوا: نعم، فذهبوا بعيسى عليه السلام، قال من أنت؟ قال: أنا عيسى ابن مريم، قال فإني أترك ملكي وأتبعك فتبعه ذلك الملك مع أقاربه، فأولئك هم الحواريون قال القفال: ويجوز أن يكون بعض هؤلاء الحواريين الاثني عشر من الملوك، وبعضهم من صيادي السمك، وبعضهم من القصارين، والكل سمو بالحواريين لأنهم كانوا أنصار عيسى عليه السلام، وأعوانه، والمخلصين في محبته، وطاعته وخدمته.

المسألة الثالثة: المراد من قوله ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي نحن أنصار دين الله وأنصار أنبيائه، لأن نصرة الله تعالى في الحقيقة محال، فالمراد منه ما ذكرناه.

أما قوله ﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ فهذا يجري مجرى ذكر العلة، والمعنى يجب علينا أن نكون من أنصار الله، لأجل أننا آمنّا بالله، فإن الإيمان بالله يوجب نصرة دين الله، والذب عن أوليائه، والمحاربة مع أعدائه.

المسألة الثانية: أما مكرهم بعيسى عليه السلام، فهو أنهم هموا بقتله، وأما مكر الله تعالى بهم، ففيه وجوه: الأول: مكر الله تعالى بهم هو أنه رفع عيسى عليه السلام إلى السماء، وذلك أن يهودا ملك اليهود، أراد قتل عيسى عليه السلام، وكان جبريل عليه السلام، لا يفارقه ساعة، وهو معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُّسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، فلما أرادوا ذلك أمره جبريل عليه السلام أن يدخل بيتاً فيه روزنة، فلما دخلوا البيت أخرجه جبريل عليه السلام من تلك الروزنة، وكان قد ألقى شبهه على غيره، فأخذ وصلب فتفرق الحاضرون ثلاث فرق، فرقة قالت: كان الله فينا فذهب، وأخرى قالت: كان ابن الله، والأخرى قالت: كان عبد الله ورسوله فأكرمهم بأن رفعه إلى السماء، وصار لكل فرقة جمع فظهرت الكافرتان على الفرقة المؤمنة إلى أن بعث الله تعالى محمداً ﷺ، وفي الجملة، فالمراد من مكر الله بهم أن رفعه إلى السماء وما مكنتهم من إيصال الشر إليه.

الوجه الثاني: أن الحواريين كانوا اثني عشر، وكانوا مجتمعين في بيت فنافق رجل منهم، ودل اليهود عليه، فألق الله شبهه عليه ورفع عيسى، فأخذوا ذلك المنافق الذي كان فيهم، وقتلوه وصلبوه على ظن أنه عيسى عليه السلام، فكان ذلك هو مكر الله بهم.

الوجه الثالث: ذكر محمد بن إسحق أن اليهود عذبوا الحواريين بعد أن رفع عيسى عليه السلام. فشمسهم وعذبوهم، فلحقوا منهم الجهد فبلغ ذلك ملك الروم، وكان ملك اليهود من رعيته فليل له إن رجلاً من بني إسرائيل ممن تحت أمرك كان يخبرهم أنه رسول الله، وأراهم إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص فقتل، فقال: لو علمت ذلك لحلت بينه وبينهم، ثم بعث إلى الحواريين، فانتزعهم من أيديهم وسألهم عن عيسى عليه السلام، فأخبروه فتابعهم على دينهم، وأنزل المصلوب فغيبه، وأخذ الخشبة فأكرمها وصانها، ثم غزا بني إسرائيل وقتل منهم خلقاً عظيماً ومنه ظهر أصل النصرانية في الروم، وكان اسم هذا الملك طباريس، وهو صار نصرانياً، إلا أنه ما أظهر ذلك، ثم إنه جاء بعده ملك آخر، يقال له:

عَلِيَّينَ ﴿المطففين: ١٨﴾ فإذا كتب الله ذكرهم مع الشاهدين المؤمنين كان ذكرهم مشهوراً في الملأ الأعلى وعند الملائكة المقربين.

(القول الخامس): أنه تعالى قال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨]، فجعل أولو العلم من الشاهدين، وقرن ذكرهم بذكر نفسه، وذلك درجة عظيمة، ومرتبة عالية، فقالوا ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي اجعلنا من تلك الفرقة الذين قرنت ذكرهم بذكرك.

(والقول السادس): أن جبريل عليه السلام لما سأل محمداً ﷺ عن الإحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه»، وهذا غاية درجة العبد في الاشتغال بالعبودية، وهو أن يكون العبد في مقام الشهود، لا في مقام الغيبة، فهؤلاء القوم لما صاروا كاملين في درجة الاستدلال أرادوا الترقى من مقام الاستدلال إلى مقام الشهود والمكاشفة، فقالوا ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾.

(القول السابع): أن كل من كان في مقام شهود الحق لم يبال بما يصل إليه من المشاق والآلام، فلما قبلوا من عيسى عليه السلام أن يكونوا ناصرين له، ذاببن عنه، قالوا ﴿فَأَكْتَبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾، أي اجعلنا ممن يكون في شهود جلالك، حتى نصير مستحقين لكل ما يصل إلينا من المشاق والمتاعب، فحينئذ يسهل علينا الوفاء بما التزمناه من نصرة رسولك ونبيك.

ثم قال تعالى ﴿وَمَكْرُوهًا وَمَكْرَ اللَّهِ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أصل المكر في اللغة السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢]، وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه، ومنه امرأة مكورة، أي مجتمعة الخلق وإحكام الرأي يقال له الإجماع والجمع قال الله تعالى ﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ﴾ [يونس: ٧١] فلما كان المكر رأياً محكماً قوياً مصوناً عن جهات النقص والفتور، لا جرم سمي مكرأ.

حكاية عنه ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] واختلف أهل التأويل في هاتين الآيتين على طريقتين: (أحدهما): إجراء الآية على ظاهرها من غير تقديم، ولا تأخير فيها. و (الثاني): فرض التقديم والتأخير فيها، أما الطريق الأول فبيان من وجوه: (الأول): معنى قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي متمم عمرك، فحينئذ أتوفاك، فلا أتركهم حتى يقتلوك، بل أنا رافعك إلى سمائي، ومقربك بملائكتي، وأصونك عن أن يتمكنوا من قتلك وهذا تأويل حسن. و (الثاني): ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي ميمتك، وهو مروي عن ابن عباس، ومحمد بن إسحق قالوا: والمقصود أن لا يصل أعداؤه من اليهود إلى قتله، ثم إنه بعد ذلك أكرمه بأن رفعه إلى السماء، ثم اختلفوا على ثلاثة أوجه: (أحدها): قال وهب: توفي ثلاث ساعات، ثم رفع. و (ثانيها) قال محمد بن اسحاق: توفي سبع ساعات، ثم أحياه الله ورفع. (الثالث) قال: الربيع بن أنس: أنه تعالى توفاه حين رفعه إلى السماء، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

(الوجه الرابع): في تأويل الآية أن الواو في قوله ﴿مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ تفيد الترتيب فالآية تدل على أنه تعالى يفعل به هذه الأفعال، فأما كيف يفعل، ومتى يفعل، فالأمر فيه موقوف على الدليل، وقد ثبت الدليل أنه حي وورد الخبر عن النبي ﷺ «إنه سينزل ويقتل الدجال» ثم إن الله تعالى يتوفاه بعد ذلك.

(الوجه الخامس) في التأويل ما قاله أبو بكر الواسطي: وهو أن المراد ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ عن شهواتك وحظوظ نفسك، ثم قال ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وذلك لأن من لم يصبر فانياً عما سوي الله لا يكون له وصول إلى مقام معرفة الله، وأيضاً فمعنى لما رفع إلى السماء صار حاله كحال الملائكة في زوال الشهوة، والغضب والأخلاق الذميمة.

و (الوجه السادس): إن التوفي أخذ الشيء وافياً، ولما علم الله إن من الناس من يخطر بباله أن الذي رفعه الله هو روحه لا جسده ذكر هذا الكلام ليدل على أنه عليه الصلاة والسلام رفع بتمامه إلى السماء بروحه وبجسده ويدل على

مطليس، وغزا بيت المقدس بعد ارتفاع عيسى بنحو من أربعين سنة، فقتل وسبى ولم يترك في مدينة بيت المقدس حجراً على حجر فخرج عند ذلك قريظة والنضير إلى الحجاز فهذا كله مما جازاهم الله تعالى على تكذيب المسيح والهيم بقتله.

(القول الرابع): أن الله تعالى سلط عليهم ملك فارس حتى قتلهم، وسباهم، وهو قوله تعالى ﴿بِمَثَنَّا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الإسراء: ٥] فهذا هو مكر الله تعالى بهم.

(القول الخامس): يحتمل أن يكون المراد أنهم مكروا في إخفاء أمره، وإبطال دينه، ومكر الله بهم حيث أعلى دينه وأظهر شريعته وقهر بالذل والدناءة أعداءه وهم اليهود والله أعلم.

المسألة الثالثة: المكر عبارة عن الإحتيال في إيصال الشر، والاحتتيال على الله تعالى محال فصار لفظ المكر في حقه من المتشابهات وذكروا في تأويله وجوهاً: (أحدها): أنه تعالى سمي جزاء المكر بالمكر، كقوله ﴿وَجَزَاؤُهُ سِتْرَةٌ سِتْرَةٌ مِثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] وسمى جزاء المخادعة بالمخادعة، وجزاء الاستهزاء بالاستهزاء. و (الثاني): أن معاملة الله معهم كانت شبيهة بالمكر فسمى بذلك. (الثالث): أن هذا اللفظ ليس من المتشابهات، لأنه عبارة عن التدبير المحكم الكامل ثم اختص في العرف بالتدبير في إيصال الشر إلى الغير، وذلك في حق الله تعالى غير ممتنع والله أعلم.

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: العامل في «إذ» قوله ﴿وَمَكَّرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي وجد هذا المكر إذ قال الله هذا القول، وقيل التقدير: ذاك إذ قال الله.

المسألة الثانية: اعترفوا بأن الله تعالى شرف عيسى في هذه الآية بصفات:

الصفة الأولى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ونظيره قوله تعالى

صحة هذا التأويل قوله تعالى ﴿وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ [النساء: ١١٣].

و (الوجه السابع): ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ أي أجعلك كالمتوفي لأنه إذا رفع إلى السماء وانقطع خبره وأثره عن الأرض كان كالمتوفي، وإطلاق اسم الشيء على ما يشابهه في أكثر خواصه وصفاته جائز حسن.

(الوجه الثامن): إن التوفي هو القبض يقال: وفاني فلان دراهمي، وأوفاني وتوفيتها منه، كما يقال: سلم فلان دراهمي إلي وتسلمتها منه، وقد يكون أيضاً توفي بمعنى استوفى وعلى كلا الاحتمالين كان إخراجهم من الأرض وإصعاده إلى السماء توفياً له.

فإن قيل: فعلى هذا الوجه كان التوفي في عين الرفع إليه فيصير قوله ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ تكراراً.

قلنا: قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يدل على حصول التوفي وهو جنس تحته أنواع بعضها بالموت وبعضها بالإصعاد إلى السماء، فلما قال بعده ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ كان هذا تعييناً للنوع ولم يكن تكراراً.

(الوجه التاسع): أن يقدر فيه حذف المضاف والتقدير: متوفي عملك بمعنى مستوفي عملك ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ أي ورافع عملك إلي، وهو كقوله ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] والمراد من هذه الآية أنه تعالى بشره بقبول طاعته وأعماله، وعرفه أن ما يصل إليه من المتاعب والمشاق في تمشية دينه وإظهار شريعته من الأعداء فهو لا يضيع أجره ولا يهدم ثوابه، فهذه جملة الوجوه المذكورة على قول من يجري الآية على ظاهرها.

(الطريق الثاني): وهو قول من قال لا بد في الآية من تقديم وتأخير من غير أن يحتاج فيها إلى تقديم أو تأخير، قالوا: إن قوله ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ يقتضي إنه رفعه حياً، والواو لا تقتضي الترتيب، فلم يبق إلا أن يقول فيها تقديم وتأخير، والمعنى: أني رافعتك إلي ومطهرتك من الذين كفروا، ومتوفيك بعد إنزالي إياك في الدنيا، ومثله من التقديم والتأخير كثير في القرآن.

واعلم أن الوجوه الكثيرة التي قدمناها تغني عن التزام مخالفة الظاهر والله أعلم.

والمشبهة يتمسكون بهذه الآية في إثبات المكان لله تعالى وأنه في السماء، وقد دللنا في المواضع الكثيرة من هذا الكتاب بالدلائل القاطعة على أنه يمتنع كونه تعالى في المكان فوجب حمل اللفظ على التأويل، وهو من وجوه:

(الوجه الأول): أن المراد إلى محل كرامتي، وجعل ذلك رفعاً إليه للتفخيم والتعظيم ومثله قوله ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب إبراهيم عليه السلام من العراق إلى الشام وقد يقول السلطان: ارفعوا هذا الأمر إلى القاضي، وقد يسمى الحجاج زوار الله، ويسمى المجاورون جيران الله، والمراد من كل ذلك التفخيم والتعظيم فكذا ههنا.

(الوجه الثاني): في التأويل أن يكون قوله ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ معناه إنه يرفع إلى مكان لا يملك الحكم عليه فيه غير الله لأن في الأرض قد يتولى الخلق أنواع الأحكام فأما السموات فلا حاكم هناك في الحقيقة وفي الظاهر إلا الله.

(الوجه الثالث): إن بتقدير القول بأن الله في مكان لم يكن ارتفاع عيسى إلى ذلك سبباً لانتفاعه وفرحه بل إنما ينتفع بذلك لو وجد هناك مطلوبه من الثواب والروح والراحة والريحان، فعلى كلا القولين لا بد من حمل اللفظ على أن المراد: ورافعتك إلي محل ثوابك ومجازاتك، وإذا كان لا بد من إضمار ما ذكرناه لم يبق في الآية دلالة على إثبات المكان لله تعالى.

الصفة الثالثة: من صفات عيسى قوله تعالى ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ والمعنى مخرجك من بينهم ومفرق بينك وبينهم، وكما عظم شأنه بلفظ الرفع إليه أخبر عن معنى التخليص بلفظ التطهير وكل ذلك يدل على المبالغة في إعلاء شأنه وتعظيم منصبه عند الله تعالى.

الصفة الرابعة: قوله ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾: وجهان (الأول): أن المعنى: الذين اتبعوا دين عيسى يكونون فوق الذين كفروا به، وهم اليهود بالقهر والسلطان والاستعلاء إلى يوم القيامة، فيكون ذلك إخباراً عن ذل اليهود وإنهم يكونون مقهورين إلى يوم القيامة، فأما الذين اتبعوا المسيح عليه السلام فهم الذين كانوا يؤمنون بأنه عبد الله ورسوله وأما بعد الإسلام فهم المسلمون، وأما النصارى فهم وإن أظهرُوا من

الشرائع، وأيضاً فمدار الأمر في الأخبار المتواترة على أن يكون المخبر الأول إنما أخبر عن المحسوس، فإذا جاز وقوع الغلط في المبصرات كان سقوط خبر المتواتر أولى وبالجمله ففتح هذا الباب أوله سفسطة وآخره إبطال النبوات بالكلية.

و (الإشكال الثاني): وهو أن الله تعالى كان قد أمر جبريل عليه السلام بأن يكون معه في أكثر الأحوال، هكذا قاله المفسرون في تفسير قوله ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠] ثم إن طرف جناح واحد من أجنحة جبريل عليه السلام كان يكفي العالم من البشر فكيف لم يكف في منع أولئك اليهود عنه؟ وأيضاً أنه عليه السلام لما كان قادراً على إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، فكيف لم يقدر على إماتة أولئك اليهود الذين قصدوه بالسوء وعلى إسقامهم وإلقاء الزمانة والفلج عليهم حتى يصيروا عاجزين عن التعرض له؟.

و (الإشكال الثالث): إنه تعالى كان قادراً على تخليصه من أولئك الأعداء بأن يرفعه إلى السماء فما الفائدة في إلقاء شبهه على غيره، وهل فيه إلا إلقاء مسكين في القتل من غير فائدة إليه؟.

و (الإشكال الرابع): إنه إذا ألقى شبهه على غيره ثم إنه رفع بعد ذلك إلى السماء فالقوم اعتقدوا فيه أنه هو عيسى مع أنه ما كان عيسى، فهذا كان إلقاء لهم في الجهل والتلبس، وهذا لا يليق بحكمة الله تعالى.

و (الإشكال الخامس): إن النصارى على كثرتهم في مشارق الأرض ومغاربها وشدة محبتهم للمسيح عليه السلام، وغلوهم في أمره أخبروا أنهم شاهدوه مقتولاً مصلوباً، فلر أنكرنا ذلك كان طعناً فيما ثبت بالتواتر، والطعن في التواتر يوجب الطعن في نبوة محمد ﷺ، ونبوة عيسى، بل في وجودهما، ووجود سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وكل ذلك باطل.

و (الإشكال السادس): إنه ثبت بالتواتر أن المصلوب بقي حياً زماناً طويلاً، فلو لم يكن ذلك عيسى بل كان غيره لأظهر الجزع، ولقال: إني لست بعيسى بل إنما أنا غيره، ولبالغ في تعريف هذا المعنى، ولو ذكر ذلك لاشتهر عند

أنفسهم موافقته فهم يخالفونه أشد المخالفة من حيث أن صريح العقل يشهد أنه عليه السلام ما كان يرضى بشيء مما يقوله هؤلاء الجهال، ومع ذلك فلما نرى أن دولة النصارى في الدنيا أعظم وأقوى من أمر اليهود فلا نرى في طرف من أطراف الدنيا ملكاً يهودياً ولا بلدة مملوءة من اليهود بل يكونون أين كانوا بالذلة والمسكنة وأما النصارى فأمرهم بخلاف ذلك (الثاني) أن المراد من هذه الفوقية الفوقية بالحجة والدليل.

واعلم أن هذه الآية تدل على أن رفعه في قوله ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ﴾ هو الرفعة بالدرجة والمنقبة، لا بالمكان والجهة، كما أن الفوقية في هذه ليست بالمكان بل بالدرجة والرفعة.

أما قوله ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ فالمعنى أنه تعالى بشر عيسى عليه السلام بأنه يعطيه في الدنيا تلك الخواص الشريفة، والدرجات الرفيعة العالية، وأما في القيامة فإنه يحكم بين المؤمنين به، وبين الجاحدين برسالته، وكيفية ذلك الحكم ما ذكره في الآية التي بعد هذه الآية. وبقي من مباحث هذه الآية موضع شكل، وهو أن نص القرآن دل على أنه تعالى حين رفعه ألقى شبهه على غيره على ما قال ﴿وَمَا قُلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] والأخبار أيضاً واردة بذلك إلا أن الروايات اختلفت، فتارة يروى أن الله تعالى ألقى شبهه على بعض الأعداء الذين دلوا اليهود على مكانه حتى قتلوه وصلبوه، وتارة يروى أنه عليه السلام رغب بعض خواص أصحابه في أن يلقى شبهه حتى يقتل مكانه، وبالجمله فكيفما كان ففي إلقاء شبهه على الغير إشكالات:

(الإشكال الأول): إنا لو جوزنا إلقاء شبه إنسان على إنسان آخر لزم السفسطة، فإني إذا رأيت ولدي ثم رأيت ثانياً فحينئذ أجوز أن يكون هذا الذي رأيت ثانياً ليس بولدي بل هو إنسان ألقى شبهه عليه وحينئذ يرتفع الأمان على المحسوسات، وأيضاً فالصحابه الذين رأوا محمداً ﷺ يأمرهم وينهاهم وجب أن لا يعرفوا أنه محمد لا احتمال أنه ألقى شبهه على غيره وذلك يقضي إلى سقوط

في الدنيا والآخرة، وأما الحكم فيمن آمن وعمل الصالحات، فهو أن يوفيههم أجورهم، وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: أما عذاب الكافر في الدنيا فهو من وجهين: (أحدهما): القتل والسبي وما شاكله، حتى لو ترك الكفر لم يحسن إيقاعه به، فذلك داخل في عذاب الدنيا. (والثاني): ما يلحق الكافر من الأمراض والمصائب، وقد اختلفوا في أن ذلك هل هو عقاب أم لا؟ قال بعضهم: إنه عقاب في حق الكافر، وإذا وقع مثله للمؤمن فإنه لا يكون عقاباً بل يكون ابتلاء وامتحاناً، وقال الحسن: إن مثل هذا إذا وقع للكافر لا يكون عقاباً بل يكون أيضاً ابتلاء وامتحاناً، ويكون جارياً مجرى الحدود التي تقام على النائب، فأنها لا تكون عقاباً بل امتحاناً، والدليل عليه أنه تعالى يعد الكل بالصبر عليها والرضا بها والتسليم لها وما هذا حاله لا يكون عقاباً.

فإن قيل: فقد سلمتم في الوجه الأول إنه عذاب للكافر على كفره، وهذا على خلاف قوله تعالى ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكُوا مِنْ دَابَّهِمْ﴾ [النحل: ٦١] وكلمة «لو» تفيد انتفاء الشيء لإنتفاء غيره، فوجب أن لا توجد المؤاخاة في الدنيا، وأيضاً قال تعالى ﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [غافر: ١٧] وذلك يقتضي حصول المجازاة في ذلك اليوم، لا في الدنيا، قلنا: الآية الدالة على حصول العقاب في الدنيا خاصة، والآيات التي ذكرتموها عامة، والخاص مقدم على العام.

المسألة الثانية: لقاتل أن يقول وصف العذاب بالشدة، يقتضي أن يكون عقاب الكافر في الدنيا أشد، ولسنا نجد الأمر كذلك، فإن الأمر تارة يكون على الكفار وأخرى على المسلمين، ولا نجد بين الناس تفاوتاً.

قلنا: بل التفاوت موجود في الدنيا، لأن الآية في بيان أمر اليهود الذين كذبوا بعيسى عليه السلام، ونرى الدلة والمسكنة لازمة لهم، فزال الإشكال.

المسألة الثالثة: وصف تعالى هذا العذاب بأنه ليس لهم من ينصرهم ويدفع ذلك العذاب عنهم. فإن قيل: أليس قد يمتنع على الأئمة والمؤمنين قتل الكفار بسبب العهد وعقد الذمة.

الخلق هذا المعنى، فلما لم يوجد شيء من هذا علمنا أن ليس الأمر على ما ذكرتم، فهذا جملة ما في الموضع من السؤالات:

و (الجواب عن الأول): إن كل من أثبت القادر المختار، سلم أنه تعالى قادر على أن يخلق إنساناً آخر على صورة زيد مثلاً، ثم إن هذا التصوير لا يوجب الشك المذكور، فكذا القول فيما ذكرتم.

و (الجواب عن الثاني): إن جبريل عليه السلام لو دفع الأعداء عنه أو أقدر الله تعالى عيسى عليه السلام على دفع الأعداء عن نفسه لبلغت معجزته إلى حد الإلجاء، وذلك غير جائز.

و (هذا هو الجواب عن الإشكال الثالث) فإنه تعالى لو رفعه إلى السماء وما ألقى شبهه على الغير لبلغت تلك المعجزة إلى حد الإلجاء.

و (الجواب عن الرابع): إن تلامذة عيسى كانوا حاضرين، وكانوا عالمين بكيفية الواقعة، وهم كانوا يزيلون ذلك التلبيس.

و (الجواب عن الخامس): إن الحاضرين في ذلك الوقت كانوا قليلين ودخول الشبهة على الجمع القليل جائز والتواتر إذا انتهى في آخر الأمر إلى الجمع القليل لم يكن مفيداً للعلم.

و (الجواب عن السادس): إن بتقدير أن يكون الذي ألقى شبه عيسى عليه السلام كان مسلماً وقبل ذلك عن عيسى جائز أن يسكت عن تعريف حقيقة الحال في تلك الواقعة، وبالجملة فالأسئلة التي ذكروها أمور تتطرق الاحتمالات إليها من بعض الوجوه، ولما ثبت بالمعجز القاطع صدق محمد ﷺ في كل ما أخبر عنه امتنع صيرورة هذه الأسئلة المحتملة معارضة للنص القاطع، والله ولي الهداية.

قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَعَذَابُهُمْ عَذَابًا سَكِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر ﴿إِلَّا مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ بين بعد ذلك مفصلاً ما في ذلك الاختلاف، أما الاختلاف فهو أن كفر قوم وآمن آخرون، وأما الحكم فيمن كفر فهو أن يعذبه عذاباً شديداً

المسألة الثانية: التلاوة والقصص واحد في المعنى، فإن كلا منهما يرجع معناه إلى شيء يذكر بعضه على إثر بعض، ثم إنه تعالى أضاف التلاوة إلى نفسه في هذه الآية، وفي قوله ﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِن نَّبَأِ مُوسَى﴾ [القصص: ٣] وأضاف القصص إلى نفسه فقال ﴿تَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣] وكل ذلك يدل على أنه تعالى جعل تلاوة الملك جاريه مجرى تلاوته سبحانه وتعالى، وهذا تشریف عظيم للملك، وإنما حسن ذلك لأن تلاوة جبريل عليه السلام لما كان بأمره من غير تفاوت أصلاً أضيف ذلك إليه سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: قوله ﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه، أن ذلك من آيات القرآن ويحتمل أن يكون المراد منه أنه من العلامات الدالة على ثبوت رسالتك، لأنها أخبار لا يعلمها إلا قارئ من كتاب أو من يوحي إليه، فظاهر أنك لا تكتب ولا تقرأ، فبقي أن ذلك من الوحي.

المسألة الرابعة: ﴿وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ﴾ فيه قولان: (الأول): المراد منه القرآن وفي وصف القرآن بكونه ذكراً حكيماً وجوه: (الأول): إنه بمعنى الحاكم مثل القدير والعليم، والقرآن حاكم بمعنى أن الأحكام تستفاد منه. (والثاني): معناه ذو الحكمة في تأليفه ونظمه وكثرة علومه. (والثالث): أنه بمعنى المحكم، فعيل بمعنى مفعول، قال الأزهري: وهو شائع في اللغة، لأن حكمت يجري مجرى أحكمت في المعنى، فرد إلى الأصل، ومعنى المحكم في القرآن أنه أحكم عن تطرق وجوه الخلل إليه قال تعالى ﴿أُحْكِمْتَ آيَاتُنَا﴾ [هود: ١] (والرابع): أن يقال القرآن لكثرة حكمه إنه ينطق بالحكمة، فوصف بكونه حكيماً على هذا التأويل.

(القول الثاني): أن المراد بالذكر الحكيم ههنا غير القرآن، وهو اللوح المحفوظ الذي منه نقلت جميع الكتب المنزلة على الأنبياء عليهم السلام، أخبر أنه تعالى أنزل هذا القصص مما كتب هنالك، والله أعلم بالصواب.

قوله تعالى ﴿إِنِّ مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾.

قلنا: المانع هو العهد، ولذلك إذا زال العهد حل قتله. ثم قال تعالى ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حفص عن عاصم ﴿فَيُوَفِّيهِمْ﴾ بالياء، يعني فيوفيههم الله، والباقون بالنون حملاً على ما تقدم من قوله ﴿فَأَحْكُمُ﴾، فأعذبهم وهو الأولى لأنه نسق الكلام.

المسألة الثانية: ذكر الذين آمنوا، ثم وصفهم بأنهم عملوا الصالحات، وذلك يدل على أن العمل الصالح خارج عن مسمى الإيمان، وقد تقدم ذكر هذه الدلالة مراراً.

المسألة الثالثة: احتج من قال بأن العمل علة للجزاء بقوله ﴿فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ﴾ فشبههم في عبادتهم لأجل طلب الثواب بالمستأجر، والكلام فيه أيضاً قد تقدم والله أعلم.

المسألة الرابعة: المعتزلة احتجوا بقوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ على أنه تعالى لا يريد الكفر والمعاصي، قالوا: لأن مرید الشيء لا بد وأن يكون محباً له، إذا كان ذلك الشيء من الأفعال وإنما تخالف المحبة الإرادة إذا علقنا بالأشخاص، فقد يقال: أحب زيداً، ولا يقال: أريده، وأما إذا علقنا بالأفعال: فمعناها واحد إذا استعملتا على حقيقة اللغة، فصار قوله ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ بمنزلة قوله «لا يريد ظلم الظالمين» هكذا قرره القاضي، وعند أصحابنا أن المحبة عبارة عن إرادة إيصال الخير إليه فهو تعالى وإن أراد كفر الكافر إلا أنه لا يريد إيصال الثواب إليه، وهذه المسألة قد ذكرناها مراراً وأطواراً.

ثم قال تعالى ﴿ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من نبأ عيسى وزكريا وغيرهما، وهو مبتدأ، خبره ﴿نَتْلُوهُ﴾ و﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، ويجوز أن يكون ذلك بمعنى الذي، و﴿نَتْلُوهُ﴾ صلته، و﴿مِنَ الْآيَاتِ﴾ الخبر.

سُلِّكُوا مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٢﴾ [المؤمنون: ١٣، ١٢]. (الخامس): أنه مخلوق من طين لازب قال تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصفات: ١١]. (السادس): إنه مخلوق من صلصال قال تعالى ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن صَلْصَلٍ مِّنْ حَمَلٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]. (السابع): أنه مخلوق من عجل، قال تعالى ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِن عَلَجٍ﴾ [الأنبياء: ٣٧]. (الثامن): قال تعالى ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، أما الحكماء فقالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه: (الأول): ليكون متواضعاً. (الثاني): ليكون ستاراً. (الثالث): ليكون أشد التصاقاً بالأرض، وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض، قال تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. (الرابع): أراد إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام، وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق الملائكة من الهواء الذي هو أطف الأجرام، وأعطاهم كمال الشدة والقوة، وخلق آدم عليه السلام من التراب الذي هو أكثف الأجرام، ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، وخلق السموات من أمواج مياه البحار وأبقاها معلقة في الهواء حتى يكون خلقه هذه الأجرام برهاناً بآهراً ودليلاً ظاهراً على أنه تعالى هو المدبر بغير احتياج، والخالق بلا مزاج وعلاج. (الخامس): خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة، والغضب، والحرص، فإن هذه النيران لا تطفأ إلا بالتراب، وإنما خلقه من الماء ليكون صافياً تتجلى فيه صور الأشياء، ثم إنه تعالى مزج بين الأرض والماء ليمتزج الكثيف فيصير طيناً وهو قوله ﴿إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [ص: ٧١]، ثم إنه في المرتبة الرابعة قال ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢] والسلالة بمعنى المفعولة لأنها هي التي تسل من أطف أجزاء الطين، ثم إنه في المرتبة السادسة أثبت له من الصفات ثلاثة أنواع:

(أحدها): أنه من صلصال والصلصال: اليابس الذي إذا حرك تصلصل كالخزف الذي يسمع من داخله صوت. و (الثاني): الحمأ وهو الذي استقر في الماء مدة، وتغير

أجمع المفسرون على أن هذه الآية نزلت عند حضور وفد نجران على الرسول ﷺ، وكان من جملة شبههم أن قالوا: يا محمد، لما سلمت أنه لا أب له من البشر وجب أن يكون أبوه هو الله تعالى، فقال: إن آدم ما كان له أب ولا أم ولم يلزم أن يكون ابناً لله تعالى، فكذا القول في عيسى عليه السلام، هذا حاصل الكلام، وأيضاً إذا جاز أن يخلق الله تعالى آدم من التراب فلم لا يجوز أن يخلق عيسى من دم مريم؟ بل هذا أقرب إلى العقل، فإن تولد الحيوان من الدم الذي يجتمع في رحم الأم أقرب من تولده من التراب اليابس، هذا تلخيص الكلام.

ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: ﴿مَثَلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي صفته كصفة آدم ونظيره قوله تعالى ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ﴾ [الرعد: ٣٥] أي صفة الجنة.

المسألة الثانية: قوله تعالى ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ ليس بصلة لآدم ولا صفة ولكنه خبر مستأنف على جهة التفسير بحال آدم، قال الزجاج: هذا كما تقول في الكلام مثلك كمثل زيد، تريد أن تشبهه به في أمر من الأمور، ثم تخبر بقصة زيد فتقول فعل كذا وكذا.

المسألة الثالثة: اعلم أن العقل دل على أنه لا بد للناس من والد أول، وإلا لزم أن يكون كل ولد مسبوق بوالد لا إلى أول وهو محال، والقرآن دل على أن ذلك الوالد الأول هو آدم عليه السلام كما في هذه الآية، وقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّكُمْ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وقال ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَّكُمْ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [الأعراف: ١٨٩] ثم إنه تعالى ذكر في كيفية خلق آدم عليه السلام وجوهاً كثيرة: (أحدها): أنه مخلوق من التراب كما في هذه الآية. (والثاني): أنه مخلوق من الماء، قال الله تعالى ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُمْ سَبَاقًا وَصِيقًا﴾ [الفرقان: ٥٤] (والثالث): أنه مخلوق من الطين قال الله تعالى ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِن طِينٍ. ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُم مِّن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾ [السجدة: ٧، ٨]. و (الرابع): أنه مخلوق من سلالة من طين قال تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِن

السلام ليس عبارة عن مجرد الأجسام المشكّلة بالشكل المخصوص، بل هي عبارة عن هوية أخرى مخصصة وهي: إما المزاج المعتدل، أو النفس، وينجر الكلام من هذا البحث إلى أن النفس ما هي، ولا شك أنها من أعمض المسائل.

(الجواب): الصحيح أن يقال لما كان ذلك الهيكل بحيث سيصير آدم عن قريب سماه آدم عليه السلام قبل ذلك، تسمية لما سيقع بالواقع.

و (الجواب الثالث) أن قوله ﴿ثُمَّ قَالَ لِكُنْ فَيَكُونُ﴾ يفيد تراخي هذا الخبر عن ذلك الخبر كما في قوله تعالى ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: ١٧] ويقول القائل: أعطيت زيدا اليوم ألفاً ثم أعطيته أمس ألفين، ومراده: أعطيته اليوم ألفاً، ثم أنا أخبركم أنني أعطيته أمس ألفين فكذا قوله ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي صيره خلقاً سوياً ثم إنه يخبركم أنني إنما خلقتهم بأن قلت له «كن».

المسألة الخامسة: في الآية إشكال آخر وهو أنه كان ينبغي أن يقال: ثم قال له كن فكان فلم يقل كذلك بل قال ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

و (الجواب) تأويل الكلام، ثم قاله له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فكان.

واعلم يا محمد أن ما قال له ربك «كن» فإنه يكون لا محالة . . .

لونه إلى السواد. و (الثالث): تغير رائحته قال تعالى ﴿فَأَنظَرْنَا إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾ [البقرة: ٢٥٩] أي لم يتغير. فهذه جملة الكلام في التوفيق بين الآيات الواردة في خلق آدم عليه السلام.

المسألة الرابعة: في الآية إشكال، وهو أنه تعالى قال ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لِكُنْ فَيَكُونُ﴾ فهذا يقتضي أن يكون خلق آدم متقدماً على قول الله له «كن» وذلك غير جائز.

وأجاب عنه من وجوه: (الأول): قال أبو مسلم: قد بينا أن الخلق هو التقدير والتسوية، ويرجع معناه إلى علم الله تعالى بكيفية وقوعه وإراداته لإيقاعه على الوجه المخصوص وكل ذلك متقدم على وجود آدم عليه السلام تقديماً من الأزل إلى الأبد، وأما قوله ﴿كُنْ﴾ فهو عبارة عن إدخاله في الوجود فثبت أن خلق آدم متقدم على قوله ﴿كُنْ﴾.

و (الجواب الثاني): وهو الذي عول عليه القاضي أنه تعالى خلقه من الطين ثم قال له «كن» أي أحياه كما قال ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فإن قيل الضمير في قوله خلقه راجع إلى آدم وحين كان تراباً لم يكن آدم عليه السلام موجوداً.

أجاب القاضي وقال: بل كان موجوداً وإنما وجد بعد حياته، وليست الحياة نفس آدم وهذا ضعيف لأن آدم عليه

أبو حيان الأندلسي ج ٢ ص ٤٥٤ - ٤٧٨

الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، فقد يكون بالملك للرسول وبالإلهام كقوله: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. وبالإشارة إلى قوله: «لأوحى إلينا والأنامل رسلها». ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا﴾ [مريم: ١١] قال زهير:

أتى العجم والآفاق منه قصائد
بقيت بقاء الوحي في الحجر الصم
والوحي الكتاب قال:

فدافع الرّيان عرّى رسمها
خلقا كما ضمن الوحي سلامها
وقيل الوحي جمع وحى وأما الفعل فيقال أوحى

. . . القلم معروف وهو الذي يكتب به وجمعه أقلام، ويقع على السهم الذي يقترب به، وهو فعل بمعنى مفعول لأنه يقلم أي يبري ويسوى. وقيل: هو مشتق من القلامة وهي نبت ضعيف لترقيقه، والقلامة أيضاً ما سقط من الظفر إذا قلم وقلمت أظفاره أخذت منها وسويتها. قال زهير:

لدى أسد شاكي السلاح مقذف
له لبد أظفاره لم تقلم
وقال بعض المولدين:
يشبهه بالهلال وذاك نقص
قلامة ظفره شبه الهلال

«الكمه» العمى يولد به الإنسان وقد يعرض يقال كمه يكمه كمهاً فهو أكمه وكمهتها أنا أعميتها قال سويد: «كمهت عيناه حتى ابيضتا». وقال رؤبة: «فارتد عنها كارتداد الأكمه». «البرص» داء معروف وهو بياض يعتري الجلد يقال منه برص فهو أبرص ويسمى القمر أبرص لبياضه والوزع سام أبرص للبياض الذي يعلو جلده. ذكر الشيء يذخره خبأه والذخر المدخور قال:

لها أشارير من لحم ثمرة

من الثمالي وذخر من أرانبها
... ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾... الإحساس الإدراك ببعض الحواس الخمس وهي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس. يُقال أحسست الشيء وحسست به وتبدل سينه ياء فيقال حسيت به، أو تحذف أولى سنيه في أحسست فيقول أحسست قال:

سوى أن العتاق من المطايا

أحسن به فهن إليه شوس
وقال سيويه وما شاذ من المضاعف يعني في الحذف فشبهه بباب أقمت، وذلك قولهم أحست وأحسن يريدون أحسست وأحسنن وكذلك يفعل بكل بناء تبني لام الفعل فيه على السكون ولا تصل إليه الحركة فإذا قلت لم أحس لم تحذف. الحوارية صفوة الرجل وخاصته ومنه قيل الحضريات الحواريات لخلوص ألوانهن ونظافتهن. قال أبو جلدة الشكري:

فقل للحواريات تبكين غيرنا

ولا تبكنا إلا الكلاب النوايح
ومثله في الوزن الحوالي للكثير الحيلة وليست الياء فيهما للنسب، وهو مشتق من الحور وهو البياض حورت الثوب يبيضته. المكر الخداع والخبث وأصله الستر، يقال: مكر الليل إذا أظلم واشتقاقه من المكر وهو شجر ملتف فكان الممكور به يلتف به المكر ويشتمل عليه ويقال امرأة ممكورة إذا كانت ملتفة الخلق والمكر ضرب من النبات. تعالى تفاعل من العلو وهو فعل لاتصال

ووحى. ﴿الْمَسِيحُ﴾ عبراني معرب وأصله بالعبراني «مسيحاً» بالشين عرب بالسين كما غيرت في موسى فقيل موسى قاله أبو عبيد، وقال الزمخشري: ومعناه المبارك كقوله ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارِكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ﴾ [مريم: ٣١]، وهو من الألقاب المشرفة كالصديق والفاروق.

وقيل: المسيح عربي واختلف أهو مشتق من السياحة فيكون وزنه مفعلاً أو من المسح فيكون وزنه فعلاً وهل يكون بمعنى مفعول أو فاعل خلاف. ويتبين في التفسير لم سمي بذلك. «الكهل» الذي بلغ سن الكهولة وآخرها ستون. وقيل: خمسون، وقيل: اثنان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة. واختلف في أولها، فقيل ثلاثون، وقيل: اثنان وثلاثون، وقيل: ثلاثة وثلاثون، وقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: أربعون عاماً وهو من اكتهل النبات إذا قوى وعلا، ومنه الكاهل. وقال ابن فارس: اكتهل الرجل وخطه الشيب من قولهم «اكتهلت الروضة» إذا عمها النور، ويُقال للمرأة كهلة انتهى. ونقل عن الأئمة في ترتيب سن المولود وتنقل أحواله أنه في الرحم جنين، فإذا ولد فوليد، فإذا لم يستتم الأسبوع فصديق، وإذا دام يوضع فرضيع، وإذا فطم ففطيم، وإذا لم يرضع فجحوش، فإذا دب ونما فدارج، فإذا سقطت روضعه فثغور، فإذا نبتت بعد السقوط فثغر بالتاء والثاء، فإذا كان يجاوز العشر فترعرع وناشئ، فإذا كان يبلغ الحلم فيافع ومراهق، فإذا احتلم فحزور، وهو في جميع هذه الأحوال غلام، فإذا اخضرَّ شاربه وسال عذاره فباقل، فإذا صار ذاقناً ففتى وشارخ، فإذا كملت لحيته فمجتمع، ثم مادام بين الثلاثين والأربعين فهو شاب ثم هو كهل إلى أن يستوي في الستين هذا هو المشهور عند أهل اللغة. الطين معروف ويُقال طانه الله على كذا وطامه بإبدال النون ميماً جبلة وخلقته على كذا ومطين لقب لمحدث معروف. الهيئة الشكل والصورة وأصله مصدر يُقال هاء الشيء يهأ هياً وهيئته إذا ترتب واستقرَّ على حال ما وتعديه بالتضعيف فتقول هيأته قال ﴿وَيَهَيِّئْ لَكَ﴾ [الكهف: ١٦]. النفخ معروف. «الإبراء» إزالة العلة والمرض يُقال برىء الرجل وبرأ من المرض، وأما من الذنب ومن الدين فبرىء.

بمتوفيك فعلى بعض الأقوال، وهذه الأخبار الأربعة ترتيبها في غاية الفصاحة، بدأ أولاً بأخباره تعالى لعيسى أنه متوفيه فليس للماكرين به تسلط عليه ولا توصل إليه ثم بشره ثانياً برفعه إلى سمائه وسكنائه مع ملائكته وعبادته فيها وطول عمره في عبادة ربه، ثم ثالثاً برفعه إلى سمائه بتطهيره من الكفار فعم بذلك جميع زمانه حين رفعه، وحين ينزله في آخر الدنيا فهي بشارة عظيمة له أنه مطهر من الكفار أولاً وآخرأ. ولما كان التوقي والرفع كل منهما خاص بزمان بدى بهما، ولما كان التطهير عاماً يشمل سائر الأزمان أخر عنهما، ولما بشره بهذه البشائر الثلاث وهي أوصاف له في نفسه بشره برفعة أتباعه فوق كل كافر لتقر بذلك عينه ويسر قلبه. ولما كان هذا الوصف من اعتلاء تابعيه على الكفار من أوصاف تابعيه تأخر عن الأوصاف الثلاثة التي لنفسه إذا البداءة بالأوصاف التي للنفس أهم، ثم أتبع بهذا الوصف الرابع على سبيل التبشير يحال تابعيه في الدنيا ليكمل بذلك سروره بما أوتي وأوتي تابعه من الخير . . .

الضمائر المرفوعة به ومعناه استدعاء المدعو من مكانه إلى مكان داعيه وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعو، ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه ولبيهيمته ونحو ذلك. الابتهاال قوله بهلة الله على الكاذب والبهلة بالفتح والضم اللعنه ويُقال بهله الله لعنه وأبعده من قولك أبهله إذا أهمله وناقاة باهلة لا ضرار عليها، وأصل الابتهاال هذا ثم استعمل في كل دعاء يجتهد فيه، وإن لم يكن التعاناً. وقال لييد:

من قروم سادة من قومهم

نظر الدهر إليهم فابتهل

. . . ﴿إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ﴾ الظاهر أن إلى تتعلق بمحذوف وهو العامل في فوق وهو المفعول الثاني لجاعل إذ معنى جاعل هنا مصير فالمعنى كائنين فوقهم إلى يوم القيامة، وهذا على أن الفوقية مجاز وأما إن كانت الفوقية حقيقة وهي الفوقية بالجنة فلا تتعلق إلى بذلك المحذوف بل بما تقدّم من متوفيك، أو من رافعك، أو من مطهرك إذ يصح تعلقه بكل واحد منها أما برافعك، أو مطهرك فظاهر، وأما

ابن كثير ج ١ ص ٣٦٢-٣٦٧

مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ . . .

وهكذا وقع فإن المسيح عليه السلام لما رفعه الله إلى السماء تفرقت أصحابه شيعاً بعده فمنهم من آمن بما بعثه الله به على أنه عبد الله ورسوله وابن أمته. ومنهم من غلا فيه فجعله ابن الله، وآخرون قالوا هو الله وآخرون قالوا هو ثالث ثلاثة. وقد حكى الله مقالته في القرآن ورد على كل فريق فاستمروا على ذلك قريباً من ثلثمائة سنة ثم نبغ لهم ملك من ملوك اليونان يُقال له قسطنطين فدخل في دين النصرانية قيل حيلة ليفسده فإنه كان فيلسوفاً، وقيل جهلاً منه إلا أنه بدل لهم دين المسيح وحرفه وزاد فيه ونقص منه ووضعت له القوانين والأمانة الكبرى التي هي الخيانة الحقيرة، وأحل في زمانه لحم الخنزير، وصلوا له إلى المشرق، وصوروا له الكنائس والمعابد والصوامع، وزاد في صيامهم عشرة أيام من أجل ذنب ارتكبه فيما يزعمون

. . . يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ﴾ أي استشعر منهم التصميم على الكفر والاستمرار على الضلال قال: ﴿مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال مجاهد: أي من يتبعني إلى الله، وقال سفيان الثوري وغيره: أي من أنصاري مع الله، وقول مجاهد أقرب. والظاهر أنه أراد من أنصاري في الدعوة إلى الله كما كان النبي ﷺ يقول في مواسم الحج قبل أن يهاجر «من رجل يؤويني حتى أبلغ كلام ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي» حتى وجد الأنصار فأووه ونصروه وهاجر إليهم فواسوه ومنعوه من الأسود والأحمر رضي الله عنهم وأرضاهم. وهكذا عيسى بن مريم عليه السلام انتدب له طائفة من بني إسرائيل فآمنوا به ووازره ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه، ولهذا قال الله تعالى مخبر عنهم: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ

فتح الله لأصحابه مشارق الأرض ومغاربها واجتازوا جميع الممالك ودانت لهم جميع الدول وكسروا كسرى وقصروا قيصروا وسلبوها كنوزهما وأنفقوا في سبيل الله كما أخبرهم بذلك نبيهم عن ربهم عز وجل في قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. فلهذا لما كانوا هم المؤمنون بالمسيح حقاً سلبوا النصراني بلاد الشام والأجوههم إلى الروم فلجؤا إلى مدينتهم القسطنطينية ولا يزال الإسلام وأهله فوقهم إلى يوم القيامة. وقد أخبر الصادق المصدوق عليه السلام أنه بأن آخرهم سيفتحون القسطنطينية ويستفيثون ما فيها من الأموال، ويقتلون الروم مقتلة عظيمة جداً لم ير الناس مثلها ولا يرون بعدها نظيرها، وقد جمعت في هذا جزءاً مفرداً...

وصار دين المسيح دين قسطنطين إلا أنه بنى لهم من الكنائس والمعابد والصوامع والديارات ما يزيد على اثني عشر ألف معبد وبنى المدينة المنسوبة إليه وأتبعه طائفة الملكية منهم وهم في هذا كله قاهرون لليهود أيده الله عليهم لأنه أقرب إلى الحق منهم، وإن كان الجميع كفاراً عليهم لعائن الله، فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وآله فكان من آمن به يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله على الوجه الحق، فكانوا هم أتباع كل نبي على وجه الأرض، إذ قد صدقوا الرسول النبي الأمي العربي خاتم الرسل، وسيد ولد آدم على الإطلاق الذي دعاهم إلى التصديق بجميع الحق فكانوا أولى بكل نبي من أمته الذين يزعمون أنهم على ملته وطريقته مما قد حرفوا وبدلوا، ثم لو لم يكن شيء من ذلك لكان قد نسخ الله شريعة جميع الرسل بما بعث الله به محمداً صلى الله عليه وآله من الدين الحق الذي لا يغير ولا يبدل إلى قيام الساعة ولا يزال قائماً منصوراً ظاهراً على كل دين، فلهذا

الألوسي ج ٣ ص ١٥٤ - ١٨٧

أفضلية غيرها عليها من بعض الجهات وبحيثية من الحيات - وبه يجمع بين الآثار - وهذا سائغ على القول بنبوّة مريم أيضاً إذ البضعية من روح الوجود وسيد كل موجود لا أراها تقابل بشيء. وأين الثريا من يد المتناول. ومن هنا يعلم أفضليتها على عائشة رضي الله تعالى عنها الذهاب إلى خلافتها الكثير محتجين بقوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «خذوا ثلثي دينكم عن الحميراء» وقوله عليه الصلاة والسلام: «فُضِّلَ عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام»، وبأن عائشة يوم القيامة في الجنة مع زوجها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، وفاطمة يومئذ فيها مع زوجها علي كرم الله تعالى وجهه، وفرق عظيم بين مقام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ومقام علي كرم الله تعالى وجهه.

وأنت تعلم ما في هذا الاستدلال وأنه ليس بنص على أفضلية الحميراء على الزهراء، أما أولاً فلأن قصارى ما في الحديث الأول على تقدير ثبوته إثبات أنها عالمة إلى حيث يؤخذ منها ثلثا الدين، وهذا لا يدل على نفي العلم

... وبما أخرجه ابن جرير عن فاطمة صلى الله تعالى على أبيها وعليها وسلم أنها قالت: «قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول».

وقيل: المراد نساء عالمها فلا يلزم منه أفضليتها على فاطمة رضي الله تعالى عنها، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر من طريق مقاتل عن الضحّاك عن ابن عباس عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال: «أربع نسوة سادات عالمهن: مريم بنت عمران. وآسية بنت مزاحم. وخديجة بنت خويلد. وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله»، وأفضلهن عالماً فاطمة. وما رواه الحرث بن أسامة في مسنده بسند صحيح لكنه مرسل «مريم خير نساء عالمها»، وإلى هذا ذهب أبو جعفر رضي الله تعالى عنه وهو المشهور عن أئمة أهل البيت - والذي أميل إليه - أن فاطمة البتول أفضل النساء المتقدمات والمتأخرات من حيث أنها بضعة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بل ومن حيثيات أخر أيضاً، ولا يعكر على ذلك الأخبار السابقة لجواز أن يراد بها

رب ليس كمقام صاحب المقام المحمود صلى الله تعالى عليه وسلم فلو كانت الشركة في المنزل مستدعية للأفضلية لزم ذلك قطعاً ولا قائل به .

وبعد هذا كله الذي يدور في خلدي أن أفضل النساء فاطمة . ثم أمها . ثم عائشة بل لو قال قائل إن سائر بنات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من عائشة لا أرى عليه بأساً ، وعندى بين مريم وفاطمة توقف نظراً للأفضلية المطلقة ، وأما بالنظر إلى الحيثية فقد علمت ما أميل إليه ، وقد سئل الإمام السبكي عن هذه المسألة فقال: الذي نختاره وندين الله تعالى به أن فاطمة بنت محمد صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل . ثم أمها . ثم عائشة - ووافقه في ذلك البلقيني - وقد صحح ابن العماد أن خديجة أيضاً أفضل من عائشة لما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام قال لعائشة حين قالت: قد رزقك الله تعالى خيراً منها، فقال لها: لا والله ما رزقني الله تعالى خيراً منها أمنت بي حين كذبني الناس وأعطتني مالها حين حرمني الناس؛ وأيد هذا بأن عائشة أقرأها السلام النبي صلى الله تعالى عليه وسلم من جبريل، وخديجة أقرأها السلام جبريل من ربها، وبعضهم لما رأى تعارض الأدلة في هذه المسألة توقف فيها - وإلى التوقف مال القاضي أبو جعفر الاستروشنى منا - وذهب ابن جماعة إلى أنه المذهب الأسلم .

وأشكل ما في هذا الباب حديث الثريد ولعل كثرة الأخبار الناطقة بخلافه تهون تأويله، وتأويل واحد لكثير أهون من تأويل كثير لواحد، والله تعالى هو الهادي إلى سواء السبيل . . .

المماثل لعلمها عن بضعته عليه الصلاة والسلام، ولعلمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنها لا تبقى بعده زمناً معتداً به يمكن أخذ الدين منها فيه لم يقل فيها ذلك، ولو علم لربما قال: خذوا كل دينكم عن الزهراء، وعدم هذا القول في حق من دل العقل والنقل على علمه لا يدل على مفضوليته وإلا لكانت عائشة أفضل من أبيها رضي الله تعالى عنه لأنه لم يرو عنه في الدين إلا قليل لقلة لبثه وكثرة غائلته بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على أن قوله عليه الصلاة والسلام: «إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله تعالى وعترتي لا يفترقان حتى يردا على الحوض» يقوم مقام ذلك الخبر وزيادة - كما لا يخفى - كيف لا وفاطمة رضي الله تعالى عنها سيدة تلك العترة؟!

وأما ثانياً فلأن الحديث الثاني معارض بما يدل على أفضلية غيرها رضي الله تعالى عنها عليها، فقد أخرج ابن جرير عن عمار بن سعد أنه قال: «قال لي رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم: فضلت خديجة على نساء أمتي كما فضلت مريم على نساء العالمين» بل هذا الحديث أظهر في الأفضلية، وأكمل في المدح عند من انجاب عن عين بصيرته عين التعصب والتعسف لأن ذلك الخبر وإن كان ظاهراً في الأفضلية لكنه قيل ولو على بعد: إن - أل - في النساء فيه للمعهد؛ والمراد بها الأزواج الطاهرات الموجودات حين الأخبار ولم يقل مثل ذلك في هذا الحديث .

وأما ثالثاً فلأن الدليل الثالث يستدعي أن يكون سائر زوجات النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أفضل من سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام لأن مقامهم بلا

القاسمي ج ٤ ص ٩٦ - ١١١

كم يفضل الخروف؟ فإذاً يحل فعل الخير في السبوت، ثم أبرأ ذلك المريض - كذا في الأصحاح الثاني عشر - من الفقرة التاسعة إلى الثالثة عشرة من إنجيل متى - وفيه في الأصحاح الخامس الفقرة السابعة عشرة قول المسيح عليه السلام: لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء، ما جئت لأنقض بل لأكمل - انتهى - وقد اتفقوا على أن المسيح عليه السلام أقام شرائع التوراة كلها، ثم جاء

... ﴿وَلَا جِدْلَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ... أقول: من البعض الذي أحله عيسى عليه السلام فعل الخير في السبوت، وقد كانوا يعتقدون تحريم مطلق عمل يوم السبت، ولذا لما اجتاز عليه السلام بالإسرائيليين مرة أبصر مريضاً فسأله: هل يحل أن يشفى في السبت؟ قال لهم عليه السلام: أي إنسان منكم يكون له خروف، فيسقط في حفرة يوم السبت ولا يمسكه ويرفعه؟ والإنسان

فسلبهم بخداعه، دين المسيح الصحيح، فلم يسمعو له بعد من خبر، ولا وقفوا له على أثر، وطمس لهم رسوم التوراة، وحلل لهم كل محرم، كما بين ذلك في غير هذا الموضع.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾

﴿وَمَكْرُوا﴾ أي الذين أحس عيسى عليه السلام منهم الكفر بأن هموا بالفتك به وإرادته بالسوء، حيث تمالؤوا عليه ووشوا به إلى ملكهم ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي بهم بعد ذلك فانتقم منهم وأورثهم ذلة مستمرة وأباد ملكهم ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِينَ﴾ أي أفواهم مكرًا، وأنفذهم كيدًا، وأقدرهم على إيصال الضرر من حيث لا يحتسب. وقال البقاعي كغيره في قوله تعالى ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾: أي بأن رفعه إليه. وشبه ذلك عليهم حتى ظنوا أنهم صلبوه، وإنما صلبوا أحدهم، ويقال إنه الذي دلهم، وأما هو عليه السلام، فصانه عنده بعد رفعه إلى محل أوليائه وموطن قدسه، لينزله في آخر الزمان لاستئصالهم بعد أن ضربت عليهم الذلة بعد قصدهم له بالأذى الذي طلبوا به العز إلى آخر الدهر، فكان تدميرهم في تدبيرهم، ثم أخبر تعالى ببشارته بالعصمة من مكروهم بقوله:

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي مستوفي مدة إقامتك بين قومك. والتوفي، كما يطلق على الإماتة، كذلك يطلق على استيفاء الشيء. كما في كتب اللغة. ولو ادعى أن التوفي حقيقة في الأول، والأصل في الإطلاق الحقيقة فنقول: لا مانع من تشبيه سلب تصرفه عليه السلام باتباعه وانتهاء مدته المقطرة بينهم بسبب الحياة. وهذا الوجه ظاهر جدًا، وله نظائر في الكتاب العزيز، قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. قال الزمخشري: يريد ويتوفى الأنفس التي لم تمت في منامها، أي يتوفاها حين تنام تشبيهًا للنائمين بالموتى. ومنه قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، حيث لا يميزون ولا يتصرفون، كما أن الموتى كذلك - انتهى كلامه - ثم بين

بولس ومن بعده من الرهبان فادعوا أن المسيح عليه السلام فعل ذلك كله ورفع عنهم، إذ أكمله وأتمه بفعله إياه. وكفاهم مؤونة العمل بشيء منه، وأغناهم بشريعته الروحانية، فنقضوا الناموس الذي جاء لإكماله المسيح. فما نقضوه إباحة كثير من الحيوانات المحرمة في الناموس الموسوي، فنسخت حرمتها في الشريعة العيسوية، وثبتت الإباحة العامة بفتوى بولس، إذ قال لهم: لا شيء نجس العين. كما في رسالته إلى أهل رومية. ومما نقضوه تعظيم السبت، فقد كان حكمًا أبدياً في الشريعة الموسوية، وما كان لأحد أن يعمل فيه أدنى عمل، وكان من عمل فيه عملاً واجب القتل. ومنه أحكام الأعياد المشروعة في التوراة، ومنه حكم الختان الذي كان أبدياً في شريعة إبراهيم عليه السلام وأولاده إلى شريعة موسى، وقد ختن عيسى عليه السلام، فنسخ حكمه الرهبان بعده، كما نسخوا جميع الأحكام العملية للتوراة، إلا الزنى، كما بين في (إظهار الحق)، في الباب الثالث في إثبات النسخ. وقد أسلفنا جملة جلية في هذا الشأن في سورة البقرة عند قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ [البقرة: ١٣٥] فانظرها. ﴿وَجَنَّتُكُمْ بِتَابَةِ رَبِّكُمْ﴾ كرره تأكيداً وليبني عليه قوله: ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ وَاطِيعُونَ﴾.

جاء في إنجيل متى في الأصحاح العاشر ما يأتي:

(١) ثم دعا تلاميذه الاثني عشر وأعطاهم سلطاناً على أرواح نجسة حتى يخرجوا ويشفوا كل مرض وكل ضعف.

(٢) وأما أسماء الأثنى عشر رسولاً فهي هذه. الأول سِمْعَانُ الذي يقال له بُطْرُسُ وأندراؤس أخوه. يعقوب بن زَبْدِي وَيُوحَنَّا أخوه.

(٣) فِيلِيبُّسُ وَبَرْثُولَمَآؤُسُ. ثُومَا وَمَتَّى الْعَشَّارُ. يعقوب بن حَلْفَى وَلَبَّآؤُسُ الْمَلَقَبُ تَدَّآؤُسُ.

(٤) سِمْعَانُ الْقَانَوِيُّ ويهوذا الإسخريوطي الذي أسلمه.

وكانوا يسمون رسل عيسى عليه السلام. لأنه بعثهم إلى الإسرائيليين الضالين يدعونهم إلى الحق الذي جاء به، فبدلوا الجهد في بثه وانتشاره وإقامته، إلى أن جاء بولس

يعدموا فلا يبقى منهم أحد ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ
بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

تنبيه:

في قوله: ﴿إِلَيَّ مُتَوَفِّيكَ﴾. وجوه في التأويل كثيرة، إلا أن الذي فتح المولى به مما أسلفناه هو أرجح التأويلات والله أعلم، وبه يسقط زعم النصارى أن هذه الآية حجة علينا، لإفادتها وفاته عليه السلام، أي بالصلب، ثم رفعه إلى السماء أعني قيامه حياً بعد وفاته على زعمهم من أنه مات بجسده، وأقام على الصليب إلى وقت الغروب من يوم الجمعة، ثم أنزل ودفن في أول ساعة من ليلة السبت، وأقام في القبر إلى صبيحة الأحد، ثم انبعث حياً وترأى للنسوة اللاتي جئن إلى قبره زائرات. وقد استندوا في هذا الزعم إلى شهادة أناجيلهم الأربع، وشهادة تلاميذه الشفاهية في العالم، ثم أتباعهم وكذا شهادة اليهود بوقوع الصلب على المسيح ذاتياً. ووجه سقوط زعمهم الفاسد المذكور ما بيناه في معنى الآية مما لا يبقى معه أدنى ارتياب. وقد بين علماؤنا بطلان معتقدهم هذا في تأليف وتحارير فأنظره في (حواشي تحفة الأريب في الرد على أهل الصليب) تأليف الشيخ عبد الله بك . . .

قال الرازي: الحكماء قالوا: إنما خلق آدم عليه السلام من تراب لوجوه:

الأول - ليكون متواضعاً، الثاني - ليكون ستاراً، الثالث - ليكون أشد التصاقاً بالأرض. وذلك لأنه إنما خلق لخلافة أهل الأرض. قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]، الرابع - أراد الحق إظهار القدرة فخلق الشياطين من النار التي هي أضوأ الأجرام وابتلاهم بظلمات الضلالة، وخلق آدم من التراب الذي هو أكثف الأجرام ثم أعطاه المحبة والمعرفة والنور والهداية، الخامس - خلق الإنسان من تراب ليكون مطفئاً لنار الشهوة والغضب - انتهى ملخصاً.

محمد عبده ج ٣ ص ٢٩٩ - ٣٢١

وشهود ما جرى منهم. ولا بد لهذه العناية من نقطة وقد قالوا في بيانها: إن كونه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم ولم يروها سماعاً عن أحد معلوم عند منكري نبوته فلم يبق له طريق

سبحانه في بشارته بالرفعة إلى محل كرامته وموطن ملائكته ومعدن النزاهة عن الأدناس فقال: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي من مكرهم وخبت صحبتهم؛ وقد دلت هذه الآية بظاهرها على أن الله تعالى فوق سمواته كقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿يُذِيرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ [السجدة: ٥]. وقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ [الملك: ١٦]. وهو مذهب السلف قاطبة كما نقله الإمام الذهبي في كتاب (العلو). قال أبو الوليد بن رشد في (مناهج الأدلة): لم يزل أهل الشريعة من أول الأمر يشتون لله سبحانه وتعالى جهة (الفوق) حتى نفتها المعتزلة، ثم تبعهم على نفياها متأخرو الأشاعرة كأبي المعالي ومن اقتدى بقوله - إلى أن قال: والشرائع كلها مبنية على أن الله في السماء، وأن منه تنزل الملائكة بالوحي إلى النبيين، وأن من السموات نزلت الكتب وإليها كان الإسراء بالنبي ﷺ. وجميع الحكماء قد اتفقوا على أن الله والملائكة في السماء، كما اتفقت جميع الشرائع على ذلك بالمعقول. وبين بطلان الشبهة التي لأجلها نفتها الجهمية ومن وافقهم - إلى أن قال: فقد ظهر لك من هذا أن إثبات الجهة واجب بالشرع والعقل. وأن إبطاله يبطل الشرائع. قال الدرامي: وقد اتفقت الكلمة من المسلمين إلى أن الله فوق عرشه فوق سمواته. وقد بسط نصوص السلف الحافظ الذهبي في كتاب (العلو) فأنظره، هذا، ولما كان لذوي الهمم العوال، أشد التفات إلى ما يكون عليه خلفاؤهم من بعدهم من الأحوال، بشره تعالى في ذلك بما بشره فقال: ﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ وكذا كان لم يزل من انتحل النصرانية فوق اليهود، ولا يزالون كذلك إلى أن

قال الأستاذ الإمام: أعقب هذه القصة بهذه الآية الناطقة بأنها من أبناء الغيب وآخر خبر اللقاء الأقلام لكفالة مريم وذكره في سياق نفى حضور النبي ﷺ مجلس القوم

أما المجاهدون من أهل الكتاب لاسيما دعاة النصرانية في هذا الزمان فهم يقولون فيما وافق القرآن به كتبهم أنه مأخوذ منها بدليل موافقته لها وفيما خالفها أنه غير صحيح بدليل أنه خالفها وفيما لم يوافقها ولم يخالفها به أنه غير صحيح لأنه لم يوجد عندنا وهذا منتهى ما يكابر به مناظر مناظراً وأبطل ما يرد به خصم على خصم. ويقول المسلمون إننا نحتج على أن ما جاء به القرآن هو الحق بما قام من الأدلة على نبوة النبي ﷺ مع حفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ومن تلك الدلائل التي يشتمل عليها القرآن معرفة قصص الأنبياء مع كونه أمياً لم يتعلم شيئاً كما تقدم فهي دليل على صحة نفسها وما جاء فيها مخالفاً لما في الكتب السابقة نعه مصححاً لما وقع فيها من الغلط والنسيان بانقطاع أسانيدنا حتى إن أعظمها وأشهرها كالأسفار المنسوبة إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ولا زمن كتابتها ولا اللغة التي كتبت بها أولاً. وقد تقدم الإلماع إلى ذلك من قبل.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ شروع في خبر عيسى نفسه بعد قصة أمه وقصة زكريا عليهم السلام وهو بدل من قوله: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ﴾ وما بينهما اعتراض ناطق بحكمة نزول الآيات مبين وجه دلالتها على صدق من أنزلت عليه. والمعنى أن الملائكة بشرت مريم بالولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها وتطهيره لها وأمرتها بمزيد عبادته والاستغراق في شكره. والمراد بالملائكة هنا الروح جبريل لقوله تعالى في سورة مريم ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] إلى آخر الآيات وذكر بلفظ الجمع لما تقدم قصة زكريا أو لأنه كان معه غيره. وفي لفظ (كلمة) أربعة وجوه: (أحدها): أن المراد بالكلمة كلمة التكوين لا كلمة الوحي. ذلك أنه لما كان أمر الخلق والتكوين وكيفية صدوره عن الباري عز وجل مما يعلو عقول البشر عبر عنه سبحانه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَكُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فكلمة «كن» هي كلمة التكوين وسيأتي تفسيرها وههنا يقال أن كل شيء قد خلق

للعلم بها إلا مشاهدتها فنفاها تهكماً بهم وبذلك تعين أنه لم يبق له طريق لمعرفة إلا وحي الله تعالى إليه بها. وهذا الجواب منقوص وإن اتفق عليه من نعرف من المفسرين وذلك أن القرآن نطق بأنهم قالوا ﴿إِنَّمَا يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ﴿وَقَالُوا أَأُتِىَ الْأَوَّلِينَ أَكُتِّبَهَا﴾ [الفرقان: ٥] قال: والصواب أن النقطة في النص على نفى حضور النبي القوم إذ يلقون أقلامهم أي بعد النص على كون القصة من أنباء الغيب هي أن هذه المسألة لم تكن معلومة عند أهل الكتاب فيكون للمنكرين شبهة على أنه أخذها عنهم. أقول: ويرد على هذا قوله تعالى في آخر قصة يوسف ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ [يوسف: ١٠٢] وإذا كان بعض المجاهدين قد ادعوا أنه يعلمه بشر فهذه الدعوة قدرها القرآن بقوله ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣] ورد أنهم قالوا هذا إذ رآه يقف على قين (حداد) رومي بمكة وذلك القين لم يكن يحسن العربية، وأنى للقين بمثل هذا العلم؟ عرف العربية أم لم يعرفها. فالقرآن لا يعتد بتلك الشبهة إذ الأمي الناشئ بين الأميين لا يمكن أن يتلقى أخبار الأولين من حداد ولا من عالم كحبر أو راهب بمجرد وقوفه عليه أو اجتماعه به ولو أمكن ذلك عادة أو عقلاً لما كان لعاقل أن يثق بحفظ ذلك القين أو غير القين وبأمانته في النقل ولا يختلف أحد من المنكرين لنبوته ﷺ في كمال عقله وسمو إدراكه وفطنته. ولا شك في أن إتيانه في هذه القصص بما لا يعرفه أهل الكتاب مما يؤكد دفع تلك الشبهة الواهية ويدعم ذلك الأصل الراسخ وهو كونه ﷺ أمياً نشأ بين أميين لا علم لهم بأخبار الأنبياء مع أمهم كما قال في سورة هود بعد ذكر قصة نوح عليه السلام ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] وقد سمع كفار قريش هذه الآية وسائر سورتها ولم يقل أحد منهم بل كنا نعلمها. ومثل هذا قوله بعد ذكر قصة موسى وشعيب في سورة القصص ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤] إلى آخر الآيات الثلاث.

الإمام معنى صدق لفظ المسيح على عيسى عليه السلام بحسب عرفهم فقال: إن الناس إنما يولون الملك عليهم لأجل تقرير العدل فيهم ورفع أثقال الظلم عنهم، وقد فعل المسيح ذلك، فإن اليهود كانوا عند بعثته فيهم متمسكين بظواهر ألفاظ الكتاب وخاضعين لأفهام الكتبة أو الفريسيين وأوامهم حتى أرهقهم ذلك عسراً وتركهم يثنون من الظلم وأثقال التكليف. فرفع المسيح ذلك عنهم بإرجاعهم إلى مقاصد الدين وحملهم على الأخوة الرفعة للظلم. أقول: وقد نقلوا عنه ما يفيد هذا المعنى وهو أن مملكته روحانية لا جسدية. وقد لاح لي عند الكتابة أن قوله تعالى ﴿أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عَيْسَى﴾ يراد به أن لفظ المسيح هنا أجري مجرى العلم لا مجرى الوصف والعلم المشتق لا يشترط فيه أن يكون مسماه متصفاً بالمعنى الذي يدل عليه إذا استعمل وصفاً. فإذا وضعت لفظ «على» علماً على رجل يصير مدلوله شخص ذلك الرجل سواء كان ذا علو أم لا وإذا سميت ابتك «ملكة» لم يكن لأحد أن يفسر اللفظ بالمعنى الذي وضع له اللفظ قبل العلمية. وقد يجوز أن يلمح المعنى الذي ينقل لفظه إلى العلمية أحياناً. وقد ذكر المفسرون بضعة وجوه لتفسير لفظ المسيح بناء على أنه مشتق من المسح ولا حاجة إلى ذكر شيء منها. . . .

وقوله تعالى في وصفه ﴿وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ معناه أنه يكون ذا وجهة وكرامة في الدارين فالوجيه ذو الجاه والوجهية. والمادة مأخوذة من الوجه حتى قالوا إن لفظ الجاه أصله وجه، فنقلت الواو إلى موضع العين، فقلبت ألفاً ثم اشتقوا منه، فقالوا جاه فلان يجوه، كما قالوا وجه يوجه، وذو الجاه يسمى وجهاً كما يسمى وجهياً ويُقال إن لفلاً وجهاً عند السلطان كما يقال إن له جاهاً ووجهية وكان الأصل في الوجيه من يعظم ويحترم عند المواجهة لما له من المكانة في النفوس. وقال الإمام الغزالي: الجاه ملك القلوب. قال الأستاذ الإمام: إن كون المسيح ذا جاه ومكانة في الآخرة ظاهر. وأما جباهته في الدنيا فهي قد تكون موضع إشكال لما عرف من امتهان اليهود له ومطاردتهم إياه على فقره وضعف عصييته. والجواب عن

بكلمة التكوين فلماذا خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وأجيب عن ذلك بأن الأشياء تنسب في العادة والعرف العام في البشر إلى أسبابها ولما فقد في تكوين المسيح وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البيوض التي يتكون منها الجنين أضيف هذا التكوين إلى كلمة الله وأطلقت الكلمة على المكون إيداناً بذلك أو جعل كأنه نفس الكلمة مبالغة. وهذا هو الوجه المشهور.

(الوجه الثاني): أنه أطلق على المسيح للإشارة إلى بشارته الأنبياء به فهو قد عرف بكلمة الله أي بوحية لأنبيائه. قاله الأستاذ الإمام والكلمة تطلق على الكلام كقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِإِبْرَاهِيمَ﴾ [الصافات: ١٧١] إلخ.

(الوجه الثالث): أنه أطلق عليه لفظ الكلمة لمزيد إيضاحه لكلام الله الذي حرفه قومه اليهود حتى أخرجه عن وجهه، وجعلوا الدين مادياً محضاً قاله الرازي وجعله من قبيل وصف الناس للسلطان العادل بظل الله ونور الله لما أنه سبب لظهور ظل العدل ونور الإحسان، قال فكذلك كان عيسى سبباً لظهور كلام الله عز وجل بسبب كثرة بياناته له وإزالة الشبهات والتحريفات عنه.

(الوجه الرابع): أن المراد بالكلمة كلمة البشارة لأمه فقلوبه بكلمة منه معناه بخبر من عنده أو بشارته، وهو كقول القائل ألقى إلى فلان كلمة سرني بها بمعنى أخبرني خبراً فرحت به، قاله ابن جرير واستشهد له بقوله ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ يعني بشرى الله مريم بعيسى ألقاها إليها قال فتأويل القول وما كنت يا محمد عند القوم إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك ببشرى من عنده هي ولد لك اسمه المسيح عيسى ابن مريم ثم قال مستدلاً على هذا ما نصه: ولذلك قال عز وجل اسمه المسيح فذكر ولم يقل اسمها فيؤنث والكلمة مؤنثة لأن الكلمة غير مقصود بها قصد الاسم الذي هو بمعنى فلان وإنما هي بمعنى البشارة، فذكرت كنايةها كما تذكر كناية الذرية والدابة والألقاب إلخ ما أطال به في المسألة من جهة العربية. . . .

ولا يزال سائر اليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها، وأنه لا بد أن يظهر فيهم ملك. وقد بين الأستاذ

زوج في الظاهر فكان بالأمر المبتدأ بمحض القدرة أشبه، والتعبير عنه بالخلق أليق، وإن كان له سبب روحاني جعل أمه بمعنى الزوج كما سيأتي ولكن هذا السبب غير معهود للناس ولا معروف لهم فمريم لا تعرفه. ولكنها كانت مؤمنة بالله موقنة بقدرته على كل شيء ولذلك أحالها في البشارة على مشيئته لتكون موقنة فقال: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرُكَ﴾ أي إذا أراد شيئاً، كما عبر في آية أخرى. فالقضاء بمعنى الإرادة ﴿فَلَنَمَّا يَقُولُ لَكُمُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ قالوا إن هذا ورد مورد التمثيل لكمال قدرته ونفوذ مشيئته والتصوير لسرعة حصول ما يريد بغير ريث ولا تأخر، بتشبيه حدوث ما يريده عند تعلق إرادته به حالاً بطاعة المأمور القادر على العمل للأمر المطاع. ويسمون الأمر بكن أمر التكوين. ومنه قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَسْتَوِيهِ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [فصلت: ١١] أي أراد أن يكونا فكانتا. ويقابله أمر التكليف الذي يعرف بوحي الله لأتباعه. وقد مر الإلماع لهذا من قبل.

وأقول: أعلم أن الكافرين بآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب جموداً على العادات؛ وذوولاً عن كيفية ابتداء خلق جميع المخلوقات، ولو كان لهم دليل عقلي على استحالة ذلك لكانوا معذورين ولكن لا دليل لهم إلا أن هذا غير معتاد، وهم في كل يوم يرون من شؤون الكون ما لم يكن معتاداً من قبل فممنه ما يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بالاكشاف والاختراع ومنه ما لا يعرفون له سبباً ويعبرون عنه بفلتات الطبيعة. ونحن معاشرون المؤمنين نقول إن تلك الأشياء المعبر عنها بفلتات، إما أن يكون لها سبب خفي وحينئذ يجب أن تهدي هؤلاء الجامدين إلى أن بعض الأشياء يجوز أن يأتي من غير طريق الأسباب المعروفة فلا ينكروا كل ما يخالفها لاحتمال أن يكون له سبب خفي لم يقفوا عليه. ولا ينزل أمر عيسى في الحمل به من غير واسطة أب عن ذلك. وإما أن تكون قد وجدت في الواقع ونفس الأمر خارقة لنظام الأسباب، وحينئذ يجب أن يعترفوا بأن الأسباب الظاهرة المعروفة ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً وإذا كان الأمر

ذلك سهل وهو أن الوجيه في الحقيقة من كانت له مكانة في القلوب. واحترام ثابت في النفوس، ولا يكون أحد كذلك حتى يكون له أثر حقيقي ثابت من شأنه أن يدوم بعده زمناً طويلاً أو غير طويل. ولا ينكر أحد أن منزلة المسيح في نفوس المؤمنين به كانت عظيمة جداً وأن ما جاء به من الإصلاح هو من الحق الثابت. وقد بقي أثره بعده. فهذه الوجاهة أعلى وأرفع من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون في الظواهر لظلمهم وافتقارهم أو لدهانهم ولتزلزلهم إليهم، رجاء الانتفاع بشيء مما في أيديهم من عرض الحياة الدنيا لأن هذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغض والانتقاص وتلك وجاهة حقيقية مستحوذة على القلوب. وحقيقة الوجاهة في الآخرة: هي أن يكون الوجيه في مكان علي ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها فيجلونه ويعلمون أنه مقرب من الله تعالى، ولا يمكننا أن نحدد ما ونعرف بماذا تكون. قال قائل في الدرس: إن هذه الوجاهة تكون بالشفاعة. فقال الأستاذ الإمام: إن الآية لم تبين ذلك، على أنكم تقولون إن هذه الشفاعة عامة لكل نبي وعالم وصالح فيما هي مزية المسيح إذن؟ ولما كانت الوجاهة متعلقة بالناس وما يعود من مطارح أنظارهم على شعور قلوبهم وخطرات أفكارهم قال تعالى فيه ﴿وَمِنَ الْمُفَرِّقِينَ﴾ أي هو مع ذلك من عباد الله المقربين إليه عز وجل. فما ينعكس عن أنظار الناظرين إليه هناك إلى مرايا قلوبهم حقيقي في نفسه...

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي كمثل هذا الخلق البديع يخلق الله ما يشاء، فإن من شأنه الاختراع والإبداع، أقول: وعبر هنا بالخلق وفي بشارة زكريا يحيى بالفعل وكل منهما خلق وفعل لكن لفظ الفعل يستعمل كثيراً فيما يجري على قانون الأسباب المعروفة. ولفظ الخلق يستعمل في الإبداع والإيجاد ولو بغير ما يعرف من الأسباب. فيقال: خلق السموات والأرض ولا يقال فعل السموات والأرض، ولما كان إبداع يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس عبر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا أن هذين الزوجين لا يولد لمثلها عادة وأما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود في التوالد لأنه من أم غير

من النمو أو يكون النمو منه . فلولوا الهواء لما عاشت هذه الأحياء ، والهواء روح . ولذلك كان من أسمائه إذا تحرك الريح ، أصلها روح بكسر الراء ولأجل الكسر قلبت الواو ياء لتناسبه . والماء الذي منه كل شيء حي مركب من روحين لطيفين وهو يكاد يكون في حال التركيب وسطاً بين الكثيف واللطيف ، ولكنه أقرب إلى الثاني . والكهربائية من الأرواح وناهيك بفعلها في الأشباح . فهذه الموجودات اللطيفة التي سمينها أرواحاً هي التي تحدث معظم التغير الذي نشاهده في الكون ، حتى أننا قد رأينا في هذا العصر من أسرارها ما لم يكن يخطر على بال أحد من قدماء فلاسفتنا ، ويعتقد علماؤنا اليوم أن ما سيظهر منها في المستقبل أجل وأعظم . فإذا كان الأمر كذلك في الأرواح التي لا دليل عندنا على أنها تدرك وتريد ، فلم لا يجوز أن يكون تأثير الأرواح العاقلة المريدة أعظم !! .

إذا تمهد هذا فنقول : إن الله المسخر للأرواح المنبثة في الكائنات وقد أرسل روحاً من عنده إلى مريم فتمثل لها بشراً ونفخ فيها ، فأحدثت نفخته التلقيح في رحمها ، فحملت بعيسى عليه السلام . وهل حملت إليها تلك النفخة مادة أم لا ؟ الله أعلم . أما البحث في تمثيل هذه الأرواح التي تسمى بلسان الشرع الملائكة فسيأتي الكلام عليه في تفسير قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٧] إذا أنسا الله لنا في الأجل ووقفنا للمضي في هذا العمل (التفسير) والأستاذ الإمام لم يتعرض لهذا البحث .

﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ قرأ نافع وعاصم (ويعلمه) بالياء والباقون (ونعلمه) بالنون . (والكتابة هنا بالخط والحكمة) العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع ويقف بالعامل على الصراط المستقيم لما فيه من البصيرة وفقه الأحكام وأسرار المسائل . والتوراة كتاب موسى فقد كان المسيح عالماً به يبين أسرار لقومه ، ويقيم عليهم الحجج بنصوصه والإنجيل هو ما أوحى إليه نفسه . وقد تقدم في تفسير أول السورة الكلام فيهما . والكلام معطوف على قوله ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ ﴾ وآية ﴿ قَالَتْ رَبِّ ﴾ معترضة بينهما

كذلك امتنع على العاقل أن ينكر شيئاً ما ويعدده مستحيلاً لأنه لا يعرف له سبباً . ولعل أبناء العصور السابقة كانوا أقرب إلى أن يعذروا بإنكار غير المألوف من أبناء هذا العصر الذي ظهر فيه من أعمال الناس ما لو حدث به عقلاء الغابرين . لعدوه من خرافات الدجالين ؛ ونحن نرى علماء الغرب وفلاسفته متفقين على إمكان التولد الذاتي ، أي تولد الحيوان من غير حيوان أو من الجماد وهم يبحثون ويحاولون أن يصلوا إلى ذلك بتجاربيهم . وإذا كان تولد الحيوان من الجماد جائزاً فتولد الحيوان من حيوان واحد أولى بالجواز وأقرب إلى الحصول . نعم إنه خلاف الأصل وأن كونه جائزاً لا يقتضي وقوعه بالفعل . ونحن نستدل على وقوعه بالفعل بخبر الوحي الذي قام الدليل على صدقه .

ويمكن تقريب هذه الآية الإلهية من السنن المعروفة في نظام الكائنات بوجهين : (أحدهما) : أن الاعتقاد القوي الذي يستولي على القلب ، ويستحوذ على المجموع العصبي يحدث في عالم المادة من الآثار ما يكون على خلاف المعتاد . فكم من سليم اعتقد أنه مصاب بمرض كذا وليس في بدنه شيء من جراثيم هذا المرض فولد له اعتقاده تلك الجراثيم الحية وصار مريضاً . وكم من امرئ سقى الماء القراح أو نحوه فشربه معتقداً أنه سم نافع فمات مسموماً به ، والحوادث في هذا الباب كثيرة أثبتتها التجارب ، وإذا اعتبرنا بها في أمر ولادة المسيح نقول : إن مريم لما بشرت بأن الله تعالى سيهب لها ولداً بمحض قدرته ، وهي على ما هي عليه من صحة الإيمان وقوة اليقين انفعول مزاجها بهذا الاعتقاد انفعالاً فعل في الرحم فعل التلقيح ، كما يفعل الاعتقاد القوي في مزاج السليم فيمرض أو يموت ، وفي مزاج المريض فيبرأ وكان نفخ الروح الذي ورد في سورة أخرى متمماً لهذا التأثير .

(الوجه الثاني) : وهو أقرب إلى الحق ، وإن كان أخفى وأدق ، وبيانه يتوقف على مقدمة وجيزة في تأثير الأرواح في الأشباح . وهي إن المخلوقات قسماً أجسام كثيفة ، وأرواح لطيفة ، وأن اللطيف هو الذي يحدث في الكثيف الحي ما نراه فيه من النمو والحركة والتوالد الذي يكون

أَلَمْهَدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي
فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ
بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ
عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ ﴿المائدة ١١٠﴾ فإن جعل ذلك
كله متعلق النعمة يؤذن بوقوعه إلا أن يقال إن جعل هذه
الآيات مما يجري على يديه عند طلبه منه والحاجة إلى
تحديه به من أجل النعم وأعظمها ولكن هذا خلاف
الظاهر.

ومقتضى مذهب الصوفية أن روحانية عيسى كانت
غالبة على جثمانيته أكثر من سائر الروحانيين لأن أمه
حملت به من الروح الذي تمثل لها بشراً سوياً فكان تجرده
من المادة الكثيفة للتصرف بسلطان الروح من قبيل الملكة
الراسخة فيه وبذلك كان إذا نفخ من روحه في صورة رطبة
من الطين حلها الحياة حتى تهتز وتتحرك وإذا توجه
بروحانيته إلى روح فارقت جسدها أمكنه أن يستحضرها
ويعيد اتصالها ببدنها زمناً ما؛ ولكن روحانية البشر لا
تصل إلى درجة إحياء من مات فصار رميمًا. ويؤيد ذلك
ما ينقله النصارى من إحياء المسيح للموتى. فإنهم قالوا
إنه أحيا بنتاً قبل أن تدفن وأحيا اليعازر قبل أن يبلى ولم
ينقل أنه أحيا ميتاً كان رميمًا. وأما إبراء الأكمه والأبرص
بالقوة الروحانية فهو أقرب إلى ما يعهد الناس لاسيما مع
اعتقاد المريض ويقول مجاهد: إن الأكمه من لا يبصر
بالليل ويبصر بالنهار. والمشهور أنه من ولد أعمى. وأما
الأخبار ببعض المغيبات فقد أوتيه كثيرون من الأنبياء،
وممن دون الأنبياء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمْ إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾
أي إن فيما ذكر لحجة لكم على صدق رسالتي إن كنتم
مؤمنين بالله مصدقين بقدرته الكاملة، ومن مباحث
اللفظ: أن قوله ﴿فَأَنْفُخُ فِيهِ﴾ يعود إلى الطير أو إلى ما
ذكر...

قال الأستاذ الإمام: انتقل من البشارة بعيسى إلى ذكر
خبره مع قومه وطوى ما بينهما من خبر ولادته ونشأته
وبعثته مؤيداً بتلك الآيات وهذا من إيجاز القرآن الذي
انفرد به. فقد انطوى تحت قوله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى

﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي ويرسله أو يجعله (بالياء أو
النون) رسولاً إلى بني إسرائيل فحذف لفظ يرسله أو
يجعله لدلالة الكلام عليه، كما قال الشاعر:

ورأيت زوجك في الوغى

مقتلاً سيفاً ورمحاً

وقال الأستاذ الإمام: إن الرسول هنا بمعنى الرسالة
والتقدير ويعلمه الرسالة إلى بني إسرائيل، واستعمال لفظ
الرسول بمعنى الرسالة شائع. قال كثير:

لقد كذب الواشون، ما بحث عندهم

بسر ولا أرسلتهم برسول

وفي رواية «برسيل» قال وبعض المفسرين يجعل
الرسول بمعنى الناطق أي ناطقاً إلى بني إسرائيل ﴿أَيَّ قَدْ
جِئْتَكُمْ بِتَايَمٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أقول: والمعنى على التقدير
الأول أنه يرسله محتجاً على صدق رسالته بأني قد جئتكم
بآية من ربكم. وفسر الآية بقوله ﴿أَيَّ أَخْلُقُ لَكُمْ مِّن
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قال
الأستاذ الإمام: الخلق التقدير والترتيب لا الإنشاء
والاختراع ويقرب أن يكون هذا إجماعاً من المفسرين،
وفسره الجلال هنا بالتصوير لأنه من التقدير...

وغاية ما يفهم منها أن الله تعالى جعل فيه هذا السر
ولكن لم يقل إنه خلق بالفعل، ولم يرد عن المعصوم أن
شيئاً من ذلك وقع، وقد جرت سنة الله تعالى أن تجري
الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل
الإيمان موقوفاً عليها فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد
جاء به وكذلك يقال في قوله ﴿وَأُتْرِثُ الْأَكْمَةَ
وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا
تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ فإن قصارى ما تدل عليه العبارة أنه
خص بذلك وأمر بأن يحتج به. والحكمة في إخبار النبي
ﷺ بذلك إقامة الحجة على منكري نبوته كما تقدم وأما
وقوع ذلك كله أو في بعضه بالفعل فهو يتوقف على نقل
يحتج به في مثل ذلك.

ولعل آية سورة المائدة أدنى إلى الدلالة على الوقوع من
هذه الآية وهي ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي
عَلَيْكَ وَعَلَى الَّذِينَ إِذْ أَتَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي

كما قدرنا في بيان العبارة وهو الذي جرى عليه المفسرون محافظة على القواعد الموضوعية .

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ معطوف على قولهم ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ إلخ . ، أي صدقنا بما أنزلت من الإنجيل ﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ عيسى ابن مريم قال الأستاذ الإمام ذكر الاتباع بعد الإيمان لأن العلم الصحيح يستلزم العمل والعلم الذي لا أثر له في العمل يشبه أن يكون مجملًا وناقصًا لا يقينًا وإيمانًا . وكثيراً ما يظن الإنسان أنه عالم بشيء حتى إذا حاول العمل به لم يحسنه فيتبين له أنه كان مخطئاً في دعوى العلم . ثم قال إن العلم بالشيء يظل مجملًا مبهمًا في النفس حتى يعمل به صاحبه فيكون بالعمل تفصيلياً فذكر الحوار بين الاتباع بعد الإيمان يفيد أن إيمانهم كان في مرتبة اليقين التفصيلي الحاكم على النفس المصروف لها في العمل ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ للرسول بتبليغ الدعوة ، وعلى قومه بما كان منهم من الكفر والجحود ، فحذف معمول الشاهدين ليعم المشهود له والمشهود عليهم . أو يقال الشاهدين على هذه الحالة أي حالة الرسول مع قومه ، وهو الذي اختاره الأستاذ الإمام . قال ومن المعروف في الفقه أن الشاهدين بمنزلة الحاكم لأن الفصل بين الخصمين يكون بشهادتهما ولا تصح الشهادة إلا من العارف بالمشهود به معرفة صحيحة وقد كان الحواريون كذلك كما علم من إقرارهم بالإيمان والاتباع .

﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ أي ومكر أولئك الذين أحسن عيسى منهم الكفر به فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه وعبر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة كذا قال الجمهور وأقرهم الأستاذ الإمام . ولكن ورد في سورة الأعراف إضافة المكر إلى الله تعالى من غير مقابلة بمكر الناس قال ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا أَهْلُ الْقَوْمِ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩] والمكر في الأصل التدبير الخفي المضفي بالممكور به إلى ما لا يحتسب . ولما كان الغالب أن يكون ذلك في السوء لأن من يدبر للإنسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره غلب استعمال المكر في التدبير السيء وإن كان في

مِنْهُمْ الْكُفَرُ﴾ جميع ما دلت عليه البشارة وعلم أنه وُلد بُعث ودعا وأيد دعوته كما سبقت البشارة فأحس وشعر من قومه وهم بنو إسرائيل الكفر والعناد والمقاومة والقصد بالإيداء وفي هذا من العبرة والتسلية للنبي ﷺ ما فيه وأن أكبر ما فيه الإعلام بأن الآيات الكونية وإن كثرت وعظمت ليست ملزمة بالإيمان ولا مفضية إليه حتماً وإنما كون الإيمان باستعداد المدعو إليه وحسن بيان الداعي ولذلك كان من أمر عيسى عليه السلام أنه لما أحس من قومه الكفر ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي توجه إلى البحث عن أهل الاستعداد الذين ينصرونه في دعوته تاركين لأجلها كل ما يشغل عنها منخلعين عما كانوا فيه متحيزين ومنزوين إلى الله منصرفين إلى تأييد رسوله ونصره على خاذليه والكافرين بما جاء به و﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ أي أنصار دينه وهذا القول يفيد الانخلاع والانفصال من التقاليد السابقة ، والأخذ بالتعليم الجديد . وبذل منتهى الاستطاعة في تأييده فإن نصر الله لا يكون إلا بذلك . . .

والحواريون أنصار المسيح . والنصر لا يستلزم القتال فالعمل بالدين والدعوة إليه نصر له . قال الأستاذ الإمام ولا نتكلم في عددهم لأن القرآن لم يعينه . . .

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون له منقادون لأمره وفي هذا دليل على أن الاسلام دين الله على لسان كل نبي وإن اختلفوا في بعض صوره وأشكاله وأحكامه وأعماله .

ومن مباحث اللفظ في الآية أن ﴿أَحْسَنَ﴾ يستعمل في إدراك الحسي والمعنوي ففي حقيقة الأساس : أحسست منه مكرراً وأحسست منه بمكر وما أحسست منه خبراً وهل تحس من فلان بخبر؟ والمكر من الأمور المعنوية وإن كان يستنبط من الأعمال الحسية ويستدل عليه بها .

وقال الأستاذ الإمام : إن الجار في ﴿إِلَى اللَّهِ﴾ متعلق بلفظ ﴿أَنْصَارِي﴾ وإن لم يعرف أن مادة نصر تعدى إلى . ذلك بأن مجموع الكلام هنا قد أشرب الكلمة معنى اللجأ والانضمام ، لأن النصر يحصل بذلك . ويصح أن يتعلق بوصف يفيد هذا المعنى الذي يدل عليه الأسلوب

... ولهم في حياته الثانية على الأرض كلام طويل معروف. وأجاب هؤلاء عما يرد عليهم من مخالفة القرآن في تقديم الرفع على التوفي بأن الواو لا تفيد ترتيباً - أقول: وفاتهم أن مخالفة الترتيب في الذكر للترتيب في الوجود لا يأتي في الكلام البليغ إلا لنقطة ولا نقطة هنا لتقديم التوفي على الرفع إذ الرفع هو الأهم لما فيه من البشارة بالنجاة ورفعة المكانة.

(قال) والطريقة الثانية أن الآية على ظاهرها وأن التوفي على معناه الظاهر المتبادر وهو الإمامة العادية وأن الرفع يكون بعده وهو رفع الروح ولا بدع في إطلاق الخطاب على شخص وإرادة روحه. فإن الروح هي حقيقة الإنسان والجسد كالثوب المستعار، فإنه يزيد وينقص ويتغير، والإنسان إنسان لأن روحه هي هي، (قال) ولصاحب هذه الطريقة في حديث الرفع والنزول في آخر الزمان تخريجاً أحدهما أنه حديث آحاد متعلق بأمر اعتقادي لأنه من أمور الغيب والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالقطعي لأن المطلوب فيها هو اليقين. وليس في الباب حديث متواتر. وثانيهما تأويل نزوله وحكمه في الأرض بغلبة روحه وسر رسالته على الناس وهو ما غلب في تعليمه من الأمر بالرحمة والمحبة والسلم والأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها والتمسك بقشورها دون لبابها. وهو حكمته وما شرعت لأجله...

ويوقفهم على فقها والمراد منها ويأمرهم بمراعاته وبما يجذبهم إلى عالم الأرواح بتحري كمال الآداب، أي ولما كان أصحاب الشريعة الأخيرة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها بل وألفاظ من كتب فيها معبراً عن رأيه وفهمه... وكل ذلك مطوي في القرآن الذي حجبوا عنه بالتقليد الذي هو آفة الحق وعدو الدين في كل زمان. فزمان عيسى على هذا التأويل هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية لإصلاح السرائر من غير تقييد بالرسوم والظواهر.

هذا ما قاله الأستاذ الإمام في الدرس مع بسط وإيضاح ولكن ظواهر الأحاديث الواردة في ذلك تأباه ولأهل هذا التأويل أن يقولوا: إن هذه الأحاديث قد نقلت بالمعنى

المكر الحسن والسيء جميعاً قال تعالى ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣] ووجه الحاجة إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله فيحتاج مربيه أو متولي شؤونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول. إذ يوجد في الماكسين الأشرار والأخيار ﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكْرِكِينَ﴾ فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه وكلها خير في نفسها وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم. وقال الأستاذ في تفسير ﴿خَيْرُ الْمَكْرِكِينَ﴾ بناء على أن المكر في نفسه شر: أي إن كان في الخير مكر فمكره سبحانه وتعالى موجه إلى الخير ومكرهم هو الموجه إلى الشر.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ارْفُاعَكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي مكر الله بهم، إذ قال لنبيه إني متوفيك الخ فإن هذه بشارة بأنجائه من مكرهم وجعل كيدهم في نحرهم قد تحققت ولم ينالوا منه ما كانوا يريدون بالمكر والحيلة والتوفي في اللغة أخذ الشيء وافياً تاماً. ومن ثم استعمل بمعنى الإمامة قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وقال: ﴿قُلْ يَتَوَفَّنَا مَوْلَاكُمْ أَلَيْسَ بِاللَّهِ الْمَوْتُ الَّذِي ذُكِّرْ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] كما قال في إدريس عليه السلام ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧] والله تعالى يضيف إليه ما يكون فيه الأبرار من عالم الغيب قبل البعث وبعده كما قال في الشهداء: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي جَنَّتٍ وَنَهْرٍ. فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْدِرٍ﴾ [القمر: ٥٤ - ٥٥] وأما تطهيره من الذين كفروا فهو إنجاؤه مما كانوا يرمونه به أو يرمونه منه ويريدونه به من الشر. هذا ما يفهمه القارئ الخالي الذهن من الروايات والأقوال. لأنه هو المتبادر من العبارة وقد أيدناه بالشواهد من الآيات، ولكن المفسرين قد حولوا الكلام عن ظاهره لينطبق على ما أعطتهم الروايات من كون عيسى رفع إلى السماء بجسده. وهاك ما قال الأستاذ الإمام في ذلك:

كأكثر الأحاديث والناقل للمعنى ينقل ما فهمه . . .

﴿وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ﴾ بالأخذ بما جئت به من الهدى
﴿فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بك ولم يهتدوا بهديك فوقية
روحانية دينية وهي كونهم أحسن أخلاقاً وأكمل آداباً
وأقرب إلى الحق والفضل وأبعد عن الباطل والاعتداء أو
فوقية دنيوية وهو كونهم يكونون أصحاب السيادة عليهم .
ولكن هذا الوجه لم يتحقق في زمن المسيح لأشد الناس
أتباعاً له بل كانوا مغلوبين لليهود فتعين أن يكون الوجه
الأول هو المراد ووجهه ظاهر فإن اتباع المسيح هو عين
الأخذ بتلك الفضائل والمواظ على التي جاء بها وليس عندنا
شيء عن الأستاذ الإمام في هذا . ولا يشكل عليه قوله
﴿إِنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فإن فوقية الفضائل والآداب هي التي
كانت وستبقى كذلك مادامت السموات والأرض ﴿ثُمَّ إِلَىٰ
مَرْجِعِكُمْ فَأَحْكُم بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾
أقول فيه التفات عن الغيبة إلى الخطاب وبذلك يشمل
المسيح والمختلفين معه ويشمل الاختلاف بين أتباعه
والكافرين به والله هو الذي يبين لهم جميعاً يوم الحساب
الحق في كل ما اختلفوا فيه بما يزيل شبهة المشبهين ورياء
الجاحدين .

﴿قَالُمَا الَّذِينَ كَفَرُوا فَاَعِدْهُم عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ وكذلك عذب الله اليهود
الذين كفروا به بتسليط الأمم عليهم وبحكمها فيهم
ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون هناك كما أنهم لم
ينصروا هنا . . .

﴿ذَلِكَ﴾ الذي تقدم من خير عيسى ﴿تَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
الْآيَاتِ﴾ الدالة على نبوتك ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ الذي يبين
وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فيهدي
المؤمنين إلى لباب الدين وفقه الشريعة وأسرار الاجتماع
البشري ليتعظ المتعظون ويصل إلى مقام الحكمة
العارفون . وليس لدينا عن الأستاذ الإمام شيء في هذه
الآيات الثلاث .

أقول: بعد أن بين سبحانه خلق عيسى ومجيئه بالآيات
وما كان من أمر قومه في الإيمان والكفر به كشف شبهة
المفتونين بخلقه على غير السنة المعتادة والمحاجين فيه

بغير علم ، ورد على المنكرين لذلك فقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ
عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ أي إن شبه عيسى وصفته في
خلق الله إياه على غير مثال سبق كشأن آدم في ذلك . ثم
فسر هذا المثل بقوله ﴿خَلَقْنَاهُ مِن طَرَابِ﴾ أي قدر أوضاعه
وكون جسمه من تراب ميت أصابه الماء فكان طيناً لازباً ذا
لزوجة ﴿ثُمَّ قَالَ لَهٗ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي ثم كونه تكويناً آخر
بنفخ الروح فيه . وقد تقدم تفسير العبارة إلا أنه كان الظاهر
أن يقول هنا: ثم قال له: كن فكان . ولكنه قال ﴿فَيَكُونُ﴾
لتصوير الحال الماضية كما يقول أهل المعاني في وضع
المضارع موضع الماضي أحياناً . وخطر لي الآن أنه يجوز
أن تكون كلمة التكوين مجموع ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ والمعنى:
ثم قال له كلمة التكوين التي هي عبارة عن توجه الإرادة
إلى الشيء ووجوده بها حالاً . ويظهر هذا في مثل قوله
تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ
وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] ولو
كان القول للتكليف لم يظهر هذا . لأن قول التكليف من
صفة الكلام، وقول التكوين من صفة المشيئة . ولعل من
تأمله حق التأمل لا يجد عنه منصرفاً . والعطف بشم لبيان
التكوين الآخر يفيد تراخيه وتأخره عن الخلق الأول . وهل
كان في هذه المدة على صفة واحدة أم تقلب في أطوار
مختلفة كما تتقلب ذريته؟ اقرأ قوله تعالى ﴿وَقَدْ خَلَقْنَا
أَطْوَارًا﴾ [نوح: ١٤] وقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ .
ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظًا فَكَسَوْنَا الْعِظَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ
فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ . ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ . ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٦] فالسلسلة
المستخرجة من الطين هي المكون الأول الذي يعبرون عنه
بلسان العلم الآن بالبروتوبلازما ومنها تكون أصلنا في
ذلك الطور، لأنه تعالى يقول إنه خلقه من تلك السلسلة،
ثم انتقل إلى طور التولد بواسطة النطفة في القرار المكين
وهو الرحم، ثم انتقل إلى طور تحول النطفة إلى علقة
والعلقة إلى مضغة والمضغة إلى هيكل من العظام يكسى
لحماً وقد عد هذا طوراً واحداً، ثم أنشأ خلقاً آخر وهو

من خلق عيسى لأن هذا خلق من حيوان من نوعه وذاك قد خلق من التراب، وفي الكلام إرشاد إلى أن أمر الخليقة يشبه بعضه بعضاً فكله غريب بالنسبة إلينا إذا تفكرنا في حقيقتها وعللها ولا شيء منه بغريب عند الموجد المبدع. أما القوانين المعروفة في علم الخليقة فهي قد استخرجت مما نعهده ونشاهده وليست قوانين عقلية قامت البراهين على استحالة ما عداها كيف وأنا نرى في كل يوم ما يخالفها كالحوانات التي لها أعضاء زائدة والتي تولد من غير جنسها وترون ذكر ذلك في الجرائد ويعبرون عنه بفلمات الطبيعة وهو إنما خالف ما نعرف لا ما يعلم الله تعالى. وما يدرينا أن لكل هذه الشواذ والفلمات سنناً مطردة محكمة لم تظهر لنا. وكذلك شأن خلق عيسى فكونه على غير المعهود ليس مزية تقتضي تفضيله عليهم. فكيف تقتضي أن يكون إلهاً؟ وإذا كان عيسى قد خلق من بعض جنسه فأدم قد خلق من غير جنسه فهو أولى بالمزية لو كانت وبالإنكار إن صح، على أن ما نعرف من أمر الخلق ليس لنا منه إلا الظاهر، نصفه ونقول به وإن لم نعقله، وماذا نعقل من الرابطة بين الحس والنطق في الإنسان مثلاً؟ بل ماذا نعقل من أمر حبة الحنطة في نبتها واستوائها على سوقها وتناسب أوراقها وغير ذلك؟

المراغي ج ٣ ص ١٤٩ - ١٧٤

ونظير هذه الآية قوله عقب قصة نوح عليه السلام ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ [هود: ٤٩] وقوله بعد قصة موسى وشعيب ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْفُرْقَيْنِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ﴾ [القصص: ٤٤].

والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم: إنه مأخوذ منها وفيما خالفها إنه ليس بصحيح لأنه خالفها، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها، وهذا من المكابرة التي لا تغني حجة لرد خصم على خصم، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق للأدلة القائمة على نبوة محمد ﷺ وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح، وما جاء فيه مخالفاً لما في

الطور الأخير. ثم ذكر أن له طوراً آخر في الموت وطوراً آخر في البعث وهو آخر أطواره فكل طور من الأطوار التي قبل الموت حادث وحدوثه لأول مرة لم يكن مسبقاً بنظير ولم يكن معتاداً وإنما وجد بمشيئة الله وتكوينه المعبر عنه بقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ فهل يعز على صاحب هذه المشيئة أن يخلق عيسى من غير أب؟ كلا. ولا يعجزه أن يبعث الناس بعد موتهم في نشأة أخرى كالنشأة الأولى.

وقال الأستاذ الإمام ما مثاله: قلنا إن هذه الآيات سبقت في معرض إثبات نبوة محمد ﷺ ببيان أن الله تعالى أن يصطفي من عباده من يشاء لرسالته وأنه مستقل في أفعاله فلا وجه لإنكار اصطفاؤه محمداً وقد اصطفى قبله آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران. ثم جاء في السياق ذكر قصة عيسى وأمه وما جاء به وما كان من كفر بعض قومه به ورمى أمه بالزنا وإيمان بعض وهناك قسم ثالث لم يكفر بعيسى ولم يؤمن به إيماناً صحيحاً بل افتتن به افتتاناً لكونه ولد من غير أب وزعموا أن معنى كونه ولد بكلمة من الله وكونه من روح الله أن الله تعالى حل في أمه وأن كلمة الله تجسدت فيه فصار إلهاً وإنساناً. فضرب للكافرين وللمفتونين مثل خلق آدم من تراب وهو حجة على الفريقين من اليهود والنصارى ولا شك أن خلق آدم أعجب

... ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم في القيام بشأنها وكفاية مهامها، إما لأن عمران كان رئيساً لهم فأرادوا مكافأته قياماً ببعض ما يجب له من الحقوق، وإما لأنهم وجدوا في بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولائها شأن عظيم، وإما لأنهم رأوا في ذلك القيام بواجب ديني إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة.

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه ﷺ لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمي، ولم يروها سماعاً عن أحد كما يعترف بذلك منكرو نبوته، لأنه نشأ بين قوم أميين، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحي أو المشاهدة، والوحي ينكرونه، فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التي نفاها على سبيل التهكم لاستحالتها.

﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ وفي هذا بشارة بأنه يعيش حتى يكون رجلاً سوياً، قال ابن عباس: كان كلامه في المهد لحظة بما قصه الله علينا، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام.

والنصارى تزعم أنه عليه السلام لم يتكلم في المهد، ولم ينطق ببراءة أمه صغيراً، وعاش ثلاثين سنة، واليهود تغذف أمه ييوسف النجار.

والخلاصة - إنه يكلم الناس طفلاً في المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها به المفترون عليها، وحجة على نبوته وبالغاً كبيراً بعد أن يرسله الله وينزل عليه وحيه، وأمره ونهيه . . .

﴿قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي مثل هذا الخلق العجيب والإحداث البديع وهو خلق الولد بغير أب - يخلق الله ما يشاء.

ولاختلاف القصتين قصة مريم وزكريا في الغرابة عبر في الأولى بيفعل، وفي الثانية بيجعل، إذ العادة قد جرت بأن الفعل يستعمل كثيراً في كل ما يحدث على النواميس المعروفة والأسباب الكونية المألوفة، والخلق يقال فيما فيه إبداع واختراع ولو بغير ما يعرف من الأسباب، فيقال خلق الله السموات والأرض، ولا يقال فعل الله السموات والأرض.

وإيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس فعبّر عنه بالفعل، وإن كان فيه آية لزكريا من جهة أن هذين الزوجين لا يولد لمثلها في العادة - أما إيجاد عيسى فهو على غير المعمود في التوالد بل بمحض القدرة، فالتعبير عنه بالخلق أليق.

﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون من غير ريث ولا إبطاء.

وهذا تمثيل لكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وتصوير سرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة أمر مطاع لمأمور قادر على العمل مطيع، يفعل ما يطلب منه على الفور.

وهذا الأمر يسمى أمر تكوين، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف يعرف بوحى الله لأنبيائه.

والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير

الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلاطها لانقطاع أسانيدها، حتى إن أعظمها وأشهرها وهي الأسفار التي تنسب إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها، ولا الزمن الذي كتبت فيه، ولا اللغة التي كتبت بها أولاً.

﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾

والمراد من الملائكة هنا جبريل لقوله في سورة مريم ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم، وقوله بكلمة من الله أي بكلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شيء قد خلق بكلمة التكوين، لأنه لما فقد في تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق في العادة، وهو تلقيح ماء الرجل لما في الرحم من البويضات التي يتكون منها الجنين - أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكون إذناً بذلك، بخلاف الأشياء الأخرى فإنها تنسب في العرف إلى الأسباب العادية.

والمعروف لديهم أن أنبياءهم السالفين بشروهم بمسيح يظهر فيهم، وأنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان في الأرض، فحين ظهر عيسى وسمى بالمسيح آمن به قوم وقالوا إنه هو الذي بشر به الأنبياء، واليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها بعد.

وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها إشارة إلى أنه ينسب إليها، إذ ليس له أب.

﴿وَجِيءَ فِي الْذُنُوبِ وَالْآخِرَةِ﴾ وما جاء به من الإصلاح قد بقي أثره بعد، وهذه الوجاهة أجل شأناً من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون لدفع أذاهم واتقاء شرهم، أو لمداهنتهم والتزلف إليهم رجاء شيء مما في أيديهم من متاع الحياة، وهذه وجاهة صورية لا أثر لها في النفوس إلا الكراهة والبغضاء.

ووجاهته في الآخرة بكونه ذا مكانة عليّة ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها ويعلمون قربه من ربه.

(ومن المقربين) فالناظر إليه حيث يثب يعتقد ما له من القرب والزلفى عنده.

وهنا يلحظ لطف الله في أنه لا يُظهر قدرته للإنسان إلا بطريق التدرج، وهذا يلاحظ في كل المعجزات على الإطلاق، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين، سواء أكان في شكل الطير أم لم يكن، وكذلك لا داعي للنفخ لأن طريق الإرادة الإلهية هي ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾.

ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشبه فيه الإنسان بالطير الحقيقي، ولا يكون هناك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق وبعدها ينفخ فيه.

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييراً كما يحدث في أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك. فعند وجود الروح في هذا الهيكل الطيني تكون الصدمة قد انكسرت حداثتها بانتظار حدوث شيء مهم، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقاً في وجود الحياة والروح.

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه إلخ، لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب في حالات عصبية مخصصة (غير عضوية) ولهذا يشبه فيها الناظر.

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة، لأننا نراها على أيدي أشخاص كثيرين، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذي فقد بصره بفقد العين نهائياً، وبين إبراء الأعمى المصاب بالهستيريا إلخ مثلاً يشبه الفرق بين الطين الذي في شكل الطير والطير الحقيقي ولكن الله تعالى أراد أن يفهم الإنسان بذلك قدرته تدريجاً؛ فالإنسان أولاً يشك ويقول: ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التي ليست فوق قدرة الإنسان وربما كانت شيئاً غير عادي، ولكن الله يقول بعد ذلك: وأحيى الموتى لكي لا يدع مجالاً للشك مطلقاً.

إننا نجد هذه الطريقة نفسها في تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام، لأنه خلق من نطفة الأم فقط، وفي العالم المادي لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتي الأب والأم، ولكن الطريقة التي ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين؛ فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة، ولكنهم أخذوا يفهمون

أب، وقولاً عند العادة، وذوولاً عن كيفية بدء العالم، ولكن ليس لهم دليل عقلي ينبيء بالاستحالة، وإننا لنشاهد كل يوم حدوث شيء في الكون لم يكن معتاداً من قبل، بعضه له أسباب معروفة فيسمونه استكشافاً أو اختراعاً، وبعضه ليس بمعروف له سبب ويسمونه فلتات الطبيعة.

والمؤمنون يقولون إن مثل هذا الذي جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدي العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوباً عقلياً مطرداً...

وقد جرت سنة الله أن تجري الآيات على أيدي الأنبياء عند طلب قومهم لها وجعل الإيمان موقوفاً عليها، فإن كانوا سألوه شيئاً من ذلك فقد فعل، ولا حاجة بنا إلى تعيين نوع الطير، إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنة يعينه فنقف حينئذ عند لفظ الآية.

﴿وَأُتْرِئُوا أَلْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُتِي الْمَوْقِنُ إِذْنُ اللَّهِ﴾^١ وإنما خصا بالذكر، لأن مداواتهما أعيت نطس الأطباء، وقد كان الطب متقدماً جداً زمن عيسى فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس.

وقد جرت السنة الإلهية أن تكون معجزة كل نبي من جنس ما اشتهر في زمنه؛ فأعطى موسى العصا وابتلعت ما كانوا يأفكون، لأن المصريين في ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذي حذقه أطباء عصره، وأعطى محمداً معجزة القرآن، لأن التفاخر في ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان...

قال صاحب الإسلام والطب الحديث رحمه الله في تفسير هذه الآية: [إن بعضهم قد اعترض على عمل الطين بشكل الطير، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادراً على إحيائه إلى ما آخر ما قالوا].

والحقيقة أن في ذلك حكمة عالية، لأن الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان في متناول إدراكه، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد في أن يرده إلى شيء يعرفه، فإن لم يمكنه بقي متحيراً، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب في الأعصاب قد يكون خطراً.

وأما إبراء الأعمى الذي يشاهد يومياً فهذا يحدث في الأحوال العصبية غير العضوية، وبواسطة أطباء العيون، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلاً إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد إلخ. وكذلك صنع أرجل جديدة، فالجراح يصنع رجلاً صناعية، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الإنسان أن يمشي عليها، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلاً من لحم ودم.

وصفوة القول - إنه لا يمكنه أن يصنع جزءاً حياً مهما صغر حجمه، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا، وصنع واحدة كصنع الكل، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ﴾ [الحج: ٧٣] ولذلك ستبقى المعجزات دائماً فوق قدرة الإنسان ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط، ولكنها كلها من نوع واحد، وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه.

وقد يقول البعض: إن العلوم تتقدم، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودة في مدة الأنبياء لعدّ معجزة - وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقي للمعجزات لم يُفهم، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى، وهكذا إلى ما لا نهاية؛ فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية أو قواعد الطبيعة - كما يسميها الطبيعيون - لا حدّ لها ولا تتغير أبداً وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتماً على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أبداً، وكل ما يظهر مدحشاً في نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وما سيظهر - هو من الاستعانة بهذه القواعد؛ فالذي يتكلم في أوروبا ويسمعه آخر في مصر بواسطة الراديو استطاع ذلك، لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسحروها لأغراضهم، ولذلك مهما عظمت النتائج في

الحقيقة تدريجياً عند ما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التي أتى بها المسيح.

وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط، ولكن خلقه على هذه الصورة لا يقل عن خلق آدم من طين، لأن نظام الكائنات يجري على سنة واحدة لا تتخلف أبداً إلا حيث يريد الله، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الإنسان كما بينا... ثم قال:

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة، ومعناها سنة جديدة بخلاف كل ما نراه يومياً من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات، فإنه مع إعجازه يأتي مطابقاً لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير.

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس، فإن ذلك مع عظمتها لا يحدث صدمة لعقولنا لتعودنا إياه، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما.

ولا تحصل المعجزات إلا على أيدي الأنبياء، وذلك لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين، فهي أشد على من يكون واسطة فيها، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم.

ولمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيئ الله الظروف لتحملها، ويهيئ النبي نفسه لقبولها، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها، فأمر الله لسيدنا موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها فتكون بيضاء ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى... وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى صنعها الإنسان مهما ارتقى، وأغلبها ينتهي إلى شيء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة، فمثلاً إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى، والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذي فقد شيئاً عضوياً حياً لا يمكن استعاضته، ومن أمكنه استعاضة شيء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل.

ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الإنسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية في ثقب فيها، فتخرج ورقة عليها رقم وزنه، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبداً آلاف السنين، فإن الإنسان يشك في صانعها الأول، ولكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد، وبدون وضع القطعة المعدنية فيها يقول من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها، وإذا رأى يوماً أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص، أيقن أن للأولى صانعاً، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذي منه خلق العالم الإنساني كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التي لا تبدل فيها.

وصفوة القول - أن أساس المعجزة وعظمتها ليس في نتائجها وغرابتها، فالدهشة من سماع الأبحر يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة، ولكن أهمية المعجزة في طريق صنعها بدون السنن العادية، وهي لذلك لا تتكرر أبداً إلا بإذن الله؛ لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها، ولا يدرك طريقة صنعها...

﴿جِئْتُكُمْ بِآيَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ وأعاد هذا ليرتب عليه الأمر الذي ذكره وهو:

﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ أي لما جئتم به من المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة اتقوا الله في المخالفة، وأطيعوني فيما أَدْعُوكُم إِلَيْهِ.

ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد والاعتراف بالعبودية فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد، ثم بملزمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به وترك ما نهاهم عنه، ونظيره ما جاء في الحديث «قل آمنت بالله ثم استقم»...

﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ﴾ فقد صح أنه لقي من اليهود شذائد كثيرة، فقد كانوا يجتمعون عليه ويستهزئون به ويقولون له يا عيسى: ما أكل فلان البارحة، وما أدخر في بيته لغداً؟ فيخبرهم فيسخرهم منه حتى طال ذلك به وبهم. وهما يقتله فخافهم واختفى عنهم، وخرج هو وأمه يسبحان في الأرض.

وفي هذا عبرة وتسلية للنبي ﷺ، وبيان لأن الآيات

المخترعات، فإن طريق الوصول إليها سنة ثابتة، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوّله نهراً يجري، فإنه لم يخلق نهراً ولكنه استعان بالقوى الطبيعية، بعكس المعجزات فإنها من طراز آخر، وهي مهما صغرت نتاجها خلق سنة جديدة، وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم.

ولزيادة الإيضاح أضرب مثلاً قصة سيدنا إبراهيم وعدم احتراقه بالنار، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطي الإنسان بشيء غير قابل للاحتراق ويضعه في النار فلا يحترق، وهذا يشبه المعجزة ولكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية.

أما المعجزة فهي أن تضع الإنسان كما هو جسماً ولحمياً في النار فلا يحترق، فيكون عدم احتراقه حينئذ هو المعجزة، وهي خرق للسنن الطبيعية التي تقضي باحتراق الجسم متى وضع في النار.

وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به، فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه، ولكنه في الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجي الذي لا يقبل الاحتراق بطبيعته لأن جسم الإنسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار، والفرق بين الاثنين ظاهر، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوي والمخترع.

والطبيب الذي يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيي الموتى لأنه استعان بالسنن الطبيعية، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن.

ويتساءل كثير من الناس هل المعجزات ضرورية؟ والجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين، لأن سنن الله لا تتغير أبداً وهذا ما يسمى (بالطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفي للآن شيء مدهش، حتى إن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين، ويقول ما الحاجة بي لأن أقول إن هناك صانعاً أزلياً ما دامت هذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين؟

وهنا كانت حكمة الله في أن يخرق هذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود.

وأقدرهم على إيصال الضر إليهم من حيث لا يحتسبون،
فدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه،
وإتمام حكمته وكلها خير في نفسها، وإن قصر كثير من
الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ تَوَفَّيْكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ﴾ أي مكر
الله بهم حين قال لنبيه إني متوفيك ورافعك إليّ. وفي هذا
بشارة بنجاة من مكرهم واستيفاء أجله، وأنهم لا ينالون
منه ما كانوا يريدون بمكرهم وخبثهم.

وللعلماء في تأويل هذه الآية آريان:

(١) إن فيها تقدماً وتأخيراً، والأصل: إني رافعك إليّ
ومتوفيك، أي إني رافعك الآن ومميتك بعد النزول من
السماء في الحين الذي قدر لك...

(٢) إن الآية على ظاهرها، وأن التوفي هو الإماتة
العادية، وأن الرفع بعده للروح ولا غرابة في خطاب
الشخص وإرادة روحه، فالروح هي حقيقة الإنسان،
والجسد كالثوب المستعار يزيد وينقص ويتغير. والإنسان
إنسان لأن روحه هي هي.

والمعنى - إني مميتك وجاعلك بعد الموت في مكان
رفيع عندي كما قال في إدريس عليه السلام ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا
عَلِيًّا﴾ [مريم: ٥٧].

وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد يتعلق
بأمر اعتقادي، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل
القاطع من قرآن أو حديث متواتر، ولا يوجد هنا واحد
منهما، أو أن المراد بنزوله وحكمه في الأرض غلبة روحه،
وسر رسالته على الناس بالأخذ بمقاصد الشريعة دون
الوقوف عند ظواهرها، والتمسك بقشورها دون لبابها.

ذاك أن المسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة
جديدة، ولكن جاء بما يرحمهم عن الجمود على ظواهر
شريعة موسى عليه السلام، ويقفهم على فقها والمراد
منها فإن أصحاب هذه الشريعة قد جمدوا على ظواهر
ألفاظها.

فزمان عيسى هو الزمان الذي يأخذ الناس فيه بروح
الدين والشريعة الإسلامية، لإصلاح السرائر غير تقيد
بالرسوم والظواهر.

الكونية مهما كثرت لا تفضي إلى الإيمان إلا إذا كان
للمدعو استعداد للقبول، ومن الداعي حسن بيان.

وحين رأى منهم ذلك:

﴿قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي قال للحواريين كما تدل
عليه آية الصف ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى
اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤] أي من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله
في نصري، ويكونون من أهل الاستعداد لمتابعتي،
وينخلعون عما كانوا فيه، وينصرفون إلى تأييد رسوله!

﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ أي قال خاصة أصحابه
وناصروه: نحن أنصار دين الله، والبالذون كل ما في
الوسع في تأييد دعوتك والأخذون بتعاليمك، والمنصرفون
عن التقاليد السالفة.

وهذا النصر لا يستلزم القتال، بل يكفي فيه العمل
بالدين والدعوة إليه.

﴿ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ هذا جار مجرى السبب في نصره، فإن
الإيمان بالله موجب لنصرة دينه والذبّ عن أوليائه،
ومحاربة أعدائه.

﴿وَأَشْهَدَ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وفي هذا دليل على أن
الإسلام دين الله على لسان كل نبي وإن اختلف الأنبياء في
بعض صوره وأشكاله، وأحكامه وأعماله.

وإنما طلبوا شهادته، لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم
القيامة.

﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ﴾ هذا تضرع إلى الله، وعرض
لحالهم عليه بعد عرضها على الرسول مبالغة في إظهار
أمرهم.

﴿وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ﴾ أي وامثلنا ما أتى به منك.

وفي ذكرهم الاتباع بعد الإيمان دليل على أن إيمانهم
كان بمنزلة اليقين الحاكم على النفس المصترف لها في
العمل، إذ العلم الصحيح هو الذي يستلزم العمل، أما
العلم الذي لا أثر له فيه فهو محمل ناقص لا يقين فيه ولا
اطمئنان، وكثيراً ما يظن الإنسان أنه عالم بالشيء، فإذا
حاول العمل به لم يحسنه، ويتبين له أنه كان مخطئاً في
دعوى العلم به.

﴿وَاللَّهُ خَيْرُ الْمُنْكَرِينَ﴾ أي أقواهم مكرراً وأنفذهم كيداً،

وحينئذ يتبين لهم الحق في كل ما اختلفوا فيه بما يمحو شبه الجاحدين وعناد المخالفين.

ثم بين جزاء المحق والمبطل وكيفيته فقال:

﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴾

﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ ﴾ أي وأما الذين صدقوك وأقروا بنبوتك وبما جئتكم به من الحق، ودانوا بالإسلام الذي بعثك الله به، وعملوا بالأوامر وتركوا النواهي - فيؤتيهم الله أجرهم كاملاً غير منقوص.

ثم بين علة جزاء الفريقين بما جازى فقال:

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴾ أي والله لا يحب من ظلم غيره حقاً له، أو وضع شيئاً في غير موضعه، فكيف بظلم عباده له، فهو يجازيه بما يستحق.

وفي هذا وعيد منه للكافرين به وبرسله، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله . . .

وهي من القرآن الحكيم الذي يبين وجوه العبر في الأخبار والحكم في الأحكام فيهدي المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة، وأسرار الاجتماع البشري.

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران، ويهود بني إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتكم به من الحق.

﴿ وَمُطَهَّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ومنجوك مما كانوا يريدونه بك من الشر، أو مما كانوا يرمونه به من القبائح ونسبة السوء إليه.

﴿ وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ ﴿ وَمُبَشِّرُ رُسُلِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ [الصف ٦] ثم آمنوا بمحمد ﷺ بعدك فوق الذين مكروا بك من اليهود وكذبوك، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك.

وهذه الفوقية إما فوقية دينية روحانية وهي فضلهم عليهم في حسن الأخلاق، وكمال الآداب، والقرب من الحق، والبعد من الباطل. وإما فوقية دنيوية وهي كونهم أصحاب السيادة عليهم.

وفي هذا إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة وقد تحقق ذلك، فلا يرى ملك يهودي، ولا بلد مستقل لهم بخلاف النصارى، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لاتباعه، بل كان اليهود يغلبونهم على أمرهم، فالوجه الأول أولى بالاعتبار.

﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ أي ثم مصيركم إلي يوم البعث، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به.

سيد قطب ج ١ ص ٣٩٥ - ٤٠٥

اليهود أن يلصقوها بمريم الطاهرة، معتمدين على أن هذا المولد لا مثال له في عالم الناس فيزعموا أن وراءه سرّاً لا يشرف . . . قبحهم الله!!

وهنا تظهر عظمة هذا الدين؛ ويتبين مصدره عن يقين. فها هو ذا محمد ﷺ رسول الإسلام الذي يلقي من أهل الكتاب - ومنهم النصارى - ما يلقي من التكذيب والعنت والجدل والشبهات . . . ها هو ذا يحدث عن ربه بحقيقة مريم العظيمة وتفضيلها على «نساء العالمين» بهذا الإطلاق الذي يرفعها إلى أعلى الآفاق. وهو في معرض مناظرة مع القوم الذين يعتزون بمريم، ويتخذون من تعظيمها مبرراً لعدم إيمانهم بمحمد وبالدين الجديد!

﴿ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرَيْمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ . يَمْرَيْمُ اقْنِصِي لِرَبِّكِ وَأَسْجُدِي وَأَرْكَبِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ . . .

وأي اصطفاء؟! وهو يختارها لتلقي النفخة المباشرة. كما تلقاها أول هذه الخليقة: «آدم»؟ وعرض هذه الخارقة على البشرية من خلالها وعن طريقها؟ إنه الاصطفاء للأمر المفرد في تاريخ البشرية . . . وهو بلا جدال أمر عظيم . . . ولكنها - حتى ذلك الحين - لم تكن تعلم ذلك الأمر العظيم!

والإشارة إلى الطهر هنا إشارة ذات مغزى. وذلك لما لابس مولد عيسى - عليه السلام - من شبهات لم يتورع

عرف الناس، والشأن العادي للمشيئة الطليقة...
لقد تأملت مريم إذن بالتطهر والقنوت والعبادة لتلقي
هذا الفضل، واستقبال هذا الحدث، وها هي ذي تتلقى -
لأول مرة - التبليغ عن طريق الملائكة بالأمر الخطير:

﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِكِ يَكْتُمُ مِنْهُ
أَسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ
الْمُقَرَّبِينَ . وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ
الْقَلِيلِ حِينَ ﴾ .

إنها بشارة كاملة وإفصاح عن الأمر كله . بشارة بكلمة
من الله اسمه المسيح عيسى ابن مريم . فالمسيح بدل من
الكلمة في العبارة . وهو الكلمة في الحقيقة . فماذا وراء
هذا التعبير؟

إن هذه وأمثالها، من أمور الغيب التي لا مجال لمعرفة
كنهاها على وجه التحديد . ربما كانت من الذي عناه الله
بقوله: ﴿ أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ
وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَّهَ مِنْهُ
ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ﴾ [آل عمران: ٧] إلخ .

ولكن الأمر أيسر من هذا إذا أردنا أن نفهم طبيعة هذه
الحقيقة الفهم الذي يصل القلب بالله، وصنعتة وقدرته،
ومشيئته الطليقة:

لقد شاء الله أن يبدأ الحياة البشرية بخلق آدم من تراب -
وسواء كان قد جبله مباشرة من التراب أو جبل السلالة
الأولى التي انتهت إليه من تراب، فإن هذا لا يقدم ولا
يؤخر في طبيعة السر الذي لا يعلمه إلا الله . سر الحياة التي
لا بست أول مخلوق حي، أو لا بست آدم إن كان خلقه
مباشرة من التراب الميت! وهذه كتلك في صنع الله .
وليست واحدة منهما بأولى من الأخرى في الوجود
والكينونة...

من أين جاءت هذه الحياة؟ وكيف جاءت؟ إنها قطعاً
شيء آخر غير التراب وغير سائر المواد الميتة في هذه
الأرض... شيء زائد. شيء مغاير. شيء ينشئ أثراً
وظواهر لا توجد أبداً في التراب ولا في مادة ميتة على
الإطلاق...

هذا السر من أين جاء؟ إنه لا يكفي أننا لا نعلم لكي

أي صدق؟ وأية عظمة؟ وأية دلالة على مصدر هذا
الدين، وصدق صاحبه الأمين!

إنه يتلقى «الحق» من ربه؛ عن مريم وعن عيسى عليه
السلام؛ فيعلن هذا الحق، في هذا المجال... ولو لم يكن
رسولاً من الله الحق ما أظهر هذا القول في هذا المجال
بحال!

﴿ يَمْرُؤُا أَقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾ .

طاعة وعبادة، وخشوع وركوع، وحياة موصولة بالله
تمهيداً للأمر العظيم الخطير...

وعند هذا المقطع من القصة، وقبل الكشف عن
الحدث الكبير... يشير السياق إلى شيء من حكمة مساق
القصص... إنه إثبات الوحي، الذي ينبيء النبي ﷺ بما لم
يكن حاضره من أنباء الغيب، في هذا الأمر:

﴿ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ
يَخْتَصِمُونَ ﴾ .

وهي إشارة إلى ما كان من تسابق سدة الهيكل إلى
كفالة مريم، حين جاءت بها أمها وليدة إلى الهيكل، وفاء
لنذرهما وعهدهما مع ربها. والنص يشير إلى حادث لم
يذكره «العهد القديم» ولا «العهد الجديد» المتداولان؛
ولكن لا بد أنه كان معروفاً عند الأحرار والرهبان. حادث
إلقاء الأقلام... أقلام سدة الهيكل... لمعرفة من تكون
مريم من نصيبه. والنص القرآني لا يفصل الحادث - ربما
اعتماداً على أنه كان معروفاً لسامعيه، أو لأنه لا يزيد شيئاً
في أصل الحقيقة التي يريد عرضها على الأجيال القادمة -
فلنا أن نفهم أنهم اتفقوا على طريقة خاصة - بواسطة إلقاء
الأقلام - لمعرفة من هي من نصيبه، على نحو ما نصنع في
«القرعة» مثلاً.

فربما كان من أسرار الهيكل التي لا تفسى ولا تباح
للإذاعة بها، فاتخذها القرآن - في مواجهة كبار أهل
الكتاب وقتها - دليلاً على وحي من الله لرسوله الصادق.
ولم يرد أنهم ردوا هذه الحجة. ولو كانت موضع جدال
لجادلوه؛ وهم قد جاءوا للجدال!

والآن نجيء إلى مولد عيسى: العجيبة الكبرى في

أن يخرق هذه القاعدة المختارة في فرد من بني الإنسان .
فينشئ نشأة قريبة وشبيهة بالنشأة الأولى . وإن لم تكن
مثلاً تماماً . أنثى فقط . تتلقى النفخة التي تنشئ الحياة
ابتداءً . فننشأ فيها الحياة !

أهذه النفخة هي الكلمة؟ الكلمة هي توجه الإرادة؟
الكلمة: ﴿ كُنْ ﴾ التي قد تكون حقيقة وقد تكون كناية عن
توجه الإرادة؟ والكلمة هي عيسى، أو هي التي منها
كينونته؟

كل هذه بحوث لا طائل وراءها إلا الشبهات . .
وخلصتها هي تلك: أن الله شاء أن ينشئ حياة على غير
مثال . فأنشأها وفق إرادته الطليقة التي تنشئ الحياة بنفخة
من روح الله . ندرك آثارها، ونجهل ماهيتها . ويجب أن
نجهلها . لأنها لا تزيد مقدرتنا على الاضطلاع بوظيفة
الخلاقة في الأرض، ما دام إنشاء الحياة ليس داخلًا في
تكليف الاستخلاف !

والأمر هكذا سهل الإدراك . ووقوعه لا يثير الشبهات !
وهكذا بشرت الملائكة مريم بكلمة من الله اسمه
المسيح عيسى ابن مريم . . فتضمنت البشارة نوعه ،
وتضمنت اسمه ونسبه . وظهر من هذا النسب أن مرجعه
إلى أمه . . ثم تضمنت البشارة كذلك صفته ومكانه من
ربه: ﴿ وَجِئْنَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴾ . . كما
تضمنت ظاهرة معجزة تصاحب مولده ﴿ وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي
الْمَهْدِ ﴾ . . ولمحة من مستقبله: ﴿ وَكَهَلًا ﴾ . . وسمته
والموكب الذي ينتسب إليه: ﴿ وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ . . فاما
مريم الفتاة الطاهرة العذراء المقيدة بمألوف البشر في
الحياة، فقد تلقت البشارة كما يمكن أن تتلقاها فتاة .
واتجهت إلى ربها تناجيه وتتطلع إلى كشف هذا اللغز الذي
يحير عقل الإنسان:

﴿ قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ ﴾ . .

وجاءها الجواب، يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل
عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب والمسببات الظاهرة
لعلمهم القليل، ومألوفهم المحدود:

﴿ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ ﴾ . . وحين يرد الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية

ننكر أو نهذر! كما يفعل الماديون في لجاجة صغيرة لا
يحترمها عاقل فضلاً عن عالم!

نحن لا نعلم . وقد ذهبت سدى جميع المحاولات التي
بدلناها - نحن البشر - بوسائلنا المادية لمعرفة مصدرها،
أو لإنشائها بأيدينا من الموت!

نحن لا نعلم . . ولكن الله الذي وهب الحياة يعلم . .
وهو يقول لنا: إنها نفخة من روحه . وإن الأمر قد تم
بكلمة منه . «كن فيكون» . .

ما هي هذه النفخة؟ وكيف تنفخ في الموات فينشأ فيه
هذا السر اللطيف الخافي على الأفهام؟

ما هي؟ وكيف؟ هذا هو الذي لم يخلق العقل البشري
لإدراكه، لأنه ليس من شأنه . إنه لم يوهب القدرة على
إدراكه . إن معرفة ماهية الحياة وطريق النفخة لا يجديه
شيئاً في وظيفته التي خلقه الله لها - وظيفة الخلافة في
الأرض - إنه لن يخلق حياة من موات . . فما قيمة أن
يعرف طبيعة الحياة، وماهية النفخة من روح الله، وكيفية
اتصالها بآدم أو بأول سلم الحياة الذي سارت فيه السلالة
الحية؟

والله سبحانه يقول: إن النفخة من روحه في آدم هي
التي جعلت له هذا الامتياز والكرامة - حتى على الملائكة،
فلا بد إذن أن تكون شيئاً آخر غير مجرد الحياة الموهوبة
للدود والميكروب! وهذا ما يقودنا إلى اعتبار الإنسان
جنساً نشأ نشأة ذاتية، وأن له اعتباراً خاصاً في نظام
الكون، ليس لسائر الأحياء!

وعلى أية حال فهذا ليس موضوعنا هنا، إنما هي لمحة
في سياق العرض للتحرز من شبهة قد تقوم في نفس
القارئ لما عرضناه جديلاً حول نشأة الإنسان!

المهم هنا أن الله يخبرنا عن نشأة سر الحياة؛ وإن لم
ندرك طبيعة هذا السر وكيفية نفخه في الموات . . وقد شاء
الله بعد نشأة آدم نشأة ذاتية مباشرة - أن يجعل لإعادة النشأة
الإنسانية طريقاً معيناً . طريق التقاء ذكر وأنثى . واجتماع
بويضة وخلية تذكير . فيتم الإخصاب، ويتم الإنسال .
والبويضة حية غير ميتة والخلية حية كذلك متحركة .

ومضى مألوف الناس على هذه القاعدة . . حتى شاء الله

والتنظيم، هي كتاب عيسى كذلك، مضافاً إليها الإنجيل الذي يتضمن إحياء الروح وتهذيب القلب وإيقاظ الضمير...

وحرص النص على أن يذكر على لسان المسيح - عليه السلام - كما هو مقدر في غيب الله عند البشارة لمريم، وكما تحقق بعد ذلك على لسان عيسى أن كل خارقة من هذه الخوارق التي جاءهم بها، إنما جاءهم بها من عند الله. وذكر إذن الله بعد كل واحدة منها تفصيلاً وتحديداً؛ ولم يدع القول يتم ليذكر في نهايته إذن الله زيادة في الاحتياط!

وهذه المعجزات في عمومها تتعلق بإنشاء الحياة أو ردها، أو رد العافية وهي فرع عن الحياة. ورؤية غيب بعيد عن مدى الرؤية... وهي في صميمها تتسق مع مولد عيسى؛ ومنحه الوجود والحياة على غير مثال إلا مثال آدم عليه السلام وإذا كان الله قادراً أن يجري هذه المعجزات على يد واحد من خلقه، فهو قادر على خلق ذلك الواحد من غير مثال... ولا حاجة إذن لكل الشبهات والأساطير التي نشأت عن هذا المولد الخاص متى رُد الأمر إلى مشيئة الله الطليقة ولم يقيد الإنسان الله - سبحانه - بمألوف الإنسان!

﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّكَ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجَنِّتُمْ بِقَاتِبِكُمْ رَزَبُكُمْ فَانْتَفُوا إِلَهًا وَأَطِيعُوا. إِنَّ اللَّهَ رَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ...﴾

وهذا الختام في دعوة عيسى عليه السلام لبني إسرائيل يتكشف عن حقائق أصيلة في طبيعة دين الله، وفي مفهوم هذا الدين في دعوة الرسل جميعاً - عليهم الصلاة والسلام - وهي حقائق ذات قيمة خاصة حين ترد على لسان عيسى عليه السلام بالذات، وهو الذي ثار حول مولده وحقيقته ما ثار من الشبهات، التي نشأت كلها من الانحراف عن حقيقة دين الله التي لا تبدل بين رسول ورسول.

فهو إذ يقول: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّكَ يَدَىٰ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ...﴾

يكشف عن طبيعة المسيحية الحققة. فالتوراة التي

يذهب العجب، وتزول الحيرة، ويطمئن القلب؛ ويعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب: كيف عجت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب! وهكذا كان القرآن ينشئ التصور الإسلامي لهذه الحقائق الكبيرة بمثل هذا اليسر الفطري القريب. وهكذا كان يجلو الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، ويقر الأمر في القلوب وفي العقول سواء... ثم يتابع الملك البشارة لمريم عن هذا الخلق الذي اختارها الله لإنجابه على غير مثال؛ وكيف ستمضي سيرته في بني إسرائيل... وهنا تمتزج البشارة لمريم بمقبل تاريخ المسيح، ويلتقيان في سياق واحد، كأنما يقعان اللحظة، على طريقة القرآن:

﴿وَيَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ...﴾

ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان. والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها، وإدراك الصواب واتباعه. وهي خير كثير. والتوراة كانت كتاب عيسى كالإنجيل. فهي أساس الدين الذي جاء به. والإنجيل تكملة وإحياء لروح التوراة، ولروح الدين التي طمست في قلوب بني إسرائيل. وهذا ما يخطيء الكثيرون من المتحدثين عن المسيحية فيه فيغفلون التوراة، وهي قاعدة دين المسيح عليه السلام وفيها الشريعة التي يقوم عليها نظام المجتمع؛ ولم يعدل فيها الإنجيل إلا القليل. أما الإنجيل فهو نفخة إحياء وتجديد لروح الدين، وتهذيب للضمير الإنسان بوصله مباشرة بالله من وراء النصوص. هذا الإحياء وهذا التهذيب اللذان جاء المسيح وجاهد لهما حتى مكروا به كما سيجيء.

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلَقْتُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخْرِجُ الْمَوْتِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُلُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ...﴾

ويفيد هذا النص أن رسالة - عيسى عليه السلام - كانت لبني إسرائيل، فهو أحد أنبيائهم. ومن ثم كانت التوراة التي نزلت على موسى عليه السلام وفيها الشريعة المنظمة لحياة الجماعة الإسرائيلية، والمتضمنة لقوانين التعامل

بغير شريعة. وهنا عجزت عن أن تقود الحياة الاجتماعية للأمم التي عاشت عليها، فقيادة الحياة الاجتماعية تقتضي تصوراً اعتقادياً يفسر الوجود كله، ويفسر حياة الإنسان ومكانه في الوجود؛ وتقتضي نظاماً تعديلاً وقيماً أخلاقية. ثم تقتضي - حتماً - تشريعات منظمة لحياة الجماعة، مستمدة من ذلك التصور الاعتقادي، ومن هذا النظام التعديلي، ومن هذه القيم الأخلاقية. وهذا القوام التركيبي للدين هو الذي يضمن قيام نظام اجتماعي، له بواعث المفهومة، وله ضماناته المكنية. فلما وقع ذلك الانفصال في الدين المسيحي عجزت المسيحية عن أن تكون نظاماً شاملاً للحياة البشرية، واضطر أهلها إلى الفصل بين القيم الروحية والقيم العملية في حياتهم كلها، ومن بينهما النظام الاجتماعي الذي تقوم عليه هذه الحياة. وقامت الأنظمة الاجتماعية هناك على غير قاعدتها الطبيعية الوحيدة. فقامت معلقة في الهواء أو قامت عرجاء!

ولم يكن هذا أمراً عادياً في الحياة البشرية، ولا حادثاً صغيراً في التاريخ البشري. إنما كان كارثة: كارثة ضخمة، تنبع منها الشقوة والحيرة والانحلال والشذوذ والبلاء الذي تتخبط فيه الحضارة المادية اليوم. سواء في البلاد التي لا تزال تعتنق المسيحية - وهي خالية من النظام الاجتماعي لخلوها من التشريع - أو التي نفضت عنها المسيحية وهي في الحقيقة لم تبعد كثيراً عن الذين يدعون أنهم مسيحيون. فالمسيحية كما جاء بها السيد المسيح، وكما هي طبيعة كل دين يستحق كلمة دين، هي الشريعة المنظمة للحياة، المنبثقة من التصور الاعتقادي في الله، ومن القيم الأخلاقية المستندة إلى هذا التصور. وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا تكون مسيحية. ولا يكون دين على الإطلاق! وبدون هذا القوام الشامل المتكامل لا يقوم نظام اجتماعي للحياة البشرية يلبي حاجات النفس البشرية، ويلبي واقع الحياة البشرية، ويرفع النفس البشرية والحياة البشرية كلها إلى الله.

وهذه الحقيقة هي أحد المفاهيم التي يتضمنها قول المسيح عليه السلام:

﴿وَمَصَدَقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَلِأَجْلِ لَكُمْ

تنزلت على موسى عليه السلام وهي تتضمن التشريع المنظم لحياة الجماعة وفق حاجة ذلك الزمان، وملابسات حياة بني إسرائيل (بما أنها ديانة خاصة لمجموعة من البشر في فترة من الزمان) - هذه التوراة معتمدة في رسالة المسيح عليه السلام؛ وجاءت رسالته مصدقة لها، مع تعديلات تتعلق بإحلال بعض ما حرم الله عليهم، وكان تحريره في صورة عقوبات حلت بهم على معاصي وانحرافات، أدبهم الله عليها بتحريم بعض ما كان حلالاً لهم. ثم شاءت إرادته أن يرحمهم بالمسيح عليه السلام، فيحل لهم بعض الذي حرم عليهم.

ومن هذا يتبين أن طبيعة الدين - أي دين - أن يتضمن تنظيمًا لحياة الناس بالتشريع؛ وألا يقتصر على الجانب التهذيبي الأخلاقي وحده، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها، ولا على العبادات والشعائر وحدها كذلك. فهذا لا يكون ديناً. فما الدين إلا منهج الحياة الذي أراده الله للبشر؛ ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله. ولا يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية، عن الشعائر التعبدية، عن القيم الخلقية، عن الشرائع التنظيمية، في أي دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق المنهج الإلهي. وأي انفصال لهذه المقومات يبطل عمل الدين في النفوس وفي الحياة؛ ويخالف مفهوم الدين وطبيعته كما أراده الله.

وهذا ما حدث للمسيحية. فإنها لعدة ملابسات تاريخية من ناحية؛ ولكونها جاءت موقوتة لزمن - حتى يجيء الدين الأخير - ثم عاشت بعد زمنها من ناحية. . . قد انفصل فيها الجانب التشريعي التنظيمي عن الجانب الروحاني التعبدية الأخلاقي. . . فقد حدث أن قامت العداوة المستحكمة بين اليهود والمسيح عليه السلام وأنصاره ومن اتبع دينه فيما بعد؛ فأنشأ هذا انفصلاً بين التوراة المتضمنة للشريعة والإنجيل المتضمن للإحياء الروحي والتهذيب الأخلاقي. . . كما أن تلك الشريعة كانت شريعة موقوتة لزمن خاص ولجماعة من الناس خاصة. وكان في تقدير الله أن الشريعة الدائمة الشاملة للبشرية كلها ستجيء في موعدها المقدور.

وعلى أية حال فقد انتهت المسيحية إلى أن تكون نحلة

على يده. ثم على الرغم من أن المسيح جاء ليخفف عن بني إسرائيل بعض القيود والتكاليف .

عندئذ دعا دعوته: ﴿قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ؟﴾ .

من أنصاري إلى دين الله ودعوته ومنهجه ونظامه؟ من أنصاري إلى الله لأبلغ إليه، وأؤدي عنه؟ ولا بد لكل صاحب عقيدة ودعوة من أنصار ينهضون معه، ويحملون دعوته، ويحامون دونها، ويبلغونها إلى من يليهم، ويقومون بعده عليها .

﴿قَالَ الْخَوَارِثُ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ .

فذكروا الإسلام بمعناه الذي هو حقيقة الدين، وأشهدوا عيسى عليه السلام على إسلامهم هذا وانتدابهم لنصرة الله . . أي نصرته رسولاً ودينه ومنهجه في الحياة. ثم اتجهوا إلى ربهم يتصلون مباشرة به في هذا الأمر الذي يقومون عليه: ﴿رَبَّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

وفي هذا التوجه لعقد البيعة مع الله مباشرة لفتة ذات قيمة . . إن عهد المؤمن هو ابتداء مع ربه، ومتى قام الرسول بإبلاغه فقد انتهت مهمة الرسول من ناحية الاعتقاد؛ وانعقدت البيعة مع الله، فهي باقية في عنق المؤمن بعد الرسول . . وفيه كذلك تعهد الله باتباع الرسول. فليس الأمر مجرد عقيدة في الضمير؛ ولكنه اتباع لمنهج، والاقتداء فيه بالرسول. وهو المعنى الذي يركز عليه سياق هذه السورة - كما رأينا - ويكرره بشتى الأساليب.

ثم عبارة أخرى تلفت النظر في قول الحواريين: ﴿فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ . . بأي شهادة وأي شاهدين؟

إن المسلم المؤمن بدين الله مطلوب منه أن يؤدي شهادة لهذا الدين. شهادة تؤيد حق هذا الدين في البقاء؛ وتؤيد الخير الذي يحمله هذا الدين للبشر . . وهو لا يؤدي هذه الشهادة حتى يجعل من نفسه ومن خلقه ومن سلوكه ومن حياته صورة حية لهذا الدين. صورة يراها الناس فيرون فيها مثلاً رفيعاً، يشهد لهذا الدين بالأحقية في

بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ . . إلخ . .

وهو يستند في تبليغ هذه الحقيقة على الحقيقة الكبرى الأولى: حقيقة التوحيد الذي لا شبهة فيه: ﴿وَجِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا . إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ دَرَجَاتٍ فَعَبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ . .

فهو يعلن حقيقة التصور الاعتقادي التي قام عليها دين الله كله: المعجزات التي جاءهم بها لم يحج بها من عند نفسه. فما له قدرة عليها وهو بشر. إنما جاءهم بها من عند الله. ودعوته تقوم ابتداء على تقوى الله وطاعة رسوله . . ثم يؤكد ربوبية الله له ولهم على السواء - فما هو برب وإنما هو عبد - وأن يتوجهوا بالعبادة إلى الرب، فلا عبودية إلا لله . . ويختم قوله بالحقيقة الشاملة . . فتوحيد الرب وعبادته، وطاعة الرسول والنظام الذي جاء به: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ . . وما عداه عوج وانحراف. وما هو قطعاً بالدين . .

ومن بشارة الملائكة لمريم بابنها المنتظر، وصفاته ورسائله ومعجزاته وكلماته، هذه التي ذكرت ملحقة بالبخارة . . ينتقل السياق مباشرة إلى إحساسه عليه السلام بالكفر من بني إسرائيل، وإلى طلبه الأنصار لإبلاغ دين الله: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ مَنْ أَنْصَارُ اللَّهِ أَمَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . رَبَّنَا أَمَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ .

وهنا فجوة كبيرة في السياق. فإنه لم يذكر أن عيسى قد ولد بالفعل؛ ولا أن أمه واجهت به القوم فكلهم في المهد؛ ولا أنه دعا قومه وهو كهل؛ ولا أنه عرض عليهم هذه المعجزات التي ذكرت في البشارة لأمه (كما جاء في سورة مريم) . . وهذه الفجوات ترد في القصص القرآني، لعدم التكرار في العرض من جهة، وللاقتصار على الحلقات والمشاهد المتعلقة بموضوع السورة وسياقها من جهة أخرى . .

والآن لقد أحس عيسى الكفر من بني إسرائيل - بعدما أراهم كل تلك المعجزات التي لا تنهيا لبشر؛ والتي تشهد بأن الله وراها، وأن قوة الله تؤيدها، وتؤيد من جاءت

الوجود، وبالخيرية والأفضلية على سائر ما في الأرض من أنظمة وأوضاع وتشكيلات.

وهو لا يؤدي هذه الشهادة كذلك حتى يجعل من هذا الدين قاعدة حياته، ونظام مجتمعه، وشرعية نفسه وقومه. فيقوم مجتمع من حوله، تدبر أموره وفق هذا المنهج الإلهي القويم. وجهاده لقيام هذا المجتمع، وتحقيق هذا المنهج؛ وإيثاره الموت في سبيله على الحياة في ظل مجتمع آخر لا يحقق منهج الله في حياة الجماعة البشرية. هو شهادته بأن هذا الدين خير من الحياة ذاتها وهي أعز ما يحرص عليه الأحياء! ومن ثم يدعى ﴿شَهِيدًا﴾.

فهؤلاء الحواريون يدعون الله أن يكتبهم مع الشاهدين لدينه. أي أن يوقفهم ويعينهم في أن يجعلوا من أنفسهم صورة حية لهذا الدين؛ وأن يبعثهم للجهاد في سبيل تحقيق منهجه في الحياة، وإقامة مجتمع يتمثل فيه هذا المنهج. ولو أدوا ثمن ذلك حياتهم ليكونوا من «الشهداء» على حق هذا الدين.

وهو دعاء جدير بأن يتأمله كل من يدعي لنفسه الإسلام. فهذا هو الإسلام، كما فهمه الحواريون. وكما هو في ضمير المسلمين الحقيقيين! ومن لم يؤد هذه الشهادة لدينه فكتمها فهو آثم قلبه. فأما إذا ادعى الإسلام ثم سار في نفسه غير سيرة الإسلام؛ أو حاولها في نفسه، ولكنه لم يؤدها في المجال العام، ولم يجاهد لإقامة منهج الله في الحياة إيثاراً للعافية، وإيثاراً لحياته على حياة الدين، فقد قصر في شهادته أو أدى شهادة ضد هذا الدين. شهادة تصد الآخرين عنه. وهم يرون أهله يشهدون عليه لاله! وويل لمن يصد الناس عن دين الله عن طريق ادعائه أنه مؤمن بهذا الدين، وما هو من المؤمنين! ويمضي السياق إلى خاتمة القصة بين عيسى عليه

السلام وبني إسرائيل:

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ. إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأَعَذُّهُمْ عَذَابًا سَدِيدًا فِي الدُّنْيَا

وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمُ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ..

﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَكِرِينَ..﴾
والمشكلة هنا في اللفظ هي وحدها التي تجمع بين تدبيرهم وتدبير الله. والمكر التدبير. ليسخر من مكرهم وكيدهم إذا كان الذي يواجهه هو تدبير الله. فأين هم من الله؟ وأين مكرهم من تدبير الله؟

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ..﴾

فأما كيف كانت وفاته، وكيف كان رفعه. فهي أمور غيبية تدخل في المتشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله. ولا طائل وراء البحث فيها. لا في عقيدة ولا في شريعة. والذين يجرون وراءها، ويجعلونها مادة للجدل، ينتهي بهم الحال إلى المراء، وإلى التخليط، وإلى التعقيد. دون ما جزم بحقيقة، ودون ما راحة بال في أمر موكل إلى علم الله.

وأما أن الله جعل الذين اتبعوه فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. فلا يصعب القول فيه. فالذين اتبعوه هم الذين يؤمنون بدين الله الصحيح. الإسلام. الذي عرف حقيقته كل نبي، وجاء به كل رسول، وآمن به كل من آمن حقاً بدين الله. وهؤلاء فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة في ميزان الله. كما أنهم كذلك في واقع الحياة كلما واجهوا معسكر الكفر بحقيقة الإيمان، وحقيقة الاتباع. ودين الله واحد. وقد جاء به عيسى بن مريم كما جاء به من قبله ومن بعده كل رسول. والذين يتبعون محمداً - ﷺ - هم في الوقت ذاته اتبعوا موكب الرسل كلهم. من لدن آدم - عليه الإسلام - إلى آخر الزمان.

وهذا المفهوم الشامل هو الذي يتفق مع سياق السورة، ومع حقيقة الدين كما يركز عليها هذا السياق. فأما نهاية المطاف للمؤمنين والكافرين، فيقررها السياق في صدد إخبار الله لعيسى عليه السلام: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا

التلاوة على محمد نبيه؟ تلاوة الآيات والذكر الحكيم . .
وإنه لحكيم يتولى تقرير الحقائق الكبرى في النفس
والحياة بمنهج وأسلوب وطريقة تخاطب الفطرة وتلطف
في الدخول عليها والصلوق بها بشكل غير معهود فيما
يصدر عن غير هذا المصدر الفريد .

ثم يحسم التعقيب في حقيقة عيسى عليه السلام، وفي
طبيعة الخلق والإرادة التي تنشئ كل شيء كما أنشأت
عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ
خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ . . إن ولادة عيسى
عجيبة حقاً بالقياس إلى مألوف البشر . ولكن أية غرابة
فيها حين تقاس إلى خلق آدم أبي البشر؟ وأهل الكتاب
الذين كانوا يناظرون ويجادلون حول عيسى - بسبب مولده
- وبصوغون حوله الأوهام والأساطير بسبب أنه نشأ من
غير أب . . أهل الكتاب هؤلاء كانوا يقرون بنشأة آدم من
التراب، وأن النفخة من روح الله هي التي جعلت منه هذا
الكائن الإنساني . . دون أن يصوغوا حول آدم الأساطير
التي صاغوها حول عيسى . ودون أن يقولوا عن آدم: إن له
طبيعة لاهوتية . على حين أن العنصر الذي به صار آدم
إنساناً هو ذاته العنصر الذي به ولد عيسى من غير أب:
عنصر النفخة الإلهية في هذا وذاك! وإن هي إلا الكلمة:
«كن» تنشئ ما تراد له النشأة «فيكون»!

وهكذا تتجلى بساطة هذه الحقيقة . . حقيقة عيسى،
وحقيقة آدم، وحقيقة الخلق كله . وتدخل إلى النفس في
يسر وفي وضوح، حتى ليعجب الإنسان: كيف ثار الجدل
حول هذا الحادث، وهو جار وفق السنة الكبرى . سنة
الخلق والنشأة جميعاً

وهذه هي طريقة ﴿وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ﴾ في مخاطبة الفطرة
بالمناطق الفطرية الواقعي البسيط، في أعقد القضايا، التي
تبدو بعد هذا الخطاب وهي اليسر الميسور!

فَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ
نَاصِرِينَ . وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ . . وفي هذا النص
تقرير لجدية الجزاء وللقسط الذي لا يميل شعرة، ولا
تتعلق به الأماني ولا الافتراء . . رجعة إلى الله لا محيد
عنها . وحكم من الله فيما اختلفوا فيه لا مرد له . وعذاب
شديد في الدنيا والآخرة للكافرين لا ناصر لهم منه .
وتوفية للأجر للذين آمنوا وعملوا الصالحات لا محاباة فيه
ولا بخس . . ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ . . فحاشا أن يظلم
وهو لا يحب الظالمين . .

وكل ما يقوله أهل الكتاب إذن من أنهم لن يدخلوا النار
إلا أياماً معدودات . وكل ما رتبوه على هذا التميع في
تصور عدل الله في جزائه من أماني خادعة . . باطل باطل لا
يقوم على أساس .

وعندما يصل السياق إلى هذا الحد من قصة عيسى التي
تدور حولها المناظرة ويدور حولها الجدل، يبدأ التعقيب
الذي يقرر الحقائق الأساسية المستفادة من هذا القصص،
ويتهيأ إلى تلقين الرسول - ﷺ - ما يواجه به أهل الكتاب
مواجهة فاصلة تنهي الحوار والجدل؛ وتستقر على حقيقة
ما جاء به، وما يدعو إليه، في وضوح كامل وفي يقين:

﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ ٱلْآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ . إِنَّ
مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ . . . فَإِنْ
تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ ٱشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . .

وهكذا نجد هذا التعقيب يتضمن ابتداء صدق الوحي
الذي يوحى إلى محمد - ﷺ - : ﴿ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ
ٱلْآيَاتِ وَٱلذِّكْرِ ٱلْحَكِيمِ﴾ . .

ذلك القصص . وذلك التوجيه القرآني كله . فهو وحي
من الله . يتلوه الله على نبيه - ﷺ - وفي التعبير معنى
التكريم والقرب والود . . فماذا بعد أن يتولى الله تعالى

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

(سورة آل عمران، رقم ٣، الآية ٨٤-٨٥)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٣	ص ٢٤٠ - ٢٤١	أبو حيان الأندلسي	ج ٢	ص ٥١٦ - ٥١٧
الزمخشري	ج ١	ص ٤٤٢	ابن كثير	ج ١	ص ٣٧٨ - ٣٧٩
الرازي	ج ٨	ص ١٢٣ - ١٢٦	الجلالان		ص ٧٦
الطبرسي	ج ٣	ص ١٣٢ - ١٣٥	الشوكاني	ج ١	ص ٣٥٧ - ٣٥٨
ابن عربي	ج ١	ص ١٩٧ - ٢٠٠	الألويسي	ج ٢	ص ٢١٤ - ٢١٦
البيضاوي	ج ٢	ص ٢٨ - ٢٩	القاسمي	ج ٤	ص ١٣٥ - ١٣٦
الخازن	ج ١	ص ٣٧٥ - ٣٧٦	محمد عبده	ج ٢	ص ٣٥٦ - ٣٦١
البغوي	ج ١	ص ٢٥١	الطباطبائي	ج ٢	ص ٣٦٤ - ٣٧٢
الماوردي	ج ١	ص ٤٠٧	جوهري	ج ٢	ص ١٣١ - ١٣٢
القرطبي	ج ٤	ص ١٢٧ - ١٢٩	المراغي	ج ١	ص ٢٠٢ - ٢٠٥
			سيد قطب	ج ١	ص ٤٢١ - ٤٢٥

الطبري ج ٣ ص ٢٤٠ - ٢٤١

﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ يقول: وصدقنا أيضاً مع ذلك بالذي أنزل الله على موسى وعيسى من الكتب والوحي، وبما أنزل على النبيين من عنده. والذي أتى الله موسى وعيسى، مما أمر الله عز وجل محمداً بتصدقهما فيه والإيمان به، التوراة التي آتاها موسى والإنجيل الذي آتاه عيسى. ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ يقول لا نصدق بعضهم ونكذب بعضهم، ولا نؤمن ببعضهم ونكفر ببعضهم كما كفر اليهود والنصارى ببعض أنبياء الله، وصدقنا بعضاً ولكننا نؤمن بجميعهم ونصدقهم ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني: ونحن ندين الله بالإسلام لا ندين غيره، بل ننتبرأ إليه من كل دين سواه، ومن كل ملة غيره. ويعني بقوله ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ونحن له منقادون بالطاعة، متدللون بالعبودية، مقرون له بالألوهة والربوبية، وأنه لا إله غيره. وقد ذكرنا الرواية بمعنى ما قلنا في ذلك فيما مضى وكرهنا إعادته.

القول في تأويل قوله ﴿وَمَنْ يَّبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يطلب ديناً غير دين الإسلام ليدين به فلن يقبل

القول في تأويل قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه «أفغير دين الله تبغون» يا معشر اليهود، «وله أسلم من في السموات والأرض طوعاً وكرهاً وإليه ترجعون»، فإن ابتغوا غير دين الله، يا محمد، فقل لهم ﴿ءَامَنَّا بِاللّٰهِ﴾ فترك ذكر قوله: «فإن قالوا نعم»، وذكر قوله: «فإن ابتغوا غير دين الله»، لدلالة ما ظهر من الكلام عليه. وقوله ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ﴾ يعني به: قل لهم يا محمد: صدقنا بالله أنه ربنا وإلهنا، لا إله غيره ولا نعبد أحداً سواه، ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ يقول: وقل: وصدقنا أيضاً بما أنزل علينا من وحيه وتنزيله، فأقررنا به ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ يقول: وصدقنا أيضاً بما أنزل على إبراهيم خليل الله، وعلى ابنه اسمعيل وإسحق، وابن ابنه يعقوب، وبما أنزل على «الأسباط» وهم ولد يعقوب الاثنا عشر، وقد بينا أسماءهم بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع

جُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾ [آل عمران: ٩٧] حدثني يونس قال أخبرنا سفيان عن ابن أبي نجيح عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ إلى آخر الآية، قالت اليهود: ونحن مسلمون! قال الله عز وجل لنبيه ﷺ: قل لهم إن ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾.

وقال آخرون في هذه الآية بما حدثنا به المثنى... عن ابن عباس قوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِغِينَ مِنَ ءَمَنِ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢]، فأنزل الله عز وجل بعد هذا ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾.

الزمخشري ج ١ ص ٤٤٢

الرسول يأتيه الوحي عن طريق الاستعلاء ويأتيهم على وجه الانتهاء فقد تعسف؛ ألا ترى إلى قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّيْنَ﴾، وإلى قوله ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا الدَّيْنَ﴾ [آل عمران: ٧٢] ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ثم قال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ﴾ يعني التوحيد وإسلام الوجه لله تعالى ﴿دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ﴿مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ وقرئ - ومن يبتغ غير الإسلام - بالإدغام.

الله منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يقول: من الباطسين أنفسهم حظوظها من رحمة الله عز وجل. وذكر أن أهل كل ملة ادعوا أنهم هم المسلمون لما نزلت هذه الآية، فأمرهم الله بالحج إن كانوا صادقين لأن من سنة الإسلام الحج فامتنعوا فأدحض الله بذلك حجتهم. ذكر الخبر بذلك حدثني المثنى... عن ابن أبي نجيح قال زعم عكرمة: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ فقالت الملل: نحن المسلمون فأنزل الله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحج المسلمون وقعد الكفار. حدثني المثنى... عن عكرمة قال ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾، قالت اليهود: فنحن المسلمون! فأنزل الله عز وجل لنبيه ﷺ يحجهم إن: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ

أمر رسول الله ﷺ بأن يخبر عن نفسه وعمن معه بالإيمان فلذلك وحد الضمير في ﴿قُلْ﴾ وجمع في ﴿ءَامِنًا﴾ من الله لقد ربي. فإن قلت: لم عدى أنزل في هذه الآية بحرف الاستعلاء وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتهاء؟ قلت: لوجود المعنيين جميعاً لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، ومن قال إنما قيل ﴿عَلَيْنَا﴾ لقوله ﴿قُلْ﴾ وإلينا لقوله قولوا تفرقة بين الرسول والمؤمنين لأن

الرازي ج ٨ ص ١٢٣ - ١٢٦

المسألة الأولى: وحد الضمير في ﴿قُلْ﴾، وجمع في ﴿ءَامِنًا﴾ وفيه وجوه: (الأول): إنه تعالى حين خاطبه، إنما خاطبه بلفظ الوجدان، وعلمه إنه حين يخاطب القوم يخاطبهم بلفظ الجمع على وجه التعظيم والتفخيم، مثل ما يتكلم الملوك والعظماء. (الثاني): أنه خاطبه أولاً بخطاب الوجدان ليدل هذا الكلام على أنه لا مبلغ لهذا التكليف من الله إلى الخلق إلا هو، ثم قال ﴿ءَامِنًا﴾ تنبيهاً على أنه حين يقول هذا القول فإن أصحابه يوافقونه عليه. (الثالث): إنه تعالى عينه في هذا التكليف بقوله

قوله تعالى ﴿قُلْ ءَامِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآية المتقدمة أنه إنما أخذ الميثاق على الأنبياء في تصديق الرسول الذي يأتي مصدق لما معهم بين في هذه الآية أن من صفة محمد ﷺ كونه مصدقاً لما معهم فقال: ﴿قُلْ ءَامِنَّا بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وههنا مسائل:

جميعاً، لأن الوحي ينزل من فوق وينتهي إلى الرسل، فجاء تارة بأحد المعنيين وأخرى بالآخر، وقيل أيضاً إنما قيل ﴿عَلَيْهَا﴾ في حق الرسول، لأن الوحي ينزل عليه «وإليها» في حق الأمة لأن الوحي يأتيهم من الرسول على وجه الانتهاء وهذا تعسف، ألا ترى إلى قوله ﴿بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ وإلى قوله ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢].

المسألة الثالثة: اختلف العلماء في أن الإيمان بهؤلاء الأنبياء الذين تقدموا ونسخت شرائعهم كيف يكون؟ وحقيقة الخلاف، أن شرعه لما صار منسوخاً، فهل تصير نبوته منسوخة؟ فمن قال إنها تصير منسوخة قال: نؤمن أنهم كانوا أنبياء ورسلاً، ولا نؤمن بأنهم الآن أنبياء ورسلاً، ومن قال إن نسخ الشريعة لا يقتضي نسخ النبوة قال: نؤمن أنهم أنبياء ورسلاً في الحال فتنبه لهذا الموضع.

المسألة الرابعة: قوله ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ فيه وجوه: (الأول): قال الأصم: التفرق قد يكون بتفضيل البعض على البعض، وقد يكون لأجل القول بأنهم ما كانوا على سبيل واحد في الطاعة لله، والمراد من هذا الوجه يعني: نفر بأنهم كانوا بأسرهم على دين واحد في الدعوة إلى الله، وفي الإنقياد لتكاليف الله. (الثاني): قال بعضهم المراد ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بأن نؤمن ببعض دون بعض كما تفرقت اليهود والنصارى. (الثالث): قال أبو مسلم ﴿لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي لا نفرق ما أجمعوا عليه، وهو كقوله ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] وذم قوما وصفهم بالتفرق فقال ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٤].

أما قوله ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ ففيه وجوه: (الأول): إن إقرارنا بنبوة هؤلاء الأنبياء إنما كان لأجل كوننا منقادين لله تعالى مستسلمين لحكمه وأمره، وفيه تنبيه على أن حاله على خلاف الذين خاطبهم الله بقوله ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]. (الثاني): قال أبو مسلم ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مستسلمون لأمر الله بالرضا، وترك المخالفة

﴿قُلْ﴾ ليظهر به كونه مصدقاً لما معهم، ثم قال ﴿ءَامِنًا﴾ تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه، بل هو لازم لكل المؤمنين كما قال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامِنٌ بِاللَّهِ وَمَلَكِيَّتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

المسألة الثانية: قدم الإيمان بالله على الإيمان بالأنبياء، لأن الإيمان بالله أصل الإيمان بالنبوة، وفي المرتبة الثانية ذكر الإيمان بما أنزل عليه، لأن كتب سائر الأنبياء حرفوها وبدلوها فلا سبيل إلى معرفة أحوالها إلا بما أنزله الله على محمد ﷺ، فكان ما أنزل على محمد كالأصل لما أنزل على سائر الأنبياء فلهذا قدمه عليه، وفي المرتبة الثالثة ذكر بعض الأنبياء وهم الأنبياء الذين يعترف أهل الكتاب بوجودهم، ويختلفون في نبوتهم ﴿وَالْأَسْبَاطُ﴾ في سورة الأعراف، وإنما أوجب الله تعالى الإقرار بنبوة كل الأنبياء عليهم السلام لفوائده: (إحداها): إثبات كونه عليه السلام مصدقاً لجميع الأنبياء، لأن هذا الشرط كان معتبراً في أخذ الميثاق. (ثانيها): التنبيه على أن مذاهب أهل الكتاب متناقضة، وذلك لأنهم إنما يصدقون النبي الذي يصدقونه لمكان ظهور المعجزة عليه، وهذا يقتضي أن كل من ظهرت المعجزة عليه كان نبياً، وعلى هذا يكون تخصيص البعض بالتصديق والبعض بالتكذيب متناقضاً، بل الحق تصديق الكل والاعتراف بنبوة الكل. (ثالثها): إنه قال قبل هذه الآية ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣]، وهذا تنبيه على أن إصرارهم على تكذيب بعض الأنبياء إعراض عن دين الله ومنازعة مع الله، فههنا أظهر الإيمان بنبوة جميع الأنبياء، ليزول عنه وعن أمته ما وصف أهل الكتاب به من منازعة الله في الحكم والتكليف. (رابعها): أن في الآية الأولى ذكر أنه أخذ الميثاق على جميع النبيين، أن يؤمنوا بكل من أتى بعدهم من الرسل، وههنا أخذ الميثاق على محمد ﷺ بأن يؤمن بكل من أتى قبله من الرسل، ولم يأخذ عليه الميثاق لمن يأتي بعده من الرسل، فكانت هذه الآية دالة من هذا الوجه على أنه لا نبي بعده البتة، فإن قيل: لم عدى ﴿أُنْزِلَ﴾ في هذه الآية بحرف الاستعلاء، وفيما تقدم من مثلها بحرف الانتباه؟ قلنا: لوجود المعنيين

ويرضى عن فاعله ويثيبه عليه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ يعني الذين وقعوا في الخسارة وروى ابن جرير الطبري فلم يحجوا.

الانتهاء. قلت: لوجود المعنيين جميعاً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يعني أن الدين المقبول لأن الدين الصحيح ما يأمر الله به

القرطبي ج ٤ ص ١٢٧ - ١٢٩

بمكة كفاراً، فنزلت هذه الآية، ثم أرسل إلى أخيه يطلب التوبة. وروى ذلك عن أبن عباس وغيره. قال ابن عباس: وأسلم بعد نزول الآيات. ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، قال هشام: أي وهو خاسر في الآخرة من الخاسرين؛ ولولا هذا لفرقت بين الصلة والموصول. وقال المازني: الألف واللام مثلها في الرجل. وقد تقدّم هذا في البقرة عند قوله: ﴿وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [البقرة: ١٣٠].

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾

﴿غَيْرَ﴾ مفعول يبتغى، ﴿دِينًا﴾ منصوب على التفسير، ويجوز أن ينتصب ﴿دِينًا﴾ بيبغى، وينتصب ﴿غَيْرَ﴾ على أنه حال من الدين. قال مجاهد والسُّدِّي: نزلت هذه الآية في الحارث بن سُويد أخو الجلاس بن سويد، وكان من الأنصار، ارتد عن الإسلام هو وأثنا عشر معه، ولحقوا

أبو حيان الأندلسي ج ٢ ص ٥١٦ - ٥١٧

فقال ابن عطية: الإنزال على نبي الأمة إنزال عليها... وقال الراغب: إنما قال هنا ﴿عَلَيْكَ﴾ لأن ذلك لما كان خطاباً للنبي ﷺ وكان واصلاً إليه من الملاء الأعلى بلا واسطة بشر كان لفظ ﴿عَلَيْكَ﴾ المختص بالعلو أولى به، وهناك لما كان خطاباً للأمة وقد وصل إليهم بواسطة النبي ﷺ كان لفظ إلى المختص بالإيصال أولى. ويجوز أن يقال: أنزل عليه إنما يحمل على ما أمر المنزل عليه أن يبلغ غيره، وأنزل إليه ما خص به في نفسه وإليه نهاية الإنزال وعلى ذلك قال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١]. وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤] خص هنا بإلى لما كان مخصوصاً بالذكر الذي هو بيان المنزل. وهذا كلام في الأولى لا في الوجوب انتهى كلامه. وذكر الرمخشري أن من قال هذا الفرق فقد تعسف. قال: ألا ترى إلى قوله: ﴿بِمَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [المائدة: ٤٨] وإلى قوله: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ آلِهِ﴾ ﴿ءَامِنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] انتهى. وأما إعادة لفظ (وما أوتي) فلأنه لما كان لفظ الخطاب عاماً ومن حكم خطاب العام البسط دون الإيجاز، ولما كان الخطاب هنا خاصاً اكتفى فيه بالإيجاز ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ

...﴾ ﴿قُلْ ءَامِنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ هذه الآية موافقة لما في البقرة إلا في ﴿قُلْ﴾ وفي ﴿عَلَيْنَا﴾ وفي ﴿وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ﴾ وقد تقدّم شرح ما في البقرة فأغنى عن إعادته هنا إلا ما وقع فيه الخلاف، فنقول الظاهر في «قل» إنه خطاب للنبي ﷺ أمر أن يخبر عن نفسه وعن أمته بقوله: آمنا به، ويقوى أنه أخبار عنه وعن أمته قوله أخيراً ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾، وأفرد بالخطاب بقوله ﴿قُلْ﴾ لأنه تقدّم ذكره في أخذ الميثاق في قوله ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ٨١]، فعينه في هذا التكليف ليظهر فيه كونه مصداقاً لما مع الأنبياء الذين أخذ عليهم الميثاق، وقال ﴿ءَامِنَّا﴾ تنبيهاً على أن هذا التكليف ليس من خواصه بل هو لازم لكل المؤمنين. قال تعالى ﴿كُلٌّ ءَامِنٌ بِاللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥] بعد قوله ﴿ءَامِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٥]... وقال ابن عطية: المعنى قل يا محمد أنت وأمتك آمنا بالله فيظهر من كلام ابن عطية أن ثم معطوفاً حذف، وأن ثم الأمر متوجه إلى النبي ﷺ وأمته، وأما تعدية ﴿أُنْزِلَ﴾ هنا بعلى وفي البقرة بإلى.

إِبْلًا وشاء» ومفعول ﴿يَبْتَغِ﴾ هو ﴿عَيْرَ﴾. وقيل ﴿دِينًا﴾ مفعول و﴿عَيْرَ﴾ منصوب على الحال لأنه لو تأخر كان نعتاً، وقيل ﴿دِينًا﴾ بدل من ﴿عَيْرَ﴾ والجمهور على إظهار الغينين، وروي عن أبي عمرو الإدغام ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الخسران في الآخرة: هو حرمان الثواب وحصول العقاب، شبه في تضييع زمانه في الدنيا باتباع غير الإسلام بالذي خسر في بضاعته ويحتمل أن تكون هذه الجملة قد عطف على جواب الشرط فيكون قد ترتب على ابتغاء غير الإسلام ديناً عدم القبول والخسران، ويحتمل أن لا تكون معطوفة عليه بل هي استئناف إخبار عن حاله ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده أي وهو خاسر ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ أو بإضمار أعني أو بالخاسرين على أن الألف واللام ليست موصولة بل للتعريف كهي في الرجل أو به على أنها موصولة وتسومح في الصرف والمجرور لأنه يتسع فيها ما لا يتسع في غيرهما وكل منقول وقد تقدّم لنا نظيره.

ابن كثير ج ١ ص ٣٧٨ - ٣٧٩

هذه الأمة يؤمنون بكل نبي أرسل، وبكل كتاب أنزل لا يكفرون بشيء من ذلك بل هم يصدقون بما أنزل من عند الله، وبكل نبي بعثه الله.

ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ عَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ الآية، أي من سلك طريقاً سوي ما شرعه الله فلن يقبل منه ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»...

الشوكاني ج ١ ص ٣٥٧ - ٣٥٨

وكرهاً على الحال، أي طائعين ومكرهين. والطوع: الانقياد والاتباع بسهولة، والكره: ما فيه مشقة وهو من أسلم مخافة القتل وإسلامه واستسلام منه. قوله (أما) إخبار منه ﷺ عن نفسه وعن أمته ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كما فرقت اليهود والنصارى فآمنوا ببيعوا وكفروا ببعض. وقد تقدّم تفسير هذه الآية ﴿وَنَحْنُ كُلُّ مُسْلِمُونَ﴾ أي

مِنَهُ، الإسلام هنا قيل: هو الاستسلام إلى الله والتفويض إليه، وهو مطلوب في كل زمان ومكان وشريعة... وقيل: المراد بالإسلام شريعة محمد ﷺ بين تعالى أن من تحرّى بعد مبعثه شريعة غير شريعته فغير مقبول منه وهو الدين الذي وافق في معتقده دين من ذكر من الأنبياء. قيل: وعن ابن عباس لما نزلت ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِرِينَ﴾ الآية أنزل الله بعدها ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ الآية، وهذا إشارة إلى نسخ (إن الذين آمنوا). وعن عكرمة لما نزلت قالوا للنبي ﷺ قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: حجهم يا محمد وأنزل ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ [آل عمران: ٩٧] فحج المسلمون وقعد الكفار.

وقيل: نزلت في الحرث بن سويد وستأتي قصته بعد هذا، وقبول العمل هو رضاه وإثابة فاعله عليه. وانتصب (ديناً) على التمييز لغير، لأن غير مبهمة ففسرت بدين، كما أن مثلاً مبهمة فتفسر أيضاً، وهذا كقولهم «لنا غيرها

ثم قال تعالى ﴿قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ يعني القرآن ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا مِنْ بَرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ﴾، أي من الصحف والوحي ﴿وَالْأَنْبِيَاءِ﴾، وهم بطون بني إسرائيل المتشعبة من أولاد إسرائيل - وهو يعقوب - الاثني عشر، ﴿وَمَا أَوْفَى مُوسَى وَعِيسَى﴾ يعني بذلك التوراة والإنجيل ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ وهذا يعم جميع الأنبياء جملة ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني: بل نؤمن بجميعهم ﴿وَنَحْنُ كُلُّ مُسْلِمُونَ﴾ فالمؤمنون من

قوله ﴿أَفَعَيَّرَ﴾ عطف على مقدّر: أي أتولون فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول لأنه المقصود بالإلكار. وقرأ أبو عمرو وحده (يبغون) بالتحية، و(ترجعون) بالفوقية، قال: لأن الأول خاص والثاني عام، ففرّق بينهما لافتراقهما في المعنى. وقرأ حفص بالتحية في الموضعين. وقرأ الباقر بالفوقية فيهما وانتصب طوعاً

أول بالمشتق، أو بدل من غير. قوله ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنْ الْخَيْرِينَ﴾ إما في محل نصب على الحال أو جملة مستأنفة: أي من الواقعين في الخسران يوم القيامة. . .

منقادون ومخلصون. قوله ﴿وَيْتًا﴾ مفعول للفعل: أي يتبع ديناً حال كونه غير الإسلام، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل، ودينا إما تمييز أو حال إذا

الألوسي ج ٢ ص ٢١٤ - ٢١٦

فوقاني وإن اعتبرت انتهاء إلى من هو له عديته - بإلى - ويلاحظ أحد الاعتبارين تارة والآخر أخرى تفننا بالعبارة، وفرق الراغب بأن ما كان واصلاً من الملاء الأعلى بلا واسطة كان لفظ - على - المختص بالعلو أولى به، وما لم يكن كذلك كان لفظ - إلى - المختص بالإيصال أولى به وقيل: أنزل عليه يحمل على أمر المنزل عليه أن يبلغه غيره، وأنزل إليه يحمل على ما خص به نفسه لأن إليه انتهاء الإنزال - وكلا القولين - لا يخلو عن نظر ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ قيل: خص هؤلاء الكرام بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم، والمراد بالموصول الصحف - كما هو الظاهر - وقدم المنزل عليه عليه الصلاة والسلام على المنزل عليهم إما لتعظيمه والاعتناء به، أو لأنه المعرف له ومعرفة المعرف تتقدم على معرفة المعرف، والأسباط الأحفاد لا أولاد البنات، والمراد بهم على رأي أبناء يعقوب الاثنا عشر وذريتهم، وليس كلهم أبناء خلافاً لزاعمه ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ من التوراة والإنجيل. وسائر المعجزات - كما يشعر به إيثار الإتياء على الإنزال الخاص بالكتاب - وقيل: هو خاص بالكتابين، وتغيير الأسلوب للاعتناء بشأن الكتابين، وتخصيص هذين النبيين بالذكر لما أن الكلام مع اليهود والنصارى ﴿وَالنَّبِيِّينَ﴾ عطف على موسى. وعيسى أي - وبما أوتي النبيون - على تعدد أفرادهم واختلاف أسمائهم ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ متعلق بأوتي، وفي التعبير بالرب مضافاً إلى ضميرهم ما لا يخفى من اللطف. ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ أي بالتصديق والتكذيب، فعل اليهود والنصارى - والتفريق بغير ذلك كالتفضيل جائز ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي مستسلمون بالطاعة والانقياد في جميع ما أمر به ونهى عنه، أو مخلصون له في العبادة، وعلى

﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ أمر للرسول ﷺ أن يخبر عن نفسه والمؤمنين بالإيمان بما ذكر، فضمير آمنا للنبي ﷺ والأمة، وقال المولى عبد الباقي: لما أخذ الله تعالى الميثاق من النبيين أنفسهم أن يؤمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام وينصروه أمر محمداً أيضاً ﷺ أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به وبكتبهم فيكون ﴿ءَامَنَّا﴾ في موضع آمنت لتعظيم نبينا عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام، أو لما عهد مع النبيين وأممهم أن يؤمنوا أمر محمداً عليه الصلاة والسلام وأمته أن يؤمنوا بهم وبكتبهم.

والحاصل أخذ الميثاق من الجانبين على الإيمان على طريقة واحدة، ولم يتعرض هنا لحكمة الأنبياء السالفين إما لأن الإيمان بالكتاب المنزل إيمان بما فيه من الحكمة، أو للإشارة إلى أن شريعتهم منسوخة في زمن هذا النبي ﷺ، وكلاهما على تقدير كون الحكمة بمعنى الشريعة، ولم يتعرض لنصرتة عليه الصلاة والسلام لهم إذ لا مجال بوجه لنصرة السلف، ويؤيد دعوى أخذ الميثاق من الجانبين ما أخرجه عبد الرزاق. وغيره عن طاوس أنه قال: أخذ الله تعالى ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم بعضاً ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ﴾ . . . ومن هنا أتى بضمير الجمع، وقد يعتبر الإنزال عليه عليه الصلاة والسلام وحده، ولكن نسب إلى الجمع ما هو منسوب لواحد منه مجازاً على ما قيل، ويحتمل أن تكون النون نون العظمة لا ضمير الجماعة، وعدى الإنزال هنا - بعلى - وفي البقرة - بإلى - لأنه له جهة علو باعتبار ابتدائه، وانتهاء باعتباره آخراً، وقد جعل الخطاب هنا للنبي ﷺ فناسبه الاستعلاء وهناك للعموم، فناسب الانتهاء كذا قيل، ويرد عليه قوله تعالى: ﴿ءَاْمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] والتحقيق أنه لا فرق بين المعدى - بإلى - والمعدى - بعلى - إلا بالاعتبار، فإن اعتبرت مبدأه عديته - بعلى - لأنه

مفعول ﴿يَبْتَغِ﴾ و﴿غَيْرَ﴾ صفة قدمت فصارت حالاً، وقيل: هو بدل من (غير الإسلام) والجمهور على إظهار الغينين، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وضعفه أبو البقاء بأن كسرة الغين الأولى تدل على الياء المحذوفة ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ إما معطوفة على جواب الشرط فتكون في محل جزم، وإما في محل الحال من الضمير المجرور فتكون في محل نصب، وإما مستأنفة فلا محل لها من الإعراب، و﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بمحذوف يدل عليه ما بعده - أي وهو خاسر في الآخرة - أو متعلق بالخاسرين...

القاسمي ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٦

ويتهيء إلى الرسول، فجاء تارة بأحد المعنيين، وأخرى بالآخر، وقال صاحب (اللباب): الخطاب في البقرة للأمة لقوله: قُولُوا. فلم يصح إلا (إلى) لأن الكتب منتهية إلى الأنبياء وإلى أمتهم جميعاً. وهنا قال ﴿قُلْ﴾، وهو خطاب للنبي ﷺ دون أمته، فكان اللائق به ﴿عَلَيْكَ﴾ لأن الكتب منزلة عليه لا شركة للأمة فيها.

وفيه نظر، لقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [آل عمران: ٧٢] أفاده النسقي.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ﴾ أي يطلب ﴿غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾ أي غير التوحيد والانقياد لحكم الله تعالى. كدأب المشركين صريحاً. والمدعين للتوحيد مع إشراكهم كأهل الكتابين ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأنه لم ينقد لأمر الله. وفي الحديث الصحيح: من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردٌ ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ لضلاله وجوه الهداية في الدنيا...

محمد عبده ج ٣ ص ٣٥٦ - ٣٦١

إِلَيْنَا [البقرة: ١٣٦] إلخ، وقد عدى الإنزال هناك بإلى الدالة على الغاية والانتهاج وهنا بعلى التي للاستعلاء وكلا المعنيين صحيح كما قال في الكشف رامياً بالتعسف من فرق بين التعديتين باختلاف المأمور بالقول في الآيتين، إذ هو هناك المؤمنون وهنا النبي ﷺ لأن التعدية بإلى وردت في خطاب النبي، والتعدية بعلى وردت في خطاب غيره

التقديرين لا تكون هذه الجملة مستدركة بعد جملة الإيمان كما هو ظاهر، وقيل: إن أهل الملل المخالفة للإسلام كانوا كلهم يقرون بالإيمان ولم يكونوا يقرون بلفظة الإسلام فلماذا أردف تلك الجملة بهذه.

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾... والإسلام قيل: التوحيد والإنقياد، وقيل: شريعة نبينا عليه الصلاة والسلام بين تعالى أن من تحرى بعد مبعثه ﷺ غير شريعته فهو غير مقبول منه، وقبول الشيء هو الرضا به وإثابة فاعله عليه، وانتصاب ﴿دِينًا﴾ على التمييز من ﴿غَيْرَ﴾ وهي مفعول ﴿يَبْتَغِ﴾ وجوز أن يكون ﴿دِينًا﴾

﴿قُلْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ﴾ أي أولاد يعقوب ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ بالإيمان بالبعث والكفر بالبعث، كدأب اليهود والنصارى، ﴿وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي منقادون فلا نتخذ أرباباً من دونه.

نقطة الجمع في قوله ﴿ءَامِنُوا﴾ بعد الإفراد في ﴿قُلْ﴾ كون الأمر عامّاً، والإفراد لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإيذان بأنه أصل في ذلك. أو الأمر خاص بالإخبار عن نفسه الزكية خاصة. والجمع لإظهار جلالة قدره ورفعة محله بأمره بأن يتكلم عن نفسه على ديدن الملوك.

عدى ﴿أُنْزِلَ﴾ هنا بحرف الاستعلاء، وفي البقرة بحرف الانتهاء لوجود المعنيين. إذ الوحي ينزل من فوق

... كما ختم تعالى آية دعوة أهل الكتاب إلى الإسلام بقوله ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] جاء هنا بعد ذكر توليتهم عن الإسلام يأمرنا بالإقرار به فقال مخاطباً لنبيه ﷺ ﴿قُلْ ءَامِنُوا بِاللَّهِ﴾... ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾ من كتابه بالتفصيل. وهذه الآية نظير قوله تعالى في سورة البقرة ﴿قُولُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ

في آيات أخرى. وقدم الإيمان بالله على الإيمان بإنزال الوحي لأنه الأصل الأول المقصود بالذات، والوحي فرع له، إذ هو وحيه تعالى إلى رسله.

﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا حَقٌّ وَبَيِّنَاتٌ﴾ أي وأما بما أنزل على هؤلاء بالإجمال أي صدقنا بأن الله تعالى أنزل عليهم وحياً لهداية أقوامهم، وأنه موافق لما أنزل علينا في أصله وجوهره والقصد منه كما أخبرنا الله تعالى في مثل قوله ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى: ١٤] إلخ السورة، وقوله ﴿أَمْ لَمْ يَلْبَسْ بِمَا فِي صُحُفٍ مُوسَىٰ . وَإِبْرَاهِيمَ﴾ [النجم: ٣٦] إلخ، وقوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء: ١٦٣] إلخ، وأما عين ما أوحى إليهم فلم يبق منه في أيدي الأمم شيء يعتمد على نقله. ﴿وَمَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ ﴿وَمَا أَوْفَىٰ﴾ ما أوتي ﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾... فإن منهم من قصه علينا ومنهم من لم يقصصه فإذا ثبت عندنا أن نبياً ظهر في الهند أو الصين قبل ختم النبوة نؤمن به. وارجع إلى آية البقرة في استبانة الفرق بين التعبير بالإنزال والتعبير بالإتياء. قال الأستاذ الإمام: وقد قدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا مع كونه أنزل قبله في الزمن لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه لإنقطاع سند تلك وفقد بعضها ووقوع الشك فيما بقي منها، فما أثبتته كتابنا من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالاً فيما أجمل وتفصيلاً فيما فصل، وما أثبتته لهم من الكتب كذلك. ونؤمن بأن أصول ما جاءوا به واحدة وهي الإيمان بالله وإسلام القلوب له والإيمان بالآخرة والعمل الصالح مع الإخلاص. فكما أن الإيمان بالله أصل للإيمان بما أنزل علينا كذلك ما أنزل علينا أصل للإيمان بما أنزل عليهم فقدم عليه ﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ كما يفرق أهل الكتاب. فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض، ولا نفرق بينهم في الدين، فنقول بعضهم على حق وبعضهم على باطل، بل نقول إنهم كانوا جميعاً على الحق لا خلاف بينهم في الأصول والمقاصد، فمثلهم كمثل الولادة الصادقين يرسلهم الملك العادل متعاقبين لعمارة الولاية

وإصلاح أهلها، وما يكون من التغيير في بعض قوانينهم إنما يكون بحسب حال الولاية وأهلها، والمقصد واحد وهو العمران والإصلاح ﴿وَنَحْنُ كُلُّهُمْ مُسْلِمُونَ﴾...

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأن الدين إذا لم يكن هو الإسلام الذي بينا معناه آنفاً فما هو إلا رسوم وتقاليد يتخذها القوم رابطة للجنسية، وآلة للعصبية، ووسيلة للمنافع الدنيوية، وذلك مما يزيد القلوب فساداً، والأرواح إظلاماً، فلا يزيد الناس في الدنيا إلا عدواناً، وفي الآخرة إلا خسراناً، ولذلك قال: ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ أي أنه يكون هنالك خاسراً للنعيم المقيم، في جوار الرب الرحيم، لأنه خسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له جل علاه ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [الأعراف: ٥٣] في الدين ويزعمون أنه مناط النجاة ووسيلة الفوز والسعادة إذ يهتدون أن يسعدوا بغيرهم من الأنبياء والأولياء، وإن خسروا أنفسهم بسلوك سبل الشقاء، ﴿قُلِ اللَّهُ أَغْنِيكُمْ خَلِصًا لَكُمْ دِينِي . فَأَعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [الزمر: ١٤ - ١٥] ولم أر أحداً من المفسرين نبه في هذا المقام على أن الأصل في خسران الآخرة هو خسران النفس، ولا نبه إليه الأستاذ الإمام، بل لم يقل في هذه الآية شيئاً لظهور معناها.

وقد أورد الإمام الرازي ههنا إشكالاً وأجاب عنه قال: واعلم أن ظاهر هذه الآية يدل على أن الإيمان هو الإسلام إذ لو كان الإيمان غير الإسلام لوجب أن لا يكون الإيمان مقبولاً. لقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ إلا أن ظاهر قوله تعالى ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] يقتضي كون الإسلام مغايراً للإيمان. ووجه التوفيق بينهما أن تحمل الآية الأولى على العرف الشرعي والآية الثانية على الوضع اللغوي: أه كلامه وهذا الجواب مبهم وقد أراد بالآية

الأولى الآية التي نفسرها، وبالثانية (قالت الأعراب) والمعنى أن أولئك الأعراب الذين نزلت فيهم الآية لم يسلموا الإسلام الشرعي وإنما انقادوا لأهله في الظاهر وهو يقتضي اتحاد الإيمان والإسلام وقال في تفسير هذه الثانية من سورة الحجرات ما نصه:

المسألة الرابعة: المؤمن والمسلم واحد عند أهل السنة، فكيف يفهم ذلك مع هذا؟ نقول: بين العام والخاص فرق، فالإيمان لا يحصل إلا بالقلب وقد يحصل باللسان والإسلام أعم لكن العام في صورة الخاص متحد مع الخاص ولا يكون أمراً آخر غيره. مثاله: الحيوان أعم من الإنسان لكن الحيوان في صورة الإنسان، ليس أمراً ينفك عن الإنسان، ولا يجوز أن يكون ذلك الحيوان حيواناً ولا يكون إنساناً فالعام والخاص مختلفان في العموم متحدان في الوجود. فكذاك المؤمن والمسلم. وسنبين ذلك في تفسير قوله تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾. فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿[الذاريات: ٣٥ - ٣٦].

وقال في تفسير الآية الثانية من هاتين ما نصه: والدلالة على أن المسلم بمعنى المؤمن ظاهرة والحق أن المسلم أعم من المؤمن وإطلاق العام على الخاص لا مانع منه. فإذا سمى المؤمن مسلماً لا يدل على اتحاد مفهوميهما فكأنه تعالى قال «أخرجنا المؤمنين فما وجدنا الأعم منهم إلا بيتاً من المسلمين ويلزم من هذا أن لا يكون هناك غيرهم من المؤمنين». وهذا كما لو قال قائل لغيره: «من في البيت من الناس؟ فيقول له ما في البيت من الحيوانات أحد غير زيد. فيكون مخبراً بخلو البيت عن كل إنسان غير زيد» أه.

أقول: وأنت ترى أن في كلامه اضطراباً وسببه تزاحم الاصطلاحات الكلامية والاطلاقات اللغوية في ذهنه. والصواب أن مفهومي الإسلام والإيمان في اللغة متباينان فالإسلام الدخول في السلم وهو يطلق على ضد الحرب وعلى السلامة والخلوص وعلى الانقياد كما تقدم في أوائل السورة والإيمان التصديق ويكون بالقلب كأن يقول أمرؤ قولاً فتعتقد صدقه. ويكون اللسان كأن تقول له صدقت. وقد أطلق كل من الإيمان والإسلام في القرآن

على إيمان خاص جعل هو المنجى عند الله تعالى وإسلام خاص هو دينه المقبول عنده. أما الأول فهو التصديق اليقيني بوحداية الله وكماله وبالوحي والرسول وباليوم الآخر بحيث يكون له السلطان على الإرادة والوجدان فيترتب عليه العمل الصالح. ولذلك قال بعد نفي دخول الإيمان في قلوب أولئك الأعراب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] وأما الثاني فهو الإخلاص له تعالى في التوحيد والعبادة والانقياد لما هدى إليه على السنة رسله. وهو بهذا المعنى دين جميع النبيين الذين أرسلهم لهداية عباده. فالإيمان والإسلام على هذا يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل واحد منهما باعتبار ولذلك عدا شيئاً واحداً في الآيات التي ذكرت آنفاً وفي قوله بعد ما ذكر عن إيمان الأعراب وإسلامهم في [الحجرات] ثم بيان حقيقة الإيمان الصادق ﴿قُلْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَدِينُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾. يَمُنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُوا عَلَيَّ إِسْلَمَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْتُكُمْ لِلْإِيمَانِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿[الحجرات: ١٦ - ١٧] فهذا هو الإيمان الصادق والإسلام الصحيح وهما المطلوبان لأجل السعادة.

وقد يطلق كل من الإيمان والإسلام على ما يكون منهما ظاهراً سواء كان ذلك عن يقين أو عن جهل أو نفاق. فمن الأول الشق الأول من قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّبِيحِينَ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وََعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٦٢] الآية، فالمراد بالذين آمنوا في أول الآية الذين صدقوا بهذا الدين في الظاهر. وقوله ﴿مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ﴾ إلخ هو الإيمان الحقيقي الذي عليه مدار النجاة وقد تقدم شرحه آنفاً. ومن الثاني قوله ﴿وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤] أي دخلنا في السلم الذي هو مسالمة المؤمنين بعد أن كنا حرباً لهم وليس معناه الإخلاص والانقياد مع الإذعان وإلا لما نفي عنهم إيمان القلب. هذا هو التحقيق في المسألة والله الحمد.

من بيان روح دين الله الذي كان عليه جميع الأنبياء على اختلاف شرائعهم في الفروع وهو الإسلام. فالإسلام معنى بينه القرآن فمن اتبعه كان على دين الله المرضى ومن خالفه كان باغياً لغير دين الله وليس هو من معنى الجنسية المعروفة الآن التي تختلف باختلاف ما يحدث لأهلها من التقاليد. فالإسلام الحقيقي مبين للإسلام العرفي، لذلك جرينا في هذا التفسير على إنكار جعل الإسلام جنسية عرفية مع الغفلة عن كونه هداية إلهية. نعم إنه لو أقيم على أصله واستتبع مع ذلك رابطة الجنسية لم تكن هذه الرابطة إلا رابطة خير لأهلها غير ضارة بغيرهم لبنائها على قواعد العدل والفضل والرحمة والإحسان، ولكن جعل الجنسية هو الأصل مفسد للدين الذي هو مناط سعادة الدارين.

المراغي ج ١ ص ٢٠٢ - ٢٠٥

باليوم الآخر.

﴿لَا تُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾... . فما مثل الأنبياء إلا مثل الأمراء الأمناء الصادقين يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشؤون ولاية من ولاياته، وإصلاح أحوال أهلها، وعمل القوانين النافعة لحكمها، فقد يغير التالي بعض قوانين السابق بحسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم من شراسة إلى لين، ومن جهل إلى علم، ومن بدادة إلى مدنية وحضارة، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها وبذل الوسع في سعادة أهلها، وإيصال الخير إليهم.

﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾... . وقد افتتحت الآية بالإيمان، واختتمت بالإسلام والخضوع وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبي، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ لأن الدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والإنقياد لله تعالى كان رسوماً وتقاليد لا تجدي شيئاً، بل تزيد النفوس فساداً، والقلوب ظلاماً، ويكون حينئذ مصدر الشحنة والعداوة بين الناس في الدنيا، ومصدر الخسران في الآخرة بالحرمان من النعيم المقيم، والعذاب الأليم. ﴿وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطر السليمة من توحيد الله والإنقياد له كما جاء في الحديث «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه

أما إطلاق الإسلام بمعنى ما عليه هؤلاء الأقوام المعروفون بالمسلمين من عقائد وتقاليد وأعمال فهو اصطلاح حادث مبني على قاعدة «الدين ما عليه المتدينون»، فالبوذية ما عليه الناس المعروفون بالبوذية، واليهودية ما عليه الشعب الذي يطلق عليه اسم اليهود، والنصرانية ما عليه الأقوام الذين يقولون إنا نصارى وهكذا. وهذا هو الدين بمعنى الجنسية وقد يكون له أصل سماوي أو وضعي فيطرأ عليه التغير والتبديل حتى يكون بعيداً عن أصله في قواعده ومقاصده، وتكون العبرة بما عليه أهله لا بذلك الأصل المجهول أو المعلوم. وتحول دين أهل الكتاب إلى جنسية بهذا المعنى هو الذي صد أهل الكتاب عن اتباع النبي عليه الصلاة والسلام على ما جاء به

﴿قُلْ أَمَّا بِلَهِ اللَّهِ﴾ أي قل آمنت أنا ون معي بوجود الله ووحدانته وتصرفه في الأكوان. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا﴾، وهو القرآن المنزل عليه صلوات الله عليه أولاً، وعلى أمته بتبليغه إليهم. ﴿وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكَ إِلَّا نَزْهِيمٌ وَاسْتَكْمِيلٌ وَإِسْحَاقٌ وَيَعْقُوبُ وَالْأَسْبَاطُ﴾ أي صدقنا بأن الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم... . ﴿وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى﴾ من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات. وخص هذين النبيين بالذكر، لأن الكلام مع اليهود والنصارى.

﴿وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ أي وما أوتي النبيون من ربهم كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم.

وقدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا، مع كونه أنزل قبله - لأن ما أنزل علينا هو الأصل في معرفة ما أنزل عليهم والمثبت له، ولا طريق لإثباته سواه.

فما أثبتته القرآن الكريم من نبوة كثير من الأنبياء تؤمن به إجمالاً فيما أجمل، وتفصيلاً فيما فصل وكذلك كتبهم، مع العلم بأن جوهر الدين واحد لدى الجميع، وهو الإيمان بالله وإسلام القلب له مع العمل الصالح، والإيمان

الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الْمُبِينُونَ [الزمر: ١٥].

يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» وخسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله، وإخلاص السريرة له كما قال تعالى ﴿قُلْ إِنَّ

سيد قطب ج ١ ص ٤٢١ - ٤٢٣

لا يتسرب إلى ذهن أحد أنه كلمة تقال باللسان، أو تصديق يستقر في القلب، ثم لا تتبعه آثاره العملية من الاستسلام لمنهج الله، وتحقيق هذا المنهج في واقع الحياة. وهي لفئة ذات قيمة قبل التقرير الشامل الدقيق الأكيد:

﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. . إنه لا سبيل - مع هذه النصوص المتلاحقة - لتأويل حقيقة الإسلام، ولا للتي النصوص وتحريفها عن مواضعها لتعريف الإسلام بغير ما عرفه به الله، الإسلام الذي يدين به الكون كله. في صورة خضوع للنظام الذي قرره الله له ودبره به.

ولن يكون الإسلام إذن هو النطق بالشهادتين، دون أن يتبع شهادة أن لا إله إلا الله معناها وحقيقتها. وهي توحيد الألوهية وتوحيد القوامة. ثم توحيد العبودية وتوحيد الاتجاه. ودون أن يتبع شهادة أن محمداً رسول الله معناها وحقيقتها. وهي التقيد بالمنهج الذي جاء به من عند ربه للحياة، واتباع الشريعة التي أرسله بها، والتحاكم إلى الكتاب الذي حمله إلى العباد.

ولن يكون الإسلام إذن تصديقاً بالقلب بحقيقة الألوهية والغيب والقيامة وكتب الله ورسله. . دون أن يتبع هذا التصديق مدلوله العملي، وحقيقته الواقعية التي أسلفنا. .

ولن يكون الإسلام شعائر وعبادات، أو إشراقات وسبحات، أو تهذيباً خلقياً وإرشاداً روحياً. . دون أن يتبع هذا كله آثاره العملية ممثلة في منهج للحياة موصول بالله الذي تتوجه إليه القلوب بالعبادات والشعائر، والإشراقات والسبحات، والذي تستشعر القلوب تقواه فتتهذب وترشد. فإن هذا كله يبقى معطلاً لا أثر له في حياة البشر ما لم تنصب آثاره في نظام اجتماعي يعيش الناس في إطاره النظيف الوضيء.

ولما كانت الأمة المسلمة - المسلمة حقاً لا جغرافية ولا تاريخاً - هي الأمة المدركة لحقيقة العهد بين الله ورسله. وحقيقة دين الله الواحد ومنهجه، وحقيقة الموكب السني الكريم الذي حمل هذا المنهج وبلغه، فإن الله يأمر نبيه ﷺ أن يعلن هذه الحقيقة كلها؛ ويعلن إيمان أمته بجميع الرسالات، واحترامها لجميع الرسل، ومعرفتها بطبيعة دين الله، الذي لا يقبل الله من الناس سواه: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ. وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾. .

هذا هو الإسلام في سعته وشموله لكل الرسالات قبله، وفي ولائه لكافة الرسل حملته. وفي توحيده لدين الله كله، ورجعه جميع الدعوات وجميع الرسالات إلى أصلها الواحد، والإيمان بها جملة كما أرادها الله لعباده.

ومما هو جدير بالالتفات في الآية القرآنية الأولى هنا هو ذكرها بالإيمان بالله وما أنزل على المسلمين - وهو القرآن - وما أنزل على سائر الرسل من قبل، ثم التعقيب على هذا الإيمان بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾. .

فهذا الإقرار بالإسلام له مغزاه. بعد بيان أن الإسلام هو الاستسلام والخضوع والطاعة واتباع الأمر والنظام والمنهج والناموس. كما يتجلى في الآية قبلها ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ [آل عمران: ٨٣] فظاهر أن إسلام الكائنات الكونية هو إسلام الخضوع للأمر، واتباع النظام، وطاعة الناموس. . ومن ثم تتجلى عناية الله - سبحانه - ببيان معنى الإسلام وحقيقته في كل مناسبة. كي

﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا . وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا . بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَإِنَّ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٥٦ - ١٥٩)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٦	ص ٩ - ١٧	أبو حيان الاندلسي
الزمخشري	ج ١	ص ٥٧٨ - ٥٨١	ابن كثير
الرازي	ج ١١	ص ٩٨ - ١٠٤	الجلالان
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٧٩ - ٢٨٤	الشوكاني
ابن عربي	ج ١	ص ٢٩٤ - ٢٩٦	الآلوسي
البيضاوي	ج ٢	ص ١٢٧ - ١٢٨	القاسمي
الخازن	ج ١	ص ٦١٧ - ٦٢١	محمد عبده
البغوي	ج ١	ص ٣٩٦ - ٣٩٧	الطباطبائي
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٣ - ٥٤٤	جوهرى
القرطبي	ج ٦	ص ٧ - ١٢	المراغي
			سيد قطب
			ج ٣ ص ٢٨٩ - ٢٩٤
			ج ١ ص ٥٧٣ - ٥٨٤
			ص ١٢٩ - ١٣٠
			ج ١ ص ٥٣٢ - ٥٣٦
			ج ٦ ص ٩ - ١٣
			ج ٥ ص ٥٤٩ - ٦٢٨
			ج ٦ ص ١١ - ٥٩
			ج ٥ ص ١٢٧ - ١٤٧
			ج ٣ ص ١٠٦ - ١١٥
			ج ٦ ص ٨ - ١٦
			ج ٢ ص ٨٠١ - ٨٠٣

الطبري ج ٦ ص ٩ - ١٧

عيسى وما صلبوه. ولكن شبه لهم واختلف أهل التأويل في صفة التشبيه الذي شبه لليهود في أمر عيسى. فقال بعضهم: لما أحاطت اليهود به وبأصحابه أحاطوا بهم وهم لا يشبتون معرفة عيسى بعينه. وذلك أنهم جميعاً حوّلوا في صورة عيسى فأشكل على الذين كانوا يريدون قتل عيسى من غيره منهم، وخرج إليهم بعض من كان في البيت مع عيسى فقتلوه وهم يحسبونه عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال: أتى عيسى ومعه سبعة عشر من الحواريين في بيت، وأحاطوا بهم. فلما دخلوا عليهم صوّرههم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم: سحرتونا لتبرّزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة، فقال رجل منهم: أنا فخرج إليهم فقال: أنا عيسى، وقد صوّره الله على صورة عيسى، فأخذوه فقتلوه وصلبوه. فمن ثم شبه لهم وظنوا أنهم قد قتلوا عيسى، وظنت النصارى مثل ذلك أنه عيسى، ورفع الله عيسى من يومه ذلك. وقد روي عن وهب بن منبه غير هذا القول،

القول في تأويل قوله ﴿ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: ويكفر هؤلاء الذين وصف صفتهم ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ يعني: بفرقتهم عليها ورميهم إياها بالزنا، وهو «البهتان العظيم» لأنهم رموها بذلك، وهي مما رموها به بغير ثبوت ولا برهان بريئة، فبهتوها بالباطل من القول. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن ابن عباس: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ يعني: أنهم رموها بالزنا. حدثنا محمد بن الحسين قال... عن السدي قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ حين قذفوها بالزنا. حدثني المثنى... عن جوير في قوله: ﴿ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا ﴾ قال: قالوا زنت. القول في تأويل قوله ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: ويقولهم ﴿ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ ﴾، ثم كذبهم الله في قتلهم فقال: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾، يعني: وما قتلوا

وفرعه الله إليه وصلبوا ما شبه لهم، فمكث سبعا، ثم إن أمه والمرأة التي كان يداويها عيسى، فأبرأها الله من الجنون جاءتا تبكيان حيث كان المصلوب فجاءهما عيسى فقال علام تبكيان قالتا عليك فقال: إني قد رفعتني الله إليه، ولم يصبني إلا خير، وإن هذا شيء شبه لهم، فأمرنا الحواريين أن يلقوني إلى مكان كذا وكذا، فلقوه إلى ذلك المكان أحد عشر، وفقد الذي كان باعه ودل عليه اليهود، فسأل عنه أصحابه فقالوا: إنه ندم على ما صنع، فاختنق وقتل نفسه، فقال: لو تاب لتاب الله عليه ثم سألهم عن غلام يتبعهم يقال له يُحَنَّا، فقال هو معكم، فانطلقوا فإنه سيصبح كل إنسان منكم يحدث بلغة قوم، فلينذرهم وليدعهم. وقال آخرون: بل سأل عيسى من كان معه في البيت أن يلقى على بعضهم شبهه فانتدب لذلك منهم رجل، فألقى عليه شبهه، فقتل ذلك الرجل، ورفع عيسى بن مريم عليه السلام. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة قوله: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ إلى قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾، أولئك أعداء الله اليهود أتمتوا بقتل عيسى ابن مريم رسول الله، وزعموا أنهم قتلوه وصلبوه، وذكر لنا أن نبي الله عيسى ابن مريم قال لأصحابه: أيكم يقذف عليه شبيهي، فإنه مقتول فقال رجل من أصحابه: أنا يا نبي الله، فقتل ذلك الرجل، ومنع الله نبيه ورفعته إليه. حدثنا الحسن بن يحيى، عن قتادة في قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾... قال: ألقى شبهه على رجل من الحواريين فقتل. وكان عيسى ابن مريم عرض ذلك عليهم، فقال: أيكم ألقى شبيهي عليه وله الجنة؟ فقال رجل: عليّ. حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي: أن بني إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلاً من الحواريين في بيت، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتي فيقتل وله الجنة؟ فأخذها رجل منهم، وصعد بعيسى إلى السماء. فلما خرج الحواريون أبصروهم تسعة عشر، فأخبروهم أن عيسى عليه السلام قد صعد به إلى السماء، فجعلوا يعدون القوم فيجدونهم ينقصون رجلاً من العدّ ويرون صورة عيسى فيهم، فشكوا فيه. وعلى ذلك قتلوا الرجل وهم

وهو ما حدثني به المثنى... عن عبد الصمد بن معقل أنه سمع وهباً يقول: إن عيسى ابن مريم لما أعلمه الله أنه خارج من الدنيا، جزع من الموت وشق عليه، فدعا الحواريين وصنع لهم طعاماً فقال: احضروني الليلة فإن لي إليكم حاجة. فلما اجتمعوا إليه من الليل، عشاهاهم وقام يخدمهم. فلما فرغوا من الطعام أخذ يغسل أيديهم ويوضئهم بيده، ويمسح أيديهم بثيابه فتعاضوا ذلك وتكاهوه، فقال ألا من ردّ عليّ شيئاً الليلة مما أصنع، فليس مني ولا أنا منه، فأقروه حتى إذا فرغ من ذلك قال: أما ما صنعت بكم الليلة، مما خدمتكم على الطعام وغسلت أيديكم بيدي، فليكن لكم بي أسوة، فإنكم ترون أنني خيركم، فلا يتعظم بعضكم على بعض، وليبذل بعضكم لبعض نفسه، كما بذلت نفسي لكم. وأما حاجتي التي استعنتكم عليها، فتدعون لي الله وتجهدون في الدعاء: أن يؤخر أجلي. فلما نصبوا أنفسهم للدعاء وأرادوا أن يجتهدوا، أخذهم النوم حتى لم يستطيعوا دعاء. فجعل يوقظهم ويقول: سبحان الله، أما تصبرون لي ليلة واحدة تعينوني فيها قالوا: والله ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنكثر السمر، وما نطبق الليلة سمرأ، وما نريد دعاء إلا حيل بيننا وبينه، فقال: يذهب بالراعي وتفرق الغنم وجعل يأتي بكلام نحو هذا ينعي به نفسه. ثم قال: الحق لي كفرن بي أحدكم قبل أن يصيح الديك ثلاث مرات وليبيعني أحدكم بدراهم يسيرة وليأكلن ثمني، فخرجوا وتفرقوا. وكانت اليهود تطلبه فأخذوا شمعون أحد الحواريين فقالوا: هذا من أصحابه فجحد وقال: ما أنا بصاحبه فتركوه، ثم أخذه آخرون فجحد كذلك، ثم سمع صوت ديك فبكى وأحزنه، فلما أصبح أتى أحد الحواريين إلى اليهود فقال: ما تجعلون لي إن دلتكم على المسيح؟ فجعلوا له ثلاثين درهماً، فأخذها ودلهم عليه. وكان شبه عليهم قبل ذلك، فأخذوه فاستوثقوا منه، وربطوه بالحبل، فجعلوا يقودونه ويقولون له: أنت كنت تحيي الموتى، وتنتهر الشيطان، وتبرئ المجنون، أفلا تنجي نفسك من هذا الحبل؟ ويصقون عليه، ويلقون عليه الشوك حتى أتوا به الخشبة التي أرادوا أن يصلبوه عليها،

مجلسي . فجلس فيه ورفع عيسى صلوات الله عليه . فدخلوا عليه فأخذوه فصلبوه فكان هو الذي صلبوه وشبه لهم به . وكانت عدتهم حين دخلوا مع عيسى معلومة ، قد رأوهم وأحصوا عدتهم . فلما دخلوا عليه ليأخذوه ، وجدوا عيسى فيما يرون وأصحابه ، وفقدوا رجلاً من العدة ، فهو الذي اختلفوا فيه ، وكانوا لا يعرفون عيسى ، حتى جعلوا ليودس زكريا يوطا ثلاثين درهماً على أن يدلهم عليه ويعرفهم إياه ، فقال لهم : إذا دخلتم عليه فإني سأقبله ، وهو الذي أقبل ، خذوه . فلما دخلوا عليه وقد رفع عيسى ، رأى سرجس في صورة عيسى ، فلم يشك أنه هو عيسى ، فأكب عليه فقبله ، فأخذوه فصلبوه . ثم إن يودس زكريا يوطا ندم على ما صنع ، فاشتق بحبل حتى قتل نفسه . وهو ملعون في النصارى ، وقد كان أحد المعدودين من أصحابه . وبعض النصارى يزعم أن يودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم ، فصلبوه وهو يقول : «إني لست بصاحبكم ! أنا الذي دللتكم عليه» والله أعلم أي ذلك كان . حدثنا القاسم . . . عن بن جريج : بلغنا أن عيسى ابن مريم قال لأصحابه : أيكم ينتدب فيلقى عليه شبيه فيقتل ؟ فقال رجل من أصحابه : أنا يا نبي الله . فألقي عليه شبهه فقتل ، ورفع الله نبيه إليه . حدثنا محمد بن عمرو . . . عن مجاهد في قوله ﴿ شَيْئَهُمْ ﴾ قال : صلبوا رجلاً غير عيسى يحسبونه إياه . حدثني المثنى . . . عن مجاهد ﴿ وَلَكِنْ شَيْئَهُمْ ﴾ فذكر مثله . حدثنا القاسم . . . عن مجاهد قال : صلبوا رجلاً شبهوه بعيسى يحسبونه إياه ورفع الله إليه عيسى عليه السلام حياً .

قال أبو جعفر وأولى هذه الأقوال بالصواب أحد القولين اللذين ذكرناهما عن وهب بن منبه من أن شبه عيسى ألقى على جميع من كان في البيت مع عيسى حين أحيط به وبهم من غير مسألة عيسى إياهم ذلك ، ولكن ليخزي الله بذلك اليهود وينقذ به نبيه عليه السلام من مكروه ما أرادوا به من القتل ، ويبتلى به من أراد ابتلاءه من عباده في قبله في عيسى ، وصدق الخبر عن أمره أو القول الذي رواه عبد العزيز عنه ، وإنما قلنا ذلك أولى القولين بالصواب لأن الذين شهدوا عيسى من الحواريين لو كانوا

يرون أنه عيسى وصلبوه . فذلك قول الله تبارك وتعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَيْئَهُمْ ﴾ ، إلى قوله ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ . حدثنا المثنى . . . عن القاسم بن أبي بزة : أن عيسى ابن مريم قال : أيكم يلقي عليه شبيه فيقتل مكاني ؟ فقال رجل من أصحابه : أنا ، يا رسول الله ، فألقي عليه شبهه فقتلوه . فذلك قوله : ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شَيْئَهُمْ ﴾ . حدثنا ابن حميد عن ابن إسحق قال : كان اسم ملك بني إسرائيل الذي بعث إلى عيسى ليقتله رجلاً منهم يقال له داود . فلما أجمعوا لذلك منه ، لم يقطع عبد من عباد الله بالموت - فيما ذكر لي - قطعه ، ولم يجزع منه جزعه ، ولم يدع الله في صرفة عنه دعاءه ، حتى إنه ليقول ، فيما يزعمون : «اللهم إن كنت صارفاً هذه الكأس عن أحد من خلقك فاصرفها عني !» ، وحتى أن جلده من كرب ذلك ليتفصد دماً . فدخل المدخل الذي أجمعوا أن يدخلوا عليه فيه ليقتلوه هو وأصحابه ، وهم ثلاثة عشر بعيسى . فلما أيقن أنهم داخلون عليه ، قال لأصحابه من الحواريين ، وكانوا اثني عشر رجلاً : بطرس ، ويعقوب بن زبدي ، ويحنس أخو يعقوب ، وانديرايس وفيلبس ، وابرثلما ، ومتى ، وتوماس ، ويعقوب بن حلفيا ، وتداوسيس وقنانيا ويودس زكريا يوطا . قال ابن حميد . . . عن ابن إسحق : وكان فيهم ، فيما ذكر لي ، رجل اسمه سرجس ، فكانوا ثلاثة عشر رجلاً سوى عيسى ، جحدته النصارى ، وذلك أنه هو الذي شبه لليهود مكان عيسى . قال : فلا أدري ما هو ؟ من هؤلاء الاثني عشر ، أم كان ثالث عشر ، فجحدوه حين أقروا لليهود بصلب عيسى . وكفروا بما جاء به محمد ﷺ من الخبر عنه . فإن كانوا ثلاثة عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى أربعة عشر ، وإن كانوا اثني عشر فإنهم دخلوا المدخل حين دخلوا وهم بعيسى ثلاثة عشر . حدثنا ابن حميد . . . عن ابن إسحاق قال ، ثنى رجل كان نصرانياً فأسلم : أن عيسى حين جاءه من الله : «أني رافعك إلي» قال : يا معشر الحواريين ، أيكم يحب أن يكون رفيقي في الجنة ، حتى يشبه للقوم في صورتني فيقتلوه مكاني ؟ فقال سرجس : أنا ، يا روح الله ! قال : فاجلس في

يعني نفسه ويحزن لما قد ظن أنه نازل به من الموت فحكوا ما كان عندهم حقاً، والأمر عند الله في الحقيقة بخلاف ما حكوا، فلم يستحق الذين حكوا ذلك من حواريه أن يكونوا كذبة، أو حكوا ما كان حقاً عندهم، في الظاهر، وإن كان الأمر عند الله في الحقيقة بخلاف الذي حكوا. القول في تأويل قوله ﴿وَلِئَلَّ الَّذِينَ آخَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يعني جل ثناؤه بقوله ﴿وَلِئَلَّ الَّذِينَ آخَلَفُوا فِيهِ﴾ اليهود الذين أحاطوا بعيسى وأصحابه حين أرادوا قتله، وذلك أنهم كانوا قد عرفوا عدة من في البيت قبل دخولهم فيما ذكر، فلما دخلوا عليهم فقدوا واحداً منهم، فالتبس أمر عيسى عليهم بفقدهم واحداً من العدة التي كانوا قد أحصوها، وقتلوا من قتلوا على شك منهم في أمر عيسى. وهذا التأويل على قول من قال لم يفارق الحواريون عيسى حتى رفع ودخل عليهم اليهود، وأما تأويله على قول من قال تفرقوا عنه من الليل فإنه ﴿وَلِئَلَّ الَّذِينَ آخَلَفُوا فِيهِ﴾ في عيسى هل هو الذي بقي في البيت منهم بعد خروج من خرج منهم من العدة التي كانت فيه أم لا ﴿لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ﴾ يعني من قتله لأنهم كانوا أحصوا من العدة حين دخلوا البيت أكثر ممن خرج منه ومن وجد فيه فشكوا في الذي قتلوه هل هو عيسى أم لا؟ من أجل فقدهم من فقدوا من العدد الذي كانوا أحصوه ولكنهم قالوا «قتلنا عيسى» لمشابهة المقتول عيسى في الصورة يقول الله جل ثناؤه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾، يعني: أنهم قتلوا من قتلوه على شك منهم فيه واختلاف، هل هو عيسى أم هو غيره؟ من غير أن يكون لهم بمن قتلوه علم، من هو؟ هو عيسى أم هو غيره؟ ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾ يعني جل ثناؤه: ما كان لهم بمن قتلوه من علم، ولكنهم اتبعوا ظنهم فقتلوه، ظناً منهم أنه عيسى، وأنه الذي يريدون قتله، ولم يكن به ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يقول: وما قتلوا - هذا الذي اتبعوه في المقتول الذي قتلوه وهم يحسبونه عيسى - يقيناً أنه عيسى ولا أنه غيره، ولكنهم كانوا منه على ظن وشبهة. وهذا كقول الرجل للرجل: «ما قتلت هذا الأمر علماً وما قتلته يقيناً» إذا تكلم فيه بالظن على غير يقين علم. فالهاء في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾

في حال ما رفع عيسى وألقى شبهه على من القي شبهه كانوا قد عاينوا عيسى وهو يرفع من بينهم، واثبتوا الذي القي عليه شبه وعاینوه متحولاً في صورته بعد الذي كان به من صورة نفسه بمحضر منهم لم يخف ذلك من أمر عيسى، وأمر من ألقى عليه شبهه عليهم مع معاينتهم ذلك كله، ولم يلتبس، ولم يشك عليهم، وإن أشكل على غيرهم من أعدائهم من اليهود أن المقتول والمصلوب كان غير عيسى، وأن عيسى رفع من بينهم حياً، وكيف يجوز أن يكون كان أشكل ذلك عليهم، وقد سمعوا من عيسى مقالته من يلقى عليه شبهي ويكون رفيقي في الجنة إن كان قال لهم ذلك، وسمعوا جواب مجيبه منهم أنا، وعاینوا تحول المجيب في صورة عيسى بعقب جوابه، ولكن ذلك كان إن شاء الله على نحو ما وصف وهب بن منبه إما أن يكون القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت الذي رفع منه من حواريه حولهم الله جميعاً في صورة عيسى حين أراد الله رفعه، فلم يثبتوا عيسى معرفة بعينه من غيره لتشابه صور جميعهم، فقتلت اليهود منهم من قتلت وهم يرونه بصورة عيسى ويحسبونه إياه لأنهم كانوا به عارفين قبل ذلك. وظن الذين كانوا في البيت مع عيسى مثل الذي ظنت اليهود لأنهم لم يميزوا شخص عيسى من شخص غيره لتشابه شخصه، وشخص غيره ممن كان معه في البيت، فانفقوا جميعهم أعني اليهود والنصارى من أجل ذلك على أن المقتول كان عيسى، ولم يكن به ولكنه ﴿شَيْءٌ لَهُمْ﴾ كما قال الله جل ثناؤه ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شَيْءٌ لَهُمْ﴾ أو يكون الأمر في ذلك كان على نحو ما روى عبد الصمد بن معقل . . . عن وهب بن منبه أن القوم الذين كانوا مع عيسى في البيت تفرقوا عنه قبل أن يدخل عليه اليهود، وبقي عيسى وألقى شبهه على بعض أصحابه الذين كانوا معه في البيت بعدما تفرق القوم غير عيسى، وغير الذي ألقى عليه شبهه ورفع عيسى، فقتل الذي تحول في صورة عيسى من أصحابه، وظن أصحابه واليهود أن الذي قتل وصلب هو عيسى لما رأوا من شبهه به، وخفاء أمر عيسى عليهم لأن رفعه وتحول المقتول في صورته كان بعد تفرق أصحابه عنه، وقد كانوا سمعوا عيسى من الليل

ابن وكيع، عن ابن عباس ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. حدثني يعقوب بن إبراهيم، عن أبي مالك في قوله: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: ذلك عند نزول عيسى ابن مريم، لا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به. حدثني المثنى... عن الحسن قال: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل أن يموت عيسى ابن مريم حدثني يعقوب... عن الحسن في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. والله إنه الآن لحى عند الله، ولكن إذا نزل آمنوا به أجمعون. حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يقول: قبل موت عيسى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى، إذا نزل آمنت به الأديان كلها. حدثنا ابن وكيع... عن الحسن قال قبل موت عيسى، حدثنا ابن وكيع... عن الحسن ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: عيسى ولم يمت بعد. حدثنا ابن وكيع... عن أبي مالك قال: لا يبقى أحد منهم عند نزول عيسى إلا آمن به. حدثنا ابن وكيع... عن أبي مالك قال: قبل موت عيسى. حدثنا يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد في قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: إذا نزل عيسى ابن مريم، فقتل الدجال لم يبق يهودي في الأرض إلا آمن به. قال: وذلك حين لا ينفعهم الإيمان. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني: أنه سيدرك أناس من أهل الكتاب حين يبعث عيسى، فيؤمنون به ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾. حدثنا محمد بن المثنى... عن الحسن أنه قال: في هذه الآية ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال أبو جعفر: أظنه إنما قال إذا خرج عيسى آمنت به اليهود.

وقال آخرون يعني بذلك ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا

عائدة على ﴿الظَّنِّ﴾. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، قال: يعني لم يقتلوا ظنهم يقيناً... حدثني المثنى... عن جوير في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، قال: ما قتلوا ظنهم يقيناً. وقال السدي في ذلك ما: حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، وما قتلوا أمره يقيناً أن الرجل هو عيسى، ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

القول في تأويل قوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أما قوله جل ثناؤه ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾، فإنه يعني: بل رفع الله المسيح إليه، يقول: لم يقتلوه ولم يصلبوه ولكن الله رفعه إليه فطهره من الذين كفروا. وقد بينا كيف كان رفع الله إياه إليه فيما مضى، وذكرنا اختلاف المختلفين في ذلك، والصحيح من القول فيه بالأدلة الشاهدة على صحته، بما أغنى عن إعادته. وأما قوله ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فإنه يعني: ولم يزل الله منتقماً من أعدائه، كانتقامه من الذين أخذتهم الصاعقة بظلمهم، وكلعنه الذين قص قصتهم بقوله: ﴿فِيمَا نَقُصُّهُمْ مِمَّا قُتِلُوا وَكُفِّرْهُمْ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٥]، حكيماً يقول: ذا حكمة في تدبيره وتصريفه خلقه في قضائه. يقول: فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء، من حلول عقوبتي بكم، كما حل بأوائلكم الذين فعلوا فعلكم، في تكذيبهم رسلي وافتراءهم على أوليائي، وقد: حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس في قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ قال: معنى ذلك أنه كذلك.

القول في تأويل قوله ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم: معنى ذلك ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ﴾، يعني: بعيسى قبل موته، يعني قبل موت عيسى، يوجه ذلك إلى أن جميعهم يصدقون به إذا نزل لقتل الدجال، فتصير الملل كلها واحدة، وهي ملة الإسلام الحنيفية دين إبراهيم ﷺ. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار... عن ابن عباس ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهٖ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قبل موت عيسى ابن مريم. حدثنا

﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت رجل من أهل الكتاب حتى يؤمن به، وإن غرق أو تردى أو مات بشيء. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن مجاهد في قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا تخرج نفسه حتى يؤمن به. حدثنا ابن وكيع عن عكرمة ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحدهم حتى يؤمن به، يعني بعيسى، وإن خر من فوق بيت يؤمن به وهو يهودي. حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك قال: ليس أحد من اليهود يخرج من الدنيا حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن وكيع... عن الحسن في قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى، يعني اليهود والنصارى. حدثنا الحسن بن يحيى... عن الحسن في قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد منهم حتى يؤمن بعيسى قبل أن يموت. حدثنا ابن بشار... عن محمد بن سيرين ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: موت الرجل من أهل الكتاب، حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: قال ابن عباس: ليس من يهودي ولا نصراني يموت حتى يؤمن بعيسى ابن مريم، فقال له رجل من أصحابه كيف والرجل يغرق أو يحترق أو يسقط عليه الجدار أو يأكله السبع، فقال: لا تخرج روحه من جسده حتى يقدف فيه الإيمان بعيسى. حدث... عن الحسين بن الفرج قال: سمعت الضحاك يقول في قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت أحد من اليهود حتى يشهد أن عيسى رسول الله ﷺ. حدثني المشني عن جوير في قوله ﴿لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: في قراءة أبي قال: موتهم، وقال آخرون: معنى ذلك وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي، ذكر من قال ذلك: حدثني المشني... عن عكرمة: لا يموت النصراني واليهودي حتى يؤمن بمحمد ﷺ، يعني في قوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

ليؤمنن ﴿بعيسى قبل موت الكتابي، ذكر من كان يوجه ذلك إلى أنه إذا عين علم الحق من الباطل لأن كل من نزل به الموت لم تخرج نفسه حتى يتبين له الحق من الباطل في دينه. حدثني المشني... عن ابن عباس قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لا تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى، وإن غرق أو تردى من حائط، أو أي ميتة كانت. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ كل صاحب كتاب ليؤمنن به بعيسى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ موت صاحب الكتاب. حدثني المشني عن مجاهد ليؤمنن به كل صاحب كتاب يؤمن بعيسى، ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قبل موت صاحب الكتاب قال. ابن عباس لو ضربت عنقه لم تخرج نفسه حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قال: لا يموت اليهودي حتى يشهد أن عيسى عبد الله ورسوله، ولو عجل عليه بالسلاح. حدثني إسحق بن إبراهيم... عن ابن عباس ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: هي في قراءة أبي «قبل موتهم» ليس يهودي يموت أبداً حتى يؤمن بعيسى. قيل لابن عباس: أرأيت إن خر من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهوي. فقيل أرأيت إن ضربت عنق أحد منهم؟ قال: يتلجلج بها لسانه. حدثني المشني... عن ابن عباس ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، قال: لا يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى ابن مريم. قال وإن ضرب بالسيف، يتكلم به. قال وإن هوى، يتكلم به وهو يهودي. حدثنا ابن المشني... عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: لو أن يهودياً وقع من فوق هذا البيت، لم يمت حتى يؤمن به، يعني: بعيسى. حدثنا ابن المشني... عن عكرمة يقول: لو وقع يهودي من فوق القصر، لم يبلغ إلى الأرض حتى يؤمن بعيسى. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد ﴿لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ قال: وإن وقع من فوق البيت، لا يموت حتى يؤمن به. حدثنا ابن حميد... عن مجاهد

قال أبو جعفر وأولى الأقوال بالصحة والصواب قول من قال: تأويل ذلك» وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن بعيسى قبل موت عيسى». وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب من غيره من الأقوال، لأن الله جل ثناؤه حكم لكل مؤمن بمحمد ﷺ بحكم أهل الإيمان في الموارثة والصلاة عليه، إلحاق صغار أولاده بحكمه في الملة، فلو كان كل كتابي يؤمن بعيسى قبل موته لوجب أن لا يرث الكتابي إذا مات على ملته إلا أولاده الصغار أو البالغون منهم من أهل الإسلام، إن كان له ولد صغير أو بالغ مسلم، وإن لم يكن له ولد صغير ولا بالغ مسلم كان ميراثه مصروفاً حيث يصرف مال المسلم يموت، ولا وارث له، وأن يكون حكمه حكم المسلمين في الصلاة عليه وغسله وتقييره، لأن من مات مؤمناً بعيسى فقد مات مؤمناً بمحمد وبجميع الرسل، وذلك أن عيسى صلوات الله عليه جاء بتصديق محمد، وجميع المرسلين، فالمصدق بعيسى والمؤمن به مصدق بمحمد، وبجميع أنبياء الله ورسله، كما أن المؤمن بمحمد مؤمن بعيسى وبجميع أنبياء الله ورسله، فغير جائز أن يكون مؤمناً بعيسى من كان بمحمد مكذباً، فإن ظن ظان أن معنى إيمان اليهودي بعيسى الذي ذكره الله في قوله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ إنما هو إقراره بأن الله، نبي مبعوث دون تصديقه بجميع ما أتى به من عند الله فقد ظن خطأ وذلك أنه غير جائز أن يكون منسوباً إلى الإقرار بنبوة نبي من كان له مكذباً في بعض ما جاء به من وحي الله، وتنزيله بل غير جائز أن يكون منسوباً إلى الإقرار بنبوة أحد من أنبياء الله، لأن الأنبياء جاءت الأمم بتصديق جميع أنبياء الله ورسله، فالمكذب ببعض أنبياء الله فيما أتى به أمته من عند الله مكذب بجميع أنبياء الله فيما دعوا إليه من دين الله عباد الله، وإذا كان ذلك كذلك كان في إجماع الجميع من أهل الإسلام على أن كل كتابي مات قبل إقراره بمحمد صلوات الله عليه، وما جاء به من عند الله محكوم له بحكم المسألة التي كان عليها أيام حياته، غير منقول شيء من أحكامه في نفسه وماله وولده صغارهم وكبارهم بموته عما كان عليه في حياته أدل الدليل على أن معنى قول الله ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا

أبلغهم ما أرسله به إليهم. حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يقول: يكون عليهم شهيداً يوم القيامة على أنه قد بلغ رسالة ربه، وأقر بالعبودية على نفسه.

الزمخشري ج ١ ص ٥٧٨ - ٥٨١

اليهود، فقال لأصحابه: أيكم يرضى أن يلقي عليه شبهي فيقتل ويصلب ويدخل الجنة؟ فقال رجل منهم أنا، فألقى الله عليه شبهه فقتل وصلب. وقيل كان رجلاً ينافق عيسى فلما أرادوا قتله قال أنا أدلكم عليه، فدخل بيت عيسى فرفع عيسى وألقي شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى. ثم اختلفوا فقال بعضهم: إنه إله لا يصح قتله، وقال بعضهم: إنه قد قتل وصلب، وقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا؟ وإن كان هذا صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: رفع إلى السماء، وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا. فإن قلت: ﴿شَيْءٌ﴾ مسند إلى ماذا؟ إن جعلته مسنداً إلى المسيح فالمسيح مشبه به وليس بمشبه وإن أسندته إلى المقتول، فالمقتول لم يجر له ذكر؟ قلت: هو مسند إلى الجار والمجرور وهو ﴿كُفُّوا﴾ كقولك خيل إليه كأنه قيل ولكن وقع لهم التشبيه، ويجوز أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله إنا قتلنا يدل عليه كأنه قيل ولكن شبه لهم من قتلوه ﴿إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع لأن اتباع الظن ليس من جنس العلم: يعني ولكنهم يتبعون الظن. فإن قلت: قد وصفوا بالشك، والشك أن لا يترجح أحد الجائزين، ثم وصفوا بالظن، والظن أن يترجح أحدهما، فكيف يكونون شاكين ظانين؟ قلت: أريد أنهم شاكون ما لهم من علم قط ولكن إن لاحظت لهم أماره فظنوا فذاك ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾.

وعن شهر بن حوشب قال لي الحجاج: آية ما قرأتها إلا تخالج في نفسي شيء منها: يعني هذه الآية، وقال: إني أوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأضرب عنقه فلا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة دبره ووجهه وقالوا: يا عدو الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول: آمنت أنه عبد نبي، وتقول

على أهل الكتاب ﴿شَهِيدًا﴾ يعني: شاهداً عليهم بتكذيب من كذبه منهم، وتصديق من صدقه منهم، فيما أتاهم به من عند الله بإبلاغه رسالة ربه كالذي حدثنا القاسم... عن ابن جريج ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أنه قد

... فإن قلت: علام عطف قوله ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾؟ قلت: الوجه أن يعطف على فيما نقضهم ويجعل قوله بل طبع الله عليها بكفرهم كلاماً تبع قوله وقالوا قلوبنا غلف على وجه الاستطراد، ويجوز عطفه على ما يليه من قوله بكفرهم. فإن قلت: ما معنى المجيء بالكفر معطوفاً على ما فيه ذكره سواء عطف على ما قبل حرف الإضراب أو على ما بعده وهو قوله وكفرهم بآيات الله وقوله بكفرهم؟ قلت: قد تكرّر منهم الكفر لأنهم كفروا بموسى ثم بعيسى ثم بمحمد صلوات الله عليهم، فعطف بعض كفرهم على بعض، أو عطف مجموع المعطوف على مجموع المعطوف عليه كأنه قيل: فجمعهم بين نقض الميثاق والكفر بآيات الله وقتل الأنبياء وقولهم قلوبنا غلف، وجمعهم بين كفرهم وبهتهم مريم وافتخارهم بقتل عيسى عاقبتهم، أو بل طبع الله عليها بكفرهم وجمعهم بين كفرهم وكذا وكذا. والبهتان العظيم هو التزنية. فإن قلت: كانوا كافرين بعيسى عليه السلام أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة فكيف قالوا ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾؟ قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] قلت: ويجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عما كانوا يذكرونه، به وتعظيماً لما أرادوا بمثله كقوله ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ . الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [الزخرف: ٩، ١٠] روي أن رهطاً من اليهود سبّوه وسبّوا أمه فدعا عليهم: اللهم أنت ربي وبكلمتك خلقتني، اللهم العن من سبني وسبّ والدتي، فمسخ الله من سبهما قردة وخنازير، فأجمعت اليهود على قتله، فأخبره الله بأنه يرفعه إلى السماء ويطهره من صحبة

موتهم؟ قلت: فائدته الوعيد وليكون علمهم بأنهم لا بد لهم من الإيمان به عن قريب عند المعاينة، وأن ذلك لا ينفعهم بعثاً لهم وتنبيهاً على معالجة الإيمان به في أوان الانتفاع به، وليكون إلزاماً للحجة لهم، وكذلك قوله ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾... روي أنه ينزل من السماء في آخر الزمان فلا يبقى أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن به حتى تكون الملة واحدة وهي ملة الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال، وتقع الأمانة حتى ترتع الأسود مع الإبل والنمور مع البقر والدواب مع الغنم ويلعب الصبيان بالحيات، ويلبث في الأرض أربعين سنة، ثم يتوفى ويصلي عليه المسلمون ويدفنونه. ويجوز أن يراد أن لا يبقى أحد من جميع أهل الكتاب إلا ليؤمنن به على أن الله يحييهم في قبورهم في ذلك الزمان ويعلمهم نزوله وما أنزل له ويؤمنون به حين لا ينفعهم إيمانهم. وقيل الضمير في به يرجع إلى الله تعالى.

الرازي ج ١١ ص ٩٨ - ١٠٤

عظيم، وكذلك وصف طعن المنافقين في عائشة بأنه بهتان عظيم حيث قال ﴿سَبَّحْتَكَ هَذَا بِهَتْنٍ عَظِيمٍ﴾ [النور: ١٦] وذلك يدل على أن الروافض الذين يطعنون في عائشة بمنزلة اليهود الذين يطعنون في مريم عليها السلام. وسادسها: قوله تعالى ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ وهذا يدل على كفر عظيم منهم لأنهم قالوا فعلنا ذلك، وهذا يدل على أنهم كانوا راغبين في قتله مجتهدين في ذلك، فلا شك أن هذا القدر كفر عظيم. فإن قيل: اليهود كانوا كافرين بعيسى أعداء له عامدين لقتله يسمونه الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فكيف قالوا: إنا قتلنا المسيح عيسى ابن مريم رسول الله؟

والجواب عنه من وجهين: الأول: إنهم قالوه على وجه الاستهزاء كقول فرعون ﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧] وكقول كفار قريش لمحمد ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾ [الحجر: ٦] والثاني: إنه يجوز أن يضع الله الذكر الحسن مكان ذكرهم القبيح في الحكاية عنهم رفعا لعيسى عليه السلام

للتصرائي: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه الله أو ابن الله، فيؤمن أنه عبد الله ورسوله حيث لا ينفعه إيمانه، قال: وكان متكئاً فاستوى جالساً فنظر إليّ وقال: ممن؟ قلت: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية فأخذ ينكت الأرض بقضيبه ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية أو من معدنها. قال الكلبي: فقلت له ما أردت إلى أن تقول: حدثني محمد بن علي ابن الحنفية؟ قال: أردت أن أعظمه، يعني بزيادة اسم علي لأنه مشهور بابن الحنفية. وعن ابن عباس أنه فسر ذلك، فقال له عكرمة: فإن أثاره رجل فضرب عنقه؟ قال: لا تخرج نفسه حتى يحرك بها شفتيه، قال: وإن خرّ من فوق بيت أو احترق أو أكله سبع؟ قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به. وتدلل عليه قراءة أبي إلا ليؤمنن به قبل موتهم بضم النون على معنى: وإن منهم أحد إلا سيؤمنون به قبل موتهم لأن أحداً يصلح للجمع. فإن قلت: ما فائدة الإخبار بإيمانهم بعيسى قبل

قوله ﴿وَيَكْفُرْهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتْنًا عَظِيمًا﴾ اعلم أنهم لما نسبوا مريم إلى الزنا لإنكارهم قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب، ومنكر قدرة الله على ذلك كافر لأنه يلزمه أن يقول: كل ولد ولد فهو مسبوق بوالد لا إلى أول، وذلك يوجب القول بقدم العالم والدهر، والقدح في وجود الصانع المختار، فالقوم لا شك أنهم أولاً أنكروا قدرة الله تعالى على خلق الولد من دون الأب فالمراد بقوله ﴿وَيَكْفُرْهُمْ﴾ هو إنكارهم قدرة الله تعالى، وبقوله ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هَتْنًا عَظِيمًا﴾ نسبتهم إياها إلى الزنا، ولما حصل التغير لا جرم حسن العطف، وإنما صار هذا الطعن بهتاناً عظيماً لأنه ظهر عند ولادة عيسى عليه السلام من الكرامات والمعجزات ما دل على براءتها من كل عيب، نحو قوله ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ جُلُودَ النَّحْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِينًا﴾ [مريم: ٢٥] ونحو كلام عيسى عليه السلام حال كونه طفلاً منفصلاً عن أمه، فإن كل ذلك دلائل قاطعة على براءة مريم عليها السلام من كل ريبة، فلا جرم وصف الله تعالى طعن اليهود فيها بأنه بهتان

عما كانوا يذكرونه به .

ثم قال تعالى ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾^١ واعلم أنه تعالى لما حكى عن اليهود أنهم زعموا أنهم قتلوا عيسى عليه السلام فالله تعالى كذبهم في هذه الدعوى وقال ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ ﴾ وفي الآية سؤالان : السؤال الأول : قوله ﴿ شُبِّهَ ﴾ مسند إلى ماذا؟ أن جعلته مسنداً إلى المسيح فهو مشبه به وليس بمشبهه ، وإن أسندته إلى المقتول فالمقتول لم يجر له ذكر .

والجواب من وجهين : الأول : أنه مسند إلى الجار والمجرور ، وهو كفولك : خيل إليه كأنه قيل : ولكن وقع لهم الشبه . الثاني : أن يسند إلى ضمير المقتول لأن قوله ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ ﴾ يدل على أنه وقع القتل على غيره فصار ذلك الغير مذكوراً بهذا الطريق ، فحسن إسناد [شُبِّهَ] إليه .

السؤال الثاني : أنه إن جاز أن يقال : إن الله تعالى يلقي شبه إنسان على إنسان آخر فهذا يفتح باب السفسطة ، فإننا إذا رأينا زيدا فلعله ليس بزيد ، ولكنه ألقى شبه زيد عليه ، وعند ذلك لا يبقى النكاح والطلاق والملك موثوقاً به ، وأيضاً يفضي إلى القدح في التواتر لأن خبر التواتر إنما يفيد العلم بشرط انتهائه في الآخرة إلى المحسوس ، فإذا جوزنا حصول مثل هذه الشبهة في المحسوسات توجه الطعن في التواتر ، وذلك يوجب القدح في جميع الشرائع ، وليس لمجيب أن يجيب عنه بأن ذلك مختص بزمان الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، لأننا نقول : لو صح ما ذكرتم فذاك إنما يعرف بالدليل والبرهان ، فمن لم يعلم ذلك الدليل وذلك البرهان وجب أن لا يقطع بشيء من المحسوسات ووجب أن لا يعتمد على شيء من الأخبار المتواترة ، وأيضاً ففي زماننا إن انسدت المعجزات فطريق الكرامات مفتوح ، وحيثئذ يعود الاحتمال المذكور في جميع الأزمنة . وبالجمله ففتح هذا الباب يوجب الطعن في التواتر ، والطعن فيه يوجب الطعن في نبوة جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فهذا فرع يوجب الطعن في الأصول فكان مردوداً .

والجواب : اختلفت مذاهب العلماء في هذا الموضوع وذكرها وجوهاً :

الأول : قال كثير من المتكلمين : إن اليهود لما قصدوا قتله رفعه الله تعالى إلى السماء فخاف رؤساء اليهود من وقوع الفتنة من عوامهم ، فأخذوا إنساناً وقتلوه وصلبوه ولبسوا على الناس أنه المسيح ، والناس ما كانوا يعرفون المسيح إلا بالاسم لأنه كان قليل المخالطة للناس ، وبهذا الطريق زال السؤال . لا يقال : إن النصارى ينقلون عن أسلافهم أنهم شاهدوه مقتولاً ، لأننا نقول : إن تواتر النصارى ينتهي إلى أقوام قليلين لا يبعد اتفاقهم على الكذب . . .

ثم قال تعالى ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَعَنِ سَكِّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى : اعلم أن في قوله ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ ﴾ قولين : الأول : أنهم هم النصارى وذلك لأنهم بأسرهم متفقون على أن اليهود قتلوه ، إلا أن كبار فرق النصارى ثلاثة : النسطورية ، والملكانية ، واليعقوبية .

أما النسطورية فقد زعموا أن المسيح صلب من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته ، وأكثر الحكماء يرون ما يقرب من هذا القول ، قالوا : لأنه ثبت أن الإنسان ليس عبارة عن هذا الهيكل بل هو إما جسم شريف مناسب في هذا البدن ، وإما جوهر روحاني مجرد في ذاته وهو مدبر في هذا البدن ، فالقتل إنما ورد على هذا الهيكل ، وأما النفس التي هي في الحقيقة عيسى عليه السلام فالقتل ما ورد عليه ، لا يقال : فكل إنسان كذلك فما الوجه لهذا التخصيص ؟ لأننا نقول : أنه نفسه كانت قدسية علوية سماوية شديدة الإشراف بالأنوار الإلهية عظيمة القرب من أرواح الملائكة ، والنفس متى كانت كذلك لم يعظم تألمها بسبب القتل وتخريب البدن ، ثم إنها بعد الانفصال عن ظلمة البدن تتخلص إلى فسحة السموات وأنوار عالم الجلال فيعظم بهجتها وسعادتها هناك ، ومعلوم أن هذه الأحوال غير حاصلة لكل الناس بل هي غير حاصلة من مبدأ خلقه آدم عليه السلام إلى قيام القيامة إلا لأشخاص قليلين ، فهذا هو الفائدة في تخصيص عيسى عليه السلام بهذه الحالة .

وأما الملكانية فقالوا : القتل والصلب وصلاً إلى

بحصول التكرير فيها، ولهذا لم يجر إدغام الراء في اللام لأن الأنقص يدغم في الأفضل، وحجة الباقيين أن الراء واللام حرفان من كلمتين فالأولى ترك الإدغام.

المسألة الثانية: المشبهة احتجوا بقوله تعالى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ في إثبات الجهة. والجواب: المراد الرفع إلى موضع لا يجري فيه حكم غير الله تعالى كقوله ﴿وَالِلَّهِ تُرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ [البقرة: ٢١٠]، وقال تعالى ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [النساء: ١٠٠] وكانت الهجرة في ذلك الوقت إلى المدينة، وقال إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩].

المسألة الثالثة: رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ثابت بهذه الآية، ونظير هذه الآية قوله في آل عمران ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] واعلم أنه تعالى لما ذكر عقيب ما شرح أنه وصل إلى عيسى أنواع كثيرة من البلاء والمحنة أنه رفعه إليه دل ذلك على أن رفعه إليه أعظم في باب الثواب من الجنة، ومن كل فيها من اللذات الجسمانية، وهذه الآية تفتح عليك باب معرفة السعادات الروحانية.

ثم قال تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَزِيرًا حَكِيمًا﴾ والمراد من العزة كمال القدرة، ومن الحكمة كمال العلم، فنبه بهذا على أن رفع عيسى من الدنيا إلى السموات وإن كان كالمتمتعز على البشر لكنه لا تعذر فيه بالنسبة إلى قدرتي وإلى حكمتي، وهو نظير قوله تعالى ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١] فإن الإسراء وإن كان متعذراً بالنسبة إلى قدرة محمد إلا أنه سهل بالنسبة إلى قدرة الحق سبحانه.

ثم قال تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، واعلم أنه تعالى لما ذكر فضائح اليهود وقبائح أفعالهم وشرح أنهم قصدوا قتل عيسى عليه السلام وبين أنه ما حصل لهم ذلك المقصود، وأنه حصل لعيسى أعظم المناصب وأجل المراتب بين تعالى أن هؤلاء اليهود الذين كانوا مبالغين في عداوته لا يخرج أحد منهم من الدنيا إلا بعد أن يؤمن به فقال ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾.

وعلم أن كلمة «إن» بمعنى «ما» النافية كقوله ﴿وَإِنْ

اللاهوت بالإحساس والشعور لا بالمباشرة وقالت اليعقوبية: القتل والصلب وقعا بالمسيح الذي هو جوهر متولد من جوهرين، فهذا هو شرح مذاهب النصارى في هذا الباب، وهو المراد من قوله ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَعْنُ شَرِّكَ مَنَّهُ﴾.

والقول الثاني: أن المراد بالذين اختلفوا هم اليهود، وفيه وجهان: الأول: أنهم لما قتلوا الشخص المشبه به كان الشبه قد ألقى على وجهه ولم يلق عليه شبه جسد عيسى عليه السلام، فلما قتلوه ونظروا إلى بدنه قالوا: الوجه وجه عيسى والجسد جسد غيره. الثاني: قال السدي: إن اليهود حبسوا عيسى مع عشرة من الحواريين في بيت، فدخل عليه رجل من اليهود ليخرجه ويقتله، فألقى الله شبه عيسى عليه ورفعه إلى السماء، فأخذوا ذلك الرجل وقتلوه على أنه عيسى عليه السلام، ثم قالوا: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ فذلك اختلافهم فيه.

المسألة الثانية: احتج نفاة القياس بهذه الآية وقالوا: العمل بالقياس اتباع للظن، واتباع الظن مذموم في كتاب الله بدليل أنه إنما ذكره في معرض الذم، ألا ترى أنه تعالى وصف اليهود والنصارى ههنا في معرض الذم بهذا فقال ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾. وقال في سورة الأنعام في مذمة الكفار ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦] وقال في آية أخرى ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦] وكل ذلك يدل على أن اتباع الظن مذموم.

والجواب: لا نسلم أن العمل بالقياس اتباع الظن، فإن الدليل القاطع لما دل على العمل بالقياس كان الحكم المستفاد من القيام معلوماً لا مظنوناً، وهذا الكلام له غور وفيه بحث.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا قُلُوهُ يَقِينًا. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾...

أما قوله ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ أبو عمرو والكسائي ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ بادغام اللام في الراء والباقون بترك الإدغام، حجتهم قرب مخرج اللام من الراء والراء أقوى من اللام

ابن عباس أنه فسره كذلك فقال له عكرمة: فإن خر من سقف بيت أو احترق أو أكله سبع قال: يتكلم بها في الهواء ولا تخرج روحه حتى يؤمن به . . .

والوجه الثاني: في الجواب عن أصل السؤال: أن قوله ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي قبل موت عيسى، والمراد أن أهل الكتاب الذين يكونون موجودين في زمان نزوله لا بد وأن يؤمنوا به: قال بعض المتكلمين: إنه لا يمنع نزوله من السماء إلى الدنيا إلا أنه إنما ينزل عند ارتفاع التكليف أو بحيث لا يعرف، إذ لو نزل مع بقاء التكليف على وجه يعرف أنه عيسى عليه السلام لكان إما أن يكون نبياً ولا نبي بعد محمد عليه الصلاة والسلام، أو غير نبي وذلك غير جائز على الأنبياء، وهذا الإشكال عندي ضعيف لأن انتهاء الأنبياء إلى مبعث محمد ﷺ، فعند مبعثه انتهت تلك المدة، فلا يبعد أن يصير بعد نزوله تبعاً لمحمد عليه الصلاة والسلام . .

مَنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١] فصار التقدير: وما أحد من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به، ثم إنا نرى أكثر اليهود يموتون ولا يؤمنون بعيسى عليه السلام. والجواب من وجهين. الأول: ما روي عن شهر بن حوشب قال: قال الحجاج إني ما قرأتها إلا وفي نفسي منها شيء، يعني هذه الآية فلإني أضرب عنق اليهودي ولا أسمع منه ذلك، فقلت: إن اليهودي إذا حضره الموت ضربت الملائكة وجهه ودبره، وقالوا يا عدو الله أتاك عيسى نبياً فكذبت به، فيقول آمنت أنه عبد الله، وتقول للنصراني: أتاك عيسى نبياً فزعمت أنه هو الله وابن الله، فيقول: آمنت أنه عبد الله فأهل الكتاب يؤمنون به، ولكن حيث لا ينفعهم ذلك إلا الإيمان، فاستوى الحجاج جالساً وقال: عمن نقلت هذا؟ فقلت: حدثني به محمد بن علي بن الحنفية فأخذ ينكت في الأرض بقضيب ثم قال: لقد أخذتها من عين صافية. وعن

الطبرسي ج ٥ ص ٢٧٩ - ٢٨٧

[٨٧]، فاجتمع اليهود حول عيسى فجعلوا يسألونه، فيقول لهم: يا معشر اليهود إن الله تعالى يبغضكم، فساروا إليه ليقتلوه، فأدخله جبرائيل في خوخة البيت الداخل لها روزنة في سقفها فرفعه جبرائيل إلى السماء، فبعث يهودا رأس رجلاً من أصحابه اسمه طيطانوس ليدخل عليه الخوخة فيقتله فدخل فلم يره، فأبطأ عليهم فظنوا أنه يقاتله في الخوخة، فألقى الله عليه شبه عيسى، فلما خرج على أصحابه قتلوه وصلبوه، وقيل القى عليه شبه وجه عيسى ولم يلق عليه شبه جسده، فقال بعض القوم أن الوجه وجه عيسى والجسد جسد طيطانوس فاشتبه الأمر عليهم.

وقال وهب بن منبه: أتى عيسى ومعه سبعة من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله كلهم على صورة عيسى، فقالوا لهم سحرتونا ليرزن لنا عيسى أو لنقتلنكم جميعاً، فقال عيسى لأصحابه: من يشري نفسه منكم اليوم بالجنة! فقال رجل منهم أسمه سرجس: أنا! فخرج إليهم فقال: أنا عيسى! فأخذوه وقتلوه وصلبوه، ورفع الله عيسى من يوم ذلك،

وقوله ﴿وَيَكْفُرْهُمْ﴾ أي بجحود هؤلاء لعيسى ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ هُتِّنًا عَظِيمًا﴾، أي أعظم كذب وأشنعه، وهو رميهم بإياها بالفاحشة. عن ابن عباس والسدي.

قال الكلبي: مر عيسى برهط فقال بعضهم لبعض قد جاءكم الساحر ابن الساحرة والفاعل ابن الفاعلة، فخذفوه بأمه، فسمع ذلك عيسى فقال: اللهم أنت ربي خلقتني ولم أتهم من تلقاء نفسي، اللهم العن من سبني وسب والدتي فاستجاب الله دعوته فمسحهم خنازير ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ يعني: قول اليهود إنا قتلنا عيسى ابن مريم رسول الله حكاه الله تعالى عنهم أي رسول الله في زعمه، وقيل إنه من قول الله سبحانه لا على وجه الحكاية عنهم، وتقديره الذي هو رسولي ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾. واختلفوا في كيفية التشبيه فروي عن ابن عباس أنه قال لما مسخ الله تعالى الذين سبوا عيسى وأمه بدعائه بلغ ذلك يهوذا وهو رأس اليهود، فخاف أن يدعوا عليه فجمع اليهود فاتفقوا على قتله، فبعث الله تعالى جبرائيل يمنعه منهم، ويعينه عليهم وذلك معنى قوله ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة:

وبه قتادة ومجاهد وابن إسحاق وإن اختلفوا في عدد الحواريين. ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه ألقى على جميعهم بل قالوا ألقى شبهه على واحد ورفع عيسى من بينهم، قال الطبري: وقول وهب أقوى لأنه لو ألقى الشبه على واحد منهم مع قول عيسى ايكمل يلقي شبهي فله الجنة ثم رأوا عيسى رفع من بينهم، قال الطبري: لما اشتبه عليهم ولما اختلفوا فيه وإن جاز أن يشتبه على أعدائهم من اليهود الذين ما عرفوه، لكن ألقى الشبه على جميعهم وكانوا يرون كل واحد منهم بصورة عيسى، فلما قتل أحدهم اشتبه الحال عليهم. وقال أبو علي الجبائي: إن رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عالٍ، ولم يمكنوا أحداً من الدنو إليه، فتغيرت حليته وقالوا: قد قتلنا عيسى ليوهمو بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي فيه عيسى، فلما دخلوه كان عيسى قد رفع من بينهم، فخافوا أنهم يكون ذلك سبباً لإيمان اليهود به ففعلوا ذلك، والذين اختلفوا فيه هم غير الذين هم صلبوه وإنما باقي اليهود، وقيل إن الذي دلهم عليه، وقال هذا عيسى أحد الحواريين، أخذ على ذلك ثلاثين درهماً وكان منافقاً، ثم إنه ندم على ذلك واختنق حتى قتل نفسه، وكان اسمه بودس زكريا يوطا وهو ملعون في النصارى، وبعض النصارى يقول أن بودس زكريا يوطا هو الذي شبه لهم فصلبوه، وهو يقول لست بصاحبكم أنا الذي دلتكم عليه، وقيل إنهم حبسوا المسيح مع عشرة من أصحابه في بيت، فدخل رجل من اليهود فألقى الله تعالى عليه شبه عيسى ورفع عيسى فقتلوا الرجل. . . عن السدي.

﴿وَالَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَيْسَ شَكٌّ مِنْهُمْ﴾ قيل يعني بذلك عامتهم لأن علماءهم علموا أنه غير مقتول. . . عن الجبائي، وقيل أراد بذلك جماعة اختلفوا فقال بعضهم قتلناه وقال بعضهم لم نقتله ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظُّلُمِ﴾ أي لم يكن له بمن قتلوه علم لكنهم اتبعوا ظنهم، فقتلوه ظناً منهم أنه عيسى ولم يكن به، وإنما شكوا في ذلك لأنهم عرفوا عدد من في البيت، فلما دخلوا عليهم وفقدوا واحداً منهم التبس عليهم أمر عيسى، وقتلوا من قتلوه على شك منهم في أمر عيسى، هذا على قول من قال

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: بل رفع الله عيسى إليه، ولم يصلبوه ولم يقتلوه، وقد مر تفسيره في سورة آل عمران عند قوله: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَىٰ إِنِّي مُنَوِّدُكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٥٥] ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ معناه لم يزل الله سبحانه منتقماً من أعدائه حكيماً في أفعاله وتقديراته، فاحذروا أيها السائلون محمداً أن ينزل عليكم كتاباً من السماء حلول عقوبة بكم كما حل بأوائلكم في تكذيبهم رسله. . . عن ابن عباس، وما مر في تفسير هذه الآية من أن الله ألقى شبه عيسى على غيره فإن ذلك من مقدور الله بلا خلاف بين المسلمين فيه، ويجوز أن يفعله الله سبحانه على وجه التغليظ للمحنة والتشديد في التكليف، وإن كان ذلك خارقاً للعادة فإنه يكون معجز للمسيح، كما روي أن جبرائيل كان يأتي نبينا في صورة دحية الكلبي. ومما يسأل عن هذه الآية أن يقال قد تواترت اليهود والنصارى مع كثرتهم واجتمعت على أن المسيح قد قتل وصلب، فكيف يجوز عليهم أن يخبروا عن النبي بخلاف ما هو به؟ ولو جاز ذلك فكيف يوثق بشيء من الأخبار؟ والجواب أن هؤلاء دخلت عليهم الشبهة كما أخبر الله سبحانه عنهم بذلك، فلم يكن اليهود يعرفون عيسى بعينه وإنما أخبروا أنهم قتلوا رجلاً قيل لهم إنه عيسى فهم في خبرهم صادقون، وإن لم يكن المقتول عيسى وإنما اشتبه الأمر على النصارى لأن شبه عيسى ألقى على غيره، فرأوا من هو على صورته مقتولاً مصلوباً فلم يخبر أحد من الفريقين إلا عما رآه وظن أن الأمر على ما أخبر به فلا يؤدي ذلك إلى بطلان الأخبار بحال.

. . . ثم أخبر تعالى أنه لا يبقى أحد منهم إلا ويؤمن به فقال ﴿وَلَا يَنْفَعُ الْكُفْرَانَ إِلَّا يُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾

بذلك؟ قال: أردت أن أغيظه، وذكر أبو القاسم البلخي مثل ذلك، وضعف الزجاج هذا الوجه قال: إن الذين يبقون إلى زمن عيسى من أهل الكتاب قليل، والآية تقتضي عموم إيمان أهل الكتاب، إلا أن جميعهم يقولون أن عيسى الذي ينزل في آخر الزمان نحن نؤمن به.

وثانيها: أن الضمير في به يعود إلى المسيح، والضمير في موته يعود إلى الكتابي، ومعناه لا يكون أحد من أهل الكتاب يخرج من دار الدنيا إلا ويؤمن بعيسى قبل موته إذا زال تكليفه وتحقق الموت، ولكن لا ينفعه الإيمان حينئذ، وإنما ذكر اليهود والنصارى لأن جميعهم مبطلون. اليهود بالكفر به والنصارى بالغلو في أمره، وذهب إليه ابن عباس في رواية أخرى ومجاهد والضحاك وابن سيرين وجوير قالوا: ولو ضربت رقبتك لم تخرج نفسه حتى يؤمن.

وثالثها: أن يكون المعنى ليؤمنن بمحمد ﷺ قبل موت الكتابي عن عكرمة، ورواه أيضاً أصحابنا، وضعف الطبري هذا الوجه بأن قال: لو كان ذلك صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفار عليهم إذا ماتوا، وهذا لا يصح لأن إيمانهم بمحمد ﷺ إنما يكون في حال زوال التكليف فلا يعتد به، وإنما ضعف هذا القول من حيث لم يجر ذكر لبنينا ﷺ ها هنا...

اختلف فيه على أقوال (أحدها): إن كلا الضميرين يعودان، المسيح، أي ليس يبقى أحد من أهل الكتاب من اليهود والنصارى إلا ويؤمنن بالمسيح قبل موت المسيح إذا أنزله الله إلى الأرض... في آخر الزمان لقتل الدجال فتصير الملل كلها أمة واحدة وهي ملة الإسلام الحنيفة دين إبراهيم عن ابن عباس وأبي مالك والحسن وقتادة وابن زيد وذلك حين لا ينفعهم الإيمان، واختاره الطبري قال: والآية خاصة لمن يكون منهم في ذلك الزمان، وذكر علي بن إبراهيم في تفسيره أن أباه حدثه... عن شهر بن حوشب قال: قال الحجاج بن يوسف آية من كتاب الله قد أعيتني قوله: ﴿وَلَا يَمُنُّ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِمَا قَبِلَ مُؤْتَاهٍ﴾، الآية، والله أني لآمر باليهودي والنصراني فيضرب عنقه ثم أرمقه بعيني فما أراه يحرك شفتيه حتى يحمل، فقلت أصلح الله الأمير ليس على ما أولت! قال: فكيف هو؟ قلت إن عيسى ابن مريم ينزل قبل يوم القيامة إلى الدنيا ولا يبقى أهل ملة يهودي أو نصراني أو غيره إلا وآمن به قبل موت عيسى ويصلي خلف المهدي، قال ويحك أتى لك هذا ومن أين جئت به؟ قال قلت: حدثني به الباقر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: جئت والله بها من عين صافية. فقليل لشهر ما أردت

القرطبي ج ٦ ص ٧ - ١٢

تقدم في «آل عمران» اشتقاق لفظ المسيح. ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ بدل؛ وإن شئت على معنى أعنى. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾ رد لقولهم ﴿وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي ألقى شبهه على غيره كما تقدم في «آل عمران». وقيل: لم يكونوا يعرفون شخصه وقتلوا الذي قتلوه وهم شاكون فيه...

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ من زائدة؛ وتم الكلام. ثم قال جل وعز: ﴿إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء ليس من الأول في موضع نصب، ويجوز أن يكون في موضع رفع على البدل؛ أي ما لهم به من علم إلا اتباع الظن. وأنشد سيبويه: وبلى لدة ليس بها أنيس

إلا اليعافير وإلا العيسر
قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ قال ابن عباس والسدي:

... ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ أي جزاء لهم على كفرهم؛ كما قال: ﴿وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٤٦] أي إلا إيماناً قليلاً أي ببعض الأنبياء، وذلك غير نافع لهم. ثم كرر ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ ليخبر أنهم كفروا كفراً بعد كفر. وقيل: المعنى ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ بالمسيح؛ فحذف لدلالة ما بعده عليه، والعامل في «يَكْفُرِهِمْ» هو العامل في «يَنْقُضِهِمْ» لأنه معطوف عليه، ولا يجوز أن يكون العامل فيه «طبع». والبهتان العظيم رميها بيوسف النجار وكان من الصالحين منهم. والبهتان الكذب المفرط الذي يتعجب منه وقد تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ كُسرت «إن» لأنها مبتدأة بعد القول وفتحها لغة؛ وقد

فلا أرى منه الإيمان؛ فقال له شهر ابن حوشب: إنه حين عاين أمر الآخرة يقر بأن عيسى عبد الله ورسوله فيؤمن به ولا ينفعه؛ فقال له الحجاج: من أين أخذت هذا؟ قالت: أخذته من محمد بن الحنفية؛ فقال له الحجاج: أخذت من عيني صافية. وروى عن مجاهد أنه قال: ما من أحد من أهل الكتاب إلا يؤمن بعيسى قبل موته؛ فقيل له: إن غرق أو احترق أو أكله السبع يؤمن بعيسى؟ فقال: نعم! وقيل: إن الهاءين جميعاً لعيسى عليه السلام؛ والمعنى ليؤمنن به من كان حيّاً حين نزوله يوم القيامة؛ قاله قتادة وابن زيد وغيرهما واختاره الطبري. وروى يزيد بن زريع عن رجل عن الحسن في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بَعَثْنَا فِيهِمُ ابْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ﴾: «لَمَّا مَنَّ» أي بمحمد عليه السلام وإن لم يجز له ذكر؛ لأن هذه الألفاظ أنزلت عليه والمقصود الإيمان به، والإيمان بعيسى يتضمن الإيمان بمحمد عليه السلام أيضاً؛ إذ لا يجوز أن يفرق بينهم. وقيل: ﴿لَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بَعَثْنَا فِيهِمُ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي بالله تعالى قبل أن يموت ولا ينفعه الإيمان عند المعاناة. والتأويلان الأولان أظهر. وروى الزهري عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «لينزلن ابن مريم حكماً عدلاً فليقتلن الدجال وليقتلن الخنزير وليكسرن الصليب وتكون السجدة واحدة لله رب العالمين» ثم قال أبو هريرة: وقرأوا إن شئتم ﴿وَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بَعَثْنَا فِيهِمُ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ قال أبو هريرة: قبل موت عيسى؛ يُعِيدُهَا ثلاث مرات. وتقدير الآية عند سيويه؛ وإن من أهل الكتاب أحد إلا ليؤمنن به. وتقدير الكوفيين: وإن من أهل الكتاب إلا من ليؤمنن به، وفيه قبح، لأن فيه حذف الموصول، والصلة بعض الموصول فكأنه حذف بعض الاسم...

المعنى ما قتلوا ظنهم يقيناً؛ كقولك قتلته علماً إذا علمته علماً تاماً؛ فالهاء عائدة على الظن. قال أبو عبيد: ولو كان المعنى وما قتلوا عيسى يقيناً لقال: وما قتلوه فقط. وقيل: المعنى وما قتلوا الذي شبه لهم أنه عيسى يقيناً؛ فالوقف على هذا ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾. وقيل: المعنى وما قتلوا عيسى، والوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ و﴿يَقِينًا﴾ نعت لمصدر محذوف، وفيه تقديران: أحدهما - أي قالوا هذا قولاً يقيناً، أو قال الله هذا قولاً يقيناً. والقول الآخر - أن يكون المعنى وما علموه علماً يقيناً. النحاس: إن قدرت المعنى بل رفعه الله إليه يقيناً فهو خطأ؛ لأنه لا يعمل ما بعد «بل» فيما قبلها لضعفها. وأجاز ابن الأنباري الوقف على ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾ على أن ينصب ﴿يَقِينًا﴾ بفعل مضمر هو جواب القسم، تقديره: ولقد صدقتم يقيناً أي صدقاً يقيناً. ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ ابتداء كلام مستأنف؛ أي إلى السماء، والله تعالى متعالٍ عن المكان؛ وقد تقدّم كيفية رفعه في «آل عمران». ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَرِيْبًا﴾ أي قوياً بالثقة من اليهود فسلب عليهم بطرس ابن استيسانوس الرّومي فقتل منهم مقتلة عظيمة. ﴿حَكِيمًا﴾ حكم عليهم باللّعة والغضب.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا مَنَّ اللَّهُ عَلَى النَّاسِ بَعَثْنَا فِيهِمُ ابْنَ مَرْيَمَ﴾. قال ابن عباس والحسن ومجاهد وعكرمة: المعنى ليؤمنن بالمسيح قبل موته أي الكتابي؛ فالهاء الأولى عائدة على عيسى، والثانية على الكتابي؛ وذلك أنه ليس أحد من أهل الكتاب اليهود والنصارى إلا ويؤمن بعيسى عليه السلام إذا عاين الملك، ولكنه إيمان لا ينفع؛ لأنه إيمان عند اليأس وحين التلبس بحالة الموت؛ فاليهودي يقر في ذلك الوقت بأنه رسول الله، والنصراني يقر بأنه كان رسول الله. وروى أن الحجاج سأل شهر بن حوشب عن هذه الآية فقال: إني لأوتي بالأسير من اليهود والنصارى فأمر بضرب عنقه، وأنظر إليه في ذلك الوقت

الألوسي ج ٦ ص ٩ - ١٣

بالبراءة، والبهتان الكذب الذي يتحير من شدته وعظمه، ونصبه على أنه مفعول به - لقولهم - وجوز أن يكون صفة لمصدر محذوف أي قولاً بهتاناً، وقيل: هو مصدر في

﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ لا يقادر قدره حيث نسبوها - وحاشاها - إلى ما هي عنه في نفسها بألف ألف منزل، وتمادوا على ذلك غير مكثرين بقيام المعجزة

السلام، وقيل: غير ذلك، و(شبه) مسند إلى الجار والمجرور، والمراد وقع لهم تشبيه بين عيسى عليه السلام ومن صلب، أو في الأمر - على قول الجبائي - أو هو مسند إلى ضمير المقتول الذي دل عليه إنا قتلنا أي ﴿شَبَّهَهُمْ﴾ من قتلوه بعيسى عليه السلام، أو الضمير للأمر و(شبه) من الشبهة أي التبس عليهم الأمر بناءً: على ذلك القول، وليس المسند إليه ضمير المسيح عليه الصلاة والسلام لأنه مشبه به لا مشبه ﴿وَالَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ﴾ أي في شأن عيسى عليه السلام فإنه لما وقعت تلك الواقعة اختلف الناس فقال بعضهم: إنه كان كاذباً فقتلناه حقاً، وتردد آخرون فقال بعضهم: إن كان هذا عيسى فأين صاحبنا، وإن كان صاحبنا فأين عيسى؟ وقال بعضهم: الوجه وجه عيسى والبدن بدن صاحبنا، وقال من سمع منه - إن الله تعالى يرفعني إلى السماء - إنه رفع إلى السماء، وقالت النصارى الذين يدعون ربوبيته عليه السلام: صلب الناسوت وصعد اللاهوت، ولهذا لا يعدون القتل نقيصة حيث لم يضيفوه إلى اللاهوت ويرد هؤلاء إن ذلك يمتنع عند اليعقوبية القائلين: إن المسيح قد صار بالاتحاد طبيعة واحدة إذ الطبيعة الواحدة لم يبق فيها ناسوت متميز عن لاهوت والشيء الواحد لا يقال: مات ولم يموت، وأهين ولم يهين.

وأما الروم القائلون: بأن المسيح بعد الاتحاد باق على طبيعتين، فيقال لهم: فهل فارق اللاهوت ناسوته عند القتل؟ فإن قالوا: فارقه فقد أبطلوا دينهم، فلم يستحق المسيح الربوبية عندهم إلا بالاتحاد، وإن قالوا: لم يفارقه فقد التزموا ما ورد على اليعقوبية وهو قتل اللاهوت مع الناسوت، وإن فسروا الاتحاد بالتردد وهو أن الإله جعله مسكناً وبيتاً ثم فارقه عند ورود ما ورد على الناسوت أبطلوا إلهيته في تلك الحالة، وقلنا لهم: أليس قد أهين؟ وهذا القدر يكفي في إثبات النقيصة إذ لم يأنف اللاهوت لمسكنه أن تناله هذه النقائص، فإن كان قادراً على نفثها فقد أساء مجاورته ورضي بنقيصته وذلك عائد بالنقص عليه في نفسه، وإن لم يكن قادراً فذلك أبعد له عن عز الربوبية، وهؤلاء ينكرون إلقاء الشبه، ويقولون: لا يجوز

موضع الحال أي مباحثتين ﴿وَقَوْلِهِمْ﴾ على سبيل التبجح. ﴿إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ذكره بعنوان الرسالة تهكماً واستهزاء كما في قوله تعالى حكاية عن الكفار: ﴿يَكَايُنْهَا الَّذِي تَزِلُّ عَلَيْهِ الدِّكْرُ﴾ إلخ، ويحتمل أن يكون ذلك منهم بناءً على قوله عليه الصلاة والسلام وإن لم يعتدوه، وقيل: إنهم وصفوه بغير ذلك من صفات الذم فغير في الحكاية فيكون من الحكاية لا من المحكى، وقيل: هو استئناف منه مدحاً له عليه الصلاة والسلام ورفعاً لمحلّه وإظهاراً لغاية جراتهم في تصديدهم لقتله ونهاية وقاحتهم في تبجحهم ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ﴾.

وقال وهب بن منبه في خبر طويل رواه عن ابن المنذر: «أتى عيسى عليه السلام ومعه سبعة وعشرون من الحواريين في بيت فأحاطوا بهم، فلما دخلوا عليهم صيرهم الله تعالى كلهم على صورة عيسى عليه السلام فقالوا لهم: سحرتونا ليرزن لنا عيسى عليه السلام أو لنقتلنكم جميعاً فقال عيسى لأصحابه: من يشتري نفسه منكم اليوم بالجنة؟ فقال رجل منهم: أنا، فخرج إليهم فقال: أنا عيسى فقتلوه وصلبوه ورفع الله تعالى عيسى عليه السلام»، وبه قال قتادة والشدي ومجاهد وابن إسحق، وإن اختلفوا في عدد الحواريين، ولم يذكر أحد غير وهب أن شبهه عليه السلام ألقى على جميعهم بل قالوا: ألقى شبهه على واحد ورفع عيسى عليه السلام من بينهم.

ورجح الطبري قول وهب، وقال: إنه الأشبه، وقال أبر علي الجبائي: إن رؤساء اليهود أخذوا إنساناً فقتلوه وصلبوه على موضع عالٍ ولم يمكنوا أحداً من الدنو منه فتغيرت حليته، وقالوا: إنا قتلنا عيسى ليؤهموا بذلك على عوامهم لأنهم كانوا أحاطوا بالبيت الذي به عيسى عليه السلام، فلما دخلوه ولم يجدوه خافوا أن يكون ذلك سبباً لإيمان اليهود، ففعلوا ما فعلوا، وقيل: كان رجل من الحواريين ينافق عيسى عليه السلام فلما أرادوا قتله قال: أنا أدلكم عليه وأخذ على ذلك ثلاثين درهماً فدخل بيت عيسى عليه السلام فرفع عليه السلام، وألقى شبهه على المنافق فدخلوا عليه فقتلوه وهم يظنون أنه عيسى عليه

ثم يحيا فيها أربعين سنة أو تمامها من سنّ رفعه، وكان إذ ذاك ابن ثلاث وثلاثين سنة، ويموت كما تموت البشر، ويدفن في حجرة النبي ﷺ، أو في بيت المقدس، وقال قتادة: رفع الله تعالى عيسى عليه السلام إليه فكساه الريش وألبسه النور وقطع عنه لذة المطعم والمشرب فطار مع الملائكة فهو معهم حول العرش فصار إنسياً ملكياً سماوياً أرضياً، وهذا الرفع على المختار كان قبل صلب الشبه، وفي إنجيل لوقا ما يؤيده؛ وأما رؤية بعض الحواريين له عليه السلام بعد الصلب فهو من باب تطور الروح، فإن للقدسيين قوة التطور في هذا العالم، وإن رفعت أرواحهم إلى المحل الأسنى، وقد وقع التطور لكثير من أولياء هذه الأمة، وحكاياتهم في ذلك يضيق عنها نطاق الحصر ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغالب فيما يريده ﴿حَكِيمًا﴾ في جميع أفعاله، فيدخل فيه تدبيراته سبحانه في أمر عيسى عليه السلام، وإلقاء الشبه على من ألقاه دخولاً أولاً ﴿وَلِإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ أي اليهود خاصة، كما أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، أو هم والنصارى كما ذهب إليه كثير من المفسرين، (وإن) نافية بمعنى ما، وفي الجار والمجرور وجهان: أحدهما أنه صفة لمبتدأ محذوف، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ جملة قسمة، والقسم مع جوابه خبر المبتدأ، ولا يرد عليه أن القسم إنشاء لأن المقصود بالخبر جوابه وهو خبر مؤكد بالقسم، ولا ينافيه كون جواب القسم لا محل له لأن ذلك من حيث كونه جواباً فلا يمتنع كونه له محل باعتبار آخر لو سلم أن الخبر ليس هو المجموع والتقدير، وما أحد من أهل الكتاب إلا والله ليؤمنن به، والثاني أنه متعلق بمحذوف وقع خبراً لذلك المبتدأ، وجملة القسم صفة له لا خبر، والتقدير وإن أحد إلا ليؤمنن به كائن من أهل الكتاب، ومعناه كل رجل يؤمن به قبل موته من أهل الكتاب، وهو كلام مفيد، فالاعتراض على هذا الوجه - بأنه لا ينتظم من أحد، والجار والمجرور إسناد لأنه لا يفيد - لا يفيد لحصول الفائدة بلا ريب، نعم المعنى على الوجه الأول كل رجل من أهل الكتاب يؤمن به قبل موته، والظاهر أنه المقصود، وأنه أتم فائدة، والاستثناء مفرغ من

ذلك لأنه إضلال، ورده أظهر من أن يخفى، ويكفي في إثباته أنه لو لم يكن ثابتاً لزم تكذيب المسيح، وإبطال نبوته بل وسائر النبوات على أن قولهم في الفصل: إن المصلوب قال: إلهي إلهي لم تركتني وخذلتني، وهو ينافي الرضا بمصرّ القضاء؛ ويناقض التسليم لأحكام الحكيم، وأنه شكى العطش وطلب الماء، والإنجيل مصرح بأن المسيح كان يطوي أربعين يوماً وليلة إلى غير ذلك مما لهم فيه إن صح مما ينادي على أن المصلوب هو الشبه كما لا يخفى.

وجوز أن يفسر الشك بالجهل، والعلم بالاعتقاد الذي تسكن إليه النفس جزماً كان أو غيره؛ فالاستثناء حينئذ متصل، وإليه ذهب ابن عطية إلا أنه خلاف المشهور، وما قيل: إن اتباع الظن ليس من العلم قطعاً فلا يتصور اتصاله فمدفوع بأن من قال به جعله بمعنى الظن المتبع ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ الضمير لعيسى عليه السلام كما هو الظاهر أي ما قتلوه قتلاً يقيناً، أو متيقنين، ولا يرد أن نفي القتل المتيقن يقتضي ثبوت القتل المشكوك لأنه لنفي القيد، ولا مانع من أنه قتل في ظنهم فإنه يقتضي أنه ليس في نفس الأمر كذلك فلا حاجة إلى التزام جعل يقيناً مفعولاً مطلقاً لفعل محذوف، والتقدير تيقنوا ذلك يقيناً، وقيل: هو راجع إلى العلم؛ وإليه ذهب الفراء. وابن قتيبة أي وما قتلوا العلم (يقيناً) من قولهم: قتل العلم. والرأي، وقتلت كذا علماً إذا تبالغ علمك فيه، وهو مجاز كما في الأساس، والمعنى ما علموه يقيناً، وقيل: الضمير للظن أي ما قطعوا الظن (يقيناً) ونقل ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، والسدي، وحكى ابن الأنباري أن في الكلام تقديماً وتأخيراً وأن (يقيناً) متعلق بقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ أي بل رفعه سبحانه إليه يقيناً، ورده في البحر بأنه قد نص الخليل على أنه لا يعمل ما بعد بل فيما قبلها والكلام ردّ وإنكار لقتله، وإثبات لرفعه عليه الصلاة والسلام، وفيه تقدير مضاف عند أبي حيان أي إلى سمائه، قال: وهو حي في السماء الثانية على ما صح عن النبي ﷺ في حديث المعراج، وهو هنالك مقيم حتى ينزل إلى الأرض يقتل الدجال، ويملؤها عدلاً كما ملئت جوراً

قبله ودبره، وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنك قتلت عبد الله وروحه فيؤمن به حين لا ينفعه الإيمان، فإذا كان عند نزول عيسى آمنت به أحيائهم كما آمنت به موتاهم، فقال: من أين أخذتها؟ فقلت: من محمد بن علي، قال: لقد أخذتها من معدنها، قال شهر: وأيم الله تعالى ما حدثني إلا أم سلمة، ولكنني أحببت أن أغيطه، والإخبار بحالهم هذه وعيد لهم وتحريض إلى المسارعة إلى الإيمان به قبل أن يضطروا إليه مع انتفاء جدواه، وقيل: الضميران لعيسى عليه السلام، وروى ذلك عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أيضاً. وأبي مالك والحسن وقتادة وابن زيد واختاره الطبراني، والمعنى أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمنن به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها ديناً واحداً، وأخرج أحمد عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل. ويضع الخراج. وينزل الروحاء فيحجج منها أو يعتمر أو يجمعهما» قال: وتلا أبو هريرة رضي الله تعالى عنه ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، وقيل: الضمير الأول لله تعالى ولا يخفى بعده، وأبعد من ذلك أنه لمحمد ﷺ، وروى هذا عن عكرمة، ويضعفه أنه لم يجر له عليه الصلاة والسلام ذكر هنا، ولا ضرورة توجب رد الكناية إليه، لا أنه - كما زعم الطبري - لو كان صحيحاً لما جاز إجراء أحكام الكفار على أهل الكتاب بعد موتهم لأن ذلك الإيمان إنما هو في حال زوال التكليف فلا يعتد به . . .

أعم الأوصاف، وأهل الكوفة يقدرّون موصولاً بعد إلا، وأهل البصرة يمنعون حذف الموصول وإبقاء صلتها، والضمير الثاني راجع للمبتدأ المحذوف اعني أحد، والأول لعيسى عليه السلام فمفاد الآية أن كل يهودي ونصراني يؤمن بعيسى عليه السلام قبل أن تزهق روحه بأنه عبد الله تعالى ورسوله، ولا ينفعه إيمانه حينئذ لأن ذلك الوقت لكونه ملحقاً بالبرزخ لما أنه ينكشف عنده لكل الحق ينقطع إليه التكليف، ويؤيد ذلك أنه قرأ أبي - ليؤمنن به قبل موتهم - بضم النون وعود ضمير الجمع لأحد ظاهر لكونه في معنى الجمع، وعوده لعيسى عليه السلام غير ظاهر.

وأخرج ابن المنذر. وغيره عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه فسر الآية كذلك، فقيل له: رأيت إن خرّ من فوق بيت؟ قال: يتكلم به في الهواء، فقيل: رأيت إن ضرب عنقه؟ قال: يتلجلج بها لسانه.

وأخرج ابن المنذر أيضاً عن شهر بن حوشب قال: قال لي الحجاج: يا شهر آية من كتاب الله تعالى ما قرأتها إلا اعترض في نفسي منها شيء قال الله تعالى ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، وإني أوتي بالأسارى فأضرب أعناقهم ولا أسمعهم يقولون شيئاً فقلت: رفعت إليك على غير وجهها إن النصراني إذا خرجت روحه - أي إذا قرب خروجها كما تدل عليه رواية أخرى عنه - ضربته الملائكة من قبله ومن دبره، وقالوا: أي خبيث إن المسيح الذي زعمت أنه الله تعالى، وأنه ابن الله سبحانه، وأنه ثالث ثلاثة عبد الله وروحه وكلمته، فيؤمن به حين لا ينفعه إيمانه، وأن اليهودي إذا خرجت نفسه ضربته الملائكة من

القاسمي ج ٥ ص ٥٤٩ - ٦٢٨

يَتَأَيَّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ ﴿[الحجر ٦]﴾. ولإنبائه عن ذكرهم له عليه السلام بالوجه القبيح، على ما قيل من أن ذلك وضع للذكر الجميل من جهته تعالى، مكان ذكرهم القبيح. وقيل: هو نعت له عليه الصلاة والسلام من جهته تعالى. مدحاً له، ورفعاً لمحلّه، وإظهاراً لغاية جرائتهم، في تصديهم لقتله، ونهاية وقاحتهم في افتخارهم بذلك.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾. قال أبو السعود: نظم قولهم هذا في سلك سائر جنائياتهم التي نُعيّت عليهم، ليس لمجرد كونه كذباً، بل لتضمنه لابتهاجهم بقتل النبي عليه السلام والاستهزاء به. فإن وصفهم له عليه السلام بعنوان الرسالة إنما هو بطريق التهكم به عليه السلام. كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا

ساحة مقام عيسى عليه السلام مما توهموه في ذلك . ولما كانت هذه الآية من مباحث الأمتين ، ومعارك الفرقين - أردت بسط الكلام في هذا المقام . انتهاجاً للحق . وأخذاً بناصر الصدق . وردّ أباطيل المكذبين . وتزييف أقوال الملحدين . نورد أولاً ما زعموه ورّوه . مما نفاه التنزيل الكريم . ثم بطلان المرويّ عندهم وتهافتهم بالحجج الدامغة . ثم ما رواه أئمة سلفنا رضي الله عنهم في هذه القصة . ثم رد زعمهم أن إلقاء الشبه سفسطة . ثم سقوط دعواهم التواتر في الصلب . ثم تزييف تفسير بعض النصارى لهذه الآية ، وأنها مطابقة لمعتقدهم على زعمه . مع ذكر من رفض عقيدة الصلب من فرق النصارى . وذكر ما روي في إنجيل خامس يوافق عقيدة المسلمين ، ويطابق هذه الآية . ونختتم هذه المباحث بما قاله شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رضي الله عنه في هذه الآية ، وأبدع ، على عادته قدس سره .

قال الراغب: سمي عيسى بالمسيح لأنه مسح عنه القوة الذميمة، من الجهل والشره والحرص وسائر الأخلاق الذميمة. كما أن الدجال مسح عنه القوة المحمودة من العلم والعقل والحلم والأخلاق الحميدة. وقال شمر: لأنه مسح بالبركة. وهو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنِي مُبَارَكًا أَيَّنَّ مَا كُنْتُ﴾ [مريم ٣١]. أو لأن الله مسح عنه الذنوب. وذكر المجد في كتابه (البصائر) في اشتقاقه ستة وخمسين قولاً. وتطرّق شارح القاموس لبعضها. فانظره ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي: لا يصح لهم الفخر بقتله. لأنهم ما قتلوه. ولا متمسك لهم فيما يزعمونه من صلبهم إياه. لأنهم ما صلبوه ولكن قتلوا وصلبوا من ألقى عليه شبهه . . .

لا خفاء في أن هذه الآية الكريمة لتكذيب اليهود في دعوى الصلب التي تابعهم عليها أكثر النصارى، ولتبرئة

محمد عبده ج ٦ ص ١٧ - ٥٩

شبهه . فالذي لا خلاف فيه هو أن الجنود ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية . وقيل أن الضمير في قوله تعالى ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ للعلم الذي نفاه عنهم ، والمعنى ما لهم به من علم لكنهم يتبعون الظن وما قتلوا العلم يقيناً وتثبتاً به بل رضوا بتلك الظنون التي يتخبطون فيها . يقال قتلت الشيء علماً وخبراً - كما في الأساس - إذا أحطت به واستوليت عليه حتى لا ينازع ذهنك منه اضطراب ولا ارتياب . وروي عن ابن عباس أنه راجع إلى الظن الذي يتبعونه قال «لم يقتلوا ظنهم يقيناً» رواه ابن جرير أي أنهم يتبعون ظناً غير محص ولا موفى أسباب الترجيح والحكم التي توصل إلى العلم . وقد اختلفت رواية المفسرين بالمأثور في هذه المسألة لأن عمدتهم فيها النقل عن أسلم من اليهود والنصارى وهؤلاء كانوا مختلفين ما لهم به من علم يقيني ، ولكن الروايات عنهم تشتمل على نحو ما عند النصارى من مقدمات القصة كجمع المسيح لحواريه (أو تلاميذه) ، وخدمته إياهم وغسله لأرجلهم ، وقوله لبعضهم أنه ينكره قبل صياح الديك ثلاث مرات ، ومن يبعه بدلالة أعدائه عليه في مقابلة مال قليل ، وكون

. . الشك في صلب المسيح هو التردد فيه أكان هو المصلوب أم غيره؟ فبعض المختلفين في أمره الشاكين فيه يقول إنه هو ، وبعضهم يقول إنه غيره ، وما لأحد منهما علم يقيني بذلك وإنما يتبعون الظن . وقوله تعالى ﴿إِلَّا أَتْبَاعَ الظَّنِّ﴾ استثناء منقطع كما علم من تفسيرنا له . وفي الأناجيل المعتمدة عند النصارى أن المسيح قال لتلاميذه «كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة» أي التي يطلب فيها للقتل (متى ٢٦ : ٣١ ومرقس ١٤ : ٢٧) .

فإذا كانت أناجيلهم لا تزال ناطقة فإنه أخبر أن تلاميذه وأعرف الناس به يشكون فيه في ذلك الوقت وخبره صادق قطعاً فهل يستغرب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره ، وقد صارت قصته رواية تاريخية منقطعة الأسناد؟

. . . وهذه الأناجيل المعتمدة عند النصارى تصرح بأن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي وأنه جعل لهم علامة إن من قبله يكون هو يسوع المسيح فلما قبله قبضوا عليه . وأما إنجيل برنابا فيصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه المسيح لأنه ألقى عليه

جزى كل عامل بعمله، فأحل باليهود ما أحل بهم وسويفهم جزاءهم في الآخرة.

﴿وَلَا يَنْفَعُ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ أي وما من أهل الكتاب أحد ﴿إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ﴾ أي ليؤمنن بعيسى إيماناً صحيحاً وهو أنه عبد الله ورسوله وآيته للناس ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ أي قبل موت ذلك الأحد الذي هو نكرة في سياق النفي فيفيد العموم. وحاصل المعنى أن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وغيره من أمر الإيمان فيؤمن بعيسى إيماناً صحيحاً، فاليهودي يعلم أنه رسول صادق غير دعي ولا كذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله فلا هو إله ولا ابن الله. ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ يشهد عليهم، بما تظهر به حقيقة أمره معهم، ومنه ما حكاه الله عنه في آخر سورة المائدة ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] وقد يشهد للمؤمن منهم في حال الاختيار والتكليف بإيمانه، وعلى الكافر بكفره، لأنه مبعوث إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وذهب بعضهم إلى أن المراد أن كل أحد من أهل الكتاب يؤمن بعيسى قبل موت عيسى وهذا مبني على القول بأن عيسى لما يمت وأنه رفع إلى السماء قبل وفاته وهم الذين أولوا قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ وهم على هذا يحتاجون إلى تأويل النفي العام هنا بتخصيصه بمن يكون منهم حياً عند نزوله فيقولون: المعنى وما من أحد من أهل الكتاب الذين ينزل المسيح من السماء إلى الأرض وهم أحياء إلا ليؤمنن به ويتبعنه. والمتبادر من الآية المعنى الأول وهذا التخصيص لا دليل عليه وهو مبني على شيء لا نص عليه في القرآن حتى يكون قرينة له. والأخبار التي وردت فيه لم ترد مفسرة للآية. أما المعنى الأول الذي هو الظاهر المتبادر من النظم البليغ فيؤيده ما ورد من اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، ومن كونهم يبشرون برضوان الله وكرامته أو بعذابه وعقوبته. ففي حديث عبادة بن الصامت في الصحيحين أن المؤمن

الدلالة عليه كانت بتقبيل الدال عليه له. ولكن بعضهم قال إن شبهه ألقى على من دلهم عليه، وبعضهم قال بل ألقى شبهه على جميع من كانوا معه، وروى ابن جرير القولين عن وهب ابن منبه. والحاصل أن جميع روايات المسلمين متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أيدي مريدي قتله فقتلوا آخر ظانين أنه هو.

وأما قوله تعالى ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ فقد سبق نظيره في سورة آل عمران وذلك قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَكُفِّرُ بَنِي إِسْرَافِيلَ مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] روي عن ابن عباس تفسير التوفي هنا بالإماتة كما هو الظاهر المتبادر، وعن ابن جريج تفسيرها بأصل معناها وهو الأخذ والقبض، والمراد منه ومن الرفع انقاده من الذين كفروا بعناية من الله الذي اصطفاه وقربه إليه. قال ابن جرير بسنده عن ابن جريج «رفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا» أي ليس المراد الرفع إلى السماء لا بالروح والجسد ولا بالروح فقط. وعلى القول بأن التوفي الإماتة لا يظهر للرفع معنى إلا رفع الروح. والمشهور بين المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السماء ويستدلون على هذا بحديث المعراج إذ فيه أن النبي (ص) رآه هو وابن خالته يحيى في السماء الثانية: ولو كان هذا يدل على أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء لدل أيضاً على رفع يحيى وسائر من رآهم من الأنبياء في سائر السموات، ولم يقل بهذا أحد.

وذكر الرازي أن المشبهة يستدلون بالآية على إثبات المكان لله تعالى وذكر للرد عليهم وجوهاً: (منها) أن المراد ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ إلى محل كرامتي وجعل ذلك رفعاً للتفخيم والتعظيم ومثله قوله تعالى حكاية عن إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وإنما ذهب من العراق إلى الشام (ومنها) أن المراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه غير الله.

... ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فبعزته وهي كونه يقهر ولا يقهر، ويغلب لا يغلب، انقذ عبده ورسوله عيسى عليه السلام من اليهود الماكرين، والروم الحاكمين، وبحكمته

السلام لما دعا إليه من الإصلاح الذي يزرعهم عن تقاليدهم المادية، لأنهم بقتل زكريا ويحيى قد أصيبوا بالضراوة بسفك دماء النبيين والمصلحين، فسواء صح خبر دعوى قتل عيسى وصلبه أم لم يصح، فلا صحته تفيدنا عبثاً بحال أولئك القوم لم تكن معروفة، ولا عدمها ينقص من معرفتنا بأخلاقهم وتاريخ زمنهم.

نعم إن مسألة الصلب ليست في ذاتها بالأمر الذي يهتم بإثباته أو نفيه في كتاب الله عز وجل بأكثر من إثبات قتل اليهود النبيين بغير حق وتقريعهم على ذلك، لولا أن النصارى جعلوها أساس العقائد وأصل الدين، فمن فاته الإيمان بها فهو في الآخرة من الهالكين، ومن آمن بها على الوجه الذي يقولونه ويدعون إليه كان هو الناجي الفائز بملكوت السماء مع المسيح والرسول والقديسين. لأجل هذا كبر عليهم نفي القرآن العظيم لقتل المسيح وصلبه، وهم يوردون في ذلك الشبهات على القرآن والإسلام. لهذا رأينا أن نبين عقيدة الصلب عندهم، وشبهاتهم على نفيها مع الجواب عنها، وما يتعلق بذلك من المباحث المهمة.

عقيدة النصارى في المسيح والصلب: نرى دعاء النصارى المنبئين في بلادنا قد جعلوا قاعدة دعوتهم وأساسها عقيدة صلب المسيح فداء عن البشر، فهذه العقيدة عندهم هي أصل الدين وأساسه والتثليث يليها. لأن أصل الدين وأساسه هو الذي يدعى إليه أولاً، ويجعل ما عداه تابعاً له. ولذلك كان التوحيد هو الأصل والأساس لدعوة الإسلام، ويلي الإيمان بالنبي ﷺ واليوم الآخر، وكان أول شيء دعا إليه النبي (ص) هو كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) ودعا أهل الكتاب في كتبه إلى الإسلام بقوله عز وجل ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا آدِبًا بَعْضًا فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤] ويهذه أمره الله تعالى. فكان يكتفي في دعوته الأولى لمشركي العرب بتوحيد الألوهية لأن شركهم إنما كان في الألوهية بعبادة غير الله تعالى وهي اتخاذ أولياء يقربونهم إليه زلفى، ويشفعون لهم عنده،

إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته، وأن الكافر إذا حضر (بضم الحاء أي حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته. وروى أحمد والنسائي من حديث أنس وغيرهما من حديث عبادة بن الصامت، وعن عائشة زيادة في حديث «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» الذي في الصحيحين وغيرهما، وهي أنهم قالوا: يا رسول الله نكره الموت، فقال: «ليس ذلك كراهية الموت، ولكن المؤمن إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر، إليه فليس شيء أحب إليه من أن يكون قد لقي الله فأحب لقاءه. وأن الفاجر إذا حضر جاءه البشير من الله بما هو صائر إليه من الشر، فكره لقاء الله، فكره الله لقاءه». وروى ابن مردويه وابن منده بسند ضعيف عن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار»، وروى مثله ابن أبي الدنيا عن رجل لم يسم عن عليٍّ مرفوعاً. فهذه الأحاديث تؤيد ما روي عن ابن عباس وغيره في تفسير الآية من كون الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح، مع الإنكار الشديد والتقيح، ومما يؤيد هذه الحقيقة النص في سورة يونس على تصريح فرعون بالإيمان حين أدركه الغرق. ولها دلائل أخرى كالأحاديث الواردة في عدم قبول التوبة عند الغرغرة والله أعلم.

فصل في مباحث تتعلق بمسألة الصلب: إن مسألة الصلب من المسائل التاريخية التي لها نظائر وأشبه كثيرة، فقد كان الملوك والحكام يقتلون ويصلبون، وناهيك بالرومانيين وقسوتهم، واليهود وعصبيتهم، وقد قتل هؤلاء غير واحد من أنبيائهم أشهرهم زكريا ويحيى عليهما السلام. والفائدة في إثبات التاريخ لمثل هذه الوقائع لا تعدو العبرة بأخلاق الأمة ودرجة ضلالها وهدايتها وسيرة الحكام فيها. وقد كان اليهود في عصر المسيح تحت سلطان الروم (الرومانيين) والحاكم الروماني في بيت المقدس في ذلك العهد (بيلاطس) لم يكن يريد قتل المسيح، ولم يحفل بوشاية اليهود وسعايتهم فيه، ولا خاف أن يكون ملكاً يزيل سلطان الروم عن قومه، هكذا تقول النصارى في كتبها، وإنما كانت اليهود تريد قتله عليه

من خطاياهم كما قال يوحنا في رسالته الأولى: وهو كفارة لخطايانا، ليس لخطايانا فقط بل لخطايا كل العالم أيضاً (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) كنت مرة ماراً بشارع محمد علي في القاهرة وأنا قريب عهد بالهجرة إليها فرأيت رجلاً واقفاً على باب المدرسة الإنكليزية فيه يدعو كل من مر امامه: تفضلوا تعالوا اسمعوا كلام الله. ولما خصني بالدعوة أجبت فدخلت فإذا بناس على مقاعد من الخشب في رحبة المدرسة، فلما كثر الجمع قام أحد دعاة النصرانية فالتقى نحو ما تقدم آنفاً من العقيدة الصليبية. وبعد فراغه وحثه الناس على الأخذ بما قاله والإيمان به، ودعواه أن لا خلاص لهم بدونه، قمت فقلت إذا كنتم قد دعوتونا إلى هذا المكان لتبلغونا هذه الدعوة شفقة علينا ورحمة بنا، فاذنوا لي أن أبين لكم موقعها من نفسي، فأذن لي القس بالكلام، فوقفت في موقف الخطابة وأوردت عليهم ما يترتب على هذه الدعوة من العقائد الباطلة والقضايا المتناقضة التي سألينها هنا، وطلبت الجواب عنها، فكان الجواب أن هذا المكان خاص بالوعظ والكراسة دون الجدال، فإن كنت تريد الجدال والمناظرة فموضعهما المكتبة الإنكليزية، فلما سمع الحاضرون هذا الجواب صاحوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله وانصرفوا. أما ما يؤخذ من هذه العقيدة وما يترتب عليها فدونكه بالاختصار:

ما يرد على عقيدة الصلب: (١) لا يمكن أن يقبل هذه القصة من يؤمن بالدليل العقلي أن خالق العالم لا بد أن يكون بكل شيء عليمًا، وفي كل صنعة حكيمًا، لأنها تستلزم الجهل والبداء على الباري عز وجل، كأنه حين خلق آدم ما كان يعلم ما يكون عليه أمره، وحين عصى ما كان يعلم ما يقتضيه العدل والرحمة في شأنه، حتى اهتدى إلى ذلك بعد ألوف من السنين مرت على خلقه، كان فيها جاهلاً كيف يجمع بين تينك الصفتين من صفاته، وواقعاً في ورطة التناقض بينهما، ولكن قد يقبلها من يشترط في الدين عندهم أن لا يتفق مع العقل، وأن يأخذ صاحبه بكل ما يسند إلى من نسب إليهم عمل العجائب، ويقول أمنت به وإن لم يدركه، ولم تدعن له نفسه، ومن ينقلون في

بواسطتهم يدفع الله عنهم الضر، ويسوق إليهم الخير كما كانوا يزعمون. وأما مشركو أهل الكتاب فكان قد طرأ على توحيدهم مثل هذا الشرك في الألوهية باتخاذ المسيح إلهًا، واتخاذ غيره من حواريه وغيرهم آلهة بالوساطة والشفاعة، وطراً عليه فوق ذلك الشرك في الربوبية باتباعهم لأخبارهم ورهبانهم فيما يحلون لهم، ويحرمون عليهم. فدعاهم (ص) إلى توحيد الألوهية والربوبية معاً. فلولا أن عقيدة الصلب والفداء هي أصل هذه الديانة النصرانية عند أهلها لما كانوا يبدءون بالدعوة إليها قبل كل شيء. أما تقرير هذه العقيدة كما سمعنا من بعض دعاة البروتستانت في بعض المجامع العامة التي يعقدونها للدعوة في مدارسهم، وفي المجالس الخاصة التي اتفق لنا حضورها مع بعضهم، فهي أن آدم لما عصى الله تعالى بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها صار هو وجميع أفراد ذريته خطاة مستحقين للعقاب في الآخرة بالهلاك الأبدي - ثم إن جميع ذريته جاؤا خطاة مذنبين فكانوا مستحقين للعقاب أيضاً بذنوبهم، كما أنهم مستحقون له بذنب أبيهم الذي هو الأصل لذنوبهم. ولما كان الله تعالى متصفاً بالعدل والرحمة جميعاً طرأ عليه (سبحانه وتعالى عن ذلك) مشكل منذ عصي آدم. وهو إنه إذا عاقبه هو وذريته كان ذلك منافياً لرحمته فلا يكون رحيماً!! وإذا لم يعاقبه كان ذلك منافياً لعدله فلا يكون عادلاً!! فكانه منذ عصي آدم كان يفكر في وسيلة يجمع بها بين العدل والرحمة!! فلم يهتد إلى ذلك سبيلاً إلا منذ ألف وتسع مئة واثنتي عشرة سنة بالنسبة إلى ستننا هذه (سبحانه سبحانه)، وذلك بأن يحل ابنه تعالى الذي هو هو نفسه في بطن امرأة من ذرية آدم ويتحد بجنين في رحمها، ويولد منها فيكون ولدها إنساناً كاملاً من حيث هو ابنها وإلهاً كاملاً من حيث هو ابن الله - وابن الله هو الله - ويكون معصوماً من جميع معاصي بني آدم، ثم بعد أن يعيش زمناً معهم يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون، ويتلذذ كما يتلذذون ويتألم كما يتألمون، يسخر أعداءه لقتله أقطع قتلة، وهي قتلة الصلب التي لعن صاحبها في الكتاب الإلهي، فيحتمل اللعن والصلب لأجل فداء البشر وخلاصهم

ولا رحيم، أو أن يكون عادلاً رحيماً فيخلق خلقاً يوقعه في ورطة الوقوع في انتفاء إحدى هاتين الصفتين، فيحاول الجمع بينهما فيفقداهما معاً؟؟

(٥) إذا كان كل من يقول بهذه العقيدة أو القصة ينجو من عذاب الآخرة كيفما كانت أخلاقه وأعماله، لزم من ذلك أن يكون أهلها إباحيين، وأن يكون الشرير المبطل الذي يعتدي على أموال الناس وأنفسهم وأعراضهم ويفسد في الأرض ويهلك الحرث والنسل، من أهل الملكوت الأعلى لا يعذب على شروره وخطيئاته، ولا يجازي عليها بشيء. فله أن يفعل في هذه الدنيا ما شاء هواه، وهو آمن من عذاب الله، - وناهيك بهذا مفسداً للبشر - وإذا كان يعذب على شروره وخطيئاته كغيره من غير الصليبيين فما هي مزية هذه العقيدة؟ وإذا كان له امتياز عند الله تعالى في نفس الجزاء فأين العدل الإلهي؟

(٦) ما رأينا أحداً من العقلاء، ولا من علماء الشرائع والقوانين يقول إن عفو الإنسان عمن يذنب إليه، أو عفو السيد عن عبده الذي يعصيه، ينافي العدل والكمال، بل يعدون العفو من أعظم الفضائل، وترى المؤمنين بالله من الأمم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا لَا تَجْرَى فَنَسْ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يَقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةً﴾ [البقرة: ٤٨] ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقد علم مما ذكرناه من تركية النفس وتدسيثها بعمل الإنسان، وكسبه الاختياري إن الجزاء في الآخرة لازم للتركيز والتدسية مرتبٌ عليهما ترتب المسبب على السبب والمعلول على العلة بفضل الله وحكمته ومقتضى سنته في خلقه، ﴿وَاللَّهُ يُصَلِّفُ لِمَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٦١] ﴿وَيَزِيدُهُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ١٧٣].

أليست هذه التعاليم الإسلامية هي التي ترفع قدر الإنسان، وتعلي همته وتحفزه إلى طلب الكمال بإيمانه وإخلاصه وأعماله الصالحة؟ أليست أفضل وأنفع من الإنكسار على تلك القصة الصليبية المأثور مثلها عن خرافات الوثنيين، التي لا يصدقها عقل مستقل، ولا

أول كتاب من كتبهم الدينية (سفر التكوين) هذه الجملة (٦: ٦) فندم الرب أنه عمل الإنسان في الأرض وتأسف في قلبه) تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً.

(٢) يلزم من يقبل هذه القصة أن يسلم ما يحيله كل عقل مستقل من أن خالق الكون يمكن أن يحل في رحم امرأة في هذه الأرض التي نسبتها إلى سائر ملكه أقل من نسبة الذرة إليها وإلى سمواتها التي ترى منها، ثم يكون بشراً يأكل ويشرب ويتعب ويعتريه غير ذلك مما يعتري البشر، ثم يأخذه أعداؤه بالقهر والإهانة فيصلبوه مع اللصوص ويجعلوه ملعوناً بمقتضى حكم كتابه لبعض رسله (تعالى الله عن ذلك كله علواً كبيراً).

(٣) تقتضي هذه القصة أن يكون الخالق العليم الحكيم قد أراد شيئاً بعد التفكير فيه ألوفاً من السنين، فلم يتم له ذلك الشيء، ذلك أن البشر لم يخلصوا وينجوا بوقوع الصلب من العذاب، فإنهم يقولون إن خلاصهم متوقف على الإيمان بهذه القصة وهم لم يؤمنوا بها - لنا أن نقول إنه لم يؤمن بها أحد قط لأن الإيمان هو تصديق العقل وجزمه بالشيء، والعقل لا يستطيع أن يدرك ذلك، والذين يقولون أنهم مؤمنون بها يقولون بألستهم ما ليس في قلوبهم تقليداً لمن لقنهم ذلك. فإن سمينا مثل هذا القول إيماناً، نقول إن أكثر البشر لا يقولونه بل يردونه بالدلائل العقلية، ومنهم من يرده أيضاً بالدلائل النقلية، من دين ثبتت أصوله عندهم بالأدلة العقلية، ومنهم من لم يعلموا بهذه القصة، ومنهم من يقول بمثلها لآلهة أخرى. فإذا عذبهم الله تعالى في الآخرة ولم يدخلهم ملكوته - كما تدعي النصراني - لا يكون رحيماً على قاعدة دعاة الصلب والصليب، فكيف جمع بذلك بين العدل والرحمة؟

(٤) يلزم من هذه القصة شيء أعظم من عجز الخالق (تعالى وتقدس) عن إتمام مراده بالجمع بين عدله ورحمته، وهو انتفاء كل من العدل والرحمة في صلب المسيح لأنه عذبه من حيث هو بشر، وهو لا يستحق العذاب لأنه لم يذنب قط، فتعذيبه بالصلب والطعن بالحراش - على ما زعموا - لا يصدر من عادل ولا من رحيم بالأحرى. فكيف يعقل أن يكون الخالق غير عادل

بتقديم نفسه ذبيحة عنه». وذكر أن (مسترمور) قد صور كرشنا مصلوباً كما هو مصور في كتب الهندو مثقوب اليدين والرجلين، وعلى قميصه صورة قلب الإنسان معلقاً. ووجدت له صورة مصلوباً وعلى رأسه إكليل من الذهب. والنصارى تقول إن يسوع صلب وعلى رأسه إكليل من الشوك.

وقال (هوك) في ص ٣٢٦ من المجلد الأول من رحلته: «ويعتقد الهندو الوثنيون بتجسد أحد الآلهة وتقديم نفسه ذبيحة فداء للناس من الخطيئة»

وقال (مورينورليمس) في ص ٣٦ من كتابه (الهندو): ويعتقد الهندو الوثنيون بالخطيئة الأصلية. ومما يدل على ذلك ما جاء في مناجاتهم وتوسلاتهم التي يتوسلون بها بعد «الكياتري»، وهو «إني مذنب ومرتكب الخطيئة وطبيعتي شريرة وحملتني أُمي بالإثم فخلصني يا ذا العين الحندوقية يا مخلص الخاطئين من الآثام والذنوب».

وقال القس جورج كوكس في كتابه (الديانات القديمة) في سياق الكلام عن الهندو: «ويصفون كرشنا بالبطل الوديع المملوء لاهوتاً لأنه قدم شخصه ذبيحة». ونقل هيجين عن (اندرادا الكروزويوس)، وهو أول أوروبي دخل بلاد النيبال والتبث أنه قال في الإله (اندرادا) الذي يعبدونه إنه سفك دمه بالصلب وثقب بالمسامير لكي يخلص البشر من ذنوبهم. وإن صورة الصليب موجودة في كتبهم. وفي كتاب جورج جوس الراهب صورة لإله (أندرا) هذا مصلوباً، وهو بشكل صليب أضلاعه متساوية العرض متفاوتة الطول فالرأسي أقصرها (وفيه صورة وجهه) والسفلي أطولها، ولولا صورة الوجه لما خطر لمن يرى الصورة إنها تمثل شخصاً.

هذا وأما ما يروى عن البوذيين في (بوذه) فهو أكثر انطباقاً على ما يرويه النصارى عن المسيح من جميع الوجوه، حتى إنهم يسمونه المسيح، والمولود الوحيد، ومخلص العالم، ويقولون إنه إنسان كامل وإله كامل تجسد بالناسوت، وأنه قدم نفسه ذبيحة ليكفر ذنوب البشر، ويخلصهم من ذنوبهم فلا يعاقبوا عليها، ويجعلهم واثقين لملكوت السموات. بين ذلك كثير من علماء

يطمئن بها قلب سليم، المخالفة لسنن الفطرة ونظام الخلقة، التي أفسدت العقول والأخلاق في الممالك الصليبية منذ شاعت فيها بنفوذ الملك قسطنطين الصليبي إلى أن عتقت أوربة من ورق الكنيسة بنور العلم والاستقلال اللذين أشرقاً عليها من بلاد الإسلام (ولكن وأسفاه على ذلك النور الذي ضرب بينه وبين أهله بسور له بابا، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب، وواشوقاه إلى اليوم الذي يندك فيه هذا السور الذي حجبهم عن القرآن).

عقيدة الصلب والفداء وثنية: اعترف أمامنا كثير من الذين قالوا إنهم نصارى بأن كلاً من هذه العقيدة وعقيدة التثليث لا تعقل، وإن العمدة في إثباتهما عندهم النقل عن كتبهم المقدسة، فلما كانت تلك الكتب ثابتة عندهم وجب أن يقبلوا جميع ما فيها سواء عقل أم لم يعقل. ويقول بعضهم إن كل دين من الأديان فيه عقائد وأخبار يعجز العقل باستحالتها ولكنها تؤخذ بالتسليم.

ونحن نقول إنه ليس في عقائد الإسلام شيء يحكم العقل باستحالتها، وإنما فيه أخبار عن عالم الغيب لا يستقل العقل بمعرفتها لعدم الاطلاع على ذلك العالم ولكنها كلها من الممكنات أخبر بها الوحي فصدقناه. فالإسلام لا يكلف أحداً أن يأخذ بالمحال. وأما نقلهم هذه العقيدة عن كتبهم (وسياقي البحث فيه) فهو معارض بنقل مثله عن كتب الوثنيين وتقاليدهم. فهذه عقيدة وثنية محضة سرت إلى النصارى من الوثنيين كما بينه علماء أوربة الأحرار، ومؤرخوهم، وعلماء الآثار والعاديات منهم في كتبهم. قال (دوان) في كتابه خرافات التوراة وما يقابلها من الديانات الأخرى (ص ١٨١ و ١٨٢) ما ترجمته بالتلخيص:

«إن تصور الخلاص بواسطة تقديم أحد الآلهة ذبيحة فداء عن الخطيئة قديم العهد جداً عند الهندو الوثنيين وغيرهم»، وذكر الشواهد على ذلك. منها قوله «يعتقد الهندو أن كرشنا المولود البكر - الذي هونفس الإله فشنو الذي لا ابتداء له ولا انتهاء على رأيهم - تحرك حنواً كي يخلص الأرض من ثقل حملها، فأتاها وخلص الإنسان

إنه ظهر لهم بهيئة أخرى. ثم إن ما عزي إليهم لم ينقله عنهم عدد التواتر بالسمع منهم طبقة بعد طبقة إلى العصر الذي صار للنصارى فيه ملك وحرية يظهران فيهما دينهم. وقد بين الشيخ رحمة الله الهندي وغيره انقطاع أسانيد هذه الكتب بالبينات الواضحة. وسيأتي في هذا السياق ما يدل على عدم الثقة بها.

(الشبهة الثانية): يقولون لو لم تكن هذه القصة متواترة متفقاً عليها لوجد فيهم من أنكرها كما وجدت فيهم فرق خالفت الجمهور في أصول عقائده كالتثليث، ولم تخالفه في هذه العقيدة.

والجواب عن هذا عسير على من يجهل تاريخهم، يسير على المطلع عليه، فقد أنكر الصلب منهم فرقة السيرنثيين والتاتيانوسيين اتباع تاتيانوس تلميذ يوستينوس الشهيد، وقال فوتيوس: إنه قرأ كتاباً يسمى رحلة الرسل فيه أخبار بطرس، ويوحنا، واندراوس، وتوما، وبولس، ومما قرأه فيه «إن المسيح لم يصلب، ولكن صلب غيره، وقد ضحك بذلك من صاليه» هذا وإن مجامعهم الأولى قد حرمت قراءة الكتب التي تخالف الأناجيل الأربعة والرسائل التي اعتمدتها فصار أتباعهم يحرقون تلك الكتب وي تلفونها، وإننا نرى ما سلم بعض نسخه منها كإنجيل برنابا ينكر الصلب، وما يدرينا أن تلك الكتب التي فقدت كانت تنكره أيضاً. فنحن لا ثقة لنا باختيار المجامع لما اختارته فنجعله حجة ونعدّ ما عداه كالعدم: على أن عدم العلم بالمنكرين لا يقتضي عدم وجودهم، وعدم وجودهم لا يقتضي أن يكون ما اتفقوا عليه بتقليد بعضهم لبعض ثابتاً في نفسه.

(الشبهة الثالثة): يقولون إن الأناجيل ورسائل العهد الجديد قد أثبتت الصلب وهي كتب مقدسة معصومة من الخطأ فوجب اعتقاد ما أثبتته.

ونقول: (أولاً): لا دليل على عصمة هذه الكتب ولا على أن كاتبها كانوا معصومين، و(ثانياً): لا دليل على نسبتها إلى من نسبت إليهم لأنها غير متواترة كما تقدم، و(ثالثاً): إنها معارضة بأمثالها كإنجيل برنابا وترجيحهم إياها على هذا الإنجيل لا يصلح مرجحاً عندنا لأنهم اتبعوا

الغرب منهم (بيل) في كتابه (تاريخ بوزة)، و(هوك) في رحلته، و(مولر) في كتابه تاريخ الآداب السنسكريتية، وغيرهم.

ومن أراد المقابلة بين إله النصارى وآلهة الوثنيين الأولين في الشرق والغرب فعليه أن يقرأ كتاب العقائد الوثنية في الديانة النصرانية (لمحمد طاهر التنير). فهل يتصور من مسلم هذه الله بالإسلام إلى التوحيد الخالص، والدين القيم دين العقل والفطرة المبني على تكريم نوع الإنسان أن يستحب العمى على الهدى فيرضى لنفسه التخبط في ظلمات هذه العقائد الوثنية؟؟

شبهات النصارى على إنكار الصلب: (الشبهة الأولى): يدعي بعضهم فيما يمّوه به على عوام المسلمين أن مسألة الصلب متواترة فالعلم بها قطعي.

والجواب عن هذه الشبهة أن دعوى التواتر ممنوعة، فإن التواتر عبارة عن إخبار عدد كثير لا يجوز العقل اتفاقهم وتواطؤهم على الكذب بشيء قد أدركوه بحواسهم إدراكاً صحيحاً لا شبهة فيه، وكان خبرهم بذلك متفقاً لا اختلاف فيه، هذا إذا كان التواتر في طبقة واحدة رأوا بأعينهم شيئاً (مثلاً) وأخبروا به. فإن كان التواتر في طبقات كان ما بعد الأولى مخبراً عنها، ويشترط أن يكون أفراد كل طبقة لا يجوز عقل عاقل تواطؤهم على الكذب في الأخبار عمن قبلهم، وأن يكون كل فرد من كل طبقة قد سمع جميع الأفراد الذي يحصل بهم التواتر ممن قبلهم. وأن يتصل السند هكذا إلى الطبقة الأخيرة، فإن اختلف شرط من هذه الشروط لا ينعقد التواتر.

وأنى للنصارى بمثل هذا التواتر، والذين كتبوا الأناجيل والرسائل المعتمدة عندهم لا يبلغون عدد التواتر، ولم يخبر أحد منهم عن مشاهدة، ومن تنقل عنه المشاهدة كبعض النساء لا يؤمن عليه الاشتباه والوهم، بل قال يوحنا في إنجيله: أن مريم المجدلية وهي أعرف الناس بالمسيح اشتبهت فيه وظنت أنه البستاني. وهو قد كان صاحب آيات، وخوارق عادات، فلا يبعد أن يلقي شبهه على غيره، وينجو بالتشكل بصورة غير صورته، كما روي عنه أنه قال لهم إنهم يشكون فيه، وكما قال مرقس:

المسيح إلى إنجيل آخر ليس هو آخر غير أنه يوجد قوم يزعمونكم، ويريدون أن يحولوا إنجيل المسيح)، هكذا في ترجمة البروتستانت الأخيرة (يحولوا)، وفي الترجمة القديمة التي نقل عنها كثيرون «يحفروا»، وفي ترجمة الجزويت «يقلبوا»، والمعاني متقاربة تدل كلها على أنه كان في عهد بولس قوم يدعون الناس إلى إنجيل غير الذي يدعو هو إليه، ومعنى كونه غيره أنهم حرفوه أو قلبوه حتى صار كأنه انجيل آخر. وكما اعترف بولس بهذا اعترف بأنه كان يوجد في عصره رسل كذابون غدارون تشبهوا برسل المسيح، صرح بذلك في رسالته الثانية إلى أهل كورنثيوس فقال (١١: ١٣) لأن مثل هؤلاء رسل كذبة فعلة ماكرون مغيرون شكلهم إلى رسل المسيح، ولا عجب لأن الشيطان يغير شكله إلى ملاك نور فليس عظيماً إذا كان خدامه أيضاً يغيرون شكلهم كخدام للبر).

وفي سفر الأعمال تصريح بأن بعض اليهود كانوا يبنثون بين المسيحيين ويعلمونهم غير ما يعلمهم رسل المسيح، وأن الرسل والمشايخ أرسلوا بولس وبرنابا إلى أنطاكية لتحذير إخوانهم فيها من الذين يوصونهم بالختان، وحفظ الناموس الذي لم يأمرهم به، كما ذكر في الفصل ١٥ منه، وفي آخره أنه حصلت مشاجرة هنالك بين بولس وبرنابا وافترقا. ومن المعلوم أن بولس كان عدو المسيحيين وخصمهم، وأنه لما ادعى الإيمان لم يصدقه جماعة المسيح عليه السلام ولولا أن شهد له برنابا لما قبلوه. وبرنابا يقول في أول إنجيله أن بولس نفسه كان من الذين بشروا بتعليم جديد غير تعليم المسيح. فمع أمثال هذه النصوص في أمهات كتبهم المقدسة كيف يمكن للمسلم أن يثق بها.

ومن الشواهد على التعارض والتناقض في قصة الصلب منها أن أصل هذه العقيدة أن المسيح بذل نفسه باختياره فداء وكفارة عن البشر، مع أن هذه الأنجيل تصرح بأنه حزن واكتئب عندما شعر بقرب أجله، وطلب من الله أن يصرف عنه هذه الكأس. ففي متى: (٢٦: ٣٧) ثم أخذ معه بطرس وابني زبدي وابتدأ يحزن ويكتئب ٣٨ فقال لهم نفسي حزينة جداً حتى الموت امكثوا هنا واسهروا معي ثم

في اعتمادها تلك المجامع التي لا ثقة لنا بأهلها، ولا كانوا معصومين عندهم ولا عندنا، و(رابعاً): أنها متعارضة في قصة الصلب وفي غيرها، و(خامساً): أنها معارضة بالقرآن العزيز وهو الكتاب الإلهي الذي ثبت نقله بالتواتر الصحيح دون غيره، فقصارى تلك الكتب أن تفيد الظن بالقرائن كما قال تعالى ﴿ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَعَ الظَّنُّ ﴾ والقرآن قطعي فوجب تقديمه لأنه يفيد العلم القطعي.

أن بعض المسلمين يصدقون دعاة النصرانية ومجادليهم في زعمهم أن هذه الأنجيل محفوظة عندهم من عهد المسيح إلا الآن، وإنها مسلمة عند جميع فرقهم ومعروفة عند غيرهم، فلم يكن يختلف فيها اثنان، ولكن من طالع كتبهم التاريخية والدينية يعلم أن هذه الدعوى باطلة. وإنما يصدقهم المسلمون الجاهلون لتوهم أن النصرانية نشأت كالإسلام في مهد القوة والعزة والمدنية والحضارة، فأمكن حفظ كتبها كما أمكن حفظ القرآن. وشتان بين الأمتين في نشأتها شتان. وإليك نزراً من البيان، وإن شئت المزيد من مثله فارجع إلى الكتب المؤلفة في هذا الشأن.

الدلائل على عدم الثقة بالأنجيل: ألف (سلسوس) من علماء الوثنيين في القرن الثاني للميلاد كتاباً في أبطال الديانة النصرانية قال فيه كما نقل عنه (أكهارن) من علماء ألمانية ما ترجمته: «بدل النصارى أناجيلهم ثلاث مرات، أو أربع مرات، بل أكثر من هذا تبديلاً كأن مضامينها بدلت».

وفي كتبهم أن الفرقة الأبيونية من فرق النصارى في القرن الأول للميلاد كانت تصدق بإنجيل متى وحده، وتنكر ما عداه، ولكن كان ذلك الإنجيل مخالفاً لإنجيل متى الذي ظهر بعد ظهور قسطنطين. وأن الفرقة المارسيونية من فرق النصارى القديمة كانت تأخذ بإنجيل لوقا، وكانت النسخة التي تؤمن بها مخالفة للموجودة الآن، وكانت تنكر سائر الأنجيل وهي عندهم من المبتدعة.

وفي رسالة بولس إلى أهل غلاطية ما نصه (١: ٦) إني أتعجب أنكم تنتقلون هكذا سريعاً عن الذي دعاكم بنعمة

من تلك الكتب والبستموها للمسيح. كما أنكم تدعون أن الذبائح الوثنية كانوا يسيرون بها إلى صلب المسيح فكان جميع خرافات البشر وعباداتهم حجج لكم على عقيدتكم هذه وإن كانوا قد سبقوكم إلى مثلها. على أن كثيراً من تلك العبارات حجة عليكم لا لكم كما هو مبسوط في محله.

(الشبهة الخامسة): يقولون إذا جاز أن يشتبه في المسيح ويجهل شخصه الجنود الذين جاؤا للقبض عليه والحكام ورؤساء الكهنة الذين طلبوا صلبه بعد القبض عليه، فهل يجوز أن يشتبه في ذلك تلاميذه ومريدوه الذين يعرفونه حق المعرفة؟ ونقول إن الجواب عن هذا من وجهين (أحدهما): أنه عهد بين الناس أن يشبه بعضهم بعضاً شبهاً تاماً بحيث لا يميز أحد المتشابهين المعاشرون والأقربون. وقد يكون هذا بين الغرباء كما يكون بين الأقربين. ولعله يقل في الذين يسافرون ويتقلبون بين الكثير من الناس من لم يقع له الاشتباه بين من يعرف ومن لا يعرف. وقد وقع لي غير مرة أن أسلم على رجل غريب اشتبه عليّ بصديق لي ثم اعرف بعد الحديث معه أنه غيره. وإننا لزيادة البيان نورد قليلاً من الشواهد عن الإفرنج الذين يثق دعاة النصرانية عندنا بهم ما لا يثقون بغيرهم لأن هؤلاء الدعاة من أبناء جنسهم أو مقلداتهم.

قال صاحب كتاب التربية الاستقلالية (إميل القرن التاسع عشر) حكاية عن كتاب كتبه امرأة الدكتور إراسم إلى زوجها ما نصه: «لقد كثر ما لاحظت أنه يوجد في بعض الأحوال بين شخصين مختلفين في الذكورة والأنوثة والموطن تشابه كالذي يوجد بين أفراد أسرة واحدة مع أن كلاً منهما يكون أجنبياً من الآخر من كل الوجوه. أتدري من هو الذي حضرت صورته في ذهني عند وقوع بصري على السيدة وارنجتون؟ ذلك هو صديقك يعقوب نقولا، خلتنى أراه بذاته في زي امرأة» أه فهذا مثال لرأي الكاتب في تشابه الناس. وفي رسالة نشرت في المجلد الحادي عشر من المنار ما نصه (٣٦٨):

«ويوجد في كتب الطب الشرعي حوادث كثيرة في باب تحقيق الشخصيات دالة على أنه كثيراً ما يحدث للناس

تقدم قليلاً وخرّ على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس، ولكن ليس كما أريد أنا بل كما (تريد) أنت... فمضى أيضاً ثانية وصلى قائلاً: يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك) ومثل هذا في لوقا: (٢٢: ٤٣-٤٥) فكيف يقول المسيح هذا وهو إله عندهم فهل يمكن أن يجهل ما يمكن وما لا يمكن، وأن يطلب إبطال الطريقة التي أراد الآب - وهو هو عندهم - أن يجمع بها بين عدله ورحمته؟؟

ومن الشواهد عليها مسألة اللصين اللذين قالوا إنهما صلبا معه. قال مرقس: (١٥: ٢٧) وصلبوا معه لصين واحداً عن يمينه، وآخر عن يساره فتم الكتاب القائل: واللذان صلبا معه كانا يعيرانه. وكذلك قال متى: (٢٧: ٤٤) وأما لوقا فقد سمى الرجلين اللذين صلبا معه مذنبين، ولكنه قال: (٢٣: ٣٩) وكان واحد من المذنبين المعلقين معه يجذّف عليه قائلاً: إن كنت أنت المسيح فخلص نفسك وإيانا فأجاب الآخر وانتهره «إلخ، وفيه أن المسيح بشر هذا بأنه يكون معه في الفردوس ذلك اليوم، فكانت نبوة الكتاب (المрад به أشعيا) إنه يصلب مع أئمة بصيغة الجمع ثم كان الجمع اثنين ولا بأس بذلك. ولكن كيف يقول اثنان من الإنجيليين المعصومين على رأيهم أن الذي غيره وأهانه هو أحدهما والآخران، وهما مثله في عصمته يقولان بل كلاهما غيراه؟ ومثل هذه المخالفات والمعارضات في هذه القصة كثيرة، ومن أظهرها مسألة دفنه ليلة السبت وقيامه من القبر قبل فجر يوم الأحد. مع أن البشارة أنه يكون في بطن الأرض ثلاثة أيام بلياليها وهي مدة يونان في بطن الحوت. ومنها مسألة النساء اللواتي جثن القبر وفيها عدة خلافات في وقت المجيء ورؤية الملك أو الملكين ورؤيته هو إلخ.

(الشبهة الرابعة): قولهم إن كتب العهد العتيق قد بشرت بمسألة الصلب ونوهت بها تنوياً.

ونحن نقول إن هذا غير مسلم بل أنتم الذين تأولتم عبارات من تلك الكتب، وجعلتموها مشيرة إلى هذه القصة - وكما قال السيد جمال الدين أنكم فصلتم قميصاً

مرقص (١٤: ٥٠) فتركه الجميع وهربوا، فهذا نص في أن التلاميذ كلهم هربوا حين جاء الجند ليقبضوا على المسيح فلم يكن الذين يعرفونه حق المعرفة هنالك.

ومما يدل على استجابة الله دعوته بأن ينقذه ويعبر عنه تلك الكأس عبارة المزمور ١٠٩ التي يقولون إن المراد بها المسيح وهذا نصها: «٢٦ أعني يا رب إلهي خلصني حسب رحمتك، وليعلموا أن هذه يدك أنت يا رب فعلت هذا أما هم فيلعنون، وأما أنت فتبارك، قاموا وخزوا، أما عبدك فيفرح ليلبس خصمائي خجلاً، وليتعطفوا بخزيهم كالرداء احمد الرب جداً بفمي، وفي وسط كثيرين اسبحه لأنه يقوم عن يمين المسكين ليخلصه من القاضين على نفسه». وفي العبارات التي يحملونها على المسيح شواهد أخرى بمعنى هذا.

(الشبهة السابعة): يقولون: إذا كان المسيح قد نجا من أعدائه بعناية إلهية خاصة، فأين ذهب؟ ولماذا لم يقف له أحد على عين ولا أثر؟

والجواب أن هذه الشبهة لا ترد على الذين يقولون أنه رفع بروحه وجسده إلى السماء، وإنما ترد على الذين قالوا إن الله توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام. ويقول هؤلاء لا غرابة في الأمر فإن أخاه موسى عليه السلام كان بين الألوف من قومه، الخاضعين لأمره ونهيه، وقد انفرد عنهم، ومات في مكان لم يعرفه أحد منهم، فكيف يستغرب أن يرفع عيسى عليه السلام من قوم أعداء له لا ولي له فيهم ولا نصير إلا أفراداً من الضعفاء، قد انفصوا من حوله وقت الشدة وأنكره أمثلهم (بطرس) ثلاث مرات؟ لأبد إذا ذهب إلى مكان مجهول ومات فيه كما مات موسى (عليهما السلام)، ولم يعرف قبره أحد، كما هو منصوص في آخر سفر تثنية الاشتراع من أسفار التوراة. ومن الناس من يزعم أن قبر المسيح الذي دفن فيه بعد موته قد اكتشف في الهند كما سيأتي.

قول بعض النصارى بعدم موت المسيح بالصلب: روى أن القبر الذي دفن فيه المصلوب وجد في صباح الأحد خالياً واللفائف ملقاة، وأن اليهود الوثنيين لما علموا بذلك قالوا إن الجثة سرقت. ويروى عن بعض المدققين

الخطأ في معرفة بعض الأشخاص ويشتهون عليهم بغيرهم، وقد ذكر «جاي»، و«فرير» مؤلفا (كتاب أصول الطب الشرعي) في اللغة الإنكليزية حادثة استحضرت فيها ١٥٠ شاهداً لمعرفة شخص يدعى «مارتين جير» فجزم أربعون منهم أنه هو هو، وقال خمسون إنه غيره، والباقيون ترددوا جداً ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً، ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المثبتون، وعاش مع زوجة مارتين محاطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه مدة ثلاث سنوات وكلهم مصدقون أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه لظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى، فأحضر ثلاثون شاهداً آخرون فأقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين، وقال سبعة أنه غيره وتردد الباقيون. وقد حدثت هذه الحادثة سنة ١٥٣٩ في فرنسة وأمثالها كثير. «وقد بلغ من شبه بعض الأشخاص لغيرهم أن وجد فيهم بعض ما يوجد في غيرهم ممن شابههم من الكسور أو الجروح أو آثارها وغير ذلك حتى تعسر تمييز بعضهم عن بعض ولذلك جد الأطباء في وضع مميزات لأشخاص البشر المختلفين أه.

(الوجه الثاني): أن هذه الحادثة من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم وأنقذه من أعدائه، فألقى شبهه على غيره وغير شكله هو، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون. وفي أناجيلهم وكتبهم جمل متفرقة تؤيد هذا الوجه أشرنا إلى بعضها من قبل (منها): قوله لهم إنهم يشكون فيه يومئذ، (ومنها): أنه يتشكل بغير شكله، (ومنها): أنه طلب من الله أن يعبر عنه هذه الكأس أي قتله وصلبه إن أمكن. ولا شك أن هذا من الممكنات الخاضعة لمشيئة الله وقدرته.

ويمكن أن يستدل على استجابة الله لدعائه بقول يوحنا حكاية عنه في سياق قصة الصلب من آخر الفصل ١٦ «ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم» قال هذا بعد إخبارهم بأنه تأتي ساعة يتفرقون عنه، ويبقى وحده، ولكن الله يكون معه، أي بعونه وحفظه. وفي هذا المعنى قول متى (٥٦: ٢٦) حينئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا، وقول

المكان لم يسعهم إلا أن قالوا أن ذلك القبر لأحد تلاميذ المسيح أو رسله .

ذكر ذلك بالتفصيل غلام أحمد القادياني الهندي في كتابه الذي سماه (الهدى . والتبصرة لمن يرى) وذكر فيه أنه اكتفى بالإجمال، وأن تفصيل هذه المسألة يوجد في كتاب معروف هناك اسمه (إكمال الدين)، وذكر أكثر من سبعين اسماً من أسماء أهل ذلك البلد الذين قالوا إن ذلك القبر هو قبر المسيح عيسى ابن مريم . ورسم صورة المقبرة بالقلم، وإما قبر المسيح فوضعه في الكتاب بالرسم الشمسي (الفوتغرافي) مكتوباً عليه (مقبرة عيسى صاحب).

وغلام أحمد هذا يفسر الإيواء في قوله تعالى ﴿ وَحَلَّلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَهُمَا إِلَى رُبُوفٍ ذَاتِ قُرَارٍ وَمَعِينٍ ﴾ [المؤمنون: ٥٠] بالهجرة إلى الهند واللجأ إلى تلك البلدة في كشمير، فإن الإيواء يستعمل في مقام الإنقاذ والتنجية من الهم والكرب والمصائب والمخاوف، واستشهد بقوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ﴾ [الضحى: ٦] وقوله ﴿ وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ فَخَافُوا أَنْ يَخَطَفَكُمْ النَّاسُ فَآوَيْنَكُمْ وَآيَدَكُمْ بِقُرْبَى ﴾ [الأنفال: ٢٦] وقوله حكاية عن ولد نوح ﴿ سَأَوَى إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ ﴾ [هود: ٤٣] والربوة لمكان المرتفع، وبلاد كشمير من أعلى بلاد الدنيا وهي ذات قرار مكين، وما معين، والمشهور عند المفسرين أن هذه الربوة هي رملة فلسطين أو دمشق الشام، ولو آوى الله المسيح وأمه إليهما، لما خفي مكانهما فيهما، لا سيما إذا كان ذلك بعد محاولة صلبه وتآلب اليهود عليه، كما يدل عليه لفظ الإيواء الذي لم يستعمل في القرآن إلا في الأنقاذ من المكروه كما علم من الأمثلة المذكورة آنفاً، ومثلها قوله تعالى في الأنصار رضي الله عنهم ﴿ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ﴾ [الأنفال: ٧٢]، وفي يوسف عليه السلام ﴿ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَتَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يوسف: ٦٩] وفي آية أخرى ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ ﴾ [يوسف: ٩٩] ولم يكن المسيح قبل تألب اليهود

من علماء أوربة الأحرار، وكذا الذين يسمون المسيحيين العقليين أن الذي صلب لم يمت بل أغمي عليه فلما أنزل ولف باللفائف، ووضع في ذلك الناووس أفاق وألقى اللفائف حتى إذا جاء الذين رفعوا الحجر لافتقاده خرج واختفى عن الناس حتى لا يعلم به أعداؤه . ومما أوردوا من التقريب على هذا أن المصلوب لم يجرح منه إلا كفاه ورجلاه وهي ليست من المقاتل، ولم يمكث معلقاً إلا ثلاث ساعات، وكان يمكن أن يعيش على هذه الصفة عدة أيام، وأنه لما جرح بالحربة خرج منه دم وماء، والميت لا يخرج منه ذلك، بل قالوا إن ذلك لم يكن صلباً تاماً كالمعتاد في تلك الأزمنة.

ومن النقول المصرحة بشيوع هذا الرأي ما جاء في (ص ٥٦٣ من كتاب ذخيرة الألباب، في بيان الكتاب) وهو: «فللكفرة والجاحدين في تكذيب تلك المعجزة مذاهب شتى... فمنهم من استفزتهم مع بهردواك، وبولس غلبت حماقة الجهل ووساوس الكفر إلى أن قالوا إن يسوع نزل عن الصليب حياً ودفن في القبر حياً».

وقال (في ص ٥٦٤ منه): أن اليهود والوثنيين وهم أعداء المسيح ودينه الحق قد توغلوا في بیداء الهذيان، وتمادوا في إغواء ضلالهم حتى قالوا إن تلاميذ يسوع رفعوا جسده خفية، وعلى حين غفلة من الحراس، وبثوا في القوم أنه انبعث حياً وعندهم أن ذلك كان شائعاً عند اليهود حين كتب القديس متى انجيله (عد ١٥ من فصل ٢٨ من متى) اهـ.

القول بهجرة المسيح إلى الهند وموته في بلدة (سري نكر) في كشمير: يوجد في بلدة سري نكرا ونقر (والهنود تكتب نكر بالكاف المفخمة وهي كالجيم المصرية) مقبرة فيها مقام عظيم يقال هناك إنه مقام نبي جاء بلاد كشمير من زهاء ألف وتسع مئة سنة يسمى يوزأسف، ويقال إن اسمه الأصلي عيسى صاحب (وكلمة صاحب في الهند لقب تعظيم كلقب أفندي عند الترك، ومستر ومسيو عند الإفرنج) وإنه نبي من بني إسرائيل وإنه ابن ملك. وأن هذه الأقوال مما يتناقله أهل تلك الديار عن سلفهم وتذكر في بعض كتبهم، وأن دعاة النصرانية الذين ذهبوا إلى ذلك

أخاه محمد عليهما الصلاة والسلام من أيدي كفار قریش وكانوا أشد معرفة له من معرفة اليهود للمسيح - لأنهم لم يكونوا يحتاجون إلى بذل المال لمن يدلهم عليه كما بذلت اليهود ثلاثين قطعة من الفضة ليهودا - فخرج ليلة الهجرة من بين الذين كانوا ينتظرونه عند داره ليقتلوه ولم يبصروه فلما رأى يهوذا ذلك وعلم درجة عناية الله تعالى بعبده ورسوله عظم ذنبه في نفسه واستسلم للموت ليكفر الله عنه ذنبه كما كفر ذنب الذين اتخذوا العجل من بني إسرائيل بقتل أنفسهم فأخذوه وصلبوه من غير مقاومة تذكر. فرواية الإنجيل وسفر الأعمال عن وجدانه مخنوقاً أو مشنوقاً غير مسلمة وقد تعارض القولان فتساقطا ووجب اعتماد قول برنابا الذي أخذ به بعض قدماء النصارى.

وإذا كان إيمان يهوذا قوياً إلى هذه الدرجة درجة الانتحار والبخع من ألم الذنب فليت شعري لماذا لا تقبل توبته ولا ينفعه إيمانه حتى ادعوا أنه مات كافراً، وإن كرسية في الملكوت سيقى خالياً، وبشارة المسيح له لا تكون صادقة؟ ولماذا تقبل توبة بطرس الذي أنكر المسيح وتركه ولعنه المسيح في حياته وسماه شيطاناً، على أن توبته دون توبة يهوذا، وما كان يهوذا إلا متمماً لذريعة الفداء التي هي أساس الدين عندهم؟

(الشبهة التاسعة): يقولون إن المسيح قد قام من قبره بعد موته ودفنه وظهر للنساء ولتلاميذه ولأناس آخرين، وأرى بعضهم أثر المسامير في جسده، وقد اتفقت على قيامه جميع الأناجيل، فكيف يجمع بين هذا وبين القول بأن الذي صلب غيره. ونقول: (أولاً): إنه لا ثقة لنا برواية هذه الأناجيل، وبيننا الدلائل على عدم الثقة بها بالاختصار، ومنها تعارضها في هذه المسألة وبنيتها هنا بشيء من التحويل و(ثانياً): أنه يحتمل أن يكون لهذه الدعوى سبب ثم توسع القوم فيها كما هي عادتهم في الروايات عن العجائب والمستغربات، حتى تسنى لبولس ومريديه أن يفرغوها في هذا القلب الذي نراه في كتب العهد الجديد وسترى بيان هذا قريباً.

أما البيان الأول ففي إنجيل متى أن مريم المجدلية، ومريم الأخرى (أي أم يعقوب) جاءتا وقت الفجر لتنظرا

عليه والسعي لقتله وصلبه في مخافة يحتاج فيها إلى الإيواء في مأمن منه. ففراره إلى الهند وموته في ذلك البلد ليس ببعيد عقلاً ولا نقلاً.

(الشبهة الثامنة): يقولون إنكم تأخذون بقول إنجيل برنابا وغيره بالموضوع وأقوال مبتدعة النصارى الأولين الذين زعموا أن يهوذا هو الذي صلب لا المسيح، مع أن يهوذا قد انتحر كما ثبت في الإنجيل.

ونقول في الجواب اتفقت النصارى على القول بأن يهوذا الأسخريوطي هو الذي دل على يسوع المسيح وكان يهوذا هذا رجلاً عامياً من بلدة تسمى (خريوت) في أرض يهوذا تبع المسيح وصار من خواص أتباعه الذين يلقبونهم بالتلاميذ الاثني عشر الذين بشرهم بأنهم يكونون معه في الملكوت على اثني عشر كرسيّاً، ويدينون بني إسرائيل، أي يحاسبونهم في يوم الدين. ومن الغريب أن يهوذا كان يشبه المسيح في خلقه كما نقل (جورج سايل) الإنكليزي في ترجمته للقرآن المجيد فيما علقه على سورة آل عمران، وعزا هذا القول إلى (السيرنثيين والكربوكراتيين) من أقدم فرق النصارى الذين أنكروا صلب المسيح وصرحوا بأن الذي صلب هو يهوذا الذي كان يشبهه شَبْهاً تاماً.

وقالوا إن يهوذا أسف وندم على ما كان من إسلامه المسيح إلى اليهود حتى حمله ذلك على بخع نفسه (الانتحار) فذهب إلى حقل وخنق نفسه فيه (متى ٢٧: ٣ - ١٠) أو علقها (أعمال ١: ١٨) وغرضنا من هذا الخبر بيان أنهم معترفون بأن يهوذا فقد بعد حادثة الصلب ولم يظهر في الوجود وأنهم يدعون أن سبب هذا هو قتل نفسه من الحزن والأسف. واختلف الرسل في كيفية القتل وإن كانوا معصومين؟ ونحن نرى أنه إنما فقد لأنه هو الذي صلب، والمسيح هو الذي نجاه الله تعالى ورفع، فإن الذي يحمله انفعاله وألم نفسه على أن يبخع نفسه بيده خنقاً أو شتقاً لا يستبعد منه أن يسلسها بالاستسلام إلى من يتولى ذلك عنه فإنه أهون عليه، فمن المعقول أن يكون يهوذا عندما دل اليهود على المسيح في الليل رأى بعينه عناية الله تعالى بإنجائه وإنقاذه من بين أيديهم (كما أنجى

يقلن شيئاً. وقال إن هؤلاء النسوة هن مريم المجدلية وبونا ومريم أم يعقوب والباقيات معهن. وأن التلاميذ وجميع الباقيين لم يصدقوهن إذ تراءى لهم كلامهن كالهذيان.

ثم ذكر أنه (أي يسوع) مشى مع اثنين منهم كانا منطلقين إلى قرية عمواس وهي على ٦٠ غلوة من أورشليم (خلفاً لمرقس الذي قال لاثنتين منطلقين إلى البرية)، وقال إن أعينهما أمسكت عن معرفته. وإنهما ذكرا قصته، وإنه كان «إنساناً نبياً»، وإنه وبخهما ووصفهما بالغباوة وبطء القلوب في الإيمان، وأنهما ضيفاه في القرية، وإنه لما اتكأ معهما وأخذ خبزاً وبارك وكسّر، وناولهما. انفتحت أعينهما فعرفاه ثم اختفى عنهما، وأنهما في تلك الساعة رجعا إلى أورشليم ووجدا الأحد عشر (هكذا مع أن الظاهر أنهما منهم فيكون الباقي تسعة) مجتمعين هم والذين معهم، ويقولون إنه ظهر لسمعان. فأخبراهم خبرهما. ولم يلبث أن ظهر لهم وأكل معهم.

وأما يوحنا فقد خالف الثلاثة فذكر في الفصل ٢٠ أن مريم المجدلية جاءت إلى القبر باكراً والظلام باقٍ، فنظرت الحجر مرفوعاً، فركضت إلى سمعان بطرس وإلى التلميذ الآخر الذي كان يسوع يحبه، وقالت لهما أخذا السيد من القبر فركضا إلى القبر، ودخلا فيه فرأيا الأكفان موضوعة. وكانت مريم تبكي خارج القبر، ثم انحنت إلى القبر فنظرت ملاكين جالسين واحد عند الرأس والآخر عند الرجلين: وبعد الكلام معهما عن سبب بكائها التفتت إلى الورداء فنظرت يسوع واقفاً فلم تعرفه وظنت أنه البستاني. ثم تعرف إليها وأمرها أن تخبر التلاميذ بقوله «إني صاعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم» فأخبرتهم.

ثم ذكر أن التلاميذ كانوا مجتمعين عشية ذلك اليوم والأبواب مغلقة خوفاً من اليهود، فجاء يسوع ووقف في الوسط وسلم عليهم. وأن توما لم يكن معهم فظهر له بعد ثمانية أيام. ثم ذكر في الفصل ٢١ أنه أظهر نفسه للتلاميذ على بحر طبرية، فلم يعرفوه أولاً ثم اصطادوا سمكاً بأمره وحضر غداءهم.

القبر فوجدتا الملك قد دحرج الحجر وجلس عليه فأخبرهما أن يسوع قام منه وسبق تلاميذه إلى الجليل وهناك يرويه. فذهبتا لتخبرا التلاميذ فلاقاهما يسوع وسلم عليهما وقال لهما كما قال الملك (راجع ٢٨ متى وهو الفصل الأخير).

وفي الفصل الأخير من مرقس أن النساء كن ثلاثة الثالثة سالومة، وإنهن جئن القبر عند طلوع الشمس، وأنهن رأين الحجر مدحرجاً ولم يقلن كمتى أن الملك كان قاعداً عليه بل قال إنهن وجدن في القبر شاباً عن اليمين، وإنه قال لهن «اذهبن وقلن لتلاميذه ولبطرس إنه يسبقكم إلى الجليل» فزاد عطف بطرس على التلاميذ. وقال إنهن هربن ولم يقلن لأحد شيئاً إذ أخذتهن الرعدة والحيرة وكن خائفات ثم قال إنه ظهر أولاً لمريم المجدلية (أي دون من كان معها خلفاً لمتى) فذهبت وأخبرت الذين كانوا معه فلم يصدقوا. ثم ظهر بهيئة أخرى لاثنتين منهم وهما منطلقان إلى البرية. فأخبرا الباقيين فلم يصدقوا «أخيراً» ظهر للأحد عشر وهم متكونون ووبخ عدم إيمانهم وقساوة قلوبهم لأنهم لم يصدقوا الذين نظروه قد قام» وهذا مما زاده على متى.

وأما لوقا فلم يقل إن النساء اللواتي جئن لافتقاد القبر هن الثلاث اللواتي ذكرهن مرقس، ولا الثنتان اللتين اقتصر عليهما متى بل ذكر إنهن نساء كن جئن من الجليل مع يوسف الذي دفن يسوع ونظرن القبر والدفن. وإنهن جئن أول الفجر لا عند طلوع الشمس كما قال مرقس، وإنهن وجدن الحجر مدحرجاً فدخلن القبر ولم يجدن الجسد فيه. ولم يقلن إنهن وجدن شاباً فيه عن اليمين كما قال مرقس ولا الملك على الحجر خارجه كما قال متى. بل قال إنهن بينما كن متحيرات إذا رجلاً وقفا بهن بثياب براقية وقال لهن لماذا تطلبن الحي بين الأموات (وهذا تعبير قد يؤيد قول من قالوا إنه لم يمت وذكرهن بقوله إنه يسلم ويصلب وفي اليوم الثالث يقوم. ولم يأمرهن بأخبار التلاميذ بأن يسبقوه إلى الجليل وإنهم هناك يرويه، كما قال متى ومرقس. وقال إنهن رجعن «وأخبرن الأحد عشر وجميع الباقيين بهذا كله» فخالف مرقس الذي قال إنهن لم

المسألة في أوربة في هذا العصر، حتى صاروا يزعمون أن فيهم من يستحضر الروح، وكان هذا معروفاً في الزمن السابق، ولذلك احتسب عنه بعض مؤلفي هذه الأناجيل، فقال إنه لما ظهر لهم خافوا وظنوا أنهم يرون روحاً فنفي هو ذلك.

وقد كنا بينا هذه المسألة في كتابنا (الحكمة الشرعية في محاكمة القادريّة والرفاعيّة) الذي ألفناه في زمن التحصيل. ومما قلناه فيه أن الصوفية يفرقون بين رؤية الأرواح والرؤية الخيالية. ومما أوردناه عن صاحب كتاب (الذهب الابريز) من القسم الثاني واقعة جرت في بلدهم (فاس) قال: أخبرني بعض الجزائريين إنه مات له ولد كان يحبه كثيراً، وأنه لم يزل شخصه في فكره حتى إن عقله وجوارحه كانت كلها معه، فكان هذا دأبه ليلاً ونهاراً إلى أن خرج ذات يوم إلى باب الفتوح أحد أبواب فاس، حرسها الله تعالى، لشراء الغنم على عادة الجزائريين فجال فكره في أمر ولده الميت، فبينما هو يجول فكره فيه إذ رآه عياناً وهو قادم إليه حتى وقف إلى جنبه. قال فكلمته وقلت له: يا ولدي خذ هذه الشاة - لشاة اشتريتها - حتى أشتري أخرى، وقد حصلت غيبة قليلة عن حسي. فلما سمعني من كان قريباً أتكلم مع الولد قالوا: مع من تتكلم أنت؟ فلما كلموني رجعت إلى حسي وغاب الولد عن بصري، فلا يدري ما حصل في باطني من الوجد عليه إلا الله تبارك وتعالى، إهـ.

وما كل من يقع له مثل هذا يعلم أن هذه رؤية خيالية كالرؤيا المنامية. وإنني أعرف امرأة كبيرة السن من أهل بلدنا (القلمون) كانت دائماً ترى الموتى وتخاطبهم وتأنس بخطابهم تارة، ويظهر عليها الانقباض أخرى. وكان أكثر حديثها مع أخ لها مات غريقاً. وكنت أجزم أنا وكل من عرفها بأنها غير كاذبة ولا متصنعة بل كانت هائمة في ذلك ولا تبالي بشيء.

ولا يغرن العاقل انتشار أمثال هذه الإشاعات بين العامة، وجعلها من القضايا المسلمة، فإن هذا معهود في الناس في كل عصر، وقد بينه الفيلسوف العالم الاجتماعي غوستاف لوبون الفرنسي بياناً علمياً في الفصل الثاني من

هذا ملخص دعوى قيام يسوع من القبر برواية الأناجيل الأربعة، ويرى المتأمل فيها أنها متعارضة متناقضة. ومن الغريب إنه لم يصرح أحد منهم بأنه ظهر لهم في الجليل كما نقلوا عنه وعن الملك أو الملكين. والقاعدة الأصولية في المتعارضين إذا لم يمكن الجمع بينهما ولا ترجيح أحدهما على الآخر أن يقال «تعادلاً فتساقطاً»، وبهذه القاعدة التي لا مندوحة عن القول بها في هذه القصة وغيرها من التعارض في هذه الأناجيل اتقاء الوقوع في الترجيح بغير مرجح نقول: إن روايات الأناجيل الأربعة ساقطة لا يعتد بشيء منها. فهذا هو بيان الوجه الأول من وجهي الجواب.

وأما الوجه الثاني المبني على احتمال أن يكون لهذه الدعوى سبب أو أصل بني عليه فبيان أنه يحتمل أن يكون قد شاع في ذلك الوقت أن يسوع قد قام من قبره، وأنه رآه بعض النساء وبعض تلاميذه، واضطربت الأقوال في ذلك فكتب كل مؤلف انجيل ما سمعه. وأن يكون سبب الإشاعات تخيل مريم المجدلانية العصبية المزاج (التي روت هذه الأناجيل أن المسيح أخرج منها سبعة شياطين) أنها رأت المسيح وكلمته. ويجوز أن تكون الرؤية الخيالية اتفقت لغيرها أيضاً من التلاميذ أو غيرهم بعد أن سمعوها منها، ومثل هذا يقع كثيراً كما سيأتي بيانه بالشواهد.

وأمثال هؤلاء العامة لا يقدر على التمييز بين الحقيقة والخيال. ألم تر أنهم يروون أن المسيح وبخهم على غباوتهم وضعف إيمانهم بعد أن كانوا عاشروه زمناً رأوا فيه ما أيده الله تعالى به من الآيات، أو لم تر أنهم ما كان بعضهم يصدق بعضاً، بل يتهم بعضهم بعضاً بالكذب والهديان، وأنهم لضعفهم تركوا نبيهم وقت الشدة، وأنكره أمثلهم وارثى عليه بعضهم؟ فأمثال هؤلاء الصيادين والنساء لا يستغرب منهم عدم التمييز بين الحقيقة والخيال، وطالما وقع مثل ذلك في حال الانفعالات العصبية للناس، كالحزن والخوف والعشق، يتراءى للإنسان في مثل هذه الأحوال شخص يكلمه زمناً طويلاً أو قصيراً كما يحصل في الرؤى والأحلام. وبعضهم يعد هذا من رؤية الأرواح، وقد راجت سوق هذه

عرضاً ربان السفينة (جوليان فيليكس) في كتابه الذي ألفه في مجاري مياه البحر وسبق نشرها في (المجلة العلمية) قال:

«كانت المدرعة (لايبل بول) تبحث في البحر عن الباخرة (بيرسو) حيث كانت قد انقطعت عنها بعاصفة شديدة، وكان النهار طالعاً والشمس صافية، وبينما هي سائرة إذا بالرائد يشير إلى زورق يساوره الغرق، فشخص رجال السفينة إلى الجهة التي أشير إليها، ورأوا جميعاً من عساكر وضباط زورقاً مشحوناً بالقوم تجره سفن تخفق عليها أعلام اليأس والشدة. وكل ذلك كان خيالاً فقد أنقذ الربان زورقاً صار ينهب البحر انجاداً للبائسين. فلما اقترب منهم رأى من فيه من العساكر والضباط أكداً من الناس يموجون ويمدون أيديهم، وسمعوا ضجيجاً مبهماً يخرج من أفواه عديدة، حتى إذا بلغوا المرفئ وجدوه أغصان أشجار مغطاة بأوراق قطعت من الشاطئ القريب، وإذا تجلت الحقيقة غاب الخيال.

«هذا المثال يوضح لنا عمل الخيال الذي يتولد في الجماعة بحال لا تحتل الشك ولا الإبهام - كما قرناه من قبل - فهنا جماعة في حالة الانتظار والاستعداد، وهناك رائد يشير إلى وجود مركب حفه الخطر وسط الماء، فذلك مؤثر سرت عدواه فتلقاه كل من في الباخرة من عساكر وضباط بالقبول والإذعان».

ثم بين المؤلف أن مثل هذا الإنخداع يقع للجماعات المؤلفة من العلماء فيما هو بعيد عن اختصاصهم العلمي. واستشهد على ذلك بالواقعة الآتية:

(قال) «ومن الأمثلة على ذلك ما رواه لنا (موسيو دافي) أحد علماء النفس المحققين وقد نشرته حديثاً مجلة (أعصر العلوم النفسية) وهو: دعا (موسيو دافي) جماعة من كبار أهل النظر منهم عالم من أشهر علماء انكلترا وهو (مسترولاس)، وقدم لهم أشياء لمسوها بأيديهم ووضعوا عليها ختوماً كما شاؤا، ثم أجرى أمامهم جميع ظواهر فن استخدام الأرواح من تجسيم الأرواح، والكتابة على الألواح، حتى كتبوا له شهادات قالوا فيها إن المشاهدات التي وقعت أمامهم لا تنال إلا بقوة فوق قوة البشر، فلما

كتابه (روح الاجتماع) ومما قاله في بيان قابلية الجماعات للتأثر والتصديق وانخداع الحواس والفكر ما يأتي ملخصاً:

«إن سرعة تصديق الجماعة ليس هو السبب الوحيد في اختراع الأقاصيص التي تنشر بين الناس بسرعة، بل لذلك سبب آخر وهو التشويه الذي يعتور الحوادث في مخيلة المجتمعين، إذ تكون الواقعة بسيطة للغاية فتتقلب صورتها في خيال الجماعة بلا إبطاء، لأن الجماعة تفكر بواسطة التخيلات، وكل تخيل يجر إلى تخيلات ليس بينها وبينه أدنى علاقة معقولة . . .

«ولقد كان يجب تعدد صور التشويش التي تدخلها الجماعة على حادثة شاهدها، وتنوع تلك الصور لأن أمزجة الأفراد الذين تتكون هي منهم مختلفة متباينة بالضرورة. لكن المشاهد غير ذلك، والتشويش واجب عند الكل بعامل العدوى، لأن أول تشويش تخيله واحد من الجماعة يكون كالخميرة تنتشر منه العدوى إلى البقية. فقبل أن يرى جمع الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس كان بالطبع قد تخيله أحدهم أولاً فما لبث التأثير والعدوى أن مثلاه للبقية جسماً مرئياً.

«هكذا وقعت جميع التخيلات الإجماعية الكثيرة التي رواها التاريخ وعليها كلها مسحة الحقيقة لمشاهدتها من الألوف المؤلفة من الناس»، «ولا ينبغي في ردّ ما تقدم الاحتجاج بمن كان بين تلك الجماعات من أهل العقل الراجح والذكاء الوافر لأنه لا تأثير لتلك الصفة في موضوعنا إذ العالم والجاهل سواء في عدم القدرة على النظر والتمييز ما داموا في الجماعة، ورب معترض يقول: إن تلك سفسطة لأن الواقع غير ذلك إلا أن بيانه يستلزم سرد عدد عظيم من الحوادث التاريخية، ولا يكفي لهذا العمل عدة مجلدات غير أنني لا أريد أن أترك القارئ أمام قضايا لا دليل عليها، ولذلك سأتي ببعض الحوادث أنقلها بلا انتقاء من بين الألوف من الحوادث التي يمكن سردها.

«وأبدأ برواية واقعة من أظهر الأدلة في موضوعها لأنها واقعة خيال اعتقدته جماعة ضمت إلى صفوفها من الأفراد صفوفاً وأنواعاً ما بين جاهل غبي، وعالم ألمعي، رواها

وأجابه عما سأله عنه وأن أحدهم سأله: ألك جسم حقيقي أم أنت خيال؟ فقال إن جسمي أقوى من جسمك، فامتحنه بوضع أصبعه في فيه فألفاه حاراً وأسنانه صلبة حادة وعضه عضه صرخ من ألمها.

قال المقتطف بعد ذكر الواقعة أنه يحتمل أن تكون شعوذة من (مستر هوم)، أي وإن كان أولئك العلماء قد ربطوا يديه ورجليه بأسلاك من النحاس إلى كرسي متصل بالموقد موثقاً بذلك الرباط ولحموا الأسلاك بلحام معدني، وقالوا إنه لا يمكن لقوة بشرية أن تزيحه من مكانه ما لم تقطع الأسلاك المعدنية، ثم رأوه بعد مشاهدة الواقعة كما تركوه في قيوده وأغلاله.

(ثم قال المقتطف وهو محل الشاهد) «وإذا لم يكن (هوم) قد فعل ذلك فلا يستحيل أن يكون كوكس وكروكس وغلتون قد خدعوا كلهم، فرأوا ما لا يُرى، وسمعوا ما لا يُسمع لأنه كما يحتمل أن يفعل بعض الناس أفعالاً خارقة لا يستطيع غيرهم فعلها يحتمل أن يتخيل بعضهم أنهم يرون ويسمعون ما لا حقيقة له في الخارج، كيف لا والنائم والحادث يريان ويسمعان ما لا وجود له».

أقول فلماذا جاز في رأي علماء العصر وفلاسفته أن ينخدع العلماء الطبيعيون وغيرهم بالتخيل فكيف لا يجوز أن ينخدع به مثل مريم المجدلية العصبية (الهستيرية)، وتوما وإخوانه من صيادي السمك. وإذا جاز أن يتخيل ضباط المدرعة (لابيل بول) وعسكرها وبحارتها زورقاً يساوره الغرق، فيجزمون بأنهم رأوه بأعينهم وهو مكتظ بالمستنجدين المستغيثين، وهم يرون أيديهم تومىء وتشير، ويسمعون جلبتهم بالصياح والضجيج، وإذا جاز أيضاً أن يتخيل جماهير الصليبيين القديس جورج فوق أسوار بيت المقدس، فظنوا أنهم رأوه حقيقة، فلماذا لا يجوز مثل هذا التخيل في أولئك الأفراد الذين نقل عنهم أنهم رأوا المسيح بعد حادثة الصلب إن صحت الرواية على انقطاع سندها؟ وإذا جاز أن يجزم بضعة عشر شاهداً في البنتين اللتين غرقتا في نهر السين جزماً مبنياً على ما شبه لهم، فلماذا لا يجوز أن يجزم بمثل ذلك في يهوذا الذي كان يشبه المسيح، من لم يكونوا يعرفون المسيح.

صارت الشهادات في يده وبين لهم أن جميع ما عمله شعوذة بسيطة جداً. قال راوي الحادثة ليس الذي يوجب الدهش والاستغراب في هذه المسألة هو إبداع (دافي)، ومهارته في الحركات التي عملها، بل هو ضعف الشهادات التي كتبها أولئك العلماء، ثم استنتج المؤلف من ذلك أنه إذا كان انخداع العلماء بما لا حقيقة له واقعاً فما أسهل انخداع العامة!

ثم ذكر حادثة وقعت في أثناء كتابته لهذا البحث، وخاضت فيها جرائد بارييس، وكان منشأ الانخداع فيها الشبه الذي هو موضوع بحثنا قال (في ص ٥٠ من النسخة العربية المترجمة).

«أنا أكتب هذه السطور والجرائد ملأى بذكر غرق بنتين صغيرتين وإخراج جثتهما من نهر (السين)، عرضت الجثتان فعرفهما بضعة عشر شخصاً معرفة مؤكدة، واتفقت أقوالهم فيها اتفاقاً لم يبق معه شك في نفس قاضي التحقيق، فأذن بدفنهما. وبينما الناس يتأهبون لذلك ساق القدر البنتين اللتين عرفهما الشهود بالإجماع، وظهر أنهما باقيتان ولم يكن بينهما وبين المفقودتين إلا شبه بعيد جداً. والذي وقع هو عين ما وقع في الأمثلة التي سردناها: تخيل الشاهد الأول أن الغريقتين هما فلانة وفلانة فقال ذلك، فسرت عدوى التأثير إلى الباقي، اهـ.

تبين مما تقدم أن الإشاعات التي تبنى على تخيل بعض الناس كثيرة تقع في كل زمان ومكان. وينخدع بها العلماء كالعوام، وإنما بين غوستاف لوبون أنها جارية على سنن الاجتماع، وليست مما يجهل تعليله من الفلتات والشواذ. وإنما بعد كتابة ما تقدم بأيام جاءتنا مجلة المقتطف (الصادرة في ٢٣ المحرم من هذا العام ١٣٣١) فقرأنا في مقالة فيها عنوانها (مناجاة الأرواح والبحث في النفس): أن أربعة من علماء الإنكليز وكبار عقلائهم الثقات شاهدوا واقعة من وقائع مستحضر الأرواح احتاطوا فيها أشد الاحتياط لئلا تكون غشاً أو شعوذة، وكان الوسيط فيها، أي الذي يستحضر الروح، رجلاً اسمه (مستر هوم)، وقد شهد أولئك العلماء الثقات أنهم شاهدوا الروح المستحضر، فخطب كلاً منهم باسمه

به. ولولا حزم الحكومة لحدث بين عوام المصريين واليونانيين من جرّاء هذه المسألة فتن سفكت فيها الدماء، ولكن الحكومة تداركت ذلك، وفرت شمل الجماهير، وقبضت على بعضهم وحبستهم.

هذا وإن كثيراً من الصوفية الذين يناجون الأرواح يرون المسيح وأمه كثيراً. وقد تعرّف إلي بعضهم وهو أعجمي من أصحاب المظاهر الدنيوية يخفي تصوفه عن أقرانه وأخبرني أنه يرى أرواح الأنبياء ويتلقى عنهم علوماً يكتبها بالعربية، وأنه رأى عيسى ومريم عليهما السلام مراراً وتلقى عنهما، ومن ذلك أنه سأل مريم عن تمثل الملك لها ونفخه فيها فأجابته عن ذلك وأنه حصل من ذلك نحو ما يحصل بالزواج من التلقيح. وسألته أنا عن استحضر الأرواح الذي نسمعه عن الإفرنج هل هو مثل ما يذكره عن نفسه، ويؤثر عن الصوفية من قبله، فقال إن بعضه حيل وبعضه له أصل دون ما عندنا وأبعد عنه بمراحل. وأنا لا أتهم هذا الرجل بالكذب عن نفسه ولا أتهم الامام الغزالي فيما رواه عن نفسه من مثل ذلك أيضاً. وإنما أقول إذا كانت هذه الرؤية خيالية أيضاً كرؤية الشيخ راغب فهي تؤكد ما نحن فيه من جواز مثل ذلك على جماعة المسيح. وإن كانت حقيقة وهي ولا شك أعلى وأكمل مما يشته الكثيرون من علماء الإفرنج فهي مصدقة لخبر القرآن في قصة المسيح، وناقضة لتلك العقيدة الخيالية، المقرر مثلها عند الأمم الوثنية.

حاصل المباحث والشك في وجود المسيح. حاصل هذه المباحث أن قصة الصلب ليس لها سند متصل إلى الأفراد الذين رويت عنهم، وأولئك الأفراد الذين رووها غير معروفين معرفة يقينية كما يعلم من دائرة المعارف الفرنسية، وغيرها من الكتب التي ألفها علماء أوربة الأحرار. وأن الذي يؤخذ من مجموع تلك الروايات المنقطعة الإسناد أن أول من وضع هذه العقيدة النصرانية المعروفة الآن هو بولس اليهودي الذي كان أشد أعداء المسيح عليه السلام وألد خصوم أتباعه خصاماً. ثم رأى أنه لا يتمكن من نكايتهم، وإفساد أمرهم، إلا بدخوله فيهم، ففعل. وعلى تقدير وقوع الصلب ورؤية المسيح

وقع في عصرنا هذا واقعتان من قبيل مسألة رؤية المسيح ورؤية القديس جورج (إحدهما) وقعت في الشام منذ سنين، وهي أن رجلاً اسمه علي راغب اشتغل بالتصوف والرياضة فغلبت عليه الخيالات فكان إذا تخيل شيئاً مهماً عنده يتمثل له كأنه حاضر بين يديه. وقد اشتغل زمناً بقراءة الأناجيل حتى كان يحفظ منها ما لا يكاد يحفظه أحد من النصارى، ثم إنه عاشر بعض النصارى في دمشق حتى كان يحضر كنائسهم، فكثرت تخيله لقصة الصلب التي قرأها في الأناجيل، فرأى المسيح مرة متمثلاً أمامه بالصورة التي ذكروا أنه كان عليها عند الصلب، ورأى أثر المسامير في يديه، فاعتقد أن هذه الرؤية حسية حقيقية، وخطب في النصارى بذلك فصدقوه وقالوا إنه قدّيس. وشاعت المسألة ولغظ الناس بها. ثم التقى الشيخ طاهر الجزائري بالشيخ راغب هذا، وتحدثا في المسألة فلم يفجأه الشيخ طاهر بالتخطئة، بل شغل باله وخياله بآيات المسيح، وبما كان له من القدرة على الظهور بأشكال مختلفة (كما ذكروا في الإنجيل)، وانتقل من هذا إلى مسألة إلقاء شبهه على يهودا وما بينه الله تعالى من التشبيه لهم، فما زال يحدثه بمثل هذا حتى ذهب ولقصة الصلب في خياله صورة أخرى، فرأى المسيح متمثلاً أمامه وليس في يديه ولا غيرها أثر للصلب، فسأله عن حقيقة مسألة الصلب فقال له: ألقيت على يهودا صورة من صوري فأخذه وصلبوه. فذهب الشيخ راغب وخطب في النصارى بهذه الرؤية فنبذوه واعتقدوا أنه مجنون. فهذه الرؤية تشبه رؤية توما للمسيح عليه الصلاة والسلام.

وأما الواقعة الثانية فهي أن بعض الناس في هذه الأيام تخيل أن الشيخ المتبولي خرج من قبره المعروف بجوار محطة مصر، ووقف على قبره ثم طار في الهواء ونزل على الكنيسة الجديدة التي ينشئها اليونانيون، ولما شاع هذا الخبر في القاهرة اجتمع خلق كثير من العامة عند الكنيسة، وصاروا يهتفون باسم المتبولي ففرقتهم الشرطة والشحنة بالقوة، وادعى كثيرون منهم أنهم رأوا المتبولي فيها. وروت بعض الجرائد اليومية أن مجذوباً من أبناء السبعين قال أنا المتبولي فصدقته الناس وصاروا يتبركون

المعروفة عند النصارى دفعت بعض الراغبين في التأليف بينهم وبين المسلمين إلى الجمع بين ما جاء في القرآن العزيز وما يؤخذ من الأناجيل بنوع من التأويل. وهو أن قول القرآن ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ يشعر بأنه قد حصل ما هو مظنة القتل لأنه صورة من صورته، ووسيلة من وسائله، وهو ذلك التعليق على الخشبة الذي كان بدون كسر عظم ولا إصابة عضو رئيسي ولم يطل زمنه فكأنه ليس صلباً. وعندهم أن هذا هو معنى قوله ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ وهذا التأويل بعيد وما قررناه من قبل هو الأقرب.

وممن ولع بالجمع بين النصرانية البولسية التي تؤخذ من الكتب التي يسمونها العهد الجديد وبين الإسلام قسّيس من طائفة الروم الأرثوذكس اسمه (خريستوفورس جباره) كان برتبة أرشمندريت وكاد يكون مطراناً، فخلع ثوب (الكهنوت) وطفق يدعو إلى التأليف والجمع بين الإسلام والنصرانية، ويقول بعدم التنافي بينهما، ويؤلف الكتب في ذلك، يثبت فيها التوحيد وصدق القرآن، ونبوة محمد عليه الصلاة والسلام، مع صحة الأناجيل وتطبيقها على القرآن، ولكن لم يستطع أن يؤلف حزباً، وإنني أعتقد أنه كان مخلصاً في عمله، وكان الأستاذ الإمام يحسن الظن فيه أيضاً ويرى أن دعوته لا تخلو من فائدة وتمهيد للتأليف بين الناس، وظهور دين الله الحق في جميع البلاد. والحق أن الإسلام هو دين محمد ودين المسيح ودين جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولكن المحال هو الجمع بين دين القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وبين الديانة البولسية المبنية على أن الثلاثة واحد حقيقة والواحد ثلاثة حقيقة، وعلى عقيدة الصلب والفداء الوثنية. وكيف يمكن الجمع بين التوحيد والتثليث، وبين عقيدة نجاة الإنسان وسعادته بعلمه وعمله، وعقيدة نجاته بإيمانه بلعن ربه لنفسه، وتعذيبه إياها عن عبيده، وإن لم يتم لربه مراده من ذلك، ألا إن القرآن هو الجامع المؤلف، ولكن ترك دعوته المتممون إليه فكيف يستجيب له المخالف، فدين التوحيد والتأليف لا يقوم بدعوته أحد، ولا يحمي دعائه أحد، ولا يبذل له

بعده فالذي يقرب من المعقول في تصويره هو ما بيناه.

ولا يروعن القارىء المستقل الفكر هذه الشهرة المنتشرة بانتشار النصارى في أقطار الأرض، وما لهم فيها من القوة والأيد، فإنما العبرة في إثبات الوقائع والحوادث كونه في زمن وقوعها، كما ثبت القرآن المجيد في زمن نزوله حفظاً وكتابة، ألم تر أن هذه الشهرة المنتشرة للمسيح عليه السلام لم تمنع بعض علماء أوربة الأحرار من الشك في وجوده نفسه، ولا من ترجيح كون قصته خيالية، لا حادثة الصلب والقيام منها فحسب. كما أن بعضهم يرى مثل هذا الرأي في بعض آلهة الوثنيين، وفي (هوميروس) شاعر اليونان، الذي تضرب بشعره الأمثال، فهو أشهر رجل في تاريخ أمته الذي هو من أشهر تواريخ الأمم الغابرة. ومثله في تاريخ أمتنا العربية قيس العامري الشهير بمجنون ليلي. ذكر في الأغاني روايات عن بني عامر أنه غير معروف عندهم. وأنه قيل أن الشعر الذي ينسب إليه هو لبعض كبراء بني أمية عزاه إلى مجهول تستراً بعشقه.

مثل هذا في التاريخ كثير فهو غير مستبعد عقلاً ولكننا نحن المسلمين نؤمن بالمسيح لا لذكره في أناجيلهم وكتبهم فكم في الكتب من قصص خيالية مثل قصته، بل لأن القرآن أثبت وجوده ونبوته والقرآن ثابت عندنا قطعاً فنؤمن بكل ما أثبتته. وأن لي كلمة قديمة اذكرها في هذا السياق الذي لم أتوسع فيه إلا لرد هجمات دعاة النصرانية الذين أسرفوا في الطعن في الإسلام وهي: إن إثبات القرآن للمسيح هو أقوى حجة على منكري آيات المسيح عليه السلام وأقوى شبهة على القرآن. فإن الشبهات التي يوردها الملاحدة والعقليون من النصارى وأمثالهم على إثباته كون المسيح وأمه آية وإن الله آتاه آيات أخرى - هي أقوى الشبهات الواردة على القرآن، ولكن ردها سهل على قاعدة الإيمان بقدرة الله تعالى وتصرفه في خلقه كما يشاء. ومن آيات كون القرآن من عند الله تعالى عدم موافقته للنصارى في رواياتهم في الصلب والتثليث، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

الجمع بين الإسلام والنصرانية: إن تلك الأقوال

كالأنهار، ثم يكون النصر والغلب للأقوياء بالجنود والمال، على المستنصرين بتوهم التأييد السماوي وخوارق العادات. وقد ادعى هذه الدعوى أيضاً أناس من الضعفاء أصابهم هوس الولاية والأسرار الروحية فلم يكن لهم تأثير يذكر.

كانت آخر فتنة دموية من فتن هذه الدعوة فتنة مهدي السودان، وكانت قبلها فتنة (الباب) الذي ظهر في بلاد إيران، وأمره مشهور. وقد بنى بعض أتباعه على أساس دعوته بناء من أنقاض تلك الدعوى ولكنه جاء أكبر منها. ذلك المدعي هو ميرزا حسين الملقب بهاء الله، ادعى الربوبية وبث دعائه في المسلمين والنصارى وغيرهما، ومما يدعون به النصارى إلى دينهم قولهم إن البهاء هو المسيح الموعود به. وقد بينا فتنهم في المنار ورددنا عليهم مراراً.

وظهر في الهند رجل آخر سلمي (بالطبع) ادعى أنه هو المسيح الموعود به وهو (غلام أحمد القادياني) الذي نقلنا عن بعض كتبه نبأ التجاء المسيح عيسى ابن مريم إلى الهند، وهو إنما عني ببيان ذلك ليضعفه من مقدمات إثبات دعوته. وقد كان قبل موته أرسل إليّ الكتاب الذي نقلت عنه ما ذكر وغيره من كتبه التي يدعو بها إلى نفسه، فرددت عليه في المنار فهجاني في كتاب آخر وتوعدني بقوله عني «سيهزم فلا يرى» وزعم أن هذا نبأ وحي جاءه من الله جل وعلا، وقد كان هو الذي انهزم ومات. كان هذا الرجل يستدل بموت المسيح ورفع روحه إلى السماء كما رفعت أرواح الأنبياء، على أنه هو المسيح الموعود به، ولا يزال أتباعه يستدلون بذلك. وقد جرى على طريقة ادعاء المهدوية من شيعة إيران (كالباب والبهاء) في استنباط الدلائل الوهمية على دعوته من القرآن حتى أنه استخرج ذلك من سورة الفاتحة! وله في تفسيرها كتاب في غاية السخف يدعي أنه معجزة له!! فجعلها مبشرة بظهوره وبأنه هو المسيح هذه الأمة. وإنما فتح على هذه الأمة هذا الباب الغريب من أبواب تأويل القرآن وتحريف ألفاظه عن المعاني التي وضعت لها، إلى معان غريبة لا تشبهها ولا تناسبها، أولئك الزنادقة من المجوس

المال لهداية الناس أحد، ودين التعديد والفداء تبذل له القناطير المقنطرة من الدنانير، ويستأجر لدعوته الألوف من المجادلين والعاملين، وتحميمهم الدول القوية بالمدافع والأساطيل، على أننا لا نياس من روح الله، فكما وفق لتأليف جماعة الدعوة والإرشاد، فهو الذي يوفق لمساعدتها من أراد، والله خلقنا من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة، وما هي إلا أن يستيقظ المسلمون من رقتهم، ويتنبهوا من غفلتهم، ويعرفوا الغرض من حرص الإفرنج على تنصيرهم، وإن أول بلايا دعوتهم، وما ينشرون من صحفهم وكتبهم، وينشئون من مدارسهم ومستشفياتهم، هو إبطال ثقة المسلمين بدينهم، وحل الرابطة التي تجمع بين أفرادهم وشعوبهم، حتى يكونوا طعمة للطاعمين، بل عبيداً للطامعين، فإذا انتبهوا وفقهوا، عرفوا كيف يحفظون أنفسهم ودنياهم بحفظ دينهم، وتوثيق رابطته بينهم، والاستغناء عن الجمعيات والمستشفيات، التي ينشئها جمعيات التغرير بالتبشير لهدم الإسلام، بإنشاء خير منها لإعلاء منار الإسلام، الذي هو دين العقل والعرفان، والعدل والعمران، الذي أكمل الله به دين الأنبياء عليهم السلام، ويجذبون إليه من في بلاد أمريكة وأوربة من المستقلين الأحرار، حتى تكون كلمة الله هي العليا في كل مكان - لا إله إلا الله، محمد رسول الله، وآخر دعوانا أن الحمد لله.

بهاء الله البابي ومسيح الهند القادياني: يعلم الخاص والعام أنه ورد في علامات الساعة من الأخبار أنه يخرج رجل من آل بيت النبي (ص) يقال له المهدي يملأ الأرض عدلاً، بعد أن تكون قد ملئت جوراً، وينزل في آخر مدته عيسى ابن مريم من السماء فيرفع الجزية ويكسر الصليب ويقتل المسيح الدجال. وليس هذا مقام تحرير هذه المسألة وإنما اقتضت الحال أن نذكر من ضررها أنها لانتظار المسلمين لها، ويأسهم من إعادة عدل الإسلام ومجده بدونها، قد كانت مثار فتن عظيمة، فقد ظهر في بلاد مختلفة وأزمنة مختلفة أناس يدعي كل واحد منهم أنه المهدي المنتظر، يخرج على أهل السلطان، ويستجيب له كثير من الأغرار، فتجري الدماء بينهم وبين جنود الحكام

جار منها في بلاد البلقان في هذه الأيام. فإن دول البلقان النصرانية ما ظهرها على العثمانيين في مكان، إلا وأسرفوا في قتل الكبار والصغار، والنساء والأطفال، ونسف ديارهم بالديناميت أو إحراقهم بالنار، بعد سلب الأموال وهتك الأعراض. وكل هذا يعمل باسم الصليب ورفع شأنه، فأين هو مما ورد من كسر المسيح للصليب، وما كان القادياني إلا خاضعاً لدولة من دول الصليب ولكن من شؤون البشر إنه لا يدعوهم أحد إلى شيء مهما كان بعيداً عن المعقول والمنقول إلا ويجد فيهم من يصدقه ويستجيب له. فنسأل الله التأييد بالهداية، والحفظ من الغواية. آمين.

جوهري ج ٣ ص ١٠٦ - ١١٥

وفتحت أورشليم عام ٧٠، وضرب الهيكل ففرق اليهود في كل واد يهيومن، وانحلت الرابطة وكان كل أسقف يعلم جماعته بما يغلب على عقله مع الحكمة المأثورة عن المسيح، ثم اختلطت التعاليم بالفلسفة اليونانية لا سيما في مدارس الإسكندرية. وغلبت الفلسفة على تلك التعاليم البسيطة لجهل القائمين بها وقوة الفلاسفة، فنشأت في آخر الجيل الأول الأناجيل المنقولة في الأصل عن الرسل، وقد أحصى فابريسيوس منها ٣٥ إنجيلاً، فهذا العدد كان بعض ما في الجيل الأول والثاني، وبقي الأمر على هذا المنوال إلى سنة ٣٨٤ لما رأى البابا داماسيوس ما في الأناجيل المنتشرة من الاختلاف والتناقض فأمر مارايرو نيموس أن يحرر ترجمة لاتينية جديدة، وذلك لأن الملك تيودوسيوس ضجر من المخاصمات وصدر الأمر بأن يكون الأسقف في رومة هو الذي له الحق وحده أن يتبعه عموم النصارى، وهذه الترجمة ثبتها المجمع التريدينيني سنة ١٥٤٦، وخطأها سيستوس الخامس سنة ١٥٩٠. ونقحها بنسخة جديدة، وخطأ هذه كليمنطوس الثامن وطبع بنسخة جديدة بترجمة جديدة وهي الباقية إلى الآن عند الكاثوليكين.

فهذا هو معنى قوله تعالى ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَئِي شَكَّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾ أي لكنهم يتبعون لكنهم يتبعون الظن، فالاستثناء منقطع ﴿وَمَا قَلَّوْهُ يَقِينًا﴾

وأعوانهم الذين وضعوا تعاليم فرق الباطنية، فراجت حتى عند كثير من الصوفية. ولمن يستدل بالكلم على ما لا يدل عليه في استعمال لغته أن يستدل بما شاء على ما شاء، وهو يجد من جاهلي اللغة وفاقدي الاستقلال العقلي من يقبل منه كل دعوى.

والحق أنه ليس في القرآن نص يثبت أن عيسى ينزل من السماء ويحكم في الأرض. وأما الأحاديث الواردة في ذلك فهي تختلف دعوى القادياني، فإن منها أنه ينزل في دمشق لا في الهند، ومنها أنه يقتل الدجال الذي يظهر قبله، ومنها أنه يحكم ويملا الأرض عدلاً، ولا يزال الظلم والجور وسفك الدماء مالتاً الأرض، وناهيك بما هو

... ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ ادعت اليهود أنهم قتلوا عيسى وصدقهم النصارى على ذلك، فكذبهم الله قائلاً ﴿وَمَا قَلَّوْهُ وَمَا صَلَبُوْهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ ولقد تقدم إيضاح هذا المقام في سورة آل عمران بما لا مزيد عليه، فارجع إليه إن شئت تر أن إنجيل برنابا قد تكفل بهذه المسألة، ونقلنا النصوص هناك وأن يهوذا هو الذي ألقى عليه شبه المسيح وصلب وقتل. وقد كان هو التلميذ الذي خان نبيه وأستاذه ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ﴾ في شأن عيسى ﴿لَئِي شَكَّ مِنْهُ﴾ فهذه الأناجيل قد اختلفوا فيها حتى كانت المجامع التي أقيمت قديماً، وهناك حصل حذف وإثبات كما تقدم ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتَّبَاعَ الظَّنِّ﴾ بسبب أن المسيح اختار رسله من الشعب الهادي قوماً كانوا صيادي سمك في بحيرة طبرية ليفهم الناس أن دينه لا يحتاج إلى ذكاء خارق للعادة فجاء بولس وهو (فريسي) ويعرف اللغة اليونانية وادعى أنه هو المختص بالمعرفة الحقيقية لدين المسيح وأخذ يخاصم بطرس، فتألف بعد رفع المسيح صنفان من النصارى صنف يتبع بقية أتباع المسيح، وصنف يتبع بولس المذكور، ثم نشبت الحرب بين الدولة الرومانية في زمن نيرون بقيادة فيباسبانوس الروماني وبين اليهود.

ولما مات القائد الروماني تولى القيادة ابنه طيطس

الملة واحدة وهو الإسلام، وتقع الأمانة في الأرض حتى ترتع الأسود مع الإبل والنور إلخ.

هذا ما جاء في كلام علماء التفسير، وسأوضح هذا المقام مع بعض التحقيق ﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ فيشهد على اليهود بالكذب، وعلى النصارى بأنهم دعوه ابن الله.

أي قتلاً يقيناً ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ رد وإنكار لقتله وإثبات لرفعه ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا﴾ لا يغلب على ما يريده ﴿حَكِيمًا﴾ فيما دبر لعيسى ﴿وَلِإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ يعني وما من أحد من أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى بل أهل الملل جميعاً إلا والله ليؤمنن بعيسى حين ينزل من السماء ويقتل الدجال فيهلكه حتى تكون

المراغي ج ٦ ص ١٢ - ١٦

حادثة وقعت سنة ١٥٣٩ في فرنسا استحضر فيها ١٥٠ شخصاً لمعرفة شخص يدعى (مارتين جير) جزم أربعون منهم بأنه هو هو وقال خمسون أنه غيره والباقيون ترددوا ولم يمكنهم أن يبدوا رأياً ثم اتضح من التحقيق أن هذا الشخص كان غير مارتين جير وانخدع به هؤلاء الشهود المبتوثون وعاش مع زوجته مارتين محوطاً بأقاربه وأصحابه ومعارفه ثلاث سنوات وكلهم مصدق أنه مارتين، ولما حكمت المحكمة عليه بظهور كذبه بالدلائل القاطعة استأنف الحكم في محكمة أخرى فأخضر ثلاثون شاهداً أقسم عشرة منهم بأنه هو مارتين، وقال سبعة إنه غيره وتردد الباقيون.

على أن هذا الحادث من خوارق العادات التي أيد الله بها نبيه عيسى ابن مريم وأنقذه من أعدائه فألقى شبهه على غيره وغير شكله، فخرج من بينهم وهم لا يشعرون، وفي أناجيلهم وكتبهم نصوص متفرقة تؤيد هذا الوجه؛ وإذا قال قائل: وإذا كان المسيح قد نجا من أعدائه فأين ذهب؟ والجواب أنا إذا قلنا إنه رفع بروحه وجسده إلى السماء فلا ترد هذه الشبهة، وإذا قلنا إن الله توفاه في الدنيا ثم رفعه إليه كما رفع إدريس عليهما السلام فلا غرابة في ذلك، فإن أخاه موسى عليه السلام قد انفرد عن قومه في مكان لم يعرفه أحد منهم، وكانوا ألوفاً عدة خاضعين لأمره ونهيه، فكيف يستغرب أن يفتر عيسى عليه السلام من قوم هم أعداء له، لا ولي له فيهم ولا نصير إلا أفراد من الضعفاء قد انفصلوا من حوله وقت الشدة، وقد أنكره أمثلهم بطرس الحواري ثلاث مرات؟.

﴿وَإِنَّ الَّذِينَ أَخْلَفُوا فِيهِ لَيَنَّ شَيْكُ مَنَّهُ مَا هُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا

﴿وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا﴾ المراد بالكفر هنا الكفر بعيسى عليه السلام بدليل ما بعده، وبالكفر الذي قبله الكفر بمحمد ﷺ بقريضة قوله: ﴿وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ﴾ [النساء: ١٥٥]، والبهتان: الكذب الذي يبهت من يقال فيه: أي يُذهِشُه ويُحِيرُه لبعده وغبابته، والمراد به هنا رميها بالفاحشة:

والمعنى - إن الله طبع على قلوبهم بكفرهم بعيسى وأمه وريمهم إياها بالكذب العظيم، وأي بهتان تبتهت به العذراء التقية أعظم من هذا؟.

والخلاصة - إن هذا الكفر والبهتان من أسباب ما حل بهم من غضب الله.

﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي وبسبب قولهم هذا القول المؤذن بالجزأة على الباطل والاستهزاء بآيات الله.

وذكروه بوصف الرسالة تهكماً واستهزاء بدعوته، بناء على أنه إنما ادعى النبوة والرسالة فيهم لا الألوهية كما ادعت النصارى، إذ جاء في إنجيل يوحنا (وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ﴾ أي والحال أنهم ما قتلوه كما ادعوا، وما صلبوه كما زعموا وشاع بين الناس، ولكن وقع لهم الشبه فظنوا أنهم صلبوا عيسى وهم إنما صلبوا غيره، ومثل هذا الشبه يحدث كثيراً في كل زمان وتحكى عنه نواذر وحوادث غاية في الغرابة لكنها قد وقعت فعلاً.

فقد ذكر بعض المؤلفين في الطب الشرعي من الإنجليز

السماء بالروح والجسد ولا بالروح فقط، وفي تفسير ابن عباس معنى الرفع رفع الروح، ولكن المشهور بين جمهرة المفسرين وغيرهم أن الله تعالى رفعه بروحه وجسده إلى السمااء بدليل حديث المعراج، إذ أن النبي ﷺ رآه هو وابن خالته يحيى في السمااء الثانية، وأنت ترى أنه لا دليل لهم في ذلك إذ لو دل هذا على ما يقولون لدل على رفع يحيى وسائر من آرههم من الأنبياء في سائر السموات ولا قائل بذلك.

وقال الرازي - المعنى رافعك إلى محل كرامتي، وجعله رفعا للتفخيم والتعظيم كقوله حكاية عن إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩] وهو إنما ذهب من العراق إلى الشام، والمراد رفعه إلى مكان لا يملك الحكم فيه عليه إلا الله اهـ.

﴿وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ أي إن الله عزيز يغلب ولا يُغلب، وبهذه العزة أنقذ عبده ورسوله من اليهود الماكرين وحكام الروم الظالمين، وبحكمته جازى كل عامل بعمله، ومن ثم أحل باليهود ما أحل بهم من الذلة والمسكنة والتشريد في الأرض، وسيوفهم جزاءهم يوم القيامة ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ﴾ [الأنفطار: ١٩].

﴿وَلِإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْعِدٍ﴾ أي وإن كل أحد من أهل الكتاب عندما يدركه الموت ينكشف له الحق في أمر عيسى وسواه من أمور الدين فيؤمن بعيسى إيمانا حقا لا زيف فيه ولا ضلال، فاليهودي يعلم أنه رسول صادق في رسالته ليس بالكذاب، والنصراني يعلم أنه عبد الله ورسوله وليس بإله وليس هو بآب الله.

وفائدة إخبارهم بذلك - بيان أنه لا ينفعهم حينئذ فعلتهم أن يبادروا به قبل أن يضطروا إليه مع عدم الجدوى والفائدة.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي ويوم القيامة يشهد عيسى عليهم بما تظهر به حقيقة حاله معهم كما حكى الله عنه من قوله: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَن آعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧] فهو يشهد للمؤمنين منهم بالإيمان حال

الرَّبَّاعَ الظَّنَّ قال في لسان العرب: الشك ضد اليقين، فالشك في صلب المسيح هو التردد فيه أهو المصلوب أم غيره؟

والمعنى - وإن الذين اختلفوا في شأن عيسى من أهل الكتاب لفي تردد من حقيقة أمره، إذ ليس لهم به من علم قطعي الثبوت، وإنما هم يتبعون الظن والقرائن التي ترجح بعض الآراء على بعض، وقد جاء في بعض الأناجيل التي يعولون عليها أنه قال لتلاميذه (كلكم تشكون في هذه الليلة) أي الليلة التي يطلب فيها للقتل (إنجيل متى من ٢٦ - ٣١ ومرقس من ١٤ - ٢٧).

وإذا كانت أناجيلهم تنطق بأنه أخبر تلاميذه أو عرف الناس له بأنهم سيشكون فيه في ذلك الوقت، وخبره صادق قطعاً، فهل من العجيب اشتباه غيرهم وشك من دونهم في أمره؟.

﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾ أي وما قتلوا عيسى ابن مريم وهم متيقنون أنه هو بعينه، إذ هم لم يكونوا يعرفونه حق المعرفة، والأناجيل التي يعول عليها صريحة في أن الذي أسلمه إلى الجند هو يهوذا الأسخريوطي وقد جعل لهم علامة أن من قبله يكون هو المسيح فلما قبله قبضوا عليه، وإنجيل برنابا يصرح بأن الجنود أخذوا يهوذا الأسخريوطي نفسه ظناً أنه هو المسيح، لأنه ألقى عليه شبهه، ومن هذا تعلم أن الجند ما كانوا يعرفون شخص المسيح معرفة يقينية.

والخلاصة - أن روايات المسلمين جميعها متفقة على أن عيسى عليه السلام نجا من أعدائه ومريدي قتله فقتلوا آخر ظناً منهم أنه هو.

﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ﴾ هذه الآية كآية آل عمران ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَافِعُكَ إِلَىٰ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [آل عمران: ٥٥] وقد روي عن ابن عباس أنه فسر التوفي بالإماتة، وعن ابن جريج تفسيره بالأخذ والقبض والمراد منه ومن الرفع إنقاذه من الذين كفروا بعناية من الله بعد أن اصطفاه إليه وقربه.

وقال ابن جرير نقلاً عن ابن جريج: رفعه إياه توفيه إياه وتطهيره من الذين كفروا أي فليس المراد الرفع إلى

إذا حضره الموت بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، وإن الكافر إذا حُضِرَ (حضره الموت) بشر بعذاب الله وعقوبته» وروى ابن مردويه عن ابن عباس «ما من نفس تفارق الدنيا حتى ترى مقعدها من الجنة أو النار».

وهذا يؤيد ما روي عن ابن عباس في تفسير الآية من أن الملائكة تخاطب من يموت من أهل الكتاب قبل خروج روحه بحقيقة أمر المسيح، مع الإنكار الشديد والتقييح.

سيد قطب ج ٢ ص ٨٠١ - ٨٠٣

سفراءه.. أن يأخذوا يسوع من العالم. فجاء الملائكة الأطهار، وأخذوا يسوع من النافذة المشرفة على الجنوب، فحملوه، ووضعوه في السماء الثالثة، في صحبة الملائكة التي تسبح إلى الأبد.. ودخل يهوذا بعنف إلى الغرفة التي أصعد منها يسوع. وكان التلاميذ كلهم نياماً. فأتى الله العجيب بأمر عجيب فتغير يهوذا في النطق وفي الوجه فصار شبيهاً بيسوع. حتى أننا اعتقدنا أنه يسوع. أما هو فبعد أن أيقظنا أخذ يفتش لينظر أين كان المعلم. لذلك تعجبنا وأجبنا: أنت يا سيدي معلمنا. أنسينا الآن؟... إلخ».

وهكذا لا يستطيع الباحث أن يجد خبراً يقيناً عن تلك الواقعة - التي حدثت في ظلام الليل قبل الفجر - ولا يجد المختلفون فيها سنداً يرجح رواية علي رواية.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا فِيهِ لَنَىٰ شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ابْتِغَاءَ الظَّنِّ﴾. أما القرآن فيقرر قراره الفصل: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾. ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾. بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

ولا يدلي القرآن بتفصيل في هذا الرفع أكان بالجسد والروح في حالة الحياة؟ أم كان بالروح بعد الوفاة؟ ومتى كانت هذه الوفاة وأين. وهم ما قتلوه وما صلبوه وإنما وقع القتل والصلب على من شبه لهم سواء.

لا يدلي القرآن بتفصيل آخر وراء تلك الحقيقة؛ إلا ما ورد في السورة الأخرى من قوله تعالى ﴿يَكْفِيكَ إِلَهِي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٥٥]. وهذه كذلك لا تعطي تفصيلاً عن الوفاة ولا عن طبيعة هذا التوفي

التكليف والاختيار وعلى الكافر بالكفر، إذ هو مرسل إليهم وكل نبي شهيد على قومه كما قال تعالى ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١] وقد ورد في الآثار ما يدل على اطلاع الناس قبل موتهم على منازلهم من الآخرة، فيبشرون برضوان الله أو بعذابه وعقوبته، روى البخاري عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «إن المؤمن

... إن قضية قتل عيسى عليه السلام وصلبه، قضية يخبط فيها اليهود - كما يخبط فيها النصارى بالظنون - فاليهود يقولون: إنهم قتلوه ويسخرون من قوله: إنه رسول الله، فيقررون له هذه الصفة على سبيل السخرية! والنصارى يقولون: إنه صلب ودفن، ولكنه قام بعد ثلاثة أيام. و«التاريخ» يسكت عن مولد المسيح ونهايته كأن لم تكن في حساب!

وما من أحد من هؤلاء أو هؤلاء يقول ما يقول عن يقين.. فلقد تتابعت الأحداث سراعاً؛ وتضاربت الروايات وتداخلت في تلك الفترة بحيث يصعب الاهتداء فيها إلى يقين.. إلا ما يقصه رب العالمين.. والأنجيل الأربعة التي تروي قصة القبض على المسيح وصلبه وموته ودفنه وقيامته.. كلها كتبت بعد فترة من عهد المسيح؛ كانت كلها اضطهاداً لديانته ولتلاميذه يتعذر معه تحقيق الأحداث في جو السرية والخوف والتشريد.. وقد كتبت معها أناجيل كثيرة. ولكن هذه الأنجيل الأربعة اختيرت قرب نهاية القرن الثاني للميلاد؛ واعتبرت رسمية، واعترف بها؛ لأسباب ليست كلها فوق مستوى الشبهات! ومن بين الأنجيل التي كتبت في فترة كتابة الأنجيل الكثيرة: إنجيل برنابا. وهو يخالف الأنجيل الأربعة المعتمدة، في قصة القتل والصلب، فيقول:

«ولما دنت الجنود مع يهوذا، من المحل الذي كان فيه يسوع، سمع يسوع دنو جم غفير. فلذلك انسحب إلى البيت خائفاً. وكان الأحد عشر نياماً. فلما رأى الخطر على عبده، أمر جبريل وميخائيل ورفائيل وأوريل،

وموعده . . ونحن - على طريقتنا في ظلال القرآن - لا نريد أن نخرج عن تلك الظلال؛ ولا أن نضرب في أقاويل وأساطير؛ ليس لدينا من دليل عليها، وليس لنا إليها سبيل . .

ونعود من هذا الاستطراد، مع عودة السياق القرآني إلى بقية هذا الاستدراك: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنُوا بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ . وقد اختلف السلف في مدلول هذه الآية، باختلافهم في عائد الضمير في «موته» فقال جماعة: وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى عليه السلام قبل موته أي عيسى وذلك على القول بنزوله قبيل الساعة . . وقال جماعة وما من أهل الكتاب من أحد إلا يؤمن بعيسى قبل موته . . أي موت الكتابي - وذلك على القول بأن الميت - وهو في سكرات

الموت - يتبين له الحق؛ حيث لا ينفعه أن يعلم! ونحن أميل إلى هذا القول الثاني؛ الذي ترشح له قراءة أبي: «إلا ليؤمننَّ به قبل موتهم» . . فهذه القراءة تشير إلى عائد الضمير؛ وأنه أهل الكتاب . . وعلى هذا الوجه يكون المعنى: أن اليهود الذين كفروا بعيسى - عليه السلام - وما زالوا على كفرهم به، وقالوا: إنهم قتلوه وصلبوه، ما من أحد منهم يدركه الموت، حتى تكشف له الحقيقة عند حشجة الروح، فيرى أن عيسى حق، ورسالته حق، فيؤمن به، ولكن حين لا ينفعه إيمان . . ويوم القيامة يكون عيسى عليهم شهيداً.

بذلك يحسم القرآن الكريم قصة الصلب. ثم يعود بعدها إلى تعداد منكر اليهود؛ وما نالهم عليها من الجزاء الأليم في الدنيا والآخرة.

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَّيْسِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٦٣)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٦	ص ٢٠	أبو حيان الأندلسي
الزمخشري	ج ١	ص ٥٨٢	ابن كثير
الرازي	ج ١١	ص ١٠٧ - ١٠٩	الجلالان
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٩١ - ٢٩٣	الشوكاني
ابن عربي	ج ١	ص ٢٩٦ - ٢٩٨	الآلوسي
البيضاوي	ج ٢	ص ١٢٩	القاسمي
الخان	ج ١	ص ٦٢٣ - ٦٢٤	محمد عبده
النبغي	ج ١	ص ٢٩٨ - ٢٩٩	الطباطبائي
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٥ - ٥٤٦	جوهري
القرطبي	ج ٦	ص ١٥ - ١٧	المراغي
			سيد قطب
			ج ٣
			ج ١
			ص ١٣١
			ص ٥٣٦ - ٥٣٩
			ص ١٤ - ١٥
			ص ١٧٢٢
			ص ٦٦ - ٧٦
			ص ١٢٧ - ١٤٧
			ص ١٠٦ - ١٢٢
			ص ١٩ - ٢٤
			ص ٧٩٤ - ٨١٤

الطبري ج ٦ ص ٢٠

وقال آخرون: بل قالوا: لما أنزل الله الآيات التي قبل هذه في ذكرهم «ما أنزل الله على بشر من شيء ولا على موسى ولا على عيسى» فأنزل الله جل ثناؤه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] ولا على موسى ولا على عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثني الحرث... عن محمد بن كعب القرظي قال: أنزل الله ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣] إلى قوله ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٥٦] فلما تلاها عليهم يعني: على اليهود واخبرهم بأعمالهم الخبيثة جحدوا كل ما أنزل الله، وقالوا «ما أنزل الله على بشر من شيء ولا على موسى ولا على عيسى وما أنزل الله على نبي من شيء» قال: فحل حبوته وقال: ولا على أحد فأنزل الله جل ثناؤه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٩١] وأما قوله ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ فإن القراء اختلفت في قراءته. فقرأته عامة قراء أمصار الإسلام، غير نفر من قراء الكوفة ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ بفتح الزاي على التوحيد، بمعنى: وأتينا داود الكتاب المسمى ﴿زَبُورًا﴾

يعني جل ثناؤه بقوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ﴾ إنا أرسلنا إليك، يا محمد، بالنبوة كما أرسلنا إلى نوح، وإلى سائر الأنبياء الذين سميتهم لك من بعده، والذين لم أسمهم لك، كما: حدثنا ابن وكيع... عن الربيع بن خثيم في قوله ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَّيْسِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ قال: أوحى إليه كما أوحى إلى جميع النبيين من قبله وذكر أن هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ لأن بعض اليهود لما فضحهم الله بالآيات التي أنزلها على رسوله ﷺ وذلك من قوله: ﴿يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنِزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [النساء: ١٥٣] فتلا ذلك عليهم رسول الله ﷺ، قالوا وما أنزل الله على بشر من شيء بعد موسى، فأنزل الله هذه الآيات، تكذيباً لهم، وأخبر نبيه والمؤمنين به أنه قد أنزل عليه بعد موسى وعلى من سماهم في هذه الآية، وعلى آخرين لم يسمهم، كما: حدثنا أبو كريب... عن ابن عباس قال قال سكين وعدي بن زيد يا محمد، ما نعلم الله أنزل على بشر من شيء بعد موسى فأنزل الله في ذلك من قولهما ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالْتَّيْسِ مِنْ بَعْدِهِ﴾ إلى آخر الآيات.

الزاي على أنه اسم الكتاب الذي أوتيته داود كما سمي الكتاب الذي أوتيته موسى التوراة، والذي أوتيته عيسى الإنجيل، والذي أوتيته محمد الفرقان، لأن ذلك هو الاسم المعروف به ما أوتي داود. وإنما تقول العرب: زبور داود، بذلك يعرف كتابه سائر الأمم.

الرازي ج ١١ ص ١٠٧ - ١٠٩

وهذا الجواب المذكور هنا هو الجواب المذكور في قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَلْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣] يعني أنك إنما ادعيت الرسالة، والرسول لا بد له من معجزة تدل على صدقه، وذلك قد حصل، وأما أن تأتي بكل ما يطلب منك فذاك ليس من شرط الرسالة، فهذا جواب معتمد عن الشبهة التي أوردها اليهود، وهو المقصود الأصلي من هذه الآية.

المسألة الثانية: قال الزجاج: الإيحاء الإعلام على سبيل الخفاء، قال تعالى ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١] أي أشار إليهم، وقال ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي﴾ [المائدة: ١١١] وقال ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّفْلِ﴾ [النحل: ٦٨]. ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى﴾ [القصص: ٧] والمراد بالوحي في هذه الآيات الثلاثة الإلهام.

المسألة الثالثة: قالوا إنما بدأ تعالى بذكر نوح لأنه أول نبي شرع الله تعالى على لسانه الأحكام والحلال والحرام، ثم قال تعالى ﴿وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ ثم خص بعض النبيين بالذكر لكونهم أفضل من غيرهم كقوله ﴿وَمَلَكُوتِهِ﴾ ورُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ [البقرة: ٩٨].

واعلم أن الأنبياء المذكورين في هذه الآية سوى موسى عليه السلام اثنا عشر ولم يذكر موسى معهم، وذلك لأن اليهود قالوا: إن كنت يا محمد نبياً فأتنا بكتاب من السماء دفعة واحدة كما أتى موسى عليه السلام بالتوراة دفعة واحدة، فالله تعالى أجاب عن هذه الشبهة بأن هؤلاء الأنبياء الاثنى عشر كلهم كانوا أنبياء ورسلاً مع أن واحداً منهم ما أتى بكتاب مثل التوراة دفعة واحدة، وإذا كان المقصود من تعدد هؤلاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

وقرأ ذلك بعض قراء الكوفيين وآتينا داود زبوراً بضم الزاي جمع زبر. كأنهم وجهوا تأويله وآتينا داود كتباً وصحفاً مزبورة. من قولهم «زبرت الكتاب أزره زبراً وذبرته أذبره ذبراً» إذا كتبه. قال أبو جعفر: وأولى القراءتين في ذلك بالصواب عندنا، قراءة من قرأ ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ بفتح

قوله تعالى ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾.

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكى أن اليهود سألوا الرسول ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، وذكر تعالى بعده أنهم لا يطلبون ذلك لأجل الاسترشاد ولكن لأجل العناد واللجاج، وحكى أنواعاً كثيرة من فضائحهم وقبائحهم، وامتد الكلام إلى هذا المقام، شرع الآن في الجواب عن تلك الشبهة فقال ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَاللَّيْسَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ والمعنى: أنا توافقنا على نبوة نوح وإبراهيم وإسماعيل وجميع المذكورين في هذه الآية، وعلى أن الله تعالى أوحى إليهم، ولا طريق إلى العلم بكونهم أنبياء الله ورسله إلا ظهور المعجزات عليهم ولكل واحد منهم نوع آخر من المعجزات على التعيين، وما أنزل الله على كل واحد من هؤلاء المذكورين كتاباً بتمامه مثل ما أنزل إلى موسى، فلما لم يكن عدم انزال الكتاب على هؤلاء دفعة واحدة قادحاً في نبوتهم، بل كفى في إثبات نبوتهم ظهور نوع واحد من أنواع المعجزات عليهم، علمنا أن هذه الشبهة زائلة، وأن إصرار اليهود على طلب هذه المعجزة باطل، وتحقيق القول فيه أن إثبات المدلول يتوقف على ثبوت الدليل، ثم إذا حصل الدليل وتم فالمطالبة بدليل آخر تكون طلباً للزيادة وإظهاراً للتعنت واللجاج، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فلا اعتراض عليه لأحد بأنه لم أعطى هذا الرسول هذه المعجزة وذلك الرسول الآخر معجزاً آخر،

ذكرنا ما فيه عند قوله ﴿جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤].

المسألة الخامسة: قرأ حمزة ﴿زُبُورًا﴾ بضم الزاي في كل القرآن، والباقون بفتحها، حجة حمزة أن الزبور مصدر في الأصل، ثم استعمل في المفعول كقولهم: ضرب الأمير ونسج فلان، فصار اسماً ثم جمع على زبر كشهود وشهد، والمصدر إذا أقيم مقام المفعول فإنه يجوز جمعه كما يجمع الكتاب على كتب، فعلى هذا، الزبور الكتاب، والزبر بضم الزاي الكتب، أما قراءة الباقيين فهي أولى لأنها أشهر، والقراءة بها أكثر.

هذا المعنى لم يجر ذكر موسى معهم، ثم ختم ذكر الأنبياء بقوله ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زُبُورًا﴾ يعني أنكم اعترفتم بأن الزبور من عند الله، ثم إنه ما نزل على داود دفعة واحدة في الألواح مثل ما نزلت التوراة دفعة واحدة على موسى عليه السلام في الألواح، فدل هذا على أن نزول الكتاب لا على الوجه الذي نزلت التوراة لا يقدح في كون الكتاب من عند الله، وهذا إلزام حسن قوي.

المسألة الرابعة: قال أهل اللغة: الزبور الكتاب، وكل كتاب زبور، وهو فعول بمعنى مفعول، كالرسول والركوب والحلوب، وأصله من زبرت بمعنى كتبت، وقد



﴿يَتَّاهَلُ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا . لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾

(سورة النساء، رقم ٤، الآية ١٧١ - ١٧٢)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٦	ص ٢٤ - ٢٧	أبو حيان الأندلسي
الزمخشري	ج ١	ص ٥٨٤ - ٥٨٨	ابن كثير
الرازي	ج ١١	ص ١١٤ - ١١٩	الجلالان
الطبرسي	ج ٥	ص ٢٩٩ - ٣٠٥	الشوكاني
ابن عربي	ج ١	ص ٣٠٠ - ٣٠٢	الألوسي
البيضاوي	ج ٢	ص ١٣٠ - ١٣١	القاسمي
الخازن	ج ١	ص ٦٢٦ - ٦٢٨	محمد عبده
البغوي	ج ١	ص ٤٠٠ - ٤٠١	الطباطبائي
الماوردي	ج ١	ص ٥٤٦ - ٥٤٧	جوهري
القرطبي	ج ٦	ص ٢٠ - ٢٥	المراغي
			سيد قطب
			ج ٣
			ج ١
			ج ١
			ج ٦
			ج ٥
			ج ٦
			ج ٣
			ج ٦
			ج ٢
			ص ٤٠٠ - ٤٠٥
			ص ٥٨٩ - ٥٩١
			ص ١٣٢
			ص ٥٣٩ - ٥٤٣
			ص ٢٢ - ٢٨
			ص ٦٧٤ - ٦٨٦
			ص ٨١ - ١٠٠
			ص ١٤٧ - ١٥٣
			ص ١١٦ - ١١٨
			ص ٢٨ - ٣٥
			ص ٨١٤ - ٨٢٣

الطبري ج ٦ ص ٢٤ - ٢٥

فريق غلوا في الدين، فكان غلوهم فيه الشك فيه والرغبة عنه، وفريق منهم قصرُوا عنه، ففسقوا عن أمر ربهم. القول في تأويل قوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ما المسيح، أيها الغالون في دينهم، من أهل الكتاب، بآبَن الله كما تزعمون، ولكنه عيسى ابن مريم، دون غيرها من الخلق، لا نسب له غير ذلك. ثم نعتة الله جل ثناؤه بنعته ووصفه بصفته فقال: هو رسول الله أرسله الله بالحق إلى من أرسله إليه من خلقه. وأصل «المسيح»، «الممسوح» صرف من مفعول إلى فاعل. وسماه الله بذلك لتطهيره إياه من الذنوب. وقيل: مسح من الذنوب والأدناس التي تكون في الآدميين، كما يمسح الشيء من الأذى الذي يكون فيه، فيطهر منه. ولذلك قال مجاهد ومن قال مثل قوله: «المسيح» الصديق. وقد زعم بعض الناس أن أصل

القول في تأويل قوله ﴿يَتَّاهَلُ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿يَتَّاهَلُ الْكَتَبَ﴾ يا أهل الإنجيل من النصارى ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يقول: لا تجاوزوا الحق في دينكم ففترطوا فيه، ولا تقولوا في عيسى غير الحق، فإن قيلكم في عيسى إنه ابن الله، قول منكم على الله غير الحق. لأن الله لم يتخذ ولداً فيكون عيسى أو غيره من خلقه له ابناً ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾. وأصل «الغلو» في كل شيء مجاوزة حده الذي هو حده. يقال منه في الدين: «قد غلا فهو يغلو غلواً»، و«غلا بالجارية عظمها ولحمها»، إذا أسرع الشباب فجاوزت لداتها، «يغلو بها غلواً وغلأ»، ومن ذلك قول الحرث بن خالد المخزومي: خمصانة قلق موشحها

رؤد الشباب غلا بها عظم
وقد حدثنا المثنى... عن الربيع قال صاروا فريقين:

وقلت له ارفعها إليك وأحيها
 بروحك واقتنه لها قية قدراً
 وظاهر لها من بائس الشخت واستعن
 عليها الصبا واجعل يديك لها سترا
 ولما تنمت تأكل الزم لم تدع
 ذوابل مما يجمعون ولا خضرا
 فلما جرت للجزل جرياً كأنه
 سنا البرق أحدثنا لخالقها شكرا
 وقالوا يعني بقوله «أحيها بروحك» أي: أحيها
 بنفخك. وقال بعضهم يعني بقوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أنه كان
 إنساناً بإحياء الله له بقوله «كن» قالوا: وإنما معنى قوله
 ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ حياة منه بمعنى إحياء الله إياه بتكوينه.
 وقال بعضهم معنى قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ورحمة منه كما
 قال جل ثناؤه في موضع آخر: ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾
 [المجادلة: ٢٢] قالوا: ومعناه في هذا الموضع: ورحمة
 منه. قالوا: فجعل الله عيسى رحمة منه على من اتبعه
 وآمن به وصدقه لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد. وقال
 آخرون: معنى ذلك: وروح من الله خلقها فصورها، ثم
 أرسلها إلى مريم فدخلت في فيها، فصيرها الله تعالى روح
 عيسى عليه السلام. ذكر من قال ذلك: حدثني
 المثنى... عن أبي بن كعب في قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ
 بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الأعراف: ١٧٢] قال:
 أخذهم فجعلهم أرواحاً، ثم صورهم، ثم استنطقهم،
 فكان روح عيسى من تلك الأرواح التي أخذ عليها العهد
 والميثاق، فأرسل ذلك الروح إلى مريم، فدخل في فيها،
 فحملت الذي خاطبها، وهو روح عيسى عليه السلام.
 وقال آخرون: معنى «الروح» ههنا، جبريل عليه
 السلام. قالوا: ومعنى الكلام: وكلمته ألقاها إلى مريم،
 وألقاها أيضاً إليها روح من الله، قالوا: فـ«الروح» معطوف
 به على ما في قوله: ﴿أَلْقَاهَا﴾ من ذكر الله، بمعنى: أن
 إلقاء الكلمة إلى مريم كان من الله، ثم من جبريل عليه
 السلام. قال أبو جعفر: ولكل هذه الأقوال وجه ومذهب
 غير بعيداً من الصواب.

القول في تأويل قوله: ﴿فَكَايُومًا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا
 ثَلَاثَةً أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾. قال أبو جعفر: يعني

هذه الكلمة عبرانية أو سريانية «مسيحاً» فعربت فقيل:
 «المسيح» كما عرب سائر أسماء الأنبياء التي في القرآن
 مثل إسماعيل وإسحق وموسى وعيسى. قال أبو جعفر:
 وليس ما مثل به من ذلك للمسيح بنظير. وذلك أن
 إسماعيل وإسحق وما أشبه ذلك، أسماء لا صفات،
 والمسيح صفة. وغير جائز أن تخاطب العرب وغيرها من
 أجناس الخلق في صفة شيء إلا بمثل ما يفهم عمن
 خاطبها. ولو كان المسيح من غير كلام العرب، ولم تكن
 العرب تعقل معناه، ما خوطبت به. وقد أتينا من البيان عن
 نظائر ذلك فيما مضى بما فيه الكفاية عن إعادته. وأما
 «المسيح الدجال» فإنه أيضاً بمعنى: الممسوح العين،
 صرف من «مفعول إلى فعيل». فمعنى المسيح في عيسى
 ﷺ: الممسوح البدن من الأدناس والآثام، ومعنى المسيح
 في الدجال: الممسوح العين اليمنى أو اليسرى كالذي
 روى عن رسول الله ﷺ في ذلك. وأما قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ
 أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ فإنه يعني: بالكلمة الرسالة التي أمر الله
 ملائكته أن تأتي مريم بها، بشارة من الله، لها التي ذكر الله
 جل ثناؤه في قوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَكْمُرُ بِهِ إِنَّ اللَّهَ
 يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]: يعني: برسالة منه،
 وبشارة من عنده. وقد قال قتادة في ذلك ما: حدثنا به
 الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى
 مَرْيَمَ﴾ قال: هو قوله كن فكان. وقد بينا اختلاف
 المختلفين من أهل الإسلام في ذلك فيما مضى، بما أغنى
 عن إعادته في هذا الموضع. وقوله ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾
 يعني: أعلمها بها وأخبرها، كما يقال: «ألقيت إليك كلمة
 حسنة» بمعنى أخبرتك بها وكلمتك بها. وأما قوله:
 ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فإن أهل العلم اختلفوا في تأويله. فقال
 بعضهم: معنى قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ونفخة منه، لأنه
 حدث عن نفخة جبريل عليه السلام في درع مريم بأمر الله
 إياه بذلك، فنسب إلى أنه روح من الله لأنه بأمره كان.
 قال: وإنما سمي النفخ روحاً لأنها ريح تخرج من الروح،
 واستشهدوا على ذلك من قولهم بقول ذي الرمة في صفة
 نار نعتها.

فلما بدت كفتتها وهي طفلة
 بطلساء لم تكمّل ذراعاً ولا شبرا

منه بذلك على من ادعى أن المسيح ابنه، وأنه لو كان ابنه كما قالوا، لم يكن ذا حاجة إليه، ولا كان له عبداً مملوكاً، فقال: ﴿لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾، يعني: الله ما في السموات وما في الأرض من الأشياء كلها ملكاً وخلقاً، وهو يرزقهم ويقتوهم ويدبرهم، فكيف يكون المسيح ابناً لله، وهو في الأرض أو في السموات، غير خارج من أن يكون في بعض هذه الأماكن؟

وقوله: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، يقول: وحسب ما في السموات وما في الأرض بالله قيماً ومدبراً ورازقاً، من الحاجة معه إلى غيره.

القول في تأويل قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾، لن يأنف ولن يستكبر المسيح، ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ يعني: من أن يكون عبداً لله، كما:

حدثنا بشر بن معاذ... عن قتادة: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، لن يحتشم المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة. وأما قوله: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، فإنه يعني: ولن يستنكف أيضاً من الإقرار لله بالعبودية والإذعان له بذلك، رسله ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾، الذين قَرَّبَهُمُ اللهُ ورفع منازلهم على غيرهم من خلقه. وروى عن الضحاك أنه كان يقول في ذلك، ما:

حدثني به جعفر بن محمد البزوري قال، حدثنا يعلى بن عبيد، عن الأجلح قال: قلت للضحاك: ما ﴿الْمُقَرَّبُونَ﴾؟ قال: أقربهم إلى السماء الثانية.

القول في تأويل قوله: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾. قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بذلك: ومن يتعظم عن عبادة ربه، ويأنف من التذلل والخضوع له بالطاعة من الخلق كلهم، ويستكبر عن ذلك، ﴿فَسَيَحْشُرْهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾، يقول: فسيبعثهم يوم القيامة جميعاً، فيجمعهم لموعدهم عنده.

بقوله جل ثناؤه: ﴿فَكَاذِبُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾، فصدّقوا، يا أهل الكتاب، بوحدانية الله وربوبيته، وأنه لا ولد له، وصدّقوا رسله فيما جاءوكم به من عند الله، وفيما أخبرتكم به أن الله واحد لا شريك له، ولا صاحبة له، ولا ولد له، ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، يعني: ولا تقولوا: الأرباب ثلاثة.

ورفعت «الثلاثة»، بمحذوف دلّ عليه الظاهر، وهو «هم». ومعنى الكلام: ولا تقولوا هم ثلاثة. وإنما جاز ذلك، لأن «القول» حكاية، والعرب تفعل ذلك في الحكاية، ومنه قول الله: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف ٢٢]. وكذلك كل ما ورد من مرفوع بعد «القول» لا رافع معه، ففيه إضمار اسم رافع لذلك الاسم.

ثم قال لهم جل ثناؤه، متوعداً لهم في قولهم العظيم الذي قالوه في الله: ﴿انْتَهَوْا﴾، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، عما تقولون من الزور والشرك بالله، فإن الانتهاء عن ذلك خير لكم من قتله، لما لكم عند الله من العقاب العاجل لكم - على قيلكم ذلك، إن أقمتهم عليه، ولم تنبئوا إلى الحق الذي أمرتكم بالإقامة إليه - والآجل في معادكم. القول في تأويل قوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ لَمْ يَأْتِ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. قال أبو جعفر: يعني بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، ما الله، أيها القائلون: الله ثالث ثلاثة، كما تقولون، لأن من كان له ولد، فليس بإله. وكذلك من كان له صاحبة، فغير جائز أن يكون إلهاً معبوداً. ولكن الله الذي له الألوهة والعبادة، إله واحد معبود، لا ولد له، ولا والد، ولا صاحبة ولا شريك.

ثم نزه جل ثناؤه نفسه وعظمها ورفعها عما قال فيه أعداؤه الكفرة به فقال: ﴿سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾، يقول: علا الله وجل وعز وتعظم وتنزه عن أن يكون له ولد أو صاحبة.

ثم أخبر جل ثناؤه عباده: أن عيسى وأمه ومن في السموات ومن في الأرض، عبيد وإماؤه وخلق، وأنه رازقهم وخالقهم، وأنهم أهل حاجة وفاقة إليه، احتجاجاً

الزمخشري ج ١ ص ٥٨٤ - ٥٨٨

من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته خالصة. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها وحصلها فيها (ثلاثة) خبر مبتدأ محذوف، فإن صحت الحكاية عنهم أنهم يقولون هو جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وأنهم يريدون بأقنوم الأب الذات وبأقنوم الابن العلم وبأقنوم روح القدس الحياة، فتقديره الله ثلاثة وإلا فتقديره الآلهة ثلاثة، والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيخ ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم. ألا ترى إلى قوله - أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله - وقالت النصارى المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون في المسيح لاهوتية وناسوتية من جهة الأب والأم، ويدل عليه قوله - إنما المسيح عيسى ابن مريم - فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتها، وأن اتصاله بالله تعالى من حيث إنه رسوله، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب. فنفى أن يتصل به اتصال الأبناء بالأباء، وقوله ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾، وحكاية الله أوثق من حكاية غيره. ومعنى ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾ سبحه تسبيحاً من أن يكون له ولد؛ وقرأ الحسن ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ بكسر الهمزة ورفع النون: أي سبحانه ما يكون له ولد، على أن الكلام جملتان ﴿لَمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بيان لتنزهه عما نسب إليه: يعني أن كل ما فيهما خلقه وملكه فيكف يكون بعض ملكه جزءاً منه، على أن الجزء إنما يصح في الأجسام وهو متعال عن صفات الأجسام والأعراض - وكفى بالله وكيلاً - يكل إليه الخلق كلهم أمورهم فهو الغني عنهم وهم الفقراء إليه ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف ولن يذهب بنفسه عزة، من نكفت

الدمع إذا نحيت عن خدك بأصبعك ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم. فإن قلت: من أين دل قوله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ على أن المعنى ولا من فوقه؟ قلت: من حيث أن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك، وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية التصغير. وروي «أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا؟ قال: ومن صاحبكم قالوا: عيسى، قال: وأي شيء أقول؟ قالوا: تقول إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله، قالوا بلى، فنزلت»: أي لا يستنكف عيسى من ذلك فلا تستنكفوا له منه، فلو كان موضع استنكاف لكان هو أولى بأن يستنكف لأن العار ألصق به. فإن قلت: علام عطف قوله ولا الملائكة؟ قلت: لا يخلو إما أن يعطف على المسيح أو على اسم يكون، أو على المستتر في عبد لما فيه من معنى الوصف لدلالته على معنى العبادة كقولك: مررت برجل عبد أبوه، فالعطف على المسيح هو الظاهر لأداء غيره إلى ما فيه بعض انحراف عن الغرض، وهو أن المسيح لا يأنف أن يكون هو ولا من فوقه موصوفين بالعبودية، أو أن يعبد الله هو ومن فوقه. فإن قلت: قد جعلت الملائكة وهم جماعة عبد الله في هذا العطف فما وجهه؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد ولا كل واحد من الملائكة أو ولا الملائكة المقربون أن يكونوا عباداً لله، فحذف ذلك لدلالة عبد الله عليه إيجازاً، وأما إذا عطفهم على الضمير في عبد فقد طاح هذا السؤال...

الرازي ج ١١ ص ١١٤ - ١١٩

وقوله ﴿مِنَّة﴾ إضافة لذلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتعظيم...

ثم قال ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: واعلم أن مذهب النصارى مجهول جداً، والذي يتحصل منه أنهم أثبتوا ذاتاً موصوفة بصفات ثلاثة، إلا أنهم وإن سموها صفات فهي في الحقيقة ذوات، بدليل أنهم يجوزون عليها الحلول في عيسى وفي مريم بأنفسها، وإلا لما جوزوا عليها أن تحل في الغير وأن تفارق ذلك الغير مرة أخرى، فهم وإن كانوا يسمونها بالصفات إلا أنهم في الحقيقة يشبتون ذوات متعددة قائمة بأنفسها، وذلك محض الكفر، فلهذا المعنى قال تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوَ﴾ فأما إن حملنا الثلاثة على أنهم يشبتون صفات ثلاثة، فهذا لا يمكن إنكاره، وكيف لا نقول ذلك وإنا نقول: هو الله الذي لا إله إلا هو الملك القدوس السلام العالم الحي القادر المريد، ونفهم من كل واحد من هذه الألفاظ غير ما نفهمه من اللفظ الآخر، ولا معنى لتعدد الصفات إلا ذلك، فلو كان القول بتعدد الصفات كفراً لزم رد جميع القرآن ولزم رد العقل من حيث أنا نعلم بالضرورة أن المفهوم من كونه تعالى عالماً غير المفهوم من كونه تعالى قادراً أو حياً.

المسألة الثانية: قوله ﴿ثَلَاثَةً﴾ خبر مبتدأ محذوف، ثم اختلفوا في تعيين ذلك المبتدأ على وجوه الأول: ما ذكرناه، أي ولا تقولوا الأقانيم ثلاثة. الثاني: قال الزجاج: ولا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وذلك لأن القرآن يدل على أن النصارى يقولون: أن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، والدليل عليه قوله تعالى ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] الثالث: قال الفراء ولا تقولوا هم ثلاثة كقوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةً﴾ [الكهف: ٢٢] وذلك لأن ذكر عيسى ومريم مع الله تعالى بهذه العبارة يوهم كونهما إلهين، وبالجمله فلا نرى مذهباً في الدنيا أشد ركابة وبعداً عن العقل من مذهب النصارى.

قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا. لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَهُهُ جَمِيعًا.

فاعلم أنا فسرنا «الكلمة» في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥] والمعنى أنه وجد بكلمة الله وأمره من غير واسطة ولا نطفة كما قال ﴿إِنَّ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وأما قوله (وروح منه) ففيه وجوه: الأول: أنه جرت عادة الناس أنهم إذا وصفوا شيئاً بغاية الطهارة والنظافة قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى لم يتكون من نطفة الأب وإنما تكون من نفخة جبريل عليه السلام لا جرم وصف بأنه روح، والمراد من قوله (منه) التشريف والتفضيل كما يقال: هذه نعمة من الله، والمراد كون تلك النعمة كاملة شريفة. الثاني: أنه كان سبباً لحياة الخلق في أديانهم، ومن كان كذلك وصف بأنه روح. قال تعالى في وصفه القرآن ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] الثالث: روح منه أي رحمة منه، قيل في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة منه، وقال عليه الصلاة والسلام «إنما أنا رحمة مهداة» فلما كان عيسى رحمة من الله على الخلق من حيث أنه كان يرشداهم إلى مصالحهم في دينهم ودنياهم لا جرم سمي روحاً منه. الرابع: أن الروح هو النفخ في كلام العرب، فإن الروح والريح متقاربان، فالروح عبارة عن نفخة جبريل وقوله ﴿مِنَّة﴾ يعني أن ذلك النفخ من جبريل كان بأمر الله وإذنه فهو منه، وهذا كقوله ﴿فَنَفْخُكَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] الخامس: قوله ﴿رُوحٌ﴾ أدخل التنكير في لفظ (رُوح) وذلك يفيد التعظيم، فكان المعنى: وروح من الأرواح الشريفة القدسية العالية،

المسألة الثانية: روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: لم تعيب صاحبنا قال: ومن صاحبكم؟ قالوا عيسى: قال: وأي شيء قلت؟ قالوا تقول إنه عبد الله ورسوله، قال: إنه ليس بعار أن يكون عبد الله، فنزلت هذه الآية، وأنا أقول: إنه تعالى لما أقام الحجة القاطعة على أن عيسى عبد الله، ولا يجوز أن يكون ابناً له أشار بعده إلى حكاية شبهتهم وأجاب عنها، وذلك لأن الشبهة التي عليها يعملون في إثبات أنه ابن الله هو أنه كان يخبر عن المغيبات وكان يأتي بخوارق العادات من الأحياء والإبراء، فكانه تعالى قال ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾...

المسألة الثالثة: استدل المعتزلة بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر. وقد ذكرنا استدلالهم بها في تفسير قوله ﴿وَلِذَٰلِكَ فَتَنَّا لِّلْمَلَكِ كَآسَاجِدُوا لِلْأَدَمِ﴾ [طه: ١١٦] وأجبنا عن هذا الاستدلال بوجوه كثيرة، والذي نقول ههنا: إنا نسلم أن اطلاع الملائكة على المغيبات أكثر من اطلاع البشر عليها، ونسلم أن قدرة الملائكة على التصرف في هذا العالم أشد من قدرة البشر، كيف ويقال: إن جبريل قلع مدائن قوم لوط بريشة واحدة من جناحه إنما النزاع في أن ثواب طاعات الملائكة أكثر أم ثواب طاعات البشر، وهذه الآية لا تدل على ذلك البتة، وذلك لأن النصارى إنما أثبتوا إلهية عيسى بسبب أنه أخبر عن الغيوب وأتى بخوارق العادات. فإيراد الملائكة لأجل إبطال هذه الشبهة إنما يستقيم إذا كانت الملائكة أقوى حالاً في هذا العلم، وفي هذه القدرة من البشر، ونحن نقول بموجبه. فأما أن يقال: المراد من الآية تفضيل الملائكة على المسيح في كثرة الثواب على الطاعات فذلك مما لا يناسب هذا الموضع ولا يليق به، فظهر أن هذا الاستدلال إنما قوي في الأوهام لأن الناس ما لخصوا محل النزاع والله أعلم.

المسألة الرابعة: في الآية سؤال، وهو أن الملائكة معطوفون على المسيح فيصير التقدير: ولا الملائكة المقربون في أن يكونوا عبيداً لله وذلك غير جائز.

والجواب فيه وجهان: أحدهما: أن يكون المراد ولا كل واحد من المقربين. والثاني: أن يكون المراد ولا

ثم قال تعالى ﴿أَنْتَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ وقد ذكرنا وجه انتصابه عند قوله ﴿فَقَامُوا خَيْرًا لَّكُمْ﴾ [النساء: ١٧٠] ثم أكد التوحيد بقوله ﴿إِنَّمَا إِلَهُ الْوَاحِدُ﴾ ثم نزه نفسه عن الولد بقوله ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَمْ وَلَدٌ﴾ ودلائل تنزيه الله عن الولد قد ذكرناها في سورة آل عمران، وفي سورة مريم على الاستقصاء. وقرأ الحسن: إن يكون، بكسر الهمزة من «أن» ورفع النون من يكون، أي سبحانه ما يكون له ولد، وعلى هذا التقدير فالكلام جملتان.

ثم قال تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ واعلم أنه سبحانه في كل موضع نزه نفسه عن الولد ذكر كونه ملكاً ومالكاً لما في السموات وما في الأرض فقال في مريم ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] والمعنى: من كان مالكا لكل السموات والأرض ولكل ما فيها كان مالكا لعيسى ولمريم لأنهما كانا في السموات وفي الأرض، وما كانا أعظم من غيرهما في الذات والصفات، وإذا كان مالكا لما هو أعظم منهما فبأن يكون مالكا لهما أولى، وإذا كانا مملوكين له فكيف يعقل مع هذا توهم كونهما له ولداً وزوجة.

ثم قال ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ والمعنى أن الله سبحانه كافٍ في تدبير المخلوقات وفي حفظ المحدثات فلا حاجة معه إلى القول بإثبات إله آخر، وهو إشارة إلى ما يذكره المتكلمون من أنه سبحانه لما كان عالماً بجميع المعلومات قادراً على كل المقدورات كان كافياً في الإلهية، ولو فرضنا إلهاً آخر معه لكان معطلاً لا فائدة فيه، وذلك نقص، والناقص لا يكون إلهاً.

ثم قال تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال الزجاج: لن يستنكف أي لن يأنف، وأصله في اللغة من نكفت الدمع إذا نحيت بأصبعك عن خدك، فتأويل ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ أي لن يتنقص ولن يمتنع، وقال الأزهري: سمعت المنذري يقول: سمعت أبا العباس وقد سئل عن الاستنكاف فقال: هو من النكف، يقال ما عليه في هذا الأمر من نكف ولا وكف، والنكف أن يقال له سوء، واستنكف إذا دفع ذلك السوء عنه.

تفسير قوله ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ﴾ [البقرة: ٣٠].
ثم قال تعالى ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ والمعنى أن من استنكف عن عبادة الله واستكبر عنها فإن الله يحشرهم إليه أي يجمعهم إليه يوم القيامة حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً.
واعلم أنه تعالى لما ذكر أنه يحشر هؤلاء المستنكفين المستكبرين لم يذكر ما يفعل بهم بل ذكر أولاً ثواب المؤمنين المطيعين.

الطبرسي ج ٥ ص ٢٩٩ - ٣٠٥

من جماع أو نطفة كما جرت العادة بذلك عن أبي عبيدة.
والرابع: أن معناه «ورحمة منه» كما قال في موضع آخر ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] أي برحمة منه، فجعل الله عيسى رحمة على من آمن به واتبعه لأنه هداهم إلى سبيل الرشاد.

والخامس: أن معناه روح الله من الله خلقها فصورها ثم أرسلها إلى مريم فدخلت في قلبها فصيرها الله تعالى عيسى عن أبي العالية عن أبي بن كعب.

والسادس: أن معنى الروح ها هنا جبرائيل (ع) فتكون عطفاً على ما في ألفاها من ضمير ذكر الله، وتقديره ألقاها الله إلى مريم وروح منه أي من الله أي جبرائيل ألقاها أيضاً إليها ﴿فَتَأْمُرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أمرهم الله بتصديقه والإقرار بوحدانته وتصديق رسله فيما جاؤوا به من عنده، وفيما أخبرهم به من أن الله سبحانه لا شريك له ولا صاحبة ولا ولد...

وقد شبهوا قولهم جوهر واحد ثلاثة أقانيم بقولنا سراج واحد، ثم تقول ثلاثة أشياء: دهن وقطن ونار، وشمس واحدة وإنما هي جسم وضوء وشعاع، وهذا غلط بعيد لأننا لا نعني بقولنا سراج واحد أنه شيء واحد بل هو أشياء على الحقيقة، وكذلك الشمس، كما تقول حشرة واحدة، وإنسان واحد، ودار واحدة، وإنما هي أشياء متغايرة. فإن قالوا إن الله شيء واحد وإله واحد حقيقة فقولهم ثلاثة متناقضة، وإن قالوا إنه في الحقيقة أشياء مثل ما ذكرناه في الإنسان والسراج وغيرهما فقد تركوا القول بالتوحيد

الملائكة المقربون أن يكونوا عبيداً فحذف ذلك لدلالة قوله (عبد الله) عليه على طريق الإيجاز.

المسألة الخامسة قرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه (عبيد الله) على التصغير.

المسألة السادسة: قوله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يدل على أن طبقات الملائكة مختلفة في الدرجة والفضيلة فالأكابر منهم مثل جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل وحملة العرش، وقد شرحنا طبقاتهم في سورة البقرة في

﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ أرسله الله إلى الخلق لا كما زعمت الفرقان المبطلتان ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ يعني أنه حصل بكلمته التي هي قوله كن! عن الحسن وقتادة، وقيل معناه أنه يهتدي به الخلق كما اهتدوا بكلام الله ووحيه عن أبي علي الجبائي، وقيل معناه بشارة الله التي بشرتها مريم على لسان الملائكة كما قال: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ لِمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ﴾ [آل عمران: ٤٥]، وهو المراد بقوله (ألقاها إلى مريم) كما يقال ألقيت إليك كلمة حسن أي قلت، وقيل معنى ألقاها إلى مريم خلقها في رحمها عن الجبائي ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فيه أقوال:

أحدها: أنه إنما سماه روحاً لأنه حدث عن نفخة جبرائيل في درج مريم بأمر الله تعالى، وإنما نسبه إليه كان بأمر، وقيل إنه إضافة إلى نفسه تفخيماً لشأنه كما قال الصوم لي وأنا أجزي به، وقد يسمى النفخ روحاً واستشهد على ذلك بيت ذي الرمة يصف ناراً:

فقلت له ارفعها إليك واحيها

بروحك واقت لها قبضة قدرا

وظاهر لها من يابس الشخت واستعن

عليه الصبا واجعل يديك لها سترا

ومعنى احيها بروحك أي بنفخك، ويقال اقتت النار إذا

أطعمتها حطباً. والثاني: أن المراد به يحيي به الناس في دينهم كما يحيون بالأرواح عن الجبائي، فيكون المعنى أنه جعله نبياً يقتدى به ويستن بسنته ويهتدى بهده.

والثالث: أن معناه إنسان أحياء الله بتكوينه بلا واسطة

السموات وما في الأرض بالله قيماً ومدبراً ورازقاً، وقيل معناه وكفى بالله حافظاً لأعمال العباد حتى يجازيهم عليها، فهو تسليّة للرسول ووعيد للقائلين فيه سبحانه بما لا يليق به . . .

والتحقوا بالمشبهة، وإلا فلا واسطة بين الأمرين . . . فقال ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ ولفظة سبحانه تفيد التنزيه عما لا يليق به، أي هو منزّه عن أن يكون له ولد . . . ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ أي حسب ما في

ابن عربي ج ١ ص ٣٠٠ - ٣٠٢

موجود غيره فيتولد منه، ويفصل ويجانسه بأنه موجود مثله، بل هو الموجود من حيث هو وجود. ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ الأرواح «والأرض» الأجساد، بكونها أسماؤه، وظاهره، وباطنه. ﴿وَكَيْلًا﴾ يقوم مقام الخلق في أفعالهم، وصفاتهم، وذواتهم، عند فناءهم في التوحيد. كما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: (لا إله إلا الله بعد فناء الخلق).

﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ في مقام التفصيل، إذ باعتبار الجمع لا وجود للمسيح ولا لغيره، فلا ممكن أصلاً. وأما باعتبار التفصيل، فكل ما ظهر بتعين فهو ممكن، والممكن لا وجود له بنفسه فضلاً عن شيء غيره فيكون عبداً محتاجاً، ذليلاً مفتقراً غير مستنكف عن ذلة العبودية، وإن كان غنياً عن تعلق الأجسام بالتجرد المحض، والتقديس عن دنس الطبائع، كالملائكة المقربين، الذين هم الأرواح المجردة، والأنوار المحصورة. ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ بظهور أنيته «ويستكبر» بطغيانه في الظهور بصفاته. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَهُو جَمِيعًا﴾ بظهور نور وجهه، وتجليه بصفة قاهريته، حتى يفنوا بالكلية في عين الجمع . . .

﴿يَتَأَهَّلَ أَلَكْتَبِ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أما اليهود فبالتمعق في الظاهر ونفي البواطن، وحط عيسى عن درجة النبوة، ومقام الإتيان بصفات الربوبية. وأما النصارى فبالتمعق في البواطن ونفي الظواهر، ورفع عيسى إلى مقام الإلهية «ولا تقولوا على الله إلا الحق» بالجمع بين الظواهر والبواطن. والجمع والتفصيل، كما هو عليه التوحيد المحمدي، والقول بكون عيسى مظهراً للصفات الإلهية، حياً بحياته، داعياً إلى مقام توحيد الأوصاف، ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ نفساً مجردة هي كلمة من كلمات الله، أي حقيقة من حقائقه الروحانية، روحاً من أرواح. ﴿فَتَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ بالجمع والتفصيل ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ بزيادة الحياة، والعلم، على الذات، فيكون الإله ثلاثة أشياء، ويكون عيسى جزء من حياته بالنفخ، أو بالفرقة بين ذات الحق، وعالم النور، وعالم الظلمة، فيكون عيسى متولداً من نوره، بل قولوا: بالكل من حيث هو كل فيكون العلم، والحياة عن الذات، وكذا عالم النور والظلمة، ويكون عيسى فانياً فيه، موجوداً بوجوده، حياً بحياته، عالماً بعلمه، وذلك، وحدته الذاتية المعبر عنها بقوله: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَنَهُ﴾ نزهة أن يكون

البيضاوي ج ٢ ص ١٣٠ - ١٣١

﴿أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْفَرْقُونَ﴾ عطف على المسيح أي ولا يستنكف الملائكة المقربون أن يكونوا عبيد الله، واحتج به من زعم فضل الملائكة على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقال مساقه لرد قول النصارى في رفع المسيح عن مقام العبودية، وذلك يقتضي أن يكون المعطوف أعلى درجة من المعطوف عليه حتى يكون عدم استنكافهم كالدليل على عدم استنكافه. وجوابه أن الآية للرد على عبدة

. . . ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ من أن يكون عبداً له فإن عبوديته شرف يتباهى به، وإنما المذلة والاستنكاف في عبودية غيره روي أن وفد نجران قالوا لرسول الله ﷺ: «لم تعيب صاحبنا؟» قال رسول الله ﷺ: «ومن صاحبكم؟» قالوا: «عيسى عليه السلام»، قال عليه السلام: «وأي شيء أقول» قالوا: «تقول إنه عبد الله ورسوله» قال: «إنه ليس بعار أن يكون عبداً لله» قالوا: «بلى»؛ فنزلت ﴿وَلَا

والسلام، وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ﴾، ومن يرتفع عنها والاستكبار دون الاستنكاف ولذلك عطف عليه، وإنما يستعمل حيث لا استحقاق بخلاف التكبر فإنه قد يكون بالاستحقاق ﴿فَسَيَحْشُرُهُمُ إِلَهِ جَمِيعاً﴾ فيجازيهم.

المسيح والملائكة. فلا يتجه ذلك وإن سلم اختصاصها بالنصارى، فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير كقولك أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مروض وإن أراد به التكبير فغايته تفضيل المقربين من الملائكة وهم الكروبيون الذين هم حول العرش أو من أعلى منهم رتبة من الملائكة على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة

الخازن ج ١ ص ٦٢٦ - ٦٢٨

في جيب درع مريم فحملت بإذن الله. وإنما أضافه إلى نفسه بقوله منه لأنه وجد بأمر الله قال بعض المفسرين إن الله تعالى لما خلق أرواح البشر جعلها في صلب آدم عليه السلام، وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام، فلما أراد الله أن يخلقه أرسل بروحه مع جبريل إلى مريم، فنفخ في جيب درعها فحملت بعيسى عليه السلام، وقيل إن الروح والريح متقاربان في كلام العرب، فالروح عبارة عن نفخ جبريل عليه السلام، وقوله منه يعني إن ذلك النفخ كان بأمره وإذنه، وقيل أدخل النكرة في قوله وروح على سبيل التعظيم، والمعنى روح وأي روح من الأرواح القدسية العالية المطهرة، وقوله منه إضافته تلك الروح إلى نفسه لأجل التشريف والتكريم (ق) عن عبادة بن الصامت قال: قال رسول الله ﷺ «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبده ورسوله وكلمته ألهاها إلى مريم وروح منه، والجنة والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». وقوله تعالى ﴿فَأَمْسُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ يعني فصدقوا يا أهل الكتاب بوحدانية الله، وأنه لا ولد له، وصدقوا رسله فيما جاءكم به من عند الله، وصدقوا بأن عيسى عليه السلام من رسل الله فآمنوا به ولا تجعلوه إله... .

﴿لَمْ يَلَمَّْا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾... . والمعنى أن جميع ما في السموات والأرض خلقه وملكه فكيف يكون بعض ملكه جزء منه؟ لأن التجزئة إنما تصح في الأجسام والله تعالى منزّه عن صفات الأعراض والأجسام ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ يعني أنه تعالى كاف في تدبير جميع خلقه، فلا حاجة له إلى غيره، وكل الخلق محتاجون

قوله عز وجل ﴿يَتَأَهَّلَ آلُكَتَبٍ﴾ نزلت هذه الآية في النصارى، وذلك أن الله تعالى لما أجاب عن شبه اليهود فيما تقدم من الآية اتبع ذلك بإبطال ما تعتقده النصارى، وأصناف النصارى أربعة: اليعقوبية والملكانية والنسطورية والمرقوسية، فأما اليعقوبية والملكانية فقالوا في عيسى أنه الله وقالت النسطورية إنه ابن الله وقالت المرقوسية ثالث ثلاثة وقيل إنهم يقولون إن عيسى جوهر واحد ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم روح القدس، وإنهم يريدون بأقنوم الأب الذات، وبأقنوم الابن عيسى، وبأقنوم روح القدس الحياة الحالة فيه، فتقديره عندهم الإله ثلاثة، وقيل إنهم يقولون في عيسى ناسوتية وألوهية فناسوتيته من قبل الأم، وألوهيته من قبل الأب تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. يقال إن الذي أظهر هذا للنصارى رجل من اليهود يقال له بولص تنصر ودس هذا في دين النصارى ليضلهم بذلك، وستأتي قصته في سورة التوبة إن شاء الله تعالى، وقيل يحتمل أن يكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى جميعاً فإنهم غلوا في أمر عيسى عليه السلام. فأما اليهود فإنهم بالغوا في التقصير في أمره حتى حطوه عن منزلته حيث جعلوه مولوداً لغير رشدة، وغلّت النصارى في رفع عيسى عن منزلته ومقداره حيث جعلوه إلهاً... .

﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ هي قوله تعالى كن فكان بشراً من غير أب ولا واسطة ﴿أَلْقَيْنَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ يعني أوصلها إلى مريم، ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يعني أنه كسائر الأرواح التي خلقها الله تعالى، وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم كما يقال بيت الله، وناقة الله، وهذه نعمة من الله يعني أنه تفضل بها، وقيل الروح هو الذي نفخ فيه جبريل

الله تعالى عن هذه الشبهات التي وقعت للنصارى بأن عيسى من شرف قدره وكرامته لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وكذلك الملائكة المقربون فإنهم مع كرامتهم وعلو منزلتهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله. وقد يستدل بهذه الآية من يقول بتفضيل الملائكة على البشر، ووجه الدليل أن الله تعالى ارتقى من عيسى إلى الملائكة، ولا يرتقي إلا من الأدنى إلى الأعلى، ولا حجة لهم فيه، والجواب عنه أن الله تعالى لم يقل ذلك رفعاً لمقامهم على مقام البشر بل قاله رداً على من يقول إن الملائكة بنات الله، أو أنهم آلهة كما رد على النصارى قولهم إن المسيح ابن الله، وقاله أيضاً رداً على النصارى فإنهم يقولون بتفضيل الملائكة، يعني كما أن المسيح عبد الله فكذلك الملائكة عبيد الله. وقوله تعالى ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ﴾ يعني ومن يتعظم عن عبادة الله، ويأنف من التذلل لله والخضوع والطاعات من جميع خلقه. ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعاً﴾ يعني فسيبعثهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم حيث لا يملكون لأنفسهم شيئاً.

إليه، وفقراء إليه، وهو غني عنهم. وقوله تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ وذلك أن وفد نجران قالوا: «يا محمد إنك تعيب صاحبنا فتقول إنه عبد الله» فقال النبي ﷺ: «إنه ليس بعار على عيسى أن يكون عبد الله»، فنزلت لن يستنكف المسيح يعني لن يأنف، ولن يتعظم، والاستنكاف الاستكبار مع الأنفة، يقال: نكفت من كذا، واستنكفت منه، أي أنفت منه، وأصله من نكفت الشيء نحيته، ونكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك من خدك، والمعنى لن ينقبض ولن يمتنع ولن يأنف المسيح أن يكون عبد الله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ يعني ولن يستنكف الملائكة المقربون وهم حملة العرش، والكروبيون، وأفاضل الملائكة مثل: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل أن يكونوا عبيد الله لأنهم في ملكه، ومن جملة خلقه، وقيل لما ادعت النصارى في عيسى أنه ابن الله وذلك لما رأوا منه خوارق العادات من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك من المعجزات أجاب

القرطبي ج ٦ ص ٢٠ - ٢٥

وفي صحيح البخاري عنه عليه السلام: «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى وقولوا عبد الله ورسوله». قوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي لا تقولوا إن له شريكاً أو ابناً. ثم بين تعالى حال عيسى عليه السلام وصفته فقال: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾، المسيح رفع بالابتداء؛ و﴿عِيسَى﴾ بدل منه وكذا ﴿ابْنُ مَرْيَمَ﴾. ويجوز أن يكون خبر الابتداء ويكون المعنى: إنما المسيح ابن مريم. ودلّ بقوله ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على أن من كان منسوباً بوالدته كيف يكون إلهاً، وحق الإله أن يكون قديماً لا محدثاً. ويكون ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبراً بعد خبر.

الثانية: لم يذكر الله عز وجل امرأة سماها باسمها في كتابه إلا مريم ابنة عمران، فإنه ذكر اسمها في نحو من ثلاثين موضعاً لحكمة ذكرها بعض الأشياء، فإن الملوك والأشراف لا يذكر حرائرهم في الملأ، ولا يتدلون

قوله تعالى ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبُ لَا تَعْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ نهى عن الغلو. والغلو التجاوز في الحد؛ ومنه غلا السحر يغلو غلاء؛ وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرعت الشباب فجاوزت لدايتها، ويعني في ذلك فيما ذكره المفسرون غلو اليهود في عيسى حتى قذفوا مريم، وغلو النصارى فيه حتى جعلوه رباً، فالإفراط والتقصير كله سيئة وكفر، وكذلك قال مطرف بن عبدالله: الحسنة بين سيئتين؛ قال الشاعر:

وأوف ولا تستوف حقك كله

وصافح فلم يستوف قط كريم

ولا تغل في شيء من الأمر وأقتصد

كلاً طرفي قصدي الأمور ذميم

وقال آخر:

عليك بأوساط الأمور فإنها

نجاة ولا تركب ذلولا ولا صغبا

بسبب نفخة جبريل عليه السلام، ويُسمى النفخ روحاً لأنه ريح يخرج من الروح؛ قال الشاعر - هو ذو الرمة -:

فقلْتُ له ارفعها إليك وأحيها

بروحك واقتنه لها قيتة قدرا

... قوله تعالى ﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي آمنوا بأن

الله واحد خالق المسيح ومرسله، وآمنوا برسله ومنهم عيسى فلا تجعلوه إلهاً، ﴿وَلَا تَقُولُوا آلَهُنَّ﴾ أي لا تقولوا هم عن الزجاج. قال ابن عباس: يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبه وابنه. وقال الفراء وأبو عبيد: أي لا تقولوا هم ثلاثة؛ كقوله تعالى ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ [الكهف: ٢٢]. أبو

علي: التقدير ولا تقولوا هو ثالث ثلاثة؛ فحذف المبتدأ والمضاف. والنصارى مع فرقهم مجمعون على التثليث ويقولون: إن الله جوهر واحد وله ثلاثة أقانيم، فيجعلون كل أنوم إلهاً ويعنون بالأقانيم الوجود والحياة والعلم، وربما يعتبرون عن الأقانيم بالأب والابن وروح القدس؛ فيعنون بالأب الوجود، وبالروح الحياة، وبالابن المسيح، في كلام لهم فيه تحبُّط بيانه في أصول الدين. ومحصول كلامهم يثول إلى التمسك بأن عيسى إله بما كان يجريه الله سبحانه على يديه من خوارق العادات على حسب دواعيه وإرادته؛ وقالوا: قد علمنا خروج هذه الأمور عن مقدور البشر فينبغي أن يكون المقتدر عليها موصوفاً بالالهية، فيقال لهم: لو كان ذلك من مقدوراته وكان مستقلاً به كان تخليص نفسه من أعدائه ودفع شرهم عنه من مقدوراته، وليس كذلك؛ فإن اعترفت النصارى بذلك فقد سقط قولهم ودعواهم أنه كان يفعلها مستقلاً به؛ وإن لم يُسلموا ذلك فلا حجة لهم أيضاً؛ لأنهم معارضون بموسى عليه السلام، وما كان يجري على يديه من الأمور العظام، مثل قلب العصا ثعباناً، وقلبي البحر واليد البيضاء والمن والسلوى، وغير ذلك؛ وكذلك ما جرى على يد الأنبياء، فإن أنكروا ذلك فنكر ما يدعونه هم أيضاً من ظهوره على يد عيسى عليه السلام، فلا يمكنهم إثبات شيء من ذلك لعيسى؛ فإن طريق إثباته عندنا نصوص القرآن وهم ينكرون القرآن، ويكذبون من أتى به، فلا يمكنهم إثبات ذلك بأخبار التواتر. وقد قيل:

أسماءهنّ، بل يكنون عن الزوجة بالعزس والأهل والعيال ونحو ذلك؛ فإن ذكروا الإمام لم يكنوا عنهنّ ولم يصونوا أسماءهنّ عن الذكر والتصريح بها؛ فلما قالت النصارى في مريم ما قالت وفي ابنها صرح الله باسمها، ولم يكن عنها بالأمومة والعبودية التي هي صفة لها؛ وأجرى الكلام على عادة العرب في ذكر إمامها.

الثالثة: اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرّر ذكره منسوباً للأب استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقادُه من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله. والله أعلم.

قوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أي هو مكوّن بكلمة «كن» فكان بشراً من غير أب؛ والعرب تسمي الشيء باسم الشيء إذا كان صادراً عنه. وقيل: «كلمته» بشارة الله تعالى مريم عليها السلام، ورسالته إليها على لسان جبريل، وذلك قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ بِبَشِيرِكِ يَكَلِّمُ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥]. وقيل: «الكلمة» ههنا بمعنى الآية؛ قال الله تعالى ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ [التحریم: ١٢]، ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧]. وكان لعيسى أربعة أسماء؛ المسيح وعيسى وكلمة وروح، وقيل غير هذا مما ليس في القرآن. ومعنى ﴿أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أمر بها مريم.

قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ هذا الذي أوقع النصارى في الإضلال؛ فقالوا: عيسى جزء منه فجهلوا وضلّوا، وعنه أجوبة ثمانية: الأول: قال أبي بن كعب: خلق الله أرواح بني آدم لما أخذ عليهم الميثاق، ثم ردها إلى صلب آدم وأمسك عنده روح عيسى عليه السلام؛ فلما أراد خلقه أرسل ذلك الروح إلى مريم، فكان منه عيسى عليه السلام؛ فلماذا قال: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. وقيل: هذه الإضافة للتفضيل وإن كان جميع الأرواح من خلقه؛ وهذا كقوله: ﴿وَطَهَّرَ بَنِيَّ لِلطَّافِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. وقيل: قد يُسمى من تظهر منه الأشياء العجيبة روحاً، وتضاف إلى الله فيقال: هذا روح من الله أي من خلقه؛ كما يقال في النعمة إنها من الله. وكان عيسى يُبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى فاستحق هذا الاسم. وقيل: يُسمى روحاً

﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ لأنك إذا قلت: انته فأنته تخرجه من أمر وتدخله في آخر؛ وأنشد:

فَوَاعِدِيهِ سَرَخَتِي مَالِكِ

أو الرُّبَا بينهما أسهلاً ومذهب أبي عبيدة: إنتهوا يَكُنْ خيراً لكم؛ قال محمد بن يزيد: هذا خطأ، لأنه يضم الشَّروط وجوابه، وهذا لا يوجد في كلام العرب. ومذهب الفراء أنه نعت لمصدر محذوف، قال علي بن سليمان: هذا خطأ فاحش؛ لأنه يكون المعنى: إنتهوا الانتهاء الذي هو خير لكم. قوله تعالى ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحْدَهُ﴾ ابتداء وخبر؛ و«واحد» نعت له. ويجوز أن يكون «إله» بدلاً من اسم الله عز وجل و«واحد» خبره، التقدير إنما المعبود واحد. ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾ أي تنزيهاً عن أن يكون له ولد؛ فلما سقط «عن» كان «أن» في محل النصب بنزع الخافض؛ أي كيف يكون له ولد، وولد الرجل مُشَبَّه له، ولا شبهة لله عز وجل. ﴿لَمْ يَمَأْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فلا شريك له، وعيسى من جملة ما في السموات والأرض، وما فيهما مخلوق، فكيف يكون عيسى إلهاً وهو مخلوق! وإن جاز ولد فليجز أولاد حتى يكون كل من ظهرت عليه معجزة ولد له. ﴿وَكُنْ لِلَّهِ وَكِيلًا﴾ أي لأوليائه، وقد تقدّم. قوله تعالى ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ﴾ أي لن يأنف ولن يحتشم. ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ أي من أن يكون؛ فهو في موضع نصب. وقرأ الحسن: «إن يكون» بكسر الهمزة على أنها نفي هو بمعنى «ما» والمعنى ما يكون له ولد؛ وينبغي رفع يكون ولم يذكره الزّواة. ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أي من رحمة الله ورضاه؛ فدل بهذا على أن الملائكة أفضل من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين. وكذا ﴿وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلِكٌ﴾ [هود: ٣١] وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى في «البقرة». ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ﴾ أي يأنف ﴿عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ﴾ فلا يفعلها. ﴿فَسَيَحْشَرُهُمْ إِلَيَّ﴾ أي إلى المحشر. ﴿جَمِيعًا﴾ فيجازي كلًا بما يستحق، كما بيّنه الآية بعد هذا.

إن النصارى كانوا على دين الإسلام إحدى وثمانين سنة بعدما رُفع عيسى؛ يُصَلُّون إلى القبلة، ويصومون شهر رمضان، حتى وقع فيما بينهم وبين اليهود حرب، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بُولس، قتل جماعة من أصحاب عيسى فقال: إن كان الحق مع عيسى فقد كَفَرْنَا وجحدنا والنار مصيرنا، ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار؛ وإني أحتال فيهم فأضلّهم فيدخلون النار؛ وكان له فرس يقال له العُقاب، فأظهر الندامة ووضع على رأسه التراب وقال للنصارى: أنا بُولس عدوكم قد نوديت من السماء أن ليست لك توبة إلا أن تنتصر، فأدخلوه في الكنيسة بيتاً فأقام فيه سنة لا يخرج ليلاً ولا نهاراً حتى تعلّم الإنجيل؛ فخرج وقال: نوديت من السماء أن الله قد قبل توبتك فصّدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم نشطوراً وأعلمه أن عيسى ابن مريم إله، ثم توجه إلى الرّوم وعمهم اللاّهوت والتّاسوت وقال: لم يكن عيسى بإنس فتأنّس ولا بجسم فتجسّم ولكنه ابن الله. وعلم رجلاً يقال له يعقوب ذلك؛ ثم دعا رجلاً يقال له الملك فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال لعيسى؛ فلما استمكن منهم دعا هؤلاء الثلاثة واحداً واحداً وقال له: أنت خالستي ولقد رأيت المسيح في النوم ورّضي عني، وقال لكل واحد منهم: إني غداً أذبح نفسي وأتقرّب بها، فادع الناس إلى نحلتي، ثم دخل المذبح فذبح نفسه؛ فلما كان يوم ثالثه دعا كل واحد منهم الناس إلى نحلته، فتبع كل واحد منهم طائفة، فاقتتلوا واختلفوا إلى يومنا هذا، فجميع النصارى من الفرق الثلاث؛ فهذا كان سبب شركهم فيما يقال؛ والله أعلم. وقد رويت هذه القصة في معنى قوله تعالى ﴿فَأَعَزَّتْهُمْ بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ [المائدة: ١٤]. وسيأتي إن شاء الله تعالى قوله تعالى ﴿أَنْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾ «خيراً» منصوب عند سيبويه بإضمار فعل؛ كأنه قال انتوا خيراً لكم؛ لأنه إذا نهاهم عن الشّرك فقد أمرهم بإتيان ما هو خير لهم؛ قال سيبويه: وفيما ينتصب على إضمار الفعل المتروك إظهاره

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٠٠ - ٤٠٥

﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ وهو تنزيهه عن الشريك والولد، والحلول والاتحاد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا ابْنُ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾. قرأ جعفر بن محمد ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ﴾ على وزن السكيت، وتقدم شرح الكلمة في ﴿يَكَلِمَةُ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ﴾ [آل عمران: ٤٥] ومعناها ﴿أَلْقَاهَا ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أوجد هذا الحادث في مريم وحصله فيها، وهذه الجملة قيل: حال، وقيل: صفة على تقدير نية الانفصال، أي: وكلمة منه، ومعنى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: صادرة لأنه ذو روح، وجد من غير جزء من ذي روح كالنطفة المنفصلة من الأب الحي، وإنما اخترع اختراعاً من عند الله وقدرته. وقال أبي بن كعب: عيسى روح من أرواح الله تعالى الذي خلقها واستنطقها بقوله ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾ [الأعراف: ١٧٢] بعثه الله إلى مريم فدخل. وقال الطبري وأبو روق ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره وأنشد بيت ذي الرمة:

فقلت له اضممها إليك وأحيها

بسروحك واجعله لها قينة قدرا

يصف سقط النار، وسمي روحاً لأنه حدث عن نفخة جبريل. وقيل ومعنى ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: رحمة ومنه ﴿وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] وقيل سمي روحاً لإحياء الناس به كما يحيون بالأرواح، ولهذا سمي القرآن روحاً. وقيل: المعنى بالروح هنا الوحي، أي ووحى إلى جبريل بالنفخ في درعها، أو إلى ذات عيسى إن كن ونكر ﴿وَرُوحٌ﴾ لأن المعنى على تقدير صفة لا على إطلاق روح، أي: وروح شريفة نفيسة من قبله تعالى ﴿وَمَنْ﴾ هنا لابتداء الغاية، وليست للتبويض كما فهمه بعض النصارى، فادعى أن عيسى جزء من الله تعالى، فرد عليه علي بن الحسين بن وافد المروزي، حين استدلل النصراني بأن في القرآن ما يشهد لمذهبه، وهو قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فأجابه ابن وافد بقوله ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال: إن

كان يجب بهذا أن يكون عيسى جزءاً منه، وجب أن يكون ما في السموات وما في الأرض جزءاً منه، فانقطع النصراني وأسلم، وصف ابن فايد إذا ذاك كتاب النظائر ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما السلام ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أي: الآلهة ثلاثة. قال الزمخشري والذي يدل عليه القرآن التصريح منهم بأن الله والمسيح ومريم ثلاثة آلهة، وأن المسيح ولد الله من مريم ألا ترى إلى قوله ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] وقالت النصارى: المسيح ابن الله، والمشهور المستفيض عنهم أنهم يقولون: في المسيح لاهوتيته وناسوتيته من جهة الأب والأم، ويدل عليه قوله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ فأثبت أنه ولد لمريم اتصل بها اتصال الأولاد بأمهاتهم، وأن اتصاله بالله عز وجل من حيث أنه رسوله، وأنه موجود بأمره وابتداعه جسداً حياً من غير أب ينفي أنه يتصل به اتصال الأبناء بالأباء، وقوله ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [المائدة: ١٧١] وحكاية الله أوثق من حكاية غيره، وهذا الذي رجحه الزمخشري قول ابن عباس قاله، يريد بالتثليث الله تعالى وصاحبه وابنه.

وقال ابن عطية: يحتمل أن يكون التقدير: المعبود ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة، أو الأفانيم ثلاثة، وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى، فإنه يختلف بحسب ذلك التقدير انتهى. وقال الزجاج: تقديره إلها ثلاثة. وقال الفراء وأبو عبيد: تقديره ثلاثة كقوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾ وقال أبو علي: التقدير: الله ثالث ثلاثة، حذف المبتدأ والمضاف انتهى أراد أبو علي موافقة قوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] أي: أحد آلهة ثلاثة، والذي يظهر أن الذي أثبتوه هو ما أثبت في الآية خلافه، والذي أثبت في الآية بطريق الحصر إنما هو وحدانية الله تعالى، وتنزيهه أن يكون له ولد، فيكون التقدير: ولا تقولوا الله ثلاثة، ويترجح قول أبي علي بموافقة الآية التي ذكرناها، وبقوله تعالى ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ

يَكُونُ لَكُمْ وَلَدٌ»، والنصارى وإن اختلفت فرقة فهم مجمعون على التثليث، «أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ» تقدم الكلام في انتصاب «خَيْرًا». وقال الزمخشري: في تقدير مذهب سيبويه في نصبه لما بعثهم على الإيمان يعني في قوله «فَقَامُوا خَيْرًا لَّكُمْ» [النساء ١٧٠] وعلى الانتهاء عن التثليث يعني في قوله «أَنْتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ» علم أنه يحملهم على أمر، فقال: «خَيْرًا لَّكُمْ» أي: اقصدوا وأتوا خيراً لكم مما أنتم فيه من الكفر والتثليث، وهو الإيمان والتوحيد انتهى، وهو تقدير سيبويه في الآية «إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَحْدَهُ» قال ابن عطية: إنما في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة «إِنَّمَا» تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر والمبالغة في الصفة، وإن لم يكن حصر نحو إنما الشجاع عنترة وغير ذلك انتهى كلامه، وقد تقدم كلامنا مشبعاً في

«إِنَّمَا» في قوله «إِنَّمَا تَحْنُ مُصْلِحُونَ» [البقرة: ١١] وكلام ابن عطية فيها هنا: إنها لا تقتضي بوضعها الحصر صحيح، وإن كان خلاف ما في أذهان كثير من الناس «سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونُ لَكُمْ وَلَدٌ» معناه: تنزيهاً له، وتعظيماً من أن يكون له ولد، كما تزعم النصارى في أمره، إذ قد نقلوا أبوة الحنان والرافة إلى أبوة النسل. وقرأ الحسن «أَنْ يَكُونُ لَكُمْ وَلَدٌ» بكسر الهمزة وضم النون من يكون، على أن «إِنْ» نافية، أي: ما يكون له ولد، فيكون التنزيه عن التثليث، والإخبار بانتفاء الولد، فالكلام جملتان، وفي قراءة الجماعة واحدة، «لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ» أخبار لملكه بجميع من فيهن، فيستغرق ملكه عيسى وغيره، ومن كان ملكاً لا يكون جزءاً من المالك، على أن الجزئية لا تصح إلا في الجسم، والله تعالى منزّه عن الجسم والعرض...

ابن كثير ج ١ ص ٥٨٩ - ٥٩١

«أيها الناس عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان أنا محمد بن عبد الله عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» تفرد به من هذا الوجه. وقوله تعالى «وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ» أي لا تفتروا عليه وتجعلوا له صاحبة وولداً تعالى الله عز وجل عن ذلك علواً كبيراً، وتنزه، وتقدس، وتوحد في سؤده وكبريائه وعظمته، فلا إله إلا هو ولا رب سواه، ولهذا قال «إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» أي إنما هو عبد من عباد الله وخلق من خلقه، قال له كن فكان، ورسول من رسله، وكلمته ألقاها إلى مريم، أي خلقه بالكلمة التي أرسل بها جبريل عليه السلام إلى مريم، فنفخ فيها من روحه بإذن ربه عز وجل، فكان عيسى بإذنه عز وجل، وكانت تلك النفخة التي نفخها في جيب درعها، فنزلت حتى ولجت فرجها بمنزلة لقاح الأب والأم، والجميع مخلوق لله عز وجل، ولهذا قيل لعيسى إنه كلمة الله وروح منه، لأنه لم يكن له أب تولد منه وإنما هو ناشئ عن الكلمة التي قال له بها كن فكان، والروح التي أرسل بها

ينهى تعالى أهل الكتاب عن الغلو والإطراء، وهذا كثير في النصارى فإنهم تجاوزوا الحد في عيسى حتى رفعوه فوق المنزلة التي أعطاه الله إياها، فنقلوه من حيز النبوة إلى أن اتخذوه إلهاً من دون الله يعبدونه كما يعبدونه. بل قد غلوا في أتباعه وأشياعه ممن زعم أنه على دينه، فادعوا فيهم العصمة واتبعوهم في كل ما قالوه، سواء كان حقاً أو باطلاً، أو ضلالاً أو رشاداً، أو صحيحاً أو كذباً، ولهذا قال الله تعالى «اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ» [التوبة: ٣١] الآية. وقال الإمام أحمد... عن عمر: أن رسول الله ﷺ قال «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، ثم رواه هو وعلي بن المديني عن الزهري كذلك، ولفظه «إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله» وقال علي بن المديني... هذا حديث صحيح مسند، وهكذا رواه البخاري... عن الزهري به ولفظه «فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»، وقال الإمام أحمد... عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمد يا سيدنا وابن سيدنا وخيرنا وابن خيرنا، فقال رسول الله ﷺ

جبريل . قال الله تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَشْرُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ مِنَ الطَّعَامِ ﴾ [المائدة: ٧٥] وقال تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٥٩] ، وقال تعالى ﴿ وَالَّتِي أَحْصَيْتُ فَتْحَهَا فَقَفَعْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٩١] ، وقال تعالى ﴿ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَيْتُ فَتْحَهَا ﴾ [التحریم: ١٢] إلى آخر السورة ، وقال تعالى إخباراً عن المسيح ﴿ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ ﴾ [الزخرف: ٥٩] الآية . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ هو كقوله ﴿ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] وقال ابن أبي حاتم . . عن شاذ بن يحيى يقول في قول الله ﴿ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ﴾ قال : ليس الكلمة صارت عيسى ، ولكن بالكلمة صار عيسى هذا أحسن مما ادعاه ابن جرير في قوله ﴿ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ ﴾ أي : أعلمها بها كما زعمه في قوله ﴿ إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يَبْشُرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ [آل عمران: ٤٥] أي يعلمك بكلمة منه ويجعل ذلك كقوله تعالى ﴿ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ﴾ [القصص: ٨٦] بل الصحيح أنها الكلمة التي جاء بها جبريل إلى مريم فنفتح فيها بإذن الله فكان عيسى عليه السلام . وقال البخاري . . . عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال : « من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله وأن عيسى عبد الله ورسوله ، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل » ، وقال الوليد . . . عن جنادة زاد « من أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء » ، وكذا رواه مسلم . . . عن ابن جابر به ، ومن وجه آخر عن الأوزاعي به فقوله في الآية والحديث «روح منه» كقوله ﴿ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ ﴾ [الجنات: ١٣] ، أي من خلقه ومن عنده ، وليست من للتبويض كما تقوله النصارى عليهم لعائن الله المتتابعة ، بل هي لابتداء الغاية كما في الآية الأخرى ، وقد قال مجاهد في قوله ﴿ وَرُوحٌ

مِنْهُ ﴾ أي ورسول منه وقال غيره ومجبة منه ، والأظهر الأول وهو أنه مخلوق من روح مخلوقة ، وأضيفت الروح إلى الله على وجه التشريف كما أضيفت الناقة والبيت إلى الله في قوله ﴿ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ ﴾ [الأعراف: ٧٣] وفي قوله ﴿ وَطَهَّرَ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ ﴾ [الحج: ٢٦] وكما روي في الحديث الصحيح «فأدخل على ربي في داره» أضافها إليه إضافة تشريف ، وهذا كله من قبيل واحد ونمط واحد وقوله ﴿ فَكَلِمَتُا بِاللَّهِ وَرُسُلُهُ ﴾ أي : فصدقوا بأن الله واحد أحد لا ولد له ولا صاحبة ، واعلموا وتيقنوا بأن عيسى عبد الله ورسوله ، ولهذا قال تعالى ﴿ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ﴾ أي : لا تجعلوا عيسى وأمه مع الله شريكين ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وهذه الآية والتي في سورة المائدة حيث يقول تعالى ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣] وكما قال في آخر السورة المذكورة ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكْفِي عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية ، وقال في أولها ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧] الآية ، والنصارى عليهم لعائن الله من جهلهم ، وليس لهم ضابط ، ولا لكفرهم حد بل أقوالهم وضلالهم منتشر ، فمنهم من يعتقد إلهاً ، ومنهم من يعتقد شريكاً ، ومنهم من يعتقد ولداً ، وهم طوائف كثيرة لهم آراء مختلفة ، وأقوال غير مؤتلفة . ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال لو اجتمع عشرة من النصارى لافترقوا عن أحد عشر قولاً . ولقد ذكر بعض علمائهم المشاهير عندهم وهو سعيد بن بطريق بترك الإسكندرية في حدود سنة أربعمائة من الهجرة النبوية أنهم اجتمعوا المجمع الكبير الذي عقدوا فيه الأمانة الكبيرة التي لهم ، وإنما هي الخيانة الحقيرة الصغيرة ، وذلك في أيام قسطنطين باني المدينة المشهورة ، وأنهم اختلفوا عليه اختلافاً لا ينضبط ولا ينحصر ، فكانوا أزيد من ألفين أسقفاً ، فكانوا أحزاباً كثيرة كل خمسين منهم على مقالة ، وعشرون على مقالة ، ومائة على مقالة ، وسبعون على مقالة ، وأزيد من ذلك وأنقص . فلما رأى منهم عصابة قد زادوا على الثلاثمائة بثمانية عشر نفر ، وقد توافقوا على

﴿الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾
وقد استدل بعض من ذهب إلى تفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية حيث قال ﴿وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، وليس له في ذلك دلالة لأنه إنما عطف الملائكة على المسيح، لأن الاستنكاف هو الامتناع، والملائكة أقدر على ذلك من المسيح، فلهذا قال ﴿وَلَا الْمَلَكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾، ولا يلزم من كونهم أقوى وأقدر على الامتناع أن يكونوا أفضل. وقيل إنما ذكروا لأنهم اتخذوا آلهة مع الله كما اتخذ المسيح فأخبر تعالى أنهم عبيد من عباده، وخلق من خلقه كما قال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] الآيات ولهذا قال ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم إليه يوم القيامة ويفصل بينهم بحكمه العدل الذي لا يجور فيه ولا يحيف.

مقالة فأخذها الملك ونصرها وأيدها، وكان فيلسوفاً داهية، ومحق ما عداها من الأقوال، وانتظم دست أولئك الثلاثمائة والثمانية عشر، وبنيت لهم الكنائس، ووضعوا لهم كتباً وقوانين، وأحدثوا فيها الأمانة التي يلقونها الولدان من الصغار ليعتقدوها ويعمدونهم عليها وأتباع هؤلاء هم الملكانية. ثم إنهم اجتمعوا مجمعاً ثانياً فحدث فيهم اليعقوبية، ثم مجمعاً ثالثاً فحدث فيهم النسطورية، وكل هذه الفرق تثبت الأقياس الثلاثة في المسيح، ويختلفون في كيفية ذلك، وفي اللاهوت والناسوت على زعمهم هل اتحدا، أو ما اتحدا، أو امتزجا، أو حل فيه على ثلاث مقالات، وكل منهم يكفر الفرقة الأخرى، ونحن نكفر الثلاثة . . .

قال ابن أبي حاتم حدثنا . . . عن ابن عباس قوله ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ﴾ لن يستكبر. وقال قتادة: لن يحتشم

الشوكاني ج ١ ص ٥٣٩ - ٥٤٣

مريم ﴿حال، أي كونه بقوله كن فكان بشراً من غير أب، وقيل (كلمته) بشارة الله مريم ورسالته إليها على لسان جبريل بقوله ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَكَةُ يَمْرُؤُا إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقيل الكلمة ها هنا بمعنى الآية، ومنه ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَتِ رَبِّهَا﴾ [التحریم: ١٢] وقوله ﴿مَا نَفَذْتُ كَلِمَتُ اللَّهِ﴾ [لقمان: ٢٧] ﴿فَكَا مَوْءَا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي بأنه سبحانه إله واحد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وبأن رسله صادقون مبلغون عن الله ما أمرهم بتبليغه، ولا تكذبهم ولا تغلوا فيهم، فتجعلوا بعضهم آلهة. قوله ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ ارتفاع ثلاثة على أنه خبر مبتدأ محذوف قال الزجاج: أي لا تقولوا آلهتنا ثلاثة، وقال الفراء وأبو عبيد: أي لا تقولوا هم ثلاثة كقوله - سيقولون ثلاثة - وقال أبو علي الفارسي: لا تقولوا هو ثالث ثلاثة، فحذف المبتدأ والمضاف، والنصارى مع تفرق مذاهبهم متفقون على التثليث، ويعنون بالثلاثة: الثلاثة الأقياس، فيجعلونه سبحانه جوهرأ واحداً له ثلاثة أقانيم، ويعنون بالأقانيم أقنوم الوجود، وأقنوم الحياة، وأقنوم العلم، وربما يعبرون عن

﴿يَتَّاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ الغلو: هو التجاوز في الحد ومنه غلا السعر يغلو غلاء، وغلا الرجل في الأمر غلواً، وغلا بالجارية لحمها وعظمها إذا أسرع الشباب فجاوزت لحداتها. والمراد بالآية: النهي لهم عن الإفراط تارة والتفريط أخرى، فمن الإفراط غلو النصارى في عيسى حتى جعلوه ربا، ومن التفريط غلو اليهود فيه عليه السلام حتى جعلوه لغير رشدة، وما أحسن قول الشاعر:

ولا تغل في شيء من الأمر واقتصد

كلا طرفي قصد الأمور ذميم
﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقُّ﴾ وهو ما وصف به نفسه ووصفته به رسله، ولا تقولوا الباطل كقول اليهود عزيز ابن الله، وقول النصارى المسيح ابن الله ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾، المسيح مبتدأ، وعيسى بدل منه، وابن مريم صفة لعيسى، ورسول الله الخبر، ويجوز أن يكون عيسى ابن مريم عطف بيان، والجملة تعليل للنهي، وقد تقدم الكلام على المسيح في آل عمران. قوله ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ عطف على رسول الله، ﴿وَأَقْلَنَهَا إِلَى

وحاصل ما فيها جميعاً أن كل واحد من هؤلاء الأربعة ذكر سيرة عيسى من عند أن بعثه الله إلى أن رفعه إليه، وذكر ما جرى له من المعجزات والمراجعات لليهود ونحوهم، فاختلفت ألفاظهم، واتفقت معانيها، وقد يزيد بعضهم على بعض بحسب ما يقتضيه الحفظ والضبط، وذكر ما قاله عيسى وما قيل له، وليس فيها من كلام الله سبحانه شيء، ولا أنزل على عيسى من عنده كتاباً، بل كان عيسى عليه السلام يحتج عليهم بما في التوراة ويذكر أنه لم يأت بما يخالفها، وهكذا الزبور فإنه من أوله إلى آخره من كلام داود عليه السلام. وكلام الله أصدق، وكتابه أحق، وقد أخبرنا أن الإنجيل كتابه أنزله على عبده ورسوله عيسى ابن مريم، وأن الزبور كتابه آتاه داود وأنزله عليه.

الأقانيص بالأب والابن وروح القدس، فيعنون بالأب الوجود وبالروح الحياة وبالأبْن المسيح. وقيل المراد بالآلهة الثلاثة: الله سبحانه وتعالى، ومريم، والمسيح. وقد اختبئ النصارى في هذا اختباطاً طويلاً.

ووقفنا في الأناجيل الأربعة التي يطلق عليها عندهم اسم الإنجيل على اختلاف كثير في عيسى: فتارة يوصف بأنه ابن الإنسان، وتارة يوصف بأنه ابن الله، وتارة يوصف بأنه ابن الرب، وهذا تناقض ظاهر وتلاعب بالدين. والحق ما أخبرنا الله به في القرآن، وما خالفه في التوراة، أو الإنجيل، أو الزبور، فهو من تحريف المحرّفين، وتلاعب المتلاعبين. ومن أعجب ما رأيناه أن الأناجيل الأربعة كل واحد منها منسوب إلى واحد من أصحاب عيسى عليه السلام.

القاسمي ج ٥ ص ٦٧٤ - ٦٨٦

هو (كن) من غير واسطة أب ولا نطفة ﴿أَلْقَدَهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾، أي: أوصلها إليها وحصلها فيها بنفخ جبريل عليه السلام ﴿وَزُوَّجُ مِنْهُ﴾، أي بتخليقه وتكوينه كسائر الأرواح المخلوقة، وإنما أضافه إلى نفسه على سبيل التشريف والتكريم. كما يقال: بيت الله، وناق الله. وقيل: الروح هو نفخ جبريل عليه السلام في جيب درع مريم، فحملت بإذن الله. سمي النفخ روحاً لأنه ربح تخرج من الروح، وإنما أضافه إلى نفسه لأنه وجد بأمره تعالى وإذنه.

قال أبو السعود: (من) لابتداء الغاية مجازاً، لا تبعيضية، كما زعمت النصارى. يحكى أن طبيباً نصرانياً للرشد، ناظر علي بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم، فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية. فقرأ الواقدي: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ﴾ [البقرة: ١٣]. فقال: إذن يلزم أن يكون جميع تلك الأشياء جزءاً منه، تعالى علواً كبيراً، فانقطع النصراني وأسلم. وفرح الرشيد فرحاً شديداً، ووصل الواقدي بصلة فاخرة. وقيل: سمي روحاً، لإحيائه الموتى بإذن الله. وقيل: لإحيائه القلوب.

﴿يَتَاهَلُ الْكِتَابَ لَا تَقْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ أي: بالإفراط في رفع شأن عيسى عليه السلام وادعاء الوهيته. فإنه تجاوز فوق المنزلة التي أوتيتها، وهي الرسالة. واستفاد حرمة الغلو في الدين وهو مجاوزة الحد. وفي الصحيح عن عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله». وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى... عن أنس بن مالك أن رجلاً قال: يا محمداً يا سيدنا وابن سيدنا! وخيرنا وابن خيرنا! فقال رسول الله ﷺ: «أيها الناس! عليكم بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله! ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل».

قال ابن كثير: تفرد به من هذا الوجه، ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي: لا تصفوه بما يستحيل اتصافه به من الحلول والاتحاد واتخاذ الصاحبة والولد، بل نزوه عن جميع ذلك ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة له مفيدة لبطلان ما وصفوه به من كونه ابناً لله تعالى ﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ خبر المبتدأ أعني المسيح، أي: مقصور على مقام الرسالة لا يتخطاه ﴿وَكَلِمَتُهُ﴾ أي: مكوّن بكلمته وأمره الذي

يعترفون بأن الثلاثة آلهة، ثم يناقضون قولهم وينكرون ذلك.

ونقل العلامة الشيخ رحمة الله الهندي في كتابه (إظهار الحق) عن صاحب (ميزان الحق) النصراني أنه قال: نحن لا نقول: إن الله ثلاثة أشخاص أو شخص واحد. بل نقول بثلاثة أقانيم الوحدة. وبين الأقانيم الثلاثة وثلاثة أشخاص بُعد السماء والأرض. انتهى.

قال رحمة الله: وهذه مغالطة صرفة، لأن الموجود لا يمكن أن يوجد بدون الشخص. فإذا فرض أن الأقانيم موجودون وممتازون بالامتياز الحقيقي، كما صرح هو بنفسه في كتبه، فالقول بوجود الأقانيم الثلاثة هو بعينه القول بوجود الأشخاص الثلاثة. على أنه وقع في الصحيفة التاسعة والعشرين من كتاب الصلاة، الرائج في كنيسة انكلترا، المطبوع سنة (١٨١٨) ما ترجمته: أيها الثلاثة المقدسون والباركون والعالون منزلة، الذين هم واحد. يعني ثلاثة أشخاص وإلهاً واحداً، فوقع فيه ثلاثة أشخاص صريحاً. وكذلك مملوءة بعبارات مصرحة بأن عيسى ابن الله، وأنه الله، وأن مريم أم الله وزوجة الله، ويسجدون لها ولصورتها السجود المحرّم في كتبهم لغير الله، كما يسجدون لله. نسأله سبحانه وتعالى الحفاظ، ونعوذ به من الخذلان وتسويلات الشيطان.

ولقد شفى الغليل الأستاذ الجيل الشيخ رحمة الله في (إظهار الحق) فساق، في الباب الرابع منه، إبطال التثليث بالبراهين الدامغة والحجج البالغة. كما رد عليهم من المسلمين ومن أسلم منهم عدد وافر بفوت الحصر. وقد انتشر، والله الحمد، في ذلك مؤلفات نافعة، بل رد عليهم فرق كثيرة منهم، فقد جاء في كتاب (الرأي الصواب وفصل الخطاب) للقس جبارة ما صورته: إن المسيحيين الموحدين الذين ظهروا منذ (٨٠) سنة في أميركا ولهم الآن ثلاثمائة كنيسة والدرجة الأولى في المعارف والمدارس والاجتماعات الأدبية، وكذلك لهم في إنكلترا ثلاثمائة كنيسة وتآليف عديدة معتبرة، ويعتبرون القرآن كما يعتبرون الإنجيل والتوراة كتباً إلهية - لا يؤمنون بتثليث الآلهة. أي إنهم لا يعتقدون بكون السيد المسيح أو الروح

كما سمي به القرآن لذلك، في قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. وقيل: أريد بالروح الوحي الذي أوحى إلى مريم بالبشارة. وقيل: جرت العادة بأنهم إذا أرادوا وصف شيء بغاية الطهارة والنظافة، قالوا: إنه روح، فلما كان عيسى عليه السلام متكوّناً من النفخ، لا من النطفة، وصف بالروح. وتقديم كونه عليه السلام رسول الله في الذكر، مع تأخره عن كونه كلمته تعالى وروحاً منه، في الوجود - لتحقيق الحق من أول الأمر بما هو نص فيه غير محتمل للتأويل، وتعيين مآل ما يحتمله، وسدّ باب التأويل الزائغ. انتهى ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ﴾ وخصوه بالالهوية ﴿وَرُسُلِهِ﴾ أي: جميعهم وصفوهم بالرسالة ولا تخرجوا بعضهم عن سلكهم بوصفه بالالهوية ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ أي: الآلهة ثلاثة: الله، والمسيح، ومريم، كما ينبيء عنه قوله تعالى ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وقد ذكر السيد عبد الله الهندي في مناظرته مع قسيس الهند حكاية عن مناظرة؛ أنه حكى أن فرقة من النصاري تسمى (كولى ري دينس) كانت تقول: الآلهة ثلاثة: الأب والابن ومريم. قال: ولعل هذا الأمر كان مكتوباً في نسخهم، لأن القرآن كذبهم. انتهى.

أو التقدير: ولا تقولوا: الله ثلاثة. أي ثلاثة أقانيم. وفي تعاليمهم المدرسية المطبوعة الآن ما نصه: أخص أسرار المسيحية سر الثالوث، وهو إله واحد في ثلاثة أقانيم: الأب والابن وروح القدس. والأب هو الله والابن هو الله وروح القدس هو الله، وليسوا ثلاثة آلهة، بل إله واحد موجود في ثلاثة أقانيم متساوين في الجوهر ومتميزين فيما بينهم بالأقنومية، وذلك لأن لهم جوهرًا واحداً ولاهوتاً واحداً وذاتاً واحدة. وليس أحد هذه الأقانيم الثلاثة أعظم أو أقدم أو أقدر من الآخرين، لكون الثلاثة متساوية في العظمة والأزلية والقدرة وفي كل شيء، ما عدا الأقنومية. ولا نقدر أن نفهم جيداً هذه الحقائق لأنها أسرار فائقة العقل والإدراك البشري. انتهى كلامهم في تعاليمهم المدرسي المطبوع في بيروت سنة (١٨٧٦) مسيحية، فانظر إلى هذا التناقض والتمويه.

ابن الله. وقال أوائل الملكانية: إن الآلهة ثلاثة: أحدهم عيسى، ثم عدل وأخبرهم عن التصريح بهذا القول المستنكر، حين استنكرته النفوس، ودفعته العقول، فقالوا: إن الله تعالى جوهر واحد، هو ثلاثة أقانيم: أقنوم الأب، وأقنوم الابن، وأقنوم روح القدس، وأنها واحدة في الجوهرية، وأن أقنوم الأب هو الذات، وأقنوم الابن هو الكلمة، وأقنوم روح القدس هو الحياة. واختلفوا في الأقانيم، فقال بعضهم: هي خواص، وقال بعضهم: هي أشخاص، وقال بعضهم: هي صفات، وقالوا: إن الكلمة اتحدت بعيسى، واختلفوا في الاتحاد.

ثم قال: وليس لهذه المذاهب شبهة تقبلها العقول، وفسادها ظاهر في العقول...

والذي أوقعهم في هذه المهلكة الوخيمة، والورطة الجسيمة، ما ورد موهماً من ألفاظ الإنجيل كالأب والابن، فلم يحملوها على ما أريد منها، وحملوها على ظاهرها، فضللوا وأضلوا. وفي (منية الأذكىاء) ما نصه: وأما ما ورد في الإنجيل الموجود الآن، من إطلاق ابن الله على عيسى عليه السلام، فهو - إن لم يكن مما حرّف - يكون مجازاً، بمعنى ابن المحبة، كما يقال: فلان من أبناء الدينا، ونظير ذلك قول عيسى عليه السلام لليهود، حين ادعوا أن لهم أباً واحداً هو الله: (لو كان الله أباكم لكنتم تحبونني)، ثم قال لهم: (أنتم من أب هو إبليس. وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) ادعت اليهود أن الله تعالى أبوهم، أي أنهم مطيعون له إطاعة الابن للأب، فكذبهم عيسى عليه السلام وجعلهم أبناء الشيطان، أي أنهم مطيعون له. ولا يخفى أن الابن والأب هنا مجازان. وقد كثر إطلاق اسم الأب على الله تعالى، واسم الابن على العبد الصالح، في الكتب السالفة. فهو إما من الخبط في الترجمة، وإما مؤول بما ذكرنا، فلا تغفل، لكن قد منع من هذا الإطلاق في الملة المحمدية بالكلية، تحزراً من الإيهام والوقوع في شرك الأوهام. وهذا هو الطريق الرشيد. وقوله تعالى ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تحليل لتزهمه مما نسب إليه، بمعنى أن كل ما فيهما خلقه وملكه، فكيف يكون بعض ملكه جزءاً منه؟ إذ النبوة

القدس هو إله حقيقي، كالله الواجب الوجود، بل يعتقدون أن الله وحده هو الإله الحق. انتهى.

وفيه أيضاً ما لفظه: كل الكتب المنزل تعلّم بالوحدانية وتنفي تثليث الآلهة، أو كون الله ثلاثة. وتعلن صريحاً بأوضح العبارة: أن الله واحد أحد، وأنه لا إله حقاً سواه. انتهى.

وفي كتاب (سوسنة سليمان) ذكر فرق منهم متعددة صارت إلى إنكار ألوهية المسيح والروح القدس. وهذا الكتاب ساق من فرقهم العتيقة والحديثة واختلافهم ما يقضي بالعجب، مما يؤيد ما قاله الحافظ ابن كثير، من أن لهم آراء مختلفة وأقوالاً غير مؤتلفة. ولقد أحسن بعض المتكلمين حيث قال: لو اجتمع عشرة من النصاري لافترقوا عن أحد عشر قولاً. انتهى.

قال شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية في (الرسالة القبرصية): فتفرّق النصاري في التثليث والاتحاد تفرقاً وتشتتوا تشتتاً لا يقرّ به عاقل ولم يجيء نقل، إلا كلمات متشابهات في الإنجيل وما قبله من الكتب، قد بينها كلمات محكمات في الإنجيل وما قبله. كلها تنطق بعبودية المسيح وعبادته لله وحده، ودعائه وتضرعه. ولما كان أصل الدين هو الإيمان بالله ورسله، كان أمر الدين توحيد الله والإقرار برسله، فأرباب التثليث في الوحدانية، والاتحاد في الرسالة، قد دخل في أصل دينهم من الفساد ما هو بيّن بفطرة الله التي فطر الناس عليها، وبكتب الله التي أنزلها. انتهى.

وقد اجتمع لديّ، بحمده تعالى، حين كتابة هذه السطور عشرون مؤلفاً في الرد عليهم، وكلها، والله الحمد، مطبوعة منتشرة، فلا حاجة للإطالة بالنقل عنها. لسهولة الوقوف عليها. قال الماوردي في (أعلام النبوة): فأما النصاري فقد كانوا، قبل أن تنصر قسطنطين الملك، على دين صحيح في توحيد الله تعالى ونبوة عيسى عليه السلام. ثم اختلفوا في عيسى بعد تنصر قسطنطين. وهو أول من تنصر من ملوك الروم. أي لأن الروم كانوا صابئة. ثم قهرهم على التنصر قسطنطين لما ملكهم، فقال أوائل النسطورية: إن عيسى هو الله. وقال أوائل اليعاقبة: إنه

من أعلى منهم رتبة من الملائكة، على المسيح من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وذلك لا يستلزم فضل أحد الجنسين على الآخر مطلقاً والنزاع فيه. انتهى.

قال ناصر الدين في (الانتصاف): وقد كثر الاختلاف في تفضيل الأنبياء على الملائكة. فذهب جمهور الأشعرية إلى تفضيل الأنبياء. وذهب القاضي أبو بكر، منّا، والحليمي وجماعة المعتزلة إلى تفضيل الملائكة. واتخذ المعتزلة هذه الآية عمدة في تفضيل الملائكة. من حيث الوجه الذي استدلل به الزمخشري. ونحن بعون الله نشبع القول في المسألة من حيث الآية. فنقول: أورد الأشعرية على الاستدلال بها أسئلة، أحدها: أن سيدنا محمداً عليه أفضل الصلاة والسلام أفضل من عيسى عليه الصلاة والسلام، فلا يلزم من كون الملائكة أفضل من المسيح، أن تكون أفضل من محمد عليه الصلاة والسلام. وهذا السؤال إنما يتوجه إذ لم يدع مورده أن كل واحد من آحاد الأنبياء، أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة. وبين طائفتنا في هذه الطرف خلاف (السؤال الثاني) أن قوله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ صيغة جمع، تناول مجموع الملائكة، فهذا يقتضي كون مجموع الملائكة أفضل من المسيح. ولا يلزم أن يكون كل واحد منهم أفضل من المسيح. وفي هذا السؤال أيضاً نظراً، لأن مورده إذا بنى على أن المسيح أفضل من كل واحد من آحاد الملائكة، فقد يقال يلزمه القول بأنه أفضل من الكل. كما أن النبي عليه الصلاة والسلام، لما كان أفضل من كل واحد من آحاد الأنبياء، كان أفضل من كلهم. ولم يفرق بين التفضيل على التفصيل، والتفضيل على الجملة أحداً ممن صنف في هذا المعنى. وقد كان بعض المعاصرين يفصل بين التفضيلين، وادعى أنه لا يلزم منه؛ على التفصيل، تفضيل على الجملة. ولم يثبت عنه هذا القول. ولو قاله أحد فهو مردود بوجه لطيف، وهو: أن التفضيل المراد، جل أماراته رفع درجة الأفضل في الجنة، والأحاديث متوافرة بذلك، وحيث لا يخلو إما أن ترفع درجة واحد من المفضولين على من اتفق على أنه أفضل من كل واحد منهم، أو لا ترفع درجة أحد منهم عليه، لا سبيل إلى

والملك لا يجتمعان ﴿وَكُنْ بِإِلَهِ وَكِيلًا﴾ أي: إليه بكل كل الخلق أمورهم، وهو غني عنهم، فأنى يتصور في حقه اتخاذ الولد، الذي هو شأن العجزة المحتاجين في تدبير أمورهم إلى من يخلفهم ويقوم مقامهم. وقوله تعالى، ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ جملة مستأنفة لتقرير ما سبق من التنزيه، أي: لن يأنف من أن يكون عبداً لله. فإن عبوديته شرف يتباهى به ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ من أن يكونوا عبيداً له تعالى. واحتج بالآية من زعم فضل الملائكة على الأنبياء.

قال الزمخشري: أي: ولا من هو أعلى منه قدراً وأعظم منه خطراً. وهم الملائكة الكروبيون الذين حول العرش، كجبريل وميكائيل وإسرافيل، ومن في طبقتهم. ثم قال: فإن قلت: من أين دل قوله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ على أن المعنى: ولا من فوقه؟ قلت: من حيث إن علم المعاني لا يقتضي غير ذلك. وذلك أن الكلام إنما سيق لرد مذهب النصارى وغلوهم في رفع المسيح عن منزلة العبودية، فوجب أن يقال لهم: لن يترفع عيسى عن العبودية، ولا من هو أرفع منه درجة. كأنه قيل: لن يستنكف الملائكة المقربون من العبودية. فكيف بالمسيح؟ ويدل عليه دلالة ظاهرة بيّنة، تخصيص المقربين، لكونهم أرفع الملائكة درجة وأعلاهم منزلة. ومثاله قول القائل.

وما مثله ممن يُجَاوِذُ حَاتِمَ

ولا البحر ذو الأمواج يَلْتَجِ زَاخِرُهُ
لا شبهة في أنه قصد بالبحر ذي الأمواج، ما هو فوق حاتم في الجود. ومن كان له ذوق فليدق، مع هذه الآية قوله: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى﴾ [البقرة: ١٢٠]، حتى يعترف بالفرق البين. انتهى.

قال البيضاوي: وجوابه أن الآية: للرد على عبدة المسيح والملائكة، فلا يتجه ذلك، وإن سلم اختصاصها بالنصارى فلعله أراد بالعطف المبالغة باعتبار التكثير دون التكبير، كقولك: أصبح الأمير لا يخالفه رئيس ولا مؤسس. وإن أراد به التكبير فغاياته تفضيل المقربين من الملائكة، وهم الكروبيون، الذين هم حول العرش، أو

الأول، لأنه يلزم منه رفع المفضول على الأفضل، فتعين الثاني وهو ارتفاع درجة الأفضل على درجات المجموع، ضرورة، فيلزم ثبوت أفضليته على المجموع من ثبوت أفضليته على كل واحد منهم، قطعاً. الثالث: أنه عطف الملائكة على المسيح بالواو، وهي لا تقتضي ترتيباً. وأما الاستشهاد بالمثل المذكور على أن الثاني أبداً يكون أعلى رتبة، فمعارض بأمثله لا تقتضي ذلك، كقول القائل: ما عابني على هذا الأمر زيد ولا عمرو، قلت: وكقولك لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً. فإن هذا الترتيب وجه الكلام، والثاني أدنى وأخفض درجة. ولو ذهبت تعكس هذا، فقلت: لا تؤذ ذمياً ولا مسلماً، ليجعل الأعلى ثانياً، لخرجت عن حد الكلام وقانون البلاغة. وهذا المثل بين ما يورد في نقض القانون المقرر، ولكن الحق أولى من المراء. وليس بين المثالين تعارض. ونحن نمهد تمهيداً يرفع اللبس ويكشف الغطاء فنقول: النقطة في الترتيب في المثالين الموهوم تعارضهما واحدة. وهي توجب في موضع تقديم الأعلى، وفي مواضع تأخيره. وتلك النقطة مقتضى البلاغة التناهي عن التكرار والسلامة عن النزول. فإذا اعتمدت ذلك فمهما أدى إلى أن يكون آخر كلامك نزولاً بالنسبة إلى أوله، أو يكون الآخر مندرجاً في الأول، قد أفاده. وأنت مستغن عن الآخر فاعدل عن ذلك إلى ما يكون ترقياً من الأدنى إلى الأعلى، واستثناً لفائدة لم يشتمل عليها الأول. مثاله الآية المذكورة. فإنك لو ذهبت فيها إلى أن يكون المسيح أفضل من الملائكة وأعلى رتبة، لكان ذكر الملائكة بعده كالمستغنى عنه، لأنه إذا كان الأفضل وهو المسيح، على هذا التقدير، عبداً لله غير مستنكف من العبودية - لزم من ذلك أن من دونه في الفضيلة أولى أن لا يستنكف عن كونه عبداً لله، وهم الملائكة على هذا التقدير. فلم يتجدد إذاً بقوله ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ إلا ما سلف أول الكلام. وإذا قدرت المسيح مفضولاً بالنسبة إلى الملائكة، فإنك ترقيت من تعظيم الله تعالى بأن المفضول لا يستنكف عن كونه عبداً له، إلى أن الأفضل لا يستنكف عن ذلك. وليس يلزم من عدم استنكاف المفضول عدم استنكاف الأفضل. فالحاجة

داعية إلى ذكر الملائكة. إذ لم يستلزم الأول الآخر. فصار الكلام على هذا التقدير تتجدد فوائده وتزايد. وما كان كذلك تعين أنم يحمل عليه الكتاب العزيز. لأنه الغاية في البلاغة. وبهذه النقطة يجب أن نقول: لا تؤذ مسلماً ولا ذمياً. فتؤخر الأدنى على عكس الترتيب في الآية. لأنك إذا نهيت عن إيذاء المسلم، فقد يقال ذاك من خواصه احتراماً للإسلام، فلا يلزم من ذلك نهيه عن الكافر المسلوية عنه هذه الخصوصية. فإذا قلت: ولا ذمياً - فقد جددت فائدة لم تكن في الأول، وترقيت من النهي عن بعض أنواع الأذى، إلى النهي عن أكثر منه. ولو رتبت هذا المثل كترتيب الآية، فقلت: لا تؤذ ذمياً، فهم المنهية أن أذى المسلم أدخل في النهي، إذ يساوي الذمي في سبب الاحترام وهو الإنسانية مثلاً، ويمتاز عنه بسبب أجل وأعظم وهو الإسلام، فيقنعه هذا النهي عن تجديد نهيه آخر عن أذى المسلم. فإن قلت: ولا مسلماً، لم تجدده فائدة. ولم تعلمه غير علمه أولاً. فقد علمت أنها نقطة واحدة، توجب أحياناً تقديم الأعلى، وأحياناً تأخيره. ولا يميز لك ذلك إلا السياق. وما أشك أن سياق الآية يقتضي تقديم الأدنى وتأخير الأعلى. ومن البلاغة المرتبة على هذه النقطة قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمْ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣] استغناءً عن نهيه عن ضربهما فما فوقه، بتقدير الأدنى. ولم يلق ببلاغة الكتاب العزيز أن تريد نهياً عن أعلى من التأنيف والإنهار (كذا). لأنه متسغى عنه. وما يحتاج المتدبر لآيات القرآن مع التأييد شاهداً سواها ﴿مَا قَرَطْنَا بِكَ الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] ولما اقتضى الإنصاف تسليم مقتضى الآية لتفضيل الملائكة، وكانت الأدلة على تفضيل الأنبياء عديدة عند المعتقد لذلك، جمع بين الآية وتلك الأدلة بحمل التفضيل في الآية على غير محل الخلاف، وذاك أن تفضيل الملائكة في القوة وشدة البطش واسعة التمكن والاعتدار. قال: وهذا النوع من الفضيلة هو المناسب لسياق الآية، لأن المقصود الرد على النصارى في اعتقادهم ألوهية عيسى عليه السلام، مستنديين إلى كونه أحيا الموتى وأبرأ الأكمه والأبرص، وصدرت على يديه آثار عظيمة خارقة، فناسب ذلك أن

نظر عيسى بآدم عليهما السلام، فنظر الغريب بالأغرب، وشبه العجيب من قدرت بالأعجب، إذ عيسى مخلوق من أم، وآدم من غير أم ولا أب، ولذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ثم قال له كن فيكون. ومدار هذا البحث على النقطة التي نهبت عليها. فمتى استقام اشتغال المذكور أياماً على فائدة، لم يشتمل عليها الأول بأي طريق كان، من تفضيل أو غيره، من الفوائد - فقد استدّ النظر وطابق صيغة الآية والله أعلم، وعلى الجملة فالمسألة سمعية. والقطع فيها معروف بالنص الذي لا يحتمل تأويلاً، ووجوده عسر، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين. انتهى. ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِي﴾ أي: يأنف منها ويمتنع ﴿وَيَسْتَكْبِرْ﴾ أي: يتعظم عنها ويترفع ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾ أي: فيجمعهم يوم القيامة لموعدهم الذي وعدهم، ويفصل بينهم بحكمه العدل.

محمد عبده ج ٦ ص ٨١ - ١٠٠

ذوي القربى ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] (وثانيهما): أن معناه أنه خلق بنفخ من روح الله وهو جبريل عليه السلام، ويوضحه قوله تعالى في أمه ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وقال تعالى فيها ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] كما قال في خلق الإنسان بعد ذكر بدنه من طين ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْ صَلَاسَةٍ مِنْ مَاءٍ مَّهْيِينَ. ثُمَّ سَوَّيْنَاهُ وَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٨، ٩]، وقال بعضهم أن المراد بالروح هنا النفخ أي نفخ الملك بأمر الله في مريم فإنه استعمل بمعنى النفخ والنفس الذي ينفخ كما قال ذو الرمة في إضرام النار.

فقلت له ارفعها إليك وأحيها

بروحك واجعلها لها قيتة قدرا والروح الذي يحيا به الإنسان مأخوذ من اسم الريح (وأصل الريح روح بالكسر فقلبت الواو ياءً لتناسب الكسرة وجمعه أرواح ورياح وأصل هذه رواح بالكسر)

يقال: هذا الذي صدرت على يديه الخوارق، لا يستنكف عن عبادة الله تعالى، بل من هو أكثر خوارق وأظهر آثاراً، كالملائكة المقربين الذي من جملتهم جبريل عليه السلام. وقد بلغ من قوته وإقدار الله له أن اقتلع المدائن واحتملها على ريشة من جناحه؛ فقلب عاليها سافلها، فيكون تفضيل الملائكة، إذا، بهذا الاعتبار. لا خلاف أنهم أقوى وأبطش وأن خوارقهم أكثر. وإنما الخلاف في التفضيل باعتبار مزيد الثواب والكرامات ورفع الدرجات في دار الجزاء. وليس في الآية عليه دليل. ولما كان أكثر ما لبس على النصارى في ألوهية عيسى كونه مخلوقاً، أي: موجوداً من غير أب، أنبأنا الله تعالى أن هذا الموجود من غير أب، لا يستنكف من عبادة الله، بل ولا الملائكة المخلوقون من غير أب ولا أم، فيكون تأخير ذكرهم لأن خلقهم أغرب من خلق عيسى. ويشهد لذلك أن الله تعالى

... ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَبَ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾

فتجاوزوا الحدود التي حدها الله لكم، فإن الزيادة في الدين كالنقص منه، كلاهما مخرج له عن وضعه ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ أي الثابت المتحقق في نفسه، إما بنص ديني متواتر، وإما ببرهان عقلي قاطع، وليس لكم على مزاعمكم في المسيح شيء منهما ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى بني إسرائيل أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وأن يرجعوا عن الإيمان بالجبت والطاغوت، وعن اتباع الهوى وعبادة المال، وإيثار شهوات الأرض على ملكوت السماء، وزهدهم في الحياة الدنيا، وحثهم على حق التقوى، وبشرهم بالنبي الخاتم الذي يبين لهم كل شيء، وقيمهم على صراط الاعتدال، ويهديهم إلى الجمع بين حقوق الأرواح وحقوق الأجساد...

وأما قوله ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ ففيه وجهان (أحدهما): أن معناه أنه مؤيد بروح منه تعالى. ويوضحه قوله فيه ﴿وَأَيَّدَنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال في صفات المؤمنين الذين لا يوادون من حادّ الله ورسوله ولو كان من

المفسرون أن طبيباً نصرانياً للرشد ناظر علي بن حسين الواقدي المروزي ذات يوم فقال له أن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء منه تعالى، وتلا هذه الآية فقرأ له الواقدي قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقال يلزم إذاً أن تكون جميع هذه الأشياء أجزاء منه تبارك وتعالى، فانقطع النصراني، وأسلم ففرح الرشد بإسلامه ووصل الواقدي بصلة فاخرة.

أما أناجيل النصارى وكتبهم فقد استعملت لفظ الروح في معان مختلفة فيما يتعلق بالمسيح وفي غير ما يتعلق به. فمن ذلك قول متى (١: ١٨) أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم أمه مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وجدت حبلى من الروح القدس) وفي الفصل الأول من إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيرها بإياها بولد ومحاورتهما في ذلك، ومنها أنها سألته عن كيفية ذلك فقال لها «٣٥ الروح القدس يحل عليك»، فروح القدس ليس هو الله، ومن يؤيده الله به لا يكون إلهاً، ففي هذا الفصل نفسه من إنجيل لوقا أن (الصبابات) أم يحيى امتلأت من الروح القدس (٤١)، وبذلك حملت بيحيى وكانت عاقراً - وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس (٦٧)، وفي الفصل الثاني منه ما نصه «٢٥ وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان، وهذا الرجل كان باراً تقياً ينتظر تعزية إسرائيل والروح القدس كان عليه ٢٦، وكان قد أوحى إليه بالروح القدس»، وهذا الاستعمال كثير عندهم لا حاجة لإضاعة الوقت بكثرة إيراد الشواهد فيه، وإنما نقول أن روح القدس عندهم وعندنا واحد وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصي عددهم غيره تعالى، والقدس الطهر، ويذكر في مقابلة في الأناجيل الروح النجس أي الشيطان، فجعلوه إلهاً كما فعل الوثنيون من قبل.

وجملة القول أن هذه الأناجيل تدل على ما ذكرناه آنفاً من كون عيسى خلق بواسطة روح القدس، وأن يحيى خلق كذلك، وكان خلقه آية من وجه آخر إذ كان أبوه شيخاً كبيراً وأمّه عاقراً، ولكن الوسطة والسبب واحد وهو

كما أن اسم النفس بسكون الفاء من النفس بفتحها.

ويجوز أن يراد بقوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ الأمران معاً، أي أنه خلق بنفخ الملك المعبر عنه بالروح وبروح القدس في أمه نفخاً كان كالتلقيح الذي يحصل باقتران الزوجية، وكان مؤيداً بهذا الروح مدة حياته، ولذلك غلبت عليه الروحانية، وظهرت آيات الله فيه زمن الطفولية وزمن الرجولية، ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠] فلما كان كذلك أطلق عليه أنه «روح» كأنه هو عين ذلك الملك الذي جعله الله سبب ولادته، وأيده به مدة حياته، كما يقال «رجل عدل» على سبيل المبالغة والمراد ذو عدل. وقال بعض المفسرين أن المراد بالروح هنا الرحمة كقوله تعالى في المؤمنين ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢] ويقويه قوله تعالى فيه ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ [مريم: ٢١] ويكمن إدخال هذا المعنى في الوجه الأول لأنه من فروعه. والمعنى الجامع أن الروح ما به الحياة، والحياة قسمان: حسية ومعنوية. فالأولى ما به يشعر الإنسان ويدرك ويفكر ويتذكر، والثانية ما به يكون رحيماً حكيماً فاضلاً محباً محبوباً نافعاً للخلق، وقد سمي الله الوحي روحاً فقال لخاتم رسله ﴿وَكَذَلِكَ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] وقال ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [النحل: ٢] وكلا المعنيين متحقق في عيسى عليه السلام على وجه الكمال، فلهذا جوزنا الوجهين في المسألة.

وآية الله تعالى في خلق عيسى بكلمته، وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه، كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، إذ كان خلق كل منهما بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر واثني ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُم مِّن تَرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقد علم مما قرناه أن قوله «منه» متعلق بمحذوف صفة لروح أي وروح كائنة منه. وزعم بعض النصارى أن من للتبعيض وأن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه. ونقل

لهم أن يذهب هو من الدنيا لأنه إذا لم يذهب لا يأتي البارقليط، وإنه متى جاء يبكت العالم على الخطيئة وعلى البر والحساب (الدينونة)، وفسر الخطيئة بعدم الإيمان به أي المسيح، ومنه أنه هو أي المسيح لا يستطيع أن يقول لهم كل شيء لعدم استعدادهم وعدم طاقتهم الاحتمال، قال (١٣) وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمر آتية ١٤ ذاك يمجدني لأنه يأخذ مما لي ويخبركم)، ولم يجرى بعد المسيح أحد من عند الله وبخ الناس وبكتهم على عدم الإيمان بالمسيح وعلى طعن بعضهم فيه وفي أمه، وعلى غلو طائفة فيهما وجعلهما آلهين مع الله، وعلم الناس كل شيء من أمور العقائد والآداب والفضائل والأحكام الشخصية والمدنية، وأخبر بالأمور المستقبلية - لم يجرى أحد بكل هذا إلا روح الحق محمد ﷺ، وهو منبثق من الله أي مرسل منه لإحياء الناس كما يرسل الله الغيث لإحياء الأرض، وفي الحديث أنه شبه بعثته بالغيث الذي تأخذ منه كل أرض بحسب استعدادها. فإذا كانت عبارة يوحنا تدل على أن روح الحق الذي بشر به المسيح، وأنه يأتي بعده تدل بلفظ الإنبثاق على ما قالوا، فليجعلوا محمداً (ص)، هو الأقنوم الثالث، أو اقنوماً رابعاً، وينتقلوا من التثليث إلى التربيع، لا، لا أقول لهم أصروا على هذا التأويل والتضليل، بل أقول لهم ما قاله الله عز وجل، ﴿لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ إلى قوله تعالى ﴿فَتَأْمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةً﴾ الخ، أي فإذا كان الأمر كذلك وهو المعقول، الذي لا تحتمل غيره النقول، فأمنوا بالله إيماناً يليق به وهو أنه واحد أحد، فرد صمد، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفواً أحد، تنزه عن صفات الحوادث، ونسبتها إليه واحدة، وهي أنها مخلوقة وهو الخالق، ومملوكة وهو المالك، وأن هذه الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى الياض منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها، فمن الجهل الفاضح أن يجعل له نذ وكفء فيها، أو يقال إنه حل أو اتحد بشيء منها، - وآمنوا برسله كلهم، كما يليق بهم، وهو أنهم عبيد

الملك المسمى بروح القدس أيدهم الله به نساء ورجالا عليهم السلام، فمن الحماقة أن يقول قائل مع هذا أن قوله تعالى ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ يفيد أنه جزء من الله تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه. بل يقولون أن تلاميذ المسيح أنفسهم كانوا مؤيدين بروح القدس حتى من طرده المسيح ولعنه منهم وسماه شيطاناً. وقد أيد به من كان دونهم أيضاً.

علمنا أن مؤلفي الأناجيل يستعملون كلمة روح القدس استعمالاً يدل على أنه ملك من خلق الله، ولكن يوحنا قد انفرد بعبارات يمكن إرجاعها إلى استعمال غيره، ويمكن تحريفها للاستدلال بها على شيء آخر كما فعلوا، فهم يقولون أن الروح منبثق من الآب وأنه عين الآب، يستدلون على ذلك بقول يوحنا حكاية عن المسيح (١٥: ٢٦) ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا إليكم من الآب روح الحق الذي من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي) أصل الإنبثاق أن يكسر الماء ما أمامه من سد على الشط ويفيض على ما وراءه، وفي قراءة أخرى في ترجمة البروتستانت «يخرج» فمن هذه الكلمة استنبطوا عقيدة وثنية تنقضها نصوص كثيرة في الأناجيل. وهذه الجملة خبر عن شيء يكون في المستقبل (وفرق بين ينبثق من عنده وبين انبثق منه على أن هذه لا تدل على ما زعموا أيضاً)، وهي بشارة من المسيح بمن يرسله الله تعالى بعده الذي عبروا عنه هنا بالمعزي. وكلمة المعزي ترجمة للبارقليط وهي كلمة يونانية معناها (محمّد أو أحمد) وتقرأ بالاستقامة وبالإمالة فلا يحتاج في تحريفها عن المعنى الذي قلناه إلى معنى المعزي الذي قالوه إلا إلى ليّ اللسان بها ليا قليلاً. وقد ترجمت في إنجيل برنابا بمحمد فكانت هذه الترجمة موضع الاستغراب عند كثير من الناس ظانين أن برنابا نقل عن المسيح أنه نطق بكلمة محمد العربية، والظاهر أنه نطق بترجمتها، ومن عادة أهل الكتاب، ترجمة الأعلام والألقاب، على أن «روح الحق» من جملة أسماء نبينا (ص) كما ترى في أسمائه المسرودة في دلائل الخيرات. وقد بين يوحنا في الفصل السادس عشر من إنجيله تفصيلاً عن المسيح عليه السلام لبشارته بالبارقليط، منه أنه خير

التثليث عند البراهمة: قال موريس (في ص ٣٥ من المجلد السادس من كتابه «الآثار الهندية القديمة») ما ترجمته: كان عند أكثر الأمم الوثنية البائدة تعاليم دينية جاء فيها القول باللاهوت الثلاثي أو الثالوثي. وقال دوان (في ص ٣٦٦ من كتابه خرافات التوراة وما يماثلها في الأديان الأخرى) إذا رجعنا البصر إلى الهند نرى أن أعظم وأشهر عبادتهم اللاهوتية هو التثليث. ويسمون هذا التعليم بلغتهم «تري مورتى» وهي عبارة مركبة من كلمتين بلغتهم السنسكريتية «تري» ومعناه ثلاثة، و«مورتى» ومعناها هيات أو أقانيم، وهي «برهما وفشنو وسيفا» ثلاثة أقانيم متحدة لا تنفك عن الوحدة فهي إله واحد (بزعمهم).

وقد شرح المؤلف معنى هذه الأصول أو الأقانيم عندهم، وذكر إنهم يرمزون إليها بثلاثة أحرف وهي (أ. و. م.) وإنهم يصفون هذا الثالوث المقدس الذي لا ينقسم في الجوهر، ولا في الفعل، ولا في الاتحاد بقولهم «برهما الممثل لمبادئ التكوين والخلق ولا يزال خلافاً إلهياً، وهو (الآب) - وفشنو يمثل حفظ الأشياء المكونة (أي من الزوال والفساد) وهو (الابن) المنبثق والمتحول عن اللاهوتية - وسيفا هو المهلك والمبيد والمبدى والمعيد (أي الذي له التصرف والتحويل في الكون)، وهو (روح القدس)، ويدعونه: (كرشنا) الرب المخلص، والروح العظيم الذي ولد منه (فشنو) الإله الذي ظهر بالناسوت على الأرض ليخلص الناس. فهو أحد الأقانيم الثلاثة التي هي الإله الواحد، إلخ ما قاله ومنه أنهم يرمزون للأقنوم الثالث بصورة حمامة، وهذه عين عقيدة النصارى في التثليث من كل وجه فهي عقيدة برهمية وثنية، أخذها النصارى عن البراهمة وصاروا يدعونهم أخيراً إليهم. وكان منتهى شوط أحد اليسوعيين في التفرقة بينهما أن ثالث البراهمة وأمثالهم نجس، وثالث النصارى مقدس!! فإذا قال لهم الوثنيون الأمر بالعكس، فارجعوا إلى الأصل ودعوا المبتدع، فماذا يحجونهم؟؟. والذي يظهر لي أن التوحيد هو أصل عقيدة البراهمة وأن أول رسول أرسل إليهم وصف لهم الإله بثلاث

له خصهم بضرب من العلم والهداية (الوحي) ليعلموا الناس كيف يوحدون ربهم ويعبدونه ويشكروونه، وكيف يزكون أنفسهم، ويصلحون ذات بينهم - ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، أو: الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، فكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد. فتسفوها أنفسكم بترك التوحيد الخالص الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء عليهم السلام، والقول بالتثليث الذي هو عقيدة الوثنيين الطغام، ثم تدعوا الجمع بين التثليث الحقيقي والتوحيد الحقيقي، وهو تناقض تحيله العقول ولا تقبله الأفهام...

﴿لَمْ يَكُنْ مَآ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ليس له ولد خاص مولود منه يصح أن يسمى ابنه حقيقة، بل له كل ما في السموات والأرض - والمسيح من جملتها - خلق كل ذلك خلقاً، وكل ذي عقل منها وإدراك يفتخر بأن يكون له عبداً، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣] لا فرق في هذا بين الملائكة المقربين، والنبیین الصالحين، كما صرح به الآية التالية لهذه. ولا بين من خلقه ابتداء من غير أب ولا أم كالملائكة وآدم، ومن خلق من أصل واحد كحواء وعيسى، ومن خلق من الزوجين الذكر والأنثى. كلهم بالنسبة إليه تعالى سواء، عبيد له من خلقه محتاجون دائماً إلى فضله وهو يتصرف فيهم كما يشاء، ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء: ٨١] أي به الكفاية لمن عرفه وعرف سننه في خلقه إذا وكلوا إليه أمورهم، ولم يحاولوا الخروج عن سننه وشرائعه بسوء اختيارهم.

فصل في عقيدة التثليث: قلنا إن هذه العقيدة وثنية نقلها الوثنيون المتنصرون إلى النصرانية، وقسروا بعض الألفاظ الواردة في كتبهم اليهودية على أن تعطيهم شبهة يتكثون عليها في هذا التضليل، وأرغموها عليه بضرب من التحريف والتأويل، هدموا به آيات التوحيد القوية البنيان، العالية الأركان، أما كون هذه العقيدة وثنية فقد بينه علماء أوربة بالتفصيل، وأتوا عليه بالشواهد الكثيرة من الآثار القديمة والتاريخ، وإننا نشير إلى قليل منها في هذا المقام.

وهل يكون بعده أحد أعظم منه؟ فأجابه الكاهن نعم يوجد من هو أعظم وهو الله قبل كل شيء ثم الكلمة ومعهما روح القدس، ولهؤلاء الثلاثة طبيعة واحدة وهم واحد بالذات، وعنهم صدرت القوة الأبدية، فاذهب يافاني يا صاحب الحياة القصيرة. قال المؤلف: لا ريب أن تسمية الأتونم الثاني من الثالوث المقدس «كلمة» هو من أصل وثني مصري دخل في غيره من الديانات كالمسيحية. و«أبولو» المدفون في (دهلي) يدعى «الكلمة» وفي علم اللاهوت الإسكندري الذي كان يعلمه (بلاتو) قبل المسيح بسنين عديدة «الكلمة هي الإله الثاني» ويدعى أيضاً ابن الله البكر وقال بونويك (في ص ٤٠٢ من كتابه عقائد قدماء المصريين): أغرب عقيدة عم انتشارها في ديانة المصريين هي قولهم بلاهوت الكلمة وإن كل شيء صار بواسطتها، وأنها منبثقة من الله، وأنها هي الله وكان بلاتو عارفاً بهذه العقيدة الوثنية وكذلك أرسطو وغيرهما، وكان ذلك قبل التاريخ المسيحي بسنين (بل بقرون) ولم نكن نعلم أن الكلدانيين والمصريين يقولون هذا القول ويعتقدون هذا الاعتقاد إلا في هذه الأيام اهـ.

أقول الذي يظهر لي أن الرسل الذين أرسلهم الله إلى المصريين وأمثالهم من القائلين بمثل قولهم هذا كانوا يقولون لهم أن كل شيء خلق بكلمة الله، فلما طال عليهم الأمد وسرت إليهم الوثنية ظنوا أن الكلمة ذات تفاعل بالإرادة والاختيار فقالوا ما قالوا. والحق أنها عبارة عن تعلق إرادة الله الواحد الأحد بالشيء الذي يريد خلقه، ومتى تعلقت إرادته بخلق شيء كان كما أراد ﴿لَمَّا أَمَرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢] فلو لم يكن عندنا من إعجاز القرآن إلا بيان هذه الحقيقة التي خلت بها الأمم من أقدمها كالهنود والمصريين إلى أحدثها قبل الإسلام كالتنصاري لكفى في الاستدلال على أنه من عند الله، فإنه بين لنا ضلال تلك الأمم، والأصل المعقول المقبول الذي يتفق مع التوحيد الذي نقل عنهم أجمعين، فتجلى بذلك دين الله إلى جميع رسله نقياً من أدران الشرك ونزغات الشياطين.

التثليث عند الفرس وغيرهم من أهل آسية: قال هييجين

صفات هي التي تظهر بها حقيقة الألوهية وهي (١) ما به الخلق والإيجاد، و(٢) الحفظ والإمداد، و(٣) التصرف والتغيير في عالم الكون والفساد. فلما طال عليهم الأمد ودبت إليهم الوثنية جعلوا لكل فعل من هذه الأفعال إلهاً، وجعلوا أسماء الصفات، أسماء أقانيم وذوات، ولما كانوا ناقلين بالتواتر كلمة التوحيد، وإن الله إله واحد قالوا إن الثلاثة واحد، وكل واحد منها عين الثلاثة. وسرت هذه العقيدة إلى غيرهم من الوثنيين في الشرق والغرب.

وللهنود تماثيل للوحدة والتثليث رأيت واحداً منها في دار العاديات التي بنتها الحكومة الهندية الإنكليزية في ضواحي مدينة بناريس (المقدسة عند البراهمة)، وهو تمثال واحد له ثلاثة وجوه. ولعله هو الذي قال عنه موريس (في ص ٣٧٢ من المجلد الرابع من كتابه آثار الهند القديمة) لقد وجدنا في أنقاض هيكل قديم قوضه مرور القرون صنماً له ثلاثة رؤوس على جسد واحد والمقصود منه الرمز للثالوث.

إله له ثلاث أقانيم. وكذلك بوذيو (جينست) يقولون إن (جيفا) مثلث الأقانيم (قال) والصينيون يعبدون بوذه ويسمونهم (فو) ويقولون إنه ثلاثة أقانيم كما تقول الهنود. وذكر رمزهم (أ.و.م)

وقال دوان (في ص ١٧٢ من كتابه خرافات التوراة إلخ) وأنصار لاوكونمذا الفيلسوف الصيني المشهور - وكان قبل المسيح بأربع سنين وست مئة (٦٠٤) يدعون «شيعة تاوو» ويعبدون إلهاً مثلث الأقانيم. وأساس فلسفته اللاهوتية أن «تاوو» وهو العقل الأول الأزلي انبثق منه واحد، ومن الثاني انبثق ثالث، وعن هذا الثالث انبثق كل شيء. وهذا القول بالتولد والانبثاق أدهش العلامة موريس لأن قائله وثني.

التثليث عند قدماء المصريين: (٣) قال دوان في ص ٤٧٣ من كتابه المشار إليه آنفاً: وكان قسيسو هيكل منفيس بمصر يعبرون عن الثالوث المقدس للمبتدئين بتعلم الدين بقولهم إن الأول خلق الثاني وهما خلقا الثالث وبذلك تم الثالوث المقدس. وسأل تولىسو ملك مصر الكاهن تنيشوكي أن يخبره: هل كان قبله أحد أعظم منه

هي التوراة، ويسمون أنفسهم مع ذلك مسيحيين ويعملون كل شيء باسم المسيح! فهل ظلم أحد من البشر بالافتيات عليه كما ظلم المسيح عليه السلام؟ لا

ونقل دوان عن أورفيوس أحد كتاب اليونان وشعرائهم قبل المسيح بعدة قرون أنه قال: «كل الأشياء صنعها الإله الواحد مثلث الأسماء والأقانيم» وقال فسك (في ص ٢٠٥ من كتاب الخرافات ومخترعوها: كان الرومانيون الوثنيون القدماء يؤمنون بالتثليث يؤمنون بالله أولاً ثم بالكلمة ثم بالروح، وقال بارخورست في القاموس العبراني: كان للفنلنديين (البرابرة الذين كانوا في شمال بروسية) إله اسمه (تريكلاف) وقد وجد له تمثال في (هروتو نجربرج) له ثلاثة رؤوس على جسد واحد. أقول تريكلاف مركب من كلمة ترى ومعناها ثلاثة وكلمة كلاف ولعل معناها إله.

وقال دوان في (ص ٣٧٧ من كتابه) كان الاسكندنافيون يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم يدعونها أودين وتورا وفري. ويقولون هذه الثلاثة الأقانيم إله واحد. وقد وجد صنم يمثل هذا الثلاث المقدس بمدينة (أوبسال) من أسوج وكان أهل أسوج ونروج والدنمارك يفاخر بعضهم بعضاً في بناء الهياكل لهذا الثلاث. ويصورون أودين بيده حسام وتورا واقفاً عن شماله وعلى رأسه تاج وبيده صولجان، وفري واقفاً عن شمال تورا وفيه علامة الذكر والأنثى. ويدعون أودين الآب وتورا الابن البكر - أي ابن الآب أودين - وفري مانح البركة والنسل والسلام والغنى اهـ.

أقول فهل ترك الأوروبيون أديانهم الوثنية إلى دين المسيح عليه السلام الذي هو التوراة المبنية على أساس التوحيد الخالص، أم ظلوا على وثنيته، وأدخلوا فيها شخص المسيح، وجعلوه أحد آلهتهم التي كانوا يعبدون من قبل...؟؟ إنهم نقلوا عنه إنه ما جاء لينقض الناموس (شريعة موسى) وإنما جاء ليتممها، ولكن مقدسهم بولس نقضها حجراً حجراً ولبنة لبنة إلا ذبيحة الأصنام والدم المسفوح والزنا الذي لا عقاب عليه عندهم فأراحهم ومهد لهم السبيل لتأسيس دين جديد لا يتفق مع دين المسيح

(في ص ١٦٢ من كتابه الأنكلوسكسون) كان الفرس يدعون متروساً الكلمة والوسيط ومخلص الفرس: اهـ وقال مثل هذا دونلاب وبنصون. وقال دوان في كتابه الذي ذكر غير مرة: كان الفرس يعبدون إلهاً مثلث الأقانيم مثل الهنود، ويسمونهم أوزمرد وأهرمن - فأوزمرد الخلاق، ومترات ابن الله المخلص والوسيط، وأهرمن الملك. أقول وقد بينت آنفاً أصل هذا الاعتقاد، وكيف سرى إليه الفساد. والمشهور عن مجوس الفرس التثنية دون التثليث، فكانوا يقولون بإله مصدر النور والخير، وآله مصدر الظلمة والشر.

ونقل عن الكلدانيين والآشوريين والفينيقيين الإيمان بالكلمة على أنها ذات تعبد ويسمونها الكلدانيون (ممرار) والآشوريون (مردوخ) ويدعون مردوخ ابن الله البكر، وهكذا الأمم يأخذ بعضها عن بعض. وقد قال برتشر (في ص ٢٨٥ من كتابه خرافات المصريين الوثنيين) لا يخلو شيء من الأبحاث الدينية المأخوذة عن مصادر شرقية من ذكر أحد أنواع التثليث أو التولد الثلاثي. ونقول إن أديان أسلافه الغربيين كذلك، فإن لم تكن أعرف في الوثنية. فهم تلاميذ الشرقيين فيها، ولا سيما المصريين منهم، ولكنهم هم الذين شوهوا الديانة المسيحية الشرقية فنقلوها من التوحيد الإسرائيلي إلى التثليث الوثني.

التثليث عند أهل أوربة اليونان والرومان وغيرهم: جاء في كتاب (سكان أوربة الأولين) ما ترجمته: كان الوثنيون القدماء يعتقدون أن الإله واحد ولكنه ذو ثلاثة أقانيم.

وجاء في كتاب ترقى الأفكار الدينية (ص ٣٠٧ م) أن اليونانيين كانوا يقولون إن الإله مثلث الأقانيم، وإذا شرع قسيسوهم بتقديم الذبائح يرشون المذبح بالماء المقدس ثلاث مرات (إشارة إلى الثلاث) ويرشون المجتمعين حول المذبح ثلاث مرات، ويأخذون البخور من المبخرة بثلاث أصابع، ويعتقدون أن الحكماء قالوا إنه يجب أن تكون جميع الأشياء المقدسة مثلثة، ولهم اعتناء بهذا العدد في جميع شعائرهم الدينية. اهـ.

أقول وقد اقتبست الكنيسة بعد دخول نصرانية قسطنطين فيهم هذه الشعائر كلها ونسخت بها شريعة المسيح التي

الكتبة سألته عن أول الوصايا قال (٢٩ فأجابه يسوع أول الوصايا اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد إلخ . ٣٢ فقال له الكاتب جيداً يا معلم بالحق قلت لأنه واحد وليس آخر سواه . ٣٤ فلما رأى يسوع أنه أجاب بعقل قال له لست بعيداً عن ملكوت السموات) فعلم من هذا أن التوحيد الخالص هو العقيدة المعقولة التي تؤخذ على ظاهرها بلا تأويل، فإن فرضنا أنه ورد ما يناهضها، وجب رده أو إرجاعه إليها .

وروى يوحنا عنه في الفصل الأول من إنجيله إنه قال (٢٨) الله لم يره أحد قط) ومثله في الفصل الرابع من رسالة يوحنا الأول (١٢) الله لم ينظره أحد قط) وفي الفصل السادس من رسالة بولس الأولى إلى أهل تيموثاوس (١٦) لم يره أحد من الناس ولا يقدر أن يراه) وقد رأى الناس المسيح والروح القدس .

وروى مرقس في الفصل الثالث عشر من إنجيله إنه قال في الساعة ويوم القيامة ما نصه: (٣٢) وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلم يعلم بها أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب) فلو كان الابن عين الآب لكان يعلم كل ما يعلمه الآب . وقوله عليه السلام في القيامة موافق لقول الله سبحانه في القرآن خطاباً لخاتم رسله (ص) (قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو) .

ولو كان هؤلاء النصارى يقبلون نصوص انجيل برنابا لأتيناهاهم بشواهد منه على التوحيد مؤيدة بالبراهين العقلية والنقلية على أن المسيح بشر رسول قد خلت من قبله الرسل وليس بدعا فيهم، وناهيك الفصل الرابع والستين منه الذي يحتج به المسيح بما أتى الله الأنبياء من الآيات على أن الآيات لا تنافي البشرية والعبودية لله تعالى، وبالفصل الخامس والتسعين الذي يحتج فيه بأقوال الأنبياء في التوحيد وأنه تعالى خلق كل شيء بكلمته وأنه يرى ولا يرى، وأنه غير متجسد وغير مركب وغير متغير، وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام . ثم قال (١٩) فلاني بشر منظور وكتلة من طين تمشي على الأرض وفان كسائر البشر ٢٠ وإنه كان لي بداية وسيكون لي نهاية، وأني لا أقدر أن أبتدع خلق ذبابة) وحسبنا ما كتبناه هنا في مسألة التثليث الآن،

عليه السلام في عقائده، ولا في أحكامه ولا في آدابه، وأبعد الناس عن دين المسيح الإفرنج الذين بذلوا الملايين من الدنانير لتنصير البشر كلهم باسم المسيح، وغرضهم من ذلك استعباد جميع البشر بإزالة ملكهم وصلب أموالهم لتكون جميع لذات الدنيا وشهواتها وزينتها وعظمتها خالصة لهم، فهل جاء المسيح لهذا، وبهذا أمر أم بضده؟

والله إنني لا أرى من عجائب أطوار البشر وقلوبهم للحقائق، ولبسهم الحق بالباطل أعجب وأغرب من وجود الديانة النصرانية في الأرض: ديانة بنيت على أساس التوحيد الخالص المعقول جعلوها ديانة وثنية بتثليث غير معقول، أخذوه من تثليث اليونان والرومان المقتبس من تثليث المصريين والبراهمة اقتباساً مشوهاً - ديانة شريعة سماوية، نسخوا شريعتها برمتها وأبطلوها، واستبدلوا بها بدعاً وتقاليد غريبة عنها - ديانة زهد وتواضع وتكشف وإيثار وعبودية، جعلوها ديانة طمع وجشع وكبرياء وترف وأثرة واستعباد للبشر - ديانة أصولها التي هم عليها مقتبسة من الوثنية الأولى لم يرد كلمة تدل على عقيدتها عن أنبياء بني إسرائيل، ولكنهم زعموا أنها مستمدة من جميع كتب أنبياء بني إسرائيل - ديانة نسبوها إلى المسيح عليه السلام وليس عندهم نص من كلامه في أصول عقيدتها التي هي التثليث، وإنما بقي عندهم نصوص قاطعة من كلامه في حقيقة التوحيد والتنزيه وإبطال التثليث وعدم المساواة بين الآب والابن الذي أطلق لفظه مجازاً عليه وعلى غيره من الأبرار، على أنه كان يعبر عن نفسه في الأكثر بابن الإنسان .

لو لم يكن عندهم من النصوص في هذه العقيدة إلا ما رواه يوحنا في الفصل السابع عشر من إنجيله لكفى وهو قوله عليه السلام (٣) وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فبين أن الله تعالى هو الإله وحده وأنه هو رسوله، وهذا هو الذي دعا إليه القرآن، وكان يجب أن يكون أساس عقيدتهم يرد إله كل ما يوهم خلافه ولو بالتأويل، لأجل المطابقة بين المعقول والمنقول .

ونقل مرقس في الفصل الثاني عشر من إنجيله أن أحد

وسن بقي مباحثها إلى تفسير سورة المائدة . . .

وقد استدلل بهذه الآية على أن الملائكة المقربين أفضل من الأنبياء المرسلين، وهو قول القاضي أبي بكر الباقلاني والحليمي من أئمة الأشعرية وجمهور المعتزلة، وأما جمهور الأشعرية فيفضلون الأنبياء على الملائكة، ووجه التفضيل أن السياق في رد غلو النصارى في المسيح إذ اتخذوه إلهاً ورفعوه عن مقام العبودية فالبلاغة في الرد عليهم تقتضي الترقى في الرد من الرفيع إلى الأرفع كما تقول إن فلاناً التقى، لا يستنكف عن تقبيل يده الوزير ولا الأمير. فإذا بدأت بذكر الأمير لم يعد لذكر الوزير مزية ولا فائدة، بل يكون لغواً لأنه يندمج في الأول بالطريق الأولى. وقد بين ذلك الزمخشري وجزم به فتكلف بعضهم في الرد عليه وكان آخر شوط البيضاوي أن جعل غاية الآية تفضيل الملائكة المقربين على أولي العزم من المرسلين لا كل الملائكة على كل الأنبياء. وأما القاضي

أحمد بن المنير فإنه بعد أن أطال في تقريره على الكشف برد طريقة الترقى والتفصي من الاستدلال بها على تفضيل الملائكة المقربين، على الأنبياء المرسلين، عاد إلى الأنصاف من نفسه، وجزم بأن الآية تدل على تفضيل هؤلاء الملائكة في عظم الخلق والقدرة على الأعمال العظيمة وهو الذي يناسب الرد على من استكبروا خلق المسيح من غير أب وصدور بعض الآيات عنه فجعلوه إلهاً، والملائكة خلقوا من غير أب ولا أم، ويعلمون ما هو أعظم من آيات المسيح فهم بهذا أفضل منه وأعظم، ولكن هذا التفضيل في غير موضع الخلاف من الأشعرية والمعتزلة، وهو كثرة الثواب على الأعمال في الآخرة. والمنصف يرى أن التفاضل في هذا الرجم بالغيب، إذ لا يعلم إلا بنص من الشارع ولا نص، وليس للخلاف في هذا المسألة فائدة في إيمان ولا عمل، ولكنه من توسيع مسافة التفرق بالمراء والجدل.

جوهري ج ٣ ص ١١٧

يقول الله ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ يخاطب النصارى ﴿وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ أوصلها إليها، وحصلها فيها ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، وذو روح صدر منه فلذلك يحيي الأموات والقلوب ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، أي الآلهة ثلاثة، أو الله ثلاثة، أو الله ثلاثة أقانيم: الأب، والابن، والروح القدس؛ فالأب الذات، والابن العلم، وروح القدس الحياة (انتهاوا) عن التثليث انتهاء ﴿خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ بالذات لا تعدد فيه بوجه ما ﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهٗ وَلَدٌ﴾، أي أسبغه تسبيحاً من أن يكون له ولد، فإن الولد يكون لمن

يفنى فيكون بقاء لذكره بعده إلى أمد معلوم، وينفع والديه في كبرهما، والله ليس كذلك فهو باقي ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾، والحاجة إلى الولد ليكون وكيلاً عن أبيه قائماً بنظام بيته، والله هو الوكيل، فأين الحاجة للولد إذن؟ هذا من جهة الله، أما المسيح فلن يأنف أن يكون عبداً لله بل الملائكة المقربون لا يأنفون من ذلك، ولذلك قال ﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ﴾ لن يأنف من نكفت الدمع إذا نحيته بأصبعك، من ﴿أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ أن يكونوا عبيداً، لله ﴿وَمَنْ يَسْتَنكِفَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ﴾، ومن يترفع عنها ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ فيجازيهم.

المراغي ج ٦ ص ٢٧ - ٣٥

شيء، فهداهم إلى الجمع بين حقوق الأبدان وحقوق الأديان.

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾، وهو مكوّن بكلمته وأمره الذي هو «كن» من غير وساطة أب ولا

.. ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ﴾ إلى بني إسرائيل، وقد أمرهم بأن يعبدوا الله وحده ولا يشركوا به شيئاً، وزهدهم في الدنيا، وحثهم على التقوى، وبشرهم بمحمد خاتم النبيين، وأرشدهم إلى الاعتدال في كل

وهو ملك من ملائكة الله الذين لا يحصى عددهم، وأن عيسى خلق بوساطته، وكذلك يحيى، وكان خلقه من وجه آخر، إذ كان أبوه شيخاً كبيراً وأمه عاقراً، ولكن الوساطة والسبب واحد، وهو الملك المسمى بروح القدس، أيدهم الله به رجالاً ونساء، فلا يستفاد إذاً من قوله: وروح منه، أنه جزء من الله، تعالى الله عن التركيب والتجزؤ والحلول والاتحاد بخلقه.

﴿فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾، أي فآمنوا بالله إيماناً يليق به، وهو أنه واحدٌ أخذ تنزهه عن صفات الحوادث، وأن كل ما في الكون مخلوق له، وهو الخالق له، وأن الأرض في مجموع ملكه أقل من حبة رمل بالنسبة إلى الياض منها، ومن نقطة ماء بالنسبة إلى بحارها وأنهارها، وآمنوا برسله كلهم إيماناً يليق بشأنهم وهو أنهم عبيد له خصهم بضروب من التكريم والتعظيم، وألهمهم بضرب من العلم والهداية بالوحي ليعلموا الناس كيف يوحّدون ربهم ويعبدونه ويشكرونها، ولا تقولوا: الآلهة ثلاثة: الآب والابن والروح القدس، أو الله ثلاثة أقانيم كل منها عين الآخر، وكل منها إله كامل، ومجموعها إله واحد.

فإن في هذا تركاً للتوحيد الذي هو ملة إبراهيم وسائر الأنبياء، واتباعاً لعقيدة الوثنيين، والجمع بين التثليث والتوحيد تناقض تحيله العقول، ولا يقبله أولو الألباب...

والتعبير بالولد دون الابن الذي يعبرون به في كلامهم، لبيان أنهم إذا كانوا يريدون الابن الحقيقي الذي يفهم من هذا اللفظ فلا بد أن يكون ولداً، أي مولوداً من تلقيح أبيه لأمه، وهذا محال على الله تعالى، وإن أرادوا الابن المجازي لا الحقيقي فلا خصوصية لعيسى في ذلك، لأنه قد أطلق في كتب العهد العتيق والعهد الجديد على إسرائيل وداود وغيرهما من الأخيار.

﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي إنه ليس له ولد يصح أن يسمى ابناً له حقيقة، بل له كل ما في السموات وما في الأرض خلقاً ملكاً، والمسيح من جملتها كما قال تعالى ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

نطفة، فإنه لما أرسل إليها الروح الأمين جبريل بشرها بأنه مأمور بأن يهب لها غلاماً زكياً، فاستنكرت ذلك، إذ هي عذراء لم تتزوج فقال لها: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فكلمة «كن» هي الكلمة الدالة على التكوين بمحض القدرة عند إرادة خلق الشيء وإيجاده.

وهو أيضاً مؤيد بروح منه كما قال تعالى ﴿وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧] وكما قال في صفات المؤمنين ﴿أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنَّا﴾ [المجادلة: ٢٢].

وآية الله في خلق عيسى بكلمته وجعله بشراً سوياً بما نفخ فيه من روحه كآيته في خلق آدم بكلمته وما نفخ فيه من روحه، فخلقهما كان بغير السنة العامة في خلق الناس من ذكر وأنثى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وزعم بعض النصارى أن كلمة (منه) تدل على أن عيسى جزء من الله بمعنى أنه ابنه، فقد نقل بعض المفسرين أن طبيباً نصرانياً للرشد ناظر علي بن حسين الواقدي المَرْوَزِي ذات يوم فقال له: إن في كتابكم ما يدل على أن عيسى عليه السلام جزء من الله تعالى وتلا الآية، فقرأ له الواقدي قوله تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنَّا﴾ [الباقية: ١٣] فثلثن صح ما تقول لزم أن تكون جميع هذه الأشياء جزءاً منه تبارك وتعالى - فأفحجم النصراني، وأسلم، ففرح بذلك الرشيد، ووصل الواقدي بصلة عظيمة. وقد جاء في إنجيل متى (أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا، لما كانت أمه مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس). وفي إنجيل لوقا تفصيل لظهور الملك جبريل لها وتبشيرها بإياها بولد، ومحاورتهما في ذلك، ومنها أنها سألت عن كيفية ذلك فقال لها (الروح القدس يحلّ عليك).

وفي هذا الفصل أن الیصابات أم يحيى امتلأت من الروح القدس، وبذلك حملت بيحيى، وكانت عاقراً، وأن زكريا أباه امتلأ من الروح القدس.

ومن هذا تعلم أن روح القدس عندهم وعندنا واحد

سيد قطب ج ٢ ص ٨١٤ - ٨٢٣

ثلاثة: الآب، والابن، والروح القدس. والمسيح هو «الابن». ثم تختلف المذاهب بعد ذلك في المسيح. هل هو ذو طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية؟ أم هل هو ذو طبيعة واحدة لاهوتية فقط. وهل هو ذو مشيئة واحدة مع اختلاف الطبيعتين؟ وهل هو قديم كآب أو مخلوق. . . إلى آخر ما تفرقت به المذاهب، وقامت عليه الاضطهادات بين الفرق المختلفة. . . (وسياتي شيء من تفصيل هذا الإجمال في مناسبة في سياق سورة المائدة).

والثابت من التبع التاريخي لأطوار العقيدة النصرانية، أن عقيدة التثليث، وكذلك عقيدة بنوة المسيح لله - سبحانه - (ومثلها عقيدة ألوهية أمه مريم، ودخولها في التثليثات المتعددة الأشكال) كلها لم تصاحب النصرانية الأولى. إنما دخلت إليها على فترات متفاوتة التاريخي، مع الوثنيين الذي دخلوا في النصرانية، وهم لم يبرأوا بعد من التصورات الوثنية والآلهة المتعددة. . . والتثليث بالذات يغلب أن يكون مقتبساً من الديانات المصرية القديمة، من تثليث «أوزوريس وإيزيس، وحوريس» والتثليثات المتعددة في هذه الديانة. . .

وقد ظل النصارى الموحدون يقاومون الاضطهادات التي أنزلها بهم الأباطرة الرومان، والمجماع المقدسة الموالية للدولة (الملوكانيون) إلى ما بعد القرن السادس الميلادي على الرغم من كل ما لاقوه من اضطهاد وتغرب وتشرد بعيداً عن أيدي السلطات الرومانية.

﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْفَلْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَزُوَّجَهُ مِنْهُ فَأَمَّا اللَّهُ وَاللَّهُ وَرُسُلُهُ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. . .

فهو الغلو إذن وتجاوز الحد والحق، هو ما يدعو أهل الكتاب هؤلاء إلى أن يقولوا على الله غير الحق، فيزعمون له ولداً - سبحانه - كما يزعمون أن الله الواحد ثلاثة. . . وقد تطورت عندهم فكرة البنوة، وفكرة التثليث،

هذا الدرس جولة مع النصارى من أهل الكتاب، كما كان الدرس الماضي جولة مع اليهود منهم وهؤلاء من أهل الكتاب، الموجه إليهم هذا الخطاب.

وفي الدرس الماضي أنصف القرآن عيسى ابن مريم وأمه الطاهرة من افتراءات اليهود، وأنصف العقيدة الصحيحة في حكاية صلب المسيح عليه السلام وأنصف الحق نفسه من يهود، وأفاعيل يهود، وعنت!

في هذا الدرس يتجه السياق إلى إنصاف الحق والعقيدة، وإنصاف عيسى ابن مريم كذلك من غلو النصارى في شأن المسيح عليه السلام ومن الأساطير الوثنية التي تسربت إلى النصرانية السمحة من شتى الأقوام، وشتى الملل، التي احتكت بها النصرانية؛ سواء في ذلك أساطير الإغريق والرومان، وأساطير قدماء المصريين، وأساطير الهنود!

ولقد تولى القرآن الكرم تصحيح عقائد أهل الكتاب التي جاء فوجدها مليئة بالتحريفات مشحونة بالأساطير؛ كما تولى تصحيح عقائد المشركين، المتخلفة من بقايا الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام في الجزيرة العربية ومن ركام فوقها من أساطير البشر وترهات الجاهلية!

لا بل جاء الإسلام ليتولى تصحيح العقيدة في الله للبشر أجمعين؛ وينقذها من كل انحراف وكل اختلاف، وكل غلو، وكل تفريط، في تفكير البشر أجمعين. . . فصحيح - فيما صحح - اختلافات تصور التوحيد في آراء أرسطو في أثينا قبل الميلاد، وأفلاطون في الإسكندرية بعد الميلاد؛ وما بينهما وما تلاهما من شتى التصورات في شتى الفلسفات التي كانت تخبط في التيه، معتمدة على ذبالة العقل البشري، الذي لا بد أن تعنيه الرسالة، ليهتدي في هذا التيه!

والقضية التي يعرض لها السياق في هذه الآيات، هي قضية «التثليث» وما تتضمنه من أسطورة «بنوة المسيح» لتقرير وحدانية الله سبحانه على الوجه المستقيم الصحيح. ولقد جاء الإسلام والعقيدة التي يعتنقها النصارى - على اختلاف المذاهب - هي عقيدة أن الإله واحد في أقانيم

شيء من العدم، لا عجب في أن تخلق عيسى - عليه السلام - في بطن مريم من النفخة التي يعبر عنها بقوله: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾.

وقد نفخ الله في طينة آدم من قبل من روحه. فكان «إنساناً».. كما يقول الله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِ إِنِّي خَلَقْتُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ۖ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَكِينًا﴾ [ص: ٧١، ٧٢] وكذلك قال في قصة عيسى: ﴿وَالَّتِي أَحْصَدَتْ فَرحَهَا فَفَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] فالأمر له سابقة.. والروح هنا هو الروح هناك.. ولم يقل أحد من أهل الكتاب - وهم يؤمنون بقصة آدم والنفخة فيه من روح الله - إن آدم إله، ولا أقنوم من أقانيم الإله. كما قالوا عن عيسى مع تشابه الحال من حيث قضية الروح والنفخة ومن حيث الخلقة كذلك. بل إن آدم خلق من غير أب وأم؛ وعيسى خلق مع وجود أم.. وكذلك قال الله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]..

ويعجب الإنسان - وهو يرى وضوح القضية وبساطتها - من فعل الهوى ورواسب الوثنية التي عقدت قضية عيسى عليه السلام هذا التعقيد كله، في أذهان أجيال وأجيال هي كما يصورها القرآن بسيطة بسيطة، وواضحة مكشوفة.

إن الذي وهب لآدم.. من غير أبوين.. حياة إنسانية متميزة عن حياة سائر الخلائق بنفخة من روحه، لهو الذي وهب عيسى.. من غير أب.. هذه الحياة الإنسانية كذلك.. وهذا الكلام البسيط الواضح أولى من تلك الأساطير التي لا تنتهي عن ألوهية المسيح، لمجرد أنه جاء من غير أب. وعن ألوهية الأقانيم الثلاثة كذلك.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ ۚ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ﴾..

وهذه الدعوة للإيمان بالله ورسله - ومن بينهم عيسى بوصفه رسولاً، ومحمد بوصفه خاتم النبيين - والانتفاء عن تلك الدعاوى والأساطير، تجيء في وقتها المناسب بعد هذا البيان الكاشف والتقرير المريح.. ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾.. تشهد بهذا وحدة الناموس..

حسب رقي التفكير وانحطاطه. ولكنهم قد اضطروا أمام الاشتمزاز الفطري من نسبة الولد لله، والذي تزيده الثقافة العقلية، أن يفسروا البنوة بأنها ليست عن ولادة كولدادة البشر. ولكن عن «المحبة» بين الأب والابن. وأن يفسروا الإله الواحد في ثلاثة.. بأنها «صفات» لله سبحانه في «حالات» مختلفة.. وإن كانوا ما يزالون غير قادرين على إدخال هذه التصورات المتناقضة إلى الإدراك البشري. فهم يحيلونها إلى معميات غيبية لا تنكشف إلا بانكشاف حجاب السماوات والأرض.

والله سبحانه تعالى عن الشراكة؛ وتعالى عن المشابهة. ومقتضى كونه خالقاً يستتبع.. بذاته.. أن يكون غير الخلق. وما يملك إدراك أن يتصور إلا هذا التباين بين الخالق والخلق. والمالك والملوك.. وإلى هذا يشير النص القرآني:

﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحِيدٌ سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ ۚ لَمْ يَلَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾

وإذا كان مولد عيسى عليه السلام من غير أب عجباً في عرف البشر، خارقاً لما ألفوه، فهذا العجب إنما تنشئه مخالفة المألوف. والمألوف للبشر ليس هو كل الموجود. والقوانين الكونية التي يعرفونها ليست هي كل سنة الله. والله يخلق السنة ويجريها، ويصرفها حسب مشيئته. ولا حد لمشيئته.

والله سبحانه يقول وقوله الحق في المسيح ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ فهو على وجه القصد والتحديد: «رسول الله». شأنه في هذا شأن بقية الرسل. شأن نوح وإبراهيم وموسى ومحمد، وبقية الرهط الكريم من عباد الله المختارين للرسالة على مدار الزمان..

﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ وأقرب تفسير لهذه العبارة، أنه سبحانه، خلق عيسى بالأمر الكوني المباشر، الذي يقول عنه في مواضع شتى من القرآن: إنه ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].. فلقد ألقى هذه الكلمة إلى مريم فخلق عيسى في بطنها من غير نطفة أب - كما هو المألوف في حياة البشر غير آدم - والكلمة التي تخلق كل

خاصية. كما عني بتقرير حقيقة الصلة بين الله - سبحانه - وكل شيء (بما في ذلك كل حي)، وهي أنها صلة ألوهية وعبودية. ألوهية الله، وعبودية كل شيء لله. . . والمتتبع للقرآن كله يجد العناية فيه بالغة بتقرير هذه الحقائق - أو هذه الحقيقة الواحدة بجوانبها هذه - بحيث لا تدع في النفس ظلاً من شك أو شبهة أو غموض.

ولقد عني الإسلام كذلك بأن يقرر هذه هي الحقيقة التي جاء بها الرسل أجمعون، فقررها في سيرة كل رسول، وفي دعوة كل رسول؛ وجعلها محور الرسالة من عهد نوح عليه السلام، إلى عهد محمد خاتم النبيين - عليه الصلاة والسلام - تتكرر الدعوة بها على لسان كل رسول: ﴿يَقُولُوا أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ [الأعراف: ٥٩]. . .

وكان من العجيب أن أتباع الديانات السماوية - وهي حاسمة وصارمة في تقرير هذه الحقيقة - يكون منهم من يحرف هذه الحقيقة؛ وينسب لله - سبحانه - البنين والبنات؛ أو ينسب لله - سبحانه - الامتزاج مع أحد من خلقه في صورة الأقانيم؛ اقتباساً من الوثنيات التي عاشت في الجاهليات!

ألوهية وعبودية. . . ولا شيء غير هذه الحقيقة. ولا قاعدة إلا هذه القاعدة. ولا صلة إلا صلة الألوهية بالعبودية، وصلة العبودية بالألوهية. . .

ولا تستقيم تصورات الناس - كما لا تستقيم حياتهم - إلا بتمحيض هذه الحقيقة من كل غش، ومن كل شبهة، ومن كل ظل!

أجل لا تستقيم تصورات الناس، ولا تستقر مشاعرهم، إلا حين يستيقنون حقيقة الصلة بينهم وبين ربهم. . . هو إله لهم وهم عبده. . . هو خالق لهم وهم مخلوق. . . هو مالك لهم وهم ممالك. . . وهم كلهم سواء في هذه الصلة، لا بنوة أحد. ولا امتزاج بأحد. . . ومن ثم لا قربى لأحد إلا بشيء يملكه كل أحد ويوجه إرادته إليه فيبلغه: التقوى والعمل الصالح. . . وهذا في مستطاع كل أحد أن يحاوله. فأما البنوة، وأما الامتزاج فأنى بهما لكل أحد؟!

ولا تستقيم حياتهم وارتباطاتهم ووظائفهم في الحياة، إلا حين تستقر في أخلادهم تلك الحقيقة: أنهم كلهم عبيد

ووحدة الخلق. ووحدة الطريقة: كن. . . فيكون. . . ويشهد بذلك العقل البشري ذاته. فالقضية في حدود إدراكه. فالعقل لا يتصور خالقاً يشبه مخلوقاته، ولا ثلاثة في واحد، ولا واحداً في ثلاثة:

﴿سُبْحَنَهُ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ وَلَدٌ﴾. . . والولادة امتداد للفاني ومحاولة للبقاء في صور النسل. . . والله الباقي غني عن الامتداد في صورة الفانين؛ وكل ما في السماوات وما في الأرض ملك له سبحانه على استواء: ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. . .

ويكفي البشر أن يرتبطوا كلهم بالله ارتباط العبودية للمعبود؛ وهو يرعاهم أجمعين، ولا حاجة لافتراض قرابة بينهم وبينه عن طريق ابن له منهم! فالصلة قائمة بالرعاية والكلاءة:

﴿وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾. . . وهكذا لا يكتفي القرآن ببيان الحقية وتقريرها في شأن العقيدة. إنما يضيف إليها إراحة شعور الناس من ناحية رعاية الله لهم؛ وقيامه - سبحانه - عليهم وعلى حوائجهم ومصالحهم؛ ليكلوا إليه أمرهم كله في طمأنينة. . .

ويمضي السياق في البيان؛ لتقرير أكبر قضايا التصور الاعتقادي الصحيح، وهي الحقيقة الاعتقادية التي تنشأ في النفس من تقرير حقيقة الوحدانية. . . حقيقة أن ألوهية الخالق تتبعها عبودية الخلائق. . . وأن هناك فقط: ألوهية وعبودية. . . ألوهية واحدة، وعبودية تشمل كل شيء، وكل أحد، في هذا الوجود.

ويصحح القرآن هنا عقيدة النصارى كما يصحح كل عقيدة تجعل للملائكة بنوة كبنوة عيسى، أو شركاً في الألوهية كشرسته في الألوهية:

﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسِتْكِرَفْسِيحُشْرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾.

لقد عني الإسلام عناية بالغة بتقرير حقيقة وحدانية الله سبحانه؛ وحدانية لا تتبلس بشبهة شرك أو مشابهة في صورة من الصور؛ وعني بتقرير أن الله - سبحانه - ليس كمثله شيء. فلا يشترك معه شيء في ماهية ولا صفة ولا

أسطورة عن بنوة أحد الله، أو ألوهية أحد مع الله، في أي شكل من الأشكال . . يقول القرآن كلمة الفصل بتقريره أن عيسى ابن مريم عبدالله، وأنه لن يستنكف أن يكون عبداً لله، وأن الملائكة المقربين عبيد لله، وأنهم لن يستنكفوا أن يكونوا عبيداً لله، وأن جميع خلائقه ستحشر إليه، وأن الذين يستنكفون عن صفة العبودية ينتظرهم العذاب الأليم. وأن الذين يقرون بهذه العبودية لهم الثواب العظيم: ﴿لَنْ يَسْتَنْكَفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكَفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾.

إن المسيح عيسى ابن مريم لن يتعالى عن أن يكون عبداً لله، لأنه عليه السلام وهو نبي الله ورسوله - خير من يعرف حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، وأنهما ماهيتان مختلفتان لا تمتزجان، وهو خير من يعرف أنه من خلق الله، فلا يكون خلق الله كالله، أو بعضاً من الله! وهو خير من يعرف أن العبودية لله - فضلاً على أنها الحقيقة المؤكدة الوحيدة - لا تنقص من قدره، فالعبودية لله مرتبة لا يأبأها إلا كافر بنعمة الخلق والإنشاء، وهي المرتبة التي يصف الله بها رسله، وهم في أرقى حالاتهم وأكرمها عنده. . وكذلك الملائكة المقربون - وفيهم روح القدس جبريل - شأنهم شأن عيسى عليه السلام وسائر الأنبياء - فما با لجماعة من أتباع المسيح يأبون له ما يرضاه لنفسه ويعرفه حق المعرفة!

﴿وَمَنْ يَسْتَنْكَفْ عَنْ عِبَادَتِي وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيَّ جَمِيعًا﴾. .

فاستنكافهم واستكبارهم لا يمنعهم من حشر الله لهم بسلطانه. . سلطان الألوهية على العباد. . شأنهم في هذا شأن المقربين بالعبودية المستسلمين لله. . فأما الذين عرفوا الحق، فأقروا بعبوديتهم لله، وعملوا الصالحات لأن عمل الصالحات هو الثمرة الطبيعية لهذه المعرفة وهذا الإقرار؛ فيوفيه أجورهم ويزيدهم من فضله.

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيَعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِّنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾. . وما يريد الله - سبحانه - من عباده أن يقروا له بالعبودية، وأن

لرب واحد. . ومن ثم فموقفهم كلهم تجاه صاحب السلطان واحد. فأما القربى إليه ففي تناول الجميع. . عندئذ تكون المساواة بين بني الإنسان، لأنهم متساوون في موقفهم من صاحب السلطان. . وعندئذ تسقط كل دعوى زائفة في الوساطة بين الله والناس؛ وتسقط معها جميع الحقوق المدعاة لقرود أو لمجموعة أو لسلسلة من النسب لطائفة من الناس. . وبغير هذا لا تكون هناك مساواة أصيلة الجذور في حياة بني الإنسان ومجتمعهم ونظامهم ووضعهم في هذا النظام!

فالمسألة - على هذا - ليست مسألة عقيدة وجدانية يستقر فيها القلب على هذا الأساس الركين، فحسب، إنما هي كذلك مسألة نظام حياة، وارتباطات مجتمع، وعلاقات أمم وأجيال من بني الإنسان.

إنه ميلاد جديد للإنسان على يد الإسلام. . ميلاد للإنسان المتحرر من العبودية للعباد، بالعبودية لرب العباد. . ومن ثم لم تقم في تاريخ الإسلام «كنيسة» تستذل رقاب الناس، بوصفها الممثلة لابن الله، أو للأقنوم المتمم للأقانيم الإلهية؛ المستمدة لسلطانها من سلطان الابن أو سلطان الأقنوم. ولم تقم كذلك في تاريخ الإسلام سلطة مقدسة تحكم «بالحق الإلهي» زاعمة أن حقها في الحكم والتشريع مستمد من قرابتها أو تفويضها من الله! وقد ظل «الحق المقدس» للكنيسة والبابوات في جانب؛ وللأباطرة الذين زعموا لأنفسهم حقاً مقدساً كحق الكنيسة في جانب. . ظل هذا الحق أو ذاك قائماً في أوروبا باسم (الابن) أو مركب الأقانيم. حتى جاء «الصلبيون» إلى أرض الإسلام مغيرين. فلما ارتدوا أخذوا معهم من أرض الإسلام بذرة الثورة على «الحق المقدس»، وكانت فيما بعد ثورات «مارتن لوثر»، و«كالفن»، و«زنجلي» المسماة بحركة الإصلاح. . على أساس من تأثير الإسلام، ووضوح التصور الإسلامي، ونفي القداسة عن بني الإنسان؛ ونفي التفويض في السلطان. . لأنه ليست هنالك إلا ألوهية وعبودية في عقيدة الإسلام.

وهنا يقول القرآن كلمة الفصل في ألوهية المسيح وبنوته؛ وألوهية روح القدس (أحد الأقانيم)، وفي كل

وحده؛ وتعليق أنظار البشر لله وحده؛ وتعليق قلوبهم برضاه، وأعمالهم بتقواه، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه. . إن هذا كله رصيد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة يضاف إلى حساب البشرية في حياتها الأرضية، وزاد من الخير والكرامة والحرية والعدل والاستقامة تستمتع به الأرض. . في هذه الحياة. . فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات، في الآخرة، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر، وفيض من عطاء الله.

وفي هذا الضوء يجب أن ننظر إلى قضية الإيمان بالله في الصورة الناصعة التي جاء بها الإسلام، وقرر أنها قاعدة الرسالة كلها، ودعوة الرسل جميعاً قبل أن يحرفها الأتباع، وتشوهها الأجيال. . يجب أن ننظر إليها برصفتها ميلاداً جديداً للإنسان، تتوافر له معه الكرامة والحرية، والعدل والصلاح، والخروج من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده في الشعائر وفي نظام الحياة سواء.

والذين يستنكفون من العبودية لله يذلون لعبوديات في هذه الأرض ولا تنتهي. . يذلون لعبودية الهوى والشهوة، أو عبودية الوهم والخرافة، ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم، ويحنون لهم الجباه، ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله. . ولكنهم يتخذونهم آلهة لهم من دون الله. . هذا في الدنيا. . أما في الآخرة ﴿فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧٣].

يعبدوه وحده، لأنه بحاجة إلى عبوديتهم وعبادتهم، ولا لأنها تزيد في ملكه تعالى أو تنقص من شيء، ولكنه يريد لهم أن يعرفوا حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، لتصح تصوراتهم ومشاعرهم، كما تصح حياتهم وأوضاعهم. فما يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع، على أساس سليم قويم، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من إقرار، وما يتبع الإقرار من آثار. .

يريد الله - سبحانه - أن تستقر هذه الحقيقة بجوانبها التي بينها في نفوس الناس وفي حياتهم، ليخرجوا من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ليعرفوا مَنْ صاحب السلطان في هذا الكون وفي هذه الأرض، فلا يخضعوا إلا له، وإلا لمنهجه وشريعته للحياة، وإلا لمن يحكم حياتهم وشرعه دون سواه. يريد أن يعرفوا أن العبيد كلهم عبيد؛ ليرفعوا جباههم أمام كل من عداه، حين تعنو له وحده الوجوه والجباه. يريد أن يستشعروا العزة أمام المتجبرين والطفة، حين يخرون له راكعين ساجدين يذكرون الله ولا يذكرون أحداً إلا الله. يريد أن يعرفوا أن القربى إليه لا تجيء عن صهر ولا نسب، ولكن تجيء عن تقوى وعمل صالح؛ فيعمرون الأرض ويعملون الصالحات قربة إلى الله. يريد أن تكون لهم معرفة بحقيقة الألوهية وحقيقة العبودية، فتكون لهم غيرة على سلطان الله في الأرض أن يدعيه المدعون باسم الله، أو باسم غير الله فيردون الأمر كله لله. ومن ثم تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس. .

إن تقدير هذه الحقيقة الكبيرة؛ وتعليق أنظار البشر لله

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١٧)

مصادر تفاسير الآية

٢ ج	٢٥ - ٢٤ ص	ابن كثير	٦ ج	١٠٤ - ١٠٥ ص	الطبري
٢ ج	١٣٩ ص	الجلالان	١١ ج	١٩٠ - ١٩١ ص	الرازي
٢ ج	٢٥ - ٢٤ ص	الشوكاني	١ ج	٦٠١ - ٦٠٢ ص	الزمخشري
٦ ج	١٠٠ - ٩٨ ص	الآلوسي	٦ ج	٥٧ - ٦٠ ص	الطبرسي
٦ ج	١٩٢٤ - ١٩٢١ ص	القاسمي	١ ج	٣١٧ - ٣١٩ ص	ابن عربي
٦ ج	٣١٤ - ٣٠٦ ص	محمد عبده	٢ ج	١٤٢ ص	البیضاوي
٥ ج	٢٨٥ - ٢٤٢ ص	الطباطبائي	٢ ج	٢٨ ص	الخازن
٣ ج	١٥٤ - ١٥٣ ص	جوهري	٢ ج	ص	البغوي
٦ ج	٨٤ - ٨١ ص	المراغي	٢ ج	ص	الماوردي
٢ ج	٨٦٢ - ٨٦٦ ص	سيد قطب	٦ ج	١١٩ ص	القرطبي
			٢ ج	٤٤٢ - ٤٥٠ ص	أبو حيان الاندلسي

الطبري ج ٦ ص ١٠٤ - ١٠٥

أمراً إلا به وقوله إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً يقول من ذا الذي يقدر أن يرده من أمر الله شيئاً إن شاء أن يهلك المسيح ابن مريم بأعدامه من الأرض وإعدام أمه مريم وإعدام جميع من في الأرض من الخلق جميعاً يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ قل لهؤلاء الجاهلة من النصارى لو كان المسيح كما يزعمون أنه هو الله وليس كذلك لقدر أن يرده أمر الله إذا جاءه بأهلاكه وإهلاك أمه وقد أهلك أمه فلم يقدر على دفع أمره فيها إذ نزل ذلك ففي ذلك لكم معتبر إن اعتبرتم وحجة عليكم إن عقلتم في أن المسيح بشر كسائر بني آدم وأن الله عز وجل هو الذي لا يغلب ولا يقهر ولا يرده أمر بل هو الحي الدائم القيوم الذي يحيي ويميت وينشئ ويفني وهو حي لا يموت. القول في تأويل قوله ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يعني تبارك وتعالى بذلك والله له تصرف ما في السموات والأرض وما بينهما يعني وما بين السماء والأرض يهلك

القول في تأويل قوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هذا ذم من الله عز ذكره للنصارى والنصرانية الذين ضلوا عن سبيل السلام واحتجاج منه لنبيه محمد ﷺ في فريتهم عليه بادعائهم له ولدأ يقول جل ثناؤه أقسم لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم وكفرهم في ذلك تغطيتهم الحق في تركهم نفي الولد عن الله جل وعز وادعائهم أن المسيح هو الله فرية وكذباً عليه وقد بينا معنى المسيح فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد للنصارى الذين افتروا عليّ وضلوا عن سواء السبيل بقليلهم أن الله هو المسيح ابن مريم من يملك من الله شيئاً يقول من الذي يطيق أن يدفع من أمر الله جل وعز شيئاً فيرده إذا قضاه من قول القائل ملكك على فلان أمره إذا صار لا يقدر أن ينفذ

من يشاء من ذلك ويبقي ما يشاء منه ويوجد ما أراد ويعدم ما أحب لا يمنعه من شيء أراد من ذلك مانع ولا يدفعه عنه دافع ينفذ فيهم حكمه ويمضي فيهم قضاءه لا المسيح الذي إن أراد ربه واهلاك أمه لم يملك دفع ما أراد به ربه من ذلك يقول جلّ وعزّ كيف يكون إلهاً يعبد من كان عاجزاً عن دفع ما أراد به غيره من السوء وغير قادر على صرف ما نزل به من الهلاك بل الإله المعبود الذي له ملك كل شيء ويبدعه تصريف كل من في السماء والأرض وما بينهما فقال جل ثناؤه وما بينهما وقد ذكر السموات بلفظ الجمع ولم يقل وما بينهما لأن المعنى وما بين هذين النوعين من الأشياء كما قال الراعي:

طرقا فتلك هما همي أقربهما

قلصا لواقع كالقسي وحولا

فقال طرقا مخبراً عن شيئين ثم قال فتلك هما همي

فرجع إلى معنى الكلام وقوله يخلق ما يشاء يقول جل ثناؤه وينشئ ما يشاء ويوجده ويخرجه من حال العدم إلى حال الوجود ولن يقدر على ذلك غير الله الواحد القهار وإنما يعني بذلك أن له تدبير السموات والأرض وما بينهما وتصريفه وإفناءه وإعدامه وإيجاد ما يشاء مما هو غير موجود ولا منشأ يقول فليس ذلك لأحد سواي فكيف زعمتم أيها الكذبة أن المسيح إله وهو لا يطبق شيئاً من ذلك بل لا يقدر على دفع الضرر عن نفسه ولا عن أمه ولا اجتلاب نفع إليها إلا بإذني. القول في تأويل قوله ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقول عزّ ذكره الله المعبود هو القادر على كل شيء والمالك كل شيء الذي لا يعجزه شيء أرادته ولا يغلبه شيء طلبه المقتدر على هلاك المسيح وأمّه ومن في الأرض جميعاً لا العاجز الذي لا يقدر على منع نفسه من ضرر نزل به من الله ولا منع أمه من الهلاك.

الزمخشري ج ١ ص ٦٠١-٦٠٢

أنثى من غير ذكر كما خلق عيسى، ويخلق من غير ذكر وأنثى كما خلق آدم أو يخلق ما يشاء كخلق الطير على يد عيسى معجزة له وكإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص وغير ذلك، فيجب أن ينسب إليه ولا ينسب إلى البشر المجرى على يده. أشياح

قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ معناه بت القول على أن حقيقة الله هو المسيح لا غير. قيل كان في النصارى قوم يقولون ذلك، وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر أمر العالم... ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق من ذكر وأنثى ويخلق من

الرازي ج ١١ ص ١٩٠-١٩١

فيكون عيسى هو الإله على هذا القول. وإن قلنا: إن الأأنوم عبارة عن الصفة، فانتقال الصفة من ذات إلى ذات أخرى غير معقول، ثم بتقدير انتقال أنوم العلم عن ذات الله تعالى إلى عيسى يلزم خلو ذات الله عن العلم، ومن لم يكن عالماً لم يكن إلهاً، فحيث لا يكون الإله هو عيسى على قولهم، فثبت أن النصارى وإن كانوا لا يصرحون بهذا القول إلا أن حاصل مذهبهم ليس إلا ذلك...

ثم قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ إنما قال ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بعد ذكر السموات والأرض، ولم يقل: بينهما لأنه ذهب بذلك مذهب الصنفين والنوعين.

قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ في الآية سؤال، وهو أن أحداً من النصارى لا يقول: إن الله هو المسيح ابن مريم، فكيف حكى الله عنهم ذلك مع أنهم لا يقولون به.

وجوابه: أن كثيراً من الحلولية يقولون: أن الله تعالى قد يحل في بدن إنسان معين، أو في روحه، وإذا كان كذلك فلا يبعد أن يقال: إن قوماً من النصارى ذهبوا إلى هذا القول، بل هذا أقرب مما يذهب إليه النصارى، وذلك لأنهم يقولون: أن إقنوم الكلمة اتحد بعيسى عليه السلام، فأقنوم الكلمة إما أن يكون ذاتاً أو صفة، فإن كان ذاتاً فذات الله تعالى قد حلت في عيسى واتحدت بعيسى

يخلق ما يشاء، يعني أن عيسى إذا قدر صورة الطير من الطين فالله تعالى يخلق فيه اللحمية والحياة والقدرة معجزة لعيسى، وتارة يحيي الموتى ويرى الأكمه والأبرص معجزة له، ولا اعتراض على الله تعالى في شيء من أفعاله.

ثم قال: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وفي وجهان: الأول: يعني يخلق ما يشاء، فتارة يخلق الإنسان من الذكر والأنثى كما هو معتاد، وتارة لا من الأب والأم كما في حق آدم عليه السلام، وتارة من الأم لا من الأب كما في حق عيسى عليه السلام، والثاني:

الطبرسي ج ٦ ص ٥٧ - ٦٠

بصفات الله سبحانه فقالوا له وكل جاهل بالله كافر، لأنه لما ضيع نعمة الله تعالى كان بمنزلة من أضافها إلى غيره ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي من يقدر أن يدفع من أمر الله شيئاً من قولهم ملكت على فلان أمره إذ اقتدرت عليه حتى لا يمكنه انفاذ شيء من أمره إلا بك وتقديره من يملك من أمر الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾...

ثم حكى سبحانه عن النصارى ما قالوا في المسيح ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ كفرهم الله سبحانه بهذا القول لأنهم قالوه على وجه التدين به والاعتقاد لا على وجه الإنكار وإنما كفروا بذلك لوجهين:

أحدهما: إنهم كفروا بالنعمة من حيث أضافوا إلى غير الله ممن ادعوا إلهيته والآخر: إنهم كفروا بأنهم وصفوا المسيح وهو محدث

ابن عربي ج ١ ص ٣١٧ - ٣١٩

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ﴾ أي عالم الأرواح ﴿وَالْأَرْضِ﴾ عالم الأجساد ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ من الصور والأعراض كلها ظاهرة وباطنة، وأسماءه، وصفاته وأفعاله.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ بأن حصروا الألوهية فيه، وقيدوا الإله بتعيينه. ﴿أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ إلى قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ بالإفناء في التوحيد، والطمس في غير الجمع. كما قال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

الخازن ج ٢ ص ٢٨

اعتقادهم ذلك لا جرم حكم الله عليهم بالكفر ثم ذكر الله ما يدل على فساد مذهبهم فقال تعالى ﴿قُلْ﴾ يعني يا محمد لهؤلاء النصارى الذين يقولون هذه المقالة ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ﴾ يعني يقدر أن يدفع ﴿مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ يعني من أمر الله شيئاً ﴿إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ﴾ يعني يعدم المسيح وأمه...

قوله عز وجل ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال ابن عباس هؤلاء نصارى نجران فإنهم قالوا هذه المقالة وهو مذهب اليعقوبية والملكانية من النصارى لأنهم يقولون في المسيح أنه الله تعالى، الله عما يقولون علواً كبيراً وإنما قالوا هذه المقالة الخبيثة لأنهم يقولون بالحلول وأن الله قد حلّ في بدن عيسى فلما كان

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٤٨ - ٤٥٠

والأيكي العجمي الذي كان تولى المشيخة بخانقاه سعيد السعداء بالقاهرة من ديار مصر وأبو يعقوب بن مبشر تلميذ التستري المقيم كان بحارة زويلة وإنما سردت أسماء هؤلاء نصحاً لدين الله يعلم الله ذلك وشفقة على ضعفاء المسلمين وليحذروا فهم شر من الفلاسفة الذين يكذبون الله تعالى ورسله ويقولون بقدوم العالم وينكرون البعث وقد أُولع جهلة ممن ينتمي للتصوّف بتعظيم هؤلاء وأدعائهم أنهم صفوة الله وأوليائه والردّ على النصارى والحلولية والقائلين بالوحدة هو من علم أصول الدين. وقال ابن عطية القائلون بأن الله هو المسيح فرقة من النصارى وكل فرقهم على اختلاف أقوالهم يجعل للمسيح حظاً من الألوهية. وقال الزمخشري قيل كان في النصارى من يقول ذلك. وقيل ما صرحوا به ولكن مذهبهم يؤدي إليه حيث اعتقدوا أنه يخلق ويحيي ويميت ويدبر العالم ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ هذا ردّ عليهم والفاء في فمن للعطف على جملة محذوفة تضمنت كذبهم في مقالتهم التقدير قل كذبوا قل ليس كما قالوا فمن يملك . . .

ومن تنفذ فيه لا يكون إلهاً وعطف عليهما ومن في الأرض جميعاً عطف العام على الخاص ليكونا قد ذكرا مرتين مرّة بالنص عليهما ومرّة بالاندراج في العام وذلك على سبيل التوكيد والمبالغة في تعلق نفاذ الإرادة فيهما وليعلم أنهما من جنس من في الأرض لا تفاوت بينهما في البشرية وفي ذلك إشارة إلى حلول الحوادث بهما والله سبحانه وتعالى منزّه أن تحلّ به الحوادث وأن يكون محلاً لها وفي هذا ردّ على الكرامية ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ والمسيح وأمه من جملة ما في الأرض فهما مهجوران لله تعالى مملوكان له وهذه الجملة مؤكدة لقوله إن أراد أن يهلك المسيح ابن مريم وأمه ودلالة على أنه إذا أراد فعل لأن من له ذلك الملك يفعل في ملكه ما يشاء . . .

واختلف المفسرون في تأويل هذه الآية فذهب قوم إلى أنهم كلهم قائلون هذا القول وهم على ثلاث فرق كما تقدم وأنهم أجمعوا وإن اختلفت مقالاتهم على أن معبودهم جوهر واحد أقانيم ثلاثة الأب والابن والروح أي الحياة ويسمونها روح القدس وأن الابن لم يزل مولوداً من الأب ولم يزل الأب والدأ ولم تزل الروح منتقلة بين الأب والابن وأجمعوا على أن المسيح لاهوت وناسوت أي إله وإنسان فإذا قالوا المسيح إله واحد فقد قالوا الله هو المسيح وذهب قوم إلى أن القائلين هذا القول فرقة غير معينة يقولون إن الكلمة اتخذت بعيسى سواء قدرت ذاتاً أم صفة وذهب قوم إلى أن يعقوبية من النصارى هي القائلة بهذه المقالة ذكره البغوي في معالم التنزيل. قال بعض المفسرين وكل طوائفهم الثلاثة يعقوبية والملكانية والنسطورية ينكرون هذه المقالة والذي يقرون به أن عيسى ابن الله تعالى وأنه إله وإذا اعتقدوا فيه إله لزم من ذلك قولهم بأنه الله انتهى وقد رأيت من نصارى بلاد الأندلس من كان ينتمي إلى العلم فيهم وذكر لي أن عيسى نفسه هو الله تعالى ونصارى الأندلس ملكية قلت له كيف تقول ذلك ومن المتفق عليه أن عيسى كان يأكل ويشرب فتعجب من قولي وقال إذا كنت أنت بعض مخلوقات الله قادراً على أن تأكل وتشرب فكيف لا يكون الله قادراً على ذلك فاستدللت من ذلك على فرط غباوته وجهله بصفات الله تعالى وذهب ابن عباس إلى أنهم أهل نجران وزعم طائفة منهم أنه إله الأرض والله إله السماء ومن بعض اعتقادات النصارى استنبط من تستر بالإسلام ظاهراً وانتمى إلى الصوفية حلول الله تعالى في الصور الجميلة ومن ذهب من ملاحدتهم إلى القول بالاتحاد والوحدة كالحلاج والشوذي وابن أحلى وابن العربي المقيم كان بدمشق وابن الفارض وأتباع هؤلاء كابن سبعين والتستري تلميذه وابن مطرف المقيم بمرسية والصفار المقتول بغرناطة وابن اللباج وأبو الحسن المقيم كان بلورقة وممن رأيناه يرمي بهذا المذهب الملعون العفيف التلمساني وله في ذلك أشعار كثيرة وابن عياش المالقي الأسود الأقطع المقيم كان بدمشق وعبد الواحد بن المؤخر المقيم كان بصعيد مصر

الشوكاني ج ٢ ص ٤٢ - ٢٥

والحفظ والقدرة، من قولهم ملكت على فلان أمره: أي قدرت عليه: أي فمن يقدر أن يمنع ﴿إِنِّي أَرَادْتُ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمْسَكْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾... قوله «يخلق ما يشاء» جملة مستأنفة مسوقة لبيان أنه سبحانه خالق الخلق بحسب مشيئته، وأنه يقدر على كل شيء لا يستعصب عليه شيء.

ضمير الفصل في قوله ﴿هُوَ الْمَسِيحُ﴾ يفيد الحصر؛ قيل وقد قال بذلك بعض طوائف النصارى؛ وقيل لم يقل به أحد منهم، ولكن استلزم قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ﴾ لا غيره، وقد تقدّم في آخر سورة النساء ما يكفي ويغني عن التكرار. قوله ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع، والملك، والملك: الضبط

الألوسي ج ٦ ص ٩٨ - ١٠٠

تعالى إلا من هذا وصفه أي حقيقة الإلهية، فيه، وهذا كقولك: الكريم زيد أي حقيقة الكرم في زيد، وعلى هذا قولهم: إن الله تعالى هو المسيح انتهى، وأنت تعلم أنه مع دعوى أن القائلين بالاتحاد يقولون بانحصار المعبود في المسيح كما هو ظاهر النظم لا يرد شيء ﴿قُلْ﴾ يا محمد تبكيتاً لهم وإظهاراً لبطلان قولهم الفاسد وإقاماً لهم الحجر، وقد يقال: الخطاب لكل من له أهلية ذلك، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ عاطفة على مقدر، أو جواب شرط محذوف، و«من» استفهامية للإنكار والتوبيخ، والملك الضبط والحفظ التام عن حزم، والمراد هنا - فمن يمنع، أو يستطيع - كما في قوله:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا

أملك رأس البعير إن نفرا
و﴿مِنَ اللَّهِ﴾ متعلق به على حذف مضاف أي ليس الأمر كذلك، أو إن كان كما تزعمون فمن يمنع من قدرته تعالى وإرادته شيئاً ﴿إِنِّي أَرَادْتُ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنُ مَرْيَمَ وَأَمْسَكْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ ومن حق من يكون إلهاً أن لا يتعلق به، لا بشأن من شؤونه، بل بشيء من الموجودات قدرة غيره فضلاً عن أن يعجز عن دفع شيء منها عند تعلقها بهلاكه، فلما كان عجزه بيناً لا ريب فيه ظهر كونه بمعزل عما تقولون فيه.

والمراد بالإهلاك الإماتة والإعدام مطلقاً لا عن سخط وغضب، وإظهار المسيح على الوجه الذي نسبوا إليه

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لا غير المسيح كما يقال: الكرم هو التقوى، وأن الله تعالى هو الدهر أي الجالب للحوادث لا غير الجالب، فالقصر هنا للمسند إليه على المسند بخلاف قولك: زيد هو المنطلق فإن معناه لا غير زيد، والقائلون لذلك - على ما هو المشهور - هم اليعقوبية المدعون بأن الله سبحانه قد يحل في بدن إنسان معين أو في روحه.

وقيل: لم يصرح بهذا القول أحد من النصارى، ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً مع تصریحهم بالوحدة، وقولهم: لا إله إلا واحد لزمهم أن الله سبحانه هو المسيح، فنسب إليهم لازم قولهم توضيحاً لجهلهم وتفويضاً لمعتقدهم، وقال الراغب: فإن قيل: إن أحداً لم يقل الله تعالى هو المسيح وإن قالوا المسيح هو الله تعالى وذلك أن عندهم أن المسيح من لاهوت وناسوت فيصح أن يقال المسيح هو اللاهوت، وهو ناسوت كما صح أن يقال: الإنسان هو حيوان مع تركبه من العناصر، ولا يصح أن يقال: اللاهوت هو المسيح كما لا يصح أن يقال: الحيوان هو الإنسان، قيل: إنهم قالوا: هو المسيح على وجه آخر غير ما ذكرت، وهو ماروي عن محمد بن كعب القرظي أنه لما رفع عيسى عليه الصلاة والسلام اجتمع طائفة من علماء بني إسرائيل فقالوا: ما تقولون في عيسى عليه الصلاة والسلام؟ فقال أحدهم: أوتعلمون أحداً يحيي الموتى إلا الله تعالى؟ فقالوا: لا، فقال: أو تعلمون أحداً يبرئ الأكمه والأبرص إلا الله تعالى؟ قالوا: لا، قالوا: فما الله

عليه الصلاة والسلام ابناً ببيان أنه مملوك لدخوله تحت العموم، ومن المعلوم أن المملوكية تنافي البنوة، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مستأنفة مسوقة لبيان بعض أحكام الملك والالوهية على وجه يزيح ما اعتراه من الشبه في أمر المسيح عليه السلام لولادته من غير أب، وخلق الطير. وإبراء الأكمه والأبرص. وإحياء الموتى، ﴿وَمَا﴾ نكرة موصوفة محلها النصب على المصدرية أي يخلق أي يخلق يشاءه، فتارة يخلق من غير أصل - كخلق السموات والأرض - مثلاً، وأخرى من أصل - كخلق بعض ما بينهما - وذلك متنوع أيضاً، فطوراً ينشأ من أصل ليس من جنسه كخلق آدم، وكثير من الحيوانات - وتارة من أصل يجانسه إما من ذكر وحده - كخلق حواء - أو من أنثى وحدها - كخلق عيسى عليه الصلاة والسلام - أو منهما - كخلق سائر الناس، ويخلق بلا توسط شيء من المخلوقات - ككثير من المخلوقات - وقد يخلق بتوسط مخلوق آخر - كخلق الطير - على يد عيسى عليه السلام معجزة له. وإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فينبغي أن ينسب كل ذلك إليه تعالى لا من أجرى على يده قاله غير واحد.

وقيل: إن الجملة جيء بها ههنا مبنية لما هو المراد من قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إلخ بحسب اقتضاء المقام، ﴿وَمَا﴾ نصب على المصدرية أيضاً، وقيل: يجوز أن تكون موصولة ومحلها النصب على المفعولية أي يخلق الذي يشاء أن يخلقه، والجملة مسوقة لبيان أن قدرته تعالى أوسع من عالم الوجود، وعلى كل تقدير فقوله سبحانه: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وإظهار الاسم الجليل لما مر من التعليل...

محمد عبده ج ٦ ص ٣٠٦ - ٣١٤

ولكن لما زعموا أن فيه لاهوتاً وقالوا: لا إله إلا واحد - لهم أن يكون هو المسيح فنسب إليهم لازم قولهم، توضيحاً لجهلهم، وتفصيلاً لمعتقدهم. وذكر الفخر الرازي في تفسيره أن هذا القول مبني على عقيدة الحلول

الالوهية حيث ذكرت معه الصفة في مقام الإضمار لزيادة التقرير والتنصيص على أنه من تلك الحيثية بعينها داخل تحت قهره تعالى وملكوته سبحانه، وقيل: وصفه بذلك للتنبيه على أنه حادث تعلقت به القدرة بلا شبهة لأنه تولد من أم، وتخصيص الأم بالذكر مع اندراجها في عموم المعطوف لزيادة تأكيد عجز المسيح، ولعل نظمها في سلك من فرض إهلاكهم مع تحقق هلاكها قبل لتأكيد التبكيت وزيادة تقرير مضمون الكلام بجعل حالها أنموذجاً لحال بقية من فرض إهلاكه، وتعميم إرادة الإهلاك مع حصول الغرض بقصرها على عيسى عليه الصلاة والسلام لتحويل الخطب وإظهار كمال العجز ببيان أن الكل تحت قهره وملكوته تعالى لا يقدر على دفع ما أريد به فضلاً عما أريد بغيره، وللإيدان بأن المسيح أسوة لسائر المخلوقات في كونه عرضة للهلاك كما أنه أسوة لهم في العجز وعدم استحقاق الالوهية. قاله المولى أبو السعود، و﴿جَمِيعاً﴾ حال من المتعاطفات، وجوز أن يكون حالاً من (من) فقط لعمومها، وقوله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي ما بين طرفي العالم الجسماني فيتناول ما في السموات من الملائكة وغيرها، وما في أعماق الأرض والبحار من المخلوقات، قيل: تنصيص على كون الكل تحت قهره تعالى وملكوته إثر الإشارة إلى كون البعض كذلك أي له تعالى وحده ملك جميع الموجودات والتصرف المطلق فيها إيجاداً وإعداماً، وإحياء وإماتة لا لأحد سواه استقلالاً ولا اشتراكاً، فهو تحقيق لاختصاص الالوهية به تعالى إثر بيان انتفائها عما سواه، وقيل: دليل آخر على نفي الالوهية عيسى عليه الصلاة والسلام لأنه لو كان إلهاً كان له ملك السموات والأرض وما بينهما، وقيل: دليل على نفي كونه

أقام الله الحجة على أهل الكتاب كافة، ثم بين ما كفر به النصارى خاصة، فقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ قال البيضاوي: «هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، وقيل لم يصرح به أحد منهم،

قال «الدكتور بوست» في تاريخ الكتاب المقدس عند الكلام على لفظ الجلالة ما نصه:

«طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، فالآب ينتمي الخلق بواسطة الابن، وإلى الابن الفدي، وإلى الروح القدس التطهير. غير أن الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء. أما مسألة التثليث فغير واضحة في العهد القديم كما هي في العهد الجديد. وقد أشير إلى هذا في «نك ص ١» حيث ذكر «الله» و«روح الله» إلخ «قابل مز ٣٣: ١٦: ١٠ و٣» والحكمة الإلهية المشخصة في «أم ص ٨» تقابل الكلمة في «يو ص ١» وربما نشير إلى الأتوم الثاني. وتطلق نعوت القدير على كل أتوم من هذه الأقانيم الثلاثة على حدته» اهـ بحروفه.

والحق أن العهد القديم - أي كتب الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح - ليس فيها شيء ظاهر ولا خفي في عقيدة التثليث لأنها عقيدة وثنية محضة. ومن أغرب التكلف تفسير الحكمة في أمثال سليمان بالكلمة بالمعنى الذي يريدونه وهو وهم لم يخطر في بال سليمان، ولا المسيح عليهما السلام، وسترى أنهم قالوا: إن استعمال الكلمة بهذه المعنى لم يرد إلا في كلام يوحنا!! وقد كان جميع أنبياء الله تعالى موحدين، أعداء للوثنية والوثنيين. وإنما يصح أن يقال إن التوحيد ظاهر جلي في العهد الجديد أيضاً، والتثليث فيه هو الخفي. فإن العقيدة التي يدعو إليها دعاة النصرانية، والعبارات التي يذكرونها في ألوهية المسيح والتثليث لا تفهم كلها من العهد الجديد، بل هنالك عبارات يتحكمون في تفسيرها وشرحها كما يهون، على خلاف شهير فيها بين متقدميهم ومتأخريهم.

والعمدة عندهم في هذه العقيدة أول عبارة من إنجيل يوحنا وهي «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله والله هو الكلمة» وقد أطلقوا لفظ الكلمة على المسيح، فصار معنى الفقرة الثالثة من عبارة إنجيل يوحنا: والله هو المسيح بن مريم. وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم، فكيف يقول البيضاوي والرازي أنه أسند إليهم لازم مذهبهم؟

والاتحاد، وأنه لازم مذهب النصارى وإن كانوا لا يقولونه أو لا يقوله أحد منهم. وصرح بعض المفسرين بأن هذا المذهب مذهب اليعقوبية منهم خاصة. وذلك أن السابقين من المفسرين والمؤرخين ذكروا أن النصارى ثلاث فرق: اليعقوبية والملكانية والنسطورية. واعلم أن أمثال الزمخشري والبيضاوي والرازي لا يعتد بما يعرفون عن النصارى فإنهم لم يقرأوا كتبهم ولم يناظروهم فيها وفي عقائدهم إلا قليلاً، وإنما يأخذون ما في كتب المسلمين عنهم قضايا مسلمة. ومنها ما هو مشهور فيها من تفسير الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة، فالقول بها لا ينافي وحدانية الخالق. وكان يقول مثل هذا بعض علماء النصارى لعلماء المسلمين، والظاهر أن بعض المتقدمين كان يعتقد هذا، كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربة وغيرهم كثير من الموحدين الذين يعتقدون أن المسيح نبي رسول لا إله. ولعله لم يبق في النصارى من يقول بتلك الفلسفة، لأنهم في كل عصر يغيرون في دينهم ما شاؤوا أن يغيروا في فلسفته. وكان أكبر تغيير حدث بعد هؤلاء المفسرين مذهب «البروتستانت» أي إصلاح النصرانية، حدث منذ أربع قرون وصار هو السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وإنكلترا وألمانية. نسف هذا المذهب أكثر التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله، ثم استبدل بها تقاليد أخرى فصار عدة مذاهب في الحقيقة، ومع هذا ترى هؤلاء المصلحين الذين زعموا أنهم أعادوا النصرانية إلى أصلها لم يستطيعوا أن يرجعوها إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح وسائر أنبياء بني إسرائيل ورسل الله أجمعين، فهم لا يزالون يقولون بألوهية المسيح والتثليث ويعدون الموحدين غير مسيحي، كما يقول ذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان من فرق النصرانية في هذا العصر - وهم الكاثوليك والأرثوذكس - فجميع فرق نصارى هذا العصر تقول أن الله هو المسيح ابن مريم، وأن المسيح ابن مريم هو الله. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. والظاهر أن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة كما قال مفسرونا.

تنطبق على المسيح وإنما تنطبق على أخيه محمد عليهما الصلاة والسلام، فمن أسمائه الصادق والأمين، وبالعدل كان يحكم ويحارج إلخ ولم يكن للمسيح شيء من هذه الصفات، لأنه لم يحكم ولم يحارب ولم يرع الأمم. ولفظ «كلمة الله» هنا لا يفيد معنى تلك العقيدة ولا يشير إليها لأن كل شيء وجد بكلمة الله وهي كلمة التكوين ﴿لَمَّا أَمَرَهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [ياسين: ٨٢].

وأما الدليل على كون هذه العقيدة وثنية فهو يظهر لك جلياً فيما كتبناه في تفسير قوله تعالى من هذا الجزء ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ﴾ [النساء: ١٧١] وذلك أن زعمهم ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ جزء من عقيدة التثليث المأخوذة عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثني الشرق والغرب. وقد أوردنا هنالك من شواهد كتب التاريخ وآثار الأولين ما علم به قطعاً أن النصراني أخذوا هذه العقيدة عنهم. وسنعود إلى ذكرها عند تفسير قوله تعالى من هذه السورة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] - قال تعالى في تبكيت هؤلاء الناس ورد زعمهم...

ومن غريب تهافت هؤلاء الناس أنهم قالوا أن شر نوع من أنواع الأهلاك وهو الصلب نزل بالمسيح - الذي هو الكلمة، والله هو الكلمة بزعمهم - ولم يستطع أن يدفعه من نفسه، وأنه استغاث بربه خائفاً وجلاً ضارعاً خاضعاً ليصرف عنه ذلك الكأس فلم يجبه إلى ما طلب!! وهم يكابرون أنفسهم في دفع هذا التهافت بمثل قولهم: إنه كان له طبيعتان ومشيتان، ثنتان منهما إلهيتان وثنان بشريتان، وليت شعري إذا كان هذا ممكناً فهل يمكن معه أن يجهل المسيح بطبيعته البشرية طبيعته الإلهية فيعترض عليها بمثل قولهم عنه في إنجيل متى «٣٧: ٤٦» الهي الهي لماذا تركتني ويستنجد بها غير عالم بما يمكن وما لا يمكن لها بمثل ما قالوه عنه في إنجيل متى «٢٦: ٣٩» ثم تقدم قليلاً وخر على وجهه وكان يصلي قائلاً: يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس - إلى أن قال - ٤٢ فمضى أيضاً

قال بوست في قاموسه: «يقصد بالكلمة السيد المسيح ولم ترد هذه اللفظة بهذا المعنى إلا في مؤلفات يوحنا ١: ١٤ - ١٤ ويو ١: ١ ورو ١٩: ١٣» وقد استعمل الفيلسوف «فيلو» لفظة «الكلمة» غير أنه يقصد بها غير ما قصد يوحنا اهـ.

أقول قد بينا في تفسير «فنسوا حظاً مما ذكروا به» إنهم قالوا إن يوحنا ما كتب إنجيله في آخر عمره إلا إجابة لاقتراح من ألحوا عليه بذلك للعلّة التي ذكروها. فلبوا هذا الاقتراح والإلحاح لما كتب، ولو لم يكتب لم تعرف هذه العقيدة - ثبت أن هذه العقيدة لم يذكرها المسيح نفسه في كلامه ولا دعا إليها أحد من تلاميذه الذين انتشروا في البلاد للدعوة إلى إنجيله، ولم يعرفها أحد إلا في العشر العاشر من القرن الأول الذي كتب فيه يوحنا إنجيله هذا، إن صح أن يوحنا الحوارى هو الذي كتبه - ولن يصح - ولا يعقل أن يسكت المسيح وجميع تلاميذه عن هذه العقيدة إذا كانت هي أصل الدين كما تزعم النصارى، بل الذي تتوفر عليه الدواعي أن يقررها المسيح نفسه في كلامه، ويجعلها تلاميذه أول ما يدعون إليه ويكررونه في أقوالهم ورسائلهم.

ولا يغرنك ما أشار إليه «بوست» من الشواهد عن رسالة يوحنا ورؤياه فتظن أن هنالك نصاً أو نصوصاً في إثبات هذه العقيدة، كلا! إن الشاهد الذي عزاه إلى أول رسالته الأولى هو: «الذي كان من البدء، الذي سمعناه، الذي رأيناه بعيوننا، الذي شاهدناه ولمسته أيدينا من جهة كلمة الحياة» فكلمة الحياة لا تفيد هذه العقيدة إلا بتحكمهم. وأما الشاهد الذي عزاه إلى الرؤيا فهو: «١١» ثم رأيت السماء مفتوحة وإذا فرس أبيض والجالس عليه يدعي أميناً وصادقاً وبالعدل يحكم ويحارب ١٢ وعينه كلاليب من نار وعلى رأسه تيجان كثيرة وله اسم مكتوب ليس أحد يعرفه إلا هو ١٣ وهو متسربل بثوب مغموس بدم ويدعي اسمه كلمة الله ١٤ والأجناد الذين في السماء كانوا يتبعونه على خيل بيض لابسين بزاً أبيض نقياً ١٥ ومن فمه يخرج سيف ماض لكي يضرب به الأمم وهو سيرعاهم بعضاً من حديد» فأتت ترى أن هذه الأوصاف لا

المؤمنون بتلك العقيدة، فلماذا لم يكن تعذيبهم في الدنيا فداء لهم؟ وهل هذا هو الجمع بين العدل والرحمة؟

ولما كانت شبهتهم على كون المسيح بشراً إلهياً، وإنساناً رباً، هي أنه خلق على غير السَّنة العامة في خلق البشر، وأنه عمل أعمالاً غريبة لا تصدر عن عامة البشر، قال تعالى في رد هذه الشبهة ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي لما كان له ملك السموات والأرض وما بينهما، كان من المعقول أن يكون خلقه للأشياء تابعاً لمشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومنها أبو البشر عليه السلام، وقد يخلق بعضها من ذكر فقط أو أنثى فقط، وقد يخلق بعضها بين ذكر وأنثى. ولا يدل شكل الخلق ولا سببه ولا امتياز بعض المخلوقات - كالكهرياء - على بعض ألوهيتها أو حلول الإله الخالق فيها، بل هذا لا يعقل ولا يمكن. فامتياز الأرض على عطارده أو زحل بوجود الأحياء فيها من البشر وغيرهم لا يعد دليلاً على كون الأرض إلهاً لذلك الكوكب الذي فضله بهذه المزية. كذلك سنة الله في خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلهاً أو رباً لمن لم توجد فيهم هذه المزايا، لأن المزايا في الخلق كلها بمشيئة الخالق، فلا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً نسبته إلى خالقه كنسبة سائر المخلوقات إليه تعالى وأما الامتياز ببعض الأفعال الغريبة فهو معهود من البشر أيضاً، ونقل ذلك عن جميع الأمم والملل، وقد أدعت الأمم الوثنية لأصحابها الألوهية والربوبية، وأجمع الأنبياء من بني إسرائيل وغيرهم على توحيد الله تعالى وسموا تلك الغرائب بالآيات الإلهية. وقالوا إن الله تعالى قد يؤيد بها أنبياءه ورسله فلماذا خرجتم أيها النصارى عن سنة النبيين والمرسلين، واتبعتم سنة الوثنيين كقدماء الهندو والمصريين، الذين جعلوا غرابة خلق مقدسيهم وغرابة بعض أفعالهم، دليلاً على ألوهيتهم وربوبيتهم؟ ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَفَّيرٌ﴾ فكل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعد بعض خلقه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى. وكذلك غرابة بعض أفعالهم، وهي قد تكون عن علم كسبي يجهله غيرهم، أو قوة نفسية لم يبلغها سواهم، أو تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

ثانية وصلى قائلاً: إن لم يمكن أن تعبر عني هذه الكأس إلا أن اشربها فلتكن مشيئتكم وهذا أعظم حجة عليهم مصدقة لحجة القرآن، فإن مشيئة الله لا يردّها شيء.

ثم إن الطبيعة البشرية هي التي خاطبت البشر فإذا كان هذا شأنها لا يقبل قولها ولا يوثق بتعليمها، فكيف تجعل مع الطبيعة الأخرى شيئاً واحداً، يسمى رباً وإلهاً ويعبد؟ والناس ما رأوا إلا الطبيعة البشرية، ولا عرفوا غيرها ولا سمعوا إلا كلامها ولا رأوا إلا أفعالها؟ والنكتة في عطف من في الأرض جميعاً على المسيح وأمه التذكير بأنهما من جنس البشر الذين في الأرض وما جاز على أحد المثليين جاز على الآخر. وأناجيلهم تعترف بأن المسيح كان كغيره في الشؤون البشرية كما سيأتي في تفسير ﴿مَا أَلَمَسَ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾

الظاهر أن هذه الجملة حالية أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد هلاك المسيح وأمه وأهل لأرض قاطبة والحال أنه هو صاحب الملك المطلق والتصرف الاستقلالي الكامل في السموات والأرض وما بينهما، أي ما بين هذين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم.

وهذا الملك والتصرف مما تعترف به النصارى، ولكنهم زعموا أن صاحب هذا الملك العظيم والتصرف المطلق والكمال الأعلى قد عرض له بعد خلق آدم - الذي ندم وتأسف من كل قلبه أنه خلقه - أمر عظيم، وهو أن آدم عصاه فاقتضى عدله أن يعذبه، واقتضت رحمته أن لا يعذبه، فوقع التناقض والتعارض بين مقتضى صفاته فلم يجد لذلك مخرجاً يجمع به بين مقتضى العدل والرحمة، إلا أن يحل في بطن امرأة من ذرية آدم ويتكون جنيناً فيه فتلده إنساناً كاملاً وإلهاً كاملاً! ثم يعرض نفسه لشر قتلة لعن صاحبها على لسان رسله وهي الصلب، فداء لآدم وذريته، وجمعاً بين عدله بتعذيب واحد منهم هو وحده البريء من الذنب، ورحمة الآخرين إن آمنوا بهذه العقيدة ولو بغير عقل، ثم إنه لم يتم له هذا الجمع لأن أكثر البشر لم يؤمنوا بها! فهو لا بد أن يعذبهم في الآخرة. على أنه عذب كثيراً من الناس بمثل ما عذبه به وبغير ذلك ومنهم

جوهري ج ٣ ص ١٥٣ - ١٥٤

المسيحيون بينه وبين بعض الأناجيل فلم يجدوا إلا فرقاً يسيراً بلا تصرف فيه وفيه التشليث والصلب وقد كان تاريخه قبل المسيح بنحو أربعة آلاف سنة وستره مفصلاً في آخر هذه السورة، وقوله ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي فمن يمنع من قدرته وإرادته؟.

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ هم الذين قالوا بالاتحاد منهم، يعني أن الله قد حل في بدن عيسى ويقولون الآب والابن والروح القدس إله واحد وأنت تعرف أن هذه سرّ للمسيحيين من الإنجيل الهندي فلإني رأيت بعيني رأسي وقد وازن

المراغي ج ٦ ص ٨١ - ٨٤

والعمدة عندهم في هذه العقيدة عبارة جاءت في إنجيل يوحنا وهي «في البدء كانت الكلمة، والكلمة كان عند الله، والله هو الكلمة» وقد فسروا الكلمة بالمسيح فيصير معنى الفقرة الثالثة من إنجيل يوحنا «والله هو المسيح ابن مريم» وهذا عين ما أسنده القرآن إليهم.

ولا شك أن هذه العقيدة وثنية أخذت عن قدماء المصريين والبراهمة والبوذيين وغيرهم من وثني الشرق والغرب...

ثم ذكر ما هو كالدليل على ذلك فقال:

﴿وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ أي فمن يملك من الله شيئاً إن أراد إهلاك المسيح وأمه وأهل الأرض قاطبة؟ فهو صاحب الملك المطلق والتصرف في السموات والأرض وما بينهما أي وما بين العالمين العلوي والسفلي بالنسبة إليكم.

ثم دفع شبهة تحوك في صدورهم من كيفية خلق عيسى فقال:

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي إن تلك الشبهة التي عرضت لكم وجعلتكم تزعمون أن المسيح بشر وإله - هو أنه خلق على غير السنة العامة وأنه عمل أعمالاً عجيبة لا تصدر من عامة البشر، فالله له ملك السموات والأرض، ويخلق الخلق على مقتضى مشيئته، فقد يخلق بعض الأحياء من مادة لا توصف بذكورة ولا أنوثة كأصول أنواع الحيوان، ومن ذلك أبو البشر آدم عليه السلام، وقد يخلق بعضها من أنثى فقط، وقد يخلق بعضها من ذكر وأنثى، وشكل الخلق وسببه لا يدل على امتياز لبعضها عن بعض، ولا على

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ المسيحيون في هذا العصر فرق ثلاث: الكاثوليك والأرثوذكس والبروتستانت «أي إصلاح النصرانية» وهذا المذهب الأخير حدث من نحو أربعة قرون وصار هو المذهب السائد في أعظم الأمم مدنية وارتقاء كالولايات المتحدة وانجلترا وألمانيا، وقد أزال هذا المذهب كثيراً من التقاليد والخرافات النصرانية التي كانت قبله واستبدل بها تقاليد أخرى، ومع كل هذا فهؤلاء المصلحون لم يستطيعوا أن يرجعوا المسيحية إلى التوحيد الصحيح الذي هو دين المسيح ودين سائر الأنبياء، فلا يزالون يقولون بالتثليث ويعدون الموحّد غير مسيحي كما تقول بذلك الفرقتان الكبيرتان الأخريان.

وجميع فرق النصارى في هذا العصر تقول: إن الله هو المسيح ابن مريم وإن المسيح ابن مريم هو الله، ولكن النصارى القدماء لم يكونوا متفقين على هذه العقيدة إذ كان بعضهم يفسر الآب والابن وروح القدس بأنها الوجود والعلم والحياة والقول بها لا ينافي توحيد الخالق كما أنه يوجد الآن في نصارى أوربا وغيرهم موحّدون يعتقدون أن المسيح نبي ورسول لا إله.

قال الدكتور بوست البروتستانتي في تاريخ الكتاب المقدس «طبيعة الله عبارة عن ثلاثة أقانيم متساوية الجوهر: الله الآب، والله الابن، والله الروح القدس، وإلى الآب ينتمي الخلق بواسطة الابن وإلى الابن الفدى، وإلى الروح القدس التطهير. غير أن هذه الثلاثة أقانيم تتقاسم جميع الأعمال على السواء».

عن علم كسبيّ يجهله غيرهم، أو عن تأييد رباني لا صنع لهم فيه ولا تأثير.

روى ابن إسحق وابن جرير وابن المنذر والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: أتى رسول الله ﷺ ابن أبي وبحريّ بن عمرو وشاس بن عدي من اليهود فكلمهم وكلموه ودعاهم إلى الله وحذّرهم نقمته فقالوا: ما نخوفنا يا محمد؟ نحن والله أبناء الله وأحباؤه، كما قالت النصارى ذلك . . .

سيد قطب ج ٢ ص ٨٦٣-٨٦٦

«وكانوا مختلفين في الآراء والأديان. فمنهم من كان يقول: إن المسيح وأمه إلهان من دون الله. وهم «البربرانية».. ويسمون: «الريمتيين». ومنه من كان يقول: إن المسيح من الأب بمنزلة شعلة نار انفصلت من شعلة نار، فلم تنقص الأولى بانفصال الثانية منها. وهي مقالة «سابليوس» وشيعته. ومنهم من كان يقول: لم تحبل به مريم تسعة أشهر، وإنما مر في بطنها كما يمر الماء في الميزاب، لأن الكلمة دخلت في أذنّها، وخرجت من حيث يخرج الولد عن ساعتها. وهي مقالة «إليان» وأشياعه. ومنهم من كان يقول: إن المسيح إنسان خلق من اللاهوت كواحد منا في جوهره، وإن ابتداء الابن من مريم، وإنه اصطفى ليكون مخلصاً للجوهر الإنسي، وصحبته النعمة الإلهية، وحلت فيه بالمحبة والمشيئة، ولذلك سمي «ابن الله» ويقولون: إن الله جوهر قديم واحد، وأقنوم واحد، ويسمونه بثلاثة أسماء، ولا يؤمنون بالكلمة، ولا بروح القدس. وهي مقالة «بولس الشمشاطي» بطريرك أنطاكية وأشياعه وهم «البوليقيانيون». ومنهم من كان يقول: إنهم ثلاثة آلهة لم تزل: صالح، وطالح، وعدل بينهما. وهي مقالة «مريقيون» اللعين وأصحابه وزعموا أن «مريقيون» هو رئيس الحواريين وأنكروا «بطرس». ومنهم من كانوا يقولون بالوهية المسيح. وهي مقالة «بولس الرسول» ومقالة الثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً.

وقد اختار الإمبراطور الروماني «قسطنطين» الذي كان قد دخل في النصرانية من الوثنية ولم يكن يدري شيئاً من

الوهية لبعضها، ولا حلول الإله الخالق فيها، فسنة الله في خلق المسيح ومزايه لا تدل على كونه إلهاً وربّاً، لأن هذه المزايه في الخلق كلها بمشيئة الخالق ولا يخرج بها المخلوق عن كونه مخلوقاً. . .

والخلاصة - إن كل ما تعلقت به مشيئته ينفذ بقدرته، وإنما يعدّ بعضه غريباً بالنسبة إلى علم البشر الناقص لا بالنسبة إليه تعالى، وكذلك غرابة بعض أفعالهم قد تكون

إن الذي جاء به عيسى - عليه السلام - من عند ربه هو التوحيد الذي جاء به كل رسول. والإقرار بالعبودية الخالصة لله شأن كل رسول. . . ولكن هذه العقيدة الناصعة أدخلت عليها التحريفات؛ بسبب دخول الوثنيين في النصرانية، وحرصهم على رواسب الوثنية التي جاءوا بها ومزجها بعقيدة التوحيد، حتى لم يعد هناك إمكان لفصلها وفرزها وتنقية جوهر العقيدة منها.

ولم تجيء هذه الانحرافات كلها دفعة واحدة، ولكنها دخلت على فترات، وأضافتها المجامع واحدة بعد الأخرى، حتى انتهت إلى هذا الخليط العجيب من التصورات والأساطير، الذي تحار فيه العقول. حتى عقول الشارحين للعقيدة المعروفة من أهلها المؤمنين بها!

وقد عاشت عقيدة التوحيد بعد المسيح - عليه السلام - في تلامذته وفي أتباعهم. وأحد الأناجيل الكثيرة التي كتبت - وهو إنجيل برنابا - يتحدث عن عيسى - عليه السلام بوصفه رسولاً من عند الله. ثم وقعت بينهم الاختلافات. فمن قائل: إن المسيح رسول من عند الله كسائر الرسل. ومن قائل: إنه رسول نعم ولكن له بالله صلة خاصة. ومن قائل: إنه ابن الله لأنه خلق من غير أب، ولكنه على هذا مخلوق لله. ومن قائل: إنه ابن الله وليس مخلوقاً بل له صفة القدم كالأب. . .

ولتصفيه هذه الخلافات اجتمع في عام ٣٢٥ ميلادية «مجمع نيقية» الذي اجتمع فيه ثمانية وأربعون ألفاً من البطارقة والأساقفة. قال عنهم ابن البطريق أحد مؤرخي النصرانية:

الإنسان - في المسيح - وليست أم الإله! ويقول في المسيح الذي ظهر بين الناس وخاطبهم - كما نقله عنه ابن البطريق:

«إن هذا الإنسان الذي يقول: إنه المسيح.. بالمحبة متحد مع الابن.. ويقال: إنه الله وابن الله، ليس بالحقيقة ولكن بالموهبة»..

ثم يقول: «إن نسطور ذهب إلى أن ربنا يسوع المسيح لم يكن إلهاً في حد ذاته بل هو إنسان مملوء من البركة والنعمة، أو هو ملهم من الله، فلم يرتكب خطيئة، وما أتى أمراً إداً».

وخالفه في هذا الرأي أسقف رومه، وبطريق الإسكندرية، وأساقفة أنطاكية، فاتفقوا على عقد مجمع رابع. وانعقد «مجمع أفسس» سنة ٤٣١ ميلادية. وقرر هذا المجمع - كما يقول ابن البطريق :-

«أن مريم العذراء والدة الله. وأن المسيح إله حق وإنسان، معروف بطبيعتين، متحد في الأقنوم».. ولعنوا نسطورا!

ثم خرجت كنيسة الإسكندرية برأي جديد، انعقد له «مجمع أفسس الثاني» وقرر: «أن المسيح طبيعة واحدة، اجتمع فيها اللاهوت بالناسوت». ولكن هذا الرأي لم يسلم، واستمرت الخلافات الحادة، فاجتمع مجمع «خلقيدونية» سنة ٤٥١ وقرر: «إن المسيح له طبيعتان لا طبيعة واحدة. وأن اللاهوت طبيعة وحدها، والناسوت طبيعة وحدها، التقتا في المسيح».. ولعنوا مجمع أفسس الثاني!

ولم يعترف المصريون بقرار هذا المجمع. ووقعت بين المذهب المصري «المنوفيسية» والمذهب «الملوكاني» الذي تبنته الدولة الإمبراطورية ما وقع من الخلافات الدامية، التي سبق أن أثبتنا فيها مقالة: «سيرت.و. أرنولد» في كتابه «الدعوة إلى الإسلام» في مطالع تفسير سورة آل عمران..

ونكتفي بهذا القدر في تصوير مجمل التصورات المنحرفة حول ألوهية المسيح، والخلافات الدامية والعداوة والبغضاء التي ثارت بسببها بين الطوائف، وما

النصرانية! هذا الرأي الأخير وسلط أصحابه على مخالفيهم، وشرذ أصحاب سائر المذاهب، وبخاصة القائلين بألوهية الأب وحده، وناسوتية المسيح.

وقد ذكر صاحب كتاب تاريخ الأمة القبطية عن هذا القرار ما نصه: «إن الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجوداً فيه. وأنه لم يوجد قبل أن يولد. وأنه وجد من لا شيء. أو من يقول: إن الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الأب. وكل من يؤمن أنه خلق، أو من يقول: إنه قابل للتغيير، ويعتريه ظل دوران».

ولكن هذا المجمع بقراراته لم يقض على نحلة الموحدين أتباع «آريوس» وقد غلبت على القسطنطينية، وأنطاكية، وبابل، والإسكندرية، ومصر.

ثم سار خلاف جديد حول «روح القدس» فقال بعضهم: هو إله، وقال آخرون: ليس بإله! فاجتمع «مجمع القسطنطينية الأول» سنة ٣٨١ ليحسم الخلاف في هذا الأمر.

وقد نقل ابن البطريق ما تقرر في هذا المجمع، بناء على مقالة أسقف الإسكندرية:

«قل ثيموثاوس بطريك الإسكندرية: ليس روح القدس عندنا بمرور غير روح الله. وليس روح الله شيئاً غير حياته. فإذا قلنا إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق. وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق، فقد قلنا: إن حياته مخلوقة. وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة، فقد زعمنا أنه غير حي. وإذا زعمنا أنه غير حي فقد كفرنا به. ومن كفر به وجب عليه اللعن!!!»

وكذلك تقرر ألوهية روح القدس في هذا المجمع، كما تقرر ألوهية المسيح في مجمع نيقية. وتم «الثالوث» من الأب، والابن، وروح القدس..

ثم ثار خلاف آخر حول اجتماع طبيعة المسيح الإلهية وطبيعته الإنسانية.. أو اللاهوت والناسوت كما يقولون.. فقد رأى «نسطور» بطريك القسطنطينية أن هناك أقنوماً وطبيعة. فأقنوم الألوهية من الأب وتنسب إليه؛ وطبيعة الإنسان وقد ولدت من مريم، فمريم أم

تزال إلى اليوم ناثرة. . . وتجيء الرسالة الأخيرة لتقرر وجه الحق في هذه القضية، ولتقول كلمة الفصل، ويجيء الرسول الأخير ليبين لأهل الكتاب حقيقة العقيدة الصحيحة: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾. . . ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. «كما سيجيء في السورة».

ويشير فيهم منطق العقل والفطرة والواقع: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾. فيفرق تفرقة مطلقة بين ذات الله سبحانه وطبيعته ومشيتته وسلطانه، وبين ذات عيسى - عليه السلام - وذات أمه،

وكل ذات أخرى، في نصاعة قاطعة حاسمة. . . وهو - سبحانه - مالك كل شيء، وخالق كل شيء، والخالق غير المخلوق. وكل شيء مخلوق: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾. . .

وكذلك تتجلى نصاعة العقيدة الإسلامية، ووضوحها وبساطتها. . . وتزيد جلاء أمام ذلك الركام من الانحرافات والتصورات والأساطير والوثنيات المتلبسة بعقائد فريق من أهل الكتاب وتبرز الخاصية الأولى للعقيدة الإسلامية. في تقرير حقيقة الألوهية، وحقيقة العبودية، والفصل التام الحاسم بين الحقيقتين. بلا غبش ولا شبهة ولا غموض. . .

﴿وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٤٦)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٦	ص ١٧١	ج ٢
الزمخشري	ج ١	ص ٦١٧	ج ٢
الرازي	ج ١٢	ص ٨ - ٩	ج ٢
الطبرسي	ج ٦	ص ١٠٧ - ١١٠	ج ٢
ابن عربي	ج ١	ص ٣٢٥ - ٣٣٠	ج ٢
البيضاوي	ج ٢	ص ١٥٢	ج ٢
الخازن	ج ٢	ص ٥٩	ج ٢
البغوي	ج ٢	ص	ج ٢
الماوردي	ج ٢	ص	ج ٢
القرطبي	ج ٦	ص ٢٠٨ - ٢٠٩	ج ٢
أبو حيان الأندلسي	ج ٢	ص ٤٩٨ - ٥٠٠	ج ٢
ابن كثير	ج ٢	ص ٦٤ - ٦٥	ج ٢
الجلالان	ج ٢	ص ١٤٦	ج ٢
الشوكاني	ج ٢	ص ٤٥ - ٤٩	ج ٢
الآلوسي	ج ٦	ص ١٥٠	ج ٢
القاسمي	ج ٦	ص ٢٢٩ - ٢٣٠	ج ٢
محمد عبده	ج ٦	ص ٤٠١ - ٤٠٢	ج ٢
الطباطبائي	ج ٥	ص ٣٣٧ - ٣٦٦	ج ٢
جوهرى	ج ٣	ص ١٨٥ - ١٩٠	ج ٢
المراغي	ج ٦	ص ١٢٢ - ١٢٨	ج ٢
سيد قطب	ج ٢	ص ٨٨٧ - ٩٠٥	ج ٢

الطبري ج ٦ ص ١٧١

أوحينا إليه ذلك وأنزلناه إليه بتصديق ما كان قبله من كتب الله التي كان أنزلها على كل أمة أنزل إلى نبيها كتاب للعمل بما أنزل إلى نبيهم في ذلك الكتاب من تحليل ما حلل وتحريم ما حرم وهدى وموعظة، يقول أنزلنا الإنجيل إلى عيسى مصدقاً للكتب التي قبله وبياناً لحكم الله الذي ارتضاه لعباده المتقين في زمان عيسى وموعظة لهم، يقول وزجراً لهم عما يكرهه الله إلى ما يحبه من الأعمال وتنبهاً لهم عليه والمتقون هم الذين خافوا الله وحذروا عقابه فاتقوه بطاعته فيما أمرهم وحذروه بترك ما نهاهم عن فعله. وقد مضى البيان عن ذلك بشواهد قبل فأغنى ذلك عن إعادته.

القول في تأويل قوله ﴿وَقَفَيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾
يعني تعالى ذكره بقوله وقفينا على آثارهم أتبعنا يقول أتبعنا عيسى ابن مريم على آثار النبيين الذين أسلموا من قبلك يا محمد فبعثناه نبياً مصدقاً لكتابنا الذي أنزلناه إلى موسى من قبله أنه حق وأن العمل بما لم ينسخه الإنجيل منه فرض واجب وآتيناه الإنجيل يقول، وأنزلنا إليه كتابنا الذي اسمه الإنجيل فيه هدى ونور، يقول في الإنجيل هدى وهو بيان ما جهله الناس من حكم الله في زمانه ونور يقول وضياء من عمى الجهالة ومصدقاً لما بين يديه، يقول

الزمخشري ج ١ ص ٩١٧

قوله - يحكم بها النبيون الذي أسلموا - وقرأ الحسن الأنجيل بفتح الهمزة، فإن صح عنه فلائه أعجمي خرج لعجمته عن زناات العربية كما خرج هابيل وأجر ﴿وَقَفَيْنَا وَمُصَدِّقًا﴾ عطف على محل فيه هدى ومحل نصب على الحال ﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ﴾ يجوز أن ينتصب على الحال كقوله مصدقاً، وأن ينتصبا مفعولاً لهما...

قفيته مثل عقبته، إذا أتبعته، ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به، فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء. فإن قلت: فأين المفعول الأول في الآية؟ قلت: هو محذوف والظرف الذي هو ﴿عَلَى آثَارِهِمْ﴾ كالمساذ مسده، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في آثارهم للنبيين في

الرازي ج ١٢ ص ٨ - ٩

وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٨﴾ وفيه مباحثات ثلاثة: أحدها: ما الفرق بين هذه الصفات الخمس: وثانيها: لم ذكر الهدى مرتين؟، وثالثها: لم خصصه بكونه موعظة للمتقين؟

والجواب عن الأول - إن الإنجيل هدى بمعنى أنه اشتمل على الدلائل الدالة على التوحيد والتنزيه، وبراءة الله تعالى عن الصاحبة والولد والمثل والضد، وعلى النبوة وعلى المعاد، فهذا هو المراد بكونه هدى، وأما كونه نوراً، فالمراد به كونه بياناً للأحكام الشرعية ولتفاصيل التكليف، وأما كونه مصداقاً لما بين يديه، فيمكن حمله على كونه مبشراً بمبعث محمد ﷺ وبمقدمه، وأما كونه هدى مرة أخرى فلأن اشتماله على البشارة بمجيء محمد ﷺ سبب لاهتداء الناس إلى نبوة محمد ﷺ، ولما كان أشد وجوه المنازعة بين المسلمين وبين اليهود والنصارى في ذلك لا جرم أعاده الله تعالى مرة أخرى تنبيهاً على أن الإنجيل يدل دلالة ظاهرة على نبوة محمد ﷺ، فكان هدى في هذه المسألة التي هي أشد المسائل احتياجاً إلى البيان والتقرير، وأما كونه موعظة فلاشتمال الإنجيل على النصائح والمواعظ والزواجر البليغة المتأكدة وإنما خصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها، كما في قوله ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾.

السؤال الرابع - قوله في صفة الإنجيل ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطف على ماذا؟
الجواب - إنه عطف على محل ﴿فِيهِ هُدًى﴾ ومحله النصب على الحال، والتقدير: وآتيانه الإنجيل حال كونه هدى ونوراً ومصدقاً لما بين يديه.

أبو حيان الأندلسي ج ٣ ص ٤٩٨ - ٥٠٠

اليهود فيه وأنه من جملة مصدقي التوراة ومعنى قفينا أتيانا به يقفوا آثارهم أي يتبعها والضمير في آثارهم يعود على النبيين من قوله يحكم بها النبيون. وقيل على الذين كتبت عليهم هذه الأحكام وعلى آثارهم متعلق بقفينا وبمعنى

قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قفيته: مثل عقبته إذا اتبعته، ثم يقال: عقبته بفلان وقفيته به، فتعديبه إلى الثاني بزيادة الباء.

فإن قيل: فأين المفعول الأول في الآية؟

قلنا: هو محذوف، والظرف وهو قوله ﴿عَلَىٰ آثَارِهِم﴾ كالسار مسده، لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه، والضمير في ﴿آثَارِهِم﴾ للنبيين في قوله ﴿يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة: ٤٤] وهنا سؤالات:

السؤال الأول - إنه تعالى وصف عيسى ابن مريم بكونه مصداقاً لما بين يديه من التوراة، وإنما يكون كذلك إذا كان عمله على شريعة التوراة، ومعلوم أنه لم يكن كذلك، فإن شريعة عيسى عليه السلام كانت مغايرة لشريعة موسى عليه السلام، فلذلك قال في آخر هذه الآية ﴿وَلِيَحْكُمُوا أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنزِلَ اللَّهُ فِيهِ﴾ فكيف طريق الجمع بين هذين الأمرين؟

والجواب - معنى كون عيسى مصداقاً للتوراة أنه أقر بأنه كتاب منزل من عند الله، وأنه كان حقاً واجب العمل به قبل ورود النسخ.

السؤال الثاني - لم كرر قوله ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ والجواب: ليس فيه تكرار لأن في الأول أن المسيح يصدق التوراة، وفي الثاني الإنجيل يصدق التوراة.

السؤال الثالث - إنه تعالى وصف الإنجيل بصفات خمس فقال ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ مناسبة هذه الآية لما قبلها أنه لما ذكر تعالى أن التوراة يحكم بها النبيون ذكر أنه قفاهم بعيسى تنبيهاً على أنه من جملة الأنبياء وتنوياً باسمه وتنزيهاً له عما يدعيه

﴿وَأَتَيْنَهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ هذه الجملة معطوفة على قوله وقفينا وفيه تعظيم عيسى عليه السلام بأن الله آتاه كتاباً إلهياً وتقدمت قراءة الحسن الأنجيل بفتح الهمزة وما ذكره في اشتقاقه إن كان عربياً وقوله فيه هدى ونور في موضع الحال وارتفاع هدى على الفاعلية بالجار والمجرور إذ قد اعتمد بأن وقع حالاً الذي حال أي كائناً فيه هدى ولذلك عطف عليه ومصدقاً لما بين يديه من التوراة والضمير في يديه عائد على الإنجيل . . .

﴿وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ قرأ الضحاك وهدى وموعظة بالرفع وهو هدى وموعظة. وقرأ الجمهور بالنصب حالاً معطوفة على قوله ومصدقاً جعله أولاً فيه هدى ونور وجعله ثانياً هدى وموعظة فهو في نفسه هدى وهو مشتمل على الهدى وجعله هدى مبالغة فيه إذ كان كتاب الإنجيل مبشراً برسول الله ﷺ والدلالة منه على نبوته ظاهرة ولما كانت أشد وجوه المنازعة بين المسلمين واليهود والنصارى ذلك أعاد الله ذكر الهدى تقريراً وبياناً لنبوة محمد ﷺ ووصفه بالموعظة لاشتماله على نصائح وزواجر بليغة وخصصها بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون بها كما قال تعالى هدى للمتقين فهم المقصودون في علم الله تعالى وإن كان الجميع يدعى ويوعظ ولكنه على غير المتقين عمى وحسرة وأجاز الزمخشري أن ينتصب هدى وموعظة على أنهما مفعول لهما لقوله وليحكم قال كأنه قيل وللهدى والموعظة آتيانه الإنجيل وللحكم بما أنزل الله فيه من الأحكام وينبغي أن يكون الهدى والموعظة مسندين في المعنى إلى الله لا إلى الإنجيل ليتحد المفعول من أجله مع العامل في الفاعل ولذلك جاء منصوباً ولما كان وليحكم فاعله غير الله أتى معدى إليه بلام العلة ولاختلاف الزمان أيضاً لأن الإتياء قارن الهداية والموعظة في الزمان والحكم خالف فيه لاستقباله ومضيه في الإتياء فعدى أيضاً لذلك باللام وهذا الذي أجاز الزمخشري خلاف الظاهر. قال الزمخشري فإن نظمت هدى وموعظة في سلك مصدقاً فما تصنع بقوله وليحكم «قلت» أصنع به كما صنعت بهدى وموعظة حين جعلتهما مفعولاً لهما فأقدر ليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله آتيانه إياه انتهى وهو جواب واضح.

متعلق به أيضاً وهذا على سبيل التضمن أي ثم جئنا على آثارهم بعيسى ابن مريم قافياً لهم وليس التضعيف في قفينا للتعدي إذ لو كان للتعدي ما جاء مع الباء المعدية ولا تعدى بعلى وذلك إن قفا يتعدى لواحد قال تعالى ولا تقف ما ليس لك به علم وتقول قفا فلان الأثر إذا اتبعه فلو كان التضعيف للتعدي لتعدى إلى اثنين منصوبين وكان يكون التركيب ثم قفينا على آثارهم عيسى ابن مريم وكان يكون عيسى هو المفعول الأول وآثارهم المفعول الثاني لكنه ضمن معنى وجاء وعدى بالياء وتعدى إلى آثارهم بعلى. وقال الزمخشري قفيته مثل عقبته إذا اتبعته ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فتعديه إلى الثاني بزيادة الباء «فإن قلت» فأين المفعول الأول في الآية «قلت» هو محذوف والظرف الذي هو على آثارهم كالساد مسده لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه انتهى وكلامه يحتاج إلى تأويل وذلك أنه جعل قفيته المضعف بمعنى قفوته فيكون فعل بمعنى فعل نحو قدر الله وقدر الله وهو أحد المعاني التي جاءت لها فعل ثم عداه بالياء وتعديه المتعدى لمفعول بالياء لثان قل أن يوجد حتى زعم بعضهم أنه لا يوجد ولا يجوز فلا يقال في طعم زيد اللحم أطعمت زيدا باللحم والصحيح أنه جاء على قلة تقول دفع زيد عمراً ثم تعديه بالياء فتقول دفعت زيدا بعمرو أي جعلت زيدا يدفع عمراً وكذلك صك الحجر الحجر ثم تقول صككت الحجر بالحجر أي جعلته يصكه وأما قوله المفعول الأول محذوف الظرف كالساد مسده فلا يتجه لأن المفعول هو مفعول به صريح ولا يسد الظرف مسده وكلامه مفهم التضمن وإن لم يصرح به ألا ترى إلى قوله لأنه إذا قفى به أثره فقد قفى به إياه وقول الزمخشري فقد قفى به إياه فصل الضمير وحقه أن يكون متصلاً وليس من مواضع فصل لو قلت زيد ضربت بسوط إياه لم يحز إلا في ضرورة شعر فاصلاحه زيد ضربته بسوط وانتصب مصدقاً على الحال من عيسى ومعنى لما بين يديه لما تقدمه من التوراة لأنها جاءت قبله كما أن الرسول بين يدي الساعة وتقدم الكلام في هذا وتصديقه إياها هو بكونه مقرأً إنها كتاب منزل من الله حقاً واجب العمل به قبل ورود النسخ إذ شريعته مغايرة لبعض ما فيها

ابن كثير ج ٢ ص ٦١ - ٦٢

تعالى إخباراً عن المسيح أنه قال لبني إسرائيل ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ولهذا كان المشهور من قول العلماء أن الإنجيل نسخ بعض أحكام التوراة وقوله تعالى ﴿وَهَذَى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي وجعلنا الإنجيل هدى يهتدى به وموعظة أي زاجراً عن ارتكاب المحارم والمآثم للمتقين أي لمن اتقى الله وخاف وعيده وعقابه .

﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مؤمناً بها حاكماً بما فيها ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ أي هدى إلى الحق ونور يستضاء به في إزالة الشبهات وحل المشكلات ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي متبعاً لها غير مخالف لما فيها إلا في القليل مما بين لبني إسرائيل بعض ما كانوا يختلفون فيه كما قال

الشوكاني ج ٢ ص ٤٥ - ٤٧

وقوله ﴿مُصَدِّقًا﴾ معطوف على محل ﴿فِيهِ هُدًى﴾ أي أن الإنجيل أوتيه عيسى حال كونه مشتملاً على الهدى والنور ومصداقاً لما بين يديه من التوراة؛ وقيل إن مصداقاً معطوف على مصداق الأول فيكون حالاً من عيسى مؤكداً للحال الأول ومقرراً له . والأول أولى لأن التأسيس خير من التأكيد . قوله ﴿وَهَذَى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على مصداقاً داخل تحت حكمه منظماً إليه : أي مصداقاً وهادياً وواعظاً للمتقين .

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ هذا شروع في بيان حكم الإنجيل بعد بيان حكم التوراة : أي جعلنا عيسى ابن مريم يقفو آثارهم : أي آثار النبيين الذين أسلموا من بني إسرائيل ، يقال قفيته مثل عقبته : إذا أتبعته ؛ ثم يقال قفيته بفلان وعقبته به فيتعدى إلى الثاني بالباء ، والمفعول الأول محذوف استغناء عنه بالظرف ، وهو على آثارهم لأنه إذا قفى به على أثره فقد قفى به إياه ، وانتصاب ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال من عيسى . . .

الآلوسي ج ٦ ص ١٥٠

واحد لثان بالباء لا تجوز سواء كان بالهمزة أو التضعيف ، ورد بأن الصواب أنه جائز لكنه قليل ، وقد جاء منه ألفاظ قالوا : صك الحجر الحجر ، وصككت الحجر بالحجر ، ودفع زيد عمراً ودفعت زيداً بعمره أي جعلته دافعاً له .

وذهب بعض المحققين إلى أن التضعيف فيما نحن فيه ليس للتعدية ، وأن تعلق الجار بالفعل لتضمينه معنى المجيء أي جئنا بعيسى ابن مريم على آثارهم قافياً لهم فهو متعد لواحد لا غير بالباء ، وحاصل المعنى أرسلنا عيسى عليه السلام عقيهم ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ حال من عيسى مؤكدة فإن ذلك من لازم الرسول عليه الصلاة والسلام ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ عطف على ﴿وَقَفَّيْنَا﴾ ، وقرأ الحسن بفتح الهمزة ، ووجه صحة ذلك أنه اسم أعجمي فلا بأس بأن يكون على ما ليس في أوزان

﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم﴾ شروع في بيان أحكام الإنجيل - كما قيل - إثر بيان أحكام التوراة ، وهو عطف على ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ وضمير الجمع المجرور - للنبيين الذين أسلموا - كما قاله أكثر المفسرين ، واختاره علي ابن عيسى ، والبلخي ، وقيل : للذين فرض عليهم الحكم الذي مضى ذكره ، وحكى ذلك عن الجبائي - وليس بالمختار - والتقفية الاتباع ، ويقال : قفا فلان إثر فلان إذا تبعه ، وقفيته بفلان إذا أتبعته إياه ، والتقدير هنا أتبعناهم على آثارهم ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ فالفعل كما قيل : متعد لمفعولين أحدهما بنفسه . والآخر بالباء ، والمفعول الأول محذوف ، و﴿عَلَى آثَارِهِم﴾ كالساد مسدده لأنه إذا قفا به على آثارهم فقد قفاهم به ، واعتراض بأن الفعل قبل التضعيف كان متعدياً إلى واحد ، وتعدية المتعدي إلى

ما تقدم منتظم معه في سلك الحالية، وجعل كله هدى - بعدما جعل مشتملاً عليه - مبالغة في التنويه بشأنه لما أن فيه البشارة بنبينا ﷺ أظهر، وتخصيص المتقين بالذكر لأنهم المهتدون بهداه والمتفعلون بجدواه، وجوز نصب ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةً﴾ على المفعول لها عطفاً على مفعول له آخر مقدر أي إثباتاً لنبوته ﴿وَهْدَى﴾ إلخ، ويجوز أن يكونا معللين لفعل محذوف عامل فيه أي ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ آتيانه ذلك.

العرب، وهو بأفعليل العرب، وهو بأفعليل أو فعيليل بالفتح، وإما إفعيل بالكسر فله نظائر - كإبزيم، وإحليل - وغير ذلك ﴿فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ كما في التوراة، والجملة في موضع النصب على أنها حال من الإنجيل، وقوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ عطف على الحال وهو حال أيضاً، وعطف الحال المفردة على الجملة الحالية وعكسه جائز لتأويلها بمفرد وتكرير هذا لزيادة التقرير، وقوله عز وجل: ﴿وَهْدَى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ عطف على

القاسمي ج ٦ ص ٢٢٩ - ٢٣٠

﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى﴾ أي إلى الحق ﴿وَنُورٌ﴾ أي: بيان للأحكام ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾...

﴿وَقَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ يعني أنبياء بني إسرائيل ﴿يَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: أرسلناه عقبهم ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي: مؤمناً بها حاكماً بما فيها

محمد عبده ج ٦ ص ٤٠١ - ٤٠٢

وزلزل ذلك الجمود الاسرائيلي المادي، وزعزعة ذلك الغرور الذي كان الكتبة والفريسيون من اليهود مفتونين به. وخص هذا النوع بالمتقين لأنهم هم الذين ينتفعون به إذ لا يفوتهم شيء من الكتاب لحرصهم عليه، وعنايتهم به. والحكمة في هذا النوع من الهدى والموعظة فقه أسرار الشريعة ومعرفة حكماتها والمقصد منها، والعلم بأن وراء تلك التوراة وهذا الإنجيل هداية أتم وأكمل. وديناً أعم وأشمل، وهو الذي يجيء به النبي الأخير «البارقليط» الأعظم، ولولا زلزال الإنجيل في جملته لتلك التقاليد وزعزعته لذلك الغرور، وأنس الناس بما حفظ من تعاليمه عدة قرون، لما انتشر الإسلام بين أهل الكتاب في سورية ومصر وبين النهرين بتلك السرعة.

ولذلك قال تعالى ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي أعطيناه الإنجيل مشتملاً على هدى من الضلال في العقائد والأعمال كالتمحييد النافي للوثنية التي هي مصدر الخرافات والأباطيل، ونور يبصر به طالب الحق طريقه الموصول إليه من الدلائل والأمثال، والفضائل والآداب، ومصداقاً للتوراة التي تقدمته، أي مشتملاً على النص بتصديق التوراة، وهذا غير تصديق المسيح لها بقوله وعمله أو حاله. ووصفه بمثل ما وصف به التوراة، وبكونه مصداقاً لها. ثم زاد في وصفه عطفاً على تلك الأحوال فجعله نفسه هدى من وجه آخر وموعظة للمتقين، ولعله ما انفرد به من المسائل الروحية، والمواعظ لادية،

﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ۚ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۚ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونََهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۚ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ ۗ أَنْظِرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ۚ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۚ قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ۚ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ٧٢-٧٨)

مصادر تفاسير الآية	ج	ص	أبو حيان الاندلسي	ج	ص
الطبري	٦	٢٠١-٢٠٦	ابن كثير	٣	٥٣٤-٥٤٠
الزمخشري	١	٦٣٤-٦٣٦	الجلالان	٢	٨٠-٨٥
الرازي	١٢	٥٩-٦٤	الشوكاني	٢	١٥١-١٥٣
الطبرسي	٦	١٦١-١٧١	الآلوسي	٦	٦١-٦٧
ابن عربي	١	٢٣٧-٢٣٩	القاسمي	٦	١٨٤-١٨٩
البيضاوي	٢	١٦٢-١٦٤	محمد عبده	٦	٢٠٩٧-٢١١٠
الخازن	٢	٧٦-٧٩	الطباطبائي	٦	٤٧٩-٤٩٢
البغوي	٢	٤٤-٤٥	جوهري	٣	١٠٥-٦٢
الماوردي	٢	٥٦-٥٧	المراغبي	٦	١٦٢-١٧٣
القرطبي	٦	٢٤٩-٢٥٣	سيد قطب	٢	٩٣٦-٩٥٣

الطبري ج ٦ ص ٢٠١-٢٠٦

يده نحو الذي أجريت على يد كثير من رسلي فقالوا كفراً منهم هو الله وهذا قول اليعقوبية من النصارى عليهم غضب الله يقول الله تعالى ذكره «فلما اختبرتهم وابتليتهم بما ابتليتهم به أشركوا بي وقالوا لخلق من خلقي وعبد مثلهم من عبيدي وبشر نحوهم معروف نسبه وأصله مولود من البشر يدعوههم إلى توحيدي ويأمرهم بعبادتي وطاعتي ويقرّر لهم بأني ربه وربهم وينهاهم عن أن يشركوا بي شيئاً هو إلههم جهلاً منهم بالله وكفراً به ولا ينبغي لله أن يكون والداً ولا مولوداً» يعني بقوله وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبداً الله ربي وربكم يقول «اجعلوا العبادة

القول في تأويل قوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لِي إِسْرَءِيلَ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُمْ مِنْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن بعض ما فتن به الإسرائيليين الذين أخبر عنهم أنهم حسبوا أن لا تكون فتنة يقول تعالى ذكره فكان مما ابتليتهم واختبرتهم به فنقضوا فيه ميثاقه وغيروا عهدي الذي كنت أخذته عليهم بأن لا يعبدوا سواي ولا يتخذوا رباً غيري وأن يوحّدوني وينتهوا إلى طاعة عبدي عيسى ابن مريم فإني خلقتهم وأجريت على

والتذلل للذي له يذل كل شيء وله يخضع كل موجود ربي وربكم يقول مالكي ومالككم وسيدي وسيدكم الذي خلقتني وإياكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة أن يسكنها في الآخرة ومأواه النار يقول ومرجعه ومكانه الذي يأوي إليه ويصير في معاده من جعل لله شريكاً في عبادته نار جهنم وما للظالمين يقول وليس لمن فعل غير ما أباح الله له وعبد غير الذي له عبادة الخلق من أنصار ينصرونه يوم القيامة من الله فينقذونه منه إذا أورده جهنم» .

القول في تأويل قوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَكْتَفَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وهذا أيضاً خبر من الله تعالى ذكره عن فريق آخر من الإسرائيليين الذين وصف صفتهم في الآيات قبل أنه لما ابتلاهم بعد حسابانهم أنهم لا يتلون ولا يفتنون قالوا كفراً بربهم وشركاً الله ثالث ثلاثة وهذا قول كان عليه جماهير النصارى قبل افتراق اليعقوبية والملكانية والنسطورية كانوا فيما بلغنا يقولون الإله القديم جوهر واحد يعم ثلاثة أقانيم أباً والداً غير مولود وابناً مولوداً غير والد وزوجاً متبعية بينهما يقول الله تعالى ذكره مكذباً لهم فيما قالوا من ذلك وما من إله إلا إله واحد يقول ما لكم معبود أيها الناس إلا معبود واحد وهو الذي ليس بوالد لشيء ولا مولود بل هو خالق كل والد ومولود وإن لم ينتهوا عما يقولون يقول إن لم ينتهوا قائلو هذه المقالة عما يقولون من قولهم الله ثالث ثلاثة ليمسّن الذين كفروا منهم عذاب أليم يقول ليمسّن الذين يقولون هذه المقالة والذين يقولون المقالة الأخرى هو المسيح ابن مريم لأن الفريقين كلاهما كفر مشركون فلذلك رجع في الوعيد بالعذاب إلى العموم ولم يقل ليمسّنهم عذاب أليم لأن ذلك لو قيل كذلك صار الوعيد من الله تعالى ذكره خاصاً لقائل القول الثاني وهم القائلون الله ثالث ثلاثة ولم يدخل فيهم القائلون المسيح هو الله فعم بالوعيد تعالى ذكره كل كافر ليعلم المخاطبون بهذه الآيات أن وعيد الله قد شمل كلا الفريقين من بني إسرائيل ومن كان من الكفار على مثل الذي هم عليه فإن قال قائل وإن كان الأمر على ما وصفت فعلى من عادت الهاء والميم

القول في تأويل قوله ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره أفلا يرجع هذان الفريقان الكافران القائل أحدهما إن الله هو المسيح ابن مريم والآخر القائل إن الله ثالث ثلاثة عما قالوا من ذلك ويتوبان مما قالوا وقطعا به من كفرهما ويسألان ربهما المغفرة مما قالوا والله غفور لذنب التائبين من خلقه المنيبين إلى طاعته بعد معصيتهم رحيم بهم في قبوله توبتهم ومراجعتهم إلى ما يحب مما يكره فيصفح بذلك من فعلهم عما سلف من إجرامهم قبل ذلك .

القول في تأويل قوله ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَا كَلَانِ أَنْظَعَامُ﴾ وهذا من الله تعالى ذكره احتجاجاً لنبيه محمد ﷺ على فرق النصارى في قولهم في المسيح يقول مكذباً لليعقوبية في قيلهم هو الله والآخرين في قيلهم هو ابن الله ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح ولكنه ابن مريم ولدته ولادة الأمهات أبناءهن وذلك من صفة البشر لا من صفة خالق البشر وإنما هو الله رسول كسائر رسله الذين كانوا قبله فمضوا وخلوا أجري على يده ما شاء أن يجري عليها من الآيات والعبر حجة له على صدقه وعلى أن الله رسول إلى من أرسله إليه من خلقه كما أجرى على أيدي من قبله من الرسل من الآيات والعبر حجة لهم على حقيقة صدقهم في أنهم لله رسل وأمه

وهو الذي خلقكم ورزقكم وهو يحييكم ويميتكم شيئاً لا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً يخبرهم تعالى ذكره أن المسيح الذي زعم من زعم من النصارى أنه إله والذي زعم من زعم منهم أنه الله ابن لا يملك لهم ضرراً يدفعه عنهم أن أحله الله بهم ولا نفعاً يجلبه إليهم إن لم يقضه الله لهم. يقول تعالى ذكره «فكيف يكون رباً وإلهاً من كانت هذه صفته بل الرب المعبود الذي بيده كل شيء والقادر على كل شيء فأياه فاعبدوا وأخلصوا له العبادات دون غيره من العجزة الذين لا ينفعونكم ولا يضرون وأما قوله والله هو السميع العليم فإنه يعني تعالى ذكره بذلك والله هو السميع لاستغفارهم لو استغفروهم من قبلهم ما أخبر عنهم أنهم يقولونه في المسيح ولغير ذلك من منطقهم ومنطق خلقه العليم بتوبتهم لو تابوا منه وبغير ذلك من أمورهم.

القول في تأويل قوله ﴿قُلْ يَتَّخِذِ الْكَافِرُونَ الْقَوْلَ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وهذا خطاب من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ يقول تعالى ذكره قل يا محمد لهؤلاء الغالية من النصارى في المسيح يا أهل الكتاب يعني بالكتاب الإنجيل لا تغلوا في دينكم يقول ولا تفرطوا في القول فيما تدِينون به من أمر المسيح فتجاوزوا فيه الحق إلى الباطل فتقولوا فيه هو الله أو هو ابنه ولكن قولوا هو عبد الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ولا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً يقول ولا تتبعوا أيضاً في المسيح أهواء اليهود الذين قد ضلوا قبلكم عن سبيل الهدى في القول فيه فتقولون فيه كما قالوا هو لغير رشدة وتبتهوا أمه كما يبهتونها بالفرية وهي صدّيقة وأضلوا كثيراً يقول تعالى ذكره وأضل هؤلاء اليهود كثيراً من الناس فحادوا بهم عن طريق الحق وحملوهم على الكفر بالله والتكذيب بالمسيح وضلوا عن سواء السبيل يقول وضل هؤلاء اليهود عن قصد الطريق وركبوا غير محجة الحق وإنما يعني تعالى ذكره بذلك كفرهم بالله وتكذيبهم رسله عيسى ومحمداً ﷺ وذهابهم عن الإيمان وبعدهم منه وذلك كان ضلالهم الذي وصفهم الله به وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من

صدّيقة يقول تعالى ذكره وأم المسيح صدّيقة والصدّيقة الفعيلة من الصدق وكذلك قولهم فلان صدّيق فعيل من الصدق ومنه قوله تعالى ذكره والصدّيقين والشهداء وقد قيل إن أبا بكر الصدّيق رضي الله عنه إنما قيل له الصدّيق لصدقه وقد قيل إنما سمي صدّيقاً لتصديقه النبي ﷺ في مسيره في ليلة واحدة إلى بيت المقدس من مكة وعوده إليها وقوله كانا يأكلان الطعام خبر من الله تعالى ذكره عن المسيح وأمه أنهما كانا أهل حاجة إلى ما يغذوهما وتقوم به أهدانهما من المطاعم والمشارب كسائر البشر من بني آدم فإن من كان كذلك فغير كائن إلهاً لأن المحتاج إلى الغذاء قوامه بغيره وفي قوامه بغيره وحاجته إلى ما يقيمه دليل واضح على عجزه والعاجز لا يكون إلا مربوباً لا رباً. القول في تأويل قوله ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنْتُ لَهُمْ الْأَيَاتِ ثُمَّ أَنْظُرْ إِلَيْهِ يُؤْفِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ انظر يا محمد كيف نبين لهؤلاء الكفرة من اليهود والنصارى الآيات وهي الأدلة والأعلام والحجج على بطول ما يقولون في أنبياء الله وفي فريتهم على الله وأدعائهم له ولداً وشهادتهم لبعض خلقه بأنه لهم رب وإله ثم لا يرتدعون عن كذبهم وباطل قبلهم ولا ينزجرون عن فريتهم على ربهم وعظيم جهلهم مع ورود الحجج القاطعة عذرهم عليهم يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ ثم انظر يا محمد أنى يؤفكون يقول ثم انظر مع تبيننا لهم آياتنا على بطول قولهم أي وجه يصرفون عن بياننا الذي بينته لهم وكيف عن الهدى الذي نهديهم إليه من الحق يضلون والعرب تقول لكل مصروف عن شيء هو مأفوك عنه يقال قد أفكت فلاناً عن كذا أي صرفته عنه فأنا أفكه أفكاً وهو مأفوك وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر.

القول في تأويل قوله ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وهذا أيضاً احتجاج من الله تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ على النصارى القائلين في المسيح ما وصف من قبلهم فيه قبل يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء الكفرة من النصارى الزاعمين أن المسيح ربهم والقائلين إن الله ثالث ثلاثة أتعبدون سوى الله الذي يملك ضركم ونفعكم

قال ذلك. حدثني محمد عمرو: قال... عن مجاهد في قول الله وضلوا عن سواء السبيل قال يهود. حدثني محمد بن الحسين... عن السدي لا تتبعوا أهواء قوم قد ضلوا من قبل وأضلوا كثيراً فهم أولئك الذين ضلوا وأضلوا أتباعهم وضلوا عن سواء السبيل عن عدل السبيل.

القول في تأويل قوله ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم قل لهؤلاء النصارى الذين وصف تعالى ذكره صفتهم لا تغلوا فتقولوا في المسيح غير الحق ولا تقولوا فيه ما قالت اليهود الذين قد لعنهم الله على لسان أنبيائه ورسله داود وعيسى ابن مريم وكان لعن الله إياهم على ألسنتهم كالذي. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال لعنوا بكل لسان لعنوا على عهد موسى في التوراة ولعنوا على عهد داود في الزبور ولعنوا على عهد عيسى في الإنجيل ولعنوا على عهد محمد ﷺ في القرآن. حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم يقول لعنوا في الإنجيل على لسان عيسى ابن مريم ولعنوا في الزبور على لسان داود حدثنا ابن وكيع... عن ابن عباس لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال خالطوهم بعد النهي في تجارتهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض فهم ملعونون على لسان داود وعيسى ابن مريم. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال لعنوا على لسان داود فصاروا قردة ولعنوا على لسان عيسى فصاروا خنازير. حدثنا القاسم... قال قال ابن عباس قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل بكل لسان لعنوا على عهد موسى في التوراة وعلى عهد داود في الزبور وعلى عهد عيسى في الإنجيل ولعنوا على لسان محمد ﷺ في القرآن قال ابن جريج وقال آخرون لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود على عهده فلعنوا بدعوته قال مَرَّ داود على نفر منهم وهم

في بيت فقال من في البيت قالوا خنازير قال اللهم اجعلهم خنازير فكانوا خنازير قال ثم أصابتهم لعنته ودعا عليهم عيسى فقال اللهم العن من افتري علي وعلى أمي واجعلهم قردة خاسئين. حدثنا بشر بن معاذ عن قتادة قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل الآية لعنهم الله على لسان داود في زمانه فجعلهم قردة خاسئين وفي الإنجيل على لسان عيسى فجعلهم خنازير. حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع... عن أبي مالك قال لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود قال مسخوا على لسان داود قردة وعلى لسان عيسى خنازير. حدثني يعقوب... عن أبي مالك مثله حدثنا أبو كريب... عن ابن مسعود قال قال رسول الله ﷺ إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على الذنب نهاه عنه تعزيراً فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وخليطه وشريبه فلما رأى ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ثم قال والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي المسيء ولا تواطؤنه على الخواطر أو ليضربن الله قلوب بعضكم على بعض وليلعننكم كما لعنهم. حدثنا ابن حميد... عن عبد الله قال لما فشا المنكر في بني إسرائيل جعل الرجل يلقي الرجل فيقول يا هذا اتق الله ثم لا يمنعه ذلك أن يؤاكله ويشاربه فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض ثم أنزل فيهم كتاباً لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال كلا والذي نفسي بيده حتى تأطروا الظالم على الحق أطراً. حدثنا علي بن سهل الرملي... عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ إن بني إسرائيل لما ظهر منهم المنكر جعل الرجل يرى أخاه وجاره وصاحبه على المنكر فينهاه ثم لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه ونديمه فضرب الله قلوب بعضهم على بعض ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون إلى فاسقون قال

عن ابن زيد في قوله لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم قال فقال لعنوا في الإنجيل وفي الزبور وقال قال رسول الله ﷺ إن رحي الإيمان قد دارت فدوروا مع القرآن حيث دار فإنه قد فرغ الله مما افترض فيه وأنه كانت أمة من بني إسرائيل كانوا أهل عدل يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر فأخذهم قومهم فنشروهم بالمنشير وصلبوه على الخشب وبقيت منهم بقية فلم يرضوا حتى داخلوا الملوك وجالسوهم ثم لم يرضوا حتى واكلوهم فضرب الله تلك القلوب بعضها ببعض فجعلها واحدة فذلك قول الله تعالى لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود إلى ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ماذا كانت معصيتهم قال كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون فتأويل الكلام إذا لعن الله الذين كفروا من اليهود بالله على لسان داود وعيسى ابن مريم ولعن الله آبائهم على لسان داود وعيسى ابن مريم بما عصوا الله فخالفوا أمره وكان يعتدون يقول وكانوا يتجاوزون حدوده.

عبد الله وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً فغضب وقال لا والله حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثنا ابن بشار... عن أبي عبيدة قال قال رسول الله ﷺ إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص كان الرجل يرى أخاه على الريب فينهاه عنه فإذا كان الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه وخليطه فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ونزل فيهم القرآن فقال لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم حتى بلغ ولكن كثيراً منهم فاسقون قال وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس وقال لا حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثنا ابن بشار عن عبد الله عن النبي ﷺ بمثله. حدثنا هناد بن السري عن علي بن بذيمة قال سمعت أبا عبيدة يقول قال رسول الله ﷺ فذكر نحوه غير أنهما قالوا في حديثهما وكان رسول الله ﷺ متكئاً فاستوى جالساً ثم قال كلا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً. حدثني يونس قال...

الرازي ج ١٢ ص ٥٩ - ٦٤

المشركين على شركهم بهذا الوعيد فائدة .
ثم قال تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وفيه مسألتان :

المسألة الأولى - «ثلاثة» كسرت بالإضافة، ولا يجوز نصبها لأن معناه: واحد ثلاثة. أما إذا قلت: رابع ثلاثة فهنا يجوز الجر والنصب، لأن معناه الذي صير الثلاثة أربعة بكونه فيهم.

المسألة الثانية - في تفسير قول النصارى ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ طريقان: الأول: قول بعض المفسرين، وهو أنهم أرادوا بذلك أن الله ومريم وعيسى آلهة ثلاثة، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى للمسيح ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ١١٦] فقوله ﴿ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ أي أحد ثلاثة آلهة، أو واحد من ثلاثة آلهة، والدليل على أن المراد ذلك قوله تعالى في الرد عليهم ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وعلى هذا التقدير ففي الآية إضمار، إلا أنه حذف ذكر الآلهة لأن ذلك معلوم من

اعلم أنه تعالى لما استقصى الكلام مع اليهود شرع ههنا في الكلام مع النصارى فحكى عن فريق منهم أنهم قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم، وهذا هو قول اليعقوبية لأنهم يقولون: إن مريم ولدت إلهاً، ولعل معنى هذا المذهب أنهم يقولون: إن الله تعالى حل في ذات عيسى واتحد بذات عيسى، ثم حكى تعالى عن المسيح أنه قال. وهذا تنبيه على ما هو الحجة القاطعة على فساد قول النصارى، وذلك لأنه عليه الصلاة والسلام لم يفرق بين نفسه وبين غيره في أن دلائل الحدوث ظاهرة عليه. ثم قال تعالى ﴿إِنَّهُ مِنْ يَشْرِكِ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ ومعناه ظاهر. واحتج أصحابنا على أن عقاب الفساق لا يكون مخلداً، قالوا: وذلك لأنه تعالى جعل أعظم أنواع الوعيد والتهديد في حق المشركين هو أن الله حرم عليهم الجنة وجعل مأواهم النار. وأنه ليس لهم ناصر ينصرهم ولا شافع يشفع لهم، فلو كان حال الفساق من المؤمنين كذلك لما بقي لتهديد

مذاهبهم، قال الواحدي: ولا يكفر من يقول: إن الله ثالث ثلاثة إذا لم يرد به ثالث ثلاثة آلهة، فإنه مامن شيئين إلا والله ثالثهما بالعلم، لقوله تعالى ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ [المجادلة: ٤٧].

والطريق الثاني - أن المتكلمين حكوا عن النصارى أنهم يقولون: جوهر واحد، ثلاثة أقانيم آب، وابن، وروح القدس، وهذه الثلاثة إله واحد، كما أن الشمس اسم يتناول القرص والشعاع والحرارة، وعنوا بالآب الذات، وبالابن الكلمة، وبالروح الحياة، وأثبتوا الذات والكلمة والحياة، وقالوا: إن الكلمة التي هي كلام الله اختلطت بجسد عيسى اختلاط الماء بالخمير، واختلاط الماء باللبن، وزعموا أن الآب إله، والابن إله، والروح إله، والكل إله واحد.

واعلم أن هذا معلوم البطلان ببديهية العقل، فإن الثلاثة لا تكون واحداً، والواحد لا يكون ثلاثة، ولا يرى في الدنيا مقالة أشد فساداً وأظهر بطلاناً من مقالة النصارى.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ في «من» قولان: أحدهما: أنها صلة زائدة والتقدير: وما إله إلا واحد، والثاني: أنها تفيد معنى الاستغراق، والتقدير: وما في الوجود من هذه الحقيقة إلا فرد واحد.

ثم قال تعالى ﴿وَلَنْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لِيَمْسَرَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ قال الزجاج: معناه: ليمسن الذين أقاموا على هذا الدين؛ لأن كثيراً منهم تابوا عن النصرانية.

ثم قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفِيعٌ رَحِيمٌ﴾ قال الفراء: هذا أمر في لفظ الاستفهام كقولهم ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوُونَ﴾ [المائدة: ٩١] في آية تحريم الخمر.

ثم قال تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله جاء بآيات من الله كما أتوا بأمثالها، فإن كان الله أبرأ الأكمه والأبرص وأحيا الموتى على يده فقد أحيا العصا وجعلها حية تسعى

وفلق البحر على يد موسى، وإن كان خلقه من غير ذكر فقد خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى «وأمه صديقة» وفي تفسير ذلك وجوه: أحدها: أنها صدقت بآيات ربها وبكل ما أخبر عنه ولدها. قال تعالى في صفتها ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا إِيمَانُهَا﴾ [مريم: ١٧] فلما كلمها جبريل وصدقته وقع عليها اسم الصديقة، وثالثها: أن المراد بكونها صديقة غاية بعدها عن المعاصي وشدة جدتها واجتهادها في إقامة مراسم العبودية، فإن الكامل في هذه الصفة يسمى صديقاً قال تعالى ﴿فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾ [النساء: ٦٩].

ثم قال تعالى ﴿كَانَ يَأْكُلُ لَنْ الطَّعَامِ﴾ واعلم أن المقصود من ذلك: الاستدلال على فساد قول النصارى، وبيان من وجوه: الأول: إن كل من كان له أم فقد حدث بعد أن لم يكن، وكل من كان كذلك كان مخلوقاً لا إلهياً، والثاني: أنهما كانا محتاجين، لأنهما كانا محتاجين إلى الطعام أشد الحاجة، والإله هو الذي يكون غنياً عن جميع الأشياء، فكيف يعقل أن يكون إلهياً. الثالث قال بعضهم: إن قوله ﴿كَانَ يَأْكُلُ لَنْ الطَّعَامِ﴾ كناية عن الحدث لأن من أكل الطعام فإنه لا بد وأن يحدث، وهذا عندي ضعيف من وجوه: الأول: إنه ليس كل من أكل أحدث، فإن أهل الجنة يأكلون ولا يحدثون. الثاني: إن الأكل عبارة عن الحاجة إلى الطعام، وهذه الحاجة من أقوى الدلائل على أنه ليس باله، فأى حاجة بنا إلى جعله كناية عن شيء آخر. الثالث: إن الإله هو القادر على الخلق والإيجاد، فلو كان إلهاً لقدر على دفع ألم الجوع عن نفسه بغير الطعام والشراب، فلما لم يقدر على دفع الضرر عن نفسه كيف يعقل أن يكون إلهياً للعالمين، وبالجمله فساد قول النصارى أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل.

ثم قال تعالى ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظِرْ أَنَّ يُوقَفُوكَ﴾ يقال: أفكه يافكه إفكا إذا صرفه، والإفك الكذب لأنه صرف عن الحق، وكل مصروف عن الشيء مأفوك عنه، وقد أفكت الأرض إذا صرف عنها المطر، ومعنى قوله ﴿أَنَّ يُوقَفُوكَ﴾ أنى

يصرفون عن الحق، قال أصحابنا: الآية دلت على أنهم مصروفون عن تأمل الحق، والإنسان يمتنع أن يصرف نفسه عن الحق والصدق إلى الباطل والجهل والكذب، لأن العاقل لا يختار لنفسه ذلك، فعلمنا أن الله سبحانه وتعالى هو الذي صرفهم عن ذلك.

ثم قال تعالى ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ وهذا دليل آخر على فساد قول النصارى، وهو يحتمل أنواعاً من الحجّة: الأول: إن اليهود كانوا يعادونه ويقصدونه بالسوء، فما قدر على الاضرار بهم، وكان أنصاره وصحابته يحبونه فما قدر على إيصال نفع من منافع الدنيا إليهم، والعاجز عن الاضرار والنفع كيف يعقل أن يكون إلهاً. الثاني: إن مذهب النصارى أن اليهود صلبوه ومزقوا أضلاعه، ولما عطش وطلب الماء منهم صبوا الخل في منخرية، ومن كان في الضعف هكذا كيف يعقل أن يكون إلهاً. الثالث: إن إله العالم يجب أن يكون غنياً عن كل ما سواه، ويكون كل ما سواه محتاجاً إليه، فلو كان عيسى كذلك لامتنع كونه مشغولاً بعبادة الله تعالى، لأن الإله لا يعبد شيئاً، إنما العبد هو الذي يعبد الإله، ولما عرف بالتواتر كونه كان مواظباً على الطاعات والعبادات علمنا أنه إنما كان يفعلها لكونه محتاجاً في تحصيل المنافع ودفع المضار إلى غيره، ومن كان كذلك كيف يقدر على إيصال المنافع إلى العباد ودفع المضار عنهم، وإذا كان كذلك كان عبداً كسائر العبيد، وهذا هو عين الدليل الذي حكاه الله تعالى عن إبراهيم عليه السلام حيث قال لأبيه ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

ثم قال تعالى ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ والمراد منه التهديد يعني سميع بكفرهم عليهم بضمائرهم. قوله تعالى ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾.

اعلم أنه تعالى لما تكلم أولاً على أباطيل اليهود، ثم تكلم ثانياً على أباطيل النصارى وأقام الدليل القاهر على بطلانها وفسادها، فعند ذلك خاطب مجموع الفريقين بهذا الخطاب فقال ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ والغلو نقیض التقصير. ومعناه الخروج عن

الحد، وذلك لأن الحق بين طرفي الإفراط والتفريط، ودين الله بين الغلو والتقصير. وقوله ﴿غَيْرَ الْحَقِّ﴾ صفة المصدر، أي لا تغلوا في دينكم غلواً غير الحق، أي غلواً باطلاً، لأن الغلو في الدين نوعان: غلو حق، وهو أن يبالغ في تقريره وتأكيده، وغلوه باطل وهو أن يتكلف في تقرير الشبه وإخفاء الدلائل، وذلك الغلو هو أن اليهود لعنهم الله نسبوه إلى الزنا. وإلى أنه كذاب، والنصارى ادّعوا فيه الالهية.

ثم قال تعالى ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - الأهواء ههنا المذاهب التي تدعو إليها الشهوة دون الحجّة. قال الشعبي: ما ذكر الله لفظ الهوى في القرآن إلا ذمه. قال ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦]. واتبع هواه فتردى. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ [النجم: ٣]. ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ الْهَوَى هَوًى﴾ [الجاثية: ٢٣] قال أبو عبيدة: لم نجد الهوى يوضع إلا في موضع الشر. لا يقال: فلان يهوى الخير، إنما يقال: يريد الخير ويحبه. وقال بعضهم: الهوى إله يعبد من دون الله. وقيل: سمي الهوى هوى لأنه يهوي بصاحبه في النار، وأنشد في ذم الهوى:

إن الهوى لهو الهوان بعينه

فلذا هويت فقد لقيت هوانا
وقال رجل لابن عباس: الحمد لله الذي جعل هواي على هواك، فقال ابن عباس: كل هوى ضلالة.

المسألة الثانية - إنه تعالى وصفهم بثلاث درجات في الضلال، فبين أنهم كانوا ضالين من قبل ثم ذكر أنهم كانوا مضلين لغيرهم، ثم ذكر أنهم استمروا على تلك الحالة حتى أنهم الآن ضالون كما كانوا، ولا نجد حالة أقرب إلى البعد من الله والقرب من عقاب الله تعالى من هذه الحالة. نعوذ بالله منها، ويحتمل أن يكون المراد: أنهم ضلوا وأضلوا، ثم ضلوا بسبب اعتقادهم في ذلك الإضلال إنه إرشاد إلى الحق، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الأول الضلال عن الدين، وبالضلال الثاني الضلال عن طريق الجنة.

العنهم كما لعنت أصحاب السبت فأصبحوا خنازير، وكانوا خمسة آلاف رجل ما فيهم امرأة ولا صبي. قال بعض العلماء: إن اليهود كانوا يفتخرون بأنهم من أولاد الأنبياء، فذكر الله تعالى هذه الآية لتدل على أنهم ملعونون على السنة الأنبياء. وقيل: إن داود وعيسى عليهما السلام بشرا بمحمد ﷺ، ولعنا من يكذبه، وهو قول الأصم ثم قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ والمعنى أن ذلك اللعن كان بسبب أنهم يعصون ويبالغون في ذلك العصيان.

ابن كثير ج ٢ ص ٧٧ - ٨٥

عَلَيْهِ الْجَنَّةُ والحديث في مسند أحمد ولهذا قال تعالى إخباراً عن المسيح إنه قال لبني إسرائيل ﴿إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ أي وماله عند الله ناصر ولا معين ولا منقذ مما هو فيه وقوله ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال ابن أبي حاتم... حدثني أبو صخر في قول الله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ قال هو قول اليهود عزيز ابن الله وقول النصارى المسيح ابن الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة وهذا قول غريب في تفسير الآية أن المراد بذلك طائفتي اليهود والنصارى والصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة قاله مجاهد وغير واحد ثم اختلفوا في ذلك فقبل المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الابن تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً قال ابن جرير وغيره والطوائف الثلاثة من الملكية واليعقوبية والنسطورية تقول بهذه الأقانيم وهم مختلفون فيها اختلافاً متبايناً ليس هذا موضع بسطه ولك فرقة منهم تكفر الأخرى والحق أن الثلاثة كافرة وقال السدي وغيره نزلت في جعلهم المسيح وأمه إلهين مع الله فجعلوا الله ثالث ثلاثة بهذا الاعتبار قال السدي وهو كقوله تعالى في آخر السورة ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَى إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ﴾ [المائدة: ١١٦] الآية وهذا القول هو الأظهر

واعلم أنه تعالى لما خاطب أهل الكتاب بهذا الخطاب وصف أسلافهم فقال تعالى ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ قال أكثر المفسرين: يعني أصحاب السبت، وأصحاب المائدة. أما أصحاب السبت فهو أن قوم داود، وهم أهل «أيلة» لما اعتدوا في السبت بأخذ الحيتان على ما ذكر الله تعالى هذه القصة في سورة الأعراف قال داود: اللهم العنهم واجعلهم آية فمسخوا قردة، وأما أصحاب المائدة فإنهم لما أكلوا من المائدة ولم يؤمنوا قال عيسى: اللهم

... يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى من الملكية واليعقوبية والنسطورية ممن قال منهم بأن المسيح هو الله تعالى الله عن قولهم وتنزه وتقدس علواً كبيراً هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبد الله ورسوله وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد أن قال إني عبد الله ولم يقل إني أنا الله ولا ابن الله بل ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلى أن قال ﴿إِنَّ اللَّهَ رَفِيعُ دَرَجَاتٍ عَزِيزٌ مُبِينٌ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ [آل عمران: ٥١] وكذلك قال لهم في حال كهولته ونبوته آمراً لهم بعبادة الله ربه وربهم وحده لا شريك له ولهذا قال تعالى ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَكُنِيَ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ أَيُّ فِعْلٍ مَعَهُ غَيْرُهُ﴾ ﴿فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ أي فقد أوجب له النار وحرم عليه الجنة كما قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] وقال تعالى ﴿وَقَادَىٰ أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الأعراف: ٥٠] وفي الصحيح أن النبي ﷺ بعث منادياً ينادي في الناس أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة وفي لفظ مؤمنة وتقدم في أول سورة النساء عند قوله إن الله لا يغفر أن يشرك به حديث يزيد بن بابنوس عن عائشة: الدواوين ثلاثة فذكر منهم ديواناً لا يغفره الله وهو الشرك بالله قال الله تعالى ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ

فقال تعالى ﴿قُلْ﴾ أي يا محمد لهؤلاء العابدين غير الله من سائر فرق بني آدم ودخل في ذلك النصارى وغيرهم ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ أي لا يقدر على دفع ضرر عنكم ولا إيصال نفع إليكم ﴿وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ أي السميع لأقوال عباده العليم بكل شيء فلم عدلتم عنه إلى عبادة جماد لا يسمع ولا يبصر ولا يعلم شيئاً ولا يملك ضرراً ولا نفعاً لغيره ولا لنفسه ثم قال ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ﴾ أي لا تجاوزوا الحد في اتباع الحق ولا تطروا من أمرتم بتعظيمه فتبالغوا فيه حتى تخرجوه عن حيز النبوة إلى مقام الإلهية كما صنعتم في المسيح وهو نبي من الأنبياء فجعلتموه إلهاً من دون الله وما ذاك إلا لاقتدائكم بشيوخكم شيوخ الضلال الذين هم سلفكم ممن ضل قديماً ﴿وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ أي وخرجوا عن طريق الاستقامة والاعتدال إلى طريق الغواية والضلال وقال ابن أبي حاتم . . . عن الربيع بن أنس قال وقد كان قائم قام عليهم فأخذ بالكتاب والسنة زماناً فاتاه الشيطان فقال إنما تركب أثراً أو أمراً قد عمل قبلك فلا تحمد عليه ولكن ابتدع أمراً من قبل نفسك وادع إليه واجبر الناس عليه ففعل ثم اذكر بعد فعله زماناً فأراد أن يتوب منه فخلع سلطانه وملكه وأراد أن يتعبد فلبث في عبادته أياماً فأتى فليل له لو أنك تبت من خطيئة عملتها فيما بينك وبين ربك عسى أن يتاب عليك ولكن ضل فلان وفلان وفلان في سبيلك حتى فارقوا الدنيا وهم على الضلالة فكيف لك بهداهم فلا توبة لك أبداً ففيه سمعنا وفي أشباهه هذه الآية ﴿يَتَاهَلِ الْكِتَابُ لَا تَقْلُوبُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ . . .

وقال الإمام أحمد . . . رحمه الله عن عبد الله قال قال رسول الله ﷺ لما وقعت بنو إسرائيل في المعاصي نهتهم علماؤهم فلم ينتهوا فجالسوهم في مجالسهم قال يزيد وأحسبه . قال في أسواقهم وواكلوهم وشاربوهم فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ولعنهم على لسان داود وعيسى

والله أعلم قال الله تعالى ﴿وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَحْدٌ﴾ أي ليس متعدداً بل هو وحده لا شريك له إله جميع الكائنات وسائر الموجودات ثم قال تعالى متوعداً لهم ومتهدداً ﴿وَلَئِنْ لَّمْ يَلْتَمِهُا عَمَّا يَقُولُونَ﴾ أي من هذا الافتراء والكذب ﴿لَيَمَسَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي في الآخرة من الأغلال والنكال ثم قال ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهذا من كرمه تعالى وجوده ولطفه ورحمته بخلقه مع هذا الذنب العظيم وهذا الافتراء والكذب والإفك يدعوهم إلى التوبة والمغفرة فكل من تاب إليه تاب عليه وقوله تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ أي له أسوة أمثاله من سائر المرسلين المتقدمين عليه وأنه عبد من عباد الله ورسول من رسله الكرام كما قال ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩] وقوله ﴿وَأَمَلُّ صِدْقَةٍ﴾ أي مؤمنة به مصدقة له وهذا أعلى مقاماتها فدل على أنها ليست بنبية كما زعمه ابن حزم وغيره ممن ذهب إلى نبوة سارة أم إسحق ونبوة أم موسى ونبوة أم عيسى استدلالاً منهم بخطاب الملائكة لسارة ومريم بقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧] وهذا معنى النبوة والذي عليه الجمهور أن الله لم يبعث نبياً إلا من الرجال قال الله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ مِّنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ [يوسف: ١٠٩] وقد حكى الشيخ أبو الحسن الأشعري رحمه الله الإجماع على ذلك وقوله تعالى ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ أي يحتاجان إلى التغذية به وإلى خروجه منهما فهما عبدان كسائر الناس وليسا بالهين كما زعمت فرق النصارى الجهلة عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة ثم قال تعالى ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ﴾ أي نوضحها ونظهرها ﴿ثُمَّ أَنْظُرْ أَفَ يُؤْفَكُونَ﴾ أي ثم انظر بعد هذا البيان والوضوح والجلء أين يذهبون وبأي قول يتمسكون وإلى أي مذهب من الضلال يذهبون . . .

. . . يقول تعالى منكراً على من عبد غيره من الأصنام والأنداد والأوثان ومبيناً له أنها لا تستحق شيئاً من الإلهية

ابن مريم ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ وكان رسول الله ﷺ متكئاً فجلس فقال: «لا والذي نفسي بيده حتى تأطروهم على الحق أطراً» وقال أبو داود... عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقي الرجل

فيقول يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُخَلِّقُ
النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ
الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ
تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
مِنْهُمْ إِنَّا هَذَا آلَاءُ سِحْرٍ مُّبِينٌ . وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِوَيْرُسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا
وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ . إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا
مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ . قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا
وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً
مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا
عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ . وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ
مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ
لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ . مَا
قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ
أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ عَبَادُكَ وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ
الْحَكِيمُ . قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ
اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾

(سورة المائدة، رقم ٥، الآية ١١٠ - ١١٩)

مصادر تفاسير الآية:		أبو حيان الاندلسي	
الطبري	ج ٧ ص ٨٢ - ٩٢	ج ٤ ص ٢٨ - ٦٤	
الزمخشري	ج ١ ص ٦٥٣ - ٦٥٩	ج ٢ ص ١١٤ - ١٢٢	
الرازي	ج ١٢ ص ١٢٤ - ١٣٩	ج ٢ ص ١٦٠ - ١٦١	
الطبرسي	ج ٦ ص ٢٣١ - ٢٥٠	ج ٢ ص ٩٠ - ٩٦	
ابن عربي	ج ١ ص ٣٤٨ - ٣٥٤	ج ٧ ص ٥٦ - ٧٣	
البيضاوي	ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٧	ج ٦ ص ٤٢٥ - ٤٤٣	
الخازن	ج ٢ ص ١٠٨ - ١١٦	ج ٦ ص ٢١٨ - ٣٧٧	
البغوي	ج ٢ ص ٦٣	ج ٣ ص ٢١١ - ٢٣٤	
الماوردي	ج ٢ ص ٧٩ - ٨٠	ج ٧ ص ٥٢ - ٦٨	
القرطبي	ج ٦ ص ٣٦٢ - ٣٨١	ج ٢ ص ٩٩٧ - ١٠٠٢	

الطبري ج ٧ ص ٨٢ - ٩٢

الرسول فيقول لهم ماذا أجابكم أممكم في الدنيا إذ قال الله
يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ
أيدتك بروح القدس فإذا من صلة أجبتكم كأن معناها ماذا

القول في تأويل قوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ
الْقُدُسِ﴾ يقول تعالى ذكره لعباده احذروا يوم يجمع الله

أجابت عيسى الأمم التي أرسل إليها عيسى فإن قال قائل وكيف سئلت الرسل عن إجابة الأمم إياها في عهد عيسى ولم يكن في عهد عيسى من الرسل إلا أقل من ذلك قيل جائز أن يكون الله تعالى عني بقوله فيقول ماذا أجبت الرسل الذين كانوا أرسلوا في عهد عيسى فخرج الخبر مخرج الجميع والمراد منهم من كان في عهد عيسى كما قال تعالى الذين قال لهم الناس أن الناس قد جمعوا لكم والمراد واحد من الناس وإن كان مخرج الكلام على جميع الناس ومعنى الكلام إذا قال الله حين قال يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس يقول يا عيسى اذكر أيادي عندك وعند والدتك إذ قوّيتك بروح القدس وأعتك به . وقد اختلف أهل العربية في أيدتك ما هو من الفعل فقال بعضهم هو فعلتك كما في قولك قوّيتك فعلت من القوّة وقال آخرون بل هو فاعلتك من الأيد وروي عن مجاهد أنه قرأ إذ أيدتك بمعنى أفعلتك من القوّة والأيدي . وقوله بروح القدس يعني بجبريل يقول إذ أعتك بجبريل وقد بينت معنى ذلك وما معنى القدس فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع . القول في تأويل قوله ﴿ تَكَلَّمَ النَّاسُ فِي الْمَهْدِ وَكَهَلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قبله لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس في حال تكليمك الناس في المهدي وكهلاً وإنما هذا خبر من الله تعالى ذكره أنه أيده بروح القدس صغيراً في المهدي وكهلاً كبيراً فردّ الكهل على قوله في المهدي لأن معنى ذلك صغيراً كما قال الله تعالى ذكره دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً وقوله وإذا علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل يقول واذكر أيضاً نعمتي عليك إذ علمتك الكتاب وهو الخط والحكمة وهي الفهم بمعاني الكتاب الذي أنزلته إليك وهو الإنجيل وإذا تخلق من الطين كهية الطير يقول كصورة الطير باذني يعني

بقوله تخلق تعمل وتصلح من الطين كهية الطير باذني يقول بعوني على ذلك وعلم مني به فتنفخ فيها يقول فتنفخ في الهيئة فتكون الهيئة والصورة طيراً بأذني وتبرئ الأكمه . يقول وتشفي الأكمه وهو الأعمى الذي لا يبصر شيئاً المظموس البصر والأبرص باذني وقد بينت معاني هذه الحروف فيما مضى من كتابنا هذا مفسراً بشواهد بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع . وقوله وإذا كففت بني إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات يقول واذكر أيضاً نعمتي عليك بكفي عنك بني إسرائيل إذ كففتهم عنك وقد هموا بقتلك إذ جئتهم بالبينات يقول إذ جئتهم بالأدلة والاعلام المعجزة على نبوتك وحقية ما أرسلتك به إليهم فقال الذين كفروا منهم يقول تعالى ذكره فقال الذين جحدوا نبوتك وكذبوك من بني إسرائيل إن هذا إلا سحر مبين . واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته قراء أهل المدينة وبعض أهل البصرة إن هذا إلا سحر مبين يعني يبين عما أتى به لمن رآه ونظر إليه أنه سحر لا حقيقة له وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة إن هذا إلا ساحر مبين بمعنى ما هذا يعني به عيسى إلا ساحر مبين يقول يبين بأفعاله وما يأتي به من هذه الأمور العجيبة عن نفسه أنه ساحر لا نبي صادق والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى متفقتان غير مختلفتين وذلك أن كل من كان موصوفاً بفعل السحر فهو موصوف بأنه ساحر ومن كان موصوفاً بأنه ساحر فإنه موصوف بفعل السحر فالفعل دال على فاعله والصفة تدل على موصوفها والموصوف يدل على صفته والفاعل يدل على فعله فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب الصواب في قراءته .

القول في تأويل قوله ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره واذكر أيضاً يا عيسى إذ ألقيت إلى الحواريين وهم وزراء عيسى على دينه وقد بينا معنى ذلك ولم قيل لهم الحواريون فيما مضى بما أغنى عن إعادته وقد اختلفت ألفاظ أهل التأويل في تأويل قوله وإذا أوحيت وإن كانت متفقة المعاني فقال بعضهم بما حدثني به محمد بن الحسين . . . عن السدي وإذا أوحيت إلى الحواريين يقول

ذلك كذلك أن الله تعالى ذكره قد كره منهم ما قالوا من ذلك واستعظمه وأمرهم بالتوبة ومراجعة الإيمان من قبلهم ذلك والإقرار لله بالقدرة على كل شيء وتصديق رسوله فيما أخبرهم عن ربهم من الأخبار وقد قال عيسى لهم عند قيلهم ذلك له استعظماً منه لما قالوا اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. ففي استتابة الله إياهم ودعائه لهم إلى الإيمان به وبرسوله ﷺ عند قيلهم ما قالوا من ذلك واستعظام نبي الله ﷺ كلمتهم الدلالة الكافية من غيرها على صحة القراءة في ذلك بالياء ورفع الرب إذ كان لا معنى في قولهم لعيسى لو كانوا قالوا له هل تستطيع أن تسأل ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء أن تستكبر هذا الاستكبار. فإن ظن ظان أن قولهم ذلك له إنما هو استعظام منهم لأن ذلك منهم كان مسألة آية فإن الآية إنما يسألها الأنبياء من كان بها مكذباً ليتقرر عنده حقيقة ثبوتها وصحة أمرها كما كانت مسألة قریش نبينا محمداً ﷺ أن يحول لهم الصفا ذهباً ويفجر فجاج مكة أنهاراً من سألهم من مشركي قومه وكما كانت مسألة صالح الناقة من مكذبي قومه ومسألة شعيب أن يسقط كسفاً من السماء من كفار من أرسل إليهم. وكان الذين سألوا عيسى أن يسأل ربه أن ينزل عليهم مائدة من السماء على هذا الوجه كانت مسألتهم فقد أحلهم الذين قرؤوا ذلك بالتاء ونصب الرب محلاً أعظم من المحل الذي ظنوا أنهم نزهوا ربهم عنه أو يكونوا سألوا ذلك عيسى وهم موقنون بأنه لله نبي مبعوث ورسول مرسل وأن الله تعالى على ما سألوا من ذلك قادر فإن كانوا سألوا ذلك وهم كذلك وإنما كانت مسألتهم إياه ذلك على نحو ما يسأل أحدهم نبيه إذ كان فقيراً أن يسأل له ربه أن يغنيه وإن عرضت به حاجة أن يسأل له ربه أن يقضيها فأنى ذلك من مسألة الآية في شيء بل ذلك سؤال ذي حاجة عرضت له إلى ربه فسأل نبيه مسألة ربه أن يقضيها له وخبر الله تعالى عن القوم يبنىء بخلاف ذلك وذلك أنهم قالوا لعيسى إذ قال لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقنا فقد أنبأ هذا عن قيلهم إنهم لم يكونوا يعلمون أن عيسى قد صدقهم ولا اطمأنت قلوبهم إلى حقيقة نبوته فلا بيان أبين من هذا الكلام في أن

قذفت في قلوبهم. وقال آخرون معنى ذلك ألهمتهم فتأويل الكلام: إذا وإذا ألفت إلى الحواريين أن صدقوا بي وبرسولي عيسى فقالوا آمنا أي صدقنا بما أمرتنا أن نؤمن يا ربنا واشهد علينا بأننا مسلمون يقول واشهد علينا بأننا خاضعون لك بالذلة سامعون مطيعون لأمرك. القول في تأويل قوله ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقول تعالى ذكره واذكر يا عيسى أيضاً نعمتي عليك إذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي إذ قالوا لعيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء فإذا الثانية من صلة أوحيت واختلفت القراءة في قراءة قوله يستطيع ربك فقرأ ذلك جماعة من الصحابة والتابعين هل يستطيع بالتاء ربك بالنصب بمعنى هل يستطيع أن تسأل ربك وهل يستطيع أن تدعو ربك أو هل تستطيع وترى أن تدعوه وقالوا لم يكن الحواريون شاكين أن الله تعالى ذكره قادر أن ينزل عليهم ذلك وإنما قالوا لعيسى هل تستطيع أنت ذلك. حدثنا ابن وكيع... عن ابن أبي مليكة قال قالت عائشة كان الحواريون لا يشكون أن الله قادر أن ينزل عليهم مائدة ولكن قالوا يا عيسى هل يستطيع ربك حدثني أحمد بن يوسف الثعلبي قال... عن سعيد ابن جبير أنه قرأها كذلك هل يستطيع ربك وقال يستطيع أن تسأل ربك وقال ألا ترى أنهم مؤمنون وقرأ ذلك عامة قراء المدينة والعراق هل يستطيع بالياء ربك بمعنى أن ينزل علينا ربك كما يقول الرجل لصاحبه أتعلم أن تنهض معنا في كذا وهو يعلم أنه يستطيع ولكنه إنما يريد انتفض معنا فيه وقد يجوز أن يكون مراد قارئه كذلك هل يستجيب لك ربك ويطيعك أن تنزل علينا. وأولى القراءتين عندي بالصواب قراءة من قرأ ذلك هل يستطيع بالياء ربك برفع الرب بمعنى هل يستجيب لك إن سألك ذلك ويطيعك فيه وإنما قلنا ذلك أولى القراءتين بالصواب لما بينا قبل من أن قوله إذ قال الحواريون من صلة إذ أوحيت وإن معنى الكلام وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك فبين إذ كان

وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَقْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿١٠﴾ يعني تعالى ذكره بذلك قال الحواريون مجيبي عيسى على قوله لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين في قولكم لي هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء إنا إنما قلنا ذلك وسألناك أن تسأل لنا ربك لنأكل من المائدة فعلم يقيناً قدرته على كل شيء وتطمئن قلوبنا. يقول وتستكن قلوبنا وتستقر على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد ونعلم أن قد صدقتنا ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك أنك لله رسول مرسل ونبى مبعوث ونكون عليها يقول ونكون على المائدة من الشاهدين يقول ممن يشهد أن الله أنزلها حجة لنفسه علينا في توحيده وقدرته على ما شاء ولك على صدقك في نبوتك.

القول في تأويل قوله ﴿١٠﴾ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْتُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾ وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن نبيه عيسى عليه السلام أنه أجاب القوم إلى ما سألوه من مسألة ربه مائدة تنزل عليهم من السماء ثم اختلف أهل التأويل في تأويل قوله تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا فقال بعضهم معناه تتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا ذكر من قال ذلك. حدثني محمد بن الحسين. . . عن السدي قوله تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا يقول تتخذ اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا. حدثنا بشر بن معاذ. . . عن قتادة قوله تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا قال أرادوا أن تكون لعقبهم من بعدهم. حدثنا القاسم. . . عن ابن جريج قوله أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا قال الذين هم أحياء منهم يومئذ وآخرنا من بعدهم منهم. حدثني الحرث قال ثنا عبد العزيز قال قال سفيان تكون لنا عيداً قالوا نصلي فيه قال نزلت مرتين. وقال آخرون معناه نأكل منها جميعاً ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم. . . عن ابن عباس أنه قال أكل منها يعني من المائدة حين وضعت بين أيديهم آخر الناس كما أكل منها أولهم.

وقال آخرون معنى قوله عيداً عائدة من الله تعالى علينا وحجة وبرهاناً. وأولى الأقوال بالصواب قول من قال

القوم كانوا قد خالط قلوبهم مرض وشك في دينهم وتصديق رسولهم وأنهم سألوا ما سألوا من ذلك اختباراً وبنحو الذي قلنا في ذلك. قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى عليه السلام أنه قال لبني إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيك ما سألتم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا أن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال عيسى اتقوا الله إن كنتم مؤمنين قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين إلى قوله لا أعذبه أحداً من العالمين. قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم حدثني محمد ابن الحسين. . . عن السدي هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قالوا هل يطيعك ربك إن سألته فأنزل الله عليهم مائدة من السماء فيها جميع الطعام إلا اللحم فأكلوا منها وأما المائدة فإنها الفاعلة من ماد فلان القوم يميدهم ميذاً إذا أطعمهم ومارهم ومنه قول رؤبة.

تهدى رؤوس المترفين الانداد

إلى أمير المؤمنين الممتاد

يعني بقوله الممتاد المستعصي فالمائدة المطعمة سميت الخوان بذلك لأنها تطعم الأكل مما عليها ولمائدة المدار به في البحر يقال مد يمد ميذاً.

قال عيسى للحواريين القائلين له هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء راقبوا الله أيها القوم وخافوا أن ينزل بكم من الله عقوبة على قولكم هذا فإن الله لا يعجزه شيء أراد به وفي شككم في قدرة الله على إنزال مائدة من السماء كفر به فاتقوا الله أن ينزل بكم نقمته إن كنتم مؤمنين يقول إن كنتم مصدقي على ما أتوعدكم به من عقوبة الله إياكم على قولكم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء. القول في تأويل قوله ﴿١١﴾ قَالُوا تُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا

معناه تكون لنا عيداً نعبد ربنا في اليوم الذي/ تنزل فيه ونصلي له فيه كما يعيد الناس في أعيادهم لأن المعروف من كلام الناس المستعمل بينهم في العيد ما ذكرنا دون القول الذي قاله من قال معناه عائدة من الله علينا وتوجيه معاني كلام الله إلى المعروف من كلام من خطب به أولى من توجيهه إلى المجهول منه ما وجد إليه السبيل. وأما قوله لأولنا وآخرنا فإن الأولى من تأويله بالصواب قول من قال تأويله للأحياء منا اليوم ومن يجيء بعدنا منا لليلة التي ذكرناها في قوله تكون لنا عيداً لأن ذلك هو الأغلب من معناه. وأما قوله وآية منك فإن معناه علامة وحجة منك يا رب على عبادك في وحدانيتك وفي صدقي على أبي رسول إليهم بما أرسلتني به وارزقنا وأنت خير الرازقين وأعطنا من عطائك فإنك يا رب خير من يعطي وأجود من تفضل لأنه لا يدخل عطاه من ولا نكد. وقد اختلف أهل التأويل في المائدة هل أنزلت عليهم أم لا وما كانت فقال بعضهم نزلت وكانت حوتاً وطعاماً فأكل القوم منها ولكنها رفعت بعدما نزلت بأحداث منهم أحدثوها فيما بينهم وبين الله تعالى ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن المثنى... حدثني الحسين بن علي... عن عطية قال المائدة سمكة فيها طعم كل طعام. حدثنا ابن وكيع... عن عطية قال المائدة سمك فيه من طعم كل طعام. حدثنا ابن وكيع... عن أبي عبد الرحمن قال نزلت المائدة خبزاً وسمكاً. حدثني محمد بن سعد عن ابن عباس قال نزلت على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤا. حدثنا الحسن بن يحيى أنه سمع وهب ابن منبه يقول في قوله أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً قال نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات قال الحسن قال أبو بكر فحدثت به عبد الصمد بن معقل فقال سمعت وهباً وقيل له وما كان ذلك يغني عنهم فقال لا شيء ولكن الله حشا بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ويجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا. حدثنا ابن وكيع... عن مجاهد قال هو الطعام ينزل عليهم حيث نزلوا. حدثني محمد بن عمرو... عن ابن أبي نجيع عن مجاهد في قول الله تعالى

مائدة من السماء قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. حدثنا القاسم قال ثنا الحسين... عن إسحق بن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاؤا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غداً فرفعت. حدثنا المثنى... عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جنب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل قال فقلت لا قال إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفذ قال فقليل لهم فإنها مقيمة لكم ما لم تخبوا أو تخونوا أو ترفعوا فإن فعلتم فإني أعذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين قال فما تم يومهم حتى خبوا ورفعوا وخانوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاة فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم على لسان نبيكم أنكم ستظهرون على العرب ونهاكم أن تكتنوا الذهب والفضة وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنواهما ويعذبكم عذاباً أليماً. حدثنا الحسن بن قزعة البصري... عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ نزلت المائدة خبزاً ولحمياً وأمروا أن لا يخونوا ولا يدخروا ولا يرفعوا لغد فخانوا وادخروا ورفعوا فمسخوا قردة وخنازير. حدثني محمد بن عبد الله بن بزيع... عن ابن عباس في المائدة قال كانت طعاماً ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا. وقال آخرون كانت المائدة تنزل وعليها ثمر من ثمار الجنة ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن بشار... عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمر الجنة فأمروا أن لا يخبوا ولا يخونوا ولا يدخروا قال فخان القوم وخبوا وادخروا فحولهم الله قردة وخنازير. حدثنا بشر... عن قتادة قال ذكر لنا أنها كانت مائدة ينزل عليها الثمر من ثمار الجنة وأمروا أن لا يخبوا ولا يخونوا ولا يدخروا لغد بلاء أبلاهم الله به وكانوا إذا فعلوا شيئاً من ذلك أنبأهم به عيسى فخان القوم فيه فخبوا وادخروا لغد. وقال آخرون كان عليها من كل طعام إلا اللحم ذكر من قال ذلك. حدثنا أبو كريب... عن ميسرة قال

كانت إذا وضعت المائدة لبني إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام. حدثنا ابن وكيع . . . عن ميسرة وزاذان قالا كانت الأيدي تختلف عليها بكل طعام. حدثني الحرث . . . عن زاذان وميسرة في هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قالا رأوا الأيدي تختلف عليها بكل شيء إلا اللحم. وقال آخرون لم ينزل الله على بني إسرائيل مائدة ثم اختلف قائلو هذه المقالة فقال بعضهم إنما هذا مثل ضربه الله تعالى لخلق نهامهم به عن مسألة نبي الله الآيات ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن وكيع . . . عن مجاهد في قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال مثل ضرب لم ينزل عليهم شيء. وقال آخرون أن القوم لما قيل لهم فمن يكفر بعد منكم فأنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين استعفوا منها فلم تنزل ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر بن معاذ . . . عن قتادة قال كان الحسن يقول لما قيل لهم فمن يكفر بعد منكم إلى آخر الآية قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل. حدثنا ابن المثنى . . . عن الحسن أنه قال في المائدة لم تنزل. حدثني الحرث . . . عن مجاهد قال مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال أن الله تعالى أنزل المائدة على الذين سألوا عيسى مسألته ذلك ربه وإنما قلنا ذلك للخبر الذي رويناه بذلك عن رسول الله ﷺ وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم غير من انفرد بما ذكرنا عنه وبعد فإن الله تعالى لا يخلف وعده ولا يقع في خبره الخلف وقد قال تعالى مخبراً في كتابه عن إجابة نبيه عيسى ﷺ حين سأله ما سأله من ذلك أني منزلها عليكم وغير جائز أن يقول تعالى ذكره أني منزلها عليكم ثم لا ينزلها لأن ذلك منه تعالى خبر ولا يكون منه خلاف ما يخبر ولو جاز أن يقول أني منزلها عليكم ثم لا ينزلها عليهم جاز أن يقول فمن يكفر بعد منكم فأنى معذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين ثم يكفر منهم بعد ذلك فلا يعذبه فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى بذلك وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فإن يقال كان عليها مأكول وجائز أن يكون كان سمكاً

وخبزاً وجائز أن يكون كان ثمرأ من ثمر الجنة وغير نافع العلم به ولا ضاراً لجهل به إذا أقر تالي الآية بظاهر ما احتمله التنزيل. القول في تأويل قوله ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَنَزَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴾ وهذا جواب من الله تعالى القوم فيما سألوا نبيهم عيسى مسألة ربهم من إنزاله مائدة عليهم فقال تعالى ذكره أني منزلها عليكم أيها الحواريون فمطمعكموها فمن يكفر بعد منكم يقول فمن يجحد بعد إنزالها عليكم وأطعامكموها منكم رسالتي إليه وينكر نبوة نبي عيسى ﷺ ويخالف طاعتي فيما أمرته ونهيته فأنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من عالمي زمانه ففعل القوم فجحدوا وكفروا بعدما أنزلت عليهم فيما ذكر لنا فعذبوا فيما بلغنا بأن مسخوا قردة وخنازير كالذي حدثنا بشر . . . عن قتادة قوله أني منزلها عليكم الآية ذكر لنا أنهم حوّلوا خنازير. حدثنا ابن بشار . . . عن عبد الله بن عمرو قال إن أشد الناس عذاباً ثلاثة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون. حدثنا الحسن بن عرفة . . . عن عوف قال سمعت أبا المغيرة القوّاس يقول قال عبد الله بن عمرو إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة والمنافقون وآل فرعون. حدثنا محمد بن الحسين . . . عن السدي قوله فمن يكفر بعد منكم بعدما جاءته المائدة فأنى أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين يقول أعذبه بعذاب لا أعذبه أحداً من العالمين غير أهل المائدة.

القول في تأويل قوله ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُمُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ ﴾ يقول تعالى ذكره يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وقيل إن الله قال هذا القول لعيسى حين رفعه إليه في الدنيا ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن الحسين . . . عن السدي وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال رفع الله عيسى ابن مريم إليه قالت النصارى ما قالت وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك فسأله عن قوله فقال

كلامهم فتوجيه معاني كلام الله تعالى إلى الأشهر الأعرف ما وجد إليه السبيل أولى من توجيهها إلى الأجهل الأنكر. والأخرى أن عيسى لم يشك هو ولا أحد من الأنبياء أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه فيجوز أن يتوهم على عيسى أن يقول في الآخرة مجيباً لربه تعالى أن تغدب من اتخذني وأمي إلهين من دونك فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم فإن قال قائل وما كان وجه سؤال الله عيسى أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وهو العالم بأن عيسى لم يقل ذلك قيل يحتتمل ذلك وجهين من التأويل أحدهما تحذير عيسى عن قيل ذلك ونهيه كما يقول القائل لآخر أفعلت كذا وكذا مما يعلم القول له ذلك أن القائل يستعظم فعل ما قال له أفعلته على وجه النهي عن فعله والتهديد له فيه والآخر إعلامه أن قومه الذين فارقه قد خالفوا عهده وبدلوا دينهم بعده فيكون بذلك جامعاً لأعلامه حالهم بعده وتحذيره له قبله. وأما تأويل الكلام فإنه أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين أي معبودين تعبدهما من دون الله قال عيسى تنزيهاً لك يا رب وتعظيماً أن أفعل ذلك أو أتكلم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. يقول ليس لي أن أقول ذلك لأنني عبد مخلوق وأمي أمة لك فهل يكون للبعد والأمة ادعاء ربوية إن كنت قلته فقد علمته يقول إنك لا يخفى عليك شيء وأنت عالم أي لم أقل ذلك ولم أمرهم به.

القول في تأويل قوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن نبيه عيسى عليه السلام أنه يبرأ إليه مما قالته فيه وفي أمه الكفرة من النصراني أنني كون دعاهم إليه أو أمرهم به فقال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته ثم قال تعلم ما في نفسي يقول إنك يا رب لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي فكيف بما قد نطقت به وأظهرته بجوارحي. يقول لو كنت قد قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله كنت قد علمته لإنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به فكيف بما قد نطقت به ولا أعلم ما في نفسك يقول ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه لأنني إنما أعلم من

سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب إلى قوله وأنت على كل شيء شهيد. وقال آخرون بل هذا خبر من الله تعالى ذكره عن أنه يقول لعيسى ذلك في القيامة ذكر من قال ذلك. حدثنا القاسم... عن ابن جريج وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال والناس يسمعون فراجع بما قد رأيت وأقر له بالعبودية على نفسه فعلم من كان يقول في عيسى ما يقول إنه إنما كان يقول باطلاً. حدثنا ابن حميد... عن ميسرة قال قال الله يا عيسى أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله فأرعدت مفاصله وخشي أن يكون قد قال فقال سبحانه إن كنت قلته فقد علمته الآية. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله متى يكون ذلك قال يوم القيامة ألا ترى أنه يقول هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم فعلى هذا التأويل الذي تأوله ابن جريج يجب أن يكون وإذا بمعنى وإذا كما قال في موضع آخر ولو ترى إذ فزعوا بمعنى يفزعون وكما قال أبو النجم:

ثم جزاه الله عنا إذ جرى

جنات عدن في العلالى العلى

والمعنى إذا جرى وكما قال الأسود

فالآن إذا هازلتهن فإنما

يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهباً بمعنى إذا هازلتهن وكان من قال في ذلك بقول ابن جريج هذا وجه تأويل الآية إلى فمن يكفر بعد منكم فإنني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين في الدنيا وأعذبه أيضاً في الآخرة إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله. وأولى القولين عندنا بالصواب في ذلك قول من قال بقول السدي وهو أن الله تعالى قال ذلك لعيسى حين رفعه إليه وأن الخبر خبر عما مضى لعلتين أحدهما أن إذا نما تصاحب في الأغلب من كلام العرب المستعمل بينها الماضي من الفعل وإن كانت قد تدخلها أحياناً في موضع الخبر عما يحدث إذا عرف السامعون معناها وذلك غير فاش ولا فصيح في

الأشياء ما أعلمتني إنك أنت علام الغيوب يقول إنك أنت العالم بخفيات الأمور التي لا يطلع عليها سواك ولا يعلمها غيرك.

القول في تأويل قوله ﴿ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ
اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا
تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾
وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قول عيسى يقول ما قلت
لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله لهم وهو أن
قلت لهم اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا يقول
وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهداً عليهم
وعلى أفعالهم وأقوالهم فلما توفيتني يقول فلما قبضتني
إليك كنت أنت الرقيب عليهم يقول كنت أنت الحفيظ
عليهم دوني لأنني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا
بين أظهرهم وفي هذا تبيان أن الله تعالى إنما عرفه أفعال
القوم ومقاتلتهم بعدما قبضه إليه وتوفاه بقوله أننت قلت
للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله وأننت على كل
شيء شهيد يقول وأننت تشهد على كل شيء لأنه لا يخفى
عليك شيء وأما أنا فإنما شهدت بعض الأشياء وذلك ما
عانيت وأنا مقيم بين أظهر القوم فإنما أنا أشهد على ذلك
الذي عانيت ورأيت وشهدت. وبنحو الذي قلنا في قوله
كنت أنت الرقيب عليهم قال أهل التأويل ذكر من قال
ذلك. حدثني محمد بن الحسين... عن السدي كنت
أنت الرقيب عليهم أما الرقيب فهو الحفيظ. حدثنا القاسم
قال... عن ابن جريج كنت أنت الرقيب عليهم قال
الحفيظ وكانت جماعة من أهل العلم تقول كان جواب
عيسى الذي أجاب به ربه من الله تعالى توفيقاً منه له فيه
ذكر من قال ذلك. حدثنا ابن وكيع... عن ابن طاوس
عن أبيه أننت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون
الله قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق قال
الله وفقه. حدثنا ابن وكيع... عن ابن طاوس عن أبيه
طاوس قال احتج عيسى والله وفقه أننت قلت للناس
اتخذوني وأمي إلهين من دون الله الآية. حدثنا ابن وكيع
قال... عن ميسرة قال قال الله تعالى يا عيسى أننت قلت
للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال فأرعدت

مفاصله وخشي أن يكون قد قالها فقال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب .

القول في تأويل قوله ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يقول تعالى ذكره إن تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة باماتتك إياهم عليها فإنهم عبادك مستسلمون لك لا يمتنعون مما أردت بهم ولا يدفعون عن أنفسهم ضرراً ولا أمراً تنالهم به وإن تغفر لهم بهدايتك إياهم إلى التوبة منها فتستر عليهم فإنك أنت العزيز في انتقامه ممن أراد الانتقام منه لا يقدر أحد يدفعه عنه الحكيم في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة وتوفيقه من وفق منهم لسبيل النجاة من العقاب كالذي حدثنا محمد بن الحسين . . . عن السدي في قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فتخرجهم من النصرانية وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم وهذا قول عيسى في الدنيا . حدثنا الحسن . . . عن قتادة في قوله إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم قال والله ما كانوا طعانيين ولا لعانين . القول في تأويل قوله ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ اختلفت القراء في قراءة قوله هذا يوم ينفع الصادقين فقراً ذلك بعض أهل الحجاز والمدينة هذا يوم ينفع الصادقين بنصب يوم وقرأ بعض أهل الحجاز وبعض أهل المدينة وعامة قراء أهل العراق هذا يوم ينفع الصادقين برفع يوم فمن رفعه رفعه بهذا وجعل يوم اسماً وإن كانت إضافته غير محضة لأنه صار كالمنعوت وكان بعض أهل العربية يزعم أن العرب يعملون في أعراب الأوقات مثل اليوم واللييلة عملهم فيما بعدها إن كان ما بعدها رفعاً رفعوها كقولهم هذا يوم يركب الأمير وليلة يصدر الحاج ويوم أخوك منطلق وإن كان ما بعدها نصباً نصبوها وذلك كقولهم هذا يوم خرج الجيش وسار الناس وليلة قتل زيد ونحو ذلك وإن كان معناها في الحالين إذ وإذا . وكان من قرأ هذا هكذا رفعاً وجه الكلام إلى أنه من قيل الله يوم القيامة وكذلك كان السدي يقول

رافعه قيل مضمر وكأنه قال قال الله عز وجل هذا هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم كما قال الشاعر :

أما ترى السحاب كيف يجري

هذا ولا خيلك يا ابن بشر
يريد هذا هذا ولا خيلك فتأويل الكلام إذ كان الأمر على ما وصفنا لما بينا قال الله لعيسى هذا القول النافع في يوم ينفع الصادقين في الدنيا صدقهم ذلك في الآخرة عند الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار يقول للصادقين في الدنيا جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة ثواباً لهم من الله عز وجل على ما كان من صدقهم الذي صدقوا الله فيما وعدوه فوفوا به الله فوفى الله عز وجل لهم ما وعدهم من ثوابه خالدين فيها أبداً يقول باقين في الجنات التي أعطاهموها أبداً دائماً لهم فيها نعيم لا ينتقل عنهم ولا يزول وقد بينا فيما مضى أن معنى الخلود الدوام والبقاء .

القول في تأويل قوله ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ يقول تعالى ذكره رضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه من العمل بطاعته واجتناب معاصيه ورضوا عنه يقول ورضوا هم عن الله تعالى في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم من جزيل ثوابه ذلك الفوز العظيم . يقول هذا الذي أعطاهم الله من الجنات التي تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها مرضياً عنهم وراضين عن ربهم وهو الظفر العظيم بالطلبة وإدراك الحاجة التي كانوا يطلبونها في الدنيا ولها كانوا يعملون فيها فنالوا ما طلبوا وأدركوا ما أملوا .

في ذلك حدثني محمد بن الحسين . . . عن السدي قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم هذا فصل من كلام عيسى وهذا يوم القيامة يعني السدي بقوله هذا فصل من كلام عيسى أن قوله سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إلى قوله فإنك أنت العزيز الحكيم من خبر الله عز وجل عن عيسى أنه قاله في الدنيا بعد أن رفعه إليه وأن ما بعد ذلك من كلام الله لعباده يوم القيامة . وأما النصب في ذلك فإنه يتوجه من وجهين أحدهما أن إضافة يوم ما لم تكن إلى اسم تجعله نصباً لأن الإضافة غير محضة وإنما تكون الإضافة محضة إذا أضيف إلى اسم صحيح ونظير اليوم في ذلك الحين والزمان وما أشبههما من الأزمنة كما قال النابغة :

على حين عاتبت المشيب على الصبا

وقلت ألمأ أصح والشيب وازع
والوجه الآخر أن يكون مراداً بالكلام هذا الأمر وهذا الشأن يوم ينفع الصادقين فيكون اليوم حينئذ منصوباً على الوقت والصفة بمعنى هذا الأمر في يوم ينفع الصادقين صدقهم . وأولى القراءتين في ذلك عندي بالصواب هذا يوم ينفع الصادقين بنصب اليوم على أنه منصوب على الوقت والصفة لأن معنى الكلام أن الله تعالى أجاب عيسى حين قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته إلى قوله فإنك أنت العزيز الحكيم . فقال له عز وجل هذا القول النافع أو هذا الصدق النافع يوم ينفع الصادقين صدقهم فاليوم وقت القول والصدق النافع . فإن قال قائل فما موضع هذا قيل رفع فإن قال فأين

الرازي ج ١٢ ص ١٢٢ - ١٣٩

جلال الله وكبريائه حيث وصفوه بما لا يليق بعاقل أن يصف الإله به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد فلا جرم ذكر الله تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة والمقصود منه توبيخ النصارى وتقريعهم على سوء مقالتهم . فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة على عيسى تدل على أنه عبد وليس بـإله . والفائدة في هذه الحكاية تنبيه النصارى الذين كانوا في

قوله تعالى ﴿ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ ﴾ في الآية مسائل :

المسألة الأولى - أعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسل ﴿ مَاذَا أُجِبْتُمْ ﴾ توبيخ من تمرد من أمهم وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء وطعن هؤلاء الملاعين تعدى إلى

مجندة» فالله تعالى خص عيسى بالروح الطاهرة النورانية المشرقة العلوية الخيرة. ولقائل أن يقول: لما دلت هذه الآية على أن تأييد عيسى إنما حصل من جبريل أو بسبب روحه المختص به، قدح هذا في دلالة المعجزات على صدق الرسل. لأننا قبل العلم بعصمة جبريل نجوز أنه أعان عيسى عليه السلام على ذلك، على سبيل إغواء الخلق وإضلالهم. فما لم تعرف عصمة جبريل لا يندفع هذا. وما لم تعرف نبوة عيسى عليه السلام لا تعرف عصمة جبريل، فيلزم الدور وجوابه: ما ثبت من أصلنا أن الخالق ليس إلا الله. وبه يندفع هذا السؤال.

وثانيها: قوله تعالى ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أما كلام عيسى في المهد فهو قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ﴾ وقوله ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ في موضع الحال. والمعنى: يكلمهم طفلاً وكهلاً من غير أن يتفاوت كلامه في هذين الوقتين. وهذه خاصية شريفة كانت حاصلة له. وما حصلت لأحد من الأنبياء قبله ولا بعده.

وثالثها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وفي ﴿الْكِتَابَ﴾ قولان أحدهما: المراد به الكتابة وهي الخط. والثاني: المراد منه جنس الكتب. فإن الإنسان يتعلم أولاً كتباً سهلة مختصرة، ثم يترقى منها إلى الكتب الشريفة. وأما ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ فهي عبارة عن العلوم النظرية، والعلوم العملية. ثم ذكر بعده ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ وفيه وجهان:

الأول: إنهما خصا بالذكر بعد ذكر الكتب على سبيل التشريف كقوله ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧] والثاني: وهو الأقوى أن الإطلاع على أسرار الكتب الإلهية، لا يحصل إلا لمن صار بانياً في أصناف العلوم الشرعية والعقلية الظاهرة التي يبحث عنها العلماء. فقوله ﴿وَالْتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ إشارة إلى الأسرار التي لا يطلع عليها أحد إلا أكابر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقت نزول هذه الآية على قبح مقاتلتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم.

المسألة الثانية - موضع ﴿إِذْ﴾ يجوز أن يكون رفعاً بالابتداء على معنى، ذاك إذ قال الله، ويجوز أن يكون المعنى، اذكر إذ قال الله.

المسألة الثالثة - خرج قوله ﴿إِذْ قَالَ﴾ على لفظ الماضي دون المستقبل وفيه وجوه: الأول: الدلالة على قرب القيامة حتى كأنها قد قامت ووقعت وكل أت قريب ويقال: الجيش قد أتى، إذا قرب إتيانهم. قال الله تعالى ﴿أَفَتَأْتِرُ الْوَيْلَ﴾ [النحل: ١]. الثاني: إنه ورد على حكاية الحال ونظيره قول الرجل لصاحبه كأنك بنا وقد دخلنا بلدة كذا فصنعنا فيها كذا إذ صاح صاح فتركتني وأجبتني. ونظيره من القرآن قوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَلَكُتُكُ﴾ [الأنفال: ٥٠] ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أَظْلَمُتِ السُّجُودُ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ [سبا: ٣١] والوجه في كل هذه الآيات ما ذكرناه، من أنه خرج على سبيل الحكاية عن الحال.

المسألة الرابعة - ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ يجوز أن يكون «عيسى» في محل الرفع لأنه منادى مفرد وصف بمضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيداً وكل ما كان مثل هذا جاز فيه وجهان نحو يا زيد بن عمرو، ويا زيد بن عمرو، وأنشد النحويون:

* يا حكم بن المنذر بن الجارود *

برفع الأول ونصبه على ما بيناه.

المسألة الخامسة - قوله ﴿نَعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أراد الجمع كقوله ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤] وإنما جاز ذلك لأنه مضاف يصلح للجنس.

واعلم أن الله تعالى فسر نعمته عليه بأمور: أولها: قوله ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وفيه وجهان الأول: روح القدس هو جبريل عليه السلام. الروح جبريل والقدس هو الله تعالى. كأنه أضافه إلى نفسه تعظيماً له. الثاني: إن الأرواح مختلفة بالماهية فمنها طاهرة نورانية ومنها خبيثة ظلمانية، ومنها مشرقة، ومنها كدرة، ومنها خيرة، ومنها نذلة. ولهذا قال عليه الصلاة والسلام «الأرواح جنود

إنهم كانوا أنبياء قال ذلك الوحي هو الوحي الذي يوحى إلى الأنبياء. ومن قال إنهم ما كانوا أنبياء قال المراد بذلك الوحي الإلهام والإلقاء في القلب كما في قوله تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرًا مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧] وقوله ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] وإنما ذكر هذا في معرض تعديد النعم لأن صيرورة الإنسان مقبول القول عند الناس محبوباً في قلوبهم من أعظم نعم الله على الإنسان. وذكر تعالى أنه لما ألقى ذلك الوحي في قلوبهم؛ آمنوا وأسلموا وإنما قدم ذكر الإيمان على الإسلام، لأن الإيمان صفة القلب والإسلام، عبارة عن الانقياد والخضوع في الظاهر، يعني آمنوا بقلوبهم وانقادوا بظواهرهم.

فإن قيل: إنه تعالى قال في أول الآية ﴿أَذْكُرْنِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ ثم إن جميع ما ذكره تعالى من النعم مختص بعيسى عليه السلام، وليس لأمه بشيء منها تعلق. قلنا: كل ما حصل للولد من النعم الجليلة والدرجات العالية فهو حاصل على سبيل الضمن والتبع للأمم. ولذلك قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ [المؤمنون: ٥٠] فجعلهما معاً آية واحدة لشدة اتصال كل واحد منهما بالآخر. وروى أنه تعالى لما قال لعيسى ﴿أَذْكُرْنِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ كان يلبس الشعر ويأكل الشجر، ولا يدخر شيئاً لغد ويقول مع كل يوم رزقه، ومن لم يكن له بيت فيخرب، ولا ولد فيموت، أينما أمسى بات.

قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى - في قوله ﴿إِذْ قَالَ﴾ وجهان: الأول «أوحيت إلى الخواريث». إذ قال الخواريثون الثاني: اذكر إذ قال الخواريثون.

المسألة الثانية - ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ قرأ الكسائي (هل تستطيع) بالتاء (ربك) بالنصب وبإدغام اللام في التاء، سبب الإدغام أن اللام قريب المخرج من التاء لأنهما من حروف طرف اللسان وأصول الثنايا وبحسب قرب الحرف من الحرف يحسن الإدغام، وهذه القراءة مروية عن علي وابن عباس: وعن عائشة رضي الله عنها

ورابعها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِأَظْفَارِنَا فَتَنَفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِأَظْفَارِنَا﴾...

وسابعها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - قوله ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يحتمل أن يكون المراد منه هذه البينات التي تقدم ذكرها وعلى هذا التقدير فالألف واللام للعهد. ويحتمل أن يكون المراد منه جنس البينات.

المسألة الثانية - روي أنه عليه الصلاة والسلام لما أظهر هذه المعجزات العجيبة قصد اليهود قتله فخلصه الله تعالى منهم حيث رفعه إلى السماء.

ثم قال تعالى ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى - قرأ حمزة والكسائي ﴿سَحِيرٌ﴾ بالألف وكذلك في يونس وهود والصف، وقرأ ابن عامر وعاصم في يونس بالألف فقط والباقيون ﴿سِحْرٌ﴾ فمن قرأ ﴿سَحِيرٌ﴾ أشار إلى الرجل ومن قرأ ﴿سِحْرٌ﴾ أشار به إلى ما جاء به. وكلاهما حسن لأن كل واحد منهما قد تقدم ذكره. قال الواحدي رحمه الله: والاختيار ﴿سِحْرٌ﴾ لجواز وقوعه على الحدث والشخص، أما وقوعه على الحدث فظاهر وأما وقوعه على الشخص، فتقول: هذا سحر وتريد به ذو سحر كما قال تعالى ﴿وَلَكِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَآئِمٌ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي ذا البر قال الشاعر:

* فإنما هي إقبال وإدبار *

المسألة الثانية - فإن قيل: إنه تعالى شرع ههنا في تعديد نعمه على عيسى عليه السلام وقول الكفار في حقه ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ليس من النعم، فكيف ذكره ههنا؟

والجواب: إن من الأمثال المشهورة - أن كل ذي نعمة محسود - وطعن الكفار في عيسى عليه السلام بهذا الكلام، يدل على أن نعم الله في حقه كانت عظيمة. فحسن ذكره عند تعديد النعم للوجه الذي ذكرناه.

وثانها: قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِثِ أَنْ عَامِنُوا بِرَسُولِي﴾ وقد تقدم تفسير الوحي. فمن قال

والوجه الرابع - قال السدي: هل يستطيع ربك أي هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا تفريد على أن استطاع بمعنى أطاع والسين زائدة.

الوجه الخامس - لعل المراد بالرب: هو جبريل عليه السلام، لأنه كان يريه ويخصه بأنواع الإعانة، ولذلك قال تعالى: في أول الآية ﴿إِذْ أَيْدِيكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ يعني أنك تدعي أنه يريك ويخصك بأنواع الكرامة، فهل يقدر على إنزال مائدة من السماء عليك.

والوجه السادس - إنه ليس المقصود من هذا السؤال كونهم شاكين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر جلي واضح، لا يجوز لعاقل أن يشك فيه، فكذا ههنا.

المسألة الثالثة - قال الزجاج: المائدة فاعلة من ماد يمد، إذا تحرك فكأنها تميد بما عليها وقال ابن الأنباري سميت مائدة لأنها عطية من قول العرب: ماد فلان فلاناً يميده ميده إذا أحسن إليه، فالمائدة على هذا القول، فاعلة من الميد بمعنى معطية، وقال أبو عبيدة: المائدة فاعلة بمعنى مفعولة مثل عيشة راضية، وأصلها مميدة ميد بها صاحبها، أي أعطيها وتفضل عليه بها، والعرب تقول مادي فلان يميدي إذا أحسن إليه.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّكُمْ مَوْعِدُونَ﴾ وفيه وجهان: الأول: قال عيسى اتقوا الله في تعيين المعجزة، فإنه جار مجرى التعنت والتحكم، وهذا من العبد في حضرة الرب جرم عظيم، ولأنه أيضاً اقتراح معجزة بعد تقدم معجزات كثيرة، وهو جرم عظيم. الثاني: إنه أمرهم بالتقوى لتصير التقوى سبباً لحصول هذا المطلوب، كما قال ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣] وقال ﴿يَكَايُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] وقوله ﴿إِنَّكُمْ مَوْعِدُونَ﴾ يعني إن كنتم مؤمنين بكونه سبحانه وتعالى قادراً على إنزال المائدة فاتقوا الله لتصير تقواكم وسيلة إلى حصول هذا المطلوب.

ثم قال تعالى ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئَنَ

أنها قالت: كانوا أعلم بالله من أن يقولوا هل يستطيع وإنما قالوا هل تستطيع أن تسأل ربك. وعن معاذ بن جبل: أقراني رسول الله ﷺ (هل تستطيع) بالثاء (ربك) بالنصب والباقون يستطيع ربك برفع الباء وبالإظهار فأما القراءة الأولى فمعناها: هل تستطيع سؤال ربك؟ قالوا وهذه القراءة أولى من الثانية لأن هذه القراءة توجب شكهم في استطاعة عيسى، والثانية توجب شكهم في استطاعة الله، ولا شك أن الأولى أولى، وأما القراءة الثانية ففيها إشكال، وهو أنه تعالى حكى عنهم أنهم ﴿قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ وبعد الإيمان كيف يجوز أن يقال إنهم بقوا شاكين في اقتدار الله تعالى على ذلك.

والجواب عنه من وجوه: الأول: إنه تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام بل حكى عنهم ادعاءهم لهما ثم أتبع ذلك بقوله حكاية عنهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ فدل ذلك على أنهم كانوا شاكين متوقفين فإن هذا القول لا يصدر عن من كان كاملاً في الإيمان وقالوا: ونعلم أن قد صدقتنا وهذا يدل على مرض في القلب وكذلك قول عيسى عليه السلام لهم اتقوا الله إن كنتم مؤمنين يدل على أنهم ما كانوا كاملين في الإيمان.

والوجه الثاني - في الجواب أنهم كانوا مؤمنين إلا أنهم طلبوا هذه الآية ليحصل لهم مزيد الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] فإن مشاهدة مثل هذه الآية لا شك أنها تورث الطمأنينة ولهذا السبب قالوا وتطمئن قلوبنا.

والوجه الثالث - في الجواب أن المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك هل هو جائز في الحكمة أم لا وذلك لأن أفعال الله تعالى لما كانت موقوفة على رعاية وجوه الحكمة ففي الموضع الذي لا يحصل فيه شيء من وجوه الحكمة يكون الفعل ممتنعاً فإن المنافي من جهة الحكمة كالمنافي من جهة القدرة، وهذا الجواب يتمشى على قول المعتزلة، وأما على قولنا فهو محمول على أن الله تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ولم يعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور.

إلى الرازق فقال ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ فقلوه ﴿رَبَّنَا﴾ ابتداء منه بذكر الحق سبحانه وتعالى، وقلوه ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ انتقال من الذات إلى الصفات، وقلوه ﴿تَكُونْ لَنَا عِيدًا لِأَوْلِنَا وَآخِرِنَا﴾ إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث أنها نعمة، بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقلوه ﴿وَمَايَّةٌ مِنْ السَّمَاءِ تَكُونْ لَنَا عِيدًا لِأَوْلِنَا وَآخِرِنَا وَمَايَّةٌ مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - أما الكلام في ﴿اللَّهُمَّ﴾ فقد تقدم بالاستقصاء في سورة آل عمران في قوله ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٢٦] فقلوه ﴿اللَّهُمَّ﴾ نداء، وقلوه ﴿رَبَّنَا﴾ نداء ثانٍ وأما قوله ﴿تَكُونْ لَنَا﴾ صفة للمائدة وليس بجواب للأمر، وفي قراءة عبد الله ﴿تَكُنْ﴾ لأنه جعله جواب الأمر. قال الفراء: وما كان من نكرة قد وقع عليها أمر جاز في الفعل بعده الجزم والرفع، ومثاله قوله تعالى ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا. يَرْثُنِي﴾ [مريم: ٥، ٦] بالجزم والرفع ﴿فَارْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ [القصص: ٣٤] بالجزم والرفع، وأما قوله ﴿عِيدًا لِأَوْلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي نتخذ اليوم الذي تنزل فيه المائدة عيداً نعظمه نحن ومن يأتي بعدنا، ونزلت يوم الأحد فاتخذته النصراني عيداً، والعيد في اللغة اسم لما عاد إليك في وقت معلوم، واشتقاقه من عاد يعود فأصله هو العود، فسمي العيد عيداً لأنه يعود كل سنة بفرح جديد، وقلوه ﴿وَمَايَّةٌ مِنْكَ﴾ أي دلالة على توحيدك وصحة نبوة رسولك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي وارزقنا طعاماً نأكله وأنت خير الرازقين.

المسألة الثانية - تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿رُبِّدْ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال ﴿وَارْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله ﴿وَارْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه بل انتقل من الرزق

المسألة الثالثة - في قراءة زيد يكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا والتأنيث بمعنى الآية.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد، والباقون بالتخفيف وهما لغتان نزل وأنزل وقيل: بالتشديد أي منزلها مرة بعد أخرى، وبالتخفيف مرة واحدة.

المسألة الثانية - قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ﴾ أي بعد إنزال المائدة ﴿فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾... جنساً من العذاب لا يعذب به غيرهم. قال الزجاج: ويجوز أن يكون ذلك العذاب معجلاً لهم في الدنيا، ويجوز أن يكون مؤخراً إلى الآخرة، وقلوه ﴿مِنْ الْعَالَمِينَ﴾ يعني عالمي زمانهم.

المسألة الثالثة - قيل: إنهم سألوا عيسى عليه السلام هذا السؤال عند نزولهم في مفازة على غير ماء ولا طعام ولذلك قالوا نريد أن نأكل منها.

المسألة الرابعة - اختلفوا في أن عيسى عليه السلام هل سأل المائدة لنفسه أو سألها لقومه وإن كان قد أضافها إلى

المسألة الثانية - تأمل في هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً، فقدموا ذكر الأكل فقالوا ﴿رُبِّدْ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وأخروا الأغراض الدينية الروحانية، فأما عيسى فإنه لما طلب المائدة وذكر أغراضه فيها قدم الأغراض الدينية وأخر غرض الأكل حيث قال ﴿وَارْزُقْنَا﴾ وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية، ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء دينه وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله ﴿وَارْزُقْنَا﴾ لم يقف عليه بل انتقل من الرزق

نفسه في الظاهر وكلاهما محتمل والله أعلم.

المسألة الخامسة - اختلفوا في أنه هل نزلت المائدة.

فقال الحسن ومجاهد: ما نزلت واحتجوا عليه بوجهين:

الأول: إن القوم لما سمعوا قوله ﴿عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا

مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها، والثاني: إنه

وصف المائدة بكونها عيداً. لبقى ذلك العيد إلى يوم

القيامة. وقال الجمهور الأعظم من المفسرين: إنها نزلت

﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ وهذا وعد بالإزالة جزماً من غير

تعليق على شرط، فوجب حصول هذا النزول.

والجواب عن الأول: إن قوله ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمُ

فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا

عَلَيْكُمْ﴾.

والجواب عن الثاني: إن يوم نزولها كان عيداً لهم

ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم.

المسألة السادسة - روي أن عيسى عليه السلام لما أراد

الدعاء لبس صوفاً، ثم قال ﴿اللَّهُمَّ أَنْزِلْ عَلَيْنَا﴾ فنزلت

سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وأخرى تحتها،

وهم ينظرون إليها حتى سقطت بين أيديهم فبكى عليه

السلام وقال: اللهم اجعلني من الشاكرين اللهم اجعلها

رحمة ولا تجعلها مثلة وعقوبة، وقال لهم ليقيم أحسنكم

عملاً يكشف عنها ويذكر اسم الله عليها ويأكل منها. فقال

شمعون رأس الحواريين: أنت أولى بذلك، فقام عيسى

وتوضأ وصلى وبكى ثم كشف المنديل...

قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ

لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِثْلَ دُونِ اللَّهِ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - هذا معطوف على قوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ

يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ وعلى هذا القول

فهذا الكلام إنما يذكره لعيسى يوم القيامة، ومنهم من

قال: إنه تعالى قال هذا الكلام لعيسى عليه السلام حين

رفعه إليه وتعلق بظاهر قوله ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ وإذ تستعمل

للماضي، والقول الأول أصح، لأن الله تعالى عقب هذه

القصبة بقوله ﴿هَذَا يَوْمُ نَنفَعُ الصَّالِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ والمراد به

يوم القيامة، وأما التمسك بكلمة إذ فقد سبق الجواب

عنه.

المسألة الثانية - في قوله ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي

وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِثْلَ دُونِ اللَّهِ﴾ سؤالان: أحدهما: إن

الاستفهام كيف يليق بعلام الغيوب. وثانيهما: إنه كان

عالمًا بأن عيسى عليه السلام لم يقل ذلك فلم خاطبه به؟

فإن قلتم الغرض منه توبيخ النصارى وتقريعهم فنقول: إن

أحداً من النصارى لم يذهب إلى القول بإلهية عيسى ومريم

مع القول بنفي إلهية الله تعالى فكيف يجوز أن ينسب هذا

القول إليهم مع أن أحداً منهم لم يقل به.

والجواب: عن السؤال الأول أنه استفهام على سبيل

الإنكار.

والجواب: عن السؤال الثاني أن الإله هو الخالق

والنصارى يعتقدون أن خالق المعجزات التي ظهرت على

يد عيسى ومريم هو عيسى عليه السلام ومريم والله تعالى

ما خلقها البتة وإذا كان كذلك فالنصارى قد قالوا إن خالق

تلك المعجزات هو عيسى ومريم، والله تعالى ليس

خالقها، فصح أنهم أثبتوا في حق بعض الأشياء كون

عيسى ومريم إلهين له مع أن الله تعالى ليس إلهاً له فصح

بهذا التأويل هذه الحكاية والرواية.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ

لِي بِحَقٍّ﴾ أما قوله ﴿سُبْحَنَكَ﴾ فقد فسرناه في قوله

﴿سُبْحَنَكَ لَا عِلْمَ لَنَا﴾.

واعلم أن الله تعالى لما سأل عيسى إنك هل قلت كذا لم

يقول عيسى بأني قلت أو ما قلت بل قال ما يكون لي أن

أقول ما ليس لي بحق، وهذا ليس بحق ينتج أنه ما يكون

لي أن أقول هذا الكلام ولما بين أنه ليس له أن يقول هذا

الكلام شرع في بيان أنه هل وقع هذا القول منه أم لا فلم

يقول بأني ما قلت هذا الكلام لأن هذا يجري مجرى دعوى

الطهارة والنزاهة، والمقام مقام الخضوع والتواضع، ولم

يقول بأني قلته بل فوض ذلك إلى علمه المحيط بالكل.

فقال ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وهذا مبالغة في

الأدب وفي إظهار الذل والمسكنة في حضرة الجلال

وتفويض الأمور بالكلية إلى الحق سبحانه.

ثم قال تعالى ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمْ مَا فِي نَفْسِكَ﴾

وفيه مسألان:

أنه كيف جاز لعيسى عليه السلام أن يقول ﴿وَأِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ والله لا يغفر الشرك.

والجواب عنه من وجوه: الأول: إنه تعالى لما قال لعيسى عليه السلام ﴿مَأْنَتْ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه، والحاكي لهذا الكفر عنه لا يكون كافراً بل يكون مذنباً حيث كذب في هذه الحكاية وغفران الذنب جائز، فلهذا المعنى: طلب المغفرة من الله تعالى، والثاني: إنه يجوز على مذهبنا من الله تعالى أن يدخل الكفار الجنة وأن يدخل الزهاد والعباد النار، لأن الملك ملكه ولا اعتراض لأحد عليه، فذكر عيسى هذا الكلام ومقصود منه تفويض الأمور كلها إلى الله، وترك التعرض والاعتراض بالكلية، ولذلك ختم الكلام بقوله ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ يعني أنك قادر على ما تريد، حكيم في كل ما تفعل لا اعتراض لأحد عليك، فمن أنا والخوض في أحوال الربوبية، وقوله إن الله لا يغفر الشرك فنقول: إن غفرانه جائز عندنا، وعند جمهور البصريين من المعتزلة قالوا: لأن العقاب حق الله على المذنب وفي إسقاطه منفعة للمذنب، وليس في إسقاطه على الله مضرة، فوجب أن يكون حسناً بل دل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع، فلعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرح عيسى عليه السلام.

الوجه الثالث - في الجواب أن القوم لما قالوا هذا الكفر فعيسى عليه السلام جَوَزَ أن يكون بعضهم قد تاب عنه، فقال ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ﴾ علمت أن أولئك المعذبين ماتوا على الكفر فلك أن تعذبهم بسبب أنهم عبادك، وأنت قد حكمت على كل من كفر من عبادك بالعقوبة، وأن تغفر لهم علمت أنهم تابوا عن الكفر، وأنت حكمت على من تاب عن الكفر بالمغفرة.

الوجه الرابع - إنا ذكرنا أن من الناس من قال: إن قول الله تعالى لعيسى ﴿مَأْنَتْ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ إنما كان عند رفعه إلى السماء لا في يوم القيامة، وعلى هذا القول فالجواب سهل لأن قوله ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ يعني إن توفيتهم على هذا الكفر

المسألة الأولى - المفسرون ذكروا فيه عبارات تعلم ما أخفي ولا أعلم ما تخفي وقيل: تعلم ما عندي ولا أعلم ما عندك، وقيل: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، وقيل: تعلم ما كان مني في الدنيا ولا أعلم ما كان منك في الآخرة، وقيل: تعلم ما أقول وأفعل، ولا أعلم ما تقول وتفعل.

المسألة الثانية - تمسكت المجسمة بهذه الآية وقالوا: النفس هو الشخص وذلك يقتضي كونه تعالى جسماً.

والجواب من وجهين: الأول: إن النفس عبارة عن الذات، يقال نفس الشيء وذاته بمعنى واحد، والثاني: إن المراد تعلم معلومي ولا أعلم معلومك ولكنه ذكر هذا الكلام على طريق المطابقة والمشاكلة وهو من فصيح الكلام.

ثم قال تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ وهذا تأكيد للجملتين المتقدمتين أعني قوله ﴿إِنْ كُنْتَ قُلْتَ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ وقوله ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾.

ثم قال تعالى حكاية عن عيسى ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ إن مفسرة والمفسر هو الهاء في به الراجع إلى القول بالمأمور به...

ثم قال تعالى ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي كنت أشهد على ما يفعلونه ما دمت مقيماً فيهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ والمراد منه، وفاة الرفع إلى السماء، مز: قوله ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]

﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ﴾ قال الزجاج: الحافظ عليهم المراقب لأحوالهم.

﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعني أنت الشهيد لي حين كنت فيهم ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ بعد مفارقتي لهم، فالشاهد الشاهد ويجوز حمله على الرؤية، ويجوز حمله على العلم، ويجوز حمله على الكلام بمعنى الشهادة فالشاهد من أسماء الصفات الحقيقية على جميع التقديرات.

ثم قال تعالى ﴿إِنْ تُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - معنى الآية ظاهر، وفيه سؤال: وهو

وَعَدَكُمْ وَعَدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴿١٠﴾ فلم ينفعه هذا الصدق، وهذا الكلام تصديق من الله تعالى لعيسى في قوله ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾.

المسألة الثانية - قرأ جمهور القراء ﴿يَوْمٌ﴾ بالرفع، وقرأ نافع بالنصب، واختاره أبو عبيدة. فمن قرأ بالرفع، قال الزجاج: التقدير هذا اليوم يوم منفعة الصادقين، وأما النصب ففيه وجه: الأول: على أنه ظرف لقال والتقدير: قال الله هذا القول لعيسى يوم ينفع. الثاني: أن يكون التقدير: هذا الصدق واقع يوم ينفع الصادقين صدقهم، ويجوز أن تجعل ظروف الزمان أخباراً عن الأحداث بهذا التأويل كقولك: القتال يوم السبت، والحج يوم عرفة، أي واقع في ذلك اليوم، والثالث: قال الفراء: ﴿يَوْمٌ﴾ أضيف إلى ما ليس باسم فبني على الفتح كما في يومئذ. قال البصريون هذا خطأ لأن الظرف إنما يبنى إذا أضيف إلى المبنى كقول النابغة.

* على حين عاتبت المشيب على الصبا *

بني «حين» لإضافته إلى المبنى وهو الفعل الماضي وكذلك قوله ﴿يَوْمٌ لَا تَمْلِكُ﴾ [الأنفطار: ١٩] بني لإضافته إلى «لا» وهي مبنية، أما هنا فالإضافة إلى معرب لأن ينفع فعل مستقبل، والفعل المستقبل معرب فالإضافة إليه لا توجب البناء والله أعلم.

ثم قال تعالى ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أخبر أن صدق الصادقين في الدنيا ينفعهم في القيامة، شرح كيفية ذلك النفع وهو الثواب، وحقيقة الثواب: أنها منفعة خالصة دائمة مقرونة بالتعظيم. فقوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ إشارة إلى المنفعة الخالصة عن الغموم والهموم، وقوله ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إشارة إلى الدوام واعتبر هذه الدقيقة، فإنه أينما ذكر الثواب قال ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ وأينما ذكر عقاب الفساق من أهل الإيمان ذكر لفظ الخلود ولم يذكر معه التأيد، وأما قوله تعالى ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ فهو إشارة إلى التعظيم. هذا ظاهر قول

وعذبتهم فإنهم عبادك فلك ذاك، وإن أخرجتهم بتوفيقك من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، وغفرت لهم ما سلف منهم فلك أيضاً ذاك. وعلى هذا التقدير فلا إشكال.

المسألة الثانية - احتج بعض الأصحاب بهذه الآية على شفاعة محمد ﷺ في حق الفساق قالوا: لأن قول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَا تُهِنُّمُ عِبَادُكَ﴾ ليس في حق أهل الثواب لأن التعذيب لا يليق بهم، وليس أيضاً في حق الكفار لأن قوله ﴿وَلَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ لا يليق بهم فدل على أن ذلك ليس إلا في حق الفساق من أهل الإيمان. وإذا ثبت شفاعة الفساق في حق عيسى عليه السلام ثبت في حق محمد ﷺ بطريق الأولى لأنه لا قائل بالفصل.

المسألة الثالثة - روى الواحدي رحمه الله أن في مصحف عبد الله ﴿وَلَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سمعت شيخي ووالدي رحمه الله يقول ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ههنا أولى من الغفور الرحيم، لأن كونه غفوراً رحيماً يشبه الحالة الموجبة للمغفرة والرحمة لكل محتاج، وأما العزة والحكمة فهما لا يوجبان المغفرة، فإن كونه عزيزاً يقتضي أنه يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، وأنه لا اعتراض عليه لأحد. فإذا كان عزيزاً متعالياً عن جميع جهات الاستحقاق، ثم حكم بالمغفرة كان الكرم ههنا أتم مما إذا كان كونه غفوراً رحيماً/يوجب المغفرة والرحمة، فكانت عبارته رحمه الله أن يقول: عز عن الكل ثم حكم بالرحمة فكان هذا أكمل. وقال قوم آخرون: إنه لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شافعاً لهم، فلما قال ﴿فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

ثم قال تعالى ﴿قَالَ اللَّهُ هَلْ يَنْفَعُ الصَّالِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى - أجمعوا على أن المراد بهذا اليوم يوم القيامة، والمعنى أن صدقهم في الدنيا ينفعهم في القيامة، والدليل على أن المراد ما ذكرنا: أن صدق الكفار في القيامة لا ينفعهم، ألا ترى أن إبليس قال ﴿إِنَّكَ اللَّهُ

مختصاً بقوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ فإنه ثبت عند أرباب الأبواب أن جملة الجنة بما فيها بالنسبة إلى رضوان الله كالعدم بالنسبة إلى الوجود، وكيف والجنة مرغوب الشهوة، والرضوان صفة الحق وأي مناسبة بينهما، وهذا الكلام يشتمل منه طبع المتكلم الظاهري، ولكن كل ميسر لما خلق له .

المتكلمين، وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى، فتحت قوله ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها، وقوله ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الجمهور على أن قوله ﴿ذَلِكَ﴾ عائد إلى جملة ما تقدم من قوله ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرَى﴾ إلى قوله ﴿وَرَضُوا عَنْهُ﴾ وعندي أنه يحتمل أن يكون ذلك

الطبرسي ج ٦ ص ٢٣١ - ٢٥٠

فيها الروح قلبها الله لحماً ودماً ويخلق فيها الحياة، فصارت طائراً بأذن الله أي بأمره وإرادته لا بفعل المسيح ﴿وَتُورِثُ﴾ أي تصحح ﴿الْأَكْثَمَةَ﴾ الذي ولد أعمى ﴿وَالْأَبْرَصَ﴾ من به برص مستحکم ﴿يَاذُنِي﴾ أي بأمرى ومعناه إنك تدعوني حتى أبرء الأكمه والأبرص، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه وسؤاله ﴿وَإِذْ تَخْرُجُ أَلْمَوْتِ يَاذُنِي﴾ أي اذكر إذ تدعوني فأحيي الموتى عند دعائك وأخرجهم من القبور حتى يشاهدكم الناس أحياء، ونسب ذلك إلى المسيح لما كان بدعائه ﴿وَإِذْ كَفَفْتَ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ عن قتلك وأذيتك ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ﴾ أي حين جئتهم ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ مع كفرهم وعنادهم ويجوز أن يكون تعالى كفهم عنه بألطفه التي لا يقدر عليها غيره، ويجوز أن يكون كفهم بالمنع والقهر كما منع من أراد قتل نبينا. ومعنى جئتهم بالبينات أنيتهم بالحجج والمعجزات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ وجحدوا نبوتك ﴿مِنْهُمْ﴾ أي من بني إسرائيل ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يعنون به عيسى وسحر مبين يعني به أن ما جاء به سحر ظاهر واضح، وينبغي أن يكون قوله سبحانه في أول الآية إذ قال الله يا عيسى اذكر نعمتي يعني أخبر بها قومك الذين كذبوا عليك ليكون حجة عليهم لأنهم ادعوا عليه إنه إله، ثم عدد النعمة نعمة نعمة على ما بيناه . . .

ثم بين سبحانه تمام نعمته على عيسى فقال ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ أي واذكر إذ أوحيت ﴿إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ أي الهمتهم وقيل القيت إليهم بالآيات التي أريتهم إياها، ومضى الكلام في الحوارين في سورة آل عمران وهم وزراء عيسى . . . عن قتادة وأنصاره عن الحسن ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا

لما عَرَفَ سبحانه يوم القيامة بما وصفه به من جمع الرسل فيه عطف عليه بذكر المسيح فقال ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ ومعناه إذ يقول الله في الآخرة، وذكر لفظ الماضي تقريباً للقيامة لأن ما هو آت فكان قد وقع ﴿يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ وهذا إشارة إلى بطلان قول النصارى لأن من له أم لا يكون إلهاً ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ أي اذكر ما أنعمت به عليك وعلى أمك واشكر، أفرد النعمة في اللفظ ويريد به الجمع، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وإنما جاز ذلك لأنه مضاف فصلح للجنس ثم فسر نعمته بأن قال ﴿إِذْ أَيْدَيْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبرائيل (ع) وقد مضى تفسيره في سورة البقرة عند قوله: وأيدناه بروح القدس ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ أي في حال ما كنت صبيّاً في المهد وفي حال ما كنت كهلاً، وقال الحسن المهد حجر أمه ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ قبل الكتابة يعني الخط ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ أي العلم والشرعة وقيل أراد الكتب فيكون الكتاب اسم جنس ثم فصله بذكر التوراة والإنجيل فقال ﴿وَالتَّورَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾ أي واذكر ذلك أيضاً إذ تصور الطين كهية الطير الذي تريد أي كخلقته وصورته وسماه خلقاً لأنه كان يقدره وقوله يا ذنبي أي تفعل ذلك يا ذنبي وأمرى ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي تنفخ فيها الروح لأن الروح جسم يجوز أن ينفخه المسيح بأمر الله ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ والطير يؤنث ويذكر: فمن أنث فعلى الجمع ومن ذكر فعلى اللفظ، وواحد الطير طائر فيكون مثل ظاعن وظعن وراكب وركب، وبين بقوله فيكون طيراً بأذنني أنه إذا نفخ المسيح

أحدهما: أن تكون الإرادة التي هي من أفعال القلوب ويكون التقدير فيه نريد السؤال من أجل هذا الذي ذكرنا، والآخر أن تكون الإرادة هاهنا بمعنى المحبة التي هي ميل الطباع أي نحب ذلك ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ يجوز أن يكونوا قالوا وهم مستبصرون في دينهم ومعناه نريد أن نزداد يقيناً وذلك أن الدلائل كلما كثرت مكنت المعرفة في النفس . . . عن عطاء ﴿وَتَعْلَمُ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله وهذا يقوي قول من قال إن هذا كان في ابتداء أمرهم والصحيح أنهم طلبوا المعايينة والعلم الضروري والتأكيد في الإعجاز ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لله بالتوحيد ولك بالنبوة وقيل من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم . .

ثم أخبر سبحانه عن سؤال عيسى «ع» إياه فقال ﴿... قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ عن قومه لما التمسوا منه، وقيل إنه إنما سأل ربه ذلك حين أذن له في السؤال ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ أي خواناً عليه طعام . . .

﴿وَأَيَّةَ مِنْكَ﴾ أي ودلالة منك عظيمة الشأن في إزعاج قلوب العباد إلى الإقرار بمدلولها الاعتراف بالحق الذي تشهد به ظاهرها تدل على توحيدهك وصحة نبوة نبيك ﴿وَارْزُقْنَا﴾ أي واجعل ذلك رزقاً لنا، وقيل معناه وارزقنا الشكر عليها . . عن الجبائي ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ وفي هذا دلالة على أن العباد قد رزق بعضهم بعضاً، لأنه لو لم يكن كذلك لم يصح أن يقال له سبحانه أنت خير الرازقين، كما لا يجوز أن يقال أنت خير الآلهة لما لم يكن غيره إلهاً ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ مجيباً له إلى ما التمس ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ يعني المائدة ﴿عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ أي بعد إنزالها عليكم ﴿فَإِنِّي أَعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أَعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قيل في معناه أقوال:

أحدها: إنه أراد عالمي زمانه فجحده القوم فكفروا بعد نزولها فمسخوا قردة وخنازير . . عن قتادة وروي عن أبي الحسن موسى أنهم مسخوا خنازير .

وثانيها: إنه أراد عذاب الاستئصال .

وثالثها: إنه أراد جنساً من العذاب لا يعذب به أحداً غيرهم وإنما استحقوا هذا النوع من العذاب بعد نزول المائدة لأنهم كفروا بعدما رأوا الآية التي هي من ازجر

بِوَيْسُولِي﴾ أي صدقوا بي وبصفاتي وبعيسى إنه عبدي ونبيي ﴿قَالُوا﴾ أي قال الحواريون ﴿ءَامِنَّا﴾ أي صدقنا ﴿وَأَشْهَدُ﴾ يا الله ﴿يَآئَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ . . .

ثم أخبر سبحانه عن الحواريين وسؤالهم فقال ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ والعامل في إذ قوله أوحيت، ويحتمل أن يكون معناه وذاكر إذ قال الحواريون ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قيل فيه أقوال:

أحدها: أن يكون معناه هل يفعل ربك ذلك بمسألتك إياه لتكون علماً على صدقك . . من حيث لا يعرض عليهم فيه أشكال ولا شبهة، ومن ثم قالوا وتطمئن قلوبنا كما قال إبراهيم ولكن ليطمئن قلبي . . عن أبي علي الفارسي .

وثانيها: إن المراد هل يقدر ربك، وكان هذا في ابتداء أمرهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله ولذلك أنكر عليهم عيسى (ع) فقال: اتقوا الله إن كنتم مؤمنين لأنهم لم يستكمل إيمانهم في ذاك الوقت .

وثالثها: أن يكون معناه هل يستجيب لك ربك؟ وإليه ذهب السدي في قوله يريد هل يطيعك ربك إن سألته، وهذا على أن يكون استطاع بمعنى أطاع كما يكون استجاب بمعنى أجاب. قال الزجاج: يحتمل مسألة الحواريين عيسى (ع) المائدة على ضربين:

أحدهما: أن يكونوا أرادوا أن يزدادوا تثبناً كما قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى .

وجائز أن يكون مسألتهم المائدة قبل علمهم أنه أبرأ الأكمة والأبرص وأحيا الموتى ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ معناه اتقوا الله أن تسألوه شيئاً لم تسأله الأمم قبلكم، وقيل إن معناه الأمر بالتقوى مطلقاً كما أمر الله المؤمنين بها في قوله ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ . . عن أبي علي الفارسي، وقيل أمرهم أن لا يقتربوا الآيات وأن لا يقدموا بين يدي الله ورسوله، لأن الله تعالى قد أراهم البراهين والمعجزات بإحياء الموتى وغيره مما هو أوكد مما سألوهم وطلبوه . . عن الزجاج ﴿قَالُوا﴾ أي قال الحواريون ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ قيل في معناه قولان:

استشهد الله تعالى على براءته من ذلك القول فقال ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ يريد إني لم أقله لأنني لو كنت قلته لما خفي عليك لأنك علام الغيوب ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾... عن ابن عباس، وإنما ذكر النفس لمزاوجة الكلام والعادة جارية بأن الإنسان يسر في نفسه، فصار قوله ما في نفسي عبارة عن الإخفاء، ثم قال ما في نفسك على جهة المقابلة، وإلا فالله منزّه عن أن يكون له نفس أو قلب تحل فيه المعاني، ويقوي هذا التأويل قوله تعالى ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ لأنه علل علمه بما في نفس عيسى بأنه علام الغيوب وعيسى ليس كذلك فلذلك لم يعلم ما يختص الله بعلمه. ثم قال حكاية عن عيسى في جواب ما قرره تعالى عليه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا إِلَهًا رَبِّي وَرَبَّكُمْ مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي لم أقل للناس إلا ما أمرتني به من الإقرار لك بالعبودية وإنك ربي وربهم وإلهي وإلههم وأمرتهم أن يعبدوك وحدك ولا يشركوا معك غيرك في العبادة ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً ﴿مَا دُمْتُ﴾ حياً ﴿فِيهِمْ﴾ بما شهدته منهم وعلمته وبما أبلغته من رسالتك التي حملتنيها وأمرتني بأدائها إليهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي قبضتني إليك وأمتني... عن الجبائي، وقيل معناه وفاة الرفع إلى السماء... عن الحسن ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ﴾ أي الحفيظ ﴿عَلَيْهِمْ﴾... عن السدي وقتادة ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي أنت عالم بجميع الأشياء لا تخفى عليك خافية ولا يغيب عنك شيء قال الجبائي: وفي هذه الآية دلالة على أنه أمات عيسى وتوفاه ثم رفعه إليه لأنه بين أنه كان شهيداً عليهم ما دام فيهم، فلما توفاه الله كان هو الشهيد عليهم وهذا ضعيف لأن التوفي لا يستفاد من إطلاقه الموت، ألا ترى إلى قوله الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فبين أنه تعالى يتوفى الأنفس التي لم تمت ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ لا يقدرّون على دفع شيء عن أنفسهم ﴿وَلِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الْحَكِيمُ﴾ في هذا تسليم الأمر لمالكه وتفويض إلى مدبره وتبرؤ من أن يكون إليه شيء من أمور قومه، كما يقول الواحد منا إذا تبرأ من تدبير أمر من

الآيات عن الكفر بعد سؤالهم لها، فاقتضت الحكمة اختصاصهم بفن من العذاب عظيم الموضع كما اختصت آيتهم بفن من الزجر عظيم الموقع...

ثم عطف سبحانه على ما تقدم من أمر المسيح فقال ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ والمعنى إذ يقول الله يوم القيامة لعيسى ﴿يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَإِيمَاءَ الْكَلْبَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هذا وإن خرج مخرج الاستفهام فهو تقرير وتهديد لمن ادعى ذلك عليه من النصارى، كما جرى في العرف بين الناس أن من ادعى على غيره قولاً فيقال لذلك الغير بين يدي المدعي ذلك القول أنت قلت هذا القول؟ ليقول لا! فيكون ذلك استعظماً لذلك القول وتكذيباً لقائله. وذكر فيه وجه آخر وهو أن يكون تعالى أراد بهذا القول تعريف عيسى أن قوماً قد اعتقدوا فيه وفي أمه أنهما إلهان، لأنه يمكن أن يكون عيسى لم يعرف ذلك إلا في تلك الحال عن البلخي والأول أصح، وقد اعترض على قوله إلهين فقيل لا يعلم في النصارى من اتخذ مريم إلهاً، والجواب عنه من وجوه.

أحدها: إنهم لما جعلوا المسيح إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً إلهاً لأن الولد يكون من جنس الوالدة فهذا على طريق الإلزام لهم.

والثاني: أنهم لم عظموها تعظيم الآلهة أطلق اسم الآلهة عليهما كما أطلق اسم الرب على الرهبان والأخبار في قوله: ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارُهُمْ وَرُؤَسَاؤُهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] لما عظموهم تعظيم الرب.

والثالث: إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك، ويعضد هذا القول ما حكاه الشيخ أبو جعفر عن بعض النصارى أنه قال كان فيما مضى قوم يقال لهم المريمية يعتقدون في مريم إنها إله، فعلى هذا يكون القول فيه كالقول في الحكاية عن اليهود وقولهم عزير ابن الله ﴿قَالَ﴾ يعني عيسى ﴿سُبْحَانَكَ﴾ جل جلالك وعظمت وتعاليت عن عطاء، وقيل معناه تنزيهاً لك وبراءة مما لا يجوز عليك: وقيل تنزيهاً لك من أن تبعث رسولاً يدعي الإلهية لنفسه ويكفر بنعمتك فجمع بين التوحيد والعدل... وإنما تحق العبادة لك لقدرتك على أصول النعم. ثم

الحكمة دخلتا فيه، وزاد معنى هذا اللفظ عليهما من حيث اقتضى وضعه بالحكمة في سائر أفعاله . . .

لما بين عيسى بطلان ما عليه النصارى ﴿ قَالَ اللَّهُ ﴾ تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ يعني ما صدقوا فيه في دار التكليف لأن يوم القيامة لا تكليف فيه على أحد ولا يخبر أحد فيه إلا بالصدق ولا ينفع الكفار صدقهم في يوم القيامة إذا أقروا على أنفسهم بسوء أعمالهم، وقيل إن المراد بصدقهم تصديقهم لرسول الله تعالى وكتبه، وقيل إنه الصدق في الآخرة وإنه ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله، فعلى هذا يكون المراد به صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالإبلاغ ﴿ لَمْ يَكُنْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ أي دائماً فيها في نعيم مقيم لا يزول ﴿ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ ﴾ بما فعلوا ﴿ وَرَضُوا عَنْهُ ﴾ بما أعطاهم من الجزاء والثواب ﴿ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ هو ما يحصلون فيه من الثواب قال الحسن: فازوا بالجنة ونجوا من النار.

ابن عربي ج ١ ص ٣٤٩ - ٣٥٤

روح الكمال حياة العلم الحقيقي بالتكميل، والإضافة. ﴿ فَتَكُونُ طَيِّراً ﴾ نفساً مجردة كاملة تطير إلى جناب القدس بجناح العشق. ﴿ وَتُزَيَّرُ الْأَكْصَمَةَ ﴾ المحجوب عن نور الحق ﴿ وَالْأَبْرَصَ ﴾ المعيب بمرض محبة الدنيا، وغلبة الهوى.

﴿ وَإِذَا تَحَسَّجَ ﴾ موتى الجهل من قبور البدن، وأرض النفس بإذني.

﴿ وَإِذَا كَفَفْتُ بَيْنَ إِسْرَائِيلَ ﴾ المجوبين عن نور تجليات الصفات، الجاهلين المضادين لك، لجهلهم بحالك، ومقامك ﴿ عَنْكَ إِذْ حَسَّبْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ﴾ بالحجج والدلائل الواضحة ﴿ فَقَالَ الَّذِينَ ﴾ حجبا منهم عن ﴿ دِينَ الْحَقِّ ﴾ ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ لحيرتهم فيه.

﴿ وَإِذَا أُوحِيَتْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ أي، ألهمت في قلوبهم النورانيين الذين طهروا نفوسهم بماء المنافع، والأعمال المزيكية، حتى قبلوا دعوتك لصفاء نفوسهم، وأحبوك بالإرادة التامة لمناسبتهم إياك بنور الفطرة، وصفاء الإستعداد ﴿ أَنْ آمَنُوا بِإِ ﴾ إيماناً حقيقياً بتوحيد

الأمر ويريد تفويضه إلى غيره هذا الأمر لا مدخل لي فيه فإن شئت فافعله وإن شئت فاتركه، مع علمه وقطعه على أن أحد الأمرين لا يكون منه. وقيل إن المعنى إن تعذبهم فبإقامتهم على كفرهم، وإن تغفر لهم فبتوبة كانت منهم. . . عن الحسن، فكأنه اشترط التوبة وإن لم يكن الشرط ظاهراً في الكلام، وإنما لم يقل فإنك أنت الغفور الرحيم لأن الكلام لم يخرج مخرج السؤال، ولو قال ذلك لأوهم الدعاء لهم بالمغفرة، على أن قوله العزيز الحكيم أبلغ في المعنى، وذلك أن المغفرة قد تكون حكمة وقد لا تكون، والوصف بالعزيز الحكيم يشتمل على معنى الغفران والرحمة إذا كانا صوابين، ويزيد عليهما باستيفاء معاني كثيرة، لأن العزيز هو المنيع القادر الذي لا يضام والقاهر الذي لا يرام. وهذا المعنى لا يفهم من الغفور الرحيم والحكيم هو الذي يضع الأشياء مواضعها ولا يفعل إلا الحسن الجميل، فالمغفرة والرحمة إن اقتضتتهما

﴿ يَتَمَتَّى عَلَيْكَ ﴾ بالهداية الخاصة، ومقام النبوة والولاية. ﴿ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ ﴾ بالتطهير والتزكية، والإصطفاء. ﴿ تُكَلِّمُ النَّاسَ ﴾ في مهد البدن. ﴿ وَكَهَلًا ﴾ بالغاً إلى نور شيب الكمال بالتجرد عن البدن، وملابسه.

﴿ وَإِذَا عَلَّمْتَكَ ﴾ كتاب الحقائق والمعارف الثابتة في اللوح المحفوظ، بتأييد روح القدس، وحكمة السلوك في الله، بتحصيل الأخلاق والأحوال، والمقامات، والتجريد، والتفريد، وترواة العلوم الظاهرة، والأحكام المتعلقة بالأفعال، وأحوال النفس وصفاتها، وإنجيل العلوم الباطنة من علوم تجليات الصفات وأحكامها وأحكام أحوال القلب وصفاته، وأعماله.

﴿ وَإِذَا تَخَلَّقَ ﴾ من طين العقل الهولاني الذي هو الاستعداد المحض بيد التربية والحكمة العملية ﴿ كَهَيْئَةٍ ﴾ طير القلوب الطائرة إلى حضرة القدس لتجردها عن عالمها، وكمالها. ﴿ بِإِذْنِي ﴾ أي بعلمي وقدرتي، وتيسيري عند تجلي صفات حياتي وعلمي، وقدرتي لك أنصافك، واستنبائي إياك ﴿ فَتَنْفَعُ فِيكَ ﴾ من

بالمحجوب عنه يوجب شدة الإيلاء.

﴿ءَأَنْتَ﴾ دعوت الناس إلى نفسك، وأمك، أو إلى مقام قلبك ونفسك، فإن من بقي فيه وجود الأنانية، وبقية النفس والهوى، أو كان فيه تلوين بوجود القلب، وظهوره بصفته، يدعو الخلق أما إلى مقام نفسه، وأما إلى مقام قلبه، لا إلى الحق ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ تنزيهه الله عن الشريك، وتبرئته له عن وجود البقية ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ فإنني لا وجود لي بالحقيقة، فلا ينبغي ولا يصح أن أقول قولاً ليس لي ذلك القول بالحقيقة، فإن القول والفعل، والصفة والوجود، كلها لك ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ أي إن كان صدر مني قول فغن علمك، ولا وجود لما لا تعلم، وما وجد بعلمك، وجد. ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ لإحاطتك بالكل، فعلمي بعض علمك ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي ذاتك، لأنني لا أحيط بالكل.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ وما أمرتهم إلا ما كلفتنى قوله، وألزمته إياه ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أي ما دعوتهم إلا إلى الجمع في صورة التفصيل، وهو الذي نسبة ربوبيته إلى الكل سواء، فغلطوا فما رأوه إلا في بعض التفاصيل لضيق وعائهم، ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ رقيباً حاضراً أراعيهم، وأعلمهم ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي ما بقي مني وجود بقية ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أفنيتني بالكلية بك ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ لفنائي فيك ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ حاضر يوجد بك، وإلا لم يكن ذلك الشيء.

﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ﴾ بإدامة الحجاب ﴿فَلَا تَهُمُ عِبَادُكَ﴾ أحقاء بالحجب والحرمان، وأنت أولى بهم، تفعل بهم ما تشاء. ﴿وَلِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ﴾ برفع الحجاب. ﴿فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ القوي القادر على ذلك، لا تزول عزتك بتقريبهم، ورفع حجابهم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ تفعل ما تفعله من التعذيب بالحجب، والحرمان والتقريب باللطف، والغفران بحكمتك البالغة. ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ نفع صدقك إياك وصدق كل صادق، لكونه خميرة الكمالات، وخاصة الملكوت. ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ﴾ الصفات، بدليل ثمرة الرضوان، فإن الرضا لا يكون إلا بفناء الإرادة، ولا تفنى إرادتهم إلا إذا غلبت إرادة الله عليهم فأفنتها، ولهذا أقدم رضوان الله عنهم على

الصفات، والمحو ﴿وَيَرْسُولِي﴾ برعاية حقوق تجلياتها على التفصيل ﴿قَالُوا ءَأَمَّا ءَأَشْهَدُ﴾ يا إلهنا بعلمك الشامل، المحيط بالكل، إننا منقادون لك، مسلمين وجودات صفاتنا إليك.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ إذ اقترح عليك أصحابك، فقالوا: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ أي، شاهدك من عالم الربوبية، فإن رب كل واحد هو الاسم الذي يربيه ويكمله، ولا يعبد أحد إلا ما عرفه من عالم الربوبية، ولا عرف إلا ما بلغ إليه من المرتبة في الألوهية، فيستفيض منه العلوم، ويستنزل منه البركات، ويستمد منه المدد الروحاني، ولهذا قالوا مع إقرارهم، وإسلامهم، ﴿رَبُّكَ﴾ ولم يقولوا ﴿رَبَّنَا﴾ لأن ربهم لا يستطيع ﴿أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ شريعة من سماء عالم الروح تشتمل على أنواع العلوم، والحكم، والمعارف، والأحكام، فيها غذاء القلوب، وقوت النفوس، وحياتها، وذوقها ﴿قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ﴾ احذروه في ظهور صفات نفوسكم، واجعلوه وقاية لكم فيما يصدر عنكم من الأخلاق، والأفعال تنجوا من تبعاتها، وتفوزوا وتفعلوا، أن تحقق إيمانكم، فلا حاجة بكم إلى شريعة جديدة ﴿قَالُوا ذُرِّيْدُ أَنْ﴾ نستفيد ﴿مِنْهَا﴾ ونعمل بها، ونتقوى بها ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ فإن العلم غذاء القلب، وقوته ﴿وَتَعْلَمُ﴾ صدقك في الإخبار عن ربك، ونبوتك، وولايتك، بها وفيها ﴿وَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنْ الشَّاهِدِينَ﴾ الحاضرين أهل العلم، نخبر بها من عدانا من الغائبين، ونعلمهم، وندعوهم بها، إلى الله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أمراً، أي، شرعاً، ودينياً يعود إليه من في زماننا من أهل ديننا، ومن بعدنا ممن سيوجد من النصارى ﴿وَعَايَةً مِنْكَ﴾ علامة وعلماً منك تعرف بها وتعبد ﴿وَأَرْزُقَنَا﴾ ذلك الشرع، والعلم النافع، والهداية ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ لا ترزق إلا ما ينفعنا، ويكون صلاحنا فيه ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ يحتجب عن ذلك الدين، بعد إنزاله ووضوحه ﴿فَإِنِّي أَخَذْتُ عَذَابًا لَا أُعْذِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ لبيان الطريق، ووضوح الدين، والحجة، مع وجود استعدادهم، فلا ينكرونه، إلا معاندين؛ والعذاب مع العلم أشد من العذاب مع الجهل، إذ الشعور

وأبدلهم بها، فرضي عنهم، وأرضاهم ﴿ذَلِكَ الْقَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أي الفلاح العظيم الشأن، ولو كان فناء الذات لكان الفوز الأكبر، والفلاح الأعظم.

رضوانهم عنه، أي لما أرادهم الله تعالى في الأزل، بمظهرية إرادته، ومحل رضوانه، ورضي بهم محلاً وأهلاً لذلك، سلب عنهم إرداتهم بأن جعل إرادته مكانها،

البيضاوي ج ٢ ص ١٧٤ - ١٧٧

تحقيق واستحكام معرفة وقيل هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة لا على ما تقتضيه القدرة وقيل المعنى هل يطيع ربك أي هل يجيبك واستطاع بمعنى أطاع كاستجاب وأجاب وقرأ الكسائي تستطيع ربك أي سؤال ربك والمعنى هل تسأله ذلك من غير صارف والمائدة الخوان إذا كان عليه الطعام من ماد الماء يمد إذا تحرك أو من ماله إذا أعطاه كأنها تميد من تقدم إليه ونظيرها قولهم شجرة مطعمة ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ بكمال قدرته وصحة نبوتي أو صدقتكم في ادعائكم الإيمان ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ تمهيد. عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال وهو أن يتمتعوا بالأكل منها ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ بانضمام علم المشاهدة إلى علم الاستدلال بكمال قدرته سبحانه وتعالى ﴿وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا﴾ في ادعاء النبوة أو أن الله يجيب دعوتنا ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ إذا استشهدتنا أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك أو أنهم لا يقلعون عنه فأراد إلزامهم الحجة بكمالها ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً﴾ ...

﴿لَا أُولِنَا وَمَا خَرْنَا﴾ بدل من لنا بإعادة العامل أي عيد متقدميننا ومتأخريننا روي أنها نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذها النصارى عيداً وقيل يأكل منها أولنا وآخرنا وقرئ لأولانا وآخرانا بمعنى الأمة أو الطائفة ﴿وَمَائِدَةً﴾ عطف على عيداً ﴿مِنْكَ﴾ صفة لها أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ المائدة أو الشكر عليها ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من يرزق لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة إلى سؤالكم وقرأ نافع وابن عامر وعاصم منزلها بالتشديد ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا﴾ أي تعذيباً.

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ بدل من يوم ويجمع وهو على طريقة ونادى أصحاب الجنة والمعنى أنه سبحانه وتعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم وتعدد ما أظهر عليهم من الآيات فكذبته طائفة وسموهم سحرة وغلا آخرون فاتخذوهم آلهة أو نصب باضمار اذكر ﴿إِذْ أَيْدُتُكَ﴾ قويتك وهو ظرف لنعمتي أو حال منه وقرئ أيدتك ﴿يُرْجَى الْقُدُسِ﴾ بجبريل عليه الصلاة والسلام أو بالكلام الذي يحيا به الدين أو النفس حياة أبدية ويطهر من الآثام ويؤيده قوله ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ ...

والمعنى إلحاق حاله في الطفولية بحال الكهولية في كمال العقل والتكلم وبه استدل على أنه سينزل فإنه رفع قبل أن يكتهل ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران وقرأ نافع ويعقوب طائراً ويحتمل الأفراد والجمع كالباقر ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ﴾ يعني اليهود حين هموا بقتله ﴿إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ ظرف لكففت ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر مبين وقرأ حمزة والكسائي إلا ساحر فالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ أي أمرتهم على السنة رسلي ﴿أَنْ آمِنُوا بِرَسُولِي﴾ يجوز أن تكون أن مصدرية وأن تكون مفسرة ﴿قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِجُ إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ منصوب باذكر أو ظرف لقالوا فيكون تنبيهاً على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يكن بعد عن

كانت تأتيتهم أربعين يوماً غبا يجتمع عليها الفقراء والأغنياء والصغار والكبار يأكلون حتى إذا فاء الفيء طارت وهم ينظرون في ظلها ولم يأكل منها فقير إلا غني مدة عمره ولا مريض إلا برىء ولم يمرض أبداً ثم أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام أن اجعل مائدتني في الفقراء والمرضى دون الأغنياء والأصحاء فاضطرب الناس لذلك فمسخ منهم ثلاثة وثمانون رجلاً وقيل لما وعد الله إنزالها بهذه الشريطة استغفوا وقالوا لا نريد فلم تنزل وعن مجاهد أن هذا مثل ضربه الله لمقترحي المعجزات وعن بعض الصوفية المائدة ههنا عبارة عن حقائق المعارف فإنها غذاء الروح كما أن الأطعمة غذاء البدن وعلى هذا ففعل الحال أنهم رغبوا في حقائق لم يستعدوا للوقوف عليها فقال لهم عيسى عليه الصلاة والسلام إن حصلتم الإيمان فاستعملوا التقوى حتى تتمكنوا من الاطلاع عليها فلم يقلعوا عن السؤال والحوافيه فسأل لأجل اقتراحهم فبين الله سبحانه وتعالى إن إنزاله سهل ولكن فيه خطر وخوف عاقبة فإن السالك إذا انكشف له ما هو أعلى من مقامه لعله لا يحتمله ولا يستقر له فيضل به ضلالاً بعيداً ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يريد به توبيخ الكفرة وتبكيتهن ومن دون الله صفة لإلهين أو صلة اتخذهوني ومعنى دون أما المغايرة فيكون فيه تنبيه على أن عبادة الله سبحانه وتعالى مع عبادة غيره كلا عبادة فمن عبده مع عبادتهما كأنه عبدهما ولم يعبده أو القصور فإنهم لم يعتقدوا أنهما مستقلان باستحقاق العبادة وإنما زعموا أن عبادتهما توصل إلى عبادة الله سبحانه وتعالى وكأنه قيل اتخذوني وأمي إلهين متوصلين بنا إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً من أن يكون لك شريك ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ ما ينبغي لي أن أقول قولاً لا يحق لي أن أقوله ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكُمْ﴾ تعلم ما أخفيه في نفسي كما تعلم ما أعلنه ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك وقوله في نفسك للمشاكلة وقيل المراد بالنفس الذات ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير للجملتين باعتبار منطوقه ومفهومه ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ تصريح

ينفي المستفهم عنه بعد تقديم ما يدل عليه ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ عطف بيان للضمير في به أو بدل منه وليس من شرط البدل جواز طرح المبدل منه مطلقاً ليلزم بقاء الموصول بلا راجع أو خبر مضمرة أو مفعولة مثل هو أو أعني ولا يجوز إبداله من ما أمرتني به فإن المصدر لا يكون مفعول القول ولا أن تكون أن مفسرة لأن الأمر مسند إلى الله سبحانه وتعالى وهو لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم والقول لا يفسر بل الجملة تحكي بعده إلا أن يقول القول بالأمر فكان قيل ما أمرتهم إلا بما أمرتني به أن اعبدوا الله ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي رقيباً عليهم أمنعهم أن يقولوا ذلك ويعتقدوه أو مشاهداً لأحوال من كفر وإيمان ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ بالرفع إلى السماء لقوله إني متوفيك ورافعك والتوفي أخذ الشيء وافياً والموت نوع منه قال الله تعالى الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ المراقب لأحوالهم فتمنع من أردت عصمته من القول به بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسل وإنزال الآيات ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطلع عليه مراقب له ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ﴾ أي أن تعذبهم فإنك تعذب عبادك ولا اعتراض على المالك المطلق فيما يفعل بملكه وفيه تنبيه على أنهم استحقوا ذلك لأنهم عبادك وقد عبدوا غيرك ﴿وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ﴾ فلا عجز ولا استقبح فإنك القادر القوي على الثواب والعقاب الذي لا يثبت ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب فإن المغفرة مستحسنة لكل مجرم فإن عذبت فعذر وإن غفرت ففضل وعدم غفران الشرك بمقتضى الوعيد فلا امتناع فيه لذاته ليمنع التردد والتعليق بأن ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقرأ نافع يوم بالنصب على أنه ظرف لقال وخبر هذا محذوف أو ظرف مستقر وقع خبراً والمعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع وقيل إنه خبر ولكن بني على الفتح بإضافته إلى الفعل وليس بصحيح لأن المضاف إليه معرف والمراد بالصدق الصدق في الدنيا فإن النافع ما كان حال التكليف ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بيان للنفع.

القرطبي ج ٦ ص ٣٦٢ - ٣٨١

قلوبهم؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ﴾ [لقصص: ٧] ووحى بمعنى الإعلام في اليقظة والنام. قال أبو عبيدة: أوحيت بمعنى أمرت، «والى» صلة؛ يقال: وحي أوحى بمعنى؛ قال الله تعالى: ﴿يَأْنْ رَبُّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ [الزلزلة: ٥] وقال العجاج:

* أَوْحَىٰ لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ *

أي أمرها بالقرار فاستقرت. وقيل: ﴿أَوْحَيْتُ﴾ هنا بمعنى أمرتهم. وقيل: بينت لهم. ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ على الأصل؛ ومن العرب من يحذف إحدى النونين، أي واشهد يا رب. وقيل يا عيسى بأننا مسلمون لله.

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُ يَبْعَثُ بِنِصْبِ بْنِ مَرْيَمَ﴾ على ما تقدم من الإعراب. ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. قراءة الكسائي وعليّ وابن عباس وسعيد بن جبيرة ومجاهد «هل تستطيع» بالتاء «ربك» بالنصب. وأدغم الكسائي اللام من «هل» في التاء. وقرأ الباقون بالياء، ﴿رَبُّكَ﴾ بالرفع، وهذه القراءة أشكل من الأولى؛ فقال الشدي: المعنى هل يطيعك ربك إن سألته ﴿أَنْ يُتَزَلَّ﴾ فيستطيع بمعنى يطيع، كما قالوا: أستجاب بمعنى أجاب، وكذلك أستطاع بمعنى أطاع. وقيل المعنى: هل يقدر ربك، وكان هذا السؤال في ابتداء أمرهم قبل استحكام معرفتهم بالله عز وجل، ولهذا قال عيسى في الجواب عند غلظهم وتجويزهم على الله ما لا يجوز: ﴿أَتَقُولُوا لِلَّهِ إِنَّكُمْ مَعَهُ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله تعالى.

قلت: وهذا فيه نظر؛ لأن الخواريث خلصان الأنبياء ودخلاؤهم وأنصارهم كما قال: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِثُ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]. وقال عليه السلام: «لكل نبي حواري وحواري الزبير». ومعلوم أن الأنبياء صلوات الله عليهم جاؤوا بمعرفة الله وما يجب له وما يجوز وما يستحيل عليه وأن يبلغوا ذلك أمهم، فكيف يخفى ذلك على من باطنهم واختص بهم حتى يجهلوا قدرة الله تعالى؟ إلا أنه يجوز أن يقال: إن ذلك صدر ممن كان معهم، كما قال بعض جهال الأعراب للنبي

قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَبْعَثُ بِنِصْبِ بْنِ مَرْيَمَ أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ هذا من صفة يوم القيامة كأنه قال: اذكر يوم يجمع الله الرسل وإذ يقول الله لعيسى كذا؛ قاله المهدوي. و﴿عِيسَى﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع على أن يكون ﴿بِنِصْبِ بْنِ مَرْيَمَ﴾ نداءً ثانياً، ويجوز أن يكون في موضع نصب؛ لأنه نداء منصوب كما قال:

* يَا حَكَمَ بْنَ الْمَنْذَرِ بْنِ الْجَارُودِ *

ولا يجوز الرفع في الثاني إذا كان مضافاً إلا عند الطوال.

قوله تعالى: ﴿أَذْكَرَ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إنما ذكر الله تعالى عيسى نعمه عليه وعلى والدته وإن كان لهما ذكراً لأمرين: أحدهما - ليتلو على الأمم ما خصهما به من الكرامة، وميزهما به من علو المنزلة. الثاني - ليؤكد به حجته، ويرد به جاحده. ثم أخذ في تعديد نعمه فقال: ﴿إِذْ أَيْدِئْتُكَ﴾ يعني قويتك؛ مأخوذ من الأيد وهو القوة، وقد تقدم. وفي ﴿رُوحُ الْقُدُسِ﴾ وجهان: أحدهما - إنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها كما تقدم في قوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾. الثاني - إنه جبريل عليه السلام وهو الأصح، كما تقدم في «البقرة». ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ يعني وتكلم الناس في المهد صبيّاً. وفي الكهولة نبياً، وقد تقدم ما في هذا في «آل عمران» فلا معنى لإعادته. ﴿كَفَفْتُ﴾ معناه دفعت وصرفت ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك. ﴿إِذْ حِشَّتْهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي الدلالات والمعجزات، وهي المذكورة في الآية. ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعني الذين لم يؤمنوا بك وجحدوا نبوتك. ﴿إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾. وقرأ حمزة والكسائي «ساحر» أي إن هذا الرجل إلا ساحر قوي على السحر.

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِثِ أَنْ آمِنُوا بِوَيْرُسُولِي﴾ قد تقدم القول في معاني هذه الآية، والوحي في كلام العرب معناه الإلهام ويكون على أقسام: وحي بمعنى إرسال جبريل إلى الرسل عليهم السلام. ووحى بمعنى الإلهام كما في هذه الآية؛ أي ألهمتهم وقذفت في

جبل: أقرأنا النبي ﷺ «هل تستطيع ربك» قال معاذ: وسمعت النبي ﷺ مراراً يقرأ بالتاء «هل تستطيع ربك». وقال الزجاج: المعنى هل تستدعي طاعة ربك فيما تسأله. وقيل: هل تستطيع أن تدعو ربك أو تسأله؛ والمعنى متقارب، ولا بد من محذوف؛ كما قال: ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾ [يوسف: ٨٢] وعلى قراءة الياء لا يحتاج إلى حذف. قال: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ﴾ أي اتقوا معاصيه وكثرة السؤال؛ فإنكم لا تدرون ما يحل بكم عند اقتراح الآيات؛ إذ كان الله عز وجل إنما يفعل الأصلح لعباده. ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي إن كنتم مؤمنين به وبما جئت به، فقد جاءكم من الآيات ما فيه غنى.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ نصب بأن. ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَنَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ عطف كله، بينوا به سبب سؤالهم حين نُهوا عنه. وفي قولهم ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ وجهان: أحدهما - أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها؛ وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه، وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة إذ كانوا زمنى أو عُمياناً، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون، فخرج يوماً إلى موضع فوقوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة فجاءوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء؛ فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: ﴿قَالَ أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له ﴿نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ الآية. الثاني - ﴿نَأْكُلَ مِنْهَا﴾ لننال بركتها لا حاجة دعوتهم إليها. قال الماوردي: وهذا أشبه، لأنهم لو احتاجوا لم يُنْهوا عن السؤال. ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه: أحدها - تطمئن إلى أن الله تعالى بعثك إلينا نبياً. الثاني - تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا أعواناً لك. الثالث - تطمئن إلى أن الله تعالى قد أجابنا إلى ما سألنا؛ ذكرها الماوردي. وقال المهدوي: أي تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا. قال الثعلبي:

﴿يَجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتَ أَنْوَاطٍ﴾ وكما قال من قال من قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا لَهَا كَمَا لَهُمْ إِلَهُهُ﴾ [الأعراف: ١٣٨] على ما يأتي بيانه في «الأعراف» إن شاء الله تعالى...

لأنهم كانوا مؤمنين عارفين عالمين، وإنما هو كقولك للرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي وقد علمت أنه يستطيع؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك؟ وهل يجيئني إلى ذلك أم لا؟ وقد كانوا عالمين باستطاعة الله تعالى لذلك ولغيره علم دلالة وخبر ونظر فأرادوا علم معانية كذلك؛ كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠] على ما تقدّم، وقد كان إبراهيم عليم ذلك علم خبر ونظر ولكن أراد المعانية التي لا يدخلها ريب ولا شبهة؛ لأن علم النظر والخبر قد تدخله الشبهة والاعتراضات، وعلم المعانية لا يدخله شيء من ذلك؛ ولذلك قال الحواريون: ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ كما قال إبراهيم: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ [البقرة: ٢٦٠].

قلت: وهذا تأويل حسن، وأحسن منه أن ذلك كان من قول من كان مع الحواريين، على ما يأتي بيانه. وقد أدخل ابن العربي المستطيع في أسماء الله تعالى، وقال: لم يرد به كتاب ولا سنة اسماً وقد ورد فعلاً، وذكر قول الحواريين: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾. ورده عليه ابن الحصار في كتاب شرح السنة له وغيره؛ قال ابن الحصار: وقوله سبحانه مخبراً عن الحواريين لعيسى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ليس بشك في الاستطاعة، وإنما هو تلطف في السؤال، وأدب مع الله تعالى؛ إذ ليس كل ممكن سبق في علمه وقوعه ولا لكل أحد، والحواريون هم كانوا خيرة من آمن بعيسى، فكيف يظن بهم الجهل باقتدار الله تعالى على كل شيء ممكن؟! وأما قراءة «التاء» ففيل: المعنى هل يستطيع أن تسأل ربك؛ هذا قول عائشة ومجاهد - رضي الله عنهما؛ قالت عائشة رضي الله عنها: كان القوم أعلم بالله عز وجل من أن يقولوا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ ولكن «هل يستطيع ربك». وروي عنها أيضاً أنها قالت: كان الحواريون لا يشكّون أن الله يقدر على إنزال مائدة ولكن قالوا: «هل يستطيع ربك». وعن معاذ بن

نستيقن قدرته فتسكن قلوبنا. ﴿وَنَعْلَمَ أَنَّ قَدْ صَدَقْتَنَا﴾ بأنك رسول الله. ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ الله بالوحدانية، ولك بالرسالة والنبوة. وقيل: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ لك عند من لم يرها إذا رجعنا إليهم.

قوله تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ الأصل عند سيبويه يا الله، والميمان بدل من «يا». «ربنا» نداء ثان لا يجيز سيبويه غيره؛ ولا يجوز عنده أن يكون نعتاً، لأنه قد أشبه الأصوات من أجل ما لحقه. ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ المائدة الخوان الذي عليه الطعام؛ قال قُطْرُب: لا تكون المائدة مائدة حتى يكون عليها طعام، فإن لم يكن قيل خوان، وهي فاعلة من ماد عبده إذا أطعمه وأعطاه؛ فالمائدة تميد ما عليها أي تُعطى؛ ومنه قول رؤبة - أنشده الأخفش:

تُهدى رؤوس المترفين الأنداد

إلى أمير المؤمنين الممتاد
أي المستعطى المسؤول؛ فالمائدة هي المطعمة والمعطية الآكلين الطعام. ويسمى الطعام أيضاً مائدة تجوزاً، لأنه يكل على المائدة، كقولهم للمطر سماء. وقال أهل الكوفة: سميت مائدة لحركتها بما عليها؛ من قولهم: ماد الشيء إذا مال وتحرك؛ قال الشاعر:
لعلك باك إن تغثت حمامة
يميد بها غصن من الأيك مائل

وقال آخر:

وأقلقني قتل الكناني بعده

فكادت بي الأرض الفضاء تميد
ومنه قوله تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوْسًا أَنْ يَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]. وقال أبو عبيدة: مائدة فاعلة بمعنى مفعولة، مثل ﴿عِشَّةً رَاضِيَةً﴾ [الحاقة: ٢١] بمعنى مرضية ﴿مَلَأَ دَافِقَ﴾ [طارق: ٦] أي مدفوق. قوله تعالى: ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ ﴿تَكُونُ﴾ نعت لمائدة وليس بجواب. . . والعيد واحد الأعياد؛ وإنما جمع بالياء وأصله الواو للزومها في الواحد، ويقال: للفرق بينه وبين أعواد الخشب، وقد عَيَدُوا أي شهدوا العيد؛ قاله الجوهري: وقيل: أصله من عاد يعود أي رجع فهو عود بالواو،

فقلبت ياء لانكسار ما قبلها، مثل الميزان والميقات والميعات، ف قيل ليوم الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة. وقال الخليل: العيد كل يوم يجمع كأنهم عادوا إليه. وقال ابن الأنباري: سمي عيداً للعود في المرح والفرح، فهو يوم سرور الخلق كلهم؛ ألا ترى أن المسجونين في ذلك اليوم لا يطالبون ولا يعاقبون، ولا يصاد الوحش ولا الطيور، ولا تنفذ الصبيان إلى المكاتب. وقيل: سمي عيداً لأن كل إنسان يعود إلى قدر منزله؛ ألا ترى إلى اختلاف ملابسهم وهياكلهم ومآكلهم فمنهم من يضيف ومنهم من يضاف، ومنهم من يرحم ومنهم من يُرحم. وقيل: سمي بذلك لأنه يوم شريف تشبهاً بالعيد: وهو فحل كريم مشهور عند العرب وينسبون إليه؛ فيقال: إبل عيدية، قال:

* عيدية أرهنت فيها الدنانير *

وقد تقدم. وقرأ زيد بن ثابت ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على الجمع. قال ابن عباس: يأكل منها آخر الناس كما يأكل أولهم. ﴿وَمَا يَأْتِيَنَّكَ﴾ يعني دلالة وحجة. ﴿وَأَرْزُقْنَا﴾ أي أعطنا ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي خير من أعطى ورزق، لأنك الغني الحميد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا وعد من الله تعالى أجاب به سؤال عيسى كما كان سؤال عيسى إجابة للحواريين، وهذا يوجب أنه قد أنزلها ووعدته الحق، فجحد القوم وكفروا بعد نزولها فمُسَخُوا قردة وخنازير. قال ابن عمر: إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة المنافقون ومن كفر من أصحاب المائدة وآل فرعون؛ قال الله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾. واختلف العلماء في المائدة هل نزلت أم لا؟ فالذي عليه الجمهور - وهو الحق - نزولها؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي مُرِّئُهَا عَلَيْكُمْ﴾. وقال مجاهد: ما نزلت وإنما هو ضرب مثل ضربه الله تعالى لمخلقه فنهاهم عن مسئلة الآيات لأنبيائه. وقيل: وعدهم بالإجابة فلما قال لهم: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ - الآية - استعفوا منها، واستغفروا الله وقالوا: لا نريد هذا؛ قاله الحسن. وهذا القول والذي قبله خطأ، والصواب أنها

وتشرب يوماً، فنزلت أربعين يوماً تنزل ضحاً فلا تزال هكذا حتى يفىء الفياء موضعه. وقال الثعلبي: فلا تزال منصوبة يؤكل منها حتى إذا فاء الفياء طارت صُعداً فيأكل منها الناس، ثم ترجع إلى السماء والناس ينظرون إلى ظلها حتى تتوارى عنهم، فلما تم أربعون يوماً أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا عيسى إجعل مائتي هذه للفقراء دون الأغنياء؛ فتمارى الأغنياء في ذلك وعادوا الفقراء، وشككوا الناس، فقال الله يا عيسى: «إني آخذ بشرطي»؛ فأصبح منهم ثلاثة وثلاثون خنزيراً يأكلون العذرة يطلبونها بالأكباء والأكباء - هي الكناسا واحدها كبا - بعدما كانوا يأكلون الطعام الطيب وينامون على الفرش اللينة، فلما رأى الناس ذلك اجتمعوا على عيسى يبيكون، وجاءت الخنازير فجثوا على رُكبتهم قدام عيسى، فجعلوا يبيكون وتقطر دموعهم فعرفهم عيسى فجعل يقول: «ألست بفلان» فيومئذ برأسه ولا يستطيع الكلام، فلبثوا بذلك سبعة أيام - ومنهم من يقول أربعة أيام - ثم دعا الله عيسى أن يقبض أرواحهم، فأصبحوا لا يدرى أين ذهبوا؟ الأرض ابتلعهم أو ما صنعوا؟! ١

قلت: في هذا الحديث مقال ولا يصح من قبل إسناده، وعن ابن عباس وأبي عبد الرحمن السلمي كان طعام المائدة خبزاً وسمكاً. وقال ابن عطية: كانوا يجدون في السمك طيب كل طعام؛ وذكره الثعلبي. وقال عمار بن ياسر وقتادة: كانت مائدة تنزل من السماء وعليها ثمار من ثمار الجنة. وقال وهب بن مُثَبِّه: أنزل الله تعالى أفرصة من شعير وحيثاناً. وخرج الترمذي في أبواب التفسير عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ: «أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحمًا وأمروا ألا يَخُونُوا ولا يَدْخَرُوا لَغْدٍ فخانوا وأدخروا ورَفَعُوا لَغْدٍ فمُسيخوا قردة وخنزير» قال أبو عيسى: هذا حديث قد رواه أبو عاصم عن عمار بن ياسر موقوفاً ولا نعرفه مرفوعاً إلا من حديث الحسن بن قزعة، حدثنا حميد بن مسعدة قال حدثنا سفيان بن خبيب عن سعيد بن أبي عروبة نحوه ولم يرفعه، وهذا أصح من حديث الحسن بن قزعة، ولا نعلم للحديث المرفوع أصلاً. وقال سعيد بن جبير: أنزل على المائدة كل شيء

نزلت. قال ابن عباس: إن عيسى ابن مريم قال لبني إسرائيل: «صوموا ثلاثين يوماً ثم سلوا الله ما شئتم يعطكم» فصاموا ثلاثين يوماً وقالوا: يا عيسى لو عَمِلْنَا لأحد فقضيينا عملنا [لأَطَعَمْنَا]، وإنا صمنا وجُعنا فادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء، فأقبلت الملائكة بمائدة يحملونها، عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، فوضعوها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وذكر أبو عبد الله محمد بن علي الترمذي في «نوادير الأصول» له...

لما سألت الحواريون عيسى ابن مريم - صلوات الله عليه - المائدة قام فوضع ثياب الصوف، ولبس ثياب المُسُوح - وهو سِزْبَال من مَسُوح أسود ولِحَاف أسود - فقام فألزق القَدَمَ بالقَدَمَ، وألصق العَقِبَ بالعَقِبَ، والإبهام بالإبهام، ووضع يده اليمنى على يده اليسرى، ثم طأ رأسه، خاشعاً لله، ثم أرسل عينيه ييكي حتى جرى الدمع على لحيته، وجعل يقطر على صدره ثم قال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ قال الله: ﴿إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فنزلت سفرة حمراء مُدَوَّرَةٌ بين غماتين غَمَامَةٍ من فوقها وغمامة من تحتها، والناس ينظرون إليها؛ فقال عيسى: «اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها فتنة إلهي أسألك من العجائب فتعطى» فهبطت بين يدي عيسى عليه السلام وعليها منديل مغطى، فخر عيسى ساجداً والحواريون معه، وهم يجدون لها رائحة طيبة لم يكونوا يجدون [مثلها] قبل ذلك؛ فقال عيسى: «أيكم أعبد الله وأجراً على الله وأوثق بالله فليكشف عن هذه السفرة حتى نأكل منها ونذكر اسم الله عليها ونحمد الله عليها» فقال الحواريون: يا رُوح الله أنت أحقُّ بذلك، فقام عيسى - صلوات الله عليه - فتوضأ وضوءاً حسناً، وصلى صلاة جديدة، ودعا دعاء كثيراً...

الناس ازدحموا عليه فما بقي صغير ولا كبير ولا شيخ ولا شاب ولا غنى ولا فقير إلا جاؤوا يأكلون منه، فضغط بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك عيسى جعلها نُوباً بينهم، فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً، كنانة ثمود ترعى يوماً

إلا الخبز واللحم. وقال عطاء: نزل عليها كل شيء إلا السمك واللحم. وقال كعب: نزلت المائدة منكوسة من السماء تطير بها الملائكة بين السماء والأرض عليها كل طعام إلا اللحم.

قلت: هذه الثلاثة الأقوال مخالفة لحديث الترمذي وهو أولى منها؛ لأنه إن لم يصح مرفوعاً فصح موقوفاً عن صحابي كبير. والله أعلم. والمقطوع به أنها نزلت وكان عليها طعام يؤكل والله أعلم بتعيينه. وذكر أبو نعيم عن كعب أنها نزلت ثانية لبعض عباد بني إسرائيل؛ قال كعب: اجتمع ثلاثة نفر من عباد بني إسرائيل فاجتمعوا في أرض فلاة مع كل رجل منهم أسم من أسماء الله تعالى، فقال أحدهم: سَلُونِي فَأَدْعُو اللَّهَ لَكُمْ بِمَا شِئْتُمْ، قالوا: نَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَظْهَرَ لَنَا عَيْنًا سَاحَّةً بِهَذَا الْمَكَانِ؛ وَرِیَاضاً خُضْراً وَعَبْقَرِيًّا، قال: فدعا الله فإذا عين ساحة ورياض خضر وعبقري. ثم قال أحدهم: سَلُونِي فَأَدْعُو اللَّهَ لَكُمْ بِمَا شِئْتُمْ؛ فَقَالُوا نَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَطْعَمَنَا شَيْئاً مِنْ ثَمَارِ الْجَنَّةِ فَدَعَا اللَّهَ فَنَزَلَتْ عَلَيْهِمْ بَسْرَةٌ فَأَكَلُوا مِنْهَا لَا تَقْلِبُ إِلَّا أَكَلُوا مِنْهَا لَوْناً ثُمَّ رَفَعَتْ؛ ثُمَّ قَالَ أَحَدُهُمْ: سَلُونِي فَأَدْعُو اللَّهَ لَكُمْ بِمَا شِئْتُمْ؛ فَقَالُوا: نَسْأَلُكَ أَنْ تَدْعُو اللَّهَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَائِدَةُ الَّتِي أَنْزَلَهَا عَلَى عِيسَى؛ قَالَ: فدعا فنزلت فقبضوا منها حاجتهم ثم رفعت؛ وذكر تمام الخبر.

مسئلة - جاء في حديث سلمان المذكور بيان المائدة وأنها كانت سُفْرَةً لا مائدة ذات قوائم، والسُفْرَةُ مائدة النبي ﷺ وموائد العرب؛ خرَّج أبو عبد الله الترمذي؛ حدَّثنا محمد بن [بشار]، عن أنس قال: ما أكل رسول الله ﷺ على نِخْوَانٍ قَطُّ وَلَا فِي سَكْرُجَةٍ وَلَا خُبْزٍ لَهُ مُرَقَّقٌ. قال قلت لأنس: فعلام كانوا يأكلون؟ قال: على السُفْرِ...

قلت هذا حديث صحيح ثابت اتفق عليه رجاله؛ البخاري ومسلم، وخرجه الترمذي قال: حدَّثنا محمد بن بشار قال حدَّثنا معاذ بن هشام فذكره وقال فيه: حسن غريب. قال الترمذي أبو عبد الله: النِخْوَانُ هو شيء محدث فعلته الأعاجم، وما كانت العرب لتمتحنها، وكانوا يأكلون على السُفْرِ واحداً سفرته وهي التي تتخذ من

الجلود ولها معاليق تنضم وتنفرج، فبالإنفراج سُميت سُفْرَةً، لأنها إذا حُلَّتْ معاليقها انفرجت فأُسْفِرَتْ عما فيها فقليل لها السُفْرَةُ. وإنما سمي السُفْرُ سَفَرًا لإسفار الرجل بنفسه عن البيوت. وقوله: وَلَا فِي سَكْرُجَةٍ؛ لأنها أوعية الأصباغ، وإنما الأصباغ للألوان ولم تكن من سماتهم الألوان، وإنما كان طعامهم الثريد عليه مقطعات اللحم. وكان يقول: «انهسوا اللحم نهساً فإنه أشهى وأمرأ». فإن قيل: فقد جاء ذكر المائدة في الأحاديث؛ من ذلك حديث ابن عباس قال: لو كان الضَّبُّ حراماً ما أكل على مائدة النبي ﷺ، خرَّجه مسلم وغيره. وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت قال رسول الله ﷺ: «تُصَلِّي الْمَلَائِكَةُ عَلَى الرَّجُلِ مَا دَامَتْ مَائِدَتُهُ مَوْضُوعَةً» خرَّجه الثقات؛ قيل له: المائدة كل شيء يمدُّ ويسط مثل المنديل والثوب، وكان من حقه أن تكون مادة الدالة مضعقة فجعلوا إحدى الدالين ياء فقل مائدة، والفعل واقع به فكان ينبغي أن تكون ممدودة، ولكن خرجت في اللغة مخرج فاعل كما قالوا: سِرَّ كَاتِمٌ وَهُوَ مَكْتُومٌ، وعيشة راضية وهي مرضية، وكذلك خرج في اللغة ما هو فاعل على مخرج مفعول فقالوا: رجل مشؤوم، وإنما هو شائم، وحجاب مستور وإنما هو ساتر، فالخُوان هو المرتفع عن الأرض بقوائمه، والمائدة ما مَدَّ وَبُسَطَ، والسُفْرَةُ ما أسفر عما في جوفه، وذلك أنها مضمومة بمعاليقها. وعن الحسن قال: الأكل على الخُوان فعل الملوك، وعلى المنديل فعل العجم، وعلى السُفْرَةَ فعل العرب وهو السنة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ۖ﴾. اختلف في وقت هذه المقالة؛ فقال قتادة وابن جريج وأكثر المفسرين: إنما يقول له هذا يوم القيامة. وقال السدي وقطرب. قال له ذلك حين رفعه إلى السماء وقالت النصراني فيه ما قالت، واحتجوا بقوله: «إن تعذبهم فإنهم عبادك» فإن «إذ» في كلام العرب لما مضى. والأول أصح؛ يدل عليه ما قبله من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وما بعده ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾. وعلى هذا تكون «إذ» كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ

الله عالماً به أنه لم يقله، ولكنه سأله عنه تقريراً لمن اتخذ عيسى إلهاً. ثم قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ أي تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك. وقيل: المعنى تعلم ما أعلم ما تريد. وقيل: تعلم سرّي ولا أعلم سرّك، لأن السرّ موضعه النفس. وقيل: تعلم ما كان مني في دار الدنيا، ولا أعلم ما يكون منك في دار الآخرة.

قلت: والمعنى في هذه الأقوال متقارب؛ أي تعلم سرّي وما انطوى عليه ضميري الذي خلقته، ولا أعلم شيئاً مما استأثرت به من غيبك وعلمك. ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ ما كان وما يكون، وما لم يكن وما هو كائن.

قوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ يعني في الدنيا بالتحديد. ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ «أن» لا موضع لها من الإعراب وهي مفسرة مثل ﴿وَأَنْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنْ آمَنُوا﴾ [ص: ٦]. ويجوز أن تكون في موضع نصب؛ أي ما ذكرت لهم إلا عبادة الله. ويجوز أن تكون في موضع خفض؛ أي بأن اعبدوا الله؛ وضم النون أولى؛ لأنهم يستثقلون كسرة بعدها ضمة، والكسر جائز على أصل التقاء الساكنين.

قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي حفيظاً بما أمرتهم. ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ «ما» في موضع نصب أي وقت دوامي فيهم. ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ قيل: هذا يدل على أن الله عز وجل توفاه قبل أن يرفعه؛ وليس بشيء؛ لأن الأخبار تظاهرت برفعه، وأنه في السماء حي، وأنه ينزل ويقتل الدجال - على ما يأتي بيانه - وإنما المعنى فلما رفعتني إلى السماء. قال الحسن: الوفاة في كتاب الله عز وجل على ثلاثة أوجه؛ وفاة الموت، وذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] يعني وقت انقضاء أجلها، ووفاة النوم؛ قال الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِأَلِيلٍ﴾ [الانعام: ٦٠] يعني الذي ينيمكم. ووفاة الرفع، قال الله تعالى: ﴿يُعِيسِي إِيَّيْكُمْ فَيَكُونُ لَكُمْ أَوْلًا﴾ [الأنعام: ٥٥]. «أنت» توكيد «الرقيب» خبر «كنت» ومعناه الحافظ عليهم، والعالم بهم؛ والشاهد على أفعالهم؛

إِذْفَرِعُوا﴾ [سبا: ٥١] أي إذا فزعوا. وقال أبو النجم:

ثم جزاه الله عني إذ جرى
جنات عذن في السموات العلى

يعني إذا جرى. وقال الأسود بن جعفر الأزدي:

فالآن إذ هازلتهن فإتما
يقفن الآن يذهب الشيخ مذهباً

يعني إذا هازلتهن، فعبر عن المستقبل بلفظ الماضي، لأنه لتحقيق أمره، وظهور برهانه، كأنه قد وقع. وفي التنزيل ﴿وَأَدَّاهُ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [الاعراف: ٤٤] ومثله كثير وقد تقدم. وأختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال - وليس هو باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام - على قولين: أحدهما - أنه سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ في التكذيب، وأشد في التوبيخ والتقريع. الثاني - قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه غيروا بعده، وأدعوا عليه ما لم يقله. فإن قيل: فالنصارى لم يتخذوا مريم إلهاً فكيف قال ذلك فيهم؟ فقولهم أنها لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لهم أن يقولوا إنها لأجل البعضية بمثابة من ولدته، فصاروا حينئذٍ لهم ذلك بمثابة القائلين له.

قوله تعالى: ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ خرج الترمذي عن أبي هريرة قال تلقى عيسى حجته ولفاه الله في قوله: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ لِلْكَافِرِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «فلقاه الله» ﴿سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ الآية كلها. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح. وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين؛ أحدهما - تنزيهاً له عما أضيف إليه. الثاني - خضوعاً لعزته، وخوفاً من سطوته. ويقال: إن الله تعالى لما قال لعيسى: ﴿ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيْ لِلْكَافِرِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أخذته الرعدة من ذلك القول حتى سمع صوت عظامه في نفسه فقال: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ ثم قال: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي أن ادعى لنفسي ما ليس من حقها، يعني أنني مربوب ولست برّب، وعابد ولست بمعبود. ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ فرد ذلك إلى علمه، وقد كان

- عليه السلام - ألا وإنه سيُجاءُ برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول يا رب أصحابي فيقال إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك فأقول كما قال العبد الصالح: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ . إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ قال: «فيقال لي إنهم لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» . . .

أبو حيان الأندلسي ج ٤ ص ٥٠ - ٦٥

قال التبريزي الأظهر عندي أن موضع عيسى نصب لأنك تجعل الاسم مع نعته إذا أضفته إلى العلم كالشيء الواحد المضاف انتهى. والذي ذكره النحويون في نحو يا زيد بن بكر إذ فتحت آخر المنادى أنها حركة اتباع لحركة نون ابن ولم يعتد بسكون باء ابن لأن الساكن حاجز غير حصين قالوا ويحتمل أن يراد بالذكر هنا الإقرار وأن يراد به الإعلام وفائدة هذا الذكر اسماع الأمم ما خصه به تعالى من الكرامة وتأكيد حجته على جاحده. وقيل أمر بالذكر تنبيهاً لغيره على معرفة حق النعمة وجوب شكر المنعم. قال الحسن ذكر النعمة شكرها والنعمة هنا جنس ويدل على ذلك ما عدده بعد هذا التوحيد اللفظي من النعم وأضافها إليه تنبيهاً على عظمها ونعمه عليه قد عددها هنا وفي البقرة وآل عمران ومريم وفي مواضع من القرآن ونعمته على أمه براءتها مما نسب إليها وتكفيلها لزكريا وتقبلها بقبول حسن وما ذكر في سورة التحريم ومريم ابنة عمران إلى آخره وغير ذلك وأمر بذكر نعمة أمه لأنها نعمة صائرة إليه ﴿إِذْ أَيْدَقْتُكَ يَرْجُحُ الْقُدُسِ﴾ قرأ الجمهور بتشديد الياء. وقرأ مجاهد وابن محيصن أيدتك على أفعلتك. وقال ابن عطية على وزن فاعلتك ثم قال ويظهر أن الأصل في القراءتين أيدتك على وزن فاعلتك ثم اختلف الإعلال والمعنى فيهما أيدتك من الأيد. وقال عبد المطلب:

الحمد لله الأعز الأكرم

أيدنا يوم زحوف الأشرم

انتهى، والذي يظهر أن أيد في قراءة الجمهور ليس

وأصله المراقبة أي المراقبة، ومنه المراقبة لأنها في موضع الرقيب من علو المكان. ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي من مقالي ومقاتلهم. وقيل: على من عصى وأطاع؛ خرج مسلم . . . عن ابن عباس قال قام فينا رسول الله ﷺ خطيباً بموعظة فقال: «يا أيها الناس إنكم تحشرون إلى الله [حفاة] غُرَّةً غُرَّةً كما بدأنا أول خلق نُعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين ألا وإن أول الخلائق يُكسى يوم القيامة إبراهيم» .

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ يحتمل أن يكون إذ بدلاً من قوله يوم يجمع الله الرسل والمعنى أنه يوبخ الكافرين يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم ويتعدد ما أظهر على أيديهم من الآيات العظام فكذبوهم وأسموهم سحرة وجاوز واحد التصديق إلى أن اتخذوهم آلهة كما قال بعض بني إسرائيل فيما أظهر على يد عيسى من البيئات هذا سحر مبين واتخذوه بعضهم وأمه إلهين قاله الزمخشري. وقال ابن عطية يحتمل أن يكون العامل في إذ مضمرأ تقديره اذكر يا محمد إذ وقال هنا بمعنى يقول لأن الظاهر من هذا القول إنه في القيامة تقدمه لقوله أأننت قلت للناس ويحتمل أن يكون إذ بدلاً من قوله يوم يجمع الله انتهى وجوزوا أن يكون إذ في موضع خبر مبتدأ محذوف تقديره ذلك إذ قال الله وإذا كان المنادى علماً مفرداً ظاهر الضمة موصوفاً بابن متصل مضاف إلى علم جاز فتحه اتباعاً لفتحة ابن هذا مذهب الجمهور وأجاز الفراء وتبعه أبو البقاء في ما لا تظهر فيه الضمة تقدير الضمة والفتحة فإن لم تجعل ابن مريم صفة وجعلته بدلاً أو منادى فلا يجوز في ذلك العلم إلا الضم وقد خلط بعض المفسرين وبعض من ينتمي إلى النحو هنا فقال بعض المفسرين يجوز أن يكون عيسى في محل الرفع لأنه منادى معرفة غير مضاف ويجوز أن يكون في محل النصب لأنه في نية الإضافة ثم جعل الابن توكيداً وكل ما كان مثل هذا جاز فيه الوجهان نحو يا زيد بن عمرو وأنشد النحويون

يا حكم بن المنذر بن عمرو والجارود

أنت الجواد بن الجواد بن الجواد

الهيئة الموصوفة بالكاف المنسوب خلقها إلى عيسى وأما قول مكي ويصح عكس هذا وهو أن يكون الضمير المذكر عائداً على الهيئة والضمير المؤنث عائداً على الطائر فيمكن تخريجه على أنه ذكر الضمير وإن كان عائداً على مؤنث لأنه لحظ فيها معنى الشكل كأنه قدر هيئة كهية الطير بقوله شكلاً كهية الطير وأنه أنث الضمير وإن كان عائداً على مذكر لأنه لحظ فيه معنى الهيئة. قال ابن عطية والوجه عود ضمير المؤنث على ما تقتضيه الآية ضرورة أي صوراً أو أشكالاً أو أجساماً وعود الضمير المذكر على المخلوق الذي يقضيه تخلق ثم قال ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف في معنى المثل لأن المعنى وإذ تخلق من الذين مثل هيئة ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيكون اسماً في غير الشعر فهو قول أبي الحسن وحده من البصريين وكذا قال الزمخشري أن الضمير في فيها للكاف. قال لأنها صفة الهيئة التي كان يخلقها عيسى وينفخ فيها وجاء في آل عمران بإذن الله مرتين وجاء هنا بإذني أربع مرّات عقيب أربع جمل لأن هذا موضع ذكر النعمة والامتنان بها فناسب الإسهاب وهناك موضع إخبار لبني إسرائيل فناسب الإيجاز والتقدير وإذ تخرج الموتى تحيي الموتى فعبر بالإخراج عن الإحياء كقوله تعالى كذلك الخروج بعد قوله وأحيينا به بلدة ميتاً أو يكون التقدير وإذ تخرج الموتى من قبورهم أحياء ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلَهُمْ بَالَيْنَاتٍ﴾ أي منعتهم من قتل حين همّوا بك وأحاطوا بالبيت الذي أنت فيه. وقال عبيد بن عمير لما قال الله لعيسى اذكر نعمتي عليك كان يلبس الشعر ويأكل الشجر ولا يؤخر شيئاً لغد ويقول مع كل يوم رزقه لم يكن له بيت فيخرب ولا ولد فيموت أين ما أمسى بات وهذا القول يظهر منه أن عيسى خوطب بذلك قبل الرفع والبيانات هنا هي المعجزات التي تقدم ذكرها وظهرت على يديه ولما فصل تعالى نعمته ذكر ذلك منسوباً لعيسى دون أمه لأنه من هذه النعم نعمة النبوة وظهر هذه الخوارق فنعمته عليه أعظم منها على أمه إذ ولدت مثل هذا النبي الكريم. وقال الشاعر فيما يشبه هذا:

شهد العوالم أنها لنفسية

بدليل ما ولدت من النجباء

وزنه أفعّل لمجيء المضارع على يؤيد فالوزن فعل ولو كان أفعّل لكان المضارع يؤيد كمضارع آمن يؤمن وأما من قرأ أيد فيحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب فإن كان يؤيد فهو فاعل وإن كان يؤيد فهو أفعّل وأما قول ابن عطية إنه في القراءتين يظهر أن وزنه أفعّل ثم اختلف الإعرال فلا أفهم ما أراد وتقدم تفسير نظير هذه الجملة في قوله وأيدناه بروح القدس ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخَلَّقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفَخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتَرَىٰ الْأَكْصَىٰ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجمل والقراءات التي فيها والإعراب وما لم يتقدم ذكره نذكره فنقول جاء هناك كهية الطير فتنفخ فيها فتكون. وقرأ ابن عباس فتنفخها فتكون. وقرأ الجمهور فتكون بالتاء من فوق. وقرأ عيسى بن عمر فيها فيكون بالياء من تحت والضمير في فيها قال ابن عطية اضطرب المفسرون فيه قال مكي هو في آل عمران عائداً على الطائر وفي المائدة عائداً على الهيئة قال ويصبح عكس هذا وقال غيره الضمير المذكور عائداً على الطين. قال ابن عطية ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطين ولا على الهيئة لأن الطير أو الطائر الذي يجيء الطير على هيئته لا نفخ فيه البتة وكذلك لأنفخ في هيئته الخاصة به وكذلك الطين إنما هو الطين العام ولأنفخ في ذلك انتهى. وقال الزمخشري ولا يرجع بعض الضمير إلى الهيئة المضاف إليها لأنها ليست من خلقه ولا نفخة في شيء وكذلك الضمير في يكون انتهى والذي ينبغي أن يحمل عليه كلام مكي أنه لا يريد به ما فهم عنه بل يكون قوله عائداً على الطائر لا يريد به الطائر المضاف إليه الهيئة بل الطائر الذي صوره عيسى ويكون التقدير وإذ يخلق من الطين طائراً صورة مثل صورة الطائر الحقيقي فينفخ فيه فيكون طائراً حقيقة بإذن الله ويكون قوله عائداً على الهيئة لا يريد به الهيئة المضافة إلى الطائر بل الهيئة التي تكون الكاف صفة لها ويكون التقدير وإذ تخلق من الطين هيئة مثل هيئة الطير فتنفخ فيها أي في

وذلك هو الذي حمل الزمخشري على أن الحواريين لم يكونوا مؤمنين قال (فإن قلت) كيف قالوا هل يستطيع ربك بعد إيمانهم وإخلاصهم (قلت) ما وصفهم الله بالإيمان والإخلاص وإنما حكى ادعاءهم لهما ثم أتبعه قوله إذ قالوا فاذن أن دعواهم كانت باطلة وإنهم كانوا شاكرين وقوله هل يستطيع ربك كلام لا يرد مثله عن مؤمنين معظمين لربهم ولذلك قول عيسى لهم معناه اتقوا الله ولا تشكوا في اقتداره واستطاعته ولا تقترحوا عليه ولا تتحكموا ما تشتهون من الآيات فتهلكوا إذا عصيتموه بعدها إن كنتم مؤمنين إن كانت دعواكم للإيمان صحيحة انتهى. وأما غير الزمخشري من أهل التفسير فأطبقوا على أن الحواريين كانوا مؤمنين حتى قال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين. وقال قوم قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى . . .

قال ابن الأنباري لا يجوز لأحد أن يتوهم أن الحواريين شكوا في قدرة الله وإنما هذا كما يقول الإنسان لصاحبه هل يستطيع أن تقوم معي وهو يعلم أنه يستطيع له ولكنه يريد هل يسهل عليك انتهى. وقال الفارسي معناه هل يفعل ذلك بمسألتك إياه. وقال الحسن لم يشكوا في قدرة الله وإنما سأله سؤال مستخبر هل ينزل أم لا فإن كان ينزل فاسأله لنا. قال ابن عطية هل يفعل تعالى هذا وهل يقع منه إجابة إليه كما قال لعبد الله بن زيد هل يستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ فالمعنى هل يحب ذلك وهل يفعله انتهى. وقيل المراد من هذا الكلام استفهام أن ذلك جائز أم لا وذلك لأن أفعاله موقوفة على وجوه الحكمة فإن لم يحصل شيء من وجوه الحكمة كان الفعل ممتنعاً فإن المنافي من وجوه الحكمة كالمنافي من وجوه القدرة. قال أبو عبد الله الرازي هذا الجواب يمشي على قول المعتزلة وأما على مذهبه فهو محمول على أنه تعالى هل قضى بذلك وهل علم وقوعه فإنه إن لم يقض به ويعلم وقوعه كان ذلك محالاً غير مقدور لأن خلاف المعلوم غير مقدور. وقال أيضاً ليس المقصود من هذا الكلام كونهم شاكرين فيه بل المقصود تقرير أن ذلك في غاية الظهور

﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قرأ حمزة والكسائي ساجر بالألف هنا وفي هود والصف فهذا هنا إشارة إلى عيسى. وقرأ باقي السبعة فهذا إشارة إلى ما جاء به عيسى من البينات ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ أي أوحيت إليهم على السنة الرسل. وقال ابن عطية إما أن يكون وحي إلهام أو وحي أمر والرسول هنا هو عيسى وهذا الإحياء إلى الحواريين هو من نعم الله على عيسى بأن جعل له أتباعاً يصدقونه ويعملون بما جاء به ويحتمل أن تكون تفسيرية لأنه تقدمها جملة في معنى القول وأن تكون مصدرية ﴿قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ تقدم تفسير نظير هذه الجملة في آل عمران إلا أن هناك رمنا بالله لأنه تقدم ذكر الله فقط في قوله من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله وهنا جاء قالوا آمنا فلم يتقيد بلفظ الجلالة إذ قد تقدم أن آمنوا بي وبرسولي وجاء هناك واشهد بأننا وهنا واشهد بأننا وهذا هو الأصل إذ أن محذوف منه النون لاجتماع الأمثال ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قال ابن عطية إذ قال الحواريون اعتراض لما وصف حال قول الله لعيسى يوم القيامة وتضمن الاعتراض إخبار محمد ﷺ وأمه بنازلة الحواريين في المائدة إذ هي مثال نافع لكل أمة مع نبيا انتهى. والذي يقتضيه ظاهر اللفظ أن قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتي عليك إلى آخر قصة المائدة كان في ذلك في الدنيا ذكر عيسى بنعمه وبما أجراه على يديه من المعجزات وباختلاف بني إسرائيل عليه وانقسامهم إلى كافر ومؤمن وهم الحواريون ثم استطرذ إلى قصة المائدة ثم إلى سؤاله تعالى لعيسى أننت قلت للناس وإنما حمل بعضهم على أن ذلك في الآخرة كونه اعتقد أن إذ بدلاً من يوم يجمع الله الرسل وأن في آخر الآيات هذا يوم ينفع الصادقين ولا يتعين هذا المجمع على ما نبينه إن شاء الله تعالى في قوله هذا يوم ينفع بل الظاهر ما ذكرناه. وقرأ الجمهور هل يستطيع ربك بالياء وضم الباء وهذا اللفظ يقضي ظاهره الشك في قدرة الله تعالى على أن ينزل مائدة من السماء

حركة الابن كقولك يا زيد بن عمرو وهي اللغة الفاشية ويجوز أن يكون مضموماً كقولك يا زيد بن عمرو والدليل عليه قوله. أحرار ابن عمر كأني خمر. لأن الترخيم لا يكون إلا في المضموم انتهى. فقوله عيسى في محل النصب على هذا التقدير وعلى تقدير ضمه فهو لا اختصاص له بكونه في محل النصب على تقدير الاتباع فاصلاحه عيسى مقدر فيه الفتحة على اتباع الحركة وقوله ويجوز أن يكون مضموماً هذا مذهب الفراء وهو تقدير الفتح والضم ونحوه مما لا تظهر فيه الضمة قياساً على الصحيح ولم يبدأ أولاً بالضم الذي هو مجمع على تقديره فليس بشرط ألا ترى إلى جواز ترخيم رجل اسمه مثني فتقول يا مثني أقبل وإلى ترخيم بعلمك وهو مبني على الفتح لكنه في تقدير الاسم المضموم وإن عني ضمة مقدرة فإن عني ضمة ظاهرة فليس بشرط ألا ترى إلى جواز ترخيم رجل اسمه مثني فتقول يا مثني فإن مثل يا جعفر بن زيد مما فتح فيه آخر المنادى لأجل الاتباع مقدّر فيه الضمة لشغل الحرف بحركة الاتباع كما قدر الإعرابي في قراءة من قرأ الحمد لله بكسر الدال لأجل اتباع حركة الله فقولك يا جار هو مضموم تقديره وإن كانت الاء المحذوفة مشغولة في الأصل بحركة الاتباع وهي الفتحة فلا تنافي بين الترخيم وبين ما فتح اتباعاً وقدّرت فيه الضمة وكان ينبغي للمخشي أن يتكلم على هذه المسألة قبل هذا في قوله تعالى إذ قال الله يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك حيث تكلم الناس عليها . . .

وكيّنونهم من المشاهدين بهذه الآية الناقلين لها إلى غيرهم القائمين بهذا الشرع أو من الشاهدين لله بالوحدانية ولك بالنبوة وقد طول بعض المفسرين في تفسير متعلق إرادتهم بهذه الأشياء وملخصها أنهم أرادوا الأكل للحاجة وشدة الجوع. قال ابن عباس وكان إذا خرج أتبعه خمسة آلاف أو أكثر من صاحب له وذئ علة يطلب البرء ومستهزئ فوقعوا يوماً في مفازة ولا زاد فجاءوا وسألوا من الحواريين أن يسألوا عيسى نزول مائدة من السماء فذكر شمعون لعيسى ذلك فقال قل لهم اتقوا الله وأرادوا الأكل ليزدادوا إيماناً. قال ابن الأنباري أو التشريف

كمن يأخذ بيد ضعيف ويقول هل يقدر السلطان على إشباع هذا ويكون غرضه منه أن ذلك أمر واضح لا يجوز للعقل أن يشك فيه وأبعد من قال هل ينزل ربك مائدة من السماء ويستطيع صلة ومن قال الرب هنا جبريل لأنه كان يربي عيسى ويخصه بأنواع الإعانة ولذلك قال في أول الآية إذ أيدتك بروح القدس وروي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى قال لهم مرة هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله تعالى ثم إن سألتموه حاجة قضاها فلما صاموها قالوا يا معلم الخير إن حق من عمل عملاً أن يطعم فهل يستطيع ربك فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

وقرأ الكسائي هل يستطيع ربك بالتاء من فوق ربك بنصب الباء وهي قراءة عليّ ومعاذ وابن عباس وعائشة وابن جبرير قالت عائشة كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا هل يستطيع ربك نزعتهم عن بشاعة اللفظ وعن مرادهم ظاهره وقد ذكرنا تأويلات ذلك ومعنى هذه القراءة هل يستطيع سؤال ربك وأن ينزل معمول لسؤال المحذوف إذ هو حذف لا يتم المعنى إلا به. وقال أبو عليّ وقد يمكن أن يستغني عن تقدير سؤال على أن يكون المعنى هل يستطيع أن ينزل ربك بدعائك فيؤول المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما ذكر من اللفظ انتهى ولا يظهر ما قال أبو عليّ لأن فعل الله تعالى وإن كان سببه الدعاء لا يكون مقدوراً لعيسى أدغم الكسائي لام هل في ياء يستطيع وعلى هذه القراءة يكون قول عيسى اتقوا الله إن كنتم مؤمنين لم ينكر عليه الاقتراح للآيات وهو على كلتا القراءتين يكون قوله إن كنتم مؤمنين تقريراً للإيمان كما تقول افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً. وقال مقاتل وجماعة اتقوه إن تسألوه البلاء لأنها إن نزلت وكذبتم عذبتم. وقال أبو عبيد وجماعة إن تسألوه ما لم تسأله الأمم قبلكم. وقيل إن تشكّوا في قدرته على إنزال المائدة. وقيل اتقوا الله في الشك فيه وفي رسله وآياتهم. وقيل اتقوا معاصي الله. وقيل أمرهم بالتقوى ليكون سبباً لحصول هذا المطلوب كما قال تعالى ومن يتق الله يجعل له مخرجاً. وقال الزمخشري هنا عيسى في محل النصب على اتباع حركته

بالمائدة ذكره الماوردي والاطمئنان إما بأن الله قد بعثك إلينا أو اختارنا أعواناً لك أو قد أجابك أو العلم بالصدق في إنا إذا صمنا لله تعالى ثلاثين يوماً لم نسأل الله شيئاً إلا أعطانا أو في أنك رسول حقاً إذ المعجز دليل الصدق وكانوا قبل ذلك لم يروا الآيات أو يراود بالعلم الضروري والمشاهدة انتهى. وأنت هذه المعاطيف مرتبة ترتيباً لطيفاً وذلك أنهم لا يأكلون منها إلا بعد معاينة نزولها فيجتمع على العلم بها حاسة الرؤية وحاسة الذوق فبذلك يزول عن القلب قلق الاضطراب ويسكن إلى ما عاينه الإنسان وذاقه وباطمئنان القلب يحصل العلم الضروري بصدق من كانت المعجزة على يديه إذ جاءت طبق ما سأل وسألوا هذا المعجز العظيم لأن تأثيره في العالم العلوي بدعاء من هو في العالم الأرضي أقوى وأغرب من تأثير من هو في العالم الأرضي في عالمه الأرضي ألا ترى أن من أعظم معجزات رسول الله ﷺ القرآن وانشقاق القمر وهما من العالم العلوي وإذا حصل عندهم العلم الضروري بصدق عيسى شهدوا شهادة يقين لا يختلج بها ظن ولا شك ولا وهم وبذكرهم هذه الأسباب الحاملة على طلب المائدة يترجح قول من قال كان سؤالهم ذلك قبل علمهم بآيات عيسى ومعجزاته وإن وحي الله إليهم بالإيمان كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمروا واصبروا. وقرأ ابن جبير ونعلم بضم النون مبنياً للمفعول وهكذا في كتاب التحرير والتجوير وفي كتاب ابن عطية. وقرأ سعيد بن جبير ويعلم بالياء المضمومة والضمير عائد على القلوب وفي كتاب الزمخشري ويعلم بالياء على البناء للمفعول. وقرأ الأعمش وتعلم بالتاء أي وتعلمه قلوبنا. وقرأ الجمهور ونكون بالنون وفي كتاب التحرير والتجوير. وقرأ سنان وعيسى وتكون عليها بالتاء وفي الزمخشري وكانت دعواهم لإرادة ما ذكروا كدعواهم للإيمان والإخلاص وإنما سأل عيسى وأجيب ليلزموا الحجة بكمالها ويرسل عليهم العذاب إذا خالفوا انتهى. وإنما قال ذلك لأنه ليس عنده الحواريون مؤمنين وإذا ولى أن المخففة من الثقيلة فعل متصرف عن دعاء فإن كان ماضياً فصل بينهما بقدر

نحو قوله ونعلم أن قد صدقتنا وإن كان مضارعاً فصل بينهما بحرف تنفيس كقوله علم أن سيكون منكم مرضى ولا يقع بغير فصل قيل إلا قليلاً. وقيل إلا ضرورة فيما تتعلق به عليها التي تقدمت في نحو إني لكما لمن الناصحين. وقال الزمخشري عاكفين عليها على أن عليها في موضع الحال انتهى. وهذا التقدير ليس بجيد لأن حرف الجر لا يحذف عامله وجوباً إلا إذا كان كوناً مطلقاً لا كوناً مقيداً والعكوف كون مقيد ولأن المجرور إذا كان في موضع الحال كان العامل فيها عاكفين المقدر وقد ذكرنا أنه ليس بجيد ثم أن قول الزمخشري مضطرب لأن عليها إذا كان ما يتعلق به هو عاكفين كانت في موضع نصب على المفعول الذي تعدى إليه العامل بحرف الجر وإذا كانت في موضع الحال كان العامل فيها كوناً مطلقاً واجب الحذف فظهر التنافي بينهما ﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ روي أن عيسى لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويبكي ويدعو وتقدم الكلام على لفظة اللهم في آل عمران ونادى ربه أولاً بالعلم الذي لا شركة فيه ثم ثانياً بلفظ ربنا مطابقاً إلى مصلحنا ومربينا ومالكننا. وقرأ الجمهور وتكون لنا على أن الجملة صفة لمائدة. وقرأ عبد الله والأعمش يكن بالجزم على جواب الأمر والمعنى يكن يوم نزولها عيداً وهو يوم الأحد ومن أجل ذلك اتخذته النصراني عيداً. وقيل العيد السرور والفرح ولذلك يقال يوم عيد فالمعنى يكون لنا سروراً وفرحاً والعيد المجتمع لليوم المشهود وعرفه أن يقال في ما يستدير بالسنة أو بالشهر أو بالجمعة ونحوه. وقيل العيد لغة ما عاد إليك من شيء في وقت معلوم سواء كان فرحاً أو ترحاً وغلبت الحقيقة العرفية على الحقيقة اللغوية. وقال الخليل العيد كل يوم يجمع الناس لأنهم عادوا إليه. قال ابن عباس لأولنا لأهل زماننا وآخرنا من يجيء بعدنا. وقيل لأولنا المتقدمين منا والرؤساء وآخرنا يعني الاتباع والأولية والآخرية فاحتملنا الأكل والزمان والرتبة والظاهر الزمان. وقرأ زيد بن ثابت وابن محيصن والجحدري لأولنا وآخرنا أنثوا على معنى

تعالى ذكر أنه منزلها ويأينزها قال الجمهور . قال ابن عطية شرط عليهم شرطه المتعارف في الأمم أنه من كفر بعد آية الاقتراح عذب أشد عذاب . قال الحسن ومجاهد لما سمعوا الشرط أشفقوا فلم تنزل . قال مجاهد فهو مثل ضربه الله للناس لثلا يسألوا هذه الآيات واختلف من قال إنها نزلت هل رفعت بأحداث أحدثه أم لم ترفع . وقال الأكثرون أكلوا منها أربعين يوماً بكرة وعشيرة . وقال اسحاق بن عبد الله يأكلون منها متى شاؤوا . وقيل بطروا فكانت تنزل عليهم يوماً بعد يوم . وقال المؤرخون كانت تنزل عند ارتفاع الضحى فيأكلون منها ثم ترتفع إلى السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض واختلفوا في كيفية نزولها وفيما كان عليها وفي عدد من أكل منها وفيما آل إليه حال من أكل منها اختلافاً مضطرباً متعارضاً ذكره المفسرون ضربت عن ذكره صفحاً إذ ليس منه شيء يدل عليه لفظ الآية وأحسن ما يقال فيه ما خرجه الترمذي في أبواب التفسير عن عمار بن ياسر قال قال رسول الله ﷺ أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمروا أن لا يدخروا لغد ولا يخونوا فخانوا وأدخروا ورفعوا لغد فمسخوا قرده وخنازير . . .

وقيل شكهم في عيسى وتشكيكهم الناس . وقيل مخالفتهم الأمر بأن لا يخونوا ولا يخبؤا ولا يدخروا قاله قتادة . وقال عمار ابن ياسر لم يتم يومهم حتى خانوا فادخروا ورفعوا وظاهر العالمين العموم وقيل عالمي زمانهم . ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ ۖ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي آلِهَتَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أبو عبيدة إذ زائدة وقال غيره بمعنى إذا والظاهر أنها على أصل وضعها وإن ما بعدها من الفعل الماضي قد وقع ولا يؤول بيقول . قال السدي وغيره كان هذا القول من الله تعالى حين رفع عيسى إليه وقالت النصارى ما قالت وادعت أن عيسى أمرهم بذلك واختاره الطبري . وقال ابن عباس وكتادة والجمهور هذا القول من الله تعالى إنما هو يوم القيامة يقول له على رؤوس الخلائق فيعلم الكفار أن ما كانوا عليه باطل فيقع التجوز في استعمال إذ بمعنى إذا والماضي بعده بمعنى المستقبل وفي إيلاء الاستفهام الاسم ومجيء الفعل بعده

الامة والجماعة والمجور بدل من قوله لنا وكرر العامل وهو حرف الجر كقوله منها من غم والبدل من ضمير المتكلم والمخاطب إذا كان بدل بعض أو بدل اشتمال جاز بلا خلاف وإن كان بدل شيء من شيء وهما لعين واحدة فإن أفاد معنى التأكيد جاز لهذا البدل إذ المعنى تكون لنا عيداً كلنا كقولك مررت بكم أكابركم وأصاغركم لأن معنى ذلك مررت بكم كلكم وإن لم تفد توكيداً فمسألة خلاف الأخفش بخير وغيره من البصريين بمنع ومعنى وآية منك علامة شهادة على صدق عبدك . وقيل حجة ودلالة على كمال قدرتك . وقرأ اليماني وأنه منك والضمير في وأنه إما للعيد أو الإنزال . وارتزقنا قيل المائدة . وقيل الشكر لنعمتك وأنت خير الرازقين لأنك الغني الحميد تبتدىء بالرزق . قال أبو عبد الله الرازي تأمل هذا الترتيب فإن الحواريين لما سألوا المائدة ذكروا في طلبها أغراضاً فقدّموا ذكر الأكل وأخروا الأغراض الدينية الروحانية وعيسى طلب المائدة وذكر أغراضه فقدّم الدينية وأخر أغراض الأكل حيث قال وارتزقنا وعند هذا يلوح لك مراتب درجات الأرواح في كون بعضها روحانية وبعضها جسمانية ثم إن عيسى عليه السلام لشدة صفاء وقته وإشراق روحه لما ذكر الرزق بقوله وارتزقنا لم يقف عليه بل انتقل من الرزق إلى الرازق فقال وأنت خير الرازقين فقوله ربنا ابتداء منه ببدء الحق سبحانه وتعالى وقوله أنزل علينا مائدة انتقال من الذات إلى الصفات وقوله تكون لنا عيداً لاؤلنا وآخرنا إشارة إلى ابتهاج الروح بالنعمة لا من حيث إنها نعمة بل من حيث إنها صادرة عن المنعم وقوله وآية منك إشارة إلى حصة النفس وكل ذلك نزل من حضرة الجلال فانظر كيف ابتدأ بالأشرف فالأشرف نازلاً إلى الأدون فالأدون وأنت خير الرازقين هو عروج مرة أخرى من الأخس إلى الأشرف وعند هذا يلوح همه من كيفية عروج الأرواح المشرقة النورانية الإلهية ونزولها اللهم اجعلنا من أهله وهو كلام دائر بين لفظ فلسفي ولفظ صوفي وكلاهما بعيدة عن كلام العرب ومناحيها ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ الظاهر أن المائدة نزلت لأنه

فقد ناسخ نفي القبول عنه ولم يقل ما قلته بل فوّض ذلك إلى علمه المحيط بالكل وهذه مبالغة في الأدب وفي إظهار الذلة والمسكنة في حضرة الجلال وتفويض الأمر بالكلية إلى الحق سبحانه انتهى وفيه بعض تلخيص . . .

﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمَ الْغُيُوبَ﴾ هذا تقرير للمجملتين معاً لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهي إليه أحد فإذا كنت أنت المختص بعلم الغيب فلا علم لي بالغيب فكيف تكون لي الألوهية وخرج الترمذي عن أبي هريرة عن النبي ﷺ فلقال الله سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق الآية كلها قال أبو عيسى حديث حسن صحيح ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ أخبر أنه لم يتعد أمر الله في أن أمر بعبادته وأقر بربوبيته وفي قوله ربي وربكم براءة مما ادّعوه فيه وفي الإنجيل قال: يا معاشري بني المعمودية قوموا بنا إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم ومخلصي ومخلصكم. وقال أبو عبد الله الرازي كان الأصل أن يقال ما أمرتهم إلا ما أمرتني به إلا أنه وضع القول موضع الأمر نزولاً على موجب الأدب. وقال الحسن إنما عدل لثلاث يجعل نفسه وربه آمريين معاً ودل على أن الأصل ما ذكر أن المفسرة انتهى. قال الحوفي وابن عطية وإن في أن اعبدوا مفسرة لا موضع لها من الإعراب ويصح أن يكون بدلاً من ما وصح أن يكون بدلاً من الضمير في به زاد ابن عطية أنه يصح أن يكون في محل خفض على تقدير بأن اعبدوا وأجاز أبو البقاء الجر على البدل من الهاء والرفع على إضمار هو والنصب على إضمار أعني أو بدلاً من موضع به.

قال ولا يجوز أن تكون بمعنى أن المفسرة لأن القول قد صرح به وأن لا تكون مع التصريح بالقول. وقال الزمخشري إن في قوله أن اعبدوا الله إن جعلتها مفسرة لم يكن لها بد من مفسر والمفسر إما فعل القول وإما فعل الأمر وكلاهما لا وجه له أما فعل القول فيحكي بعده الكلام من غير أن يوسط بينهما حرف التفسير لا تقول ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله ربي وربكم ولكن ما قلت لهم إلا اعبدوا الله وأما فعل الأمر فمسند إلى ضمير الله تعالى فلو فسرت به اعبدوا الله ربي وربكم لم يستقم لأن الله لا

دلالة على صدور الفعل في الوجود لكن وقع الاستفهام عن النسبة أكان هذا الفعل الواقع صادراً عن المخاطب أم ليس بصادر عنه بيان ذلك أنك تقول أضربت زيداً فهذا استفهام هل صدر منك ضرب لزيد أم لا ولا إشعار فيه بأن ضرب زيد قد وقع. فإذا قلت أنت ضربت زيداً كان الضرب قد وقع بزيد لكنك استفهمت عن إسناده للمخاطب وهذه مسألة بيانية نص على ذلك أبو الحسن الأخفش وذكر المفسرون أنه لم يقل أحد من النصاري بالهية مريم فكيف قيل إلهين وأجابوا بأنهم لما قالوا لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا من حيث البعضية بالهية من ولده فصاروا بمثابة من قال انتهى. والظاهر صدور هذا القول في الوجود لا من عيسى ولا يلزم من صدور القول وجود الاتخاذ ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ أي تنزيهاً لك. قال ابن عطية من أن يقال هذا وينطق به. وقال الزمخشري من أن يكون لك شريك والظاهر الأول لقوله بعدما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق. قال أبو روق لما سمع عيسى هذا المقال ارتعدت مفاصله وانفجرت من أصل كل شعرة عين من دم. فقال عند ذلك مجيباً لله تعالى سبحانه تنزيهاً وتعظيماً لك وبراءة لك من السوء ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ هذا نفي بعضه دليل العقل فيمتنع عقلاً ادعاء بشر محدث الإلهية وبحق خبر ليس لي ليس مستحقاً وأجازوا في لي أن يكون تبييناً وأن يكون صلة صفة لقوله بحق لي تقدم فصار حالاً أي بحق لي ويظهر أنه يتعلق بحق لأن الباء زائدة وحق بمعنى مستحق أي ما ليس مستحقاً وأجاز بعضهم أن يكون الكلام قد تم عند قوله ما ليس لي وجعل بحق متعلقاً بعلمته الذي هو جواب الشرط ورد ذلك بادعاء التقديم والتأخير فيما ظاهره خلاف ذلك ولا يصار إلى التقديم والتأخير إلا لمعنى يقتضي ذلك أو بتوقيف أو فيما لا يمكن فيه إلا ذلك انتهى هذا القول ورده ويمتنع أن يتعلق بعلمه لأنه لا يتقدم على الشرط شيء من معمولات فعل الشرط ولا من معمولات جوابه ووقف نافع وغيره من القراء على قوله بحق وروي ذلك عن النبي ﷺ ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ قال أبو عبد الله الرازي هذا مقام خضوع وتواضع

حتى هذا القول المعين ثم تبرأ تبرؤاً ثالثاً وهو إحالة ذلك على علمه تعالى وتفويض ذلك إليه وعيسى يعلم أنه ما قاله ثم لما أحال على العلم أثبت علم الله به ونفى علمه بما هو الله وفيه إشارة إلى أنه لا يمكن أن يهجم ذلك في خاطري فضلاً عن أن أفوه به وأقوله فصار مجموع ذلك نفي هذا القول ونفي أن يهجم في النفس ثم علل ذلك بأنه تعالى مستأثر بعلم الغيب ثم لما نزه الله تعالى وانتفى عنه قول ذلك وأن يخطر ذلك في نفسه انتقل إلى ما قاله لهم فأتى به محصوراً بالا معذوقاً بأنه هو الذي أمره الله به أن يبلغهم عنه ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي قريباً كالشاهد على المشهود عليه أنمنعهم من قول ذلك وأن يتدينوا به وأتى بصيغة فعيل للمبالغة كثير الحفظ عليهم والملازمة لهم وما ظرفية ودام تامة أي ما بقيت فيهم أي شهيداً في الدنيا ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ قيل هذا يدل على أنه توفاه وفاة الموت قبل أن يرفعه وليس بشيء لأن الأخبار تظافرت برفعه حياً وأنه في السماء حي وأنه ينزل ويقتل الدجال ومعنى توفيتني قبضتني إليك بالرفع. وقال الحسن الوفاة وفاة الموت ووفاة النوم ووفاة الرفع. وقال الزمخشري ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبُ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تمنعهم من القول به بما نصبت لهم من الأدلة وأنزلت عليهم من البينات وأرسلت إليهم الرسل انتهى وفيه دسيسة الاعتزال . . .

﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قرأ الجمهور هذا يوم بالرفع على أن هذا مبتدأ ويوم خبره والجملة محكية بقال وهي في موضع المفعول به لقال أي هذا الوقت وقت نفع الصادقين وفيه إشارة إلى صدق عيسى عليه السلام. وقرأ نافع هذا يوم بفتح الميم وخزجه الكوفيون على أنه مبني خبر لهذا وبني لإضافته إلى الجملة الفعلية وهم لا يشترطون كون الفعل مبنياً في بناء الظرف المضاف إلى الجملة فعلى قولهم تتحد القراءتان في المعنى. وقال البصريون شرط هذا البناء إذا أضيف الظرف إلى الجملة الفعلية أن يكون مصدرأ بفعل مبني لأنه لا يسري إليه البناء إلا من المبني الذي أضيف إليه والمسألة مقررة في علم النحو فعلى قول البصريين هو معرب لا

يقول اعبدوا الله ربي وربكم وإن جعلتها موصولة بالفعل لم يخل من أن تكون بدلاً من ما أمرتني به أو من الهاء في به وكلاهما غير مستقيم لأن البدل هو الذي يقوم مقام المبدل منه ولا يقال ما قلت لهم إلا أن اعبدوا الله بمعنى ما قلت لهم إلا عبادته لأن العبادة لا تقال وكذلك إذا جعلته بدلاً من الهاء لأنك لو أقمت أن اعبدوا الله لم يصح لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته (فإن قلت) فكيف تصنع (قلت) يحمل فعل القول على معناه لأن معنى ما قلت لهم إلا ما أمرتني به ما أمرتهم إلا بما أمرتني به حتى يستقيم تفسيره بأن اعبدوا الله ربي وربكم ويجوز أن تكون موصولة عطفاً على بيان الهاء لا بدلاً انتهى. وفيه بعض تلخيص أما قوله وأما فعل الأمر إلى آخر المنع وقوله لأن الله تعالى لا يقول اعبدوا الله ربي وربكم وإنما لم يستقم لأنه جعل الجملة وما بعدها مضمومة إلى فعل الأمر ويستقيم أن يكون فعل الأمر مفسراً بقوله اعبدوا الله ويكون ربي وربكم من كلام عيسى على إضمار أعني أي أعني ربي وربكم لا على الصفة التي فهمها الزمخشري فلم يستقم ذلك عنده وأما قوله لأن العبادة لا تقال فصحيح لكن ذلك يصح على حذف مضاف أي ما قلت لهم إلا القول الذي أمرتني به قول عبادة الله أي القول المتضمن عبادة الله وأما قوله لبقاء الموصول بغير راجع إليه من صلته فلا يلزم في كل بدل أن يحل محل المبدل منه ألا ترى إلى تجويز النحويين زيد مرت به أبي عبد الله ولو قلت زيد مرت بأبي عبد الله لم يجز ذلك عندهم إلا على رأي الأخفش وأما قوله عطفاً على بيان الهاء فهذا فيه بعد لأن عطف البيان أكثره الجوامد الإعلام وما اختاره الزمخشري وجوزة غيره من كون أن مفسرة لا يصح لأنها جاءت بعد إلا وكل ما كان بعد إلا المستثنى بها فلا بد أن يكون له موضع من الإعراب وأن التفسيرية لا موضع لها من الإعراب وانظر إلى ما تضمنت محاوراة عيسى وجوابه مع الله تعالى لما قرع سمعه ما لا يمكن أن يكون نزه الله تعالى وبرأه من السوء ومن أن يكون معه شريك ثم أخبر عن نفسه إنه لا يمكن أن يقول ما ليس له بحق فأتى بنفي لفظ عام وهو لفظ ما المندرج تحته كل قول ليس بحق

اليوم فقبل يوم القيامة كما ذكرناه وخص بالذكر لأنه يوم الجزاء الذي فيه تجني ثمرات الصدق الدائمة الكاملة وإلا فالصدق ينفع في كل يوم وكل وقت. وقيل هو يوم من أيام الدنيا فإن العمل لا ينفع إلا إذا كان في الدنيا والصادقون هنا النبيون وصدقهم تبليغهم أو المؤمنون وصدقهم إخلاصهم في إيمانهم أو صدق عهودهم أو صدقهم في العمل لله تعالى أو صدقهم تركهم الكذب على الله وعلى رسله أو صدقهم في الآخرة في الشهادة مكذبين لأنبيائك وأن تغفر لهم فإنك أنت العزيز القوي على الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يثيب ولا يعاقب إلا عن حكمة وصواب (فإن قلت) المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال وإن تغفر لهم (قلت) ما قال إنك تغفر لهم ولكنه بنى الكلام على أن يقال إن عذبتهم عدلت لأنهم أحقاء بالعذاب وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن وهذا من الزمخشري ميل إلى مذهب أهل السنة فإن غفران الكفر جائز عندهم وعند جمهور البصريين من المعتزلة عقلاً قالوا لأن العقاب حق لله على الذنب وفي إسقاطه منفعة وليس في إسقاطه على الله مضره فوجب أن يكون حسناً ودل الدليل السمعي في شرعنا على أنه لا يقع فعل هذا الدليل السمعي ما كان موجوداً في شرع عيسى عليه السلام انتهى كلام جمهور البصريين من المعتزلة. وقال أهل السنة مقصود عيسى تفويض الأمور كلها إلى الله تعالى وترك الاعتراض بالكلية ولذلك ختم الكلام بقوله فإنك أنت العزيز الحكيم أي قادر على ما تريد في كل ما تفعل لا اعتراض عليك. وقيل لما قال لعيسى أنت قلت للناس الآية علم أن قوماً من النصارى حكوا هذا الكلام عنه والحاكي هذا الكفر لا يكون كافراً بل مذنباً حيث كذب وغفران الذنب جائز فلماذا قال وإن تغفر لهم. وقيل كان عند عيسى أنهم أحدثوا المعاصي وعملوا بعده بما لم يأمرهم به إلا أنهم على عمود دينه فقال وأن تغفر لهم ما أحدثوا بعدي من المعاصي وهذا يتوجه على قول من قال إن قول الله له أنت قلت للناس كان وقت الرفع لأنه قال ذلك وهم أحياء لا يدري ما يموتون عليه. وقيل الضمير

مبني وخرج نصبه على وجهين ذكرهما الزمخشري وغيره أحدهما أن يكون ظرفاً لقول وهذا إشارة إلى المصدر فيكون منصوباً على المصدرية أي قال الله هذا القول أو إشارة إلى الخبر أو القصص كقولك قال زيد شعراً أو قال زيد خطبة فيكون إشارة إلى مضمون الجملة واختلف في نصبه أهو على المصدرية أو ينتصب مفعولاً به فعلى هذا الخلاف ينتصب إذا كان إشارة إلى الخبر أو القصص نصب المصدر أو نصب المفعول به. قال ابن عطية وانتصابه على الظرف وتقديره قال الله هذا القصص أو الخبر يوم ينفع معنى يزيل وصف الآية وبهاء اللفظ والمعنى والوجه الثاني أن يكون ظرفاً خبر هذا وهذا مرفوع على الابتداء والتقدير هذا الذي ذكرناه من كلام عيسى واقع يوم ينفع ويكون هذا يوم ينفع جملة محكية بقال.

قال الزمخشري وقرأ الأعمش يوماً ينفع بالتنوين كقوله واتقوا يوماً لا تجزى. وقال ابن عطية وقرأ الحسن بن عياش الشامي هذا يوم بالرفع والتنوين. وقرأ الجمهور صدقهم بالرفع فاعل ينفع وقرئ بالنصب وخرج على أنه مفعول له أي لصدقهم أو على إسقاط حرف الجر أي بصدقهم أو مصدر مؤكد أي الذين يصدقون صدقهم أو مفعول به أي يصدقون الصدق كما تقول صدقته القتال والمعنى يحققون الصدق. قال الزمخشري (فإن قلت) أن أريد صدقهم في الآخرة فليست بدار عمل وإن أريد في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة (قلت) معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم انتهى. وهذا بناء على قول من قال إن هذا القول يكون من الله تعالى في الآخرة وقد اتبع الزمخشري الزجاج في قوله هذا حقيقته الحكاية ومعنى ينفع الصادقين صدقهم الذي كان في الدنيا ينفعهم في القيامة لأن الآخرة ليست بدار عمل ولا ينفع أحداً فيها ما قال وإن حسن ولو صدق الكافر وأقر بما عمل فقال كفرت وأسأت ما نفعه وإنما الصادق الذي ينفعه صدقه الذي كان فيه في الدنيا والآخرة انتهى. والظاهر أنه ابتداء كلام من الله تعالى. وقال السدي هذا فصل من كلام عيسى عليه السلام أي يقول عيسى يوم القيامة قال الله تعالى واختلف في هذا

العزیز الحکیم فی الأمرین کلاهما من التعذیب والغفران فكان العزیز الحکیم ألیق بهذا المكان لعمومه وأنه یجمع الشرطین ولم یصلح الغفور الرحیم أن یحتمل ما احتمله العزیز الحکیم انتهى. وأما قول من ذهب لأنبیائهم بالبلاغ أو شهدوا به على أنفسهم من أعمالهم ویكون وجه النفع فیهم أن یکفوا المؤاخذه بتركهم کتم الشهادة فیغفر لهم بإقرارهم لأنبیائهم وعلى أنفسهم أقوال ستة والظاهر العموم فكل صادق ینفعه صدقهم ﴿لَمْ جَنَّتْ تَعْرِ مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تُنْهَرُ﴾ هذا كأنه جواب سائل ما لهم جزاء على الصدق فقلیل لهم جنات ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ إشارة إلى تأیید الدیمومية فی الجنة ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ قيل بقبول حسناتهم ورضوا عنه بما آتاهم من الكرامة. وقيل بطاعتهم ورضوا عنه فی الآخرة بثوابه. وقال الترمذی بصدقهم ورضوا عنه بوفاء حقهم. وقيل فی الدنيا ورضوا عنه فی الآخرة. وقال أبو عبد الله الرازی فی قوله رضي الله عنهم هو إشارة إلى التعظیم هذا على ظاهر قول المتكلمین وأما عند أصحاب الأرواح المشرقة بأنوار جلال الله تعالى فتحت قوله رضي الله عنهم ورضوا عنه أسرار عجيبة لا تسمح الأقلام بمثلها جعلنا الله من أهلها انتهى. وهو كلام عجیب شبيه بكلام أهل الفلسفة والتصوّف. ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ ذلك إشارة إلى ما تقدم من كینونة الجنة لهم على التأیید وإلى رضوان الله عنهم لأن الجنة بما فیها كالعدم بالنسبة إلى رضوان الله وثبت فی الصحيح أن رسول الله ﷺ قال یطلع الله على أهل الجنة فیقول یا أهل الجنة هل رضیتم فیقولون یا ربنا وكيف لا نرضی وقد بعدتنا عن نارک وأدخلتنا جنتک فیقول الله تعالى ولكم عندي أفضل من ذلك فیقولون وما أفضل من ذلك فیقول الله عز وجل أحل علیکم رضوانی فلا أسخط علیکم بعدها أبداً.

فی تعذبهم عائدة على من مات كافراً وفي أن تغفر لهم عائدة على من تاب منهم قبل الموت. وقيل قال ذلك على وجه الاستعطاف لهم والرافة بهم مع علمه بأن الكفار لا یغفر لهم ولهذا لم یقل لأنهم عصوك انتهى. وهذا فی بعد لأن الاستعطاف لا یحسن إلا لمن یرجى له العفو والتخفيف والكفار لا یرجى لهم ذلك والذي اختاره من هذه الأقوال أن قوله تعالى وإذ قال الله یا عیسی ابن مریم أنت قلت للناس قول قد صدر ومعنی یعطفه على ما صدر ومضى ومجيئه بإذ التي هي ظرف لما مضى ویقال التي هي حقيقة فی الماضي فجميع ما جاء فی هذه الآیات من إذ قال هو محمول على أصل وضعه وإذا كان كذلك فقول عیسی وأن تغفر لهم فعبر بالسبب عن المسبب لأنه معلوم وأن الغفران مرتب على التوبة وإذا كان هذا القول فی غیر وقت الآخرة كانوا فی معرض أن یرد فیهم التعذیب أو المغفرة الناشئة عن التوبة وظاهر قوله فإنك أنت العزیز الحکیم أنه جواب الشرط والمعنی فإنك أنت العزیز الذي لا یمتنع عليك ما تریده الحکیم فیما تفعله تضل من تشاء وتهدي من تشاء وقرأت جماعة فإنك أنت الغفور الرحیم على ما یقتضيه قوله وأن تغفر لهم قال عیاض بن موسى ولیست من المصحف. وقال أبو بكر بن الأنباري وقد طعن على القرآن من قال إن قوله فإنك أنت العزیز الحکیم لا یناسب قوله وأن تغفر لهم لأن المناسب فإنك أنت الغفور الرحیم. والجواب أنه لا یحتمل إلا ما أنزله الله تعالى ومتى نقل إلى ما قال هذا الطاعن ضعف معناه فإنه ینفرد الغفور الرحیم بالشرط الثاني ولا یكون له بالشرط الأول تعلق وهو ما أنزله الله تعالى وأجمع على قراءته المسلمون معذوق بالشرطین کلاهما أولهما وآخرهما إذ تلخیصه أن تعذبهم فأنت عزیز حکیم وأن تغفر لهم فأنت

ابن کثیر ج ٢ ص ١١٤ - ١٢٢

على کمال قدرتي على الأشياء ﴿وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ﴾ حيث جعلتك لها برهاناً على براءتها مما نسبها الظالمون والجاهلون إليها من الفاحشة ﴿إِذْ أَيْدَتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ وهو جبریل علیه السلام وجعلتك نبياً داعياً إلى

یذكر تعالى ما من به على عبده ورسوله عیسی ابن مریم علیه السلام مما أجراه على یدیه من المعجزات الباهرات وخوارق العادات فقال ﴿أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ أي فی خلقي إياك من أم بلا ذكر وجعلني إياك آية ودلالة قاطعة

الآية ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتَيْنِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي ألهموا ذلك فامتثلوا ما ألهموا قال الحسن البصري ألهمهم الله عز وجل ذلك وقال السدي كذب في قلوبهم ذلك ويحتمل أن يكون المراد وإذا أوحيت إليهم بواسطة فدعوتهم إلى الإيمان بالله وبرسوله واستجابوا لك وانقادوا وتابعوك فقالوا ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ . . .

قال أبو جعفر بن جرير . . . عن ابن عباس أنه كان يحدث عن عيسى أنه قال لبني إسرائيل هل لكم أن تصوموا لله ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيك ما سألتهم فإن أجر العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا يا معلم الخير قلت لنا إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً ففعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا حين نفرغ طعاماً فهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء؟ قال عيسى ﴿أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى إِنَّ مَرِيَمَ أَلَلَّهُمُ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ . قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَرْسَلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنَّ أَعَذَابَهُ عَذَاباً لَا أَعْذَابُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم كذا رواه ابن جرير . . . وقال ابن أبي حاتم . . . عن عمار بن ياسر عن النبي ﷺ قال نزلت المائدة من السماء عليها خبز ولحم وأمروا أن لا يخونوا ولا يرفعوا لغيرهم ولا يذبحوا ولا يفسخوا قردة وخنزير وكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن قزعة ثم رواه ابن جرير عن عمار قال نزلت المائدة وعليها ثمر من ثمار الجنة فأمرُوا أن لا يخونوا ولا يخبأوا ولا يذبحوا قال فخان القوم وخبأوا وادخروا فمسخهم الله قردة وخنزير . . . وقال ابن جرير . . . عن رجل من بني عجل قال صليت إلى جانب عمار بن ياسر فلما فرغ قال هل تدري كيف كان شأن مائدة بني إسرائيل؟ قال قلت لا قال إنهم سألوا عيسى ابن مريم مائدة يكون عليها طعام يأكلون منه لا ينفد قال فقيل لهم فإنها مقيمة لكم ما لم

الله في صغرك وكبرك فأنطقتك في المهد صغيراً فشهدت ببراءة أمك من كل عيب واعترفت لي بالعبودية وأخبرت عن رسالتني إليك ودعوت إلى عبادتي . . .

وقوله تعالى ﴿وَتَبَرَّئُ الْكَفَّةَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ قد تقدم الكلام عليه في سورة آل عمران بما أغنى عن إعادته وقوله ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ أي تدعوهم فيقومون من قبورهم بإذن الله وقدرته وإرادته ومشيتته وقد قال ابن أبي حاتم . . . عن أبي الهذيل قال كان عيسى ابن مريم إذا أراد أن يحيى الموتى صلى ركعتين يقرأ في الأولى ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الملك: ١] وفي الثانية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ [السجدة: ١، ٢] فإذا فرغ منهما مدح الله وأثنى عليه ثم دعا بسبعة أسماء يا قديم يا خفي يا دائم يا فرد يا وتر يا أحد يا صمد وكان إذا أصابته شديدة دعا بسبعة آخر يا حي يا قيوم يا الله يا رحمن يا ذا الجلال والإكرام يا نور السموات والأرض وما بينهما ورب العرش العظيم يا رب وهذا أثر عظيم جداً . وقوله تعالى ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك في كفي إياهم عنك حين جئتهم بالبراهين والحجج القاطعة على نبوتك ورسالتك من الله إليهم فكذبوك واتهموك بأنك ساحر وسعوا في قتلك وصلبك فنجيتك منهم ورفعتك إلي وطهرتك من دنسهم وكفيتك شرهم وهذا يدل على أن هذا الامتنان كان من الله إليه بعد رفعه إلى السماء أو يكون هذا الامتنان واقعاً يوم القيامة وعبر عنه بصيغة الماضي دلالة على وقوعه لا محالة وهذا من أسرار الغيوب التي أطلع الله عليها نبيه محمداً ﷺ .

وقوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّتَيْنِ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ وهذا أيضاً من الامتنان عليه، عليه السلام بأن جعل له أصحاباً وأنصاراً ثم قيل إن المراد بهذا الوحي وحي إلهام كما قال تعالى ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِي﴾ [القصص: ٧] وهو وحي إلهام بلا خلاف وكما قال تعالى ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الشَّجَرِ فَاسْلُكِي سَبِيلَ رَبِّكَ ذُلَّالًا﴾ [النحل: ٦٨-٦٩] وهكذا قال بعض السلف في هذه

تخبأوا أو تخونوا أو ترفعوا فإن فعلتم فإني معذبكم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين قال فما مضى يومهم حتى خبأوا ورفعوا وخنأوا فعذبوا عذاباً لم يعذبه أحد من العالمين وإنكم يا معشر العرب كنتم تتبعون أذناب الإبل والشاة فبعث الله فيكم رسولاً من أنفسكم تعرفون حسبه ونسبه وأخبركم أنكم ستظهرون على العجم ونهاكم أن تكتنزا الذهب والفضة وأيم الله لا يذهب الليل والنهار حتى تكتنزوهما ويعذبكم الله عذاباً أليماً. وقال حدثنا القاسم . . . عن إسحق ابن عبد الله أن المائدة نزلت على عيسى ابن مريم عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات يأكلون منها ما شاءوا قال فسرق بعضهم منها وقال لعلها لا تنزل غداً فرفعت، وقال العوفي عن ابن عباس نزل على عيسى ابن مريم والحواريين خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شاؤا. وقال خصيف عن عكرمة ومقسم عن ابن عباس كانت المائدة سمكة وأرغفة، وقال مجاهد هو طعام كان ينزل عليهم حيث نزلوا وقال أبو عبد الرحمن السلمي نزلت المائدة خبزاً وسمكاً وقال عطية العوفي المائدة سمك فيه طعم كل شيء وقال وهب بن منبه أنزلها من السماء على بني إسرائيل فكان ينزل عليهم في كل يوم في تلك المائدة من ثمار الجنة فأكلوا ما شاؤا من ضروب شتى فكان يقعد عليها أربعة آلاف وإذا أكلوا أنزل الله مكان ذلك لمثلهم فلبثوا على ذلك ما شاء الله عز وجل وقال وهب بن منبه نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات وحشا الله بين أضعافهن البركة فكان قوم يأكلون ثم يخرجون ثم يجيء آخرون فيأكلون ثم يخرجون حتى أكل جميعهم وأفضلوا. وقال الأعمش عن مسلم عن سعيد بن جبير أنزل عليها كل شيء إلا اللحم. وقال سفيان الثوري . . . عن ميسرة قال كانت المائدة إذا وضعت لبني إسرائيل اختلفت عليهم الأيدي بكل طعام إلا اللحم وعن عكرمة كان خبز المائدة من الأرز رواه ابن أبي حاتم. وقال ابن أبي حاتم . . . عن سلمان الخير أنه قال لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة كره ذلك جداً فقال اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ولا تسألوا المائدة من السماء فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم وإنما

هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية فابتلوا بها حتى كان بوارهم فيها، فأبوا إلا أن يأتيهم بها فلذلك ﴿ قَالُوا أُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَنَطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا ﴾ الآية فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود وجبة من شعر وعباءة من شعر ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا فالتصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه فلما رأى ذلك دعا الله فقال ﴿ اَللّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ فأنزل الله عليهم سفرة حمراء بين غماتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم وعيسى يبكي خوفاً من أجل الشروط التي أخذها الله عليهم فيها أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذاباً، لم يعذبه أحداً من العالمين، وهو يدعو الله في مكانه ويقول اللهم اجعلها رحمة لهم ولا تجعلها عذاباً، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني، إلهي اجعلنا لك شاكرين، اللهم إني أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضباً ورجزاً إلهي اجعلها سلامة وعافية ولا تجعلها فتنه ومثلة. فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يدي عيسى والحواريين وأصحابه حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط رخر عيسى والحواريون لله سجداً شكراً له لما رزقهم من حيث لم يحتسبوا، وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمراً عجيباً أورثهم كمداً وغماً، ثم انصرفوا بغضب شديد، وأقبل عيسى والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة فإذا عليها منديل مغطى فقال عيسى من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة وأوثقنا بنفسه وأحسننا بلاء عند ربه فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ونحمد ربنا ونذكر باسمه ونأكل من رزقه الذي رزقنا فقال الحواريون يا روح الله وكلمته أنت أولانا بذلك وأحقنا بالكشف عنها. فقام عيسى عليه

واحمدوا الله الذي أنزلها لكم فيكون مهنؤها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا أكلكم باسم الله واختموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيثته إذ نزلت من السماء لم ينقص منها شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرىء كل زمن أكل منها فلم يزلوا أغنياء أصحاباء حتى خرجوا من الدنيا، وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة، سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات. قال وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبل بنو إسرائيل إليها يسعون من كل مكان يراحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى ذلك جعلها نوباً بينهم تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا على ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غبا عند ارتفاع النهار فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم إلى جو السماء بإذن الله وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم قال فأوحى الله إلى نبيه عيسى عليه السلام أن اجعل رزقي في المائدة للفقراء واليتامى والزمنى دون الأغنياء من الناس، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس وغمطوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب الربانيين حتى قالوا لعيسى أخبرنا عن المائدة ونزلوها من السماء أحق فإنه قد ارتاب بها منا بشر كثير؟ فقال عيسى عليه السلام هل كنتم وإله المسيح طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة لكم ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم وشككنتم فيها فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله، فأوحى الله إلى عيسى إني آخذ المكذبين بشرطي فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين. قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين فلما كان في آخر الليل مسحهم الله خنازير فأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات، هذا أثر غريب

السلام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ثم بكى بكاء طويلاً ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس إلى السفرة وتناول المنديل وقال باسم الله خير الرازقين وكشف عن السفرة فإذا هو عليها بسمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها سيلاً قد تحديق بها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانيات. فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عيسى أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنقيير المسائل؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية. فقال له شمعون لا وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالاً يا ابن الصديقة فقال عيسى عليه السلام ليس شيء مما ترون من طعام الدنيا ولا من طعام الجنة إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة، فقال له كن فكان أسرع من طرفه عين، فكلوا مما سألتكم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فإنه بديع قادر شاکر، فقالوا يا روح الله وكلمته إنا نحب أن يرينا الله آية في هذه الآية فقال عيسى سبحان الله أما اكتفيتم بما رأيتم من هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى؟ ثم أقبل عيسى عليه السلام على السمكة فقال يا سمكة عودي بإذن الله حية كما كنت فأحيها الله بقدرة فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عيناها لها بصيص وعادت عليها بواسيرها ففزع القوم منها وانحاسوا فلما رأى عيسى منهم ذلك قال ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون، يا سمكة عودي بإذن الله كما كنت فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول، فقالوا يا عيسى كن أنت يا روح الذي تبدأ بالأكل منها ثم نحن بعد، فقال عيسى معاذ الله من ذلك. يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابه امتناع عيسى منها خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فلما رأى ذلك عيسى منهم دعا لها الفقراء والزمنى وقال كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم

وصوبه ابن جرير قال وكان ذلك حين رفعه إلى السماء واحتج ابن جرير على ذلك بمعنيين (أحدهما) أن الكلام بلفظ الماضي (والثاني) قوله: ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ﴾ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ ﴿. وهذان الدليلان فيهما نظر لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت ومعنى قوله ﴿إِنْ تَعَذَّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ الآية التبري منهم ورد المشيئة فهم إلى الله وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه كما في نظائر ذلك من الآيات والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر والله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة وقد روى بذلك حديث مرفوع رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز وكان ثقة قال سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دعي الأنبياء وأمهم ثم يدعى عيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرُ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ﴾ الآية ثم يقول ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فينكر أن يكون قال ذلك فيؤتى بالنصارى فيسألون فيقولون نعم هو أمرنا بذلك قال فيطول شعر عيسى عليه السلام فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده فيجاثيهم بين يدي الله عز وجل مقدار ألف عام حتى ترفع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار» وهذا حديث غريب عزيز . . .

﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة قال انطلقت أنا وسفيان الثوري إلى المغيرة بن النعمان فأملى على سفيان وأنا معه فلما قام انتسخت من سفيان فحدثنا قال سمعت سعيد بن جبيرة يحدث عن ابن عباس قال: قام فينا رسول الله ﷺ بموعظة فقال «يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله عز وجل حفاة عراة غرلا ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ ثُمَّ نُعِيدُهُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠٤] وإن أول الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال إنك لا تدري ما

جداً قطعه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة وقد جمعته أنا ليكون سياقه أتم وأكمل والله سبحانه وتعالى أعلم وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل أيام عيسى ابن مريم إجابة من الله لدعوته كما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية،

وقال قائلون إنها لم تنزل فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله أنزل علينا مائدة من السماء قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء . . .

وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم متواتراً ولا أقل من الآحاد والله أعلم ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت وهو الذي اختاره ابن جرير قال لأن الله تعالى أخبر بنزلها في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ قال ووعد الله ووعده حق وصدق وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم قد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر فبعث بها أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك باني جامع دمشق فمات وهي في الطريق فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده فرآها الناس فتعجبوا منها كثيراً لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود عليهما السلام فآله أعلم . . .

هذا أيضاً مما يخاطب الله به عبده ورسوله عيسى ابن مريم عليه السلام قائلاً له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمَّيَّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد هكذا قاله قتادة وغيره واستدل قتادة على ذلك بقوله تعالى ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ وقال السدي هذا الخطاب والجواب في الدنيا

أُحْدِثُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ فيقال إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم» ورواه البخاري عند هذه الآية عن أبي الوليد عن شعبة وعن محمد بن كثير عن سفيان الثوري كلاهما عن المغيرة بن النعمان به .

وقوله ﴿إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل فإنه الفعل لما يشاء الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله وعلى رسوله وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبا عجيب وقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ قام بها ليلة حتى الصباح يرددها .

قال الإمام أحمد... عن أبي ذر رضي الله عنه قال:

يَقُولُ تَعَالَى مُجِيباً لِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِيمَا أَنْهَاهُ إِلَيْهِ مِنَ التَّبَرِّي مِنَ النَّصَارَى الْمَلْحَدِينَ الْكَاذِبِينَ عَلَى اللَّهِ وَعَلَى رَسُولِهِ وَمِنْ رَدِّ الْمَشِيئَةِ فِيهِمْ إِلَى رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَعِنْدَ ذَلِكَ يَقُولُ تَعَالَى ﴿هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ﴾ قَالَ الضَّحَّاكُ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ يَقُولُ يَوْمَ يَنْفَعُ الْمَوْحِدِينَ تَوْحِيدَهُمْ ﴿لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ أَي مَآكِنٍ فِيهَا لَا يَحُولُونَ وَلَا يَزُولُونَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [التوبة: ٧٢] وَسَيَأْتِي مَا يَتَعَلَّقُ بِتِلْكَ الْآيَةِ مِنَ الْحَدِيثِ وَرَوَى ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ... عَنْ أَنَسٍ مَرْفُوعاً قَالَ:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيهِ «ثُمَّ يَتَجَلَّى لَهُمُ الرَّبُّ جَلَّ جَلَالُهُ فَيَقُولُ سَلُونِي سَلُونِي أُعْطِكُمْ - قَالَ - فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا فَيَقُولُ رِضَايَ أَحْلِكُمْ دَارِي وَأَنَا لَكُمْ كَرَامَتِي فَسَلُونِي أُعْطِكُمْ فَيَسْأَلُونَهُ الرِّضَا - قَالَ - فَيَشْهَدُهُمْ أَنَّهُ قَدْ رَضِيَ عَنْهُمْ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى» وَقَوْلُهُ ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ أَي هَذَا الْفَوْزُ الْكَبِيرُ الَّذِي لَا أَعْظَمُ مِنْهُ كَمَا قَالَ تَعَالَى ﴿لِيُثْلَ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾ [الصافات: ٦١] وَكَمَا قَالَ ﴿وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦]...

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد حدثني جسر بنت دجاجة أنها انطلقت معتمرة فانتهدت إلى الريدة فسمعت أبا ذر يقول قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء فصلى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه يصلي فجثت فقامت خلفه فأومأ إليّ بيمينه فقامت عن يمينه ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي وخلفه فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله فقام ثلاثتنا يصلي كل واحد منا بنفسه وتتلو من القرآن ما شاء الله أن تتلو وقام بآية من القرآن يرددها حتى صلى الغداة فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة فقال ابن مسعود بيده لا

الشوكاني ج ٢ ص ٩٠ - ٩٦

لك وتسهيله عليك وتيسيره لك، وقد تقدّم تفسير هذا مطولاً في البقرة فلا نعيده ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى﴾ من قبورهم فيكون ذلك آية لك عظيمة ﴿يَا ذِي﴾. وتكرير يا ذني في المواضع الأربعة للاعتناء بأن ذلك كله من جهة الله ليس لعيسى عليه السلام فيه فعل إلا مجرد امتثاله لأمر الله سبحانه. قوله ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ﴾ معطوف على «إذ تخرج» كففت معناه: دفعت وصرفت ﴿بَفَتْ إِسْرَءِيلَ عَنْكَ﴾ حين هموا بقتلك ﴿إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالمعجزات الواضحات ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي ما هذا الذي جئت به إلا سحر بين، لما عظم ذلك في صدرهم وانبهروا منه لم يقدروا على جرده بالكلية، بل نسبوه إلى السحر. قوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي﴾ هو معطوف على ما قبله، وقد تقدّم تفسير ذلك. والوحي في كلام العرب معناه الإلهام: أي ألهمت الحواريين وقذفت في قلوبهم؛ وقيل معناه: أمرتهم على السنة الرسل أن يؤمنوا بي بالتوحيد والإخلاص ويؤمنوا برسالة رسولي. قوله ﴿قَالُوا ءَأَمَّنَّا﴾ جملة مستأنفة كأنه قيل ماذا قالوا؟ فقال: قالوا آمنا ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي مخلصون للإيمان: أي واشهد يا رب، أو واشهد يا عيسى.

وقد أخرج عبد الرزاق عن مجاهد في قوله ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ﴾ [المائدة: ١٠٩] فيفزعون فيقولون ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ فترد إليهم أفندتهم فيعلمون. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن السدي في الآية قال: ذلك أنهم نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول، فلما سئلوا قالوا. لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر فشهدوا على قومهم. وأخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عباس قال: قالوا لا علم لنا فرقاً يذهل عقولهم، ثم يرد الله إليهم عقولهم فيكونون هم الذين يسألون بقول الله ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الاعراف: ٦] وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه وابن عساكر عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ «إذا كان يوم القيامة يدعى بالأنبياء وأمهم ثم يدعى بعيسى

قوله ﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ﴾ ذكره سبحانه نعمته عليه وعلى أمه مع كونه ذاكراً لها عالمياً بتفضل الله سبحانه بها لقصد تعريف الأمم بما خصهما الله به من الكرامة وميزهما به من علو المقام، أو لتأكيد الحجة وتبكيك الجاحد بأن منزلتهما عند الله هذه المنزلة وتوبيخ من اتخذهما إلهين ببيان أن ذلك الإنعام عليهما كله من عند الله سبحانه، وأنهما عبدان من جملة عباده منعم عليهما بنعم الله سبحانه ليس لهما من الأمر شيء. قوله ﴿إِذْ أَيْدُوكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ إذ ظرف للنعمة لأنها بمعنى المصدر: أي اذكر إنعامي عليك وقت تأييدي لك، أو حال من النعمة: أي كائنة ذلك الوقت ﴿أَيْدُوكَ﴾ قوتك مأخوذ من الأيد، وهو القوة. وفي روح القدس وجهان: أحدهما أنها الروح الطاهرة التي خصه الله بها، وقيل إنه جبريل عليه السلام، وقيل إنه الكلام الذي يحيي به الأرواح. والقدس: الطهر، وإضافته إليه لكونه سببه، وجملة ﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ مبنية لمعنى التأيد، و﴿فِي الْمَهْدِ﴾ في محل نصب على الحال: أي تكلم الناس حال كونك صبيّاً وكهلاً لا يتفاوت كلامك في الحالتين مع أن غيرك يتفاوت كلامه فيهما تفاوتاً بيناً. وقوله ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ﴾ معطوف على ﴿إِذْ أَيْدُوكَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك وقت تعليمي لك الكتاب: أي جنس الكتاب، أو المراد بالكتاب الخط. وعلى الأول يكون ذكر التوراة والإنجيل من عطف الخاص على العام، وتخصيصهما بالذكر لمزيد اختصاصه بهما: أما التوراة فقد كان يحتج بها على اليهود في غالب ما يدور بينه وبينهم من الجدال كما هو مصرح بذلك في الإنجيل، وأما الإنجيل فلكونه نازلاً عليه من عند الله سبحانه، والمراد بالحكمة جنس الحكمة: وقيل هي الكلام المحكم ﴿وَإِذْ خَلَقْنَا مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي تصوّر تصويراً مثل صورة الطير ﴿يَا ذِي﴾ لك بذلك وتيسيري له ﴿فَتَنْفُخُ﴾ في الهيئة المصوّرة ﴿فَتَكُونُ﴾ هذه الهيئة (طائراً) متحركاً حياً كسائر الطيور ﴿وَتَبْرِئُ الْأَكْمَامَ وَالْأَبْرَصَ﴾

اذعوا الإيمان والإسلام دعوى باطلة، ويردّه أن الحواريين هم خلاصاء عيسى وأنصاره كما قال ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَكَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] وقيل إن ذلك صدر ممن كان معهم، وقيل إنهم لم يشكوا في استطاعة الباري سبحانه، فإنهم كانوا مؤمنين عارفين بذلك، وإنما هو كقول الرجل: هل يستطيع فلان أن يأتي مع علمه بأنه يستطيع ذلك ويقدر عليه؛ فالمعنى: هل يفعل ذلك وهل يجيب إليه؟ وقيل إنهم طلبوا الطمأنينة كما قال إبراهيم عليه السلام ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُعْطِي الْمَوْتَى﴾ [البقرة: ٢٦٠]، ويدل على هذا قولهم من بعد ﴿وَتَطْمِئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ وأما على القراءة الأولى، فالمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك. . .

قوله ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ﴾ معطوف على ما قبله في محل نصب بعامله أو بعامل مقدّر هنا: أي اذكر. وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذا القول منه سبحانه هو يوم القيامة. والنكتة توبيخ عباد المسيح وأمه من النصارى. وقال السدي وقطرب: إنه قال له هذا القول عند رفعه إلى السماء لما قالت النصارى فيه ما قالت، والأول أولى: قيل ﴿وَإِذْ﴾ هنا بمعنى إذا كقوله تعالى ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزَعُوا﴾ [سبا: ٥١] أي إذا فزعوا، وقول أبي النجم:

ثم جزاه الله عني إذ جرى

جنات عدن في السموات العلى

أي إذا جرى، وقول الأسود بن جعفر الأسدي:

فالآن إذ هازلتهنّ فإنما

يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهباً

فيذكره نعمته عليه فيقرّ بها، فيقول: يا عيسى ابن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك الآية، ثم يقول أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله؟ فينكر أن يكون قال ذلك، فيؤتى بالنصارى فيسألون، فيقولون نعم هو أمرنا بذلك. فيطول شعر عيسى حتى يأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده، فيجاثيهم بين يدي الله مقدار ألف عام حتى يوقع عليهم الحجة ويرفع لهم الصليب وينطلق بهم إلى النار. وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جَعَلْتَهُمْ بَالِغِينَ﴾ أي بالآيات التي وضع على يديه من إحياء الموتى وخلقه من الطين كهيئة الطير وإبراء الأسقام والخبر بكثير من الغيوب. وأخرج ابن جرير عن السدي في قوله ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِجِ﴾ يقول قدذت في قلوبهم، وأخرج عبد بن حميد عن قتادة نحوه.

قوله ﴿وَإِذْ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ﴾ الظرف منصوب بفعل مقدر: أي اذكر أو نحوه كما تقدّم، قيل والخطاب لمحمد ﷺ. قرأ الكسائي «هل يستطيع» بالفوقية، ونصب ربك، وبه قرأ عليّ وابن عباس وسعيد ابن جبير ومجاهد، وقرأ الباقر بالتحية ورفع ربك. واستشكلت القراءة الثانية بأنه قد وصف سبحانه الحواريين بأنهم قالوا ﴿ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ والسؤال عن استطاعته لذلك ينافي ما حكوه عن أنفسهم. وأجيب بأن هذا كان في أول معرفتهم قبل أن تستحكم معرفتهم بالله، ولهذا قال عيسى في الجواب عن هذا الاستفهام الصادر منهم ﴿أَتَقْوُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي لا تشكوا في قدرة الله؛ وقيل إنهم

الألوسي ج ٧ ص ٥٦ - ٧٣

تفاصيل أحوال الباقيين، وتخصيص عيسى عليه السلام بالذكر لما أن شأنه عليه الصلاة والسلام متعلق بكلا فريقا أهل الكتاب المفرطين والمفرطين الذين نعت هذه السورة الكريمة جناباتهم فتفصيلهم أعظم عليهم وأجلب لحسراتهم، وإظهار الاسم الجليل لما مر. و﴿عِيسَى﴾ مبني عند الفراء ومتابعيه إما على ضمة مقدرة أو على فتحة كذلك إجراء له مجرى يا زيد بن عمرو في جواز ضم المنادى

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ﴾ [المائدة: ١٠٩] وقد نصب بإضمار اذكر، وقيل: في محل رفع على معنى ذاك إذ وليس بشيء، وصيغة الماضي لما مر آنفاً من الدلالة على تحقق الوقوع، والمراد بيان ما جرى بينه تعالى وبين فرد من الرسل المجموعين على التفصيل إثر بيان ما جرى بينه عز وجل وبين الكل على وجه الإجمال ليكون ذلك كالأنموذج على

النظم الكريم أبلغ من التصريح بالطفولية وأولى لأن الصغير يسمى طفلاً إلى أن يبلغ الحلم فلذا عدل عنه، والظرف في موضع الحال من ضمير «تكلم».

وجوز أن يكون ظرفاً للفعل. والجملة إما استئناف مبين لتأييده عليه الصلاة والسلام أو في موضع الحال من الضمير المنصوب في ﴿أَيَّدْتُكَ﴾ كما قال أبو البقاء. والمهد معروف. وعن الحسن أن المراد به حجر أمه عليهما السلام، وأنكر النصاري كلامه عليه الصلاة والسلام في المهد وقالوا إنما تكلم عليه السلام أو أن ما يتكلم الصبيان، وقد تقدم مع جوابه...

وقال بعض: الأولى أن يجعل ﴿وَكَهْلًا﴾ تشبيهاً بليغاً أي تكلمهم كائناً في المهد وكائناً كالكهل. وأنت تعلم أن أخذ التشبيه من العطف لا وجه له وتقدير الكاف تكلف ﴿وَإِذْ عَلَّمْتُكَ﴾ عطف على ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ أي واذكر نعمتي عليكما وقت تعليمي لك من غير معلم ﴿الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ أي جنسهما، وقيل: الكتاب الخط والحكمة الكلام المحكم الصواب ﴿وَالْأَنْبِيَاءَ﴾ خصاً بالذكر اظهاراً لشرفهما على الأول. ﴿وَلِأَنْتَ﴾ أي تصور ﴿مِنَ الْطِينِ﴾ أي جنسه ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ أي هيئة مثل هيئته ﴿يَاذُنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ أي في تلك الهيئة المشبهة ﴿فَتَكُونُ﴾ بعد نفخك من غير تراخ ﴿طَيْرًا يَأْذُنِي﴾ أي حيواناً يطير كسائر الطيور. وقرأ نافع ويعقوب (طائراً) وهو إما اسم مفرد وإما اسم جمع كباقر وسامر.

﴿وَتَبَرَّئُ الْآكُمَةَ وَالْأَبْرَصَ يَأْذُنِي﴾ عطف على ﴿تَخْلُقُ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى يَأْذُنِي﴾ عطف على ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ أعيدت فيه «إذ» كما قيل لكون إخراج الموتى من قبورهم لا سيما بعد ما صاروا رميماً معجزة باهرة حرية بتذكير وقتها صريحاً. وما في النظم الكريم أبلغ من تحيي الموتى فلذا عدل عنه إليه. وقد تقدم الكلام في بيان من أحياهم عليه الصلاة والسلام مع بيان ما ينفعك في هذه الآية في سورة آل عمران.

وذكر ﴿يَأْذُنِي﴾ هنا أربع مرات وثمة مرتين قالوا: لأنه هنا للامتنان وهناك للأخبار فناسب هذا التكرار هنا ﴿وَإِذْ

وفتحه عند الجمهور، وهذا إذا أعرب ابن صفة لعيسى، أما إذا أعرب بدلاً أو بياناً فلا يجوز تقدير الفتحة إجماعاً كما بين في كتب النحو، و«على» في قوله تعالى:

﴿أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ﴾ متعلقة بنعمتي جعل مصدراً أي اذكر إنعامي أو بمحذوف وقع حالاً من نعمة أن جعل اسماً أي اذكر نعمتي كائنة عليك إلخ، وعلى التقديرين يراد بالنعمة ما هو في ضمن المتعدد، وليس المراد كما قال شيخ الإسلام بأمره عليه السلام يومئذ بذكر النعمة المنتظمة في سلك التعدد تكليفه عليه السلام بشكرها والقيام بمواجبها ولات حين تكليف مع خروجه عليه السلام عن عهدة الشكر في أوامره أي خروج بل إظهار أمره عليه السلام بتعداد تلك النعم حسبما بينه الله تعالى اعتداداً بها وتلذذاً بذكرها على رؤوس الأشهاد وليكون حكاية ذلك على ما أنبأ عنه النظم الكريم توبيخاً للكفرة من الفريقين المختلفين في شأنه عليه السلام إفراطاً وتفریطاً وإبطالاً لقولهما جميعاً ﴿إِذْ أَيَّدْتُكَ﴾ ظرف لنعمتي أي اذكر أنعامي عليكما وقت تأييدي لكما أو حال منها أي اذكرها كائنة وقت ذلك، وقيل: بدل اشتغال منها وهو في المعنى تفسير لها.

وجوز أبو البقاء أن يكون مفعولاً به على السعة، وقرئ «أيدتك» بالمد ووزنه عند الزمخشري أفعلتك وعند ابن عطية فاعلتك، قال أبو حيان: ويحتاج إلى نقل مضارعه من كلام العرب فإن كان يؤايد فهو فاعل وإن كان يؤيد فهو أفعّل ومعناه ومعنى أيد واحد، وقيل: معناه بالمد القوة وبالتشديد النصر وهما - كما قيل - متقاربان لأن النصر قوة ﴿يُزْجِرُ الْقُدُسَ﴾ أي جبريل عليه السلام أو الكلام الذي يحيي به الدين ويكون سبباً للطهر عن أضرار الآثام أو تحيي بها الموتى أو النفوس حياة أبدية أو نفس روحه عليه السلام حيث أظهرها سبحانه وتعالى روحاً مقدسة طاهرة مشرفة نورانية علوية، وكون هذا التأيد نعمة عليه عليه الصلاة والسلام مما لا خفاء فيه، وأما كونه نعمة على والدته فلما ترتب عليه من براءتها مما نسب إليها وحاشاها وغير ذلك.

﴿تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ﴾ أي طفلاً صغيراً، وما في

والسلام وبين قومه منقطع عما قبله كما يشير إليه الإظهار في مقام الإضمار.

وجوز أن يكون ظرفاً لقالوا وفيه - على ما قيل حينئذ - تنبيه على أن ادعاءهم الإخلاص مع قولهم ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ لم يكن عن تحقيق منهم ولا عن معرفة بالله تعالى وقدرته سبحانه لأنهم لو حققوا وعرفوا لم يقولوا ذلك إذ لا يليق مثله بالمؤمن بالله عز وجل. وتعقب هذا القول السلبى بأنه خارق للإجماع. وقال ابن عطية لا خلاف أحفظه في أنهم كانوا مؤمنين. وأيد ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ﴾ وبأن وصفهم بالحواريين يناهى أن يكونوا على الباطل وبأن الله تعالى أمر المؤمنين بالتشبه بهم والاقتراء بسنتهم في قوله عز من قائل: ﴿كُونُوا أَصْنَارَ اللَّهِ﴾ [الصف: ١٤]. وبأن رسول الله ﷺ مدح الزبير «إن لكل نبي حوارياً وإن حوارى الزبير» والتزام القول بأن الحواريين فرقتان مؤمنون وهم خالصية عيسى عليه الصلاة والسلام والمأمور بالشبه بهم وكافرون وهم أصحاب المائدة، وسؤال عيسى عليه الصلاة والسلام نزول المائدة وإنزالها ليلزمهم الحجة يحتاج إلى نقل ولم يوجد. ومن ذلك أجيب عن الآية بأجوبة فقيل: إن معنى ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ﴾ هل يفعل كما تقول للقادر على القيام: هل تستطيع أن تقوم بمبالغة في التقاضي. ونقل هذا القول عن الحسن.

وانتعبير عن الفعل بالاستطاعة من التعبير عن المسبب بالسبب إذ هي من أسباب الإيجاد وعلى عكسه التعبير عن إرادة الفعل بالفعل تسمية للسبب الذي هو الإرادة باسم المسبب الذي هو الفعل في مثل قوله تعالى: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ إلخ [المائدة: ٦]. وقيل: إن المعنى هل يطيع ربك فيستطيع بمعنى يطيع ويطيع بمعنى يجب مجازاً ونقل ذلك عن السدي. وذكر أبو شامة أن النبي ﷺ عاد أبا طالب في مرض فقال له: يا ابن أخي ادع ربك أن يعافيني فقال: اللهم اشف عمي فقام كأنما نشط من عقال فقال: يا ابن أخي إن ربك الذي تعبد به يطيعك فقال: يا عم وأنت لو أطعته لكان يطيعك أي يجيبك لمقصودك وحسن استعماله ﷺ لذلك المشاكلة.

كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ ﴿يعني اليهود حين هموا بقتله ولم يتمكنوا منه.﴾

﴿إِذْ حِجَّتْهُمْ بِاللَّيْلِ﴾ أي المعجزات الواضحة مما ذكر وما لم يذكر وهو ظرف لكففت مع اعتبار قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرُ تُبَيْتُ﴾ وهو مما يدل على أنهم قصدوا اغتياله عليه الصلاة والسلام المحجوج إلى الكف أي كففتهم عنك حين قالوا ذلك عند مجيئك إليهم بالبينات، ووضع الموصول موضع ضميرهم لزمهم بما في حيز الصلة. فكلمة من بيانية وهذا إشارة إلى ما جاء به. وقرأ حمزة والكسائي «إلا ساحر» فالإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام، وجعل الإشارة إليه على القراءة الأولى وتأويل السحر بساحر لتتوافق القراءتان لا حاجة إليه ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ أي أمرتهم في الإنجيل على لسانك أو أمرتهم على السنة رسلي وجاء استعمال الوحي بمعنى الأمر في كلام العرب كما قال الزجاج وأنشد:

* الحمد لله استقلت *

* بإذنه السماء واطمأنت *

* أوحى لها القرار فاستقرت *

أي أمرها أن تقر فامتثلت، وقيل: المراد بالوحي إليهم الهامه تعالى إليهم كما في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ [النحل: ٦٨] ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِمْرَأَتِ مُوسَى﴾ [القصص: ١٧] وروي ذلك عن السدي، وقناة. وإنما لم يترك الوحي على ظاهره لأنه مخصوص بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والحواريون ليسوا كذلك، وقد تقدم المراد بالحواريين.

وأن قوله تعالى ﴿أَن آمَنُوا بِرِسُولِي﴾ مفسرة لما في الإيحاء من معنى القول، وقيل: مصدرية أي بأن آمنوا إلخ. وتقدم الكلام في دخولها على الأمر. والتعرض لعنوان الرسالة للتنبيه على كيفية الإيمان به عليه الصلاة والسلام والرمز إلى عدم إخراجهم عليه الصلاة والسلام عن حده خطأ ورفعاً ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ طبق ما أمرنا به ﴿وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ مخلصون في إيماننا أو منقادون لما أمرنا به.

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ منصوب بالذكر على أنه ابتداء كلام لبيان ما جرى بينه عليه الصلاة

وقيل: هذه الاستطاعة على ما تقتضيه الحكمة والإرادة فكأنهم قالوا: هل إرادة الله تعالى وحكمته تعلقت بذلك أولاً؟ لأنه لا يقع شيء بدون تعلقهما به.

واعترض بأن قوله تعالى الآتي: ﴿ أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ لا يلائمه لأن السؤال عن مثله مما هو من علوم الغيب لا قصور فيه. وقيل: إن سؤالهم للطمئنان والتثبت كما قال الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿ أَرِنِي كَيْفَ تَحْيِي الْمَوْتَى ﴾ [البقرة: ٢٦٠] ومعنى ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ إن كنتم كاملين في الإيمان والإخلاص. ومعنى ﴿ وَتَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ نعلم علم مشاهدة وعيان بعد ما علمناه علم إيمان وإيقان. ومن هذا يعلم ما يندفع به الاعتراض.

وقرأ الكسائي. وعلي كرم الله تعالى وجهه. وعائشة. وابن عباس. ومعاذ. وجماعة من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ﴿ هَلْ ﴾ تستطيع ربك بالتاء خطاباً لعيسى عليه الصلاة والسلام ونصب ﴿ رَبُّكَ ﴾ على المفعولية.

والأكثر على أن هناك مضافاً محذوفاً أي سؤال ربك أي هل تسأله ذلك من غير صارف. وعن الفارسي أنه لا حاجة إلى تقدير. والمعنى هل تستطيع أن ينزل ربك بدعائك. وأنت تعلم أن اللفظ لا يؤدي ذلك فلا بد من التقدير، والمائدة في المشهور الخوان الذي عليه الطعام من ماد يمد إذا تحرك أو من ماله بمعنى أعطاه فهي فاعلة إما بمعنى مفعولة كعيشة راضية، واختاره الأزهر في تهذيب اللغة أو بجعلها للتمكن مما عليها كأنها بنفسها معطية كقولهم للشجرة المثمرة. مطعمة. وأجاز بعضهم أن يقال فيها ميدة واستشهد عليه بقول الرازي:

وميدة كثيرة الألوان

تصنع للجيران والإخوان

واختار المناوي أن المائدة كل ما يمد ويسط، والمراد بها السفرة، وأصلها طعام يتخذه المسافر ثم سمي بها الجلد المستدير الذي تحمل به غالباً كما سميت المزايدة راوية. وجوز أن تكون تسمية الجلد المذكور سفرة لأن له معاليق متى حلت عنه انفرج فأسفر عما فيه. وهذا غير الخوان بضم الخاء وكسرهما وهو أفصح ويقال له: اخوان

بهمزة مكسورة لأنه اسم لشيء مرتفع يهيا ليؤكل عليه الطعام، والأكل عليه بدعة لكنه جائز إن خلا عن قصد التكبر وتطلق المائدة على نفس الطعام أيضاً كما نص عليه بعض المحققين، و﴿ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ يجوز أن يتعلق بالفعل قبله وأن يتعلق بمحذوف وقع صفة لمائدة أي مائدة كائنة من السماء ﴿ قَالَ ﴾ أي عيسى عليه الصلاة والسلام لهم حين قالوا ذلك: ﴿ أَتَقُوا اللَّهَ ﴾ من أمثال هذا السؤال واقتراح الآيات كما قال الزجاج. وعن الفارسي أنه أمر لهم بالتقوى مطلقاً. ولعل ذلك لتصير ذريعة لحصول المأمول فقد قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجاً ﴾ [الطلاق: ٢] وقال جل شأنه: ﴿ يَتْلُوهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥] ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ بكمال قدرته تعالى وبصحة نبوتي أو كاملين في الإيمان والإخلاص أو إن صدقتم في ادعاء الإيمان والإسلام ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ ﴾ أكل تبرك. وقيل: أكل تمتع وحاجة. والإرادة إما بمعناها الظاهر أو بمعنى المحبة أي نحب ذلك والكلام كما قيل تمهيد عذر وبيان لما دعاهم إلى السؤال أي لسنا نريد من السؤال إزاحة شبهتنا في قدرته سبحانه على تنزيلها أو في صحة نبوتك حتى يقدح ذلك في الإيمان والتقوى ولكن نريد إلخ أو ليس مرادنا اقتراح الآيات لكن مرادنا ما ذكر ﴿ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا ﴾ بازدياد اليقين كما قال عطاء ﴿ وَتَعْلَمَ ﴾ علم مشاهدة وعيان على ما قدمناه ﴿ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا ﴾ أي أنه قد صدقنا في ادعاء النبوة، وقيل: في أن الله تعالى يجيب دعوتنا، وقيل: فيما ادعيت مطلقاً.

﴿ وَتَكُونُ عَلَيْهِمَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ عند من لم يحضرها من بني إسرائيل ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة و يقيناً ويؤمن بسببها كفارهم أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر؛ وقيل: من الشاهدين لله تعالى بالوحدانية ولك بالنبوة.

﴿ عَلَيْهِمَا ﴾ متعلق بالشاهدين إن جعل اللام للتعريف أو بمحذوف يفسره من الشاهدين إن جعلت موصولة وجوزنا تفسير ما لا يعمل للعامل، وقيل: متعلق به، وفيه تقديم ما في حيز الصلة وحرف الجر وكلاهما ممنوع.

ونقل عن بعض النحاة جواز التقديم في الظرف، وعن بعضهم جوازه مطلقاً، وجوز أن يكون حالاً من اسم كان أي عاكفين عليها. وقرئ (يعلم) بالبناء للمفعول و(تعلم وتكون) بالتاء والضمير للقلوب.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأخرج الترمذي في نوادر الأصول وغيره عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أنه عليه الصلاة والسلام لما رأى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها قام فألقى عنه الصوف ولبس الشعر الأسود ثم توضأ واغتسل ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله تعالى فلما قضى صلاته قام قائماً مستقبلاً القبلة وصف قدميه حتى استويا فالصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع بالأصابع ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره وغض بصره وطأ رأسه خشوعاً ثم أرسل عينيه بالبكاء فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه فلما رأى ذلك دعا الله تعالى فقال: ﴿اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ ناداه سبحانه وتعالى مرتين على ما قيل مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات وأخرى بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهاراً لغاية التضرع ومبالغته في الاستدعاء وإنما لم يجعل نداء واحداً بأن يعرب ﴿رَبَّنَا﴾ بدلاً أو صفة لأنهم قالوا: إن لفظ ﴿اللَّهُمَّ﴾ لا يتبع وفيه خلاف لبعض النحاة.

وحذف حرف النداء في الأول وعوض عنه الميم وكذا في الثاني إلا أن التعويض من خواص الاسم الجليل أي يا الله يا ربنا ﴿أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً﴾ أي خوانا عليه طعام أو سفرة كذلك وتقديم الظرف على المفعول الصريح لما مر مراراً من الاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر. وقوله سبحانه وتعالى ﴿مَنْ السَّمَاءِ﴾ متعلق إما بانزل أو بمحذوف وقع صفة لمائدة أي كائنة من السماء والمراد بها إما المحل المعهود وهو المتبادر من اللفظ وإما جهة العلو، ويؤيد الأول ما أخرجه ابن حميد، وابن أبي حاتم عن عمار بن ياسر أن المائدة التي نزلت كان عليها من ثمر الجنة وكذا روي عن وهب بن منبه.

ويؤيد الثاني ما روي عن سلمان الفارسي من خبر

طويل أن المائدة لما نزلت قال شمعون رأس الحواريين لعيسى عليه الصلاة والسلام يا روح الله وكلمته أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: أما أن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات وتنتهوا عن تنكير المسائل ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بسبب هذه الآية فقال شمعون: لا وإله إسرائيل ما أردت بها سوء يا ابن الصديقة. فقال عيسى عليه الصلاة والسلام ليس شيء مما ترون عليها من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا إنما هو شيء ابتدعه الله تعالى في الهواء بالقدرة الغالبة القاهرة فقال له كن فكان في أسرع من طرفة عين فكلوا مما سألتهم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يمدكم منه ويزدكم فإنه بديع قادر شاکر، وقوله تعالى ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ صفة «مائدة» و«لنا» خبر كان و﴿عِيدًا﴾ حال من الضمير في الظرف أو في (تكون) على رأي من يجوز إعمالها في الحال، وجوز أن يكون ﴿عِيدًا﴾ الخبر و«لنا» حينئذ إما حال من الضمير في ﴿تَكُونُ﴾ أو حال من ﴿عِيدًا﴾ لأنه صفة له قدمت عليه والعيد العائد مشتق من العود ويطلق على الزمان المعهود لعوده في كل عام بالفرح والسرور، وعليه فلا بد من تقدير مضاف، والمعنى يكون نزولها لنا عيداً، ويطلق على نفس السرور العائد وحينئذ لا يحتاج إلى التقدير، وفي الكلام لطافة لا تخفي، وذكر غير واحد أن العيد يقال لكل ما عاد عليك في وقت، ومنه قول الأعشى:

فواكبدي من لاعج الحب والهوى

إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها
هو واو كما يبنىء عنه الاشتقاق ولكنهم قالوا في جمعه: أعياد وكان القياس أعواد لأن الجموع ترد الأشياء إلى أصولها كراهة الاشتباه - كما قال ابن هشام - بجمع عود، ونظر ذلك الحريري بقولهم وهو أليط بقلبي منك أي ألصق حبابه فإن أصله الواو لكن قالوا ذلك ليفرق بينه وبين قولهم هو ألوط من فلان، ولا يخفى أن هذا مخالف لما ذكره محققو أهل اللغة، وعن الكسائي يقال لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط وهو ألوط وأليط، ثم إنهم إنما لم يعكسوا الأمر في جمع عود وعيد فيقولوا في جمع الأول أعياد وفي جمع الثاني أعواد مع حصول التفرقة

ينظرونها. فإذا هي مغطاة بمنديل فقال عليه الصلاة والسلام: من أجرؤنا على كشفه وأوثقنا بنفسه وأخسنا بلاء عند ربه حتى نراها ونحمد ربنا سبحانه وتعالى ونأكل من رزقه الذي رزقنا؟ فقالوا: يا روح الله وكلمته أنت أولى بذلك فقام واستأنف وضوءاً جديداً ثم دخل مصلاه فصلى ركعات ثم بكى طويلاً ودعا الله تعالى أن يأذن له في الكشف عنها ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقاً ثم انصرف وجلس حول السفرة وتناول المنديل وقال: بسم الله خير الرازقين وكشف عنها فإذا عليها سمكة ضخمة مشوية ليس عليها بواسير وليس في جوفها شوك يسيل السمن منها قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث وعند رأسها خل وعند ذنبها ملح وحول البقول خمسة أرغفة على واحد منها زيتون وعلى الآخر تمرات وعلى الآخر خمس رمانات، وفي رواية على واحد منها زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن. وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فسأله شمعون عنها وأجابه بما تقدمت روايته.

ثم قالوا له عليه الصلاة والسلام؛ إنما نحب أن ترينا آية في هذه الآية فقال عليه السلام: سبحان الله تعالى أما اكتفيتم ثم قال: يا سمكة عودي بإذن الله تعالى حية كما كنت فأحيها الله تعالى بقدرته فاضطربت وعادة حية طرية تلمظ كما يتلمظ الأسد تدور عينها لها بصيص وعادت عليها بواسير ففرغ القوم منها وانحاشوا فقال عليه الصلاة والسلام لهم: ما لكم تسألون الآية فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ما أخوفني عليكم بما تصنعون يا سمكة عودي بإذن الله تعالى كما كنت مشوية ثم دعاهم إلى الأكل فقالوا: يا روح الله أنت الذي تبدأ بذلك فقال: معاذ الله تعالى يبدأ من طلبها فلما رأوا امتناع نبيهم عليه الصلاة والسلام خافوا أن يكون نزولها سخطة وفي أكلها مثلة فتحاموها فدعا عليه الصلاة والسلام لها الفقراء والزمنى، وقال: كلوا من رزق ربكم ودعوة نبيكم واحمدوا الله تعالى الذي أنزلها لكم ليكون مهنتها لكم وعقوبتها على غيركم وافتتحوا كلكم باسم الله واختتموه بحمد الله ففعلوا فأكل منها ألف وثلثمائة إنسان بين رجل وامرأة وصدروا منها وكل واحد منهم شبعان يتجشى ونظر عيسى عليه

أيضاً اعتباراً على ما قيل للأخف في الأكثر استعمالاً مع رعاية ظاهر المفرد، وقرأ عبد الله «تكن» بالجزم على جواب الأمر ﴿لَاؤَلَيْنَا وَآخِرِنَا﴾ أي لأهل زماننا ومن يجيء بعدنا. روي أنه نزلت يوم الأحد فلذلك اتخذه النصراني عيداً، وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن المعني يأكل منها أول الناس وآخرهم، والجار والمجرور عند بعض بدل من الجار والمجرور أعني «لنا»، وقال أبو البقاء إذا جعل «لنا» خبراً أو حالاً فهو صفة لـ «عيداً» وإن جعل صفة له كان هو بدلاً من الضمير المجرور بإعادة الجار، وظاهره أن المبدل منه الضمير لكن أعيد الجار لأن البدل في قوة تكرار العامل، وهو تحكم لأن الظاهر كما أشير إليه إبدال المجموع من المجموع، ثم إن ضمير الغائب يبدل منه وأما ضمير الحاضر فأجازه بعضهم مطلقاً وأجازه آخرون كذلك، وفصل قوم فقالوا إن أفاد توكيداً وإحاطة وشمولاً جاز وإلا امتنع.

واستظهر بعضهم على قول الخبر أن يكون «لنا» خبراً أي قوتاً أو نافعة لنا. وقرأ زيد، وابن محيصن، والجحدري ﴿لَاؤَلَيْنَا وَآخِرِنَا﴾ بتأنيث الأول والآخر باعتبار الأمة والطائفة، وكون المراد بالأولى والأخرى الدار الأولى أي الدنيا والدار الأخرى أي الآخرة مما لا يكاد يصح ﴿وَأَيَّةٌ﴾ عطف على ﴿عِيدًا﴾، وقوله سبحانه وتعالى: ﴿مِنْكَ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة له أي آية كائنة منك دالة على كمال قدرتك وصحة نبوتي...

وروي أن عيسى عليه الصلاة والسلام لما سأله قومه ذلك فدعا أنزل الله تعالى عليهم سفرة حمراء بين غماتين غمامة فوقها وغمامة تحتها وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من السماء تهوي إليهم وعيسى عليه الصلاة والسلام يبكي خوفاً من الشرط الذي اتخذ عليهم فيها فما زال يدعو حتى استقرت السفرة بين يديه والحواريون حوله يجدون رائحة طيبة لم يجدوا رائحة مثلها قط وخر عيسى عليه الصلاة والسلام والحواريون سجداً شكرياً لله تعالى وأقبل اليهود ينظرون إليهم فرأوا ما يغضبهم ثم انصرفوا فأقبل عيسى عليه الصلاة والسلام ومن معه

العامل على من عمل له ففعلوا ثم قالوا؛ يا معلم الخير قلت لنا: إن أجر العامل على من عمل له وأمرتنا أن نصوم ثلاثين يوماً فلعلنا ولم نكن نعمل لأحد ثلاثين يوماً إلا أطعمنا ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ فأقبلت الملائكة تطير بمائدة من السماء عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة حتى وضعتها بين أيديهم فأكل منها آخر الناس كما أكل أولهم. وجاء عنه أن المائدة كانت تنزل عليهم حيث نزلوا، وعن وهب بن منبه أن المائدة كان يقعد عليها أربعة آلاف فإذا أكلوا شيئاً أبدل الله تعالى مكانه مثله فلبثوا بذلك ما شاء الله عز وجل ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ عِطْفَ عَلَى﴾ ﴿إِذْ قَالَ الْخَوَارِثُ﴾ منصوب بما نصبه من الفعل المضمر أو بمضمر مستقل معطوف على ذلك. وصيغة الماضي لما مضى. والمراد يقول له عليه الصلاة والسلام: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأَتَمِّ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يوم القيامة توبيخاً للكفرة وتبكيته لهم بإقراره عليه الصلاة والسلام على رؤوس الإشهد بالعبودية وأمرهم بعبادته عز وجل.

وقيل: قاله سبحانه له عليه الصلاة والسلام في الدنيا وكان ذلك بعد الغروب فصلى عليه الصلاة والسلام المغرب ثلاث ركعات شكراً لله تعالى حين خاطبه بذلك، وكان الأولى لنفي الألوهية عن نفسه. والثانية لنفيها عن أمه. والثالثة لإثباتها لله عز وجل. فهو عليه الصلاة والسلام أول من صلى المغرب ولا يخفى أن ما سيأتي إن شاء الله تعالى في الآيات يأبى ذلك ولا يصح أيضاً خبر فيه. ثم إنه ليس مدار أصل الكلام عند بعض المحققين أن القول متيقن والاستفهام لتعيين القائل كما هو المتبادر من إيلاء الهمزة المبتدأ على الاستعمال المشهور وعليه قوله تعالى ﴿أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِإِلهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٦٢] ونحوه بل على أن المتيقن هو الاتخاذ. والاستفهام لتعيين أنه بأمره عليه الصلاة والسلام أو أمر من تلقاء أنفسهم كما في قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَصْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ صَلُّوا السَّيِّلَ﴾ [الفرقان: ١٧] وقال بعض: لما كان القول قد وقع من رؤسائهم في الضلال كان مقررراً كالاتخاذ

السلام والحواريون ما عليها فإذا ما عليها كهيته إذ نزلت من السماء لم ينتقص منه شيء ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون فاستغنى كل فقير أكل منها وبرى كل زمن منهم أكل منها فلم يزلوا أغنياء صحاحاً حتى خرجوا من الدنيا وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة سالت منها أشفارهم وبقيت حسرتها في قلوبهم، وكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون فزاحم بعضهم بعضاً الأغنياء والفقراء والنساء والصغار والكبار والأصحاء والمرضى يركب بعضهم بعضاً فلما رأى عيسى عليه الصلاة والسلام ذلك جعلها نوباً بينهم فكانت تنزل يوماً ولا تنزل يوماً فلبثوا في ذلك أربعين يوماً تنزل عليهم غبا عند ارتفاع الضحى فلا تزال موضوعة يؤكل منها حتى إذا قالوا ارتفعت عنهم ياذن الله تعالى إلى جو السماء وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام أن اجعل رزقي لليتامي والمساكين والزمنى دون الأغنياء من الناس فلما فعل الله تعالى ذلك ارتاب بها الأغنياء وغمصوا ذلك حتى شكوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر وأدرك الشيطان منهم حاجته وقذف وسواسه في قلوب المرتابين فلما علم عيسى عليه السلام ذلك منهم قال: هلكتم وإله المسيح سألتكم نبيكم أن يطلب المائدة لكم إلى ربكم فلما فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقاً وأراكم فيها الآيات والعبر كذبتم بها وشككتكم فيها فأبشروا بالعذاب فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله تعالى وأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام إنني آخذ المكذبين بشرطي وإنني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين فلما أمسى المرتابون وأخذوا مضاجعهم في أحسن صبورة مع نسائهم آمنين وكان آخر الليل مسخهم الله تعالى خنازير وأصبحوا يتبعون الأقدار في الكناسات.

وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام قال لبني إسرائيل: هل لكم أن تصوموا ثلاثين يوماً ثم تسألوه فيعطيك ما سألتكم فإن أجر

الله تعالى بل هما خلقاها فصيح أنهم اتخذوهما في حق بعض الأشياء إلهين مستقلين ولم يتخذوه إلهاً في حق ذلك البعض، ولا يخفي أن الأول كالمتمتعين وإليه أشار العلامة ونص على اختياره شيخ الإسلام.

واستشكلت الآية بأنه لا يعلم أن أحداً من النصارى اتخذ مريم عليها السلام إلهاً. وأجيب عنه بأجوبة. الأول أنهم لما جعلوا عيسى عليه الصلاة والسلام إلهاً لزمهم أن يجعلوا والدته أيضاً كذلك لأن الولد من جنس من يلد فذكر ﴿إِلَهَيْنِ﴾ على طريق الإلزام لهم. والثاني أنهم لما عظموها تعظيم الإله أطلق عليها اسم الإله كما أطلق اسم الرب على الأحرار والرهبان في قوله تعالى: ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارُهُمْ وَرُهْبَانُهُمْ أَرْبَابًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] لما أنهم عظموهم تعظيم الرب. والثنية حينئذ على حد - القلم أحد اللسانين - . والثالث إنه يحتمل أن يكون فيهم من قال بذلك. ويعضد هذا القول ما حكاه أبو جعفر الإمامي عن بعض النصارى أنه قد كان فيما مضى قوم يقال لهم: المريمية يعتقدون في مريم أنها إله. وهذا كما كان في اليهود قوم يعتقدون أن عزيراً ابن الله عن اسمه وهو أولى الأوجه عندي. وما قرره الزاعم من أن النصارى يعتقدون إلخ غير مسلم في نصارى زماننا ولم ينقله أحد ممن يوثق به عنهم أصلاً. وإظهار الاسم الجليل لكونه في حيز القول المسند إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من صدر الكلام وهو ظاهر. وفي بعض الآثار أنه عليه الصلاة والسلام حين يقول له الرب عز وجل ما يقول ترتعد مفاصله وينفجر من أصل كل شعرة من جسده عين من دم خيفة من ربه جلّت عظمته، وفي بعضها أنه عليه الصلاة والسلام يرتعد خوفاً ولا يفتح له باب الجواب خمسمائة عام ثم يلهمه الله تعالى الجواب بعد فيقول: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ أي تنزيهاً لك من أن أقول ذلك أو يقال في حقك كما قدره ابن عطية، وقدره بعضهم من أن يكون لك شريك فضلاً من أن يتخذ إلهان دونك، وآخرون من أن تبث رسولاً يدعي ألوهية غيرك ويدعو إليها ويكفر بنعمتك، والأول أوفق بسياق النظم الكريم. وسبحان على سائر التقادير - على

فلاستفهام لتعيين من صدر منه فلذا قدم المسند إليه، وقيل: التقديم لتقوية النسبة لأنها بعيدة عن القبول بحيث لا تتوجه نفس السامع إلى أن المقصود ظاهرها حتى يجيب على طبقه فاحتاجت إلى التقوية حتى يتوجه إليها المستفهم عنها، وفيه كمال توبيخ الكفرة بنسبة هذا القول إليه، وفي قوله ﴿أَتُخَذُونِي وَآمِنِي﴾ دون واتخذوني ومريم توبيخ على توبيخ كأنه قيل: أأنت قلت ما قلت مع كونك مولوداً وأمك والدة والإله لا يلد ولا يولد.

وأنت تعلم أن في ندائه عليه الصلاة والسلام على الكيفية المذكورة إشارة إلى إبطال ذلك الاتخاذ. ولام (للناس) للتبليغ، والاتخاذ إما متعد لاثنتين فإليه مفعوله الأول و ﴿إِلَهَيْنِ﴾ مفعوله الثاني وإما متعد لواحد فاللهين حال من المفعول و ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ حال من فاعل الاتخاذ أي متجاوزين الله تعالى أو صفة لإلهين أي كائنين من دون الله تعالى أي غيره منضمّاً إليه سبحانه فالله تعالى إله وهما بزعم الكفرة إلهان فالمراد اتخاذهما بطريق اشتراكهما معه عز وجل. وهذا كما في قوله تعالى ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ إلى قوله ﴿سُبْحَانَكَ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] وأيد ذلك بأن التوبيخ والتبكيك إنما يتأتى بذلك.

وقال الراغب: إن ظاهر ذلك القول استقلالهما عليهما الصلاة والسلام بالألوهية وعدم اتخاذ الله سبحانه وتعالى معهما إلهاً ولا بد من تأويل ذلك لأن القوم ثلثوا والعباد بالله تعالى فإما أن يقال: إن من أشرك مع الله سبحانه غيره فقد نفاه معنى لأنه جل شأنه وحده لا شريك له ويكون إقراره بالله تعالى كلاً اقرار. وحينئذ يكون ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ مجازاً عن مع الله تعالى أو يقال: إن المراد بمن دون الله التوسط بينهما وبينه عز شأنه فيكون الدون إشارة لقصور مرتبتهما عن مرتبته جل جلاله لأنهم قالوا: هو عز اسمه كالشمس وهما كشعاها.

وزعم بعضهم أن المراد اتخاذهما بطريق الاستقلال. ووجهه أن النصارى يعتقدون أن المعجزات التي ظهرت علي يدي عيسى، وأمه عليهما الصلاة والسلام لم يخلقها

إطلاقات فتطلق على ذات الشيء وحقيقته وعلى الروح وعلى القلب وعلى الدم وعلى الإرادة، قيل: وعلى العين التي تصيب وعلى الغيب وعلى العقوبة. ويفهم من كلام البعض أنها حقيقة في الإطلاق الأولى مجاز فيما عداه، وفسر غير واحد النفس هنا بالقلب، والمراد تعلم معلومي الذي أخفيه في قلبي فكيف بما أعلنه ولا أعلم معلومك الذي تخفيه وسلك في ذلك مسلك المشاكلة كما في قوله:

قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبعه

قلت اطبخوا لي جبة وقميصاً

إلا أن ما في الآية كلا اللفظين وقع في كلام شخص واحد وما في البيت ليس كذلك. وفي الدر المصون أن هذا التفسير مروى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وحكاه عنه أيضاً في مجمع البيان. وفسرها بعضهم بالذات وادعى أن نسبتها بهذا المعنى إلى الله تعالى لا تحتاج إلى القول بالمشاكلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] ﴿وَيَحْذَرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾ [آل عمران: ٣٠] وقوله ﷺ: «أقسم ربي على نفسه أن لا يشرب عبد خمراً ولم يتب إلى الله تعالى منه إلا سقاه من طينة الخبال» وقوله عليه الصلاة والسلام: «ليس أحد أحب إليه المدح من الله عز وجل ولأجل ذلك مدح نفسه» وقوله ﷺ: «سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه» إلى غير ذلك من الأخبار.

وقال المحقق الشريف في شرح المفتاح. وغيره: إن لفظ النفس لا يطلق عليه تعالى وأن أريد به الذات إلا مشاكلة وليس بشيء لما علمت من الآيات والأحاديث، وادعاء أن ما فيها مشاكلة تقديرية كما قيل ذلك في قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨] لا يخفى أنه من سقط المتاع فالصحيح المعول عليه جواز إطلاقها بمعنى الذات على الله تعالى من غير مشاكلة، نعم قيل: إن لفظ النفس في هذه الآية وإن كان بمعنى الذات لا بد معه من اعتبار المشاكلة لأن لا أعلم ما في ذاتك ليس بكلام مرضي فيحتاج إلى حمله

أحد الأقوال فيه وقد تقدمت - علم للتسبيح وانتصابه على المصدرية ولا يكاد يذكر ناصبه. وفيه من المبالغة في التنزيه من حيث الاشتقاق من السبح وهو الابعاد في الأرض والذهاب، ومن جهة النقل إلى صيغة التفعيل والعدول عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصة المشير إلى الحقيقة الحاضرة في الذهن وإقامته مقام المصدر مع الفعل ما لا يخفى.

وقوله سبحانه ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾

استئناف مقرر للتنزيه ومبين للمنزه عنه وما الثانية سواء كانت موصولة أو نكرة موصوفة مفعول ﴿أَقُولُ﴾ والمراد بها على التقديرين القول المذكور أو ما يعمه وغيره ويدخل فيه القول المذكور دخولاً أولاً ونصب القول للمفردات نحو الجملة والكلام والشعر مما لا شك في صحته كنصبه الجمل الصريحة فلا حاجة إلى تفسير أقول بأذكر كما يتوهم. واسم ليس ضمير عائد إلى ما و(بحق) خبره، والجار والمجرور فيما بينهما للتيين فيتعلق بمحذوف كما في سقيا لك وإيثار ليس على الفعل المنفي على ما يحق لي لظهور دلالاته على استمرار انتفاء الحقيقة وإفادة التأكيد بما في خبره من الباء المطرد زيادتها في خبر ليس.

ومعنى ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي لا ينبغي ولا يليق وهو أبلغ من لم أقله فلذا أوثر عليه: والمراد لا ينبغي أن أقول قولاً لا يحق لي قوله أصلاً في وقت من الأوقات، وجوز أبو البقاء أن يكون (لي) خبر ليس و(بحق) في موضع الحال من الضمير في الجار والعامل فيه ما فيه من معنى الاستقرار وأن يكون متعلقاً بفعل محذوف على أنه مفعول له والباء للسمية أي ما ليس يثبت لي بسبب حق. وأن يكون خبر ليس و(لي) صفة حق قدم عليه فصار حالاً، وهذا مخرج على رأي من أجاز تقديم حال المجرور عليه، وقيل: إن (لي) متعلق بحق وهو الخبر. وهو أيضاً مبني على قول بعض النحاة المجوز تقديم صلة المجرور على الجار. والجمهور على عدم الجواز. . .

فقوله جل شأنه: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ بيان للواقع وإظهار لقصوره عليه السلام، وللنفس في كلامهم

* أمرك الخير فافعل ما أمرت به *

فكذا ما أول به لأنه - كما قال ابن هشام - لا يلزم من تأويل شيء بشيء أن يتعدى تعديته كما صرحوا به لأن التعدية تنظر إلى اللفظ. نعم قيل في جعل أن مفسرة بفعل الأمر المذكور صلته نحو أمرك بهذا أن قم نظر أما في طريق القياس فلأن أحدهما مغن عن الآخر. وأما في الاستعمال فلأنه لم يوجد. ونظر فيما ذكر في طريق القياس لأن الأول لا يغني عن الثاني والثاني لا يغني عن الأول وللتفسير بعد الإبهام شأن ظاهر. وادعى ابن المنير أن تأويل هذا القول بالأمر كلفة لا طائل وراءها وفيه نظر.

وجوز إبقاء القول على معناه ﴿إِنْ أَعْبُدُوا﴾ إما خبر لمضمر أي هو أن اعبدوا أو منصوب باعبدوني مقدراً، وقيل: عطف بيان للضمير في (به)، واعتراض بأنه صرح في المغني بأن عطف البيان في الجوامد بمنزلة النعت في المشتقات فكما أن الضمير لا ينعت لا يعطف عليه عطف بيان، وأجيب بأن ذلك من المختلف فيه وكثير من النحاة جوزوه. وما في المغني قد أشار شراحه إلى رده، وقيل: بدل من الضمير بدل كل من كل. ورد الزمخشري في الكشف بأن المبدل منه في حكم التنحية والطرح فيلزم خلو الصلة من العائد بطرحه، وأجيب عنه بأن المذهب المنصور أن المبدل منه ليس في حكم الطرح مطلقاً بل قد يعتبر طرحه في بعض الأحكام كما إذا وقع مبتدأ فإن الخبر للبدل نحو زيد عينه حسنة ولا يقال حسن. وقد يقال أيضاً إنه ليس كل مبدل منه كذلك بل ذلك مخصوص فيما إذا كان البدل بدل غلط، وأجاب بعضهم بأنه وإن لزم خلو الصلة من العائد بالطرح لكن لا ضمير فيه لأن الاسم الظاهر يقوم مقامه كما في قوله:

* وأنت الذي في رحمة الله أطمع *

ولا يخفى أن في صحة قيام الظاهر هنا مقام الضمير خلافاً لهم، وجوز أن يكون بدلاً من ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، واعتراض بأن (ما) مفعول القول ولا بد فيه أن يكون جملة محكية أو ما يؤدي مؤداها أو ما أريد لفظه وإذا كان العبادة بدلاً كانت مفعول القول مع أنها ليست واحداً من هذه الأمور فلا يقال: ما قلت لهم إلا العبادة، وفي الانتصاف

على المشاكلة بأن يكون المراد لا أعلم معلوماتك فعبر عنه بلا أعلم ما في نفسك لوقوع التعبير عن تعلم معلومي بتعلم ما في نفسي.

وعلى ذلك حمل العلامة الثاني كلام صاحب الكشف ولا يخفى ما فيه، والتحقيق أن الآية من المشاكلة إلا أنها ليست في إطلاق النفس بل في لفظ (في) فإن مفادها بالنظر إلى ما في نفس عيسى عليه السلام الارتسام والانتقاش ولا يمكن ذلك نظراً إلى الله تعالى. وإلى هذا يشير كلام بعض المحققين ومنه يعلم ما في كتب الأصول من الخبط في هذا المقام، وقال الراغب: يجوز أن يكون القصد إلى نفي النفس عنه تعالى فكأنه قال: تعلم ما في نفسي ولا نفس لك فاعلم ما فيها كقول الشاعر:

* ولا ترى الضب بها ينحجر *

وهو على بعده مما لا يحتاج إليه. ومثله ما ذكره بعض الفضلاء من أن النفس الثانية هي نفس عيسى عليه السلام أيضاً، وإنما أضافها إلى ضمير الله تعالى باعتبار كونها مخلوقة له سبحانه كآله قال: تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما فيها ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ تقرير لمضمون الجملتين منطوقاً ومفهوماً لما فيه من الحصر ومدلوله الإثبات فيقرر ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب ويلزمه النفي فيقرر لا أعلم ما في نفسك لأنه غيب أيضاً، ومدلول النفي أنه لا يعلم الغيب غيره تعالى شأنه.

وقوله تعالى: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ استئناف - كما قال شيخ الإسلام - مسوق لبيان ما صدر عنه عليه السلام قد أدرج فيه عدم صدور القول المذكور عنه على أبلغ وجه وأكده حيث حكم بانتفاء صدور جميع الأقوال المغايرة للمأمور به فدخل فيه انتفاء صدور القول المذكور دخولاً أولياً. والمراد عند البعض ما أمرتهم إلا بما أمرتني به إلا أنه قيل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولاً على قضية حسن الأدب لئلا يجعل ربه سبحانه ونفسه معاً أمرين ومراعاة لما ورد في الاستفهام. ودل على ذلك بإقحام أن المفسرة في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

ولا يرد أن الأمر لا يتعدى بنفسه إلى المأمور به إلا قليلاً كقوله:

الصائغ وجعله نظير قوله تعالى: ﴿إِنَّا قُلْنَا لَكَاسِيحَ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] على رأي. وفي أمالي ابن الحاجب إذا حكى حاك كلاماً فله أن يصف المخبر عنه بما ليس في كلام المحكى عنه، واستبعد ذلك الحلبي والسفاسي وهو الذي يقتضيه الإنصاف.

وقيل على الأول: إن بعضهم أجاز وقوع أن المفسرة بعد لفظ القول ولم يقتصر بها على ما في معناه فيقع حيثئذ مفسراً له لكن أنت تعلم أنه لا ينبغي الاختلاف في أنه لا يقرن المقول المحكي بحرف التفسير لأن مقول القول في محل نصب على المفعولية والجملة المفسرة لا محل لها فلعل مراد البعض مجرد الوقوع والتزام أن المقول محذوف وهو المحكي وهذا تفسير له أي ما قلت لهم مقولاً فتدبر فقد انتشرت كلمات العلماء هنا.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً﴾ أي رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك من غير واسطة ومشاهد لأحوالهم من إيمان وكفر، (عليهم) كما قال أبو البقاء متعلق بشهيداً، ولعل التقديم لما مر غير مرة ﴿مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي مدة دوامي فيما بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي قبضتني بالرفع إلى السماء كما يقال توفيت المال إذا قبضته. وروي هذا عن الحسن وعليه الجمهور.

وعن الجبائي أن المعنى أمتن وادعى أن رفعه عليه السلام إلى السماء كان بعد موته وإليه ذهب النصارى وقد مر الكلام في ذلك ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي الحفيظ المراقب فمنعت من أردت عصمته عن المخالفة بالإرشاد إلى الدلائل والتنبيه عليها بإرسال الرسول وإنزال الآيات وخذلت من خذلت من الضالين فقالوا ما قالوا، وقيل: المراد بالرقيب المطلع المشاهد، ومعنى الجملتين إني ما دمت فيهم كنت مشاهداً لأحوالهم فيمكن لي بيانها فلما توفيتني كنت أنت المشاهد لذلك لا غيرك فلا أعلم حالهم ولا يمكنني بيانها، ولا يخفى أن الأول أوفق بالمقام، وقد نص بعض المحققين أن الرقيب والشهيد هنا بمعنى واحد وهو ما فسر به الشهيد أولاً ولكن تفنن في العبارة ليميز بين الشهيد والرقيبين لأن كونه عليه الصلاة والسلام رقيباً ليس كالرقيب الذي يمنع ويلزم بل كالشاهد

أن العبادة وإن لم تقل فالأمر بها يقال وأن الموصولة بفعل الأمر يقدر معها الأمر فيقال هنا ما قلت لهم: إلا الأمر بالعبادة ولا ريب في صحته لأن الأمر مقول بل قول على أن جعل العبادة مقولة غير بعيد على طريقة ﴿ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا﴾ [المجادلة: ٣] أي الوطن الذي قالوا قولاً يتعلق به وقوله تعالى: ﴿وَرِثْتُمْ مَا يَقُولُ﴾ [مريم: ٨٠] ونحو ذلك، وفي الفوائد أن المراد ما قلت لهم إلا عبادته أي الزموا عبادته فيكون هو المراد من ﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ ويصح كون هذه الجملة بدلاً من ما أمرتني به من حيث إنها في حكم المراد لأنها مقولة و﴿مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ مفرد لفظاً وجملة معنى ولا يخلو عن تعسف، وجوز إبقاء القول على معناه وأن مفسرة إما لفعل القول أو لفعل الأمر، واعتراض بأن فعل القول لا يفسر بل يحكى به ما بعده من الجمل ونحوها وبأن فعل الأمر مسند إلى الله تعالى وهو لا يصح تفسيره بعبادوا الله ربي وربكم بل بعبادوني أو عبدوا الله ونحوه، وأجيب عن هذا بأنه يجوز أن يكون حكاية بالمعنى كأنه عليه السلام حكى معنى قول الله عز وجل عبارة أخرى وكان الله تعالى قال له عليه السلام: مرهم بعبادتي أو قال لهم على لسان عيسى عليه السلام: اعبدوا الله رب عيسى وربكم فلما حكاها عيسى عليه السلام قال: ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فكنى عن اسمه الظاهر بضميره كما قال الله تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى﴾ [طه: ٥٢، ٥٣] فإن موسى عليه السلام لا يقول فاخرجنا بل فاخرج الله تعالى لكن لما حكاها الله تعالى عنه عليه السلام رد الكلام إليه عز شأنه وأضاف الإخراج إلى ذاته عز وجل على طريقة المتكلم لا الحاكي وإن كان أول الكلام حكاية. ومثله قوله تعالى: ﴿لَيَقُولَنَّ خَلَقْنَاهُ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩] إلى قوله سبحانه: ﴿فَأَنْشَرْنَاهُ بِهِ بَلَدَ مَمْنُونًا﴾ إلى غير ذلك.

وقال أبو حيان: يجوز أن يكون المفسر ﴿أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ويكون ﴿رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ من كلام عيسى عليه السلام على إضمار أعني لا على الصفة ﷺ عز اسمه واعتمده ابن

﴿وَأَنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَاِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي فإن تغفر لهم ما كان منهم لا يلحقك عجز بذلك ولا استقبح فإنك القوي القادر على جميع المقدورات التي من جملتها الثواب والعقاب الحكيم الذي لا يريد ولا يفعل إلا ما فيه حكمة، والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات أخرى، وعدم المغفرة للكافر بحكم النص والإجماع لا للامتناع الذاتي فيه ليمتنع التردد والتعليل بأن.

القاسمي ج ٦ ص ٤٢٥ - ٤٤٣

غلط القوم وقالوا ذلك قبل استحكام الإيمان والمعرفة في قلوبهم. وكانوا بشراً، فقالوا هذه المقالة. فرد عليهم غلطهم بقوله ﴿قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يعني اتقوا الله أن تشكوا في قدرته.

والقول الأول أصح. انتهى.

وعليه فمعنى ﴿اتَّقُوا اللَّهَ﴾ من أمثال هذا السؤال، وأن توقفوا إيمانكم على رؤية المائدة إن كنتم به وبرسالي (مؤمنين) فإن الإيمان مما يوجب التقوى والاجتناب عن أمثال هذه الاقتراحات.

لطيفة: في المائدة قولان: الأول - أنها الطعام نفسه، من (ماد) إذا أفضل. كما في (اللسان) وهذا القول جزم به الأخفش وأبو حاتم. أي: وإن لم يكن معه خوان. كما في (التقريب) و(اللسان) وصرح به ابن سيده في (المحكم).

قال الفارسي: والآية صريحة فيه، قاله أرباب التفسير والغريب. والثاني - أنها الخوان عليه الطعام. قال الفارسي: لا تسمى مائدة حتى يكون عليها طعام، وإلا فهي خوان، وصرح به فقهاء اللغة، وجزم به الثعالبي وابن فارس. واقتصر عليه الحريري في (درة الغواص) وزعم أن غيره من أوهام الخواص. وذكر الفارسي في (شرحها) أنه يجوز إطلاق (المائدة) على (الخوان) مجرداً عن الطعام، باعتبار أنه وضع أو سيوضع. وقال ابن ظفر:

على المشهود عليه ومنعه بمجرد القول وأنه تعالى شأنه هو الذي يمنع منع إلزام بالأدلة والبيّنات، و(أنت) ضمير فصل أو تأكيد و(الرقيب خبر كان. وقرئ (الرقيب) بالرفع على أنه خبر أنت، والجملة خبر كان و(عليهم) في القراءتين متعلق بالرقيب.

وقوله سبحانه: ﴿وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ تذييل مقرر لمضمون ما قبله وفيه - على ما قيل - إيذان بأنه سبحانه كان هو الشهيد في الحقيقة على الكل حين كونه عليه السلام فيما بينهم، و(على) متعلقة بشهيد، والتقديم لمراعاة الفاصلة...

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ﴾ ذكره باسمه ونسبه إلى أمه لثلاث يتوهم أنهم اعتقدوا إلهيته أو ولديته، ليستقل بانزال المائدة ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ هذه قصة المائدة وإليها تنسب السورة فيقال: سورة المائدة وهنأ قراءتان: الأولى ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالياء على أنه فعل وفاعل و﴿أَنْ يُنْزِلَ﴾ المفعول. والثانية - بالتاء و(ربك) نصب أي سؤال ربك. فحذف المضاف. والمعنى: هل تسأله ذلك من غير صارف يصرفك عنه؟ وهي قراءة علي وعائشة وابن عباس ومعاذ رضي الله عنهم. وسعيد بن جبير والكسائي، في آخرين.

قال أكثر المفسرين: الاستفهام على القراءة الأولى محمول على المجاز. إذ لا يسوغ لأحد أن يتوهم على الحواريين أنهم شكوا في قدرة الله تعالى...

وذكر أبو شامة أن النبي ﷺ عاد أبا طالب في مرض. فقال له: يا ابن أخي! ادع ربك أن يعافيني. فقال: اللهم! اشف عمي. فقام كأنما نشط من عقال. فقال: يا ابن أخي! إن ربك الذي تعبد له ليطيعك. فقال: يا عم! وأنت لو أطعته لكان يطيعك. أي يجيبك لمقصودك.

وحسنه في الحديث المشاكلة، فظهر أن العرب استعملته بهذا المعنى.

قال الخازن: وقال بعضهم: هو على ظاهره. وقال:

صدره، وغض بصره وطأطأ برأسه، خشوعاً. ثم أرسل عينيه بالبكاء. فما زالت دموعه تسيل على خديه، وتقطر من أطراف لحيته، حتى ابتلت الأرض حيال وجهه، من خشوعه. فعند ذلك دعا الله تعالى فقال: اللهم! ربنا. كما قال تعالى:

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا﴾ أي: يا الله المطلوب لكل مهم، الجامع للكمالات، الذي ربانا بها. ناداه سبحانه وتعالى مرتين بوصف الألوهية والربوبية، إظهاراً لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ أي التي فيها ما تعدنا من نعيم الجنة ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا﴾ أي يكون يوم نزولها عيداً نعظمه ونسّر به، نحن الذين يدركونها. ومن بعدنا الذين يسمعونها فيتقوون في دينهم. و(العيد) العائد. مشتق من (العود) لعوده في كل عام بالفرح والسرور. وكل ما عاد عليك في وقت فهو عيد، قال الأعشى:

واكبدي من لاعج الحب والهوى
إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها
كذا في (العناية).

وفي (القاموس) (العيد) بالكسر، ما اعتادك من هم أو مرض أو حزن ونحوه. وكل يوم فيه جمع «آية منك» أي: على كمال قدرتك وصدق وعدك وتصديقك إياي «وارزقنا» أي: أعطنا ما سألناك ﴿وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي: خير من يرزق. لأنه خالق الرزق ومعطيه بلا عوض.

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ إجابة لدعوتكم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ﴾ أي: بي وبرسولي «بعد» أي بعد تنزيلها، المفيد للعلم الضروري بي وبرسولي «مِنْكُمْ» أيها المنعمون بها ﴿فَإِنِّي أَخَذْتُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ أي من عالمي زمانهم. أو من العالمين جميعاً...

ثم قال: ولكن الجمهور أنها نزلت. وهو الذي اختاره ابن جرير. قال: لأن الله تعالى أخبر بنزولها في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُرْسِلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ووعد الله ووعيده حق وصدق.

وهذا القول هو، والله أعلم، الصواب. كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. اهـ.
ومن الآثار ما أخرجه الترمذي عن عمار بن ياسر قال:

ثبت لها اسم المائدة بعد إزالة الطعام عنها. كما قيل (لقحة) بعد الولادة. وقال أبو عبيد: المائدة في المعنى مفعولة، ولفظها فاعلة. وهي مثل عَيْشَةٍ رَاضِيَةٍ. وقيل: من (ماد) إذا أعطى. يقال: ماد زيد عمراً، إذا أعطاه. وقال أبو إسحق: الأصل عندي في (مائدة) أنها فاعلة. من (ماد يمد) إذا تحرك. فكانها تמיד بما عليها. أي: تتحرك. وقال أبو عبيدة: سميت (مائدة) لأنها مِيدَ بها صاحبها. أي: أُعْطِيَهَا وَتُفْضَلُ عليه بها. وفي (العناية): فكانها تعطي من حولها مما حضر عليها. وفي (المصباح): لأن المالك مادها للناس: أي: أعطاهم إياها. ومثله في كتاب (الأبنية لابن القطاع): ويقال في المائدة مَيْدَة. قاله الجرمي وأنشد:

ومَيْدَة كثيرة الألـوان

تُصْنَعُ للجيران والإخوان
كذا في (القاموس وشرحه). والخوان بضم الخاء وكسرهما ما يؤكل عليه الطعام كما في (القاموس). معرب كما في (الصحاح) و(العين). وقيل: إنه عربي مأخوذ من (تخونه) أي نقص حقه. لأنه يؤكل عليه فينقص. كذا في (العناية).

﴿قَالُوا نَرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنهَا﴾ أي آمنا. لكننا نريد الأكل منها من غير مشقة تشغلنا عن عبادة الله تعالى ﴿وَنُطْمِئِنَّ قُلُوبُنَا﴾ أي فلا تعتربها شبهة لا يؤمن من ورودها، لولا مثل هذه الآية. فإن انضمام علم المشاهدة إلى العلم الاستدلالي مما يوجب قوة اليقين ﴿وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقَتْنَا﴾ أي في دعوى النبوة، وفيما تعدنا من نعيم الجنة، مع أنها سماوية ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي فنشهد عليها عند الذين لم يحضروها من بني إسرائيل، ليزداد المؤمنون منهم بشهادتنا طمأنينة ويقيناً. ويؤمن بسببها كفارهم. أو من الشاهدين للعين دون السامعين للخبر.

ثم لما رأى أن لهم غرضاً صحيحاً في ذلك، وأنهم لا يقلعون عنه، أزمع على استدعائها واستنزالها.

روى ابن حاتم؛ أنه توضأ واغتسل ودخل مصلاه، فصلّى ما شاء الله. فلما قضى صلاته قام مستقبل القبلة، وصف قدميه، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق

ذلك . وكل ذلك لتنبية النصارى الذين كانوا في وقت نزول الآية وَمَنْ تَأْتِرْهُمْ، على قبح مقاتلتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم .

تنبيهات :

الأول : روى عن قتادة : أن هذا القول يكون يوم القيامة لقوله تعالى ﴿ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ ﴾ . وقال السدي : هذا الخطاب والجواب ، في الدنيا . وصوبه ابن جرير ، قال : وكان ذلك حين رفعه إلى السماء . واحتج ابن جرير على ذلك بوجهين : (أحدهما) أن الكلام بلفظ الماضي ؛ و(الثاني) قوله : إِنْ تُعَذِّبُهُمْ . وَإِنْ تُغْفِرْ لَهُمْ .

قال الحافظ ابن كثير : وهذا الدليلان فيهما نظر . لأن كثيراً من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ الماضي ليدل على الوقوع والثبوت . ومعنى قوله ﴿ إِنْ تُعَذِّبُهُمْ فَلَهُمْ عَذَابُكَ . . . ﴾ الآية : التبرؤ منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله تعالى . وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه . كما في نظائر ذلك من الآيات . فالذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر . فالله أعلم أن ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد .

وقد روى بذلك حديث مرفوع ، رواه الحافظ ابن عساكر في ترجمة أبي عبد الله مولى عمر بن عبد العزيز ، وكان ثقة قال : سمعت أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه ، أبي موسى الأشعري ، قال : قال رسول الله ﷺ : إذا كان يوم القيامة دعى بالأنبياء وأممهم . ثم يدعى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه فيقر بها فيقول : ﴿ يَكْفِيكَ أَنْ مَرَّمْتَ أَذْكَرَ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ ﴾ . . . الآية ، ثم يقول : ﴿ وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسول (ماذا أجبتم) توبيخ من تمرد من أمتهم . وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى ، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام . لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد . فلا جرم ، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، إشعاراً بعبوديته . فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه ، تدل على أنه عبد وليس بإله . ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره ، عليه السلام ، على رؤوس الأشهاد ، بالعبودية ، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل . إكذاباً لهم في افتراءهم عليه ، وتثبيتاً للحجة على قومه ؛ فهذا سر سؤاله تعالى له ، مع علمه بأنه لم يقل

قال رسول الله ﷺ : أنزلت المائدة من السماء خبزاً ولحماً وأمرنا أن لا يخونوا ولا يدخروا لغد . فخانوا وادخروا ورفعوا لغد . فمسخوها قردة وخنازير . قال الترمذي : وقد روي عن عمار ، من طريق ، موقوفاً وهو أصح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن شهاب عن ابن عباس : أن عيسى ابن مريم ، قالوا له : ادع الله أن ينزل علينا مائدة من السماء . قال فنزلت الملائكة بالمائدة يحملونها . عليها سبعة أحوات وسبعة أرغفة . فأكل منها آخر الناس كما أكل منها أولهم .

وقد ساق ابن كثير آثاراً في نزولها لا تخلو عن غرابة ونكارة في سياقها ، كما لا يخفى .

روى الإمام أحمد عن ابن عباس قال قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهباً ونؤمن بك . قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم : قال فدعاه ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهباً ، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين . وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة . قال : بل باب التوبة والرحمة .

ورواه الحاكم في مستدركه وابن مردويه .

﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَكْفِيكَ أَنْ مَرَّمْتَ أَذْكَرَ نَعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَيْكَ ﴾ . . . الآية ، ثم يقول : ﴿ وَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ أعلم أنا بينا أن الغرض من قوله تعالى للرسول (ماذا أجبتم) توبيخ من تمرد من أمتهم . وأشد الأمم افتقاراً إلى التوبيخ والملامة النصارى ، الذين يزعمون أنهم أتباع عيسى عليه السلام . لأن طعن سائر الأمم كان مقصوراً على الأنبياء ، وطعن هؤلاء الملحدة تعدى إلى جلال الله وكبريائه ، حيث وصفوه بما لا يليق أن يوصف مقامه به ، وهو اتخاذ الزوجة والولد . فلا جرم ، ذكر تعالى أنه يعدد أنواع نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة ، إشعاراً بعبوديته . فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه ، تدل على أنه عبد وليس بإله . ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره ، عليه السلام ، على رؤوس الأشهاد ، بالعبودية ، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل . إكذاباً لهم في افتراءهم عليه ، وتثبيتاً للحجة على قومه ؛ فهذا سر سؤاله تعالى له ، مع علمه بأنه لم يقل

للمتخذين، على توبيخ. أي مع أنك بشر تلد وتولد قبل هذا.

الثالث: توهم بعضهم أن كلمة ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ تفيد أن النصراني يعتقدون أن عيسى وأمه، عليهما السلام، مستقلان باستحقاق العبادة، بدلاً عن الله تعالى. كما يقال: اتخذت فلاناً صديقاً من دوني. فإن معناه أنه استبدله به، لا أنه جعله صديقاً معه. وهم لم يقولوا بذلك. بل ثلثوا. فأجاب: بأن من أشرك مع الله غيره فقد نفاه معنى. لأنه وحده لا شريك له، منزّه عن ذلك. فأقراره بالله كلاً إقرار. فيكون ﴿مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ مجازاً عن (مع الله). ولا يخفى أن هذا تكلف. لأن توبيخهم إنما يحصل بما يعتقدونه ويعترفون به صريحاً لا بما يلزمه بضرب من التأويل. فالصواب أن المراد اتخاذهما بطريق إشراكهما به سبحانه. كما في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: ١٦٥] وقوله عز وجل: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ - إلى قوله... ﴿سُبْحَنَهُمْ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨] إذ به يتأتى التوبيخ، ويتسنى التقرير والتبكيث. هذا ما حققوه هنا.

وأقول: إن كلمة (دون) في هذه الآية وأمثالها بمعنى (غير) كما حققه اللغويون. ولا تفيد وضع الاستقلال والبدلية، كما توهم وسر ذكرها إفهام الشراكة. لأنه لولاها لتوهم دعوى انحصار الألوهية فيما عداه. مع أنهم لا يعتقدون ذلك.. ولا يفهم من نحو (أتخذت صديقاً من دوني) الاستبدال. فذاك من قرينة خارجية. وإلا فالمثال لا يعينه. لجواز إرادة اتخاذها معه كما لا يخفى. فتبصر ﴿قَالَ سُبْحَانَكَ﴾ أي أنزهك تنزيهاً لا نقياً بك من أن يقال هذا وينطق به ﴿مَا يَكُونُ لِي﴾ أي ما يتصور مني بعد إذ بعثتني لهداية الخلق ﴿أَنْ أَقُولَ﴾ أي في حق نفسي ﴿مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ما استقر في قلوب العقلاء عدم استحقاقي له مما يضلهم ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ استئناف مقرر لعدم صدور القول المذكور عنه عليه السلام، بالطريق البرهاني. فإن صدوره عنه مستلزم لعلمه تعالى به قطعاً. فحيث انتفى علمه تعالى به، انتفى صدوره عنه حتماً.

ضرورة، أن عدم اللازم مستلزم لعدم الملزوم. قاله أبو السعود ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي﴾ استئناف جار مجرى التعليل لما قبله. كأنه قيل: لأنك تعلم ما أخفيه في نفسي. فكيف بما أعلنه؟ وقوله تعالى ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ بيان للواقع، وإظهار لقصوره. أي ولا أعلم ما تخفيه من معلوماتك. أفاده أبو السعود ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾.

﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾ أي ما أمرتهم إلا بما أمرتني به. وإنما قيل: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ﴾ نزولاً على قضية حسن الأدب، ومراعاة لما ورد في الاستفهام. وقوله تعالى ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ تفسير للمأمور به ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي: رقيباً أراعي أحوالهم وأحملهم على العمل بموجب أمرك، ويتأتى لي نهيمهم عما أشاهده فيهم مما لا ينبغي ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي﴾ أي: بالرفع إلى السماء كما في قوله تعالى ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] والتوفي: أخذ الشيء وافيّاً. والموت نوع منه. قال تعالى ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] وسبق في قوله تعالى (يا عيسى إني متوفيك) في (آل عمران) زيادة إيضاح على ما هنا. فتذكر ﴿كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي: الناظر لأعمالهم. فممنعت من أردت عصمته من التفوه بذلك. وخذلت من خذلت من الضالين، فقالوا ما قالوا ﴿وَأَنْتَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ اعتراض تذييلي مقرر لما قبله. وفيه إيذان بأنه تعالى كان هو الشهيد على الكل، حين كونه عليه السلام فيما بينهم.

تنبيه: دلت الآية على أن الأنبياء، بعد استيفاء أجلهم الدنيوي، ونقلهم إلى البرزخ لا يعلمون أعمال أمتهم. وقد روى البخاري هنا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس! إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً. ثم قال: كما بدأنا أول خلقٍ نُعيدُهُ وعداً علينا إنا كُنَّا فاعلين... إلى آخر الآية. ثم قال: ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم. ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: يا رب! أصيحابي. فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح

عقاب الجاني قد يكون لعجز ينافي القدرة، أو لإهمال ينافي الحكمة. فبين أن ثوابه وعقابه مع القدرة التامة والحكمة البالغة. . .

روى الإمام أحمد عن أبي ذر رضي الله عنه قال: صلى النبي ﷺ ذات ليلة. فقرأ بآية حتى أصبح يركع بها ويسجد بها ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ فلما أصبح قلت: يا رسول الله! لم تزل تقرأ هذه الآية حتى أصبحت. تركع بها وتسجد بها؟ قال: إني سألت ربي عز وجل الشفاعة لأمتي؛ فأعطانيها. وهي نائلة، إن شاء الله، لمن لا يشرك بالله شيئاً. وأخرجه النسائي أيضاً.

وروى الإمام أحمد أيضاً عن أبي ذر قال: قام رسول الله ﷺ ليلة من الليالي في صلاة العشاء. فصلّى بالقوم ثم تخلف أصحاب له يصلون. فلما رأى قيامهم وتخلفهم انصرف إلى رحله. فلما رأى القوم قد أدخلوا المكان رجع إلى مكانه فصلّى. فجئت فقممت خلفه فأومأ إلي يمينه، فقممت عن يمينه. ثم جاء ابن مسعود فقام خلفي. وخلفه، فأومأ إليه بشماله فقام عن شماله. فقمنا ثلاثتنا يصلّي كل واحد منا بنفسه، ونتلو من القرآن ما شاء الله أن نتلو. وقام بآية من القرآن يرددها، حتى صلى الغداة. فلما أصبحنا أومأت إلى عبد الله بن مسعود: أن سله ما أراد إلى ما صنع البارحة؟ فقال ابن مسعود: لا أسأله عن شيء حتى يُحدث إليّ، فقلت: بأبي وأمي! قمت بآية من القرآن ومعك القرآن. لو فعل هذا بعضنا لوجدنا عليه. قال: دعوت لأمتي. قلت: فماذا أجبت؟ أو ماذا رد عليك؟ قال: أجبت بالذي لو اطلع عليه كثير منهم طلعة، تركوا الصلاة. قلت: أفلا أبشر الناس، قال: بلى. فانطلقت مُغْنِقاً قريباً من قذفة بحجر. فقال عمر: يا رسول الله! إنك إن تبعث بهذا نكلوا عن العبادة. فناده أن أرجع. فرجع. . .

وروى الإمام مسلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص؛ أن النبي ﷺ تلا قول الله عز وجل في إبراهيم ﴿رَبِّ إِنِّي أَعْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَتَعَيَّنْ فَإِنَّكَ مَعِيَ . . .﴾ [إبراهيم: ٣٦] وقول عيسى ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ فيقال: إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم.

﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله عز وجل. فإنه الفعال لما يشاء. ﴿لَا يَسْتَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْتَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. ويتضمن التبرؤ من النصارى الذين كذبوا على الله ورسوله. وجعلوا لله نداً وصاحبة وولداً. تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً. انتهى. . .

يعني أن المغفرة، وإن كانت قطعة الانتفاء بحسب الوجود، لكنها لما كانت بحسب العقل، تحتل الوقوع والالاقوع، استعمل فيها كلمة (إن) فسقط ما يتوهم أن تعذيبهم، مع أنه قطعي الوجود، كيف استعمل فيه (إن) وعدم وقوع العفو بحكم النص والإجماع. وفي كتب الكلام: إن غفران الشرك جائز عقلاً عندنا وعند جمهور البصريين من المعتزلة. لأن العقاب حق الله على المذنب، وليس في إسقاطه مضرة.

وبالجملة: فليس قوله تعالى ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ تعريضاً بسؤاله العفو عنهم. وإنما هو لإظهار قدرته على ما يريد، وعلى مقتضى حكمه وحكمته. ولذا قال: إنك أنت العزيز الحكيم، تنبيهاً على أنه لا امتناع لأحد عن عزته، فلا اعتراض في حكمه وحكمته.

قال الرازي: قال قوم: لو قال: فإنك أنت الغفور الرحيم، أشعر ذلك بكونه شافعياً لهم. فلما قال: فإنك أنت العزيز الحكيم، دل ذلك على أن غرضه تفويض الأمر بالكلية إلى الله تعالى، وترك التعرض لهذا الباب من جميع الوجوه.

وفي (العناية) ما ملخصه: أن ما ظنه بعضهم من أن مقتضى الظاهر ﴿الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ بدل ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ كما وقع في مصحف عبد الله بن مسعود - فقد غاب عنه سر المقام. لأنه ظن تعلقه بالشرط الثاني فقط، لكونه جوابه. وليس كما توهم. بل هو متعلق بهما. ومن له الفعل وترك عزيز حكيم. فهذا أنسب وأدق وأليق بالمقام، أو هو متعلق بالثاني، وإنه احتباس، لأن ترك

عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله ﷺ بما قال، وهو أعلم. فقال الله: يا جبريل! اذهب إلى محمد فقل له: إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك.

محمد عبده ج ٧ ص ٢٤٤ - ٢٧٥

وَالْإِنْجِيلُ أَي ونعمتي عليك إذ علمتك قراءة الكتاب أي ما يكتب - أو الكتابة بالقلم - أي وفقتك لتعلمها، والحكمة وهي العلم الصحيح الذي يبعث الإرادة إلى العمل النافع بما فيه من الإقناع والعبرة والبصيرة وفقه الأحكام، والتوراة - وهي الشريعة الموسوية، والإنجيل - وهو ما أوحاه تعالى إليه من الحكم والأحكام، والبشارة بخاتم الرسل عليه الصلاة والسلام، وقد سبق لنا تفصيل القول في حقيقة التوراة والإنجيل في تفسير أول سورة آل عمران (ص ١٥٥ - ١٥٩ ج ٣ تفسير) وفي تفسير هذه السورة (ص ٢٨٣ - ٣٠٢ ج ٦ تفسير)

﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ قرأ نافع هنا وفي آية آل عمران ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ والطائر واحد الطير - كراكب وركب - والجمهور ﴿فَتَكُونُ طَيْرًا﴾ قيل هو جمع وقيل اسم جمع، وأجاز أبو عبيدة وقطرب إطلاق طير على الواحد ولعله مبني على أن أصله المصدر كما وجهه ابن سيده. ولفظ الطير مؤنث بمعنى جماعة. والخلق في أصل اللغة تقدير أي جعل الشيء بمقدار معين. يقال خلق الإسكافي النعل ثم فراه، أي عين شكله ومقداره ثم قطعه قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبع

ض القوم يخلق ثم لا يفري ومنه خلق الكذب والإفك قال تعالى ﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَاءَ﴾ [العنكبوت: ١٧] أي تقدرون وتزورون كلاماً يافك سامعه أي يصرفه عن الحق. ويستعمل في إيجاد الله تعالى الأشياء بتقدير معين في علمه. والمعنى: واذكر نعمتي عليك إذ تجعل قطعة من الطين مثل هيئة الطير في شكلها ومقادير أعضائها فتنفخ فيها بعد ذلك فتكون طيراً بإذن الله ومشيئته، أو بتسهيله أو تكوينه، إذ يجعل جلت قدرته

فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ فرفع يديه وقال: اللهم! أمتي أمتي. وبكى. فقال الله تعالى: يا جبريل! اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله: ما يبكيك؟ فاتاه جبريل

﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ لِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ قال البيضاوي في قوله تعالى ﴿إِذْ قَالَ﴾: بدل من ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ﴾ وهو على طريقة ﴿وَأَدَّيْ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٤٤] - أي في التعبير عن المستقبل بالماضي - والمعنى أنه تعالى يوبخ الكفرة يومئذ بسؤال الرسل عن إجاباتهم وتعدد ما ظهر عليهم من الآيات، فكذبتهم طائفة وسموهم سحرة، وغلا آخرون واتخذوهم آلهة. أو نصب بإضمار ﴿أَذْكُرُ﴾ اهـ.

والنعمة تستعمل مصدرًا واسماً لما حصل بالمصدر، والمفرد المضاف يفيد التعدد. والمعنى: اذكر أنعمتي عليك وعلى والدتك وقت تأييدي إياك بروح القدس إلخ أو اذكر نعمي حال كونها واقعة عليك وعلى والدتك إذ أيدتك أي قويتك شيئاً فشيئاً بروح القدس الذي تقوم به حجتك، وتبرأ من تهمة الفاحشة والدتك، حال كونك تكلم الناس في المهد بما يبرئها من قول الآثمين الذين أنكروا عليها أن يكون لها غلام من غير زوج يكون أباً له - وكهلاً حين بعثت فيهم رسولاً تقيم عليهم الحجة، بما ضلوا به عن المحجة. فكلما في المهد هو قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ [مريم: ٣٠] إلخ ما ذكر في سورة مريم.

وروح القدس هو ملك الوحي الذي يؤيد الله به الرسل بالتعليم الإلهي والتثبيت في المواطن التي من شأن البشر أن يضعفوا فيها، قال تعالى في شأن القرآن ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]. وقد تقدم في موضعين من سورة البقرة، وقال تعالى ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكَةِ أَنِ امْكُمُ فَيُخَوِّضُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [الأنفال: ١٢]. ﴿وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ

نفسك سبباً لحلول الحياة في تلك الصورة من الطين، فأنت تفعل التقدير والنفخ، والله هو الذي يكون الطير. وقد تقدم في تفسير نظير هذه الآية من سورة آل عمران كلام عن شيخنا الأستاذ الإمام مضمونه أن عيسى عليه السلام أعطي هذه الآية أي مكنته الله منها ولم يفعلها. واستدركنا على ذلك بالإشارة إلى دلالة آية المائدة هذه على وقوعها من غير جزم بذلك، وبيننا سر ذلك وحكمته عند الصوفية وهو قوة روحانية عيسى عليه السلام، ولا يبعد كتمان اليهود لهذه الآية إذا كان رآها بعضهم مرة واحدة وعدّها من السحر اعتقاداً أو مكابرة وخاف أن تجذب قومه إلى المسيح . . .

﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذَا تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي﴾ عطف التذكير بإبراء الأكمه والأبرص على ما قبله مباشرة فلم يُبدأ بإذ، وبدى بها التذكير بإخراج الموتى، فكان عطفاً على قوله ﴿إِذَا يُدْعَى بِكَ يَرْجُحُ الْقُدُسُ﴾ ولعل نكتة ذلك أن إبراء الأكمه والأبرص من جنس شفاء المرض الذي قد يقع بعض أفرادها على أيدي غير الأنبياء المرسلين، ولا سيما من يظن المرضى فيهم الصلاح والولاية، فلما كان كذلك ذكر بالتبع لإحياء الصورة من الطير، ولما كان إحياء الموتى أعظم جعل نعمة مستقلة فقرن بإذ. والمراد بالأكمه والأبرص والموتى الجنس - والأكمه من ولد أعمى، ويطلق على من عمي بعد الولادة أيضاً. وفي كتب العهد الجديد أنه أبرأ كثيراً من العمي والبرص وأحيا ثلاثة أموات (الأول) ابن أرملة وحيد في (نايين) كانوا يحملونه على النعش فلمس النعش وأمر الميت أن يقوم منه فقام فقال الشعب «قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه» أي شعب إسرائيل اهـ (من انجيل لوقا ٧: ١١ - ١٧) (الثاني) ابنة رئيس ماتت ودعاها لإحيائها فجاء بيته وقال للجمع «تنحوا فإن الصبية لم تمت لكنها نائمة فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل وأمسك بيدها فقامت الصبية» والقصة في (انجيل متى ٩: ١٨ - ٢٦) ونفيه لموتها ثم إثباته لنومها ينافي أن يكون أراد بالنوم الموت مجازاً على ما نقل عنه في غير هذا الموضع. وعليه يقال يحتمل أن يكون أغمي عليها فظنوا

إنها ماتت فعلم بالكشف أو الوحي إنها لم تمت. والمسلمون لا يثقون بنقول القوم ولا بدقتهم في الترجمة ومراعاة ما يدل عليه الإثبات بعد النفي (الثالث) لعازر الذي كان يحبه جداً ويحب أخته مريم ومرتا كما يحبونه، ففي الفصل الحادي عشر من انجيل يوحنا أنه كان مات في بيت عنيا ووضع في مغارة فجاء المسيح وكان له أربعة أيام فرفع عينيه إلى فوق وقال (أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لي، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت. ليؤمنوا إنك أرسلتني، ولما قال هذا: صرخ بصوت عظيم «لعازر هلمّ خارجاً» فخرج الميت) إلخ ملاحظة أوربة يزعمون أن لعازر تماوت بإذن المسيح والتواطء معه . . . وقد كذبوا أخزاهم الله تعالى. ولم ينقل النصارى عنه أنه أحيا أمواتاً كانوا تحت التراب بعد البلى كما نقل عن دانيال عليهما السلام وتكرار كلمة الإذن بتقييد كل فعل من تلك الأفعال بها يفيد إنه ما وقع شيء منها إلا بمشيئة الله الخاصة وقدرته. والأذن يطلق على الإعلام بإجازة الشيء والرخصة فيه وعلى الأمر به وكذا على المشيئة والتيسير. كقوله تعالى ﴿وَمَا هُمْ بِضَآئِرِينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] ومحال أن يكون معناه بإجازته أو أمره، ومثله بل أظهر منه قوله ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّلَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٦] أي بإرادته وتيسيره.

﴿وَإِذَا كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْحَرٌ مُبِينٌ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين كففت بني إسرائيل عنك فلم أمكنهم من قتلك وصلبك وقد أرادوا ذلك وقت تكذيب كفارهم إياك وزعمهم أن ما جئت به من البينات لم يكن إلا سحراً ظاهراً، لا من جنس الآيات التي جاء بها موسى، على إنها مثلها أو أظهر منها. قرأ الجمهور ﴿يَسْحَرُ﴾ وقرأ حمزة والكسائي (ساحر) بالالف، ورسمها في المصحف الإمام بغير ألف ككلمة (ملك) في الفاتحة وتقرأ ﴿مَلِكٌ﴾ وكلمة (الكتب) في عدة سور تقرأ فيها (الكتاب) بالأفراد كما تقرأ في بعضها بصيغة الجمع، ولو كتبت هذه الكلمات بالالف لما احتملت إلا

وأما الحور العين فهما جمع حوراء وعيناء، من الحور (بالتحريك) وهو شدة بياض العين مع شدة سوادها، فالحوراء مؤنث الأحور، والحوارية مؤنث الحواري. ثم استعمل الحواري بمعنى النقي الخالص في غير اللون، قال في اللسان: وقال بعضهم: الحواريون صفوة الأنبياء الذين خلصوا لهم، قال الزجاج: الحواريون خلصان الأنبياء عليهم السلام وصفوتهم، قال: والدليل على ذلك قول النبي (ص) «الزبير ابن عمتي، وحواري من أمتي» أي خاصتي من أصحابي وناصري - قال - وأصحاب النبي (ص) حواريون. وتأويل الحواريين في اللغة الذين أخلصوا ونقوا من كل عيب. اهـ. واللغة لا تدل على النقاء من كل عيب بهذا التحديد، وإنما تدل على النقاء والخلوص مطلقاً، فيكفي في صحة الإطلاق أن يكونوا قد خلصوا لنصره، أو خلصوا ونقوا من الكفر والنفاق. وقد حكى الله عنهم هنا إنهم قالوا: آمنا. أي بالله ورسوله عيسى عليه السلام. وأشهدوا الله على أنفسهم إنهم مسلمون، أي مخلصون في إيمانهم مدعين لما يترتب عليه من الأمر والنهي، وحكى عنهم في سورتي [آل عمران] و[الصف] أنهم حين قال المسيح ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢] قالوا ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ [آل عمران ٥٢].

﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ قال أبو السعود العمادي في تفسير ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ما نصه: كلام مستأنف مسوق لبيان بعض ما جر بينه عليه السلام وبين قومه منقطع عما قبله كما ينبىء عنه الإظهار في موقع الإضمار، و«إذ» منصوب بمضمر خوطب به النبي عليه الصلاة والسلام، بطريق تلوين الخطاب والالتفات، لكن لا لأن الخطاب السابق لعيسى عليه السلام فإنه ليس بخطاب وإنما هو حكاية خطاب، بل لأن الخطاب لمن خوطب بقوله تعالى ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ - الآية - فتأمل، كأنه قيل للنبي (ص) عقيب حكاية ما صدر عن الحواريين من المقالة المعدودة من نعم الله تعالى الفائضة على عيسى عليه السلام: أذكر للناس وقت قولهم إلخ وقيل هو ظرف

قراءة المد وحدها. وظاهر أن قراءة الجمهور ﴿سِخْرٌ﴾ يراد بها أن تلك البينات التي جاء بها من السحر وهو التمثويه والتخييل الذي يري الإنسان الشيء على غير حقيقته، أو ما له سبب خفي عن غير فاعله، - وأن قراءة (ساحر) يراد بها أن من أتى بتلك البينات ساحر، إذ جاء بأمر صناعي أو بتخييل باطل. والمراد من القراءتين كليهما أن الذين كفروا بعيسى عليه السلام طعنوا في تلك الآيات بأنها سحر، وفيمن جاء بها بأنه من جنس السحرة، أي فلا يعتد بشيء مما يظهر على يديه من خوارق العادات، فأفاد أنهم لا يؤمنون وإن جاءهم بآيات أخرى، إذ لم يكن الطعن فيما كان قد جاء به لشبهات تتعلق بها، وإنما كان عن عناد ومكابرة ادعوا بهما أن السحر صنعة له يجب أن يوصف به كل شيء غريب يجيء به.

﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرُسُولِي قَالُوا ءَأَمَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ أي واذكر نعمتي عليك حين ألهمت الحواريين أن يؤمنوا بك - وقد كذبك جمهور بني إسرائيل - فجعلتهم أنصاراً لك يؤيدون حجتك، وينشرون دعوتك. والوحي في أصل اللغة الإشارة السريعة الخفية، أو الإعلام بالشيء بسرعة وخفاء، كما بيناه من قبل. ولو وجد هذا التلغراف في عهد العرب الخلف لسموا خبره وحياً، والمصريون يسمونه حتى في الرسميات إشارة. وأطلق الوحي في القرآن على ما يلقيه الله تعالى في نفوس الأحياء من الإلهام كقوله تعالى ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يَوْمَكُ﴾ [النحل: ٦٨] وقوله ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَكَلَّمْنَاهُ فِي الْيَمِّ﴾ [القصاص: ٧] وهكذا ألقى الله تعالى في قلوب الحواريين الإيمان به وبرسوله عيسى عليه السلام، وقيل الوحي إليهم هو ما أنزل على أنبيائهم والحواريون جمع حواري وهو من خلص لك وأخلص سراً وجهراً في مودتك، ومعناه في أصل اللغة الأبيض النقي اللون، والحواريات من النساء النقيات الألوان والجلود لبياضهن، قال في اللسان: والاعراب تسمي نساء الأمصار حواريات لبياضهن وتباعدهن من كشف الاعراب بنظافتهن، قال: فقلت إن الحواريات معطبة إذا تقنن من تحت الجلابيب

لقالوا أريد به التنبيه على أن ادعاءهم الإيمان والإخلاص، لم يكن عن تحقيق وإيقان، ولا يساعده النظم الكريم. اهـ. . .

أقول في متعلق الظرف قولان للمفسرين رجح أبو السعود المشهور منهما وهو الأول ورد الثاني الذي جرى عليه الزمخشري في الكشف وهو أنه متعلق بقوله تعالى ﴿قَالُوا آمَنَّا﴾ أي ادعوا الإيمان وأشهدوا الله على أنفسهم إنهم مسلمون مخلصون في إيمانهم في الوقت الذي قالوا فيه ما ينافي ذلك وهو قولهم ﴿يَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾ ويقول الزمخشري إن الله تعالى ما وصفهم بالإيمان والإسلام وإنما حكى قولهم حكاية ووصله بما يدل على كذبهم فيه وهو سؤالهم هذا وجوابه عليه السلام لهم إذ أمرهم بتقوى الله إن كانوا مؤمنين حقاً، وإصرارهم على السؤال بعد ذلك، ووجه رد هذا القول إنه لو كان هو المراد لقليل ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ولم يقل ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ ولما صح أن تكون دعوى الإيمان من الحواريين نعمة من الله على عيسى - وهي كاذبة - ولا أن تكون عن وحي من الله تعالى. ولكن هذا الأخير لا يرد على الزمخشري لأنه فسر الوحي إلى الحواريين بالإيمان بأنه أمر الله إياهم بذلك على السنة الرسل، أي أمره إياهم مع غيرهم إذ كلف الناس كافة بأن يؤمنوا بما تجيئهم به الرسل. ولكن يرد قوله أيضاً تسميتهم بالحواريين وما في سورتي آل عمران والصف من إجابتهم عيسى إلى نصره. ولعله يرى أن هذا شأنهم في أول الدعوة ثم آمنوا بعد ذلك وصاروا أنصار الله ورسوله عيسى عليه السلام.

وقد حكى أبو السعود بعدما ذكرناه عنه الخلاف في إيمانهم. ومنشأ هذا الخلاف كلمة ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ وقد قرأ الكسائي «هل تستطيع ربك» قالوا أي سؤال ربك، وهذه القراءة مروية عن علي وعائشة وابن عباس ومعاذ من علماء الصحابة (رض) وقد صحح الحاكم عن معاذ أن النبي (ص) أقرأه «تستطيع ربك» ومثله في ذلك غيره لأن تلقين القرآن لا يتوقف على تصريح الصحابي برفعه، وقرأ الجمهور ﴿يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ وهذا الذي استشكل بأنه لا

يصدر عن مؤمن صحيح الإيمان. . .

وأقول ربما يظن الأكثرون أن هذا الوجه الأخير تكلف بعيد وليس كذلك. فالاستطاعة استفعال من الطوع وهو ضد الكره. قال تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ أُنْيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ [فصلت: ١١] وفي لسان العرب: الطوع نقيض الكره، طاعه يطوعه وطاعه، والاسم الطواعة والطواعة ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ ويقال طعت له وأنا أطيع طاعة، ولتفعله طوعاً أو كرهاً، وطائعاً أو كارهاً، وجاء فلان طائعاً غير مكروه. . . قال ابن سيده: وطاع يطاع وأطاع - لان وانقاد، وأطاعه إطاعة وانطاع له كذلك. وفي التهذيب: وقد طاع له يطوع إذا انقاد له بغير ألف، فإذا مضى لأمره فقد أطاعه. فإذا وافقه فقد طاعه، اهـ. فيفهم من هذا أن إطاعة الأمر فعله عن اختيار ورضى ولذلك عبر به عن امتثال أوامر الدين لأنها لا تكون ديناً إلا إذا كانت عن إذعان ووازع نفسي. والذي أفهمه أن الاستفعال في هذه المادة كالاستفعال في مادة الإجابة، فإذا كان «استجاب له» بمعنى أجاب دعاءه أو سؤاله - فمعنى استطاعه أطاعه، أي انقاد له وصار في طوعه أو طوعاً له. والسين والتاء في المادتين على أشهر معانيهما وهو الطلب، ولكنه طلب دخل على فعل محذوف دل عليه المذكور المترتب على المحذوف. فأصل استطاع الشيء - طلب وحاول أن يكون ذلك الشيء طوعاً له فأطاعه وانقاد له، ومعنى استجاب - سئل شيئاً وطلب منه أن يجيب إليه فأجاب. فبهذا الشرح الدقيق تفهم صحة قول من قال من المفسرين أن يستطيع هنا بمعنى يطيع، وأن معنى يطيع يفعل مختاراً راضياً غير كاره، فصار حاصل معنى الجملة «هل يرضى ربك ويختار أن ينزل علينا مائدة من السماء إذا نحن سألناه أو سألته لنا ذلك؟» والمائدة في اللغة الخوان الذي عليه الطعام، فإذا لم يكن عليه طعام لا يسمى مائدة، وقد يطلق لفظ المائدة على الطعام نفسه حقيقة أو مجازاً من إطلاق اسم المحل على الحال، وهو اسم فاعل من ماد بمعنى تحرك أو من ماد أهله بمعنى نعشهم كما في الأساس أي أعاشهم وسد فقرهم، كأنها هي تميد من يجلس إليها ويأكل منها. وقيل إنها بمعنى اسم المفعول على حد: عيشة راضية ﴿قَالَ

بأبصارهم، وتتغذى بها أبدانهم أو أرواحهم، ولو لم يقل من السماء لشمّل الطلب إعطاءهم مائدة من الأرض ولو بطريقة عادية، فإن كل ما يعطى من الله تعالى يسمى انزلاً. لتحقيق معنى العلوّ المطلق غير المقيد بجهة من الجهات لله سبحانه هو العلي القاهر فوق عباده . . .

وكلمة العيد تستعمل بمعنى الفرح والسرور، وبمعنى الموسم الديني أو المدني الذي يجتمع له الناس في يوم معين أو أيام معينة من السنة للعبادة أو لشيء آخر من أمور الدنيا، ولذلك قال السدي في تفسير العبارة: أي نتخذ ذلك اليوم الذي نزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا، وقال سفيان الثوري: يعني يوماً نصلي فيه. وقال قتادة: أرادوا أن يكون لعقبهم من بعدهم. وقال سلمان الفارسي (رض) عظة لنا ولمن بعدنا، ويصح أن يسمى طعام العيد عيداً على سبيل المجاز كما أشرنا إليه آنفاً.

وقوله ﴿وَأَيَّةٌ مِنْكَ﴾ معناه وتكون آية وعلامة منك على صحة نبوتي ودعوتي، ولعل المراد بنص قوله «منك» - مع العلم بأن كل شيء منه تعالى ولا سيما الآيات - النص على أن الآيات إنما تكون من الله وحده، أو أن تكون المائدة من لدنه تعالى بغير واسطة منه عليه السلام تشبه السبب كآيات السابقة. ومما نقل عنه وعن نبينا عليهما الصلاة والسلام إطعام العدد الكثير من الطعام القليل بخلق الله الزيادة فيه، وروي عن نبينا أيضاً إسقاء العدد الكثير من الماء القليل إذ وضع يده فيه فصار يزيد ويفور من بين أصابعه. فأمثال هذه الآيات - وإن كانت من الله ككل شيء - تحصل بما يشبه الأسباب، وفيها مجال لاشتباه المرتاب، لأن كل من يأخذ من ذلك الطعام أو الماء فإنما يأخذ من شيء كان موجوداً وهو لم يشاهد حدوث الزيادة فيه. وينقل الناس مثل هذا عن غير الأنبياء من الصالحين، كالسحرة والمشعوذين، وقد كان معروفاً في بني إسرائيل، ولذلك وصف الحواريون المائدة بما وصفوها به، وقال هو «آية منك» لتوافق مطلوبهم فلا يقترحوا شيئاً آخر، وإنني أذكر حكايتين عن بعض المعاصرين توضح ما أريد:

حدثني الثقة أن بعض رجال العلم والدين عاد مريضاً

قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ أي قال عيسى لهم اتقوا الله أن تقترحوا عليه أمثال هذه الاقتراحات التي كان سلفكم يقترحها على موسى لثلاث تكون فتنة لكم فإن من شأن المؤمن الصادق الإيمان أن لا يجرب ربه - أو أن يعمل ويكسب ولا يطلب من ربه أن يعيش بخوارق العادات، وعلى غير السنن التي جرت عليها معاش الناس. أو المعنى اتقوا الله وقوموا بما يوجبه الإيمان من العمل والتوكل عسى أن يعطيكم ذلك، من باب قوله تعالى ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا. وَنَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ أي نطلبها لثلاث فوائد (أحداها) إننا نريد أن نأكل منها لأننا في حاجة إلى الطعام ولا نجد ما يسد حاجتنا، وقيل المراد أكل التبرك (الثانية) نريد أن تطمئن قلوبنا بما نؤمن به من قدرة الله بمشاهدة خرقه للعادة، أي بضم علم المشاهدة واللمس والذوق والشم إلى علم السمع منك وعلم النظر والاستدلال (الثالثة) أن نعلم هذا النوع من العلم - أي علم المشاهدة - أن الحال والشأن معك هو أنك قد صدقتنا ما وعدتنا من ثمرات الإيمان، كاستجابة الدعاء ولو بخوارق العادات (الرابعة) أن نكون من الشاهدين على هذه الآية عند بني إسرائيل فيؤمن المستعد للإيمان ويزداد الذين آمنوا إيماناً - فهذا ما نراه في توجيه أقوالهم، على المختار من صحة إيمانهم.

﴿قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ أي لما علم عيسى عليه السلام صحة قصدهم وأنهم لا يريدون تعجيزاً ولا تجربة دعا الله تعالى بهذا الدعاء، فناداه باسم الذات الجامع لمعنى الألوهية والقدرة والحكمة والرحمة وغير ذلك فقال ﴿اللَّهُمَّ﴾ ومعناه يا الله، ثم باسم الرب الدال على معنى الملك والتدبير والتربية والإحسان خاصة، فقال ﴿رَبَّنَا﴾ أي يا ربنا ومالكننا كلنا ومتولي أمورنا ومربينا، أنزل علينا مائدة سماوية، جثمانية أو ملكوتية، يراها هؤلاء المقترحون

يعمله من الغرائب في مقابلة اخباره إياه بسر هذه المسألة، ولا أتذكر ما كان من أمرهما بعد ذلك فإنني سمعت هذه القصة في أوائل العهد بطلب العلم.

فأمثال هذه الوقائع التي يعدها الناس في كل زمان ويعلمون أن منها ما هو حيل أو صناعة تتلقى بالتعليم والتمرين - هي التي حملت بعض الناس على الشك والارتياب في آيات الأنبياء، وبعضهم على تسميتها سحراً مبيناً، وبعضهم على الثبوت فيها للفرقة بين الحق والباطل، وهو ما طلبه الحواريون لأجل تحصيل العلم اليقيني الذي تطمئن به قلوبهم وتقوم به حجتهم على غيرهم، على ما اخترناه مع الجمهور من صحة إيمانهم قبل طلب المائدة، أو لأجل تحصيل اليقين في الإيمان بعد التسليم في الظاهر كما اختار الزمخشري وغيره، ولهذه الحكمة جعل الله تعالى الآية الكبرى لرسالة خاتم رسله (ص) علمية حتى لا يبقى مجال لارتياب أحد من طلاب الحق المخلصين فيها. وهي اتیان رجل أمي عاش بين الأميين إلى سن الكهولة بكتاب فيه أعلى العلوم الإلهية والأدبية والاجتماعية والشرعية وأخبار الأمم والأنبياء السابقين الذي لم يقرأ هو ولا قومه عنهم شيئاً وغير ذلك من أخبار الغيب التي ظهر صدقها في زمنه وبعد زمنه إلخ إلخ وأما قوله عليه السلام ﴿وَأَرْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْأَرْزُقِينَ﴾ فمعناه وارزقنا منها أو من غيرها ما تتغذى به أجسامنا أيضاً وأنت خير الرازقين ترزق من تشاء بحساب، وترزق من تشاء بغير حساب. ومن محاسنه أنه آخر ذكر فائدة المائدة المادية عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، أو معناها وارزقنا الشكر عليها، وربما يقويه إنذار الله من يكفر بعد إنزالها إذ قال: ﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم ونافع منزلها بالتشديد من التنزيل المفيد للتكثير أو التدريج، والباقون منزلها بالتخفيف من الإنزال، وقيل إنهما هنا بمعنى واحد. أي وعد الله عيسى بتنزيلها عليهم مرة أو مراراً، ولكنه رتب على هذا الوعد شرطاً أي شرط، فقال ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها، مثل ﴿إِنَّا آتَيْنَاكَ

من الرجال المعتردين المشهورين بالكرامات فأقام عنده في حجرة النوم ساعة وكان قد نقه، ثم أراد الانصراف فألقى عليه أن يتعشى معه، ثم دعى الخوان فنصب ولم يوضع عليه شيء من الطعام، فجلس إليه الشيخان وصار المزور يقترح على الزائر أن يذكر ما يشتهي من ألوان الطعام وكلما ذكر شيئاً مد المزور صاحب الدار يده فأخرج صحناً من تحت كرسي أو أريكة بجانبه مملوء بذلك اللون وهو سخن يتصاعد بخاره، حتى ذكر عدة ألوان لا تناسب بينها ولم تجر عادة البلد بالجمع بينها، وأبعد من ذلك أن تكون طبخت ووضعت تحت ذلك الكرسي وبقيت على حرارتها كل تلك المدة. فأمثال هذه الحكاية يعدها بعض من ثبتت روايتها عنده من الخوارق، ويعدها بعضهم من الشعوذة والحيل التي اكتشف مثلها وهو موضع الحكاية الثانية:

حدثني شيخ من كبار شيوخ الطريق والمناصب العلمية بواقعة وقعت لوالده - وكان معتقداً محترماً - مع رجل غريب جاء مدينتهم وظهر على يديه عدة غرائب عدت من الكرامات، وقال: إن والده أخذ هذا الرجل مرة وطاف به في ضواحي البلد مدة طويلة انتهوا في آخرها إلى المقبرة التي دفن فيها أجدادهم فزاروا قبورهم واستراحوا هنالك وشكوا ما عرض لهم من الجوع بطول المشي، فأظهر والد محدثي للشيخ الغريب إنه يمكنهم أن يستضيفوا أجداده السادة الكرام، ثم نادى أحدهم واستجده ودس يده في تراب قبره فأخرج منه صحيفة فيها كروش غنم مطبوخة وهي محشوة بالرز واللحم والصنوبر، فأكلوا منها فإذا هي حارة، وقد استطابها الرجل الغريب جداً حتى توهم أنها ليست من طعام الدنيا. ولا أذكر أكان اختيار هذه الأكلة وإخراجها باقتراح الرجل نفسه أم باقتراح غيره وإنما أظن ظناً قوياً إنها اقترحت.

قال محدثي: وسر هذه المسألة أن والذي أمر قبل خروجه بأن تطبخ عندنا هذه الكروش ويأخذها أحد الخدم أو المريدين (الشك مني) فيذنها في ذلك القبر في صحيفة مغطاة بحيث تبقى سخنة ولا يصيبها تراب، وإنما فعل ذلك لاختبار الرجل وحمله إياه على مكاشفته بحقيقة ما

حدثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام، وعنه قال: أبوها حين عرض عليهم العذاب أن كفروا فأبوا أن تنزل عليهم. وقال أيضاً: حدثنا ابن المشي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن منصور بن زاذان عن الحسن أنه قال في المائدة: إنها لم تنزل. وحدثنا بشر حدثنا يزيد وحدثنا سعيد عن قتادة قال: كان الحسن يقول لما قيل لهم ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِهِمْ فَأَنْتَ أَعَدُّهُمْ عَذَابًا لَّا أَعَدُّهُمْ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ قالوا لا حاجة لنا فيها فلم تنزل. وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن. وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله وكان يكون موجوداً في كتابهم بالتواتر ولا أقل من الآحاد والله أعلم، اهـ. ثم ذكر الحافظ رأي الجمهور وترجيح ابن جريج له وذكر الرازي أن الذين قالوا بنفي نزولها احتجوا عليه بوجهين ذكرهما وأجاب عنهما فقال (أحدهما) أن القوم لما سمعوا قوله ﴿أَعَدُّهُمْ عَذَابًا لَّا أَعَدُّهُمْ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ استغفروا وقالوا لا نريدها (والثاني) أنه وصف المائدة بكونها عيداً لأولهم وآخرهم فلو نزلت لبقى ذلك العيد إلى يوم القيامة. وبعد ذكر قول الجمهور بنزولها لوجوب إنجاز الوعد الجازم غير المعلق قال - «والجواب عن الأول أن قوله ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِيثَاقِهِمْ فَأَنْتَ أَعَدُّهُمْ عَذَابًا لَّا أَعَدُّهُمْ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ شرط وجزاء لا تعلق له بقوله ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ والجواب عن الثاني أن يوم نزولها كان عيداً لهم ولمن بعدهم ممن كان على شرعهم، اهـ.

أقول: أما جوابه عن الحجة الأولى ففي غير محله لوجهين (أحدهما) أنها عبارة عن خبر إن صح لا ترد صحته بكون جملة الوعيد الشرطية غير متعلقة بجملة الوعد، إلا إذا قاله هذان التابعيان الأجلاء من قبيل التفسير بالرأي، والأقرب أن له عندهما أصلاً مرفوعاً، فالأولى أن يحمل على وجه يتفق مع صدق الوعد، وهو (الوجه الثاني) وذلك بأن يقال إن جملة الوعيد مرتبة على جملة الوعد لعطفها عليها بالفاء كما بيناه آنفاً، وهذا الترتيب كافٍ لحمل الحواريين على ترك طلبها بل طلب الاستقالة من إنزالها. وما كان مثل الحسن ومجاهد وقاتادة من أئمة

الْكُوثَرِ﴾ [الكوثر: ١] والمعنى إن من يكفر منهم بعد هذه الآية التي اقترحوها على الوجه الذي لا يحتمل الاشتباه ولا التأويل فإن الله تعالى يعذبه عذاباً شديداً لا يعذب مثله أحداً من سائر كفار العالمين كلهم أو عالمي أمتهم الذين لم يعطوا مثل هذه الآية. وإنما يعاقب الخاطيء والكافر بقدر تأثير الخطيئة أو الكفر، والبعء فيه عن الشبهة والعذر، وما أعطي من موجبات الشكر، وأي شبهة أو عذر لمن يرى الآيات من رسوله ثم يقترح آية بينة على وجه مخصوص تشترك في العلم بها جميع حواسه، وينتفع بها في دنياه قبل آخرته، فيعطى ما طلب أو خيراً منه ثم ينكص بعد ذلك كله على عقبيه ويكون من الكافرين؟

وقد اختلف مفسرو السلف في المائدة أنزلت بالفعل أم لا؟ فروى عن بعضهم إنها نزلت، واختلف هؤلاء في الطعام الذي نزل - أي أعطي على وجه المعجزة من الله - فأبهمه بعضهم، وقيل هو خبز وسمك، وصرح بعضهم بأن الخبر من الشعير، وقيل خبز ولحم، وقيل من ثمار من الجنة، وقيل كل شيء إلا اللحم. وقيل كان ينزل عليهم طعام أينما ذهبوا كما كان ينزل المن على بني إسرائيل. ولا يصح من أسانيد هذه الروايات شيء، ولذلك رجح ابن جرير نزولها انجازاً للوعد وأنه كان عليها مأكول لا نعينه، بل قال غير جائز أن يكون سمكاً وخبزاً، وقال إن العلم به لا ينفع والجهل به لا يضر. ونقول إذا إنه يصدق بمثل ما كان ينزل على بني إسرائيل في التيه من المن الذي يجمعونه عن الحجارة وورق الشجر، وعبرة ابن عباس عند ابن جرير وابن الأنباري في كتاب الأضداد من طريق عكرمة: كان طعاماً ينزل عليهم من السماء حيثما نزلوا، ويصدق بما يأتي عن انجيل يوحنا من إطعام الألوف في عيد الفصح من خمسة أرغفة وسمكتين أكل منها أول ذلك الجمع كآخره.

وقال آخرون إنها لم تنزل البتة قال الحافظ ابن كثير في تفسيره: وقال قائلون إنها لم تنزل، فروى ليث بن أبي سليم عن مجاهد في قوله ﴿أَنْزَلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ قال هو مثل ضربه الله ولم ينزل شيء. رواه ابن أبي حاتم وابن جرير. قال ابن جرير: حدثنا القاسم - هو ابن سلام -

أن يكون خبر هذه القصة في بعض الأناجيل التي رفضتها الكنيسة وفقدت بعد ذلك، وقد صرح يوحنا في انجيله بأن الآيات التي عملها المسيح كثيرة لو كتبت كلها لا يسع العالم الكتب المكتوبة - وإننا نرى بعض أصحاب الأناجيل الأربعة المعتمدة كتب منها ما لم يكتبه الآخرون.

وقد صرحوا بأن أكثر كلام المسيح كان أمثالاً ورموزاً، ويعدون من هذه الرموز كل ما ورد من خبر الأكل والشرب في الملوك وكذلك بعض النصوص في الأكل والشرب في الدنيا. فما يدرينا أنهم أشاروا إلى هذه القصة ببعض التأويلات حسب فهمهم واعتقادهم إذ كانوا ينقلون ذلك بالمعنى ثم نقل عنهم بالترجمة وقد فقدت الأصول ولا يعلم عنها شيء يقيني كما بينا ذلك من قبل بالنقول عنهم.

وأنا أذكر هنا ما في هذه الأناجيل بمعنى قصة المائدة: جاء في أول الفصل السادس من انجيل يوحنا أن المسيح عليه السلام ذهب إلى بحر الجليل (بحيرة طبرية) وتبعه خلق كثير لأنهم رأوا آياته، فصعد إلى جبل وجلس هناك مع تلاميذه - وهم الحواريون - قال يوحنا (٤) وكان الفصح عيد اليهود قريباً ٥ فرفع يسوع عينيه ونظر أن جمعاً كثيراً مقبل إليه فقال لفيلبس من أين نبتاع خبزاً ليأكل هؤلاء وإنما قال هذا ليمتحنه لأنه هو علم ما هو مزمع أن يفعل ٧ أجابه فيلبس لا يكفيهم خبز بمئتي دينار ليأخذ كل واحد منهم شيئاً يسيراً ٨ قال له واحد من تلاميذه وهو اندراوس أخو سمعان بطرس ٩ هنا غلام معه خمسة أرغفة شعير وسمكتان ولكن ما هذا لمثل هؤلاء ١٠ فقال يسوع اجعلوا الناس يتكثرون، وكان في المكان عشب كثير فأتكا الرجال وعددهم خمسة آلاف ١١ وأخذ يسوع الأرغفة وشكر ووزع على التلاميذ والتلاميذ على المتكثنين، وكذلك كل من السمكتين بقدر ما شاؤا).

ثم بين أن المسيح عاتب التلاميذ على الشبع من ذلك الخبز وقال (٢٧) اعملوا لا للطعام البائد بل للطعام الباقي، للحياة الأبدية التي يعطيكم ابن الإنسان لأن هذا الله الأب قد ختمه ٢٨ فقالوا له ماذا نفعل حتى نعمل أعمال الله ٢٩ أجاب يسوع وقال لهم هذا هو عمل الله أن تؤمنوا بالذي هو أرسله ٣٠ فقالوا له فآية تصنع لنرى ونؤمن بك،

التفسير ليخفى عليهم أن الوعد غير معلق بشرط وأنه إنما جعل الوعد مرتباً عليه ترتيباً، ولكنهم رأوا أن هذا سبب كافٍ في عدم معارضة الوعد لما روه من تنصل القوم واستقالتهم من ذلك الطلب وإقالة الله إياهم منه. وحينئذ لا يكون عدم إنزالها إخلالاً للوعد، فإن من وعد غيره بشيء وأراد أن ينجزه له مرتباً عليه تكليفاً أو تخويفاً حمل الموعد على عدم القبول لا يسمى مخلفاً وأما جوابه عن الحجة الثانية فهو دعوى تحتاج إلى إثبات إذ لا يثبت أنه كان عند أتباع المسيح عيد للمائدة إلا بنص عن المعصوم أو نقل يعتد به من تاريخهم. وسيأتي ما عند النصاري من ذلك وأنه ليس بعيد ليوم نزول المائدة والظاهر أن الرازي لم يطلع عليه، ومنه يعلم ما في قول الحافظ ابن كثير: إن النصاري لا تعرف خبر المائدة وإنه ليس في كتابهم المقدس عندهم، نعم إن كتابهم أو كتبهم ليس لها أسانيد متصلة بالتواتر ولا بالآحاد. ولكن يقال مع ذلك إنه لو كان لسلفهم عيد عام للمائدة لكان من الشعائر التي تتوفر الدواعي على نقلها بالقول والعمل. ويجاب بأنه يجوز أن يكون المراد بالعيد اجتماع الحواريين وأمثالهم لصلاة ونحوها كما قيل، فإن هذا يجوز أن ينسى لإخفائهم إياه في زمن الاضطهاد، أو بأن الذين أظهروا النصرانية بعد استخفاء أهلها بالاضطهاد لا يدخلون في عموم قوله (وآخرنا) لأنهم بدلوا وهو الذي أجاب به الرازي، أو بأن المراد بالعيد الذكرى والموعظة لمؤمنيهم المتبعين له عليه السلام كما تقدم عن سلمان (رض).

ويجوز أيضاً أن يكون العيد بغير اسم المائدة، وأن يكون معنى قوله ﴿تَكُونُ لَنَا عِيدًا﴾ - تكون طعاماً للعيد. وهو يصدق باطعامه العدد الكثير من الخبز والسمك القليل في عيد الفصح كما يأتي قريباً.

ثم إن كتب النصاري من الأناجيل وغيرها قسمان أحدهما قانوني وهو ما أقرته الكنيسة واعتمدته، والثاني غير قانوني وهو ما رفضته الكنيسة ولم تعتمده، ومنه انجيل برنابا الذي صرح فيه بالتوحيد الخالص والبشارة بنبوّة محمد ﷺ، وانجيل الطفولية الذي ذكر فيه مسألة جعله هيئة من الطين كهية الطير نفخ فيها فطارت، فيجوز

بعد ذلك: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ أي يسأله: أقالوا هذا القول بأمر منك أم هم افتروه وابتدعوه من عند أنفسهم؟

ومعنى قوله ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾ كائنين من دون الله - أو حال كونكم متجاوزين بذلك توحيد الله وإفراده بالعبادة. فهذا التعبير يصدق باتخاذ إله أو أكثر مع الله تعالى وهو الشرك، فإن عبادة الشريك المتخذ، غير عبادة الله خالق السموات والأرض، سواء اعتقد المشرك أن هذا المتخذ ينفع ويضر بالاستقلال - وهو نادر - أو اعتقد أنه ينفع ويضر بإقدار الله إياه وتفويضه بعض الأمر إليه فيما وراء الأسباب، أو بالوساطة عند الله أي بحمله تعالى بما له من التأثير والكرامة على النفع والضرر، وهو الأكثر الذي كان عليه مشركو العرب عند البعثة كما حكى الله عنهم في قوله ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨] وقوله ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٢٣] إلخ - وقلما يوجد في البشر المتدينين من يتخذ إلهاً غير الله متجاوزاً لعبادته الإيمان بالله الذي هو خالق الكون ومدبره، فإن الإيمان الفطري المغروس في غرائز البشر هو أن تدبير الكون كله صادر عن قوة غيبية لا يدرك أحد كنهها، فالموحدون أتباع الرسل يتوجهون بعبادتهم القولية والفعلية إلى صاحب هذه القوة الغيبية وحده، معتقدين أنه هو الفاعل المطلق وحده، وأن كل فعل ينسب إلى غيره فإنما ينسب إليه كذباً أو على أنه فعله بإقدار الله إياه عليه وتسخير له بمقتضى سننه في خلقه، التي قام بها نظام الأسباب والمسببات بمشيئته وحكمته، والمشركون يتوجهون تارة إليه وتارة إلى بعض ما يستكبرون خصائصه من خلقه، كالشمس والنجم، وبعض مواليد الأرض، وتارة يتوجهون إليهما معاً فيجعلون الثاني وسيلة إلى الأول. ومن يشعر بسلطة غيبية تتجلى له في بعض الخلق فهو يخشى ضررها ويرجو نفعها، ولا يمتد نظر عقله ولا شعور قلبه إلى سلطة فوقها، ولا يتفكر في خلق هذه الأكوان، فهو أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، فلا يعد من العقلاء المستعدين

ماذا تعمل ٣١ آباؤنا أكلوا المنّ في البرية كما هو مكتوب أنه أعطاهم خبزاً من السماء ليأكلوا ٣٢ فقال لهم يسوع الحق الحق أقول لكم ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء بل أبي يعطيكم الخبز الحقيقي من السماء ٣٣ لأن خبز الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم ٣٤ فقالوا أعطنا في كل حين هذا الخبز ٣٥ فقال لهم يسوع أنا هو خبز الحياة من يقبل إلي فلا يجوع ومن يؤمن بي فلا يعطش أبداً ٣٦ ولكنني قلت لكم إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون) إلخ القصة وفيها تكرار إنه هو خبز الحياة النازل من السماء لا المن الذي نزل على أجدادهم، وإن من يأكل جسده ويشرب دمه فله الحياة الأبدية لأنه يثبت فيه.

فهذه القصة أولها يشير إلى المائدة الجسدية، وآخرها يشير إلى المائدة الروحية، وهي قد وقعت في عيد الفصح المتفق عليه عند اليهود والنصارى إلى اليوم، ولا يزال النصارى يحتفلون به ويأكلون فيه خبزاً ويشربون خمراً باسم المسيح ويسمون العشاء الرباني. فهذا دليل على أن لهذه الآية أصلاً عندهم، ونحن نعتقد أن القرآن مهيم على كتبهم فما حكاه عن أنبيائهم فهو الحق اليقين، وما نفاه فهو المنفي الذي لا يقبل الثبوت، ومن الغريب أن يوحنا يثبت هنا أن التلاميذ قالوا للمسيح بعدما رأوا إطعامه العدد الكثير من الطعام القليل: أي آية تصنع لئرى ونؤمن بك، وإنه قال لهم: إنكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون. فهذا يوافق قول من قال إنهم سألوا المائدة امتحاناً ولم يكونوا مؤمنين حقاً كما ادعوا وهو ظاهر الآيتين هنا، وإنما استدللنا على صحة إيمانهم بتسميتهم حواريين، وبما في آل عمران والصف، على أنه حكاية عنهم أيضاً. والله أعلم بالسرائر...

اتصال هذه الآيات بما قبلها جلي ظاهر، والخطاب للنبي ﷺ، فقله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُوا مِنِّي إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ معطوف على قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ أَذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ﴾ إلخ والمعنى اذكر أيها الرسول للناس يوم يجمع الله الرسل فيسألهم جميعاً عما أجابتهم به أمهم إذ يقول لعيسى اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إلخ وإذ يقول له

وقد اطلعت على هذا الكتاب في دير يسمى (دير البلمند) وأنا في أول العهد بمعاهد التعليم. وطوائف الكاثوليك يصرحون بذلك ويفأخرون به. وقد زين الجزويت في بيروت العدد التاسع من السنة السابعة لمجلتهم (المشرق) إذ جعلوه تذكراً لمرور خمسين سنة على إعلان البابا بيوس التاسع إن مريم البتول «حُبِلَ بها بلاد دنس الخطية» وأثبتوا في هذا العدد عبادة الكنائس الشرقية لمريم كالكنائس الغربية، ومنه قول (الأب لويس شيخو) في مقالة له فيه عن الكنائس الشرقية «أن تعبد الكنيسة الأرمنية للبتول الطاهرة أم الله لأمر مشهور» وقوله «قد امتازت الكنيسة القبطية بعبادتها للبتول المغبوبة أم الله».

من يسمع أو يقرأ سؤال الله تعالى لعيسى عن عبادة الله له ولأمه تتوق نفسه لمعرفة جوابه عليه السلام، وتتوجه إلى السؤال والاستفهام، فلذلك جاء كأمثاله بأسلوب الاستئناف ﴿قَالَ سُبْحَنَكَ﴾ بدأ عليه السلام جوابه بتنزيهه لإلهه وربّه عزّ وجلّ عن أن يكون معه إله، خلافاً لمن قال إن التنزيه هنا إنما هو عن ذلك القول المسؤول عنه، فذهب إلى أن معنى الجملة: أنزهك تنزيهاً لاثقاً من أن أقول ذلك، أو من أن يقال ذلك في حقك، وظن أن هذا هو الذي يقتضيه سياق النظم، وستعلم ما فيه من الضعف، وإن ما اخترناه هو الحق.

وكلمة «سبحان» قيل إنها علم للتسبيح، وقيل إنها مصدر لسبح الثلاثي كالغفران، واستعملت مضافة باطراد إلا ما شذ في الشعر، والتسبيح تنزيه الله تعالى عما لا يليق به، وهو من مادة السبح والسباحة وهي الذهاب السريع البعيد في البحر أو البر، ومن الثاني سبح الخيل وقالوا فرس سبوح (كصبور) ومثله التقديس من القدس وهو الذهاب البعيد في الأرض، ثم استعمل التسبيح والتقديس في التنزيه. قالوا: إن التسبيح يدل على الإبعاد ولكن عن كل شر وسوء، ولذا خص بتنزيه الله تعالى، ويقابله اللعن فهو يدل على الإبعاد ولكن عن كل خير، وكذلك لفظ الإبعاد والبعد غلب استعماله في مقام الشر؛ ﴿أَلَا بُعْدًا لِعَاقِبِ قَوْمٍ هَؤُلَاءِ﴾ [هود: ٦٠] ﴿أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [إبراهيم: ٣] قال الراغب: والتسبيح تنزيه الله تعالى،

لفهم الشرائع وحقائق الدين، على أنه يصدق عليه إنه اتخذ إلهاً من دون الله، ولكن هذا النوع من اتخاذ غير مراد هنا لأن الذين شرعوا للناس عبادة المسيح وأمه كانوا من شعوب مرتقية حتى في وثنيته، ولها فلسفة دقيقة فيها، وهم اليونان والرومان، وبعض اليهود المطلعين على تلك الفلسفة جد الاطلاع. وجملة القول أن اتخاذ إله من دون الله يراد به عبادة غيره سواء كانت خالصة لغيره أو شركة بينه وبين غيره، ولو بدعاء غيره والتوجه إليه ليكون واسطة عنده ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حَقَّاقًا﴾ [البينة: ٥].

أما اتخاذهم المسيح إلهاً فقد تقدم بيانه في مواضع من تفسير هذه السورة، وأما أمه فعبادتها كانت متفقاً عليها في الكنائس الشرقية والغربية بعد قسطنطين، ثم أنكرت عبادتها فرقة البروتستانت التي حدثت بعد الإسلام بعدة قرون.

إن هذه العبادة التي توجهها النصارى إلى مريم والدة المسيح (عليهما السلام) منها ما هو صلاة ذات دعاء وثناء، واستغاثة واستشفاع، ومنها صيام ينسب إليها، ويسمى باسمها، وكل ذلك يقرن بالخضوع والخشوع وذكرها ولصورها وتمثيلها، واعتقاد السلطة الغيبية لها، التي يمكنها بها في اعتقادهم أن تنفع وتضر في الدنيا والآخرة بنفسها أو بواسطة ابنها، وقد صرحوا بوجوب العبادة لها، ولكن لا نعرف عن فرقة من فرقهم إطلاق كلمة (إله) عليها، بل يسمونها (والدة الإله) ويصرح بعض فرقهم بأن ذلك حقيقة لا مجاز، والقرآن يقول هنا إنهم اتخذوها وابنها إلهين، واتخاذ غير التسمية، فهو يصدق بالعبادة وهي واقعة قطعاً، وبين في آية أخرى إنهم قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] وذلك معنى آخر. وقد فسر النبي (ص) قوله تعالى في أهل الكتاب ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١] إنهم اتبعوهم فيما يحلون ويحرمون لا إنهم سموهم أرباباً.

وأول نص صريح رأيته في عبادة النصارى لمريم عبادة حقيقية ما في كتاب (السواعي) من كتب الروم الأرثوذكس،

ما ليس له بحق، فنتيجة المقدمتين الثابتين أنه لم يقل ذلك القول.

ثم أكد هذه النتيجة بحجة أخرى قاطعة على سبيل الترقى من البرهان الأدبي الراجع إلى نفسه وهو عصمته عليه السلام، إلى البرهان الأعلى الراجع إلى ربه العلام، فقال ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ تَعْلَمُونَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي﴾ أي إن كان ذلك القول قد وقع مني فرضاً فقد علمته، لأن علمك محيط بكل شيء، تعلم ما أسره وأخفيه في نفسي، فكيف لا تعلم ما أظهرته ودعوت إليه فعلمه مني غيري؟ ولا أعلم ما تخفيه من علومك الذاتية التي لا تهديني إليها بنظر واستدلال كسبي، إلا ما تظهرني عليه بوحى وهبي. قيل إن إضافة كلمة نفس إلى الله تعالى من باب المشاكلة، على إنها وردت بغير مقابل يسوغ ذلك كقوله تعالى ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] - ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَكُمْ﴾ [آل عمران: ٢٨] وقيل إنها بمعنى الذات، والمهم فهم المعنى من هذا الاطلاق. وتنزيه الله تعالى عن مشابهة نفسه لأنفس خلقه معروف بالنقل والعقل، فاستشكال اطلاق الوحي للاسماء مع هذا ضرب من الجهل ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْغُيُوبِ﴾ أي إنك أنت المحيط بالعلوم الغيبية وحدك، لأن علمك المحيط بكل ما كان وما يكون وما هو كائن علم ذاتي لا منتزع من صور المعلومات، ولا مستفاد بتلقين ولا بنظر واستدلال، وإنما علم غيرك منك لا من ذاته، فأما أن يناله بما آتته من المشاعر أو العقل، وأما أن يتلقاه مما تهبه من الإلهام والوحي، أي وقد علمت أنني لم أقل ذلك القول. وشرط «أن» لا يقتضي الوقوع.

ثم إنه بعد تنزيه ربه، وتبرئة نفسه، وإقامة البرهانين على براءته، بين حقيقة ما قاله لقومه، لأن الشهادة عليهم لا تكون تامة كاملة، بحيث تظهر لهم هنالك حجة الله البالغة، إلا بإثبات ما كان يجب أن يكونوا عليه من أمر الدين والتوحيد بعد نفي ضده، فكان من شأن السامع لما سبق من النفي أن يسأل عما قاله في موضوعه، ولذلك قال ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ عِبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾ فهذا قول يتضمن إنكار أن يكون أمرهم باتخاذهم وأمه إلهين

وأصله المر السريع في عبادة الله تعالى، وجعل ذلك في فعل الخير، كما جعل الإبعاد في الشر، فقليل أبعد الله، وجعل التسبيح عاماً في العبادات قولاً كان أو فعلاً أو نية، اهـ. ثم أورد الشواهد من الآيات على إطلاق التسبيح بمعنى الصلاة وبمعنى الدلالة على التنزيه كتسبيح السموات والأرض وما فيها. والمراد بتسبيح النية العلم والاعتقاد. وفي كلمة ﴿سُبِّحَنَكَ﴾ - ومثلها سبحان الله - مبالغة في هذا التنزيه أي مبالغة، إذ تدل على المبالغة بمادتها الدالة بمأخذها الاشتقاقي على البعد والإيغال والسبح الطويل في هذا البحر المديد الطويل، وبصيغتها الأصلية وهي التسبيح - التي هي مسمى اسم المصدر (سبحان) ومدلوله - فإن التفعيل يدل على التكثير، ثم بالعدول عن هذه الصيغة التي هي مصدر إلى الاسم الذي جعل علماً عليها - على قول ابن جني - فإن اسم المصدر يدل على تأكيد معنى المصدر وثباته وحقيقته، لأن مدلوله هو لفظ المصدر، فانتقال الذهن منه إلى المصدر ومن المصدر إلى المعنى بمنزلة تكرار لفظ المصدر، بل هو أبلغ وأدل على إرادة الحقيقة دون التجوز، ولم أر أحداً سبقني إلى بيان هذا على كونه في غاية الظهور عند من تأمله [ومن شدة الظهور الخفاء].

قلنا إن عيسى عليه السلام بدأ جوابه بتنزيه الله عز وجل عن أن يكون معه إله، فأثبت بهذا أنه على علم يقيني ضروري بأن الله تعالى منزّه في ذاته وصفاته عن أن يشارك في ألوهيته، وانتقل من هذا إلى تبرئة نفسه العالمة بالحق، عن قول ما ليس له بحق، فقال:

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ أي ليس من شأني

ولا مما يصح وقوعه مني أن أقول قولاً ليس لي أدنى حق أن أقوله، لأنك أيدتني بالعصمة من مثل هذا الباطل. ولا يخفى أن هذا أبلغ في البراءة من نفي ذلك القول وإنكاره إنكاراً مجرداً، لأن نفي الشأن يستلزم نفي الفعل نفياً مؤيداً بالدليل، فهو بتنزيه الله تعالى أولاً أثبت إن ذلك القول الذي سئل عنه - تمهيداً لإقامة الحجة على من اتخذوه وأمه إلهين - قول باطل ليس فيه شائبة من الحق، ثم قفى على ذلك بأنه ليس من شأنه ولا مما يقع من مثله أن يقول

يكون وحيّاً صحيحاً من الله تعالى إلى رسوله عيسى عليه الصلاة والسلام.

ولما كان المراد من السؤال الذي أجيب عنه بهذا الجواب هو إقامة الحجة التي يظهر بها عدل الله تعالى يوم القيامة فيما يجزي به من اتخذ عيسى وأمه إلهين وغيرهم من قومه فوض عليه السلام أمر الجزاء إليه تعالى بحسب ما تقتضيه شهادته تعالى وصفاته فقال ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهْتُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ﴾ أي أن تعذب أولئك الناس الذي أرسلتني إليهم فبلغتهم ما أمرتني به من توحيدك وعبادتك وحدك، فضل من ضل منهم، وقالوا ما لم أقله لهم، واهتدى من اهتدى منهم فلم يعبدوا معك أحداً من دونك، فإنهم عبادك وأنت ربهم الأولى والأحق بأمرهم، ولست أنا ولا غيري من الخلق بأرحم بهم، ولا بأعلم بحالهم، وإنما تجزيهم بحسب علمك بظواهرهم وبواطنهم، فأنت أعلم بالمؤمن الموحّد، والمشرّك المثلث، والطائع الصالح، والعاصي الفاسق، والمقر للكفر والفسق والمنكر لهما، وأنت عالم الغيب والشهادة تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون. ولا تظلم أحداً مثقال ذرة. فالمراد إذاً إن تعذب فإنما تعذب من يستحق التعذيب منهم. ولا يمنع إرادة هذا المعنى إطلاق الضمير الراجع إلى جملتهم فإنه ضمير الجنس الذي يصدق ببعض الأفراد، وهو لم يرد بصيغة من صيغ العموم. ولذلك أطلقه في المقابل. وهو قوله: وإن لم تغفر لهم إلخ أي وإن تغفر فإنما لمن يستحق المغفرة منهم، فإنك أنت العزيز أي القوي الغالب على أمره، الحكيم في جميع تصرفه وصنعه، فيضع كل حكم وجزاء وفعل في موضعه. وهو أعلم بموضع العدل، وموضع الرحمة والفضل.

وهذا التوجيه أظهر من قول بعضهم أن تعذب من أشرك منهم فإنهم عبادك، وإن تعذب من آمن منهم فإنك أنت العزيز الحكيم. فإن هذا تعيين لمن يعذبه ومن يغفر له، ينفيه إطلاق ضمير الجنس في مقام التفويض الذي مهد له بالبراءة مما قالوه فيه وفي أمه، مخالفاً لما بلغهم عن ربه، وإثبات أن الله تعالى هو الرقيب عليهم، والشهيد على كل شيء يقع منهم ومن غيرهم. فكانه قال لربه: إنك أنت

وإثبات ضده، أي ما قلت لهم في شأن الإيمان وأصل الدين وأساسه الذي يبنى عليه غيره ولا يعتد بغيره دونه، إلا ما أمرتني بالتزامه اعتقاداً وتبليغاً وهو الأمر بعبادتك وحدك، مع التصريح بأنك ربي وربهم، وإنني عبد من عبادك مثلهم، أي إلا أنك خصصتني بالرسالة إليهم. فقلوه ﴿إِنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ﴾ تفسير للمأمور به، وإنما قال: ما قلت لهم إلا ما أمرتني به، ولم يقل ما أمرتهم إلا بما أمرتني به، أدياً مع الله تعالى ومراعاة لما ورد في السؤال ﴿أَنْتَ قُلْتَ﴾.

﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ أي وكنت قائماً عليهم أراقبهم وأشهد على ما يقولون ويفعلون فأقر الحق وأنكر الباطل مدة دوام وجودي بينهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي فلما توفيتني إليك كنت أنت المراقب لهم وحدك إذ انتهت مدة رسالتني فيهم ومراقبتي لهم وشهادتي عليهم، فلا أشهد على ما وقع منهم وأنا لست فيهم، وأنت شهيد عليهم وشهيد بيني وبينهم، بما إنك شهيد على كل شيء في ملكك، وأنت أكبر شهادة ممن تجعلهم شهداء من خلقك، ﴿قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وقد مرّ في هذه السورة ما يزكي تبرئة عيسى عليه السلام لنفسه ويؤيد قوله هنا، وذلك قوله تعالى ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّكَ اللَّهُ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْكَوِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مِنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢] فجملة ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنِي لَكُمْ أَسْكَوِيلَ﴾ إلخ حالية أي قالوا قولهم ذلك والحال إن المسيح أمرهم بضده، وهو أن يعبدوا الله وحده.

وفي أناجيلهم من بقايا التوحيد الذي أمرهم به ما رواه يوحنا في انجيله عنه وهو قوله عليه السلام (٧: ٣) وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك. ويسوع المسيح الذي أرسلته) وفي إنجيل برنابا من تجريد التوحيد والاستدلال عليه بالآيات البينات ما هو جدير بأن

وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ [المائدة: ٣٨، ٣٩] فذكر عيسى عليه السلام لإسمي الله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ في جزاء شرطية المغفرة كذكره لكلمة ﴿عِبَادُكَ﴾ في جزاء شرطية التعذيب، كل منهما وقع في محله الذي تقتضيه البلاغة في مقام التفويض فكان حجة له، ولو أراد بكلامه الشفاعة والاسترحام لعكس ولكل مقام مقال، ولولا هذا لكان كل منهما اعتراضاً على الرب، أو تعريضاً بحكمه جلّ وعزّ، وحاشا لعيسى عليه الصلاة والسلام من ذلك.

ولما غفل من غفل من المفسرين عن هذا مع تصريح بعضهم بأن الكلام في تفويض الأمر إلى الله تعالى استشكلوا العبارة، وचारوا فيما فهموه من دلالتها على جواز غفران الشرك، وطفقوا يتلمسون النكتة لترتيب الغفران على صفتي العزة والحكمة، دون ما يتبادر من ترتيبه على صفتي المغفرة والرحمة، واستنجدوا مذاهبهم الكلامية في ذلك فانجذبت مفسري الأشعرية، بما استطالوا به على مفسري المعتزلة، فقالوا إن المعنى أن تعذبهم فإنهم عبيدك والمالك يتصرف بعبيده كما يشاء فلا يستل ولا يعترض عليه وإن عذب أكملهم إيماناً وإسلاماً واحساناً، وقال بعضهم إن المراد فإنهم عبيدك الأرقاء في أسر ملكك، الضعفاء العاجزون عن الامتناع من عقابك، وإن تغفر لهم ما كان من شركهم وكفرهم وما يتبعه من سوء أعمالهم فإنك أنت القوي القادر على ذلك الحكيم فيه من حيث إن المغفرة مستحسنة لكل مجرم. قاله أبو السعود. وقال الألوسي: والمغفرة للكافر لم يعدم فيها وجه حكمة، لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول، بل متى كان المجرم أعظم جرماً كان العفو عنه أحسن لأنه أدخل في الكرم، وإن كانت العقوبة أحسن في حكم الشرع من جهات آخر، اهـ. وظاهر هذا إن حكم الشرع في هذا الأصل من أصول الدين على خلاف المعقول، وليس كذلك...

وأقول: إن هذا لوجه أضعف من الوجه الذي قبله فجميع ما أورده الرازي من الوجوه ضعيف. وما كان ليخفى ضعفها بل سقوطها وبطلان كثير من مسائلها على ذكائه النادر، واطلاعه الواسع، لولا عصبية المذاهب.

العليم بما كان منهم مدة وجودي بينهم وبعد وفاتي، وأنت الشهيد عليهم ولا شهادة أكبر ولا أصدق من شهادتك، فمهما توقعه فيهم من عذاب فلا دافع له من دونك، إذ لا يوجد أحد أرحم منك بعبادك فيرحمهم أو يسألك أن ترحمهم، ومهما تمنحهم من مغفرة فلا يستطيع أحد حرمانهم منها بحوله وقوته، لأنك أنت العزيز الذي يغلب ولا يُغلب، ويمنع من شاء ما شاء ولا يُمنع، ولا بتحويلك عن إرادتك فإنك أنت الحكيم الذي تضع كل شيء موضعه، فلا يمكن لأحد غيرك أن يرجعك عنه، بناء على أن غيره أولى منه. فمن ذا الذي يستطيع الاستدراك أو الافتيات عليك؟

فهذا بيان ما يقتضيه التفويض المطلق إلى الله تعالى وحده، بل أقول إن في جزاء الشرط الأول إشارة إلى أن تعذيب من يظن المخلوقون إنهم يستحقون المغفرة إن وقع من الله فلا يكون إلا عدلاً، لأنهم عباد الله المضافون إليه، ومن شأن هذه الإضافة أن تفيدهم مغفرة منه ورحمة، يدل على ذلك قوله تعالى ﴿يَعْبَادُ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الزخرف: ٦٨] ﴿يَكْبَادُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُمْ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣] وأمثالها من الآيات التي أضيف فيها لفظ عباد إلى الله، فإذا وقع عليهم العذاب فلا بد أن يكون سببه الذي خفي عن المخلوقين عظيماً، فالأدب التفويض - وفي جزاء الشرط الثاني إشارة إلى أن المغفرة إن أصابت من يظن المخلوقون إنه يستحق العذاب فلا تكون من الله تعالى إلا لغاية اقتضتها عزة الألوهية، وحكمة الربوبية، فلا عبرة بالظواهر التي تبدو للمخلوقين بالنسبة إلى علم علام الغيوب وحكمته ولا سيما في ذلك اليوم، فالواجب أن يفوض إليه الأمر كله، يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء. وبهذا تنجلي نكتة اختيار ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ هنا على ﴿الْعَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على خلاف المعروف من أسلوب القرآن في مراعاة مناسبة المقام في قرن الأسماء الإلهية بالأفعال والأحكام، كما تقدم بيانه في تفسير ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ

ورد هذا المعنى في عدة أحاديث في الصحاح والسنن في ألفاظ بعض اختلاف لا يغير المعنى. منها إن هؤلاء الذين أحدثوا بعده (ص) يذاذون أي يطردون عن الحوض. واختلف العلماء فيهم فقليل هم الذين ارتدوا بعده عن الإسلام وقاتلهم أبو بكر وقليل هم المنافقون وقليل هم المبتدعة. (منها) حديث أبي ذر عند أحمد والنسائي وابن بردويه إنه (ص) قام بهذه الآية ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهْتُمْ عِبَادُكَ﴾ إلخ حتى أصبح يركع بها ويسجد فسأله أبو ذر عن ذلك فقال «إني سألت ربي سبحانه الشفاعة فأعطانيها وهي نائلة إن شاء الله تعالى من لا يشرك بالله شيئاً».

فهذه الأحاديث تدل على أن مقام التفويض غير مقام الشفاعة وإن الشفاعة لا تنال أحداً يشرك بالله تعالى شيئاً، وفاقاً لما جاء به الوحي على لسان عيسى (ص) كما تقدم في هذه السورة ولسان محمد (ص) كما تقدم في آيتين من سورة النساء؛ ووفقاً للآيات التي تنفي الشفاعة في الآخرة باطلاق أو تنفي قبولها، أو تقيدها على تقدير حصولها بمثل قوله تعالى ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٨] بعدما تقدم من تفويض عيسى أمر قومه إلى ربه عز وجل بتلك العبارة البليغة، في إثر تلك الأجوبة السديدة، تتوجه النفس إلى معرفة ما يقوله الرب في ذلك اليوم العظيم وتسأل عنه بلسان الحال أو المقال إن لم تسمعه...

ولكن قوله في أثناء شرح الوجه الثاني: أن مقصد عيسى عليه السلام من كلامه تفويض الأمر إلى الله عز وجل هو الحق المبين، وقد هدانا الله تعالى إلى تفسيره وشرح نكتة البلاغة فيه بأوضح تبين، وقد علم مما بيناه أن كلام عيسى عليه السلام لا يتضمن شيئاً من الشفاعة لقومه... ويؤيد هذا عدة أحاديث (منها) حديث عبد الله بن عمرو بن العاص في صحيح مسلم أن النبي (ص) تلا قول الله تعالى في إبراهيم (ص) ﴿رَبِّ إِنِّي أَخْلَلْتُ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ - [إبراهيم: ٣٦]، وقول عيسى عليه السلام ﴿إِنْ تَعَذَّبْتُمْ فَلَا تَهْتُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرَ لَهُمْ فَلَئِنْ أَنتَ الْغَفِيرُ الْحَكِيمُ﴾ فرفع يديه وقال «اللهم أمتي أمتي» وبكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله: ما يبكيك؟ فأتاه جبريل فسأله فأخبره رسول الله (ص) بما قال - وهو أعلم - فقال الله «يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنرضيك في أمتك ولا نسوءك» (ومنها) حديث ابن عباس في صحيح البخاري قال فيه: «ألا وإنه يجاء برجال من أمتي يوم القيامة فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول: أصحابي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ﴾ إلى قوله ﴿الْحَكِيمُ﴾ قال فيقال: إنهم لم يزلوا مرتدين على أعقابهم» وفي حديث أبي هريرة عند البخاري وغيره بهذا المعنى زيادة «فأقول بعداً لهم وسحقاً» وقد

سيد قطب ج ٢ ص ٩٩٧ - ١٠٠٢

التي لا يقدر عليها بشر إلا بإذن الله. فإذا هو يصور من الطين كهيئة الطير بإذن الله؛ فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله - لا ندري كيف لأننا لا ندري إلى اليوم كيف خلق الله الحياة، وكيف يثبت الحياة في الأحياء - وإذا هو يرى المولود أعمى - بإذن الله - حيث لا يعرف الطب كيف يرد إليه البصر - ولكن الله الذي يهب البصر أصلاً قادر على أن يفتح عينه للنور - ويرى الأبرص بإذن الله، لا بدواء - والدواء وسيلة لتحقيق إذن الله في الشفاء، وصاحب الإذن قادر على تغيير الوسيلة، وعلى تحقيق الغاية بلا وسيلة - وإذا هو يحيي الموتى بإذن الله - وواهب الحياة أول مرة

... إنها المواجهة بما كان من نعم الله على عيسى ابن مريم وأمه... من تأييده بروح القدس في مهده، وهو يكلم الناس في غير موعد الكلام؛ يبرىء أمه من الشبهة التي أثارها ولادته على غير مثال؛ ثم وهو يكلمهم في الكهولة يدعوهم إلى الله... وروح القدس جبريل - عليه السلام - يؤيده هنا وهناك... ومن تعليمه الكتاب والحكمة؛ وقد جاء إلى هذه الأرض لا يعلم شيئاً، فعلمه الكتابة وعلمه كيف يحسن تصريح الأمور، كما علمه التوراة التي جاء فوجدها في بني إسرائيل؛ والإنجيل الذي آتاه إياه مصداقاً لما بين يديه من التوراة. ثم من إيتائه خارق المعجزات

محمد ﷺ - ذلك مستوى، وهذا مستوى .. وهؤلاء مسلمون وأولئك مسلمون .. وهؤلاء مقبولون عند الله وهؤلاء مقبولون .. ولكن تبقى المستويات متباعدة كما أرادها الله ..

وقصة المائدة - كما أوردها القرآن الكريم - لم ترد في كتب النصارى. ولم تذكر في هذه الأناجيل التي كتبت متأخرة بعد عيسى - عليه السلام - بفترة طويلة، لا يؤمن معها على الحقيقة التي تنزلت من عند الله. وهذه الأناجيل ليست إلا رواية بعض القديسين عن قصة عيسى - عليه السلام - وليست هي ما أنزله الله عليه وسماه الإنجيل الذي آتاه .. ولكن ورد في هذه الأناجيل خبر عن المائدة في صورة أخرى: فورد في إنجيل متى في نهاية الإصحاح الخامس عشر: «وأما يسوع فدعا تلاميذه، وقال: إني أشفق على الجميع، لأن لهم الآن ثلاثة أيام يمشون معي، وليس لهم ما يأكلون. ولست أريد أن أصرفهم صائمين لثلاثي يخوروا في الطريق. فقال له تلاميذه: من أين لنا في البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعاً هذا عدده؟ فقال لهم يسوع: كم عندكم من الخبز؟ فقالوا: سبعة وقليل من صغار السمك. فأمر الجموع أن يتكثوا على الأرض؛ وأخذ السبع خبزات والسمك، وشكر وكسر، وأعطى تلاميذه، والتلاميذ أعطوا الجمع، فأكل الجمع وشبعوا، ثم رفعوا ما فضل من الكسر سبعة سلال مملوءة، والآكلون كانوا أربعة آلاف، ما عدا النساء والأولاد» .. وورد مثل هذه الرواية في سائر الأناجيل ..

وبعض التابعين - رضوان الله عليهم - كمجاهد والحسن - يريان أن المائدة لم تنزل. لأن الحواريين حينما سمعوا قول الله سبحانه: ﴿إِنِّي مَنَزَّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مَنكُم مِّنْكُمْ فَإِنَّ عَذَابَهُ عَذَابًا لَا أَعْدِيهِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ .. خافوا وكفوا عن طلب نزولها: قال ابن كثير في التفسير: «روى الليث بن أبي سليم عن مجاهد قال: «هو مثل ضربه الله ابن جرير .. عن مجاهد قال: مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب إن كفروا، فأبوا أن تنزل عليهم .. وقال أيضاً؛ حدثنا أبو المثنى، عن الحسن، أنه

قادر على رجوعها حين يشاء - ثم يذكره بنعمة الله عليه في حمايته من بني إسرائيل إذ جاءهم بهذه البينات كلها فكذبوه وزعموا أن معجزاته هذه الخارقة سحر مبین ذلك أنهم لم يستطيعوا إنكار وقوعها - وقد شهدتها الألوف - ولم يريدوا التسليم بدلائلها عناداً وكبراً .. حمايته منهم فلم يقتلوه - كما أرادوا ولم يصلبوه. بل توفاه الله ورفعاه إليه .. كذلك يذكره بنعمة الله عليه في إلهام الحواريين أن يؤمنوا بالله وبرسوله؛ فإذا هم ملبون مستسلمون، يشهدونه على إيمانهم وإسلامهم أنفسهم كاملة لله: ﴿وَأَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَآمَنَّا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ ..

إنها النعم التي آتاه الله عيسى ابن مريم، لتكون له شهادة وبينه. فإذا كثرة من أتباعه تتخذ منها مادة للزيف؛ وتصوغ منها وحولها الأضاليل - فهذا هو ذا عيسى يواجه بها على مشهد من الملائكة الأعلى، ومن الناس جميعاً، ومنهم قومه الغالون فيه .. ها هو ذا يواجه بها ليسمع قومه ويروا؛ وليكون الخزي أوجع وأفضح على مشهد من العالمين!

ويستطرد السياق في معرض النعم على عيسى ابن مريم وأمه، إلى شيء من نعمة الله على قومه، ومن معجزاته التي أيد به الله بها وشهدا وشهد بها الحواريون ..

ويكشف لنا هذا الحوار عن طبيعة قوم عيسى .. المستخلصين منهم وهم الحواريون .. فإذا بينهم وبين أصحاب رسولنا ﷺ - فرق بعيد .. إنهم الحواريون الذين ألهمهم الله الإيمان به وبرسوله عيسى. فآمنوا. وأشهدوا عيسى على إسلامهم .. ومع هذا فهم بعد ما رأوا من معجزات عيسى ما رأوا، يطلبون خارقة جديدة. تطمئن بها نفوسهم. ويعلمون منها أنه صدقهم. ويشهدون بها له لمن وراءهم. فأما أصحاب محمد ﷺ - فلم يطلبوا منه خارقة واحدة بعد إسلامهم .. لقد آمنت قلوبهم واطمأنت منذ أن خالطتها بشاشة الإيمان. ولقد صدقوا رسولهم فلم يعودوا يطلبون على صدقه بعد ذلك البرهان. ولقد شهدوا له بلا معجزة إلا هذا القرآن .. هذا الفارق الكبير بين حواربي عيسى عليه السلام - وحواريي

ورائه: ﴿ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونَ عَلَيْنَا مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ . فهم يريدون أن يأكلوا من هذا الطعام الفريد الذي لا نظير له عند أهل الأرض . وتطمئن قلوبهم برؤية هذه الخارقة وهي تتحقق أمام أعينهم ؛ ويستيقنوا أن عيسى عليه السلام قد صدقهم ، ثم يكونوا شهوداً لدى بقية قومهم على وقوع هذه المعجزة .

وكلها أسباب كما قلنا تصور مستوى معيناً دون مستوى أصحاب محمد - ﷺ - فهؤلاء طراز آخر بالموازنة مع هذا الطراز عندئذ اتجه عيسى - عليه السلام - إلى ربه يدعوهُ : ﴿ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عَيْدًا لَأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ . .

وفي دعاء عيسى عليه السلام كما يكرر السياق القرآني هذه النسبة - أدب العبد المجتبي مع إلهه ومعرفته بربه . فهو يناديه : يا الله . يا ربنا . إنني أدعوك أن تنزل علينا مائدة من السماء ، نعمنا بالخير والفرحة كالعيد ، فتكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا ؛ وأن هذا من رزقك فارزقنا وأنت خير الرازقين . . فهو إذن يعرف أنه عبد وأن الله ربه . وهذا الاعتراف يعرض على مشهد من العالمين ، في مواجهة قومه ، يوم المشهد العظيم !

واستجاب الله دعاء عبده الصالح عيسى ابن مريم ؛ ولكن بالجد اللائق بجلاله سبحانه . . لقد طلبوا خارقة . واستجاب الله . على أن يعذب من يكفر منهم بعد هذه الخارقة عذاباً شديداً بالغاً في شدته لا يعذبه أحدٌ من العالمين : ﴿ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ . . فهذا هو الجد اللائق بجلال الله ؛ حتى لا يصبح طلب الخوارق تسلياً ولهواً . وحتى لا يمضي الذين يكفرون بعد البرهان المفحم دون جزاء رادع ! وقد مضت سنة الله من قبل بهلاك من يكذبون بالرسول بعد المعجزة . . فأما هنا فإن النص يحتمل أن يكون هذا العذاب في الدنيا ، أو أن يكون في الآخرة .

ويسكت السياق بعد وعد الله وتهديده . . ليمضي إلى

قال في المائدة : إنها لم تنزل . . وحدثنا بشر ، عن قتادة ، قال : كان الحسن يقول : لما قيل لهم : ﴿ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدَ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل .

ولكن أكثر آراء السلف على أنها نزلت . لأن الله تعالى قال : ﴿ إِنِّي مُنْزِلُهَا عَلَيْكُمْ ﴾ . ووعد الله حق . وما أورده القرآن الكريم عن المائدة هو الذي نعتمده في أمرها دون سواه . . إن الله - سبحانه - يذكر عيسى ابن مريم - في مواجهة قومه يوم الحشر وعلى مشهد من العالمين - بفضل عليه : ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ . . . لقد كان الحواريون - وهم تلاميذ المسيح وأقرب أصحابه إليه وأعرفهم به - يعرفون أنه بشر . . ابن مريم . . وينادونه بما يعرفونه عنه حق المعرفة . وكانوا يعرفونه أنه ليس رباً وإنما هو عبد مربوب لله . وأنه ليس ابن الله ، إنما هو ابن مريم ومن عبيد الله ؛ وكانوا يعرفون كذلك أن ربه هو الذي يصنع تلك المعجزات الخوارق على يديه ، وليس هو الذي يصنعها من عند نفسه بقدرته الخاصة . . لذلك حين طلبوا إليه ، أن تنزل عليهم مائدة من السماء ، لم يطلبوها منه ، فهم يعرفون أنه بذاته لا يقدر على هذه الخارقة . وإنما سألوهُ : ﴿ يَٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ﴾ . . .

واختلفت التأويلات في قولهم : ﴿ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ ﴾ . . كيف سألوا بهذه الصيغة بعد إيمانهم بالله وإشهاد عيسى - عليه السلام - على إسلامهم له . وقيل : إن معنى يستطيع ليس (يقدر) ولكن المقصود وهو لازم الاستطاعة وهو أن ينزلها عليهم . وقيل : إن معناها : هل يستجيب لك إذا طلبت . وقرئت : «هل تستطيع ربك» . بمعنى هل تملك أنت أن تدعو ربك لينزل علينا مائدة من السماء . . وعلى أية حال فقد رد عليهم عيسى - عليه السلام - محذراً إياهم من طلب هذه الخارقة . . لأن المؤمنين لا يطلبون الخوارق ، ولا يقترحون على الله . ﴿ قَالَ أَتَقُولُوا اللَّهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ . . ولكن الحواريين كرروا الطلب ، معلنين عن علته وأسبابه وما يرجون من

- سبحانه - بملك السماوات والأرض ما فيهن؛ وقدرته - سبحانه - على كل شيء بلا حدود: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٢٠].

ختام يتناسق مع تلك القضية الكبرى التي أطلقت حولها تلك الفرية الضخمة، ومع ذلك المشهد العظيم الذي يتفرد الله فيه بالعلم، ويتفرد بالالوهية، ويتفرد بالقدرة، وينيب إليه الرسل؛ ويفوضون إليه الأمر كله؛ ويفوض فيه عيسى ابن مريم أمره وأمر قومه إلى العزيز الحكيم. الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، وهو على كل شيء قدير...

وختام يتناسق مع السورة التي تتحدث عن «الدين» وتعرضه ممثلاً في اتباع شريعة الله وحده، والتلقي منه وحده، والحكم بما أنزله دون سواه... إنه المالك الذي له ملك السماوات والأرض وما فيهن، والمالك هو الذي يحكم: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤]... إنها قضية واحدة... قضية الألوهية... قضية التوحيد... وقضية الحكم بما أنزل الله... لتتوحد الألوهية، ويتحقق التوحيد...

ولقد شهدنا المشهد - من خلال العرض القرآني له بطريقة القرآن الفريدة - وسمعنا الكلمة الأخيرة... شهدنا وسمعنا لأن طريقة التصوير القرآنية لم تدعه وعداً يوعد، ولا مستقبلاً ينتظر؛ ولم تدعه عبارات تسمعها الأذان أو تقرأها العيون. إنما حركت به المشاعر، وجسمته واقعاً اللحظة تسمعه الأذان وتراه العيون...

على أنه إن كان بالقياس إلينا - نحن البشر المحجوبين - مستقبلاً نتظره يوم الدين، فهو بالقياس إلى علم الله المطلق، واقع حاضر. فالزمن وحجابه إنما هما من تصوراتنا نحن البشر الفانين...

وفي نهاية هذا الدرس؛ وفي مواجهة الفرية الكبرى التي لم يفتّر أضخم منها قط أتباع رسول! في مواجهة الفرية الكبرى التي أطلقها أتباع المسيح عيسى ابن مريم - عليه السلام - فرية ألوهيته؛ الفرية التي تبرأ منها هذا التبرؤ، وفوض ربه في أمر قومه بشأنها هذا التفويض...

في مواجهة هذه الفرية، وفي نهاية الدرس الذي عرض ذلك الاستجواب الرهيب عنها، في ذلك المشهد العظيم... يجيء الإيقاع الأخير في السورة؛ يعلن تفرد الله

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾

١٥

(سورة الأنعام، رقم ٦، الآية ٨٥)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ٧	ص ١٧٢ - ١٧٣	أبو حيان الأندلسي
الزمخشري	ج ٢	ص ٣٣	ابن كثير
الرازي	ج ١٣	ص ٦٥	الجلالان
الطبرسي	ج ٧	ص ١١٨ - ١٢٣	الشوكاني
ابن عربي	ج ١	ص ٣٨٤ - ٣٨٧	الآلوسي
البيضاوي	ج ٢	ص ١٩٦ - ١٩٧	القاسمي
الخازن	ج ٢	ص ١٨٥	محمد عبده
البغوي	ج ٢	ص ٩٣	الطباطبائي
الماوردي	ج ٢	ص ١٤٠	جوهري
القرطبي	ج ٧	ص ٣١ - ٣٣	المراغي
			سيد قطب
			ج ٤
			ج ٢
			ص ١٧٦
			ص ١٣٦ - ١٣٨
			ص ٢١٣ - ٢١٤
			ص ٦١٠ - ٦١٤
			ص ٥٨٤ - ٦١٠
			ص ٢٤١ - ٢٦٥
			ص ٥٥ - ٨٠
			ص ١٧٩ - ١٨٧
			ص ١١٣٦ - ١١٥٠

الطبري ج ٧ ص ١٧٢ - ١٧٣

إدريس هو إلياس وإسرائيل هو يعقوب وأما أهل الأنساب فإنهم يقولون إدريس جد نوح بن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ وأخنوخ هو إدريس بن يرد بن مهلائيل وكذلك روي عن وهب بن منبه والذي يقول أهل الأنساب أشبه بالصواب وذلك أن الله تعالى نسب إلياس في هذه الآية إلى نوح وجعله من ذريته ونوح ابن إدريس عند أهل العلم فمحال أن يكون جد أبيه منسوباً إلى أنه من ذريته وقوله كل من الصالحين يقول من ذكرنا من هؤلاء الذين سمينا من الصالحين يعني زكريا ويحيى وعيسى وإلياس صلى الله عليهم .

القول في ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ﴾ يقول تعالى ذكره وهدينا أيضاً لمثل الذي هدينا له نوحاً من الهدى والرشاد من ذريته زكريا بن أزن ابن بركيا ويحيى بن زكريا وعيسى ابن مريم ابنة عمران بن أشيم بن أمور بن حزقيا وإلياس واختلفوا في إلياس فكان ابن إسحق يقول هو إلياس بن يسي بن فنحاص بن العيزار ابن هرون بن عمران ابن أخي موسى نبي الله ﷺ وكان غيره يقول هو إدريس وممن ذكر ذلك عنه عبدالله بن مسعود حدثنا محمد بن بشار . . . عن عبد الله بن مسعود قال

البيضاوي ج ٢ ص ١٩٦ - ١٩٧

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ﴾ وفي ذكره دليل على أن الذرية تتناول أولاد البنت .

أبو حيان الأندلسي ج ٤ ص ١٦٢ - ١٧٤

أصل ويحيى فرع وقرن عيسى وإلياس لاشتراكهما في كونهما لم يموتا بعد وقدم عيسى لأنه صاحب كتاب ودائرة متسعة وتقدم ذكر أنساب هؤلاء الأنبياء إلا إلياس . . .

﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِيلَاسَ﴾ قرن بينهم لاشتراكهم في الزهد الشديد والإعراض عن الدنيا وبدأ زكريا ويحيى لسبقهما عيسى في الزمان وقدم زكريا لأنه والد يحيى فهو

الآلوسي ج ٤ ص ٢١٣ - ٢١٤

في كونه ذرية لجده من الأم .
وتعقب بأن مقتضى كونه بلا أب أن يذكر في حيز الذرية
وفيه منع ظاهر والمسألة خلافية، والذاهبون إلى دخول ابن
البنات في الذرية يستدلون بهذه الآية وبها احتج موسى الكاظم
رضي الله تعالى عنه على ما وراء البعض عن الرشيد . . .

﴿وَعِيسَى﴾ ابن مريم وهو اسم عبراني أو سرياني وفي
الصحيح أنه ربعة أحمر كأنما خرج من ديماس وفي ذكره
عليه السلام دليل على أن الذرية يتناول أولاد البنات لأن
انتسابه ليس إلا من جهة أمه وأورد عليه أنه ليس له أب
يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه فلا يظهر قياس غيره عليه

القاسمي ج ٦ ص ٦١٠ - ٦١٤

استدل بهذه الآية، وآية المباهلة، حيث دعا ﷺ الحسن
والحسين رضي الله عنهما بعدما نزل: ﴿نَدْعُ أَبْنَاءَنَا
وَأَبْنَاءَ كُرٍّ﴾ [آل عمران: ٦١]. إن لم نقل إنه من خصائصه
ﷺ. انتهى.

وفي (العناية): أورد على الاستدلال بتناول الذرية
أولاد البنات من هذه الآية، بأن عيسى عليه السلام ليس
له أب، يصرف إضافته إلى الأم إلى نفسه، فلا يظهر
قياس غيره عليه. والمسألة مختلف فيها، والقائل بها

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُوهُمْ . اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمُورُهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(سورة التوبة، رقم ٩، الآية ٣٠ - ٣١)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ١٠	ص ٧٨ - ٨٢	أبو حيان الأندلسي
الزمخشري	ج ٢	ص ١٨٤ - ١٨٥	ابن كثير
الرازي	ج ١٦	ص ٣٢ - ٣٨	الجلالان
الطبرسي	ج ١٠	ص ٤٥ - ٤٩	الشوكاني
ابن عربي	ج ١	ص ٤٩١ - ٤٩٤	الألوسي
البيضاوي	ج ٣	ص ٦٥ - ٦٦	القاسمي
الخازن	ج ٣	ص ٨١ - ٨٤	محمد عبده
البغوي	ج ٢	ص ٢٤٠ - ٢٤١	الطباطبائي
الماوردي	ج ٢	ص ٣٥٢ - ٣٥٤	جوهري
القرطبي	ج ٨	ص ١١٦ - ١٢٠	المراغي
			سيد قطب
			ج ٥
			ج ٢
			ج ٢
			ج ٥
			ج ٨
			ج ١٠
			ج ٩
			ج ٥
			ج ٤
			ج ٣
			ص ٣٠ - ٣٢
			ص ٣٤٨ - ٣٤٩
			ص ٢٤٤ - ٢٤٥
			ص ٣٥٢ - ٣٥٥
			ص ٨٠ - ٨٥
			ص ١٨٠ - ١٨٧
			ص ٣٢١ - ٣٨٣
			ص ٢٣٦ - ٢٦٦
			ص ١٠٣ - ١٠٥
			ص ٩٦ - ١٠٣
			ص ١٦٣٤ - ١٦٤٣

الطبري ج ١٠ ص ٧٨ - ٨٢

الله وإنما قالوا هو ابن الله من أجل أن عزير كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان التابوت فيهم فلما رأى الله أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع الله عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم وأرسل الله عليهم مرضاً فاستطلقت بطونهم حتى جعل الرجل يمشي كبده حتى نسوا التوراة ونسخت من صدورهم وفيهم عزير فمكثوا ما شاء الله أن يمكثوا بعدما نسخت التوراة من صدورهم وكان عزير قبل من علمائهم فدعا عزير الله وابتهل إليه أن يرد إليه الذي نسخ من صدره من التوراة فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله نزل نور من الله فدخل جوفه فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فأذن في قومه فقال يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إليّ فعلق يعلمهم فمكثوا ما شاء الله وهو يعلمهم ثم إن التابوت نزل بعد ذلك وبعد ذهابه منهم فلما رأوا التابوت عرضوا ما كان فيه على الذي كان عزير يعلمهم فوجدوه

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفَنُؤْفِكُوهُمْ﴾
اختلف أهل التأويل في القائل عزير ابن الله فقال بعضهم كان ذلك رجلاً واحداً وهو فنحاص ذكر من قال ذلك حدثنا القاسم . . . عن عبد الله ابن عبيد بن عمير قوله وقالت اليهود عزير ابن الله قالها رجل واحد قالوا إن اسمه فنحاص وقالوا هو الذي قال إن الله فقير ونحن أغنياء . وقال آخرون بل كان ذلك قول جماعة منهم ذكر من قال ذلك . حدثنا أبو كريب . . . عن ابن عباس قال أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان ابن أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله فأنزل الله في ذلك من قولهم وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله إلى أنى يؤفكون حدثني محمد بن سعد عن ابن عباس قوله وقالت اليهود عزير ابن

كانت الباء من ابن ساكنة مع التنوين الساكن والتقى ساكنان فحذف الأول منهما استقلاً لتحريكه قال الراجز:

* لتجديني بالأمير برا *

* وبالقناة مد عسامكرا *

* إذا غطيف السلمي فرا *

فحذف النون للساكن الذي استقبلها. قال أبو جعفر وأولى القراءتين بالصواب في ذلك قراءة من قرأ عزيز ابن الله بتنوين عزيز لان العرب لاتنون الأسماء إذا كان الابن نعتاً للاسم كقولهم هذا زيد بن عبد الله فأرادوا الخبر عن عزيز بأنه ابن الله ولم يريدوا أن يجعلوا الابن له نعتاً والابن في هذا الموضع خبر لعزيز لأن الذين ذكر الله عنهم أنهم قالوا ذلك إنما أخبروا عن عزيز أنه كذلك وإن كانوا بقليلهم ذلك كانوا كاذبين على الله مفتريين. وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهون قول الذين كفروا من قبل يعني قولهم اليهود عزيز ابن الله يقول نسبة قول هؤلاء في الكذب على الله والفرية عليه ونسبتهم المسيح إلى أنه الله ابن ككذب اليهود وفريتهم على الله في نسبتهم عزيز إلى أنه الله ابن ولا ينبغي أن يكون لله ولد سبحانه بل له ما في السموات والأرض كل له قانتون. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني المشنى . . . عن ابن عباس قوله يضاهون الذين كفرون من قبل يقول يشبهون حدثنا بشر . . . عن قتادة قوله يضاهون قول الذين كفروا من قبل ضاهت النصارى قول اليهود قبلهم حدثني محمد بن الحسين . . . عن السدي يضاهون قول الذين كفروا من قبل النصارى يضاهون قول اليهود في عزيز حدثنا القاسم . . . عن ابن جريج يضاهون قول الذين كفروا من قبل يقول النصارى يضاهون قول اليهود حدثني محمد بن سعيد . . . عن ابن عباس قوله يضاهون قول الذين كفروا من قبل يقول قالوا مثل ما قال أهل الأوثان وقد قيل أن معنى ذلك يحكون بقولهم قول أهل الأديان الذين قالوا اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق يضاهون بغير همز وقرأه عاصم يضاهون بالهمز وهي لغة لثقيف وهما لغتان يقال ضاهيته على كذا أضاهيه مضاهاة

مثله فقالوا والله ما أوتي عزيز هذا إلا أنه ابن الله حدثني محمد بن الحسين . . . عن السدي وقالت اليهود عزيز ابن الله إنما قالت ذلك لأنهم ظهرت عليهم العمالة فقتلهم وأخذوا التوراة وذهب علماؤهم الذين بقوا فدفنوا كتب التوراة في الجبال وكان عزيز غلاماً يتعبد في رؤوس الجبال لا ينزل إلا يوم عيد فجعل الغلام يبكي ويقول رب تركت بني إسرائيل بغير عالم فلم يزل يبكي حتى سقطت أشفار عينيه فنزل مرة إلى العيد فلما رجع إذا هو بامرأة قد مثلت له عند قبر من تلك القبور تبكي وتقول يا مطعمها ويا كاسياها فقال لها ويحك من كان يطعمك ويكسوك ويسقيك وينفعك قبل هذا الرجل قالت الله قال فإن الله حي لم يموت قالت يا عزيز فمن كان يعلم العلماء قبل بني إسرائيل قال الله قالت فلم تبكي عليهم فلما عرف أنه قد خصم ولى مدبراً فدعته فقالت يا عزيز إذا أصبحت غداً فأت نهر كذا وكذا فاغتسل فيه ثم اخرج فصل ركعتين فإنه يأتيك شيخ فما أعطاك فخذها فلما أصبح انطلق عزيز إلى ذلك النهر فاغتسل فيه ثم خرج فصل ركعتين فجاءه الشيخ فقال افتح فمك ففتح فمه فألقى فيه شيئاً كهيئة الجمرة العظيمة مجتمعاً كهيئة القوارير ثلاث مرار فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل إني قد جئتكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على كل إصبع له قلماً وكتب بأصابعه كلها فكتبت التوراة كلها فلما رجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرج أولئك العلماء كتبهم التي كانوا دفنوها من التوراة في الجبال وكانت في خواب مدفونة فعارضوها بتوراة عزيز فوجدوها مثلها فقالوا ما أعطاك الله هذا إلا أنك ابنه. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء أهل المدينة وبعض المكيين والكوفيين وقالت اليهود عزيز ابن الله لا ينونون عزيز وقرأه بعض المكيين والكوفيين عزيز ابن الله بتنوين عزيز قال هو اسم مجرى وإن كان أعجمياً لخفته وهو مع ذلك غير منسوب إلى الله فيكون بمنزلة قول القائل زيد ابن عبد الله وأوقع الابن موقع الخبر ولو كان منسوباً إلى الله لكان الوجه فيه إذا كان الابن خبراً الأجراء والتنوين فكيف هو منسوب إلى غير أبيه وأما من ترك تنوين عزيز فإنه لما

ويحرمون ما يحرمونه عليهم مما قد أحله الله لهم كما حدثني الحسن بن يزيد الطحان... عن عدي بن حاتم قال انتهيت إلى النبي ﷺ وهو يقرأ في سورة براءة اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فقال أما أنهم لم كونوا يعبدونهم ولكن كانوا يحلون لهم فيحلون حدثنا أبو كريب وابن وكيع... عن عدي بن حاتم قال أتيت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح هذا الوثن من عنقك قال فطرخته وانتهيت إليه وهو يقرأ في سورة براءة فقرأ هذه الآية اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال قلت يا رسول الله إنا لسنا نعبدكم فقال أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتحلونه قال قلت بلى قال فتلك عبادتهم واللفظ لحديث أبي كريب حدثني سعيد بن عمرو السكوني... عن عدي بن حاتم قال سمعت رسول الله ﷺ يقرأ سورة براءة فلما قرأ اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قلت يا رسول الله أما أنهم لم يكونوا يصلون لهم قال صدقت ولكن كانوا يحلون لهم ما حرم الله فيستحلونه ويحرمون ما أحل الله لهم فيحرمونه حدثنا محمد بن بشار... عن حذيفة أنه سئل عن قوله اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله أكانوا يعبدونهم قال لا كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه حدثنا ابن وكيع... عن أبي البخري قال قيل لأبي حذيفة فذكر نحوه غير أنه قال ولكن كانوا يحلون لهم الحرام فيستحلونه ويحرمون عليهم الحلال فيحرمونه حدثنا ابن وكيع... عن أبي البخري قال قيل لحذيفة رأيت قول الله اتخذوا أربابهم قال أما أنهم لم يكونوا يصومون لهم ولا يصلون لهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً أحله الله لهم حرموه فتلك كانت ربوبيتهم. قال ثنا جرير وابن فضيل عن عطاء عن أبي البخري اتخذوا أربابهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال انطلقوا إلى حلال الله فجعلوه حراماً وانطلقوا إلى حرام الله فجعلوه حلالاً فأطاعوهم في ذلك فجعل الله طاعتهم عبادتهم ولو قالوا لهم اعبدونا لم يفعلوا حدثني الحسن بن يحيى... عن أبي البخري قال سأل رجل حذيفة فقال

وضاهاته عليه مضاهاة إذا مالآته عليه وأعتته. قال أبو جعفر والصواب من القراءة في ذلك ترك الهمز لأنها القراءة المستفيضة في قراءة الأمصار واللغة الفصحى وأما قوله قاتلهم الله فإن معناه فيما ذكر عن ابن عباس ما حدثني المثنى... عن ابن عباس قوله قاتلهم الله يقول لعنهم الله وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن وقال ابن جريج في ذلك ما حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله قاتلهم الله يعني النصراني كلمة من كلام العرب فأما أهل المعرفة بكلام العرب فإنهم يقولون معناه قتلهم الله والعرب تقول قاتلك الله وقاتعها الله بمعنى قاتلك الله قالوا وقاتعك الله أهون من قاتله الله وقد ذكروا أنهم يقولون شاقاه الله ما باقاه يريدون أشقاه الله ما أبقاه قالوا ومعنى قوله قاتلهم الله كقوله قتل الخراصون وقتل أصحاب الأخدود واحد وهو بمعنى التعجب فإن كان الذي قالوا كما قالوا فهو من نادر الكلام الذي جاء على غير القياس لأن فاعلت لا تكاد أن تجيء فعلاً إلا من اثنين كقولهم خاصمت فلاناً وقاتلته وما أشبه ذلك وقد زعموا أن قولهم عافاك الله منه وأن معناه أعفأك الله بمعنى الدعاء لمن دعا له بأن يعفيه من السوء وقوله أنى يؤفكون يقول أي وجه يذهب بهم ويحيدون وكيف يصدون عن الحق وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل. القول في تأويل قوله ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَعَ أَمْثَرًا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يقول جل ثناؤه اتخذوا اليهود أربابهم وهم العلماء وقد بينت تأويل ذلك بشواهد فيما مضى من كتابنا هذا قبل واحدهم خبرو وحبر بكسر الحاء منه وفتحها وكان يونس الجرمي فيما ذكر عنه يزعم أنه لم يسمع ذلك إلا حبر بكسر الحاء ويحتج بقول الناس هذا مداد حبر يراد به مداد عالم وذكر الفراء أنه سمعه حبراً وحبراً بكسر الحاء وفتحها والنصارى رهبانهم وهم أصحاب الصوامع وأهل الاجتهاد في دينهم منهم كما حدثنا ابن وكيع... عن الضحاك اتخذوا أربابهم ورهبانهم قال قراءهم وعلماءهم أرباباً من دون الله يعني سادة لهم من دون الله يطيعونهم في معاصي الله فيحلون ما أحلوه لهم مما قد حرمه الله عليهم

الله وراء ظهورهم حدثني بشر بن سويد... عن حذيفة اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله لم يعبدوهم ولكن أطاعوهم في المعاصي وأما قوله والمسيح ابن مريم فإن معناه اتخذوا أحبارهم ورهبانهم والمسيح ابن مريم أرباباً من دون الله وأما قولهم وما أمر إلا ليعبدوا إلهاً واحداً فإنه يعني به وما أمر هؤلاء اليهود والنصارى الذين اتخذوا الأحبار والرهبان والمسيح أرباباً إلا أن يعبدوا معبوداً واحداً وأن يطيعوا إلهاً واحداً دون أرباب شتى وهو الله الذي له عبادة كل شيء وطاعة كل خلق المستحق على جميع خلقه الديني له بالوحدانية والربوبية لا إله إلا هو يقول تعالى ذكره لا تبغى الألوهة إلا لواحد الذي أمر الخلق بعبادته ولزمت جميع العباد طاعته سبحانه عما يشركون يقول تنزيهاً وتطهيراً الله عما يشرك في طاعته وربوبيته القائلون عزيز ابن الله والقائلون المسيح ابن الله المتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله.

يا أبا عبد الله أرأيت قوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله أكانوا يعبدونهم قال لا كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه حدثنا ابن وكيع... عن الحسن اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً قال في الطاعة حدثني محمد بن سعيد قال... عن ابن عباس قوله اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يقول وزينوا لهم طاعتهم حدثني محمد بن الحسين... عن السدي اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله قال عبد الله بن عباس لم يأمرهم أن يسجدوا لهم ولكن أمرهم بمعصية الله فأطاعوهم فسامهم الله بذلك أرباباً حدثنا ابن وكيع... عن أبي العالية اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً قال قلت لأبي العالية كيف كانت الربوبية التي كانت في بني إسرائيل قال قالوا ما أمرنا به ائتمنا وما نهوا عنه انتهينا لقلوبهم وهم يجدون في كتاب الله ما أمروا به وما نهوا عنه فاستنصحو الرجال ونبذوا كتاب

الزمخشري ج ٢ ص ١٨٤ - ١٨٦

يقال بالفم فما معنى قوله ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟ قلت: فيه وجهان: أحدهما أن يراد أنه قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى تحته كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم لا تدل على معان، وذلك أن القول الدال على معنى لفظه مقول بالفم ومعناه مؤثر في القلب، وما لا معنى له مقول بالفم لا غير. والثاني أن يراد بالقول المذهب كقولهم قول أبي حنيفة يريدون مذهبه وما يقول به، كأنه قيل ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة حتى يؤثر في القلوب، وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له لم تبقى شبهة في انتفاء الولد ﴿يُضَكِّهُنَّ﴾ لا بد فيه من حذف مضاف تقديره يضاهي قولهم، ثم حذف المضاف وأقيم الضمير المضاف إليه مقامه فانقلب مرفوعاً، والمعنى: أن الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ من اليهود والنصارى يضاهي قولهم قول قدامتهم: يعني أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث، أو يضاهي قول المشركين: الملائكة بنات الله تعالى الله عنه. وقيل الضمير للنصارى: أي

عزيز ابن الله مبتدأ وخبر كقوله - المسيح ابن الله - وعزير اسم أعجمي كعازر وعيزار وعزرائيل ولعجمته وتعريفه امتنع صرفه، ومن نون جعله عربياً، وأما قول من قال سقوط التنوين لالتقاء الساكنين كقراءة من قرأ «أحد الله» أو لأن الابن وقع وصفاً والخبر محذوف وهو معبودنا فتمحل عن مندوحة، وهو قول ناس من اليهود ممن كان بالمدينة وما هو بقول كلهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما: جاء رسول الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا ذلك. وقيل له فنخاص، وسبب هذا القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام فرفع الله عنهم التوراة ومحاهها من قلوبهم، فخرج عزيز وهو غلام يسيح في الأرض، فأثاه جبريل عليه السلام فقال له: إلى أين تذهب؟ قال: أطلب العلم، فحفظه التوراة فأملأها عليهم عن ظهر لسانه لا يخرم حرفاً، فقالوا: ما جمع الله التوراة في صدره وهو غلام إلا لأنه ابنه، والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب. فإن قلت: كل قول

وهزمتها مزيدة كما في غرقىء ﴿وَقَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي هم أحقاء بأن يقال لهم هذا تعجباً من شناعة قولهم، كما يقال لقوم ركبوا شنعاء. قاتلهم الله ما أعجب فعلهم. . .

يضاهي قولهم المسيح ابن الله قول اليهود عزيز ابن الله لأنهم أقدم منهم. وقرىء يضاهون بالهمز من قولهم امرأة ضهياً على فعل وهي التي ضاهأت الرجال في أنها لا تحيض

الرازي ج ١٦ ص ٣٢ - ٣٨

الثاني: قال ابن عباس في رواية سعيد بن جبيرة وعكرمة: أتى جماعة من اليهود إلى رسول الله ﷺ، وهم: سلام بن مشكم، والنعمان بن أوفى، ومالك بن الصيف، وقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، ولا تزعم أن عزيزاً ابن الله، فنزلت هذه الآية. وعلى هذين القولين فالقائلون بهذا المذهب بعض اليهود إلا أن الله نسب ذلك القول إلى اليهود بناء على عادة العرب في إيقاع اسم الجماعة على الواحد، يقال فلان يركب الخيول ولعله لم يركب إلا واحداً منها، وفلان يجالس السلاطين ولعله لا يجالس إلا واحداً. والقول الثالث: لعل هذا المذهب كان فاشياً فيهم ثم انقطع، فحكى الله ذلك عنهم: ولا عبرة بإنكار اليهود ذلك، فإن حكاية الله عنهم أصدق. . .

والسبب الذي لأجله قالوا هذا القول ما رواه ابن عباس أن اليهود أضاعوا التوراة وعملوا بغير الحق، فأنساهم الله تعالى التوراة ونسخها من صدورهم فتضرع عزيز إلى الله وابتهل إليه فعاد حفظ التوراة إلى قلبه، فأندر قومه به، فلما جربون وجدوه صادقاً فيه، فقالوا ما تيسر هذا لعزيز إلا أنه ابن الله، وقال الكلبي: قتل بختنصر علماءهم فلم يبق فيهم أحد يعرف التوراة. وقال السدي: العمالقة قتلوه فلم يبق فيهم أحد يعرف التوراة، فهذا ما قيل في هذا الباب. وأما حكاية الله عن النصارى أنهم يقولون: المسيح ابن الله، فهي ظاهرة لكن فيها إشكال قوي، وهي إنا نقطع أن المسيح صلوات الله عليه وأصحابه كانوا مبرئين من دعوة الناس إلى الأبوة والنبوة، فإن هذا أفحش أنواع الكفر، فكيف يليق بأكابر الأنبياء عليهم السلام؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف يعقل إطباق جملة محبي عيسى من النصارى على هذا الكفر، ومن الذي وضع هذا المذهب الفاسد، وكيف قدر على نسبته إلى المسيح عليه السلام؟ فقال المفسرون في الجواب عن هذا السؤال:

وقوله تعالى ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَفْ يُؤَفِّكُون﴾.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما حكم في الآية المتقدمة على اليهود والنصارى بأنهم لا يؤمنون بالله، شرح ذلك في هذه الآية وذلك بأن نقل عنهم أنهم أثبتوا لله ابناً، ومن جوز ذلك في حق الإله فهو في الحقيقة قد أنكر الإله، وأيضاً بين تعالى أنهم بمنزلة المشركين في الشرك، وإن كانت طرق القول بالشرك مختلفة، إذ لا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأنه لا معنى للشرك إلا أن يتخذ الإنسان مع الله معبوداً، فإذا حصل هذا المعنى فقد حصل الشرك، بل إنا لو تأملنا لعلمنا أن كفر عابد الوثن أخف من كفر النصارى، لأن عابد الوثن لا يقول إن هذا الوثن خالق العالم وإله العالم، بل يجريه مجرى الشيء الذي يتوسل به إلى طاعة الله أما النصارى فإنهم يثبتون الحلول والاتحاد وذلك كفر قبيح جداً، فثبت أنه لا فرق بين هؤلاء الحلولية وبين سائر المشركين، وأنهم إنما خصهم بقبول الجزية منهم، لأنهم في الظاهر ألصقوا أنفسهم بموسى وعيسى، وأدعو أنهم يعملون بالتوراة والإنجيل، فلأجل تعظيم هذين الرسولين المعظمين وتعظيم كتابيهما وتعظيم أسلاف هؤلاء اليهود والنصارى بسبب أنهم كانوا على الدين الحق، حكم الله تعالى بقبول الجزية منهم، وإلا ففي الحقيقة لا فرق بينهم وبين المشركين.

المسألة الثانية: في قوله ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ﴾ أقوال: الأول: قال عبيد بن عمير: إنما قال هذا القول رجل واحد من اليهود اسمه فنحاص بن عازوراء.

التنوين في حال السعة لأن عزيزاً ينصرف سواء كان أعجمياً أو عربياً، وسبب كونه منصرفاً أمران: أحدهما: إنه اسم خفيف فينصرف، وإن كان أعجمياً كهود ولوط والثاني: إنه على صيغة التصغير وأن الأسماء الأعجمية لا تصغر، وأما الذين تركوا التنوين فلهم فيه ثلاثة أوجه: الوجه الأول: إنه أعجمي ومعرفة، فوجب أن لا ينصرف.

والوجه الثاني: إن قوله ﴿أَبْنُ﴾ صفة والخبر محذوف. والتقدير: عزيز ابن الله معبودنا، وطعن عبد القاهر الجرجاني في هذا الوجه في كتاب دلائل الأعجاز، وقال الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف التكذيب إلى الخبر، وصار ذلك الوصف مسلماً. فلو كان المقصود بالإنكار هو قولهم عزيز ابن الله معبودنا، لتوجه الإنكار إلى كونه معبوداً لهم، وحصل كونه ابناً لله، ومعلوم أن ذلك كفر، وهذا الطعن عندي ضعيف. أما قوله إن من أخبر عن ذات موصوفة بصفة بأمر من الأمور وأنكره منكر، توجه الإنكار إلى الخبر فهذا مسلم. وأما قوله ويكون ذلك تسليماً لذلك الوصف فهذا ممنوع، لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر بالتكذيب أن يدل على أن ما سواه لا يكذبه بل يصدقه، وهذا بناء على دليل الخطاب وهو ضعيف لاسيما في مثل هذا المقام.

الوجه الثالث: قال الفراء: نون التنوين ساكنة من عزيز، والباء في قوله ﴿أَبْنُ اللَّهِ﴾ ساكنة فحصل ههنا التقاء الساكنين، فحذف نون التنوين للتخفيف، وأنشد الفراء:

فألفيته غير مستعجب

ولا ذاكر الله إلا قليلاً
واعلم أنه لما حكى عنهم بهذه الحكاية قال ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَقْوَاهِمُ﴾.

ولقائل أن يقول: إن كل قول إنما يقال بالفم، فما معنى تخصيصهم لهذا القول بهذه الصفة.

والجواب من وجوه: الأول: أن يراد به قول لا يعضده برهان فما هو إلا لفظ يفوهون به فارغ من معنى معتبر لحقه، والحاصل أنهم قالوا باللسان قولاً، ولكن لم

إن اتباع عيسى عليه الصلاة والسلام كانوا على الحق بعد رفع عيسى حتى وقع حرب بينهم وبين اليهود، وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولس قتل جمعاً من أصحاب عيسى، ثم قال لليهود إن كان الحق مع عيسى فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون إن دخلوا الجنة ودخلنا النار، وإنني أحتال فأضلهم، فعرقب فرسه وأظهر الندامة مما كان يصنع ووضع على رأسه التراب وقال نوديت من السماء ليس لك توبة إلا أن تنتصر، وقد ثبت فأدخله النصارى الكنيسة ومكث سنة لا يخرج وتعلم الإنجيل فصدقوه وأحبوه، ثم مضى إلى بيت المقدس واستخلف عليهم رجلاً اسمه نسطور، وعلمه أن عيسى ومريم والإله كانوا ثلاثة، وتوجه إلى الروم وعلمهم اللاهوت والناسوت، وقال: ما كان عيسى إنساناً ولا جسماً ولكنه الله، وعلم رجلاً آخر يقال له يعقوب ذلك، ثم دعا رجلاً يقال له ملكاً فقال له: إن الإله لم يزل ولا يزال عيسى، ثم دعا لهؤلاء الثلاثة وقال لكل واحد منهم أنت خليفتي فادع الناس إلى إنجيلك، ولقد رأيت عيسى في المنام ورضي عني، وإنني غداً أذبح نفسي لمرضاة عيسى، ثم دخل المذبح فذبح نفسه، ثم دعا كل واحد من هؤلاء الثلاثة الناس إلى قوله ومذهبه، فهذا هو السبب في وقوع هذا الكفر في طوائف النصارى، هذا ما حكاه الواحدي رحمه الله تعالى، والأقرب عندي أن يقال لعله ورد لفظ الابن في الإنجيل على سبيل التشريف، كما ورد لفظ الخليل في حق إبراهيم على سبيل التشريف، ثم إن القوم لأجل عداوة اليهود ولأجل أن يقابلوا غلوهم الفاسد في أحد الطرفين بغلو فاسد في الطرف الثاني، فبالغوا وفسروا لفظ الابن بالبنوة الحقيقية. والجهال، قبلوا ذلك، وفشا هذا المذهب الفاسد في اتباع عيسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة الحال...

المسألة الثالثة: قرأ عاصم والكسائي وعبد الوارث عن أبي عمرو ﴿عَزَّوَجَلَّ﴾ بالتنوين والباقون بغير التنوين. قال الزجاج: الوجه إثبات التنوين. فقوله ﴿عَزَّوَجَلَّ﴾ مبتدأ وقوله ﴿أَبْنُ اللَّهِ﴾ خبره، وإذا كان كذلك فلا بد من

الخير. فقلوه تعالى ﴿أَفْ يُؤْفَكُونَ﴾ معناه كيف يصدون ويصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل، حتى يجعلوا لله ولداً وهذا التعجب إنما هو راجع إلى الخلق، والله تعالى لا يتعجب من شيء، ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم، والله تعالى عجب نبيه من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل.

قوله تعالى ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَّا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى وصف اليهود والنصارى بضرب آخر من الشرك بقوله ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: قال أبو عبيدة: الأخبار: الفقهاء، واختلفوا في واحدة، فبعضهم يقول خبر وبعضهم يقول حبر. وقال الأصمعي: لا أدري أهو الحبر أو الحبر؟ وكان أبو الهيثم يقول واحد الأخبار حبر بالفتح لا غير، وينكر الكسر، وكان الليث، وابن السكيت يقولان حبر وحبر للعالم ذمياً كان أو مسلماً، بعد أن يكون من أهل الكتاب. وقال أهل المعاني الحبر العالم الذي بصناعته يحبر المعاني، ويحسن البيان عنها. والراهب الذي تمكنت الرهبة والخشية في قلبه وظهرت آثار الرهبة على وجهه ولباسه. وفي عرف الاستعمال، صار الأخبار مختصاً بعلماء اليهود من ولد هرون، والرهبان بعلماء النصارى أصحاب الصوامع.

المسألة الثانية: الأكثرون من المفسرين قاوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، نقل أن عدي ابن حاتم كان نصرانياً فأنهى إلى رسول الله ﷺ، وهو يقرأ سورة براءة، فوصل إلى هذه الآية، قال فقلت لسنا نعبدكم فقال «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ويحلون ما حرم الله فتستحلونه» فقلت بلى قال «فتلك عبادتهم» وقال الربيع: قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في

يحصل عند العقل من ذلك القول أثر، لأن إثبات الولد للإله مع أنه منزّه عن الحاجة والشهوة والمضاجعة والمباضعة قول باطل، ليس عند العقل منه أثر. ونظيره قوله تعالى ﴿يَقُولُونَ يَأْفِكُونَهُمْ مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] والثاني: إن الإنسان قد يختار مذهباً إما على سبيل الكناية وإما على سبيل الرمز والتعريض، فإذا صرح به وذكره بلسانه، فذلك هو الغاية في اختياره لذلك المذهب، والنهاية في كونه ذاهباً إليه قائلاً به. والمراد ههنا أنهم يصرحون بهذا المذهب ولا يخفونه البتة. والثالث: أن المراد أنهم دعوا الخلق إلى هذه المقالة حتى وقعت هذه المقالة في الأفواه والألسنة، والمراد منه مبالغتهم في دعوة الخلق إلى المذهب.

ثم قال تعالى ﴿يُضَنِّهُشُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية وجوه: الأول: إن المراد أن هذا القول من اليهود والنصارى يضاهي قول المشركين الملائكة بنات الله. الثاني: إن الضمير للنصارى أي قولهم المسيح ابن الله يضاهي قول اليهود عزيز ابن الله لأنهم أقدم منهم. الثالث: إن هذا القول من النصارى يضاهي قول قدمائهم، يعني أنه كفر قديم، فهو غير مستحدث.

المسألة الثانية: المضاهاة: المشابهة. قال الفراء يقال ضاهيته ضاهياً ومضاهاة، هذا قول أكثر أهل اللغة في المضاهاة. وقال شمر: المضاهاة: المتابعة، يقال: فلان يضاهي فلاناً أي يتابعه.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم ﴿يُضَنِّهُشُونَ﴾ بالهمزة وبكسر الهاء، والباقون بغير همزة وضم الهاء، يقال ضاهيته وضاهاته لغتان مثل أرجيت وأرجأت. وقال أحمد ابن يحيى لم يتابع عاصماً أحد على الهمزة.

ثم قال تعالى ﴿فَتَنَلَّهُمُ اللَّهُ أَفْ يُؤْفَكُونَ﴾ أي هم أحقأ بأن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال القوم ركبوا سبعا، قاتلهم الله ما أعجب فعلهم! أتى يؤفكون الإفك الصرف يقال أفك الرجل عن الخير، أي قلب وصرف، ورجل مأفوك أي مصروف عن

إذا كان طالباً للعالم بعيداً عن الدين، فقد يلقي إليهم أن الأمر كما يقولون ويعتقدون، وشاهدت بعض المزرورين ممن كان بعيداً عن الدين كان يأمر أتباعه وأصحابه بأن يسجدوا له، وكان يقول لهم أنتم عبيدي، فكان يلقي إليهم من حديث الحلول والاتحاد أشياء، ولو خلا ببعض الحمقى من أتباعه، فربما ادعى الإلهية، فإذا كان مشاهداً في هذه الأمة، فكيف يبعد ثبوته في الأمم السالفة؟ وحاصل الكلام أن تلك الربوبية يحتمل أن يكون المراد منها أنهم أطاعوهم فيما كانوا مخالفين فيه لحكم الله، وأن يكون المراد منها أنهم قبلوا أنواع الكفر، فكفروا بالله، فصار ذلك جارياً مجرى أنهم اتخذوهم أرباباً من دون الله، ويحتمل أنهم أثبتوا في حقهم الحلول والاتحاد. وكل هذه الوجوه الأربعة مشاهد وواقع في هذه الأمة.

ثم قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ ومعناه ظاهر، وهو أن التوراة والإنجيل والكتب الإلهية ناطقة بذلك.

ثم قال ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي سبحانه من أن يكون له شريك في الأمر والتكليف، وأن يكون له شريك في كونه مسجوداً ومعبوداً، وأن يكون له شريك في وجوب نهاية التعظيم والإجلال.

كتاب الله ما يخالف أقوال الأحبار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى. قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجتهدين رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من مقلدة الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله تعالى في بعض المسائل، وكانت مذهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها وبقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها، ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.

فإن قيل: إنه تعالى لما كفرهم بسبب أنهم أطاعوا الأحبار والرهبان فالفاسق يطيع الشيطان فوجب الحكم بكفره، كما هو قول الخوارج.

والجواب: إن الفاسق، وإن كان يقبل دعوة الشيطان إلا أنه لا يعظمه لكن يلعنه، ويستخف به. أما أولئك الأتباع كانوا يقبلون قول الأحبار والرهبان ويعظمونهم، فظهر الفرق.

والقول الثاني: في تفسير هذه الربوبية أن الجهاد والحشوية إذا بالغوا في تعظيم شيخهم وقدوتهم، فقد يميل طبعهم إلى القول بالحلول والاتحاد، وذلك الشيخ

البيضاوي ج ٣ ص ٦٥-٦٦

النصكري المسيح ابن الله هو أيضاً قول بعضهم وإنما قالوه استحالة لأن يكون ولد بلا أب أو لابن يفعل ما فعله من إبراء الأكهم والأبرص وإحياء الموتى من لم يكن إلهاً ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أما تأكيد لنسبة هذا القول إليهم ونفي للتجاوز عنها أو إشعار بأنه قول مجرد عن برهان وتحقيق مماثل للمهمل الذين يوجد في الأفواه ولا يوجد مفهومه في الأعيان ﴿يُضَكَّهُتُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم والمراد قدماؤهم على معنى أن الكفر قديم فيهم أو المشركون الذين قالوا الملائكة بنات الله أو اليهود على أن الضمير للنصارى والمضاهاة المشابهة والهمز لغة فيه وقد

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ إنما قاله بعضهم من متقدميهم أو ممن كانوا بالمدينة وإنما قالوا ذلك لأنه لم يبق فيهم بعد وقعة بختنصر من يحفظ التوراة وهو لما أحياه الله بعد مائة عام أملى عليهم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا أنه ابن الله والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية قرئت عليهم فلم يكذبوا مع تهالكهم على التكذيب وقرأ عاصم والكسائي ويعقوب عزير بالتنوين على أنه عربي مخبر عنه بابن غير موصوف به وحذفه في القراءة الأخرى إما لمنع صرفه للعجمة والتعريف أو لالتقاء الساكنين تشبيهاً للنون بحروف اللين أو لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا أو صاحبنا وهو مزيف لأنه يؤدي إلى تسليم النسب وإنكار الخبر المقدّر ﴿وَقَالَتِ

أَبْنُ مَرْيَمَ ﴿بَانَ جَعَلُوهُ ابْنًا لِلَّهِ﴾ وَمَا أَمْرًا ﴿أَيَّ وَمَا أَمْرُ الْمُتَخَذُونَ أَوْ الْمُتَخَذُونَ أَرْبَابًا فَيَكُونُ كَالدَّلِيلِ عَلَى بَطْلَانِ الْإِتِّخَاذِ﴾ إِلَّا لِيَعْبُدُوا ﴿لِيُطِيعُوا﴾ إِلَٰهًا وَاحِدًا ﴿وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى وَأَمَّا طَاعَةُ اللَّهِ الرَّسُولِ وَسَائِرِ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ بِطَاعَتِهِ فَهُوَ فِي الْحَقِيقَةِ طَاعَةُ اللَّهِ﴾ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴿صِفَةُ ثَابِتَةٍ أَوْ اسْتِثْنَاءٍ مُقَرَّرٍ لِلتَّوْحِيدِ﴾ سُبْحَانَهُ كَمَا يُشْرِكُونَ ﴿تَنْزِيهِ لَهُ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكَ.

الخازن ج ٣ ص ٨١ - ٨٤

بمعنى التعجب أي حق أن يقال لهم هذا القول تعجباً من بشاعة قولهم كما يقال لمن فعل فعلاً يتعجب منه قاتله الله ما أعجب فعله ﴿أَفَّ يُفَكُّونَ﴾ يعني أنى يصرفون عن الحق بعد وضوح الدليل وإقامة الحجة بأن الله واحد أحد فجعلوا له ولداً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً وهذا التعجب راجع إلى الخلق لأن الله سبحانه وتعالى لا يتعجب من شيء ولكن هذا الخطاب على عادة العرب في مخاطبتهم فالله سبحانه وتعالى عجب نبيه ﷺ من تركهم الحق وإصرارهم على الباطل. قوله سبحانه وتعالى ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ يعني اتخذ اليهود والنصارى علماءهم وقراءهم والأخبار العلماء من اليهود والرهبان أصحاب الصوامع من النصارى أرباباً من دون الله يعني أنهم أطاعوهم في معصية الله تعالى وذلك أنهم أحلوا لهم أشياء وحرّموا عليهم أشياء من قبل أنفسهم فأطاعوهم فيها فاتخذوهم كالأرباب لأنهم عبدوهم واعتقدوا فيهم الإلهية عن عدي بن حاتم قال أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب فقال «يا عدي اطرح عنك هذا الوثن. وسمعتة يقرأ في سورة براءة ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقال «أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموا» أخرجه الترمذي وقال حديث غريب قال عبدالله ابن المبارك:

وهل بدل الدين إلا الملو

ك وأخبار سوء ورهبانها

قرأ به عاصم ومنه قولهم امرأة ضهياً على فعيل للتي شابهت للرجال في أنها لا تحيض ﴿فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتله الله هلك أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أَفَّ يُفَكُّونَ﴾ كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم الله أو بالسجود لهم ﴿وَالْمَسِيحَ﴾

قوله عز وجل ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ الآية لما ذكر الله سبحانه وتعالى في الآية المتقدمة أن اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق بينه في هذه الآية فأخبر عنهم أنهم أثبتوا لله ولداً ومن جوز ذلك على الله فقد أشرك به لأنه لا فرق بين من يعبد صنماً وبين من يعبد المسيح فقد بان بهذا أنهم لا يؤمنون بالله ولا يدينون دين الحق وقد تقدم سبب أخذ الجزية منهم وإبقائهم على هذا الشرك وهو حرمة الكتب القديمة التي بأيديهم ولعلمهم يتفكرون فيها ويعرفون الحق فيرجعون إليه . . . ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ يعني أنهم يقولون في ذلك القول بالسنتهم من غير علم يرجعون إليه قال أهل المعاني لم يذكر الله قولاً مقروناً بالأفواه والألسن إلا كان ذلك القول زوراً وكذباً لا حقيقة له ﴿يُضَكِّهْتُمْ﴾ قال ابن عباس يشابهون والمضاهاة المشابهة وقال مجاهد يواطئون وقال الحسن يوافقون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قال قتادة والسدي معناه ضاهت النصارى قول اليهود من قبلهم فقالوا المسيح ابن الله كما قالت اليهود عزيز ابن الله وقال مجاهد معناه يضاؤون قول المشركين من قبل لأن المشركين كانوا يقولون الملائكة بنات الله وقال الحسن شبه الله كفر اليهود والنصارى بكفر الذين مضوا من الأمم الخالية الكافرة وقال القتيبي يريد أن من كان في عصر النبي ﷺ من اليهود والنصارى يقولون ما قال أولوهم ﴿فَكَذَّبَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله وقال ابن جريج قتلهم الله وقيل ليس هو على تحقيق المقاتلة ولكنه

لأنه سبحانه وتعالى هو المستحق للعبادة لا غيره ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى الله وتنزه عن أن يكون له شريك في العبادة والأحكام وأن يكون له شريك في الإلهية يستحق التعظيم والإجلال.

﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ يعني اتخذه إلهاً وذلك لما اعتقدوا فيه النبوة والحلول اعتقدوا فيه الإلهية ﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ يعني وما أمروا في الكتب القديمة المنزلة عليهم على السنة أنبيائهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾

القرطبي ج ٨ ص ١١٦ - ١٢٠

فيه سبع مسائل:

الأولى - قرأ عاصم والكسائي ﴿عُزَيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ بتنوين عزيز. والمعنى أن «أبناً» على هذا خبر ابتداء عن عزيز، و﴿عُزَيْرٌ﴾ ينصرف عجمياً كان أو عربياً. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر «عُزَيْرُ ابْنٍ» بترك التنوين لاجتماع الساكنين؛ ومنه قراءة من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ. اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ [الإخلاص: ١، ٢]. قال أبو علي:

وهو كثير في الشعر. وأنشد الطبري في ذلك:

لَتَجِدَنَّيَ بِالْأَمِيرِ بَرًّا
وَبِالْقَنَاطَةِ مَدْعَاً مَكْرًا
* إِذَا غُطِفَ السُّلَمِيُّ فَرًّا *

الثانية - قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ هذا لفظ

خرج على العموم ومعناه الخصوص؛ لأن ليس كل اليهود قالوا ذلك. وهذا مثل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لَهُمُ النَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] ولم يقل ذلك كل الناس. وقيل: إن قائل ما حكى عن اليهود سلام بن مشكم ونعمان ابن أبي أوفى وشاش بن قيس ومالك بن الصفي؛ قاله النبي ﷺ. قال النقاش: لم يبق يهودي يقولها، بل انقربوا؛ فإذا قالها واحد فيتوجه أن تلزم الجماعة شناعة المقالة؛ لأجل نباهة القائل فيهم. وأقوال النباهة أبداً مشهورة في الناس يُحتج بها. فمن هاهنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها. والله أعلم. وقد روي أن سبب ذلك القول أن اليهود قتلوا الأنبياء بعد موسى عليه السلام، فرفع الله عنهم التوراة ومحاها من قلوبهم، فخرج عزيز يسبح في الأرض؛ فأتاه جبريل فقال: «أين تذهب؟» قال: أطلب العلم؛ فعلمه التوراة كلها فجاء عزيز بالتوراة إلى بني إسرائيل فعلمهم. وقيل: بل حفظها الله عزيزاً كرامة منه له؛ فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة،

فجعلوا يدرسونها من عنده. وكانت التوراة مدفونة، كان دفنها علماءهم حين أصابهم من الفتن والجلاء والمرض ما أصاب، وقتل بُخْتَنَصْرُ إياهم. ثم إن التوراة المدفونة وُجدت فإذا هي متساوية لما كان عُزَيْرُ يدرس؛ فضلوا عند ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهياً لعزير إلا وهو ابن الله؛ حكاة الطبري. وظاهر قول النصارى أن المسيح ابن الله؛ إنما أرادوا بنوة النسل؛ كما قالت العرب في الملائكة. وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما. وهذا أشنع الكفر. قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله ابن إله. قال ابن عطية. ويقال إن بعضهم يعتقدونها بنوة حق ورحمة. وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنوة عليه، وهو كفر.

الثالثة - قال ابن العربي: في هذا دليل من قول ربنا تبارك وتعالى على أن من أخبر عن كفر غيره الذي لا يجوز لأحد أن يتبدى به لا حرج عليه؛ لأنه إنما ينطق به على معنى الاستعظام له والرد عليه، ولو شاء ربنا ما تكلم به أحد، فإذا مكن من إطلاق الألسن به فقد أذن بالأخبار عنه؛ على معنى إنكاره بالقلب واللسان، والرد عليه بالحجة والبرهان.

الرابعة - قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ يَا قَوَاهِمُ﴾ قيل: معناه التأكيد؛ كما قال تعالى: ﴿يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩] وقوله: ﴿وَلَا طَائِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨] وقوله: ﴿فَإِذَا فُتِحَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ [الحاقة: ١٣] ومثله كثير. وقيل: المعنى أنه لما كان قولٌ ساذج ليس فيه بيان ولا برهان، وإنما هو قول بالقم مجرد نفس دعوى لا معنى تحته صحيح؛ لأنهم معترفون بأن الله سبحانه لم يتخذ صاحبة فكيف يزعمون أن له والدًا؛ فهو كذب وقولٌ لسانِي فقط، بخلاف الأقوال الصحيحة التي

قاتلها الله تلحاني وقد علمت

أتى لنفسي إفساد وإصلاح
وحكى النقاش أن أصل «قاتل الله» الدعاء، ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر، وهم لا يريدون الدعاء. وأنشد الأصمعي:

يا قاتل الله لئلى كيف تعجبني

وأخبر الناس أنى لا أباليها
قوله تعالى: ﴿أَتُخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ الأخبار جمع خبر، وهو الذي يحسن القول وينظمه ويتقنه بحسن البيان عنه. ومنه ثوب محبر أي جمع الزينة. وقد قيل في واحد الأخبار: حبر بكسر الحاء. والمفسرون على فتحها. وأهل اللغة على كسرها. قال يونس: لم أسمعه إلا بكسر الحاء، والدليل على ذلك أنهم قالوا: [مداد] حبر يريدون مداد عالم، ثم كثير الاستعمال حتى قالوا للمداد حبر. قال الفراء: الكسر والفتح لغتان. وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر المداد، والحبر بالفتح العالم. والزهبان جمع راهب مأخوذ من الزهبة، وهو الذي حمله خوف الله تعالى على أن يخلص له النية دون الناس، ويجعل زمانه له وعمله معه وأنسه به.

قوله تعالى: ﴿أَزْكَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال أهل المعاني: جعلوا أخبارهم ورهبانهم كالآرباب حيث أطاعوهم في كل شيء؛ ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ أَنْفُخُوا حَقًّا إِذَا جَعَلْنَا نَارًا﴾ [الكهف: ١٩٦] أي كالنار.

قوله تعالى: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ مضى الكلام في اشتقاقه في «آل عمران». والمسيح: العرق يسيل من الجبين. ولقد أحسن بعض المتأخرين فقال:

افرح فسوف تألف الأحزان

إذا شهدت الحشر والميزان
وسال من جبينك المسيح
كأنه جداول تسيح
ومضى في «النساء» معنى إضافته إلى مريم أمه.

تعضدها الأدلة ويقوم عليها البرهان. قال أهل المعاني: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً؛ كقوله: ﴿يَقُولُونَ يَأْفُوهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧] و ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٥] و ﴿يَقُولُونَ يَأْلَسْنَاهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ [الفتح: ١١].

الخامسة - قوله تعالى: ﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ ﴿يُضَاهِيهِمْ﴾ يشابهون؛ ومنه قول العرب: امرأة ضهيأ للتي لا تحيض أو التي لا تذي لها؛ كأنها أشبهت الرجال. وللعلماء في ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ثلاثة أقوال: الأول - قول عبدة الأوثان: اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. الثاني - قول الكفرة: الملائكة بنات الله. الثالث - قول أسلافهم، فقلدوهم في الباطل واتبعوهم على الكفر؛ كما أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ أَبَاءً نَاعِلٍ أَُمَمَةٍ﴾ [الزخرف: ٢٢، ٢٣].

السادسة - اختلف العلماء في «ضهيأ» هل يمد أولاً؛ فقال ابن ولاد: امرأة ضهيأ؛ وهي التي لا تحيض؛ مهموز غير ممدود. ومنهم من يمد وهو سيبويه فيجعلها على فعلاء بالمد، والهمزة فيها زائدة؛ لأنهم يقولون نساء ضهى، فيحذفون الهمزة. قال أبو الحسن قال لي النجيري: ضهيأة بالمد والهاء. جمع بين علامتي تأنيث؛ حكاه عن أبي عمرو الشيباني في النوادر. وأنشد.

* ضهيأة أو عافر جماد *

ابن عطية: من قال ﴿يُضَاهِيهِمْ﴾ مأخوذ من قولهم: امرأة ضهياء فقوله خطأ؛ قاله أبو علي، لأن الهمزة في «ضاهأ» أصلية، وفي «ضهياء» زائدة كحمراء.

السابعة - قوله تعالى: ﴿قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَنْفَ يُؤَفِّكُونُ﴾ أي لعنهم الله، يعني اليهود والنصارى، لأن الملعون كالمقتول. قال ابن جريح: ﴿قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ﴾ هو بمعنى التعجب. وقال ابن عباس: كل شيء في القرآن قتل فهو لعن؛ ومنه قول أبان بن تغلب:

أبو حيان الأندلسي ج ٥ ص ٣٠-٣٣

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَتْ لَهُمُ اللَّهُ آتٍ يُوَفِّقُوكَ﴾ بين تعالى لحاق اليهود والنصارى بأهل الشرك وإن اختلفت طرق الشرك فلا فرق بين من يعبد الصنم وبين من يعبد المسيح وغيره لأن الشرك هو أن يتخذ مع الله معبوداً بل عابد الوثن أخف كفراً من النصراني لأنه لا يعتقد أن الوثن خالق العالم والنصراني يقول بالحلول والاتحاد وقائل ذلك قوم من اليهود كانوا بالمدينة.

قال ابن عباس قالها أربعة من أحبارهم سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، وقيل قاله فنحاص، وقال النقاش لم يبق يهودي يقولها بل انقضوا وتدم الطائفة أو تمدح بصدور ما يناسب ذلك من بعضهم. قيل والدليل على أن هذا القول كان فيهم أن الآية تليت عليهم فما أنكروا ولا كذبوا مع تهالكهم على التكذيب...

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ تعدت اتخذ هنا المفعولين والضمير عائد على اليهود والنصارى. قال حذيفة لم يعبدوهم ولكن أحلوا لهم الحرام فأحلوه وحرموا عليهم الحلال فحرموه وقد جاء هذا مرفوعاً في الترمذي إلى الرسول الله ﷺ من حديث عدي بن حاتم. وقيل كانوا يسجدون لهم كما يسجدون لله والسجود لا يكون إلا لله فأطلق عليهم ذلك مجازاً. وقيل علم سبحانه أنهم يعتقدون الحلول وأنه سبحانه تجلى في بواطنهم فيسجدون له معتقدين أنه الله الذي حل فيهم وتجلى في سرائرهم فهؤلاء اتخذوهم أرباباً حقيقية ومذهب الحلول فشا في هذه الأمة كثيراً وقالوا بالاتحاد أو أكثر ما فشا في مشايخ الصوفية والفقراء في وقتنا هذا وقد رأيت منهم جماعة يزعمون أنهم أكابر. وحكى أبو عبد الله الرازي أنه كان فاشياً في زمانه حكاه في تفسيره عن بعض المروزيين كان يقول لأصحابه أنتم عبيدي وإذا خلا ببعض الحمقا من

أتباعه ادعى الإلهية وإذا كان هذا مشاهداً في هذه الأمة فكيف يبعد ثبوته في الأمم السابقة، انتهى. وهو منقول من كتاب التحرير والتحبير وقد صنف شيخنا المحدث المتصوف قطب الدين أبو بكر محمد بن أحمد بن القسطلاني كتاباً في هذه الطائفة فذكر فيهم الحسين ابن منصور الحلاج وأبا عبدالله الشوزي كان بتلمسان وإبراهيم بن يوسف بن محمد بن دهان عرف بابن المرأة وأبا عبدالله بن أحلى المتأمر بلورقة وأبا عبدالله بن العربي الطائي وعمر بن علي بن الفاراض وعبدالحق بن سبعين وأبا الحسن الششتري من أصحابه وابن مطرف الأعمى من أصحاب ابن أحلى والصفير من أصحابه أيضاً والعفيف التلمساني وذكر في كتابه من أحوالهم وكلامهم وأشعارهم ما يدل على هذا المذهب وقتل السلطان أبو عبدالله بن الأحمر مالك الأندلس الصفير بغرناطة وأناها وقد رأيت العفيف الكوفي وأنشدني من شعره وكان يتكتم هذا المذهب وكان أبو عبدالله الأيكي شيخ خانكاه سعيد السعداء مخاطباً له خلطة كثيرة وكان متهماً بهذا المذهب وخرج التلمساني من القاهرة هارباً إلى الشام من القتل على الزندقة وأما ملوك العبيديين بالمغرب ومصر فإن أتباعهم يعتقدون فيهم الإلهية وأولهم عبيدالله المتقلب بالمهدي وآخرهم سليمان المتقلب بالعاضد والأحبار علماء اليهود والرهبان عباد النصارى الذين زهدوا في الدنيا وانقطعوا عن الخلق في الصوامع أخبر عن المجموع وعاد كل إلى ما يناسبه أي اتخذ اليهود أحبارهم والنصارى رهبانهم والمسيح ابن مريم عطف على رهبانهم ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الظاهر أن الضمير عائد على من عاد عليه في اتخذوا أي أمروا في التوراة والإنجيل على السنة أنبيائهم. وقيل في القرآن على لسان رسول الله ﷺ. وقيل في الكتب الثلاثة. وقيل في الكتب المنزلة وعلى لسان جميع الأنبياء. وقال الزمخشري أمرتهم بذلك أدلة العقل والنصوص في الإنجيل والمسيح عليه السلام أنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة. وقيل الضمير عائد على

مأمورون مستعبدون وفي قوله عما يشركون دلالة على إطلاق اسم الشرك على اليهود والنصارى.

الأخبار والرهبان المتخذين أرباباً أي وما أمر هؤلاء إلا ليعبدوا الله ويوحده فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم

ابن كثير ج ٢ ص ٣٤٨ - ٣٤٩

وهذا إغراء من الله تعالى للمؤمنين على قتال الكفار من اليهود والنصارى لمقاتلتهم هذه المقالة الشنيعة والفرية على الله تعالى فأما اليهود فقالوا في العزيز إنه ابن الله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وذكر السدي وغيره أن الشبهة التي حصلت لهم في ذلك أن العمالة لما غلبت على بني إسرائيل فقتلوا علماءهم وسبوا كبارهم بقي العزيز يبكي على بني إسرائيل وذهاب العلم منهم حتى سقطت جفون عينيه فينبأ هو ذات يوم إذ مر على جبانة وإذ امرأة تبكي عند قبر وهي تقول: وامطعماه واكاسياه فقال لها: ويحك من كان يطعمك قبل هذا؟ قالت الله قال: فإن الله حي لا يموت، قالت يا عزيز فمن كان يعلم قبر العلماء قبل بني إسرائيل؟ قال: الله. قالت فلم تبكي عليهم؟ فعرف أنه شيء قد وعظ به ثم قيل له اذهب إلى نهر كذا فاغتسل منه وصل هناك ركعتين فإنك ستلقى هناك شيخاً فما أطعمك فكله فذهب ففعل ما أمر به فإذا الشيخ فقال له افتح فمك فتح فمه فألقى فيه شيئاً كهينة الجمر العظيمة ثلاث مرات فرجع عزيز وهو من أعلم الناس بالتوراة فقال يا بني إسرائيل قد جثتكم بالتوراة فقالوا يا عزيز ما كنت كذاباً فعمد فربط على أصبع من أصابعه قلماً وكتب التواة بأصبعه كلها فلما تراجع الناس من عدوهم ورجع العلماء أخبروا بشأن عزيز فاستخرجوا النسخ التي كانوا أودعوها في الجبال وقابلوها بها فوجدوا ما جاء به صحيحاً فقال بعض جهلتهم إنما صنع هذا لأنه ابن الله. وأما ضلال النصارى في المسيح فظاهر، ولهذا كذب الله سبحانه الطائفتين فقال ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي لا مستند لهم فيما ادعوه سوى افتراءهم واختلافهم ﴿يُضَكُّونَ﴾ أي يشابهون ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ﴾ أي من قبلهم من الأمم ضلوا كما ضل هؤلاء ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس لعنهم الله ﴿أَفْ يُؤَفِّكُونَ﴾ أي كيف يضلون عن الحق وهو ظاهر

ويعدلون إلى الباطل؟ وقوله ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق عن عدي بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فر إلى الشام وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم من رسول الله ﷺ على أخته وأعطاهها فرجعت إلى أخيها فرغبت في الإسلام وفي القدوم على رسول الله ﷺ فقدم عدي إلى المدينة وكان رئيساً في قومه طيء وأبوه حاتم الطائي المشهور بالكرم فتحدث الناس بقدمه فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عدي صليب من فضة وهو يقرأ هذه الآية ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت إنهم لم يعبدوهم فقال «بلى إنهم حرموا عليهم الحلال وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم» وقال رسول الله ﷺ «يا عدي ما تقول؟ أضرارك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله ما يضرك أضرارك أن يقال لا إله إلا الله فهل تعلم إلهاً غير الله؟» ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق قال فلقد رأيت وجهه استبشر ثم قال: «إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون» وهكذا قال حذيفة بن اليمان وعبد الله بن عباس وغيرهما في تفسير ﴿أَتُخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ إنهم اتبعوهم فيما حللوا وحرموا، وقال السدي: استنصحوهم الرجال ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم ولهذا قال تعالى ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي الذي إذا حرم الشيء فهو الحرام وما حلله فهو الحلال وما شرعه اتبع وما حكم به نفذ ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تعالى وتقدس وتنزه عن الشركاء والنظراء والأعوان والأضداد والأولاد لا إله إلا هو ولا رب سواه.

الجلالان ص ٢٤٤ - ٢٤٥

﴿ أَخْذُوا آخْبَارَهُمْ ﴾ علماء اليهود ﴿ وَرَهْبَنَهُمْ ﴾
عَبَادُ النَّصَارَى ﴿ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ حيث اتبعوهم في
تحليل مات حرم الله وتحريم ما أحل ﴿ وَالْمَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ وَمَا أُمُّرُوا ﴾ في التوراة والإنجيل ﴿ إِلَّا
لِيَعْبُدُوا ﴾ أي بأن يعبدوا ﴿ إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ سُبْحَانَهُ ﴾ تنزيها ﴿ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ .

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزُّنَا ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى
الْمَسِيحُ ﴾ عيسى ﴿ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
يَأْفُوهُمْ ﴾ لا مستند لهم عليه بل ﴿ يُضْهِثُونَ ﴾
يشابهون به ﴿ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ من آبائهم
تقليداً لهم ﴿ قَتَلْنَاهُمْ ﴾ لعنهم ﴿ اللَّهُ أَفْ ﴾ كيف
﴿ يُؤَفِّكُونَ ﴾ يُصرفون عن الحق مع قيام الدليل .

الشوكاني ج ٢ ص ٣٥٢ - ٣٥٥

[٣٨]. وقال بعض أهل العلم: إن الله سبحانه لم يذكر قولاً
مقروناً بذكر الأفواه والألسن إلا وكان قولاً زوراً كقوله
﴿ يَقُولُونَ يَأْفُوهُمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]
وقوله ﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ﴾ [الكهف: ٥] .
وقوله ﴿ يَقُولُونَ يَا لَيْسَ بِهِ مَسِيحٌ ﴾ [الفتح: ١١]
قوله ﴿ يُضْهِثُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ المضاهاة:
المشابهة، قيل ومنه قول العرب امرأة ضهياء، وهي التي
لا تحيض لأنها شابته الرجال. قال أبو علي الفارسي:
من قال ﴿ يُضْهِثُونَ ﴾ مأخوذ من قولهم امرأة ضهياء
فقوله خطأ، لأن الهمزة في ضاهأ أصلية، وفي ضهياء
زائدة كحمرأ. وأصله يضاهئون وامرأة ضهياء. ومعنى
مضاهاتهم لقول الذين كفروا فيه أقوال لأهل العلم: الأول
أنهم شابهوا بهذه المقالة عبدة الأوثان في قولهم واللات
والعزى ومناة بنات الله. القول الثاني أنهم شابهوا قول من
يقول من الكافرين: إن الملائكة بنات الله، الثالث أنهم
شابهوا أسلافهم القائلين بأن عزيز ابن الله وأن المسيح ابن
الله. قوله ﴿ قَتَلْنَاهُمْ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك، لأن
من قاتله الله هلك؛ وقيل هو تعجب من شناعة قولهم؛
وقيل معنى قاتلهم الله: لعنهم الله . . .

﴿ أَفْ يُؤَفِّكُونَ ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق
إلى الباطل. قوله ﴿ أَخْذُوا آخْبَارَهُمْ وَرَهْبَنَهُمْ أَرْبَابًا
مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ الأخبار: جمع خبر، وهو الذي يحسن
القول. ومنه ثوب محبر: وقيل جمع خبر بكسر الحاء.
قال يونس: لم أسمع إلا بكسر الحاء. وقال الفراء:

. . . وظاهر قوله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ ﴾ إن هذه المقالة
لجميعهم، وقيل هو لفظ خرج على العموم، ومعناه
الخصوص لأنه لم يقل ذلك إلا لبعض منهم. وقال
النقاش: لم يبق يهودي يقولها؟ بل قد انقرضوا؛ وقيل إنه
قال ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم جماعة منهم،
فنزلت الآية متضمنة لحكاية ذلك عن اليهود، لأن قول
بعضهم لازم لجميعهم. قوله ﴿ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ
ابْنُ اللَّهِ ﴾ قالوا هذا لما رأوا من إحيائه الموتى مع كونه
من غير أب، فكان ذلك سبباً لهذه المقالة، والأولى أن
يقال: إنهم قالوا هذه المقالة لكون في الإنجيل وصفه
تارة بابن الله وتارة بابن الإنسان، كما رأينا ذلك في
مواضع متعددة من الإنجيل، ولم يفهموا أن ذلك لقصد
التشريف والتكريم، أو لم يظهر لهم أن ذلك من تحريف
سلفهم لغرض من الأغراض الفاسدة؛ قيل: وهذه المقالة
إنما هي لبعض النصاري لا لكلهم. قوله ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ
يَأْفُوهُمْ ﴾ الإشارة إلى ما صدر عنهم من هذه المقالة
الباطلة. ووجه قوله بأفواهم مع العلم بأن القول لا يكون
إلا الفم، بأن هذا القول لما كان ساذجاً ليس فيه بيان ولا
عضده برهان كان مجرّداً دعوى، لا معنى تحتها فارغة
صادرة عنهم صدور المهملات التي ليس فيها إلا كونها
خارجة من الأفواه، غير مفيدة الفائدة يعتد بها؛ وقيل إن
ذكر الأفواه لقصد التأكيد كما في كتبت بيدي ومشيت
برجلي، ومنه قوله تعالى ﴿ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ﴾
[البقرة: ٧٩]. وقوله ﴿ وَلَا ظَلِمَ بَطِيرٌ بِجَنَاحَيْهِ ﴾ [الأنعام:

الأول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم .

دعوا كل قول عند قول محمد

فما أبى في دينه كمخاطر

اللهم هادي الضال، مرشد التائه، موضح السبيل،
اهدنا إلى الحق وارشدنا إلى الصواب، وأوضح لنا منهج
الهداية. قوله ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾
هذه الجملة في محل نصب على الحال: أي اتخذوا
أحبارهم ورهبانهم أرباباً، والحال أنهم ما أمروا إلا بعبادة
الله وحده، أو وما أمر الذين اتخذوهم أرباباً من الأحبار
والرهبان إلا بذلك، فكيف يصلحون لما أهلوه له من
اتخاذهم أرباباً. قوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لقوله
إلهاً ﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له عن
الإشراك في إطااعته وعبادته . . .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو
الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس قال: أتى رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى
وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف
نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزير ابن الله؟
﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ الآية. وأخرج ابن أبي
شيبه وابن المنذر عنه قال: كنّ نساء بني إسرائيل يجتمعن
بالليل فيصليين ويعتزلن ويذكرن ما فضل الله به بني
إسرائيل وما أعطاهم، ثم سلط عليهم شر خلقه بختنصر،
فحرق التوراة وخرّب بيت المقدس، وعزير يومئذ غلام،
فقال عزير: أوكان هذا؟ فلحق بالجبال والوحش فجعل
يتعبد فيها، وجعل لا يخالط الناس، فإذا هو ذات يوم
بامرأة عند قبر وهي تبكي. فقال: يا أمة اتقي الله واحتسبي
واصبري أما تعلمين أن سبيل الناس إلى الموت؟ فقالت:
يا عزير أنتهاني أن أبكي وأنت قد خلفت بني إسرائيل
ولحقت بالجبال والوحش؟ ثم قالت: إني لست بامرأة
ولكني الدنيا، وإنه سينبع في مصلاك عين وتنبت شجرة،
فاشرب من ماء العين وكل من ثمر الشجرة، فإنه سيأتيك
ملكان فاتركهما يصنعان ما أرادا، فلما كان من الغد نبعت
العين ونبتت الشجرة، فشرب من ماء العين وأكل من ثمرة
الشجرة، وجاء ملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه

الفتح والكسر لغتان. وقال ابن السكيت: الحبر بالكسر
العالم، والحبر بالفتح العالم. والرهبان جمع راهب
مأخوذ من الرهبة. وهم علماء النصارى كما أن الأحبار
علماء اليهود. ومعنى الآية أنهم لما أطاعوهم فيما
يأمرونهم به وينهونهم عنه كانوا بمنزلة المتخذين لهم أرباباً
لأنهم أطاعوهم كما تطاع الأرباب. قوله ﴿وَالْمَسِيحَ
أَبْنَ مَرْيَمَ﴾ معطوف على رهبانهم: أي اتخذوه النصارى
رباً معبوداً، وفيه إشارة إلى أن اليهود لم يتخذوا عزير رباً
معبوداً، وفي هذه الآية ما يزر من كان له قلب أو ألقى
السمع وهو شهيد عن التقليد في دين الله، وتأثير ما يقوله
الأسلاف على ما في الكتاب العزيز والسنة المطهرة، فإن
طاعة المتمدن لمن يقتدي بقوله ويستنّ بسنّته من علماء
هذه الأمة مع مخالفته لما جاءت به النصوص وقامت به
حجج الله وبراهينه ونطقت به كتبه وأنبيأؤه، هو كاتخاذ
اليهود والنصارى للأحبار والرهبان أرباباً من دون الله،
للقطع بأنهم لم يعبدوهم بل هم أطاعوهم وحزّموا ما
حزّموا وحلّلوا ما حلّلوا، وهذا هو صنيع المقلدين من
هذه الأمة، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة، والتمرة
بالتمرة، والماء بالماء؛ فيا عباد الله ويا أتباع محمد بن
عبدالله ما بالكم تركتم الكتاب والسنة جانباً، وعمدتم إلى
رجال هم مثلكم في تعبد الله لهم بهما وطلبه منهم للعمل
بما دلا عليه وأفاده، فعلتم بما جاءوا به من الآراء التي لم
تعتمد بعماد الحق، ولم تعضد بعضد الدين ونصوص
الكتاب والسنة، تنادى بأبلغ نداء وتصوت بأعلى صوت
بما يخالف ذلك ويأنيه، فأعرتموهما آذاناً صماً، وقلوباً
غلفاً، وأفهماماً مريضة، وعقولا مهیضة، وأذهاناً كليله،
وخواطر عليله، وأنشدتم بلسان الحال:

وما أنا إلا من غزيرة إن غوت

غويت وإن ترشد غزيرة أرشد

فدعوا أرشدكم الله وإياي كتباً كتبها لكم الأموات من
أسلافكم، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقكم
ومتعبدكم ومتعبدكم ومعبودهم ومعبودكم، واستبدلوا
بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاؤكم به من الرأي
بأقوال إمامكم وإمامهم وقودتكم وقودتهم، وهو الإمام

﴿فَكَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ قال: لعنهم الله وكل شيء في القرآن قتل فهو لعن. وأخرج ابن سعد وعبد بن حميد والترمذي وحسنه وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في سننه عن عدي بن حاتم قال: أتيت النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه. وأخرجه أيضاً أحمد وابن جرير. وأخرج عبد الرزاق والفريري وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ والبيهقي في سننه عن أبي البحتري قال: سأل رجل حذيفة فقال: رأيت قوله ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أكانوا يعبدونهم؟ قال: لا ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه...

فألهمه الله التوراة، فجاء فأملأه على الناس، فعند ذلك قالوا عزيز ابن الله، تعالى الله عن ذلك. وأخرج ابن أبي حاتم عنه أيضاً فذكر قصة وفيها: أن عزيز سأل الله بعدما أنسى بني إسرائيل التوراة ونسخها من صدورهم أن يرّد الذي نسخ من صدره، فبينما هو يصلي نزل نور من الله عزّ وجلّ فدخل جوفه، فعاد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة، فأذن في قومه فقال: يا قوم قد آتاني الله التوراة وردها إليّ. وأخرج أبو الشيخ عن كعب قال: دعا عزيز ربه أن يلقي التوراة كما أنزل على موسى في قلبه، فأنزلها الله عليه، فبعد ذلك قالوا: عزيز ابن الله. وأخرج ابن مردويه وابن عساكر عن ابن عباس قال: ثلاث أشك فيهن: فلا أدري عزيز كان نبياً أم لا؟ ولا أدري ألعن تبع أم لا؟ قال: ونسيت الثالثة. وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عنه في قوله ﴿يُضَكَّهُتُونَ﴾ قال: يشبهون. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عنه في قوله

الآلوسي ج ٥ ص ٨٠ - ٨٥

كان عزيز يعلمهم فوجوده مثله فقالوا: والله ما أوتي عزيز هذا إلاّ لأنه ابن الله سبحانه. وقال الكلبي في سبب ذلك: إن باختصر غزا بيت المقدس وظهر على بني إسرائيل وقتل من قرأ التوراة وكان عزيز إذ ذاك صغيراً فلم يقتله لصغره فلما رجع بنو إسرائيل إلى بيت المقدس وليس فيهم من يقرأ التوراة بعث الله تعالى عزيزاً ليحدث لهم التوراة وليكون آية لهم بعدما أماته الله تعالى مائة سنة فأناه ملك بإناء فيه ماء فشرب منه فمثلت له التوراة في صدره فلما أتاها قال: أنا عزيز فكذبوه وقالوا: إن كنت كما تزعم فأملر علينا التوراة فكتبها لهم من صدره. فقال رجل منهم: إن أبي حدثني عن جدي أنه وضعت في التوراة في خابية ودفنت في كرم فانطلقوا معه حتى أخرجوها فعارضوها بما كتب لهم عزيز فلم يجدوه غادر حرفاً فقالوا: إن الله تعالى لم يقذف التوراة في قلب عزيز إلاّ لأنه ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. وروي غير ذلك ومرجع الروايات إلى أن السبب حفظه عليه السلام للتوراة، وقيل: قاتل ذلك جماعة من يهود المدينة منهم

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ استئناف سيق لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه وانتظامهم بذلك في المشركين، والقاتل ﴿عَزِيزُ بْنُ اللَّهِ﴾ متقدمو اليهود ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل مما شاع، وسبب ذلك على ما أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن عزيزاً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق وكان الثابت عندهم. فلما رأى الله سبحانه وتعالى أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم الثابت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم فدعا عزيز ربه عزّ وجلّ وابتهل أن يرد إليه ما نسخ من صدره، فبينما هو يصلي مبتهلاً إلى الله عزّ وجلّ نزل نور من الله تعالى فدخل جوفه فعاد الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فأذن في قومه فقال: يا قومي قد آتاني الله تعالى التوراة وردها إليّ فطفق يعلمهم فمكتوا ما شاء الله تعالى أن يمكنوا وهو يعلمهم. ثم إن الثابت نزل عليهم بعد ذهابه منهم فعرضوا ما كان فيه على الذي

الخطاب وهو ضعيف . وأجاب بعضهم بأن الوصف للعلية فإنكار الحكم يتضمن إنكار علته . وفيه أن إنكار الحكم قد يحتمل أن يكون بواسطة عدم الإفضاء لا لأن الوصف كالأبنية مثلاً منتف .

وفي الإيضاح أن القول بمعنى الوصف وأراد أنه لا يحتاج إلى تقدير الخبر كما أن أحداً إذا قال مقالة ينكر منها البعض فحكيت منها المنكر فقط، وهو كما في الكشف وجه حسن في رفع التمثل لكنه خلاف الظاهر كما يشهد له آخر الآية . وقال بعض المحققين : إنه يحتمل أن يكون ﴿عَزِيزُ أَيْنُ اللَّهِ﴾ خبر مبتدأ محذوف أي صاحبنا عزيز ابن الله مثلاً، والخبر إذا وصف توجه الإنكار إلى وصفه نحو هذا الرجل العاقل وهذا موافق للبلاغة وجار على وفق العربية من غير تكلف ولا غبار، ولم يظهر لي وجه تركه مع ظهوره، والظاهر أن التركيب خبر ولا حذف هناك، واختلف في عزيز هل هو نبي أم لا والأكثر على الثاني ﴿وَقَالَتِ الْفَكَرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هو أيضاً قول بعضهم، ولعلمهم إنما قالوه لاستحالة أن يكون ولد من غير أب أو لأنهم رأوا من أفعاله ما رأوا .

ويحتمل - وهو الظاهر عندي - أنهم وجدوا اطلاق الابن عليه عليه السلام وكذا اطلاق الآب على الله تعالى فيما عندهم من الإنجيل فقالوا ما قالوا وأخطأوا في فهم المراد من ذلك . وقد قدمنا من الكلام ما فيه كفاية في هذا المقام .

ومن الغريب - ولا يكاد يصح - ما قيل : إن السبب في قولهم هذا أنهم كانوا على الدين الحق بعد رفع عيسى عليه السلام إحدى وثمانين سنة يصلون ويصومون ويوحدون حتى وقع بينهم وبين اليهود حرب وكان في اليهود رجل شجاع يقال له بولص قتل جماعة منهم ثم قال لليهود : إن كان الحق مع عيسى عليه السلام فقد كفرنا والنار مصيرنا ونحن مغبونون أن دخلنا النار ودخلوا الجنة وإنني سأحتال عليهم وأضلهم حتى يدخلوا النار معنا ثم إنه عمد إلى فرس يقاتل عليه فعقره وأظهر الندامة والتوبة ووضع التراب على رأسه وأتى النصارى فقالوا له من أنت فقال : عدوكم بولص قد نوديت من السماء أنه ليست لك توبة

سلام بن مشكم . ونعمان بن أبي أوفى . وشاس بن قيس . ومالك بن الصيف . أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ . وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنهم أتوا رسول الله ﷺ فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيراً ابن الله؟ وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج أن قائل ذلك فنحاص بن عازوراء وهو على ما جاء في بعض الروايات القائل : «إن الله فقير ونحن أغنياء» .

وبالجملة أن هذا القول كان شائعاً فيهم ولا عبرة بإنكارهم له أصلاً ولا بقول بعضهم : إن الواقع قولنا عزيز أبان الله أي أوضح أحكامه وبين دينه أو نحو ذلك بعد أن أخبر الله سبحانه تعالى بما أخبر . وقرأ عاصم . والكسائي . ويعقوب . وسهل ﴿عَزِيزٌ﴾ بالتنوين والباقون بتركه . أما التنوين فعلى أنه اسم عربي مخبر عنه بابن . وقال أبو عبيدة : إنه أعجمي لكنه صرف لخصته بالتصغير كنوح ولوط وإلى هذا ذهب الصغاني .

وهو مصغر عزار تصغير ترخيم ، والقول بأنه أعجمي جاء على هيئة المصغر وليس به فيه نظر . وأما حذف التنوين فليل لالتقاء الساكنين فإن نون التنوين ساكنة والباء في ابن ساكنة أيضاً فالتقى الساكنان فحذفت النون كما يحذف حروف العلة لذلك ، وهو مبني على تشبيه النون بحرف اللين وإلا فكان القياس تحريكها ، وهو مبتدأ وابن خبره أيضاً ولذا رسم في جميع المصاحف بالالف ؛ وقيل : لأنه ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة ، وقيل : لأن الابن وصف والخبر محذوف مثل معبودنا . وتعقب بأنه تمحل عنه مندوحة ورده الشيخ في دلائل الإعجاز بأن الاسم إذا وصف بصفة ثم أخبر عنه فمن كذبه انصرف تكذيبه إلى الخبر وصار ذلك الوصف مسلماً ، فلو كان المقصود بالإنكار قولهم عزيز ابن الله معبودنا لتوجه الإنكار إلى كونه معبوداً لهم وحصل تسليم كونه ابناً لله سبحانه وذلك كفر . واعترض عليه الإمام قائلًا : إن قوله يتوجه الإنكار إلى الخبر مسلم لكن قوله : يكون ذلك تسليمًا للوصف ممنوع لأنه لا يلزم من كونه مكذباً لذلك الخبر كونه مصدقاً لذلك الوصف إلا أن يقال : ذلك بالخبر يدل على أن ما سواه لا يكذبه وهو مبني على دليل

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢] لا يهديهم في كيدهم، فالمراد يضاهئون في قولهم قول الذين كفروا ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ أي من قبلهم وهم كما روي عن ابن عباس. ومجاهد. وقتادة واختاره الفراء المشركون الذين قالوا: الملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون، وقيل: المراد بهم قداماؤهم فالمضاهي من كان في زمنه عليه الصلاة والسلام منهم لقدماتهم وأسلافهم، والمراد الإخبار بعراقتهم في الكفر.

وأنت تعلم أنه لا تعدد في القول حتى يتأتى التشبيه، وجعله بين قولي الفريقين ليس فيه زيد مزية، وقيل: المراد بهم اليهود على أن الضمير للنصارى، ولا يخفى أنه خلاف الظاهر وإن أخرجه ابن المنذر وغيره عن قتادة مع أن مضاهاتهم قد علمت من صدر الآية، ويستدعي أيضاً اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ بقول النصارى، وقرأ الأكثر ﴿يُضْكَهَوْنَ﴾ بهاء مضمومة بعدها واو، وقد جاء ضاهيت وضاهأت بمعنى من المضاهاة وهي المشابهة وبذلك فسرهما ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وعن الحسن تفسيرها بالموافقة وهما لغتان، وقيل: الياء فرع عن الهمزة كما قالوا قريت وتوضيت، وقيل: الهمزة بدل من الياء لضمها. ورد بأن الياء لا تثبت في مثله حتى تقلب بل تحذف كرامون من الرمي، وقيل: إنه مأخوذ من قولهم: امرأة ضهيا بالقصر وهي التي لا ثدي لها أو لا تحيض أو لا تحمل لمشابتها بالرجال، ويقال: ضهيا بالمد كحمراء وضحياء بالمد وتاء التأنيث وشذ فيه الجمع بين علامتي التأنيث، وتعقب بأنه خطأ لاختلاف المادتين فإن الهمزة في ضهياء على لغتها الثلاث زائدة وفي المضاهاة أصلية ولم يقولوا: إن همزة ضهياء أصلية ياؤها زائدة لأن فعيلاء لم يثبت في أبنتهم، ولم يقولوا وزنها فعلل كجعفر لأنه ثبت زيادة الهمزة في ضهياء بالمد فتعتن في اللغة الأخرى، وفي هذا المقام كلام مفصل في محله. ومن الناس من جوز الوقف على ﴿قَوْلُهُمْ﴾ وجعل ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ متعلقاً بـضاهئون ولا توقف في أنه ليس بشيء، وفي الجملة ذم للذين كفروا على أبلغ وجه وإن لم

حتى تنصروا وقد ثبت وأنتيتكم فأدخلوه الكنيسة ونصروه ودخل بيتاً فيها فلم يخرج منه سنة حتى تعلم الإنجيل ثم خرج وقال: قد نوديت إن الله تعالى قد قبل توبتك فصدقوه وأحبوه وعلا شأنه فيهم، ثم إنه عمد إلى ثلاثة رجال منهم نسطور. ويعقوب. وملكاً فعلم نسطور أن الإله ثلاثة. الله. وعيسى. ومريم تعالى الله عن ذلك، وعلم يعقوب أن عيسى ليس بإنسان ولكنه ابن الله سبحانه، وعلم ملكاً أن عيسى هو الله تعالى لم يزل ولا يزال فلما استمكن ذلك منهم دعا كل واحد منهم في الخلوة وقال له: أنت خالصتي فادع الناس إلى ما علمتك وأمره أن يذهب إلى ناحية من البلاد، ثم قال لهم: إني رأيت عيسى عليه السلام في المنام، وقد رضي عني وأنا ذابح نفسي تقرباً إليه ثم ذهب إلى المذبح فذبح نفسه، وتفرق أولئك الثلاثة فذهب واحد منهم إلى الروم، وواحد إلى بيت المقدس. والآخر إلى ناحية أخرى وأظهر كل مقالته ودعا الناس إليها فتبعه من تبعه وكان ما كان من الاختلال والضلال ﴿ذَلِكَ﴾ أي ما صدر عنهم من العظيمنتين ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي أنه قول لا يعضده برهان مماثل للألفاظ المهملة التي لا وجود لها إلا في الأفواه من غير أن يكون لها مصداق في الخارج، وقيل: هو تأكيد لنسبة القول المذكور إليهم ونفي التجوؤ عنها وهو الشائع في مثل ذلك، وقيل: أريد بالقول الرأي والمذهب، وذكر الأفواه إما للإشارة إلى أنه لا أثر له في قلوبهم وإنما يتكلمون به جهلاً وعناداً وإما للإشعار بأنه مختار لهم غير متحاشين عن التصريح به فإن الإنسان ربما ينه على مذهبه بالكتابة أو بالكناية مثلاً فإذا صرح به وذكره بلسانه كان ذلك الغاية في اختياره، وأدعى غير واحد أن جعل ذلك من باب التأكيد كما في قولك: رأيت بعيني وسمعت بأذني مثلاً مما يبابه المقام. ولو كان المراد به التأكيد مع التعجب من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة لا ينافيه المقام ولا تراحم في النكات ﴿يُضْكَهَوْنَ﴾ أي يضاهي قولهم في الكفر والشناعة ﴿قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وصير مرفوعاً، ويحتمل أن يكون من باب التجوؤ كما قيل في قوله تعالى

بن حاتم قال: أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وفي عنقي صليب من ذهب فقال: يا عدي اطرح عنك هذا الوثن وسمعتة يقرأ في سورة براءة اتخذوا أحابارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله فقلت له: يا رسول الله لم يكونوا يعبدونهم فقال عليه الصلاة والسلام. أليس يحرمون ما أحل الله تعالى فيحرمونه ويحلون ما حرم الله فيستحلون؟ فقلت بلى. قال: ذلك عبادتهم. وسئل حذيفة رضي الله تعالى عنه عن الآية فأجاب بمثل ما ذكر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم، ونظير ذلك قولهم: فلان يعبد فلاناً إذا أفرط في طاعته فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة وهي طاعة مخصوصة على مطلقها والأول أبلغ، وقيل: اتخذهم أرباباً بالسجود لهم ونحوه مما لا يصلح إلا للرب عز وجلّ وحينئذ فلا مجاز إلا أنه لا مقال لأحد بعد صحة الخبر عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. والآية ناعية على كثير من الفرق الضالة الذين تركوا كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام لكلام علمائهم ورؤسائهم والحق أحق بالاتباع فمتى ظهر وجب على المسلم اتباعه وإن أخطأه اجتهد مقلده ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ عطف على ﴿وَرُحْبَكُنَّهُمْ﴾ بأن اتخذوه رباً معبوداً أو بأن جعلوه ابناً لله كما يقتضيه سياق الآية على ما قيل وفيه نظر. وتخصيص الاتخاذ به عليه السلام يشير إلى أن اليهود ما فعلوا ذلك بعزير، وتأخير في الذكر مع أن اتخذهم له كذلك أقوى من مجرد الإطاعة في أمر التحليل والتحريم لأنه مختص بالنصارى، ونسبته عليه السلام إلى أمه للإيدان بكمال ركافة رأيهم والقضاء عليهم بنهاية الجهل والحماقة.

﴿وَمَا أَمَرُوا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في الكتب الإلهية وعلى السنة الأنبياء عليهم السلام ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ جليل الشأن وهو الله سبحانه ويطيعوا أمره ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه فإن ذلك مناف لعبادته جل شأنه، وأما إطاعة الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم وسائر من أمر الله بطاعته فهي في الحقيقة إطاعة لله عز وجلّ، أو وما أمر الذين اتخذهم الكفرة أرباباً من المسيح عليه السلام والأحبار والرهبان إلا

تسق لدمهم ﴿فَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم بالإهلاك فإن من قاتل الله تعالى فمقتول ومن غلبه فمغلوب. وأخرج ابن جرير، وغيره عن ابن عباس أن المعنى لعنهم الله وهو معنى مجازي لقاتلهم، ويجوز أن يكون المراد من هذه الكلمة التعجب من شناعة قولهم فقد شاعت في ذلك حتى صارت تستعمل في المدح فيقال: قاتله الله تعالى ما أفصح.

وقيل: هي للدعاء والتعجب يفهم من السياق لأنها كلمة لا تقال إلا في موضع التعجب من شناعة فعل قوم أو قولهم ولا يخفى ما فيه مع أن تخصيصها بالشناعة شناعة أيضاً ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان ﴿أَتَحْكُدُوا أَحْبَابَكُمْ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، والأحبار علماء اليهود، واختلف في واحدة فقال الأصمعي: لا أدري أهو خبر أو جبر، وقال أبو الهيثم: هو الفتح لا غير، وذكر ابن الأثير أنه بالفتح والكسر وعليه أكثر أهل اللغة، والصحيح إطلاقه على العالم ذمياً كان أو مسلماً فقد كان يقال لابن عباس رضي الله تعالى عنهما الخبر ويجمع كما في القاموس على حبور أيضاً وكأنه مأخوذ من تحبير المعاني بحسن البيان عنها ﴿وَرُحْبَكُنَّهُمْ﴾ وهم علماء النصارى من أصحاب الصوامع، وهو جمع راهب وقد يقع على الواحد ويجمع على رهابين ورهابة وفي مجمع البيان أن الراهب هو الخاشي الذي تظهر عليه الخشية وكثر إطلاقه على متنسكي النصارى وهو مأخوذ من الرهبة أي الخوف، وكانوا لذلك يتخلون من أشغال الدنيا وترك ملاذها والزهد فيها والعزلة عن أهلها وتعتمد مشافها حتى إن منهم من كان يخصي نفسه ويضع السلسلة في عنقه وغير ذلك من أنواع التعذيب، ومن هنا قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا رهبانية في الإسلام» والمراد في الآية اتخذ كل من الفريقين علماءهم لا الكل الكل ﴿أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ بأن أطاعوهم في تحريم ما أحل الله تعالى وتحليل ما حرمه سبحانه وهو التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم. فقد روى الثعلبي، وغيره عن عدي

وهو أن ما سبق يحتمل غير التوحيد بأن يؤمروا بعبادة إله واحد من بين الآلهة فإذا وصف المأمور بعبادته بأنه هو المنفرد بالآلوهية تعين المراد، وجوز أن يكون صفة مفسرة لواحداً ﴿سُبْحَانَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه له أي تنزيه عن الإشراك به في العبادة والطاعة.

ليطيعوا أو ليوحدوا الله تعالى فكيف يصح أن يكونوا أرباباً وهم مأمورون مستعبدون مثلهم، ولا يخفي أن تخصيص العبادة به تعالى لا يتحقق إلا بتخصيص الطاعة أيضاً به تعالى ومتى لم يخص به جل شأنه لم تخص العبادة به سبحانه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لإلهاً أو استئناف، وهو على الوجهين مقرر للتوحيد وفيه على ما قيل فائدة زائدة

القاسمي ج ٨ ص ١٨٠ - ١٨٧

القول في تأويل قوله تعالى

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىُّ بْنُُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ جملة مبتدأة، سبقت لتقرير ما مر من عدم إيمان أهل الكتابين بالله سبحانه، وانتظامهم بذلك في سلك المشركين. وقرئ ﴿عِزَّىُّ﴾ بالتثنية على الأصل، وحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس تخفيفاً. وهو مبتدأ وما بعده خبره، ولهم أوجه أخرى في إعرابه، والوجه ما ذكرناه.

وليعلم أن الذي دعا الفريقين إلى مقالتهما هو الغلو في التعظيم. فأما اعتقاد النصارى فهو مشهور معلوم، تكفل التنزيل الكريم يذكره مراراً، ودحر شبهه. وأما اليهود في ﴿عِزَّىُّ﴾ فغلاتهم أو جهلهم يتفوهون بهذه الكلمة الشنعاء، وأما بقيتهم فيعتبرونه في مقام موسى، ويحترمونه دائماً ذكره، ويعتقدون أن الله تعالى قد أقامه لجمع التوراة المبددة. ولتجديد الملة الموسوية، وإرجاعها إلى عهددها، وإصلاح ما فسد من آدابها وعوائدها، بإلهام، فإن نسخة التوراة الأصلية، وبقيّة أسفارهم، فقدت لما أغار أهل بابل، جند (بخت نصر) على بيت المقدس، وهدموه، وسبوا أهله إلى مملكتهم بابل، وأقاموا هناك سبعين سنة، ثم لما نبغ فيهم (عزير) واشتهر، واستعطف أحد ملوكهم في سراحهم، فأطلق له الملك الإجازة، فعاد من بابل بمن بقي من اليهود إلى بيت المقدس، وجدّد ما اندثر من الشريعة الموسوية.

قال بعض الكتابيين في قاموس له: زعم اليهود أن أئمتهم عقدوا مجمعاً في عهد (عزرا)، وجمعوا الأسفار العبرانية في قانون متعارف عندهم اليوم، وضموا إليه ما

لم يكن فيه من قبل جلاء بابل.

وفي (الذخيرة) من كتبهم ما نصه: أجمع القوم على أن (عزرا) الذي كان خبيراً بآثار وطنه وقدمها، وماهرأ بمعرفة الطقوس اليهودية، وبارعاً بالعلوم المقدسة، هو أول من قرر هذا القانون، وأثبت أجزاءه المختلفة، بعد الأسر البابلي في نحو السنة ٥٤٣ قبل ميلاد المسيح، ولما تفرقت التوراة آن الجلاء، قام (عزرا) وجمع ما وجد من النسخ المتناثرة، وألف منها نسخة صححها ونقحها ما استطاع، وبدل أسماء الأماكن التي انتسخ ثم استعملها، بأسماء أخرى أشهر في عرفهم، ونسق الكل نسقاً محكماً، واتفق الجميع على أنه اعتاض في كل الأسفار عن حروف الخط العبراني بحروف كلدانية، ألف استعمالها اليهود مدة أسرهم الذي استمر سبعين سنة. انتهى.

فلهذا العمل المهم عندهم دعوه (ابنأ) وفيه من الجراءة على المقام الرباني ما فيه. ولو زعموا إرادة المجاز في ذلك، فلا مناص لهم من لحوق الكفر بهم، فإنه يجب الاحتياط في تنزيهه تعالى، حتى بغفة اللسان، عن النطق بما يوهم نقصاً في جانبه، فيتبرأ من مثل هذا اللفظ مطلقاً ومن كل ما شاكلة. هذا وقد قيل إن القائل لذلك بعض من متقدميهم، وقيل ناس من أهل المدينة في عهد النبي ﷺ ولا دلالة في الآية على واحد منهما بخصوصه، ونسبة الشيء القبيح إذا صدر من بعض القوم إلى الكل، مما شاع.

لطيفة:

قرئ (عزير) بالتثنية على الأصل، لأنه منصرف، وقرئ بحذفه لالتقاء الساكنين على غير القياس، لا لأنه أعجمي غير منصرف للعلمية والعجمة، كما قيل، لأن

أريد بـ ﴿الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى﴾ في الآية، يهود المدينة ونصارى نجران في عهده ﷺ، وهو وجه في الآية كما تقدم، فإنهم سُبِقوا من أهل مكة بالكفر به عليه الصلاة والسلام. وقيل: المراد بهم قداماؤهم، يعني أن من كان في زمنه عليه الصلاة والسلام منهم، يضاهى قولهم قدامائهم. والمراد عراقتهم في الكفر، أي أنه كفر قديم فيهم غير مستحدث.

قال أبو السعود: وفيه أنه لا تعدد في القول، حتى يتأتى التشبيه، وجعله بين قولي الفريقين، مع اتحاد المقول، ليس فيه مزيد مزية. وقيل: الضمير للنصارى، أي يضاهى قولهم ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ قول اليهود ﴿عِزَّىزٌ...﴾. إلخ لأنهم أقدم منهم.

قال أبو السعود: وهو أيضاً كما ترى، فإنه يستدعي اختصاص الرد والإبطال بقوله تعالى ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾، بقول النصارى انتهى.

والمضاهاة المشابهة، يقال: ضاهيت، وضاهات - كما قاله الجوهري - وقراءة العامة (يضاهون) بهاء مضمومة بعدها واو. وقرأ عاصم بهاء مكسورة بعدها همزة مضمومة، وهما بمعنى. من المضاهاة، وهي المشابهة، وهما لغتان. وقيل: الباء فرع عن الهمزة، كما قالوا: قريت وتوضيت وأخطيت ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ أي لعنهم أو قتلهم، أو عاداهم أو تعجب من شناعة قولهم ﴿أَنْتَ يُؤْفِكُونَ﴾ أي كيف يصرفون عن الحق إلى الباطل.

وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿اتَّخَذُوا أَعْبَادَهُمْ وَرُءُسَهُمْ أَرْبَابًا بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ زيادة تقرير لما سلف من كفرهم بالله تعالى، وفيه وصفهم بنوع آخر من الشرك. والأخبار علماء اليهود جمع (خبر) بكسر الحاء وفتحها، وهو العالم بتحجير الكلام وتحسينه - كذا ذكره أئمة اللغة - قال بعضهم:

ذلك إنما يصح لو كان على لفظه الأصلي، وهو (عزراء) أو (عزريا)، لفظان عبرانيان، معنى الأول معين، والثاني الله مساعد. أما وقد تصرف فيه العرب بالتصغير، فلا. وظاهر أن أغلب الأسماء القديمة، لانتقالها من أمة إلى أخرى وكثرة تداولها، تطرق إليها من شوائب التحريف والزيادة والنقصان، ما غير صيغتها الأصلية بعض التغيير ولما استعملت العرب من الأسماء العبرانية ونحوها ما أدخلته إلى لغتها، إما منحوتة من القديمة، أو محرفة منها، أصبحت بالاصطلاح من قبيل الأعلام العربية، إلا ما بقي على وضعه الأول.

وقوله تعالى ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما صدر عنهم من العظيمنتين. وما فيه من معنى البعد، للدلالة على بعد درجة المشار إليه في الشناعة والفظاعة - قاله أبو السعود - ﴿قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ قال الزمخشري: فإن قلت: كل قول يقال بالفم، فما معنى ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾؟ قلت: فيه وجهان:

أحدهما - أن يراد به أنه قول لا يعضده برهان، فما هو إلا لفظ يفوهون به، فارغ من معنى تحته، كالألفاظ المهملة التي هي أجراس ونغم، لا تدل على معان. وذلك أن القول الدال على معنى، لفظه مقول بالفم، ومعناه مؤثر في القلب. وما لا معنى له، مقول بالفم لا غير.

والثاني - أن يراد بالقول المذهب، كقولهم (قول أبي حنيفة)، يريدون مذهبه، وما يقول به، كأنه قيل: ذلك مذهبهم ودينهم بأفواههم، لا بقلوبهم، لأنه لا حجة معه ولا شبهة، حتى يؤثر في القلوب. وذلك أنهم إذا اعترفوا أنه لا صاحبة له، لم تبق شبهة في انتفاء الولد. انتهى.

وثمة وجه ثالث شائع في مثله، وهو التأكيد لنسبة هذا القول إليهم، مع التعجيب من تصريحهم بتلك المقالة الفاسدة. قال بعضهم: القول قد ينسب إلى الأفواه وإلى الألسنة، والأول أبلغ.

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين كفروا من قبلهم من الأمم، فضلوا كما ضل أولئك. قيل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مشركو مكة، القائلون بأن الملائكة بنات الله، وهذا يتم إن

بعضهم: (الحبر) أعظم الأشراف بين الإسرائيليين، يكون عندهم وسيلة للتقرب لله، ومرتبة وراثية في آل هارون، يكون بكر أشيخ من فيها. انتهى.

و ﴿وَرَهَبْنَهُمْ﴾ جمع راهب بمعنى المتعبد الخاشع الزاهد. وأصل الترهّب عند النصارى، التخلي عن أشغال الدنيا، وترك ملاذّها، والزهد فيها، والعزلة عن أهلها. وفي الحديث «لا رهبانية في الإسلام». وقوله تعالى ﴿أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال الرازي: الأكثرون من المفسرين قالوا: ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا فيهم أنهم آلهة العالم، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم، أي لما روى الترمذي عن عديّ بن حاتم قال: أتيت النبي ﷺ وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: يا عديّ! اطرّح عنك هذا الوثن. وسمعتة يقرأ في سورة براءة ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: أما إنهم لم يكونوا يعبدونهم، ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه، وإذا حرّموا عليهم شيئاً حرّموه.

وروى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طرق، عن عديّ بن حاتم رضي الله عنه أنه لما بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشام، وكان قد تنصّر في الجاهلية فأسرت أخته وجماعة من قومه، ثم منّ رسول الله ﷺ على أخته، وأعطاهما، فرجعت إلى أخيها، فرغّبتة في الإسلام، وفي القدوم على رسول الله ﷺ، فقدم عديّ المدينة، وكان رئيساً في قومه طيء، وأبوه حاتم الطائيّ المشهور بالكرم، فتحدث الناس بقدمه، فدخل على رسول الله ﷺ وفي عنق عديّ صليب من فضة، وهو يقرأ هذه الآية ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ قال: فقلت: إنهم لم يعبدوهم، فقال بلى: إنهم حرّموا عليهم الحلال، وأحلوا لهم الحرام، فاتبعوهم، فذلك عبادتهم إياه. وقال رسول الله ﷺ: يا عديّ! ما تقول؟ أيسرّك أن يقال: الله أكبر؟ فهل تعلم شيئاً أكبر من الله؟ ما يسرّك أن يقال: لا إله إلا الله، فهل تعلم إلهاً غير الله؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق.

قال فلقد رأيت وجهه استبشر. ثم قال: إن اليهود

مغضوب عليهم، والنصارى ضالون.

قال ابن كثير: وهكذا قال حذيفة بن اليمان وابن عباس وغيرهما في تفسير هذه الآية، أنهم أتبعوهم فيما حللوا وحرّموا.

وقال السديّ: استنصحو الرجال، ونبدوا كتاب الله وراء ظهورهم.

وقد ذكر بعض المفسرين وجهاً في تفسير اتّخاذهم أرباباً، قال: بأن أطاعوهم بالسجود لهم.

قال الشهاب: والأول هو تفسير النبي ﷺ، فينفي الاقتصار عليه، لأنه لما أتاه عديّ ابن حاتم وهو يقرؤها قال له: إنا لم نعبدكم، فقال: ألم تتبعوهم في التحليل والتحريم؟ فهذه هي العبادة، والناس يقولون: فلان يعبد فلاناً، إذا أفرط في طاعته، فهو استعارة بتشبيه الإطاعة بالعبادة؛ أو مجاز مرسل بإطلاق العبادة، وهي طاعة مخصوصة على مطلقها، والأول أبلغ. انتهى.

قال الرازيّ: قال الربيع: قلت لأبي العالية: كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل؟ فقال: إنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأحرار والرهبان، فكانوا يأخذون بأقوالهم، وما كانوا يقبلون حكم كتاب الله تعالى.

قال الرازيّ: قال شيخنا ومولانا خاتمة المحققين والمجاهدين رضي الله عنه: قد شاهدت جماعة من ملقده الفقهاء، قرأت عليهم آيات كثيرة في كتاب الله تعالى في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات، فلم يقبلوا تلك الآيات ولم يلتفتوا إليها، ويقوا ينظرون إليّ كالمتعجب، يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات، مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأملت حق التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل المدينة. انتهى.

﴿وَمَا أُمِرُوا﴾ أي والحال أن أولئك الكفرة ما أمروا في كتابهم ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي يطيعوا أمره، ولا يطيعوا أمر غيره بخلافه، وقوله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ صفة ثانية لـ ﴿إِلَهًا﴾، أو استئناف مقرر للتوحيد ﴿سُبْحَنَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي به في العبادة والطاعة.

محمد عبده ج ١٠ ص ٣٢١ - ٣٨٣

وهو كما في أول الفصل السابع من السفر المعروف باسمه عزرا ابن سرايا ابن عزريا بن حلقيا - وساق نسبه إلى العازار بن هارون (عليه السلام) . . .

وجملة القول أن اليهود كانوا وما زالوا يقدسون عزيرا هذا حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ابن الله ولا ندرى أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثنيي الهند التي هي أصل عقيدة النصارى. وقد اتفق المفسرون على أن اسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم، وهو مبني على القاعدة التي بينها في تفسير بعض آيات سورة البقرة التي تحكي عنهم أقوالاً وأفعالاً مسندة إليهم في جملتهم، وهي مما صدر عن بعضهم، وهي أن المراد من هذا الأسلوب تقرير أن الأمة تعد متكافلة في شؤونها العامة، وأن ما يفعله بعض الفرق أو الجماعات أو الزعماء منها يكون له تأثير في جملتها وإن المنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم ويزيلوه يؤاخذون به كلهم، وبيننا في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتَقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] إن من سنن الاجتماع البشري أن المصائب والرزايا التي تحل بالأمم بفسو المفساد والردائل فيها لا تختص الذين تلبسوا بتلك المفساد وحدهم، كما أن الأوبئة التي تحدث بكثرة الأقدار في الشعب وغير ذلك من الإسراف في الشهوات تكون عامة أيضاً.

وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة كالذين قال الله فيهم ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، والذين قال فيهم ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] رداً على قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَرِضُ اللَّهُ قَرَضًا حَسْبًا؟﴾ [البقرة: ٢٤٥] ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا.

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال أتى رسول

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَسَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّهُمْ يُوَفَّكُونَ﴾ ﴿أَنَّهُمْ أَخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرَهْبَتَهُمْ أَرْكَبَاءَ بَيْنَ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

تقدم في الآية (٢٩) السابقة لهذه الآيات أن أهل الكتاب المراد بهم اليهود والنصارى لا يؤمنون بالله تعالى على الوجه الحق الذي جاءت به رسله من توحيد وتنزيه لذاته وصفاته - ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح من أن الناس يبعثون بشراً كما كانوا في الدنيا، أي أجساداً وأرواحاً، وأنهم يجزون بإيمانهم وأعمالهم، وعليها مدار سعادتهم وشقايتهم، لا على أشخاص الأنبياء والصدقيين - ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله إلى كل منهم إيماناً وإذعاناً وعملاً - ولا يدينون دين الحق. أي إنما يتبعون تقاليد وجدوا عليها آباءهم وأحبارهم ورهبانهم - فلما بين تعالى هذا في سياق قتالهم وما ينتهي به إذا لم يؤمنوا بما جاء رسول الله خاتم النبيين ﷺ وهو أداء الجزية بشرطها - عطف عليه ما يبين مبهمه، ويفصل مجمله، ويبين غايته، وهو هذه الآيات الأربع فقال عز وجل:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ إلخ نبداً في تفسير هذه الآية بذكر شيء من تاريخ عزير هذا ومكانته عند القوم ثم بيان من سموه ابن الله من اليهود، ونقفي على ذلك بذكر قول النصارى: المسيح ابن الله وتفنيده، ثم من قال بمثل هذا القول من الوثنيين القدماء وهو من معجزات القرآن: وقد تقدم هذا مفصلاً في تفسير سورتي النساء والمائدة.

عزير هذا هو الذي يسميه أهل الكتاب (عزرا) والظاهر أن يهود العرب هم الذين صغروا بالصيغة العربية للتحبيب وصرفوه عنهم أخذ المسلمون والتصرف في أسماء الأعلام المنقولة من لغة إلى أخرى معروف عند جميع الأمم، حتى أن اسم يسوع قلبته العرب فقالت عيسى.

اليهود، وقد راجت على أكثر المفسرين بعدم اطلاعهم على كتب العهد العتيق ولا سيما سفر الأيام الثاني وسفري عزرا ونحميا ولا على غيرها من كتبهم ولا على تاريخ يوسفوس اليهودي وغيره من التواريخ. دع كتب أحرار الإفرنج ومؤرخيهم مما لم يكن في زمنهم.

ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول إن الله إبناً هو كلمته التي خلق بها الأشياء - فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا إن عزيزاً ابن الله بهذا المعنى.

﴿وَقَالَتِ الْتَصَكْرَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ هذا القول كان يقوله القدماء منهم ويعتقدون به معنى مجازياً كالمحبوب والمكرم ثم سرت إليهم فلسفة الهنود في (كرشنا) وغيرهم من قدماء الوثنيين ثم اتفقت عليه فرقهم المعروفة في هذه الأزمنة وعلى أنه حقيقة لا مجاز. وعلى أن (إبن الله) بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) لأن هؤلاء الثلاثة عندهم واحد حقيقة لا مجازاً، هذا تعليم الكنائس الذي قرره المجامع الرسمية، بتأثير الفلسفة الرومية. ولكن بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون. ويخالفه خلق كثير منهم أعظمهم شأنًا الموحدون والعقليون. والكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم. . .

كناييناً في تفسير سورة المائدة ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ١٨] إن لقب «ابن الله» أطلق في كتب اليهود والنصارى على آدم كما تراه في نسب المسيح في آخر الفصل الثالث من إنجيل لوقا وهو «ابن شيث بن آدم ابن الله» وعلى يعقوب كما في الفصل الرابع من سفر الخروج (٤: ٢٢) هكذا يقول الرب: (إسرائيل ابني البكر) - وعلى أفرايم كما في سفر أرميا (٩: ٣١) لأنني صرت أباً وأفريم هو بكري) - وعلى داود (من ٢٦: ٨٩ هو يدعوني أبي أنت إلهي وصخرة خلاصي ٢٧٠ أنا أيضاً أجعله بكراً أعلى من ملوك الأرض) وأنه أطلق أيضاً على الملائكة والمؤمنين الصالحين وسمي الله

الله ﷺ سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس بن قيس ومالك بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيزاً ابن الله؟ وإنما قالوا هو ابن الله من أجل أن عزيزاً كان في أهل الكتاب وكانت التوراة عندهم يعملون بها ما شاء الله تعالى أن يعملوا، ثم أضاعوها وعملوا بغير الحق، وكان التابوت فيهم فلما رأى الله تعالى أنهم قد أضاعوا التوراة وعملوا بالأهواء رفع عنهم التابوت وأنساهم التوراة ونسخها من صدورهم (وذكر الراوي حكاية إسرائيلية قال في آخرها أن عزيزاً صلى ودعا الله أن يرد إليه الذي كان ذهب من جوفه من التوراة فاستجاب له فصار يعلمهم إياها ثم نزل التابوت عليهم فعرضوا عليه ما علمهم عزيز فوجدوه مثله).

فنحن نأخذ بما قاله ابن عباس رواية عمن جاؤا النبي ﷺ من اليهود وقالوا ما قالوا فإنه رواية عن شيء وقع في زمنه فأخبر عما رأى وسمع، وأما ما حكاه من سبب قولهم فما هو إلا رواية عن بعضهم كذبوا فيه عليه أو على من حدثه به، والظاهر أنه مما سمعه من كعب الأحبار إذ روى عنه كثيراً من الإسرائيليات، فقد أخرج أبو الشيخ عن كعب أنه قال دعا عزيز ربه عز وجل أن يلقي التوراة كما أنزل على موسى عليه السلام في قلبه. فأنزلها الله تعالى عليه فبعد ذلك قالوا عزيز ابن الله.

وقد ذكر السيوطي في الدر المنثور روايات أخرى إسرائيلية خرافية في هذا المعنى منها ما رواه ابن أبي شيبه وابن المنذر عن ابن عباس وملخصه أن الله سلط بختنصر على بني إسرائيل فحرق التوراة وخرّب بيت المقدس وعزيز يومئذ غلام فلحق بالرجال يتعبد فيها وأن الدنيا تمثلت له في صورة امرأة فأخبرته بأنه سينبع في مصلاه عين ماء وتنبت فيه شجرة فإذا شرب من العين وأكل من الثمرة جاءه ملكان. . . (إلى أن قال) فجاء الملكان ومعهما قارورة فيها نور فأوجراه ما فيها فألهمه الله التوراة!! وروى ابن أبي حاتم هذه الخرافة عن السدي بأطول مما روي عن ابن عباس. وما ذكرنا هذا إلا لنبين للناس أنه من شر الخرافات الإسرائيلية التي كان يغش المسلمين بها كعب الأحبار وأمثاله مما ليس في كتب

مجهولاً لهم ولغيرهم من البشر، كما وعد الله عز وجل في آيات منه كاختلافهم في المسيح نفسه وفي معنى اسم الله وكلمته وروحه وأرواح القدس... قال الله تعالى ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ يَأْفُوهُمْ﴾ أي ذلك الذي قالوه في عزيز والمسيح هو قولهم الذي تلوكه ألسنتهم في أفواههم، ما أنزل به الله من سلطان، ولا يتجاوز حركة اللسان، إذ ليس له مدلول في الوجود، ولا حقيقة في مدارك العقول، فهو كقوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا [الكهف: ٤، ٥] وفي معناه قوله في التنبؤ ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ وَمَا جَعَلَ أَرْوَاحَكُمْ إِلَهًا تَعْبُدُونَ مِنْهُمْ أُمُوتُوا وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ [الأحزاب: ٤] وقوله في أهل الإفك ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥] فذكر الأفواه وكذا الألسنة - مع العلم بالحس لبيان ما ذكر أي أنه قول لا يعدوها ولا يتجاوزها إلى شيء في الوجود فهو كما يقول العوام «كلام فارغ».

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يشابهون ويحاكون فيه قول الذين كفروا من قبلهم فقالوا هذا القول أو مثله، قيل إن المراد بهم مشركو العرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله. وقيل إن المراد سلفهم الذين قالوا هذا القول قبلهم، وهذا مبني على أن الكلام في اليهود والنصارى الذين كانوا في عصر نزول القرآن، إذا لم يصل إلينا أن أحداً من سلف أولئك اليهود في بلاد العرب أو غيرها قالوا عزيز ابن الله وإن كان غير بعيد في نفسه، ولو كانت الآية نصاً فيه لجزمنا به لأن عدم وصول نقل إلينا فيه لا يقتضي عدم وقوعه والراجح المختار أن المراد بكل من اليهود والنصارى في الآية الجنس وهو يصدق بوقوع ذلك من بعضهم في أي عصر كان والمختار في مضاهاتهم للذين كفروا من قبلهم يصدق في كل من وقع ذلك منهم والله أعلم بهم، وقد علمنا من تاريخ قدماء الوثنيين في الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول

أباً لهم في مواضع كثيرة من كتب العهدين، ويقابله إطلاق المسيح لقب «أولاد إبليس» على غير الصالحين وتسمية إبليس أباهم كما ترى في إنجيل يوحنا (٨: ٤١) أنتم تعملون أعمال أبيكم، قالوا إنما لم نولد من زنا لنا أب واحد وهو الله ٤٢ فقال لهم يسوع لو كان الله أباً لكم لكنتم تحبونني - إلى أن قال - أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا) وهنالك شواهد أخرى من استعمال كلمة ابن الله في الأفراد كسليمان (ع.م) وفي المؤمنين الصالحين وتسميتهم مولودين من الله تعالى وتسميته سبحانه أباً لهم.

وبينا أيضاً أن هذا الاستعمال مجازي قطعاً لا يحتمل المعنى الحقيقي بحال من الأحوال، ولكن النصارى قد خرجوا عن قوانين العقل واللغات بجعل إطلاق لفظ «ابن الله» على المسيح وحده حقيقةً وعلى غيره مجازياً، ووعدنا بتوضيح ذلك في تفسير هذه الآية ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ على أننا كنا قد بيناه ووضحناه قبل ذلك في تفسير ﴿يَتَّأْهَلُ أَلْكُتُبُ لَا تَقُولُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ﴾ [النساء: ١٧١] الآية من سورة النساء وكذا في مواضع من التفسير و(المنار) ولعلنا ما وعدنا بإيضاحه إلا ونحن ذاهلون عن هذا. وكثرة الكلام في المحال لا تزيده إلا غموضاً وإشكالاً، فالنصارى قد تحكموا في تفسير ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾ وتفسير (الكلمة) وتفسير (روح القدس) وتفسير اسم الجلالة (الله) بما ينافي العقل ونصوص العهد القديم والعهد الجديد فجعلوها متعارضة متناقضة. كل ذلك لإدخال عقيدة قدماء الوثنيين من الهنود والمصريين واليونان على دين أنبياء بني إسرائيل المبني على أساس التوحيد المطلق (٣) ولكننا نأتي بخلاصة أخرى في الموضوع نرجو أن تكون أوضح وأظهر مما سبق، وأدل على نوع من أنواع إعجاز القرآن، وهو تحديد الحقائق فيما اختلف فيه أهل الكتاب من أمر دينهم، مما كان

الدواب التي تعيش على هذه الذرة الصغيرة منه (وهي الأرض) أن يجعل لخالقه كله، ومدبر أمره، ولدأ وعائلة من جنسه، وأن يرتقي به الغرور إلى أن يجعل واحداً منهم هو الخالق له والمدبر لأمره، مع العلم بأنه ولد من امرأة وكان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم الخ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧] ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يُسْـَٔفُونَ بِالْقَوْلِ بِهِمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ . يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ . ﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِّنْ دُونِهِ فَلَنُكْرِمَنَّهُ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ [الأنبياء: ٢٦، ٢٧، ٢٨، ٢٩].

وفي الآية من القراءات تنوين ﴿ عَزِيزٌ ﴾ بناء على أنه عربي بما تصرف به العرب فجعلته بصيغة اسم التصغير، وأن ﴿ ابْنُ اللَّهِ ﴾ خبر عنه لا وصف له، وهو المروي عن عاصم والكسائي ويعقوب وقرأه الباقون بغير تنوين بناء على أنه اسم أعجمي فاجتمع فيه علنا العلمية والعجمة، وفيه وجه آخر في الإعراب، وقرأ عاصم ومن أخذ عنه ﴿ يُضَكَّهُمْ ﴾ بالهمز والباقيون (يضاهون) من الناقص وهما لغتان...

﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ هذا استئناف بين ما في قوله ﴿ يُضَكَّهُمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ [التوبة: ٣٠] من الإجمال، فإن أهل الكتاب لو أطلقوا لقب ابن الله على عزيز والمسيح إطلاقاً مجازياً كما أطلق في كتبهم ولم يضاهاوا به من قبلهم من الوثنيين لما كانوا به كفاراً وإنما كانوا كفاراً بهذه الوثنية التي أشير إليها بهذه المضاهاة وبينها بهذه الآية.

الأخبار جمع حبر بفتح الحاء المهملة وكسرهما وهو العالم من أهل الكتاب والرهبان جمع راهب ومعناه في اللغة الخائف، وهو عند النصارى المتبتل المنقطع للعبادة والرهانية في النصرانية بدعة كما قال تعالى في سورة الحديد ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ ﴾ [الحديد:

والتثليث كانت معروفة عند البراهمة في الهند والبوذيين فيها وفي الصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومان، وقد بينا هذا في تفسير آية (٤: ١٩٦) التي تقدمت الإشارة إليها آنفاً وهذا البيان لهذه الحقيقة من معجزات القرآن، فإنه لم يكن يعرفها أحد من العرب ولا ممن حولهم بل لم تظهر إلا في هذا الزمان، كما يقال مثل هذا فيما بينه من حقيقة أمر كتبهم وسيأتي بيانه قريباً في فصل خاص.

﴿ قَتَلَهُمُ اللَّهُ ﴾ هذه الجملة تستعمل في اللسان العربي للتعجب فهو المراد بها لا ظاهر معناها. قال في مجاز الأساس: وقاتله الله ما أفصحه. أهو حكي النقاش أن أصل «قاتله الله» الدعاء ثم كثر في استعمالهم حتى قالوه على التعجب في الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء اهـ وفسره بعضهم بالدعاء على أن المراد به اللعنة أو الهلاك. والأول أظهر ﴿ أَنْتَ يُؤَفِّكُوكَ ﴾ تقدم مثل هذه الجملة في الرد على قول الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة من سورة المائدة إذ قال تعالى ﴿ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَاكُلَانِ الطَّعَامَ أَنْظَرْ كَيْفَ بُنِيتُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ أَنْظَرْ أَنْتَ يُؤَفِّكُوكَ ﴾ [المائدة: ٧٥] ومثله في سورة الأنعام بعد الاستدلال على الخالق عز وجل ﴿ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَآفَى تُؤَفِّكُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٥] والإفك صرف الشيء عن وجهه [وبابه من وزن ضرب] ويقال أفك بالبناء للمفعول بمعنى صرف عقله عن إدراك الحقيقة، ورجل مأفوك العقل، فمادة أفك تستعمل في صرف العقل والنفس عن الحق إلى الباطل ونحوه. والمعنى هنا كيف يصرفون عن حقيقة التوحيد والتنزيه للخالق عز وجل، وهو الذي تجزم به العقول، والذي بلغه عن الله تعالى كل رسول، فهو جمع بين المعقول والمنقول، ويقولون هذا القول الذي لا يقبله عقل، ولم يصح به عن أنبياء الله ورسله نقل؟ فأين عزيز والمسيح من رب العالمين، الخالق لهذا الكون العظيم، الذي وصل من عجائب سعته إلى علم البشر القليل إن بعض شموسه لا يصل نورها إلى الأرض إلا بعد قطع الملايين من السنين النورية - فهل يليق بعافل من هذه

[٢٧] وكانت نيتهم فيها صالحة كما قال تعالى ﴿إِلَّا آتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ [الحديد: ٢٧] ذلك بأن الأصل فيها تأثير مواعظ المسيح عليه السلام في الزهد والإعراض عن لذات الدنيا، ثم صار أكثر متحليها من الجاهليين والكسالى فكانت عبادتهم صورية أعقبتهم رياء وعجباً وغروراً بأنفسهم وبتعظيم العامة لهم ولذلك قال تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧] ولما صارت النصرانية ذات تقاليد منظمة في القرن الرابع وضع رؤساؤهم نظاماً وقوانين للرهبانية ولمعيشتهم في الأديار. وصار لها عندهم فرق كثيرة يشكو بعض أحرارهم من مفاسدهم فيها. فكان ذلك مصداقاً لقوله تعالى في سلفهم المخلصين ﴿فَاتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ [الحديد: ٢٧] وفي خلفهم المرائين ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُتِسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧] وهذه الآية من تحرير القرآن للحقائق في المسائل الكبيرة بعبارة وجيزة هي الحق المفيد فيها، وقد نهى النبي ﷺ عن الرهبانية في الإسلام. . .

والمعنى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الذين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أبحارهم وهم علماء الدين فيهم أرباباً أعطوهم من حق التشريع فيهم وأطاعوهم فيه، والنصارى اتخذوا رهبانهم أي عبادهم الذين يخضع العوام لهم أرباباً كذلك. والأظهر أن يكون المراد من الأبحار والرهبان جملة رجال الدين في الفريقين أي من العلماء والعباد، فذكر من كل فريق ما حذف مقابله من الآخر على طريقة الاحتباك - أي اتخذ اليهود أبحارهم وربانيهم والنصارى قسوسهم ورهبانهم أرباباً غير الله وبدون إذنه بإعطائهم حق التشريع الديني لهم وبغير ذلك مما هو حق الرب تعالى. والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين فاتخاذهم أرباباً يستلزم اتخاذ من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة بالأولى، فالرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوناً كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون سواء قالوه بالتبع لمن فوقهم، أو من تلقاء أنفسهم، لثقتهم بدينهم. وكذلك اتخذوا المسيح بن مريم رباً وإلهاً. أشرك تعالى بين اليهود والنصارى في اتخاذ رجال الدين أرباباً

شارعين، وذكر بعد ذلك ما انفرد به النصارى دون اليهود من اتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه، واليهود لم يعبدوا عزيزاً ولم يؤثر عنهم قال منهم أنه ابن الله أنهم عنوا ما يعنيه النصارى من قولهم في المسيح أنه هو الله الخالق المدبر لأمر العباد، ومن النصارى من يعبدون أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في عرفهم: يتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة في الغالب. والظاهر أن من كان قد تنصر من مشركي العرب لم يكونوا يعبدون هؤلاء الرؤساء والكبراء في الملة إلا قليلاً. وأما اتخاذهم أرباباً بالمعنى المأثور في تفسير الآية فقد كان عاماً عند الفريقين فإن اليهود لم يقتصرُوا في دينهم على أحكام التوراة بل لم يلتزموها بل أضافوا إليها من الشرائع اللسانية عن رؤسائهم ما كان خاصاً ببعض الأحوال من قبل أن يدونوه في المشنة والتلمود. ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم.

وأما النصارى فقد نسخ رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدينية على إقرار المسيح لها، واستبدلوا بها شرائع كثيرة في العقائد والعبادات والمعاملات جميعاً. وزادوا على ذلك انتحالهم حق مغفرة الذنوب لمن شاؤا حرمان من شاؤا من رحمة الله وملكوته. وهذا حق الله وحده ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي لا أحد. والقول بعصمة البابا رئيس الكنيسة في تفسير الكتب الإلهية ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من العبادات وتحريم المحرمات. . .

ولبعض المفسرين أقوال في الآية جديرة بأن تنقل بنصها لما فيها من العبرة لأهل هذا العصر: قال العلامة الشيخ سليمان بن عبد القوي الطوفي الحنبلي في تفسير هذه الآية من كتابه (الإشارات الإلهية، إلى المباحث الأصولية) أي ما يتعلق بأصول العقائد وأصول الفقه في القرآن - ما نصه: «أما المسيح فاتخذوه رباً معبوداً بالحقيقة. وأما الأبحار لليهود والرهبان للنصارى فإنما اتخذوهم أرباباً مجازاً، لأنهم أمروهم بتكذيب محمد ﷺ

اتخذ المشركون آلهة من دونه بمحض الهوى والجهل، إذ ظن هؤلاء الجاهلون أن لبعض المخلوقات من السلطان الغيبي والقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للمخلوق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة عنده تعالى والشفاعة لديه وهي الشفاعة الشريكية المنفية بنصوص القرآن ﴿سُبْحَنَكَ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزهياً له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غير معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

أما أمر الله تعالى إياهم بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام فهو في مواضع من التوراة أظهرها وأشهرها أول الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج أن الله تعالى كتبها لموسى عند مناجاته في سيناء بإصبعه على تابوت العهد وهذا أولها «أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية، لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورة مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن ولا تعبدن، لأنني أنا الرب إلهك إله غيور» إلخ.

وأما أمره تعالى إياهم بها على لسان عيسى المسيح عليه السلام فتجد منه فيما رواه يوحنا عنه في إنجيله قوله: (٣: ٧) وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك، ويسوع المسيح الذي أرسلته» وفي إنجيل برنابا الذي تعده الكنيسة غير قانوني من آيات التوحيد المطلق المجرد من جميع شوائب الشرك ما هو أجدر من الأناجيل الأربعة القانونية بأن يكون من إنجيل المسيح الصحيح الموحى إليه من ربه عز وجل. ثم وصفهم الله تعالى بوصف ثالث في تفصيل حال كفرهم المجلد المتقدم بعد وصفهم باتخاذ ابن الله، ورؤسائهم أرباباً من دون الله...

جوهري ج ٥ ص ١٠٣ - ١٠٥

أماته الله مائة عام، فلما أحياء الله قال لقومه: أنا أملي عليكم التوراة حفظاً فتعجبوا من ذلك وقالوا ما هذا إلا أنه ابن الله، ألا ترى أن اليهود لما سمعوا هذا القول لم يكذبوه وكانوا مغرمين بالكذب ﴿وَقَالَتِ الْتَصَكَّرَى الْمَسِيحُ

وإنكار رسالته فأطاعوهم فيه فصاروا كالأرباب لهم بجامع الطاعة، والنصارى يزعمون أن المسيح قال لتلاميذه عند صعوده عنهم: ما حللتموه فهو محلول في السماء وما ربطتموه فهو مربوط في السماء. فمن ثم إذا أذنب أحدهم ذنباً بالقربان إلى البترك أو الراهب وقال يا أبونا اغفر لنا. - بناء على أن خلافة المسيح مستمرة فيهم وأنهم أهل الحل والعقد في السماء والأرض على ما نقلوه عن المسيح وهو من ابتداعاتهم في الدين ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ الآية - بدليل قول المسيح ﴿يَكْبِتْ سُرُكَيْلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّكُمْ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢] اهـ.

أقول أما عبارته في الحل والربط فهي موافقة لترجمة اليسوعيين في التعبير بالفعل الماضي، وأما الترجمة الأميركية فهي بالفعل المضارع هكذا (متى ١٨: ١٨) الحق أقول لكم كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلونه على الأرض يكون محلولاً في السماء) وأما أمر المسيح إياهم بعبادة الله ربه وربهم وكذلك موسى عليهما السلام فسيأتي...

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي اتخذوا اليهود والنصارى رؤساءهم أرباباً من دون الله تعالى والربوبية تستلزم الألوهية بالذات إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده - واتخذ النصارى المسيح رباً وإلهاً، والحال إنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاء به عن الله إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه هو لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ هذه الجملة استئناف بياني لا صفة ثانية لا إله فهي تعليل للأمر بعبادة إله واحد بأنه لا وجود لغيره في حكم الشرع، ولا في نظر العقل، وإنما

... ثم أخذ الله سبحانه يبين سبب أخذ الجزية منهم مع أن لهم ديناً وكيف يصفهم بأنهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر فقال ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزَّزْنَا بِنُ اللَّهِ﴾ وذلك لأن باختصار قتل كل من يحفظ التوراة، وكان العزير قد

خلق كثير. ولما رأى اسكندر أسقف الاسكندرية ذلك استدعى بعض الأساقفة وألفوا مجمعا لعنوا فيه أريوس وتعليمه، فكثير النزاع والشقاق على هذه المسألة حتى قلقت النفوس وضجرت الأمة كلها واهتز عرش الملك قسطنطين فأرسل رسالة على يد أوزيوس إلى كل من أريوس وإسكندر وبخهما فيها على هذا الخلاف التافه الذي لا علم لأحدهما بحقيقته. ودام الخصام والجدال واشتد ولم تنفع رسالة الملك فأمر الملك بمجمع في نيقية سنة ٣٢٥.

ومن عجب تطابق أقوال المؤرخين أن هؤلاء الآباء كانوا يتشائمون ويتقاتلون ويذم كل منهم الآخر بفضائح لا حد لها، ونصر قسطنطين الملك ألوهية المسيح ونفي الأريوسيين ثم رجعوا من المنفى منتصرين ودخلوا الإسكندرية فاضطر قسطنطين أن يقيم مجمعا في أنطاكية فأبطل مذهب إسكندر المسمى (أرثوذكس) أي مستقيمي الرأي ومات أريوس فجأة وهو محمول على أعناق أصحابه بالعز والأبهة، ومات قسطنطين سنة ٣٣٧ بعد أن قسم الملك بين أولاده الثلاثة قسطنطين وقسطنس وقسطنط وتوالت المجامع بعد ذلك على هذا المنوال.

فلننظر أيها الذكي كيف كانت الحكاية الأولى المنقولة عن المفسرين - وإن كانت مخطئة في التاريخ وفي الرواية - قد أفادت أن هذا الخلاف له حقيقة، وكيف تبين أن بولس الرسول كان له نزعة خاصة، وكيف كانت ألوهية المسيح وعدمها شغلا شاعرا للدولة الرومانية، وكيف أدى الأمر إلى الملك تيودوسيوس القيصر أمر أن يتبع النصارى كلهم البابا (داماسيوس) ومن يخالفه يعاقب، ولكن الأريوسيين كانوا كثيراً جداً فلم يعاقبهم، فاحتال القديس (أمفيلوك) بحيلة أوجبت أن الملك يعاقب من لا يقول بألوهية المسيح. فانظر كيف اهتزت العروش وعظمت المصائب وتقاتلت الأحزاب، كل ذلك على ألوهية المسيح وعدم ألوهيته.

ولما كان قول اليهود والنصارى لا دليل عليه بل هو مصيبة عمياء كما عرفت من حقائق التاريخ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَهِهِمْ﴾ مجرد عن البرهان

أَبَتْ أَلَّهُ لَأَنَّ الْوَلَدَ الَّذِي لَا أَبَ لَهُ مُسْتَحِيلٌ عَادَةً، ولأن إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى لا يقوم بهما إلا من كان إلهاً.

يقول المحققون من علماء العصر الحاضر: إن بولس رجل فريسي ويعرف اللغة العبرية فاحتقر في بادئ الأمر الرسل ولم ير المسيح ولا سمع كلامه ومع ذلك ادعى أنه قد خصت به المعرفة وحده وأخذه يخاصم بطرس ويوبخه فتألف إذ ذاك أي بعد موت المسيح بعشر سنين صنفان من النصارى: صنف يتبع من بقي من الرسل في اورشليم، والثاني تابع لبشارة بولس الذي ادعى أنه أوحى إليه من المسيح ذاته، وبعد حين تمرد اليهود على نيرون فنشبت الحرب في اليهودية بقيادة فسباسيانوس الروماني ثم ابنه طيطس وانتهت بافتتاح اورشليم عام (٧٠م) وخرّب الهيكل وتفرّق اليهود أشتاتاً ولم يبق من الرسل إلا يوحنا وفيلبس، ولم يبق إذ ذاك من الدين إلا أحاديث متفرقة على ألسنة الأساقفة واختلفت تعاليم الكنائس بتعاليم الفلسفة اليونانية وما جاء آخر الجيل الأول حتى نشأت عدّة قصص وروايات سميت أناجيل وقد أحصي منها في الجيل الأول والثاني (٣٥) إنجيلاً وصاحب الإحصاء هو فابريسيوس، واختيار الأناجيل الأربعة كان في الجيل الثاني ونسبتها إلى متى ومرقس ولوقا ويوحنا من المشاكل التي تعذر على العلماء حلها.

نتائج الخلاف في النصرانية

في سنة ٣٨٤م أصدر البابا داماسيوس إلى مار ايرونييجوس أن يحزّر ترجمة لاتينية جديدة من العهدين القديم والجديد وكان (تيودوسيوس) الملك في ذلك العهد قد ضجر من المخاصمات فأصدر أمراً أن يكون حق التولية لأسقف رومة وحده وعلى النصارى عموماً اتباعه.

تنازع النصارى في أمر المسيح

كانت كنائس النصرانية في أول الجيل الرابع منقسمة إلى حزبين الواحد يقرّ بألوهية المسيح والآخر ينكرها، وفي سنة ٣١٢ ظهر أريوس فجعل أن للآب والابن جوهرين متميزين، والثاني خليفة الأول وإذن فهو ليس بآله، وكان أريوس هذا واسع العلم ذا خلق حميد فاتبعه

والرهبان أرباباً من دون الله، والأخبار علماء اليهود،
والرهبان أصحاب الصوامع في النصارى، ومعنى كونهم
أرباباً أنهم يحرمون لهم ويحللون وهم لهم مقلدون.

وعن عدي بن حاتم قال «أتيت النبي ﷺ وفي عنقي
صليب من ذهب فقال يا عدي اطرح عنك هذا الوثن
وسمعه يقرأ في سورة براءة ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ
وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ قال «أما إنهم لم
يكونوا يعبدونهم ولكنهم كانوا إذا أحلوا لهم شيئاً استحلوه
وإذا حرموا عليهم شيئاً حرموه». قال عبد الله ابن
المبارك:

وهل بدّل الدين إلا الملو
ك وأجبار سوء ورهبانها
لقد وقع القوم في جيفة
يبين لذي العلم أثنانها
وهذا هو قوله تعالى ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ
أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ﴾ وهذا
الآخر اعتقدوا فيه الألوهية كما تقدم قال تعالى ﴿ وَمَا
أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ
سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ أي تعالى الله وتنزه عن
أن يكون له شريك في العبادة.

والتحقيق مهمل لا محل له سوى الأفواه كما قال القيصر
للإسكندر ولأريوس، وقوله تعالى ﴿ يُضَكُّهُنَّ قَوْلَ
الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ﴾ أي يضاهي قولهم قول الذين
كفروا من قبل.

ومعنى هذا أن هناك ديانات في الأمم السالفة قبل
التاريخ في مصر والعراق وبلاد المكسيك قبل افتتاح
أمريكا كانت فيها هذه الخرافات. انظر هذا المقام في
سورة البقرة في أوائلها فقد تبين هناك أن دين التثليث
وكون الله له ابن ملأت المسكونة ووجدت في الهند فارجع
إليها إن شئت ترى العجب العجيب وكذلك في آخر سورة
المائدة، وهذا أيضاً من معجزات القرآن.

ولعمري لم يعرف الناس أن هناك ديناً قبل الدين
المسيحي يقول بابن الله وبألوهية ذلك الابن إلا في هذا
الزمان فتعجب من عجائب القرآن، وهذا واضح كل
الإيضاح في آخر المائدة فيما تقدم، قال تعالى
﴿ قُلْنَا لَهُمْ اللَّهُ ﴾ دعاء عليهم بالهلاك وتعجب من
شناعتهم ﴿ أَفَ يُوَفَّقُونَ ﴾ كيف يصرفون عن
الحق إلى الباطل. ثم أخذ الله سبحانه يبين أنهم لم
يقتصروا على عبادة المسيح وعزير، بل جعلوا الأخبار

المراخي ج ٤ ص ٩٦ - ١٠٣

الإيضاح

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ ﴾ عزير كاهن يهودي
وكاتب شهير سكن بابل حوالى سنة ٤٥٧ ق.م أسس
المجمع الكبير وجمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل
الأحرف الكلدانية عوضاً من العبرانية القديمة، وألف
أسفار الأيام، وعزرا، ونحميا؛ وعلى الجملة فعصره هو
ربيع الدين اليهودي، وهو جدير أن يكون ناشر الشريعة
اليهودية، فقد أحيها بعد أن نُسيت، ومن أجل هذا
فاليهود يقدّسونه حتى أن بعض يهود المدينة أطلق عليه
لقب (ابن الله).

وإسناد هذا القول إليهم جملة وإن كان قد صدر من
بعضهم - مبني على أن الأمة تعدّ متكافلة في شؤونها
العامة، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير

في جملتها، والمنكر الذي يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه
جمهورهم ويزيلوه يؤخذون به كلهم كما قال تعالى:
﴿ وَأَتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً ﴾
[الأنفال: ٢٥].

وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التي تحدث في الشعب
بكثرة الأقدار وإهمال مراعاة القواعد الصحية - لا يُغْدَى
بها من تلبس بها فحسب، بل تنتشر العدوى في الشعب
جميعه.

روى ابن إسحاق وابن جرير وابن مردويه عن ابن
عباس رضي الله عنه قال: أتى رسول الله ﷺ سلام بن
مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس ابن قيس ومالك
بن الصيف فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا
ترعهم أن عزيرا ابن الله؟

وعقيدة التثليث وألوهية المسيح مع مخالفتهاما للعقل ليس لهما أصل في كتب الأنبياء لا قطعي ولا ظني، وكتب العهد الجديد كذلك ليست نصاً فيهما؛ على أن هذه لا يوثق بها، فإن النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح في عصره، ثم رفضت مجامعهم الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ما وجد عندهم من الأناجيل التي كانت تعد بالعشرات واعتمدت أربعاً منها فحسب، وهذا مصداق قوله تعالى ﴿وَكُتُبُوا حَقًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ [المائدة: ١٣].

﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي هذا الذي قالوه في عزير والمسيح قول تلوكة الألسنة في الأفواه، لا يؤيده برهان ولا يتجاوز حركة اللسان، بل البرهان دالٌّ على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو بريء عن الحاجة واتخاذ الصاحبة.

وفي معنى الآية قوله: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤، ٥].

﴿يُضَاهِيهِمْ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ أي يشابهون فيها قول الذين كفروا من قبلهم وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول، إذ قالوا: الملائكة بنات الله.

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين في الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة والبوذيين في الهند والصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومانيين، فبيان القرآن الكريم لهذه الحقيقة التي لم يكن أحد من العرب ولا ممن حولهم يعرفها - بل لم تظهر إلا في هذا الزمان - معجزة من معجزاته الكثيرة التي تظهر على مر الزمان، وتصديقها المشاهدة والعيان.

﴿قُلْنَا لَهُمُ اللَّهُ﴾ تعجب من شناعة قولهم، وقد شاع استعمالها في ذلك، وتستعمل في المدح أيضاً فيقال: قاتله الله ما أفصحه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد في المدح أيضاً فيقال: قاتله الله ما أفصحه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد لعنهم الله.

والمشهور عند المؤرخين حتى مؤرخي أهل الكتاب أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه قد فُقدت قبل عهد سليمان عليه السلام، فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين الذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما جاء في سفر الملوك الأول، وأن عزرا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية ممزوجة ببقايا اللغة العبرانية التي نسي اليهود معظمها، ويقول أهل الكتاب إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله.

وخلاصة ما سلف - إن جميع أهل الكتاب يدينون لعزير في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم، وإن كان هذا المستند ضعيفاً، فقد جاء في ترجمة عزرا من دائرة المعارف البريطانية: إنه لم يُعد إليهم الشريعة التي أحرقت فحسب، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت أُلُفِت وأعاد سبعين سفرًا غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة: وإذا كانت هذه الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكُتِّب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً، اهـ.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وهذا قول للقدماء منهم كانوا يريدون به المحبوب أو المكرَّم، ثم سرت إليهم وثنية الهنود فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة وعلى أن ابن الله بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة، وهذا تعليم الكنائس الذي قرره المجامع الرسمية بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون - وقد خالف في ذلك خلق كثير منهم يسمُّون الموحدين أو العقلين، ولكن الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستانتية لا تعتد بنصرانيتهم ولا بدينهم.

وكلمة (ثالث) تطلق عندهم على وجود أفانيم ثلاثة معاً في اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس، وهذا هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية والبروتستانتية وهو المطابق لنصوص الكتاب المقدس.

والدنيوية واستبدلوا بها شرائع أخرى في العبادات والمعاملات جميعاً، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شأوا وحرمان من شأوا من رحمة الله وملكوته، والله يقول: ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٣٥] وزادوا القول بعصمة البابا في تفسير الكتب الإلهية، ووجوب طاعته في كل ما يأمر به من الطاعات، وينهي عنه من المحرمات...

﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ أي اتخذوا رؤساءهم أرباباً من دون الله، والربوبية تستلزم الألوهية، إذ الرب هو الذي يجب أن يعبد وحده، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاء به من عند الله، إلا أن يعبدوا ويطيعوا في الدين إلهاً واحداً بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شيء ومليكه.

ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا إله غيره في حكم الشرع وفي نظر العقل، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأي والهوى جهلاً بصفات الألوهية، إذ ظنوا أن لبعض المخلوقات سلطاناً غيبياً وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ما لله إما بالذات وإما بالوساطة والشفاعة لديه.

﴿سُبْحَنَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تنزيهاً له عن شركهم في ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه، وفي ربوبيته بطاعة الرؤساء في التشريع الديني بدون إذنه.

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء في مواضع من التوراة، منها أزل الوصايا العشر التي جاءت في سفر الخروج (أنا الرب إلهك الذي أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية لا يكن لك آلهة أخرى أمامي، لا تصنع لك تمثالاً منحوتاً ولا صورةً مما في السماء من فوق ولا مما في الأرض من تحت، ولا مما في الماء تحت الأرض، لا تسجد لهن، ولا تعبدن، لأنني أنا الرب إلهك) إلخ.

وأمره بعبادته على لسان عيسى كثير أيضاً، من ذلك ما رواه يوحنا في إنجيله (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته).

﴿أَفَ يُؤْفِكُونَ﴾ أي كيف يُضَرَفُونَ توحيد الله وتنزيهه، وبه تجزم العقول، وبلغه عن الله كل رسول - إلى قول لا يقبله عقل، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذي خلق هذا الكون العظيم ودبر أمره، ولا ينبغي لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدير شئونه ولداً من جنسه، مع علمه بأنه كان يأكل ويشرب ويتعب ويتألم ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦].

ثم فصل قوله قبل يضاھئون قول الذين كفروا من قبل بقوله:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أرباباً، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين أرباباً مما أعطوهم من حق التشريع فيهم وإطاعتهم فيه، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم: أي عبّادهم الذين يخضع لهم العوام أرباباً كذلك.

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين، فاتخاذهم أرباباً يقتضي بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوناً كان أو غير مدون، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون سواء قالوه تبعاً لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم.

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح رباً وإلهاً يعبدونه، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية ويصرحون بذلك، وجميع الكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين في عرفهم، ويتوسلون بهم، ويتخذون لهم الصور والتماثيل في كنائسهم، ولكنهم لا يسمون هذا عبادة.

واليهود لم يقتصروا في دينهم على أحكام التوراة، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدونوه في المَشْنَةِ والتَّلمُود، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم.

والنصارى غير رؤسائهم جميع أحكام التوراة الدينية

سيد قطب ج ٣ ص ١٦٣٤ - ١٦٤٣

هذه الملابس دعت إلى زيادة الإيضاحات والبيانات القوية لتقرير حتمية هذا الأمر، وإزالة الشبهات والمعوقات النفسية، وجلاء الأسباب والعوامل لتلك الحتمية.

وفي هذه الآية يبين السياق القرآني ضلال عقيدة أهل الكتاب هؤلاء؛ وأنها تضاهى عقيدة المشركين من العرب، والوثنيين من قدامى الرومان وغيرهم. وأنهم لم يستقيموا على العقيدة الصحيحة التي جاءتهم بها كتبهم؛ فلا عبرة إذن بأنهم أهل كتاب، وهم يخالفون في الاعتقاد الأصل الذي تقوم عليه العقيدة الصحيحة في كتبهم. والذي يلفت النظر هو ذكر اليهود هنا وقولهم: عزيز ابن الله؛ في حين أن الآيات كانت بصدد التوجيه والتحضير لمواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب. . . وذلك - على ما نرجح - يرجع إلى أمرين:

الأول: أنه لما كان نص الآيات عاماً؛ والأمر بقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون عاماً؛ فقد اقتضى السياق بيان الأصل الاعتقادي الذي يستند إليه هذا الأمر العام في شأن أهل الكتاب عامة من اليهود والنصارى سواء.

الثاني: أن اليهود كانوا قد رحلوا من المدينة إلى أطراف الشام؛ بعدما اشتبكوا مع الإسلام والمسلمين في حرب مريرة منذ مقدم الرسول الله ﷺ إلى المدينة. انتهت بإجلاء بني قينقاع وبني النضير إلى أطراف الشام؛ هم وأفراد من بني قريظة. فكان اليهود يومئذ في طريق الانطلاق الإسلامي إلى أطراف الشام. مما اقتضى أن يشملهم ذلك الأمر، وأن يشملهم هذا البيان.

وقول النصارى: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ معلوم مشهور؛ وماتزال عليه عقائدهم حتى اللحظة منذ أن حرقها بولس، ثم تم تحريفها على أيدي المجامع المقدسة - كما سنبين - فأما قول اليهود: ﴿عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ﴾ فليس شائعاً ولا معروفاً اليوم. والذي في كتب اليهود المدونة الباقية سفر باسم «عزيزا» - وهو عزيز - نعت فيه بأنه كاتب ماهر في تورا موسى، وأنه وجه قلبه لالتماس شريعة الرب. . . ولكن حكاية هذا القول عن اليهود في القرآن

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عَزِيزُ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قُلْنَا لَهُمُ اللَّهُ أَلَمْ يُؤَفِّكَ﴾ . .

لما أمر الله المسلمين بقتال أهل الكتاب ﴿حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩] . . . كانت هنالك ملابسات في واقع المجتمع المسلم في المدينة - تحدثنا عنها في تقديم السورة وتقديم المقطع الأول منها - تدعو إلى تأكيد هذا الأمر وتقويته؛ وجلاء الأسباب والعوامل التي تحتمه؛ وإزالة الشبهات والمعوقات التي تحيك في بعض النفوس تجاهه. وبخاصة أن طاعة هذا الأمر كانت تقتضي مواجهة الروم في أطراف الشام. والروم كانوا مرهوبين من العرب قبل الإسلام؛ وكانوا مسيطرين على شمال الجزيرة لفترة طويلة؛ ولهم أعوان من القبائل العربية، وسلطنة خاضعة لنفوذهم هي سلطنة الغساسنة. . . وحقيقة أن هذه لم تكن أول ملحمة يخوضها المسلمون مع الروم، بعد أن أعز الله أولئك العرب بالإسلام، وجعل منهم أمة تواجه الروم والفرس بعد أن كانوا قبائل لا تجرؤ ولا تفكر في الالتحام بالروم والفرس؛ وكل ما عرف عنها من شجاعة إنما يتبدى في قتال بعضها لبعض، وفي الغارات والشارت والنهب والسلب؛ ولكن مهابة الروم كانت ما تزال باقية في أعماق النفوس - وبخاصة تلك التي لم يتم انطباعها بالطابع الإسلامي الأصيل - وكانت آخر ملحمة كبيرة بين المسلمين والروم - وهي غزوة مؤتة - ليست في صالح المسلمين. وقد احتشد فيها من الروم وعملائهم من نصارى العرب ما روي أنه مائتا ألف!

كل هذه الملابس - سواء ما يتعلق منها بتركيب المجتمع المسلم في هذه الفترة؛ أو ما يختص برواسب المهابة للروم والخوف من الالتحام معهم؛ مضافاً إليها ظروف الغزوة ذاتها - وقد سميت غزوة العسر لما سببته من الظروف التي أحاطت بها - وفوق ذلك كله شبهة أن الروم وعمالهم من نصارى العرب هم أهل كتاب. . . كل

رجوعهم من السبي يفهمون الكلدانية أكثر من العبرانية. اهـ.

«وأقول: إن المشهور عند مؤرخي الأمم، حتى أهل الكتاب منهم، أن التوراة التي كتبها موسى عليه السلام ووضعها في تابوت العهد أو بجانبه، قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام. فإنه لما فتح التابوت في عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر، كما تراه في سفر الملوك الأول. وأن (عزرا) هذا هو الذي كتب التوراة وغيرها بعد السبي بالحروف الكلدانية، واللغة الكلدانية الممزوجة ببقايا اللغة العبرية التي نسي اليهود معظمها. ويقول أهل الكتاب: إن عزرا كتبها كما كانت بوحي أو بإلهام من الله... وهذا ما لا يسلمه لهم غيرهم، وعليه اعتراضات كثيرة مذكورة في مواضعها من الكتب الخاصة بهذا الشأن، حتى من تأليفهم، كذخيرة الألباب الكاثوليك - وأصله فرنسي - وقد عقد الفصلين الحادي عشر والثاني عشر لذكر بعض الاعتراضات على كون الأسفار الخمسة لموسى. ومنها قوله:

«جاء في سفر عزرا (٤ ف ١٤ عدد ٢١) أن جمع الأسفار المقدسة حرق بالنار في عهد «نبوخذنصر» حيث قال: «إن النار أبطلت شريعتك فلم يعد سبيل لأي امرئ أن يعرف ما صنعت!» ويزاد على ذلك أن عزرا أعاد بوحي الروح القدس تأليف الأسفار المقدسة التي أبادتها النار، وعرضه فيما كتبه خمسة معاصرون، ولذلك ترى «ثرثولييانوس» والقديس «إيريناوس» والقديس «إيرونيموس» والقديس «يوحنا الذهبي» والقديس «باسيليوس» وغيرهم يدعون عزرا: مرمم الأسفار المقدسة المعروفة عند اليهود... اهـ.

إلى أن قال: «نكتفي بهذا البيان هنا ولنا فيه غرضان: (أحدهما): إن جميع أهل الكتاب مدينون لعزير هذا في مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم. (وثانيهما): إن هذا المستند واهي النسيان متداعي الأركان، وهذا هو الذي حققه علماء أوروبا الأحرار. فقد جاء في ترجمته من دائرة المعارف البريطانية بعد ذكر ما في سفره وسفر نحيا من كتابته للشرية: أنه جاء في روايات أخرى

دليل قاطع على أن بعضهم على الأقل - وبخاصة يهود المدينة - زعموا هذا الزعم، وراج بينهم؛ وقد كان القرآن يواجه اليهود والنصارى مواجهة واقعية؛ ولو كان فيما يحكيه من أقوالهم ما لا وجود له بينهم لكان هذا حجة لهم على تكذيب ما يرويه رسول الله ﷺ ولما سكتوا عن استخدام هذا على أوسع نطاق!

وقد أورد المرحوم الشيخ رشيد رضا في الجزء العاشر من تفسير المنار (ص ٣٧٨ - ٣٨٥) خلاصة مفيدة عن مكانة عزرا عند اليهود وعلق عليها ذلك تعليقا مفيدا نقل منه هنا فقرات تفيدنا في بيان حقيقة ما عليه اليهود إجمالاً. قال:

«جاء في دائرة المعارف اليهودية (طبعة ١٩٠٣) أن عصر عزرا هو ربيع التاريخ الملي لليهودية الذي تفتحت فيه أزهاره وعبق شذا ورده. وأنه جدير بأن يكون هو ناشر الشريعة (وفي الأصل عربية أو مركبة الشريعة) لو لم يكن جاء بها موسى (التلمود ٢١ب) فقد كانت نسيبت. ولكن عزرا أعادها وأحيها. ولولا خطايا بني إسرائيل لاستطاعوا رؤية الآيات (المعجزات) كما رأوها في عهد موسى... اهـ. وذكر فيها أنه كتب الشريعة بالحروف الآشورية - وكان يضع علامة على الكلمات التي يشك فيها - وأن مبدأ التاريخ اليهودي يرجع إلى عهده.

وقال الدكتور جورج بوست في قاموس الكتاب المقدس: عزرا (عون) كاهن يهودي وكاتب شهير سكن بابل مدة «ارتحششتا» الطويل الباع؛ وفي السنة السابعة لملكه أباح لعزرا بأن يأخذ عدداً وافراً من الشعب إلى اورشليم نحو سنة ٤٥٧ ق.م (عزرا ص ٧) وكانت مدة السفر أربعة أشهر.

ثم قال: وفي تقليد اليهود يشغل عزرا موضعاً يقابل بموضع موسى وإيليا؛ ويقولون إنه أسس المجمع الكبير، وأنه جمع أسفار الكتاب المقدس، وأدخل الأحرف الكلدانية عوض العبرانية القديمة، وأنه ألف أسفار «الأيام» و«عزرا» و«نحميا».

ثم قال: ولغة سفر «عزرا» من ص ٨: ٤ - ١٩: ٦ كلدانية، وكذلك ص ١: ٧ - ٢٧، وكان الشعب بعد

أتى رسول الله ﷺ سلام بن مشكم، ونعمان بن أوفى، وأبو أنس وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، فقالوا: كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا، وأنت لا تزعم أن عزيز ابن الله؟... إلخ.

«ومن المعلوم أن بعض النصارى الذين قالوا: إن المسيح ابن الله كانوا من اليهود. وقد كان (فيلو) الفيلسوف اليهودي الإسكندري المعاصر للمسيح يقول: إن لله ابناً هو كلمته التي خلق بها الأشياء. فعلى هذا لا يبعد أن يكون بعض المتقدمين على عصر البعثة المحمدية قد قالوا: إن عزيزا ابن الله بهذا المعنى».

ومن هذا البيان يتضح ما وراء حكاية القرآن لقول اليهود هذا - في هذه المناسبة التي يتوخاها السياق - فهي تقرير حقيقة ما عليه فريق من أهل الكتاب من فساد الاعتقاد، الذي لا يتفق معه أن يكونوا مؤمنين بالله، أو أن يكونوا يدينون دين الحق. وهذه هي الصفة الأساسية التي قام عليها حكم القتال. وإن يكن القصد من القتال ليس هو إكراههم على الإسلام؛ وإنما هو كسر شوكتهم التي يقفون بها في وجه الإسلام؛ واستسلامهم لسلطانهم ليتحرر الأفراد - في ظل هذا الاستسلام - من التأثير بالضغوط التي إرادتهم في اختيار دين الحق من غير إكراه من هنا أو من هناك.

أما قول النصارى ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ وأنه ثالث ثلاثة فهو - كما قلنا - شائع مشهور، وعليه جميع مذاهبهم منذ أن حُرِّف بولس رسالة المسيح القائمة على التوحيد كبقية الرسائل؛ ثم أتمت تحريفها المجامع المقدسة، وقضت على أصل فكرة التوحيد قضاء نهائياً... .

متأخرة عنها أنه لم يعد إليهم الشريعة التي أحرقت فقط، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التي كانت قد أُلُفِت، وأعاد سبعين سفرًا غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة فيها: وإذا كانت الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأفلامهم من تلقاء أنفسهم، ولم يستندوا في شيء منها إلى كتاب آخر، فكتاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقاً... (انظر ص ١٤ ج ٩ من الطبعة الرابعة عشرة سنة ١٩٢٩).

«وجملة القول: إن اليهود كانوا وما يزالون يقدسون عزيزا هذا حتى إن بعضهم أطلق عليه لقب ﴿ابْنُ اللَّهِ﴾. ولا ندري أكان إطلاقه عليه بمعنى التكريم الذي أطلق على إسرائيل وداود وغيرهما، أم بالمعنى الذي سيأتي قريباً عن فيلسوفهم (فيلو) وهو قريب من فلسفة وثني الهند التي هي أصل عقيدة النصارى. وقد اتفق المفسرون على أن إسناد هذا القول إليهم يراد به بعضهم لا كلهم... .

... «وأما الذين قالوا هذا القول من اليهود فهم بعض يهود المدينة، كالذين قال الله فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]... والذين قال فيهم: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١] رداً على قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥]. ويحتمل أن يكون قد سبقهم إليه غيرهم ولم ينقل إلينا... .

«روى ابن إسحاق وابن جرير وابن أبي حاتم وأبو الشيخ، وابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنه قال:

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُوا عَلَىٰ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ . قُلْ إِبْرٰهِيْمُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾

(سورة يونس، رقم ١٠، الآية ٦٨ - ٦٩)

مصادر تفاسير الآية			
الطبري	ج ١١ ص ٩٨	أبو حيان الأندلسي	ج ٥ ص ١٧٧
الزمخشري	ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥	ابن كثير	ج ٢ ص ٤٢٤
الرازي	ج ١٧ ص ١٣٢ - ١٣٤	الجلالان	ج ٢ ص ٢٧٧
الطبرسي	ج ١١ ص ٧٤ - ٧٣	الشوكاني	ج ٢ ص ٤٥٩ - ٤٦١
ابن عربي	ج ١ ص ٥٤٢ - ٥٤٨	الألوسي	ج ٦ ص ١٥٥ - ١٥٦
البيضاوي	ج ٣ ص ٩٧	القاسمي	ج ٩ ص ٣٢٧٨ - ٣٢٨٠
الخازن	ج ٣ ص ٢٠٠	محمد عبده	ج ١١ ص ٤٥٥ - ٤٥٧
البغوي	ج ٢ ص ٣٠٥	الطباطبائي	ج ١٠ ص ٧٨ - ١٠١
الماوردي	ج ٢ ص ٤٤٠	جوهرى	ج ٦ ص ٦١ - ٧٤
القرطبي	ج ٨ ص ٣٦١	المراغى	ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٦
		سيد قطب	ج ٣ ص ١٨٠٥ - ١٨٠٧

الطبري ج ١١ ص ٩٨

ما عندكم أيها القوم بما تقولون وتدعون من أن الملائكة بنات الله من حجة تحتجون بها وهي السلطان أنتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته وصحته وتضيفون إليه ما لا يجوز إضافته إليه جهلاً منكم بما تقولون بغير حجة ولا برهان. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قُلْ إِبْرٰهِيْمُ يَفْتَرِي عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره لنبى محمد ﷺ قل يا محمد لهم أن الذين يفترون على الله الكذب فيقولون عليه الباطل ويدعون له ولداً لا يفلحون يقول لا يبقون في الدنيا ولكن لهم متاع في الدنيا يمتعون به وبلاغ يتبلغون به إلى الأجل الذي كتب فناؤهم فيه ثم إلينا مرجعهم يقول ثم إذا انقضى أجلهم الذي كتب لهم إلينا مصيرهم ومنقلبهم ثم نذيقهم العذاب الشديد وذلك أصلاؤهم جهنم بما كانوا يكفرون بالله في الدنيا فيكذبون رسله ويجمدون آياته ورفع قوله متاع بمضمر قبله أما ذلك وأما هذا.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا أَنْتَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره قال هؤلاء المشركون بالله من قومك يا محمد اتخذ الله ولداً وذلك قولهم الملائكة بنات الله يقول الله منزهاً نفسه عما قالوا وافتروا عليه من ذلك سبحانه الله تنزيهاً لله عما قالوا وادّعوا على ربهم هو الغني يقول الله غني عن خلقه جميعاً فلا حاجة به إلى ولد لأن الولد إنما يطلبه من يطلبه ليكون عوناً له في حياته وذكر له بعد وفاته والله عن كل ذلك غني فلا حاجة به إلى معين يعينه على تدبيره ولا يبيد فيكون به حاجة إلى خلف بعده له ما في السموات وما في الأرض يقول تعالى ذكره الله ما في السموات وما في الأرض ملكاً والملائكة عبادته وملكه فكيف يكون عبد الرجل وملكه له ولداً يقول أفلا تعقلون أيها القوم خطأ ما تقولون إن عندكم من سلطان بهذا يقول

الزمخشري ج ٢ ص ٢٤٤ - ٢٤٥

للسلطان كقولك: ما عندكم بأرضكم موزة كأنه قيل: إن عندكم فيما تقولون سلطان ﴿أَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما نفى عنهم البرهان جعلهم غير عالمين فدل على أن كل قول لا برهان عليه لقائله فذاك جهل وليس بعلم ﴿يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ بإضافة الولد إليه ﴿مَتَّعَ فِي الدُّنْيَا﴾ أي افتراؤهم هذا منفعة قليلة في الدنيا، وذلك حيث يقيمون رياستهم في الكفر ومناسبة النبي ﷺ بالتظاهر به ثم يلغون الشقاء المؤبد بعده.

الرازي ج ١٧ ص ١٣٢ - ١٣٤

الانقراض والانقضاء، والولد إنما يحصل للشيء الذي ينقضي، وينقرض، فيكون ولده قائماً مقامه، فثبت أن كونه تعالى غنياً، يدل على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

(الحجة الثالثة) أنه تعالى غني وكل من كان غنياً فإنه يمتنع أن يكون موصوفاً بالشهوة واللذة وإذا امتنع ذلك امتنع أن يكون له صاحبة وولد.

(الحجة الرابعة) إنه تعالى غني، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له ولد، لأن اتخاذ الولد إنما يكون في حق من يكون محتاجاً حتى يعينه ولده على المصالح الحاصلة والمتوقعة، فمن كان غنياً مطلقاً امتنع عليه اتخاذ الولد.

(الحجة الخامسة) ولد الحيوان إنما يكون ولدأ له بشرطين: إذا كان مساوياً له في الطبيعة والحقيقة، ويكون ابتداء وجوده وتكونه منه، وهذا في حق الله تعالى محال، لأنه تعالى غني مطلقاً، وكل من كان غنياً مطلقاً كان واجب الوجود لذاته، فلو كان لواجب الوجود ولد، لكان ولده مساوياً له. فيلزم أن يكون ولد واجب الوجود أيضاً واجب الوجود، لكن كونه واجب الوجود يمنع من تولده من غيره، وإذا لم يكن متولداً من غيره لم يكن ولدأ، فثبت أن كونه تعالى غنياً من أقوى الدلائل على أنه تعالى لا ولد له، وهذه الثلاثة مع الثلاثة الأولى في غاية القوة.

(الحجة السادسة) أنه تعالى غني، وكل من كان غنياً امتنع أن يكون له أب وأم، وكل من تقدس عن الوالدين وجب أن يكون مقدساً عن الأولاد.

... ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن اتخاذ الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ علة لنفي الولد، لأن ما يطلب به الولد من يلد، وما يطلبه له السبب في كله الحاجة، فمن الحاجة منتفية عنه كان الولد عنه منتفياً ﴿لَمْ يَمَأِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فهو مستغن بملكه لهم عن اتخاذ أحد منهم ولدأ ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ يَهْدَأُ﴾ ما عندكم من حجة بهذا القول والباء حقها أن تتعلق بقوله - إن عندكم - على أن يجعل القول مكاناً

قوله تعالى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَمَأِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ يَهْدَأُ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

اعلم أن هذا نوع آخر من الأباطيل التي حكاهما الله تعالى عن الكفار وهي قولهم ﴿اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ ويحتمل أن يكون المراد حكاية قول من يقول: الملائكة بنات الله، ويحتمل أن يكون المراد قول من يقول: الأوثان أولاد الله، ويحتمل أن يكون قد كان فيهم قوم من النصارى قالوا ذلك. ثم إنه تعالى لما استنكر هذا القول قال بعده ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَمَأِ السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

واعلم أن كونه تعالى غنياً مالكا لكل ما في السموات والأرض يدل على أنه يستحيل أن يكون له ولد، وبيان ذلك من وجوه: الأول: أنه سبحانه غني مطلقاً على ما في هذه الآية، والعقل أيضاً يدل عليه، لأنه لو كان محتاجاً لافتقر إلى صانع آخر، وهو محال. وكل من كان غنياً فإنه لا بد أن يكون فرداً منزهاً عن الأجزاء والأبعاد، وكل من كان كذلك امتنع أن ينفصل عنه جزء من أجزائه، والولد عبارة عن أن ينفصل جزء من أجزاء الإنسان، ثم يتولد عن ذلك الجزء مثله، وإذا كان هذا محالاً ثبت أن كونه تعالى غنياً يمنع ثبوت الولد له.

(الحجة الثانية) إنه تعالى غني وكل من كان غنياً كان قديماً أزلياً باقياً سرمدياً، وكل من كان كذلك، امتنع عليه

فإن قيل: يشكل هذا بالوالد الأول؟

قلنا: الوالد الأول لا يمتنع كونه ولداً لغيره، لأنه سبحانه وتعالى قادر على أن يخلق الوالد الأول من أبوين يقدمانه. أما الحق سبحانه فإنه يمتنع افتقاره إلى الأبوين، وإلا لما كان غنياً مطلقاً.

(الحجة السابعة) إنه تعالى غني مطلقاً، وكل من كان غنياً مطلقاً امتنع أن يفتقر في أحداث الأشياء إلى غيره.

إذا ثبت هذا فنقول: هذا الولد، إما أن يكون قديماً أو حادثاً، فإن كان قديماً فهو واجب الوجود لذاته، إذ لو كان ممكن الوجود لافتقر إلى المؤثر، وافتقار القديم إلى المؤثر يقتضي إيجاد الموجود وهو محال، وإذا كان واجب الوجود لذاته لم يكن ولداً لغيره، بل كان موجوداً مستقلاً بنفسه، وأما إن كان هذا الولد حادثاً والحق سبحانه غني مطلقاً فكان قادراً على إحداثه ابتداءً من غير

تشريك شيء آخر، فكان هذا عبداً مطلقاً، ولم يكن ولداً، فهذه جملة الوجوه المستنبطة من قوله «هو الغني» الدالة على أنه يمتنع أن يكون له ولد.

أما قوله ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ فاعلم أنه نظير قوله ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي الرَّحْمَنِ عَبْدٌ﴾ [مريم: ٩٣] وحاصله يرجع إلى أن ما سوى الواحد الأحد الحق ممكن، وكل ممكن محتاج، وكل محتاج محدث، فكل ما سوى الواحد الأحد الحق محدث، والله تعالى محدثه وخالفه وموجده. وذلك يدل على فساد القول بإثبات الصاحبة والولد. ولما بين تعالى بالدليل الواضح امتناع ما أضافوا إليه، عطف عليهم بالإنكار والتوبيخ فقال ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ منبهاً بهذا على أنه لا حجة عندهم في ذلك البتة. ثم بالغ في ذلك الإنكار فقال: ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الطبرسي ج ١١ ص ٧٣ - ٧٤

المعنى

ثم حكى الله سبحانه عن صنف من الكفار أنهم أضافوا إليه اتخاذ الولد وهم طائفتان:

إحداهما: كفار قريش والعرب فإنهم قالوا الملائكة بنات الله.

والأخرى: النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله فقال سبحانه ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وإنما قال قالوا وإن لم يكن سبق ذكرهم لأنهم كانوا بحضرة النبي ﷺ وكان يعرفهم وتصيح الكتابة عن المعلوم كما تصح عن المذكور ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً له عما قالوا ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ عن اتخاذ الولد ثم بين سبحانه الوجه فيه فقال ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ومعناه إذا كان له ما في السماوات وما في الأرض ملكاً وملكاً وخلقاً فهو الغني

عن اتخاذ الولد لأن الإنسان إنما يتخذ الولد ليتقوى به من ضعف أو ليستغني به من فقر والله سبحانه منزّه عن ذلك وإذا استحال اتخاذ الولد حقيقة عليه سبحانه استحال عليه اتخاذ الولد على وجه التنبى ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة، وبرهان بهذا ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا توبيخ من الله سبحانه لهم على قولهم ذلك ثم بين سبحانه الوعيد لهم على ذلك فقال ﴿قُلْ يَا مُحَمَّدُ﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ﴾ أي يكذبون ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وغير ذلك ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بشيء من الثواب واصل الافتراء من القطع من فريت الأديم أي قطعت، فمعناه يقطعون الكذب الذي يكذبون به على الله تعالى.

ابن عربي ج ١ ص ٥٤٢ - ٥٤٨

وجوده بذاته، وبه وجود كل شيء، فكيف يماثله شيء؟ ومن له الوجود كله فكيف يجانسه شيء؟

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي، معلولاً يجانسه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أنزهه عن مجانسة شيء ﴿هُوَ الْغَنِيُّ﴾ الذي

البيضاوي ج ٣ ص ٩٧

نعت له أو بعندكم كأنه قيل إن عندكم في هذا من سلطان ﴿أَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ توبيخ وتقرير على اختلاقهم وجهلهم وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد فيها غير سائغ ﴿قُلْ إِنَّكَ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ باتخاذ الولد وإضافة الشريك إليه ﴿لَا يُفْلِحُونَ﴾ لا ينجون من النار ولا يفوزون بالجنة.

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ أي تبناه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه له عن التبني فإنه لا يصح إلا ممن يتصور له الولد وتعجب من كلمتهم الحمقاء ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ علة لتنزيهه فإن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تقرير لغناه ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ نفي لمعارض ما أقامه من البرهان مبالغة في تجهيلهم وتحقيقاً لبطان قولهم وبهذا متعلق بسلطان أو

القرطبي ج ٨ ص ٣٦١

عندكم من سلطانٍ بهذا ﴿أَيُّ مَا عِنْدَكُمْ مِنْ حِجَّةٍ بِهَذَا﴾ ﴿أَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من إثبات الولد له، والولد يقتضي المجانسة والمشابهة والله تعالى لا يجانس شيئاً ولا يشابه شيئاً، ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَقْتُرُونَ﴾ أي يختلفون. ﴿عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون ولا يأمنون؛ وتم الكلام.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ يعني الكفار، وقد تقدم. ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نزه نفسه عن الصاحبة والأولاد وعن الشركاء والأنداد. ﴿هُوَ الْعَلِيُّ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ ثم أخبر بغناه المطلق، وأن له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً وعبداً؛ ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. ﴿إِنْ

ابن كثير ج ٢ ص ٤٢٤ - ٤٢٥

تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخُزُّ الْجِبَالِ هَذَا. أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يُبْغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ عِندَهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا [مريم: ٨٧ - ٩٥] ثم تواعد تعالى الكاذبين عليه المفتريين ممن زعم أن له ولداً بأنهم لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة فأما في الدنيا فإنهم إذا استدرجهم وأملى لهم متعهم قليلاً ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان: ٢٤].

يقول تعالى منكرأعلى من ادعى أن له ﴿وَلَدًا سُبْحَنَهُ﴾ ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ أي تقدس عن ذلك هو الغني عن كل ما سواه وكل شيء فقير إليه ﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي فكيف يكون له ولد مما خلق وكل شيء مملوك له عبد له ﴿إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا﴾ أي ليس عندكم دليل على ما تقولونه من الكذب والبهتان ﴿أَقُولُوكَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ إنكار ووعيد أكيد وتهديد شديد كقوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا.

الشوكاني ج ٢ ص ٤٥٩ - ٤٦١

للحاجة. والغني المطلق لا حاجة حتى يكون له ولد يقضيها، وإذا انتفت الحاجة انتفى الولد، وأيضاً إنما يحتاج إلى الولد من يكون بصدد الانقراض ليقوم الولد مقامه، والأزلي القديم لا يفتقر إلى ذلك. وقد تقدم تفسير الآية في البقرة. ثم بالغ في الرد عليهم بما هو كالبرهان، فقال

قوله ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ هذا نوع آخر من أباطيل المشركين التي كانوا يتكلمون بها، وهو زعمهم بأن الله سبحانه اتخذ ولداً، فرد ذلك عليهم بقوله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ ﴿هُوَ الْعَلِيُّ﴾ فنزهه جل وعلا عما نسبوه إليه من هذا الباطل البين. وبين أنه غني عن ذلك وأن الولد إنما يطلب

العقلاء فقال ﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ويستفاد من هذا أن كل قول لا دليل عليه ليس هو من العلم في شيء، بل من الجهل المحض ثم أمر رسوله ﷺ أن يقول لهم قولاً يدل على أن ما قالوه كذب، وأن من كذب على الله لا يفلح فقال ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ أي كل مفتر هذا شأنه، ويدخل فيه هؤلاء دخولاً أولياً. وذكر الكذب مع الافتراء للتأكيد كما سبق في مواضع من الكتاب العزيز. والمعنى: أن هؤلاء الذين يكذبون على ربهم لا يفوزون بمطلب من المطالب.

الألوسي ج ٦ ص ١٥٥ - ١٥٦

مثلاً، وقوله تعالى:

﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي من العقلاء وغيرهم تقرير لمعنى الغني لأن المالك لجميع الكائنات هو الغني وما عداه فقير، وقيل: هو علة أخرى للتنزه عن التبني لأنه ينافي المالكية، وقوله جل شأنه: ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ﴾ أي حجة ﴿بِهَذَا﴾ أي بما ذكر من القول الباطل توضيح لبطلانه بتحقيق سلامة ما أقيم من البرهان الساطع المعارض والمنافي - فإن - نافية و ﴿مِنْ﴾ زائدة لتأكيد النفي ومجرورها مبتدأ والظرف المقدم خبره أو مرتفع على أنه فاعل له لاعتماده على النفي و ﴿بِهَذَا﴾ متعلق إما - بسلطان - لأنه بمعنى الحجة كما سمعت وإما بمحذوف وقع صفة له، وقيل: وقع حالاً من الضمير المستتر في الظرف الرجوع إليه، وإما بما في ﴿عِنْدَكُمْ﴾ من معنى الاستقرار، ويتعين على هذا كون ﴿سُلْطَنِ﴾ فاعلاً للظرف لثلا يلزم الفصل بين العامل المعنوي ومتعلقه بأجنبي، والالتفات إلى الخطاب لمزيد المبالغة في الإلزام والأفحام وتأکید ما في قوله تعالى:

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من التوبيخ والتقريع على جهلهم واختلاقهم، وفي الآية دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة وأن العقائد لا بد لها من قاطع وأن التقليد بمعزل من الاهتداء ولا تصلح متمسكاً لنفي القياس والعمل بخبر الآحاد لأن ذلك في الفروع

﴿لَكُمْ مَا فِي السَّمُوتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾. وإذا كان الكل له وفي ملكه فلا يصح أن يكون شيء مما فيهما ولداله للموافاة بين الملك والبنوة والأبوة. ثم زيف دعواهم الباطلة وبين أنها بلا دليل فقال ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَنِ بِهَذَا﴾ أي ما عندكم من حجة وبرهان بهذا القول الذي تم لونه، و «من» في ﴿مِنْ سُلْطَنِ﴾ زائدة للتأكيد، والجار والمجرور في ﴿بِهَذَا﴾ متعلق إما بسلطان لأنه بمعنى الحجة والبرهان، أو متعلق بما عندكم لما فيه من معنى الاستقرار. ثم وبخهم على هذا القول العاقل عن الدليل الباطل عند

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ شروع في ذكر ضرب آخر من أباطيل المشركين وبيان بطلانه، والمراد بهؤلاء المشركين على ما قيل: كفار قريش والعرب فإنهم قالوا: الملائكة بنات الله تعالى، واليهود والنصارى القائلون: عزيز وعيسى عليهما السلام ابنه عز وجل والاتخاذ صريح في التبني، وظاهر الآية يدل على أن ذلك قول كل المشركين وإذا ثبت أن منهم من يقول بالولادة والتوليد حقيقة كان ما هنا قول البعض ولينظر هل يجري فيه احتمال إسناد ما للبعض للكل لتحقق شرطه أم لا يجري لفقد ذلك والولد يستعمل مفرداً وجمعاً.

وفي القاموس الولد محركة وبالضم والكسر والفتح واحد وجمع وقد يجمع على أولاد وولدة وإلدة بالكسر فيهما وولد الضم وهو يشمل الذكر والأنثى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تنزيه وتقديس له تعالى عما نسبوا إليه على ما هو الأصل في معنى سبحان وقد يستعمل للتعجب مجازاً ويصح إرادته هنا، والمراد التعجب من كلمتهم الحمقى، وجمع بعضهم بين التنزيه والتعجب ولعله مبني على أن التعجب معنى كنائي وأنه يصح إرادة المعنى الحقيقي في الكناية وهو أحد قولين في المسألة، وقيل: إنه لا يلزم استفادة معنى التعجب منه باستعمال اللفظ فيه بل هو من المعاني الثواني، وقوله سبحانه: ﴿هُوَ الْغَفِيُّ﴾ أي عن كل شيء في كل شيء علة لتنزهه تعالى وتقديسه عن ذلك وإيدان بأن اتخاذ الولد مسبب عن الحاجة وهي التقوى أو بقاء النوع

أولى من الاقتصار على ما الكلام فيه، وحينئذ فالمراد بالموصول ما يعم أولئك المخاطبين وغيرهم، أي إن من تكون هذه صفتهم كائناً ما كانوا ﴿لَا يُقْلِحُونَ﴾ لا ينجون من مكروه ولا يفوزون بمطلوب أصلاً ويندرج في ذلك عدم النجاة من النار وعدم الفوز بالجنة والاقتصار عليه في مقام المبالغة في الزجر عن الافتراء عليه سبحانه دون التعميم في المناسبة.

محمد عبده ج ١١ ص ٤٥٥ - ٤٥٧

أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي، تعارضون به هذا البرهان العقلي، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره، وكونه المالك لكل شيء مما في السموات والأرض ﴿أَنقُولُ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ هذا استفهام تبكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم، ولا سيما بعد مجيء ما ينقضه من العلم البرهاني والوحي الإلهي، قال البيضاوي وغيره: وفيه دليل على أن كل قول لا دليل عليه فهو جهالة، وإن العقائد لا بد لها من قاطع، وإن التقليد فيها غير سائغ اهـ وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام، وسيأتي في سور أخرى مع إبطاله وتفنيده بالدلائل ووجوه الحجة المختلفة الأساليب، أو التقرير والتأنيب، والإنذار والوعيد.

﴿قُلْ إِيَّاكَ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ اتخاذهم الشركاء له، أو يزعمهم اتخاذه ولدًا لنفسه، أو بغير ذلك من التحليل والتحريم، وغيرهما من مسائل التشريع، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه إياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه، وقد تقدم بعضه في هذه السورة كآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿لَا يُقْلِحُونَ﴾ أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشفاعته الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار.

وهي مخصوصة بالأصول لما قام من الأدلة على تخصيصها وإن عم ظاهرها.

﴿قُلْ﴾ تلوين للخطاب وتوجيه له إلى سيد المخاطبين ﷺ ليبين سوء مغبتهم ووخامة عاقبتهم وفي ذلك إنذار لهم عن الاستمرار على ما هم فيه ولغيرهم عن الوقوع في مثله ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَقْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ في كل أمر ويدخل الافتراء بنسبة الولد والشريك إليه تعالى دخولاً أولاً وهو

﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله، وقالت النصارى: المسيح ابن الله، وقال بعض اليهود: عزيز ابن الله، وتقدم في سورة التوبة «ويرى بعض المؤرخين أن عزيز هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين» ﴿سُبْحَنُكَ﴾ كلمة التسبيح معناها التنزيه والتقديس أي تسبيحاً له عز وجل عن كل ما لا يليق بربوبيته وألوهيته، وتقال في مقام التعجب، ويصح هنا جمع المعنيين كليهما. وقفى على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأفواههم ما ليس لهم به علم فقال ﴿هُوَ الْغَنِيُّ لِمَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد، لأن كل ما في الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها إلى شيء، ويحتاج إليه كل شيء، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء، فالإنسان يحتاج إلى الولد لأمر منها بقاء ذكره به وبذريته، ومنها أنه قوة وعصبة له يعتز به هو وعشيرته، ومنها أن وجوده زينة له في داره يلهو به في صغره، ويفاخر به أقرانه في كبره، ومنها أنه قد يحتاج إليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته، وقد يحتاج إلى رفده وبره، عند عجزه أو فقره، والله تعالى لا يحتاج إلى شيء من هذه المنافع لأنه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلاً وأبداً ﴿إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ هَٰذَا﴾ «إن» هنا نافية و «من» مؤكدة لهذا النفي مفيدة لعمومه، والسلطان الحجة والبرهان. والجملة تجهيل لهم ورد عليهم، أي ما عندكم

المراغي ج ٤ ص ١٣٤ - ١٣٦

الدلائل والبراهين ما يؤيد صحة هذا القول الذي تقولونه
بلا علم ولا وحي إلهي .

ثم أكد ما سلف بقوله: ﴿ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴾ أي أتقولون على الله قولاً لا تعلمون حقيقته
وتنسبون إليه تعالى ما لا يجوز إضافته إليه، ولا سيما بعد
مجيء ما ينقضه من الأدلة العقلية والوحي الإلهي .

وفي الآية إيماء إلى أن كل قول لا دليل عليه فهو
جهالة، وأن العقائد الدينية لا بد فيها من دليل قاطع، وأن
التقليد فيها غير سائغ .

﴿ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴾
أي قل لهم إن الذين يفترون على الله الكذب بنسبة الشركاء
إليه، أو باتخاذهم ولدًا لنفسه أو بدعوى أن الأولياء يطلعون
على أسرار خلقه ويتصرفون في ملكه، لا يفوزون بالتمتع
بالنعيم بشفاعة الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى،
ولا يتنجون من عذاب الآخرة .

سيد قطب ج ٣ ص ١٨٠٥ - ١٨٠٧

الفلسفات الأخرى . لأنه يلمس الموضوعات في واقعها
القريب إلى الفطرة . ويتعامل مع الموضوع ذاته لا مع
فروض جدلية قد تترك الموضوع الحاضر نهائياً وتصبح
غرضاً في ذاتها !

فيكتفي هنا بهذه اللمسة التي تمس واقعهم، وحاجتهم
إلى الولد، وتصورهم لهذه الحاجة، وانتفاء وجودها
بالقياس إلى الله الغني الذي يملك ما في السماوات وما في
الأرض، ليلبغ من نفوسهم موضع الاقتناع أو موضع
الإفحام، بلا جدل نظري يضعف أثر اللمسة النفسية التي
تستجيب لها الفطرة في يسر وهودة .

ثم يجابههم بالواقع، وهو أنهم لا يملكون برهاناً على
ما يدعون . ويسمي البرهان سلطاناً، لأن البرهان قوة،
وصاحب البرهان قوي ذو سلطان :

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ . .

ما عندكم من حجة ولا برهان على ما تقولون .

بعد أن حكى سبحانه وتعالى أن من المشركين من
اتخذوا الأوثان والأصنام شفعاء عنده - قفى على ذلك
بذكر ضرب آخر من أباطيلهم، وهو زعمهم أنه تعالى
جده اتخذ ولداً، وتلك مقالة اشترك فيها المشركون
واليهود والنصارى على السواء .

﴿ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَلَمْسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ أي إن
الله غني عن خلقه جميعاً، فإن كل ما في الوجود من العالم
العلوي والسفلي ملك له ولا حاجة له إلى شيء منه
وجميعه في حاجة إليه، ولا يجانس شيء منه، فالإنسان
يحتاج إلى الولد إما للنصرة والمعونة وإما للاعتزاز به لدى
الأهل والعشيرة، وإما لأنه زينة يلهو به في صغره ويفخر
به في كبره، وإما للحاجة إليه في قضاء مصالحه أو لانتظار
رفده وبره حين عجزه أو فقره، وإما لبقاء ذكره بعد موته،
والله غني عن كل ذلك، ولا حاجة له إلى شيء من هذه
المنافع فهو مُسْتَعْنٍ أزلاً وأبداً .

﴿ إِنَّ عِنْدَكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا ﴾ أي ليس عندكم من

ومن ثم كان الرد على فرية: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ
وَلَدًا ﴾ . . هو :

﴿ سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَمْ يَلَمْسْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ ﴾ .

﴿ سُبْحَنَهُ . . ﴾ تنزيهاً لذاته العلية عن مستوى هذا
الظن أو الفهم أو التصور . ﴿ هُوَ الْغَنِيُّ ﴾ . . بكل معاني
الغنى، عن الحاجات التي أسلفنا وعن سواها مما يخطر
ومما لا يخطر على البال . مما يقتضي وجود الولد .
والمقتضيات هي التي تسمح بوجود المقتضيات، فلا
يوجد شيء عبثاً بلا حاجة ولا حكمة ولا غاية . ﴿ لَمْ يَلَمْسْ
فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ . فكل شيء ملكه . ولا
حاجة به - سبحانه - لأن يملك شيئاً بمساعدة الولد .

فالولد إذن عبث . تعالى الله سبحانه عن العبث !

ولا يدخل القرآن الكريم في جدل نظري حول الطبيعة
الإلهية والطبيعة الناسوتية، مما جد عند المتكلمين، وفي

﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ..

وقول الإنسان ما لا يعلم منقصة لا تليق. فكيف إذا كان هذا القول بلا علم على الله - سبحانه - ! إنه جريمة إذن أكبر من كل جريمة. فهو أولاً ينافي ما يستحقه الله من عباده من تنزيه وتعظيم، لأنه وصف له بمقتضيات الحدوث والعجز والنقص والقصور. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. ولأنه ضلال في تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق، ينشأ عنه ضلال في تصور كل علاقات الحياة والناس والمعاملات. فكلها فرع من تصور هذه العلاقة. وكل ما ابتدعه الكهنة لأنفسهم في الوثنيات من سلطان؛ وكل ما ابتدعته الكنيسة لها من سلطان، إنما نشأ عن تصور العلاقة بين الله تعالى وبناته الملائكة! أو بين الله تعالى وعيسى بن مريم من صلة الأبوة والبنوة، وحكاية الخطيئة، ومنها نشأت مسألة الاعتراف، ومسألة قيام كنيسة المسيح بتوصيل الناس بأبي المسيح (بزعمهم) .. إلى نهاية السلسلة التي بدأت الحلقة الأولى فيها بفساد تصور العلاقة بين الخالق والمخلوق فسدت الحلقات التالية كلها في كل ضروب الحياة.

فليست المسألة مجرد فساد في التصور الاعتقادي، ولكنه مسألة الحياة برمتها. وكل ما وقع بين الكنيسة وبين العلم والعقل من عدا، انتهى إلى تخلص المجتمع من سلطان الكنيسة بتخلّصه من سلطان الدين نفسه! إنما نشأ من هذه الحلقة. حلقة فساد تصور العلاقة بين الله وخلقه. وجر في ذيله شراً كبيراً تعاني البشرية كلها ويلات في التيارات المادية وما وراءها من بلايا وأرزاء.

ومن ثم كان حرص العقيدة الإسلامية على تجلية هذه العلاقة تجلية كاملة لا لبس فيها ولا إبهام. . الله خالق أزلي باق، لا يحتاج إلى الولد. والعلاقة بينه وبين الناس جميعاً هي علاقة الخالق بخلقه دون استثناء. وللكون والحياة والأحياء سنن ماضية لا تتخلف ولا تحابي. فمن اتبع هذه السنن أفلح وفاز، ومن حاد عنها ضل وخسر. . الناس في هذا كلهم سواء. وكلهم مرجعهم إلى الله. وليس هنالك من شفعاء ولا شركاء. وكلهم آتية يوم القيامة فرداً. ولكل نفس ما عملت. ولا يظلم ربك أحداً. عقيدة بسيطة واضحة، لا تدع مجالاً لتأويل فاسد، ولا تنحني أو تنحرف بالقلب في دروب ومنحنيات، ولا في سحب وضباب!

ومن ثم يقف الجميع سواء أمام الله وكلهم مخاطب بالشريعة، وكلهم مكلف بها، وكلهم حفيظ عليها. وبذلك تستقيم العلاقات بين الناس بعضهم وبعض، نتيجة استقامة العلاقة بينهم وبين الله.

قل: ﴿الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾ ..

لا يفلحون أي فلاح. لا يفلحون في شِعْب ولا طريق. لا يفلحون في الدنيا ولا في الآخرة. والفلاح الحقيقي هو الذي ينشأ من مسامرة سنن الله الصحيحة، المؤدية إلى الخير وارتقاء البشر وصلاح المجتمع، وتنمية الحياة، ودفعها إلى الأمام. وليس هو مجرد الانتاج المادي تحطيم القيم الإنسانية، ومع انتكاس البشر إلى مدارج الحيوانية. فذلك فلاح ظاهري موقوت، منحرف عن خط الرقي الذي يصل بالبشرية إلى أقصى ما تطيقه طبيعتها من الاكتمال.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُون﴾

١٨

(سورة النحل، رقم ١٦، الآية ٥١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٤ ص ٨٠	ابن كثير	ج ٢ ص ٥٧٢
الزمخشري	ج ٢ ص ٤١٣	الجلالان	ص ٣٥٢
الرازي	ج ٢٠ ص ٤٧ - ٤٩	الشوكاني	ج ٣ ص ١٦٨ - ١٧٢
الطبرسي	ج ١٤ ص ٨٣ - ٨٥	الألوسي	ج ٧ ص ١٦١ - ١٦٣
ابن عربي	ج ١ ص ٦٧٨ - ٦٨٠	القاسمي	ج ١٠ ص ١١٥ - ١١٧
البيضاوي	ج ٣ ص ١٨٣	محمد عبده	ج ص
الخازن	ج ٤ ص ٩٥	الطباطبائي	ج ١٢ ص ٢٥٢ - ٢٨٦
البغوي	ج ٣ ص ٥٩	جوهري	ج ٨ ص ١٢٤ - ١٦٤
الماوردي	ج ٣ ص ١٩٢	المراغي	ج ١٤ ص ٩٢
القرطبي	ج ١٠ ص ١١٣	سيد قطب	ج ٤ ص ٢١٧٦
أبو حيان الاندلسي	ج ٥ ص ٤٩٩ - ٥٠٣		

الطبري ج ١٤ ص ٨٠

شريكاً ولا شريك لي إنما هو إله واحد ومعبود واحد وأنا ذلك فلايبي فارهبون يقول فلايبي فاتقوا وخافوا عقابي بمعصيتكم إياي إن عصيتموني وعبدتم غيري أو أشركتم في عبادتكم لي شريكاً.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارْهَبُون﴾ يقول تعالى ذكره وقال الله لعباده لا تتخذوا لي شريكاً أيها الناس ولا تعبدوا معبودين فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتم لي

الزمخشري ج ٢ ص ٤١٣

المخصوص، فإذا أريدت الدلالة على أن المعنى به منهما والذي يساق إليه الحديث هو العدد شفع بما يؤكده فدل به على القصد إليه والعناية به؛ ألا ترى أنك لو قلت إنما هو إله ولم تؤكده بواحد لم يحسن وخيل أنك تثبت الإلهية لا الوحدانية ﴿فَأِنِّي فَارْهَبُون﴾ نقل للكلام عن الغيبة إلى التكلم، وجاز لأن الغائب هو المتكلم وهو من طريقة الالتفات، وهو أبلغ في الترهيب من قوله وإياه فارهبوه.

... وأنهم بين الخوف والرجاء. فإن قلت: إنما جمعوا بين العدد والمعدود فيما وراء الواحد والاثنيين فقالوا عندي رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عار عن الدلالة على العدد الخاص، وأما رجل ورجلان وفرس وفرسان فمعدودان فيهما دلالة على العدد فلا حاجة إلى أن يقال رجل واحد ورجلان إثنان، فما وجه قوله ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾؟ قلت: الاسم الحامل لمعنى الأفراد والثنية دال على شيئين: على الجنسية، والعدد

الرازي ج ٢٠ ص ٤٧ - ٤٩

وملكه وأنه غني عن الكل فقال ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ وفي الآية مسائل: المسألة الأولى: لقائل أن يقول: إن الإلهين لا بد وأن يكونا اثنين، فما الفائدة في قوله ﴿إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

اعلم أنه تعالى لما بين في الآية الأولى أن كل ما سوى الله سواء كان من عالم الأرواح أو من عالم الأجسام، فهو منقاد خاضع لجلال الله تعالى وكبريائه، أتبعه في هذه الآية بالنهي عن الشرك وبالأمر بأن كل ما سواه فهو ملكه

واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال أو لا يحصل مراد كل واحد منهما وهو محال، أو لا يحصل مراد كل واحد منهما البتة. فحينئذ يكون كل واحد منهما عاجزاً والعاجز لا يكون إلهاً. فثبت أن كونهما اثنين ينفي كون كل واحد منهما إلهاً. الثالث: أنا لو فرضنا إلهين اثنين لكان إما أن يقدر أحدهما على أن يستر ملكه عن الآخر أو لا يقدر، فإن قدر ذلك إله والآخر ضعيف، وإن لم يقدر فهو ضعيف، والرابع: وهو أن أحدهما إما أن يقوى على مخالفة الآخر، أو لا يقوى عليه فإن لم يقو عليه فهو ضعيف، وإن قوى عليه فذاك الآخر إن لم يقو على الدفع فهو ضعيف، وإن قوى عليه فالأول المغلوب ضعيف. فثبت أن الإثنية والإلهية متضادتان. فقلوه ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ المقصود منه التنبيه على حصول المنافاة والمضادة بين الإلهية وبين الإثنية، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذا الكلام قال ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ والمعنى: أنه لما دلت الدلائل السابقة على أنه لا بد للعالم من الإله. وثبت أن القول بوجود الإلهين محال: ثبت أنه لا إله إلا الواحد الأحد الحق الصمد.

ثم قال بعده ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ وهذا رجوع من الغيبة إلى الحضور، والتقدير: أنه لما ثبت أن الإله واحد وثبت أن المتكلم بهذا الكلام إله، فحينئذ ثبت أنه لا إله للعالم إلا المتكلم بهذا الكلام، فحينئذ يحسن منه أن يعدل من الغيبة إلى الحضور، ويقول ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ وفيه دققة أخرى وهي أن قوله ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ يفيد الحصر، وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه، وأن لا يرغبوا إلا في فضله وإحسانه، وذلك لأن الموجود إما قديم وإما محدث. أما القديم الذي هو الإله فهو واحد، وأما ما سواه فمحدث، وإنما حدث بتخليق ذلك القديم وبايجاده، وإذا كان كذلك فلا رغبة إلا إليه ولا رهبة إلا منه، فبفضله تندفع الحاجات وبتكوينه وبتخليقه تنقطع الضرورات.

وجوابه من وجوه: أحدها: قال صاحب النظم: تقديم وتأخير، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين. وثانيها: وهو الأقرب عندي أن الشيء إذا كان مستنكراً مستقبحاً، فمن أراد المبالغة في التنفير عنه عبر عنه بعبارات كثيرة ليصير توالي تلك العبارات سبباً لوقوف العقل على ما فيه من القبح.

إذا عرفت هذا فالقول بوجود الإلهين قول مستقبح في العقول، ولهذا المعنى فإن أحداً من العقلاء لم يقل بوجود إلهين متساويين في الوجوب والقدم وصفات الكمال، فقلوه ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ المقصود من تكريره تأكيد التنفير عنه وتكميل وقوف العقل على ما فيه من القبح. وثالثها: أن قوله ﴿إِلَهَيْنِ﴾ لفظ واحد يدل على أمرين: ثبوت الإله واثبات التعدد، فإذا قيل: لا تتخذوا إلهين. لم يعرف من هذا اللفظ أن النهي وقع عن إثبات الإله أو عن إثبات التعدد أو عن مجموعهما. فلما قال ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ ثبت أن قوله ﴿لَا نَخْذُوا إِلَهَيْنِ﴾ نهى عن إثبات التعدد فقط، ورابعها: أن الإثنية منافية للإلهية، وتقريره من وجوه: الأول: أنا لو فرضنا موجودين يكون كل واحد منهما واجباً لذاته لكانا مشتركين في الوجوب الذاتي ومتباينين بالتعين وما به المشاركة غير ما به المباينة، فكل واحد منهما مركب من جزأين. وكل مركب فهو ممكن، فثبت أن القول بأن واجب الوجود أكثر من واحد ينفي القول بكونهما واجبي الوجود. الثاني: إنا لو فرضنا إلهين وحاول أحدهما تحريك جسم والآخر تسكينه امتنع كون أحدهما أولى بالفعل من الثاني، لأن الحركة الواحدة والسكون الواحد لا يقبل القسعة أصلاً ولا التفاوت أصلاً، وإذا كان كذلك امتنع أن تكون القدرة على أحدهما أكمل من القدرة على الثاني، وإذا ثبت هذا امتنع كون إحدى القدرتين أولى بالتأثير من الثانية. وإذا ثبت هذا فأما أن يحصل مراد كل

الخازن ج ٤ ص ٩٥

له وأنهم في ملكه وتحت قدرته وقبضته نهى في هذه الآية عن الشرك وعن اتخاذ إلهين اثنين فقال ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ قال الزجاج ذكر الإثنين توكيداً

قوله سبحانه وتعالى ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ أَتَيْنِ﴾ لما أخبر الله عز وجل في الآية المتقدمة أن كل ما في السموات والأرض خاضعون لله منقادون لأمره عابدون

اثنان إنما هو إله واحد ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ يعني فخافون والرهب مخافة مع حزن واضطراب وإنما نقل الكلام من الغيبة إلى الحضور وهو من طريق الالتفات لأنه أبلغ في الترهيب من قوله فإياه فارهبوا، فهو من بديع الكلام وبلغه وقوله فإياي فارهبون يفيد الحصر وهو أن لا يرهب الخلق إلا منه ولا يرغبون إلا إليه وإلى كرمه وفضله وإحسانه.

الشوكاني ج ٣ ص ١٦٨-١٧٢

إن التكرير لأجل المبالغة في التنفير عن اتخاذ الشريك؛ وقيل إن فائدة زيادة اثنين هي أن يعلم أن النهي راجع إلى التعدد لا إلى الجنسية، وفائدة زيادة واحد دفع توهم أن المراد إثبات الإلهية دون الواحدية، مع أن الإلهية له سبحانه مسلمة في نفسها، وإنما خلاف المشركين في الواحدية ثم نقل الكلام سبحانه من الغيبة إلى التكلم على طريقة الالتفات لزيادة الترهيب، فقال ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونِ﴾ أي إن كنتم راهبين شيئاً فإياي فارهبون لا غيري، وقد مر مثل هذا في أول البقرة.

الألوسي ج ٧ ص ١٦١-١٦٣

فإن النار بالعودين تذكى وأن الحرب أولها الكلام وإلى هذا ذهب صاحب الكشاف، وما يفهم منه أنه تأكيد فمعناه أنه محقق ومقرر من المتبوع فهو تأكيد لغوي لا أنه مؤكد أمر المتبوع في النسبة أو الشمول ليكون تأكيداً صناعياً كيف وهو إنما يكون بتقرير المتبوع بنفسه أو بما يوافقه معنى أو بالفاظ محفوظة، فما قيل: إن مذهبه أن ذلك من التأكيد الصناعي ليس بشيء إذ لا دلالة في كلامه عليه. وقد أورد السكاكي الآية في باب عطف البيان مصرحاً بأنه من هذا القبيل فتوهم منه بعضهم أنه قائل بأن ذلك عطف بيان صناعي، وهو الذي اختاره العلامة القطب في شرح المفتاح نافياً كونه وصفاً، واستدل على ذلك بأن معنى قولهم: الصفة تابع يدل على معنى في متبوعه أنه تابع ذكر ليدل على معنى في متبوعه على ما نقل عن ابن

لقوله إلهين وقال صاحب النظم فيه تقديم وتأخير تقديره لا تتخذوا اثنين إلهين يعني أن الاثنين لا يكون كل واحد منهما إلهاً ولكن اتخذوا إلهاً واحداً وهو قوله تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ لأن الإلهين لا يكونان إلا متساويين في الوجود والقدم وصفات الكمال والقدرة والإرادة فصارت الاثنينية منافية للآلهية وذلك قوله تعالى إنما هو إله واحد يعني لا يجوز أن يكون في الوجود إلهان

لما بين سبحانه أن مخلوقاته السماوية والأرضية منقاد له، خاضعة لجلاله، أتبع ذلك بالنهي عن الشرك بقوله ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ فنهى سبحانه عن اتخاذ إلهين، ثم أثبت أن الإلهية منحصرة في إله واحد وهو الله سبحانه؛ وقد قيل إن التثنية في إلهين قد دلت على الاثنينية، والإفراد في إله قد دل على الوحدة، فما وجه وصف إلهين باثنين، ووصف إله واحد؟ ف قيل في الجواب: إن في الكلام تقديماً وتأخيراً، والتقدير: لا تتخذوا اثنين إلهين إنما هو واحد إله؛ وقيل

قال تعالى لجميع المكلفين بواسطة الرسل عليهم السلام: ﴿لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ المشهور أن ﴿اثنين﴾ وصف لإلهين وكذا «واحد» في قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ صفة لإله، وجيء بهما للإيضاح والتفسير لا للتأكيد وإن حصل. وتقرير ذلك أن لفظ ﴿إِلَهَيْنِ﴾ حامل لمعنى الجنسية أعني الإلهية ومعنى العدد أعني الاثنينية وكذا لفظ «إله» حامل لمعنى الجنسية والوحدة، والغرض المسوق له الكلام في الأول النهي عن اتخاذ الإثنين من الإله عن اتخاذ جنس الإله، وفي الثاني إثبات الواحد من الإله لا إثبات جنسه فوصف ﴿إِلَهَيْنِ﴾ باثنين «وإله» بواحد إيضاحاً لهذا الغرض وتفسيراً له، فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو نعم الرجل زيد. وكذا المثني كقوله:

صحة قيامه مقام المبدل منه فقد جعل الزمخشري ﴿أَلِجَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] بدلاً من ﴿شُرَكَاءَ﴾ ومعلوم أنه لا معنى لقولنا وجعلوا الله الجن، ثم قال: بل لا يبعد أن يقال: الأولى أنه بدل لأنه المقصود بالنسبة إذ النهي عن اتخاذ الاثنين من الإله على ما مر تقريره. وتعقب بأن الرضى قد ذكر أنه لما لم يكن البدل معنى في المتبوع حتى يحتاج إلى المتبوع كما احتاج الوصف ولم يفهم معناه من المتبوع كما فهم ذلك في التأكيد جاز اعتباره مستقلاً لفظاً أي صالحاً لأن يقوم مقام المتبوع، اهـ.

ولا يخفى أن صحة إقامته بهذا المعنى لا تقتضي أن يتم معنى الكلام بدونه حتى يرد ما أورد؛ وقيل: إن ذكر «إثنين» للدلالة على منافاة الأثنينية للألوهية وذكر الوحدة للتنبيه على أنها من لوازم الألوهية.

وجعل ذلك بعضهم من روادف الدلالة على كون ما ذكره مساق النهي والإثبات وهو الظاهر وإن قيل فيه ما قيل.

وزعم بعضهم أن ﴿تَتَّخِذُوا﴾ متعد إلى مفعولين وأن ﴿أَتَيْنِ﴾ مفعوله الأول و﴿إِلَهِينِ﴾ مفعوله الثاني والتقدير لا تتخذوا إثنين إلهين، وقيل: الأول مفعول أول والثاني ثان، وقيل: ﴿إِلَهِينِ﴾ مفعوله الأول و﴿أَتَيْنِ﴾ باق على الوصفية والتوكيد والمفعول الثاني محذوف أي معبودين، ولا يخفى ما في ذلك، وإثبات الوحدة له تعالى مع أن المسمى المعين لا يتعدد بمعنى أنه لا مشارك له في صفاته وألوهيته فليس الحمل لغواً، ولا حاجة لجعل الضمير للمعبود بحق المفهوم من الجلالة على طريق الاستخدام كما قيل، وسيأتي إن شاء الله تعالى تحقيقه في سورة الإخلاص. وفي التعبير بالضمير الموضوع للغائب التفات من التكلم إلى الغيبة على رأي السكاكي المكتفي بكون الأسلوب الملتفت عنه حق الكلام وإن لم يسبق الذكر على ذلك الوجه، وأما قوله تعالى: ﴿فَأَيْنِ فَارْهَبُونِ﴾ ففيه التفات من الغيبة إلى المتكلم على مذهب الجمهور أيضاً، والنكتة فيه بعد النكتة العامة أعني الإيقاظ وتطرية الإصغاء المبالغة في

الحاجب، ولم يذكر «إثنين وواحد» للدلالة على الأثنينية والوحدة اللتين في متبوعهما فيكونا وصفين بل ذكراً للدلالة على أن القصد من متبوعهما إلى أحد جزئيه أعني الأثنينية والوحدة دون الجزء الآخر أعني الجنسية، فكل منهما تابع غير صفة يوضح متبوعه فيكون عطف بيان لا صفة.

وقال العلامة الثاني: ليس في كلام السكاكي ما يدل على أنه عطف بيان صناعي لجواز أن يريد أنه من قبيل الإيضاح والتفسير وإن كان وصفاً صناعياً، ويكون إرادته في ذلك المبحث مثل إيراد كل رجل عارف وكل إنسان حيوان في بحث التأكيد ومثل ذلك عادة له. وتعقب العلامة الأول بأنه إن أريد أنه لم يذكر إلا ليدل على معنى في متبوعه فلا يصدق التعريف على شيء من الصفة لأنها البتة تكون لتخصيص أو تأكيد أو مدح أو نحو ذلك وإن أريد أنه ذكر ليدل على هذا المعنى ويكون الغرض من دلالة عليه شيئاً آخر كالتخصيص والتأكيد وغيرهما فيجوز أن يكون ذكر «إثنين وواحد» للدلالة على الأثنينية والوحدة ويكون الغرض من هذا بيان المقصود وتفسيره، كما أن الدابر في أمس الدابر ذكر ليدل على معنى الدبور والغرض منه التأكيد بل الأمر كذلك عند التحقيق، ألا ترى أن السكاكي جعل من الوصف ما هو كاشف وموضح ولم يخرج بهذا عن الوصفية وأجيب بأننا نختار الشق الثاني ونقول: مراد العلامة من قوله: ذكر ليدل على معنى في متبوعه أن يكون المقصود من ذكره الدلالة على حصول المعنى في المتبوع ليتوسل بذلك إلى التخصيص أو التوضيح أو المدح أو الذم إلى غير ذلك وذكر «إثنين وواحد» ليس للدلالة على حصول الأثنينية والوحدة في موصوفيهما بل تعيين المقصود من جزئيهما فلا يكونان صفة، وذكر الدابر ليدل على حصول الدبور في أمس ثم يتوسل بذلك إلى التأكيد وكذا في الوصف الكاشف بخلاف ما نحن فيه فتدبره فإنه غامض: ولم يجوز العلامة الأول البدلية فقال: وأما أنه ليس ببدل فظاهر لأنه لا يقوم مقام المبدل منه.

ونظر فيه العلامة الثاني بأن لا نسلم أن البدل يجب

المعمول ضميراً منفصلاً والفعل متعد إلى واحد هو الضمير وجب تأخر الفعل نحو ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [الفاتحة: ٥] ولا يجوز أن يتقدم إلا في ضرورة نحو قوله:

إليك حتى بلغت إياك. وعطف المفسر المذكور على المفسر المحذوف بالفاء لأن المراد رغبة بعد رغبة، وقيل: لأن المفسر حقه أن يذكر بعد المفسر، ولا يخفى فصل الضمير وتقديمه من الحصر أي أربوني لا غير فانا ذلك الإله الواحد القادر على الانتقام.

التخويف والترهيب فإن تخويف الحاضر مواجهة أبلغ من تخويف الغائب سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام.

والفاء في ﴿فَإِئْتَى﴾ واقعة في جواب شرط مقدر و (إيائي) مفعول لفعل محذوف يقدر مؤخراً يدل عليه ﴿فَآرْهَبُونِ﴾ أي إن رهبت شيئاً فإيائي أرهبوا، وقول ابن عطية: إن «إيائي» منصوب بفعل مضمر تقديره فارهبوا إيائي فارهبون ذهول عن القاعدة النحوية، وهي أنه إذا كان

القاسمي ج ١٠ ص ١١٥ - ١١٧

فهو في معنى قوله ﴿لَوْ كَانَفِيمَاءَ إِلَهَةً إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] فلذا صرح بها، وعقبت بذكر الوحدة التي هي من لوازم الألوهية.

وقال الشهاب: ولا حاجة إلى جعل الضمير للمعبود بحق المراد من الجلالة على طريق الاستخدام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ﴾ معطوف على قوله ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ﴾ [الرعد: ١٥] أو على قوله ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْذِكْرَ﴾ [النحل: ٤٤] وقيل: إنه معطوف على ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ بِالْحَقِّ﴾ على أسلوب علقته تيناً وماءً بارداً.

أي: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ [النحل: ٤٨] ولم يسمعوا ما قال الله؟ ولا يخفى تكلفه. وفي قوله ﴿فَآرْهَبُونِ﴾ التفات عن الغيبة، مبالغة في الترهيب. فإن تخويف الحاضر مواجهة، أبلغ من ترهيب الغائب، لا سيما بعد وصفه بالوحدة والألوهية المقتضية للعظمة والقدرة التامة على الانتقام.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِئْتَى فَآرْهَبُونِ﴾. إعلام بنهيه الصريح عن الإشراك. وبأمره بعبادته وحده، وإنما خصص هذا العدد لأنه الأقل، فيعلم انتفاء ما فوقه بالدلالة. فإن قيل: الواحد والمثنى نص في معناهما، لا يحتاج معهما إلى ذكر العدد، كما يذكر مع الجميع. أي في نحو رجال ثلاثة وأفراس أربعة، لأن المعدود عارٍ عن الدلالة على العدد الخاص، فلم يذكر العدد فيهما؟ أجيب بأن العدد يدل على أمرين: الجنسية والعدد المخصوص. فلما أريد الثاني صرح به للدلالة على أنه المقصود الذي سيق الكلام وتوجه له النهي دون غيره. فإنه قد يراد بالمفرد الجنس نحو: نعم الرجل زيد. وكذا المثنى كقوله:

فإن النار بالعودين تُذَكَّى
وإن الحارب أولها الكلام
وقيل: ذكر العدد للإيماء بأن الأثنيتين تنافي الألوهية.

المراغي ج ٥ ص ٩٢

وإنما ذكر العدد مع أن صيغة التثنية مغنية عنه، للدلالة على أن المنهى عنه هي الأثنيتين وأنها منافية للألوهية، كما أن وصف الإله بالوحدة في قوله ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ للدلالة على أن المقصود إثبات الوحدة وأنها من لوازم الألوهية، أما الألوهية فغير منكورة ولا متنازع فيها. والخلاصة - إنه تعالى أخبر أنه لا إله إلا هو، وأنه لا تنبغي العبادة إلا له وحده.

الإيضاح

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِئْتَى فَآرْهَبُونِ﴾ أي وقال الله لعباده: لا تتخذوا لي شريكاً ولا تعبدوا سواي، فإنكم إذا عبدتم معي غيري جعلتموه لي شريكاً، ولا شريك لي، إنما هو إله واحد، ومعبود واحد، وأنا ذاك، فاتقوني وخافوا عقابي، بمعصيتكم إيائي، بإشراككم بي غيري، أو عبادتكم سواي.

سيد قطب ج ٤ ص ٢١٧٦

إله واحد. ويعقب على النهي والقصر بقصر آخر ﴿فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾ دون سواي بلا شبهة أو نظير. ويذكر الرهبة زيادة في التحذير. . ذلك أنها القضية الأساسية في العقيدة كلها، لا تقوم إلا بها، ولا توجد إلا بوجودها في النفس واضحة كاملة دقيقة لا لبس فيها ولا غموض.

﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُبُونَ﴾.

لقد أمر الله ألا يتخذ الناس إلهين اثنين. إنما هو إله واحد لا ثاني له. يأخذ التعبير أسلوب التقرير والتكرير فيتبع كلمة إلهين بكلمة اثنين، ويتبع النهي بالقصر إنما هو

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾

(سورة الإسراء، رقم ١٧، الآية ١١١)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٥	ص ١٢٥ - ١٢٦	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٨٩ - ٩١
الزمخشري	ج ٢	ص ٤٧٠	ابن كثير	ج ٣	ص ٦٨ - ٧٠
الرازي	ج ٢١	ص ٧١ - ٧٢	الجلالان		ص ٣٧٨ - ٣٩٠
الطبرسي	ج ١٥	ص ١٠٨ - ١١٢	الشوكاني	ج ٣	ص ٢٦٥ - ٢٦٧
ابن عربي	ج ١	ص ٧٣٧ - ٧٣٨	الألوسي	ج ٨	ص ١٩٥ - ١٩٩
البيضاوي	ج ٣	ص ٢١٤	القاسمي	ج ١٠	ص ٣١١ - ٣١٢
الخانز	ج ٤	ص ١٩٠	الطباطبائي	ج ١٣	ص ٢١٧ - ٢٢٥
البغوي	ج ٣	ص ١١٨	جوهري	ج ٩	ص ٧٤ - ١٢٠
الماوردي	ج ٣	ص ٢٨٢	المراغي	ج ١٥	ص ١٠٦ - ١١١
القرطبي	ج ١٠	ص ٣٤٤ - ٣٤٥	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٥٤

الطبري ج ١٥ ص ١٢٥ - ١٢٦

عمرو... عن مجاهد ولم يكن له ولي من الدال قال لم يحالف أحد ولا يتبغي نصر أحد حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله حدثنا بشر... عن قتادة ذكر لنا أن نبي الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ الصغير من أهله والكبير حدثنا ابن حميد عن ابن عباس قال إن التوراة كلها في خمس عشرة آية من بني إسرائيل ثم تلا لا تجعل مع الله إلهاً آخر حدثني يونس عن القرظي أنه كان يقول في هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ الآية قال إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً وقالت العرب لبيك لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك وقال الصابئون والمجوس لولا أولياء الله لذل الله فأنزل الله ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ أنت يا محمد على ما يقولون ﴿تَكْبِيرًا﴾...

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وقل يا محمد الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً فيكون مربوباً لا رباً لأن رب الأرباب لا ينبغي أن يكون له ولد ولم يكن له شريك في الملك فيكون عاجزاً ذا حاجة إلى معونة غيره ضعيفاً ولا يكون إلهاً من يكون محتاجاً إلى معين على ما حاول ولم يكن منفرداً بالملك والسلطان ولم يكن له ولي من الدال يقول ولم يكن له حليف حالفه من الدال به لأن من كان ذا حاجة إلى نصرة غيره فذليل مهين ولا يكون من كان ذليلاً مهيناً يحتاج إلى ناصر إلهاً يطاع وكبره تكبيراً يقول وعظم ربك يا محمد بما أمرناك أن تعظمه به من قول وفعل وأطعه فيما أمرك ونهاك وبنحو الذي قلنا في قوله ولم يكن له ولي من الدال قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا محمد بن

الزمخشري ج ٢ ص ٤٧٠ - ٤٧١

على إيلاء كل نعمة، فهو الذي يستحق جنس الحمد «وكان النبي ﷺ إذا أفصح الغلام من بني عبد المطلب علمه هذه الآية». عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة بني إسرائيل فرق قلبه عند ذكر الوالدين كان له قطار في

﴿وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ ناصر من الدال ومانع له منه لاعتزازه به، أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به ليدفعها بموالاته. فإن قلت: كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك والدال بكلمة التحميد؟ قلت: لأن من هذا وصفه هو الذي يقدر

وَالنُّورُ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١﴾ [الأنعام: ١] وقد رددت هذا الوجه فيما تقدم بأن هذه الجملة لا يليق اقترانها بكلمة التحميد ولا تناسبها، فإنك لو قلت ابتداء الحمد لله الذي الذين كفروا به يعدلون لم يكن مناسباً، والله أعلم.

الرازي ج ٢١ ص ٦٩ - ٧١

في صفاته وذلك من ثلاثة أوجه (أولها) أن يعتقد أن كل ما كان صفة له فهو من صفات الجلال والعز والعظمة والكمال وهو منزّه عن كل صفات النقائص (وثالثها) أن يعتقد أن كل واحد من تلك الصفات متعلق بما لا نهاية له من المعلومات وقدرته متعلقة بما لا نهاية له من المقدورات والممكنات (ورابعها) أن يعتقد أنه كما تقدست ذاته عن الحدوث وتنزهت عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزّهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال فكذلك صفاته أزلية قديمة سرمدية منزّهة عن التغير والزوال والتحول والانتقال. (النوع الثالث) من تكبير الله تكبيره في أفعاله وعند هذا تختلف أهل الجبر والقدر فقال أهل السنة إنا نحمد الله ونكبره ونعظمه على أن يجري في سلطانه شيء لا على وفق حكمه وإرادته فالكل واقع بقضاء الله وقدرته ومشيتته وإرادته، وقالت المعتزلة إنا نكبر الله ونعظمه عن أن يكون فاعلاً لهذه القبائح والفواحش بل نعتقد أن حكمته تقتضي التنزيه والتقديس عنها وعن إرادتها وسمعت أن الأستاذ أبا إسحاق الإسفرايني كان جالساً في دار الصاحب بن عباد فدخل القاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني فلما رآه قال سبحان من تنزه عن الفحشاء فقال الأستاذ أبو إسحاق سبحان من لا يجري في ملكه إلا ما يشاء. (النوع الرابع) تكبير الله في أحكامه وهو أن يعتقد أنه ملك مطاع وله الأمر والنهي والرفع والخفض وأنه لا اعتراض لأحد عليه في شيء من أحكامه يعز من يشاء ويذل من يشاء. (النوع الخامس) تكبير الله في أسمائه وهو أن لا يذكر إلا بأسمائه الحسنى ولا يوصف إلا بصفاته المقدسة العالية المنزهة (النوع السادس). من التكبير هو أن الإنسان بعد أن يبلغ

الجنة، والقنطار ألف أوقية ومائتا أوقية» رزقنا الله بفضلته العليم وإحسانه الجسيم.

إن قلت: «كيف لاق وصفه بنفي الولد والشريك؟» قال أحمد: وقد لاحظ ههنا ما أغفله عند قوله تعالى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ

واعلم أنه تعالى لما أمر أن لا يذكر ولا ينادى إلا بأسمائه الحسنى علمه كيفية التحميد فقال ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَوَيْ مِنْ الدَّلِيلِ وَكِبَرَهُ تَكْبِيرًا﴾ فذكر ههنا من صفات التنزيه والجلال وهي اسلوب ثلاثة أنواع من الصفات (النوع الأول) من الصفات أنه لم يتخذ ولداً والسبب فيه وجوه (الأول) إن الولد هو الشيء المتولد من جزء من أجزاء شيء آخر فكل من له ولد فهو مركب من الأجزاء والمركب محدث والمحدث محتاج لا يقدر على كمال الإنعام فلا يستحق كمال الحمد. (الثاني) إن كل من له ولد فإنه يمسك جميع النعم لولده فإذا لم يكن له ولد أفاض كل تلك النعم على عبيده. (الثالث) إن الولد هو الذي يقوم مقام الوالد بعد انقضائه وفنائه فلو كان له ولد لكان منقضيّاً ومن كان كذلك لم يقدر على كمال الإنعام في كل الأوقات فوجب أن لا يستحق الحمد على الإطلاق. (والنوع الثاني) من الصفات السلبية قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكَ فِي الْمَلِكِ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو كان له شريك فحينئذ لا يعرف كونه مستحقاً للحمد والشكر. (والنوع الثالث) قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَوَيْ مِنْ الدَّلِيلِ﴾ والسبب في اعتبار هذه الصفة أنه لو جاز عليه ولي من الدل لم يجب شكره لتجوز أن غير حمله على ذلك الإنعام أو منعه منه، أما إذا كان منزهاً عن الولد وعن الشريك وكان منزهاً عن أن يكون له ولي يلي أمره كان مستوجباً لأعظم أنواع الحمد ومستحقاً لأجل أقسام الشكر ثم قال تعالى ﴿وَكِبَرَهُ تَكْبِيرًا﴾ ومعناه أن التحميد يجب أن يكون مقروناً بالتكبير ويحتمل أنواعاً من المعاني (أولها) تكبيره في ذاته وهو أن يعتقد أنه واجب الوجود لذاته وأنه غني عن كل ما سواه. (وثانيها) تكبيره

وهذا أقصى ما يقدر عليه العبد الضعيف من التكبير والتعظيم ونسأل الله تعالى الرحمة قبل الموت وعند الموت وبعد الموت إنه الكريم الرحيم وبالله العصمة والتوفيق وحسبنا الله ونعم الوكيل.

التكبير والتعظيم والتنزيه والتقديس مقدار عقله وفهمه وخاطره يعترف أن عقله وفهمه لا يفي بمعرفة جلال الله، ولسانه لا يفي بشكره، وجوارحه وأعضاؤه لا تفي بخدمته فكبر الله عن أن يكون تكبيره وافياً بكنهه مجده وعزته.

ابن عربي ج ١ ص ٧٣٧ - ٧٣٨

لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد، إن فعلاً معاً، وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضي بفعله أو لم يرض.

﴿وَلَوْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ أي، لم يكن له ناصر علة كان، أو جزء علة تقوية، وتنصره من ذلة الانفعال والعدم، وإلا لم يكن إلهاً واجباً، بل ممكناً لتكون حبيباً قائماً به لا بنفسك ﴿وَكَبِيرٌ﴾ من أن يتقيد بصفة دون أخرى، أو صورة غير أخرى، أو يلحقه شيء من هذه النقائص، فينحصر في وجود خاص تبارك وتعالى عن ذلك علواً كبيراً ﴿تَكْبِيرٌ﴾ لا يقدر قدره، ولا يعرف كنهه، لا امتناع وجود شيء غيره يفضل عليه، وينسب إليه، بل كل ما يتصور ويعقل، ولا يكبر غيره بهذا التكبير، والله الحق، الموفق.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أي، أظهر الكمالات الإلهية، والصفات الرحمانية، التي لا تكون إلا للذات الأحدية ﴿الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ أي، لم يكن علة لموجود من جنسه، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة، فكيف يكون من جنس الموجود حقاً، الواجب بذاته من جميع الوجوه؟

﴿وَلَوْ يَكُنْ لَمْ﴾ من يساويه في قوة القهر والمملكة، من الشريك في الملك، وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة، فامتياز كل واحد منهما عن الآخر لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبية، فلزم تركبهما، فكانا كلاهما ممكنين لا واجبين، وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير لم يكن أحدهما إلهاً. وإن استقل أحدهما دون الآخر، فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له. وإن استقلا جميعاً،

الشوكاني ج ٣ ص ٢٦٥ - ٢٦٧

قال: قال رسول الله ﷺ: «آية العز ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً﴾ الآية كلها». وأخرج أبو يعلى وابن السني عن أبي هريرة قال «خرجت أنا ورسول الله ﷺ ويده في يدي، فأتى عليّ رجل رث الهيئة فقال: أي فلان ما بلغ بك ما أرى؟ قال: السقم والضرّ، قال: ألا أعلمك كلمات تذهب عنك السقم والضرّ؟ توكلت على الحي الذي لا يموت، الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً إلى آخر الآية، فأتى عليه رسول الله ﷺ وقد حسنت حاله فقال مهيم: «قال لم أزل أقول الكلمات التي علمتني». وفي لفظ أن النبي ﷺ علم ذلك أبا هريرة. قال ابن كثير: وإسناده ضعيف وفي متنه نكارة. وأخرج ابن جرير عن قتادة قال «ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يعلم أهله هذه الآية ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ

... وأخرج ابن جرير والحاكم عنها قالت: نزلت في التشهد. وأخرج ابن أبي شيبة وابن منيع وابن جرير ومحمد بن نصر وابن المنذر وابن مردويه عن ابن عباس مثل حديث عائشة الأولى، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن محمد بن كعب القرظي قال: إن اليهود والنصارى قالوا اتخذ الله ولداً، وقالت العرب: لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك، وقال الصابثون والمجوس: لولا أولياء الله لذلّ، فأنزل الله هذه الآية ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى آخرها. وأخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ وَلِيٌّ مِّنَ الدُّنْيَا﴾ قال: لم يحالف أحداً ولم يبتغ نصر أحد. وأخرج أحمد والطبراني عن معاذ بن أنس

السورة، وأخرج ابن أبي شيبة في المصنف من طريق عبد الكريم عن عمرو بن شعيب فذكره. وأخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة من طريق عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده.

يَخَذُ وَلَدًا ﴿١﴾ إلى آخرها للصغير من أهله والكبير. وأخرج عبد الرزاق في المصنف عن عبد الكريم بن أبي أمية قال «كان رسول الله ﷺ يعلم الغلام من بني هاشم إذا أفصح سبع مرّات ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا ﴿١﴾ إلى آخر

الألوسي ج ٨ ص ١٩٥ - ١٩٩

من أهل الذل والمراد بهم اليهود والنصارى، ولعمري أنه لا ينبغي أن يلتفت إليه.

وربما يتوهم أن المقام مقام التنزيه لا مقام الحمد لأنه يكون على الفعل الاختياري وبه ما ذكر من الصفات العدمية ويدفع بأنه لاق وصفه تعالى بما ذكر بكلمة التحميد لأنه يدل على نفي الإمكان المقتضى للاحتياج وإثبات أنه تعالى الواجب الوجود لذاته الغني عما سواه المحتاج إليه ما عداه فهو الجواد المعطي لكل قابل ما يستحق فهو تعالى المستحق للحمد دون غيره عز وجل، وهذا الذي عناه الزمخشري وقال في الكشف: لك أن تتخذ نفي هذه الصفات وهي ذرائع منع المعروف أما الولد فلأنه مبخلة، وأما الشريك فلأنه مانع من التصرف كيف يشاء، وأما الاحتياج إلى من يعتز به أو يذب عنه فأظهر رديفاً لإثبات أضدادها على سبيل الكناية وهو وجه حسن؛ ولو حمل الكلام على ظاهره أيضاً لكان له وجه ذلك لأن قول القائل الحمد لله فيه ما ينبىء أن الإلهية تقتضي الحمد فإذا قلت الحمد لله المنزه عن النقائص مثلاً يكون قد قويت معنى الإلهية المفهومة من اللفظ فيكون وصفاً لائقاً مؤيداً لاستحقاقه تعالى الحمد من غير نظر إلى مدخلية الوصف في الحمد بالاستقلال وهذا بين مكشوف إلا أن الزمخشري حاول أن ينبه على مكان الفائدة الزائدة اهـ.

وتعقب بأن ما ذكره من أن في الحمد لله ما ينبىء أن الإلهية تقتضي الحمد لا يتم على مذهب ما نعي الاشتقاق في الاسم الكريم وفيه تأمل. والآية على ما قال العلامة الطيبي من التقسيم الحاصر لأن المانع من إيتاء النعم إما فوقه سبحانه وتعالى أو دونه أو مثله عز وجل فبنى الكلام على الترقي وبدء من الأدون وختم بالأعلى فنفي الكل فمنه ولد الكثرة وله القل والدق والجل تعالى كبرياؤه وعظمت نعمائه، ولدلالة ما تقدم على أنه تعالى هو

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْذُ وَلَدًا﴾ رد على اليهود والنصارى وبني مليح حيث قالوا: عزيز ابن الله والمسيح ابن الله تعالى والملائكة بنات الله سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً، ونفى اتخاذ الولد ظاهر في نفي التبني ويعلم منه نفي أن يكون له سبحانه ولداً لصلب من باب أولى، وقد نفى ذلك صريحاً في قوله تعالى ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ﴾ [الإخلاص: ٣] ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ ظاهره أنه رد على الثنوية وهم المشركون في الربوبية، ويجوز أن يكون كناية عن نفي الشركة في الألوهية فيكون رداً على الوثنية ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ﴾ أي ناصر ومانع له سبحانه من الذل لا عزازته تعالى بنفسه فمن صلة لولي وضمن معنى المنع والنصر أو لم يوال تعالى أحداً من أجل مذلة فالولاية بمعنى المحبة على أصلها ومن تعليلية، وليس المعنى على الوجهين نفي الذل والنصر في الأول والموالة والذل في الثاني على أسلوب - لا يهتدي بمناره - بل المراد أنه تعالى إذا اتخذ عبداً له ولياً فذلك محض الاصطناع في شأن العبد لا أن هناك حاجة، وكذلك نصر الله تعالى كمال للناصر لا أن ثمة حاجة ألا ترى إلى قوله سبحانه: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾ [محمد: ٧] وإلى هذا ذهب صاحب الكشاف وهو حسن، وجعل ذلك على الوجهين الفاضل الطيبي من ذاك الأسلوب، وفي الحواشي الشهابية في بيان ثاني الوجهين أن المراد نفي أن يكون له تعالى مولى يلتجىء هو سبحانه إليه، وأما الولي الذي يوصف به المؤمن فليس الولاية فيه بهذا المعنى بل بمعنى من يتولى أمره لمحبتته له تفضلاً منه عز وجل ورحمة فغاير بين الولايتين، ولعل الحق مع صاحب الكشاف، ومن عجيب ما قيل إن ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ في موضع الصفة لولي ومن فيه للتبعيض وأن الكلام على حذف مضاف أي لم يكن له ولي

تَكْبِيرًا ﴿ ثُمَّ قَالَ - ﷺ: ما من مسلم يقرأها عند منامه ثم ينام وسط الشياطين والهوام فتضره هذا وما أَلُفَطِ المناسبة بين ابتداء هذه السورة، وهذا الختام وليس بدعا في كلام اللطيف العلام... .

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ فضلاً عن أن يكون له سبحانه ولد بطريق التولد ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ فلا مدخل لغيره تعالى في ملكية شيء على الحقيقة وما يوجد بسبب ليس السبب إلا آلة له ولا تملك الآلة شيئاً بل لا شيء إلا وهو صنعه تعالى على الحقيقة والسرير مثلاً وإن أضيف إلى النجار من حيث الصنعة إلا أنه في الحقيقة آلة كالقدوم ولا يضاف العمل إلى الآلة على الحقيقة كذا قيل، وللشيخ قدس سره كلام في هذا المقام يفصح عن بعض هذا ذكره في الباب الثامن والتسعين بعد المائة فارجع إليه وتدبر، وكذا له كلام في قوله سبحانه ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ لكن يغني عنه ما قدمناه ﴿ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا ﴾ قال بعضهم: تكبيره تعالى أن تعلم أنك لا تطيق أن تكبره إلا به، وقال ابن عطاء تكبيره عز وجل بتعظيم منته وإحسانه في القلب بالعلم بالتقصير في الشكر وكيف يوفي أحد شكره تعالى ونعمه جل وعلا لا تحصى وآلاؤه لا تستقصى، هذا وقد تم بفضل الله تعالى تفسير هذه السورة الكريمة.

الكامل وما عداه ناقص استحق التكبير ولذا عطف عليه قوله سبحانه ﴿ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا ﴾ والتكبير أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، وفي الأمر بذلك بعد ما تقدم مؤكداً بالمصدر المنكر من غير تعيين لما يعظم به تعالى إشارة إلى أنه مما لا تسعه العبارة ولا تفي به القوة البشرية وإن بالغ العبد في التنزيه والتمجيد واجتهد في العبادة والتحميد فلم يبق إلا الوقوف بأقدام المذلة في حضيض القصور والاعتراف بالعجز عن القيام بحقه جل وعلا وإن طالت القصور... .

وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب الفرج والبيهقي في الأسماء والصفات عن اسماعيل بن أبي فديك قال: قال رسول الله ﷺ: «ما كربني أمر إلا مثل لي جبريل عليه السلام فقال: يا محمد قل: توكلت على الحي الذي لا يموت والحمد لله الذي لم يتخذ ولداً». إلى آخر الآية، وأخرج ابن السني والديلمي عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ: وعليها أن النبي عليه الصلاة والسلام قال لها إذا أخذت مضجعك فقول: «الحمد لله الكافي سبحانه الله الأعلى حسبي الله وكفى ما شاء الله قضى سمع الله لمن دعا ليس من الله ملجأ ولا وراء الله ملتجى توكلت على ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها إن ربي على صراط مستقيم. ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ - إلى ﴿ وَكَبِيرَةٌ

القاسمي ج ١٠ ص ٣١١ - ٣١٢

واجبين. وأيضاً فإن لم يستقلا بالتأثير، لم يكن أحدهما إلهاً. وإن استقل أحدهما دون الآخر فذلك هو الإله دونه، فلا شريك له. وإن استقلا جميعاً، لزم اجتماع المؤثرين المستقلين على معلول واحد، إن فعلاً معاً، وإلا لزم إلهية أحدهما دون الآخر، رضي بفعله أو لم يرض. أفاده القاشاني.

﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ ﴾ أي ناصر من الذل ومانع له منه، لاعتزازه به. أو لم يوال أحداً من أجل مذلة به، ليدفعها بموالياته ﴿ وَكَبِيرَةٌ تَكْبِيرًا ﴾ أي عظمه عن أن يلحقه شيء من هذه النقائص تعظيماً جليلاً.

ثم بين سبحانه استحقاقه للحمد لاختصاصه بنعوت الكمال وصفات الجلال، بقوله تعالى ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ﴾ أي لم يكن علة لموجود من جنسه، لضرورة كون المعلول محتاجاً إليه، ممكناً بالذات، معدوماً بالحقيقة. فكيف يكون من جنس الموجود حقاً، الواجب بذاته من جميع الوجوه؟ ﴿ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ﴾ أي من يساويه في قوة القهر والمملكة من الشريك في الملك. وإلا لكانا مشتركين في وجوب الوجود والحقيقة. فامتياز كل واحد منهما عن الآخر، لا بد وأن يكون بأمر غير الحقيقة الواجبة. فلزم تركيبهما فكان كلاهما ممكنين

سيد قطب ج ٤ ص ٢٢٥٤

والنصير. وهو العلي الكبير، فيلخص هذا الختام محور
السورة الذي دارت عليه، والذي بدأت ثم ختمت به:

وتختتم السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته
[الله] بلا ولد ولا شريك، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ
كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا . فَلَعَلَّكَ بَلِّغْتَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ
لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾

(سورة الكهف، رقم ١٨، الآية ٤ - ٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٥	ص ١٢٨ - ١٣٠	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٩٤ - ٩٩
الزمخشري	ج ٢	ص ٤٧٢ - ٤٧٣	ابن كثير	ج ٢	ص ٧١ - ٧٢
الرازي	ج ٢١	ص ٧٧ - ٧٩	الجلالان		ص ٣٨١
الطبرسي	ج ١٥	ص ١١٥ - ١١٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٢٦٨ - ٢٧١
ابن عربي	ج ١	ص ٧٤١ - ٧٤٣	الآلوسي	ج ١٥	ص ٢٠٣ - ٢٠٦
البيضاوي	ج ٣	ص ٢١٥ - ٢١٦	القاسمي	ج ١١	ص ٤٠٢٣
الخازن	ج ٤	ص ١٩١	الطباطبائي	ج ١٣	ص ٢٣٥ - ٢٤٢
البغوي	ج ٣	ص ١١٩	جوهرى	ج ٩	ص ١٢١ - ١٨٣
الماوردي	ج ٣	ص ٢٨٣	المراغي	ج ١٥	ص ١١٣ - ١٢٠
القرطبي	ج ١٠	ص ٣٥٣	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٥٥ - ٢٢٥٨

الطبري ج ١٥ ص ١٢٨ - ١٣٠

ونعم الرجل رجلاً قام وكان بعض نحوي أهل البصرة يقول نصبت كلمة لأنها في معنى أكبر بها كلمة كما قال جل ثناؤه وساءت مرتفعاً وقال هي في النصب مثل قول الشاعر:

ولقد علمت إذا اللقاح تروّحت

هــجـ الرئال تكبهن شـمالا

أي تكبهن الرياح شمالاً فكانه قال كبرت تلك الكلمة وذكر عن بعض المكيين أنه كان يقرأ ذلك كبرت كلمة رفعا كما يقال عظم قولك وكبر شأنك وإذا قرئ ذلك كذلك لم يكن في قوله كبرت كلمة مضمر وكان صفة للكلمة والصواب من القراءة في ذلك عندي قراءة من قرأ كبرت كلمة نصباً لإجماع الحجة من القراءة عليها فتأويل الكلام عظمت الكلمة كلمة تخرج من أفواه هؤلاء القوم الذين قالوا اتخذ الله ولداً والملائكة بنات الله كما حدثنا ابن حميد . . عن ابن إسحاق كبرت كلمة تخرج من أفواههم قولهم إن الملائكة بنات الله وقوله أن يقولون إلا كذباً يقول عز ذكره ما يقول هؤلاء القائلون اتخذ الله ولداً بقليلهم ذلك إلا كذباً وقرية افتروها على الله . القول في تأويل قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ بَلِّغْتَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ يقول تعالى ذكره ويحذر أيضاً محمد القوم الذين قالوا اتخذ الله ولداً من مشركي قومه وغيرهم بأس الله وعاجل نقمته وأجل عذابه على قيلهم ذلك كما حدثنا ابن حميد . . عن ابن إسحاق وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً يعني قريشاً في قولهم إنما نعبد الملائكة وهن بنات الله وقولهم ما لهم به من علم يقول ما لقائلي هذا القول يعني قولهم اتخذ الله ولداً به يعني بالله من علم والهاء في قوله به من ذكر الله وإنما معنى الكلام ما لهؤلاء القائلين هذا القول بالله إنه لا يجوز أن يكون له ولد من علم فلجهلهم بالله وعظمته قالوا ذلك وقوله ولا لآبائهم يقول ولا لأسلافهم الذين مضوا قبلهم على مثل الذي هم عليه اليوم كان لهم بالله وبِعظمته علم .

وقوله كبرت كلمة تخرج من أفواههم اختلفت القراءة في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء المدنيين والكوفيين والبصريين كبرت كلمة بنصب كلمه بمعنى كبرت كلمتهم التي قالوها كلمة على التفسير كما يقال نعم رجلاً عمرو

الْحَدِيثِ أَشْفَاً﴾ يعني تعالى ذكره بذلك فلعلك يا محمد قاتل نفسك ومهلكها على آثار قومك الذين قالوا لك لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً تمرداً منهم على ربهم إن هم لم يؤمنوا بهذا الكتاب الذي أنزلته عليك فيصدقوا بأنه من عند الله حزناً وتلهفاً ووجداً بإدبارهم عنك وأعراضهم عما أتيهم به وتركهم الإيمان بك يقال منه بخع فلان نفسه يبخعها بخعاً وبخوعاً ومنه قول ذي الرمة:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه

لشيء نحتة عن يديه المقادر
يريد نحتة فخفف. وبنحو الذي قلنا في تأويل قوله باخع قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا بشر... عن قتادة فلعلك باخع نفسك يقول قاتل نفسك حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة مثله وأما قوله أسفاً فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله فقال بعضهم معناه فلعلك

باخع نفسك إن لم يؤمنوا بهذا الحديث غضباً ذكر من قال ذلك حدثنا بشر... عن قتادة إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً قال غضباً. وقال آخرون جزعاً ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله أسفاً قال جزعاً حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. وقال آخرون معناه حزناً عليهم ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله أسفاً قال حزناً عليهم وقد بينا معنى الأسف فيما مضى من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وهذه معاتبة من الله عز ذكره على وجده بمباعدة قومه إياه فيما دعاهم إليه من الإيمان بالله والبراءة من الآلهة والأنداد وكان بهم رحيماً. وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد... عن ابن إسحاق فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً يعاتبه على حزنه عليهم حين فاته ما كان يرجو منهم أي لا تفعل.

الرازي ج ٢١ ص ٧٧ - ٧٩

قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَدِيعُ خَلْقِ نَفْسِكَ عَلَى غَيْرِهِمْ إِنَّ لَكَ يَوْمَئِذٍ بِهَذَا الْحَدِيثِ أَشْفَاً﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن قوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ معطوف على قوله ﴿يُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِمَّنْ لَدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] والمعطوف يجب كونه مغايراً للمعطوف عليه فالأول عام في حق كل من استحق العذاب، والثاني خاص بمن أثبت لله ولداً، وعادة القرآن جارية بأنه إذا ذكر قضية كلية عطف عليها بعض جزئياتها تنبيهاً على كونه أعظم جزئيات ذلك الكلي كقوله تعالى ﴿وَمَلَكِكْتِهِمْ وَرُسُلِهِمْ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا ههنا العطف يدل على أن أقبح أنواع الكفر والمعصية إثبات الولد لله تعالى.

المسألة الثانية: الذين أثبتوا الولد لله تعالى ثلاث طوائف (أحدها) كفار العرب الذين قالوا للملائكة بنات

الله (وثانيها) النصارى حيث قالوا المسيح ابن الله (ثالثها) اليهود الذين قالوا عزير ابن الله، والكلام في أن إثبات الولد لله كفر عظيم ويلزم منه محالات عظيمة قد ذكرناه في سورة الأنعام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَحَرِّقُوا لَكُمْ بَيْنَ وَبَيْنِكُمْ يَغْيِرَ عِلْمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وتماهه مذكور في سورة مريم، ثم إنه تعالى أنكر على القائلين بإثبات الولد لله تعالى من وجهين (الأول) قوله ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ فإن قيل اتخاذه الله ولداً محال في نفسه فكيف قيل ما لهم به من علم؟ قلنا انتفاء العلم بالشيء قد يكون للجهل بالطريق الموصول إليه، وقد يكون لأنه في نفسه محال لا يمكن تعلق العلم به. ونظيره قوله ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ﴾ [المؤمنين: ١١٧]. واعلم أن نفاة القياس تمسكوا بهذه الآية فقالوا هذه الآية تدل على أن القول في الدين بغير علم باطل، والقول بالقياس الظني قول في الدين بغير علم فيكون باطلاً وتماهه تقريره مذكور في قوله ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [الإسراء: ٣٦] وقوله ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي ولا أحد من

منهم يقول ذلك، ولا يعلم كونه باطلاً، فعلمنا أن كل خبر لا يطابق المخبر عنه فهو كذب سواء علم القائل بكونه مطابقاً أو لم يعلم، ثم قال تعالى ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِّغْتَ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: المقصود منه أن يقال للرسول: لا يعظم حزنك وأسفك بسبب كفرهم فإننا بعثناك منذراً ومبشراً فأما تحصيل الإيمان في قلوبهم فلا قدرة لك عليه. والغرض تسلية الرسول ﷺ عنه.

البحث الثاني: قال الليث بخرع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً من شدة وجده بالشيء. وقال الأخفش والفراء أصل البخرع الجهد يقال بخرعت لك نفسي أي جهدتها، وفي حديث عائشة رضي الله عنها أنها ذكرت عمر فقالت بخرع الأرض أي جهدها حتى أخذ ما فيها من أموال الملوك. وقال الكسائي بخرعت الأرض بالزراعة إذا جعلتها ضعيفة بسبب متابعة الحراثة وبخرع الرجل نفسه إذا نهكها وعلى هذا معنى ﴿بَلِّغْ نَفْسَكَ﴾ أن ناهكها وجاهدها حتى تهلكها ولكن أهل التأويل كلهم قالوا قاتل نفسك ومهلكها والأصل ما ذكرناه، هكذا قال الواحدي.

البحث الثالث: قوله ﴿عَلَى آثَرِهِمْ﴾ أي من بعدهم يقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وأصل هذا أن الإنسان إذا مات بقيت علاماته وآثاره بعد موته مدة ثم إنها تنمحى وتبطل بالكلية فإذا كان موته قريباً من موت الأول كان موته حاصلاً حال بقاء آثار الأول فصح أن يقال مات فلان على أثر فلان.

البحث الرابع: قوله ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ المراد بالحديث القرآن قال القاضي وهذا يقتضي وصف القرآن بأنه حديث وذلك يدل على فساد قول من يقول إنه قديم وجوابه أنه محمول على الألفاظ وهي حادثة.

البحث الخامس: قوله ﴿أَسَفًا﴾ الأسف المبالغة في الحزن وذكرنا الكلام فيه عند قوله ﴿غَضَبْنَاهُ أَسَفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] في سورة الأعراف وعند قوله ﴿يَتَأَسَفُونَ عَلَى يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٤] وفي انتصابه وجوه (الأول) أنه نصب على المصدر ودل ما قبله من الكلام على أنه يأسف (الثاني) يجوز أن يكون مفعولاً له أي للأسف كقولك

أسلافهم، وهذا مبالغة في كون تلك المقالة باطلة فاسدة (النوع الثاني) مما ذكره الله في إبطاله قوله ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ وفيه مباحث:

البحث الأول: قرئ ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ بالنصب على التمييز وبالرفع على الفاعلية، قال الواحدي ومعنى التمييز أنك إذا قلت كبرت المقالة أو الكلمة جاز أن يتوهم أنها كبرت كذباً أو جهلاً أو افتراء فلما قلت كلمة ميزتها من محتملاتها فانتصبت على التمييز والتقدير كبرت الكلمة كلمة فحصل فيه الإضمار، أما من رفع فلم يضم شيئاً كما تقول عظم فلان فلذلك قال النحويون والنصب أقوى وأبلغ، وفيه معنى التعجب كأنه قيل ما أكبرها كلمة.

البحث الثاني: قوله ﴿كَبُرَتْ﴾ أي كبرت الكلمة. والمراد من هذه الكلمة ما حكاها الله تعالى عنهم في قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فصارت مضمرة في كبرت وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة.

البحث الثالث: احتج النظام في إثبات قوله: إن الكلام جسم بهذه الآية قال إنه تعالى وصف الكلمة بأنها تخرج من أفواههم والخروج عبارة عن الحركة؛ والحركة لا تصح إلا على الأجسام. والجواب أن الحروف إنما تحدث بسبب خروج النفس عن الحلق، فلما كان خرج النفس سبباً لحدوث الكلمة أطلق لفظ الخروج على الكلمة.

البحث الرابع: قوله ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ يدل على أن هذا الكلام مستكره جداً عند العقل؛ كأنه يقول هذا الذي يقولونه لا يحكم به عقلهم وفكرهم البتة لكونه في غاية الفساد والبطلان، فكأنه شيء يجري به لسانهم على سبيل التقليد، لأنهم مع أنها قولهم عقولهم وفكرهم تأبأها وتنفر عنها ثم قال تعالى ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ ومعناه ظاهر، واعلم أن الناس قد اختلفوا في حقيقة الكذب. فعندنا أنه الخبر الذي لا يطابق المخبر عنه سواء اعتقد المخبر أنه مطابق أم لا؟ ومن الناس من قال شرط كونه كذباً أن لا يطابق المخبر عنه مع علم قائله بأنه غير مطابق، وهذا القيد عندنا باطل، والدليل عليه هذه الآية فإنه تعالى وصف قولهم بإثبات الولد لله بكونه كذباً، مع أن الكثير

البحث السادس: الفاء في قوله ﴿فَلَعَلَّكَ﴾ جواب الشرط وهو قوله ﴿إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ قدم عليه ومعناه التأخير.

جنتك ابتغاء الخير (والثالث) قال الزجاج (أسفاً) منصوب لأنه مصدر في موضع الحال.

ابن عربي ج ١ ص ٧٤١ - ٧٤٣

المماثل لوالده في النوع، المكافئ له في القوة، والشهود الذاتي يحكم بفناء الخلق في الحق، والمعلول في المشهود، فلم يكن ثم سواه شيء غيره فضلاً عن الشبيه والولد، كما قال أحدهم:

هذا الوجود وإن تكثر ظاهراً

وحياتكم ما فيه إلا أنتم

﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ لتطابق الدليل العقلي، والوجدان الذوقي الشهودي على إحالته ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ﴾ أي، مهلك ﴿نَفْسَكَ﴾ من شدة الوجد والأسف على توليهم وإعراضهم، وذلك لأن الشفقة على خلق الله والرحمة عليهم، من لوازم محبة الله ونتائجه.

ولما كان ﷺ حبيب الله، ومن لوازم محبوبيته محبته لله، لقوله: «يحبهم ويحبونه» وكلما كانت محبته للحق أقوى كانت شفقتة ورحمته على خلقه أكثر، لكون الشفقة عليهم ظل محبته لله اشتدّ تعطفه عليهم، فإنهم كأولاده وأقاربه، بل كأعضائه وجوارحه في الشهود الحقيقي، فلذلك بالغ في التأسف عليهم حتى كاد يهلك نفسه، وأيضاً علم أن المحب إذا تقوى بالمحسوب في استمرار الوصل ظهر قبوله في القلوب، لمحبة الله إياه.

واعلم أن الإنذار والتبشير للذين هما من باب التكميل اللازم لكونه قِيَمًا عليهم، كلاهما أثر ونتيجة عن صفتي القهر واللفظ الإلهيين، اللذين محل استعداد قبولهما من نفس العبد، الغضب والشهوة، فإن العبد ما استعد لقبولهما إلا بصفتي الغضب والشهوة وفنائهما، كما لم يستعد لفضيلتي الشجاعة والعفة إلا بوجودهما، فلما انتفتا قامت مقامهما، لأن كلاً منهما ظلّ لواحدة من تينك، يزول بحصولها، فعند إرتواء القلب منهما، وكمال التخلق بهما، حدث عن القهر الإنذار عند استحقاقية المحل بالكفر والشرك، وعن اللطف التبشير باستحقاقية الإيمان والعمل الصالح، إذ الإفاضة لا تكون إلا عند استحقاق المحل.

﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ أي، ما لهم بهذا القول من علم، بل إنما يصدر عن جهل مفرط وتقليد للآباء لا عن علم ويقين، ويؤيده قوله: ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ﴾ أي، ما أكبرها كلمة ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ ليس في قلوبهم من معناه شيء، لأنه مستحيل لا معنى له، إذا العلم اليقيني يشهد أن الوجود الواجبي العلي أحدي الذات، لا يماثل الوجود الممكن المعلول، والولد هو

البيضاوي ج ٣ ص ٢١٥ - ٢١٦

لما فيها من التشبيه والتشريك وإيهام احتياجه تعالى إلى ولد يعينه ويخلفه إلى غير ذلك من الزيغ وكلمة نصب على التمييز وقرئ بالرفع على الفاعلية والأول أبلغ وأدل على المقصود ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة لها تقيد استعظام اجترائهم على إخراجها من أفواههم والخارج بالذات هو الهواء الحامل لها وقيل صفة محذوف هو المخصوص بالذم لأن كبر ههنا بمعنى بش وقرئ كبرت بالسكون مع الأشمام ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾. ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسَكَ﴾ قاتلها ﴿عَلَىٰ آثَرِهِمْ﴾ إذا ولوا عن الإيمان شبهه لما

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ خصهم بالذكر وكرر الإنذار متعلقاً بهم استعظماً لكفرهم وإنما لم يذكر المنذر به استغناء بتقدم ذكره ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد أو باتخاذ أو بالقول والمعنى أنهم يقولونه عن جهل مفرط وتوهم كاذب أو تقليد لما سمعوه من أوائلهم من غير علم بالمعنى الذي أرادوا به فإنهم كانوا يطلقون الآب والابن بمعنى المؤثر والأثر أو بالله إذ لو علموه لما جوزوا نسبة الاتخاذ إليه ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين تقولوه بمعنى التبني ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةٌ﴾ عظمت مقالاتهم هذه في الكفر

القرآن ﴿أَسْفَا﴾ للتأسف عليهم أو متأسفاً عليهم والأسف فرط الحزن والغضب وقرىء أن بالفتح على لان فلا يجوز أعمال باخع إلا إذا جعل حكاية حال ماضية.

يداخله من الوجد على توليهم بمن فارقت أعزته فهو يتحسر على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وقرىء باخع نفسك على الإضافة ﴿إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا يَهَدُوا لَهَذَا الْحَدِيثِ﴾ بهذا

أبو حيان الأندلسي ج ٦ ص ٩٤ - ٩٩

محال لا يستقيم تعلق العلم به انتهى. ولا لأبائهم معطوف على لهم وهم من تقدم من أسلافهم الذين ذهبوا إلى هذه المقالة السخيفة بل من قال ذلك إنما قاله عن جهل وتقليد وذكر الآباء لأن تلك المقالة قد أخذوها عنهم وتلقفوها منهم. وقرأ الجمهور كلمة بالنصب والظاهر انتصابها على التمييز وفاعل كبرت مضمر يعود على المقالة المفهومة من قوله قالوا اتخذ الله ولداً وفي ذلك معنى التعجب أي ما أكبرها كلمة والجملة بعدها صفة لها تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان في القلوب ويحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر فكيف بمثل هذا المنكر وسميت كلمة كما يسمون القصيدة كلمة. وقال ابن عطية وهذه المقالة هي قائمة في النفس معنى واحداً فيحسن أن تسمى كلمة وقال أيضاً وقرأ الجمهور بنصب الكلمة كما تقول نعم رجلاً زيد وفسر بالكلمة ووصفها بالخروج من أفواههم فقال بعضها نصبها على التفسير على حد نصب قوله تعالى وساء مرتفقاً. وقالت فرقة نصبها على الحال أي كبرت فريتهم ونحو هذا انتهى فعلى قوله كما تقول نعم رجلاً زيد يكون المخصوص بالذم محذوفاً لأنه جعل تخرج صفة للكلمة والتقدير كبرت كلمة خارجة من أفواههم تلك المقالة التي فاهوا بها وهي مقالتهم اتخذ الله ولداً والضمير في كبرت ليس عائداً على ما قبله بل هو مضمر يفسره ما بعده وهو التمييز على مذهب البصريين ويجوز أن يكون المخصوص بالذم محذوفاً وتخرج صفة له أي كبرت كلمة تخرج من أفواههم. وقال أبو عبيدة نصب على التعجب أي أكبر بها كلمة أي من كلمة. وقرىء كبرت بسكون الباء وهي في لغة تميم. وقرأ الحسن وابن يعمر وابن محيصن والقواس عن ابن كثير بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ في المعنى

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا. فَلَعَلَّكَ بَدِخْتُ نَفْسَكَ عَلَى آثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا يَهَدُوا لَهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

وقرىء ويشير بالرفع والجمهور بالنصب عطفاً على لينذر والأجر الحسن الجنة ولما كنى عن الجنة بقوله أجزاً حسناً قال ما كثر في أي مقيمين فيه فجعله ظرفاً لاقامتهم ولما كان المكث لا يقتضي التأييد قال أبداً وهو ظرف دال على زمن غير متناه وانتصب ما كثرين على الحال وذو الحال وهو الضمير في لهم والذين نسبوا الولد إلى الله تعالى بعض اليهود في عزيز وبعض النصارى في المسيح وبعض العرب في الملائكة والضمير في به الظاهر أنه عائد على الولد الذي ادعوه. قال المهدوي فتكون الجملة صفة للولد. قال ابن عطية وهذا معترض لأنه لا يصفه إلا القائل وهم ليس قصدهم أن يصفوه والصواب عندي أنه نفي مؤتلف أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك ولا موضع للجملة من الإعراب ويحتمل أن يعود على الله تعالى وهذا التأويل أذم لهم وأقضى في الجهل التام عليهم وهو قول الطبري انتهى. قيل والمعنى ما لهم بالله من علم فيتزهره عما لا يجوز عليه ويحتمل أن يعود على القول المفهوم من قالوا أي ما لهم بقولهم هذا من علم فالجملة في موضع الحال أي قالوا جاهلين من غير فكر ولا روية ولا نظر في ما يجوز ويمتنع. وقيل يعود على الاتخاذ المفهوم من اتخذ أي ما لهم بحكمة الاتخاذ من علم إذ لا يتخذ إلا من هو عاجز مقهور يحتاج إلى معين يشد به عضده وهذا مستحيل على الله. قال الزمخشري اتخذ ولداً في نفسه محال فكيف قيل ما لهم به من علم (قلت) معناه ما لهم به من علم لأنه ليس مما يعلم لاستحالته وانتفاء العلم بالشيء إما للجهل بالطريق الموصل إليه وإما لأنه في نفسه

وأقوى وإن نافية أي ما يقولون وكذباً نعت لمصدر محذوف أي قولاً كذباً. فلعلك باخع لعل للترجي في المحبوب وللإشفاق في المحذور. وقال العسكري فيها هنا هي موضوعة موضع النهي يعني أن المعنى لا تبخع نفسك. وقيل وضعت موضع الاستفهام تقديره هل أنت باخع نفسك. وقال ابن عطية تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه أي لا تكن كذلك. وقال الزمخشري شبهه وإياهم حين تولوا عنه ولم يؤمنوا به وما تداخله من الوجد والأسف على توليهم برجل فارقتة أحبته وأعزته فهو يتساقط حسرات على آثارهم ويبخع نفسه وجداً عليهم وتلهفاً على فراقهم انتهى وتكون لعل للاستفهام قول كوفي والذي يظهر أنها للإشفاق أشفق أن يبخع الرسول ﷺ نفسه لكونهم لم يؤمنوا وقوله على آثارهم استعارة فصيحة من حيث لهم إدار وتباعد عن الإيمان وإعراض عن الشرع فكأنهم من فرط إدارهم قد بعدوا فهو في إدارهم يحزن عليهم ومعنى على آثارهم من بعدهم أي بعد يأسك من إيمانهم أو بعد موتهم على الكفر ويقال مات فلان على أثر فلان أي بعده وقرئ باخع نفسك بالاضافة. وقرأ الجمهور باخع بالتثنية نفسك بالنصب. قال الزمخشري على الأصل يعني أن اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل فالأصل أن يعمل وقد أشار إلى ذلك سيبويه في كتابه. وقال الكسائي العمل والإضافة سواء وقد ذهبنا إلى أن الإضافة أحسن من العمل بما قررناه في ما وضعنا في علم

النحو. وقرئ إن لم يؤمنوا بكسر الميم وفتحها فمن كسر. فقال الزمخشري هو يعني اسم الفاعل للاستقبال ومن فتح فللمضي يعني حالة الإضافة أي لأن لم يؤمنوا والإشارة بهذا الحديث إلى القرآن قال تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً. وأسفاً قال مجاهد جزءاً. وقال قتادة غضباً وعنه أيضاً حزناً. وقال السدي ندماً وتحسراً. وقال الزجاج الأسف المبالغة في الحزن والغضب. وقال منذر بن سعيد الأسف هنا الحزن لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الأسف ولو كان الأسف من مقتدر على من هو في قبضته وملكه كان غضباً كقوله تعالى ﴿فَلَمَّا أَصْفَوْنَا بَنَقَمْنَا مِنْهُمُ﴾ [الزخرف: ٥٥] أي أغضبونا. قال ابن عطية وإذا تأملت هذا في كلام العرب اطرده انتهى. وانتصاب أسفاً على أنه مفعول من أجله أو على أنه مصدر في موضع الحال وارتباط قوله إنا جعلنا الآية بما قبلها هو على سبيل التسلية للرسول ﷺ لأنه تعالى أخبر أنه خلق ما على الأرض من الزينة للابتلاء والاختبار أي الناس أحسن عملاً فليسوا على نمط واحد في الاستقامة واتباع الرسل بل لا بد أن يكون فيهم من هو أحسن عملاً ومن هو أسوأ عملاً فلا تغتم وتحزن على من فضلت عليه بأنه يكون أسوأ عملاً ومع كونهم يكفرون بي لا أقطع عنهم مواد هذه النعم التي خلقتها وجعلنا هنا بمعنى خلقنا والظاهر أن ما يراد بها غير العاقل وأنه يراد به العموم فيما لا يعقل.

ابن كثير ج ٣ ص ٧١ - ٧٢

واستعظام لإفكهم ولهذا قال ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ أي ليس لها مستند سوى قولهم ولا دليل لهم عليها إلا كذبهم وافتراؤهم ولهذا قال ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ وقد ذكر محمد بن إسحق سبب نزول هذه السورة الكريمة... عن ابن عباس قال: بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة فقالوا لهم سلوهم عن محمد وصفوا لهم صفته

وقوله ﴿وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال ابن إسحاق وهم مشركو العرب في قولهم نحن نعبد الملائكة وهم بنات الله ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بهذا القول الذي افتروه وانتفكوه ﴿وَلَا يَلْبِأُ بِهِمْ﴾ أي لأسلافهم ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز تقديره كبرت كلمتهم هذه. وقيل على التعجب تقديره أعظم بكلمتهم كلمة كما تقول أكرم بزيد رجلاً قاله بعض البصريين، وقرأ ذلك بعض قراء مكة كبرت كلمة كما يقال عظم قولك وكبر شأنك، والمعنى على قراءة الجمهور أظهر فإن هذا تبشيع لمقاتلتهم

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ وهم اليهود والنصارى وبعض كفار قريش، القائلون بأن الملائكة بنات الله، فذكر سبحانه أولاً قضية كلية، وهي إنذار عموم الكفار، ثم عطف عليها قضية خاصة هي بعض جزئيات تلك الكلية، تنبيهاً على كونها أعظم جزئيات تلك الكلية. فأفاد ذلك أن نسبة الولد إلى الله سبحانه أقبح أنواع الكفر ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بالولد، أو اتخاذه الله إياه، ومن مزيدة لتأكيد النفي، والجملة في محل نصب على الحال أو هي مستأنفة، والمعنى: ما لهم بذلك علم أصلاً ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ علم، بل كانوا في زعمهم هذا على ضلالة، وقلدهم أبناؤهم فضلوا جميعاً ﴿كَثُرَتْ كَلِمَةُ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ انتصاب كلمة على التمييز، وقرئ بالرفع على

الرجل نفسه إذا نهكها. وقال أبو عبيدة: معناه مهلك نفسك، ومنه قول ذي الرمة:

* ألا أيها ذا الباخع الوجد نفسه *

فيكون المعنى على هذه الأقوال لعلك مجهد نفسك أو مضعفها أو مهلكها ﴿عَلَيْكُمْ أَثَرُهُمْ﴾ على فراقهم ومن بعد توليهم وإعراضهم ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ أي القرآن وجواب الشرط محذوف دل عليه ما قبله. وقرئ بفتح أن: أي لأن لم يؤمنوا ﴿أَسْفًا﴾ أي غيظاً وحزناً وهو مفعول له أو مصدر في موضع الحال . . .

﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ قال: هم اليهود والنصارى وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: اجتمع عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل والنضر بن

الحارث وأمّية ابن خلف والعاص بن وائل والأسود بن عبد المطلب وأبو البحتري في نفر من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه، وإنكارهم ما جاء به من النصيحة، فأحزنه حزناً شديداً، فأنزل الله سبحانه ﴿فَلَمَّا كَبُرَ بَعْجُ نَفْسِكَ﴾. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه ﴿بَعْجُ نَفْسِكَ﴾ يقول: قاتل نفسك وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد مثله. وأخرج ابن أبي حاتم عن السدي مثله. وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد ﴿أَسْفًا﴾ قال: وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَسْفًا﴾ قال: جزعاً. وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن قتادة ﴿أَسْفًا﴾ قال: حزناً.

الألوسي ج ١٥ ص ٢٠٣-٢٠٦

العباد فيعم المؤمنين أيضاً، وتعقب بأن التعميم يقتضي حمل الإنذار على معنى مجرد الإخبار بالأمر الضار من غير اعتبار حلول المنذر به على المنذر كما في قوله تعالى: ﴿أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [يونس: ٢] وهو يفضي إلى خلو النظم الكريم عن الدلالة على حلول البأس الشديد على من عدا هذه الفرقة فتأمل.

﴿مَّا لَهُمْ بِهِ﴾ أي باتخاذ سبحانه وتعالى ولداً ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ مرفوع المحل على الابتداء أو الفاعلية لاعتماد الظرف، ومن مزيدة لتأكيد النفي والجملة حالية أو مستأنفة لبيان حالهم في مقالهم أي ما لهم بذلك شيء من العلم أصلاً لا لإخلالهم بطريق العلم مع تحقق المعلوم أو إمكانه بل لاستحالته في نفسه ومعها لا يستقيم تعلق العلم، واستظهر كون ضمير (به) عائداً على الولد وعدم العلم وكذا حال الجملة على ما سمعت، وزعم المهدي أن الجملة على هذا صفة لولداً وليس بشيء، وجوز أن يعود على القول المفهوم من ﴿قَالُوا﴾ أي ليس قولهم ذلك ناشئاً عن علم وتذكر ونظر فيما يجوز عليه تعالى وما يمتنع، وقال الطبري: هو عائذ على الله تعالى على معنى ليس لهم علم بما يجوز عليه تعالى وما يمتنع ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾ الذين قالوا مثل ذلك ناسبين التنبئ إليه عز

وتكرير الإنذار بقوله تعالى ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ متعلقاً بفرقة خاصة ممن عمه الإنذار السابق من مستحقي البأس الشديد للإيدان بكمال فظاعة حالهم لغاية شناعة كفرهم وضلالهم كما ينيء عنه ما بعد أي وينذر من بين هؤلاء الكفرة المتفوهين بمثل هاتيك العظيمة خاصة وهم العرب القائلون الملائكة بنات الله تعالى واليهود القائلون عزيز ابن الله سبحانه والنصارى القائلون المسيح ابن الله عز وجل، وترك إجراء الموصول على الموصوف كما في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٩] الخ للإيدان بكفاية ما في حيز الصلة في الكفر على أقبح الوجوه؛ وإيثار صيغة الماضي في الصلة للدلالة على تحقق صدور تلك الكلمة القبيحة عنهم فيما سبق، وجعل بعضهم المفعول المحذوف فيما سلف عبارة عن هذه الطائفة، وفي الآية صنعة الاحتباك حيث حذف من الأول ما ذكر فيما بعد وهو المنذر وحذف مما بعد ما ذكر في الأول وهو المنذر به. وتعقب بأنه يؤدي إلى خروج سائر أصناف الكفر عن الإنذار والوعيد.

وأجيب بأنه يعلم إنذار سائر الأصناف ودخولهم في الوعيد من باب الأولى لأن القول بالتبني وإن كبر كلمة دون الإشراك وفيه نظر، وقدر ابن عطية العالم وأبو البقاء

وجل، والتعرض لنفي العلم عنهم لأنهم قدوة هؤلاء ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾ أي عظمت مقالته هذه في الكفر والافتراء لما فيها من نسبته تعالى إلى ما لا يكاد يليق بكبريائه جل وعلا، وكبر وكذا كل ما كان على وزن فعل موضوعاً على الضم كظرف أو محولاً إليه من فعل أو فعل ذهب لأخفش. والمبرد إلى إلحاقه بباب التعجب فالفاعل هنا ضمير يرجع إلى قوله تعالى: ﴿أَنفَكَذَ﴾ الخ بتأويل المقالة، و ﴿كَلِمَةً﴾ نصب على التمييز وكأنه قيل ما أكبرها كلمة وقوله تعالى ﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ﴾ صفة ﴿كَلِمَةً﴾ تفيد استعظام اجترائهم على النطق بها وإخراجها من أفواههم فإن كثيراً مما يوسوس به الشيطان وتحدث به النفس لا يمكن أن يتفوه به بل يصرف عنه الفكر فكيف بمثل هذا المنكر. وذهب الفارسي وأكثر النحاة إلى إلحاقه بباب نعم وبئس فيثبت له جميع أحكامه ككون فاعله معرفاً بال أو مضافاً إلى معرف بها أو ضميراً مفسراً بالتمييز، ومن هنا جَوَزَ أن يكون الفاعل هنا ضمير ﴿كَلِمَةً﴾ وهي أيضاً تمييز والجملة صفتها ولا ضمير في وصف التمييز في باب نعم وبئس، وجَوَزَ أبو حيان وغيره أن تكون صفة لمحذوف هو المخصوص بالذم أي كبرت كلمة كلمة خارجة من أفواههم، وظاهر كلام الأخفش تغاير المذهبيين. وفي التسهيل أنه من باب نعم وبئس وفيه معنى التعجب. والمراد به هنا تعظيم الأمر في قلوب السامعين. وهذا ظاهر في أنه لا تغاير بينهما وإليه يميل كلام بعض الأئمة. وقيل نصبت على الحال ولا يخفى حاله. وتسمية ذلك كلمة على حد تسمية القصيدة بها. وقرئ (كبرت) بسكون الباء وهي لغة تميم، وجاء في نحو هذا الفعل ضم العين وتسكينها ونقل حركتها إلى الفاء وقرأ الحسن. وابن يعمر وابن محيصن. والقواس عن ابن كثير ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع على الفاعلية والنصب أبلغ وأؤكد واستدل النظام على أن الكلام جسم بهذه الآية لوصفه فيها بالخروج الذي هو من خواص الأجسام. وأجيب بأن الخارج حقيقة هو الهواء الحامل له وإسناده إلى الكلام الذي هو كيفية مجاز وتعقب بأن النظام القائل بجسمية الكلام يقول هو الهواء المكيف لا الكيفية.

واستدلالة على ذلك مبني على أن الأصل هو الحقيقة إلا أن الخلاف لفظي لا ثمره فيه ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ أي ما يقولون في ذلك الشأن إلا قولاً كذباً لا يكاد يدخل تحت إمكان الصدق أصلاً والضمير أن لهم ولآبائهم ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِغٌ﴾ أي قاتل ﴿نَفْسَكَ﴾ وفي معناه ما في صحيح البخاري مهلك والأول مروى عن مجاهد. والسدي. وابن جبير. وابن عباس. وأنشد لابن الأزرقي إذ سأله قول لبيد بن ربيعة:

لعلك يوماً إن فقدت مزارها

على بعده يوماً لنفسك باخع
وفي البحر عن الليث بخع الرجل نفسه بخعاً وبخوعاً
قتلها من شدة الوجد وأنشد قول الفرزدق:

ألا أيهذا الباخع الوجد نفسه

لشيء نحتته عن يديه المقادر
وهو من بخع الأرض بالزراعة أي جعلها ضعيفة بسبب متابعة الزراعة كما قال الكسائي، وذكر الزمخشري أن البخع أن يبلغ الذبح البخاع بالياء وهو عرق مستبطن القفا، وقد رده ابن الأثير وغيره بأنه لم يوجد في كتب اللغة والتشريح لكن الزمخشري ثقة في هذا الباب واسع الاطلاع، وقرئ ﴿بَلِغٌ نَفْسَكَ﴾ بالإضافة وهي خلاف الأصل في اسم الفاعل إذا استوفى شروط العمل عند الزمخشري، وأشار إليه سيبويه في الكتاب.

وقال الكسائي: العمل والإضافة سواء، وزعم أبو حيان أن الإضافة أحسن من العمل ﴿عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾ أي من بعدهم. يعني من بعد توليهم عن الإيمان وتباعدهم عنه. أخرج ابن مردويه عن ابن عباس أن عتبة ابن ربيعة. وشيبة بن ربيعة. وأبا جهل بن هشام. والنضر بن الحرث. وأمّية بن خلف. والعاصي بن وائل. والأسود بن المطلب. وأبا البخخري في نفر من قريش اجتمعوا. وكان رسول الله ﷺ قد كبر عليه ما يرى من خلاف قومه إياه وإنكارهم ما جاء به من النصيحة فأحزنه حزناً شديداً فأنزل الله تعالى: ﴿فَلَعَلَّكَ بَلِغٌ﴾ الخ، ومنه يعلم أن ما ذكرنا أوفق بسبب النزول من كون المراد من بعد موتهم على الكفر.

﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾ الجليل الشأن، وهو

لكل منهما على الانفراد، وحقيقته ثوران دم القلب شهوة الانتقام فمتى كان على من دونه انتشر فصار غضباً ومتى كان على ما فوقه انقبض فصار حزناً، ولذلك سئل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن الحزن والغضب فقال: مخرجهما واحد واللفظ مختلف فمن نازع من يقوى عليه أظهره غيظاً وغضباً ومن نازع من لا يقوى عليه أظهره حزناً وجزعاً، وبهذا النظر قال الشاعر:

فحزن كل أخى حزن أخو الغضب.

وإلى كون الأسف أعم من الحزن والغضب وكون الحزن على من لا يملك ولا هو تحت يد الأسف والغضب على من هو في قبضته وملكه ذهب منذ بن سعد وفسر الأسف هنا بالحزن بخلافه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا اَنْتَقِمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥] وإذا استعمل الأسف مع الغضب يراد به الحزن على ما قيل في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ اَسِفًا﴾ [الأعراف: ١٥٠] وجعل كل منهما فيه بالنسبة إلى بعض من القوم، وعن قتادة تفسير الأسف هنا بالغضب، وفي رواية أخرى بالحزن، وفي صحيح البخاري تفسيره بالندم. وعن مجاهد تفسيره بالجزع، وأهل الحزن أكثر، ولعل للترجي وهو الطمع في الوقوع أو الإشفاق منه، وهي هنا استعارة أي وصلت إلى حالة يتوقع منك الناس ذلك لما يشاهد من تأسفك على عدم إيمانهم.

وقال العسكري: هي هنا موضوعة موضع النهي كأنه قيل لا تبخع نفسك، وقيل موضع الاستفهام، وجعله ابن عطية إنكارياً على معنى لا تكن كذلك، والقول بمجيء لعل للاستفهام قول كوفي، والذي يظهر أنها هنا للإشفاق الذي يقصد به التسلي والحث على ترك التحنن والتأسف، ويمكن أن يكون مراد العسكري ذلك، وفي الآية عند غير واحد استعارة تمثيلية وذلك أنه مثل حاله ﷺ في شدة الوجد على إعراض القوم وتوليهم عن الإيمان بالقرآن وكمال الحزن عليهم بحال من يتوقع منه إهلاك نفسه إثر فوت ما يحبه عند مفارقة أحبه تأسفاً على مفارقتهم وتلهفاً على مهاجرتهم ثم قيل ما قيل، وهو أولى من اعتبار الاستعارة المفردة التبعية في الأطراف.

القرآن المعبر عنه في صدر السورة بالكتاب، ووصفه بذلك لو سلم دلالته على الحدوث لا يضر الأشاعرة وإضرابهم القائلين: بأن الألفاظ حادثة، وإن شرطية، والجملة بعدها فعل الشرط، والجواب محذوف ثقة بدلالة ما سبق عليه عند الجمهور، وقيل الجواب فلعلك الخ المذكور، وهو مقدم لفظاً مؤخر معنى، والفاء فيه فاء الجواب، وقرئ ﴿إِنْ لَّمْ يُؤْمِنُوا﴾ بفتح همزة أن على تقدير الجار أي لأن، وهو متعلق ببإخاع على أنه علة له. وزعم غير واحد أنه لا يجوز أعماله على هذا إذ هو اسم فاعل وعمله مشروط بكونه للحال أو الاستقبال، ولا يعمل وهو للمضي، وإن الشرطية تقلب الماضي بواسطة ﴿لَّمْ﴾ إلى الاستقبال بخلاف أن المصدرية فإنها تدخل على الماضي الباقي على مضيه إلا إذا حمل على حكاية الحال الماضية لاستحضار الصورة للغربة.

وتعقبه بعض الأجلة بأنه لا يلزم من مضى ما كان علة لشيء مضيه، فكم من حزن مستقبل على أمر ماضي سواء استمر أولاً فإذا استمر فهو أولى لأنه أشد نكايه فلا حاجة إلى الحمل على حكاية الحال. ووجه ذلك في الكشف بأنه إذا كانت علة البخع عدم الإيمان فإن كانت العلة قد تمت فالمعلول كذلك ضرورة تحقق المعلول عند العلة التامة، وإن كانت بعد فكمثل ضرورة أنه لا يتحقق بدون تمامها، وتعقب بأنه غير مسلم، لأن هذه ليست علة تامة حقيقية حتى يلزم ما ذكر، وإنما هي منشأ وباعث فلا يضر تقدمها، وقيل إنه تفوت المبالغة حيثئذ في وجده ﷺ على توليهم لعدم كون البخع عقبه بل بعده بمدة بخلاف ما إذا كان للحكاية، وتعقب أيضاً بأنه لا وجه له بل المبالغة في هذا أقوى لأنه إذا صدر منه لأمر مضى فكيف لو استمر أو تجدد؟ ولعل في الآية ما يرجح له البقاء على الاستقبال فتدبر، وانتصاب قوله تعالى ﴿اَسَفًا﴾ ببإخاع على أنه مفعول من أجله وجوز أن يكون حالاً من الضمير فيه بتأويل متأسفاً لأن الأصل في الحال الاشتقاق وأن ينتصب على أنه مصدر فعل مقدر أي تأسف أسفاً، والأسف على ما نقل عن الزجاج المبالغة في الحزن والغضب.

وقال الراغب: الأسف الحزن والغضب معاً وقد يقال

حرصه على الأمر بمن يريد قتل نفسه لفوات أمر وهو كما ترى .

وجوز أن تكون من باب التشبيه للذكر طرفيه وهما النبي ﷺ وبائع بأن يشبه عليه الصلاة والسلام لشدة

سيد قطب ج ٤ ص ٢٢٥٧ - ٢٢٥٨

[الكهف: ١٩].

وفي ثنايا القصة إنكار على من يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْتُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٢٢].

وفي قصة موسى مع العبد الصالح عندما يكشف له عن سر تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: ﴿ رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُمْ عَنْ أَمْرِي ﴾ [الكهف: ٨٢] فيكل الأمر فيها لله . . .

أما تصحيح منهج الفكر والنظر فيتجلى في استنكار دعاوي المشركين الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان. وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعدها، وما لا علم له به فليدع أمره إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿ وَنَذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا. مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ﴾.

والفتية أصحاب الكهف يقولون: ﴿ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ آلِهَةً لَّا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ ﴾ [الكهف: ١٥] وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف يكلون علمها الله: ﴿ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ ﴾

﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا . فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا . قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا . قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا . قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا . قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَى هَيْنٌ وَلَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا . ﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنَاحِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا . فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحِيَّكَ سَرِيًّا . وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُطُ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا . فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا . فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرُؤٌ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا . يَتَأَخَتِ هَذُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا . فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْهِدِ صَبِيًّا . قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا . ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ . مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾

(سورة مريم، رقم ١٩، الآية ١٦ - ٣٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٦	ص ٤٥ - ٦٤	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ١٧٧ - ١٩١
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٠٤ - ٥٠٩	ابن كثير	ج ٣	ص ١١٤ - ١٢١
الرازي	ج ٢١	ص ١٩٥ - ٢٢٠	الجلالان		ص ٣٩٧ - ٣٩٩
الطبرسي	ج ١٦	ص ٢٠ - ٣٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٣٢٧ - ٣٣٥
ابن عربي	ج ٢	ص ١١ - ١٦	الألوسي	ج ١٦	ص ٧٤ - ٩٢
البيضاوي	ج ٤	ص ٤ - ٧	القاسمي	ج ١١	ص ١١٥ - ١٢٥
الخازن	ج ٤	ص ٢٤١ - ٢٤٦	الطباطبائي	ج ١٤	ص ٣٢ - ٥٥
البغوي	ج ٣	ص ١٥٩	جوهري	ج ١٠	ص ٧ - ٩
الماوردي	ج ٣	ص ٣٦١	المراغي	ج ١٦	ص ٤٠ - ٥١
القرطبي	ج ١١	ص ٨٩ - ١٠٨	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٢٩٨ - ٢٣٠٩

الطبري ج ١٦ ص ٤٥ - ٦٤

عليك بالحق مريم ابنة عمران حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم وهو افتعل من النبد والنبد الطرح وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر. . . عن

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيفًا . فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا﴾ - يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ وأذكر يا محمد في كتاب الله الذي أنزله

قتادة في قوله واذكر في الكتاب مريم إذا انتبذت أي انفردت من أهلها حدثني سليمان بن عبد الجبار . . . عن ابن عباس إذا انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال خرجت مكاناً شرقياً حدثنا موسى . . . عن السدي قال خرجت مريم إلى جانب المحراب لحيض أصابها وهو قوله فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً. في شرقي المحراب وقوله مكاناً شرقياً يقول فتنحت واعتزلت من أهلها في موضع قبل مشرق الشمس دون مغربها كما حدثنا الحسن . . . عن قتادة في قوله مكاناً شرقياً قال من قبل المشرق. حدثني اسحق بن شاهين . . . عن ابن عباس قال إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله لقول الله فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فاتخذوا ميلاد عيسى قبله. حدثنا ابن المثنى . . . عن ابن عباس مثله. حدثني سليمان بن عبد الجبار . . . عن ابن عباس قال إن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج لله وما صرفهم عنهما إلا قيل ربك فانتبذت من أهلها مكاناً شرقياً فصلوا قبل مطلع الشمس. حدثنا بشر . . . عن قتادة إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال شاسعاً متنجساً وقيل إنها إنما صارت بمكان يلي مشرق الشمس لأن ما يلي المشرق عندهم كان خيراً مما يلي المغرب وكذلك ذلك فيما ذكر عند العرب وقوله فاتخذت من دونهم حجاباً يقول فاتخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن الناس وذكر عن ابن عباس أنها صارت بمكان يلي المشرق لأن الله أظلمها بالشمس وجعل لها منها حجاباً. حدثني محمد بن سعد . . . عن ابن عباس قوله انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً قال مكاناً أظلمتها الشمس أن يراها أحد منهم وقال غيره في ذلك ما حدثنا موسى . . . عن السدي فاتخذت من دونهم حجاباً من الجدران وقوله ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ يقول تعالى ذكره «فأرسلنا إليها حين انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً واتخذت من دونهم حجاباً جبريل» وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثنا بشر . . . عن قتادة قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال أرسل إليها فيما ذكر لنا جبريل. حدثنا ابن حميد . . . عن وهب بن منبه قال وجدت عندها جبريل قد مثله الله بشراً سوياً . .

حدثنا القاسم . . . عن ابن جريج قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ قال جبريل. حدثني محمد بن سهل . . . عن وهب بن منبه قال أرسل الله جبريل إلى مريم فمثل لها بشراً سوياً. حدثنا موسى . . . عن السدي قال فلما طهرت يعني مريم من حيضها إذا هي برجل معها وهو قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فتشبه لها في صورة آدمي سوي الخلق منهم يعني في صورة رجل من بني آدم معتدل الخلق. القول في تأويل قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فخافت مريم رسولنا إذ تمثل ﴿لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وظنته رجلاً يريد لها على نفسها. حدثنا القاسم . . . عن ابن جريج قوله ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ قال خشيت أن يكون إنما يريد لها على نفسها. حدثنا موسى . . . عن السدي ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ فلما رآته فرغت منه وقالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ فقالت إني أعوذ أيها الرجل بالرحمن منك تقول أستجير بالرحمن منك أن تنال مني ما حرمة عليك إن كنت ذا تقوى له تتقي محارمه وتجتنب معاصيه لأن من كان لله تقياً فإنه يجتنب ذلك ولو وجه ذلك إلى أنها عنت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ إن كنت تتقي الله في استجارتني واستعاذتي به منك كان وجهاً كما حدثنا ابن حميد . . . عن وهب بن منبه قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾ ولا ترى إلا أنه رجل من بني آدم. حدثنا أبو كريب . . . عن ابن زيد وذكر قصص مريم فقال قد علمت أن التقي ذو نهيمة حين قالت ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا﴾. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ يقول تعالى ذكره فقال لها روحنا ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ يا مريم أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. واختلفت القراء في قراءة ذلك فقراءته عامة قراء الحجاز والعراق غير أبي عمر ولأهب لك بمعنى إنما أنا رسول ربك يقول أرسلني إليك ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ على الحكاية وقرأ أبو عمرو بن العلاء ليهب لك غلاماً زكياً بمعنى ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ أرسلني إليك ليهب الله لك غلاماً زكياً. قال أبو جعفر والصواب

فقال له ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ ثم نفخ في جيب درعها حتى وصلت النفخة إلى الرحم فاشتملت حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه اليماني قال لما قال ذلك يعني لما قال جبريل ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ الآية استسلمت لأمر الله فنفخ في جيبها ثم انصرف عنها. حدثنا موسى... عن السدي قال طرحت عليها جلبابها لما قال جبريل ذلك لها فأخذ جبريل بكُميها فنفخ في جيب درعها وكان مشقوقاً من قدامها فدخلت النفخة صدرها فحملت فأنتها أختها امرأة زكريا ليلة تزورها فلما فتحت لها الباب التزمتها فقالت امرأة زكريا أشعرت أني حبلى قالت مريم أشعرت أيضاً أني حبلى قالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله مصداقاً بكلمة من الله. حدثنا القاسم... قال ابن جريج يقولون إنه إنما نفخ في جيب درعها وكُميها وقوله ﴿فَأَنْتَبَذَتْ يَدَهُ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يقول فاعتزلت بالذي حملته وهو عيسى وتخت به عن الناس مكاناً قصياً يقول مكاناً نائياً قاصياً عن الناس يقال هو بمكان قاص وقصبي بمعنى واحد كما قال الرازي:

لتعبدنّ مقعد القصي

منى ذي القاذورة المقلبي

يقال منه قصا المكان يقصو قصواً إذا تباعد وأقصيت الشيء إذا أبعدته وأخرته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿فَأَنْتَبَذَتْ يَدَهُ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ قال مكاناً نائياً، حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله مكاناً قصياً قال قاصياً. حدثنا عن مجاهد مثله حدثنا موسى... عن السدي قال لما بلغ أن تضع مريم خرجت إلى جانب المحراب الشرقي منه فأنت أقصاه وقوله ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ يقول تعالى ذكره فجاء بها المخاض إلى جذع النخلة ثم قيل لما أسقطت الباء منه أجاءها كما يقال أتيتك بزيد فإذا حذفت الباء قيل أتيتك زيداً قال جل ثناؤه ﴿ءَاتُونِي زُبُرَ الْحَدِيدِ﴾ [الكهف: ٩٦] اتوني بزبر الحديد ولكن الألف مدّت لما حذفت الباء وكما قالوا خرجت به وأخرجته وذُهِبَ به

من القراءة في ذلك ما عليه قراء الأمصار وهو لأهب لك بالألف دون الياء لأن ذلك كذلك في مصاحف المسلمين وعليه قراءة قديمهم وحديثهم غير أبي عمرو وغير خلافتهم فيما أجمعوا عليه ولا سائغ لأحد خلاف مصاحفهم والغلام الزكي هو الطاهر من الذنوب وكذلك تقول العرب غلام زاك وزكي وعال وعلي. القول في تأويل قوله تعالى ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكْ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره قالت مريم لجبريل أني يكون لي غلام من أي وجه يكون لي غلام أمن قبل زوج أنزوج فأرزقه منه أم يبتدىء الله في خلقه ابتداء ولم يمسنني بشر من ولد آدم بنكاح حلال ولم أك إذ لم يمسنني منهم أحد على وجه الحلال بغياً بغيت ففعلت ذلك من الوجه الحرام فحملته من زنا كما حدثنا موسى... عن السدي ولم أك بغياً يقول زانية قال كذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ يقول تعالى ذكره قال لها جبريل هكذا الأمر كما تصفين من أنك لم يمسسك بشر ولم تكوني بغياً ولكن ربك قال ﴿هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ أي خلق الغلام الذي قلت أن أهبه لك عليّ هين لا يتعذر عليّ خلقه وهبته لك من غير فعل يفتحلك وقوله ولنجعل له آية للناس يقول وكى نجعل الغلام الذي نهبه لك علامة وحجة على خلقي أهبه لك. ورحمة منا يقول ورحمة منا لك ولمن آمن به وصدقه أخلقه منك ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ يقول وكان خلقه منك أمراً قد قضاه الله ومضى في حكمه وسابق علمه أنه كائن منك كما حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ أي أن الله قد عزم على ذلك فليس منه بد. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ يَدَهُ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ وفي هذا الكلام متروك ترك ذكره استغناء بدلالة ما ذكر منه عنه فنفخنا فيها من روحنا بغلام ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ يَدَهُ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ وبذلك جاء تأويل أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سهل... قال سمعت وهباً قال لما أرسل الله جبريل إلى مريم تمثل ﴿لَهَا بِشَرَكَا سَوِيًّا﴾

وأذهبه وإنما هو أفعل من المجيء كما يقال جاء هو وأجأته أنا أي جئت به ومثل من أمثال العرب «شَرَّ ما أجأني إلى مخة عرقوب» وأشاء ويقال شر ما يجيئك ويشيئك إلى ذلك ومنه قول زهير:

وجار سار معتمداً إليكم

أجاءته المخافة والرجاء

يعني جاء به وأجاءه إلينا وأشاءك من لغة تميم وأجاءك من لغة أهل العالية وإنما تأول من تأول ذلك بمعنى ألجأها لأن المخاض لما جاءها إلى جذع النخلة كان قد ألجأها إليه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله فأجاءها المخاض قال المخاض ألجأها حدثنا القاسم... عن مجاهد قال ألجأها المخاض قال ابن جريج وقال ابن عباس ألجأها المخاض إلى جذع النخلة. حدثنا موسى... عن السدي فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة يقول ألجأها إلى جذع النخلة. حدثنا بشر... عن قتادة قوله فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قال اضطرها إلى جذع النخلة واختلفوا في أي المكان الذي انتبذت مريم بعبسى لوضعه وأجاءها إليها المخاض فقال بعضهم كان ذلك في أدنى أرض مصر وآخر أرض الشام وذلك أنها هربت من قومها لما حملت فتوجهت نحو مصر هاربة منهم ذكر من قال ذلك. حدثنا محمد بن سهل... عن وهب بن منبه يقول لما اشتملت مريم على الحمل كان معها قرابة لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون وكان ذلك المسجد يومئذ من أعظم مساجدهم فكانت مريم ويوسف يخدمان في ذلك المسجد في ذلك الزمان وكان لخدمته فضل عظيم فرغباً في ذلك فكانا يليان معالجته بأنفسهما تحبيرة وكناسته وظهره وكل عمل يعمل فيه وكان لا يعمل من أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً وعبادة منهما فكان أول من أنكر حمل مريم صاحبها يوسف فلما رأى الذي بها استفظعه وعظم عليه وفضع به فلم يدرك على ماذا يضع أمرها فإذا أراد يوسف أن يتهمها ذكر صلاحها وبرائها وأنها لم تغب عنه ساعة قط وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي

ظهر عليها فلما اشتد عليه ذلك كلمها فكان أول كلامه إياها أن قال لها إنه قد حدث في نفسي من أمرك أمر قد خشيته وقد حرصت على أن أميته وأكتمه في نفسي فغلبنني ذلك فرأيت الكلام فيه أشفى لصدري قالت فقل قولاً جميلاً قال ما كنت لأقول لك إلا ذلك فحدثيني هل ينبت زرع بغير بذر قالت نعم قال فهل تنبت شجرة من غير غيث يصيبها قالت نعم قال فهل يكون ولد من غير ذكر قالت نعم ألم تعلم أن الله تبارك وتعالى أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر والبذر يومئذ إنما صار من الزرع الذي أنبته الله من غير بذر أو لم تعلم أن الله بقدرته أنبت الشجر بغير غيث وأنه جعل بتلك القدرة الغيث حياة للشجرة بعدما خلق كل واحد منهما واحدة أم تقول لن يقدر الله على أن ينبت الشجر حتى استعان عليه بالماء ولولا ذلك لم يقدر على إنباته قال يوسف لها لا أقول هذا ولكني أعلم أن الله تبارك وتعالى بقدرته على ما يشاء يقول لذلك كن فيكون قالت مريم أولم تعلم أن الله تبارك وتعالى خلق آدم وامرأته من غير أنثى ولا ذكر قال بلى فلما قالت له ذلك وقع في نفسه أن الذي بها شيء من الله تبارك وتعالى وأنه لا يسعه أن يسألها عنه وذلك لما رأى من كتمانها لذلك ثم تولى يوسف خدمة المسجد وكفاها كل عمل كانت تعمل فيه وذلك لما رأى من رقة جسمها واصفرار لونها وكلف وجهها وتواء بطنها وضعف قوتها ودأب نظرها ولم تكن مريم قبل ذلك كذلك فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك فإنهم إن ظفروا بك عيرونك وقتلوا ولذلك فأفضت ذلك إلى أختها وأختها حينئذ حبلى وقد بشرت ببيحيى فلما التقيا وجدت أم يحيى ما في بطنها خر لوجهه ساجداً معترفاً لعيسى فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له ليس بينها حين ركبت وبين الإكاف شيء فانطلق يوسف بها حتى إذا كان متاخماً لأرض مصر في منقطع بلاد قومها أدرك مريم النفاس ألجأها إلى آري حمار يعني مذود الحمار وأصل نخلة وذلك في زمان أحسبه برداً أو حرّاً «الشك من أبي جعفر» فاشتد على مريم المخاض فلما وجدت منه شدة التجأت إلى النخلة فاحتضنتها واحتوشتها الملائكة قاموا صفوفاً محدقين بها.

أتيت إتياناً وأتيا كما قال الشاعر:

أتى الفواحش فيهم معروفة

ويرون فعل المكرمات حراما

وقوله ﴿مَنْسِيًّا﴾ مفعول من نسيت الشيء كأنها قالت

ليتني كنت الشيء الذي ألقى فترك ونسي. وبنحو الذي

قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا

القاسم... عن عطاء الخراساني عن ابن عباس قوله

﴿يَلْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ لم أخلق

ولم أكن شيئاً حدثنا موسى... عن السدي ﴿وَكُنْتُ

نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ يقول نسياً نسي ذكري ومنسياً تقول نسي

أثري فلا يرى لي أثر ولا عين. حدثنا بشر... عن قتادة

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ أي شيئاً لا يعرف ولا يذكر.

حدثنا الحسن... عن قتادة قوله ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا

مَنْسِيًّا﴾ قال لا أعرف ولا يدري من أنا حدثنا

القاسم... عن الربيع بن أنس ﴿نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ قال هو

السقط. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿يَلْتَنِي

مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ لم أكن في الأرض

شيئاً قط. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا

تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجُنَاحَيْكَ

شَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا﴾ اختلف القراء في قراءة ذلك

فقرأه عامة قراءة الحجاز والعراق فنادها من تحتها بمعنى

فنادها جبرائيل من بين يديها على اختلاف منهم في تأويله

فمن متأول منهم إذا قرأه من تحتها كذلك ومن متأول أنه

عيسى وأنه نادها من تحتها بعدما ولدته وقرأ ذلك بعض

قراء أهل الكوفة والبصرة فنادها من تحتها بفتح التاءين

من تحت بمعنى فنادها الذي تحتها على أن الذي تحتها

عيسى وأنه الذي نادى أمه ذكر من قال الذي نادها من

تحتها الملك حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس قرأ

فنادها من تحتها يعني جبرائيل حدثني عبدالله بن أحمد بن

يونس... عن عمرو بن ميمون الأودي قال الذي نادها

الملك حدثنا ابن بشار عن علقمة أنه قرأ فخطبها من

تحتها. حدثنا أبو هشام الرفاعي... عن علقمة أنه قرأ

فخطبها من تحتها. حدثنا الرفاعي... عن علقمة أنه

قرأها كذلك. حدثنا ابن بشار... عن الضحاك فنادها

وقد روي عن وهب بن منبه قول آخر غير هذا وذلك ما

حدثنا به ابن حميد... عن وهب بن منبه قال لما حضر

ولادها يعني مريم وجدت ما تجد المرأة من الطلق

خرجت من المدينة مغربة من إيلياء حتى تدركها الولادة

إلى قرية من إيلياء على ستة أميال يقال لها بيت لحم

فأجاءها المخاض إلى أصل نخلة إليها مذود بقرة تحتها

ربيع من الماء فوضعه عندها. وقال آخرون بل خرجت

لما حضر وضعها ما في بطنها إلى جانب المحراب الشرقي

منه فأتت أقصاه فآلجأها المخاض إلى جذع النخلة وذلك

قول السدي وقد ذكرت الرواية به قبل. حدثني زكريا بن

يحيى بن أبي زائدة... عن المغيرة بن عثمان قال سمعت

ابن عباس يقول ما هي إلا أن حملت فوضعت. حدثنا

القاسم... عن المغيرة بن عثمان بن عبدالله أنه سمع ابن

عباس يقول ليس إلا أن حملت فولدت وقوله يا ليتني مت

قبل هذا ذكر أنها قالت ذلك في حال الطلق استحياء من

الناس كما حدثنا موسى... عن السدي قال قالت وهي

تطلق من الحبل استحياء من الناس ﴿يَلْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا

وَكَُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ تقول يا ليتني مت قبل هذا

الكرب الذي أنا فيه والحزن بولادتي المولود من غير بل

﴿وَكَُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا﴾ شيئاً نسي فترك طلبه كخرق

الحیض التي إذا ألقيت وطرحت لم تطلق ولم تذكر

وكذلك كل شيء نسي وترك ولم يطلب فهو نسي ونسي

بفتح النون وكسرهما هما لغتان معروفتان من لغات العرب

بمعنى واحد مثل الوتر والوتر والجسر والجسر وبأيتهما

قرأ القاريء فمصيب عندنا وبالكسر قرأت عامة قراء

الحجاز والمدينة والبصرة وبعض أهل الكوفة وبالفتح قرأه

أهل الكوفة ومنه قول الشاعر:

كان لها في الأرض نسياً تقصيه

إذا ما غدت وإن تحدثك تلبت

ويعني بقوله تقصيه تطلبه لأنها كانت نسيته حتى ضاع ثم

ذكرته فطلبته يعني بقوله تلبت تحسن وتصديق ولو وجه

النسي إلى المصدر من النسيان كان صواباً وذلك أن العرب

فيما ذكر عنها تقول نسيته نسياناً ونسياً كما قال بعضهم من

طاعة الرب وعصى الشيطان يعني وعصيان وكما تقول

من تحتها قال جبرائيل . حدثنا ابن بشار . . . عن الضحاك مثله حدثنا بشر . . . عن قتادة ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ أي من تحت النخلة . حدثنا موسى . . . عن السدي فنادها جبرائيل من تحتها أن لا تحزني . حدثنا الحسن . . . عن قتادة في قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال الملك . حدثت عن الحسين . . . عن الضحاك يقول في قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ يعني جبرائيل كان أسفل منها . حدثني محمد بن سعد . . . عن ابن عباس ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال ناداها جبرائيل ولم يتكلم عيسى حتى أتت قومها . ذكر من قال ناداها عيسى ﷺ . حدثنا محمد بن بشار . . . عن مجاهد قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال عيسى ابن مريم . حدثنا ابن بشار . . . عن مجاهد مثله . حدثني محمد بن عمرو . . . عن مجاهد مثله . حدثنا القاسم . . . عن مجاهد مثله . حدثنا بشر . . . عن الحسن ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ ابنها . حدثنا الحسن . . . عن قتادة قال قال الحسن هو ابنها . حدثنا ابن حميد . . . عن وهب ابن منبه فناداها عيسى من تحتها أن لا تحزني . حدثني أبو حميد أحمد بن المغيرة الحمصي . . . عن سعيد بن جبیر قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال عيسى أما تسمع الله يقول ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ [مريم: ٢٩] حدثني يونس . . . عن ابن زيد ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قال عيسى ناداها أن ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ حدثت عن عبدالله بن أبي جعفر . . . عن أبي بن كعب قال الذي خاطبها هو الذي حملته في جوفها ودخل من فيها . قال أبو جعفر وأولى القولين في ذلك عندنا قول من قال الذي ناداها ابنها عيسى وذلك أنه من كناية ذكره أقرب منه من ذكر جبرائيل فرده على الذي هو أقرب إليه أولى من رده على الذي هو أبعد منه ألا ترى أنه في سياق قوله ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ يعني به فحملت عيسى فانتبذت به ثم قيل فناداها نسقاً على ذلك من ذكر عيسى والخبر عنه ولعله أخرى وهي قوله ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ ولم تشر إليه إن شاء الله إلا وقد علمت أنه ناطق في حاله تلك وللذي كانت قد عرفت ووثقت به منه بمخاطبته إياها بقوله لها ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وما أخبر الله عنه أنه قال لها أشيري للقوم إليه ولو

كان ذلك قولاً من جبرائيل لكان خليفاً أن يكون في ظاهر الخبر مبيناً أن عيسى سينطق ويحتج عنها للقوم وأمر منه لها بأن تشير إليه للقوم إذا سألوها عن حالها وحاله فإذا كان ذلك هو الصواب من التأويل الذي بينا فبين أن كلتا القراءتين أعني ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ بالكسر ومن تحتها بالفتح صواب وذلك أنه إذا قرئ بالكسر كان في قوله فناداها ذكر من عيسى . وإذا قرئ من تحتها بالفتح كان الفعل لمن وهو عيسى . فتأويل الكلام إذا فناداها المولود من تحتها أن لا تحزني يا أمه ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ . كما حدثني يونس . . . عن ابن زيد في قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي﴾ قالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج فأقول من زوج ولا مملوكة فأقول من سيدي أي شيء عذري عند الناس ﴿يَلْتَنِي مِثْ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّاسٍ﴾ فقال لها عيسى أنا أكفيك الكلام . واختلف أهل التأويل في المعنى بالسري في هذا الموضع فقال بعضهم عني به النهر الصغير ذكر من قال ذلك حدثنا ابن بشار . . . عن البراء بن عازب ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال الجدول حدثنا ابن بشار . . . عن أبي إسحاق قال سمعت البراء يقول في هذه الآية ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ . قال الجدول حدثني علي . . . عن ابن عباس قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ وهو نهر عيسى . حدثني محمد بن سعد . . . عن ابن عباس قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال السري النهر الذي كان تحت مريم حين ولدته كان ينجري يسمى سرياً . حدثني أبو حصين . . . عن عمرو بن ميمون الأودي قال في هذه الآية ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال السري نهر يشرب منه . حدثنا يعقوب وأبو كريب . . . عن عمرو بن ميمون في قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال هو الجدول . حدثني محمد بن عمرو . . . عن مجاهد ﴿سَرِيًّا﴾ قال نهر بالسرانية . حدثنا القاسم . . . عن مجاهد مثله قال ابن جريج نهر إلى جنبها . حدثنا محمد بن بشار . . . عن الحسن في قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ قال كان سرياً فقال حميد بن عبد الرحمن إن السري الجدول فقال غلبتنا عليك الأمراء حدثنا القاسم . . . عن سعيد بن جبیر ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ

سَرِيًّا ﴿ قَالَ هُوَ الْجَدُولُ النَّهْرُ الصَّغِيرُ وَهُوَ بِالْبَنْطِيَةِ سَرِيًّا .
حدثني أبو حميد الحمصي . . . عن ثابت بن عجلان قال
سألت سعيد بن جبيرة عن السري قال نهر . حدثنا أبو
كريب . . . عن إبراهيم قال النهر الصغير . حدثني
يعقوب . . . عن إبراهيم أنه قال هو النهر الصغير يعني
الجدول ، يعني قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ .

- حدثنا ابن وكيع . . . عن الضحاك ، قال : جدول
صغير بالسريانية .

- حدثت عن الحسين . . . عن الضحاك يقول في قوله
﴿ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ الجدول الصغير من الأنهار .

- حدثنا بشر . . . عن قتادة ﴿ قَدْ جَعَلَ رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾
والسري : هو الجدول ، تسميه أهل الحجاز .

- حدثنا الحسن . . . عن معمر ، في قوله ﴿ سَرِيًّا ﴾
قال : هو جدول .

- حدثنا ابن حميد . . . عن وهب بن منبه ﴿ قَدْ جَعَلَ
رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ يعني ربيع الماء .

- حدثنا موسى بن هارون . . . عن السدي ﴿ قَدْ جَعَلَ
رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ والسري : هو النهر .
وقال آخرون : عني به عيسى .

ذكر من قال ذلك :

- حدثنا بشر . . . عن قتادة ، عن الحسن ﴿ قَدْ جَعَلَ
رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ والسري : عيسى نفسه .

- حدثني يونس . . . عن ابن زيد ، في قوله ﴿ قَدْ جَعَلَ
رَبُّكَ تَحَنُّكَ سَرِيًّا ﴾ يعني نفسه ، قال : وأي شيء أسرى منه ،
قال : والذين يقولون : السري : هو النهر ليس كذلك
النهر ، لو كان النهر لكان إنما يكون إلى جنبها ، ولا يكون
النهر تحتها .

قال أبو جعفر : وأولى القولين في ذلك عندي بالصواب
قيل من قال : عني به الجدول ، وذلك أنه أعلمها ما قد
أعطاه الله من الماء الذي جعله عندها ، وقال لها
﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ شَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلِي ﴾
من هذا الرطب ﴿ وَأَشْرَبِي ﴾ من هذا الماء ﴿ وَقَرِي عَيْنًا ﴾
بولدك ، والسري ، معروف من كلام العرب أنه النهر
الصغير ، ومنه قول لبيد :

تَوَسَّطَا غُزْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعَا

مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا

ويُروى قلنا مسجورة ، ويُروى أيضاً : فغادرا .

وقوله ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ ذكر أن الجذع كان
جذعاً يابساً ، وأمرها أن تهزه ، وذلك في أيام الشتاء ،
وهزه إياه كان تحريكه .

- كما حدثني يونس . . . عن ابن زيد ، في قوله
﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ قال : حركيها .

ذكر من قال ذلك :

- حدثني محمد بن سعيد . . . عن ابن عباس ﴿ وَهَزَيْتَ
إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ قال : كان جذعاً يابساً ، فقال لها :
هزيه ﴿ شَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ .

- حدثنا ابن حميد . . . عن عبد المؤمن ، قال : سمعت
أبا نهيك يقول : كانت نخلة يابسة .

- حدثني محمد بن سهل بن عسكر . . . عن وهب بن
منبه يقول في قوله ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ فكان
الرطب يتساقط عليها وذلك في الشتاء .

- حدثنا موسى بن هارون . . . عن السدي ﴿ وَهَزَيْتَ
إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ وكان جذعاً منها مقطوعاً فهزته ، فإذا

هو نخلة ، وأجري لها في المحراب نهر ، فتساقطت النخلة
رطباً جنيّاً فقال لها : ﴿ فَكُلِي وَأَشْرَبِي وَقَرِي عَيْنًا ﴾ . وقال

آخرون : بل معنى ذلك : وهزي إليك بالنخلة . حدثنا ابن
بشار . . . مجاهد في قوله ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾

قال : النخلة . حدثنا ابن بشار . . . عن مجاهد في قوله
﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ قال العجوة : حدثني

يعقوب . . . عن عمرو بن ميمون أنه تلا هذه الآية
﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ شَقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا ﴾ قال

فقال عمرو ما من شيء خير للنفساء من التمر والرطب
وأدخلت الباء في قوله ﴿ وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِحِجْجِ النَّخْلَةِ ﴾ كما

يقال زوجتك فلانة وزوجتك بفلانة وكما قال ﴿ تَبَتُّ
بِالدَّهْنِ ﴾ [المؤمنون : ٢٠] بمعنى تبت الدهن وإنما تفعل

العرب ذلك لأن الأفعال يكنى عنها بالباء فيقال إذ كنيت
عن ضربت عمراً فعلت به وكذلك كل فعل فلذلك تدخل

الباء في الأفعال وتخرج فيكون دخولها وخروجها بمعنى

فمعنى الكلام ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ﴾ وقد كان لو أن المفسرين كانوا فسروه كذلك وهزي إليك رطباً بجذع النخلة بمعنى على جذع النخلة وجهاً صحيحاً ولكن لست أحفظ عن أحد أنه فسره كذلك ومن الشاهد على دخول الباء في موضع دخولها وخروجها منه سواء قول الشاعر:

بـواد يمان ينبت السدر صدره

وأسفلـه بالمرخ والشبهان

واختلف القراء في قراءة قوله تساقط فقراً ذلك عامة قراء المدينة والبصرة والكوفة تساقط بالتاء من تساقط وتشديد السين بمعنى تساقط عليك النخلة رطباً جنياً ثم تدغم إحدى التاءين في الأخرى فتشدد وكأن الذين قرأوا ذلك كذلك وجهوا معنى الكلام إلى ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ بِجَذْعِ النَّخْلَةِ﴾ تساقط النخلة عليك رطباً وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة تساقط بالتاء وتخفيف السين ووجه معنى الكلام إلى مثل ما وجه إليه مشددوها غير أنهم خالفوه في القراءة وروي عن البراء بن عازب أنه قرأ ذلك يساقط بالياء. حدثني بذلك أحمد بن يوسف... عن أبي إسحاق قال سمعت البراء بن عازب يقرؤه كذلك وكأنه وجه معنى الكلام إلى وهزي إليك بجذع النخلة يتساقط الجذع عليك رطباً جنياً وروي عن أبي نهيك أنه كان يقرؤه تسقط بضم التاء وإسقاط الألف. حدثنا بذلك ابن حميد ثنا عبد المؤمن قال سمعت أبا نهيك يقرؤه كذلك وكأنه وجه معنى الكلام إلى تسقط النخلة عليك رطباً جنياً * قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال إن هذه القراءات الثلاث أعني تساقط بالتاء وتشديد السين وبالتاء وتخفيف السين والياء وتشديد السين قراءات متقاربات المعاني قد قرأ بكل واحدة منهن قراء أهل معرفة القرآن فبأي ذلك قرأ القارئ فمصيب الصواب فيه وذلك أن الجذع إذا تساقط رطباً وهو ثابت غير مقطوع فقد تساقطت النخلة رطباً وإذا تساقطت النخلة رطباً فقد تساقطت النخلة بأجمعها جذعها وغير جذعها وذلك أن النخلة ما دامت قائمة على أصلها فإنما هي جذع وجريد وسعف فإذا قطعت صارت جذعاً فالجذع الذي أمرت مريم بهزه لم يذكر أحد نعلمه أنه كان جذعاً مقطوعاً غير

السدي وقد زعم أنه عاد بهزها إياه نخلة فقد صار معناه ومعنى من قال كان المتساقط عليها رطباً نخلة واحداً فتبين بذلك صحة ما قلنا. وقوله جنياً يعني مجنياً وإنما كان أصله مفعولاً فصرف إلى فعل والمجني المأخوذ طرياً وكل ما أخذ من ثمرة أو نقل من موضعه بطراوته فقد اجتنى ولذلك قيل فلان يجتني الكمأة ومنه قول ابن أخت جذيمة:

هذا جنياي وخياره فيـه

إذ كل جان يده إلى فيـه

القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرَىٰ عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فكلي من الرطب الذي يتساقط عليك واشربي من ماء السري الذي جعله ربك تحتك ولا تخشي جوعاً ولا عطشاً وقرى عيناً يقول وطيبى نفساً وافرحي بولادتك إياي ولا تحزني ونصبت العين لأنها هي الموصوفة بالقرار وإنما معنى الكلام ولتقرر عينك بولدك ثم حول الفعل عن العين إلى المرأة صاحبة العين فنصبت العين إذ كان الفعل لها في الأصل على التفسير نظير ما فعل بقوله ﴿فَإِنْ طَبِئَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا﴾ [النساء: ٤] وإنما هو فإن طابت أنفسهن لكم وقوله ﴿وَصَاقَ بِهِمْ ذُرْعًا﴾ [هود: ٧٧] ومنه قوله يساقط عليك رطباً جنياً إنما هو يساقط عليك رطب الجذع فحول الفعل إلى الجذع في قراءة من قرأه بالياء وفي قراءة من قرأه تساقط بالتاء معناه يساقط عليك رطب النخلة ثم حول الفعل إلى النخلة. وقد اختلفت القراء في قراءة قوله ﴿وَقَرَىٰ﴾ فأما أهل المدينة فقرأوه وقرى بفتح القاف على لغة من قال قررت بالمكان أقر به وقررت عيناً أقر به قروراً وهي لغة قريش فيما ذكر لي وعليها القراءة وأما أهل نجد فإنها تقول قررت به عيناً أقر به قراراً وقررت بالمكان أقر به فالقراءة على لغتهم وقرى عيناً بكسر القاف. والقراءة عندنا على لغة قريش بفتح القاف وقوله فأما ترين من البشر أحد يقول فإن رأيت من بني آدم أحداً يكلمك أو يسألك عن شيء من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ يقول فقولي إني أوجبت

أَكْفِيكَ الْكَلَامَ ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ قال هذا كله كلام عيسى لأمه. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فإني سأكفيك الكلام. وقال آخرون إنما كان ذلك آية لمريم وابنها. ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال في بعض الحروف صمتاً وذلك أنك لا تلقى امرأة جاهلة تقول نذرت كما نذرت مريم ألا تكلم يوماً إلى الليل. وإنما جع الله تلك آية لمريم ولابنها ولا يحل لأحد أن ينذر صمت يوم إلى الليل حدثنا بشر... عن قتادة فقرأ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وكانت تقرأ في الحرف الأول صمتاً وإنما كانت آية بعثها الله لمريم وابنها. وقال آخرون بل كانت صائمة في ذلك اليوم والصائم في ذلك الزمان كان يصوم عن الطعام والشراب وكلام الناس فاذن لمريم في قدر هذا الكلام ذلك اليوم وهي صائمة ذكر من قال ذلك حدثنا موسى... عن السدي ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ يكلمك ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ فكان من صام في ذلك الزمان لم يتكلم حتى يمسي فقبل لها لا تزيد علي هذا. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَأَتَتْ بِهَا قَوْمَهَا تَحْمِلُهَا قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئَتْ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال ذلك عيسى لأمه أطمأنت نفسها وسلمت لأمر الله وحملته حتى أتت به قومها. كما حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال أنساها يعني مريم كرب البلاء وخوف الناس ما كانت تسمع من الملائكة من البشارة بعيسى حتى إذا كلمها يعني عيسى وجاءها مصداق ما كان الله وعدا احتملته ثم أقبلت به إلى قومها. وقال السدي في ذلك ما حدثنا موسى... عن السدي قال لما ولدته ذهب الشيطان فأخبر بني إسرائيل أن مريم قد ولدت فأقبلوا يشتدون فدعوا فأتت به قومها تحمله وقوله ﴿قَالُوا يَمْرَأَتُ لَقَدْ جِئَتْ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما رأوا مريم ورأوا معها الولد الذي ولدته قالوا لها يا مريم لقد جئت بأمر عجيب وأحدثت حدثاً عظيماً وكل عامل عملاً أجاده وأحسنه فقد

على نفسي لله صمتاً أن لا أكلم أحداً من بني آدم اليوم ﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وبنحو الذي قلنا في معنى الصوم قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن عبد الأعلى عن أنس بن مالك يقول في هذه الآية ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ صمتاً. حدثني زكريا بن يحيى بن أبي زائدة... عن المغيرة بن عثمان قال سمعت أنس بن مالك يقول ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال صمتاً. حدثني محمد بن سعيد... عن ابن عباس قوله ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال يعني بالصوم الصمت. حدثني يعقوب... عن سليمان التيمي قال سمعت أنساً قرأ «إني نذرت للرحمن صوماً وصمتاً». حدثني الحسن بن يحيى... عن قتادة ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أما قوله ﴿صَوْمًا﴾ فإنها صامت من الطعام والشراب والكلام. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله ﴿نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ قال كان من بني إسرائيل من إذا اجتهد صام من الكلام كما يصوم من الطعام إلا من ذكر الله فقال ذلك لها لذلك فقالت إني أصوم من الكلام كما أصوم من الطعام إلا من ذكر الله فلما كلموها أشارت إليه فقالوا ﴿كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي أَلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ فأجابهم فقال إني عبد الله أتاني الكتاب حتى بلغ ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ واختلفوا في السبب الذي من أجله أمرها بالصوم عن كلام البشر فقال بعضهم أمرها بذلك لأنه لم يكن لها حجة عند الناس ظاهرة وذلك أنها جاءت وهي أيم بولد فأمرت بالكف عن الكلام ليكفيها الكلام ولدها ذكر من قال ذلك حدثنا هارون بن إسحاق الهمداني... عن حارثة قال كنت عند ابن مسعود فجاء رجلان فسلم أحدهما ولم يسلم الآخر فقال ما شأنك فقال أصحابه حلف أن لا يكلم الناس اليوم فقال عبد الله كلم الناس وسلم عليهم فإن تلك امرأة علمت أن أحداً لا يصدقها أنها حملت من غير زوج يعني بذلك مريم عليها السلام. حدثني يونس... عن ابن زيد لما قال عيسى لمريم لا تحزني قالت وكيف لا أحزن وأنت معي لا ذات زوج ولا مملوكة أي شيء عذري عند الناس ﴿يَكَلِّتُنِي مِثُّ قَبْلِ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا﴾ فقال لها عيسى أنا

فراه كما قال الراجز:

قد أطمعنتني دقلاً حولياً

مسوساً مدوداً حجرياً

* قد كنت تفرّين به الفرياً *

وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثني بن عمرو... عن مجاهد في قول الله تعالى ﴿فَرِيًّا﴾ قال عطيماً. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله لقد جئت شيئاً ﴿فَرِيًّا﴾ قال عطيماً. حدثنا موسى... عن السدي ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ قال عطيماً. حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال لما رآوها ورأوه معها قالوا يا مريم ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً فَرِيًّا﴾ أي الفاحشة غير المقاربة. القول في تأويل قوله تعالى ﴿يَتَأَخَّتَ هُنَّ مَكَانَ أَبْوَابِكُمْ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ اختلف أهل التأويل في السبب الذي من أجله قيل لها يا أخت هارون ومن كان هارون هذا الذي ذكره الله وأخبر أنهم نسبوا مريم إلى أنها أخته فقال بعضهم قيل لها يا أخت هارون نسبة منهم لها إلى الصلاح لأن أهل الصلاح فيهم كانوا يسمون هارون وليس بهارون أخي موسى ذكر من قال ذلك حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿يَتَأَخَّتَ هُنَّ مَكَانَ أَبْوَابِكُمْ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ قال كانت إسرائيل يسمي هارون فشبها بها فقالوا يا شبيهة هارون في الصلاح. حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿يَتَأَخَّتَ هُنَّ مَكَانَ أَبْوَابِكُمْ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ قال كانت من أهل بيت يعرفون بالصلاح ولا يعرفون بالفساد ومن الناس من يعرفون بالصلاح ويتوالدون به وآخرون يعرفون بالفساد ويتوالدون به وكان هارون مصلحاً محبباً في عشيرته وليس بهارون أخي موسى ولكنه هارون آخر قال وذكر لنا أنه شيع جنازته يوم مات أربعون ألفاً كلهم يسمون هارون من بني إسرائيل. حدثني يعقوب... عن محمد بن سيرين قال نبئت أن كعباً قال إن قوله يا أخت هارون ليس هارون أخي موسى قال فقالت له عائشة كذبت قال يا أم المؤمنين إن كان النبي ﷺ قاله فهو أعلم وأخبر وإلا فإني أجد بينهما ستمائة سنة قال فسكت. حدثني يونس... قال ابن زيد في قوله يا أخت هارون قال اسم واطأ اسماً كم بين هارون وبينهما من الأمم كثيرة

حدثنا أبو كريب وابن المشي وسفيان وابن وكيع وأبو السائب... عن المغيرة بن شعبة قال بعثني رسول الله ﷺ إلى أهل نجران فقالوا لي ألتئم تقرؤون يا أخت هارون قلت بلى وقد علمتم ما كان بين عيسى وموسى فرجعت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته فقال «ألا أخبرتهم أنهم كانوا يسمون بأنبيائهم والصالحين قبلهم». حدثنا ابن حميد... عن المغيرة بن شعبة قال أرسلني النبي ﷺ في بعض حوائجه إلى أهل نجران فقالوا أليس نبيك يزعم أن هارون أخو مريم هو أخو موسى فلم أدر ما أردت عليهم حتى رجعت إلى النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال إنهم كانوا يسمون بأسماء من كان قبلهم * وقال بعضهم عنى به هارون أخو موسى ونسبت مريم إلى أنها أخته لأنها من ولده يقال للتميمي يا أخا تميم وللمضري يا أخا مضر ذكر من قال ذلك حدثنا موسى... عن السدي يا أخت هارون قال كانت من بني هارون أخي موسى وهو كما تقول يا أخا بني فلان * وقال آخرون بل كان ذلك رجلاً منهم فاسقاً معلى الفسق فنسبوا إليه * قال أبو جعفر والصواب من القول في ذلك ما جاء به الخبر عن رسول الله ﷺ الذي ذكرناه وأنها نسبت إلى رجل من قومها وقوله ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا﴾ يقول ما كان أبوك رجل سوء يأتي الفواحش ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ يقول وما كانت أمك زانية. كما حدثني موسى... عن السدي ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ قال زانية وقال ﴿وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ ولم يقل بغية لأن ذلك مما يوصف به النساء دون الرجال فجري مجرى امرأة حائض وطالق وقد كان بعضهم يشبه ذلك بقوله ملحفة جديد وامرأة قتل. القول في تأويل قوله تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِنَّ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال قومها ذلك لها قالت لهم ما أمرها عيسى بقله لهم ثم أشارت لهم إلى عيسى أن كلموه. كما حدثنا موسى... عن السدي قال لما قالوا لها ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمَمٌ بِغِيًّا﴾ قالت لهم ما أمرها الله به فلما أرادوها بعد ذلك على الكلام أشارت إليه إلى عيسى. حدثنا بشر... عن قتادة قوله فأشارت إليه قال أمرتهم بكلامه حدثنا ابن حميد... عن وهب بن

منه ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ يقول أشارت إليه أن كلموه. حدثنا القاسم . . . عن ابن جريج قوله ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أن كلموه وقوله ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ يقول تعالى ذكره قال قومها لها كيف نكلم من وجد في المهد وكان في قوله ﴿ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ معناها التمام لا التي تقتضي الخبر وذلك شبهه المعنى بكان التي في قوله ﴿ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ٩٣] وإنما معنى ذلك هل أنا إلا بشر رسول وهل وجدت أو بعثت وكما قال زهير بن أبي سلمى:

أجرت إليه حرة أرحب

وقد كان لون الليل مثل الأرنج

بمعنى وقد صار أو وجد وقيل إنه عني بالمهد في هذا الموضع حجر أمه ذكر من قال ذلك حدثنا بشر . . . عن قتادة ﴿ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ والمهد الحجر * قال أبو جعفر وقد بينا معنى المهد فيما مضى بشواهد فأغنى عن إعادته في هذا الموضع. القول في تأويل قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ يقول تعالى ذكره فلما قال قوم مريم لها كيف نكلم ﴿ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ وظنوا أن ذلك منها استهزاء بهم قال عيسى لهم متكلماً عن أمه ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ وكانوا حين أشارت لهم إلى عيسى فيما ذكر عنهم غضبوا. كما حدثني موسى . . . عن السدي قال لما أشارت لهم إلى عيسى غضبوا وقالوا لسخريتها بنا حين تأمرنا أن نكلم هذا الصبي أشد علينا من زناها ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾. حدثنا ابن حميد . . . عن وهب بن منبه ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ فأجابهم عيسى عنها فقال لهم ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ الآية. حدثني يونس . . . قال ابن زيد في قوله ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ قال لهم ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ فقرا حتى بلغ ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾ فقالوا إن هذا لأمر عظيم. حدثت عن الحسين . . . عن الضحاك ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ

لم يتكلم عيسى إلا عند ذلك حين ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ وقوله ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ يقول القائل أو آتاه الكتاب والوحي قبل أن يخلق في بطن أمه فإن معنى ذلك بخلاف ما يظن وإنما معناه وقضى يوم قضى أمور خلقه إلي أن يؤتيني الكتاب. كما حدثني بشر ابن آدم . . . عن عكرمة قال: ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ قال قضى أن يؤتيني الكتاب. فيما مضى. حدثنا محمد بن بشار . . . عن عكرمة في قوله ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ قال القضاء. حدثنا الحسن . . . عن عكرمة في قول الله ﴿ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ قال قضى أن يؤتيني الكتاب. وقوله ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ وقد بينت معنى النبي واختلاف المختلفين فيه والصحيح من القول فيه عندنا بشواهد فيما مضى بما أغنى عن إعادته وكان مجاهد يقول في معنى النبي وحده ما حدثنا به محمد بن عمرو . . . عن مجاهد قال النبي وحده الذي يكلم وينزل عليه الوحي ولا يرسل وقوله وجعلني مباركاً اختلف أهل التأويل في معنى ذلك فقال بعضهم معناه وجعلني نفاعاً ذكر من قال ذلك حدثني سليمان بن عبد الرحمن بن حماد الطلحي . . . عن مجاهد وجعلني مباركاً قال نفاعاً. وقال آخرون كانت بركته الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ذكر من قال ذلك. حدثني سليمان بن عبد الجبار قال سمعت وهيب بن الورد مولى بني مخزوم قال لقي عالم عالماً هو فوقه في العلم فقال له يرحمك الله ما الذي أعلن من علمي قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإنه دين الله الذي بعث به أنبياء إلى عباده وقد اجتمع الفقهاء على قول الله ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ وقيل ما بركته قال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أينما كان. وقال آخرون. ذلك جعلني معلم الخير ذكر من قال ذلك حدثني يونس بن عبد الأعلى قال ثنا سفيان في قوله ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ قال معلماً للخير. حدثنا ابن حميد . . . عن مجاهد قوله ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ قال معلماً للخير. حيثما كنت وقوله وأوصاني بالصلاة والزكاة يقول وقضى أن يوصيني بالصلاة والزكاة يعني بالمحافظة على حدود الصلاة وإقامتها على ما فرضها علي وفي الزكاة معنيين

أحدهما زكاة الأموال أن يؤديها والآخر تطهير الجسد من دنس الذنوب فيكون معناه وأوصاني بترك الذنوب واجتناب المعاصي. وقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ يقول ما كنت حياً في الدنيا موجوداً وهذا يبين عن أن معنى الزكاة في هذا الموضع تطهير البدن من الذنوب لأن الذي يوصف به عيسى صلوات الله وسلامه عليه أنه كان لا يدخر شيئاً لغد فتجب عليه زكاة المال إلا أن تكون الزكاة التي كانت فرضت عليه الصدقة بكل ما فضل عن قوته فيكون ذلك وجهاً صحيحاً. لقول في تأويل قوله تعالى ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يقول تعالى ذكره مخبراً عن قيل عيسى للقوم وجعلني مباركاً وبراً أي جعلني برّاً بوالدي والبر هو البار يقال هو برّ بوالده وبارّ به وبفتح الباء قرأت هذا الحرف قراءة الأمصار وروى عن أبي نهيك ما حدثنا ابن حميد... عن أبي نهيك أنه قرأ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ من قول عيسى عليه السلام قال أبو نهيك أوصاني بالصلاة. والزكاة والبر بالوالدين كما أوصاني بذلك فكان أبا نهيك وجه تأويل الكلام إلى قوله ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ﴾ هو من خبر عيسى عن وصية الله إياه به كما أن قوله ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ من خبره عن وصية الله إياه بذلك فعلى هذا القول يجب أن يكون نصب البر بمعنى عمل الوصية فيه لأن الصلاة والزكاة وإن كانتا مخفوضتين في اللفظ فإنهما بمعنى النصب من أجل أنه مفعول بهما وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ يقول ولم يجعلني مستكبراً على الله فيما أمرني به ونهاني عنه شقياً ولكن ذللتني لطاعته وجعلني متواضعاً. كما حدثنا بشر... عن قتادة قال ذكر لنا أنه يعني عيسى كان يقول سلوني فإن قلبي لين وإنني صغير في نفسي مما أعطاه الله من التواضع. وحدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ ذكر لنا أن امرأة رأت ابن مريم يحيي الموتى ويرى الأكمة والأبرص في آيات سلطه الله عليهن وأذن له فيهن فقالت طوبى للبطن الذي حملك والثدي الذي أرضعت به فقال نبي الله ابن مريم يجيئها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً. حدثنا القاسم... عن عبدالله

بن واقد أبي رجاء عن بعض أهل العلم قال لا تجد عاقلاً إلا وجدته جباراً شقياً ثم قرأ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ قال ولا تجد سيئ الملكة إلا وجدته مختالاً فخوراً ثم قرأ وما ملكت أيمانكم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: ٣٦] وقوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يقول والأمنة من الله علي من الشيطان وجنده يوم ولدت أن ينالوا مني ما ينالون ممن يولد عند الولادة من الطعن فيه ويوم أموت من هول المطلع ويوم أبعث حياً يوم القيامة أن ينالني الفرع الذي ينال الناس بمعائيتهم أهوال ذلك اليوم. كما حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه والسلام علي يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً قال يخبرهم في قصة خبره عن نفسه أنه لا أب له وأنه سيموت ثم يبعث حياً يقول الله تبارك وتعالى ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ القول في تأويل قوله تعالى ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ يقول تعالى ذكره وهذا الذي بينت لكم صفته وأخبرتكم خبره من أمر الغلام الذي حملته مريم هو عيسى ابن مريم وهذه الصفة صفته وهذا الخبر خبره وهو ﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ يعني أن هذا الخبر الذي قصصته عليكم قول الحق والكلام الذي تلوته عليكم قول الله وخبره لا خبر غيره الذي يقع فيه الوهم والشك والزيادة والنقصان على ما كان يقول الله تعالى ذكره فقولوا في عيسى أيها الناس هذا القول الذي أخبركم الله به عنه لا ما قالت اليهود الذي زعموا أنه لغير رشدة وأنه كان ساحراً كذاباً ولا ما قالت النصارى من أنه كان لله ولداً وإن الله لم يتخذ ولداً ولا ينبغي ذلك له * وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكره من قال ذلك حدثنا القاسم... عن مجاهد قوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قال الله الحق. حدثني يحيى عن إبراهيم المسعودي... عن إبراهيم قال كانوا يقولون في هذا الحرف في قراءة عبدالله قال الحق الذي فيه يمترون قال كلمة الله ولو وجه تأويل ذلك إلى ذلك عيسى ابن مريم القول الحق بمعنى ذلك القول الحق ثم حذف الألف واللام من القول وأضيف إلى الحق كما قيل ﴿إِنَّ هَذَا هُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وكما قيل وعد الصدق الذي كانوا يوعدون كان تأويلاً

صحيحاً وقد اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء الحجاز والعراق قول الحق برفع القول على ما وصفت من المعنى وجعلوه في إعرابه تابعاً لعيسى كالنعت له وليس الأمر في إعرابه عندي على ما قاله الذين زعموا أنه رفع على النعت لعيسى إلا أن يكون معنى القول الكلمة على ما ذكرنا عن إبراهيم من تأويله ذلك كذلك فيصح حينئذ أن يكون نعتاً لعيسى وإلا فرفعه عندي بمضمهر وهو هذا قول الحق على الابتداء وذلك أن الخبر قد تنهى عن قصة عيسى وأمه عند قوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ثم ابتداء الخبر بأن الحق فيما فيه تمتري الأمم من أمر عيسى هو هذا القول الذي أخبر الله به عنه عباده دون غيره وقد قرأ ذلك عاصم بن أبي النجود وعبدالله بن عامر بالنصب وكأنهما أرادا بذلك المصدر ذلك عيسى ابن مريم قولاً حقاً ثم أدخلت فيه الألف واللام. وأما ما ذكر عن ابن مسعود من قراءته ذلك عيسى ابن مريم قال الحق فإنه بمعنى قول الحق مثل العاب والعيب والذام والذيم * قال أبو جعفر والصواب من القراءة في ذلك عندنا الرفع لإجماع الحجة من القراء عليه وأما قوله تعالى ذكره ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ فإنه يعني الذي فيه يختصمون ويختلفون من قولهم ماريت فلاناً إذا جادلته وخاصمته. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا بشر... عن قتادة قوله ذلك عيسى ابن مريم قول الحق ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ امترت فيه اليهود والنصارى فأما اليهود فزعموا أنه ساحر كذاب وأما النصارى فزعموا أنه ابن الله وثالث ثلاثة وإله وكذبوا كلهم ولكنه عبدالله ورسوله وكلمته وروحه. حدثنا القاسم... عن ابن جريج قوله ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ قال اختلفوا فقالت فرقة هو عبدالله ونبه فآمنوا به وقالت فرقة بل هو الله وقالت فرقة هو ابن الله تبارك وتعالى عما يقولون علواً كبيراً قال فذلك قوله ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ [مريم: ٣٧] والتي في الزخرف قال دقيوس ونسطور وماريعقوب قال أحدهم حين رفع الله عيسى هو الله وقال الآخر ابن الله وقال الآخر كلمة الله وعبداه فقال المفتريان إن قولني هو أشبه بقولك وقولك بقولي من قول هذا فهلم فلنقاتلهم فقاتلوهم وأوطؤهم وغلبوهم حتى خرج النبي

ﷺ وهم مسلمة أهل الكتاب. حدثنا الحسن... عن قتادة في قوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾ قال اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع فقال أحدهم هو الله هبط إلى الأرض وأحيا من أحيا وأمات من أمات ثم صعد إلى السماء وهم يعقوبية فقال الثلاثة كذبت ثم قال اثنان منهم للثالث قل أنت فيه قال هو ابن الله وهم النسطورية فقال الاثنان كذبت ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه قال هو ثالث ثلاثة الله إله وهو إله وأمه إله وهم الإسرائيلية ملوك النصارى قال الرابع كذبت هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون فكان لكل رجل منهم أتباع على ما قال فاقتلوا فظهر على المسلمين وذلك قول الله ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِي يَأْمُرُوكَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] قال قتادة هم الذين قال الله ﴿فَأَخْلَفَ الْأَحْزَابَ﴾ [مريم: ٣٧] اختلفوا فيه فصاروا أحزاباً * القول في تأويل قوله تعالى ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ. وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِكُمُ الرَّحْمَةَ فَاصْبِرُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره لقد كفر الذين قالوا إن عيسى ابن الله وأعظموا الفرية عليه فما ينبغي لله أن يتخذ ولداً ولا يصلح ذلك له ولا يكون بل كل شيء دونه فخلقه وذلك نظير قول عمرو بن أحمر:

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة

ما ينبغي دونها سهل ولا جبل

وأن من قوله أن يتخذ في موضع رفع بكان وقوله ﴿سُبْحَنَهُ﴾ يقول تنزيهاً لله وتبرئة له أن يكون له ما أضاف إليه الكافرون القائلون عيسى ابن الله وقوله ﴿إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يقول جل ثناؤه إنما ابتداء الله خلق عيسى ابتداء وأنشأ إنشأه من غير فعل افتحل أمه ولكنه قال له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ لأنه كذلك يتبدع الأشياء ويخترعها إنما يقول إذا قضى خلق شيء أو إنشأه كن فيكون موجوداً حادثاً لا يعظم عليه خلقه لأنه لا يخلقه بمعانة وكلفة ولا ينشئه بمعالجة وشدة. وقوله ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك فقرأته عامة قراء

وإذا قرىء كذلك لم يكن لها موضع وقد يجوز أن يكون عطفاً على أن التي مع قوله ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ مَآتَلَنِي الْكِتَابَ﴾ ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ ولو قال قائل ممن قرأ ذلك نصباً نصب على العطف على الكتاب بمعنى آتاني الكتاب وآتاني أن الله ربي وربكم كان وجهاً حسناً ومعنى الكلام وإني وأنتم أيها القوم جميعاً لله عبيد فإياه فاعبدوا دون غيره. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل ذكر من قال ذلك حدثنا ابن حميد... عن وهب بن منبه قال عهد إليهم حين أخبرهم عن نفسه ومولده وموته وبعثه ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي إني وإياكم عبيد الله فاعبدوه ولا تعبدوا غيره وقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول هذا الذي أوصيتكم به وأخبرتكم أن الله أمرني به هو الطريق المستقيم الذي من سلكه نجا ومن ركه هتدى لأنه دين الله الذي أمر به أنبياءه.

الزمخشري ج ٢ ص ٥٠٤ - ٥٠٩

يحيا به ويوحيه أو سماه الله روحه على المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك أنت روحي. وقرأ أبو حيوه روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله الذي هو عدة المقربين في قوله - ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾. ﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [السواعة: ٨٩] أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح: أي مقرَّبنا وذو روحنا. أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله وتخشاه وتحفل بالاستعاذة به فإني عائذة به منك كقوله تعالى ﴿يَقِيْتُ اللَّهَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ٨٦] - أي إنما أنا رسول من استعذت به لأهب لك لأكون سبباً في هبة الغلام بالنفخ في الدرع، وفي بعض المصاحف (إنما أنا رسول ربك أمرني أن أهب لك) أو هي حكاية لقول الله تعالى. جعل المسَّ عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه كقوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧] أو لمستم النساء والزنى ليس كذلك، إنما يقال فيه فجر بها وخبت بها وما أشبه ذلك وليس بقمن أن تراعي فيه الكنايات والآداب. والبغي: الفاجرة التي تبغي الرجال وهي فعول عند المبرد بغوي فأدغمت الواو في الياء. وقال ابن جني

أهل المدينة والبصرة ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ واختلف أهل العربية في وجه فتح أن إذا فتحت فقال بعض نحويي الكوفة فتحت رداً على عيسى وعطفاً عليه بمعنى ذلك عيسى ابن مريم وذلك أن الله ربي وربكم وإذا كان ذلك كذلك كانت أن رفعا وتكون بتأويل خفض كما قال ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٣١] قال ولو فتحت على قوله ﴿وَأَوْصِنِي﴾ بأن الله كان وجهاً وكان بعض البصريين يقول وذكر ذلك أيضاً عن أبي عمرو بن العلاء وكان ممن يقرؤه بالفتح إنما فتحت أن بتأويل وقضى أن الله ربي وربكم وكانت عامة قراء الكوفيين يقرؤه وإن الله بكسران بمعنى النسق على قوله ﴿فَأَنَّمَا يَقُولُ لَكُمُ﴾ وذكر عن أبي بن كعب أنه كان يقرؤه فإنما يقول له كن فيكون إن الله ربي وربكم بغير واو. قال أبو جعفر والقراءة التي نختار في ذلك الكسر على الابتداء

قال ابن عيينة: إنها أوحش المواطن (إذ) بدل من مريم بدل اشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، وفيه أن المقصود بذكر مريم ذكر وقتها هذا لوقوع هذه القصة العجيبة فيه، والانتباز: الاعتزال والانفراد... فإذا حاضت تحولت إلى بيت خالتها، فإذا طهرت عادت إلى المسجد فبينا هي في مغسلتها أتاها الملك في صورة آدمي شاب أمرد وضيء الوجه جعد الشعر سوي الخلق لم ينتقص من الصورة الآدمية شيئاً، أو حسن الصورة مستوى الخلق، وإنما مثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على استماع كلامه. ودلّ على عفافها وروعها أنها تعودت بالله من تلك الصورة الجميلة الفائقة الحسن، وكان تمثيله على تلك الصفة ابتلاءً لها وسبراً لعفتها. وقيل كانت في منزل زوج أختها زكريا ولها محراب على حدة تسكنه، وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها الباب... وقيل قام بين يديها في صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس. وقيل إن النصارى اتخذت المشرق قبلة لانتباز مريم مكاناً شرقياً. الروح جبريل لأن الدين

﴿الْمَخَاضُ﴾ بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها. طلبت الجذع لتستر به وتعتمد عليه عند الولادة، وكان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء، والتعريف لا يخلو إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة متعالم عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون غيره من جذوع النخل، وإما أن يكون تعريف الجنس: أي جذع هذه الشجرة خاصة كأن الله تعالى إنما أرشدها إلى النخلة ليطعمها منها الرطب الذي هو خرسة النفساء الموافقة لها، ولأن النخلة أقل شيء صبراً على البرد وثمارها إنما هي من جمارها، فلموافقتها لها مع جمع الآيات فيها اختارها لها وألجأها إليها. قرىء ﴿مِثُّ﴾ بالضم والكسر يقال مات يموت ومات يمات. النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطامث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح في قوله تعالى ﴿وَقَدَّيْنَهُ يَذْبَحُ عَظِيمٌ﴾ [الصافات: ١٠٧]، وعن يونس: العرب إذا ارتحلوا عن الدار قالوا انظروا أنساءكم: أي الشيء اليسير نحو العصا والقدر والشظاظ، تمت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه له من شأنه وحقه أن ينسى في العادة، وقد نسي وطرح فوجد فيه النسيان الذي هو حقه ولك لما لحقها من فرط الحياء والتشور من الناس على حكم العادة البشرية، لا كراهة لحكم الله أو لشدة التكليف عليها إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة وبضد ما قرفت به من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام لأنه مقام دحض قلما ثبتت عليه الأقدام أن تعرف اغتباطك بأمر عظيم وفضل باهر تستحق به المدح وتستوجب التعظيم ثم تراه عند الناس لجهلهم به عيباً يعاب به ويعنف بسببه، أو لخوفها على الناس أن يعصوا الله بسببها. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمة وحفص نسياً بالفتح؛ قال الفراء: هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، ويجوز أن يكون مسمى بالمصدر كالحمل. وقرأ محمد بن كعب القرظي نساً بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسؤه أهله لقلته ونزارته، وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على

في كتاب التمام: هي فعيل ولو كانت فعولاً لقليل بغو كما قيل فلان نهو عن المنكر ﴿وَلَنَجْجَعَنَّ آيَةً﴾ تعليل معللة محذوف: أي ولنجعل آية للناس فعلنا ذلك، أو هو معطوف على تعليل مضمّر: أي لنبين به قدرتنا ولنجعل آية ونحوه ﴿وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [الجاثية: ٢٢] وقوله ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ﴾ [يوسف: ٢١] ﴿مَقْصِيًا﴾ مقدّر مسطوراً في اللوح لا بد لك من جريه عليك، أو كان أمراً حقيقياً بأن يكون ويقضي لكونه آية ورحمة، والمراد بالآية العبرة والبرهان على قدرة الله، وبالرحمة الشرائع والألطف، وما كان سبباً في قوة الاعتقاد والتوصل إلى الطاعة والعمل الصالح فهو جدير بالتكوين. وقيل كان مدة الحمل ستة أشهر. وعن عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر، وقيل: ثمانية ولم يعيش مولود وضع لثمانية إلا عيسى، وقيل ثلاث ساعات، وقيل حملته في ساعة وصوّر في ساعة ووضعته في ساعة حين زالت الشمس من يومها. وعن ابن عباس: كانت مدة الحمل ساعة واحدة كما حملته نبذته، وقيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشر وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل قالوا: ما من مولود إلا يستهل غيره ﴿فَأَنْبَدَتْ بِهِ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله «تدوس بنا الجماجم والتريبا» أي تدوس الجماجم ونحن على ظهورها ونحوه قوله تعالى ﴿تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تنبت ودهنها فيها الجار والمجور في موضع الحال ﴿قَصِيًا﴾ بعيداً من أهلها وراء الجبل، وقيل أقصى الدار، وقيل كانت سميت لابن عم لها اسمه يوسف، فلما قيل حملت من الزنى خاف عليها قتل الملك فهرب بها، فلما كان ببعض الطريق حدثته نفسه بأن يقتلها، فاتاه جبريل فقال: إنه من روح القدس فلا تقتلها فتركها ﴿فَأَجَاءَهَا﴾ أجاء منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء؛ ألا تراك لا تقول جئت المكان وأجاءني زيد كما تقول بلغته وأبلغني، ونظيره أتى حيث لم يستعمل إلا في الإعطاء، ولم تقل أتيت المكان وآتانيه فلان. قرأ ابن كثير في رواية

الإتباع كالمغيرة والمنخر ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ هو جبريل عليه السلام، قيل كان يقبل كالقابلة، وقيل هو عيسى وهي قراءة عاصم وأبي عمرو، وقيل تحتها أسفل من مكانها كقوله ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥] وقيل كان أسفل منها تحت الأكمة فصاح بها إن لا تحزني. وقرأ نافع وحزمة والكسائي وحفص من تحتها. وفي ناداها ضمير الملك أو عيسى. وعن قتادة الضمير في تحتها للنخلة. وقرأ زز وعلقمة فخطبها من تحتها «سئل النبي ﷺ عن السري فقال: هو الجدول» قال لبيد:

فتوسطا عرض السري فصدا

مسجورة متجاورا قلامها

وقيل هو من السرور والمراد عيسى. وعن الحسن: كان والله عبداً سرياً. فإن قلت: ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب. قلت: لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب، ولكن من حيث إنهما معجزتان تريان الناس أنها من أهل العصمة والبعد من الريبة وأن مثلها مما قرفوها به بمعزل، وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات خارقة لما ألفوا واعتادوا، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فحل ليس ببدع من شأنها ﴿سَقَطَ﴾ فيه تسع قراءات بإدغام التاء، وتساقط بإظهار التاءين، وتساقط بطرح الثانية، ويساقط بالياء وإدغام التاء، وتساقط وتسقط ويسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجدع، و﴿رُطْبًا﴾ تمييز أو مفعول على حسب القراءة. وعن المبرد جواز انتصابه بهزي وليس بذلك والباء في جذع النخلة صلة للتأكيد كقوله تعالى - ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥] - أو على معنى افعلي الهز به كقوله: بجرح في عراقبيها نصلي. قالوا: التمر للنفساء عادة من ذلك الوقت وكذلك التحنيك، وقالوا: كان من العجوة. وقيل ما للنفساء خير من الرطب ولا للمريض خير من العسل. وقيل إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب. عن طلحة بن سليمان ﴿جَنِيًّا﴾ بكسر الجيم للإتباع: أي جمعنا لك في السري والرطب فائدتين إحداهما الأكل والشرب، والثانية سلوة الصدر لكونهما معجزتين، وهو في معنى قوله ﴿فَكُلِّي﴾

وَأَشْرِي وَفَرِي عَيْنًا﴾ أي وطيب نفسي ولا تغتمني وارفضي عنك ما أحزنك وأهملك. وقرىء وقرىء بالكسر لغة نجد (فلما ترثن) بالهمز ابن الرومي عن أبي عمرو، وهذا من لغة من يقول: لبأت بالحج وحلأت السوق، وذلك لتأخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال ﴿صَوْمًا﴾ صمتا. وفي مصحف عبدالله صمتاً. وعن أنس بن مالك مثله، وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم، وقد نهى رسول الله ﷺ عن صوم الصمت لأنه نسخ في أمته. أمرها الله بأن تنذر الصوم لثلاث تشرع مع البشر المتهمين لها في الكلام لمعنيين: أحدهما أن عيسى صلوات الله عليه يكفيها الكلام بما يبريء به ساحتها، والثاني كراهة مجادلة السفهاء ومناقلتهم. وفيه أن السكوت عن السفه واجب، ومن أذل الناس سفه لم يجد مسافها. قيل أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة وقيل سوغ لها ذلك بالنطق ﴿إِنْسِيًّا﴾ أي أكل الملائكة دون الإنس. الفري البديع وهو من فري الجلد ﴿يَتَأَخَتَ هَرُونَ﴾ كان أخاها من أبيها من أمثل بني إسرائيل. وقيل هو أخو موسى صلوات الله عليهما. وعن النبي ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من أعقابها في طبقة الأخوة وبينها وبينه ألف سنة وأكثر. وعن السدي: كانت من أولاده، وإنما قيل يا أخت هارون كما يقال يا أخا همدان: أي يا أحداً منهم. وقيل رجل صالح أو طالح في زمانها شبهوها به: أي كنت عندنا مثله في الصلاح، أو شتموها به ولم ترد أخوة النسب. ذكر أن هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمى هارون تبركاً به وباسمه، فقالوا: كنا نشبهك بهارون هذا. وقرأ عمر بن لجأ التيمي: ما كان أباك امرؤ سوء. وقيل احتمل يوسف النجار مريم وابنها إلى غار فلبثوا فيه أربعين يوماً حتى تعلت من نفاسها ثم جاءت تحمله فكلما عيسى في الطريق فقال: يا أماء أبشري فإني عبدالله ومسيحه، فلما دخلت به على قومها وهم أهل بيت صالحون تباكوا وقالوا ذلك. وقيل هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام فتركوها ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي هو الذي يجيبكم إذا ناطقتموه، وقيل كان المستنطق لعيسى زكريا عليه السلام. وعن السدي: لما أشارت إليه غضبوا وقالوا لسخريتها بنا

القاف، وكذلك في الأنعام ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقول والقال والقول بمعنى واحد كالرهب والرهب والرهب، وارتفاعه على أنه خبر بعد خبر أو بدل أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله، وعلى أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة إن أريد قول الثبات والصدق كقولك هو عبدالله حقاً والحق لا الباطل، وإنما قيل لعيسى كلمة الله وقول الحق لأنه لم يولد إلا بكلمة الله وحدها وهي قوله كن من غير واسطة أب تسمية لمسبب باسم السبب كما سمي العشب بالسماء والشحم بالندا، ويحتمل إذا أريد بقول الحق عيسى أن يكون الحق اسم الله عز وجل، وأن يكون بمعنى الثبات والصدق، ويعضده قوله ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتَّرُونَ﴾ أي أمره حق يقين وهم فيه شاكون ﴿يَمَتَّرُونَ﴾ يشكون، والمريّة الشك، أو يتمارون يتلاحقون. قالت اليهود: ساحر كذاب، وقالت النصارى ابن الله وثالث ثلاثة. وقرأ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يمترون على الخطاب. وعن أبيّ بن كعب قول الحق الذي كان الناس فيه يمترون. كذب النصارى وبكتهم بالدلالة على انتفاء الولد عنه وأنه مما لا يتأتى ولا يتصور في العقول وليس بمقدور عليه، إذ من المحال غير المستقيم أن تكون ذاته كذات من ينشأ منه الولد، ثم بين إحالة ذلك بأن من إذا أراد شيئاً من الأجناس كلها أوجده بكن كان منزهاً من شبه الحيوان الوالد، والقول ههنا مجاز ومعناه أن إرادته للشيء يتبعها كونه لا محالة من غير توقف، فشبّه ذلك بأمر الأمر المطاع إذا ورد على المأمور المتمثل. قرأ المديون وأبو عمرو بفتح أن، ومعناه: ولأنه ربي وربكم فاعبدوه كقوله - ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨] - والأستار وأبو عبيدة بالكسر على الابتداء وفي حرف أبيّ: إن الله بالكسر بغير واو.

أشد علينا من زناها. وروي أنه كان يرضع، فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته. وقيل كلمهم بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان (كان) لإيقاع مضمون الجملة في زمان ماضٍ مبهم يصلح لقريبه وبعيده وهو ههنا لقريبه خاصة والدالّ عليه مبني الكلام وأنه مسوق للتعجب، ووجه آخر أن يكون نكلم حكاية حال ماضية: إي كيف عهد قبل عيسى أن يكلم الناس صبيّاً في المهد فيما سلف من الزمان حتى نكلم هذا. أنطقه الله أولاً بأنه عبدالله ردّاً لقول النصارى: ﴿وَالْكُتُبُ﴾ هو الإنجيل. واختلفوا في نبوته فقيل أعطيها في طفوليته أكمل الله عقله واستنبأه طفلاً نظراً في ظاهر الآية. وقيل معناه: أن ذلك سبق في قضائه أو جعل الآتي لا محالة كأنه قد وجد ﴿مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ عن رسول الله ﷺ نفاعاً حيث كنت وقيل معلماً للخير. قرئ ﴿وَبَرًّا﴾ عن أبي نهيك جعل ذاته برّاً لفرط بره أو نصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفنيها واحد ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ قيل أدخل لام التعريف لتعرفه بالذكر قبله كقولك جاءنا رجل، فكان من فعل الرجل كذا؛ والمعنى: ذلك السلام الموجه إلى يحيى في المواطن الثلاثة موجه إليّ. والصحيح أن يكون هذا التعريف تعريضاً باللعنة على متهمي مريم عليها السلام وأعدائها من اليهود، وتحقيقه أن اللام للجنس؛ فإذا قال: وجنس السلام عليّ خاصة، فقد عرّض بأن ضده عليكم، ونظيره قوله تعالى ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧] يعني أن العذاب على من كذب وتولى وكان المقام مقام منكرة وعناد فهو مثنة لنحو هذا من التعريض. قرأ عاصم وابن عامر ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾ بالنصب. وعن ابن مسعود: قال الحق وقال الله. وعن الحسن: ﴿قَوْلِكَ الْحَقِّ﴾ بضم

الرازي ج ٢١ ص ١٩٥ - ٢٢٠

الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه أن المقصود بذكر وقت هذا الوقوع لهذه القصة العجيبة فيه.

المسألة الثانية: النبذ أصله الطرح والإلقاء والانتباز افتعال منه ومنه ﴿فَتَبَدَّوْهُ وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٨٧]

قوله تعالى ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ ابْتَدَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْفِيًّا. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إذ بدل من مريم بدل اشتمال لأن

وانتبهذت تنحت يقال جلس نبذة من الناس ونبذة بضم النون وفتحها أي ناحية وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذت إليه شيئاً وصل إليه ونبذت الشيء رميته ومنه النبذ لأنه يطرح في الإناء وأصله منبوذ فصرف إلى فعيل ومنه قيل للقيط منبوذ لأنه يرمى به ومنه النهي عن المناذلة في البيع وهو أن يقول إذا نبذت إليك هذا الثوب أو الحصة فقد وجب البيع إذا عرفت هذا فنقول قوله تعالى ﴿إِذْ أُنْبِذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ معناه تباعدت وانفردت على سرعة إلى مكان يلي ناحية الشرق ثم بين تعالى أنها مع ذلك اتخذت من دون أهلها حجاباً مستوراً وظاهره ذلك أنها لم تقتصر على أن انفردت إلى موضع بل جعلت بينها وبينهم حائلاً من حائط أو غيره ويحتمل أنها جعلت بين نفسها وبينهم سترًا وهذا الوجه الثاني أظهر من الأول ثم لا بد في احتجابها من أن يكون لغرض صحيح وليس المذكوراً واختلف المفسرون فيه على وجوه (الأول) إنها لما رأت الحيف تباعدت عن مكانها المعتاد للعبادة لكي تنتظر الطهر فتغتسل وتعود فلما طهرت جاءها جبريل عليه السلام. (والثاني) إنها طلبت الخلوة لئلا تشتغل عن العبادة. (والثالث) قعدت في مشرقة للاغتسال من الحيف محتجبة بشيء يسترها. (الرابع) إنها كان لها في منزل زوج أختها زكريا محراب على حدة تسكنه وكان زكريا إذا خرج أغلق عليها فتمنت [على] الله [أن] تجد خلوة في الجبل لتفلي رأسها فانفرج السقف لها فخرجت إلى المفازة فجلست في المشرقة وراء الجبل فأتاها الملك. (وخامسها) عطشت فخرجت إلى المفازة لتستقي. واعلم أن كل هذه الوجوه محتمل وليس في اللفظ ما يدل على ترجيح واحد منها.

المسألة الثالثة: المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله لقوله تعالى ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبله.

المسألة الرابعة: إنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح فقال

الأكثر أن إنه جبريل عليه السلام وقال أبو مسلم إنه الروح الذي تصور في بطنها بشراً والأول أقرب لأن جبريل عليه السلام يسمى روحاً قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ. عَلَى قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣] وسمي روحاً لأنه روحاني وقيل خلق من الروح وقيل لأن الدين يحيا به أو سماه الله تعالى بروحه المجاز محبة له وتقريباً كما تقول لحبيبك روعي وقرأ أبو حيوة روحنا بالفتح لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابته الروح عند الله الذي هو عدة المتقين في قوله ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨] أو لأنه من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا وذا روحنا وإذا ثبت أنه يسمى روحاً فهو هنا يجب أن يكون المراد به هو لأنه قال ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ ولا يليق ذلك إلا بجبريل عليه السلام واختلفوا في أنه كيف ظهر لها (فالأول) إنه ظهر لها على صورة شاب أمرد حسن الوجه سوي الخلق. (والثاني) إنه ظهر لها على صورة ترب لها اسمه يوسف من خدم بيت المقدس وكل ذلك محتمل ولا دلالة في اللفظ على التعيين ثم قال وإنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه فلو ظهر لها في صورة الملائكة لنفرت عنه ولم تقدر على استماع كلامه ثم ههنا إشكالات. (أحدهما) وهو أنه لو جاز أن يظهر الملك في صورة إنسان معين فحينئذ لا يمكننا القطع بأن هذا الشخص الذي أراه في الحال هو زيد الذي رأيته بالأمس لاحتمال أن الملك أو الجني تمثل في صورته وفتح هذا الباب يؤدي إلى السفسطة لا يقال هذا إنما يجوز في زمان جواز البعثة فأما في زماننا هذا فلا يجوز لأننا نقول هذا الفرق إنما يعلم بالدليل، فالجاهل بذلك الدليل يجب أن لا يقطع بأن هذا الشخص الذي أراه الآن هو الشخص الذي رأيته بالأمس. (وثانيها) إنه جاء في الأخبار أن جبريل عليه السلام شخص عظيم جداً فذلك الشخص العظيم كيف صار بدنه في مقدار جثة الإنسان بأن تساقطت أجزائه وتفرقت بنيته فحينئذ لا يبقى جبريل أو بأن تداخلت أجزائه وذلك يوجب تداخل الأجزاء وهو محال. (وثالثها) وهو أنا لو جوزنا أن يتمثل جبريل عليه السلام في صورة الآدمي فلم يجوز تمثله في صورة جسم

المسألة الثالثة: المكان الشرقي هو الذي يلي شرقي بيت المقدس أو شرقي دارها وعن ابن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم خلق الله لأي شيء اتخذت النصارى المشرق قبله لقوله تعالى ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى قبله.

المسألة الرابعة: إنها لما جلست في ذلك المكان أرسل الله إليها الروح واختلف المفسرون في هذا الروح فقال

رَسُولُ رَبِّكَ ﴿ ليزول عنها ذلك الخوف ولكن الخوف لا يزول بمجرد هذا القول بل لا بد من دلالة تدل على أنه كان جبريل عليه السلام وما كان من الناس فهنا يحتمل أن يكون قد ظهر معجز عرفت به جبريل عليه السلام ويحتمل أنها من جهة زكريا عليه السلام عرفت صفة الملائكة فلما قال لها ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أظهر لها من باطن جسده ما عرفت أنه ملك فيكون ذلك هو العلم وسأل القاضي عبد الجبار في تفسيره نفسه فقال إذا لم تكن نبية عندكم وكان من قولكم إن الله تعالى لم يرسل إلى خلقه إلا رجالاً فكيف يصح ذلك وأجاب أن ذلك إنما وقع في زمان زكريا عليه السلام وكان رسولاً وكل ذلك كان عالماً به وهذا ضعيف لأن المعجز إذا كان مفعولاً للنبي فأقل ما فيه أن يكون عليه السلام عالماً به وزكريا ما كان عنده علم بهذه الوقائع فكيف يجوز جعله معجزاً له بل الحق أن ذلك إما أن يكون كرامة لمريم أو إرهاباً لعيسى عليه السلام.

المسألة الثانية: قرأ ابن عامر ونافع ليهب بياء مفتوحة بعد اللام أي ليهب الله لك والباقون بهمزة مفتوحة بعدها أما قوله لأهب لك ففي مجازة وجهان: (الأول) إن الهبة لما جرت على يده بأن كان هو الذي نفخ في جيبها بأمر الله تعالى جعل نفسه كأنه هو الذي وهب لها وإضافة الفعل إلى ما هو سبب له مستعمل قال تعالى في الأصنام ﴿ إِنَّمَنْ أَضَلَّنْ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ ﴾ [إبراهيم: ٣٦]. (الثاني) إن جبريل عليه السلام لما بشرها بذلك كانت تلك البشارة الصادقة جارية مجرى الهبة فإن قال قائل ما الدليل على أن جبريل عليه السلام لا يقدر على تركيب الأجزاء وخلق الحياة والعقل والنطق فيها والذي يقال فيه إن جبريل عليه السلام جسم والجسم لا يقدر على هذه الأشياء أما أنه جسم فلا أنه محدث وكل محدث إما متحيز أو قائم بالمتحيز وأما أن الجسم لا يقدر على هذه الأشياء فلا أنه لو قدر جسم على ذلك لقدر عليه كل جسم لأن الأجسام متماثلة وهو ضعيف لأن للخصم أن يقول لا نسلم أن كل محدث إما متحيز أو قائم به، بل ههنا موجودات قائمة بأنفسها لا متحيزة ولا قائمة بالمتحيز ولا يلزم من كونها كذلك كونها أمثالا لذات الله تعالى لأن الاشتراك في الصفات الثبوتية لا

أصغر من الآدمي حتى الذباب والبق والبعوض ومعلوم أن كل مذهب جر إلى ذلك فهو باطل. (ورابعها) إن تجوزيه يفضي إلى القدح في خبر التواتر فلعل الشخص الذي حارب يوم بدر لم يكن محمداً بل كان شخصاً آخر تشبه به وكذا القول في الكل (والجواب) عن الأول أن ذلك التجويز لازم على الكل لأن من اعترف بافتقار العالم إلى الصانع المختار فقد قطع بكونه تعالى قادراً على أن يخلق شخصاً آخر مثل زيد في خلقه وتخطيطه وإذا جوزنا ذلك فقد لزم الشك في أن زيداً المشاهد الآن هو الذي شاهدناه بالأمس أم لا، ومن أنكر الصانع المختار وأسند الحوادث إلى اتصالات الكواكب وتشكلات الفلك لزمه تجويز أن يحدث اتصال غريب في الأفلاك يقتضي حدوث شخص مثل زيد في كل الأمور وحينئذ يعود التجويز المذكور. (وعن الثاني) أنه لا يمتنع أن يكون جبريل عليه السلام له أجزاء أصلية وأجزاء فاضلة والأجزاء الأصلية قليلة جداً فحينئذ يكون متمكناً من التشبه بصورة الإنسان، هذا إذا جعلناه جسمانياً أما إذا جعلناه روحانياً فأي استبعاد في أن يتذرع تارة بالهيكل العظيم وأخرى بالهيكل الصغير (وعن الثالث) أن أصل التجويز قائم في العقل وإنما عرف فساده بدلائل السمع وهو الجواب عن السؤال الرابع والله أعلم.

قوله تعالى ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا ﴾ وفيه وجوه (أحدها) أرادت إن كان يرجى منك أن تتقي الله ويحصل ذلك بالاستعاذة به فإنني عائدة به منك وهذا في نهاية الحسن لأنها علمت أنه لا تؤثر الاستعاذة إلا في التقي وهو كقوله ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي أن شرط الإيمان يوجب هذا لا أن الله تعالى يخشى في حال دون حال. (وثانيها) إن معناه ما كنت تقياً حيث استحللت النظر إليّ وخلوت بي. (وثالثها) إنه كان في ذلك الزمان إنسان فاجر اسمه تقي يتبع النساء فظنت مريم عليها السلام أن ذلك الشخص المشاهد هو ذلك التقي والأول هو الوجه.

قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لِكَ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لما علم جبريل خوفها قال ﴿ إِنَّمَا أَنَا

ولأنها كانت منفردة بالعبادة ومن يكون كذلك لا بد من أن يعرف قدره الله تعالى على ذلك .

المسألة الثانية: لقائل أن يقول قولها ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا﴾ يدخل تحته قولها ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فلماذا أعادتها ومما يؤكد هذا السؤال أن في سورة آل عمران قالت ﴿رَبِّ أَفَنُكُونُ لِي وَلَدًا وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٤٧] فلم تذكر البغاء والجواب من وجوه: (أحدها) إنها جعلت المس عبارة عن النكاح الحلال لأنه كناية عنه لقوله ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٩] «والزنا ليس كذلك إنما يقال فجر بها أو ما أشبه ذلك ولا يليق به رعاية الكنايات. و(ثانيها) إن أعادتها لتعظيم حالها كقوله ﴿حَفِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: ٢٣٨] وقوله ﴿وَمَلَئِكْتِهِمْ وَرُسُلِهِمْ وَجَبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ﴾ [البقرة: ٩٨] فكذا ههنا إن من لم تعرف من النساء بزواج فأغلب أحوالها إذا أتت بولد أن تكون زانية فأفرد ذكر البغاء بعد دخوله في الكلام الأول لأنه أعظم ما في بابه .

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف البغي الفاجرة التي تبغي الرجال وهو فعول عند المبرد بغوي فأدغمت الواو في الياء، وقال ابن جني في كتاب التمام هو فعيل ولو كان فعولاً لقليل بغوا كما قيل نهوا عن المنكر .

المسألة الرابعة: إن جبريل عليه السلام أجابها بقوله ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ﴾ وهو كقوله في آل عمران ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧] لا يمتنع عليه فعل ما يريد خلقه ولا يحتاج في إنشائه إلى الآلات والمواد .

المسألة الخامسة: الكناية هو ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ وفي قوله ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ تحتل وجهين: (الأول) أن تكون راجعة إلى الخلق أي أن خلقه علي هين ولنجعل خلقه آية للناس إذ ولد من غير ذكر ورحمة منا يرحم عبادنا بإظهار هذه الآيات حتى تكون دلائل صدقه أبهر فيكون قبول قوله أقرب. (الثاني) أن ترجع الكنايات إلى الغلام وذلك لأنها لما تعجبت من كيفية وقوع هذا الأمر على خلاف العادة أعلمت أن الله تعالى لجاعل ولدها آية

يقتضي التماثل فكيف في الصفات السلبية سلمنا كونه جسماً فلم قلت الجسم لا يقدر عليه قوله الأجسام متماثلة قلنا نعني به أنها متماثلة في كونها حاصلة في الأحياز ذاهبة في الجهات أو نعني به أنها متماثلة في تمام ماهياتها والأول مسلم لكن حصولها في الأحياز صفات لتلك الذوات والاشتراك في الصفات لا يوجب الاشتراك في ماهيات الموصفات سلمنا أن الأجسام متماثلة فلم لا يجوز أن يقال إن الله تعالى خص بعضها بهذه القدرة دون البعض حتى أنه يصح منها ذلك ولا يصح من البشر ذلك والجواب الحق أن المعتمد في دفع هذا الاحتمال إجماع الأمة فقط والله أعلم .

المسألة الثالثة الزكي يفيد أموراً ثلاثة: (الأول) إنه الطاهر من الذنوب و(الثاني) إنه ينمو على التزكية لأنه يقال فيمن لا ذنب له زكي، وفي الزرع النامي زكي و(الثالث) النزاهة والطهارة فيما يجب أن يكون عليه ليصح أن يبعث نبياً وقال بعض المتكلمين الأولى أن يحمل على الكل وهو ضعيف لما عرفت في أصول الفقه أن اللفظ الواحد لا يجوز حملة على المعنيين سواء كان حقيقة فيهما أو في أحدهما مجازاً وفي الآخر حقيقة .

المسألة الرابعة: سماه زكياً مع أنه لم يكن له شيء من الدنيا وأنت إذا نظرت في سوقك فمن لم يملك شيئاً فهو شقي عندك . وإنما الزكي من يملك المال والله يقول كان زكياً، لأن سيرته الفقر وغناه الحكمة والكتاب وأنت وإنما تسمي بالزكي من كانت سيرته الجهل وطريقته المال .

قوله تعالى ﴿قَالَتْ أَفَنُكُونُ لِي غُلَامًا وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَاتَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا وفيه مسائل:

المسألة الأولى: إنها إنما تعجبت مما بشرها جبريل عليه السلام: لأنها عرفت بالعادة أن الولادة لا تكون إلا من رجل والعادات عند أهل المعرفة معتبرة في الأمور وإن جوزوا خلاف ذلك في القدرة فليس في قولها هذا دلالة على أنها لم تعلم أنه تعالى قادر على خلق الولد ابتداء وكيف وقد عرفت أنه تعالى خلق أباً البشر على هذا الحد

السدي أخذ بكمها فنفخ في جنب درعها فدخلت النفخة صدرها فحملت فجاءتها أختها امرأة زكريا تزورها فالتزمتها فلما التزمتها علمت أنها حبلى وذكرت مريم حالها، فقالت امرأة زكريا إني وجدت ما في بطني يسجد لما في بطنك فذلك قوله تعالى ﴿مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٣٩] . (الرابع) إن النفخة كانت في فيها فوصلت إلى بطنها فحملت في الحال، إذا عرفت هذا ظهر أن الكلام حذفاً وهو، وكان أمراً مقضياً، فنفخ فيها فحملته .

المسألة الثالثة: قيل حملته وهي بنت ثلاث عشرة سنة، وقيل بنت عشرين وقد كانت حاضت حيضتين قبل أن تحمل . وليس في القرآن ما يدل على شيء من هذه الأحوال .

المسألة الرابعة: ﴿فَأَنْبَذَتْ بِهِ﴾ أي اعتزلت وهو في بطنها كقوله ﴿تَبَّتْ يُالَ الدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] أي تبنت والدهن فيها، واختلفوا في علة الإنبذ على وجوه: (أحدها) ما رواه الثعلبي في العرائس عن وهب قال إن مريم لما حملت بعيسى عليه السلام كان معها ابن عم لها يقال له يوسف النجار وكانا منطلقين إلى المسجد الذي عند جبل صهيون، وكان يوسف ومريم يخدمان ذلك المسجد ولا يعلم في أهل زمانهما أحد أشد اجتهاداً ولا عبادة منهما، وأول من عرف حمل مريم يوسف النجار فتحير في أمرها فكلما أراد أن يتهمها ذكر صلاحها وعبادتها، وأنها لم تغب عنه ساعة قط، وإذا أراد أن يبرئها رأى الذي ظهر بها من الحمل فأول ما تكلم أن قال إنه وقع في نفسي من أمرك شيء وقد حرصت على كتمانها فغلبنني ذلك فرأيت أن الكلام فيه أشقى لصدري، فقالت قل قولاً جميلاً قال أخبريني يا مريم هل ينبت زرع بغير بذر وهل تنبت شجرة من غير غيث، وهل يكون ولد من غير ذكر؟ قالت نعم: ألم تعلم أن الله أنبت الزرع يوم خلقه من غير بذر وهذا البذر إنما حصل من الزرع الذي أنبته من غير بذر، ألم تعلم أن الله تعالى أنبت الشجرة من غير غيث وبالقدرة جعل الغيث حياة الشجر بعدما خلق كل واحد منهما على حدة، أو تقول إن الله تعالى لا يقدر على أن

على وقوع ذلك الأمر الغريب، فأما قوله تعالى ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فيحتمل أن يكون معطوفاً على ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِّلنَّاسِ﴾ أي فعلنا ذلك ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ فعلنا ذلك ويحتمل أن يكون معطوفاً على الآية أي ﴿وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً وَرَحْمَةً﴾ فعلنا ذلك .

المسألة السادسة: قوله ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ المراد منه أنه معلوم لعلم الله تعالى فيمتنع وقوع خلافه لأنه لو لم يقع لانقلب علم الله جهلاً وهو محال والمفضي إلى المحال محال فخلافه محال فوقوعه واجب وأيضاً فلأن جميع الممكنات منتهية في سلسلة القضاء والقدر إلى واجب الوجود والمنتهي إلى الواجب انتهاء واجباً يكون واجب الوجود وإذا كان واجب الوجود فلا فائدة في الحزن والأسف وهذا هو سر قوله عليه السلام «من عرف سر الله في القدر هانت عليه المصائب» .

قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا . فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلِ هَٰذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر الله تعالى أمر النفخ في آيات فقال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحریم: ١٢] أي في عيسى عليه السلام كما قال لآدم عليه السلام ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] وقال فنفخنا فيها لأن عيسى عليه السلام كان في بطنها واختلفوا في النافخ فقال بعضهم كان النفخ من الله تعالى لقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ وظاهره يفيد أن النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ﴿إِن مِّثْلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومقتضى التشبيه حصول المشابهة إلا فيما أخرجه الدليل، وفي حق آدم النافخ هو الله تعالى لقوله تعالى ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ فكذا ههنا وقال آخرون النافخ هو جبريل عليه السلام لأن الظاهر من قول جبريل عليه السلام لأهب لك أنه أمر مكون من قبله حتى يحصل الحمل مريم عليها السلام فلا بد من إحالة النفخ إليه، ثم اختلفوا في كيفية ذلك النفخ على قولين: (الأول) قول وهب إنه نفخ جبريل في جيبها حتى وصلت إلى الرحم . (الثاني) في ذيلها فوصلت إلى الفرج . (الثالث) قول

فصل وذلك يوجب كون مدة الحمل ساعة واحدة لا يقال انتباها مكاناً قصياً كيف يحصل في ساعة واحدة لأننا نقول: السدي فسرهُ بأنها ذهبت إلى أقصى موضع في جانب محرابها. (الثاني) إن الله تعالى قال في وصفه ﴿لَمْ يَكُنْ مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِهِ إِذْ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فثبت أن عيسى عليه السلام كما قال الله تعالى له ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ وهذا مما لا يتصور فيه مدة الحمل، وإنما تعقل تلك المدة في حق من يتولد من النطفة.

المسألة السادسة: ﴿قَصِيًّا﴾ أي بعيداً من أهلها، يقال مكان قاص، وقصي بمعنى واحد مثل عاص وعصي، ثم اختلفوا فقيل أقصى الدار، وقيل وراء الجبل، وقيل سافرت مع ابن عمها يوسف وقد تقدمت هذه الحكاية.

المسألة السابعة: قال صاحب الكشاف «أجاء» منقول من جاء إلا أن استعماله قد تغير بعد النقل إلى معنى الإلجاء فإنك لا تقول جئت المكان، وأجاءني زيد كما تقول بلغني وأبلغته، والمعنى أن طلقها إلجاءها إلى جذع النخلة ثم يحتمل أنها إنما ذهبت إلى النخلة طلباً لسهولة الولادة للتشبه بها. ويحتمل للتقوية والاستناد إليها، ويحتمل للتستر بها ممن يخشى منه القالة إذا رآها، ولذلك حكى الله عنها أنها تمت الموت.

المسألة الثامنة: قال في الكشاف قرأ ابن كثير في رواية المخاض بالكسر يقال مخضت الحامل مخاضاً ومخاضاً وهو تمخض الولد في بطنها.

المسألة التاسعة: قال في الكشاف كان جذع نخلة يابسة في الصحراء ليس لها رأس ولا ثمرة ولا خضرة، وكان الوقت شتاء والتعريف إما أن يكون من تعريف الأسماء الغالبة كتعريف النجم والصعق كأن تلك الصحراء كان فيها جذع نخلة مشهور عند الناس، فإذا قيل جذع النخلة فهم منه ذلك دون سائرته وإما أن يكون تعريف الجنس أي إلى جذع هذه الشجرة خاصة كان الله أرشدها إلى النخلة ليطلعها منها الرطب الذي هو أشد الأشياء موافقة للنفساء، ولأن النخلة أقل الأشياء صبراً على البرد ولا

ينبت الشجرة حتى استعان بالماء، ولولا ذلك لم يقدر على إنباتها، فقال يوسف لا أقول هذا ولكني أقول إن الله قادر على ما يشاء فيقول له كن فيكون، فقالت له مريم أو لم تعلم أن الله خلق آدم وامرأته من غير ذكر ولا أنثى؟ فعند ذلك زالت التهمة عن قلبه وكان ينوب عنها في خدمة المسجد لاستيلاء الضعف عليها بسبب الحمل وضيق القلب، فلما دنا نفاسها أوحى الله إليها أن اخرجي من أرض قومك لثلاثا يقتلوا ولدك فاحتملها يوسف إلى أرض مصر على حمار له، فلما بلغت تلك البلاد أدركها النفاس فألجأها إلى أصل نخلة، وذلك في زمان برد فاحتضنتها فوضعت عندها. و(ثانيها) إنها استحييت من زكريا فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا. و(ثالثها) إنها كانت مشهورة في بني إسرائيل بالزهد لنذر أمها وتشاح الأنبياء في تربيتها وتكفل زكريا بها، ولأن الرزق كان يأتيها من عند الله تعالى، فلما كانت في نهاية الشهرة استحييت من هذه الواقعة فذهبت إلى مكان بعيد لا يعلم بها زكريا. و(رابعها) إنها خافت على ولدها لو ولدته فيما بين أظهرهم. واعلم أن هذه الوجوه محتملة، وليس في القرآن ما يدل على شيء منها.

المسألة الخامسة: اختلفوا في مدة حملها على وجوه: (الأول) قول ابن عباس رضي الله عنهما إنها كانت تسعة أشهر كما في سائر النساء بدليل أن الله تعالى ذكر مدائحها في هذا الموضع فلو كانت عاداتها في مدة حملها بخلاف عادات النساء لكان ذلك أولى بالذكر. (الثاني) إنها كانت ثمانية أشهر، ولم يعيش مولود وضع لثمانية إلا عيسى ابن مريم عليه السلام (الثالث) وهو قول عطاء وأبي العالية والضحاك سبعة أشهر. (الرابع) إنها كانت ستة أشهر. (الخامس) ثلاث ساعات حملته في ساعة وصور في ساعة وصور في ساعة وضعته في ساعة. (السادس) وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً كانت مدة الحمل ساعة واحدة ويمكن الاستدلال عليه من وجهين: (الأول) قوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهَا﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ. فَتَادَنَهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴿والفاء للتعقيب فدللت هذه الفاءات على أن كل واحد من هذه الأحوال حصل عقيب الآخر من غير

المسألة الأولى: فنادها من تحتها القراءة المشهورة فنادها وقرأ زر وعلقة فخطبها وفي الميم فيها قراءتان فتح الميم وهو المشهور وكسره وهو قراءة نافع وحمزة والكسائي وحفص وفي المنادي ثلاثة أوجه: (الأول) إنه عيسى عليه السلام وهو قول الحسن وسعيد بن جبير. (والثاني) إنه جبريل عليه السلام وإنه كان كالقابلة للولد. (والثالث) إن المنادي على القراءة بالكسر وهو الملك وعلى القراءة بالفتح هو عيسى عليه السلام وهو مروي عن ابن عيينة وعاصم والأول أقرب لوجه: (الأول) إن قوله ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ بفتح الميم إنما يستعمل إذا كان قد علم قبل ذلك أن تحتها أحداً والذي علم كونه حاصلاً تحتها هو عيسى عليه السلام فوجب حمل اللفظ عليه، وأما القراءة بكسر الميم فهي لا تقتضي كون المنادي جبريل عليه السلام، فقد صح قولنا. (الثاني) إن ذلك الموضع موضع اللوث والنظر إلى العورة وذلك لا يليق بالملائكة. (الثالث) إن قوله فنادها فعل ولا بد أن يكون فاعله قد تقدم ذكره ولقد تقدم قبل هذه الآية ذكر جبريل وذكر عيسى عليهما السلام إلا أن ذكر عيسى أقرب لقوله تعالى ﴿فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ﴾ والضمير هنا عائد إلى المسيح فكان حمله عليه أولى. و(الرابع) هو دليل الحسن بن علي عليه السلام السلام أن عيسى عليه السلام لو لم يكن كلمها لما علمت أنه ينطق فما كانت تشير إلى عيسى عليه السلام بالكلام فأما من قال المنادي هو عيسى عليه السلام فالمعنى أنه تعالى أنطقه لها حين وضعته تطبيقاً لقلبها وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد في أول الأمر ما بشرها به جبريل عليه السلام من علو شأن ذلك الولد ومن قال المنادي جبريل عليه السلام قال إنه أرسل إليها ليناديها بهذه الكلمات كما أرسل إليها في أول الأمر ليكون ذلك تذكيراً لها بما تقدم من أصناف البشارات وأما قوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ فإن حملناه على الولد فلا سؤال وإن حملناه على الملك ففيه وجهان: (الأول) أن يكونا معاً في مكان مستو ويكون هناك مبدأ معين كتلك النخلة ههنا فكل من كان أقرب منها كان فوق وكل من كان أبعد منها كان تحت وفسر الكلبي قوله تعالى ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ

تثمر إلا عند اللقاح، وإذا قطعت رأسها لم تثمر، فكانه تعالى قال كما أن الأنثى لا تلد إلا مع الذكر فكذا النخلة لا تثمر إلا عند اللقاح، ثم إنني أظهر الرطب من غير اللقاح ليدل ذلك على جواز ظهور الولد من غير ذكر.

المسألة العاشرة: لم قالت ﴿يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا﴾ مع أنها كانت تعلم أن الله تعالى بعث جبريل إليها وخلق ولدها من نفخ جبريل عليه السلام ووعدا بأن يجعلها وابنها آية للعالمين، والجواب من وجهين: (الأول) قال وهب أنساها كربة الغربة وما سمعته من الناس [من] بشارة الملائكة بعيسى عليه السلام. (الثاني) إن عادة الصالحين إذا وقعوا في بلاء أن يقولوا ذلك وروي عن أبي بكر أنه نظر إلى طائر على شجرة فقال طوبى لك يا طائر تقع على الشجر وتأكل من الثمر! وددت أني ثمرة ينقرها الطائرا وعن عمر أنه أخذ تبنه من الأرض وقال ليتني هذه التبنه يا ليتني لم أك شيئاً! وقال علي يوم الجمل يا ليتني مت قبل هذا اليوم بعشرين سنة، وعن بلال ليت بلال لم تلده أمه. فثبت أن هذا الكلام يذكره الصالحون عند اشتداد الأمر عليهم. (الثالث) لعلها قالت ذلك لكي لا تقع المعصية ممن يتكلم فيها، وإلا فهي راضية بما بشرت به.

المسألة الحادية عشر: قال صاحب الكشاف النسي ما من حقه أن يطرح وينسى كخرقة الطمث ونحوها كالذبح اسم ما من شأنه أن يذبح كقوله ﴿وَقَدْ نَبَذْتُ يَذْبَحُ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٧] تمت لو كانت شيئاً تافهاً لا يؤبه به ومن حقه أن ينسى في العادة. وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة نسياً بالفتح والباقون نسياً بالكسر قال الفراء هما لغتان كالوتر والوتر والجسر والجسر، وقرأ محمد بن كعب القرظي نسياً بالهمز وهو الحليب المخلوط بالماء ينسأه أهله لقلته وقرأ الأعمش منسياً بالكسر على الإتيان كالمغير والمنخر والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقُ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَغَرِي عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ في الآية مسائل:

عذب و(الثاني) إنه كان هناك ماء جار و(الأول) أقرب لأن قوله ﴿قَدْ جَعَلَ رَيْكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ مشعر بالحدوث في ذلك الوقت ولأن الله تعالى ذكره تعظيماً لشأنها وذلك لا يثبت إلا على الوجه الذي قلناه. (الثاني) اختلفوا في أن السري هو النهر مطلقاً وهو قول أبي عبيدة والفراء أو النهر الصغير على ما هو قول الأخفش.

المسألة الثالثة: قال القفال الجذع من النخلة هو الأسفل وما دون الرأس الذي عليه الشجرة وقال قطرب كل خشبة في أصل شجرة فهي جذع وأما الباء في قوله بجذع النخلة فزائدة والمعنى هزي إليك أي حركي جذع النخلة، قال الفراء العرب تقول هزه وهز به وخذ الخطام وخذ بالخطام زوجتك فلانة وبفلانة، وقال الأخفش يجوز أن يكون على معنى هزي إليك رطباً بجذع النخلة أي على جذعها، إذا عرفت هذا فنقول قد تقدم أن الوقت كان شتاء وأن النخلة كانت يابسة، واختلفوا في أنه هل أثمر الرطب وهو على حاله أو تغير، وهل أثمر مع الرطب غيره؟ والظاهر يقتضي أنه صار نخلة لقوله بجذع النخلة وأنه ما أثمر إلا الرطب.

المسألة الرابعة: قال صاحب الكشف تساقط فيه تسع قراءات تساقط بإدغام التاء وتساقط بإظهار التاءين وتساقط بطرح الثانية ويساقط بالياء وإدغام التاء وتساقط وتسقط وتسقط وتسقط ويسقط التاء للنخلة والياء للجذع.

المسألة الخامسة: رطباً تمييز أو مفعول على حسب القراءة الجني المأخوذ طرياً وعن طلحة ابن سليمان جنيّاً بكسر الجيم للاتباع والمعنى جمعنا لك في السري والرطب فائدتين (إحداهما) الأكل والشراب و(الثانية) سلوة الصدر بكونهما معجزتين فإن قال قائل فتلك الأفعال الخارقة للعادات لمن؟ قلنا قالت المعتزلة إنها كانت معجزة لذكريا وغيره من الأنبياء وهذا باطل لأن ذكريا عليه السلام ما كان له علم بحالها ومكانها فكيف بتلك المعجزات، بل الحق أنها كانت كرامات لمريم أو إرهاباً لعيسى عليه السلام.

المسألة السادسة: فكلي واشربي وقرى عيناً قرىء

مِنْكُمْ ﴿[الأحزاب: ١٠] بذلك وعلى هذا الوجه قال بعضهم إنه ناداها من أقصى الوادي. و(الثاني) أن يكون موضع أحدهما أعلى من موضع الآخر فيكون صاحب العلو فوق صاحب السفلى وعلى هذا الوجه روي عن عكرمة أنها كانت حين ولدت على مثل رابية وفيه (وجه ثالث) يحكى عن عكرمة وهو أن جبريل عليه السلام ناداها من تحت النخلة ثم على التقديرات الثلاثة يحتمل أن تكون مريم قد رآته وأنها ما رآته وليس في اللفظ ما يدل على شيء من ذلك.

المسألة الثانية: اتفق المفسرون إلا الحسن وعبد الرحمن بن زيد أن السري هو النهر والجدول سمي بذلك لأن الماء يسري فيه وأما الحسن وابن زيد فجعلوا السري عيسى والسري هو النبيل الجليل يقال فلان من سروات قومه أي من أشرفهم وروي أن الحسن رجع عنه وروي عن قتادة وغيره أن الحسن تلا هذه الآية وبجنبه حميد بن عبد الرحمن الحميري ﴿قَدْ جَعَلَ رَيْكَ تَحَنُّكَ سِرِّيًّا﴾ فقال إن كان لسرياً وإن كان لكريمياً، فقال له حميد يا أبا سعيد إنما هو الجدول فقال له الحسن من ثم تعجبنا مجالستك، واحتج من حمله على النهر بوجهين: (أحدهما) أنه سأل النبي ﷺ عن السري فقال هو الجدول. و(الثاني) أن قوله ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي﴾ يدل على أنه نهر حتى ينضاف الماء إلى الرطب فتأكل وتشرب واحتج من حمله [على] عيسى بوجهين: (الأول) أن النهر لا يكون تحتها بل إلى جانبها ولا يجوز أن يجاب عنه بأن المراد منه أنه جعل النهر تحت أمرها يجري بأمرها ويقف بأمرها كما في قوله ﴿وَهَكَذَا الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ﴾ [الزخرف: ٥١] لأن هذا حمل اللفظ على مجازة ولو حملناه على عيسى عليه السلام لم يحتج إلى هذا المجاز. (الثاني) إنه موافق لقوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٠] والجواب عنه ما تقدم أن المكان المستوي إذا كان فيه مبدأ معين فكل من كان أقرب منه كان فوق وكل من كان أبعد منه كان تحت فرعان: (الأول) إن حملنا السري على النهر ففيه وجهان: (أحدهما) إن جبريل عليه السلام ضرب برجله فظهر ماء

بكسر القاف لغة نجد ونقول قدم الأكل على الشرب لأن احتياج النفساء إلى أكل الرطب أشد من احتياجها إلى شرب الماء لكثرة ما سال منها من الدماء، ثم قال وقرى عيناً، وههنا سؤال، وهو أن مضرة الخوف أشد من مضرة الجوع والعطش والدليل عليه أمران: (أحدهما) إن الخوف ألم الروح والجوع ألم البدن وألم الروح أقوى من ألم البدن. و(الثاني) ما روي أنه أجيعت شاة ثم قدم العلق إليها وربط عندها ذئب فبقيت الشاة مدة مديدة لا تتناول العلف مع جوعها الشديد خوفاً من الذئب ثم كسرت رجلها وقدم العلف إليها فتناولت العلف مع ألم البدن فدلّت هذه الحكاية على أن ألم الخوف أشد من ألم البدن، إذا ثبت هذا فنقول فلم قدم الله تعالى في الحكاية دفع ضرر الجوع والعطش على دفع ضرر الخوف، والجواب أن هذا الخوف كان قليلاً لأن بشارة جبريل عليه السلام كانت قد تقدمت فما كانت تحتاج إلى التذكير مرة أخرى.

المسألة السابعة: قال صاحب الكشف قرأتين بالهمز ابن الرومي عن أبي عمرو وهذا من لغة من يقول لبأت بالحج وحلات السويق وذلك لتآخ بين الهمز وحرف اللين في الإبدال (صوماً) صمتاً وفي مصحف عبدالله صمتاً وعن أنس بن مالك مثله وقيل صياماً إلا أنهم كانوا لا يتكلمون في صيامهم فعلى هذا كان ذكر الصوم دالاً على الصمت وهذا النوع من النذر كان جائزاً في شرعهم، وهل يجوز مثل هذا النذر في شرعنا قال الفصالح لعله يجوز لأن الاحتراز عن كلام الأدميين وتجريد الفكر لذكر الله تعالى قربة، ولعله لا يجوز لما فيه من التضييق وتعذيب النفس كنذر القيام في الشمس، وروي أنه دخل أبو بكر على امرأة قد نذرت أنها لا تتكلم فقال أبو بكر إن الإسلام هدم هذا فتكلمي والله أعلم.

المسألة الثامنة: أمرها الله تعالى بأن تنذر الصوم لثلاث تشريع مع من اتهمها في الكلام لمعنيين: (أحدهما) إن كلام عيسى عليه السلام أقوى في إزالة التهمة من كلامها وفيه دلالة على أن تفويض الأمر إلى الأفضل أولى. و(الثاني) كراهة مجادلة السفهاء وفيه أن السكوت عن

السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها. **المسألة التاسعة:** اختلفوا في أنها هل قالت معهم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ فقال قوم إنها تكلمت معهم بذلك لأنها كانت مأمورة بأن تأتي هذا النذر عند رؤيتهم فإذا أتت بهذا النذر فلو تكلمت معهم بعد ذلك لوقعت في المناقضة ولكنها أمسكت وأومات برأسها، وقال آخرون إنها ما نذرت في الحال بل صبرت حتى أتاها القوم فذكرت لهم ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ وهذه الصيغة وإن كانت عامة إلا أنها صارت بالقرينة مخصوصة في حق هذا الكلام.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِيْلًا قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا. يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ تُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْرِ صَبِيًّا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلفوا في أنها كيف أتت بالولد على أقوال: (الأول) ما روي عن وهب قال أنساها كرب الولادة وما سمعته من الناس ما كان من كلام الملائكة من البشارة بعيسى عليه السلام فلما كلمها جاءها مصداق ذلك فاحتملته وأقبلت به إلى قومها. (الثاني) ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يوسف انتهى بمريم إلى غار فأدخلها فيه أربعين يوماً حتى طهرت من النفاس ثم أتت به قومها تحمله فكلما عيسى في الطريق، فقال يا أمه أبشري فإني عبدالله ومسيحه. وهذان الوجهان محتملان وليس في القرآن ما يدل على التعيين.

المسألة الثانية: الفريء، البديع وهو من فري الجلد يروى أنهم لما رأوها ومعها عيسى عليه السلام قالوا لها ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ فيحتمل أن يكون المراد شيئاً عجيباً خارجاً عن العادة من غير تعبير وذم ويحتمل أن يكون مرادهم شيئاً عظيماً منكراً فيكون ذلك منهم على وجه الذم وهذا أظهر لقولهم بعده ﴿يَتَأَخَذَ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ لأن هذا القول ظاهره التوبيخ وأما هارون ففيه أربعة أقوال: (الأول) أنه رجل صالح من بني إسرائيل ينسب إليه كل من عرف بالصلاح، والمراد أنك كنت في الزهد كهرون فكيف صرت هكذا،

صَيِّتًا ﴿١٦﴾ أَي حصل في ﴿أَلْمَهْدِ﴾ فكان ههنا بمعنى حصل
ووجد وهذا هو الأقرب في تأويل هذا اللفظ، وإن كان
الناس قد ذكروا وجوهاً آخر.

البحث الثاني: اختلفوا في المهد فقيل هو حجرها لما
روي أنها أخذته في خرقة فأتت به قومها فلما رأوها قالوا
لها ما قالوا فأشارت إليه وهو في حجرها ولم يكن لها
منزل معد حتى يعد لها المهد أو المعنى ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ
صَيِّتًا﴾ سبيله أن ينام في المهد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا . وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا . وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا
شَقِيًّا . وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ
حَيًّا﴾.

اعلم أنه وصف نفسه بصفات تسع: (الصفة الأولى)
قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وفيه فوائد: (الفائدة الأولى) إن
الكلام منه في ذلك الوقت كان سبباً للوهم الذي ذهبت
إليه النصارى، فلا جرم أول ما تكلم إنما تكلم بما يرفع
ذلك الوهم فقال ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وكان ذلك الكلام وإن
كان موهماً من حيث إنه صدر عنه في تلك الحالة، ولكن
ذلك الوهم يزول ولا يبقى من حيث إنه تنصيص على
العبودية. (الفائدة الثانية) إنه لما أقرّ بالعبودية فإن كان
صادقاً في مقاله فقد حصل الغرض وإن كان كاذباً لم تكون
القوة قوة إلهية بل قوة شيطانية فعلى التقديرين يبطل كونه
إلهاً. (الفائدة الثالثة) إن الذي اشتدت الحاجة إليه في
ذلك الوقت إنما هو نفي تهمة الزنا عن مريم عليها السلام
ثم إن عيسى عليه السلام لم ينص على ذلك وإنما نص
على إثبات عبودية نفسه كأنه جعل إزالة التهمة عن الله
أولى من إزالة التهمة عن الأم، فلهذا أول ما تكلم إنما
تكلم بها. (الفائدة الرابعة) وهي أن التكلم بإزالة هذه
التهمة عن الله تعالى يفيد إزالة التهمة عن الأم لأن الله
سبحانه لا يخص الفاجرة بولد في هذه الدرجة العالية
والمرتبة العظيمة. وأما التكلم بإزالة التهمة عن الأم لا
يفيد إزالة التهمة عن الله تعالى فكان الاشتغال بذلك أولى
فهذا مجموع ما في هذا اللفظ من الفوائد، واعلم أن

وهو قول قتادة وكعب وابن زيد والمغيرة بن شعبة ذكر أن
هارون الصالح تبع جنازته أربعون ألفاً كلهم يسمون
هارون تبركاً به وباسمه (الثاني) أنه أخو موسى عليه
السلام وعن النبي ﷺ إنما عنوا هارون النبي وكانت من
أعقابهم وإنما قيل أخت هارون كما يقال يا أخا همدان أي
يا واحداً منهم. و(الثالث) كان رجلاً معلناً بالفسق فنسبت
إليه بمعنى التشبيه لا بمعنى النسبة. (الرابع) كان لها أخ
يسمى هارون من صلحاء بني إسرائيل فعيرت به وهذا هو
الأقرب لوجهين: (الأول) إن الأصل في الكلام الحقيقة
وإنما ليكون ظاهر الآية محمولاً على حقيقتها لو كان لها
أخ مسمى بهارون. (الثاني) إنها أضيفت إليه ووصف
أبواها بالصالح وحيثئذ يصير التوبيخ أشد لأن من كان
حال أبويه وأخيه هذه الحالة يكون صدور الذنب عنه
أفحش.

المسألة الثالثة: القراءة المشهورة ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ
سَوْءٍ﴾ وقرأ عمرو بن رجاء التميمي (ما كان أباك امرؤ
سوء).

المسألة الرابعة: إنهم لما بالغوا في توبيخها سكتت
وأشارت إليه أي إلى عيسى عليه السلام أي هو الذي
يجيبكم إذا ناطقتموه وعن السدي لما أشارت إليه غضبوا
غضباً شديداً وقالوا لسخريتها بنا أشد من زناها، روي أنه
كان يرضع فلما سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم
بوجهه واتكأ على يساره وأشار بسبابته، وقيل كلمهم
بذلك ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان.
وقيل إن زكريا عليه السلام أتاها عند مناظرة اليهود إياها،
فقال لعيسى عليه السلام انطق بحجتك إن كنت أمرت بها
فقال عيسى عليه السلام عند ذلك (إني عبد الله) فإن قيل
كيف عرفت مريم من حال عيسى عليه السلام أنه يتكلم؟
قلنا إن جبريل عليه السلام أو عيسى عليه السلام ناداهما من
تحتها أن لا تحزني وأمرها عند رؤية الناس بالسكوت،
فصار ذلك كالتنبيه لها على أن المجيب هو عيسى عليه
السلام أو لعلها عرفت ذلك بالوحي إلى زكريا أو لعلها
عرفت بالوحي إليها على سبيل الكرامة، بقي ههنا بحثان:
البحث الأول: قوله ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي أَلْمَهْدِ﴾

مذهب النصارى متخبط جداً، وقد اتفقوا على أنه سبحانه ليس بجسم ولا متحيز، ومع ذلك فإننا نذكر تقسيماً حاصراً ييطل مذهبهم على جميع الوجوه فنقول: إما أن يعتقدوا كونه متحيزاً أو لا، فإن اعتقدوا كونه متحيزاً أبطلنا قولهم بإقامة الدلالة على حدوث الأجسام، وحينئذ ييطل كل ما فرعوا عليه. وإن اعتقدوا أنه ليس بمتحيز فحينئذ ييطل ما يقوله بعضهم من أن الكلمة اختلطت بالناسوت اختلاط الماء بالخمير وامتزاج النار بالفحم لأن ذلك لا يعقل إلا في الأجسام فإذا لم يكن جسماً استحال ذلك ثم نقول للناس قولان في الإنسان منهم من قال إنه هو هذه البنية أو جسم موجود في داخلها ومنهم من يقول إنه جوهر مجرد عن الجسمية والحلول في الأجسام فنقول هؤلاء النصارى، إما أن يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته اتحد ببدن المسيح أو بنفسه أو يعتقدوا أن الله أو صفة من صفاته حل في بدن المسيح أو في نفسه، أو يقولوا لا نقول بالاتحاد ولا بالحلول ولكن نقول إنه تعالى أعطاه القدرة على خلق الأجسام والحياة والقدرة وكان لهذا السبب إلهياً، أو لا يقولوا بشيء من ذلك ولكن قالوا إنه على سبيل التشريف اتخذ ابناً كما اتخذ إبراهيم على سبيل التشريف خليلاً فهذه هي الوجوه المعقولة في هذا الباب، والكل باطل، أما القول الأول بالاتحاد فهو باطل قطعاً، لأن الشيتين إذا اتحدا فهما حال الاتحاد، إما أن يكونا موجودين أو معدومين أو يكون أحدهما موجوداً والآخر معدوماً، فإن كانا موجودين فهما اثنان لا واحد فالاتحاد باطل، وإن عدما وحصل ثالث فهو أيضاً لا يكون اتحاداً بل يكون قولاً بعدم دينك الشيتين، وحصول شيء ثالث، وإن في أحدهما وعدم الآخر فالمعدوم يستحيل أن يتحد بالوجود لأنه يستحيل أن يقال المعدوم بعينه هو الموجود فظهر من هذا البرهان الباهر أن الاتحاد محال. وأما الحلول فلنا فيه مقامان: (الأول) إن التصديق مسبوق بالتصور فلا بد من البحث عن ماهية الحلول حتى يمكننا أن نعلم أنه هل يصح على الله تعالى أو لا يصح وذكرنا للحلول تفسيرات ثلاثة: (أحدهما) كون الشيء في غيره ككون ماء الورد في الورد والدهن في السمسم والنار في الفحم، واعلم أن هذا

باطل لأن هذا إنما يصح لو كان الله تعالى جسماً وهم وافقونا على أنه ليس بجسم. و(ثانيها) حصوله في الشيء على مثال حصول اللون في الجسم فنقول المعقول من هذه التبعية حصول اللون في ذلك الحيز تبعاً لحصول محله فيه، وهذا أيضاً إنما يعقل في حق الأجسام لا في حق الله تعالى. و(ثالثها) حصوله في الشيء على مثال حصول الصفات الإضافية للذوات فنقول هذا أيضاً باطل لأن المعقول من هذه التبعية الاحتياج فلو كان الله تعالى في شيء بهذا المعنى لكان محتاجاً فكان ممكناً فكان مفتقراً إلى المؤثر، وذلك محال، وإذا ثبت أنه لا يمكن تفسير هذه الحلول بمعنى ملخص يمكن إثباته في حق الله تعالى امتنع إثباته. (المقام الثاني) احتج الأصحاب على نفي الحلول مطلقاً بأن قالوا لو حل لحل، إما مع وجوب أن يحل أو مع جواز أن يحل والقسمان باطلان، فالقول بالحلول باطل، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل لأن ذلك يقتضي إما حدوث الله تعالى أو قدم المحل وكلاهما باطلان، لأننا دللنا على أن الله قديم. وعلى أن الجسم محدث، ولأنه لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته لا يكون واجباً لذاته، وإنما قلنا إنه لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل لأنه لما كانت ذاته واجبة الوجود لذاتها وحلوله في المحل أمر جائز، والموصوف بالوجوب غير ما هو موصوف بالجواز فيلزم أن يكون حلوله في المحل أمراً زائداً على ذاته وذلك محال لوجهين: (أحدهما) إن حلوله في المحل لو كان زائداً على ذاته لكان حلول ذلك الزائد في محله زائداً على ذاته أو لزم التسلسل وهو محال. و(الثاني) إن حلوله في ذلك لما كان زائداً على ذاته فإذا حل في محل وجب أن يحل فيه صفة محدثة، وذلك محال لأنه لو كان قابلاً للحوادث لكانت تلك القابلية من لوازم ذاته، وكانت حاصلة أزلاً، وذلك محال لأن وجود الحوادث في الأزل محال، فحصول قابليتها وجب أن يكون ممتنع الحصول فإن قيل لم لا يجوز أن يحل مع وجوب أن يحل، لأنه يلزم، أما حدوث الحال أو قدم المحل قلنا لا نسلم وجوب أحد الأمرين، ولم يجوز أن

المؤثرية فنحن نذكره في القابلية، والجواب إنا نقرر هذه الدلالة على وجه آخر بحيث تسقط عنها هذه الأسئلة، فنقول ذاته، إما أن تكون كافية اقتضاء هذا الحلول أو لا تكون كافية في ذلك فإن كان الأول استحالة توقف ذلك الاقتضاء على حصول شرط فيعود ما قلنا إنه يلزم إما قدم المحل أو حدوث الحال. وإن كان الثاني كان كونه مقتضياً لذلك الحلول أمراً زائداً على ذاته حادثاً فيه فعلى التقديرات كلها يلزم من حدوث حلوله في محل حدوث شيء فيه لكن يستحيل أن يكون قابلاً للحوادث، وإلا لزم أن يكون في الأزل قابلاً لها وهو محال على ما بيناه، وأما المعارضة بالقدرة فغير واردة لأنه تعالى لذاته قادر على الإيجاد في الأزل فهو قادر على الإيجاد فيما لا يزال فهنا أيضاً لو كانت ذاتاً قابلة للحوادث لكانت في الأزل قابلة لها فحيث يلزم المحال المذكور. هذا تمام القول في هذه الأدلة ولنا في إبطال قول النصارى وجوه أخرى: (أحدها) إنهم وافقونا على أن ذاته سبحانه وتعالى لم تحل في ناسوت عيسى عليه السلام بل قالوا الكلمة حلت فيه، والمراد من الكلمة العلم. فنقول: العلم لما حل في عيسى ففي تلك الحالة إما أن يقال إنه بقي في ذات الله تعالى أو ما بقي فيها فإن كان الأول لزم حصول الصفة الواحدة في محلين، وذلك غير معقول، ولأنه لو جاز أن يقال العلم الحاصل في ذات عيسى عليه السلام هو العلم الحاصل في ذات الله تعالى بعينه، فلم لا يجوز في حق كل واحد ذلك حتى يكون العلم الحاصل لكل واحد هو العلم الحاصل لذات الله تعالى؟ وإن كان الثاني لزم أن يقال إن الله تعالى لم يبق عالماً بعد حلول علمه في عيسى عليه السلام وذلك مما لا يقوله عاقل. و(ثانيها) مناظرة جرت بيني وبين بعض النصارى، فقلت له هل تسلم أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول أم لا؟ فإن أنكرت لزمك أن لا يكون الله تعالى قديماً لأن دليل وجوده هو العالم فإذا لزم من عدم الدليل عدم المدلول لزم من عدم العالم في الأزل عدم الصانع في الأزل، وإن سلمت أنه لا يلزم من عدم الدليل عدم المدلول، فنقول إذا جوزت اتحاد كلمة الله تعالى بعيسى أو حلولها فيه فكيف عرفت أن كلمة الله

يقال إن ذاته تقتضي الحلول بشرط وجود المحل ففي الأزل ما وجد المحل فلم يوجد شرط هذا الوجوب فلا جرم لم يجب الحلول، وفيما لا يزال حصل هذا الشرط فلا جرم وجب سلمنا أنه يلزم، أما حدوث الحال أو قدم المحل فلم لا يجوز. قوله إنا دللنا على حدوث الأجسام، قلنا لم لا يجوز أن يكون محله ليس بجسم ولكنه يكون عقلاً أو نفساً أو هوى على ما يشبه بعضهم، ودليلكم على حدوث الأجسام لا يقبل حدوث هذه الأشياء، قوله ثانياً لو حل مع وجوب أن يحل لكان محتاجاً إلى المحل، قلنا لا نسلم وجوب أحد الأمرين بل ههنا احتمالان آخران: (أحدهما) إن العلة وإن امتنع انفكاكها عن المعلول لكنها لا تكون محتاجة إلى المعلول فلم لا يجوز أن يقال إن ذاته غنية عن ذلك المحل ولكن ذاته توجب حلول نفسها في ذلك المعلول فيكون وجوب حلولها في ذلك المحل من معلولات ذاته، وقد ثبت أن العلة وإن استحالة انفكاكها عن المعلول لكن ذلك لا يقتضي احتياجها إلى المعلول. (الثاني) أن يقال إنه في ذاته يكون غنياً عن المحل وعن الحلول، إلا أن المحل يوجب لذاته صفة الحلول، فالمفتقر إلى المحل صفة من صفاته وهي حلوله في ذلك المحل فأما ذاته فلا ولا يلزم من افتقار صفة من صفاته الإضافية إلى الغير افتقار ذاته إلى الغير وذلك لأن جميع الصفات الإضافية الحاصلة له مثل كونه أولاً وآخرًا ومقارناً ومؤثراً ومعلوماً ومذكوراً مما لا يتحقق إلا عند حصول التحيز، وكيف لا والإضافات لا بد في تحققها من أمرين، سلمنا ذلك فلم لا يجوز أن يحل مع جواز أن يحل. قوله يلزم أن يكون حلوله فيه زائداً عليه، ويلزم التسلسل، قلنا حلوله في المحل لما كان جائزاً كان حلوله في المحل زائداً عليه، أما كون ذلك الحلول حالاً في المحل أمر واجب فلا يلزم أن يكون حلول الحلول زائداً عليه فلا يلزم التسلسل. قوله ثانياً يلزم أن يصير محل الحوادث، قلنا لم لا يجوز ذلك قوله يلزم أن يكون قابلاً للحوادث في الأزل، قلنا لا شك أن تمكنه من الإيجاد ثابت له إما لذاته أو لأمر ينتهي إلى ذاته، وكيف كان فيلزم صحة كونه مؤثراً في الأزل فكلما ذكرتموه في

تعالى ما دخلت في زيد وعمرو بل كيف أنها ما حلت في هذه الهرة وفي هذا الكلب، فقال لي إن هذا السؤال لا يليق بك لأننا إنما أثبتنا ذلك الاتحاد أو الحلول بناء على ما ظهر على يد عيسى عليه السلام من إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، فإذا لم نجد شيئاً من ذلك ظهر على يد غيره فكيف ثبت الاتحاد أو الحلول، فقلت له إني عرفت من هذا الكلام أنك ما عرفت أول الكلام لأنك سلمت لي أن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فإذا كان هذا الحلول غير ممتنع في الجملة فأكثر ما في الباب أنه وجد ما يدل على حصوله في حق عيسى عليه السلام ولم يوجد ذلك الدليل في حق زيد وعمرو ولكن عدم الدليل لا يدل على عدم المدلول فلا يلزم من عدم ظهور هذه الخوارق على يد زيد وعمرو وعلى السنور والكلب عدم ذلك الحلول، فثبت أنك مهما جوزت القول بالاتحاد والحلول لزمك تجويز حصول ذلك الاتحاد وذلك الحلول في حق كل واحد بل في حق كل حيوان ونبات ولا شك أن المذهب الذي يسوق قائله إلى مثل هذا القول الركيك يكون باطلاً قطعاً، ثم قلت له وكيف دل إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص على ما قلت؟ أليس أن انقلاب العصا ثعباناً أبعد من انقلاب الميت حياً فإذا ظهر ذلك على يد موسى عليه السلام ولم يدل على إلهيته فبأن لا يدل هذا على إلهية عيسى أولى. (والتلثها) إنا نقول دلالة أحوال عيسى على العبودية أقوى من دلالتها على الربوبية لأنه كان مجتهداً في العبادة والعبادة لا تليق إلا بالعبيد فإنه كان في نهاية البعد عن الدنيا والاحتراز عن أهلها حتى قالت النصارى إن اليهود قتلوه ومن كان في الضعف هكذا فكيف تليق به الربوبية. (ورابعها) المسيح إما أن يكون قديماً أو محدثاً والقول بقدمه باطل لأننا نعلم بالضرورة أنه ولد وكان طفلاً ثم صار شاباً وكان يأكل ويشرب ويعرض له ما يعرض لسائر البشر، وإن كان محدثاً مخلوقاً ولا معنى للعبودية إلا ذلك، فإن قيل المعنى بإلهيته أنه حلت صفة الإلهية فيه، قلنا هب أنه كان كذلك لكن الحال هو صفة الإله والمسيح هو المحل والمحل محدث مخلوق فما هو المسيح [إلا] عبد محدث فكيف يمكن وصفه

بالإلهية. (وخامسها) إن الولد لا بد وأن يكون من جنس الوالد فإن كان لله ولد فلا بد وأن يكون من جنسه فأذن قد اشتركا من بعض الوجوه، فإن لم يتميز أحدهما عن الآخر بأمر ما فكل واحد منهما هو الآخر، وإن حصل الإمتياز فما به الامتياز غير ما به الاشتراك، فيلزم وقوع التركيب في ذات الله وكل مركب ممكن، فالواجب ممكن هذا خلف محال هذا كله على الاتحاد والحلول (أما الاحتمال الثالث) وهو أن يقال معنى كونه إلهياً أنه سبحانه خص نفسه أو بدنه بالقدرة على خلق الأجسام والتصرف في هذا العالم فهذا أيضاً باطل لأن النصارى حكوا عنه الضعف والعجز وأن اليهود قتلوه ولو كان قادراً على خلق الأجسام لما قدروا على قتله بل كان هو يقتلهم ويخلق لنفسه عسكرياً يذبون عنه. (وأما الاحتمال الرابع) وهو أنه اتخذ ابناً لنفسه على سبيل التشريف فهذا قد قال به قوم من النصارى يقال لهم الأرميوسية وليس فيه كثير خطأ إلا في اللفظ فهذا جملة الكلام على النصارى وبه ثبت صدق ما حكاه الله تعالى عنه أنه قال إني عبدالله (الصفة الثانية) قوله تعالى ﴿عَاتَلْنِي الْكِتَابُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اختلف الناس فيه فالجمهور على أنه قال هذا الكلام حال صغره وقال أبو القاسم البلخي إنه إنما قال ذلك حين كان كالمراهق الذي يفهم وإن لم يبلغ حد التكليف أما الأولون فلهم قولان: (أحدهما) إنه كان في ذلك الصغر نبياً. (الثاني) روي عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال المراد بأن حكم وقضى بأنه سيعثني من بعد ولما تكلم بذلك سكت وعاد إلى حال الصغر، ولما بلغ ثلاثين سنة بعثه الله نبياً، واحتج من نص على فساد القول الأول بأمور: (أحدها) إن النبي لا يكون كاملاً والصغير ناقص الخلقة بحيث يعد هذا التحدي من الصغير منفراً بل هو في التنفير أعظم من أن يكون امرأة. (وثانيها) إنه لو كان نبياً في هذا الصغر لكان كمال عقله مقدماً على ادعائه للنبوته إذ النبي لا بد وأن يكون كامل العقل لكن كمال عقله في ذلك الوقت خارق للعادة فيكون المعجز متقدماً على التحدي وإنه غير جائز. (والتلثها) إنه لو كان نبياً في ذلك الوقت لوجب أن يشتغل ببيان

الأحكام، وتعريف الشرائع ولو وقع ذلك لاشتهر ولنقل فحيث لم يحصل ذلك علمنا أنه ما كان نبياً في ذلك الوقت. أجاب الأولون عن الكلام الأول بأن كون الصبي ناقصاً ليس لذاته بل الأمر يرجع إلى صغر جسمه ونقصان فهمه، فإذا أزال الله تعالى هذه الأشياء لم تحصل النفرة بل تكون الرغبة إلى استماع قوله وهو على هذه الصفة أتم وأكمل. وعن الكلام الثاني لم لا يجوز أن يقال إكمال عقله وإن حصل مقدماً على دعواه إلا أنه معجزة لذكرياً عليه السلام، أو يقال إنه إرهاب لنبوته أو كرامة لمريم عليها السلام وعندنا الإرهاب والكرامات جائزة، وعن الكلام الثالث لم لا يجوز أن يقال مجرد بعثته إليهم من غير بيان شيء من الشرائع والأحكام جائز ثم بعد البلوغ أخذ في شرح تلك الأحكام، فثبت بهذا أنه لا امتناع في كونه نبياً في ذلك الوقت وقوله ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ﴾ يدل على كونه نبياً في ذلك الوقت فوجب إجراؤه على ظاهره بخلاف ما قاله عكرمة، أما قول أبي القاسم البلخي فبعيد وذلك لأن الحاجة إلى كلام عيسى عليه السلام إنما كانت عند وقوع التهمة على مريم عليها السلام.

المسألة الثانية: اختلفوا في ذلك الكتاب فقال بعضهم هو التوراة لأن الألف واللام في الكتاب تنصرف للمعهود والكتاب المعهود لهم هو التوراة، وقال أبو مسلم المراد هو الإنجيل لأن الألف واللام ههنا للجنس أي آتاني من هذا الجنس، وقال قوم المراد هو التوراة والإنجيل لأن الألف واللام تفيد الاستغراق.

المسألة الثالثة: اختلفوا في أنه متى آتاه الكتاب ومتى جعله نبياً لأن قوله ﴿ءَاتَيْنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾ يدل على أن ذلك كان قد حصل من قبل إما ملاصقاً لذلك الكلام أو متقدماً عليه بأزمان، والظاهر أنه من قبل أن كلمهم آتاه الله الكتاب وجعله نبياً وأمره بالصلاة والزكاة وأن يدعو إلى الله تعالى وإلى دينه وإلى ما خص به من الشريعة فقل هذا الوحي نزل عليه وهو في بطن أمه وقيل لما انفصل من الأم آتاه الله الكتاب والنبوة وأنه تكلم مع أمه وأخبرها بحاله وأخبرها بأنه يكلمهم مما يدل على براءة حالها فلماذا أشارت إليه بالكلام. (الصفة الثالثة) قوله ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾

قال بعضهم أخبر أنه نبي ولكنه ما كان رسولاً لأنه في ذلك الوقت ما جاء الشريعة ومعنى كونه نبياً أنه رفيع القدر على الدرجة وهذا ضعيف لأن النبي في عرف الشرع هو الذي خصه الله بالنبوة وبالرسالة خصوصاً إذا قرن إليه ذكر الشرع وهو قوله وأوصاني بالصلاة والزكاة. (الصفة الرابعة) قوله ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ فلنقاتل أن يقول كيف جعله مباركاً والناس كانوا قبله على الملة الصحيحة فلما جاء صار بعضهم يهوداً وبعضهم نصارى قائلين بالتثليث ولم يبق على الحق إلا القليل، والجواب ذكروا في تفسير المبارك وجوهاً: (أحدها) إن البركة في اللغة هي الثبات وأصله من بروك البعير فمعناه جعلني ثابتاً على دين الله مستقراً عليه. (ثانيها) إنه إنما كان مباركاً لأنه كان يعلم الناس دينهم ويدعوهم إلى طريق الحق فإن ضلوا فمن قبل أنفسهم لا من قبله وروى الحسن عن النبي ﷺ قال أسلمت أم عيسى عليها السلام عيسى إلى الكتاب فقالت للمعلم أدفعه إليك على أن لا تضربه فقال له المعلم أكتب فقال أي شيء أكتب، فقال أكتب أبجد فرفع عيسى عليه السلام رأسه فقال هل تدري ما أبجد؟ فعلاه بالدرة ليضربه فقال يا مؤدب لا تضربني إن كنت لا تدري فأسألني فأنا أعلمك الألف من آاء الله والباء من بهاء الله والجيم من جمال الله والدال من أداء الحق إلى الله. (ثالثها) البركة الزيادة والعلو فكانه قال جعلني في جميع الأحوال غالباً مفلحاً منجحاً لأنني ما دمت أبقى في الدنيا أكون على الغير مستعليماً بالحجة فإذا جاء الوقت المعلوم يكرمني الله تعالى بالرفع إلى السماء. (رابعها) مبارك على الناس بحيث يحصل بسبب دعائي إحيائي الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، عن قتادة أنه رآته امرأة وهو يحيي الموتى ويبرئ الأكمه والأبرص فقالت طوبى لبطن حملك وثدي أرضعت به، فقال عيسى عليه السلام مجيباً لها طوبى لمن تلا كتاب الله واتبع ما فيه ولم يكن جباراً شقياً. أما قوله ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ فهو يدل على أن حاله لم يتغير كما قيل إنه عاد إلى حال الصغر وزوال التكليف. (الصفة الخامسة) قوله ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ فإن قيل كيف أمر بالصلاة والزكاة

أي ما جعلني متكبراً بل أنا خاضع لأنني متواضع لها ولو كنت جباراً لكنت عاصياً شقياً، وروي أن عيسى عليه السلام قال قلبي لين وأنا صغير في نفسي وعن بعض العلماء لا تجد العاق إلا جباراً شقياً وتلا ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ ولا تجد سيء الملكة إلا مختلاً فخوراً وقراً ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّا اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً﴾ [النساء: ٣٦]. (الصفة الثامنة) هي قوله ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم لام التعريف في السلام منصرف إلى ما تقدم في قصتي يحيى عليه السلام من قوله ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ﴾ [مريم: ٥] أي السلام الموجه إليه في المواطن الثلاثة موجه إلي أيضاً وقال صاحب الكشاف الصحيح أن يكون هذا التعريف تعويضاً باللعن على من اتهم مريم بالزنا وتحقيقه أن اللام للاستغراق فإذا قال ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ فكأنه قال وكل السلام علي وعلى أتباعي فلم يبق للأعداء إلا اللعن ونظيره قول موسى عليه السلام ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى﴾ [طه: ٤٧] بمعنى أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام اللجاج والعناد ويليق به مثل هذا التعريض.

المسألة الثانية: روى بعضهم عن عيسى عليه السلام أنه قال ليحيى أنت خير مني سلم الله عليك وسلمت على نفسي وأجاب الحسن فقال إن تسليمه على نفسه بتسليم الله عليه.

المسألة الثالثة: قال القاضي السلام عبارة عما يحصل به الأمان ومنه السلامة في النعم وزوال الآفات فكأنه سأل ربه وطلب منه ما أخبر الله تعالى أنه فعله بيحيى، ولا بد في الأنبياء من أن يكونوا مستجابي الدعوة وأعظم أحوال الإنسان احتياجاً إلى السلامة هي هذه الأحوال الثلاثة وهي يوم الولادة ويوم الموت ويوم البعث فجميع الأحوال التي يحتاج فيها إلى السلامة واجتماع السعادة من قبله تعالى طلبها ليكون مصوناً عن الآفات والمخافات في كل الأحوال، واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في زمان الطفولية واحتجوا عليه بأن هذا

مع أنه كان طفلاً صغيراً والقلم مرفوع عنه على ما قاله عليه السلام "رفع القلم عن ثلاث عن الصبي حتى يبلغ" الحديث وجوابه من وجهين: (الأول) إن قوله ﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ لا يدل على أنه تعالى أوصاه بأدائهما في الحال بل بعد البلوغ فلعل المراد أنه تعالى أوصاه بهما وبأدائهما في الوقت المعين له وهو وقت البلوغ. (الثاني) لعل الله تعالى لما انفصل عيسى عن أمه صيره بالغاً عاقلاً تام الأعضاء. والخلقة وتحقيقه قوله تعالى ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] فكما أنه تعالى خلق آدم تاماً كاملاً دفعة فكذا القول في عيسى عليه السلام، وهذا القول الثاني أقرب إلى الظاهر لقوله ﴿مَا دُمْتُ حَيّاً﴾ فإنه يفيد أن هذا التكليف متوجه عليه في جميع زمان حياته ولكن لقائل أن يقول لو كان الأمر كذلك لكان القوم حين رأوه فقد رأوه شخصاً كامل الأعضاء تام الخلقة وصدور الكلام عن مثل هذا الشخص لا يكون عجباً فكان ينبغي أن لا يعجبوا فلعل الأولى أن يقال إنه تعالى جعله مع صغر جثته قوي التركيب كامل العقل بحيث كان يمكنه أداء الصلاة والزكاة والآية دالة على أن تكليفه لم يتغير حين كان في الأرض وحين رفع إلى السماء وحين ينزل مرة أخرى. (الصفة السادسة) قوله تعالى ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ أي جعلني برّاً بوالدي وهذا يدل على قولنا إن فعل العبد مخلوق لله تعالى لأن الآية تدل على أن كونه برّاً إنما حصل بجعل الله وخلقه وحمله على اللطاف عدول عن الظاهر ثم قوله ﴿وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ﴾ إشارة إلى تنزيه أمه عن الزنا إذ لو كانت زانية لما كان الرسول المعصوم مأموراً بتعظيمها قال صاحب الكشاف جعل ذاته برّاً لفرط بره ونصبه بفعل في معنى أوصاني وهو كلفني لأن أوصاني بالصلاة وكلفني بها واحداً. (الصفة السابعة) قوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً﴾ وهذا أيضاً يدل على قولنا لأنه لما بين أنه جعله برّاً وما جعله جباراً فهذا إنما يحسن لو أن الله تعالى جعل غيره جباراً وغير بار بأمه، فإن الله تعالى لو فعل ذلك بكل أحد لم يكن لعيسى عليه السلام مزيد تخصيص بذلك، ومعلوم أنه عليه السلام إنما ذكر ذلك في معرض التخصيص وقوله ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً﴾

ففيه وجوه: (أحدها) وهو أن نفس عيسى عليه السلام هو قول الحق وذلك لأن الحق هو اسم الله فلا فرق بين أن نقول عيسى كلمة الله وبين أن نقول عيسى قول الحق. و(ثانيها) أن يكون المراد ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ﴾ إلا أنك أضفت الموصوف إلى الصفة فهو كقوله ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾ [الواقعة: ٩٥] وفائدة قولك ﴿قَوْلَكَ الْحَقِّ﴾ تأكيد ما ذكرت أولاً من كون عيسى عليه السلام ابناً لمريم. و(ثالثها) أن يكون قول الحق خبراً لمبتدأ محذوف كأنه قيل ذلك عيسى ابن مريم ووصفنا له هو قول الحق فكأنه تعالى وصفه أولاً ثم ذكر أن هذا الموصوف هو عيسى ابن مريم ثم ذكر أن هذا الوصف أجمع هو قول الحق على معنى أنه ثابت لا يجوز أن يبطل كما بطل ما يقع منهم من المرية ويكون في معنى إن هذا ﴿لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ﴾. فأما امتراؤهم في عيسى عليه السلام فالمذاهب التي حكيناها من قول اليهود والنصارى وقد تقدم ذكر ذلك في سورة آل عمران، روي أن عيسى عليه السلام لما رفع حضر أربعة من أكابرهم وعلمائهم فقيل للأول ما تقول في عيسى؟ فقال هو إله والله إله وأمه إله، فتابعه على ذلك ناس وهم الإسرائيليون، وقيل للرايع ما تقول؟ فقال هو عبدالله ورسوله وهو المؤمن المسلم، وقال أما تعلمون أن عيسى كان يطعم وينام وأن الله تعالى لا يجوز عليه ذلك؟ فخصهم، أما قوله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ فهو يحتمل أمرين: (أحدهما) أن ثبوت الولد له محال فقولنا ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ كقوله ما كان لله أن يقول لأحد إنه ولدي لأن هذا الخبر كذب والكذب لا يليق بحكمة الله تعالى وكمالها فقوله ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ كقولنا ما كان لله أن يظلم أي لا يليق ذلك بحكمته وكمال إلهيته، واحتج الجبائي بالآية بناء على هذا التفسير أنه ليس لله أن يفعل كل شيء لأنه تعالى صرح بأنه ليس له هذا الإيجاد أي ليس له هذا الاختيار وأجاب أصحابنا عنه بأن الكذب محال على الله تعالى فلا جرم قال ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ أما قوله ﴿سُبْحَنَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: إنه تعالى لما قال سبحانه ثم قال عقيب

من الوقائع العجيبة التي تتوافر الدواعي على نقلها فلو وجدت لنقلت بالتواتر ولو كان ذلك لعرفه النصارى لاسيما وهم من أشد الناس بحثاً عن أحواله وأشد الناس غلواً فيه حتى زعموا كونه إلهاً ولا شك أن الكلام في الطفولية من المناقب العظيمة والفضائل التامة فلما لم تعرفه النصارى مع شدة الحب وكمال البحث عن أحواله علمنا أنه لم يوجد ولأن اليهود أظهروا عداوته حال ما أظهر ادعاء النبوة فلو أنه عليه السلام تكلم في زمان الطفولية وادعى الرسالة لكانت عداوتهم معه أشد ولكان قصدهم قتله أعظم فحيث لم يحصل شيء من ذلك علمنا أنه ما تكلم، أما المسلمون فقد احتجوا من جهة العقل على أنه تكلم فإنه لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا إقامة الحد على الزنا عليها ففي تركهم لذلك دلالة على أنه عليه السلام تكلم في المهد وأجابوا عن الشبهة الأولى بأنه ربما كان الحاضرون عند كلامه قليلين فلذلك لم يشتهر وعن الثاني لعل اليهود ما حضروا هناك وما سمعوا كلامه فلذلك لم يشتغلوا بقصد قتله.

قوله تعالى ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ عاصم وابن عامر ﴿قَوْلَكَ الْحَقِّ﴾ بالنصب وعن ابن مسعود (قال الحق) و(قال الله) وعن الحسن (قول الحق) بضم القاف وكذلك في الأنعام ﴿قَوْلُهُ الْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقول والقال والقول في معنى واحد كالرهب والرهب والرهب، أما ارتفاعه فعلى أنه خبر بعد خبر أو خبر مبتدأ محذوف، وأما انتصابه فعلى المدح إن فسر بكلمة الله أو على أنه مصدر مؤكد لمضمون الجملة كقولك هو عند الله الحق لا الباطل والله أعلم.

المسألة الثانية: لا شبهة أن المراد بقوله ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم وهو قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ﴾ أي ذلك الموصوف بهذه الصفات هو عيسى ابن مريم وفي قوله ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إشارة إلى أنه ولد هذه المرأة وابنها لا أنه ابن الله، فأما ﴿قَوْلُهُ الْحَقِّ﴾

لأنه، إما أن يقول له كن قبل حدوثه أو حال حدوثه. فإن كان الأول كان ذلك خطاباً مع المعدوم وهو عبث وإن كان الثاني فهو حال حدوثه قد وجد بالقدرة والإرادة فأي تأثير لقوله كن فيه، ومن الناس من زعم أن المراد من قوله ﴿كُنْ﴾ هو التخليق والتكوين وذلك لأن القدرة على الشيء غير وتكوين الشيء غير فإن الله سبحانه قادر في الأزل وغير مكن في الأزل، ولأنه الآن قادر على عوالم سوى هذا العالم وغير مكن لها، والقادرية غير المكونية والتكوين ليس هو نفس المكن لأننا نقول المكنون إنما حدث لأن الله تعالى كونه فأوجده، فلو كان التكوين نفس المكنون لكان قولنا المكنون إنما وجد بتكوين الله تعالى نازلاً منزلة قولنا المكنون إنما وجد نفسه وذلك محال، فثبت أن التكوين غير المكنون فقوله ﴿كُنْ﴾ إشارة إلى الصفة المسماة بالتكوين، وقال آخرون قوله ﴿كُنْ﴾ عبارة عن نفاذ قدرة الله تعالى ومشيئته في الممكنات. فإن وقوعها بتلك القدرة والإرادة من غير امتناع واندفاع يجري مجرى العبد المطيع المسخر المنقاد لأوامر مولاه، فعبر الله تعالى عن ذلك المعنى بهذه العبارة على سبيل الاستعارة.

قوله تعالى ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

اعلم أن قوله ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فيه مسائل: المسألة الأولى: قرأ المدينيون وأبو عمرو بفتح أن، ومعناه ولأنه ربي وربكم فاعبدوه، وقرأ الكوفيون وأبو عبيدة بالكسرة على الابتداء، وفي حرف أبي (إن الله) بالكسر من غير واو أي بسبب ذلك فاعبدوه.

المسألة الثانية: إنه لا يصح أن يقول الله ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ فلا بد وأن يكون قائل هذا غير الله تعالى، وفيه قولان: (الأول) التقدير فقل يا محمد إن الله ربي وربكم بعد إظهار البراهين الباهرة في أن عيسى هو عبد الله. (الثاني) قال أبو مسلم الأصفهاني: الواو في وإن الله عطف على قول عيسى عليه السلام ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ كأنه قال إني عبد الله وإنه ربي وربكم فاعبدوه، وقال وهب بن منبه عهد إليهم حين أخبرهم عن بعثه

﴿إِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ كان كالحجة على تنزيهه عن الولد وبيان ذلك أن الذي يجعل ولدًا لله، إما أن يكون قديماً أزلياً أو يكون محدثاً فإن كان أزلياً فهو محال لأنه لو كان واجباً لذاته لكان واجب الوجود أكثر من واحد. هذا خلف. وإن كان ممكناً لذاته كان مفتقراً في وجوده إلى الواجب لذاته غنياً لذاته فيكون الممكن محتاجاً لذاته فيكون عبداً له لأنه لا معنى للعبودية إلا ذلك، وأما إن كان الذي يجعل ولدًا يكون محدثاً فيكون وجوده بعد عدمه بخلق ذلك القديم وإيجاده وهو المراد من قوله ﴿إِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ عبداً له لا ولدًا له فثبت أنه يستحيل أن يكون لله ولدًا.

المسألة الثانية: احتج الأصحاب بقوله ﴿إِذَا قَضَيْتُمْ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ على قدم كلام الله تعالى قالوا لأن الآية تدل على أنه تعالى إذا أراد إحداث شيء قال له، كن فيكون فلو كان قوله كن محدثاً لافتقر حدوثه إلى قول آخر ولزم التسلسل وهو محال، فثبت أن قول الله قديم لا محدث، واحتج المعتزلة بالآية على حدوث كلام الله تعالى من وجوه: (أحدها) إنه تعالى أدخل عليه كلمة إذا وهذه الكلمة دالة على الاستقبال فوجب أن لا يحصل القول إلا في الاستقبال. (ثانيها) إن حرف الفاء للتعقيب والفاء في قوله ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ يدل على تأخر ذلك القول عن ذلك القضاء والمتأخر عن غيره محدث. (ثالثها) الفاء في قوله ﴿فَيَكُونُ﴾ يدل على حصول ذلك الشيء عقيب ذلك القول من غير فصل فيكون قول الله متقدماً على حدوث الحادث تقدماً بلا فصل والمتقدم على المحدث تقدماً بلا فصل يكون محدثاً، فقول الله محدث. واعلم أن استدلال الفريقين ضعيف، أما استدلال الأصحاب فلأنه يقتضي أن يكون قوله ﴿كُنْ﴾ قديماً وذلك باطل بالاتفاق، وأما استدلال المعتزلة فلأنه يقتضي أن يكون قول الله تعالى هو المركب من الحروف والأصوات وهو محدث وذلك لا نزاع فيه إنما المدعي قدم شيء آخر.

المسألة الثالثة: من الناس من أجرى الآية على ظاهرها فزعم أنه تعالى إذا أحدث شيئاً قال له كن وهذا ضعيف

بأصول النعم وفروعها، ولذلك فإن إبراهيم عليه السلام لما منع أباه من عبادة الأوثان قال ﴿لِمَ تَعْبُدُونَ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢] يعني أنها لما لم تكن منعمة على العباد لم تجز عبادتها، وبهذه الآية ثبت أن الله تعالى لما كان رباً ومربياً لعباده وجبت عبادته، فقد ثبت طرداً وعكساً تعلق العبادة بكون المعبود منعماً، أما قوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يعني القول بالتوحيد ونفي الولد والصاحبة صراط مستقيم وأنه سمي هذا القول بالصراط المستقيم تشبيهاً بالطريق لأنه المؤدي إلى الجنة . . .

وإذا قلنا المراد بقوله ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ أي قل يا محمد إن الله ربي وربكم، فهذا القول أظهر لأنه لا تخصيص فيه . . .

ابن عربي ج ٢ ص ١١ - ١٦

وإنما أمكن تولّد الولد من نطفة واحدة، لأنه ثبت في العلوم الطبيعية، أنّ منّي الذكر في تكوين الولد بمنزلة الأنفحة في الجبن، ومنّي الأنثى بمنزلة اللبن، أي العقد من منّي الذكر، والإنعقاد من منّي الأنثى، لا على معنى، أنّ منّي الذكر ينفرد بالقوة العاقدة، ومنّي الأنثى بالقوة المنعقدة، بل على معنى، أنّ القوة العاقدة في منّي الذكر أقوى، والمنعقدة في منّي الأنثى أقوى، وإلاّ لم يمكن أن يتحد شيئاً واحداً، ولم ينعقد الذكر حتى يصير جزءاً من الولد.

فعلى هذا، إذا كان مزاج الأنثى قوياً ذكورياً كما تكون أمزجة النساء الشريفة النفس القوية القوى، وكان مزاج كبدها حاراً، كان المنّي المنفصل عن كليتها اليمنى أحرّ كثيراً من الذي يفصل عن كليتها اليسرى، فإذا اجتمعاً في الرحم، وكان مزاج الرحم قوياً في الإمساك والجذب، قام المنفصل من الكلية اليمنى مقام الذكر في شدة قوة العقد، والمنفصل من الكلية اليسرى مقام منّي الأنثى في قوة الانعقاد، فيتخلّق الولد هذا؛ وخصوصاً إذا كانت النفس متأيدة بروح القدس، منقوية، يسري أثر اتصالها به إلى الطبيعة، والبدن، ويغير المزاج، ويمدّ جميع القوى في أفعالها بالمدد الروحاني، فيصير أقدر على أفعالها بما لا ينضبط بالقياس، والله أعلم.

ومولده ونعته أن الله ربي وربكم أي كلنا عبيد الله تعالى.

المسألة الثالثة: قوله ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ يدل على أن مدبر الناس ومصلح أمورهم هو الله تعالى على خلاف قول المنجمين إن مدبر الناس ومصلح أمورهم في السعادة والشقاوة هي الكواكب ويدل أيضاً على أن الإله واحد لأن لفظ الله اسم علم له سبحانه فلما قال ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ أي لا رب للمخلوقات سوى الله تعالى ذلك يدل على التوحيد، أما قوله ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾ فقد ثبت في أصول الفقه أن ترتيب الحكم على الوصف المناسب مشعر بالعلية فهنا الأمر بالعبادة وقع مرتباً على ذكر وصف الربوبية فدل على أنه إنما تلزمنا عبادته سبحانه لكونه رباً لنا، وذلك يدل على أنه تعالى إنما تجب عبادته لكونه منعماً على الخلائق

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ المكان الشرقي، هو مكان العالم القدسي لاتصالها بروح القدس عند تجرّدها، وانتباذها عن ممكن الطبيعة، ومقرّ النفس، وأهمها القوى النفسانية، والطبيعية والحجاب الذي اتخذته من دونهم، وهو حظيرة القدس، الممنوع من أهل عالم النفس، بحجاب الصدر، الذي هو غاية مبلغ علم القوى المادية، ومدى سيرها، وما لم تترق إلى العالم القدسي بالتجرّد، لم يمكن إرسال روح القدس إليها، كما أخبر عنه تعالى في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ وإنما تمثل لها بشراً سوى الخلق، حسن الصورة، لتأثر نفسها به، وتستأنس، فتتحرك على مقتضى الجبلة، ويسري الأثر من الخيال في الطبيعة، فتتحرك شهوتها فتتنزل كما يقع في المنام من الإحتلام، وتنقذ نطفتها في الرحم، فيتخلّق منه الولد.

وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة، تمدد القوة البدنية وتعطّلها عن أفعالها عنده، كما في النوم، فكلّ ما يُرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا قلباً، والاتصالات التي لها بالأرواح القدسيّة، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية، وينفعل منه البدن.

الحقيقية، بعد يسها بالرياضة، وجفافها بالحرمان عن ماء الهوى وحياته، وأثمرت المعارف، والمعاني، أي، حركتها بالفكر ﴿سَلَقْتُ عَلَيْكَ﴾ من ثمرات المعارف، والحقائق ﴿رُطْبًا جَنِينًا فَكُلِي﴾ أي، من فوقك رطب الحقائق، والمعارف الإلهية، وعلم تجليات الصفات، والمواهب، والأحوال ﴿وَأَشْرَفِي﴾ من تحتك ماء العلم الطبيعي، وبدائع الصنع، وغرائب الأفعال الإلهية، وعلم التوكل، وتجليات الأفعال، والأخلاق، والمكاسب، كما قال تعالى: ﴿لَا تَكُلُوا مِنْ قَوْحِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾

[المائدة: ٦٦].

﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالكمال، والولد المبارك، الموجود بالقدرة، الموهوب بالعناية ﴿فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي، من أهل الظاهر، المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب، وبالصنع، والحكمة، عن الإبداع والقدرة، الذين لا يفهمون قولك، ولا يصدقون بك، وبالحال، لوقوفهم مع العادة، واحتجابهم بالعقول المشوبة بالوهم، المحجوبة عن نور الحق ﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي، لا تكلمهم في أمرك شيئاً، ولا تماديهم فيما لا يمكنهم قبوله، حتى ينطق هو بحاله.

﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ في المواطن الثلاثة كما على يحيى لكون ذاتي مجردة مقدسة، لا تحتجب بالمواد، حتى في الطفولة، إذ معنى السلام، التنزه عن العيوب اللاحقة بواسطة تعلق المادة ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ أي، كلمته التي هي عبارة عن ذات مجردة أزلية، كما مرّ غير مرة.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ لامتناع وجود شيء آخر معه ﴿سُبْحَنَهُ﴾ عن أن يوجد معه شيء ﴿فَلَنَمَّا يَقُولُ لَكُمُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي، يبدعه بمجرد تعلق إرادته به من غير زمان.

القرطبي ج ١١ ص ٨٩ - ١٠٨

﴿إِذْ أَنْبَأْتُ﴾ أي تحت وتباعدت. والنبد الطرح والرمي؛ قال الله تعالى: ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ﴾ آل عمران: ١٨٧. ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ أي ممن كان معها. و﴿إِذْ﴾ بدل من

﴿وَلَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ دالة على البعث والنشور ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ عليهم بتكميلهم به بالشرائع والحكم، والمعارف، وهدايتهم بسبب فعلنا ذلك، فهو صورة الرحمة الإلهية المعنوية ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ في اللوح، مقدراً في الأزل. وعن ابن عباس فاطمأت إليه، بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾. فدنا منها فنفخ في جيب الدرع، أي البدن، وهو سبب انزالها على ما ذكرنا، كالغلمة مثلاً، والمعانقة التي كثيراً ما تصير سبباً للإنزال.

وقيل إن الروح المتمثل لها هو روح عيسى عليه السلام عند نزوله، واتصاله بها وتعلقه بنطفتها، والحق أنه روح القدس، لأنه كان السبب الفاعلي لوجوده، كما قال: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم، واستقرارها فيه، ريثما تمتزج وتتحد، وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح ﴿فَأَنْبَذْتُ بِهِ﴾ أي معه ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي، بعيداً من المكان الأول الشرقي، لأنها وقعت به في المكان الغربي، الذي هو عالم الطبيعة، والأفق الجسماني، ولهذا قال: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِئِجِئِ النَّخْلَةِ﴾ نخلة النفس ﴿فَنَادَتْهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ أي ناداها جبريل من الجهة السفلية بالنسبة إلى مقامها من القلب، أي، من عالم الطبيعة، الذي كان حزنها من جهته، وهو الحمل الذي هو سبب تشورها، وافتضحها ﴿أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾، أي جدولاً، من غرائب العلم الطبيعي، وعلم توحيد الأفعال، الذي خصك الله بها واصطفاك، كما رأيت من تولد الجنين من نطفتك، وحدها.

﴿وَهَزَيْتِ إِلَيْكَ يَجْنَعُ﴾ نخلة نفسك، التي بسقت في سماع الروح، باتصالك بروح القدس، واخضرت بالحياة

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرِي فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ﴾ القصة إلى آخرها. هذا ابتداء قصة ليست من الأولى. والخطاب لمحمد ﷺ؛ أي عرفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا.

كُنْتَ تَقِيًّا ﴿١٦﴾ أي ممن يتقي الله. اليكالي: فنكص جبريل عليه السلام فزعاً من ذكر الرحمن تبارك وتعالى. الثعلبي: كان رجلاً صالحاً فتعوذت به تعجباً. وقيل: تقي فعيل بمعنى مفعول أي كنت ممن يتقي منه. وفي البخاري قال أبو وائل: علمت مريم أن التقي ذو نهيية حين قالت: ﴿إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا﴾. وقيل: تقي اسم فاجر معروف في ذلك الوقت؛ قاله وهب بن منبه؛ حكاه مكي وغيره. ابن عطية: وهو ضعيف ذاهب مع التخرص. فقال لها جبريل عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله. وقرأ ورش عن نافع: «ليهب لك» على معنى أرسلني الله ليهب لك. وقيل: معنى «لأهب» بالهمز محمول على المعنى؛ أي قال: أرسلته لأهب لك. ويحتمل «ليهب» بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة. فلما سمعت مريم ذلك من قوله استهفمت عن طريقه ف﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي بنكاح. ﴿وَلَمْ أَكُ يَتِيمًا﴾ أي زانية. وذكرت هذا تأكيداً؛ لأن قولها لم يمسسني بشر يشمل الحلال والحرام. وقيل: ما استبعدت من قدرة الله تعالى شيئاً ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد؟ من قبل الزوج في المستقبل أم يخلقه الله ابتداء؟ وروي أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ في جيب درعها وكهما؛ قاله ابن جريج. ابن عباس: أخذ جبريل عليه السلام رُذُنَ قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى. قال الطبري: وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع اثنتين وثلاثين سنة وأياماً، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفاً وخمسين سنة. وقوله ﴿وَلَنَجْعَلَنَّكَ﴾ متعلق بمحذوف؛ أي ونخلقه لنجعل: ﴿ءَايَةً﴾ دلالة على قدرتنا عجيبية ﴿وَرَحْمَةً﴾ [أي] لمن آمن به. ﴿وَكَاثَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ مقدراً في اللوح مسطوراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أي تنحت بالحمل إلى مكان بعيد، قال ابن عباس: إلى أقصى الوادي، وهو وادي بيت لحم بينه وبين إيلياء أربعة أميال؛

﴿مَرِيَمَ﴾ بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها. والانتباذ الاعتزال والانفراد. واختلف الناس لم انتبذت؛ فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس. وقال غيره: لتعبد الله؛ وهذا حسن. وذلك أن مريم عليها السلام كانت وفقاً على سداثة المعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت من الناس لذلك، ودخلت في المسجد إلى جانب المحراب في شرفيه لتخلو للعبادة، فدخل عليها جبريل عليه السلام. فقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾. أي مكاناً من جانب الشرق والشرق بسكون الراء المكان الذي تشرق فيه الشمس. والشرق بفتح الراء الشمس. وإنما خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها، حكاه الطبري. وحكى عن ابن عباس أنه قال: إني لأعلم الناس لم اتخذ النصارى المشرق قبله؛ لقول الله عز وجل: ﴿إِذْ أَنْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فاتخذوا ميلاد عيسى عليه السلام وقالوا: لو كان شيء من الأرض خيراً من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السلام فيه. واختلف الناس في نبوة مريم؛ فقيل: كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك. وقيل: لم تكن نبية وإنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما روى جبريل [عليه السلام] في صفة دحية (الكلبي) حين سؤاله عن الإيمان والإسلام. والأول أظهر. وقد مضى الكلام في هذا المعنى مستوفى في «آل عمران» والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾... لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح في جسد عيسى عليه السلام الذي خلقه في بطنها. وقيل: هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصاً وكرماً. والظاهر أنه جبريل عليه السلام أي تمثل الملك لها؛ لقوله: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ أي تمثل الملك لها. ﴿بَشَرًا﴾ تفسير أو حال. ﴿سَوِيًّا﴾ أي مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطبق أو تنظر جبريل في صورته. ولما رأت رجلاً حسن الصورة في صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريد بها بسوء ف﴿قَالَتْ إِنَّهُ عَوْدٌ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ

«نَسِيًا» بفتح النون وهما لغتان مثل الحَجَر والحَجَر والوَثَر والوَثَر. وقرأ محمد بن كعب القرظي بالهمز: «نِسًا» بكسر النون. وقرأ نوف البكالي: «نَسًا» بفتح النون من نَسَا الله تعالى في أجله أي أخره. وحكاه أبو الفتح والداني عن محمد بن كعب. وقرأ بكر بن حبيب: «نَسًا» بتشديد السين وفتح النون دون همز. . . قال السدي فذلك قوله: ﴿مُصَدِّقًا لِّكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الْأَنْبِيَاءِ﴾ [آل عمران: ٣٩]. وذكر أيضاً من قصصها أنها خرجت فارة مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار، كان يخدم معها في المسجد. وطول في ذلك. قال الكلبي: قيل ليوسف - وكانت سميت له أنها حملت من الزنى - فالآن يقتلها الملك، فهرب بها، فهم في الطريق يقتلها، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له: إنه من روح القدس؛ قال ابن عطية: وهذا كله ضعيف. وهذه القصة تقتضي أنها حملت، وأستمرت حاملاً على عرف النساء، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر. قال عكرمة؛ ولذلك قيل: لا يعيش ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصة عيسى. وقيل: ولدته لتسعة. وقيل: لسته. وما ذكرناه عن ابن عباس أصح وأظهر. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا﴾ قرأه بفتح الميم وكسرهما. قال ابن عباس: المراد به ﴿مِنَ﴾ جبريل، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة؛ ففي هذا لها آية وأماره أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله [تعالى] فيها مراد عظيم. وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ تفسير النداء، و«أن» مفسرة بمعنى أي؛ فلا تحزني بولادتك. ﴿قَدْ جَعَلْتُ لَكَ سِرًّا﴾ يعني عيسى. والسري من الرجال العظيم الخصال السيد. قال الحسن: كان والله سرياً من الرجال. ويقال: سري فلان على فلان أي تكرم. وفلان سري من قوم سراة. . . قال ابن عباس: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم والنهر يسمى سرياً كأن الماء يسري فيه؛ قال الشاعر:

سَلَّمَ تَرَى الدَّالِيَّ مِنْهُ أَرْوَا

إذا يُثْبِتُ فِي السَّرِيِّ هَزْهَرَا

ولما بعدت فراراً من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج. قال ابن عباس: ما هو إلا أن حملت فوضعت في الحال وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباز عقب الحمل. وقيل: غير ذلك على ما يأتي.

قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ «أجاءها» [بمعنى] اضطرها؛ وهو تعدية جاء بالهمز. يقال: جاء به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال: ذهب به وأذهب. وقرأ شبيل ورويت عن عاصم: «فاجأها» من المفاجأة. وفي مصحف أبي: «فلما أجاءها المخاض». وقال زهير:

وَجَارٍ سَارَ مَعْتَمِداً إِلَيْكُمْ

أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
وقرأ الجمهور: ﴿الْمَخَاضُ﴾ بفتح الميم. وابن كثير فيما روى عنه بكسرهما وهو الطلق وشدة الولادة وأوجاعها. مَخَضَتِ المرأة تَمَخَضُ مَخَاضاً وَمَخَاضاً. وناقاة ماخض أي دنا ولادها. ﴿إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدة وجع الطلق. . . ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تمت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين: أحدهما - أنها خافت أن يظن بها الشر في دينها وتعير فيفتنها ذلك. الثاني - لثلا يقع قوم بسببها في البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك. وعلى هذا الحد يكون تميت الموت جائزاً، وقد مضى هذا المعنى مبيناً في سورة «يوسف» عليه السلام. والحمد لله.

قلت: وقد سمعت أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول: اخرج يا مَنْ يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ فحزنت لذلك، و﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾. . . وحكي عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا: احفظوا نساءكم؛ الأنساء جمع نسي وهو الشيء الحقيق يغفل فينسى. ومنه قول الكميت رضي الله تعالى عنه:

أَتَجْعَلُنَا جِسْرًا لِّكُلِّ قُضَاعَةٍ

وَلَسْتُ بِنَسِيٍّ فِي مَعَدٍّ وَلَا دَخَلٍ

وقال الفراء: النسي ما تلقى المرأة من خرق اعتلالها؛

فقول مريم: ﴿نَسِيًّا مَّنْسِيًّا﴾ أي حيضة ملقاة. وقرئ:

وقال لبيد:

تَوَسَّطَا عُرْضَ الشَّرِيِّ وَصَدَعَا

مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا

وقيل: ناداها عيسى، وكان ذلك معجزة وآية وتسكيناً لقلبها، والأول أظهر. وقرأ ابن عباس: «فناداها ملك من تحتها» قالوا: وكان جبريل عليه السلام في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيَ إِلَيْكَ جِذْعَ النَّخْلَةِ فَنُفِثَ رُطْبًا جَنِيًّا فَكُلْ وَاقْرَأْ عِيسَىٰ فِيهِ أَرْبَعُ مَسَائِلَ:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَهَزَيَ﴾ أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء موات الجذع. والباء في قوله: ﴿يُجِئُكَ﴾ زائدة مؤكدة كما يقال: خذ بالزمَام، وأعط بيدك؛ قال الله تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ﴾

[الحج: ١٥] أي فليمدد سبباً. وقيل: المعنى؛ وهزي إليك رطباً على جذع النخلة. و﴿تُسْقِطُ﴾ أي تتساقط فادغم التاء في السين وقرأ حمزة: «تَسَاقُطُ» مخففاً فحذف التي أدغمها غيره. وقرأ عاصم في رواية حفص: «تُسَاقِطُ» بضم التاء مخففاً وكسر القاف. وقرئ: «تَتَسَاقُطُ» بإظهار التاءين، «وَيَسَاقُطُ» بالياء وإدغام التاء و«تُسْقِطُ» و«يُسْقِطُ» و«تَسْقِطُ» و«يَسْقِطُ» بالتاء للنخلة وبالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه.

﴿رُطْبًا﴾ نصب بالهز؛ أي إذا هزرت الجذع هزرت بهزه ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾. وعلى الجملة فـ«رطباً» يختلف نصبه

بحسب معاني القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى النخلة. و﴿جَنِيًّا﴾ معناه قد طابت وصلحت للاجتماع، وهي من جنيت الثمرة. ويروى عن ابن مسعود - ولا يصح - أنه قرأ: «تساقط عليك رطباً جنيّاً برئياً». وقال مجاهد: ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ قال: كانت

عجوة. وقال عباس بن الفضل: سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله: ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ فقال: لم يذو. قال وتفسيره:

لم يجف ولم يبس ولم يبعد عن يدي مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح. قال الفراء: الجنّي والمجنّي واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القليل والمقتول والجريح والمجروح. وقال غير الفراء: الجنّي المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ

من مكان نشأته؛ وأنشدوا:

وطيب ثمار في رياضٍ أريضةٍ

وأغصان أشجارٍ جناها على قُزْبٍ

يريد بالجنّي ما يجنى منها أي يقطع ويؤخذ. قال ابن عباس: كان جذعاً نحرّاً فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم أخضر فصار بلحاً ثم احمر فصار زهواً، ثم رطباً؛ كل ذلك في طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شيء.

الثانية: استدللّ بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوماً؛ فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى سعي ما فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بالآلة تهز.

الثالثة: الأمر بتكليف الكسب في الرزق سنة الله تعالى في عباده، وأن ذلك لا يقدح في التوكل، خلافاً لما تقولوه جهال المتزهدة؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه، وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: ٢٣٧] فلما ولدت أمرت بهز الجذع. قال علماؤنا: لما كان قلبها فارغاً فرغ الله جارتها عن النصب، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه، واشتغل سرها بحديثه وأمره، وكلها إلى كسبها، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب في عباده. وحكى الطبري عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها: لا تحزني؛ فقالت له كيف لا أحزن وأنت معي؟ إلا ذات زوج ولا مملوكة! أي شيء عذري عند الناس؟ ١٩ ﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبَلٍ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مِّنْ نَّسِيًّا﴾ فقال لها عيسى: أنا أكفيك الكلام.

الرابعة: قال الربيع بن خيثم: ما للنفساء عندي خير من الرطب لهذه الآية، ولو علم الله شيئاً هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم؛ ولذلك قالوا: التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت، وكذلك التحنيك. وقيل: إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، ولا للمريض خير من العسل؛ ذكره الزمخشري. قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى: ﴿رُطْبًا جَنِيًّا﴾ الجنّي من الثمر ما طاب من غير

النحو قول ابن دريد :

* إما تَرَيَّ رَأْسِي حَاكِي لَوْنِهِ *

وقول الأفوه :

* إما تَرَيَّ رَأْسِي أَزْرَى بِهِ *

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة «ما» كما يوطئ لدخولها أيضاً لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة : «تَرَيْنَ» بسكون الياء وفتح النون خفيفة ؛ قال أبو الفتح : وهي شاذة .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ ﴾ هذا جواب الشرط وفيه إضمار ؛ أي فسألك عن ولدك ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ أي صمتاً ؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفي قراءة أبي بن كعب «إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا صَمْتًا» . وروي عن أنس ، وعنه أيضاً «وصمتاً» بواو ، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيراً لا قرآناً ؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذي تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت ؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف ، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس «وصمتاً» بواو ، وأن الصمت كان عندهم في الصوم ملتزماً بالنذر ، كما أن من نذر منا المشي إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام - أو ابنها على الخلاف المتقدم - بأن تمسك عن مخاطبة البشر ، وتحيل على ابنها في ذلك ليرتفع عنها خجلها ، وتبين الآية فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيع لها أن تقول هذه الألفاظ التي في الآية ، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى «قولي» بالإشارة لا بالكلام . . .

الثالثة : من التزم بالنذر ألا يكلم أحداً من الآدميين فيحتمل أن يقال : إنه قربة فيلزم بالنذر ، ويحتمل أن يقال : ذلك لا يجوز في شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس ، كنذر القيام في الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت في تلك الشريعة لا في شريعتنا ؛ وقد تقدم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام .

نقش ولا إفساد . والنقش أن يُنقش من أسفل البسرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعني مالك أن هذا تعجيل للشيء قبل وقته ، فلا ينبغي لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوزاً لبيعته ؛ ولا حُكماً بطييه . وقد مضى هذا القول في الأنعام . والحمد لله . وعن طلحة بن سليمان ﴿ جَنِيًّا ﴾ بكسر الجيم للاتباع ؛ أي جعلنا لك في السري والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، والثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو [معنى] قوله تعالى : ﴿ فَكُلْ وَاشْرَبْ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ أي فكلي من الجنى ، واشربي من السري ، ﴿ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ برؤية الولد النبي . وقرئ بفتح القاف وهي قراءة الجمهور . . . يقال : قَرَّ عَيْنًا يَقُرُّ ويقر بضم القاف وكسرها ؛ وأقر الله عينه فقرت . وهو مأخوذ من القَرِّ والقِرَّة وهما البرد . ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة . وضعف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أي سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن ؛ وفلان قرّة عيني ؛ أي نفسي تسكن بقربه . وقال الشيباني : ﴿ وَقَرِّ عَيْنًا ﴾ معناه نامي ؛ حضبها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقر الله عينه أي أنام عينه ، وأذهب سهره . و﴿ عَيْنًا ﴾ نصب على التمييز ؛ كقولك : طب نفسك . والفعل في الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذي العين ؛ وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة على التفسير . ومثله طبت نفسك ، وتفقات شحماً وتصببت عرقاً ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيْنَ ﴾ الأصل في ترين تَرَأَيْنَ فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار ، «ترين» ، ثم قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها ؛ فاجتمع ساكنان الألف المتقلبة عن الياء وياء التأنيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار تَرَيْنَ ، ثم حذفت النون علامة للجزم ؛ لأن إن حرف شرط وما صلة فبقي تَرَيَّ ، ثم دخله نون التوكيد وهي مثقلة ، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيْنَ ؛ وعلى هذا

يخفضون إليها القول ويلينون؛ فقالوا: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي عظيماً؛ قال الراجز:

قَدْ أَطْعَمْتَنِي دَقًّا لَا حَوْلِيَا
مُسَوِّسًا مُدَوِّدًا حَجْرِيَا
* قد كنتَ تفريين به الفريّا *

أي تعظمينه.

قوله تعالى: ﴿يَتَأَخَّتَ هُنُورٌ﴾...

قلت: فقد دلّ الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهارون زمان مديد...

قلت: ذكره الغزنوي عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقاً مثلاً في الفجور فنسبت إليه. والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلاً لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟! وهذا من التعريض الذي يقوم مقام التصريح. وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتي في سورة «النور» القول فيه إن شاء الله تعالى. وهذا القول الأخير يرده الحديث الصحيح، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه، ولا غبار عليه. والحمد لله. وقرأ عمر بن لُجَأَ النُّيْمِي: «مَا كَانَ أَبَاكَ أَمْرُوءَ».

قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنْ عَبْدُ اللَّهِ أَتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه الآية أنها نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ وإنما ورد بأنها أشارت، فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها بـ «قولي» إنما أريد به الإشارة. ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا: استخفافها بنا أشدّ علينا من زناها، ثم قالوا لها على جهة التقريير: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ و﴿كَانَ﴾ هنا ليس يراد بها الماضي؛ لأن كل واحد قد كان في المهد صبيّاً، وإنما هي في معنى هو [الآن]. وقال أبو عبيدة: «كان» هنا لغو؛ كما قال:

وهذا هو الصحيح لحديث أبي إسرائيل، خرّجه البخاري عن ابن عباس. وقال ابن زيد والسدي: كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام.

قلت: ومن سنّتنا نحن في الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام «إذا كان أحدكم صائماً فلا يرفث ولا يجهل فإن أمرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنني صائم». وقال عليه الصلاة والسلام: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه».

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَنْمِرُ هُمَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا يَتَأَخَّتَ هُنُورٌ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ يَغِيًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ روي أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به تحمله من المكان القصي الذي كانت انتبذت فيه. قال ابن عباس: خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبي تحمله. فقالوا منكرين: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾... قال مجاهد: «فرياً» عظيماً. وقال سعيد بن مسعدة: أي مختلقاً مفتعلاً؛ يقال: فريت وأفريت بمعنى واحد. والولد من الزنى كالشيء المفترى. قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتِيَنَّ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلِهِمْ﴾ [الممتحنة: ١٢] أي بولد يقصد إلحاقه بالزوج وليس منه. يقال: فلان يفرى الفري أي يعمل العمل البالغ، وقال أبو عبيدة: الفري العجيب النادر؛ وقاله الأخفش. قال: فرياً عجبياً والفري القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجبياً نادراً. وقال قطرب: الفري الجديد من الأسبقية؛ أي جئت بأمر جديد بديع لم تسبقني إليه. وقرأ أبو حيوة: «شَيْئًا فَرِيًّا» بسكون الراء. وقال السدي وهب بن منبه: لما أتت به قوما تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونسائهم، فمدّت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحملت كذلك. وقال آخر: ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها؛ وجعلوا

* وجيران لنا كانوا كرام *

وقيل: هي بمعنى الوجود والحدوث كقوله: ﴿وَلِنْ كَانَتْ ذُو عُسْرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠] وقد تقدم. وقال ابن الأنباري: لا يجوز أن يقال زائدة وقد نصبت «صبياً»، ولا أن يقال «كان» بمعنى حدث، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول: كان الحرُّ وتكتفي به. والصحيح أن ﴿مَنْ﴾ في معنى الجزاء و﴿كَانَ﴾ بمعنى يكن؛ والتقدير: من يكن في المهد صبياً فكيف نكلمه؟ كما تقول: كيف أعطي من كان لا يقبل عطية؛ أي من يكن لا يقبل. والماضي قد يذكر بمعنى المستقبل في الجزاء؛ كقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي لِنَ سَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ فُصُورًا﴾ [الفرقان: ١٠] أي إن يشأ يجعل. وتقول: من كان إليّ منه إحسان كان إليه مني مثله، أي من يكن منه إلى إحسان يكن إليه مني مثله. و﴿الْمَهْدِ﴾ قيل: كان سريراً كالْمَهْد. وقيل: ﴿الْمَهْدِ﴾ هاهنا حجر الأم. وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوّم في المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ وهي:

الثانية: . . . و ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وبربوبيته؛ ردّاً على من غلا من بعده في شأنه. والكتاب الإنجيل؛ قيل: آتاه في تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوة كما علم آدم الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلي. وهذا في غاية الضعف على ما نبينه في المسألة بعد هذا. وقيل: أي حكم لي بإيتاء الكتاب والنبوة في الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلاً في الحال؛ وهذا أصح. ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا﴾ أي ذا بركات ومنافع في الدين والدعاء إليه ومعلماً له. التَّشْتَرِي: وجعلني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم، وأغيث الملهوف. ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي لأؤديهما إذا أدركني التكليف، وأمكنني أدائهما، على القول الأخير الصحيح. ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ [ما] في موضع نصب على الظرف أي دوام حياتي. [قوله تعالى]: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾

قال ابن عباس: لما قال ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْ﴾ ولم يقل بوالديّ علم أنه شيء من جهة الله تعالى. ﴿وَلَمْ يَجْعَلَنِي جَبَّارًا﴾ أي متعظماً متكبراً يقتل ويضرب على الغضب. وقيل: الجبار الذي لا يرى لأحد عليه حقاً قط. ﴿شَقِيًّا﴾ أي خائباً من الخير. ابن عباس: عاقاً. وقيل: عاصياً لربه وقيل: لم يجعلني تاركاً لأمره فأشقى كما شقى إبليس لما ترك أمره.

الثالثة: قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر! أخبر عيسى عليه السلام بما قضي من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت. وقد روي في قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمر عظيم. وروي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان فكان نطقه إظهار براءة أمه لا أنه كان ممن يعقل في تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة. ولم ينقل أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلي وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتبسيحه ووعظه وصلاته في صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لا ينكتم، وهذا كله مما يدل على فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله. ويدل أيضاً على أنه تكلم في المهد خلافاً لليهود والنصارى. والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحدّد. وإنما صحّ براءتها من الزنى بكلامه في المهد. ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبرّ الوالدين كان واجباً على الأمم السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ في شريعة أمره. وكان عيسى عليه السلام في غاية التواضع؛ يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جَنّه الليل، لا مسكن له، ﷺ.

الرابعة: الإشارة بمنزلة الكلام وثفهم ما يفهم القول. كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ﴾ وقد مضى هذا في «آل عمران» مستوفى.

الخامسة: قال الكوفيون: لا يصح قذف الأخرس ولا

لعانه. وروي مثله عن الشعبي، وبه قال الأوزاعي وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفاً؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطاء الحلال والشبهة. قالوا: واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع. قال ابن القصار: قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ما عدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس. وما ذكره من الإجماع في شهادة الأخرس فغلط. وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ. قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغي أن يكون القذف مثل ذلك. قال المهلب: وقد تكون الإشارة في كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «بعثت أنا والساعة كهاتين» نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفي إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون في بعض المواضع أقوى من الكلام. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أي السلامة عليّ من الله تعالى. قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن في الثانية ذكر الألف واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ يعني في الدنيا. وقيل: من همز الشيطان كما تقدم في «آل عمران». ﴿وَيَوْمَ أُمُوتُ﴾ يعني في القبر. ﴿وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ يعني في الآخرة؛ لأن له أحوال ثلاثة: في الدنيا حياً، وفي القبر ميتاً، وفي الآخرة مبعوثاً؛ فسلم في أحواله كلها؛ وهو معنى قول الكلبي، ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان . . .

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ وَلَئِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي ذلك الذي ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقده، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وإنه ابن يوسف النجار، ولا كما

قالت النصارى: إنه الإله أو ابن الإله. ﴿قَوْلَكَ الْحَقُّ﴾ قال الكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعت لعيسى؛ أي ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق]. وسُمي قول الحق كما سُمي كلمة الله؛ والحق هو الله عز وجل. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق. وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. قال ابن عباس: يريد هذا كلام عيسى [ابن مريم] ﷺ قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال: ﴿وَعَدَ الْصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف: ١٦] أي الوعد الصدق. وقال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ﴾ [الأنعام: ٣٢] أي ولا الدار الآخرة. وقرأ عاصم وعبدالله بن عامر: «قال الحق» بالنصب على الحال؛ أي أقول قولاً حقاً. والعامل معنى الإشارة في «ذلك». الزجاج: هو مصدر أي أقول قول الحق؛ لأن ما قبله يدل عليه. وقيل: مدح. وقيل: إغراء. وقرأ عبدالله: «قال الحق». وقرأ الحسن: ﴿قَوْلَكَ الْحَقُّ﴾ بضم القاف، وكذلك في «الأنعام» ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣] والقَوْلُ والقَالُ والقَوْلُ بمعنى واحد، كالرَّهْبِ والرَّهْبِ والرَّهْبِ. ﴿الَّذِي﴾ من نعت عيسى. ﴿فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ أي يشكون؛ أي ذلك عيسى ابن مريم الذي فيه يمترون القول الحق. وقيل: «يمترون» يختلفون. ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَكَ الْحَقُّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ قال: اجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا في عيسى حين رفع؛ فقال أحدهم: هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحياء وأمات من أمات، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية. فقالت الثلاثة: كذبت. ثم قال اثنان منهم للثالث: قل فيه، قال: هو ابن الله وهم التسطورية، فقال الاثنان كذبت، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه، فقال: هو ثالث ثلاثة، الله إله وهو إله، وأمه إله، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى. قال الرابع: كذبت بل هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته وهم المسلمون، فكان لكل رجل منهم أتباع - على ما قال - فافتتلوا فظهر على المسلمين، فذلك قول الله تعالى ﴿وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ٢١] . . .

ولداً. و«أن» في موضع رفع اسم «كان» أي ما كان لله أن يتخذ ولداً؛ أي ما كان من صفته اتخاذاً الولد، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالته فقال: ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أن يكون له ولد. ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تقدم في «البقرة» مستوفى. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو: بفتح «أن» وأهل الكوفة: «وإن» بكسر الهمزة على أنه مستأنف. تدلّ عليه قراءة أبي: «كن فيكون إن الله» بغير واو على العطف على ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾. وفي الفتح أقوال: فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى؛ ولأن الله ربي وربكم، وكذا، ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فـ «أن» في موضع نصب عندهما. وأجاز الفراء أن يكون في موضع خفض على حذف اللام، وأجاز أن يكون أيضاً في موضع خفض بمعنى؛ وأوصاني بالصلاة والزكاة مادمت حياً وبأن الله ربي وربكم. وأجاز الكسائي أن يكون في موضع رفع بمعنى؛ والأمر أن الله ربي وربكم. وفيها قول خامس: حكى أبو عبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله، وهو أن يكون المعنى: وقضى أن الله ربي وربكم؛ فهي معطوفة على قوله: ﴿أَمْرًا﴾ من قوله: ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ والمعنى إذا قضى أمراً وقضى أن الله ولا يتبدأ بـ «أن» على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث. ويجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية. ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي دين قويم لا اعوجاج فيه.

الآلوسي ج ١٦ ص ٧٤-٩٢

لكن لا على أن يكون المأمور به ذكر نبئها عند انتباها فقط بل كل ما عطف عليه وحكى بعده بطريق الاستئناف داخل في حيز الظرف متمم للبناء وجعله أبو حيان ظرفاً لفعل محذوف أي واذكر مريم وما جرى لها إذا انتبذت وما ذكرناه أولى. وقيل: هو ظرف لمحذوف وقع حالاً من ذلك المضاف، وقيل: بدل اشتغال من مريم لأن الأحيان مشتملة على ما فيها وفيه تفخيم لقصتها العجيبة.

وتعقبه أبو البقاء بأن الزمان إذا لم يقع حالاً من الجثة ولا خبراً عنها ولا صفة لها لم يكن بدلاً منها. ورد بأنه لا يلزم من عدم صحة ما ذكر عدم صحة البدلية ألا ترى

قلت: ووقع في تاريخ مصر فيما رأيت وجاء في الإنجيل؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد في بيت لحم كان هيرودس في ذلك الوقت ملكاً، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار في الحلم وقال له: قم فخذ الصبي وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك، فإن هيرودس مزع أن يطلب عيسى ليهلكه، فقام من نومه: وامتلأ أمر ربه، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر، وفي حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البلسان التي بظاهر القاهرة، وغسلت ثيابه على ذلك البئر، فالبلسان لا يطلع ولا ينبت إلا في تلك الأرض، ومنه يخرج الدهن الذي يخالط الزيت الذي تعمّد به النصارى، ولذلك كانت قارورة واحدة في أيام المصريين لها مقدار عظيم، وتقع في نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعاً جليلاً جداً، وتكون أحب إليهم من كل هدية لها قدر. وفي تلك السفرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين وقسمام المعروفة الآن بالبحرقة، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن، ويحضرون إليها في عيد الفصح من كل مكان؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر، ومنها عاد إلى الشام. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾ أي ما ينبغي له ولا يجوز: ﴿أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ﴾ «من» صلة للكلام؛ أي أن يتخذ

قوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ﴾ إلخ فهو كلام مستأنف خوطب به النبي ﷺ وأمر عليه الصلاة والسلام بذكر قصة مريم إثر قصة زكريا عليه السلام لما بينهما من كمال الاشتباك والمناسبة. والمراد بالكتاب عند بعض المحققين السورة الكريمة لا القرآن كما عليه الكثير إذ هي التي صدرت بقصة زكريا عليه السلام المستتبعة لقصتها وقصص الأنبياء عليهم السلام المذكورين فيها أي واذكر للناس فيها ﴿مَرِيَمَ﴾ أي نبأها فلإن الذكر لا يتعلق بالأعيان.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنْبَأَتْ﴾ ظرف لذلك المضاف

والمراد به جبريل عليه السلام أيضاً لأنه سبب لما فيه روح العباد وإصابة الروح عند الله تعالى الذي هو عدة المقربين في قوله تعالى ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] أو لأنه عليه السلام من المقربين وهم الموعودون بالروح أي مقربنا أو ذا روحنا.

وذكر النقاش أنه قرئ ﴿رُوحَانًا﴾ بتشديد النون اسم ملك من الملائكة عليهم السلام ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾ مشتق من المثل وأصله أن يتكلف أن يكون مثال الشيء، والمراد فتصور لها ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ سوي الخلق، كامل البنية لم يفقد من حسان نعوت الآدمية شيئاً... وما قيل من أن ذلك لتهييج شهوتها فتتحدّر نطفتها إلى رحمها فمع ما فيه من الهجنة التي ينبغي أن تنزه مريم عنها يكذبه قوله تعالى ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ﴾ فإنه شاهد عدل بأنه لم يخطر ببالها شائبة ميل ما إليه فضلاً عن الحالة المترتبة على أقصى مراتب الميل والشهوة، نعم كان تمثله على ذلك الحسن الفائق والجمال الرائق لأن عادة الملك إذا تمثل أن يتمثل بصورة بشر جميل كما كان يأتي النبي ﷺ في صورة دحية رضي الله تعالى عنه أولاً لابتلائها وسبر عفتها ولقد ظهر منها من الورع والعفاف ما لا غاية وراءه وإرادة القائل أنه وقع كذلك ليكون مظنة لما ذكر فيظهر خلافه فيكون أقوى في نزاهتها بعيد جداً عن كلامه.

وقال بعض المتأخرين: إن استعاذتها بالله تعالى تنبيء عن تهيج شهوتها وميلانها إليه ميلاً طبيعياً على ما قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿وَلَا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٢٣] فقد قيل: المراد بالصبوة فيه الميل بمقتضى الطبيعة وحكم القوة الشهوية ثم أنه لا ينافي عفتها بل يحققها لكونه طبعياً اضطرارياً غير داخل تحت التكليف كما قيل في قوله تعالى ﴿وَهُمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤] ومع هذا قد استعاذ يوسف عليه السلام بما حكى الله تعالى عنه من قوله تعالى ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣] فدعوى أن الاستعاذة تكذب التهيج والميل الطبيعي كذب والقول بأنه يأبى ذلك مقام بيان آثار القدرة الخارقة للعادة ليس بشيء لأن خلق الإنسان من ماء واحد أثر من آثار القدرة الخارقة للعادة أيضاً.

سلب زيد ثوبه كيف صح فيه البدلية مع عدم صحة ما ذكر في البذل وكون ذلك حال الزمان فقط غير بين ولا مبين. وقيل: بدل كل من كل على أن المراد بمريم قصتها وبالظرف الواقع فيه وفيه بعد. وقيل: (إذا) بمعنى أن المصدرية كما في قوله لا أكرمتك إذا لم تكرمني أي لأن لم تكرمني أي لعدم إكرامك لي. وهذا قول ضعيف للنحاة. والظاهر أنها ظرفية أو تعليلية إن قلنا به ويتعين على ذلك بدل الاشتمال. والانتباز الاعتزال والانفراد.

وقال الراغب يقال: انتبذ فلان اعتزل اعتزال من تقل مبالاته بنفسه فيما بين الناس. والنبذ: إلقاء الشيء وطرحه لقلة الاعتداد به.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِهَا﴾ متعلق بانتبذت وقوله سبحانه ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ قيل نصب على الظرف، وقيل مفعول به لانتبذت باعتبار ما في ضمنه من معنى الإتيان المترتب وجوداً واعتباراً على أصل معناه العامل في الجار والمجرور وهو السرفي تأخير عنه. واختاره بعض المحققين أي اعتزلت وانفردت من أهلها. وأتت مكاناً شريعياً من بيت المقدس أو من دارها لتختلي هناك للعبادة... قوله تعالى ﴿فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا﴾ وكونه شريعياً كان أمراً اتفاقياً.

وأخرج ابن أبي حاتم عن ابن عباس أن أهل الكتاب كتب عليهم الصلاة إلى البيت والحج إليه وما صرفهم عنه إلا قول ربك ﴿إِذْ أَنْبَذْتَ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ فلذلك صلوا قبل مطلع الشمس... وقد قدمنا عن بعض أنهم كانوا في زمن عيسى عليه السلام يستقبلون بيت المقدس وأنهم ما استقبلوا الشرق إلا بعد رفعه عليه السلام زاعمين أنه ظهر لبعض كبارهم فأمره بذلك. وجوز أن يكون اختاره الله تعالى لها لأنه مطلع الأنوار. وقد علم سبحانه أنه حان ظهور النور العيسوي منها فناسب أن يكون ظهور النور المعنوي في جهة ظهور النور الحسي وهو كما ترى... وذلك قوله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ أي جبريل عليه السلام كما قاله الأكثر، وعبر عنه بذلك لأن الدين يحيا به وبوحيه فهو مجاز. والإضافة للتشريف كبيت الله تعالى.

... وقرأ أبو حيوة وسهل ﴿رُوحَنَا﴾ بفتح الراء،

رَسُولُ رَبِّكَ ﴿لَا هَبَ لَكَ عَلَمًا زَكِيًّا﴾ أي لاكون سبباً في هبته بالنفخ في الدرع، ويجوز أن يكون حكاية لقوله تعالى بتقدير القول أي ربك الذي قال أرسلت هذا الملك لأهب لك، ويؤيده قراءة شبيهة. وأبي الحسن. وأبي بحرية. والزهري. وابن منذر. ويعقوب. واليزيدي. وأبي عمرو. ونافع في رواية ليهب بالياء فإن فاعله ضمير الرب تعالى. وما قيل: من أصل «ليهب» ﴿لَا هَبَ﴾ فقلبت الهمزة ياء لانكسار ما قبلها تعسف من غير داع له.

وفي بعض المصاحف: ﴿أَنَا رَسُولُ رَبِّكَ لِأَهَبَ لَكَ عَلَمًا زَكِيًّا﴾ طاهراً من الذنوب وقيل: نبياً وقيل: نامياً على الخير أي مترقياً من سن إلى سن على الخير والصلاح فالزكا شامل للزيادة المعنوية والحسية. واستدل بعضهم برسالة الملك إليها على نبوتها.

وأجيب: بأن الرسالة لمثل ذلك لا تستدعي النبوة ﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ أي والحال أنه لم يباشرني بالحلال رجل وإنما قيل بشر مبالغة في تزهرها من مبادئ الولادة ﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ أي ولم أكن زانية، والجملة عطف على لم يمسيني داخل معه في حكم الحالية مفصح عن كون المساس عبارة عن المباشرة بالحلال وهو كناية عن ذلك كما في قوله تعالى ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧] ﴿أَوْ لَمَسْنُمُ النِّسَاءَ﴾ [النساء: ٤٣] ونحوه كما قيل دخلتم بهن وبنى عليها.

وأما الزنا فليس بمقام أن يكنى عنه لأن مقامه أما تطهير اللسان فلا كناية ولا تصريح وإما التقرير فحينئذ يستحق الزيادة على التصريح والألفاظ التي يظن أنها كناية فيه قد شاعت حتى صارت حقيقة صريحة فيه ومنها ما في النظم الكريم، ولا يرد على ذلك ما في سورة آل عمران من قولها ﴿وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] مقتصرة عليه فإن غاية ما قيل فيه إنه كناية عن النكاح والزنا على سبيل التغليب، ولم يجعل كناية عن الزنا وحده، ولقائل أن يقول: أنه ثم كناية عن النكاح فقط كما هنا واستوعبت الأقسام ههنا لأنه مقام البسط واقتصرت على نفي النكاح ثم لعدم التهمة ولعلمها أنهم ملائكة ينادون لا يتخللون فيها التهمة ولعلمها أنهم ملائكة ينادون لا يتخللون فيها التهمة بخلاف هذه الحالة فإن جبريل عليه السلام كان قد

والأسباب في هذا المقام ليست بمرفوضة بالكلية كما يرشد إلى ذلك قصة يحيى عليه السلام. على أنه قد يدعي أن خلق شيء لا من شيء أصلاً محال فلا يكون من مراتب القدرة ومادة الجعل إلا بداعي الأعيان الثابتة وهي قديمة اهـ، ولا يخلو عن بحث، وما ذكرناه في التعليل أسلم من القول والقييل فتدبر، ونصب ﴿بَشَرٌ﴾ على الحالية المقدرة أو التمييز، وقيل على المفعولية بتضمين تمثل معنى اتخذ... ومعلوم أن كل مذهب يجر إلى ذلك فهو باطل، وأيضاً لو جاز ذلك ارتفع الوثوق بالخبر المتواتر كخبر مقاتلة النبي عليه الصلاة والسلام يوم بدر لجواز أن يكون المقاتل المتمثل به. وأجيب عن الأول بأنه لا يمتنع أن يكون لجبريل عليه السلام أجزاء أصلية قليلة وأجزاء فاضلة فبالأجزاء الأصلية يكون متمكناً من التمثيل بشراً هذا عند القائلين بأنه جسم...

﴿إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ شرط جواب محذوف ثقة بدلالة السياق عليه، أي إن كان يرجى منك أن تتقي الله تعالى وتخشاه وتحترف بالاستعاذة فإني عائذة به منك. كذا قدره الزمخشري.

والحاصل أن التقوى لم تجعل شرط الاستعاذة بل شرط مكافئه وأمنها منه وكنت عن ذلك بالاستعاذة بالله تعالى حثاله على المكافة بالطف وجه وأبلغه وإن من تعرض للمستعذ به فقد تعرض لعظيم سخطه انتهى.

وقدر الزجاج إن كنت تقياً فتتعظ بتعويذي، والأولى عليه تتعظ بإسقاط الفاء لأن المضارع الواقع جواباً لا يقترب بالفاء فيحتاج إلى جعله مرفوعاً بتقدير مبتدأ، وقدر بعضهم فاذهب عني بعضهم فلا تتعرض بي... وقال الشهاب: الظاهر إن على هذا القول وصلية وفي مجيئها بدون الواو كلام، وذكر أن الجملة على هذا الحالية والمقصود بها الالتجاء إلى الله تعالى من شره لا حثه على الانزجار وقيل نافية، والجملة استئناف في موضع التعليل أي ما كنت تقياً متورعاً بحضورك عندي وانفرادك بي وهو خلاف الظاهر...

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ المالك لأمره والناظر في مصلحتك الذي استعذت به ولست ممن يتوقع منه ما توهمت من الشر. روي عن ابن عباس أنها لما قالت: ﴿أَعُوذُ﴾ إلخ تبسم جبريل عليه السلام وقال: ﴿إِنَّمَا أَنَا

فعلنا ذلك. وجوز أن يكون معطوفاً على علة أخرى مضمرة أي لنبين به عظم قدرتنا ولنجعله آية إلخ. . . وفي إثارة الجملة الأولى اسمية دالة على لزوم الهون ومزيلة للاستبعاد والثانية فعلية دالة على أنه تعالى أنشأه لكونه آية ورحمة خاصة لا لأمر آخر ينافيه مراد بها التجدد لتجدد الوجود لينتقل من الاستبعاد إلى الاستحسان ما لا يخفي من الفخامة انتهى.

ولا يرد أنه إذا قدر علة نحو لنبين جاز أن يكون ذلك متعلقاً بما يدل عليه ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ من غير حذف شيء فلا يصح قوله لم يكن بدّ من معلل محذوف لظهور ما فيه. وما ذكره من العطف خالف فيه بعضهم فجعل الواو على الأول اعتراضية. ومن الناس من قال: إن ﴿وَلَيَنْجَعَنَّ﴾ على قراءة «ليهب» عطف عليه على طريقة الالتفات من الغيبة إلى التكلم. وجوز أيضاً العطف على ﴿لَا هَبَ﴾ على قراءة أكثر السبعة. ولا يخفي بعد هذا العطف على القراءتين. . .

ونقل النيسابوري عن أهل التنجيم أن ذلك لأن الحمل يعود إلى تربية القمر فتستولي عليه البرودة والرطوبة وهو ظاهر في أن مربى الحمل في أول شهور الحمل القمر وفي الثامن يعود الأمر إليه عند المنجمين وهو مخالف لما في كفاية التعليم عنهم من أن أول الشهور منسوب إلى زحل والثاني إلى المشتري وهكذا إلى السابع وهو منسوب إلى القمر ثم ترجع النسبة إلى زحل ثم إلى المشتري: وفيها أيضاً أن جهال المنجمين يقولون إن النطفة في الشهر الأول تقبل البرودة من زحل فتجمد، وفي الثاني تقبل القوة النامية من المشتري فتأخذ في النمو، وفي الثالث تقبل القوة الغضبية من المريخ. وفي الرابع قوة الحياة من الشمس. وفي الخامس قوة الشهوة من الزهرة. وفي السادس قوة النطق من عطارد. وفي السابع قوة الحركة من القمر فتتم خلقة الجنين فإن ولد في ذلك الوقت عاش وإلا فإن ولد في الثامن لم يعيش لقبوله قوة الموت من زحل وإن ولد في التاسع عاش لأنه قبل قوة المشتري. ومثل تلك الكلمات خرافات وكل امرأة تعرف أن النطفة إذا مضت عليها ثلاثة أشهر تتحرك. وقد ذكر حكماء الطبيعة

أنها في صورة شاب أمرد، ولهذا تعودت منه ولم يكن قد سكن روعها بالكلية إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ على أنه قيل: إن ما في آل عمران من الاكتفاء وترك الاكتفاء في هذه لأنه تقدم نزولها فهي محل التفصيل بخلاف تلك لسبق العلم، وقيل: المساس هنا كناية عن الأمرين على سبيل التغليب كما في تلك السورة ﴿وَلَمْ أَكُ بِغِيًّا﴾ تخصيص بعد التعميم لزيادة الاعتناء بتنزيه ساحتها عن الفحشاء، ولذا أثرت كان في النفي الثاني فإن في ذلك إيذاناً بأن انتفاء الفجور لازم لها.

وكانها عليها السلام من فرط تعجبها وغاية استبعادها لم تلتفت إلى الوصف في قول الملك عليه السلام ﴿لَا هَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ النافي كل ريبة وتهمة ونبذته وراء ظهرها وأتت بالموصوف وحده وأخذت في تقرير نفيه على أبلغ وجه أي ما أبعد وجود هذا الموصوف مع هذه الموانع بله الوصف، وهذا قريب من الأسلوب الحكيم. . . ﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ اطلقوا الكلام في أنه نظير ما تقدم في قصة زكريا عليه السلام. وفي الكشف أنه لا يجري فيه تمام الأوجه التي ذكرها الزمخشري هناك لأن «قال» أولاً فيه ضمير الرسول إليها فكذلك إن علق بالثاني يكون المعنى قال الرسول قال ربك كذلك ثم فسر به بقوله: ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ أو المعنى مثل ذلك القول العجيب الذي سمعته ووعدتك قال ربك على إقحام الكاف ثم استأنف هو على هين ولا بدّ من إضمار القول لأن المخاطب لها جبريل عليه السلام وقوله ﴿هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ﴾ كلام الحق تعالى شأنه حكاية لها. وإن علق بالأول يكون المعنى الأمر كذلك تصديقاً لها أو كما وعدت تحقيقاً له ثم استأنف قال ربك هو على هين لإزالة الاستبعاد أو لتقرير التحقيق. ولا يبعد أن يجعل ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ على هذا تفسيراً وكذلك مبهماً انتهى. ولا أرى ما نقل عن ابن المنير هناك وجهاً هنا ﴿وَلَيَنْجَعَنَّ﴾ تعليل لمعلل محذوف أي لنجعل وهب الغلام (آية) وبرهاناً ﴿لِلنَّاسِ﴾ جميعهم أو المؤمنين على ما روي عن ابن عباس يستدلون به على كمال قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً﴾ عظيمة كائناً ﴿مِّنَّا﴾ عليهم يهتدون بهدائته ويسترشدون بإرشاده

﴿قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ﴾ بكسر الميم من مات يمات كجاء يجيء... يخاف أو من مات يميت كجاء يجيء...

﴿قَبْلَ هَذَا﴾ الوقت الذي لقيت فيه ما لقيت أو قبل هذا الأمر، وإنما قالت عليها السلام مع أنها كانت تعلم ما جرى بينها وبين جبريل عليه السلام من الوعد الكريم استحياء من الناس وخوفاً من لائمهم أو حذراً من وقوع الناس في المعصية بما يتكلمون فيها. وروي أنها سمعت نداء أخرج يا من يعبد من دون الله تعالى فحزنت لذلك وتمنت الموت، وتمنى الموت لنحو ذلك مما لا كراهة فيه. نعم يكره تمنيه لضرر نزل به من مرض أو فاقة أو محنة من عدو أو نحو ذلك من مشاق الدنيا. ففي صحيح مسلم. وغيره قال صلى الله تعالى عليه وسلم: «لا يتمنين أحدكم الموت لضرر نزل فإن كان لا بد متمنياً فليقل اللهم أحيني ما كانت الحياة خيراً لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيراً لي» ومن ظن أن تمنيتها عليها السلام ذلك كان لشدة الوجع فقد أساء الظن والعياذ بالله تعالى.

﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا﴾ أي شيئاً... تافهاً شأنه أن ينسى ولا يعتد به أصلاً كخرقة الطمث.

وقرأ الأكثرون ﴿نَسِيًّا﴾ بالكسر. قال الفراء: هما لغتان في ذلك كالوتر والوتر والفتح أحب إلي.

وقال الفارسي: الكسر على اللغتين، قال ابن الأنباري: هو بالكسر اسم لما ينسى كالنقض اسم لما ينقض وبالفتح مصدر نائب عن الاسم، وقرأ محمد بن كعب القرظي (نسأ) بكسر النون والهمزة مكان الياء وهي قراءة نوف الأعرابي، وقرأ بكر بن حبيب السهمي. ومحمد بن كعب أيضاً في رواية (نسا) بفتح النون والهمزة على أن ذلك من نسأت اللبن إذا صببت عليه ماء فاستهلك اللبن فيه لقلته فكأنها تمنى أن تكون مثل ذلك اللبن الذي لا يرى ولا يتميز من الماء، ونقل ابن عطية عن بكر بن حبيب أنه قرأ (نسا) بفتح النون والسين من غير همز كعصى ﴿مَنْسِيًّا﴾ لا يخطر ببال أحد من الناس. ووصف النسبي بذلك لما أنه حقيقة عرفية فيما يقل الاعتداد به وإن لم ينس، وقرأ الأعمش. وأبو جعفر في رواية بكسر الميم اتباعاً لحركة السين كما قالوا: متنن باتباع حركة الميم لحركة التاء...

إن أقل مدة الولادة ستة أشهر ومدة الحركة ثلث مدة الولادة فيكون أقلها شهرين ومن امتحن الإسقاط يعلم أن الخلقة تنم في أقل من خمسين يوماً انتهى. وكلام المتشرعين لا يخفى عليك في هذا الباب.

وقد يعيش المولود لثمان إلا أنه قليل فليس ذلك من خواصه عليه السلام إن صح. ولم يصح عندي شيء من هذه الأقوال المضطربة المتناقضة بيد أنني أميل إلى أولها والاستدلال للثاني مما سمعت لا يخلو عن نظر.

﴿فَانْتَبَذَتْ يَهُءَ﴾ أي فاعتزلت وهو في بطنها فالباء للملاسة والمصاحبة مثلها في قوله تعالى ﴿تَبَيَّنْتُ بِالدَّهْنِ﴾ [المؤمنون: ٢٠] وقول المتنبي يصف الخيول:

فمرت غير نافرة عليهم
تدوس بنا الجماجم والرؤوسا
والجار والمجور ظرف مستقرة وقع حالاً من ضميرها
المستتر أي فانتبذت ملتبسة به... ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾
أي الجأها كما قال الزمخشري وجماعة، وفي الصحاح
أجأته إلى كذا بمعنى الجأته واضطرته إليه ﴿مَكَانًا
قَصِيًّا﴾ قال زهير بن أبي سلمى:

وجار سار معتمداً عليكم
أجاءته المخافة والرجاء

قال الفراء: أصله من جثث وقد جعلته العرب الجاء، وفي المثل شر ما يجيثك إلى مخة عرقوب انتهى، واختار أبو حيان أن المعنى جاء بها واعترض على الزمخشري وأطال الكلام بما لا يخفي رده و﴿الْمَخَاضُ﴾ بفتح الميم كما في قراءة الأكثرين وبكسرها كما في رواية عن ابن كثير مصدر مخضت المرأة بفتح الخاء وكسرها إذا أخذها ما الطلق وتحرك الولد في بطنها للخروج، وقرأ الأعمش. وطلحة «فاجأها» بإمالة فتحة الجيم، وقرأ حماد بن سلمة عن عاصم «فاجأها» من المفاجأة وروي ذلك عن مجاهد ونقله ابن عطية عن شبيل بن عزرة أيضاً، وقال صاحب اللوامح: إن قراءته تحتل أن تكون الهمزة فيها قد قلبت ألفاً ويحتمل أن تكون بين بين غير مقلوبة.

﴿إِلَى جَنَاحِ النَّحْلَةِ﴾ لتستند إليه عند الولادة كما روي عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي أو لذلك ولتستر به...

الاهتمام بالماء أشد من الاهتمام بالأكل لاسيما ممن يريد أن يأكل ما يحوج إلى الماء كالأشياء الحلوة الحارة، والعادة قاضية بأن الأكل بعد الشرب ولذا قدم الأكل على الشرب حيث وقع، وقيل: قدم الماء لأنه أصل في النفع ونفعه عام للتنظيف ونحوه، وقد كان جارياً وهو أظهر في إزالة الحزن وآخر الشرب للعادة. وقيل قدم الأكل ليجاور ما يشاكلة وهو الرطب. والأمر قليل يحتمل الوجوب والندب. وذلك باعتبار حالها، وقيل هو للإباحة ﴿وَقَرَىٰ عَيْنًا﴾ وطيب نفساً وارفضي عنها ما أحزنك. وقرى بكسر القاف وهي لغة نجد وهم يفتحون عين الماضي ويكسرون عين المضارع وغيرهم يكسرها وذلك من القر بمعنى السكون فإن العين إذا رأت ما يسر النفس سكنت إليه من النظر إلى غيره ويشهد له قوله تعالى ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ [الأحزاب: ١٩] من الحزن أو بمعنى البرد فإن دمة السرور باردة ودمة الحزن حارة. ويشهد له قولهم قرة العين وسختها للمحسوب والمكروه. وتسليتها عليها السلام بما تضمنته الآية من إجراء الماء وإخراج الرطب من حيث أنهما أمران خارقان للعادة فكانه قيل: لا تحزني فإن الله تعالى قدير ينزه ساحتك عما يختلج في صدور المتقين بالأحكام العادية بأن يرشدهم أي الوقوف على سريرة أمرك بما أظهر لهم من البسائط العنصرية والمركبات النباتية ما يخرق العادات التكوينية، وفرع على التسلية الأمر بالأكل والشرب لأن الحزين قد لا يتفرغ لمثل ذلك وأكد ذلك بالأمر الأخير. ومن فسر السري برفيع الشأن سامي القدر جعل التسلية بإخراج الرطب كما سمعت وبالسري من حيث أن رفعة الشأن مما يتبعها تنزيه ساحتها فكانه قيل لا تحزني فإن الله سبحانه قد أظهر لك ما ينزه ساحتك قالوا وحالا.

وقد يؤيد هذا في الجملة بما روي عن ابن زيد قال: قال عيسى عليه السلام لها لا تحزني فقالت: كيف لا أحزن وأنت معي ولست ذات زوج ولا مملوكة فأبي شيء عذري عند الناس ليتني مت قبل هذا فقال لها عليه السلام: أنا أكفيك الكلام ﴿فَإِمَّا تَرَيَنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾ أي آدمياً كائناً من كان. وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه ابن الرومي (ترثن)

﴿فَنَادَتْهَا﴾ ملك ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ . . . (من) بفتح الميم بمعنى الذي فاعل نادى و(تحتها) ظرف منصوب صلة لمن والمراد به إما عيسى أو جبريل عليهما الصلاة والسلام ﴿أَلَا تَحْزَنِي﴾ أي لا تحزني على أن مفسرة أو بأن لا تحزني على أنها مصدرية قد حذف عنها الجار ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ﴾ بمكان أسفل منك، وقيل: تحت أمرك إن أمرت بالجري جري وإن أمرت بالإمساك أمسك وهو خلاف الظاهر ﴿سَرِيًّا﴾ . . .

عن الحسن وابن زيد والجبائي أن المراد بالسري عيسى عليه السلام وهو من السرو بمعنى الرفعة كما قال الراغب أي جعل ربك تحتك غلاماً رفيع الشأن سامي القدر، وفي الصباح هو سخاء في مروءة وإرادة الرفعة أرفع قدراً ولامه على هذا المعنى واو. والجملة تعليل لانتفاء الحزن المفهوم من النهي عنه. والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميرها لتشريفها وتأكيد التعليل وتكميل التسلية.

﴿وَهَزَىٰ إِلَيْكَ﴾ أي إلى جهتك. والهز تحريك يميناً وشمالاً سواء كان بعنف أو لا، أو تحريك بجذب ودفع وهو مضمن معنى الميل فلذا عدي بإلى أو أنه مجاز عنه أو اعتبر في تعديته ذلك لأنه جزء معناه كذا قيل . . .

وقيل: المرأة إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب، وذكر أن التمر للنساء عادة من ذلك الوقت وكذا التحنيك وفي أمرها بالهز إشارة إلى أن السعي في تحصيل الرزق في الجملة مطلوب وهو لا ينافي التوكل وما أحسن ما قيل:

ألم تر أن الله أوحى لمريم

وهزي إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه

إليها ولكن كل شيء له سبب

﴿فَكُلِي﴾ من ذلك الرطب ﴿وَأَشْرِي﴾ من ذلك

السري. وقيل: من عصير الرطب وكان في غاية الطراوة فلا يتم الاستدلال بذكر الشرب على تعيين تفسير السري بالجدول وما ألفت ما أرشد إليه النظم الكريم من احضار الماء أولاً والطعام ثانياً ثم الأكل ثالثاً والشرب رابعاً فإن

وعبر عنه بالشيء تحقيقاً للاستغراب. وقرأ أبو حيوة فيما نقل ابن عطية (فريا) بسكون الراء وفيما نقل ابن خالويه (فراً) بالهمزة...

﴿فَآشَرَتْ إِلَيْهِ﴾ أي إلى عيسى عليه السلام أن كلموه قال شيخ الإسلام: والظاهر أنها بينت حينئذ نذرها وأنها بمعزل من محاوراة الإنس حسبما أمرت فيه دلالة على أن الأمور به بيان نذرها بالإشارة لا بالعبرة والجمع بينهما مما لا عهد به ﴿قَالُوا﴾ منكرين لجوابها، وفي بعض الآثار أنها لما أشارت إليه أن كلموه قالوا: استخفافها بنا أشد من زناها وحاشاها ثم قالوا: ﴿كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَتْ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ قال قتادة: المهد حجر أمه، وقال عكرمة: المربة أي المرجحة، وقيل: سريه. وقيل: المكان الذي يستقر عليه. واستشكلت الآية بأن كل من يكلمه الناس كان في المهد صبيّاً قبل زمان تكليمه فلا يكون محلاً للتعجب والإنكار.

وقال أبو عبيدة: كان زائدة لمجرد التأكيد من غير دلالة على الزمان و﴿صَبِيًّا﴾ حال مؤكدة والعامل فيها الاستقرار، فقول ابن الأنباري. إن كان نصبت هنا الخبر والزائدة لا تنصبه ليس بشيء، والمعنى كيف نكلم من هو في المهد الآن حال كونه صبيّاً، وعلى قول من قال: إن كان الزائدة لا تدل على حدث لكنها تدل على زمان ماضٍ مقيد به ما زيدت فيه كالسيرافي لا يندفع الإشكال بالقول بزيادتها.

وقال الزجاج: الأجود أن تكون من شرطية لا موصوفة ولا موصوفة أي من كان في المهد فكيف نكلمه وهذا كما يقال كيف أعظ من لا يعمل بموعظتي والماضي بمعنى المستقبل في باب الجزاء فلا إشكال في ذلك، ولا يخفى بعده... ﴿قَالَ﴾ استئناف مبني على سؤال نشأ من سياق النظم الكريم كأنه قيل فماذا كان بعد ذلك؟ فقيل: قال عيسى عليه السلام ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾...

﴿ءَاتَانِي الْكِتَابَ﴾ ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي حيثما كنت. وفي البحر إن هذا شرط وجزاؤه محذوف تقديره جعلني مباركاً وحذف للدلالة ما تقدم عليه، ولا يجوز أن يكون معمولاً لجعلني السابق لأن - أين - لا تكون إلا استفهاماً

بالإبدال من الباء همزة. وزعم ابن خالويه أن هذا لحن عند أكثر النحويين...

﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ﴾ أي جاءتهم مع ولدها حاملة إياه على أن الباء للمصاحبة ولو جعلت للتعبدية صح أيضاً. والجملة في موضع الحال من ضمير مريم أو من ضمير ولدها. وكان هذا المجيء على ما أخرج سعيد بن منصور. وابن عساكر عن ابن عباس بعد أربعين يوماً حين طهرت من نفاسها قيل: إنها حنت إلى الوطن وعلمت أن ستكفي أمرها فأنت به دخلت عليهم تباكوا؛ وقيل: هموا برجمها حتى تكلم عيسى عليه السلام. وجاء في رواية عن الحبر أنها لما انتبذت من أهلها وراء الجبل فقدوها من محرابها فسألوا يوسف عنها فقال: لا علم لي بها وإن مفتاح باب محرابها عند زكريا فطلبوا زكريا وفتحوا الباب فلم يجدوها فاتهموه فأخذوه ووبخوه فقال رجل: إني رأيته في موضع كذا فخرجوا في طلبها فسمعوا صوت عقق في رأس الجذع الذي هي من تحته فانطلقوا إليه فلما رأتهم قد أقبلوا إليها احتملت الولد إليهم حتى تلتقتهم به ثم كان ما كان. فظاهر الآية والأخبار أنها جاءتهم به من غير طلب منهم، وقيل: أرسلوا إليها لتحضري إلينا بولدك وكان الشيطان قد أخبرهم بولادتها فحضرت إليهم به فلما رأوهما ﴿قَالُوا يَمْرُؤُا لَقَدْ جِئْتَ﴾ فعلت ﴿شَيْئاً فَرِيًّا﴾ قال قتادة: عظيماً، وقيل عجيباً وأصله من قرى الجلد قطعه على وجه الإصلاح أو الإفساد وقيل: من أفراه كذلك. واختير الأول لأن فعلاً إنما يصاغ قياساً من الثلاثي. وعدم التفرقة بينه وبين المزيد في المعنى هو الذي ذهب إليه صاحب القاموس.

وفي الصحاح عن الكسائي أن الفري القطع على وجه الإصلاح والإفراء على وجه الإفساد. وعن الراغب مثل ذلك. وقيل الإفراء عام. وأياً ما كان فقد استعير الفري لما ذكر في تفسيره. وفي البحر أنه يستعمل في العظيم من الأمر شراً أو خيراً قولاً أو فعلاً. ومنه في وصف عمر رضي الله تعالى عنه فلم أر عبقرياً يفري فرية، وفي المثل جاء يفري الفري. ونصب (شيئاً) على أنه مفعول به. وقيل على أنه مفعول مطلق أي لقد جئت مجيئاً عجيباً،

لجواز أن يكون من قبيل (هذا الذي رزقنا من قبل) بل لأن هذا الكلام منقطع عن ذلك وجوداً وسرداً فيكون معهوداً غير سابق لفظاً ومعنى على أن المقام يقتضي التعريض ويفوت على ذلك التقدير لأن التقابل إنما ينشأ من اختصاص جميع السلام به عليه كذا في الكشف وإلا كفاء في العهد به لتصحيحه بذكره في الحكاية لا يخفى حاله وسلام يحيى عليه السلام قيل لكونه من قول الله تعالى أرجح من هذا السلام لكونه من قول عيسى عليه السلام، وقيل هذا أرجح لما فيه من إقامة الله تعالى إياه في ذلك مقام نفسه مع إفادة اختصاص جميع السلام به عليه السلام فتأمل.

وقرأ زيد بن علي رضي الله تعالى عنهما ﴿يَوْمَ وُلِدْتُ﴾ بقاء التأنيث وإسناد الفعل إلى والدته ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى من فصلت نعوته الجليلة. وفيه إشارة إلى علو رتبته وبعد منزلته وامتيازه بتلك المناقب الحميدة عن غيره ونزوله منزلة المحسوس المشاهد. وهو مبتدأ خبره قوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾...

﴿قَوْلَ الْحَقِّ﴾ قرأ الجمهور (قول) بالرفع على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو قول الحق الذي لا ريب فيه، والضمير المقدر للكلام السابق أو لتمام القصة. وقيل: فيه صفة لعيسى أو بدل من أو خبر بعد خبر لذلك أهو الخبر وعيسى بدل أو عطف بيان. والمراد في جميع ذلك كلمة الله تعالى. وقرأ ابن مسعود (قال الحق). وقال الله برفع (قال) فيهما.

وعن الحسن (قول الحق) بضم القاف واللام. والقول والقال والقول بمعنى واحد كالرهب والرهب. ونص أبو حيان على أنها مصادر. وعن ابن السكيت القال وكذا القيل اسم لا مصدر. وقرأ طلحة والأعمش في رواية (قال الحق) برفع لام (قال) على أنه فعل ماض ورفع (الحق) على الفاعلية. وجعل ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ على هذا مقول القول أي قال الله تعالى ذلك الموصوف بما ذكر عيسى ابن مريم ﴿الَّذِي فِيهِ يَمَتُّونَ﴾.

والموصول صفة القول أو الحق أو خبر مبتدأ محذوف أي هو الذي إلخ وذلك بحسب اختلاف التفسير والقراءة. وقرأ علي كرم الله تعالى وجهه. والسلمي. وداود بن أبي

أو شرطاً والأول لا يجوز هنا فتعين الثاني واسم الشرط لا ينصبه فعل قبله وإنما هو معمول للفعل الذي يليه.

﴿وَأَوْصِنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾... والزكاة تطهير النفس عن الرذائل، ويتعين هذا في الزكاة على ما نقل عن ابن عطاء الله وإن كان منظوراً فيه من أنه لا زكاة على الأنبياء عليهم السلام لأن الله تعالى نزههم عن الدنيا فما في أيديهم لله تعالى ولذا لا يورثون أو لأن الزكاة تطهير وكسبهم طاهر. وقيل لا يتعين لأن ذلك أمر له بإيجاب الزكاة على أمته وهو خلاف الظاهر، وإذا قيل بحمل الزكاة على الظاهر فالظاهر أن المراد ﴿وَأَوْصِنِي﴾ بأداء زكاة المال إن ملكته فلا مانع من أن يشمل التوقيت بقوله سبحانه ﴿مَا دُمْتُ حَيًّا﴾...

﴿وَأَوْصِنِي﴾ أي وألزمني أو وكلفني برأ فهو من باب. علفتها تبنياً وماء بارداً. وأقرب منه على ما في الكشف لأنه مثل زيدا مرت به في التناسب وإن لم يكن من بابه.

وجوز أن يكون معطوفاً على محل ﴿بِالصَّلَاةِ﴾ كما قيل في قراءة (أرجلكم) بالنصب، وقيل إن أوصى قد يتعدى للمفعول الثاني بنفسه كما وقع في البخاري أوصيناك ديناً واحداً، والظاهر أن الفعل في مثل ذلك مضمن معنى ما يتعدى بنفسه، وحكى الزهراوي. وأبو البقاء أنه قرئ ﴿وَبَرًّا﴾ بوالدتي بكسر الباء والراء وهو معطوف على الصلاة والزكاة قولاً واحداً، والتكثير للتفخيم ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾...

﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ تقدم الكلام في وجه تخصيص هذه المواطن بالذكر فتذكر فما في العهد من قدم. والأظهر بل الصحيح أن التعريف للجنس جيء به تعريضاً باللعنة على متهمي مريم وأعدائها عليها السلام من اليهود فإنه إذا قال جنس السلام على خاصة فقد عرض بأن ضده عليكم، ونظيره قوله تعالى ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ أَهْدَكَ﴾ يعني أن العذاب على من كذب وتولى، وكان المقام مقام منكرة وعناد فهو مثنة لنحو هذا من التعريض. والقول بأنه لتعريف العهد خلاف الظاهر بل غير صحيح لا لأن المعهود سلام يحيى عليه الصلاة والسلام وعينه لا يكون سلاماً لعيسى عليه الصلاة والسلام

الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ [الجن: ١٨] وهو قول الخليل وسيبويه .

وأجاز الفراء أن يكون إن وما بعدها في تأويل مصدر عطفاً على ﴿الزَّكَاةَ﴾ أي وأوصاني بالصلاة والزكاة وبأن الله ربي وربكم إلخ . وأجاز الكسائي أن يكون ذلك خبر مبتدأ محذوف أي والأمر أن الله ربي وربكم .

وحكى أبو عبيدة عن أبي عمرو بن العلاء أنه عطف على (أمراً) من قوله تعالى ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا﴾ أي إذا قضى أمراً وقضى أن الله ربي وربكم وهو تخبيط في الإعراب فلعله لا يصح عن أبي عمرو فإنه من الجلالة في علم النحو بمكان . وقيل : إنه عطف على الكتاب وأكثر الأقوال كما ترى . وفي حرف أبي رضي الله تعالى عنه أيضاً (وبأن) بالواو وباء الجر وخرجه بعضهم بالعطف على الصلاة أو الزكاة بعضهم بأنه متعلق بعبودته أي بسبب ذلك فاعبدوه، والخطاب أما لمعاصري عيسى عليه السلام وإما لمعاصري نبينا ﷺ ﴿هَذَا﴾ أي ما ذكر من التوحيد ﴿صِرْطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ لا يضل سالكه .

هند . ونافع في رواية . والكسائي كذلك ﴿تَمَتُّونَ﴾ بقاء الخطاب .

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ﴾ . . . ﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ تبكى له ببيان إن شأنه تعالى إذا قضى أمراً من الأمور أن يوجد بأسرع وقت فمن يكون هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد وهو من أمارات الاحتياج والنقص . وقرأ ابن عامر (فيكون) بالنصب على الجواب . وقوله تعالى ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾ عطف على ما قال الواحدي على قوله ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ فهو من تمام قول عيسى عليه السلام تقريراً لمعنى العبودية والآيتان معترضان ، ويؤيد ذلك ما روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما . وقرأ أبي بغير واو .

والظاهر أنه على هذا بتقدير القول خطاباً لسيد المخاطبين ﷺ أي قل يا محمد إن الله إلخ . وقرأ الحرميان . وأبو عمرو (وأن) بالواو وفتح الهمزة . وخرجه الزمخشري على حذف حرف الجر وتعلقه بعبودته أي ولأنه تعالى ربي وربكم فاعبدوه وهو كقوله تعالى ﴿وَأَنَّ

القاسمي ج ١١ ص ١١٥ - ١٢٥

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ .

﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ﴾ ﴿وَرَحْمَةً مِنَّا﴾ أي عليك بهذه الكرامة ، وعلى قومك بالهداية والدعاء إلى عبادة الله وتوحيده ، فيهتدون بهديه ويسترشدون بإرشاده . وقوله ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ . وأنه كنى به عن النفخ في فرجها . كما قال تعالى : ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ .

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢] وقال ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١] .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ . . .

﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِن أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ .

. . . أي لثلا تحجبها رؤية الخلق عن أنوار الحق . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ﴾

. . . وإنما ذكرته بالله تعالى لأن المشروع في الدفع أن يكون بالأسهل فالأسهل . فخوفته أولاً بالله عز وجل .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا ﴾ .

﴿ فَاجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جَنْعِ النَّخْلَةِ ﴾ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِثُّ قَبْلَ هَذَا أي الحمل ﴿ وَكُنْتُ نَسِيًا مَنْسِيًّا ﴾ ، شأنه أي ينسى ولا يعتد به . منسياً لا يخطر على بال أحد . وهو نعت للمبالغة . وإنما قالت ذلك ، لما عرفت أنها ستبلي وتمتحن بهذا المولود ، الذي لا يحمل الناس أمرها فيه على السداد . فلحقها فرط الحياء وخوف اللائمة إذا بهتوها وهي عارفة ببراءة الساحة ، وبضد ما قرفت به ، من اختصاص الله إياها بغاية الإجلال والإكرام . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَنادَیْهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴾ . . .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ وَهَزَى إِلَيْكَ الْجَنَّةَ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴾ .

« وهزي إليك بجذع النخلة تسقط عليك رطباً جنياً » أي حضر أو إن اجتثته . قال الزمخشري : فإن قلت : ما كان حزنها لفقد الطعام والشراب حتى تسلى بالسري والرطب ! قلت : لم تقع التسلية بهما من حيث إنهما طعام وشراب ، ولكن من حيث إنهما معجزتان ثريان الناس أنها من أهل العصمة ، والبعد من الريبة ، وأمن مثلها ، مما قرفوها به ، بمعزل . وأن لها أموراً إلهية خارجة عن العادات ، خارقة لما ألفوا واعتادوا ، حتى يتبين لهم أن ولادها من غير فعل ليس ببدع من شأنها .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَكَلِمَاتٍ وَأَسْرَى وَقَرَى عَيْنًا فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ .

﴿ فَكَلِمَاتٍ وَأَسْرَى وَقَرَى عَيْنًا ﴾ أي بالكمال والولد المبارك ، الموجود بالقدرة ، الموهوب بالعبادة . . . « فإما ترين من البشر أحداً » أي من المحجوبين عن الحقائق بظواهر الأسباب ، الذين لا يفهمون قولك ولا يصدقون بحالك لو قوفهم مع العادة واحتجابهم عن نور الحق . فإذا سألك ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ

إِنْسِيًّا ﴾ . أي لا تكلمهم في أمرك شيئاً . ولا تمادهم فيما لا يمكنهم قبوله . وإنما أمرت بذلك لكرهه مجادلة السفهاء ، والاكتفاء بكلام عيسى عليه السلام . فإنه نص قاطع في براءة ساحتها ، فقله ﴿ صَوْمًا ﴾ . أي صمتاً . وقوله ﴿ فَلَنْ أُكَلِّمَ ﴾ إلخ تفسير للنذر بذكر صيغته .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَمْرَمُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيًّا ﴾ .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ يَتَأَخَّتْ هَٰذِرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ .

﴿ يَتَأَخَّتْ هَٰذِرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴾ استئناف .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ .

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا ﴾ منكرين جوابها ﴿ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾ ولم يعهد تكليم عاقل لصبي في المهد .

القول في تأويل قوله تعالى :

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ .

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ .

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ﴾ أنطقه الله بذلك . أولاً تحقيقاً للحق في شأنه وتنزيهاً لله تعالى عن الولد ، رداً على من يزعم ربوبيته ونبوته ﴿ ءَاتَنِي الْكِتَابَ ﴾ ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ ﴾ أي كثير الخير حيثما وجدت . أبلغ وحي ربي لتقويم النفوس وكبح الشهوات والأخذ بما هو مناط السعادات . والتعبير بلفظ الماضي في الأفعال الثلاثة ، إما باعتبار ما سبق في الفضاء المحتوم ، أو جعل الآتي ، لا محالة ، كأنه وجد ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ أي أمرني بالعبادة وإنفاق المال مدة حياتي .

نشأة عظيمة، فكانت إحدى الناسكات المتبتلات. وكانت في كفاية زكريا ورأى لها من الكرامات ما بهره فقد كان يجد عندها كلما دخل عليها المحراب رزقاً، كما تقدم في سورة آل عمران.

الثاني: استدل بقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ من قال بنبوّة مريم. واستدل بقوله تعالى عنها. ﴿يَلْتَمِني مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مِنْ رَحْمَتِي﴾ على جواز تمنّي النون لمثل تلك الحال. وبقوله تعالى: ﴿وَهَرَيَ إِلَيْكَ بِحِجْزِكَ الْخَلْقَ﴾ على التسبب في الرزق، وتكلف الكسب...

وفي الآية أصل لما يقوله الأطباء، إن الرطب ينفع النساء. واستدل بقوله تعالى ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ بعد ﴿فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ لِنِسَاءٍ﴾ على أن الحالف (لا يتكلم أو لا يكلم فلاناً) لا يحث بالإشارة. وعلى أن السكوت عن السفه واجب... وفي قوله تعالى ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ﴾ معنى قولهم في المثل: من أشبه أباه فما ظلم. وفيه أيضاً تنبيه على أن ارتكاب الفواحش من أولاد الصالحين أفحش.

الثالث: ... ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾...

الرابع: ... وقد مرّ أن الوحي قريب من المنامات الصادقة، لهذه القوة البدنية وتعطلها عن أفعالها عنده كما في النوم. فكل ما يرى في الخيال من الأحوال الواردة على النفس الناطقة المسماة في اصطلاحنا (قلوباً) والاتصالات التي لها بالأرواح القدسية، يسري في النفس الحيوانية والطبيعية وينفعل منه البدن...

ثم قال في قوله تعالى: ﴿وَكَاثَ امْرَأَ مَقْصِيًا﴾ في اللوح مقدراً في الأزل. وعن ابن عباس: فاطمأت إليه بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾... واتصال روح عيسى بالنطفة إنما يكون بعد حصول النطفة في الرحم، واستقرارها فيه، ريثما تمتزج وتتحد وتقبل مزاجاً صالحاً لقبول الروح انتهن.

الخامس: التمثيل مشتق من المثل. ومعناه التصور. وفيه دليل على أن الملك يتشكل بشكل البشر.

قال إمام الحرمين: تمثل جبريل معناه أن الله أفنى الزائد من خلقه أو أزاله عنه. ثم يعيده إليه بعد.

القول في تأويل قوله تعالى:

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾
﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾
﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾
﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾

﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾
﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْ لِنَفْسِهِ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ أي مستكبراً عن طاعته وأمره ﴿وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي الذي فصلت نعوته الجلييلة وخصائصه الباهرة ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي لا ما يصفه به النصراني. وهو تكذيب لهم، فيما يزعمونه، على الوجه الأبلغ والمنهاج البرهاني. حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفونه ﴿قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي:

ومن هذا شأنه كيف يتوهم أي يكون له ولد؟ وهذا كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا مِثْلُ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٩، ٦٠] ثم أشار إلى تنمة كلام عيسى من الأمر بعبادته تعالى وحده. بقوله سبحانه ﴿وَلِإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي قويم. من اتبعه رشد وهدى. ومن خالفه ضلّ وغوى.

تنبيهات في فوائد هذه القصة

الأول: لما ذكر تعالى قصة زكريا عليه السلام، وأنه أوجد منه في حال كبره وعقم زوجته، ولدأ زكياً طاهراً مباركاً، عطف بذكر قصة مريم في إيجاد ولدها عيسى عليهما السلام منها من غير أب. فإن بين القصتين مناسبة ومشابهة. ولهذا ذكرهما في آل عمران، وههنا، وفي سورة الأنبياء يقرن بين القصتين لتقارب ما بينهما في المعنى، ليدل عباده على قدرته وعظمته سلطانه: وأنه على ما يشاء قدير. (ومريم) هي بنت عمران، من بيت طاهر طيب في بني إسرائيل. وقد ذكر تعالى ولادة أمها لها في سورة آل عمران، وأنها نذرتها محررة للعبادة، وأنه تقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتاً حسناً فنشأت في بني إسرائيل

بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظاهر أيضاً أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى، بل يخفى على الرائي فقط. والله أعلم. كذا قال ابن حجر في فتح الباري.

ولا يخفى أن هذا البحث من الرجم بالغيب، واقتفاء ما لم يحط بكنهه. فالحوض فيه عبث ينتهي خاضعه إلى حيث ابتدأ. لأنه من عالم الغيب الذي لا يصل علمنا إليه ولن يصل إليه بمجرد العقل. ولم يرد عن المعصوم عليه السلام فيه نص قاطع. وكل ما كان كذلك فليس من شأننا أن نبحث فيه. فاعرف ذلك فإنه ينفك في مواضع عديدة.

السادس: قال بعضهم: أصل كلمة (عيسى) يسوع. فحرّفه اليهود إلى (عيسو) تهكماً فحوله العرب إلى (عيسى) تشبهاً باسم موسى. ولبدل الواو بالألف سبب مبني على قواعد اللغة العبرانية، بل والعربية انتهى.

المراغي ج ٦ ص ٤٠ - ٥١

ولما عجبت مريم مما سمعت:

﴿ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ ...

﴿ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٍ ﴾ أي قال الملك مجيباً لها عما سألت: إن الله قد قال: إنه سيوجد منك غلام وإن لم تكوني ذات بعل، ولا تقتربين فاحشة، فإنه تعالى على ما يشاء قدير، ولا يمتنع عليه فعل ما يريده، ولا يحتاج في إنشائه إلى المواد والآلات.

ونحو الآية قوله في سورة آل عمران: ﴿ هُوَ الَّذِي يُنْزِلُ الْوَيْحَ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [غافر: ٦٨].

﴿ وَلَنَجْعَلَ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴾ ... وإلى الأولين أشار القائل:

الأرب مولود وليس له أب

وذي ولد لم يلده أبوان
﴿ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴾ أي قد قضاه الله في سابق عهده، ومضى به حكمه، فلا يغير ولا يبدل: ﴿ مَا يَبْدُلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلِيمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩].
﴿ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴾

وجزم ابن عبد السلام: بالإزالة دون الفناء وقرر ذلك بأنه لا يلزم أن يكون انتقالها موجباً لموته، بل يجوز أن يبقى في الجسد حياً لأن موت الجسد بمفارقة الروح ليس بواجب عقلاً، بل بعادة أجراها الله تعالى في بعض خلقه، ونظيره انتقال أرواح الشهداء إلى أجواف طيور خضر تسرح في الجنة.

وقال البلقيني: ما ذكره إمام الحرمين لا ينحصر الحال فيه. بل يجوز أن يكون الآتي جبريل بشكله الأصلي. إلا أنه انضم فصار على قدر هيئة الرجل. وإذا ترك ذلك عاد إلى هيئته. ومثال ذلك القطن، إذا جمع بعد أن كان منتفشاً. فإنه بالنفث يحصل له صورة كبيرة، وذاته لم تتغير. وهذا على سبيل التقريب. والحق أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر

... ﴿ فَأَتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴾ أي فاتخذت من دون أهلها ستاراً يستترها عنهم وعن الناس، فأرسلنا إليها جبريل عليه السلام فجاءها بصورة رجل معتدل الخلق ليُعَلِّمَهَا بما يريد بها من الكرامة بولادة عيسى عليه السلام من غير أب، إذ ربما يشتبه عليها الأمر فتقتل نفسها أسى وغمماً، وإنما مثل لها بهذا المثال، لتأنس بكلامه، وتتلقى منه ما يُلقِي إليها من كلماته، ولأنه لو بدا لها على الصورة الملكية لفرت منه ولم تستطع محاورته.

ثم حكى عنها سبحانه ما قالته حينئذ فقال:

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أي فلما رآته فزعته منه ...

فهو كقوله: ﴿ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة: ٢٧٨] أي إن الإيمان يوجب ذلك.

فلما علم جبريل خوفها:

﴿ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ أي فقال الملك مجيباً لها ومزيلاً لما حصل عندها من الخوف على نفسها: لست ممن تظنين، ولا يقع مني ما تتوهمين من الشر ...

أحداً من البشر، وأنها سَتُكْفَى أمرها ويقام بحجتها سلّمت أمرها إلى الله، واستسلمت لقضائه... ثم زادوا تأكيداً في توبيخها وتعييرها فقالوا:

﴿يَتَأَخَتِ هَذُرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوِيًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا...﴾

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ أي فأشارت إلى عيسى أن كلموه، وإنما اكتفت بالإشارة ولم تأمره بالنطق، لأنها نذرت للرحمن صوماً عن الكلام، واقتصرت على ذلك للمبالغة في إظهار الآية العظيمة، وأن هذا المولود يفهم الإشارة، ويقدر على العبارة.

﴿قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمَةِ صَبِيًّا...﴾

ثم بدأ يتكلم فوصف نفسه. بجملة صفات:

(١) ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ أي إني عبد الله الذي له صفات الكمال لا أعبد غيره، وفي هذا إيماء إلى أن من كان لا يتخذ إلهاً من دونه.

(٢) ﴿ءَاتَنِي الْكِتَابَ...﴾

(٣) ﴿وَجَعَلَنِي نَبِيًّا...﴾

(٤) ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي سيجعلني نفاعاً للناس هادياً لهم إلى سبيل الرشاد في أي مكان كنت، وقد جعل هذه الصفات كأنها حدثت له فعلاً وهي لم تحصل بعد، من قِيلَ أنها لما كانت واقعة حتماً نُزِلَتْ منزلة ما قد حصل.

(٥) ﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا...﴾

(٦) ﴿وَبَرًّا بِوَالِدِي...﴾

(٧) ﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا...﴾

(٨) ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ أي والأمانة من الله عليّ، فلا يقدر أحد على ضُرِّي في هذه المواطن الثلاثة التي هي أشق ما تكون على العباد.

واعلم أن اليهود والنصارى ينكرون أن عيسى عليه السلام تكلم في المهد، واحتج النصارى على ذلك بأن هذا من الأحداث التي لو وجدت لتوافرت الدواعي على نقلها تواتراً، لأنه من المناقب السامية، والفضائل التي لها الميزة العظمى بين الناس، ولما لم يعرف ذلك لدينا مع تتبعنا لفضائله، وشدة بحثنا عن الجليل والحقير من

والقرآن الكريم لم يعين مدة الحمل (ولا حاجة إليها في العبرة) فنقول إنها كانت كما يكون غيرها من النساء إلا إذا ثبت غيره، وكذلك لا حاجة إلى تعيين سنّها حينئذ، إذ لا يتعلق به كبير فائدة.

وإنما اتخذت المكان البعيد حياءً من قومها وهي من سلّات بيت النبوة، ولأنها استشعرت منهم اتهامها بالريبة، فرأت أن لا تراهم وأن لا يروها.

﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنَسِيًّا...﴾

﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ أي فنادها عيسى عليه السلام كما قال الحسن البصري وسعيد بن جبیر (وقد أنطقه الله حين وضعتة تطيباً لقلبها، وإزالة للوحشة عنها حتى تشاهد بادية ذي بدء علو شأن ذلك المولود الذي بشرها به جبريل عليه السلام)...

﴿وَهَزِيءَ إِلَيْكَ يَخْلَعُ النَّخْلَةَ سُقِطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَنِيًّا...﴾

وفي هذا إيماء وتنبيه إلى أن من يقدر أن يثمر النخلة اليابسة في الشتاء يقدر أن يجعلها تحمل من غير السنن العادية، وإلى أن السعي في الرزق مطلوب ولا ينافي التوكل، والله در القائل:

ألم تر أن الله أوحى لمريم

وهزيء إليك الجذع يساقط الرطْبُ

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزّه

إليها ولكن كل شيء له سببُ

﴿فَكُلِّي وَأَسْرِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ أي فكلي من ذلك

الرطب، واشربي من عصيره، وطيب نفسي، وأبعدني عنك الأحزان، فإن الله قدير أن ينزّه ساحتك ويبعد عنك تخوّصات المبطلين الذين يتقيدون بالسنن التي جعلها الله الطريق للولادة في البشر، ويرشدهم إلى الوقوف على سريرة أمرك حتى يثبتوا لك القداسة والطهر.

﴿فَأَمَّا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا...﴾

﴿قَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحِمُّلَهُ قَالُوا يَنْمَرِيْمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ أي إن مريم حين أمرت أن تصوم يومها، ولا تكلم

أخرى أنه هو الله، ويخلعون عليه من صفات الألوهية ما هو منه براء.

ثم أكد ما دل عليه سابق الكلام من كونه ابناً لمريم لا لغيرها بقوله:

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ...﴾

ولما كان اتخاذ الولد من النقائص أشار إلى تنزيهه تعالى عن ذلك فقال:

﴿سُبْحَنَهُ﴾. أي تنزه ربنا عن كل نقص من اتخاذ الولد أو غيره.

ثم ذكر علة هذا التنزيه وبيان الوجه فيه فقال:

﴿إِذَا قُضِيَ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ أي إذا أراد

شيئاً فإنما يأمر به فيصير كما يشاء كما قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] ومن كان هذا شأنه فكيف يتوهم أن يكون له ولد، لأن ذلك من أمارات النقص والاحتياج؟...

أحواله علمنا أنه لم يوجد؛ وأيضاً فاليهود أظهروا عداوته حين ادّعى النبوة، فلو أنه تكلم إذ ذاك لكانت عداوتهم له أشد، ولكان تحيلهم في قتله أعظم، ومن حيث لم يحصل شيء من هذا علمنا أنه لم يتكلم.

والمسلمون يقولون: كفى إثباتاً لذلك نص القرآن القاطع - إلى أن العقل يرشد إليه، إذ لولا كلامه الذي دلهم على براءة أمه من الزنا لما تركوا الحد عليها، وربما كان الحاضرون حين كلامه عدداً قليلاً؛ ومن ثم لم يشتهر بينهم، وربما لم يحضر اليهود كلامه، ولم يسمعوا به...

الإيضاح

﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾

أي ذلك الذي فصلت نبوته، وذكرت مناقبه وأوصافه، هو عيسى بن مريم، نقول ذلك قول الصدق الذي لا ريب فيه، لا كما يقول اليهود من أنه ساحر وحاشاه، ولا كما تقول طائفة من النصارى إنه ابن الله، ولا كما تزعم طائفة

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا . لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا . تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ
وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا .
إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِيَ الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾

(سورة مريم، رقم ١٩، الآية ٨٨ - ٩٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٦	ص ٩٧ - ١٠٠	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٢١٥ - ٢٢١
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٢٤ - ٥٢٦	ابن كثير	ج ٣	ص ١٣٨ - ١٣٩
الرازي	ج ٢١	ص ٢٥٣ - ٢٥٥	الجلالان		ص ٤٠٥
الطبرسي	ج ١٦	ص ٧٠ - ٧٩	الشوكاني	ج ٣	ص ٣٥٠ - ٣٥٣
ابن عربي	ج ٢	ص ٢٦ - ٢٩	الألوسي	ج ١٦	ص ١٢٦ - ١٢٩
البيضاوي	ج ٤	ص ١٥ - ١٦	القاسمي	ج ١١	ص ٤١٦٤
الخازن	ج ٤	ص ٢٦١	الطباطبائي	ج ١٤	ص ١٠٧ - ١١٦
البغوي	ج ٣	ص ١٧٥ - ١٧٦	جوهري	ج ١٠	ص ٤٤ - ٥٩
الماوردي	ج ٣	ص ٣٩٠	المراغي	ج ١٦	ص ٨٥ - ٨٧
القرطبي	ج ١١	ص ١٥٥ - ١٥٩	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٣١٦ - ٢٣٢٢

الطبري ج ١٦ ص ٩٧ - ١٠٠

وقرأه قراء الأمصار، بكسر الألف وبها نقرأ، وقد ذكر عن أبي عبد الرحمن السلمي أنه قرأ ذلك بفتح الألف، ولا أرى قراءته كذلك لخلافها قراءة قراء الأمصار، والعرب تقول لكل أمر عظيم: إد، وإمر ونكر، ومنه قول الرازي:

لقد لقي الأعداء منى نكرا

داهية دهيما وإذا إمرا

ومنه قول الآخر:

* في لهث منه وحثل إذا *

وقوله ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ ﴾ يقول تعالى ذكره: تكاد السموات يتشققن قطعاً من قيلهم ﴿ اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾، ومنه قيل: فطر نابه: إذا انشق. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴾ قال: إن الشرك فزعت منه السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول منه لعظمة الله، وكما لا ينفع مع الشرك احسان المشرك، كذلك نرجو أن يغفر الله ذنوب الموحدين. وقال رسول

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون بالله ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ يقول تعالى ذكره للتائيلين ذلك من خلقه لقد جئتم أيها الناس شيئاً عظيماً من القول منكراً. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ يقول قولاً عظيماً. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ يقول: لقد جئتم شيئاً عظيماً وهو المنكر من القول. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ قال عظيماً. حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿ شَيْئًا إِدًّا ﴾ قال عظيماً. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ قال: جئتم شيئاً كبيراً من الأمر، حين دعوا للرحمن ولداً. وفي الآد لغات ثلاث يقال: لقد جئت شيئاً إذا بكسر الألف، وإذا بفتح الألف، وإذا بفتح الألف ومدها، على مثال ماد فاعل.

للرحمن ولدا، فإن في موضع نصب في قول بعض أهل العربية، لاتصالها بالفعل، وفي قول غيره في موضع خفض بضمير الخافض، وقد بينا الصواب من القول في ذلك في غير موضع من كتابنا هذا بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقال ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ يعني بقوله ﴿أَنْ دَعَوْا﴾: أن جعلوه ولدا، كما قال الشاعر:

ألا رب من تدعو نصيحاً وان تغيب

تجده بغيب غير منتصح الصدر
وقال ابن أحرر:

أهوى لها مشقصا حشرا فبشرقها

وكنيت أدعو قذاها الأئمة القردا
وقوله ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يقول: وما يصلح لله أن يتخذ ولدا، لأنه ليس كالخلق الذين تغلبهم الشهوات، وتضطربهم اللذات إلى جماع الاناث، ولا ولد يحدث إلا من أنثى، والله يتعالى عن أن يكون كخلقه وذلك كقول ابن أحرر:

في رأس خلقاء من عنقاء مشرفة

ما ينبغي دونها سهل ولا جبل
يعني: لا يصلح ولا يكون. ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ يقول: ما جميع من في السموات من الملائكة، وفي الأرض من البشر والإنس والجن ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ يقول: إلا يأتي ربه يوم القيامة عبد له، ذليلا خاضعا، مقرا له بالعبودية، لا نسب بينه وبينه. وقوله ﴿آتَى الرَّحْمَنِ﴾ إنما هو فاعل من أتيت فانا آتية. القول في تأويل قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ يقول تعالى ذكره: لقد أحصى الرحمن خلقه كلهم، وعدهم عدا، فلا يخفى عليه مبلغ جميعهم، وعرف عددهم، فلا يغرب عنه منهم أحد.

الله ﷻ: «لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله، فمن قالها عند موته وجبت له الجنة، قالوا يا رسول الله، فمن قالها في صحته؟ قال: تلك أوجب وأوجب. ثم قال: والذي نفسي بيده لو جيء بالسموات والأرضين وما فيهن وما بينهن وما تحتهن، فوضعن في كفة الميزان ووضعت شهادة أن لا إله إلا الله في الكفة الأخرى، لرجحت بهن». حدثنا القاسم... عن مجاهد ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ ذكر لنا أن كعبا كان يقول: غضبت الملائكة، واستعرت جهنم، حين قالوا ما قالوا. وقوله ﴿وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ﴾ يقول: وتكاد الأرض تنشق، فتتصدع من ذلك ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ يقول: وتكاد الجبال يسقط بعضها على بعض سقوطاً، والهد: السقوط، وهو مصدر هددت، فانا أهد هداً. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ يقول: هدماً. حدثنا القاسم... عن ابن عباس: ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال: الهد؛ الانقضاض. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ قال غضبا لله، قال: ولقد دعا هؤلاء الذين جعلوا الله هذا الذي غضبت السموات والأرض والجبال من قولهم لقد استتابهم ودعاهم إلى التوبة، فقال ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣] قالوا: هو وصاحبه وابنه، جعلوهما الهين معه ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾ [المائدة: ٧٣] إلى قوله ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لَهُ وَاللَّهُ شَفِيعٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٤] القول في تأويل قوله تعالى ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ إن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا. يقول تعالى ذكره: وتكاد الجبال أن تخر انقضاضاً، لأن دعوا

الرازي ج ٢١ ص ٢٥٣ - ٢٥٥

الآية، ومنهم من خصها بالعرب الذين أثبتوا أن الملائكة بنات الله قالوا لأن الرد على النصارى تقدم في أول السورة، أما الآن فانه لما رد على العرب الذين قالوا بعبادة الأوثان تكلم في إفساد قول الذين قالوا بعبادة الملائكة

... إعلم أنه تعالى لما رد على عبدة الأوثان عاد إلى الرد على من أثبت له ولداً ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّىٰ ابْنُ اللَّهِ﴾ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ [التوبة: ٣٠]، وقالت العرب الملائكة بنات الله، والكل داخلون في هذه

بأنه فاعل (هذا) أي هدها دعاء الولد للرحمن، والحاصل أنه تعالى بين أن سبب تلك الأمور العظيمة هذا القول.

المسألة الثانية: إنما كرر لفظ الرحمن مرات تنبيهاً على أنه سبحانه وتعالى هو الرحمن وحده من قبل أن أصول النعم، وفروعها ليست إلا منه.

المسألة الثالثة: قوله ﴿دَعَا لِلرَّحْمَنِ﴾ هو من دعا بمعنى سمي المتعدي إلى مفعولين، فاقصر على أحدهما الذي هو الثاني طلباً للعموم والإحاطة بكل من ادعى له ولداً أو من دعا بمعنى نسب الذي هو مطاوعه ما في قوله ﷺ «من ادعى إلى غير مواليه». قال الشاعر:

* إنا بني نهشل لا ندعى لأب *

أي لا نتسب إليه، ثم قال تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَداً﴾ أي هو محال، أما الولادة المعروفة فلا مقال في امتناعها، وأما التبني فلأن الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد، ولا مشبه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله من سروره به، واستعانة به وذكر جميل، وكل ذلك لا يليق به، ثم قال ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ والمراد أنه ما من معبود لهم في السموات والأرض من الملائكة والناس إلا وهو يأتي الرحمن أي يأتي إليه ويلتجئ إلى ربوبيته عبداً منقاداً مطيعاً خاشعاً راجياً كما يفعل العبيد، ومنهم من حمله على يوم القيامة خاصة، والأول أولى لأنه لا تخصيص فيه وقوله ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ أي كلهم تحت أمره وتدبيره وقهره وقدرته، فهو سبحانه محيط بهم، ويعلم مجمل أمورهم وتفصيلها لا يفوته شيء من أحوالهم، وكل واحد منهم يأتيه يوم القيامة منفرداً ليس معه من هؤلاء المشركين أحد، وهم برآء منهم.

لكونهم بنات الله، أما قوله ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ فقرأ إدّاً بالكسر والفتح، قال ابن خالويه: الإد والأد العجب وقيل المنكر العظيم والأداة الشدة وأدني الأمر وأدني أثقلني. قرء يتفطرون بالتاء بعد الياء، أعني المعجزة من تحتها، واختلفوا في يكاد فقرأ بعضهم بالياء المعجزة من تحتها، وبعضهم بالتاء من فوق، والانفطار من فطره إذا شقه، والتفطر من فطره إذا شققه، وكرر الفعل فيه، وقرأ ابن مسعود يتصدعن وقوله ﴿وَنَخْرُ الْجِبَالُ هَذَا﴾ أي تهد هذا أو مهدودة أو مفعول له، أي لأنها تهد والمعنى أنها تتساقط أشد ما يكون تتساقط البعض على البعض، فإن قيل من أين يؤثر القول بآيات الولد لله تعالى في انفطار السموات، وانشقاق الأرض، وخرور الجبال؟ قلنا فيه وجوه: (أحدها): إن الله سبحانه وتعالى يقول أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي، وأني لا أعجل بالعقوبة كما قال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكُنَاهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [فاطر: ٤١]. (وثانيها): أن يكون استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانها وقواعده. (وثالثها): إن السموات والأرض والجبال تكاد أن تفعل ذلك لو كانت تعقل من غلظ هذا القول، وهذا تأويل أبي مسلم. (ورابعها): إن السموات والأرض والجبال كانت سليمة من كل العيوب فلما تكلم بنو آدم بهذا القول ظهرت العيوب فيها أما قوله ﴿أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَداً﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: في إعرابه ثلاثة أوجه: (أحدهما): أن يكون مجروراً بدلاً من الهاء في منه، أو منصوباً بتقدير سقوط اللام، وإفشاء الفعل أي هذا لأن دعوا، أو مرفوعاً

البيضاوي ج ٤ ص ١٥-١٦

والكسر العظيم المنكر، والأداة لشدة، وأدني الأمر، وأدني أثقلني وعظم عليّ. ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ﴾ وقرأ نافع والكسائي بالياء ﴿يَنْفَطِرْنَ مِنْهُ﴾ يتشققن مرة بعد أخرى. وقرأ أبو عمرو وابن عامر وحزمة وأبو بكر ويعقوب

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً﴾ الضمير يحتمل الوجهين لأن هذا لما كان مقولاً فيما بين الناس جاز أن ينسب إليهم ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذم والتسجيل عليهم بالجرأة على الله تعالى، والأد بالفتح

على المفعول الثاني ليحيط بكل ما دعى له ولدا، أو من دعا بمعنى نسب الذي مطاوعه ادعى إلى فلان إذا انتسب إليه ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾، ولا يليق به اتخاذ الولد ولا ينطلب له لو طلب مثلاً لأنه مستحيل، ولعل ترتيب الحكم بصفة الرحمانية للاشعار بأن كل ما عداه نعمة ومنعم عليه، فلا يجانس من هو مبدأ النعم كلها، ومولى أصولها وفروعها فكيف يمكن أن يتخذه ولدا، ثم صرح به في قوله ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ما منهم ﴿إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ إلا وهو مملوك له يأوي إليه بالعبودية والانقياد. وقرئ آتى الرحمن على الأصل ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ﴾ حصرهم، وأحاط بهم بحيث لا يخرجون عن حوز علمه، وقبضة قدرته ﴿وَعَدَّاهُمْ عَدًّا﴾ عد أشخاصهم، وأنفاسهم، وأفعالهم فان كل شيء عنده بمقدار.

ينفطرون، والأول أبلغ لأن التفعّل مطاوع فعل، والانفعال مطاوع فعل، ولأن أصل التفعّل التكلف ﴿وَتَنَشَّقُّ الْأَرْضُ﴾ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا تهذها، أو مهدودة، أو لأنها تهذ، أي تكسر وهو تقرير لكونه ادا، والمعنى أن هول هذه الكلمة وعظمتها بحيث لو تصورت بصورة محسوسة لم تتحملها هذه الاجرام العظام، وتفتت من شدتها، أو أن فظاعتها مجلبة لغضب الله بحيث لولا حلمه لخرب العالم، وبدد قوائمه غضبا على من تفوه بها. ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ يحتمل النصب على العلة لتكاد، أو لهدا على حذف اللام، وإفضاء الفعل إليه والجرباضمار اللام، أو بالابدال من الهاء في منه، والرفع على أنه خبر محذوف تقديره الموجب، لذلك أن دعوا، أو فاعل هذا أي هذها دعاء الولد للرحمن، وهو من دعا بمعنى سمى المتعدي إلى مفعولين، وانما اقتصر

الخازن ج ٤ ص ٢٦١

قال ابن عباس فزعت السموات والأرض والجبال وجميع الخلائق إلا الثقلين، وكادت أن تزول، وغضبت الملائكة، واستعرت جهنم حين قالوا اتخذ الله ولدا، ثم نزه الله نفسه عن اتخاذ الولد ونقاه عنه، فقال تعالى ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ أي ما يليق به اتخاذ الولد ولا يوصف به لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد ولا شبيهه لله تعالى ولأن اتخاذ الولد إنما يكون لأغراض لا تصح في الله تعالى من سرور به واستعانة، وذكر جميل بعده وكل ذلك لا يليق بالله تعالى، ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾، أي آتية يوم القيامة عبداً ذليلاً خاضعاً والمعنى أن الخلائق كلهم عبيده، ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّاهُمْ عَدًّا﴾ أي عد أنفاسهم وأيامهم وآثارهم، فلا يخفى عليه شيء من أمورهم وكلهم تحت تدبيره وقهره وقدرته.

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني اليهود والنصارى، ومن زعم أن الملائكة بنات الله من العرب، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾ قال ابن عباس منكراً وقيل معناه لقد قلت قولاً عظيماً، ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ﴾ من الانفطار، وهو الشق، ﴿وَتَنَشَّقُّ الْأَرْضُ﴾ أي تخسف بهم ﴿وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾ أي تسقط وتنطبق عليهم، ﴿أَنْ دَعَوْا﴾ أي من أجل أن جعلوا، ﴿لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾ فان قلت ما معنى انفطار السموات وانشقاق الأرض وخرور الجبال، ومن أين تؤثر هذه الكلمة في هذه الجمادات. قلت فيه وجهان أحدهما أن الله تعالى يقول كدت أن أفعل هذا بالسموات والأرض والجبال عند وجود هذه الكلمة غضباً مني على من تفوه بها لولا حلمي، وإنني لا أعجل بالعقوبة. الثاني أن يكون استعظاماً للكلمة، وتهويلاً من فظاعتها، وتصويراً لأثرها في الدين، وهدمها لأركانها، وقواعده.

سيد قطب ج ٤ ص ٢٣١٦ - ٢٣٢٢

ابن الله. والمشركون من النصارى: المسيح ابن الله. . . فينتفض الكون كله لهذه القولة المنكرة التي تنكرها فطرته، وينفر منها ضميره. . .

. . . ثم يستطرد السياق مرة أخرى إلى مقولة منكورة من مقولات المشركين، ذلك حين يقول المشركون من العرب: الملائكة بنات الله. والمشركون من اليهود: عزيز

الكلمة تصدم كيانه وفطرته؛ وتجانفي ما قر في ضميره، وما استقر في كيانه؛ وتهز القاعدة التي قام عليها واطمأن إليها: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَذَا أَنْ دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ . .

وفي وسط الغضبة الكونية يصدر البيان الرهيب: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا إِلَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ قَرْدًا﴾ .
 إن كل من في السماوات والأرض إلا عبد يأتي معبوده خاضعاً طائعاً، فلا ولد ولا شريك، إنما خلق وعبيد.
 وإن الكيان البشري ليرتجف وهو يتصور مدلول هذا البيان. . . ﴿لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾ فلا مجال لهرب أحد، ولا لنسيان أحد. . .

إن جرس الألفاظ، وإيقاع العبارات ليشارك ظلال المشهد في رسم الجو: جو الغضب والغيرة والانتفاض! وإن ضمير الكون وجوارحه لتنتفض، وترتعش وترجف من سماع تلك القولة النابية، والمساس بقداسة الذات العلية، كما ينتفض كل عضو وكل جارحة عندما يغضب الإنسان للمساس بكرامته، أو كرامة من يحبه ويوقره.

هذه الانتفاضة الكونية للكلمة النابية تشترك فيها السماوات والأرض والجبال، والألفاظ بإيقاعها ترسم حركة الزلزلة والإرتجاج.

وما تكاد الكلمة النابية تنطلق: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ حتى تنطلق كلمة التفطيع والتبشيع: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا﴾، ثم يهتز كل ساكن من حولهم، ويرتج كل مستقر، ويغضب الكون كله لبارئه. وهو يحس بتلك

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ . لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾

(سورة الانبياء، رقم ٢١، الآية ٢٦-٢٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٧	ص ١٢	أبو حيان الاندلسي	ج ٦	ص ٣٠٣-٣٠٧
الزمخشري	ج ٢	ص ٥٦٩	ابن كثير	ج ٢	ص ١٧٦
الرازي	ج ٢٢	ص ١٥٩	الجلالان		ص ٤٢٢
الطبرسي	ج ١٧	ص ١٦-٢١	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٠٤-٤٠٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٧٠-٧٢	الألوسي	ج ١٧	ص ٣٠-٣١
البيضاوي	ج ٤	ص ٣٨-٣٩	القاسمي	ج ١١	ص ٤٢٦٤
الخانز	ج ٤	ص ٢٩٢-٢٩٣	الطباطبائي	ج ١٤	ص ٢٥٨-٢٨٣
البغوي	ج ٣	ص ٢٠٤	جوهري	ج ١٠	ص ١٩٣-٢٢٢
الماوردي	ج ٣	ص ٤٤٢	المرافي	ج ١٧	ص ٢١-٢٣
القرطبي	ج ١١	ص ٢٨١	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٣٦٤-٢٣٧٨

الطبري ج ١٧ ص ١٢

قال الله تبارك وتعالى تكذيباً لهم ورداً عليهم ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وأن الملائكة ليس كما قالوا إنما هم عباد أكرمهم الله لعبادته. حدثنا محمد بن عبد الأعلى... عن قتادة وحدثنا الحسن... عن قتادة ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ قالت اليهود وطوائف من الناس: إن الله تبارك وتعالى خاتن إلى الجن والملائكة من الجن. قال الله تبارك وتعالى سبحانه ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ وقوله ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يقول جل ثناؤه: لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يعملون عملاً إلا به. حدثنا بشر... عن قتادة قال: قال الله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ يعني عليهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء الكافرون ببرهم اتخذ الرحمن ولداً من ملائكته فقال جل ثناؤه استعظماً مما قالوا وتبرياً مما وصفوه به سبحانه، يقول تنزيهاً له عن ذلك ما ذلك من صفته ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ يقول ما الملائكة كما وصفهم به هؤلاء الكافرون من بني آدم، ولكنهم عباد مكرمون يقول أكرمهم الله. كما حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ قال قالت اليهود: إن الله تبارك وتعالى صاهر الجن، فكانت منهم الملائكة

الرازي ج ٢٢ ص ١٥٩ - ١٦٠

الولد لا بد وأن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان الله ولد لأشبهه من بعض الوجوه، ثم لا بد وأن يخالفه من وجه آخر وما به المشاركة غير ما به الممايزة، فيقع التركيب في ذات الله سبحانه وتعالى، وكل مركب ممكن، فاتخاذها للولد يدل على كونه ممكناً غير واجب، وذلك يخرج عن حد الإلهية ويدخله في حد العبودية، ولذلك نزه نفسه عنه.

... اعلم أنه سبحانه وتعالى لما بين بالدلائل الباهرة كونه منزهاً عن الشريك والضد والند أردف ذلك ببراءته عن اتخاذ الولد فقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ نزلت في خزاعة حيث قالوا الملائكة بنات الله، وأضافوا إلى ذلك أنه تعالى صاهر الجن على ما حكى الله تعالى عنهم، فقال: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾ [الصافات: ١٥٨]، ثم إنه سبحانه وتعالى نزه نفسه عن ذلك بقوله سبحانه لأن

والمعنى أنهم يتبعونه في قوله، ولا يقولون شيئاً حتى يقوله، فلا يسبق قولهم قوله، وكما أن قولهم تابع لقوله فعملهم أيضاً كذلك مبني على أمره لا يعملون عملاً ما لم يؤمروا به .

أما قوله ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ فاعلم أنه سبحانه لما نزه نفسه عن الولد أخبر عنهم بأنهم عباد، والعبودية تنافي الولادة إلا أنهم مكرمون مفضلون على سائر العباد، وقرىء «مكرمون» لا يسبقونه من سابقته فسبقته أسبقه .

الطبرسي ج ٧ ص ١٦ - ٢١

جائزة عليه ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي ليسوا أولاد الله كما يزعمون، بل هم عباد مكرمون أكرمهم الله واصطفاهم ﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، فكل أقوالهم طاعة لربهم، وناهيك بذلك جلالة قدرهم ﴿وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾، ومن كان بهذه الصفة لا يوصف بأنه ولده .

... ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ يعني من الملائكة ﴿سُبْحَنَهُ﴾ نزه نفسه عن ذلك لأن اتخاذ الولد لا يخلو إما أن يكون على سبيل التوالد أو على سبيل التبني، وكلاهما لا يجوز عليه لأن الأول يقتضي أن يكون من قبيل الأجسام، والثاني وهو التبني يكون بأن يقيم غير ولده مقام ولده، وإذا كان حقيقة الولد مستحيلًا منه، فالمشبه به كذلك وليس ذلك كالمخلقة لأنه من الاختصاص وحقيقته

المراغي ج ٦ ص ٢١ - ٢٢

﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ أي ليس الملائكة كما قالوا، بل هم عباد مخلوقون له تعالى، فهم ملكه لكنهم مقربون عنده في منازل عالية، ومقامات سامية .

ثم بين سبحانه كمال طاعتهم وانقيادهم لأمره وتأديبهم معه تعالى فقال :

﴿لَا يَسْأَلُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يتكلمون إلا بما يأمرهم به ربهم، ولا يخالفونه فيما أمرهم به، بل يبادرون إلى فعله . خلاصة ذلك - إنهم في غاية المراقبة لربهم، يجمعون بين الطاعة في القول والفعل .

... وبعد أن بين سبحانه بالدلائل الباهرة أنه منزّه عن الشريك والنّد - أردف ذلك ببراءته من اتخاذ الولد فقال :

﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا﴾ أي وقال فريق من هؤلاء المشركين وهم بطون من خزاعة وجهينة وبني سلمة - الملائكة بنات الله، فرد الله تعالى عليهم بقوله : ﴿سُبْحَنَهُ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك، لأن الولد لا بد أن يكون شبيهاً بالوالد، فلو كان له ولد لأشبهه ولا مجانسة بين النعمة والمنعم، والخالق والمخلوق .

ثم أكد إبطال ما سلف بقوله :

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾

(سورة الأنبياء، رقم ٢١، الآية ٩١)

مصادر تفاسير الآية

٣٤١ - ٣٣٦ ص	ج ٦	أبو حيان الأندلسي	٦٧ ص	ج ١٧	الطبري
١٩٤ ص	ج ٣	ابن كثير	٥٨٢ ص	ج ٢	الزمخشري
٤٣٠ - ٤٢٩ ص		الجلالان	٢١٩ - ٢١٨ ص	ج ٢٢	الرازي
٤٢٧ - ٤٢٤ ص	ج ٣	الشوكاني	٥٩ - ٥٥ ص	ج ١٧	الطبرسي
٨١ ص	ج ١٧	الألوسي	٨٩ - ٨٨ ص	ج ٢	ابن عربي
٤٣٥ ص	ج ١١	القاسمي	٤٦ ص	ج ٤	البيضاوي
٣١٩ - ٣١٠ ص	ج ١٤	الطباطبائي	٣٢١ ص	ج ٤	الخانزاد
٢٣٤ ص	ج ١٠	جوهرى	٢٢٥ ص	ج ٣	البغوي
٦٧ - ٦٦ ص	ج ١٧	المرافي	٤٦٩ ص	ج ٣	الماوردي
٢٣٩٦ - ٢٣٨٣ ص	ج ٤	سيد قطب	٣٣٨ - ٣٣٧ ص	ج ١١	القرطبي

الطبري ج ١٧ ص ٦٧

ذلك، قول من قال: ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الفاحشة، لأن ذلك هو الأغلب من معنيه عليه، والأظهر في ظاهر الكلام ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا في جيب درعها من روحنا. وقد ذكرنا اختلاف المختلفين في معنى قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ في غير هذا الموضع والأولى بالصواب من القول في ذلك فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع. وقوله: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يقول: وجعلنا مريم وابنها عبرة لعالمي زمانهما يعتبرون بهما ويتفكرون في أمرهما، فيعلمون عظيم سلطاننا وقدرتنا على ما نشاء، وقيل آية ولم يقل آيتين، وقد ذكر آيتين لأن معنى الكلام جعلناهما علماً لنا وحجة، فكل واحدة منهما في معنى الدلالة على الله، وعلى عظيم قدرته يقوم مقام الآخر إذ كان أمرهما في الدلالة على الله واحداً.

الرازي ج ٢٢ ص ٢١٨ - ٢١٩

الحلال والحرام جميعاً، كما قالت ﴿وَلَمْ يَمَسَّ سِنِي بَشَرٍ وَلَمْ أَكُ بِغِيَّاءٍ﴾ [مريم: ٢٠]. (والثاني): من نفخة جبريل عليه السلام حيث منعه من جيب درعها قبل أن تعرفه، والأول أولى لأنه الظاهر من اللفظ.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ واذكر التي أحصنت فرجها، يعني مريم بنت عمران. ويعني بقوله ﴿أَحْصَنَتْ﴾: حفظت ومنعت فرجها مما حرم الله عليها إباحته فيه، واختلف في الفرج الذي عنى الله جل ثناؤه أنها أحصنته، فقال بعضهم: عنى بذلك فرج نفسها أنها حفظته من الفاحشة. وقال آخرون: عنى بذلك جيب درعها أنها منعت جبريل منه قبل أن تعلم أنه رسول ربها، وقبل إن تثبتت معرفة، قالوا: والذي يدل على ذلك قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾، ويعقب ذلك قوله ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ قالوا: وكان معلوماً بذلك أن معنى الكلام والتي أحصنت جيبها ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾. قال أبو جعفر: والذي هو أولى القولين عندنا بتأويل

قوله تعالى ﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

إعلم أن التقدير واذكر التي أحصنت فرجها، ثم فيه قولان: (أحدهما) أنها أحصنت فرجها إحصاناً كلياً من

(أحدها): ظهور الحبل فيها لا من ذكر، فصار ذلك آية ومعجزة خارجة عن العادة. (وثانيها): إن رزقها كان يأتيها به الملائكة من الجنة، وهو قوله تعالى ﴿أَنَّى لَكَ هَذَا﴾ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ﴿آل عمران: ٣٧﴾. (وثالثها ورابعها): قال الحسن إنها لم تلتقم ثدياً يوماً قط، وتكلمت هي أيضاً في صباها كما تكلم عيسى عليه السلام، وأما آيات عيسى عليه السلام فقد تقدم بيانها، فبين سبحانه أنه جعلها آية للناس يتدبرون فيما خصا به من الآيات، ويستدلون به على قدرته وحكمته سبحانه وتعالى. فإن قيل هلا قيل آيتين كما قال ﴿وَجَعَلْنَا آيَةً لِلنَّهَارِ آيَاتَيْنِ﴾ [الإسراء: ١٢] قلنا لأن حالهما بمجموعهما آية واحدة، وهي ولادتها إياه من غير فحل. وههنا آخر القصص.

وأما قوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ فلقابل أن يقول: نفخ الروح في الجسد عبارة عن إحيائه قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُمْ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر: ٢٩] أي أحييته وإذا ثبت ذلك كان قوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ ظاهر الاشكال لأنه يدل على إحياء مريم عليها السلام. (والجواب) من وجوه: (أحدها): معناه فنفخنا الروح في عيسى فيها، أي أحييناه في جوفها كما يقول الزمار نفخت في بيت فلان، أي في المزمارة في بيته. (وثانيها): فعلنا النفخ في مريم عليها السلام من جهة روحنا وهو جبريل عليه السلام لأنه نفخ في جيب درعها، فوصل النفخ إلى جوفها، ثم بين تعالى بأخصر الكلام ما خص به مريم وعيسى عليهما السلام من الآيات فقال: ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، أما مريم فأياتها كثيرة:

ابن عربي ج ٢ ص ٨٨ - ٨٩

بنفخ الحياة الحقيقية، فولدت عيسى القلب، ﴿وَجَعَلْنَاهَا﴾ مع القلب، علامة ظاهرة، وهداية واضحة ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ من القوى الروحانية، والنفوس المستعدة، المستبصرة، يهديهم إلى الحق، وإلى طريق مستقيم.

... ﴿وَالَّتِي أَحْصَيْتُ﴾ أي، النفس الزكية الصافية، المستعدة العابدة، التي ﴿أَحْصَيْتُ﴾ فرج استعدادها، ومحل تأثير الروح من باطنها، بحفظه من مسافحي القوى البدنية فيها، ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا﴾ من تأثير روح القدس،

جوهري ج ١٠ ص ٢٣٤

يقال أجريننا فيها روح المسيح، وأضافه إليه تشريفاً فإن الروح من أمر الله، ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَأَبْنَاهَا﴾ أي قصتهما أو حالهما ﴿آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، فإن المتأمل لقصتهما يتحقق بها كمال قدرة الله تعالى...

... قال تعالى ﴿و﴾ اذكر يا محمد ﴿الَّتِي أَحْصَيْتُ فَرَجَهَا﴾ من الحلال والحرام يعني مريم ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾، أي أمرنا جبريل فنفخ في جيب درعها، فخلقنا المسيح في بطنها بذلك النفخ. ويصح أن

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾

(سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٥٠)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٨	ص ١٩ - ٢٢	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٤٠٦ - ٤١٠
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٣	ابن كثير	ج ٣	ص ٢٤٦
الرازي	ج ٢٣	ص ١٠٢ - ١٠٣	الجلالان		ص ٤٥٠
الطبرسي	ج ١٨	ص ١٥٣ - ١٥٦	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٨٤ - ٤٨٨
ابن عربي	ج ٢	ص ١٢٢ - ١٢٤	الآلوسي	ج ١٩	ص ٣٧ - ٣٩
البيضاوي	ج ٤	ص ٦٧	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٤٠١ - ٤٤٠٢
الخازن	ج ٥	ص ٣٨	الطباطبائي	ج ١٥	ص ٢٦ - ٣٦
البغوي	ج ٣	ص ٢٦٢	جوهري	ج ١١	ص ١٢٣ - ١٤٧
الماوردي	ج ٤	ص ٥٥ - ٥٦	المراغي	ج ١٨	ص ٢٦ - ٢٧
القرطبي	ج ١٢	ص ١٢٦ - ١٢٧	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٤٦٣ - ٢٤٦٩

الطبري ج ١٨ ص ١٩ - ٢٢

الحسن... عن أبي عبد الله ابن عم أبي هريرة قال: سمعت أبا هريرة يقول في قول الله ﴿إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: هي الرملة من فلسطين. حدثنا ابن بشار... عن عبد الله ابن عم أبي هريرة قال: قال لنا أبو هريرة: الزموا هذه الرملة التي بفلسطين فإنها الربوة التي قال الله وآويناها إلى ربوة ذات قرار ومعين. وقال آخرون: هي دمشق. ذكر من قال ذلك: حدثنا أحمد بن الوليد القرشي... عن سعيد بن المسيب أنه قال في هذه الآية ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: زعموا أنها دمشق. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن ابن المسيب أنه قال: دمشق. حدثنا الحسن. عن سعيد بن المسيب مثله. حدثني يحيى بن عثمان بن صالح السهمي... عن سعيد بن المسيب في قوله ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: إلى ربوة من ربى مصر. قال: وليس الربى إلا في مصر، والماء حين يرسل تكون الربى عليها القرى لولا الربى لغرقت تلك القرى. وقال آخرون: هي بيت المقدس. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة قال: هو بيت المقدس. قال: ثنا محمد بن ثور... قتادة قال: كان كعب يقول: بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بشمانية عشر ميلاً. حدثنا الحسن... عن كعب مثله. وأولى هذه الأقوال

... ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ يقول: وجعلنا ابن مريم وأمه حجة لنا على من كان بينهم، وعلى قدرتنا على إنشاء الأجسام من غير أصل كما أنشأنا خلق عيسى من غير أب، كما حدثنا الحسن بن يحيى... عن قتادة في قوله ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ قال: ولدته من غير أب هو له، ولذلك وجدت الآية، وقد ذكر مريم وابنها وقوله ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ يقول: وضممناهما وصيرناهما إلى ربوة. يقال أوى فلان إلى موضع كذا فهو يأوي إليه إذا صار إليه، وعلى مثال أفعلته فهو يؤويه. وقوله ﴿إِلَى رَبْوَةٍ﴾ يعني إلى مكان مرتفع من الأرض على ما حوله، ولذلك قيل للرجل يكون في رفعة من قومه وعز وشرف وعدد، هو في ربوة من قومه، وفيها لغتان: ضم الراء وكسرهما إذا أريد بها الاسم، وإذا أريد بها الفعلة من المصدر قيل ربا ربوة. واختلف أهل التأويل في المكان الذي وصفه الله بهذه الصفة وآوى إليه مريم وابنها، فقال بعضهم هو الرملة من فلسطين. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن المثنى... عن أبو هريرة: الزموا هذه الرملة من فلسطين فإنها الربوة التي قال الله ﴿وَأَوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ حدثني عصام بن رواد بن الجراح... عن كريب قال: ما أدري ما حدثنا مرة البهزي انه سمع رسول الله ﷺ ذكر أن الربوة: هي الرملة. حدثنا

مجاهد، معين، قال: ماء. حدثنا القاسم عن مجاهد مثله. حدثني سليمان بن عبد الجبار عن سعيد في قوله ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ قال: المكان المستوى، والمعين الماء الظاهر. حدثت عن الحسين بن الفرج... عن الضحاك يقول في قوله: ومعين هو الماء الظاهر. وقال آخرون: عني بالقرار: الثمار. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ هي ذات ثمار، وهي بيت المقدس. حدثنا الحسن... عن قتادة مثله. قال أبو جعفر: وهذا القول الذي قاله قتادة في معنى ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وإن لم يكن أراد بقوله: إنها إنما وصفت بأنها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ لما فيها من الثمار، ومن أجل ذلك، يستقر فيها ساكنوها، فلا وجه له نعرفه. وأما ﴿وَمَعِينٍ﴾ فإنه مفعول من عنته فأنا أعينه، وهو معين؛ وقد يجوز أن يكون فعلاً من معن يمعن فهو (معين) من الماعون؛ ومنه قول عبيد بن الأبرص:

واهية أو معين معن

أو هضبة دونها اللهب

بتأويل ذلك أنها مكان مرتفع ذو استواء وماء ظاهر، وليس كذلك صفة الرملة لأن الرملة لا ماء بها معين، والله تعالى ذكره وصف هذه الربوة بأنها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾. وينحو الذي قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل: ذكر من قال ذلك حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿وَأَوْرَثَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ﴾ قال: الربوة المستوية. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله إلى ربوة قال: مستوية - حدثنا القاسم... عن مجاهد مثله. وقوله ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ يقول تعالى ذكره: من صفة الربوة التي آوينا إليها مريم وابنها عيسى أنها أرض منبسطة، وساحة وذات ماء ظاهر لغير الباطن جار. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿وَمَعِينٍ﴾ قال: المعين الماء الجاري، وهو النهر الذي قال الله ﴿قَدْ جَعَلْ رَبُّكَ تَحْتِكَ سَرِيًّا﴾ [مريم: ٢٤] حدثني محمد بن عمار الأسدي... عن مجاهد في قوله ذات قرار ومعين قال: المعين الماء. حدثني محمد بن عمار الأسدي... عن

الرازي ج ٢٣ ص ١٠٢ - ١٠٣

جعلهما آية بنفس الولادة لأنه ولد من من غير ذكر وولدت من دون ذكر فاشتركا جميعاً في هذا الأمر العجيب الخارق للعادة والذي يدل على أن هذا التفسير أولى وجهان: (أحدهما): إنه تعالى قال ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ لأن نفس الإعجاز ظهر فيهما لا أنه ظهر على يدهما وهذا أولى من أن يحمل على الآيات التي ظهرت على يده نحو إحياء الموتى وذلك لأن الولادة فيه وفيها آية فيهما وكذلك إن نطقاً في المهد وما عدا ذلك من الآيات ظهر على يده لا أنه آية فيه. (الثاني): إنه تعالى قال آية ولم يقل آيتين، وحمل هذا اللفظ على الأمر الذي لا يتم إلا بمجموعهما أولى وذلك هو أمر الولادة لا المعجزات التي كان عيسى عليه السلام مستقلاً بها...

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَأَوْرَثَهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾.

اعلم أن ابن مريم هو عيسى عليه السلام جعله الله تعالى آية بأن خلقه من غير ذكر وأنطقه في المهد في الصغر وأجرى على يديه إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى، وأما مريم فقد جعلها الله تعالى آية لأنها حملته من غير ذكر. وقال الحسن تكلمت مريم في صغرها كما تكلم عيسى عليه السلام وهو قولها ﴿مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: الآية ٣٧] ولم تلقم ثدياً قط، قال القاضي إن ثبت ذلك فهو معجزة لذكراها عليه السلام لأنها لم تكن نبية، قلنا القاضي إنما قال ذلك لأن عنده الإرهاص غير جائز وكرامات الأولياء غير جائزة وعندنا هما جائزان فلا حاجة إلى ما قال، والأقرب أنه

الطبرسي ج ١٨ ص ١٥٥

وسعيد، وقيل ذات ثمار. . عن قتادة. ذهب إلى أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها، ﴿وَمَعِيرٍ﴾ ماء جار ظاهر العيون، مفعول من أعتته أعينه، ويجوز أن يكون فعلاً من معن يمعن معانة، والماعون الشيء القليل في قول الزجاج، قال الراعي:

قوم على الإسلام لما يمتنعوا

ماعونهم ويدلوا التنزيلا

قالوا معناه رفدهم، وقيل زكاتهم وقال عبيد بن الأبرص:

واهيئة أو معين معن

أو هضبة دونها اللهب

واللهب شق في الجبل، معن مار، والمعن الشيء السهل الذي ينقاد ولا يعتاص، وأمعن بحقه، وأذعن أي أقر، قال ابن الإعرابي سالت معناه أي مسائله ومجاريه.

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ وهذا مثل قوله ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. أي حجة على قدرتنا على الاختراع، وآية عيسى أنه خلق من غير ذكر، وآية مريم أنها حملت من غير فحل ﴿وَأَوْبَيْنَاهُمَا إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ أي جعلنا مأواهما مكاناً مرتفعاً مستوياً واسعاً، يقال أوى إليه يأوي أوياً وأواه غيره يؤويه إيواء أي جعله مأوى له، والربوة التي أوى إليها هي الرملة من فلسطين عن أبي هريرة، وقيل دمشق عن سعيد بن المسيب، وقيل مصر عن ابن زيد، وقيل بيت المقدس عن قتادة وكعب، قال كعب وهي أقرب الأرض إلى السماء، وقيل هي حيرة الكوفة وسوادها والقرار مسجد الكوفة، والمعين الفرات عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِيرٍ﴾ معناه أي ذات موضع ﴿قَرَارٍ﴾ أي هي أرض مستوية يستقر عليها ساكنوها. . عن الضحاك

الألوسي ج ٩ ص ٣٧ - ٣٩

عندي ما تقدم، والتعبير عن عيسى عليه السلام بابن مريم وعن مريم بأمه للإيدان من أول الأمر بحيشة كونهما آية فإن نسبته عليه السلام إليها مع أن النسب إلى الآباء دالة على أن لا أب له أي جعلنا ابن مريم وحدها من غير أن يكون له أب وأمّه التي ولدته خاصة من غير مشاركة الأب آية، وتقديمه عليه السلام لأصلته فيما ذكر من كونه آية كما قيل أن تقديم أمه في قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. لأصلتها فيما نسب إليها من الإحصان والنفخ، ثم اعلم أن الذي أجمع عليه الإسلاميون أنه ليس لمريم ابن سوى عيسى عليه السلام.

وزعم بعض النصارى قاتلهم الله تعالى أنها بعد أن ولدت عيسى تزوجت بيوسف النجار، وولدت منه ثلاثة أبناء، والمعتمد عليه عندهم أنها كانت في حال الصغر خطيبة يوسف النجار عقد عليها ولم يقربها ولما رأى حملها بعيسى عليه السلام هم بتخليتها فرأى في المنام ملكاً أوقفه على حقيقة الحال فلما ولدت بقيت عنده مع عيسى عليه

﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾ آية آية دالة على عظيم قدرتنا بولادته منها من غير مسيس بشر فالآية أمر واحد مشترك بينهما فلذا أفردت، وجوز أن يكون الكلام على تقدير مضاف أي جعلنا حال ابن مريم وأمّه آية أو جعلنا ابن مريم وأمّه ذوي آية وأن يكون على حذف آية من الأول لدلالة الثاني عليه أو بالعكس أي جعلنا ابن مريم آية لما ظهر فيه عليه السلام من الخوارق كتكلمه في المهد بما تكلم صغيراً وإحيائه الموتى وإبرائه الأكمة والأبرص وغير ذلك كبيراً وجعلنا أمّه آية بأن ولدت من غير مسيس، وقال الحسن: إنها عليها السلام تكلمت في صغرها أيضاً حيث قالت: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٣٧]. ولم تلتقم ثدياً قط، وقال الخفاجي: لك أن تقول: إنما يحتاج إلى توجيه أفراداً الآية بما ذكر إذا أريد أنها آية على قدرة الله تعالى أما إذا كانت بمعنى المعجزة أو الإرهاص فلا لأنها إنما هي لعيسى عليه السلام لنبوته دون مريم، اهـ. ولا يخفى ما فيه والوجه

خطيبته وأنه تعهدا وتعهد عيسى عليه السلام ويقولون:
كان ذلك لقربته منها ﴿وَأَوْسَيْنَهُمَا﴾ أي جعلناهما يأويان
﴿إِلَىٰ رَبْوَةٍ﴾ ما ارتفع من الأرض دون الجبل . . .

السلام فجعل يريه ويتعهده مع أولاد له من زوجة غيرها
فأما هي فلم يكن يقربها أصلاً. والمسلمون لا مسلمون
أنها كانت معقوداً عليها ليوسف ويسلمون أنها كانت

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ . عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾

(سورة المؤمنون، رقم ٢٣، الآية ٩١-٩٢)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ١٨	ص ٣٨ - ٣٩	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٤١٧ - ٤١٩
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٠ - ٤١	ابن كثير	ج ٣	ص ٢٥٤
الرازي	ج ٢٣	ص ١١٦ - ١١٧	الجلالان		ص ٤٥٤
الطبرسي	ج ١٨	ص ١٧٠ - ١٧٦	الشوكاني	ج ٣	ص ٤٩٥ - ٤٩٧
ابن عربي	ج ٢	ص ١٢٤ - ١٢٨	الألوسي	ج ١٩	ص ٥٩ - ٦٠
البيضاوي	ج ٤	ص ٧٠	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٤١٥
الخازن	ج ٥	ص ٤٣	الطباطبائي	ج ١٥	ص ٥٢ - ٦٥
البغوي	ج ٣	ص ٢٦٧	جوهري	ج ١١	ص ١٤٨ - ٢٠٠
الماوردي	ج ٤	ص ٦٥	المراغبي	ج ١٨	ص ٥٠ - ٥١
القرطبي	ج ١٢	ص ١٤٦ - ١٤٧	سيد قطب	ج ٤	ص ٢٤٧١ - ٢٤٧٩

الطبري ج ١٨ ص ٣٨ - ٣٩

لذهب كل إله بما خلق، اجتزىء بدلالة ما ذكر عليه عنه وقوله: ﴿ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ يقول تعالى ذكره تنزيه لله عما يصفه به هؤلاء المشركون، من أن له ولداً، وعما قالوه من أن له شريكاً، أو أن معه في القدم إلها يعبد، تبارك وتعالى. وقوله: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ﴾ يقول تعالى ذكره هو عالم ما غاب عن خلقه من الأشياء، فلم يروه ولم يشاهدوه وما رأوه وشاهدوه. وإنما هذا من الله خبر عن هؤلاء الذين قالوا من المشركين: اتخذ الله ولداً، وعبدوا من دونه آلهة، أنهم فيما يقولون ويفعلون مبطلون مخطئون، فإنهم يقولون ما يقولون من قول في ذلك عن غير علم، بل عن جهل منهم به، وأن العالم بقديم الأمور وبحديثها وشاهدتها وغائبها عنهم، الله الذي لا يخفى عليه شيء، فخبيره هو الحق دون خبرهم، وقال: ﴿ عَلِيمُ الْغَيْبِ ﴾ فرفع عالم على الابتداء، بمعنى: هو عالم الغيب، ولذلك دخلت الفاء في قوله ﴿ فَتَعَلَّى ﴾ كما يقال: مررت بأخيك المحسن، فأحسنت إليه، فترفع المحسن إذا جعلت فأحسنت إليه بالفاء، لأن معنى الكلام إذا كان كذلك: مررت بأخيك هو المحسن، فأحسنت إليه. ولو جعل الكلام بالواو فليل: وأحسنت إليه لم يكن

﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يُصِفُونَ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ يقول: ما الأمر كما يزعم هؤلاء المشركون بالله، من أن الملائكة بنات الله، وأن الآلهة والأصنام آلهة دون الله ﴿ بَلْ أَنبَنَهُمُ بِالْحَقِّ ﴾ اليقين، وهو الدين الذي ابتعث الله نبيه ﷺ، وذلك الإسلام، ولا يعبد شيء سوى الله، لأنه لا إله غيره، ﴿ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ يقول: وإن المشركين لكاذبون فيما يضيفون إلى الله، وينحلونه من الولد والشريك. وقوله: ﴿ مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ ﴾ يقول تعالى ذكره: ما لله من ولد، ولا كان معه في القديم، ولا حين ابتدئ الأشياء، تصلح عبادته، ولو كان معه في القديم، أو عند خلقه الأشياء، من تصلح عبادته ﴿ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ ﴾ يقول إذا لا عززل كل إله منهم ﴿ بِمَا خَلَقَ ﴾ من شيء، فأنفرد به، ولتغالبا، فلعل بعضهم على بعض، وغلب القوي منهم الضعيف لأن القوي لا يرضى أن يعلوه ضعيف، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً، فسبحان الله ما أبلغها من حجة وأوجزها لمن عقل وتدبرا وقوله ﴿ إِذَا لَذَّهَبَ ﴾ جواب لمحدوف، وهو: لو كان معه إله إذا

يقرأ ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ في هذا الموضع أبو عمرو، على خلافه في ذلك قراءة الأمصار. والصواب من القراءة في ذلك عندنا: الرفع، لمعنيين: أحدهما إجماع الحجة من القراءة عليه، والثاني: صحته في العربية. وقوله ﴿فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: فارتفع الله وعلا عن شرك هؤلاء المشركين، ووصفهم إياه بما يصفون.

الزمخشري ج ٣ ص ٤٠ - ٤١

لتمايز الممالك، وللتغالب فاعملوا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قلت: إذا لا تدخل إلا على كلام هو جزء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزء وجواباً ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل؟ قلت: الشرط محذوف تقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ عليه، وهو جواب لمن معه المحاجة من المشركين ﴿عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الأنداد والأولاد ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ بالجر صفة لله وبالرفع خبر مبتدأ محذوف. ما والنون مؤكدتان: أي إن كان لا بد من أن تريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا أو في الآخرة.

الرازي ج ٢٣ ص ١١٦ - ١١٧

متميزاً عن ملك الآخر، ولغلب بعضهم على بعض كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحيث لم تروا أثر التمايز في الممالك والتغالب، فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء. فإن قيل «إذا» لا يدخل إلا على كلام هو جزء وجواب، فكيف وقع قوله لذهب جزء وجواباً؟ ولم يتقدمه شرط ولا سؤال سائل، قلنا الشرط محذوف وتقديره ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ عليه، ثم إنه سبحانه نزه نفسه عن قولهم بقوله ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من إثبات الولد والشريك.

أما قوله ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ فقرأه بالجر صفة لله، والرفع خبر مبتدأ محذوف، والمعنى أنه سبحانه هو المختص بعلم الغيب والشهادة، فغيره وإن علم الشهادة

وجه الكلام في المحسن إلا الخفض على النعت للأخ، ولذلك لو جاء ﴿فَتَعَلَّى﴾ بالواو، كان وجه الكلام في عالم الغيب الخفض على الأتباع لإعراب اسم الله، وكان يكون معنى الكلام: سبحانه الله عالم الغيب والشهادة وتعالى. فيكون قوله ﴿فَتَعَلَّى﴾ حيثئذ معطوفاً على سبحانه الله، وقد يجوز الخفض مع الفاء، لأن العرب قد تبدىء الكلام بالفاء، كابتدائها بالواو، وبالخفض كان

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ.

وقرى أتيتهم، وأتيتهم بالفتح والضم ﴿بِالْحَقِّ﴾ بأن نسبة الوالد إليه محال والشرك باطل ﴿وَلَنْهَرُ لَكَذِبُونَ﴾ حيث يدعون له ولداً ومعه شريكاً ﴿لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ لانفرد كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرايتم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملك الآخرين، ولغلب بعضهم بعضاً، كما ترون حال ملوك الدنيا ممالكهم متميزة وهم متغالبون، وحين لم تروا أثراً

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهُ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا يَشْرِكُونَ . . .

إعلم أنه سبحانه ادعى أمرين: (أحدهما): قوله ﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلِيٍّ﴾، وهو كالتنبيه على أن ذلك من قول هؤلاء الكفار، فإن جمعاً منهم كانوا يقولون الملائكة بنات الله. (والثاني): قوله ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ وهو قولهم باتخاذ الأصنام آلهة، ويحتمل أن يريد به إبطال قول النصارى والثنية، ثم إنه سبحانه وتعالى ذكر الدليل المعتمد بقوله ﴿إِذَا لَذَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ والمعنى لانفرد على [ذلك] كل واحد من الآلهة بخلقه الذي خلقه واستبد به، ولرايتم ملك كل واحد منهم

﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ثم أمره سبحانه بالانقطاع إليه وأن يدعوه...

فلن يعلم معها الغيب، والشهادة التي يعلمها لا يتكامل بها النفع إلا مع العلم بالغيب وذلك كالوعيد لهم، فلذلك قال

الطبرسي ج ١٨ ص ١٧٠ - ١٧٦

مراده، وهو مثل قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وفي هذا دلالة عجبية في التوحيد، وهو أن كل واحد من الآلهة من حيث يكون إلهاً يكون قادراً لذاته فيؤدي إلى أن يكون قادراً على كل ما يقدر عليه غيره من الآلهة، فيكون غالباً ومغلوباً من حيث أنه قادر لذاته، وأيضاً فإن من ضرورة كل قادرين صحة التمانع بينهما، فلو صح وجود إلهين صح التمانع بينهما من حيث أنهما قادران، وللذات وهذا محال، وفي هذا دلالة على إعجاز القرآن لأنه لا يوجد في كلام العرب كلمة وجيزة تضمنت ما تضمنته هذه، فإنها قد تضمنت دليلين باهرين على وحدانية الله وكمال قدرته، ثم نزه نفسه عما وصفوه به فقال ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي عما يصفه به المشركون من اتخاذه الولد والشريك ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾، أي يعلم ما غاب وما حضر فلا يخفى عليه شيء ﴿فَتَعَلَّىٰ﴾ الله ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ معنى أنه عالم بما كان، وبما سيكون، وبما لم يكن إن كان كيف يكون، ومن كان بهذه الصفة لا يكون له شريك لأنه الأعلى من كل شيء في صفته...

... أكد سبحانه ما قدمه من أدلة التوحيد بقوله ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ أي لم يجعل ولد غيره ولد نفسه لاستحالة ذلك عليه، فمن المحال أن يكون له ولد، فلا يجوز عليه التشبيه بما هو مستحيل ممتنع إلا على النفي والتبعيد، واتخاذ الولد هو أن يجعل الجاعل ولد غيره يقوم مقام ولده لو كان له، وكذلك التبني إنما هو جعل الجاعل ابن غيره، ومن يصح أن يكون ابناً له مقام ابنه، ولذلك لا يقال تبني شاب شيخاً ولا تبني الإنسان بهيمة لما استحال أن يكون ذلك ولداً له ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ «من» هاهنا وفي قوله من ولد المؤكدة فهو أكد من أن يقول ما اتخذ ولداً كان معه إله، نفى عن نفسه الولد والشريك على أكد الوجوه ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ﴾ والتقدير إذا لو كان معه إله آخر لذهب كل إله بما خلق، أي لميز كل إله خلقه عن خلق غيره ومنعه من الاستيلاء على ما خلقه، أو نصب دليلاً يميز به خلقه وخلق غيره، فإنه كان لا يرضى أن يضاف خلقه وأنعامه إلى غيره ﴿وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، أي ولطلب بعضهم قهر بعض ومغالته، وهذا معنى قول المفسرين ولقاتل بعضهم بعضاً كما يفعل الملوك في الدنيا، وقيل معناه ولمنع بعضاً عن

البيضاوي ج ٤ ص ٧٠

وقيام البرهان على استناد جميع الممكنات إلى واجب واحد ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ من الولد والشريك لما سبق من الدليل على فساده ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وقد جره ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو ويعقوب وحفص على الصفة، وهو دليل آخر على نفى الشريك بناء على توافقهم في أنه المنفرد بذلك، ولهذا رتب عليه ﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالفاء.

﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتقدسه عن مماثلة أحد ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يساهمه في الألوهية ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ جواب محاجتهم، وجزاء شرط حذف لدلالة ما قبله عليه، أي لو كان معه آلهة كما تقولون لذهب كل منهم بما خلقه، واستبد به، وامتاز ملكه عن ملك الآخرين، وظهر بينهم المتحارب والتغالب كما هو حال ملوك الدنيا، فلم يكن بيده وحده ملكوت كل شيء، واللازم باطل بالإجماع، والاستقراء،

أبو حيان الأندلسي ج ٦ ص ٤١٧ - ٤١٩

وهذا قول الفراء زعم أنه إذا جاء بعدها اللام كانت لو وما دخلت عليه محذوفة، وقد قررنا تخريجاً لها على غير هذا في قوله ﴿وَإِذَا لَأَخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٣] والظاهر أن ما في ﴿يَمَا خَلَقَ﴾ بمعنى: الذي وجوز أن تكون مصدرية ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ تنزيه عن الولد والشريك، وقرئ ﴿عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ بتاء الخطاب، وقرأ الإنسان وأبو عمرو وحفص ﴿عَلِيمٌ﴾ بالجهر، قال الزمخشري: صفة لله وقال ابن عطية: اتباع للمكتوبة، وقرأ باقي السبعة، وابن أبي عبلة، وأبو حيوة، وأبو بحرية بالرفع. قال الأخفش الجر أجود ليكون الكلام من وجه واحد. قال أبو علي الرفع أن الكلام قد انقطع يعني أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، وقال ابن عطية والرفع عندي أبرع، والفاء في قوله ﴿فَتَعَلَّى﴾ عاطفة، فالمعنى كأنه قال: عالم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول زيد شجاع فعظمت منزلته، أي شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى عما يشركون على أخبار مؤتلف، والغيب: ما غاب عن الناس، والشهادة ما شاهدوه. انتهى.

الألوسي ج ٩ ص ٥٦ - ٦٠

الآية عادي لا عقلي ولذا قيل: إن الآية إشارة إلى دليل إقناعي للتوحيد لا قطعي.

وفي الكشف قد لاح لنا من لطف الله تعالى وتأنيده أن الآية برهان نير على توحيده سبحانه، وتقريره أن مرجح الممكنات الواجب الوجود تعالى شأنه جل عن كل كثرة أما كثرة المقومات أو الأجزاء الكمية فيبينة الانتفاء لإيادها بالإمكان، وأما التعدد مع الاتحاد في الماهية فكذلك للافتقار إلى المميز ولا يكون مقتضى الماهية لاتحادها فيه فيلزم الإمكان، ثم المميزان في الطرفين صفتا كمال لأن الاتصاف بما لا كمال فيه نقص فهما ناقصان ممكنان مفتقران في الوجود إلى مكمل خارج هو الواجب بالحقيقة، وكذلك الافتقار في كمال ما للوجود يوجب الإمكان لا يجابه أن يكون فيه أمر بالفعل وأمر بالقوة

وقرئ ﴿بَلْ أَتَيْنَهُمْ﴾ بتاء المتكلم، وابن أبي إسحاق بتاء الخطاب، ﴿وَلَا تُهْزِلْكَ دُبُونُ﴾ فيما ينسبون إلى الله تعالى من اتخاذ الولد، ومن الشركاء وغير ذلك مما هم فيه كاذبون، ثم نفى اتخاذ الولد وهو نفى استحالة، ونفى الشريك بقوله ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ أي: وما كان معه شريك في خلق العالم واختراعهم، ولا في غير ذلك مما يليق به من الصفات العلى، فنفي الوالد تنبيه على من قال الملائكة بنات الله، ونفي الشريك في الألوهية تنبيه على من قال الأصنام آلهة، ويحتمل أن يراد به إبطال قول النصراني والثنية، و ﴿مِنْ وَلَدٍ﴾ و ﴿مِنْ إِلَهٍ﴾ نفى عام يفيد استغراق الجنس، ولهذا جاء ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ﴾، ولم يأت التركيب إذاً لذهب الإله، ومعنى لذهب أي لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر، وغلب بعضهم بعضاً كحال ملوك الدنيا، وإذا لم يقع الانفراد والتغالب فاعلموا أنه إله واحد وإذا لم يتقدمه في اللفظ شرط ولا سؤال سائل ولا عدة قالوا، فالشرط محذوف تقديره: ولو كان معه آلهة، وإنما حذف لدلالة قوله ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ عليه،

﴿مَا أَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ﴾ لتنزهه عز وجل عن الاحتياج

وتقدسه تعالى عن مماثلة أحد.

﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ﴾ يشاركه سبحانه في الألوهية ﴿إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ يَمَا خَلَقَ﴾ أي لاستبد بالذي خلقه واستقل به تصرفاً وامتاز ملكه عن ملك الآخر ﴿وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ ولوقع التحارب والتغالب بينهم كما هو الجاري فيما بين الملوك والتالي باطل لما يلزم من ذلك نفى الألوهية الجميع أو ألوهية ما عدا واحداً منهم وهو خلاف المفروض أو لما أنه يلزم أن لا يكون بيده تعالى وحده ملكوت كل شيء وهو باطل في نفسه لما برهن عليه في الكلام وعند الخصم لأنه يقول باختصاص ملكوت كل شيء به تعالى كما يدل عليه السؤال والجواب السابقان آنفاً كذا قيل، ولا يخفى أن اللزوم في الشرطية المفهومة من

واقضائه التركيب والإمكان.

ومن هنا قال العلماء: إن واجب الوجود بذاته واجب بجميع صفاته ليس له أمر منتظر ومع الاختلاف في الماهية يلزم أن لا يكون المرجح مرجحاً أي لا يكون الإله إلهاً لأن كل واحد واحد من الممكنات أن استقلاً بترجيحه لزم توارد العلتين التامتين على معلول شخصي وهو ظاهر الاستحالة فكونه مرجحاً إلهاً يوجب الافتقار إليه وكون غيره مستقلاً بالترجيح يوجب الاستغناء عنه فيكون مرجحاً غير مرجح في حالة واحدة، وإن تعاوننا فكمثل إذ ليس ولا واحد منهما بمرجح وفرضاً مرجحين مع ما فيه من العجز عن الإيجاد والافتقار إلى الآخر، وإن اختص كل منهما ببعض مع أن الافتقار إليهما على السواء لزم اختصاص ذلك المرجح بمخصص يخصه بذلك البعض بالضرورة وليس الذات لأن الافتقار إليهما على السواء فلا أولوية للترجيح من حيث الذات ولا معلول الذات لأنه يكون ممكناً والكلام فيه عائد فيلزم المحال من الوجهين الأولين أعني الافتقار إلى مميز غير الذات ومقتضاها ولزوم النقص لكل واحد لأن هذا المميز صفة كمال مخصص كل بذلك التمييز هو الواجب الخارج لا هماً، وإلى المحال الأول الإشارة بقوله تعالى ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدِّمٍ بِمَا خَلَقَ﴾ وهو لازم على تقدير التخالف في الماهية واختصاص كل ببعض، وخص هذا القسم لأن ما سواه أظهر استحالة، وإلى الثاني الإشارة بقوله سبحانه ﴿وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي إما مطلقاً وإما من وجه فيكون العالي هو الإله أو لا يكون ثم إله أصلاً وهذا لازم على تقديري التخالف والاتحاد والاختصاص وغيره فهو تكميل للبرهان من وجه وبرهان ثان من آخر، فقد تبين ولا كفرق الفجر أنه تعالى هو الواحد الأحد جعل وجوده زائداً على الماهية أولاً فاعلاً بالاختيار أولاً، وليس برهان الوحدة مبنياً على أنه تعالى فاعل بالاختيار كما ظنه الإمام الرازي قدس سره انتهى، وهو كلام يلوح عليه مخايل التحقيق، وربما يورد عليه بعض مناقشات تندفع بالتأمل الصادق. وما أشرنا إليه من انفهام قضية شرطية من الآية ظاهر جداً على ما ذهب إليه الفراء فقد قال: إن إذاً حيث جاءت بعدها اللام فقبلها لو مقدرة إن لم تكن ظاهرة

نحو ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ لَدِّمٍ بِمَا خَلَقَ﴾ فكأنه قيل: لو كان معه إله كما تزعمون لذهب كل إلخ.

وقال أبو حيان: إذا حرف جواب وجزاء ويقدر قسم يكون (لذهب) جواباً له، والتقدير والله إذا أي أن كان معه من إله لذهب وهو في معنى ليذهبن كقوله تعالى ﴿وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا﴾ [الروم: ٥١] أي ليظلمن لأن إذا تقتضي الاستقبال وهو كما ترى، وقد يقال: إن إذا هذه ليست الكلمة المعهودة وإنما هي إذا الشرطية حذفت جملتها التي تضاف إليها وعوض عنها التنوين كما في يومئذ والأصل إذاً كان معه من إله لذهب إلخ، والتعبير إذاً من قبيل مجارة الخصم، وقيل: ﴿كُلُّ لَدِّمٍ﴾ لما أن النفى عام يفيد عام يفيد استغراق الجنس و(ما) في ﴿بِمَا خَلَقَ﴾ موصولة حذف عائدها كما أشرنا إليه.

وجوز أن تكون مصدرية ويحتاج إلى نوع تكلف لا يخفى. ولم يستدل على انتفاء اتخاذ الولد إما لغاية ظهور فساد أو للاكتفاء بالدليل الذي أقيم على انتفاء أن يكون معه سبحانه إله بناء على ما قيل أن ابن الإله يلزم أن يكون إلهاً إذا الولد يكون من جنس الوالد وجوهره وفيه بحث ﴿سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ مبالغة في تنزيهه تعالى عن الولد والشريك، وما موصولة وجوز أن تكون مصدرية. وقرئ (تصفون) بقاء الخطاب ﴿عَلِيمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أي كل غيب وشهادة، وجر (عالم) على أنه بدل من الاسم الجليل أو صفة له لأنه أريد به الثبوت والاستمرار فيتعرف بالإضافة.

وقرأ جماعة من السبعة. وغيرهم برفعه على أنه خبر مبتدأ محذوف أي هو عالم، والجر أجود عند الأخفش والرفع أبرع عند ابن عطية، وأياً ما كان فهو على ما قيل إشارة إلى دليل آخر على انتفاء الشريك بناء على توافق المسلمين والمشركيين في تفردته تعالى بذلك. وفي الكشف أن في قوله سبحانه (عالم) إلخ إشارة إلى برهان آخر راجع إلى إثبات العلو أو لزوم الجهل الذي هو نقص وضد العلو لأن المتعديين لا سبيل لهما إلى أن يعلم كل واحد حقيقة الآخر كعلم ذلك الآخر بنفسه بالضرورة وهو نوع جهل وقصور، ثم علمه به يكون انفعالياً تابعاً لوجود

المعلوم فيكون في إحدى صفات الكمال - أعني العلم - مفتقراً وهو يؤذن بالنقصان والإمكان ﴿فَتَعَلَّىٰ ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تفریع علی كونه تعالى عالماً بذلك فهو كالنتيجة لما أشار إليه من الدليل .

وقال ابن عطية: الفاء عاطفة كأنه قيل علم الغيب والشهادة فتعالى كما تقول زيد شجاع فعظمت منزلته على معنى شجع فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى فأقول تعالى إلخ على أنه أخبار مستأنف .

المراغي ج ٦ ص ٥٠ - ٥١

بعد أن بين سبحانه أن المشركين كاذبون في إنكار البعث والجزاء، وفي مقالتهم: إن القرآن أساطير الأولين، قفى على ذلك بيان أنهم كاذبون في أمرين آخرين . اتخاذ الله للولد، وإثبات الشريك له .

نفي سبحانه عن نفسه شيئين :

(١) ﴿مَا اتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ﴾ أي ليس له ولد كما زعم قوم من المشركين حين قالوا: الملائكة بنات الله، وكيف يكون له ذلك، ولا مثل له ولا ندّ، والولد إنما يتخذ للحاجة إلى النصير والمعين، والله غني عن كل شيء .

(٢) ﴿وَمَا كَانَتْ مَعَهُ مِن إِلَٰهٍ﴾ يشركه في الألوهية، لا قبل خلق العالم ولا حين خلقه له ولا بعد خلقه .

ثم ذكر دليلين على بطلان تعدّد الآلهة فقال :

(١) ﴿إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ مِمَّا خَلَقَ﴾ أي لو قُدّر تعدد الآلهة لانفرد كل منهم بما خلق، إذ لكل صانع ضرب من الصنعة يغاير صنعة سواه، فكان يحصل التباين في نظم الخلق والإيجاد، ويوجد الاختلاف بين المخلوقات المتحدة الأنواع فلا ينتظم الكون، والمشاهد أنه منتظم متسق، وهو الغاية في الكمال كما قال: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ

ٱلرَّحْمٰنِ مِن تَفَوُّتٍ﴾ [الملك: ٣] .

(ب) ﴿وَلَعَلَّآ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ أي ولكان لكل منهم أن يطلب قهر الآخر وغلبته، فيعلو بعضهم على بعض كما هو حال ملوك الدنيا، وإذا لم تروا أثراً للتحارب والتغالب فاعلموا أنه إله واحد بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

وبعد أن وضع الحق وصار كفلق الصبح جاء بما هو كالنتيجة لذلك فقال :

﴿سُبْحٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ أي تنزه ربنا وتقدس عما يقوله الكافرون من أن له ولداً أو شريكاً .

ثم وصف نفسه بصفات الكمال فقال :

﴿عَلِيمٌ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَادَةِ﴾ أي هو العالم بما غاب عن خلقه من الأشياء فلا يرونه ولا يشاهدونه، وبما يرونه ويبصرونه، والمراد أن الذين قالوا بالولد والشريك مخطئون فيما قالوا، فإنهم يقولون عن غير علم، وأن الذي يعلم الأشياء شاهدها وغائبها ولا تخفي عليه خافية من أمرهما - قد نفى ذلك، فخبّره هو الحق دون خبرهم .

﴿فَتَعَلَّىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أي تقدس عما يقول الجاحدون الظالمون .

﴿الَّذِي لَمْ يُلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾

(سورة الفرقان، رقم ٢٥، الآية ٢)

مصادر تفاسير الآية	ج ١٨	ص ١٣٦	أبو حيان الأندلسي	ج ٦	ص ٤٧٨ - ٤٨٦
الطبري	ج ١٨	ص ١٣٦	ابن كثير	ج ٢	ص ٢٠٨
الزمخشري	ج ٢	ص ٨١	الجلالان	ج ٢	ص ٤٧٠
الرازي	ج ٢٤	ص ٤٧	الشوكاني	ج ٤	ص ٦٠ - ٦٢
الطبرسي	ج ١٩	ص ٨٤ - ٨٩	الآلوسي	ج ١٨	ص ٢١٠ - ٢١١
ابن عربي	ج ٢	ص ١٥١ - ١٥٢	القاسمي	ج ١٢	ص ٤٥٦٣
البيضاوي	ج ٤	ص ٨٨ - ٨٩	الطباطبائي	ج ١٥	ص ١٧٢ - ١٧٨
الخانز	ج ٥	ص ٩٣	جوهرى	ج ١٢	ص ١٢٨ - ٢٠٣
البعثي	ج ٣	ص ٣٠٦	المراغي	ج ١٨	ص ١٤٦ - ١٤٨
القرطبي	ج ١٣	ص ١ - ٣	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٥٤٣ - ٢٥٥٦

الطبري ج ١٨ ص ١٣٦

الألوهة إلى الأصنام ويعبدها من دون الله من مشركي العرب، ويقول في تليته: لبيك لا شريك لك، إلا شريكاً هو لك، تملكه وما ملك: كذب قائلو هذا القول، ما كان لله من شريك في ملكه وسلطانه، فيصلح أن يعبد من دونه، يقول تعالى ذكره: فافردوا أيها الناس لربكم الذي نزل الفرقان على عبده محمد نبيه ﷺ الألوهة، وأخلصوا له العبادة، دون كل ما تعبدونه من دونه من الآلهة والأصنام والملائكة والجن والإنس، فإن كل ذلك خلقه وفي ملكه، فلا تصلح العبادة إلا لله الذي هو مالك جميع ذلك، وقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يقول تعالى ذكره: وخلق الذي نزل على محمد الفرقان كل شيء؛ فالأشياء كلها خلقه وملكه، وعلى الممالك طاعة مالكمهم وخدمة سيدهم دون غيره، يقول: وأنا خالقكم ومالككم، فأخلصوا لي العبادة دون غيري، وقوله ﴿فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ يقول: فسوّى كل ما خلق، وهياً لما يصلح له، فلا خلل فيه ولا تفاوت.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿الَّذِي لَمْ يُلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ يقول تعالى ذكره ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ الَّذِي لَمْ يُلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الذي الثانية من نعت الذي الأولى، وهما جميعاً في موضع رفع، الأولى بقوله تبارك، والثانية نعت لها، ويعني بقوله ﴿الَّذِي لَمْ يُلَمْكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الذي له سلطان السموات والأرض ينفذ في جميعها أمره وقضاه، ويمضي في كلها أحكامه، يقول: فحق على من كان كذلك أن يطيعه أهل مملكته، ومن في سلطانه، ولا يعصوه، يقول: فلا تعصوا نذيري إليكم أيها الناس، واتبعوه، واعلموا بما جاءكم به من الحق ﴿وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ يقول تكذيباً لمن أضاف إليه الولد، وقال الملائكة بنات الله: ما اتخذ الذي نزل الفرقان على عبده ولداً فمن أضاف إليه ولداً فقد كذب وافترى على ربه ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ يقول تكذيباً لمن كان يضيف

الزمخشري ج ٣ ص ٨١

المبدل منه صلته نزل وليكون تعليل له، فكأن المبدل منه لم يتم إلا به. فإن قلت: في الخلق معنى التقدير فما معنى قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ نَقْدِيرًا﴾ كأنه قال وقدر

﴿الَّذِي لَمْ يُلَمْكَ﴾ رفع على الإبدال من الذي نزل أو رفع على المدح أو نصب عليه. فإن قلت: كيف جاز الفصل بين البدل والمبدل منه؟ قلت: ما فصل بينهما بشيء لأن

عنه، أو سمي إحداث الله خلقاً لأنه لا يحدث شيئاً لحكمته إلا على وجه التقدير من غير تفاوت، فإذا قيل خلق الله كذا فهو بمنزلة قولك أحدث وأوجد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق، فكأنه قيل وأوجد كل شيء فقدره في إيجاده لم يوجد متفاوتاً. وقيل فجعل له غاية ومنتهى، ومعناه: فقدره للبقاء إلى أمد معلوم. الخلق بمعنى الافتعال.

الرازي ج ٢٤ ص ٤٤ - ٤٧

يعترفون بنفي الشركاء والأنداد، ومع ذلك يقولون إنهم يخلقون أفعال أنفسهم. فذكر الله تعالى هذه الآية لتكون معينة في الرد عليهم. قال القاضي الآية لا تدل عليه لوجه: (أحدها): إنه سبحانه صرح بكون العبد خالقاً في قوله ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ﴾ [المائدة: ١١٠] وقال ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]. (وثانيها): إنه سبحانه تمدح بذلك فلا يجوز أن يريد به خلق الفساد. (وثالثها): إنه سبحانه تمدح بأنه قدره تقديرًا ولا يجوز أن يريد به إلا الحسن والحكمة دون غيره، فثبت بهذه الوجوه أنه لا بد من التأويل لو دلت الآية بظاهرها عليه، فكيف ولا دلالة فيها البتة، لأن الخلق عبارة عن التقدير فهو لا يتناول إلا ما يظهر فيه التقدير، وذلك إنما يظهر في الأجسام لا في الأعراض. والجواب:

أما قوله ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ﴾ [المائدة: ١١٠] وقوله ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤] فهما معارضان بقوله ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢] وبقوله ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ﴾ [فاطر: ٣] وأما قوله لا يجوز التمدح بخلق الفساد، قلنا لم لا يجوز أن يقع التمدح به نظراً إلى تقادير القدرة وإلى أن صفة الإيجاد من العدم والإعدام من الوجود ليست إلا له؟ وأما قوله: الخلق لا يتناول إلا الأجسام، فنقول لو كان كذلك لكان قوله خلق كل شيء خطأ لأنه يقتضي إضافة الخلق إلى جميع الأشياء مع أنه لا يصح في العقل إضافته إليها.

السؤال الثاني: في الخلق معنى التقدير فقوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَقَدِيرًا﴾ معناه وقدر كل شيء

كل شيء فقدره؟ قلت: المعنى أنه أحدث كل شيء إحداثاً مراعى فيه التقدير والتسوية فقدره وهياً لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المسوى الذي تراه، فقدره للتكاليف والمصالح المنوطة في بابي الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلبة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدره لأمر ما، ومصلحة مطابقاً لما قدر له غير متجاف

... سبحانه وصف ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء. (أولها): قوله ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأنعام: ١٠١] وهذا كالتنبيه على الدلالة على وجوده سبحانه لأنه لا طريق إلى إثباته إلا بواسطة احتياج أفعاله إليه، فكان تقديم هذه الصفة على سائر الصفات كالأمر الواجب وقوله ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [البقرة: ١١٦] إشارة إلى احتياج هذه المخلوقات إليه سبحانه بزمان حدوثها وزمان بقائها في ماهيتها وفي وجودها، وأنه سبحانه هو المتصرف فيها كيف يشاء. (وثانيها): قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ يَمِينٌ وَلَا يَمَانٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥] فبين سبحانه أنه هو المعبود أبدأ، ولا يصح أن يكون غيره معبوداً ووارثاً للملك عنه، فتكون هذه الصفة كالمؤكد لقوله (تبارك) ولقوله ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ [الأنعام: ١٠١] وهذا كالرد على النصارى. (وثالثها): قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ [البقرة: ٢٢٢] والمراد أنه هو المنفرد بالإلهية، وإذا عرف العبد ذلك انقطع خوفه رجائه عن الكل، ولا يبقى مشغول القلب إلا برحمته وإحسانه، وفيه الرد على الثنوية، والقائلين بعبادة النجوم، والقائلين بعبادة الأوثان. (ورابعها): قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَقَدِيرًا﴾ وفيه سؤالات:

السؤال الأول: هل في قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ دلالة على أنه سبحانه خالق لأعمال العباد؟ (والجواب): نعم من وجهين (الأول): إن قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يتناول جميع الأشياء فيتناول أفعال العباد، (والثاني): وهو أنه تعالى بعد أن نفى الشريك ذكر ذلك، والتقدير أنه سبحانه لما نفى الشريك كان قائلاً قال: ههنا أقوام

فقدرة تقديره. (والجواب): المعنى أحدث كل شيء إحداثاً يراعى فيه التقدير والتسوية، فقدرة تقديره وهياً لما يصلح له، مثاله أنه خلق الإنسان على هذا الشكل المقدر المستوى الذي تراه، فقدرة للتكاليف والمصالح المنوطة به في باب الدين والدنيا، وكذلك كل حيوان وجماد جاء به على الجبلبة المستوية المقدرة بأمثلة الحكمة والتدبير فقدرة لأمر ما، ومصلحة ما، مطابقاً لما قدر غير متخلف عنه.

السؤال الثالث: هل في قوله ﴿فَقَدَرَهُ لَتَدِيرَهُ﴾ دلالة على مذهبكم؟ (الجواب): نعم وذلك من وجوه: (أحدها): إن التقدير في حقنا يرجع إلى الظن والحسبان، أما في حقه سبحانه فلا معنى له إلا العلم به والأخبار عنه، وذلك متفق عليه بيننا وبين المعتزلة، فلما علم في الشيء الفلاني أنه لا يقع. فلو وقع ذلك الشيء لزم انقلاب علمه جهلاً وانقلاب خبره الصدق كذباً، وذلك محال والمفضي إلى المحال محال فإذن وقوع ذلك الشيء محال والمحال غير مراد فذلك الشيء غير مراد وإنه مأمور به، فثبت أن الأمر والإرادة لا يتلازمان، وظهر أن السعيد من سعد في بطن أمه. والشقي من شقى في بطن أمه (وثانيها): إنه عند حصول القدرة والداعية الخالصة إن وجب الفعل، كان فعل العبد يوجب فعل الله تعالى، وحينئذ يطل قول المعتزلة، وإن لم يجب فإن استغنى عن المرجح فقد وقع الممكن لا عن مرجح وتجويزه يسد باب إثبات الصانع وإن لم يستغن عن المرجح، فالكلام يعود في ذلك المرجح، ولا ينقطع إلا عند الانتهاء إلى واجب الوجود. (وثالثها): إن فعل العبد لو وقع بقدرته لما وقع إلا الشيء الذي أراد تكوينه وإيجاده، لكن الإنسان لا يريد إلا العلم والحق فلا يحصل له إلا الجهل والباطل، فلو كان الأمر بقدرته لما كان كذلك، فإن قيل إنما كان لأنه اعتقد شبهة أوجبت له ذلك الجهل، قلنا إن اعتقد تلك الشبهة لشبهة أخرى لزم التسلسل وهو محال فلا بد من الانتهاء إلى جهل أول، ووقع في قلب الإنسان لا بسبب جهل سابق، بل الإنسان أحدثه ابتداء من غير موجب، وذلك محال لأن الإنسان قط لا يرضى لنفسه بالجهل ولا يحاول تحصيل الجهل لنفسه بل لا يحاول إلا العلم، فوجب أن لا يحصل له إلا ما قصده وأراد، وحيث لم يكن كذلك علمنا أن الكل بقضاء سار وقدر نافذ، وهو المراد من قوله ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ لَتَدِيرَهُ﴾.

الطبرسي ج ١٩ ص ٨٤ - ٨٧

﴿فَقَدَرَهُ لَتَدِيرَهُ﴾ على ما اقتضته الحكمة والتقدير تبين مقادير الأشياء للعباد فيكون معناه قدر الأشياء بأن كتبها في الكتاب الذي كتبه الملائكة لطفاً لهم، وقيل خلق كل شيء فقدر طوله وعرضه ولونه وسائر صفاته ومدة بقائه . . .

ابن عربي ج ٢ ص ١٥١ - ١٥٢

صفاته، ومظهرية بعض كمالاته، دون بعض؛ أي، هياً استعداداتهم لما شاء من كمالاتهم التي هي صفاته.

﴿أَلَدَىٰ لَكُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ كما زعمت اليهود والنصارى والمشركون ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ يشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق

﴿أَلَدَىٰ لَكُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ يشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق

﴿أَلَدَىٰ لَكُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ يشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق

﴿أَلَدَىٰ لَكُمْ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَخْذَ وَلَدًا﴾ يشاركه فيما خلق ويمنعه عن مراده ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ مما يطلق عليه اسم المخلوق

البيضاوي ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩

وهيأه لما أراد منه من الخصائص والأفعال كتهيئة الإنسان للإدراك والفهم والنظر والتدبير واستنباط الصنائع المتنوعة ومزاولة الأعمال المختلفة إلى غير ذلك أو فقدره للبقاء إلى أجل مسمى وقد يطلق الخلق لمجرد الایجاد من غير نظر إلى وجه الاشتقاق فيكون المعنى وأوجد كل شيء فقدره في ايجادہ حتى لا يكون متفاوتاً.

﴿الَّذِي لَمْ يُلْكَ الْمُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بدل من الأول أو مدح مرفوع أو منصوب ﴿وَلَمْ يَنْخِذْ وَلَكَا﴾ كزعم النصارى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾ كقول الثنوية أثبت له الملك مطلقاً ونفي ما يقوم مقامه وما يقاومه فيه ثم نبه على ما يدل عليه فقال ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أحدثه إحداثاً مراعى فيه التقدير حسب إرادته كخلقه الإنسان من مواد مخصوصة وصوروا أشكال معينة ﴿فَقَدَرُ لَقْدِيرًا﴾ فقدره

﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾

(سورة الأحزاب، رقم ٣٣، الآية ٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢١	ص ٧٩	أبر حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٢٠٩ - ٢١٤
الزمخشري	ج ٣	ص ٢٥٢	ابن كثير	ج ٢	ص ٤٦٩
الرازي	ج ٢٥	ص ١٩٦ - ١٩٧	الجلالان		ص ٥٥٠
الطبرسي	ج ٢١	ص ٩٨ - ١١٣	الشوكاني	ج ٤	ص ٢٦٠ - ٢٦٣
ابن عربي	ج ٢	ص ٢٨٣ - ٢٨٥	الآلوسي	ج ٢١	ص ١٥٤
البیضاوي	ج ٤	ص ١٥٩	القاسمي	ج ١٣	ص ٤٨٢٩ - ٤٨٣٠
الخازن	ج ٥	ص ٢٣٢	الطباطبائي	ج ١٦	ص ٢٧٢ - ٢٨٢
البغوي	ج ٣	ص ٤٣٨	جريري	ج ١٦	ص ١٦ - ٢٤
الموردي	ج ٤	ص ٣٧٧	المراغي	ج ٢١	ص ١٣٢ - ١٣٣
القرطبي	ج ١٤	ص ١٢٦ - ١٢٧	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٨١٧ - ٢٨٣٠

الطبري ج ٢١ ص ٧٩

ﷺ كان يقول: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث»، ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ ميثاق أخذه الله على النبيين؛ خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً، وأن يتبع بعضهم بعضاً. حدثنا محمد بن بشار... عن قتادة إذا تلا هذه الآية ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: كان نبي الله ﷺ في أول النبيين في الخلق. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: في ظهر آدم. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ قال الميثاق الغليظ، العهد.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يقول تعالى ذكره كان ذلك في الكتاب مسطوراً، إذ كتبنا كل ما هو كائن في الكتاب ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ كان ذلك أيضاً في الكتاب مسطوراً، ويعني بالميثاق: العهد، وقد بينا ذلك بشواهد فيما مضى قبل ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ يقول: وأخذنا من جميعهم عهداً مؤكداً أن يصدق بعضهم بعضاً. كما حدثنا بشر... عن قتادة، قوله وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح قال: وذكر لنا أن نبي الله

الرازي ج ٢٥ ص ١٩٦ - ١٩٧

الخشية بقوله ﴿الَّتِي أُولَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] أكد به وجه آخر وقال ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ﴾ كأنه قال اتق الله ولا تخف أحداً واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين في أنهم يبلغون رسالات الله ولا يمنهم من ذلك خوف ولا طمع. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: المراد من الميثاق المأخوذ من النبيين إرسالهم وأمرهم بالتبليغ.

ثم قال تعالى: ﴿وَلِذَآ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾.

وجه تعلق الآية بما قبلها هو أن الله تعالى لما أمر النبي عليه الصلاة والسلام بالاتقاء بقوله ﴿يَتَأْتِيَكَ أَتَى اللَّهِ﴾ [الأحزاب: ١] وأكده بالحكاية التي خشي فيها الناس لكي لا يخشى فيها أحداً غيره وبين أنه لم يرتكب أمراً يوجب

لوقع التعريف به، وقوله ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ غلظ الميثاق هو سؤالهم عما فعلوا في الإرسال كما قال تعالى ﴿وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف: ٦] وهذا لأن الملك إذا أرسل رسولا وأمره بشيء وقبله فهو ميثاق، فإذا أعلمه بأنه يسأل عن حاله في أفعاله وأقواله يكون ذلك تغليظاً للميثاق عليه حتى لا يزيد ولا ينقص في الرسالة، وعلى هذا يمكن أن يقال بأن المراد من قوله تعالى ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُ مِنْكُمْ مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ [النساء: ٢١] هو الإخبار بأنهم مسؤولون عنها كما قال النبي عليه الصلاة والسلام «كلكم راع وكلكم مسؤول» وكما أراد الله تعالى جعل الرجال قوامين على النساء جعل الأنبياء قوامين بأمور أمتهم وإرشادهم إلى سبيل الرشاد.

ابن عربي ج ٢ ص ٢٨٣ - ٢٨٥

أضافه إليهم بقوله: ﴿مِثْقَهُمْ﴾ أي، الميثاق الذي ينبغي لهم، ويختص بهم، وقدم في الاختصاص بالذكر نبينا عليه السلام، بقوله: ﴿وَمِنْكَ﴾ لتقدمه على الباقي في الرتبة والشرف.

القرطبي ج ١٤ ص ١٢٦ - ١٢٧

فأما التوارث بين مؤمن وكافر فلم يكن في دين أحد من الأنبياء الذين أخذ عليهم المواثيق؛ فلا تُداهنوا في الدين ولا تماثلوا الكفار. ونظيره: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] - إلى قوله - ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣] ومن ترك التفرق في الدين ترك موالة الكفار. وقيل: أي النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم كان ذلك في الكتاب مسطوراً ومأخوذاً به المواثيق من الأنبياء. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا من تبليغ الرسالة، وأن يصدق بعضهم بعضاً. والميثاق هو اليمين بالله تعالى؛ فالميثاق الثاني تأكيد للميثاق الأول باليمين. وقيل: الأول هو الإقرار بالله تعالى، والثاني في أمر النبوة. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَذَ اللَّهُ مِثْقًا مِنَ الَّذِينَ

المسألة الثانية: خص بالذكر أربعة من الأنبياء وهم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى لأن موسى وعيسى كان لهما في زمان نبينا قوم وأمة فذكرهما احتجاجاً على قومهما، وإبراهيم كان العرب يقولون بفضلته وكانوا يتبعونه في الشعائر بعضها، ونوحاً لأنه كان أصلاً ثانياً للناس حيث وجد الخلق منه بعد الطوفان، وعلى هذا لو قال قائل فآدم كان أولى بالذكر من نوح فنقول خلق آدم وكان للعمارة ونبوته كانت مثل الإرشاد للأولاد ولهذا لم يكن في زمانه إهلاك قوم ولا تعذيب، وأما نوح فكان مخلوقاً للنبوة وأرسل للإنذار ولهذا أهلك قومه وأغرقوا.

المسألة الثالثة: في كثير من المواضع يقول الله ﴿عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [البقرة: ٨٧] ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ [التوبة: ٣١] إشارة إلى أنه لا أب له إذ لو كان

﴿وَلَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِثْقَهُمْ﴾ وخصوصاً الخمسة المذكورة لاختصاصهم بمزيد المرتبة والفضيلة ميثاق التوحيد، والتكميل، والهداية بالتبليغ عند الفطرة، وهو الميثاق الغليظ المضاعف بالكمال والتكميل، ولذلك،

قوله تعالى: ﴿وَلَا أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِثْقَهُمْ﴾ أي عهدهم على الوفاء بما حملوا، وأن يبشر بعضهم ببعض، ويصدق بعضهم بعضاً؛ أي كان مسطوراً حين كتب الله ما هو كائن، وحين أخذ الله تعالى المواثيق من الأنبياء. ﴿وَمِنْكَ﴾ يا محمد ﴿وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾. وإنما خص هؤلاء الخمسة وإن دخلوا في زمرة النبيين تفصيلاً لهم وقيل: لأنهم أصحاب الشرائع والكتب، وأولوا العزم من الرسل وأئمة الأمم. ويحتمل أن يكون هذا تعظيماً في قطع الولاية بين المسلمين والكافرين؛ أي هذا مما لم تختلف فيه الشرائع، أي شرائع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. أي كان في ابتداء الإسلام توارث بالهجرة، والهجرة سبب متأكد في الديانة، ثم توارثوا بالقرابة مع الإيمان وهو سبب وكيد؛

قتادة عن الحسن عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ﴾ قال: «كنت أولهم في الخلق وآخرهم في البعث». وقال مجاهد: هذا في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام.

لَمَّا أَتَيْنَاكُمْ مِنْ كَتَبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ﴿آل عمران: ٨١﴾. أي أخذ عليهم أن يعلنوا أن محمد رسول الله ﷺ، ويعلن محمد ﷺ أن لا نبي بعده. وقدم محمداً في الذكر لما روى

الشوكاني ج ٤ ص ٢٦٣ - ٢٦٤

المشهورة، ومن أولى العزم من الرسل، وتقديم ذكر نبينا ﷺ مع تأخر زمانه فيه من التشريف له والتعظيم ما لا يخفى. قال الزجاج: وأخذ الميثاق حيث أخرجوا من صلب آدم كالذر. ثم أكد ما أخذه على النبيين من الميثاق بتكرير ذكره ووصفه بالغلظ فقال ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾، أي عهداً شديداً على الوفاء بما حملوا وما أخذه الله عليهم، ويجوز أن يكون قد أخذ الله عليهم الميثاق مرتين، فأخذ عليهم في المرة الأولى مجرد الميثاق بدون تغليظ ولا تشديد، ثم أخذه عليهم ثانياً مغلظاً مشدداً، ومثل هذه الآية قوله ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَّا أَتَيْنَاكُمْ مِنْ كَتَبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ [آل عمران: ٨١].

قوله ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ العامل في الظرف محذوف: أي واذكر، كأنه قال: يا أيها النبي اتق الله واذكر أن الله أخذ ميثاق النبيين. قال قتادة: أخذ الله الميثاق على النبيين خصوصاً أن يصدق بعضهم بعضاً ويتبع بعضهم بعضاً. وقال مقاتل: أخذ ميثاقهم على أن يعبدوا الله، ويدعوا إلى عبادة الله، وأن يصدق بعضهم بعضاً، وأن ينصحووا لقومهم. والميثاق هو اليمين، وقيل هو الإقرار بالله، والأول أولى، وقد سبق تحقيقه. ثم خصص سبحانه بعض النبيين بالذكر بعد التعميم الشامل لهم ولغيرهم، فقال ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ ووجه تخصيصهم بالذكر الإعلام بأن لهم مزيد شرف وفضل لكونهم من أصحاب الشرائع

الآلوسي ج ١١ ص ١٥٤

بعضاً. وفي رواية أخرى عنه أنه أخذ الله تعالى ميثاقهم بتصديق بعضهم بعضاً، والإعلان بأن محمداً رسول الله، وإعلان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن لا نبي بعده ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ﴾ تخصيصهم بالذكر مع اندراجهم في النبيين اندراجاً بيناً للإيدان بمزيد مزيتهم وفضلهم وكونهم من مشاهير أرباب الشرائع.

واشتهر أنهم هم أولو العزم من الرسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. وأخرج البزار عن أبي هريرة أنهم خيار ولد آدم عليهم الصلاة والسلام، وتقديم نبينا ﷺ مع أنه آخرهم بعثه للإيدان بمزيد خطره الجليل، أو لتقدمه في الخلق، فقد أخرج ابن أبي عاصم. والضياء في المختارة عن أبي بن كعب مرفوعاً بديء بي الخلق

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ مقدر بالذكر على أنه مفعول لا ظرف لفساد المعنى، وهو معطوف على ما قبله عطف القصة على القصة، أو على مقدر كخذ هذا، وجوز أن يكون ذلك عطفاً على خبر كان، وهو بعيد وإن كان قريباً، ولما كان ما سبق متضمناً أحكاماً شرعها الله تعالى وكان فيها أشياء مما كان في الجاهلية، وأشياء مما كان في الإسلام أبطلت ونسخت أتبعه سبحانه بما فيه حث على التبليغ فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ﴾ إلخ أي واذكر وقت أخذنا من النبيين كافة عهودهم بتبليغ الرسالة والشرائع والدعاء إلى الدين الحق، وذلك على ما قال الزجاج وغيره وقت استخراج البشر من صلب آدم عليه السلام كالذر، وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة أنه سبحانه أخذ من النبيين عهودهم بتصديق بعضهم بعضاً، واتباع بعضهم

المنير: السر في تقديمه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه هو المخاطب والمنزل عليه هذا المتلو فكان أحق بالتقديم، وفيه بحث ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي عهد عظيم الشأن، أو وثيقاً قوياً، وهذا هو الميثاق الأول وأخذه هو أخذه، والعطف مبني على تنزيل التغيرات العنوانية منزلة التغيرات الذاتية كما في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ مِنْ عَدَاِبِ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨] أثر قوله سبحانه: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨]، وفي ذلك من تفخيم الشأن ما فيه ولهذا لم يقل عز وجل: وإذ أخذنا من النبيين ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم ميثاقاً غليظاً مثلاً، وقال سبحانه ما في النظم الكريم، وقيل: الميثاق الغليظ اليمين بالله تعالى، فيكون بعدما أخذ الله سبحانه من النبيين الميثاق بتبليغ الرسالة، والدعوة إلى الحق أكد باليمين بالله تعالى، على الوفاء بما حملوا فالميثاقان متغايران بالذات.

وكنتم آخرهم في البعث، وأخرج جماعة عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث»، وكذا في الاستنباء فقد جاء في عدة روايات أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنت نبياً وآدم بين الروح والجسد». وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قيل يا رسول الله متى أخذ ميثاقك؟ قال: وآدم بين الروح والجسد، ولا يضر فيما ذكر تقديم نوح عليه السلام في آية الشورى أعني قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ [الشورى: ١٣] الآية، إذ لكل مقام مقال، والمقام هناك وصف دين الإسلام بالأصالة، والمناسب فيه تقديم نوح فكانه قيل: شرع لكم الدين الأصيل الذي بعث عليه نوح في العهد القديم، وبعث عليه محمد عليه الصلاة والسلام خاتم الأنبياء في العهد الحديث، وبعث عليه من توسط بينهما من الأنبياء والمشاهير، وقال ابن

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾

٢٩

(سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٣	ص ٢٣	أبو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٣٥١-٣٥٣
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٣٣	ابن كثير	ج ٤	ص ٢
الرازي	ج ٢٦	ص ١١٨	الجلالان		ص ٥٨٧
الطبرسي	ج ٢٣	ص ٤٥-٤٩	الشوكاني	ج ٤	ص ٣٨٥-٣٩٠
ابن عربي	ج ٢	ص ٣٣٥	الألوسي	ج ٢٣	ص ٦٧
البيضاوي	ج ٥	ص ٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٠٢٥-٥٠٢٦
الخازن	ج ٦	ص ١٨	الطباطبائي	ج ١٧	ص ١١٩-١٢٦
البغوي	ج ٤	ص ١٨	جوهري	ج ١٨	ص ٧-١٨
الماوردي	ج ٥	ص ٣٧	المرآغي	ج ٢٣	ص ٤١-٤٢
القرطبي	ج ١٥	ص ٦١-٦٣	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٩٧٩-٢٩٨٩

الطبري ج ٢٣ ص ٢٣

القول في تأويل قوله تعالى ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ والصفات صفا إن معبودكم الذي يستوجب عليكم أيها الناس العبادة، وإخلاص الطاعة منكم له لواحد لا ثاني ولا شريك. يقول فله فأخلصوا العبادة وإياه فأفردوا بالطاعة، ولا تجعلوا له في عبادتكم إياه شريكاً.

الرازي ج ٢٦ ص ١١٨

... ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ ذكر عقيدة ما هو كالدليل اليقيني في كون الإله واحداً، وهو قوله تعالى ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ [الصافات: ٥]، وذلك لأنه تعالى بين في قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. إن انتظام أحوال السموات والأرض يدل على أن الإله واحد، فههنا لما قال ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ أردفه بقوله ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا رَبُّ الْمَشْرِقِ﴾ كأنه قيل قد بينا أن النظر في انتظام هذا العالم يدل على كون الإله واحداً فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد. (الوجه الثالث) في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة، فكانه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة، والله أعلم.

الطبرسي ج ٢٣ ص ٤٥-٤٩

﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ وهذه أقسام أقسم الله تعالى بها أنه واحد ليس له شريك، ثم اختلف في مثل هذه الأقسام فقل إنها أقسام بالله تعالى على تقدير ورب الصفات، ورب الزاجرات، ورب التين والزيتون لأن في القسم تعظيماً للمقسم به، ولأنه يجب على العباد أن لا يقسموا إلا بالله

تعالى إلا أنه حذف لأن حجج العقول دالة على المحذوف عن الجبائي والقاضي، وقيل بل أقسم الله سبحانه بهذه الأشياء وإنما جاز ذلك لأنه ينبئ عن تعظيمها بما فيها من الدلالة على توحيده وصفاته العلي، فله سبحانه أن يقسم بما شاء من خلقه، وليس لخلق أن يقسموا إلا به . . .

أبو حيان الأندلسي ج ٧ ص ٣٥١ - ٣٥٣

هذه السورة مكية، ومناسبة أولها لآخر يس، أنه تعالى لما ذكر المعاد، وقدرته على إحياء الموتى، وأنه هو منشئهم، وإذا تعلقت إرادته بشيء كان ذكر تعالى وحدانيته إذ لا يتم ما تعلقت به الإرادة وجوداً وعدماً إلا بكون المريد واحداً. وتقدم الكلام على ذلك في قوله ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَهِةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

الألوسي ج ١٢ ص ٦٧

﴿إِنَّ إِلَهَهُمْ لَوَاحِدٌ﴾ جواب للقسم، وقد جرت عادتهم على تأكيد ما يهتم به بتقديم القسم، ولذا قدم ههنا فلا يقال: إنه كلام مع منكر مكذب فلا فائدة في القسم، وما قيل من أن وحدة الصانع قد ثبتت بالدليل النقلي بعد ثبوتها بالعقل ففائدته ظاهرة هنا غير تام لأن الكلام مع من لا يعترف بالتوحد.

﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾

٣٠

(سورة الصافات، رقم ٣٧، الآية ١٥٢)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٣	ص ٦٨	أبو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٣٧٤ - ٣٧٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٣٥٤	ابن كثير	ج ٤	ص ٢٢ - ٢٣
الرازي	ج ٢٦	ص ١٦٧	الجلالان		ص ٥٩٦
الطبرسي	ج ٢٣	ص ٨٦ - ٨٨	الشوكاني	ج ٤	ص ٤١٢ - ٤١٧
ابن عربي	ج ٢	ص ٣٤٢ - ٢٤٦	الآلوسي	ج ٢٣	ص ١٥٠
البيضاوي	ج ٥	ص ١٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٠٦٤
الخان	ج ٦	ص ٣٨	الطباطبائي	ج ١٧	ص ١٧٠ - ١٧٩
البغوي	ج ٤	ص ٣٤	جوهري	ج ١٨	ص ٢٣ - ٦٧
الماوردي	ج ٥	ص ٧٠	المراغي	ج ٢٣	ص ٨٤ - ٨٨
القرطبي	ج ١٥	ص ١٣٣	سيد قطب	ج ٥	ص ٢٩٩٩ - ٣٠٠٣

الطبري ج ٢٣ ص ٦٨

... ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ يعني تعالى ذكره: أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين الملائكة بنات الله خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إنثاء، فشهدوا هذه الشهادة، ووصفوا الملائكة بأنها إناث. وقوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ [الصافات: ١٥١] يقول تعالى ذكره: إلا إن هؤلاء المشركين من كذبهم ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في قيلهم ذلك. كما حدثنا بشر... عن قتادة ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ يقول: من كذبهم: ﴿لَيَقُولُنَّ وَلَدَ اللَّهُ﴾. حدثنا محمد ابن الحسين... عن السدي في قوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُنَّ﴾: قال من كذبهم.

... ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ يعني تعالى ذكره: أم شهد هؤلاء القائلون من المشركين الملائكة بنات الله خلقي الملائكة وأنا أخلقهم إنثاء، فشهدوا هذه الشهادة، ووصفوا الملائكة بأنها إناث. وقوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ [الصافات: ١٥١] يقول تعالى ذكره: إلا إن هؤلاء المشركين من كذبهم ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ في قيلهم ذلك. كما حدثنا بشر... عن قتادة ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ﴾ يقول: من كذبهم: ﴿لَيَقُولُنَّ وَلَدَ اللَّهُ﴾. حدثنا محمد ابن الحسين... عن السدي في قوله ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُنَّ﴾: قال من كذبهم.

الرازي ج ٢٦ ص ١٦٧

أكمل الموجودات، والأكمل لا يليق به اصطفاء الأخص وهو المراد من قوله ﴿أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَشَرِ مَا لَكُنَّ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٥٣-١٥٤].

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُنَّ وَلَدَ اللَّهُ وَلِيَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾، وأما النظر فمفقود وبيانه من وجهين: الأول: أن دليل العقل يقتضي فساد هذا المذهب، لأن الله تعالى

الطبرسي ج ٢٣ ص ٨٦ - ٨٨

لقراءة الأخرى أنه على وجه الخبر كأنه اصطفى البنات فيما يقولون، كقوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩] أي عند نفسك وفيما كنت تقول وتذهب إليه، ويجوز أن يكون اصطفى البنات بدلاً من قوله ولد الله لأن ولادة البنات واتخاذهن اصطفاؤهن، فيصير اصطفى بدلاً من المثال الماضي كما كان قوله: يضاعف له العذاب بدلاً من قوله: يلحق أثاماً، ويجوز أن يكون متعلقاً بالقول على أنه أريد حرف العطف فلم يذكر، واستغنى بما في الجملة الثانية من الاتصال بالأولى عن حرف العطف

قرأ أبو جعفر، ونافع برواية اسماعيل وورش من طريق الأصفهاني لكاذبون اصطفى البنات بالوصول والابتداء، اصطفى بكسر الهمزة، والباقون اصطفى بفتح الهمزة وكذلك ورش من طريق البخاري.

قال أبو علي: الوجه الهمزة على وجه التقريع لهم بذلك والتوبيخ، ويقويه قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتِي﴾ [الزخرف: ١٦]، وقوله: ﴿أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمْ الْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، ألكم الذكر وله الأنثى فكما أن هذه المواضع كلها استفهام كذلك قوله اصطفى البنات، ووجه

حين زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى ﴿وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم هذا.

كقوله ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ [الكهف: ٢٢] ونحو ذلك... ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إَفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾

القرطبي ج ١٥ ص ١٣٣

على أن تكون أما بمعنى آلا. النحاس: وسمعت علي بن سليمان يقول: يجوز فتحها بعد آلا تشبيهاً بآما، وأما في الآية فلا يجوز إلا كسرهما؛ لأن بعدها الرفع. وتام الكلام «لَكَاذِبُونَ».

... ﴿وَلَدَ اللَّهُ وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ في قولهم إن لله ولداً، وهو الذي لا يلد ولا يولد و «إِنْ» بعد «ألا» مكسورة؛ لأنها مبتدأة. وحكى سيبويه أنها تكون بعد أما مفتوحة أو مكسورة؛ فالفتح على أن تكون أما بمعنى حقاً، والكسر

أبو حيان الأندلسي ج ٧ ص ٣٧٤ - ٣٧٧

الألف وهو من كلام الكفار حكى الله تعالى شنيع قولهم وهو أنهم ما كفاهم أن قالوا (ولد الله) حتى جعلوا ذلك الولد بنات الله، والله تعالى اختارهم على البنين. وقال الزمخشري: «بدلاً عن قولهم (ولد الله)» وقد قرأ بها حمزة والأعمش. وهذه القراءة وإن كان هذا محملها فهي ضعيفة. والذي أضعفها أن الإنكار قد اكتنف هذه الجملة من جانبيها، وذلك قوله ﴿وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ فمن جعلها للإثبات فقد أوقعها دخيلة بين سببين وليست دخيلة بين نسبيين، بل لها مناسبة ظاهرة مع قولهم (ولد الله) وأما قوله ﴿وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فهي جملة اعتراض بين مقالتين الكفر جاءت للتشديد والتأكيد في كون مقالتهم تلك هي من إفكهم ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ تقرير وتوبيخ واستفهام عن البرهان والحجة. وقرأ طلحة بن مصرف (تذكرون) بسكون الدال وضم الكاف ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ﴾ [الصفات: ١٥٦] أي: حجة نزلت عليكم من السماء وخبر بأن الملائكة بنات الله. ﴿فَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ [القصص: ٤٩] الذي أنزل عليكم بذلك كقوله ﴿أَمْ أَنزَلْنَاهُ عَلَىٰ هَذِهِ سُلْطَانًا فَهَؤُلَاءِ يَتَكَلَّمُونَ﴾ [الروم: ٣٥].

ثم أخبر عنهم ثالثاً بأعظم الكفر، وهو ادعائهم أنه تعالى قد ولد فبلغ إفكهم إلى نسبة الولد. ولما كان هذا فاحشاً قال ﴿وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ واحتمل أن تخص هذه الجملة بقولهم ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ ويكون تأكيداً لقوله ﴿مِنْ إَفْكِهِمْ﴾ واحتمل أن يعم هذا القول (فإن قلت) لم قال ﴿وَهُمْ شَاهِدُونَ﴾، فخص علمهم بالمشاهدة، (قلت): ما هو إلا استهزاء وتجهيل كقوله: ﴿أَشْهَدُوا خَلَقَهُمْ﴾ [الزخرف: ١٩] وذلك أنهم كما لم يعلموا ذلك بطريق المشاهدة لم يعلموه بخلق الله علمه في قلوبهم، ولا بأخبار صادق لا بطريق استدلال ولا نظر، ويجوز أن يكون المعنى: أنهم يقولون ذلك كالمقاتل قولاً عن ثلج صدر، وطمانينة نفس لإفراط جهلهم كأنهم قد شاهدوا خلقه. وقرأ ﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي الملائكة ولده. والولد: فعل بمعنى مفعول يقع على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث. تقول: هذه ولدي وهؤلاء ولدي. انتهى.

وقرأ الجمهور (أصطفى) بهمزة الاستفهام على طريقة الإنكار والاستبعاد. وقرأ نافع في رواية إسماعيل وابن جماز، وجماعة، وإسماعيل عن أبي جعفر وشيبة بوصل

ابن كثير ج ٤ ص ٢٢ - ٢٣

لله ولداً تعالى وتقدس، وجعلوا ذلك الولد أنثى ثم عبدوهم من دون الله تعالى وتقدس وكل منها كاف في التخليد في نار جهنم.

﴿لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي صدر منه الولد ﴿وَلَا إِلَهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ فذكر الله تعالى عنهم في الملائكة ثلاثة أقوال في غاية الكفر والكذب، فأولاً جعلوهم بنات الله فجعلوا

الآلوسي ج ١٢ ص ١٥٠

القول، وفيه تأكيد لقوله تعالى: ﴿مِنْ إِنْكَهَم﴾. وقرئ
﴿وَلَدَ اللَّهُ﴾ بالإضافة، ورفع ولد على أنه خبر مبتدأ
محذوف أي ليقولون الملائكة ولد الله، والولد فعل بمعنى
مفعول يقع على المذكر والمؤنث والواحد والجمع، ولذا
وقع هنا خبراً عن الملائكة المقدر.

وقوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَم لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾
استئناف من جهته تعالى غير داخل تحت الاستفتاء مسوق
لأبطال أصل مذهبهم الفاسد ببيان أن مبناء ليس إلا الإفك
الصريح والافتراء القبيح من غير أن يكون لهم دليل أو
شبهة ﴿وَلَا إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ فيما يتدينون به مطلقاً أو في هذا

المراغي ج ٨ ص ٨٦

ثم أكد هذا النفي بقوله:
﴿وَلَا إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ فيما يقولون، ولا أثر لهم من علم
يصدق ما يعتقدون، فمن أين جاءهم هذا؟ . . .

﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِنْكَهَم لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ أي وما
جراهم على هذا القول الهراء، والرأي الخطأ إلا اعتقادهم
الباطل أن الله ولداً، وهو افتراء قبيح وإفك صريح، لا مستند
له، ولا شبهة ترشد إلى صدقه.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾

(سورة الزمر، رقم ٣٩، الآية ٤)

مصادر تفاسير الآية

٤١٣ - ٤١٧	ج ٧	أبو حيان الأندلسي	١٢٣	ج ٢٣	الطبري
٤٤ - ٤٥	ج ٤	ابن كثير	٣٨٧	ج ٣	الزمخشري
٦٠٦		الجلالان	٢٤٢	ج ٢٦	الرازي
٤٤٨ - ٤٥١	ج ٤	الشوكاني	١٣٨ - ١٣٦	ج ٢٣	الطبرسي
٢٣٦ - ٢٣٧	ج ٢٣	الألوسي	٣٦٩ - ٣٧٠	ج ٢	ابن عربي
٥١٢٨	ج ١٤	القاسمي	٢٤	ج ٥	البيضاوي
٢٣٠ - ٢٤٥	ج ١٧	الطباطبائي	٦٧	ج ٦	الخان
١٥٠ - ١٧٦	ج ١٨	جوهري	٦١ - ٦٢	ج ٤	البغوي
١٤١ - ١٤٤	ج ٢٣	المراغي	١١٣	ج ٥	الماوردي
٣٠٣٣ - ٣٠٤٠	ج ٥	سيد قطب	٢٣٢ - ٢٣٤	ج ١٥	القرطبي

الطبري ج ٢٣ ص ١٢٣

شركهم ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ يقول: هو الذي يعبد كل شيء، ولو كان له ولد لم يكن له عبداً، يقول: فلا شيء كلها له ملك، فأنى يكون له ولد، وهو الواحد الذي لا شريك له في ملكه وسلطانه، والقهار لخلقه بقدرته، فكل شيء له متدلل، ومن سطوته خاشع.

وقوله ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ يقول تعالى ذكره: لو شاء الله اتخاذ ولد، ولا ينبغي له ذلك ﴿لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ يقول: لا اختار من خلقه ما يشاء. وقوله ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ يقول: تنزيهاً لله عن أن يكون له ولد، وعما أضاف إليه المشركون به من

الزمخشري ج ٣ ص ٣٨٧

كذابين كفارين متبالغين في الافتراء على الله وملائكته غالين في الكفر، ثم قال ﴿سُبْحَانَهُ﴾، فنزه ذاته عن أن يكون له أحد ما نسبوا إليه من الأولاد والأولياء. ودل على ذلك بما ينافيه وهو أنه واحد فلا يجوز أن يكون له صاحبة، لأنه لو كانت له صاحبة لكانت من جنسه ولا جنس له، وإذا لم يأت أن يكون صاحبة لم يأت أن يكون له ولد، وهو معنى قوله ﴿أَفَنُكُونُ لَكُمُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَكُمُ صَاحِبَةٌ﴾ [الأنعام: ١٠١] وقهار غلاب لكل شيء، ومن الأشياء آلهتهم، فهو يغلبهم فكيف يكونون له أولياء وشركاء؟

يعني لو أراد اتخاذ الولد لامتنع، ولم يصح لكونه محالاً ولم يأت إلا أن يصطفي من خلقه بعضه، ويختصهم ويقربهم كما يختص الرجل ولده ويقربه، وقد فعل ذلك الملائكة فافتتنتم به، وغرکم اختصاصه إياهم، فزعمتم أنهم أولاده جهلاً منكم به وبحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام والأعراض كأنه قال: لو أراد اتخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه وهم الملائكة، إلا أنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتخاذهم أولاداً، ثم تماديتم في جهلكم وسفهكم فجعلتموهم بنات، فكنتم

الرازي ج ٢٦ ص ٢٤٢

اتخذ ولداً لما رضي إلا بأكمل الأولاد، وهو الإبن فكيف نسبتم إليه البنت. (الثاني): إنه سبحانه واحد حقيقي،

... المراد من هذا الكلام إقامة الدلائل القاهرة على كونه منزهاً عن الولد، وبيان من وجوه: (الأول): إنه لو

الماهية كان ذلك التعيين معلوماً بسبب منفصل، فلا يكون إلهياً واجب الوجود لذاته. فثبت أن كونه إلهياً واجب الوجود لذاته يوجب كونه واحداً في حقيقته، وكونه واحداً في حقيقته يمنع من ثبوت الولد له، فثبت أن كونه واحداً يمنع من ثبوت الولد. (الثالث): إن الولد لا يحصل إلا من الزوج والزوجة، والزوجان لا بد وأن يكونا من جنس واحد، فلو كان له ولد لما كان واحداً بل كانت زوجته من جنسه، وأما كونه قهاراً يمنع من ثبوت الولد له، فلأن المحتاج إلى الولد هو الذي يموت، فيحتاج إلى ولد يقوم مقامه، فالمحتاج إلى الولد هو الذي يكون مقهوراً بالموت، أما الذي يكون قاهراً ولا يقهره غيره كان الولد في حقه محالاً، فثبت أن قوله ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ ألفاظ مشتملة على دلائل قاطعة في نفي الولد عن الله تعالى.

والواحد الحقيقي يمتنع أن يكون له ولد، أما أنه واحد حقيقي فلا أنه لو كان مركباً لاحتاج إلى كل واحد من أجزائه وجزؤه غيره، فكان يحتاج إلى غيره، والمحتاج إلى الغير ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يكون واجب الوجود لذاته، وأما أن الواحد لا يكون له ولد فلو جوه: (الأول): إن الولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه، ثم يحصل له صورة مساوية لصورة الوالد. وهذا إنما يعقل في الشيء الذي ينفصل منه جزء، والفرد المطلق لا يقال ذلك فيه. (الثاني): شرط الولد أن يكون مماثلاً في تمام الماهية للوالد فتكون حقيقة ذلك الشيء حقيقة نوعية محمولة على شخصين، وذلك محال لأن تعيين كل واحد منهما إن كان من لوازم تلك الماهية لزم أن لا يحصل من تلك الماهية إلا الشخص الواحد، وإن لم يكن ذلك التعيين من لوازم تلك

ابن عربي ج ٢ ص ٣٦٩ - ٣٧٠

لازمة لذاته وقهره بوحدايته لغيره، فلا تماثل في الوجود فكيف في الوجود؟

... وامتناعه عن قبوله ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي، نزهه عن المماثلة والمجانسة، واصطفاء الولد لكون الوحدة

الخازن ج ٦ ص ٦٧

بطهارة قلبه. ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ﴾، أي في ملكه الذي لا شريك له، ولا ولد. ﴿الْقَهَّارُ﴾ أي الغالب الكامل القدرة.

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى﴾ أي لاختار ﴿وَمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، يعني الملائكة ثم نزه نفسه فقال تعالى: ﴿سُبْحَنَكَ﴾ أي تنزيهاً له عن ذلك وعما لا يليق

ابن كثير ج ٤ ص ٢٤ - ٢٥

أَوَّلُ الْعَلَمِينَ ﴿[الزخرف: ٨١] كل هذا من باب الشرط، ويجوز تعليق الشرط على المستحيل لمقصد المتكلم، وقوله تعالى ﴿سُبْحَنَكَ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ أي تعالى وتنزه وتقدس عن أن يكون له ولد فإنه الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كل شيء عبد لديه فقير إليه، وهو الغني عما سواه الذي قد قهر الأشياء، فدانت له وذلت وخضعت تبارك وتعالى عما يقول الظالمون والجاحدون ﴿عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

ثم بين تعالى أنه لا ولد له كما يزعمه جهلة المشركين في الملائكة والمعادنون من اليهود والنصارى في العزير وعيسى فقال تبارك وتعالى ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾، أي لكان الأمر على خلاف ما يزعمون، وهذا شرط لا يلزم وقوعه ولا جوازه، بل هو محال، وإنما قصد تجهيلهم فيما ادعوه وزعموه كما قال عز وجل ﴿لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَعَلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧] ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا

الآلوسي ج ١٢ ص ٢٣٦ - ٢٣٧

يتخذ ولدأ لجعل المخلوق ولدأ إذ لا موجود سواه إلا، وهو مخلوق له تعالى، والتالي محال للمباينة التامة بين المخلوق والخالق والولدية تأبى تلك المباينة، فالمقدم مثله، ويكون قوله تعالى ﴿لَاَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْكَنُ﴾ على معنى لاتخذه ابنأ على سبيل الكناية، وما تقدم أولى لما فيه من المبالغة التي نبحت عليها. وقوله تعالى ﴿سُبْحَنَهُ﴾ تقرير لما ذكر من استحالة اتخاذ الولد في حقه تعالى، وتأكيده له ببيان تنزهه سبحانه عنه أي تنزهه الخاص به تعالى على أن سبحان مصدر من سبح إذا بعد أو أسبحه تسييحاً لائقاً به لأنه علم للتسييح، مقول على السنة العباد، أو سبحوه تسييحاً لائقاً بشأنه جل شأنه، وقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ استئناف مقرر لتنزهه عن ذلك أيضاً، فإن اتخاذ الولد يقتضي تبعضاً، وانفصال شيء من شيء، وكذا يقتضي المماثلة بين الولد والوالد والوحدة الذاتية الحقيقية التي هي في أعلى مراتب الوحدة الواجبة له تعالى بالبراهين القطعية العقلية تأبى التبعض والانفصال إباءً ظاهراً لأنهما من خواص الكم، وقد اعتبر في مفهوم الوحدة الذاتية سلبه، فتأبى الاتخاذ المذكور، وكذا تأبى المماثلة سواء فسرت بما ذهب إليه قدماء المعتزلة كالجبائي، وابنه أبي هاشم، وهي المشاركة في أخص صفات الذات كمشاركة زيد لعمر في الناطقية، أم فسرت بما ذهب إليه المحققون من الماتريدية، وهي المشاركة في جميع الصفات الذاتية كمشاركته له في الحيوانية والناطقية، أم فسرت بما نسب إلى الأشعري، وهو التساوي بين الشئيين من كل وجه، ولعل مراده نحو ما مر عن الماتريدي وإلا فمع التساوي من كل وجه ينتفي التعدد، فينتفي التماثل بناء على ما قرروا من أن الوحدة الذاتية كما تقتضي نفى الأبعاض المقدارية تقتضي نفى الكثرة العقلية، وأن التماثل يقتضي التعدد، وهو يقتضي ثبوت الأجزاء المذكورة كذا قيل، وفيه بحث طويل وكلام غير قليل، وسنذكر بعضاً منه إن شاء الله تعالى في تفسير سورة الإخلاص، فالأولى أن يقتصر على منافاة الوحدة الذاتية للتبعض والانفصال

﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَأَصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَسْكَنُ﴾ استئناف مسوق لتحقيق الحق، وإبطال القول بأن الملائكة بنات الله، وعيسى ابنه تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ببيان استحالة اتخاذ الولد في حقه سبحانه على الإطلاق ليندرج فيه استحالة ما قيل اندراجاً أولياً، وحاصل المعنى لو أراد الله سبحانه اتخاذ الولد لامتنت تلك الإرادة لتعلقها بالمتنع، أعني الاتخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنة لأنها ترجح بعض الممكنات على بعض.

وأصل الكلام لو اتخذ الولد لا تمتنع لاستلزامه ما ينافي الألوهية، فعدل إلى لو أراد الاتخاذ لا تمتنع أن يريد له ليكون أبلغ وأبلغ، ثم حذف هذا الجواب، وجيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا الأول، وإنه لو كان هذا من اتخاذ الولد في شيء لجاز إتخاذ الولد عليه سبحانه وتعالى شأنه عن ذلك، فقد تحقق التلازم وحق نفى اللازم وإثبات الملزوم دون صعوبة، ويجوز أن يكون المراد لو أراد الله أن يتخذ لا تمتنع، ولم يصح لكن على إرادة نفى الصحة على كل تقدير من تقديري الإرادة وعدمها من باب - لو لم يخف الله لم يعصه - فلا ينفي الثاني إذ ذاك، ولا يحتاج إلى بيان الملازمة، وإذا امتنع ذلك فالممكن الاصطفاء، وقد اصطفى سبحانه من مخلوقاته من شاء كالملائكة، وعيسى، وذهب عليكم أن الاصطفاء ليس باتخاذ، والجواب على هذا الوجه أيضاً محذوف أقيم مقامه ما يفيد زيادة مبالغة، وإنما لم يجعل لاصطفى هو الجواب عليه لصيرورة المعنى حيث لو أراد اتخاذ الولد الاصطفاء، ولو لم يرد لاصطفى من طريق الأولى، وحيث لو يكون إثبات الاصطفاء هو المطلوب من الإيراد كما أن التمدح بنفي العصيان في مثال الباب هو المطلوب وليس الكلام فيه، وعلى الوجهين هو من أسلوب.

ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم

بهن فلول من قراع الكتائب

وجوز أن يكون المعنى في الآية لو أراد الله تعالى أن

الولد يقتضي انفصال شيء عنه تعالى، وذلك يقتضي أن يكون متأثراً مقهوراً لا مؤثراً قهاراً تعالى عن ذلك علواً كبيراً، فحيث كان جل وعلا قهاراً كما هو مقتضى الألوهية استحال أن يكون له عز وجل ولد، وقيل: إن القهارية منافية للزوال لأن القهار لو قبله كان مقهوراً إذ المزيل قاهر له، ولذا قيل سبحانه من قهر العباد بالموت.

والولد من أعظم فوائده عندهم قيامه مقام الأب بعد زواله، فإذا لم يكن الزوال لم يكن حاجة إلى الولد، وهذا مع كونه إلزامياً لا يخلو عن بحث كما لا يخفى.

والزمخشري جعل قوله تعالى ﴿سُبْحَنَهُ هُوَ اللَّهُ﴾ إلخ، متصلاً بقوله عز وجل ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾ [الزمر: ٣] إلخ، على أنه مقرر نفى أن يكون له تعالى ولي، ونفى أن يكون له ولد، ولعل بيان ذلك لا يخفى فتدبر.

لاستلزامهما التركب الخارجي، والحكماء والمتكلمون مجمعون على استحالة في حقه تعالى، ودليلها أظهر من أن يذكر، وكذا وصف القهارية يأبى اتخاذ الولد، وقرر ذلك على أوجه، فقليل وجه إبانها ذلك أن القهارية تقتضي الغنى الذاتي الذي هو أعلى مراتب الغنى، وهو يقتضي التجرد عن المادة وتولد الولد عن الشيء يقتضيها، وقيل إن القهارية تقتضي كمال الغنى، وهو يقتضي كمال التجرد الذي هو البساطة من كل الوجوه، فلا يكون هناك جنس وفصل ومادة وصورة وإعراض وأبعض إلى غير ذلك مما يخل بالبساطة الكاملة الحقيقية، واتخاذ الولد لما فيه من الانفصال والمثلية مخل بتلك البساطة، فيخل بالغنى فيخل بالقهارية، وقد أشار سبحانه إلى أن الغنى ينافي أن يكون له سبحانه ولد بقوله تعالى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨]. وقيل: إن اتخاذ

﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾

(سورة الشورى، رقم ٤٢، الآية ١٣)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ١٠ - ١١	أبو حيان الأندلسي	ج ٧	ص ٥١١ - ٥١٤
الزمخشري	ج ٢	ص ٤٦٣ - ٤٦٤	ابن كثير	ج ٤	ص ١٠٨ - ١٠٩
الرازي	ج ٢٧	ص ١٥٤ - ١٥٧	الجلالان	ج ٤	ص ٦٣٩ - ٦٤٠
الطبرسي	ج ٢٥	ص ٤٠ - ٤٤	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٢٩ - ٥٣٢
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٢٧ - ٤٢٩	الألوسي	ج ٢٥	ص ٢٠ - ٢٢
البيضاوي	ج ٥	ص ٥٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٥٢٣٠ - ٥٢٣٢
الخازن	ج ٦	ص ١١٨ - ١١٩	الطباطبائي	ج ١٨	ص ٢٧ - ٣٦
البغوي	ج ٤	ص ١٠٨ - ١٠٩	جوهرى	ج ٢٠	ص ٣ - ١٤٧
الماوردي	ج ٥	ص ١٩٦ - ١٩٧	المراغي	ج ٢٥	ص ٢٣ - ٢٧
القرطبي	ج ١٦	ص ٩ - ١٢	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٣٥ - ٣١٥٥

الطبري ج ٢٥ ص ١٠ - ١١

فيه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ قال: ما أوصاك به وأنبياءه، كلهم دين واحد. حدثنا محمد... عن السدي في قوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ قال، هو الدين كله. حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ بعث نوح حين بعث بالشرية بتحليل الحلال وتحريم الحرام، ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ﴾. حدثنا محمد قال... عن قتادة ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ قال: الحلال والحرام. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس قوله ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ إلى آخر الآية، قال حسبك ما قيل لك. وعنى بقوله ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ أن تعملوا به على ما شرع لكم وفرض، كما قد بينا فيما مضى قبل في قوله ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ [البقرة: ٤٣]. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد... عن السدي في قوله: ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ قال عملوا به، وقوله ﴿ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ يقول: ولا تختلفوا في الدين الذي أمرتم بالقيام به، كما اختلف الأحزاب من قبلكم.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿ شَرَعَ لَكُمْ ﴾ ربكم أيها الناس ﴿ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ أن يعمل به ﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ﴾ يقول لنبيه محمد ﷺ: وشرع لكم من الدين الذي أوحينا إليك يا محمد، فأمرناك به ﴿ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ ﴾ يقول: ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ ﴾، أن أقيموا الدين، فإن إذ كان ذلك معنى الكلام، في موضع نصب على الترجمة بها عن «ما» التي في قوله ﴿ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ ويجوز أن تكون في موضع خفض رداً على الهاء التي في قوله ﴿ بِهِ ﴾، وتفسيراً عنها، فيكون معنى الكلام حيثئذ ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ﴾ ﴿ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾. وجائز أن تكون في موضع رفع على الاستئناف، فيكون معنى الكلام حيثئذ: شرع لكم من الدين ما وصى به وهو أن أقيموا الدين. وإذا كان معنى الكلام ما وصفت، فمعلوم أن الذي أوصى به جميع هؤلاء الأنبياء وصية واحدة، وهي إقامة الدين الحق ولا تتفرقوا

أن يمضيها وينصرها ويفلجها ويظهرها على من نأواها. وقوله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ يقول: الله يصطفى إليه من يشاء من خلقه ويختار لنفسه وولايته من أحب. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد قوله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ يقول: ويوفق للعمل بطاعته، واتباع ما بعث به نبيه عليه السلام من الحق من أقبل إلى طاعته، وراجع التوبة من معاصيه. كما حدثنا محمد... عن السدي ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ من يقبل إلى طاعة الله.

الرازي ج ٢٧ ص ١٥٤ - ١٥٧

تطابقت الأنبياء على صحته، وأقول يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة قال تعالى ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]، فيجب أن يكون المراد منه الأمور التي لا تختلف باختلاف الشرائع، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان يوجب الإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة والسعي في مكارم الأخلاق والاحتراز عن رذائل الأحوال، ويجوز عندي أن يكون المراد من قوله ﴿وَلَا تَنفَرُوا﴾ أي لا تنفروا بالآلهة الكثيرة، كما قال يوسف عليه السلام ﴿ءَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف: ٣٩] وقال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥] واحتج بعضهم بقوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾ على أن النبي ﷺ في أول الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح عليه السلام، والجواب ما ذكرناه أنه عطف عليه سائر الأنبياء وذلك يدل على أن المراد هو الأخذ بالشريعة المتفق عليها بين الكل، ومحل ﴿أَنِفِيمُوا الدِّينَ﴾ إما نصب بدل من مفعول ﴿شَرَعَ﴾ والمعطوفين عليه، وإما رفع على الاستئناف كأنه قيل ماذا المشروع؟ فقيل هو إقامة الدين ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ عظم عليهم وشق عليهم ﴿مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من إقامة دين الله تعالى

كما حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿وَلَا تَنفَرُوا فِيهِ﴾ تعلموا أن الفرقة هلكة، وأن الجماعة ثقة. وقوله ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: كبر على المشركين بالله من قومك يا محمد ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لله، وإفراده بالالوهية والبراءة مما سواه من الآلهة والأنداد. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدَعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ قال أنكرها المشركون، وكبر عليهم شهادة أن لا إله إلا الله، فصادمها إبليس وجنوده، فأبى الله تبارك وتعالى إلا

اعلم أنه تعالى لما عظم وحيه إلى محمد ﷺ بقوله ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [الشورى: ٣] ذكر في هذه الآية تفصيل ذلك فقال ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾، والمعنى شرع الله لكم يا أصحاب محمد من الدين ما وصى به نوحاً ومحمداً وإبراهيم وموسى وعيسى، هذا هو المقصود من لفظ الآية، وإنما خص هؤلاء الأنبياء الخمسة بالذكر لأنهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة، إلا أنه بقي في لفظ الآية إشكالات: (أحدها): إنه قال في أول الآية ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾، وفي آخرها ﴿وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾ وفي الوسط ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فما الفائدة في هذا التفاوت؟ (وثانيها): إنه ذكر نوحاً عليه السلام على سبيل الغيبة فقال ﴿مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا﴾، والقسمين الباقيين على سبيل التكلم فقال ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ﴾. (وثالثها): إنه يصير تقدير الآية: شرع الله لكم من الدين الذي أوحينا إليك فقوله ﴿شَرَعَ لَكُمْ﴾ خطاب الغيبة وقوله ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ خطاب الحضور، فهذا يقتضي الجمع بين خطاب الغيبة وخطاب الحضور في الكلام الواحد بالاعتبار الواحد، وهو مشكل، فهذه المضايق يجب البحث عنها والقوم ما داروا حولها، وبالجمله فالمقصود من الآية أنه يقال شرع لكم من الدين ديناً

معيناً للآخر في ذلك المقصود المعين، وكثرة الأعوان توجب حصول المقصود، أما إذا تخالفت تنازعت وتجادلت فضعفت فلا يحصل المقصود. (الثالث): إن حصول التنازع ضد مصلحة العالم لأن ذلك يفضي إلى الهرج والمرج والقتل والنهب، فلهذا السبب أمر الله تعالى في هذه الآية بإقامة الدين على وجه لا يفضي إلى التفرق، وقال في آية أخرى ﴿وَلَا تَنَزَعُوا فَنَفْسُكُمُ الْفَارِغَةُ﴾ [الأنفال: ٤٦].

ثم قال تعالى ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ وفيه وجهان: (الأول): إنه تعالى لما أرشد أمة محمد ﷺ إلى التمسك بالدين المتفق عليه بين أنه تعالى إنما أرشدهم إلى هذا الخير، لأنه اجتباهم واصطفاهم وخصهم بمزيد الرحمة والكرامة. (الثاني): إنه إنما كبر عليهم هذا الدعاء من الرسل لما فيه من الانقياد لهم تكبراً وأنفة، فبين تعالى أنه يخص من يشاء بالرسالة، ويلزم الانقياد لهم، ولا يعتبر الحسب والنسب والغنى، بل الكل سواء في أنه يلزمهم اتباع الرسل الذين اجتباهم الله تعالى، واشتقاق لفظ الاجتباء يدل على الضم والجمع، فمنه جبي الخراج واجتبا، وجبي الماء في الحوض فقوله ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ﴾ أي يضمه إليه ويقربه منه تقريب الإكرام والرحمة، وقوله ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ كقوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحِمُ مَنْ يَشَاءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ثم قال ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾، وهو كما روى في الخبر من «تقرب مني شبراً تقربت منه ذراعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة»، أي من أقبل إلي بطاعته أقبلت إليه بهدايتي وإرشادي بأن أشرح له صدره وأسهل أمره.

ابن عربي ج ٢ ص ٤٢٨ - ٤٢٩

المتعلق بما لا يتغير من العلوم، والأعمال، والشرعة هي المتعلقة بما يتغير من القواعد، والأوضاع.

﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ المحجوبين عن الحق بالغير ﴿مَا لَدَعُوهُمْ إِلَيْنَا﴾ من التوحيد، لكونهم أهل المقت، ومظاهر الغضب، والقهر، وليسوا من المحبوبين الذين اجتباهم الله بمحض عنايته.

على سبيل الاتفاق والإجماع، بدليل أن الكفار قالوا ﴿اجْعَلْ آلَ اللَّهِ إِلَهُاً وَاجِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ مُجَابٌ﴾ [ص: ٥] وههنا مسائل:

المسألة الأولى: احتج نفاة القياس بهذه الآية قالوا إنه تعالى أخبر أن أكابر الأنبياء أطبقوا على أنه يجب إقامة الدين بحيث لا يفضي إلى الاختلاف والتنازع، والله تعالى ذكر في معرض المنة على عباده أنه أرشدهم إلى الدين الخالي عن التفرق والمخالفة ومعلوم أن فتح باب القياس يفضي إلى أعظم أنواع التفرق والمنازعة، فإن الحس شاهد بأن هؤلاء الذين بنوا دينهم على الأخذ بالقياس تفرقوا تفرقاً لا رجاء في حصول الاتفاق بينهم إلى آخر القيامة، فوجب أن يكون ذلك محرماً ممنوعاً عنه.

المسألة الثانية: هذه الآية تدل على أن هذه الشرائع قسمين: منها ما يمتنع دخول النسخ والتغيير فيه، بل يكون واجب البقاء في جميع الشرائع والأديان، كالقول بحسن الصدق والعدل والإحسان، والقول بقبح الكذب والظلم والإيذاء، ومنها ما يختلف باختلاف الشرائع والأديان، ودلت هذه الآية على أن سعى الشرع في تقرير النوع الأول أقوى من سعيه في تقرير النوع الثاني، لأن المواظبة على القسم الأول مهمة في اكتساب الأحوال المفيدة لحصول السعادة في الدار الآخرة.

المسألة الثالثة: قوله تعالى ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ مشعر بأن حصول الموافقة أمر مطلوب في الشرع والعقل، وبيان منفعتهم من وجوه: (الأول): إن للنفس تأثيرات، وإذا تطابقت النفوس وتوافقت على واحد قوي التأثير. (الثاني): إنها إذا توافقت صار كل واحد منها

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ﴾ المطلق الذي وصى جميع الأنبياء بإقامته، واجتماعهم عليه، وعدم تفرقهم فيه، وهو أصل الدين، أي، التوحيد والعدل، وعلم المعاد المعبر عنه بالإيمان بالله واليوم الآخر، دون فروع الشرائع التي اختلفوا فيها بحسب المصالح، كأوضاع الطاعات، والعبادات، والمعاملات، كما قال تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨] فالدين القيم هو

الآلوسي ج ١٣ ص ٢٠ - ٢٢

عليه الصلاة والسلام بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه ﷺ ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ﴾ أي دين الإسلام الذي هو توحيد الله تعالى وطاعته، والإيمان بكتبه ورسله، ويوم الجزاء، وسائر ما يكون العبد به مؤمناً، والمراد بإقامته تعديل أركانه، وحفظه من أن يقع فيه زيغ، والمواظبة عليه، و (أن) مصدرية وتقدم الكلام في وصلها بالأمر والنهي، أو مخففة من الثقيلة لما في (شرع) من معنى العلم، والمصدر إما منصوب على أنه بدل من مفعول (شرع)، والمعطوفين عليه، أو مرفوع على أنه خبر مبتدأ محذوف، أو مبتدأ خبره محذوف، والجملة جواب عن سؤال نشأ من إيهام المشروع كأنه قيل: وما ذاك؟ فقيل: هو أن أقيموا الدين، وقيل: هو مجرور على أنه بدل من ضمير (به)، ولا يلزمه بقاء الموصول بلا عائد لأن المبدل منه ليس في نية الطرح حقيقة، نعم قال شيخ الإسلام: إنه ليس بذلك لما أنه مع إفضائه إلى خروجه عن حيز الإيحاء إلى النبي ﷺ مستلزم لكون الخطاب في النهي الآتي عن التفرق للأنبياء المذكورين عليهم السلام، وتوجيه النهي إلى أمهم تمحل ظاهر مع أن الأظهر أنه متوجه إلى أمته ﷺ، وأنهم المتفردون، ثم بين ما استظهره، وسنشير إليه إن شاء الله تعالى.

وجوز كونه بدلاً من (الدين)، ويجوز كون (أن) مفسرة فقد تقدمها ما يتضمن معنى القول دون حروفه، والخطاب في (أقيموا) وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ على ما اختاره غير واحد من الآجلة شامل للنبي ﷺ وأتباعه، وللأنبياء والأمم قبلهم، وضمير (فيه) للدين، أي ولا تفرقوا في الدين الذي هو عبارة عما تقدم من الأصول بأن يأتي به بعض، ولا يأتي بعض، ويأتي بعض ببعض منه دون بعض، وهو مراد مقاتل، أي لا تختلفوا فيه، ولا يشمل هذا النهي عن الاختلاف في الفروع، فإنها ليست من الأصول المرادة هنا، ولم يتحد بها النبيون كما يؤذن بذلك قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٥] وبعضهم أدخل بعض الفروع في أصول الدين المرادة هنا من الدين.

﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾، وإيدان بأن ما شرع سبحانه لهم صادر عن كمال العلم والحكمة كما أن بيان نسبته إلى المذكورين عليهم الصلاة والسلام تنبيه على كونه ديناً قديماً أجمع عليه الرسل، والخطاب لأئمة عليه الصلاة والسلام، أي شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً ومن بعده من أرباب الشرائع، وأولى العزم من مشاهير الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وأمرهم به أمراً مؤكداً، وتخصيص المذكورين بالذكر لما أشير إليه من علو شأنهم وعظم شهرتهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إلى الاتباع لاتفاق كل على نبوة بعضهم، واختصاص اليهود بموسى عليه السلام والنصارى بوعيسى عليه السلام، وإلا فما من نبي إلا وهو مأمور بما أمروا به من إقامة دين الإسلام، وهو التوحيد، وما لا يختلف باختلاف الأمم وتبدل الإعصار من أصول الشرائع والأحكام، كما ينبىء عنه التوصية فإنها معربة عن تأكيد الأمر والاعتناء بشأن الأمور به، والمراد بإيحاؤه إليه ﷺ، إما ما ذكر في صدر السورة الكريمة، وفي قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الشورى: ٧] الآية وإما ما يعمهما وغيرهما مما وقع في سائر المواقع التي من جملتها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠] وغير ذلك، وإيثار الإيحاء على ما قبله وما بعده من التوصية لمراعاة ما وقع في الآيات المذكورة، ولما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة، والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال الاعتناء بإيحاؤه، وفي ذلك إشعار بأن شريعته ﷺ هي الشريعة المعتنى بها غاية الاعتناء ولذا عبر فيها بالتي هي أصل الموصولات، وذلك هو السر في تقديم الذي أوحى إليه عليه الصلاة والسلام على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً، وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً، وقد قيل إنه عليه الصلاة والسلام أول الرسل، وتوجيه الخطاب إليه

وأعظم ما شق عليهم كما تنبىء بذلك الآيات، أو ما تدعوهم إليه من إقامة الدين، وعدم التفرق فيه ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ تسلياً له ﷺ بأن منهم من يجيب، و﴿يَجْتَبِي﴾ من الاجتباء بمعنى الاصطفاء، والضمير في (إليه) لله تعالى كما ذكر محي السنة وغيره، وكذا الضمير في قوله تعالى ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾، أي يصطفي إليه سبحانه من يشاء اصطفاه، ويخصه سبحانه بفيض إلهي يتحصل له منه أنواع النعم، ويهدي إليه عز وجل بالإرشاد والتوفيق من يقبل إليه تعالى شأنه، وعدى الاجتباء يالى لما فيه من الجمع على ما يفهم من كلام الراغب، وجعله جمع من الجبابة بمعنى الجمع يقال: جببت الماء في الحوض جمعته فيه، فمنهم من اختار ضمير (إليه) في الموضعين - لما - لما فيه من اتساق الضمائر، أي يجتاب ويجمع من يشاء اجتلابه وجمعه إلى ما تدعوهم إليه، ومنهم من اختار جعله للدين لمناسبة معنوية هي اتحاد المتفرق فيه، والمجتمع عليه، والزمخشري اختار كونه من الجبابة بمعنى الجمع وعود الضمير على الدين، وما ذكره محي السنة وغيره - قال في الكشف - أظهر وأملأ بالفائدة، أما الثاني فللدلالة على أن أهل الاجتباء غير أهل الاهتداء، وكلتا الطائفتين هم أهل الدين والتوحيد الذين لم يتفرقوا فيه، وعلى مختار طائفة واحدة.

وأما الأول فلأن الاجتباء بمعنى الاصطفاء أكثر استعمالاً، ولأنه يدل على أن أهل الدين هم صفوة الله تعالى اجتباهم إليه، واصطفاهم لنفسه سبحانه، وأما الذي آثره الزمخشري فكلام ظاهري بناء على أن الكلام في عدم التفرق في الدين، فناسب الجمع والانهاء إليه، وقيل: ﴿مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على معنى ما تدعوهم إلى الإيمان به، والمراد به الرسالة أي ثقلت عليهم رسالتك وعظم لديهم تخصيصنا إياك بالرسالة والوحي دونهم وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ رد عليهم على نحو ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ٢٤] وما قدمنا أظهر.

قال مجاهد: لم يبعث نبي إلا أمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والإقرار بالله تعالى وطاعته سبحانه، وذلك إقامة الدين، وقال الحافظ أبو بكر بن العربي: لم يكن مع آدم عليه السلام إلا بنوه، ولم يفرض له الفرائض، ولا شرعت له المحارم، وإنما كان منبهاً على بعض الأمور مقتصرأ على بعض ضروريات المعاش، واستمر الأمر إلى نوح عليه السلام، فبعثه الله تعالى بتحريم الأمهات والبنات، ووظف عليه الواجبات، وأوضح له الأدب في الديانات ولم يزل ذلك يتأكد بالرسول، ويتناصر بالأنبياء واحداً بعد واحد، وشريعة إثر شريعة حتى ختمه سبحانه بخير الممل على لسان أكرم الرسل، فمعنى الآية شرعنا لكم ما شرعنا للأنبياء ديناً واحداً في الأصول، وهي التوحيد، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والتقرب بصلاح الأعمال، والصدق، والوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وتحريم الكبر، والزنا، والإيذاء للخلق، والاعتداء على الحيوان، واقتحام الدناءات وما يعود بحرم المروءات، فهذا كله مشروع ديناً واحداً، وملة متحدة، لم يختلف على السنة الأنبياء، وإن اختلفت أعدادهم، ومعنى ﴿أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ اجعلوه قائماً، أي دائماً مستمراً من غير خلاف فيه، ولا اضطراب. انتهى. ولعله أراد بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج مطلقاً لا ما نعرفه في شرعنا منها، فإن الصلوات الخمس، والزكاة المخصوصة، وصيام شهر رمضان من خواص هذه الأمة على الصحيح، والظاهر أن حج البيت لم يشرع لأمة موسى، وأمة عيسى عليهما السلام، ولا لأكثر الأمم قبلهما على أن الآية مكية، ولم تشرع الزكاة المعروفة، وصيام رمضان إلا في المدينة، وبالجمله لا شك في اختلاف الأديان في الفروع، نعم لا يبعد اتفاقها فيما هو من مكارم الأخلاق، واجتناب الرذائل ﴿كَبُرَ﴾ أي عظم وشق ﴿عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ على سبيل الاستمرار التجديدي من التوحيد، ورفض عبادة الأصنام، ويشعر بإرادته التعبير بالمشركين، وهو أصل الأصول،

﴿ وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ . وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ . إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٥٧-٥٩).

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٥	ص ٥١-٥٣	أبو حيان الاندلسي	ج ٨	ص ٢٤-٢٧
الزمخشري	ج ٣	ص ٤٩٤	ابن كثير	ج ٤	ص ١٣٠-١٣٢
الرازي	ج ٢٧	ص ٢٢٠-٢٢٢	الجلالان		ص ٦٥٣
الطبرسي	ج ٢٥	ص ٩١-٩٤	الشوكاني	ج ٤	ص ٥٦٠-٥٦٥
ابن عربي	ج ٢	ص ٤٤٧-٤٤٩	الآلوسي	ج ٢٥	ص ٨٥
البیضاوي	ج ٥	ص ٦٢	القاسمي	ج ١٤	ص ٣٤٦-٣٤٧
الخانزاد	ج ٦	ص ١٣٨-١٣٩	الطباطبائي	ج ١٨	ص ١١٢-١١٩
البغوي	ج ٤	ص ١٢٨-١٢٩	جوهری	ج ٢٠	ص ١٤٩-٢٦١
الماوردي	ج ٥	ص ٢٣٣-٢٣٤	المراغي	ج ٢٥	ص ١٠١-١٠٦
القرطبي	ج ١٦	ص ١٠٢-١٠٥	سيد قطب	ج ٥	ص ٣١٩٥-٣٢٠٤

الطبري ج ٢٥ ص ٥١-٥٣

أَللَّهُ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ ﴿٩٨﴾ [الأنبياء: ٩٨] قيل المشركين عند نزولها: قد رضينا بأن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة، لأن كل هؤلاء مما يعبد من دون الله، قال الله عز وجل ﴿ وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ وَقَالُوا أَلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ﴿٩٩﴾ ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿ وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال: يعني قريشاً لما قيل لهم ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرَدُّونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨] فقالت له قريش: فما ابن مريم قال: ذاك عبد الله ورسوله، فقالوا: والله ما يريد هذا إلا أن نتخذه رباً كما اتخذت النصارى عيسى ابن مريم رباً، فقال الله عز وجل ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ فقراءته عامة قراء المدينة، وجماعة من قراء الكوفة «يَصِدُّونَ» بضم الصاد وقرأ ذلك بعض قراء الكوفة والبصرة ﴿ يَصِدُّونَ ﴾ بكسر الصاد. واختلف أهل العلم بكلام العرب في فرق ما بين ذلك إذا قرئ بضم الصاد، وإذا قرئ بكسرها، فقال بعض نحويي البصرة، ووافقه

وقوله ﴿ وَلَمَّا ضَرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما شبه الله عيسى في إحدائه وإنشائه إياه من غير فعل بآدم؛ فمثله به بأنه خلقه من تراب من غير فعل إذا قومك يا محمد من ذلك يضحجون ويقولون: ما يريد محمد منا إلا أن نتخذه إلهاً نعبد، كما عادت النصارى المسيح. واختلف أهل التأويل في تأويل ذلك، فقال بعضهم بنحو الذي قلنا فيه. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله عز وجل ﴿ إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴾ قال: يضحجون، قال: قالت قريش: إنما يريد محمد أن نعبد كما عبد قوم عيسى عيسى. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة قال: لما ذكر عيسى ابن مريم جزعت قريش من ذلك، وقالوا: يا محمد ما ذكرت عيسى ابن مريم؟ وقالوا: ما يريد محمد إلا أن نصنع به كما صنعت النصارى بعيسى ابن مريم، فقال الله عز وجل ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا ﴾ حدثنا بشر... عن قتادة قال: لما ذكر عيسى في القرآن قال مشركو قريش: يا محمد ما أردت إلى ذكر عيسى؟ قال: وقالوا: إنما يريد أن نجبه كما أحبت النصارى عيسى. وقال آخرون: بل عني بذلك قول الله عز وجل ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ

قال: يضجون. القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾. يقول تعالى ذكره: وقال مشركو قومك يا محمد: آلهتنا التي نعبدنا خير أم محمد فنعبد محمداً، ونترك آلهتنا. وذكر أن ذلك في قراءة أبي بن كعب ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ذكر الرواية بذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة أن في حرف أبي بن كعب ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون محمداً ﷺ. وقال آخرون: بل عنى بذلك: آلهتنا خير أم عيسى. ذكر من قال ذلك: حدثنا محمد بن الحسين... عن السدي في قوله ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ قال: خاصموه، فقالوا: يزعم أن كل من عبد من دون الله في النار، فنحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى وعزير والملائكة هؤلاء قد عبدوا من دون الله قال فأنزل الله براءة عيسى. حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ﴾ قال: عبد هؤلاء عيسى، ونحن نعبد الملائكة. وقوله ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ إلى ﴿فِي الْأَرْضِ يُخَلِّفُونَ﴾ وقوله تعالى ذكره ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ يقول تعالى ذكره: ما مثلو لك هذا المثل يا محمد، ولا قالوا لك هذا القول إلا جدلاً وخصومة يخاصمونك به ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يقول جل ثناؤه: ما بقومك يا محمد هؤلاء المشركين في محاجتهم إياك بما يحاجونك به طلب الحق ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ يلتمسون الخصومة بالباطل: وذكر عن النبي ﷺ أنه قال «ما ضل قوم عن الحق إلا أوتوا الجدل» ذكر الرواية بذلك: حدثنا ابن المثنى... عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل»، ثم قرأ ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ حدثني موسى بن عبد الرحمن الكندي وأبو كريب... عن أبي أمامة، عن رسول الله ﷺ بنحوه. حدثنا أبو كريب... عن أبي أمامة «أن رسول الله ﷺ خرج على الناس وهم يتنازعون في القرآن، فغضب غضباً شديداً، حتى كأنما صب على وجهه الخل، ثم قال ﷺ: لا تضربوا كتاب الله

عليه بعض الكوفيين: هما لغتان بمعنى واحد، مثل يشد ويشد، وينم وينم من النيمة، وقال آخر منهم، من كسر الصاد فمجازها يضجون، ومن ضمها فمجازها يعدلون. وقال بعض من كسرهما فإنه أراد يضجون، ومن ضمها فإنه أراد الصدود عن الحق. وحدثت عن الفراء قال: حدثني أبو بكر بن عياش، أن عاصماً ترك يصدون من قراءة أبي عبد الرحمن، وقرأ ﴿يَصِدُّونَ﴾ قال: قال أبو بكر حدثني عاصم... أن ابن عباس لقي ابن أخي عبيد بن عمير فقال: إن عمك لعربي، فما له يلحن في قوله: «إذا قومك منه يصدون» وإنما هي ﴿يَصِدُّونَ﴾ والصواب من القول في ذلك أنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان بمعنى واحد، ولم نجد أهل التأويل فرقوا بين معنى ذلك إذا قرئ بالضم والكسر، ولو كان مختلفاً معناه، لقد كان الاختلاف في تأويله بين أهله موجوداً وجود اختلاف القراءة فيه باختلاف اللغتين، ولكن لما لم يكن مختلف المعنى لم يختلفوا في أن تأويله: يضجون ويجزعون، فبأي القراءتين قرأ القارئ فمصيب: ذكر ما قلنا في تأويل ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس، قوله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ يقول: يضجون. حدثنا ابن حميد... عن الصعب بن عثمان قال: كان ابن عباس يقرأ ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ وكان يفسرها يقول: يضجون، حدثنا ابن بشار... عن ابن عباس ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا ابن المثنى... ابن عباس بمثله حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد، في قول الله عز وجل ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يجزعون ويضجون. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن ابن عباس أنه قرأها ﴿يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون، وقرأ علي رضي الله عنه ﴿يَصِدُّونَ﴾. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول، في قوله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ قال: يضجون. حدثنا محمد... عن السدي ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾

ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني بذلك عيسى ابن مريم، ما عدا ذلك عيسى ابن مريم، إن كان إلا عبداً أنعم الله عليه. وينحو الذي قلنا أيضاً في قوله ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ قالوا: ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أحسبه قال: آية لبني إسرائيل. حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي آية.

بعضه ببعض، فإنه ما ضل قوم قط إلا أوتوا الجدل، ثم تلا، ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾. وقوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يقول تعالى ذكره: فما عيسى إلا عبد من عبادنا أنعمنا عليه بالتوفيق، والإيمان ﴿وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ يقول: وجعلناه آية لبني إسرائيل، وحجة لنا عليهم بإرسالناه إليهم بالدعاء إلينا، وليس هو كما تقول النصارى من أنه ابن الله تعالى، تعالى الله عن ذلك. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٠-٢٢٢

النصارى يعبدونهما واليهود يعبدون عزيزاً والملائكة يعبدون، فإذا كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم فسكت النبي ﷺ وفرح القوم وضحكوا وضحوا، فأنزل الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١] ونزلت هذه الآية أيضاً والمعنى: ولما ﴿ضُرِبَ﴾ عبد الله بن الزبيري عيسى ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا﴾ وجادل رسول الله بعبادة النصارى إياه ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ قرش ﴿مِنَهُ﴾ أي من هذا المثل ﴿يَصِيدُونَ﴾ أي يرتفع لهم ضجيج وجلبة فرحاً وجدلاً وضحكاً بسبب ما رأوا من إسكات رسول الله فإنه قد جرت العادة بأن أحد الخصمين إذا انقطع أظهر الخصم الثاني الفرح والضجيج، ﴿وَقَالُوا ۖ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون أن آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنم كان أمر آلهتنا أهون. الوجه الثالث في التأويل: وهو أن النبي ﷺ لما حكى أن النصارى عبدوا المسيح وجعلوه إلهاً لأنفسهم، قال كفار مكة إن محمداً يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصارى المسيح إلهاً لأنفسهم، ثم عند هذا قالوا ﴿ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعني آلهتنا خير أم محمد، وذكروا ذلك لأجل أنهم قالوا: إن محمداً يدعوننا إلى عبادة نفسه، وآباؤنا زعموا أنه يجب عبادة هذه الأصنام، وإذا كان لا بد من أحد هذين الأمرين فعبادة هذه الأصنام أولى، لأن آباءنا وأسلافنا كانوا متطابقين عليه، وأما محمد فإنه متهم في أمرنا بعبادته فكان الاشتغال بعبادة الأصنام أولى، ثم إنه

قوله تعالى ﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مِثْلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِيدُونَ﴾ وَقَالُوا ۖ ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مِثْلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى ذكر أنواعاً كثيرة من كفياتهم في هذه السورة وأجاب عنها بالوجوه الكثيرة. فأولها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا لَكَ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] وثانيها قوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبُدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا﴾ [الزخرف: ١٩] وثالثها قوله ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ﴾ [الزخرف: ٢٠] ورابعها قوله ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١] وخامسها: هذه الآية التي نحن الآن في تفسيرها، ولفظ الآية لا يدل إلا على أنه لما ضرب ابن مريم مثلاً أخذ القوم يضجون ويرفعون أصواتهم، فأما أن ذلك المثل كيف كان، وفي أي شيء كان فاللفظ لا يدل عليه والمفسرون ذكروا فيه وجوهاً كلها محتملة. فالأول: إن الكفار لما سمعوا أن النصارى يعبدون عيسى قالوا إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خير من عيسى، وإنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يعبدون الملائكة. الثاني: روى أنه لما نزل قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال عبد الله ابن الزبيري هذا خاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال ﷺ ﴿بل لجميع الأمم﴾ فقال خصمتك ورب الكعبة، ألسنت تزعم أن عيسى ابن مريم نبي وتثني عليه خيراً وعلى أمه، وقد علمت أن

لا تتناول العقلاء البتة. (والثاني): إن كلمة ما ليست صريحة في الاستغراق بدليل أنه يصح إدخال لفظي الكل والبعض عليه، فيقال إنكم وكل ما تعبدون من دون الله. أو إنكم وبعض ما تعبدون من دون الله. (الثالث): إن قوله إنكم وكل ما تعبدون من دون الله أو وبعض ما تعبدون خطاب مشافهة فلعله ما كان فيهم أحد يعبد المسيح والملائكة. (الرابع): إن قوله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] هب أنه عام إلا أن النصوص الدالة على تعظيم الملائكة وعيسى أخص منه، والخاص مقدم على العام.

المسألة الرابعة: القائلون بدم الجدل تمسكوا بهذه الآية إلا أنا قد ذكرنا في تفسير قوله تعالى ﴿مَا يُجَدِّلُ فِيَّ يَدِّيَ اللَّهُ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر: ٤] إن الآيات الكثيرة دالة على أن الجدل موجب للمدح والثناء، وطريق التوفيق أن تصرف تلك الآيات إلى الجدل الذي يفيد تقرير الحق، وأن تصرف هذه الآية إلى الجدل الذي يوجب تقرير الباطل.

ثم قال تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ يعني ما عيسى إلا عبد كسائر العبيد أنعمنا عليه حيث جعلناه آية بأن خلقناه من غير أب كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر.

تعالى بين أنا لم نقل إن الاشتغال بعبادة المسيح طريق حسن بل هو كلام باطل، فإن عيسى ليس إلا عبداً أنعمنا عليه، فإذا كان الأمر كذلك فقد زالت شبهتهم في قولهم: إن محمداً يريد أن يأمرنا بعبادة نفسه، فهذه الوجوه الثلاثة مما يحتمل كل واحد منها لفظ الآية.

المسألة الثانية: قرأ نافع وابن عامر والكسائي وأبو بكر عن عاصم يصدون بضم الصاد وهو قراءة علي بن أبي طالب عليه السلام والباقون بكسر الصاد وهي قراءة ابن عباس، واختلفوا فقال الكسائي: هما بمعنى نحويعرشون ويعرثون ويعرّفون ويعكفون، ومنهم من فرق، أما القراءة بالضم فمن الصدود، أي من أجل هذا المثل يصدون عن الحق ويعرضون عنه، وأما بالكسر فمعناه يضجون.

المسألة الثالثة: قرأ عاصم وحزمة والكسائي آلهتنا استفهاماً بهمزتين الثانية مطولة والباقون استفهاماً بهمزة ومدة.

ثم قال تعالى ﴿مَا ضَرَبُوا لَكَ إِلَّا جَدلاً﴾ أي ما ضربوا لك هذا المثل إلا لأجل الجدل والغلبة في القول لا لطلب الفرق بين الحق والباطل ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ مبالغون في الخصومة، وذلك لأن قوله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [الأنبياء: ٩٨] لا يتناول الملائكة وعيسى، وبيانه من وجوه (الأول): إن كلمة ما

الطبرسي ج ٢٥ ص ٩١ - ٩٤

المسيح مثلاً بآدم في قوله ﴿إِنَّكَ مِثْلُ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩] أي من قدر على أن ينشئ آدم من غير أب وأم قادر على إنشاء المسيح من غير أب اعترض على النبي ﷺ بذلك قوم من كفار قريش فنزلت هذه الآية. وثالثها: إن معناه أن النبي ﷺ لما مدح المسيح وأمه وإنه كآدم في الخاصية قالوا إن محمداً يريد أن نعبد كما عبدت النصارى عيسى... عن قتادة. ورابعها: ما رواه سادة أهل البيت عن علي عليهم أفضل الصلوات أنه قال جئت إلى رسول الله ﷺ يوماً فوجدته في ملأ من قريش فنظر إلي ثم قال يا علي إنما مثلك في هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا في حبه

... ﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ اختلف في المراد به على وجوه. إحداها: إن معناه ولما وصف ابن مريم شبيهاً في العذاب بالآلهة أي فيما قالوه على زعمهم وذلك أنه لما نزل قوله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] قال المشركون قد رضينا بأن تكون آلهتنا حيث يكون عيسى وذلك قوله ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ أي يضجون ضجيج المجادلة حيث خاصموك وهو قوله ﴿وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي ليست آلهتنا خيراً من عيسى فإن كان عيسى في النار بأنه يعبد من دون الله فكذلك آلهتنا. عن ابن عباس ومقاتل. وثانيها: إن معناه لما ضرب الله

قصر به عن المنزل التي أبين لأجلها من سائر العباد وجوابهم عن ذلك أن اختصاص المسيح بضرب من التشريف والإنعام عليه لا يوجب العبادة كما لا يوجب أن ينعم عليه بأعلى مراتب النعمة ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا هذا المثل لك إلا ليجادلوا به ويخاصموك ويدفعوك به عن الحق لأن المتجادلين لا بد أن يكون أحدهما مبطلاً بخلاف المتناظرين لأن المناظرة قد تكون بين المحقين ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي جدلون في دفع الحق بالباطل ثم وصف سبحانه المسيح فقال ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي ما هو إلا عبد أنعمنا عليه بالخلق من غير أب وبالنبوة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي آية لهم ودلالة يعرفون بها قدرة الله تعالى على ما يريد حيث خلقه من غير أب فهو مثل لهم يشبهون به ما يرون من أعاجيب صنع الله . . .

فهلكوا واقتصد فيه قوم فنجوا. فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا يشبه بالأنبياء والرسل فنزلت الآية وقالوا ﴿أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ أي آلهتنا أفضل أم المسيح فإذا كان المسيح في النار رضيانا أن تكون آلهتنا معه . . . عن السدي وابن زيد وقيل معناه إن آلهتنا خير من المسيح فإذا عبد المسيح جاز أن تعبد آلهتنا . . . عن الجبائي وقيل هو كناية عن محمد ﷺ والمعنى آلهتنا خير من محمد ﷺ وهو يأمرنا بأن نعبد كما عبد النصارى المسيح ونطيعه ونترك آلهتنا . . . عن قتادة وقال علي بن عيسى معنى سؤالهم بقولهم ﴿أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ إنهم الزموا ما لا يلزم على ظن منهم وتوهم كأنهم قالوا ومثلنا فيما نعبد مثل ما يعبد المسيح فأياها خير عبادة آلهتنا أم عبادة المسيح على أنه إن قال عبادة المسيح أقر بعبادة غير الله وكذلك إن قال عبادة الأوثان وإن قال ليس في عبادة المسيح خير

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٤ - ٢٥

فاتحتم أن يكون الفاعل ابن الزبيري إن صحت قصته، وأن يكون الكفار، وقرأ أبو جعفر والأعرج والنخعي وأبو رجاء وابن وثاب وعامر ونافع والكسائي ﴿يَصْدُوكَ﴾ بضم الصاد، أي: يعرضون عن الحق من أجل ضرب المثل. وقرأ ابن عباس وابن جبيرة والحسن وعكرمة وباقي السبعة بكسرها، أي: يصيحون، ويرتفع لهم حمية بضرب المثل: وروى ضم الصاد عن علي وأنكرها ابن عباس ولا يكون إنكاره إلا قبل بلوغه تواترها. وقرأ الكسائي والفراء هما لغتان بمعنى مثل يعرشون ويعرشون. ﴿وَقَالُوا أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ خفف الكوفيون الهمزتين، وسهل باقي السبعة الثانية بين بين. وقرأ ورش في رواية أبي الأزهري بهمزة واحدة على مثال الخبر فاتحتم أن تكون همزة الاستفهام محذوفة لدلالة أم عليها، واحتمل أن يكون خبراً محضاً حكوا أن آلهتهم خير ثم عن لهم أن يستفهموا على سبيل التنزل من الخبر إلى الاستفهام المقصود به الإفحام، وهذا الاستفهام يتضمن أن آلهتهم خير من عيسى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما مثلوا هذا التمثيل إلا لأجل الجدل والغلبة والمغالطة، لا لتمييز الحق واتباعه،

﴿وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ وَقَالُوا أَلْهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾.

لما ذكر تعالى طرفاً من قصة موسى - عليه السلام - ذكر طرفاً من قصة عيسى - عليه السلام - عن ابن عباس وغيره لما نزل ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩] ونزل كيف خلق من غير فحل قالت قریش: ما أراد محمد من ذكر عيسى إلا أن نعبد كما عبدت النصارى عيسى فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً وقيل ضرب المثل بعيسى هو ما جرى بين الزبيري وبين الرسول - عليه الصلاة والسلام - في القصة المحكية في قوله ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وقد ذكرت في سورة الأنبياء في آخرها إن ابن الزبيري قال: فإذا كان هؤلاء أي: عيسى وأمه، وعزير في النار، فقد وصفنا أن نكون نحن وآلهتنا معهم، وقيل: المثل هو أن الكفار لما سمعوا أن النصارى تعبد عيسى قالوا: آلهتنا خير من عيسى، قال ذلك فهم من كان يعبد الملائكة، وضرب مبنى للمفعول،

وقال قتادة: يعود على النبي ﷺ أنعمنا عليه بالنبوة وشرفناه بالرسالة، ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا﴾ أي: خبرة عجيبة كالمثل لبني إسرائيل إذ خلق من غير أب، وجعل له من إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص والأسقام كلها ما لم يجعل لغيره في زمانه، وقيل المنعم عليه هو محمد ﷺ.

وانتصب جَدلاً على أنه مفعول من أجله، وقيل: مصدر في موضع الحال. وقرأ ابن مقسم ﴿إِلَّا جَدلاً﴾ بكسر الجيم، وألف خصمون شديداً الخصومة واللجاج وفعل من أبنية المبالغة، نحو هدى، والظاهر أن الضمير في أم، هو لعيسى لتتناسق الضمائر في قوله ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ﴾،

القاسمي ج ١٤ ص ٣٤٦ - ٣٤٧

التوالد في ذاته العلية. وإذا اتضح الهدى فما وراءه إلا الضلال، والمشاغبة بالجدال. كما قال تعالى ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾ أي ما ضربوا لك هذا القول إلا لأجل الجدال والخصومة، لا عن اعتقاد، لظهور بطلانه ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ أي شديداً الخصومة بالباطل تمويهاً وتليساً. وفي الحديث «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدل» وما ذكرناه في تفسير هذه الآية، هو الجلي الواضح، لدلالة السياق والسباق فقابل بينه وبين ما حكاه الغير وأنصف. ثم جلى شأن عيسى عليه السلام، بما يرفع كل لبس، بقوله سبحانه:

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ﴾ أي بالنبوة والرسالة ﴿وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي آية لهم وحجة عليهم، بما ظهر على يديه، مما أيد نبوته ورسالته وصدق دعواه.

﴿وَلَمَّا ضَرَبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي في كونه كآدم، كما أشارت له آية ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] والمعنى: لما بين وصفه الحق من أنه عبد مخلوق منعم عليه بالنبوة، عبادته كفر، ودعاؤه شرك، إذ لم يأذن الله بعبادة غيره ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ﴾ أي من مثله المضروب ووصفه المبين ﴿يَصُدُّونَ﴾ أي يعرضون ولا يعون ﴿وَقَالُوا ءَالِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ يعنون بالهتهم الملائكة الذين عبدوهم، زعماً منهم أنهم بنات الله تعالى. كما ذكر عنهم ذلك في أول السورة. أي إنهم خير من عيسى وأفضل، لأنهم من الملائكة الأعلى والنوع الأعلى، فإذا جازت عبادة المفضل وهو عيسى، فبالأولى عبادة الأفضل وهم الملائكة. كأنهم يقررون على شركهم أصولاً صحيحة. ويننون على تمسكهم أقيسة صريحة. وغفلوا، لجهلهم، عن بطلان المقيس والمقيس عليه. وأن البرهان الصادع قام على بطلان عبادة غيره تعالى، وعلى استحالة

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٦٣ - ٦٤)

مصادر تفاسير الآية

ج ٢٥	ص ٥٥ - ٥٦	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٤ - ٢٧
ج ٣	ص ٤٩٥	ابن كثير	ج ٤	ص ١٣١ - ١٣٢
ج ٢٧	ص ٢٢٢ - ٢٢٣	الجلالان	ج ٤	ص ٦٥٢ - ٦٥٤
ج ٢٥	ص ٩٦ - ٩٤	الشوكاني	ج ٢٥	ص ٨٩
ج ٢	ص ٤٤٩ - ٤٥١	الآلوسي	ج ١٤	ص ٥٢٨١ - ٥٢٨٢
ج ٥	ص ٦٣	القاسمي	ج ١٨	ص ١١٢ - ١١٩
ج ٦	ص ١٣٩ - ١٤٠	الطباطبائي	ج ٢٠	ص ١٤٩ - ٢٦١
ج ٤	ص ١٢٩	جوهري	ج ٢٥	ص ١٠١ - ١٠٦
ج ٥	ص ٢٣٦ - ٢٣٧	المراغي	ج ٥	ص ٣١٩٩ - ٣٢٠١
ج ١٦	ص ١٠٧ - ١٠٨	سيد قطب		

الطبري ج ٢٥ ص ٥٥ - ٥٦

قالوا: الموت لا يتعلق ببعض النفوس، وإنما المعنى: أو يتعلق النفوس حمامها. وليس لما قال هذا القائل كبير معنى، لأن عيسى إنما قال لهم ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ لأنه قد كان بينهم اختلاف كثير في أسباب دينهم ودنياهم، فقال لهم: أبين لكم بعض ذلك، وهو أمر دينهم دون ما هم فيه مختلفون من أمر دنياهم، فلذلك خص ما أخبرهم أنه يبينه لهم. وأما قول لبيد «أو يتعلق بعض النفوس» فإنه إنما قال ذلك أيضاً كذلك، لأنه أراد: أو يتعلق نفسه حمامها، فنفسه من بين النفوس لا شك أنها بعض لا كل. وقوله ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا﴾ يقول: فاتقوا ربكم أيها الناس بطاعته، وخافوه باجتناب معاصيه، وأطيعوا فيما أمرتكم به من اتقاء الله واتباع أمره، وقبول نصيحتي لكم. وقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾ يقول: إن الله الذي يستوجب علينا إفراده بالألوهية وإخلاص الطاعة له، ربي وربكم جميعاً، فاعبدوه وحده، لا تشركوا معه في عبادته شيئاً، فإنه لا يصلح ولا ينبغي أن يعبد شيء سواه. وقوله ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول: هذا الذي أمرتكم به من اتقاء الله وطاعتي، وإفراد الله بالألوهة، هو الطريق المستقيم، وهو دين الله الذي لا يقبل من أحد من عباده غيره.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يقول تعالى ذكره: ولما جاء عيسى بني إسرائيل بالبينات، يعني بالواضحات من الأدلة. وقيل: عني بالبينات: الإنجيل. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي الإنجيل. وقوله ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ قيل: عني بالحكمة في هذا الموضع: النبوة. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن السدي ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ قال: النبوة. وقد بينت معنى الحكمة فيما مضى من كتابنا هذا بشواهد، وذكرت اختلاف المختلفين في تأويله، فأغنى ذلك عن إعادته. وقوله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يقول: ولأبين لكم معشر بني إسرائيل بعض الذي تختلفون فيه من أحكام التوراة. كما حدثني محمد بن عمرو عن مجاهد، قوله ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال: من تبديل التوراة. وقد قيل: معنى البعض في هذا الموضع بمعنى الكل، وجعلوا ذلك نظير قول لبيد:

تَرَكَ أَمْكَةً إِذَا لَمْ أَرْضُهَا

أو يتعلق بعض النفوس حمامها

الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٢ - ٢٢٣

الذي يختلفون فيه معناه فروع الدين، فإن قيل لم لم يبين لهم كل الذي يختلفون فيه؟ قلنا لأن الناس قد يختلفون في أشياء لا حاجة بهم إلى معرفتها، فلا يجب على الرسول بيانها، ولما بين الأصول والفروع قال ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ في الكفر به والإعراض عن دينه ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أبلغه إليكم من التكليف ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ والمعنى ظاهر.

... اعلم أنه تعالى ذكر أنه لما جاء عيسى بالمعجزات وبالشرائع البينات الواضحات ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ وهي معرفة ذات الله وصفاته وأفعاله ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ يعني أن قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكليف واتفقوا على أشياء، فجاء عيسى ليبين لهم الحق في تلك المسائل الخلافية، وبالجمل فالحكمة معناها أصول الدين وبعض

الطبرسي ج ٢٥ ص ٩٤ - ٩٦

أي كل حاجته. . عن أبي عبيدة قال الزجاج والصحيح أن البعض لا يكون في معنى الكل والذي جاء به عيسى في الإنجيل إنما هو بعض الذي اختلفوا فيه وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه وقول الشاعر «أو يخترم بعض النفوس حمامها» إنما يعني نفسه وقيل معناه لأبين لكم ما تختلفون فيه من أمور الدين دون أمور الدنيا ﴿فَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ بأن تجتنبوا معاصيه وتعملوا بالطاعات ﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أدعوكم إليه ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ الذي تحقق له العبادة ﴿فَأَعْبُدُوا﴾ خالصاً ولا تشركوا به شيئاً ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ يفضي بكم إلى الجنة وثواب الله.

... ثم أخبر سبحانه عن حال عيسى (ع) حين بعثه الله نبياً فقال ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي بالمعجزات الدالة على نبوته وقيل بالإنجيل عن قتادة ﴿قَالَ﴾ لهم ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي بالنبوة عن عطاء وقيل بالعلم بالتوحيد والعدل والشرائع ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قيل إن المعنى كل الذي تختلفون كقول لبيد «أو تعلق بعض النفوس حمامها»، أي كل النفوس وقول القطامي:

قد يدرك المتأني بعض حاجته

وقد يكون من المستعجل الزلل

القرطبي ج ١٦ ص ١٠٧ - ١٠٨

على قدر ما سألوه. ويجوز أن يختلفوا في أشياء غير ذلك لم يسألوه عنها. وقيل: إن بني إسرائيل اختلفوا بعد موت موسى في أشياء من أمر دينهم وأشياء من أمر دنياهم فبين لهم أمر دينهم. ومذهب أبي عبيدة أن البعض بمعنى الكل؛ ومنه قوله تعالى: ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ [غافر: ٢٨]. وأنشد الأخفش قول لبيد:

تراك أمكنة إذا لم أرضها

أو تعلق بعض النفوس حمامها
والموت لا يعلق بعض النفوس دون بعض. ويقال للمنية: علوق وعلاقة. قال المفضل البكري:

وسائلة بعلبة بن سِير

وقد عِلقت بشعلة العلوق

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قال ابن عباس: يريد إحياء الموتى وإبراء الأسقام، وخلق الطير، والمائدة وغيرها، والإخبار بكثير من الغيوب. وقال قتادة: البينات هنا الإنجيل. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ أي النبوة، قاله السُّدِّي. ابن عباس: علم ما يؤدي إلى الجميل ويكف عن القبيح. وقيل الإنجيل؛ ذكره القشيري والماوردي. ﴿وَلَا يُبَيِّنْ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ [قال مجاهد: من تبديل التوراة. الزجاج: المعنى لأبين لكم في الإنجيل بعض الذي تختلفون فيه من تبديل التوراة. قال مجاهد: وبين لهم في غير الإنجيل ما احتاجوا إليه. وقيل: بين لهم بعض الذي اختلفوا فيه من أحكام التوراة

قول عيسى فكيف يجوز أن يكون إلهاً أو ابن إله .
﴿وَأَطِيعُوا﴾ فيما أَدْعُوكم إليه من التوحيد وغيره . ﴿إِنَّ
اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ أي عبادة
الله صراط مستقيم ، وما سواه معوج لا يؤدي سالكه إلى
الحق .

سيد قطب ج ٥ ص ٣١٩٩ - ٣٢٠١

أربع فرق أو طوائف .

طائفة الصدوقيين نسبة إلى «صدوق» وإليه وإلى أسرته
ولاية الكهانة من عهد داود وسليمان . وحسب الشريعة لا
بد أن يرجع نسبه إلى هارون أخي موسى . فقد كانت ذريته
هي القائمة على الهيكل . وكانوا بحكم وظيفتهم واحترافهم
متشددين في شكليات العبادة وطقوسها ، ينكرون «البدع»
في الوقت الذي يترخصون في حياتهم الشخصية
ويستمتعون بملاذ الحياة ؛ ولا يعترفون بأن هناك قيامة !

وطائفة الفريسيين ، وكانوا على شقاق مع الصدوقيين .
ينكرون عليهم تشدهم في الطقوس والشكليات ،
وجحدتهم للبعث والحساب . والسمة الغالبة على
الفريسيين هي الزهد والتصوف وإن كان في بعضهم اعتزاز
وتعال بالعلم والمعرفة . وكان المسيح - عليه السلام -
ينكر عليهم هذه الخيلاء وشقشة اللسان !

وطائفة السامريين ، وكانوا خليطاً من اليهود
والأشوريين ، وتدين بالكتب الخمسة في العهد القديم
المعروفة بالكتب الموسوية ، وتنفي ما عداها مما أضيف
إلى هذه الكتب في العهود المتأخرة . مما يعتقد غيرهم
بقداسته .

وطائفة الآسين أو الآسينيين . وكانوا متأثرين ببعض
المذاهب الفلسفية ، وكانوا يعيشون في عزلة عن بقية
طوائف اليهود ، ويأخذون أنفسهم بالشدة والتشف ، كما
يأخذون جماعتهم بالشدة في التنظيم .

وهناك غير هذه الطوائف نحل شتى فردية ، وبلبلية في
الاعتقاد والتقاليد بين بني إسرائيل ، الراضخين لضغط
الامبراطورية الرومانية المستبدلين المكبوتين ، الذين
ينتظرون الخلاص على يد المخلص المنتظر من الجميع .

وقال مقاتل : هو كقوله : ﴿وَلَا تُحِلُّ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي
حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران : ٥٠] يعني ما أحل في
الإنجيل مما كان محرماً في التوراة ؛ كلحم الإبل والشحم
من كل حيوان وصيد السمك يوم السبت . ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾
أي اتقوا الشرك ، ولا تعبدوا إلا الله وحده ؛ وإذا كان هذا

﴿وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ
وَلَا يُؤْنِسُ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا إِنَّ اللَّهَ
هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ .

فيعيسى جاء قومه بالبينات الواضحات سواء من
الخوارق التي أجراها الله على يديه ، أو من الكلمات
والتوجيهات إلى الطريق القويم . وقال لقومه : ﴿قَدْ
جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ﴾ . ومن يؤث الحكمة فقد أوتي خيراً
كثيراً ، وأمن الزلل والشطط أمنه للتفريط والتقصير ؛
واطمأن إلى خطواته في الطريق على اتزان وعلى نور .
وجاء ليبين لهم بعض الذي يختلفون فيه . وقد اختلفوا في
كثير من شريعة موسى - عليه السلام - وانقسموا فرقاً
وشيعاً . ودعاهم إلى تقوى الله وإلى طاعته فيما جاءهم به
من عند الله . وجهر بكلمة التوحيد خالصة لا مواربة فيها
ولا لبس ولا غموض : ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَأَعْبُدُوهُ﴾ . . . ولم يقل : إنه إله ، ولم يقل : إنه ابن الله .
ولم يشير من قريب أو بعيد إلى صلة له بربه غير صلة
العبودية من جانبه والربوبية من جانب الله رب الجميع .
وقال لهم : إن هذا صراط مستقيم لا التواء فيه ولا
اعوجاج ، ولا زلل فيه ولا ضلال . ولكن الذين جاءوا من
بعده اختلفوا أحزاباً كما كان الذين من قبله مختلفين
أحزاباً ، اختلفوا ظالمين لا حجة لهم ولا شبهة : ﴿فَوَيْلٌ
لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابِ يَوْمِ إِلْيَاسَ﴾ [الزخرف : ٦٥] .

لقد كانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل ؛
وكانوا ينتظرونه ليخلصهم مما كانوا فيه من الذل تحت
حكم الرومان ؛ وقد طال انتظارهم له ، فلما جاءهم نكروه
وشاقوه ، وهموا أن يصلبوه !

ولقد جاء المسيح فوجدهم شيعاً ونحلاً كثيرة ، أهمها

مكرر. لهؤلاء الرسميين المحترفين من رجال الدين، الذين يراهم الناس في كل حين!

ثم ذهب المسيح عليه السلام إلى ربه، فاختلف أتباعه من بعده. اختلفوا شيعاً وأحزاباً. بعضها يؤلهه. وبعضها ينسب لله سبحانه بنوته. وبعضها يجعل الله ثالث ثلاثة أحدها المسيح ابن مريم. وضاعت كلمة التوحيد الخالصة التي جاء بها عيسى عليه السلام. وضاعت دعوته الناس ليلجأوا إلى ربهم ويعبدوه مخلصين له الدين.

فلما أن جاء المسيح - عليه السلام - بالتوحيد الذي أعلنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَأَعْبُدُوهُ﴾. وجاء معه بشريعة التسامح والتهديب الروحي والعناية بالقلب البشري قبل الشكليات والطقوس، حاربه المحترفون الذين يقومون على مجرد الأشكال والطقوس...

وإن الإنسان - وهو يقرأ هذه الكلمات المأثورة عن المسيح - عليه السلام - وغيرها في بابها - ليكاد يتصور رجال الدين المحترفين في زماننا هذا. فهو طابع واحد

(سورة الزخرف، رقم ٤٣، الآية ٨١)

مصادر تفاسير الآية			
ج ٢٥	ص ٦٠ - ٦٢	أبو حيان الاندلسي	ج ٨ ص ٢٧ - ٣٠
ج ٣	ص ٤٩٧	ابن كثير	ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٦
ج ٢٧	ص ٢٢٨ - ٢٣١	الجلالان	ص ٦٥٥
ج ٢٥	ص ٩٩ - ١٠٢	الشوكاني	ج ٤ ص ٥٦٥ - ٥٦٨
ج ٢	ص ٤٥٤ - ٤٥٦	الآلوسي	ج ٢٥ ص ٩٦ - ٩٧
ج ٥	ص ٦٤	القاسمي	ج ١٤ ص ٥٢٨٨
ج ٦	ص ١٤١ - ١٤٢	الطباطبائي	ج ١٨ ص ١٢٤ - ١٢٨
ج ٤	ص ١٣١	جوهري	ج ٢٠ ص ١٥٠ - ٢٦١
ج ٥	ص ٢٤٠ - ١٢٤١	المراغي	ج ٢٥ ص ١١٢ - ١١٧
ج ١٦	ص ١١٩ - ١٢٠	سيد قطب	ج ٥ ص ٣١٩٥ - ٣٢٠٤

الطبری ج ۲۵ ص ۶۰-۶۲

في قوله ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ قال : هذا الانكاف [التنزيه] ما كان للرحمن ولد، نكف الله أن يكون له ولد، وإن مثل ما إنما هي : ما كان للرحمن ولد، ليس للرحمن ولد، مثل قوله ﴿ وَإِنْ كَانَتْ مَكْرَهُمْ لِيَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴾ [ابراهيم: ٤٦] إنما هي : ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، فالذي أنزل الله من كتابه وقضاه من قضائه أثبت من الجبال، و «إن» هي «ما» إن كان ما كان تقول العرب : إن كان، وما كان الذي تقول : وفي قوله ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ أول من يعبد الله بالإيمان والتصديق أنه ليس للرحمن ولد على هذا أعبد الله. حدثني ابن عبد الرحيم البرقي. قال : حدثنا عمرو بن أبي سلمة، قال : سألت ابن محمد، عن قول الله ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ قال : ما كان. حدثني ابن عبد الرحيم البرقي، قال : حدثنا عمرو، قال : سألت زيد بن أسلم، عن قول الله ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ ﴾ قال : هذا قول العرب معروف، إن كان : ما كان، إن كان هذا الأمر قط، ثم قال : وقوله وإن كان : ما كان. وقال آخرون : معنى «إن» في هذا الموضع معنى المجازاة، قالوا : وتأويل الكلام : لو كان للرحمن ولد، كنت أول من عبده بذلك. وذكر من قال ذلك : حدثنا محمد. . . عن السدي ﴿ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ ﴾ قال : لو كان له ولد كنت أول من عبده بأن

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ فقال بعضهم معنى ذلك: قل يا محمد إن كان للرحمن ولد في قولكم وزعمكم أيها المشركون، فأنا أول المؤمنين بالله في تكذيبكم، والجاحدين ما قلتهم من أن له ولداً. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ كما تقولون ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ المؤمنين بالله، فقولوا ما شئتم. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن مجاهد في قوله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قال قل إن كان لله ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله ووحده وكذبكم. وقال آخرون: بل معنى ذلك: قل ما كان للرحمن ولد، فأنا أول العابدين له بذلك. ذكر من قال ذلك: حدثني علي... عن ابن عباس قوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد فأنا أول الشاهدين. وقال آخرون: بل معنى ذلك نفي، ومعنى إن الجحد، وتأويل ذلك: ما كان ذلك ولا ينبغي أن يكون. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة قوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قال قتادة: وهذه كلمة من كلام العرب ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ أي إن ذلك لم يكن، ولا ينبغي. حدثني يونس... عن ابن زيد

يطلب الجزاء، أو تكون بمعنى الجحد، وهب إذا وجهت إلى الجحد لم يكن للكلام كبير معنى، لأنه يصير بمعنى: قل ما كان للرحمن ولد، وإذا صار بذلك المعنى أوهم أهل الجهل من أهل الشرك بالله أنه إنما نفى بذلك عن الله عز وجل أن يكون له ولد قبل بعض الأوقات، ثم أحدث له الولد بعد أن لم يكن، مع أنه لو كان ذلك معناه لقدر الذين أمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يقول لهم: ما كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين، أن يقولوا له صدقت، وهو كما قلت، ونحن لم نزعم أنه لم يزل له ولد، وإنما قلنا: لم يكن له ولد، ثم خلق الجن فصايرهم، فحدث له منهم ولد، كما أخبر الله عنهم أنهم كانوا يقولونه، ولم يكن الله تعالى ذكره ليحتج لنبيه ﷺ وعلى مكذبيه من الحجة بما يقدر على الطعن فيه، وإذا كان في توجيهنا «إن» إلى معنى الجحد ما ذكرنا، فالذي هو أشبه المعنيين بها الشرط. وإذا كان ذلك كذلك، فبينة صحة ما نقول من أن معنى الكلام: قل يا محمد لمشركي قومك الزاعمين أن الملائكة بنات الله: إن كان للرحمن ولد فأنا أول عابديه بذلك منكم، ولكنه لا ولد له، فأنا أعبد به أنه لا ولد له، ولا ينبغي أن يكون له.

وإذا وجه الكلام إلى ما قلنا من هذا الوجه لم يكن على وجه الشك، ولكن على وجه الإلطاف في الكلام وحسن الخطاب، كما قال جل ثناؤه ﴿قُلِ اللَّهُ وَلَنَا أَوْ إِنَّا كُفْرٌ لَعَلَّ هُذَى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سبا: ٢٤] وقد علم أن الحق معه، وأن مخالفه في الضلال المبين.

الرازي ج ٢٧ ص ٢٢٨ - ٢٣١

عن الظاهر، وتقديره أن قوله ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قضية شرطية والقضية الشرطية مركبة من قضيتين خبريتين أدخل على إحداها حرف الشرط، وعلى الأخرى حرف الجزاء فحصل بمجموعهما قضية واحدة، ومثاله هذه الآية فإن قوله ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قضية مركبة من قضيتين: (إحداها): قوله ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، (والثانية): قوله ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ ثم أدخل حرف الشرط، وهو لفظة إن على القضية الأولى، وحرف الجزاء وهو الفاء على القضية

له ولداً، ولكن لا ولد له. وقال آخرون: معنى ذلك: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾، فأنا أول الأنفين ذلك، ووجهوا معنى العابدين إلى المنكرين الآيين، من قول العرب: قد عید فلان من هذا الأمر إذا أنف منه وغضب وأباه، فهو يعبد عبداً، كما قال الشاعر:

أَلَا هَوَيْتَ أُمَّ الْوَلِيدِ وَأَصْبَحْتَ
لِمَا أَبْصَرْتَ فِي الرَّأْسِ مِثْلِي تَعَبُّدُ
وكما قال الآخر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الْوُدِّ يَضْرِبُ خَلِيلَهُ
وَيَعْبُدُ عَلَيْهِ لَا مَخَالَاةَ ظَالِمًا

وقد حدثني يونس بن عبد الأعلى... عن بعجة بن زيد الجهني، أن امرأة منهم دخلت على زوجها، وهو رجل منهم أيضاً، فولدت له في ستة أشهر، فذكر ذلك لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن تُرجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: إن الله تبارك وتعالى يقول في كتابه: ﴿وَحَمَلُهُ وَفَصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]، وقال: ﴿وَفَصْلُهُ فِي عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤] قال: فوالله ما عبد عثمان أن بعث إليها ترد. قال يونس، قال ابن وهب: عبد: استنكف.

وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قول من قال: معنى ﴿إِنْ﴾ الشرط الذي يقتضي الجزاء على ما ذكرناه عن السدي، وذلك أن «إن» لا تعدو في هذا الموضع أحد معنيين: إما أن يكون الحرف الذي هو بمعنى الشرط الذي

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي ﴿وَلَدٌ﴾ بضم الواو وإسكان اللام والباقون بفتحهما ﴿فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ قرأ نافع ﴿فَأَنَا﴾ بفتح طويلة على النون والباقون بلا تطويل.

المسألة الثانية: اعلم أن الناس ظنوا أن قوله ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ لو أجريناه على ظاهره فإنه يقتضي وقوع الشك في إثبات ولد لله تعالى، وذلك محال فلا جرم افتقروا إلى تأويل الآية، وعندني أنه ليس الأمر كذلك وليس في ظاهر اللفظ ما يوجب العدول

ضربنا من المثل في قولنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين، فثبت أن هذا الكلام لا امتناع في إجرائه على ظاهره، ويكون المراد منه أنه إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين لذلك الولد، فإن السلطان إذا كان له ولد فكما يجب على عبده أن يخدمه فكذلك يجب عليه أن يخدم ولده، وقد بينا أن هذا التركيب لا يدل على الاعتراف بإثبات ولد أم لا . . .

وأما في الآية التي نحن في تفسيرها إنما ذكر الله تعالى كلمة إن وهذه الكلمة لا تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره، بل هذه الكلمة تفيد الشك في أنه هل حصل الشرط أم لا، وحصول هذا الشك للرسول غير ممكن، قلنا الفرق الذي ذكرتم صحيح إلا أن مقصودنا بيان أنه لا يلزم من كون الشرطية صادقة كون جزءها صادقتين أو كاذبتين على ما قررناه أما قوله إن لفظة إن تفيد حصول الشرط هل حصل أم لا، قلنا هذا ممنوع فإن حرف إن حرف الشرط وحرف الشرط لا يفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء، وأما بيان أن ذلك الشرط معلوم الوقوع أو مشكوك الوقوع، فاللفظ لا دلالة فيه عليه البتة، فظهر من المباحث التي لخصناها أن الكلام ههنا ممكن الإجراء على ظاهره من جميع الوجوه وأنه لا حاجة فيه البتة إلى التأويل، والمعنى أنه تعالى قال ﴿ قُلْ ﴾ يا محمد ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ لذلك الولد وأنا أول الخادمين له، والمقصود من هذا الكلام بيان أنني لا أنكر ولده لأجل العناد والمنازعة، فإن بتقدير أن يقوم الدليل على ثبوت هذا الولد كنت مقراً به معترفاً بوجود خدمته، إلا أنه لم يوجد هذا الولد ولم يقم الدليل على ثبوته البتة، فكيف أقول به؟ بل الدليل القاطع قائم على عدمه، فكيف أقول به وكيف أعترف بوجوده؟ وهذا الكلام ظاهر كامل لا حاجة به البتة إلى التأويل والعدول عن الظاهر، فهذا ما عندي في هذا الموضوع. ونقل عن السدي من المفسرين أنه كان يقول حمل هذه الآية على ظاهرها ممكن، ولا حاجة إلى التأويل، والتقرير الذي ذكرناه يدل على أن الذي قاله هو الحق، أما القائلون بأنه لا بد من التأويل فقد ذكروا وجوهاً: (الأول): قال الواحدي كثرت الوجوه في

الثانية، فحصل من مجموعهما قضية الأولى واحدة، وهو القضية الشرطية، إذا عرفت هذا فنقول القضية الشرطية لا تفيد إلا كون الشرط مستلزماً للجزاء، وليس فيها إشعار بكون الشرط حقاً أو باطلاً، أو بكون الجزء حقاً أو باطلاً، بل نقول القضية الشرطية الحققة قد تكون مركبة من قضيتين حقيتين أو من قضيتين باطلتين، أو من شرط باطل وجزاء حق أو من شرط حق وجزاء باطل، فأما القسم الرابع وهو أن تكون القضية الشرطية الحققة مركبة من شرط حق وجزاء باطل فهذا محال.

ولنبين أمثال هذه الأقسام الأربعة، فإذا قلنا إن كان الإنسان حيواناً فالإنسان جسم فهذه شرطية حققة وهي مركبة من قضيتين حقيتين، إحداهما قولنا الإنسان حيوان، والثانية قولنا الإنسان جسم، وإذا قلنا إن كانت الخمسة زوجاً كانت منقسمة بمتساويين فهذه شرطية حققة لكنها مركبة من قولنا الخمسة زوج، ومن قولنا الخمسة منقسمة بمتساويين وهما باطلان، وكونهما باطلين لا يمنع من أن يكون استلزام إحداهما للآخر حقاً، وقد ذكرنا أن القضية الشرطية لا تفيد إلا مجرد الاستلزام، وإذا قلنا إن كان الإنسان حجراً فهو جسم، فهذا جسم، فهذا أيضاً حق لكنها مركبة من شرط باطل وهو قولنا الإنسان حجر، ومن جزء حق وهو قولنا الإنسان جسم، وإنما جاز هذا لأن الباطل قد يكون بحيث يلزم من فرض وقوعه وقوع حق، فإننا فرضنا كون الإنسان حجراً وجب كونه جسماً فهذا شرط باطل يستلزم جزءاً حقاً.

وأما القسم الرابع: وهو تركيب قضية شرطية حققة من شرط حق وجزاء باطل، فهذا محال، لأن هذا التركيب يلزم منه كون الحق مستلزماً للباطل وذلك محال بخلاف القسم الثالث فإنه يلزم منه كون الباطل مستلزماً للحق وذلك ليس بمحال، إذا عرفت هذا الأصل فلنرجع إلى الآية فنقول قوله ﴿ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ قضية شرطية حققة من شرط باطل ومن جزء باطل لأن قولنا كان للرحمن ولد باطل، وقولنا ﴿ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبْدِينَ ﴾ لذلك الولد باطل أيضاً إلا أننا بينا أن كون كل واحد منهما باطلاً لا يمنع من أن يكون استلزام أحدهما للآخر حقاً كما

الْعَبِيدِينَ ﴿الْآنِفِينَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ مِنْ عَبْدٍ يَعْبُدُ إِذَا اشْتَدَّتْ أَنْفَتُهُ فَهُوَ عَبْدٌ وَعَابِدٌ، وَقُرَأَ بَعْضُهُمْ عَبْدِينَ .

واعلم أن السؤال المذكور قائم ههنا لأنه إن كان المراد إن كان للرحمن ولد في نفس الأمر فأننا أول الآنفين من الإقرار به، فهذا يقتضي الإصرار على الجهل والكذب، وإن كان المراد إن كان للرحمن ولد في زعمكم واعتقادكم فأننا أول الآنفين، فهذا التعليق فاسد لأن هذه الأنفة حاصلة سواء حصل ذلك الزعم والاعتقاد أو لم يحصل، وإذا كان الأمر كذلك لم يكن هذا التعليق جائزاً.

والوجه الثالث: قال بعضهم إن كلمة «إن» ههنا هي النافية والتقدير ما كان للرحمن ولد فأننا أول الموحدين من أهل مكة أن لا ولد له.

واعلم أن التزام هذه الوجوه البعيدة إنما يكون للضرورة، وقد بينا أنه لا ضرورة البتة فلم يجز المصير إليها والله أعلم.

تفسير هذه الآية، والأقوى أن يقال المعنى إن كان للرحمن ولد في زعمكم ﴿فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي الموحدين لله المكذبين لقولكم بإضافة الولد إليه، ولقائل أن يقول إما أن يكون تقدير الكلام: إن ثبت للرحمن ولد في نفس الأمر فأننا أول المنكرين له، أو يكون التقدير إن ثبت لكم ادعاء أن للرحمن ولداً فأننا أول المنكرين له، والأول باطل لأن ثبوت الشيء في نفسه لا يقتضي كون الرسول منكراً له، لأن قوله إن كان الشيء ثابتاً في نفسه فأننا أول المنكرين يقتضي إصراره على الكذب والجهل وذلك لا يليق بالرسول، والثاني أيضاً باطل لأنهم سواء أثبتوا الله ولداً أو لم يثبتوه له فالرسول منكر لذلك الولد، فلم يكن لزعمهم تأثير في كون الرسول منكراً لذلك الولد فلم يصلح جعل زعمهم إثبات الولد مؤثراً في كون الرسول منكراً للولد.

الوجه الثاني: قالوا معناه ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلُ

ابن كثير ج ٤ ص ١٣٥ - ١٣٦

عَامِينَ ﴿لَقَمَان: ١٤﴾ قال فوالله ما عبد عثمان رضي الله عنه أن بعث إليها ترده، قال يونس: قال ابن وهب: عبد: استنكف. وقال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الْوَدِّ يَصْرِمُ خَلِيلَهُ

ويعبد عليه لا محالة ظالماً

وهذا القول فيه نظر لأنه كيف يلتزم مع الشرط فيكون تقديره إن كان هذا فأننا ممتنع منه؟ هذا فيه نظر فليتأمل اللهم إلا أن يقال إن «إن» ليست شرطاً وإنما هي نافية كما قال علي بن أبي طلحة... عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ﴾ يقول: لم يكن للرحمن ولد، فأننا أول الشاهدين، وقال قتادة: هي كلمة من كلام العرب ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي إن ذلك لم يكن فلا ينبغي، وقال أبو صخر ﴿كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي فأننا أول من عبده بأن لا ولد له، وأول من وحده، وكذا قال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم، وقال مجاهد ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي أول من عبده ووحده وكذبكم، وقال البخاري ﴿أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾

يقول تعالى ﴿قُلْ﴾ يا محمد ﴿إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي لو فرض هذا لعبده على ذلك لأنني عبد من عبيده مطيع لجميع ما يأمرني به ليس عندي استكبار ولا إباء عن عبادته فلو فرض هذا لكان هذا، ولكن هذا ممتنع في حقه تعالى، والشرط لا يلزم منه الوقوع ولا الجواز أيضاً كما قال عز وجل ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [الزمر: ٤] وقال بعض المفسرين في قوله تعالى ﴿فَأَنَّا أَوَّلُ الْعَبِيدِينَ﴾ أي الآنفين ومنهم سفيان الثوري والبخاري حكاه فقال: ويقال أول العابدين الجاحدين من عبد يعبد، وذكر ابن جرير لهذا القول من الشواهد ما رواه... عن بعة بن بدر الجهني أن امرأة منهم دخلت على زوجها وهو رجل منهم أيضاً فولدت له في ستة أشهر فذكر ذلك زوجها لعثمان بن عفان رضي الله عنه، فأمر بها أن ترجم، فدخل عليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: إن الله تعالى يقول في كتابه ﴿وَحَمَلُهُمْ وَفَصَّلَهُمْ تَلْثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥] وقال عز وجل ﴿وَفَصَّلَهُمْ فِي

الآنفين، وهما لغتان رجل عابد، وعبد، والأول أقرب
على أنه شرط وجزاء ولكن هو ممتنع، وقال السدي
﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَبِيدِ﴾ يقول لو كان له
ولد كنت أول من عبده بأن له ولداً ولكن لا ولد له،
وهو اختيار ابن جرير ورد قول من زعم أن «إن»
نافية . . .

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾

(سورة الحديد، رقم ٥٧، الآية ٢٧)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٧	ص ١٣٧ - ١٤٠	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٢٧ - ٢٢٩
الزمخشري	ج ٤	ص ٦٧ - ٦٨	ابن كثير	ج ٤	ص ٣١٥ - ٣١٧
الرازي	ج ٢٩	ص ٢٤٤ - ٢٤٦	الجلالان		ص ٧٢٣
الطبرسي	ج ٢٧	ص ١٥٨ - ١٦٢	الشوكاني	ج ٥	ص ١٧٧ - ١٨٠
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٠٧ - ٦٠٨	الآلوسي	ج ٢٧	ص ١٦٤ - ١٦٧
البيضاوي	ج ٥	ص ١٢٠	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٦٩٧ - ٥٧٠٠
الخان	ج ٧	ص ٣٨ - ٤٠	الطباطبائي	ج ١٩	ص ١٧٠ - ١٧٦
البغوي	ج ٤	ص ٢٧٣ - ٢٧٥	جوهرى	ج ٢٤	ص ٩٠ - ١٢٨
الماوردي	ج ٥	ص ٤٨٤ - ٤٨٥	المراغي	ج ٢٧	ص ١٨٣ - ١٨٦
القرطبي	ج ١٧	ص ٢٦٢ - ٢٦٦	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٤٨٧ - ٣٤٩٧

الطبري ج ٢٧ ص ١٣٧ - ١٤٠

لأنهم كانوا كفاراً، لكنهم قالوا نفعل كالذي كانوا يفعلون من ذلك أولاً، فهم الذين وصف الله بأنهم لم يرعوها حق رعايتها. وبنحو الذي قلنا في تأويل هذه الأحرف إلى الموضع الذي ذكرنا أن أهل التأويل فيه مختلفون في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني بشر... عن قتادة ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ فهاتان من الله، والرهبانية ابتدعها القوم من أنفسهم، ولم تكتب عليهم ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله، فما رعوها حق رعايتها، ذكر لنا أنهم رفضوا النساء، واتخذوا الصوامع. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ قال لم تكتب عليهم، ابتدعوها ابتغاء رضوان الله حدثني يونس... عن ابن زيد في قوله ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ قال: فلم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله تطوعاً، فما رعوها حق رعايتها. ذكر من قال: الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها كانوا غير الذين ابتدعوها، ولكنهم كانوا المردي الاقتداء بهم. حدثنا الحسين بن الحرث [أبو عمار المروزي]... عن ابن عباس، قال: كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل، وكان فيهم

القول في تأويل قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ يقول تعالى ذكره: ثم أتبعنا على آثارهم برسُلنا الذين أرسلناهم بالبينات على آثار نوح وإبراهيم برسُلنا، وأتبعنا بعيسى ابن مريم ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ يعني: الذين اتبعوا عيسى على مناجاه وشريعته ﴿رَأْفَةً﴾ وهو أشد الرحمة ﴿وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ يقول: أحدثوها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ يقول: ما افترضنا تلك الرهبانية عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ يقول: لكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾. واختلف أهل التأويل في الذين لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، فقال بعضهم: هم الذين ابتدعوها، لم يقوموا بها ولكنهم بدلوا وخالفوا دين الله الذي بعث به عيسى، فتنصروا وتهودوا. وقال آخرون: بل هم قوم جاؤا من بعد الذين ابتدعوها، فلم يرعوها حق رعايتها

مؤمنون يقرؤون التوراة والإنجيل، فليل لملكهم: ما نجد شيئاً أشد علينا من شتم يشتمناه هؤلاء أنهم يقرؤون ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] هؤلاء الآيات مع ما يعيونا به في قراءتهم، فادعهم فليقرأوا كما نقرأ، وليؤمنوا كما آمننا به، قال: فدعاهم فجمعهم وعرض عليهم القتل، أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل، إلا ما بدّلوا منها، فقالوا: ما تريدون إلى ذلك فدعونا؛ قال: فقالت طائفة منهم: ابنوا لنا أسطوانة، ثم ارفعونا إليها، ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا، فلا نرد عليكم، وقالت طائفة منهم: دعونا نسيح في الأرض، ونهيم ونشرب كما تشرب الوحوش، فإن قدرتم علينا بأرضكم فاقتلونا، وقالت طائفة: ابنوا لنا دوراً في الفيافي، ونحتفر الآبار، ونحترث البقول، فلا نرد عليكم، ولا نمزّ بكم. وليس أحد من أولئك إلا وله حميم فيهم. قال: ففعلوا ذلك فأنزل الله جل ثناؤه ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ الآخرون قالوا: نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، ونتخذ دوراً كما اتخذ فلان، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم؛ قال: فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق إلا قليل، انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وجاء صاحب الدار من داره، وآمنوا به وصدّقوه، فقال الله جل ثناؤه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ قال: أجرين لإيمانهم بعيسى، وتصديقهم بالتوراة والإنجيل وإيمانهم، بمحمد ﷺ، وتصديقهم به. قال ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ القرآن، وأتباعهم النبي ﷺ؛ وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ أَهْلُ الْكِتَابِ إِلَّا يَفْقَرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾... حدثنا يحيى ابن أبي طالب عن عبد الله بن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «اختلف من كان قبلنا على إحدى وسبعين فرقة، نجا منهم ثلاث وهلك سائرهم. فرقة من الثلاث وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، وفرقة لم تكن لهم

طاقة بموازاة الملوك، فأقاموا بين ظهرائي قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، فقتلتهم الملوك، ونشرتهم بالمنشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك، ولا بالمقام بين ظهرائي قومهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى، صلوات الله عليه، فلحقوا بالبراري والجبال، فترهبوا فيها فهو قول الله عز وجل ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ قال: ما فعلوها إلا ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ قال ما رعاها الذين من بعدهم حق رعايتها ﴿فَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِمَّنَّمْ أَجْرُهُمْ﴾ قال: وهم الذين آمنوا بي، وصدّقوني. قال ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَلَاسِقُونَ﴾ قال: فهم الذين جحدوني وكذبوني. حدثنا ابن حميد... عن ابن عباس ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا﴾ قال الآخرون ممن تعبد من أهل الشرك، وفني من فني منهم، يقولون نتعبد كما تعبد فلان، ونسيح كما ساح فلان، وهم في شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدوا بهم. ذكر من قال ذلك: الذين لم يرعوها حق رعايتها: الذين ابتدعوها. حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس، قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾... إلى قوله ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ يقول: ما أطاعوني فيها، وتكلموا فيها بمعصية الله، وذلك أن الله عز وجل كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمد ﷺ، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا قليل، وكثر أهل الشرك وذهب الرسل وقهروا، اعتزلوا في الغيران، فلم يزل بهم ذلك حتى كفرت طائفة منهم، وتركوا أمر الله عز وجل ودينه، وأخذوا بالبدعة وبالنصرانية باليهودية، فلم يرعوها حق رعايتها، وثبتت طائفة على دين عيسى ابن مريم، صلوات الله عليه، حين جاءهم بالبينات، وبعث الله عز وجل محمداً رسولاً ﷺ، وهم كذلك فذلك قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾... إلى ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾. حدثت عن الحسن... عن الضحاك يقول في قوله ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ كان الله عز وجل كتب عليهم القتال قبل أن يبعث محمداً ﷺ، فلما استخرج أهل الإيمان، ولم يبق منهم إلا قليل، وكثر أهل الشرك،

منهم من قد رعاها حق رعايتها، فلو لم يكن منهم من كان كذلك لم يكن مستحق الأجر الذي قال جل ثناؤه ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ إلا أن الذين لم يرعوها حق رعايتها ممكن أن يكونوا كانوا على عهد الذين ابتدعوها، وممكن أن يكونوا كانوا بعدهم، لأن الذين هم من أبنائهم إذا لم يكونوا رعوها، فجائز في كلام العرب أن يقال: لم يرعها القوم على العموم، والمراد منهم البعض الحاضر، وقد مضى نظير ذلك في مواضع كثيرة من هذا الكتاب. وقوله ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ يقول تعالى ذكره: فأعطيا الذين آمنوا بالله ورسوله من هؤلاء الذين ابتدعوا الرهبانية ثوابهم على ابتغائهم رضوان الله، وإيمانهم به وبرسوله في الآخرة، وكثير منهم أهل معاص، وخروج عن طاعته، والإيمان به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني يونس... عن ابن زيد ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ﴾ قال: الذين رعوها ذلك الحق.

وانقطعت الرسل، اعتزلوا الناس، فصاروا في الغيران، فلم يزالوا كذلك حتى غيرت طائفة منهم، فتركوا دين الله وأمره وعهده الذي عهده إليهم، وأخذوا بالبدع فابتدعوا النصرانية واليهودية، فقال الله عز وجل لهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ وثبتت طائفة منهم على دين عيسى صلوات الله، عليه حتى بعث الله محمداً ﷺ، فآمنوا به. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن أبي أمامة الباهلي يقول: إن الله كتب عليكم صيام رمضان، ولم يكتب عليكم قيامه، وإنما القيام شيء ابتدعتموه، وأن قوماً ابتدعوا بدعة لم يكتبها الله عليهم، ابتغوا بها رضوان الله، فلم يرعوها حق رعايتها فعايهم الله بتركها، فقال ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾. وأولى الأقوال في ذلك بالصحة أن يقال: أن الذين وصفهم الله بأنهم لم يرعوا الرهبانية حق رعايتها، بعض الطوائف التي ابتدعتها، وذلك أن الله جل ثناؤه أخبر أنه آتى الذين آمنوا منهم أجرهم؛ قال: فدل بذلك على أن

الزمخشري ج ٤ ص ٦٧ - ٦٨

ابتغاء رضوان الله ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾ كما يجب على الناذر رعاية نذره لأنه عهد مع الله لا يحل نكته ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ يريد أهل الرحمة والرأفة الذين اتبعوا عيسى ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُتِسِقُونَ﴾ الذين لم يحافظوا على نذرهم. ويجوز أن تكون الرهبانية معطوفة على ما قبلها وابتدعوها صفة لها في محل النصب: أي وجعلنا في قلوبهم رأفة ورحمة ورهبانية مبتدعة من عندهم، بمعنى وفقناهم للتراحم بينهم، ولابتداع الرهبانية واستحداثها ما كتبناها عليهم إلا لابتغوا بها رضوان الله ويستحقوا بها الثواب على أنه كتبها عليهم وألزمها إياهم ليتخلصوا من الفتن ويبتغوا بذلك رضا الله وثوابه، فما رعوها جميعاً حق رعايتها ولكن بعضهم، فأتينا المؤمنين المراعين منهم الرهبانية أجرهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فُتِسِقُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها.

وقرىء رآفة على فعالة: أي وفقناهم للتراحم والتعاطف بينهم، ونحوه في صفة أصحاب الرسول الله ﷺ - رحماء بينهم - والرهبانية: ترهبهم في الجبال فأزين من الفتنة في الدين مخلصين أنفسهم للعبادة، وذلك أن الجبابة ظهروا على المؤمنين بعد موت عيسى فقاتلوه ثلاث مرات فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا القليل، فخافوا أن يفتنوا في دينهم فاختاروا الرهبانية، ومعناها: الفعلة المنسوبة إلى الرهبان وهو الخائف فعلان من رهب كخشيان من خشي. وقرىء ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان وانتصابهما بفعل مضممر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ﴿ابْتَدَعُوهَا﴾ يعني وأحدثوها من عند أنفسهم وندروها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ لم نفرضها نحن عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع: أي ولكنهم ابتدعوها

الرازي ج ٢٩ ص ٢٤٤ - ٢٤٦

أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام بذلك في قوله ﴿رَحِمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

المسألة الثالثة: قال صاحب الكشاف: قرىء رآفة على فعالة.

المسألة الرابعة: الرهبانية معناها الفعلة المنسوبة إلى الرهبان. وهو الخائف فعلاً من رهب، كخشيان من خشي، وقرىء: ورهبانية بالضم كأنها نسبة إلى الرهبان، وهو جمع راهب كراكب وركبان، والمراد من الرهبانية ترهبهم في الجبال فارين من الفتنة في الدين، مخلصين أنفسهم للعبادة ومتحملين كلفاً زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم من الخلوة واللباس الخشن، والاعتزال عن النساء والتعب في الغيران والكهوف، عن ابن عباس أن في أيام الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام غير الملوك التوراة والإنجيل، فساح قوم في الأرض ولبسوا الصوف، وروى ابن مسعود أنه عليه السلام، قال «يا ابن مسعود! أما علمت أن بني إسرائيل تفرقوا سبعين فرقة. كلها في النار إلا ثلاث فرق، فرقة آمنت بعيسى عليه السلام، وقاتلوا أعداء الله في نصرته حتى قتلوا، وفرقة لم يكن لها طاقة بالقتال، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، وفرقة لم يكن لها طاقة بالأمرين، فلبسوا العباء، وخرجوا إلى القفار والفيافي وهو قوله ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً﴾ إلى آخر الآية».

المسألة الخامسة: لم يعن الله تعالى بابتدعوها طريقة الذم، بل المراد أنهم أحدثوها من عند أنفسهم ونذروها، ولذلك قال تعالى ﴿مَا كُتِبَ عَلَيْهَا عَلَيْهِمْ﴾.

المسألة السادسة: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ منصوبة بفعل مضمر، يفسره الظاهر، تقديره: ابتدعوا رهبانية ابتدعوها، وقال أبو علي الفارسي: الرهبانية لا يستقيم حملها على جعلنا، لأن ما يبتدعونه هم لا يجوز أن يكون مجعولاً لله تعالى، وأقول هذا الكلام إنما يتم لو ثبت امتناع مقدور بين قادرين، ومن أين يليق بأبي على أن يخوض في أمثال هذه الأشياء.

قوله تعالى ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: معنى قفاه أتبعه بعد أن مضى، والمراد أنه تعالى أرسل بعضهم بعد بعض إلى أن انتهى إلى أيام عيسى عليه السلام فأرسله الله تعالى بعدهم وآتاه الإنجيل.

المسألة الثانية: قال ابن جني قرأ الحسن ﴿وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ بفتح الهمزة، ثم قال هذا مثال لا نظير له، لأنه أفعيل وهو عندهم من نجلت الشيء إذا استخرجته، لأنه يستخرج به الأحكام، والتوراة فوعلة من وَرَى الزند يرى إذا أخرج النار، ومثله الفرقان وهو فعلاً من فرقت بين الشيتين، فعلى هذا لا يجوز فتح الهمزة لأنه لا نظير له، وغالب الظن أنه ما قرأه إلا عن سماع وله وجهان. أحدهما: إنه شاذ كما حكى بعضهم في البرطيل. وثانيهما: إنه ظن الإنجيل أعجمياً فحرف مثاله تنبيهاً على كونه أعجمياً.

قوله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَافَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية على أن فعل العبد خلق الله تعالى وكسب للعبد، قالوا لأنه تعالى حكم بأن هذه الأشياء مجعولة لله تعالى، وحكم بأنهم ابتدعوا تلك الرهبانية، قال القاضي المراد بذلك أنه تعالى لطف بهم حتى قويت دواعيهم إلى الرهبانية، التي هي تحمل الكلفة الزائدة على ما يجب من الخلوة واللباس الخشن (والجواب) أن هذا ترك للظاهر من غير دليل، على أنا وإن سلمنا ذلك فهو يحصل مقصودنا أيضاً، وذلك لأن حال الاستواء يمتنع حصول الرجحان وإلا فقد حصل الرجحان عند الاستواء والجمع بينهما متناقض، وإذا كان الحصول عند الاستواء ممتنعاً، كان عند المرجوحية أولى أن يصير ممتنعاً، وإذا امتنع المرجوح وجب الرجحان ضرورة أنه لا خروج عن طرفي النقيض.

المسألة الثانية: قال مقاتل: المراد من الرأفة والرحمة هو أنهم كانوا مترادين بعضهم مع بعض، كما وصف الله

أحدها: إن هؤلاء الذين ابتدعوا هذه الرهبانية مارعوها حق رعايتها، بل ضموا إليها التثليث والاتحاد، وأقام أناس منهم على دين عيسى حتى أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام فآمنوا به فهو قوله ﴿فَتَأْتَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾. وثانيها: إنا ما كتبنا عليهم تلك الرهبانية إلا ليتوسلوا بها إلى مرضاة الله تعالى، ثم أنهم أتوا بتلك الأفعال، لكن لا لهذا الوجه. بل لوجه آخر، وهو طلب الدنيا والرياء والسمعة. وثالثها: إنا لما كتبناها عليهم تركوها، فيكون ذلك ذمّاً لهم من حيث أنهم تركوا الواجب. ورابعها: إن الذين لم يروعوا حق رعايتها هم الذين أدركوا محمداً عليه الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا به...

ثم قال تعالى ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي لم نفرضها نحن عليهم.

أما قوله ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ ففيه قولان: أحدهما: إنه استثناء منقطع. أي ولكنهم ابتدعوا ابتغاء رضوان الله. الثاني: إنه استثناء متصل، والمعنى أنا ما تعبدناهم بها إلا على وجه ابتغاء مرضاة الله تعالى، والمراد أنها ليست واجبة، فإن المقصود من فعل الواجب، دفع العقاب وتحصيل رضا الله، أما المندوب فليس المقصود من فعله دفع العقاب، بل المقصود منه ليس إلا تحصيل مرضاة الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا فَتَأْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾ ففيه أقوال:

البيضاوي ج ٥ ص ١٢٠

فرضناهم عليهم ﴿إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع أي ولكنهم ابتدعوا ابتغاء رضوان الله وقيل متصل فإن ما كتبناها عليهم بمعنى ما تعبدناهم بها وهو كما ينفي الإيجاب المقصود منه دفع العقاب ينفي النذب المقصود منه مجرد حصول مرضاة الله وهو يخالف قوله ابتدعوها إلا أن يقال ابتدعوها ثم ندبوا إليها أو ابتدعوها بمعنى استجدثوها وأتوا بها أولاً أنهم اخترعوها من تلقاء أنفسهم ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي فما رعوها جميعاً ﴿حَقَّ رِعَائِهَا﴾ بضم التثليث والقول بالاتحاد وقصد السمعة ولكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ بالإيمان الصحيح ومن ذلك الإيمان بمحمد ﷺ وحافظوا حقوقها ﴿مِنْهُمْ﴾ من المتسمين بأتباعه ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِيقُونَ﴾ خارجون عن حال الاتباع.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلنا رسولاً بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام والضمير لنوح وإبراهيم ومن أرسلنا إليهم أو من عاصرهما من الرسل لا للذرية فإن الرسل الملقى بهم من الذرية ﴿وَعَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ وقرىء بفتح الهمزة وأمره أهون من أمر البرطيل لأنه أعجمي ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقرىء رآفة على فعالة ﴿وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ أي وابتدعوا رهبانية ابتدعوها أو رهبانية مبتدعة على أنها من المجعولات وهي المبالغة في العبادة والرياضة والانقطاع عن الناس منسوبة إلى الرهبان وهو المبالغ في الخوف من رهب كالخشيان من خشى وقرئت بالضم كأنها منسوبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما

الخازن ج ٧ ص ٣٨ - ٤٠

بعضهم لبعض ﴿وَرَهَابَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ ليس هذا عطفاً على ما قبله والمعنى أنهم جاءوا بها من قبل أنفسهم وهي ترهبهم في الجبال والكهوف والغيان والديرة فروا من الفتنة وحملوا أنفسهم المشاق في العبادة الزائدة وترك النكاح واستعمال الخشن في المطعم والمشرب والملبس

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي أتبعنا ﴿عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ بِرُسُلِنَا﴾ والمعنى بعثنا رسولاً بعد رسول إلي أن انتهت الرسالة إلى عيسى ابن مريم وهو قوله تعالى ﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ﴾ أي على دينه ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ يعني أنهم كانوا متوادين

مع التقليل من ذلك ﴿ مَا كُنْتُمْ عَلَيْهَا ﴾ . أي ما فرضناها نحن عليهم . . . فذلك قوله تعالى ﴿ فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ وهم الذين ثبتوا على الدين الصحيح ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وهم الذين تركوا الرهبانية وكفروا بدين عيسى ﷺ وروى البغوي بإسناد الثعلبي عن ابن مسعود قال دخلت على رسول الله ﷺ فقال يا ابن مسعود «اختلف من كان قبلكم على اثنتين وسبعين فرقة نجا منها ثلاث وهلك سائرهن: فرقة وازت الملوك وقتلوه على دين عيسى فأخذوهم وقتلوه، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا أن يقيموا بين ظهرانهم يدعونهم إلى دين الله ودين عيسى فساحوا في البلاد وترهبوا وهم الذين قال الله عز وجل فيهم ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم» قال ﷺ «من آمن بي وصدقني واتبعني فقد رعاها حق رعايتها ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الهالكون» وعنه قال كنت رديف رسول الله ﷺ على حمار فقال لي «يا ابن أم عبد هل تدري من أين أخذت بنو إسرائيل الرهبانية؟ قلت الله ورسوله أعلم قال ظهرت عليهم الجبابة بعد عيسى يعملون بالمعاصي فغضب أهل الإيمان فقاتلوه فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن ظهروا لهؤلاء فتنونا ولم يبق أحد يدعو إليه تعالى فتعالوا لتتفرق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الذي وعدنا عيسى به - يعنون محمداً ﷺ - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا الرهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر ثم تلا هذه الآية - ورهبانية ابتدعوها - إلى - فتأينا الذين آمنوا منهم - أي من الذين ثبتوا عليها أجروهم ثم قال النبي ﷺ «يا ابن أم عبد أتدري ما رهبانية أمتي؟ قلت الله ورسوله أعلم قال الهجرة والصلاة والجهاد والصوم والحج والعمرة والتكبير على التلاع» وروى عن أنس عن النبي ﷺ قال «إن لكل أمة رهبانية ورهبانية هذه الأمة الجهاد في سبيل الله» وعن ابن عباس قال «كانت ملوك بعد عيسى عليه الصلاة والسلام بدلوا التوراة والإنجيل وكان فيهم جماعة مؤمنون يقرءون التوراة والإنجيل ويدعونهم إلى دين الله فقبل لملوكهم لو جمعتم هؤلاء الذين شقوا عليكم فقتلوه أو دخلوا فيما نحن

فجمعهم ملكهم وعرض عليهم القتل أو يتركوا قراءة التوراة والإنجيل إلا ما بدلوا منها فقالوا ما تريدون إلى ذلك دعونا نحن نكفيكم أنفسنا فقالت طائفة منهم ابنوا لنا أسطوانات ثم ارفعونا فيه ثم أعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا فلا نرد عليكم وطائفة قالت دعونا نسيح في الأرض ونهيم ونشرب كما يشرب الوحش فإن قدرتم علينا في أرضكم فاقتلونا وقالت طائفة منهم ابنوا لنا دوراً في الفيافي ونحفر الآبار ونحترث البقول ولا نرد عليكم ولا نمر عليكم وليس أحد من القبائل إلا وله حميم فيهم قال ففعلوا ذلك فمضى أولئك على منهاج عيسى وخلف قوم من بعدهم ممن غيروا الكتاب فجعل الرجل يقول نكون في مكان فلان نتعبد كما تعبد فلان ونسيح كما ساح فلان ونأخذ دوراً كما اتخذ فلان وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان الذين اقتدروا بهم فذلك قول الله عز وجل ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ يعني ابتدعها الصالحون فما رعوها حق رعايتها يعني الآخرين الذين جاءوا من بعدهم ﴿ فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين ابتدعوها ﴿ آتِيعَا رِضْوَانِ اللَّهِ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴾ وهم الذين جاءوا من بعدهم فلما بعث النبي ﷺ ولم يبق منهم إلا القليل انحط رجل من صومعته، وجاء سائح من سياحته، وصاحب دير من ديره فأمنوا به وصدقوه فقال الله تعالى ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْقُضُوا اللَّهَ وَءَامَنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨] أجريين بإيمانهم بعيسى وبالتوراة والإنجيل وإيمانهم بمحمد ﷺ وتصديقهم له وقال ﴿ وَبَجَعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ ﴾ [الحديد: ٢٨] . القرآن وأتباعهم النبي ﷺ وقال ﴿ إِيَّالَا يَعْلَمُ أَهْلُ الْكِتَابِ ﴾ [الحديد: ٢٩] الذين يتشبهون بكم ﴿ أَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الحديد: ٢٩] . الآية أخرجه النسائي موقوفاً على ابن عباس وقال قوم انقطع الكلام عند قوله ورحمة ثم قال ورهبانية ابتدعوها وذلك أنهم تركوا الحق فأكلوا الخنزير وشربوا الخمر وتركوا الوضوء والغسل من الجنابة والختان ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ يعني الملة والطاعة حق رعايتها كناية عن غير مذكور ﴿ فَتَأْتِينَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة ﴿ وَكَثِيرٌ

﴿ مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا ﴾ ولكن ابتغاء رضوان الله وابتغاء رضوان الله أتباع ما أمر به دون الترهّب لأنه لم يأمر به .

مَنْهُمْ فَلْيَسْقُونَ ﴿ وهم الذين غيروا وبدلوا وابتدعوا الرهبانية ويكون معنى قوله ﴿ أَبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴾ على هذا التأويل

القرطبي ج ١٧ ص ٢٦٢ - ٢٦٦

فيه أربع مسائل :

الأولى : قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا ﴾ أي أتبعنا ﴿ عَلَى أَثَرِهِمْ ﴾ أي على آثار الذرية . وقيل : على آثار نوح وإبراهيم ﴿ بِرُسُلِنَا ﴾ موسى وإلياس وداود وسليمان ويونس وغيرهم ﴿ وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ فهو من ذرية إبراهيم من جهة أمه ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب المنزل عليه . وتقدّم اشتقاقه في أول سورة (آل عمران) .

الثانية : قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ ﴾ على دينه يعني الحواريين وأتباعهم ﴿ رَأْفَةً وَرَحْمَةً ﴾ أي مودة فكان يواد بعضهم بعضاً . وقيل : هذا إشارة إلى أنهم أمروا في الإنجيل بالصلح وترك إيذاء الناس وألأن الله قلوبهم لذلك ، بخلاف اليهود الذين قست قلوبهم وحزفوا الكلم عن مواضعه . والرأفة اللين ، والرحمة الشفقة . وقيل : الرأفة تخفيف الكل ، والرحمة تحلّ الثقل . وقيل : الرأفة أشد الرحمة . وتم الكلام . ثم قال : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ أي من قبل أنفسهم . والأحسن أن تكون الرهبانية منصوبة بإضمار فعل ؛ قال أبو علي : وأبتدعوها رهبانيةً ابتدعوها . وقال الزجاج : أي أبتدعوها رهبانية ؛ كما تقول رأيت زيدا وعمراً كلمت . وقيل : إنه معطوف على الرأفة والرحمة ؛ والمعنى على هذا أن الله تعالى أعطاهم إياها فغيروا وأبتدعوا فيها . قال الماوردي : وفيها قراءتان ؛ إحداهما بفتح الراء وهي الخوف من الرّهب . الثانية بضم الراء وهي منسوبة إلى الرّهبان كالرّضوانية من الرّضوان ؛ وذلك لأنهم حملوا أنفسهم على المشقات في الامتناع من المطعم والمشرب والنكاح والتعلق بالكهوف والصوامع ، وذلك أن ملوكهم غيروا وبدّلوا وبقي نفر قليل فترهبوا وتبتّلوا . قال الضحاك : إن ملوكاً بعد عيسى عليه السلام ارتبكوا المحارم ثلثمائة سنة ، فأنكرها عليهم من كان بقي على منهاج عيسى فقتلوه ، فقال قوم بقوا بعدهم : نحن إذا

نهيناهم قتلونا فليس يسعنا المقام بينهم ، فاعتزلوا الناس واتخذوا الصوامع . . .

في قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ﴾ قال : كانت ملوك بعد عيسى بدلوا التوراة والإنجيل ، وكان فيهم مؤمنون يقرأون التوراة والإنجيل ويدعون إلى دين الله تعالى ، فقال أناس لملكهم : لو قتلنا هذه الطائفة . فقال المؤمنون : نحن نكفيكم أنفسنا . فطائفة قالت : أبناؤنا اسطوانة ارفعونا فيها ، وأعطونا شيئاً نرفع به طعامنا وشرابنا ولا نرد عليكم . وقالت طائفة : دعونا نهيم في الأرض ونسيح ، ونشرب كما تشرب الوحوش في البرية ، فإذا قدرتم علينا فاقتلونا . وطائفة قالت إبنوا لنا في الفياضي ونحتفر الآبار ونحترث البقول فلا ترونا . وليس أحد من هؤلاء إلا وله حميم منهم ففعلوا ، فمضى أولئك على منهاج عيسى ، وخلف قوم من بعدهم ممن قد غيّر الكتاب فقالوا : نسيح ونتعبد كما تعبد أولئك ، وهم على شركهم لا علم لهم بإيمان من تقدّم من الذين اقتدوا بهم ؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهَا ﴾ إلاّ أَبْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ الآية . يقول : «ابتدعها هؤلاء الصالحون» ﴿ فَمَا رَعَوْهَا ﴾ المتأخرون ﴿ حَقَّ رِعَايَتِهَا ﴾ ﴿ فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ ﴾ يعني الذين ابتدعوها أولاً وَرَعَوْهَا ﴿ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَلْيَسْقُونَ ﴾ يعني المتأخرين ، فلما بعث الله محمداً ﷺ ولم يبق منهم إلا قليل ، جاءوا من الكهوف والصّوامع والغيران فآمنوا بمحمد ﷺ .

الثالثة : وهذه الآية دالة على أن كل محدثة بدعة ، فينبغي لمن أبتدع خيراً أن يدوم عليه ، ولا يعدل عنه إلى ضده فيدخل في الآية . وعن أبي أمامة الباهلي - واسمه صُدَى بن عجلان - قال : أحدثتم قيام رمضان ولم يكتب عليكم : إنما كتب عليكم الصيام ، فدوموا على القيام إذ فعلتموه ولا تتركوه ، فإن ناساً من بني إسرائيل ابتدعوا بدعاً لم يكتبها الله عليهم ابتغوا بها رضوان الله فما رَعَوْهَا

الإيمان فقاتلوهم فهزم أهل الإيمان ثلاث مرات فلم يبق منهم إلا القليل فقالوا إن أفنونا فلم يبق للدين أحد يدعون إليه فتعالوا نفترق في الأرض إلى أن يبعث الله النبي الأمي الذي وعدنا عيسى - يعنون محمداً ﷺ - فتفرقوا في غيران الجبال وأحدثوا رهبانية فمنهم من تمسك بدينه ومنهم من كفر - وتلا ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ الآية - أتدري ما رهبانية أممي الهجرة والجهاد والصوم والصلاة والحج والعمرة والتكبير على الثلاث يابن مسعود أختلف من كان قبلكم من اليهود على إحدى وسبعين فرقة، فنجا منهم فرقة وهلك سائرهما، واختلف من كان من قبلكم من النصارى على اثنين وسبعين فرقة، فنجا منهم ثلاثة وهلك سائرهما فرقة وازت الملوك وقاتلتهم على دين الله ودين عيسى - عليه السلام - حتى قتلوا، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك أقاموا بين ظهرائي قومهم فدعوههم إلى دين الله ودين عيسى بن مريم، فأخذتهم الملوك وقتلتهم وقطعتهم بالمناشير، وفرقة لم تكن لهم طاقة بموازاة الملوك ولا بأن يقيموا بين ظهرائي قومهم، فیدعوههم إلى دين الله ودين عيسى ابن مريم، فساحوا في الجبال وترهبوا فيها وهي التي قال الله تعالى فيهم: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ الآية - فمن آمن بي وأتبعني وصدقني فقد رعاها حق رعايتها، ومن لم يؤمن بي فأولئك هم الفاسقون، يعني الذي تهجدوا وتنصروا. وقيل: هؤلاء الذين أدركوا محمداً ﷺ، فلم يؤمنوا به فأولئك هم الفاسقون. وفي الآية تسلية للنبي ﷺ؛ أي إن الأولين أصروا على الكفر أيضاً فلا تعجب من أهل عصرك إن أصروا على الكفر. والله أعلم.

حق رعايتها، فعابهم الله بتركها فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَائِهَا﴾.

الرابعة: وفي الآية دليل على العزلة عن الناس في الصوامع والبيوت، وذلك مندوب إليه عند فساد الزمان وتغير الأصدقاء والإخوان. وقد مضى بيان هذا في سورة «الكهف» مستوفى والحمد لله. وفي مسند أحمد بن حنبل من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في سرية من سراياه فقال: مَرَّ رَجُلٌ بِغَارٍ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ مَاءٍ، فَحَدَّثَ نَفْسَهُ بِأَنْ يَقِيمَ فِي ذَلِكَ الْغَارِ، فَيَقُوتَهُ مَا كَانَ فِيهِ مِنْ مَاءٍ وَيَصِيبُ مَا حَوْلَهُ مِنَ الْبَقْلِ وَيَتَخَلَّى عَنِ الدُّنْيَا. قال: لو أني أتيت النبي ﷺ فذكرت ذلك له فإن أذن لي فعلت وإلا لم أفعل، فأتاه فقال: يا نبي الله! إني مررت بغار فيه ما يقوتني من الماء والبقل، فحدثتني نفسي بأن أقيم فيه وأتخلى من الدنيا. قال: فقال النبي ﷺ: «إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكني بعثت بالحنيفية السمحة والذي نفس محمد بيده لَعْدُوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا وَلِمَقَامِ أَحَدِكُمْ فِي الصَّفِّ الْأَوَّلِ خَيْرٌ مِنْ صَلَاتِهِ سِتِينَ سَنَةً». وروى الكوفيون عن ابن مسعود، قال قال لي رسول الله ﷺ: «هل تدري أي الناس أعلم» قال قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «أعلم الناس أبصرهم بالحق إذا اختلف الناس فيه وإن كان مقصراً في العمل وإن كان يزحف على آسته هل تدري من أين اتخذ بنو إسرائيل الرهبانية ظهرت عليهم الجبابرة بعد عيسى يعملون بمعاصي الله فغضب أهل

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٢٧ - ٢٢٩

جميعها في ذرية إبراهيم عليه السلام وإبراهيم من ذرية نوح، فصدق أنها في ذريتهما وفي مصحف عبد الله والنية مكتوبة بالياء عوض الواو. وقال ابن عباس: والكتاب الخط بالقلم، والظاهر أن الضمير في منهم عائد على الذرية. وقيل: يعود على المرسل إليهم للدلالة ذكر الإرسال والمرسلين عليهم، ومع إرسال الرسل وإنزال الكتب وإزاحة العلل بذلك انقسموا إلى مهتد وفاسق،

لما ذكر تعالى إرسال الرسل جملة أفرد منهم في هذه الآية نوحاً وإبراهيم عليهما السلام تشريفاً لهما بالذكر، أما نوح فلأنه أول الرسل إلى من في الأرض، وأما إبراهيم فلأنه انتسب إليه أكثر الأنبياء عليهم السلام، وهو معظم في كل الشرائع، ثم ذكر أشرف ما حصل لذريتهما وذلك النبوة وهي التي بها هدى الناس من الضلال والكتاب وهي الكتب الأربعة: التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، وهي

بالاتداء، ولا يجوز الابتداء هنا بقوله: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ لأنها نكرة لا مسوغ لها من المسوغات للاتداء بالنكرة. وروي في ابتداعهم الرهبانية أنهم اختلفوا ثلاث فرق. ففرقة قاتلت الملوك على الدين فغلبت وقتلت وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبينونه، ولم تقاتل فأخذها الملوك ينشرونهم بالمناشير فقتلوا. وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنت الصوامع والديارات، وطلبت أن تسلم على أن تعتزل فتركت، والرهبانية الفعلية المنسوبة إلى الرهبان، وهو الخائف بني فعلا من رهب كالخشيان من خشي وقرىء ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ بالضم. قال الزمخشري: كأنها نسبة إلى الرهبان وهو جمع راهب كراكب وركبان، انتهى. والأولى أن يكون منسوباً إلى رهبان، وغير بضم الراء لأن النسب باب تغيير، ولو كان منسوباً إلى رهبان الجمع لرد إلى مفردة، فكان يقال راهبية إلا أن كان قد صار كالعلم فإنه ينسب إليه على لفظه كالأنصار، والظاهر أن ﴿إِلَّا أَبَتَعَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء متصل من ما هو مفعول من أجله، وصار المعنى أنه تعالى كتبها عليهم ابتغاء مرضاته، وهذا قول مجاهد، ويكون كتب بمعنى قضى. وقال قتادة وجماعة: المعنى لم يفرضها عليهم، ولكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله تعالى، فالاستثناء على هذا منقطع، أي: لكن ابتدعوها لابتغاء رضوان الله تعالى والظاهر أن الضمير في (رعوها) عائد على ما عاد عليه في ابتدعوها، وهو ضمير الذين اتبعوه، أي: لم يرعوها كما يجب على الناذر رعاية نذره، لأنه عهد مع الله لا يحل نكته: وقال نحوه ابن زيد، قال: لم يدوموا على ذلك، ولا وفوه حقه، بل غيروا وبدلوا، وعلى تقدير أن فيهم من رعى يكون المعنى: فما رعوها بأجمعهم. وقال ابن عباس وغيره: الضمير للملوك الذين حاربهم وأجلوهم. وقال الضحاك وغيره: الضمير للأخلاف الذين جاؤوا بعد المبتدعين لها. ﴿فَتَأْتِنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم أهل الرأفة والرحمة الذين اتبعوا عيسى عليه السلام. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَتَسْتُونَ﴾ وهم الذين لم يرعوها.

وأخبر بالفسق عن الكثير منهم. ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا﴾ أي: اتبعنا وجعلناهم يقفون من تقدم ﴿عَلَىٰ أَثَرِهِمْ﴾ أي: آثار الذرية ﴿مِرْسَلَنَا﴾ وهم الرسل الذين جاؤوا بعد الذرية ﴿وَقَفَّيْنَا عِيسَى﴾ ذكره تشريفاً له ولانتشار أمته، ونسبه لأمه على العادة في الأخبار عنه، وتقدمت قراءة الحسن ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ بفتح الهمزة في أول سورة آل عمران. قال أبو الفتح: وهو مثال لا نظير له، انتهى. وهي لفظة أعجمية فلا يلزم فيها أن تكون على أبنية كلم العرب. وقال الزمخشري: أمره أهون من أمر البرطيل يعني أنه بفتح الباء، وكأنه عربي، وأما الإنجيل فأعجمي. وقرىء رافة على وزن فعالة، وجعلنا يحتمل أن يكون المعنى وخلقنا. كقوله ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] ويحتمل أن يكون بمعنى صيرنا فيكون في قلوب في موضع المفعول الثاني لجعلنا. ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ معطوف على ما قبله فهي داخلة في الجمل. ﴿أَبْتَدَعُوهَا﴾ جملة في موضع الصفة للرهبانية، وخصت الرهبانية بالاتداع، لأن الرأفة والرحمة في القلب لا تكسب للإنسان فيها بخلاف الرهبانية، فإنها أفعال بدن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسب. قال قتادة الرأفة والرحمة من الله، والرهبانية هم ابتدعوها، والرهبانية رفض الدنيا وشهواتها من النساء وغيرهن واتخاذ الصوامع، وجعل أبو علي الفارسي: ورهبانية مقتطعة من العطف على ما قبلها من رأفة ورحمة، فانتصب عنده ورهبانية على إضمار فعل يفسره ما بعده، فهو من باب الاشتغال، أي: وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، واتبعه الزمخشري، قال: وانتصابها بفعل مضمر يفسره الظاهر تقديره وابتدعوا رهبانية ابتدعوها، يعني: وأحدثوها من عند أنفسهم ونذورها، انتهى. وهذا إعراب المعتزلة، وكان أبو علي معتزلياً وهم يقولون ما كان مخلوقاً لله لا يكون مخلوقاً للعبد، فالرأفة والرحمة من خلق الله، والرهبانية من ابتداع الإنسان فهي مخلوقة له، وهذا الإعراب الذي لهم ليس بجيد من جهة صناعة العربية، لأن مثل هذا هو مما يجوز فيه الرفع

﴿وَلَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾

(سورة الصف، رقم ٦١، الآية ٦)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٨	ص ٥٧	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٦٠ - ٢٦٤
الزمخشري	ج ٤	ص ٩٨ - ٩٩	ابن كثير	ج ٤	ص ٣٥٩ - ٣٦١
الرازي	ج ٢٩	ص ٣١٢ - ٣١٣	الجلالان		ص ٧٢٨ - ٧٢٩
الطبرسي	ج ٢٨	ص ٦٠ - ٦٢	الشركاني	ج ٥	ص ٢١٩ - ٢٢١
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٣٦ - ٦٣٨	الآلوسي	ج ٢٨	ص ٨٤ - ٨٩
البيضاوي	ج ٥	ص ١٣١	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٧٨٦ - ٥٧٨٧
الخانزاد	ج ٧	ص ٨٤ - ٨٥	الطباطبائي	ج ١٩	ص ٢٤٧ - ٢٥٧
البغوي	ج ٤	ص ٣٠٨	جوهري	ج ٢٤	ص ١٦٩ - ١٧٣
الماوردي	ج ٥	ص ٥٢٩	المراغي	ج ٢٨	ص ٨٤ - ٨٥
القرطبي	ج ١٨	ص ٨٣ - ٨٤	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٥٤٩ - ٣٥٦١

الطبري ج ٢٨ ص ٥٧

رسول الله ﷺ يقول: إني عند الله مكتوب لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طيئته، وسأخبركم بأول ذلك: دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، والرؤيا التي رأت أمي، وكذلك أمهات النبيين، يرين أنها رأت حين وضعتني أنه خرج منها نور أضاءت منه قصور الشام. فلما جاءهم بالبينات يقول فلما جاءهم أحمد بالبينات، وهي الدلالات التي آتاه الله حججاً على نبوته قالوا هذا سحر مبين، يقول: بين ما أتى به غير أنه ساحر.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَلَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ يقول تعالى ذكره: واذكر أيضاً يا محمد ﴿وَلَمَّا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ لقومه من بني إسرائيل ﴿بَنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ التي أنزلت على موسى ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ أبشركم ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ حدثني يونس... عن عرياض بن سارية، قال: سمعت

الزمخشري ج ٤ ص ٩٨ - ٩٩

العمل. فإن قلت: بم انتصب مصدقاً ومبشراً أبما في الرسول من معنى الإرسال أم باليكم؟ قلت: بل بمعنى الإرسال لأن إليكم صلة للرسول فلا يجوز أن تعمل شيئاً، لأن حروف الجر لا تعمل بأنفسها، ولكن بما فيها من معنى الفعل، فإذا وقعت صلوات لم تتضمن معنى فعل فمن أين تعمل؟ وقرئ هذا ساحر مبين. وأي الناس أشد ظلماً ممن يدعوه ربه على لسان نبيه إلى الإسلام الذي له فيه سعادة الدارين، فيجعل مكان إجابته إليه إفتراء الكذب على الله بقوله لكلامه الذي هو دعاء عباده إلى الحق هذا سحر لأن السحر كذب وتمويه.

قيل إنما قال يا بني إسرائيل، ولم يقل يا قوم كما قال موسى لأنه لا نسب له فيهم فيكونوا قومه، والمعنى: أرسلت إليكم في حال تصديقي، ما تقدمني (من التوراة)، وفي حال تبشيري (برسول يأتي من بعدي) يعني أن ديني التصديق بكتب الله وأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر. وقرئ من بعدي بسكون الباء وفتحها، والخليل وسيبويه يختاران الفتح. وعن كعب أن الحواريين قالوا لعيسى: يا روح الله هل بعدنا من أمة؟ قال: نعم أمة أحمد حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء، يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من

الرازي ج ٢٩ ص ٣١٢-٣١٣

في الإصحاح الخامس عشر هذا اللفظ «وأما الفارقليط روح القدس يرسله أبي باسمي، ويعلمكم ويمنحكم جميع الأشياء، وهو يذكركم ما قلت لكم»، ثم ذكر بعد ذلك بقليل «وإني خبرتكم بهذا قبل أن يكون حتى إذا كان ذلك تؤمنون»، وثانيها: ذكر في الإصحاح السادس عشر هكذا «ولكن أقول لكم حقاً يقيناً انطلاقي عنكم خير لكم، فإن لم أنطلق عنكم إلى أبي لم يأتكم الفارقليط، وإن انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء هو يفيد أهل العالم، ويدينهم ويمنحهم ويوقفهم على الخطيئة والبر والدين». وثالثها: ذكر بعد ذلك بقليل هكذا «فإن لي كلاماً كثيراً أريد أن أقوله لكم، ولكن لا تقدرُونَ على قبوله والاحتفاظ له، ولكن إذا جاء روح الحق إليكم يلهمكم ويؤيدكم بجميع الحق، لأنه ليس يتكلم بدعة من تلقاء نفسه» هذا ما في الإنجيل، فإن قيل المراد بفارقليط إذا جاء يرشدكم إلى الحق ويعلمهم الشريعة، هو عيسى يجيء بعد الصلب؟ نقول ذكر الحواريون في آخر الإنجيل أن عيسى لما جاء بعد الصلب ما ذكر شيئاً من الشريعة، وما علمهم شيئاً من الأحكام، وما لبث عندهم إلا لحظة، وما تكلم إلا قليلاً، مثل أنه قال «أنا المسيح فلا تظنوني ميتاً، بل أنا ناج عند الله ناظر إليكم، وإني ما أوحى بعد ذلك إليكم» فهذا تمام الكلام، وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل هو عيسى، وقيل هو محمد، ويدل على أن الذي جاءهم بالبينات جاءهم بالمعجزات والبيانات التي تبين أن الذي جاء به من عند الله، وقوله تعالى ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾ أي ساحر مبین.

قال تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي لِإِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾ . . . قوله ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ﴾ أي اذكروا إني رسول الله أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ومصدقاً بالتوراة وبكتب الله وبأنبيائه جميعاً ممن تقدم وتأخر ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ يصدق بالتوراة على مثل تصديقي، فكأنه قيل له: ما اسمه؟ فقال اسمه أحمد، فقوله ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ جملتان في موضع الجبر لأنهما صفتان للنكرة التي هي رسول، وفي ﴿بَعْدِي اسْمُهُ﴾ قراءتان تحريك الياء بالفتح على الأصل، وهو الاختيار عند الخليل وسيبويه في كل موضع تذهب فيه الياء لالتقاء ساكنين وإسكانها، كما في قوله تعالى ﴿وَلَمَنْ دَخَلَ بُيُوتَهُمْ﴾ [نوح: ٢٨] فمن أسكن في قوله ﴿مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ﴾ حذف الياء والسين من اسمه، قال المبرد وأبو علي، وقوله تعالى ﴿أَحْمَدُ﴾ يحتمل معنيين. أحدهما: المبالغة في الفاعل، يعني أنه أكثر حمداً من غيره. وثانيهما: المبالغة من المفعول، يعني أنه يحمد بما فيه من الإخلاص والأخلاق الحسنة أكثر ما يحمد غيره.

ولنذكر الآن بعض ما جاء به عيسى عليه السلام بمقدم سيدنا محمد عليه السلام في الإنجيل في عدة مواضع. أولها: في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا: «وأنا أطلب لكم إلى أبي حتى يمنحكم ويعطيكم الفارقليط حتى يكون معكم إلى الأبد، والفارقليط وهو روح الحق اليقين» هذا لفظ الإنجيل المنقول إلى العربي، وذكر

الطبرسي ج ٢٨ ص ٦٠-٦٢

قال عيسى ابن مريم لقومه الذين بعث إليهم ﴿يَتَّبِعِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ المنزل على موسى ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني نبينا محمداً ﷺ كما قال الشاعر:

صلى الإله ومن يحف بعشره
والطيون على المبارك أحمد

. . . قوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعِي لِإِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾ .

ثم عطف سبحانه بقصة عيسى، عليه السلام، على قصة موسى فقال: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر إذ

الآية أن عيسى بشر قومه بمحمد ﷺ وبنوته، وأخبرهم برسالته، وفي هذه البشرى معجزة لعيسى، عليه السلام، عند ظهور محمد ﷺ وأمر لأمته أن يؤمنوا به عند مجيئه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد ﴿يَا بَيِّنَتِ﴾ أي بالدلالات الظاهرة والمعجزات الباهرة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾ أي ظاهر.

... وصحت الرواية عن الزهري عن محمد بن جبير بن المطعم عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ «إن لي أسماء أنا أحمد وأنا محمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي» أورده البخاري في الصحيح. وقد تضمنت

الخازن ج ٧ ص ٨٤ - ٨٥

الله هل بعدنا من أمة قال نعم. يأتي أمة حكماء علماء أبرار أتقياء كأنهم في الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم باليسير من العمل (ق) عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي يوم القيامة، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي وقد سماه الله تعالى رؤوفاً رحيماً»، وأحمد يحتمل معنيين أحدهما أنه مبالغة من الفاعل، ومعناه أن الأنبياء كلهم حمادون لله عز وجل، وهو أكثر حمداً لله من غيره والثاني أنه مبالغة من المفعول، ومعناه أن الأنبياء كلهم محمودون لما فيهم من الخصال الحميدة، وهو أكثر مبالغة وأجمع للفضائل والمحاسن والأخلاق التي يحمد بها من غيره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ يَابَيِّنَتِ﴾ قيل هو عيسى ﷺ وقيل هو محمد ﷺ ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّؤْتَيْنِ﴾ أي ظاهر.

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَتَّبِعْ لِأَمْرِي إِلَهَ إِيَّاكُمْ﴾ أي إني رسول أرسلت إليكم بالوصف الذي وصفت به في التوراة ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مقرر معترف بأحكام التوراة، وكتب الله وانبيائه جميعاً ممن تقدم ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ أي يصدق بالتوراة على مثل تصديقي فكانه قيل ما اسمه فقال: (اسمه أحمد) عن أبي موسى قال: «أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يأتوا النجاشي» وذكر الحديث وفيه قال سمعت النجاشي يقول أشهد أن محمداً رسول الله وأنه الذي بشر به عيسى ولولا ما أنا فيه من الملك وما تحملت من أمر الناس لأتيت حتى أحمل نعليه» أخرجه أبو داود عن عبدالله بن سلام قال: مكتوب في التوراة صفة محمد وعيسى ابن مريم يدفن معه، فقال أبو داود المدني قد بقي في البيت موضع قبر أخرجه الترمذي عن كعب الأحبار أن الحواريين قالوا لعيسى ﷺ: يا روح

القرطبي ج ١٨ ص ٨٣ - ٨٤

عاصم. واختاره أبو حاتم لأنه اسم؛ مثل الكاف من بعدك. والتاء من قمت. الباقر بالإسكان. وقرئ «من بعدي اسمه أحمد» بحذف الياء من اللفظ. و«أحمد» اسم نبينا ﷺ. وهو اسم علم منقول من صفة لا من فعل؛ فتلك الصفة أفعال التي يراد بها التفضيل... والأنبياء صلوات الله عليهم كلهم حامدون لله، ونبينا أحمد أكثرهم حمداً. وأما محمد فممنقول من صفة أيضاً، وهي في معنى محمود؛ ولكن فيه معنى المبالغة والتكرار. فالمحمد هو الذي حُمد بعد مرة. كما أن المكرم من الكرم مرة بعد مرة. وكذلك الممدوح ونحو ذلك، فاسم محمد مطابق

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ أي واذكر لهم هذه القصة أيضاً. وقال: ﴿يَتَّبِعْ لِأَمْرِي﴾، ولم يقل «يا قوم» كما قال موسى؛ لأنه لا نسب له فيهم فيكونون قومه. ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي بالإنجيل. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. لأن في التوراة صفتي، وأني لم أتكم بشيء يخالف التوراة فتتفروا عني ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ﴾ مصدقاً «ومبشراً» نصب على الحال؛ والعامل فيها معنى الإرسال. و«إليكم» صلة الرسول. ﴿يَأْتِي مِنْ بَعْدِي أَسْمُهُ أَهْمَدُ﴾ قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ﴿مِنْ بَعْدِي﴾ بفتح الياء، وهي قراءة السلمي وزر بن حبيش، وأبي بكر عن

يفتحها عليه، فيكون أحمد الناس لربه ثم يشفع فيحمد على شفاعته. وروي أن النبي ﷺ قال: اسمي في التوراة أحيّد لأنّي أحيّد أمتي عن النار، واسمي في الزبور الماحي محّا الله بي عبدة الأوثان، واسمي في الإنجيل أحمد واسمي في القرآن محمد لأنّي محمود في أهل السماء والأرض». وفي الصحيح «لي خمسة أسماء أنا محمد وأنا أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر وأنا الحاشر الذي تحشر الناس على قدمي وأنا العاقب». وقد تقدم. ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ﴾ قيل عيسى. وقيل محمد صلى الله عليهما وسلم. ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ قرأ الكسائي وحمزة «ساحر» نعتاً للرجل. وروي أنها قراءة ابن مسعود. الباقون «سحر» نعتاً لما جاء به الرسول.

لمعناه، والله سبحانه سماه قبل أن يُسمّي به نفسه. فهذا عَلِمَ من أعلام نبوّته، إذ كان اسمه صادقاً عليه؛ فهو محمود في الدنيا لما هدى إليه ونفع به من العلم والحكمة. وهو محمود في الآخرة بالشفاعة. فقد تكرر معنى الحمد كما يقتضي اللفظ. ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان أحمد، حمّد ربّه فتبّاه وشرّفه؛ فلذلك تقدّم اسم أحمد على الاسم الذي هو محمد، فذكره عيسى عليه السلام فقال: «اسمه أحمد». وذكره موسى عليه السلام حين قال له ربه: تلك أمة أحمد، فقال: اللهم اجعلني من أمة أحمد. فبأحمد ذكره قبل أن يذكره بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له. فلما وجد وبعث كان محمداً بالفعل. وكذلك في الشفاعة يحمد ربه بالمحامد التي

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٢٦٠ - ٢٦٣

وقال القشيري: بشر كل نبي قومه بنينا محمد - ﷺ - والله أفرد عيسى بالذكر في هذا الوضع لأنه آخر نبي قبل نبينا - ﷺ - فبين أن البشارة به عمت جميع الأنبياء واحداً بعد واحد حتى انتهت إلى عيسى عليه السلام، والظاهر أن الضمير المرفوع في جاءهم يعود على عيسى، لأنه المحدث عنه. وقيل: يعود على أحمد لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد - ﷺ - وذلك على سبيل الإخبار للمؤمنين، أي: فلما جاء المبشر به هؤلاء الكفار بالمعجزات الواضحة ﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ الجمهور (سحر) أي: ما جاء من البينات. وقرأ عبد الله وطلحة والأعمش وابن وثاب (ساحر) أي: هذا الحال ساحر.

وهناك قال ﴿يَقُولُ﴾ لأنه من بني إسرائيل وهنا قال عيسى ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ﴾ من حيث لم يكن له فيهم أب، وإن كانت أمه منهم، و﴿مُصَدِّقًا﴾ و﴿مُبَشِّرًا﴾ حالان، والعامل رسول، أي: مرسل ويأتي و(اسمه) جملة في موضع الصفة لرسول أخبر أنه مصدق لما تقدم من كتب الله الإلهية، ولمن تأخر من النبي المذكور، لأن التبشير بأنه رسول تصديق لرسالته. وروي أن الحواريين قالوا: يا رسول الله هل من بعدنا من أمة: قال نعم، أمة أحمد - ﷺ - حكماء علماء أبرار أتقياء، كأنهم من الفقه أنبياء يرضون من الله باليسير من الرزق، ويرضى الله منهم بالقليل من العمل، وأحمد علم منقول من المضارع للمتكلم، أو من أحمد أفعال التفضيل، وقال حسان: صَلَّى إِلَٰهٌ وَمَنْ يَحُفُّ بِعَرْشِهِ وَالطَّيِّبُونَ عَلَى الْمُبَارِكِ أَحْمَدِ

ابن كثير ج ٤ ص ٣٥٩ - ٣٦١

خاتم أنبياء بني إسرائيل وقد أقام في ملأ بني إسرائيل مبشراً بمحمد وهو أحمد خاتم الأنبياء والمرسلين الذي لا رسالة بعده ولا نبوة، وما أحسن ما أورد البخاري الحديث الذي قال... عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إن لي أسماء أنا محمد وأنا

وقوله تعالى ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ يعني التوراة قد بشرت بي وأنا مصداق ما أخبرت عنه وأنا مبشر بمن بعدي وهو الرسول النبي الأمي العربي المكي أحمد. فعيسى عليه السلام هو

النجاشي، وبعثت قريش عمرو بن العاص وعمار بن الوليد بهدية فلما دخلا على النجاشي سجدا له ثم ابتدراه عن يمينه وعن شماله، ثم قالوا له إن نفراً من بني عمنا نزلوا أرضك ورغبوا عنا وعن ملتنا قال فأين هم قالوا: هم في أرضك فابعث إليهم فبعث إليهم فقال جعفر أنا خطيبكم اليوم فاتبعوه فسلم ولم يسجد فقالوا له ما لك لا تسجد للملك. قال إنا لا نسجد إلا لله عز وجل قال وما ذاك. قال إن الله بعث إلينا رسوله فأمرنا أن لا نسجد لأحد إلا لله عز وجل وأمرنا بالصلاة والزكاة. قال عمرو بن العاص: إنهم يخالفونك في عيسى ابن مريم، قال ما تقولون في عيسى ابن مريم وأمه. قال نقول كما قال الله عز وجل هو كلمة الله وروحه ألقاها إلى العذراء البتول التي لم يمسهما بشر ولم يعترضها ولد، قال فرفع عوداً من الأرض ثم قال يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما يساوي هذا مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده أشهد أنه رسول الله وأنه الذي نجد في الإنجيل وأنه الذي بشر به عيسى ابن مريم انزلوا حيث شئتم والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا أحمل نعليه وأوضئه وأمر بهدية الآخرين فردت إليهما ثم تعجل عبدالله بن مسعود حتى أدرك بدرأ، وزعم أن النبي ﷺ استغفر له حين بلغه موته، وقد رويت هذه القصة عن جعفر وأم سلمة رضي الله عنهما، وموضع ذلك كتاب السيرة والمقصود أن الأنبياء عليهم السلام لم تزل تنعته وتحكيه في كتبها على أممها، وتأمرهم باتباعه ونصره وموازاته إذا بعث، وكان ما اشتهر الأمر في أهل الأرض على لسان إبراهيم الخليل والد الأنبياء بعده حين دعا لأهل مكة أن يبعث الله فيهم رسولاً منهم، وكذا على لسان عيسى ابن مريم، ولهذا قالوا أخبرنا عن بدء أمرك يعني في الأرض، قال: «دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ابن مريم ورؤيا أمي التي رأت» أي ظهر في أهل مكة أثر ذلك، والإرهاص فذكره صلوات الله وسلامه عليه. وقوله تعالى ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ قال ابن جريج وابن جرير ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أحمد أي المبشر به في الأعصار المتقدمة المنوه بذكره في القرون السالفة. لما ظهر أمره وجاء بالبينات قال الكفرة والمخالفون ﴿هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾.

أحمد وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»، ورواه مسلم من حديث الزهري به نحوه.

وقال أبو داود الطيالسي... عن أبي موسى قال سمى لنا رسول الله ﷺ نفسه أسماء منها ما حفظنا فقال «أنا محمد وأنا أحمد وأنا الحاشر والمقفي ونبي الرحمة والتوبة والملحمة»، ورواه مسلم من حديث الأعمش عن عمرو بن مرة به، وقد قال الله تعالى ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوءًا عِنْدَهُمْ فِي الْتَوَارِثِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالى ﴿وَلَا تَأْخُذْ بِلِئَالِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١] قال ابن عباس: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه العهد لئن بعث محمد وهو حي ليتبعه، وأخذ عليه أن يأخذ على أمته لئن بعث محمد وهم أحياء ليتبعه وينصره. وقال محمد بن إسحاق حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ أنهم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك قال «دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» وهذا إسناد جيد، وروي له شواهد من وجوه أخر فقال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرحمن بن مهدي... عن العرباض بن سارية قال: قال رسول الله ﷺ «إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى بي ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات النبيين يرين»، وقال أحمد أيضاً حدثنا أبو النضر... عن أبي أمامة قال: قلت يا رسول الله ما كان بدء أمرك. قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت له قصور الشام»، وقال أحمد أيضاً حدثنا حسن بن موسى... عن عبد الله بن مسعود قال بعثنا رسول الله ﷺ إلى النجاشي، ونحن نحو من ثمانين رجلاً منهم عبد الله بن مسعود، وجعفر وعبد الله بن رواحة، وعثمان بن مظعون وأبو موسى فأتوا

الشوكاني ج ٥ ص ٢٢٠ - ٢٢١

الله من غيره، أو من المفعول فيكون معناها أنه يحمد بما فيه من خصال الخير أكثر مما يحمد غيره. قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو والسلمي وزر بن حبيش، وأبو بكر عن عاصم ﴿يُنْ بَعْدِي﴾ بفتح الباء. وقرأ الباكون بإسكانها ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي لما جاءهم عيسى بالمعجزات قالوا هذا الذي جاءنا به سحر واضح ظاهر، وقيل المراد محمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي لما جاءهم بذلك قالوا هذه المقالة، والأول أولى. قرأ الجمهور «سحر»، وقرأ حمزة والكسائي «ساحر».

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ معطوف على ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى﴾ معمول لعامله، أو معمول لعامل مقدر معطوف على عامل الظرف الأول ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾. . . . والعامل فيهما ما في الرسول من معنى الإرسال، والمعنى: إني أرسلت إليكم حال كوني مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً بمن يأتي بعدي، وإذا كنت كذلك في التصديق والتبشير فلا مقتضى لتكديي، وأحمد اسم نبينا صلى الله تعالى عليه وآله وسلم، وهو علم منقول من الصفة، وهي تحتمل أن تكون مبالغة من الفاعل، فيكون معناها أنه أكثر حمداً

الآلوسي ج ٢٨ ص ٨٤ - ٨٩

الله من سينا وتجلي من ساعير وظهر من جبال فاران معه الربوات الأطهار عن يمينه، وقوله سبحانه في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوانهم مثلك أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما أمره فيه، والذي لا يقبل قول ذلك النبي الذي يتكلم باسمي أنا أنتقم منه ومن سبطه إلى غير ذلك، ويتضمن كلامه عليه السلام أن دينه التصديق بكتب الله تعالى وأنبيائه عليهم السلام جميعاً من تقدم ومن تأخر، وجملة ﴿يَأْتِي﴾ إلخ في موضع الصفة - لرسول - وكذا جملة قوله تعالى: ﴿أَسْمُهُ أَهْمَدُ﴾ هذا الاسم الجليل علم لبنينا محمد ﷺ، وعليه قول حسان:

صلى الإله ومن يحف بعشره

والطيبون على المبارك أحمد

وصح من رواية مالك. والبخاري. ومسلم. والدارمي. والترمذي. والنسائي عن جبير بن مطعم قال: قال رسول الله ﷺ: «إن لي أسماء أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا العاقب» والعاقب الذي ليس بعده نبي وهو منقول من المضارع للمتكلم. أو من أفعال التفضيل من الحامدية، وجوز أن يكون من المحمودية بناءً على أنه قد سمع أحمد اسم تفضيل منها

﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ إما معطوف على إذ الأولى معمول لعاملها، وإما معمول لمضمر معطوف على عاملها ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ﴾ ولعله عليه السلام لم يقل «يا قومي» كما قال موسى عليه السلام بل قال: ﴿يَنْبَغِي إِسْرَءِيلَ﴾ لأنه ليس له النسب المعتاد وهو ما كان من قبل الأب فيهم، أو إشارة إلى أنه عامل بالتوراة وأنه مثلهم في أنه من قوم موسى عليه السلام هضماً لنفسه بأنه لا اتباع له ولا قوم، وفيه من الاستعطاف ما فيه، وقيل: إن الاستعطاف بما ذكر لما فيه من التعظيم، وقد كانوا يفتخرون بنسبتهم إلى إسرائيل عليه السلام.

﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ﴾ أي مرسل منه تعالى إليكم حال كوني مصدقاً، فنصب ﴿مُصَدِّقًا﴾ على الحال من الضمير المستتر في ﴿رَسُولُ﴾ وهو العامل فيه، و﴿إِلَيْكُمْ﴾ متعلق به، وهو ظرف لغو لا ضمير فيه ليكون صاحب حال، وذكر هذا الحال لأنه من أقوى الدواعي إلى تصديقهم إياه عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولِي يَأْتِي مِنْ بَعْدِي﴾ معطوف على ﴿مُصَدِّقًا﴾؛ وهو داع أيضاً إلى تصديقه عليه السلام من حيث أن البشارة بهذا الرسول ﷺ واقعة في التوراة كقوله تعالى في الفصل العشرين من السفر الخامس: منها أقبل

نحو العود أحمد، وإلا فأفعل من المبني للمفعول ليس بقياسي، وقرىء ﴿وَمِنْ بَعْدِي﴾ بفتح الياء، هذا وبشارته عليه السلام بنينا صلى الله تعالى عليه وسلم مما نطق به القرآن المعجز، فإنكار النصارى ذلك ضرب من الهذيان، وقولهم: لو وقعت لذكرت في الإنجيل الملازمة فيه ممنوعة، وإذا سلمت قلنا: بوقوعها في الإنجيل إلا أن جامعيه بعد رفع عيسى عليه السلام أهملوها اكتفاءً بما في التوراة، ومزامير داود عليه السلام، وكتب أشعياء، وحبقوق، وأرمياء، وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

ويجوز أن يكونوا قد ذكروها إلا أن علماء النصارى بعد - حباً لدينهم أو لأمر ما غير ذلك - أسقطوها كذا قيل، وأنا أقول: الأناجيل التي عند النصارى أربعة: إنجيل متى من الاثني عشر الحواريين جمعه باللغة السريانية بأرض فلسطين بعد رفع عيسى عليه السلام بثمانين سنين، وعدة إصحاحاته ثمانية وستون إصحاحاً، وإنجيل مرقس وهو من السبعين جمعه باللغة الفرنجية بمدينة رومية بعد الرفع بإثنتي عشرة سنة، وعدة إصحاحاته ثمانية وأربعون إصحاحاً، وإنجيل لوقا وهو من السبعين أيضاً جمعه بالاسكندرية باللغة اليونانية، وعدة إصحاحاته ثلاثة وثمانون إصحاحاً، وإنجيل يوحنا وهو حبيب المسيح جمعه بمدينة إفسس من بلاد رومية بعد الرفع بثلاثين سنة، وعدة إصحاحاته في النسخ القبطية ثلاثة وثلاثون إصحاحاً وهي مختلفة، وفيها ما يشهد الانصاف بأنه ليس كلام الله عز وجل، ولا كلام عيسى عليه السلام كقصص صلبه الذي يزعمونه ودفنه ورفع من قبره إلى السماء فما هي إلا كتواريخ وتراجم فيها شرح بعض أحوال عيسى عليه السلام ولادة ورفعاً ونحو ذلك، وبعض كلمات له عليه السلام على نحو بعض الكتب المؤلفة في بعض الأكابر والصالحين فلا يضر إهمالها بعض الأحوال، والكلمات التي نطق القرآن العظيم بها ككلامه عليه السلام في المهد وبشارته بنينا صلى الله تعالى عليه وسلم على أن في إنجيل يوحنا ما هو بشارة بذلك عند من أنصف وسلك الصراط السوي وما تعسف. ففي الفصل الخامس عشر منه قال يسوع المسيح: إن الفارقليط روح الحق الذي

يرسله أبي يعلمكم كل شيء، وقال يوحنا أيضاً: قال المسيح: من يحبني يحفظ كلمتي وأبي يحبه وإليه يأتي وعنده يتخذ المنزلة كلمتكم بهذا لأنني لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم أستودعكم سلامي لا تقلق قلوبكم ولا تجزع فإنني منطلق وعائد إليكم، لو كنتم تحبونني كنتم تفرحون بمضيي إلى الأب، وقال أيضاً: إن خيراً لكم أن أنطلق لأبي لأنني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط، فإذا انطلقت أرسلته إليكم فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بما يسمع ويخبركم بكل ما يأتي ويعرفكم جميع ما للأب، وقال أيضاً: إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي وأنا أطلب من الأب أن يعطيكم فارقليطاً آخر يثبت معكم إلى الأبد روح الحق الذي لم يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه ولست أدعكم أيتاماً لأنني سأتيكم من قريب، والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد، وتعين إرادته صلى الله تعالى عليه وسلم من كلامه عليه السلام مما لا غبار عليه لمن كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه، وقد فسره بعض النصارى بالحمداد، وبعضهم بالحامد فيكون في مدلوله إشارة إلى اسمه عليه الصلاة والسلام أحمد، وفسره بعضهم بالمخلص لقول عيسى عليه السلام: فالله يرسل مخلصاً آخر فلا يكون ما ذكر بشارة به ﷺ بعنوان الحمد لكنه بشارته به صلى الله تعالى عليه وسلم بعنوان التخليص، فيستدل به على ثبوت رسالته صلى الله تعالى عليه وسلم، وإن لم يستدل به على ما في الآية هنا، وزعم بعضهم أن الفارقليط إشارة إلى ألسن نارية نزلت من السماء على التلاميذ فعلوا الآيات والعجائب، ولا يخفى أن وصفه بآخر يأبى ذلك إذ لم يتقدم لهم غيره ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ﴾ أي عيسى عليه السلام ﴿يَاكِينَتِ﴾ أي بالمعجزات الظاهرة.

﴿قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ مشيرين إلى ما جاء به عليه السلام، فالتذكير بهذا الاعتبار، وقيل: مشيرين إليه عليه السلام وتسميته سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءة عبد الله.

والسلام لما فرغ من كلام عيسى تطرق إلى الإخبار عن أحمد صلى الله تعالى عليه وسلم أي فلما جاء أحمد هؤلاء الكفار بالبينات ﴿قَالُوا﴾ الخ.

وطلحة. والأعمش. وابن وثاب - هذا ساحر - وكون فاعل ﴿جَاءَهُمْ﴾ ضمير عيسى عليه السلام هو الظاهر لأنه المحدث عنه، وقيل: هو ضمير (أحمد) عليه الصلاة

المراغي ج ١٠ ص ٨٤ - ٨٥

وعائد إليكم، لو كنتم تحبوني تفرحون بمضي إلى الأب. وفيه أيضاً: إن خيراً لكم أن أنطلق لأبي لأنني إن لم أذهب لم يأتكم الفارقليط فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على خطيئته، وإن لي كلاماً كثيراً أريد قوله، ولكنكم لا تستطيعون حمله، ولكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب.

(والفارقليط لفظ يؤذن بالحمد، فسره بعضهم بالحماد وبعضهم بالحامد، ففي مدلوله إشارة إلى اسمه عليه السلام أحمد) كما لا يخفى على من كشف الله تعالى غشاوة التعصب عن عينيه.

﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أي فحين جاءهم أحمد المبشّر به بالأدلة الواضحة، والمعجزات الباهرة، فاجتوه بالكذب والإعراض عنه استكباراً وعناداً وقالوا: إن ما جئت به ما هو إلا ترهات وأباطيل، وسحر واضح لا شك فيه.

ونحو الآية قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ اتِّبَاعَ الْأَنْبِيَاءِ الَّذِينَ يَحْدُوثُهُمْ مَكْنُوتًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

﴿وَمُبَشِّرًا رَسُولًا يُؤْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ أي وداعياً إلى التصديق بهذا الرسول الكريم الذي جاءت البشارة به في التوراة. فقد جاء في الفصل العشرين من السّفر الخامس منها: أقبل الله من سيدنا، وتجلي من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه الروايات الأطهار عن يمينه. «سينا مهبط الوحي على موسى، وساعير مهبط الوحي على عيسى، وفاران جبال مكة مهبط الوحي على محمد ﷺ».

وفيها في الفصل الحادي عشر من هذا السفر: يا موسى إني سأقيم لبني إسرائيل نبياً من إخوتهم مثلك، أجعل كلامي في فيه، ويقول لهم ما أمره به، والذي لا يقبل قوله ذلك النبي الذي يتكلم باسمي، أنا أنتقم منه ومن سبطه.

وكذلك جاء في الإنجيل ما هو بشارة به - ففي إنجيل يوحنا في الفصل الخامس عشر. قال يسوع المسيح: إن الفارقليط روح الحق الذي يرسله أبي يعلمكم كل شيء.

وفيه أيضاً: قال المسيح من يحفظ كلمتي يحبني، وأبي يحبه، وعنده يتخذ المنزلة، كلمتكم بهذا لأنني لست عندكم بمقيم، والفارقليط روح القدس الذي يرسله أبي هو يعلمكم كل شيء، وهو يذكركم كل ما قلت لكم، أستودعكم سلامي، لا تقلق قلوبكم ولا تجزع، فإني منطلق

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ
الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَآمَنَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى
عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾

(سورة الصف، رقم ٦١، الآية ١٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٨	ص ٥٩ - ٦١	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٢٦٠ - ٢٦١
الزمخشري	ج ٤	ص ١٠١	ابن كثير	ج ٤	ص ٣٦١ - ٣٦٢
الرازي	ج ٣٠	ص ٢٧٦ - ٢٧٧	الجلالان		ص ٧٣٠
الطبرسي	ج ٩	ص ٣٥٧	الشوكاني	ج ٥	ص ٢٢٣ - ٢٢٤
ابن عربي	ج ٢	ص ٦٣٩ - ٦٤٠	الألوسي	ج ٢٨	ص ٩٠ - ٩٢
البيضاوي	ج ٤	ص ١٣٢	القاسمي	ج ١٦	ص ١٥٤ - ١٥٥
الخازن	ج ٤	ص ٢٦٤	الطباطبائي	ج ١٩	ص ٢٥٨ - ٢٦٢
البغوي	ج ٤	ص ٣٠٨ - ٣٠٩	جوهرى	ج ٢٤	ص ١٧٠ - ١٧١
الماوردي	ج ٥	ص ٥٣١	المراغي	ج ٢٨	ص ٨٨ - ٩٢
القرطبي	ج ١٨	ص ٨٩ - ٩٠	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٥٦٠ - ٣٥٦١

الطبري ج ٢٨ ص ٥٩ - ٦١

ذلك فما لنا يا نبي الله قال: لكم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة، ففعلوا، ففعل الله. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن معمر، قال: تلا فتادة ﴿كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه، سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، فنصروه وآووه حتى أظهر الله دينه، قالوا ولم يسمَ حي من السماء اسماً لم يكن لهم قبل ذلك غيرهم. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن فتادة أن الحواريين كلهم من قريش: أبو بكر، وعمر، وعلي، وحمزة، وجعفر، وأبو عبيدة، وعثمان بن مظعون، وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وعثمان وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوام. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قول الله ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ قال: من يتبعني إلى الله. حدثنا ابن حميد... عن سعيد بن جبير قال: سأل ابن عباس عن الحواريين قال: سموا لبياض ثيابهم كانوا صيادي السمك. حدثت عن الحسين... عن الضحاك يقول في قوله: الحواريون: هم الغسالون بالنبطية، يقال للغسال حواري. وقد تقدم بياننا في معنى الحواري بشواهد واختلاف المختلفين فيه قبل فيما مضى، فأغنى عن

وقوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ اختلفت القراء في قراءة ذلك، فقرأته عامة قراء المدينة والبصرة «كونوا أنصاراً لله» بتنوين الأنصار، وقرأ ذلك عامة قراء الكوفة بإضافة الأنصار إلى الله. والصواب من القول في ذلك عندي أنهما قراءتان معروفتان صحيحتا المعنى، فبأيتهما قرأ القارئ فمصيب ومعنى الكلام يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله كونوا أنصاراً لله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله يعني من أنصاري منكم إلى نصره الله لي. وكان فتادة يقول في ذلك ما حدثني به بشر... عن فتادة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ قال: «قد كانت لله أنصار من هذه الأمة تجاهد على كتابه وحقه. وذكر لنا أنه بايعه ليلة العقبة اثنان وسبعون رجلاً من الأنصار، وذكر لنا أن بعضهم قال هل تدرون علام تباعون هذا الرجل؟ إنكم تباعون على محاربة العرب كلها أو يسلموا. ذكر لنا أن رجلاً قال يا نبي الله اشترط لربك ولنفسك ما شئت، قال: أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأشترط لنفسي أن تمنعوني مما منعتم منه أنفسكم وأبناءكم؛ قالوا: فإذا فعلنا

إعادته. وقوله: ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ يقول: قالوا: نحن أنصار الله على ما بعث به أنبياءه من الحق. وقوله ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ يقول جل ثناؤه: فأمنت طائفة من بني إسرائيل بعيسى، وكفرت طائفة منهم به. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني أبو السائب... عن ابن عباس، قال: لما أراد الله أن يرفع عيسى إلى السماء خرج إلى أصحابه وهم في بيت اثنا عشر رجلاً من عين في البيت، ورأسه يقطر ماء، قال: فقال: إن منكم من سيكفر بي اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن بي، قال: ثم قال: أيكم يلقي عليه شبهي فيقتل مكاني، ويكون معي في درجتي قال: فقام شاب من أحدثهم سناً، قال: فقال: أنا، فقال له: إجلس، ثم أعاد عليهم، فقام الشاب، فقال: أنا قال: نعم أنت ذاك، قال: فألقى عليه شبه عيسى، ورفع عيسى من روضة في البيت إلى السماء، قال وجاء: الطلب من اليهود، وأخذوا شبهه، فقتلوه وصلبوه، وكفر به بعضهم اثنتي عشرة مرة بعد أن آمن به، فتفرقوا ثلاث فرق، فقالت فرقة: كان الله فينا ما شاء، ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء اليعقوبية. وقالت فرقة: كان فينا ابن الله، ما شاء الله، ثم رفعه إليه وهؤلاء النسطورية، وقالت فرقة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء، ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء المسلمون، فتظاهرت الطائفتان الكافرتان على المسلمة، فقتلوها، فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمد

ﷺ، فأمنت طائفة من بني إسرائيل، وكفرت طائفة، يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى، والطائفة التي آمنت في زمن عيسى، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين في إظهار محمد على دينهم على دين الكفار، فأصبحوا ظاهرين وقوله ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ يقول: فقوينا الذين آمنوا من الطائفتين من بني إسرائيل على عدوهم الذين كفروا منهم بمحمد ﷺ لتصديقه إياهم أن عيسى عبدالله ورسوله، وتكذيبه من قال هو إله، ومن قال هو ابن الله تعالى ذكره، فأصبحوا ظاهرين، فأصبحت الطائفة المؤمنون ظاهرين على عدوهم الكافرين منهم. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثني محمد بن عبدالله الهلالي... عن مجاهد ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ قال: قوينا. حدثنا ابن حميد... عن إبراهيم ﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ قال لما بعث الله محمداً، ونزل تصديق من آمن بعيسى، أصبحت حجة من آمن ظاهرة. جرير... عن إبراهيم، في قوله ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ قال: أيدوا بمحمد ﷺ، فصدقهم، وأخبر بحجتهم. حدثني يعقوب بن إبراهيم... عن إبراهيم، في قوله ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ قال: أصبحت حجة من آمن بعيسى ظاهرة بتصديق محمد ﷺ كلمة الله وروحه. حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد في قوله ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ من آمن مع عيسى ﷺ.

ابن عربي ج ٢ ص ٦٣٩ - ٦٤٠

مطاهرنا، فسلخوا في صفاته، وأظهروا أنوارها، حتى بلغوا الكمال القلبي، والتكميل بالتأثير.

﴿فَأَمَنَتِ طَائِفَةٌ﴾، بهم وبتأثير صحبتهم، لقبول استعداداتهم ﴿وَكَفَرَتِ طَائِفَةٌ﴾ لاحتجاجهم بصفاتهم ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ بالتأييد الفوري ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ غالبين عليهم بالحجج النيرة، والبراهين الواضحة. والله تعالى أعلم.

الحواريون هم الذين خلصوا عن ظلمة النفوس، وسواد الهيئات الطبيعية بالوصول إلى مقام القلب، وتنوّروا بنور الفطرة الأصلية، فابيضت وجوههم الحقيقية بالتصفية ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي، من معي متوجهاً إلى نصره الله بالسلوك في صفاته ﴿قَالَ الْخَوَارِثُونَ﴾ الصافون ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ننصره، بإظهار كمالات صفاته في

القرطبي ج ١٨ ص ٨٩ - ٩٠

مضى هذا في «آل عمران». ﴿فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ والطائفتان في زمن عيسى افترقوا بعد رفعه إلى السماء، على ما تقدّم في «آل عمران» بيانه. ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ﴾ الذين كفروا بعيسى. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي غالبين. قال ابن عباس: أيد الله الذين آمنوا في زمن عيسى بإظهار محمد على دين الكفار. وقال مجاهد: أيدوا في زمانهم على من كفر بعيسى. وقيل أيدنا الآن المسلمين على الفرقتين الضالتين، من قال كان الله فارتفع، ومن قال كان ابن الله فرفعه الله إليه؛ لأن عيسى ابن مريم لم يقاتل أحداً ولم يكن في دين أصحابه بعده قتال. وقال زيد بن عليّ وقتادة: ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ غالبين بالحجة والبرهان؛ لأنهم قالوا فيما روي: ألتسم تعلمون أن عيسى كان ينم والله لا ينم، وأن عيسى كان يأكل والله تعالى لا يأكل! وقيل: نزلت هذه الآية في رسل عيسى عليه الصلاة والسلام. قال ابن إسحاق: وكان الذي بعثهم عيسى من الحواريين والأتباع بطرس وبولس إلى رومية، واندرائيس ومتى إلى الأرض التي يأكل أهلها الناس. وتوماس إلى أرض بابل من أرض المشرق. وفيلبس إلى قُزطاجنة وهي أفريقية. ويحسّس إلى دقوس قرية أهل الكهف. ويعقوبس إلى أورشليم وهي بيت المقدس. وأبن تلميذا إلى العربية وهي أرض الحجاز. وسيمن إلى أرض البربر. ويهوذا ويردس إلى الإسكندرية وما حولها. فأيدهم الله بالحجة. ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي عالين؛ من قولك: ظهرت على الحائط أي علّوت عليه. [والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب، وإليه المرجع والمآب].

أكد أمر الجهاد؛ أي كونوا حوارياً نبيكم ليظهركم الله على من خالفكم كما أظهر حوارياً عيسى على من خالفهم. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع «أنصاراً لله» بالتثنية. قالوا: لأن معناه اثبتوا وكونوا أعواناً لله بالسيف على أعدائه. وقرأ الباقون من أهل البصرة والكوفة والشام ﴿أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ بلا تثنية؛ وحذفوا لام الإضافة من اسم الله تعالى. واختاره أبو عبيد لقوله: ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ ولم ينون؛ ومعناه كونوا أنصاراً لدين الله. ثم قيل: في الكلام إضمار؛ أي قل لهم يا محمد كونوا أنصار الله. وقيل: هو ابتداء خطاب من الله؛ أي كونوا أنصاراً كما فعل أصحاب عيسى فكانوا بحمد الله أنصاراً وكانوا حواريين. والحواريون خواص الرسل. قال مَعْمَر: كان ذلك بحمد الله؛ أي نصره وهم سبعون رجلاً، وهم الذين بايعوه ليلة العقبة. وقيل: هم من قريش. وسماهم قتادة: أبا بكر وعمر وعليّ وطلحة والزبير وسعد بن مالك وأبا عبيدة - واسمه عامر - وعثمان بن مظعون وحمزة بن عبدالمطلب؛ ولم يذكر سعيداً فيهم، وذكر جعفر بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين. ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ﴾ وهم أصفياءه اثنا عشر رجلاً، وقد مضت أسماؤهم في «آل عمران»، وهم أول من آمن به من بني إسرائيل، قال ابن عباس. وقال مقاتل: قال الله لعيسى إذا دخلت القرية فأت النهر الذي عليه القصارون فاسألهم النصرة، فأتاهم عيسى وقال: من أنصاري إلى الله؟ قالوا: نحن نصرك. فصَدَّقوه ونصروه. ومعنى ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من أنصاري مع الله، كما تقول: الذود إلى الذود إبل، أي مع الذود. وقيل: أي من أنصاري فيما يقرب إلى الله. وقد

ابن كثير ج ٤ ص ٣٦١ - ٣٦٢

الدعوة إلى الله عز وجل؟ ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾ وهم أتباع عيسى عليه السلام ﴿نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾، أي نحن أنصارك على ما أرسلت به، ومؤازرك على ذلك ولهذا بعثهم دعاة إلى الناس في بلاد الشام في الإسرائيليين واليونانيين،


يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين أن يكونوا أنصار الله في جميع أحوالهم بأقوالهم وأفعالهم وأنفسهم وأموالهم، وأن يستجيبوا لله ولرسوله كما استجاب الحواريون لعيسى حين قال ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾، أي من معيني في

القدس، ومن قائل إنه الله، وكل هذه الأقوال مفصلة في سورة النساء.

وقوله تعالى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ أي نصرناهم على من عاداهم من فرق النصارى ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ أي عليهم وذلك ببعثه محمد ﷺ كما قال الإمام أبو جعفر بن جرير... رحمه الله...

﴿فَنَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ﴾ يعني الطائفة التي كفرت من بني إسرائيل في زمن عيسى والطائفة التي آمنت في زمن عيسى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ بإظهار محمد ﷺ دينهم على دين الكفار. هذا لفظه في كتابه عند تفسير هذه الآية الكريمة، وهكذا رواه النسائي عند تفسير هذه الآية من سننه عن أبي كريب عن محمد بن العلاء عن أبي معاوية بمثله سواء فأمة محمد ﷺ لا يزالون ظاهرين على الحق حتى يأتي أمر الله وهم كذلك وحتى يقاتل آخرهم الدجال مع المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام كما وردت بذلك الأحاديث الصحاح والله أعلم. آخر تفسير سورة الصف والله الحمد والمنة.

وهكذا كان رسول الله ﷺ يقول في أيام الحج «من رجل يؤويني حتى أبلغ رسالة ربي فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ رسالة ربي» حتى قبض الله عز وجل له الأوس والخزرج من أهل المدينة فبايعوه ووازره، وشارطوه أن يمنعوه من الأسود والأحمر إن هو هاجر إليهم، فلما هاجر إليهم بمن معه من أصحابه وفوا له بما عاهدوا الله عليه ولهذا سماهم الله ورسوله الأنصار، وصار ذلك علماً عليهم رضي الله عنهم وأرضاهم.

وقوله تعالى ﴿فَنَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتَ طَائِفَةٌ﴾ أي لما بلغ عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام رسالة ربه إلى قومه، ووازره من وازره من الحواريين اهتدت طائفة من بني إسرائيل بما جاءهم به، وضلت طائفة فخرجت عما جاءهم به، وجحدوا نبوته ورموه وأمه بالعظائم، وهم اليهود عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة، وغلت فيه طائفة ممن اتبعه حتى رفعوه فوق ما أعطاه الله من المنزلة فافترقوا فرقاً وشيعاً، فمن قائل منهم إنه ابن الله،  فثالث ثلاثة: الأب والابن وروح

الشوكاني ج ٥ ص ٢٢٣

الحواريون لعيسى ابن مريم». وأخرج ابن سعد عن محمود بن لبيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم للنباء «إنكم كفلاء على قومكم ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وأنا كفيل قومي، قالوا نعم». وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ قال: فقوينا الذين آمنوا، وأخرج ابن أبي حاتم عنه فأيدنا الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم وأمه على عدوهم فأصبحوا ظاهرين.

... وأخرج عبد الرزاق، وعبد بن حميد، وابن المنذر عن قتادة في قوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ قال: قد كان ذلك بحمد الله جاءه سبعون رجلاً فبايعوه عند العقبة، وآووه ونصروه حتى أظهر الله دينه. وأخرج ابن إسحاق، وابن سعد عن عبد الله بن أبي بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله تعالى عليه وآله وسلم للنفر الذين لقوه بالعقبة «أخرجوا إليّ اثني عشر منكم يكونون كفلاء على قومهم كما كفلت

الآلوسي ج ١٤ ص ٩٠-٩٢

تجارته عليه الصلاة والسلام الرابحة وتجارته الصالحة، وقدم ﴿آمَنُوا﴾ لأنه فاتحة الكل، ثم لو سلم فلا مانع من العطف على جواب السائل بما لا يكون جواباً إذا ناسبه فيكون جواباً للسؤال، وزيادة كيف وهو داخل فيه؟ كأنهم قالوا: دلنا يا ربنا فقيل: آمنوا يكن لكم كذا، وبشرهم يا محمد

... ثم قوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بيان لما قبله على طريق الاستئناف فكيف يصح عطف ﴿بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [ابراهيم: ١١] عليه؟ وأجيب بما خلاصته أن قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وأمه كما تقرر في أصول الفقه، وإذا فسر بآمنوا وبشر دل على

المذكور في الآخر، وهو لا يخلو عن حسن، و ﴿الْحَوَارِيُّونَ﴾ أصفياؤه عليه السلام، والعدول عن ضميرهم إلى الظاهر للاعتناء بشأنهم، وهم أول من آمن به وكانوا اثني عشر رجلاً فرقمهم - على ما في البحر - عيسى عليه السلام في البلاد، فمنهم من أرسله إلى رومية، ومنهم من أرسله إلى بابل، ومنهم من أرسله إلى إفريقية، ومنهم من أرسله إلى أفسس، ومنهم من أرسله إلى بيت المقدس، ومنهم من أرسله إلى الحجاز، ومنهم من أرسله إلى أرض البربر وما حولها، وتعيين المرسل إلى كل فيه، ولست على ثقة من صحة ذلك ولا من ضبط أسمائهم، وقد ذكرها السيوطي أيضاً في الاتقان فليتمس ضبط ذلك من مظانه، واشتقاق الحواريين من الحور - وهو البياض - وسموا بذلك لأنهم كانوا قصارين، وقيل: للبسهم البياض، وقيل: لنقاء ظاهرهم وباطنهم، وزعم بعضهم أن ما قيل: من أنهم كانوا قصارين إشارة إلى أنهم كانوا يطهرون نفوس الناس فإفادتهم الدين والعلم، وما قيل: من أنهم كانوا صيادين إشارة إلى أنهم كانوا يصطادون نفوس الناس من الحيرة ويقودونهم إلى الحق...

﴿فَقَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي بعيسى عليه السلام ﴿وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ﴾ أخرى ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ﴾ وهم الذين كفروا ﴿فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين؛ قال زيد بن علي، وقتادة: بالحجة والبرهان، وقيل: إن عيسى عليه السلام حين رفع إلى السماء قالت طائفة من قومه: إنه الله سبحانه، وقالت أخرى: إنه ابن الله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - رفعه الله عز وجل إليه، وقالت طائفة: إنه عبد الله ورسوله فاقتتلوا فظهرت الفرقتان الكافرتان على الفرقة المؤمنة حتى بعث النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فظهرت المؤمنة على الكافرين، وروي ذلك عن ابن عباس، وقيل اقتتل المؤمنون والكفرة بعد رفعه عليه السلام، فظهر المؤمنون على الكفرة بالسيف، والمشهور أن القتال ليس من شريعته عليه السلام، وقيل: المراد ﴿فَقَامَتَ طَائِفَةٌ مِّنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام وكفرت أخرى به صلى الله تعالى عليه وسلم فأيدنا المؤمنين على الكفرة فصاروا غالبين. وهو خلاف الظاهر. والله تعالى أعلم.

بشوته لهم، وفيه من إقامة الظاهر مقام المضمّر، وتنويع الخطاب ما لا يخفى نبل موقعه، واختاره صاحب الكشف فقال: إن هذا الوجه من وجه العطف على قل، ووجه العطف على فبشر لخلوهما عن الفوائد المذكورة يعني ما تضمنه الجواب ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ﴾ أي نصره دينه سبحانه وعونة رسوله عليه الصلاة والسلام، وقرأ الأعرج، وعيسى، وأبو عمرو، والحرميان - أنصاراً لله - بالتثنية، وهو للتبعيض فالمعنى كونوا بعض أنصاره عز وجل.

وقرأ ابن مسعود - على ما في الكشف - كونوا أنتم أنصار الله، وفي موضح الأهوازي، والكواشي - أنتم - دون (كونوا) ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَن أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ أي من جندي متوجهاً إلى نصره الله تعالى ليطابق قوله سبحانه: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ وقيل: (إلى) بمعنى مع (ونحن أنصار الله) بتقدير نحن أنصار نبي الله فيحصل التطابق، والأول أولى، والإضافة في (أنصاري) إضافة أحد المتشاركين إلى الآخر لأنهما لما اشتركا في نصره الله عز وجل كان بينهما ملازمة تصحح إضافة أحدهما للآخر والإضافة في ﴿أَنْصَارُ اللَّهِ﴾ إضافة الفاعل إلى المفعول والتشبيه باعتبار المعنى، إذ المراد قل لهم ذلك كما قال عيسى، وقال أبو حيان: هو على معنى قلنا لكم ما قال عيسى.

وقال الزمخشري: هو على معنى كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أنصار عيسى حين قال لهم: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ وخلاصته على ما قيل: إن ما مصدرية وهي مع صلتها ظرف أي كونوا أنصار الله وقت قولي لكم ككون الحواريين أنصاره وقت قول عيسى، ثم قيل: كونوا أنصاره كوقت قول عيسى هذه المقالة، وجيء بحديث سؤاله عن الناصر وجوابهم فهو نظير كاليوم في قولهم: كاليوم رجل أي كرجل رأيته اليوم فحذف الموصوف مع صفته، واكتفى بالظرف عنهما لدلالته على الفعل الدال على موصوفه، وهذا من توسعاتهم في الظروف، وقد جعلت الآية من الاحتباك، والأصل كونوا أنصار الله حين قال لكم النبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ كما كان الحواريون أنصار الله حين قال لهم عيسى عليه السلام ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾. فحذف من كل منهما ما دل عليه

﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾

(سورة التحريم، رقم ٦٦، الآية ١٢)

مصادر تفاسير الآية

٢٨ ج	١١٠ ص	أبو حيان الأندلسي	٨ ج	٢٩٦ - ٢٩٣ ص
٤ ج	١٣٣ - ١٣٢ ص	ابن كثير	٤ ج	٣٩٤ - ٣٩٣ ص
٣٠ ج	٥١ - ٥٠ ص	الجلالان		٧٥٣ ص
٢٨ ج	١٣٠ - ١٢٥ ص	الشوكاني	٥ ج	٢٥٧ - ٢٥٥ ص
٢ ج	٦٧١ - ٦٦٩ ص	الألوسي	٢٨ ج	١٦٥ - ١٦٤ ص
٥ ج	١٤٠ ص	القاسمي	١٦ ج	٥٨٧٣ - ٥٨٦٩ ص
٧ ج	١٢٣ ص	الطباطبائي	١٩ ج	٣٤٧ - ٣٤٢ ص
٤ ج	٣٣٩ ص	جوهرى	٢٤ ج	٢٠١ - ١٩٧ ص
٦ ج	٤٨ ص	المراغي	٢٨ ج	١٧٠ - ١٦٧ ص
١٨ ج	٢٠٣ - ٢٠٤ ص	سيد قطب	٦ ج	٣٦٢٢ - ٣٦٠٩ ص
الطبري				
الزمخشري				
الرازي				
الطبرسي				
ابن عربي				
البيضاوي				
الخان				
البغوي				
الماوردي				
القرطبي				

الطبري ج ٢٨ ص ١١٠

درعها، وذلك فرجها، من روحنا من جبريل، وهو الروح. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ فنفخنا في جيبها من روحنا ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يقول: آمنت بعيسى، وهو كلمة الله ﴿وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾ يعني التوراة والإنجيل ﴿وَكُنْتُ مِنَ الْقَنِينِ﴾ يقول: وكانت من القوم المطيعين. كما حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة ﴿مِنَ الْقَنِينِ﴾ من المطيعين.

القول في تأويل قوله تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنِينِ﴾ يقول تعالى ذكره ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ يقول: التي منعت جيب درعها جبريل عليه السلام. وكل ما كان في الدرع من خرق أو فتق، فإنه يسمى فرجاً، وكذلك كل صدع وشق في حائط، أو فرج سقف فهو فرج. وقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ يقول: فنفخنا فيه في جيب

الزمخشري ج ٤ ص ١٣٢

على إدريس وغيره سماها كلمات لقصرها، ويكتبه الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله به ملائكته وغيرهم، وجميع ما كتبه في اللوح وغيره، وقرأ بكلمة الله وكتابه أي بعيسى وبالكتاب المنزل عليه وهو الإنجيل فإن قلت: لم قيل ﴿مِنَ الْقَنِينِ﴾ على التذكير؟ قلت: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين فغلب ذكره على إنائه ومن للتبعيض. ويجوز أن يكون لا ابتداء الغاية على أنها ولدت من القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى صلوات الله عليهما. وعن النبي ﷺ «كمل من الرجال كثير

﴿فِيهِ﴾ في الفرج، وقرأ ابن مسعود فيها كما قرأ في سورة الأنبياء، والضمير للجملة وقد مر لي في هذا الظرف كلام، ومن بدع التفاسير أن الفرج هو جيب الدرع، ومعنى أحصنته: منعت جبريل وأنه جمع في التمثيل بين التي لها زوج والتي لا زوج لها تسلية للأرامل وتطبيبا لأنفسهن ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ قرأ بالتشديد والتخفيف على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق وهو معنى التصديق بعينه. فإن قلت: فما كلمات الله وكتبه؟ قلت: يجوز أن يراد بكلماته صحفه التي أنزلها

الصنعة عليه ظاهر بيّن. ولقد سمى الله تعالى جماعة من الكفار بأسمائهم وكناهم ولو كانت التسمية للحب وتركها للبغض لسمى آسية وقد قرن بينها وبين مريم في التمثيل للمؤمنين. وأبى الله إلا أن يجعل للمصنوع أمانة تتم عليه، وكلام رسول الله ﷺ أحكم وأسلم من ذلك. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة التحريم آتاه الله توبة نصوحاً».

ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد؛ وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وأما ما روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ كيف سمى الله المسلمة: تعني مريم ولم يسم الكافرة؟ فقال: بغضاً لها، قالت: وما اسمها؟ قال: اسم امرأة نوح واعدة واسم امرأة لوط واهلة، فحديث أثر

الرازي ج ٣٠ ص ٥٠ - ٥١

وكتابه، والمراد بالكتاب هو الكثرة والشياع أيضاً. قوله تعالى ﴿وَكَاثَ مِنَ الْقَنِينِ﴾ الطائعين قاله ابن عباس، وقال عطاء من المصلين، وفي الآية مباحث.

البحث الأول: ما كلمات الله وكتبه؟ نقول المراد بكلمات الله الصحف المنزلة على إدريس وغيره، وبكتبه الكتب الأربعة، وأن يراد جميع ما كلم الله تعالى ملائكته وما كتبه في اللوح المحفوظ وغيره، وقرئ «بكلمة الله وكتابه» أي بعيسى وكتابه وهو الإنجيل، فإن قيل من القانتين على التذكير، نقول: لأن القنوت صفة تشمل من قنت من القبيلين، فغلب ذكوره على إناثه، ومن للتبعض، قاله في الكشف، وقيل من القانتين، لأن المراد هو القوم، وأنه عام، ﴿وَأَزْكَى مَعَ الزَّكَاةِ﴾ [آل عمران: ٤٣] أي كوني من المقيمين على طاعة الله تعالى، ولأنها من أعقاب هرون أخي موسى عليهما السلام...

ومنها العلم بأن إحصان المرأة وعفتها مفيدة غاية الإفادة، كما أفاد مريم بنت عمران، كما أخبر الله تعالى فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ أَصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَأَصْطَفَاكِ﴾ [آل عمران: ٤٢] ومنها التنبيه على أن التضرع بالصدق في حضرة الله تعالى وسيلة إلى الخلاص من العقاب، وإلى الثواب بغير حساب، وأن الرجوع إلى الحضرة الأزلية لازم في كل باب، وإليه المرجع والمآب، جلت قدرته وعلت كلمته، لا إله إلا هو وإليه المصير، والحمد لله رب العالمين، وصلاته على سيد المرسلين، وآله وصحبه وسلم.

ثم قال تعالى ﴿وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ فِيهَا وَكَانَتْ مِنَ الْقَنِينِ﴾ أحصنت أي عن الفواحش لأنها قذفت بالزنا. والفرج حمل على حقيقته، قال ابن عباس نفخ جبريل في جيب الدرع ومدّه بأصبعيه ونفخ فيه، وكل ما في الدرع من خرق ونحوه فإنه يقع عليه اسم الفرج، وقيل ﴿أَحْصَنَتْ﴾ تكلفت في عفتها، والمحصنة العفيفة ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ أي فرج ثوبها، وقيل خلقنا فيه ما يظهر به الحياة في الأبدان. وقوله ﴿فِيهِ﴾ أي في عيسى، ومن قرأ فيها أي في نفس عيسى والنفس مؤنث، وأما التشبيه بالنفخ فذلك أن الروح إذا خلق فيه انتشر في تمام الجسد كالريح إذا نفخت في شيء، وقيل بالنفخ لسرعة دخوله فيه نحو الريح ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ قال مقاتل يعني بعيسى، ويدل عليه قراءة الحسن بكلمة ربها وسمى عيسى، كلمة الله في مواضع من القرآن. وجمعت تلك الكلمة هنا، وقال أبو علي الفارسي الكلمات الشرائع التي شرع لها دون القول، فكأن المعنى صدقت الشرائع وأخذت بها وصدقت الكتب فلم تكذب والشرائع سميت بكلمات كما في قوله تعالى ﴿وَلَا إِفْرَ أَبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] وقوله تعالى ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ قرئ بالتخفيف والتشديد على أنها جعلت الكلمات والكتب صادقة يعني وصفتها بالصدق، وهو معنى التصديق بعينه، وقرئ كلمة وكلمات، وكتبه

ابن عربي ج ٢ ص ٦٦٩ - ٦٧١

الفرعونية الطالب للخلاص بالالتجاء إلى الحق، الذي قويت قوة محبة الله لصفائه، وضعفت قوة قهره للنفس والشيطان لعجزه، وضعفه، لا يبقى في العذاب مخلداً، ويخلص إلى النجاة، ويبقى في النعم سرمداً. وأن تعذب بمجاورتها حيناً، وتألم بأفعالها برهة.

وإن النفس المتزينة بفضيلة العفة المشار إليها بأحصان الفرج هي القابلة لفيض روح القدس، الحاملة بعيسى القلب، المتنورة بنور الروح، المصدقة بكلمات الرب، من العقائد الحكمية، والشرائع الإلهية المطبوعة لله، مطلقاً علماً، وعملاً سرّاً وجهراً. المنخرطة في سلك التوحيد جمعاً وتفصيلاً، باطناً وظاهراً. والله تعالى أعلم.

وإن المعترف في استحقاق الكرامة عند الله هو العمل الصالح، والاعتقاد الحق، كإحصان مريم، وتصديقها بكلمات ربها، وطاعتها المعدّة إياها لقبول نفخ روح الله فيها، وقد يلوح بينهما أن النفس الخائنة التي لا تفي بطاعة الروح والقلب، ولا يحسن معاشرتهما، ولا تطيعهما بامثال أوامرهما ونواهيهما، ولا تحفظ أسرارهما، وتبيح مخالفتهما، وتسير بسير الإباحة، باستراق كلمة التوحيد، والطغيان بانتحال الكمال داخل في نار الحرمان، وجحيم الهجران مع المحجوبين، ولا تغني هداية الروح أو القلب عنها شيئاً من الإغناء في باب العذاب، وإن أغنت عنها في باب الخلود. وإن القلب المقهور تحت استيلاء النفس الأمارة

الشوكاني ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧

تقدم. وقرأ الحسن وأبو العالية «يَكَلِّمُ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ». وقرأ أبو عمرو وحفص عن عاصم «وَكُتِّبَ» جمعاً. وعن أبي رجاء «وَكُتِّبَ» مخفف التاء. والباقون «يَكْتَابُهُ» على التوحيد. والكتاب يراد به الجنس؛ فيكون في معنى كل كتاب أنزله الله تعالى. «وَكَانَتْ مِنَ الْقَتْنَيْنِ» أي من المطيعين. وقيل: من المصلين بين المغرب والعشاء. وإنما لم يقل من القانتات؛ لأنه أراد وكانت من القوم القانتين. ويجوز أن يرجع هذا إلى أهل بيتها؛ فإنهم كانوا مطيعين لله. وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال لخديجة وهي تجود بنفسها: «أتكرهين ما قد نزل بك ولقد جعل الله في الكره خيراً فإذا قدمت على ضراتك فأقريهني مني السلام مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم وكليمة - أو قال حكيمه - بنت عمران أخت موسى بن عمران». فقالت: بالرفاء والبنين يا رسول الله. وروى قتادة عن أنس عن رسول الله ﷺ: «حسبك من نساء العالمين أربع مريم بنت عمران وخديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وآسية امرأة فرعون بنت مزاحم». وقد مضى في «آل عمران» الكلام في هذا مستوى والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿وَمَرْيَمَ أَبْنَتَ عِمْرَانَ﴾ أي واذكر مريم. وقيل: هو معطوف على امرأة فرعون. والمعنى: وضرب الله مثلاً لمريم بنت عمران وصبرها على أذى اليهود. ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عن الفواحش. وقال المفسرون: إنه أراد بالفرج هنا الجيب؛ لأنه قال: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وجبريل عليه السلام إنما نفخ في جيبها ولم ينفخ في فرجها. وهي في قراءة أبي «فنفخنا في جيبها من رُوحنا». وكل خرق في الثوب يسمى جيباً؛ ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَا هَآءِ مِنْ فُرُوجٍ﴾ [ق: ٦]. ويحتمل أن تكون أحصنت فرجها ونفخ الروح في جيبها. ومعنى ﴿فَنَفَخْنَا﴾ أرسلنا جبريل فنفخ في جيبها ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ أي روحاً من أرواحنا وهي روح عيسى. وقد مضى في آخر سورة «النساء» بيانه مستوفى والحمد لله. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ قراءة العامة ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ بالتشديد. وقرأ حميد والأموي ﴿وَصَدَّقَتْ﴾ بالتخفيف. ﴿يَكَلِّمَتْ رَبِّهَا﴾ قول جبريل لها: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى وأنه نبي وعيسى كلمة الله. وقد

الشوكاني ج ٥ ص ٢٥٦ - ٢٥٧

الجمهور «وصدقت» بالتشديد، وقرأ حمزة الأموي ويعقوب وقتادة وأبو مجلز وعاصم في رواية عنه بالتخفيف. وقرأ الجمهور «بكلمات» بالجمع، وقرأ الحسن ومجاهد والجدري «بكلمة» بالإفراد. وقرأ الجمهور «وكتابه» بالإفراد، وقرأ أهل البصرة وحفص «كتبه» بالجمع، والمراد على قراءة الجمهور الجنس فيكون في معنى الجمع، وهي الكتب المنزلة على الأنبياء ﴿وَكَاثَ مِنَ الْقَتَنِينَ﴾ قال قتادة: من القوم المطيعين لربهم. وقال عطاء: من المصلين، كانت تصلي بين المغرب والعشاء، ويجوز أن يراد بالقائتين رهطها وعشيرتها الذين كانت منهم، وكانوا مطيعين أهل بيت صلاح وطاعة، وقال: من القائتين ولم يقل من القائتات لتغليب الذكور على الإناث...

﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ معطوف على امرأة فرعون: أي وضرب الله مثلاً للذين آمنوا مريم ابنة عمران: أي حالها وصفتها، وقيل إن الناصب لمريم فعل مقدر: أي واذكر مريم، والمقصود من ذكرها أن الله سبحانه جمع كفا بين كرامة الدنيا والآخرة واصطفاها على نساء العالمين مع كونها بين قوم كافرين ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ أي عن الفواحش، وقد تقدم تفسير هذا في سورة النساء. قال المفسرون: المراد بالفرج هنا الجيب لقوله ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾ وذلك أن جبريل نفخ في جيب درعها فحبلت بعيسى ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ يعني شرائعه التي شرعها لعباده، وقيل المراد بالكلمات هنا هو قول جبريل لها - إنما أنا رسول ربك - الآية. وقال مقاتل: يعني بالكلمات عيسى. قرأ

الألوسي ج ١٤ ص ١٦٤ - ١٦٥

كل فرجة بين الشيتين، وموضع جيب درع المرأة مشقوق فهو فرج، وهذا أبلغ في الثناء عليها لأنها إذا منعت جيب درعها فهي للنفس أمنع، وفي مجمع البيان عن الفراء أن المراد منعت جيب درعها عن جبريل عليه السلام، وكان ذلك على ما قيل: قولها ﴿إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ قَتِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وأفاد كلام البعض أن أحصنت فرجها على ما نقل أولاً عن الفراء كناية عن العفة نحو قولهم: هو نقي الجيب طاهر الذيل.

وجوز في ضمير (فيه) رجوعه إلى الحمل، وهو عيسى عليه السلام المشعر به الكلام، وقرأ عبد الله - فيها - كما في الأنبياء، فالضمير لمريم، والإضافة في قوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ للتشريف، والمراد من روح خلقناه بلا توسط أصل، وقيل: لأدنى ملاسمة وليس بذلك ﴿وَصَدَقَتْ﴾ آمنت ﴿بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا﴾ بصحفه عز وجل المنزلة على إدريس عليه السلام. وغيره، وسماها سبحانه كلمات لقصرها ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بجميع كتبه والمراد بها ما عدا الصحف مما فيه طول، أو التوراة، والإنجيل،

وقوله تعالى ﴿وَمَرِيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ﴾ عطف على (امرأة فرعون) أي وضرب مثلاً للذين آمنوا حالتها وما أوتيت من كرامة الدنيا والآخرة والاصطفاء مع كون أكثر قومها كفاراً، وجمع في التمثيل بين من لها زوج ومن لا زوج لها تسلياً للأرامل وتطيباً لقلوبهن على ما قيل، وهو من بدع التفاسير كما في الكشاف، وقرأ السخيتاني - ابنه - بسكون الهاء وصلأ أجراه مجرى الوقف ﴿الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ صانته ومنعته من الرجال، وقيل: منعته عن دنس المعصية.

والفرج ما بين الرجلين وكني به عن السيئة، وكثر حتى صار كالصريح، ومنه ما هنا عند الأكثرين ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ النافخ رسوله تعالى وهو جبريل عليه السلام فالإسناد مجازي، وقيل: الكلام على حذف مضاف أي فنفخ رسولنا، وضمير (فيه) للفرج، واشتهر أن جبريل عليه السلام نفخ في جيبها فوصل أثر ذلك إلى الفرج.

وروى ذلك عن قتادة، وقال الفراء: ذكر المفسرون أن الفرج جيب درعها وهو محتمل لأن الفرج معناه في اللغة

بعض الأخبار سيدة النساء ومن أكملهن، روى أحمد في مسنده: سيدة نساء أهل الجنة مريم. ثم فاطمة. ثم خديجة، ثم آسية. ثم عائشة، وفي الصحيح «كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا أربع: آسية بنت مزاحم امرأة فرعون، ومريم ابنة عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد ﷺ» وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» وخص الثريد - وهو خبز يجعل في مرق وعليه لحم - كما قيل:

إذا ما الخبز تأدمه بلحم

فذاك أمانة الله الثريد

لا اللحم فقط كما قيل لأن العرب لا يؤثرون عليه شيئاً حتى سموه بحبوة الجنة، والسر فيه على ما قال الطيبي: إن الثريد مع اللحم جامع بين الغذاء واللذة والقوة وسهولة التناول وقلة المؤنة في المضغ وسرعة المرور في المرء فضرب به مثلاً ليؤذن بأنها رضي الله تعالى عنها أعطيت مع حسن الخلق حلاوة المنطق وفصاحة اللهجة وجودة القريحة ورزانة الرأي ورصانة العقل والتحبب للبلع فهي تصلح للبلع والتحدث والاستئناس بها والإصغاء إليها، وحسبك أنها عقلت من النبي ﷺ ما لم يعقل غيرها من النساء وروت ما لم يرو مثلهما من الرجال، وعلى مزيد فضلها في هذه السورة الكريمة من عتابها وعتاب صاحبها حفصة رضي الله تعالى عنهما ما لا يخفى، ثم لا يخفى أن فاطمة رضي الله تعالى عنها من حيث البضعية لا يعد لها في الفضل أحد، وتام الكلام في ذلك في محله.

وجاء في بعض الآثار أن مريم، وآسية زوجا رسول الله ﷺ في الجنة، أخرج الطبراني عن سعد بن جنادة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوجني في الجنة مريم بنت عمران وامرأة فرعون وأخت موسى عليه السلام». وزعم نبوتها كزعم نبوة غيرها من النساء كهاجر وسارة غير صحيح لاشتراط الذكورة في النبوة على الصحيح خلافاً للأشعري، وقد نبه على هذا الزعم العلامة ابن قاسم في الآيات البيّنات وهو غريب فليحفظ، والله تعالى أعلم.

والزبور، وعد المصحف من ذلك وإيمانها به ولم يكن منزلاً بعد كالإيمان بالنبي الموعود عليه الصلاة والسلام فقد كان ﷺ مذكوراً بكتابه في الكتب الثلاث، وتفسير الكلمات والكتب بذلك هو ما اختاره جمع، وجوز غير واحد أن يراد بالكلمات ما أوحاه الله تعالى إلى أنبيائه عليهم السلام، وبالكتب ما عرف فيها مما يشمل المصحف وغيرها، وقيل: جميع ما كتب مما يشمل اللوح وغيره، وأن يراد بالكلمات وعده تعالى ووعيده أو ذلك وأمره عز وجل ونهيه سبحانه، وبالكتب أحد الأوجه السابقة، وإرادة كلامه تعالى القديم القائم بذاته سبحانه من الكلمات بعيد جداً، وقرأ يعقوب، وأبو مجلز، وقتادة، وعصمة عن عاصم (صدقت) بالتخفيف، ويرجع إلى معنى المشدد؛ وفي البحر أي كانت صادقة بما أخبرت به من أمر عيسى وما أظهره الله تعالى لها من الكرامات، وفيه قصور لا يخفى.

وقرأ الحسن ومجاهد، والجحدري - بكلمة - على التوحيد فاحتمل أن يكون اسم جنس، وأن يكون عبارة عن كلمة التوحيد، وأن يكون عبارة عن عيسى عليه السلام فقد أطلق عليه السلام أنه كلمة الله ألقاها إلى مريم، وقد مر شرح ذلك، وقرأ غير واحد من السبعة - وكتابه - على الأفراد فاحتمل أن يراد به الجنس وأن يراد به الإنجيل لا سيما إن فسرت الكلمة بعيسى عليه السلام، وقرأ أبو رجاء، ﴿وَكُتِّبَ﴾ بسكون التاء على ما قال ابن عطية، وبه. وبفتح الكاف على أنه مصدر أقيم مقام الاسم على ما قال صاحب اللوامح. ﴿وَكُنْتُ مِنَ الْفٰتِنٰتِ﴾ أي من عداد المواقين على الطاعة - فمن - للتبعيض، والتذكير للتغليب، والإشعار بأن طاعتها لم تقصر عن طاعة الرجال حتى عدت من جملتهم فهو أبلغ من قولنا: وكانت من القانتات، أو قانتة، وقيل: ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، والمراد كانت من نسل القانتين لأنها من أعقاب هرون أخي موسى عليهما السلام، ومدحها بذلك لما أن الغالب أن الفرع تابع لأصله ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتًا يُؤْدِنُ رَيْوَهُ وَالَّذِي حَبَّتْ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨] وهي على ما في

﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَحَابَةً وَلَا وَلَدًا﴾ * وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا ﴿

(سورة الجن، رقم ٧٢، الآية ٣-٤)

مصادر تفاسير الآية

الطبري	ج ٢٩	ص ٦٤ - ٦٧	أبو حيان الأندلسي	ج ٨	ص ٣٤٥ - ٣٥٠
الزمخشري	ج ٤	ص ١٦٧	ابن كثير	ج ٤	ص ٤٢٨
الرازي	ج ٣٠	ص ١٥٤ - ١٥٥	الجلالان		ص ٧٧٠
الطبرسي	ج ٢٩	ص ٨٣ - ٧٦	الشوكاني	ج ٥	ص ٣٠٧ - ٣٠٢
ابن عربي	ج ٢	ص ٧١١ - ٧١٢	الألوسي	ج ٢٩	ص ١٠٦ - ١٠٤
البيضاوي	ج ٥	ص ١٥٤	القاسمي	ج ١٦	ص ٥٩٤٥ - ٥٩٤٦
الخازن	ج ٧	ص ١٥٨ - ١٥٩	الطباطبائي	ج ٢٠	ص ٣٧ - ٤٨
البغوي	ج ٤	ص ٣٧٠	جوهري	ج ٢٤	ص ٢٧٤ - ٢٨٤
الماوردي	ج ٦	ص ١١٠	المراغي	ج ٢٩	ص ٩٢ - ٩٧
القرطبي	ج ١٩	ص ١ - ٩	سيد قطب	ج ٦	ص ٣٧١٩ - ٣٧٣٩

الطبري ج ٢٩ ص ٦٤ - ٦٧

ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن عبد الأعلى... عن عكرمة، في قوله ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: جلال ربنا.

حدثني محمد بن عمار... عن مجاهد في قوله ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: جلال ربنا.

حدثنا ابن حميد... عن عكرمة ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾: جلال ربنا.

حدثنا بشر... عن قتادة، قوله ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾: أي تعالى جلاله وعظمته وأمره.

حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: تعالى أمر ربنا، تعالت عظمته.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: تعالى غنى ربنا. ذكر من قال ذلك :

حدثنا ابن عبد الأعلى... عن الحسن، في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثنا ابن حميد... عن الحسن ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثني يعقوب عن إبراهيم... عن الحسن، في قوله ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: غنى ربنا.

حدثنا الحسن بن عرفة... عن الحسن وعكرمة في

وقوله: ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن: ٣] اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه: فأما به ولن نشرك بربنا أحداً، وأما بأنه تعالى أمر ربنا وسلطانه وقدرته.

ذكر من قال ذلك :

حدثني علي... عن ابن عباس، في قوله ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ يقول: فعله وأمره وقدرته.

حدثني محمد بن سعد... عن ابن عباس، قوله ﴿وَأَنَّهُ تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ يقول: تعالى أمر ربنا.

حدثنا محمد بن بشار... عن قتادة في هذه الآية ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: أمر ربنا.

حدثنا ابن بشار... عن السدي ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا﴾ قال: أمر ربنا.

حدثني يونس، قال: أخبرنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿تَعَلَّى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَحَابَةً وَلَا وَلَدًا﴾ قال: تعالى أمره أن يتخذ - ولا يكون الذي قالوا - صاحبة ولا ولداً، وقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ يُولَدٌ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤] قال: لا يكون ذلك منه.

وقال آخرون: عني بذلك جلال ربنا وذكره.

قوله الله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ قال أحدهما: غناه، وقال الآخر: عظمته.

وقال آخرون: غني بذلك الجد هو أبو الأب، قالوا: ذلك كان من كلام جهلة الجن.

ذكر من قال ذلك:

حدثني أبو السائب... عن أبي جعفر، ﴿تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ قال: كان كلاماً من جهلة الجن.

وقال آخرون: غني بذلك: ذكره.

حدثني محمد بن عمرو... عن مجاهد، في قول الله ﴿تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ قال: ذكره.

وأولى الأقوال في ذلك عندنا بالصواب قول من قال: غني بذلك: تعالت عظمة ربنا وقدرته وسلطانه.

وإنما قلنا ذلك أولى بالصواب لأن للجد في كلام العرب معنيين: أحدهما الجد الذي هو أبو الأب، أو أبو الأم، وذلك غير جائز أن يوصف به هؤلاء النفر الذين وصفهم الله بهذه الصفة، وذلك أنهم قد قالوا: ﴿فَتَأْمَنَّا بِيَدِهِ وَلَوْ نَشْرِكُ رَبَّنَا أَكْفَى﴾ [الجن: ٢] ومن وصف الله بأن له ولداً أو جدّاً هو أبو أب أو أبو أم، فلا شك أنه من المشركين.

والمعنى الآخر: الجد الذي بمعنى الحظ؛ يقال: فلان ذو جد في هذا الأمر: إذا كان له حظ فيه، وهو الذي يُقال له بالفارسية البخت، وهذا المعنى الذي قصده هؤلاء النفر من الجن بقبيلهم ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ إن شاء الله. وإنما عتوا أن حظوته من الملك والسلطان والقدرة والعظمة عالية، فلا يكون له صاحبة ولا ولد، لأن صاحبة إنما تكون للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد، فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه الذين تضطرهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد.

وقد بين عن صحة ما قلنا في ذلك إخبار الله عنهم أنهم إنما نزهوا الله عن اتخاذ صاحبة والولد بقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ يقال منه: رجل جدي وجديد ومجدود: أي ذو حظ فيما هو فيه؛ ومنه قول

حاتم الطائي:

اغزوا بني ثعلب فالغزو جذكُم

غذوا الرّوابي ولا تبتكوا لمن قتلنا

وقال آخر:

يُـرْقِعُ جَدُّكَ إِنِّي انـرُؤُ

سَقَتَنِي إِلَيْكَ الْأَعَادِي سَجَالَا

وقوله ﴿اتَّخَذَ صَاحِبَةً﴾ يعني زوجة ﴿وَلَا وَلَدًا﴾.

واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فقراه أبو جعفر القاري وستة أحرف آخر بالفتح، منها: «أَنْتُمْ اسْتَمَعَ نَفَرٌ - وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ سَفِيهًا - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ»

رجال من الإنس - وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ما قام عبدالله يدعوه - وأن لو استقاموا على الطريقة» وكان نافع يكسرها إلا ثلاثة أحرف: أحدها ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ﴾ [الجن: ١]

والثانية ﴿وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا﴾ [الجن: ١٦] والثانية ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨]. وأما قراءة الكوفة غير عاصم، فإنهم يفتحون جميع ما في آخر سورة النجم وأول سورة الجن إلا قوله ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ [الجن: ١]، وقوله ﴿قُلْ

إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ [الجن: ٢٠] وما بعده إلى آخر السورة، وأنهم يكسرون ذلك غير قوله ﴿لِيَعْلَمَ أَنَّ قَدْ أَتْلُوهُ رَسَلَتْ رَيْبَهُمْ﴾ [الجن: ٢٨] وأما عاصم فإنه كان يكسر جميعها إلا

قوله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فإنه كان يفتحها، وأما أبو عمرو، فإنه كان يكسر جميعها إلا قوله ﴿وَأَلَّوْا اسْتَقَمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦] فإنه كان يفتح هذه وما

بعدها، فأما الذين فتحوا جميعها إلا في موضع القول، كقوله ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا﴾ [الجن: ١] وقوله ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي﴾ [الجن: ٢٠] ونحو ذلك، فإنهم عطفوا أن في كل

السورة على قوله فأمنا به، وأمنا بكل ذلك، ففتحوها بوقوع الإيمان عليها. وكان الفراء يقول: لا يمينك أن تجد الإيمان يقبح في بعض ذلك من الفتح، وأن الذي يقبح مع ظهور الإيمان قد يحسن فيه فعل مضارع للإيمان، فوجب فتح أن كما قالت العرب:

إذا ما الغانيات برزن يؤماً

ورججن الحواجب والميئوننا

فانصيب العيون لإتباعها الحواجب، وهي لا تزجج، وإنما

عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا * وَأَنْتُمْ كَانُوا رِجَالًا مِنْ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنْ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿[الجن: ٤ - ٦].

يقول عز وجل مخبراً عن قيل النفر من الجن الذين استمعوا القرآن ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ وهو إبليس. وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ذكر من قال ذلك:

حدثنا بشر... عن قتادة ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ وهو إبليس.

حدثنا ابن حميد... عن مجاهد ﴿سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قال إبليس؛ ثم قال سفيان: سمعت أن الرجل إذا سجد جلس إبليس يبكي يقول: يا ويله أمر بالسجود فسجد، كله الجنة.

حدثني ابن عبد الأعلى، قال: ثنا ابن ثور، عن معمر، قال: تلا قتادة ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا * وَأَنَا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نَقُولَ الْإِنْسَ وَالْجِنَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الجن: ٤ - ٥] فقال: عصاه والله سفيه الجن، كما عصاه سفيه الإنس.

وأما الشطط من القول، فإنه كان تعدياً.

وينحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

ذكر من قال ذلك:

حدثني يونس، قال: ثنا ابن وهب، قال: قال ابن زيد، في قوله ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قال: ظلماً.

الرازي ج ٣٠ ص ١٥٤ - ١٥٥

القول الثاني: الجد الغني ومنه الحديث «لا ينفع ذا الجد منك الجد» قال أبو عبيدة أي لا ينفع ذا الغنى منك غناه، وكذلك الحديث الآخر «قمت على باب الجنة فإذا عامة من يدخلها الفقراء وإذا أصحاب الجد محبسون» يعني أصحاب الغنى في الدنيا، فيكون المعنى وأنه تعالى غني عن الاحتياج إلى الصاحبة والاستئناس بالولد.

وعندي فيه قول ثالث: وهو أن جد الإنسان أصله الذي منه وجوده فجعل الجد مجازاً عن الأصل، فقوله تعالى

تكحل، فأضمر لها الكحل، كذلك يضمّر في الموضع الذي لا يحسن فيه أماناً صدقنا وأماناً وشهدنا. قال: ويقول النصب قوله ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوا عَلَى الطَّرِيقَةِ﴾ [الجن: ١٦] فينبغي لمن كسر أن يحذف «أن» من «لو» لأن «أن» إذ خُففت لم تكن حكاية. ألا ترى أنك تقول: أقول لو فعلت لفعلت، ولا تدخل «أن»، وأما الذين كسروها كلهم وهم في ذلك يقولون ﴿وَأَلَوْ اسْتَقَمُّوا﴾ [الجن: ١٦] فكانهم أضمروا يميناً مع «لو» وقطعوها عن النسق على أول الكلام، فقالوا: والله لو استقاموا؛ قال: والعرب تدخل «أن» في هذا الموضع مع اليمين وتحذفها، قال الشاعر:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئْتُ أَنَا نَارُ سَوْلَةٍ

سِوَاكَ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا

قالوا: وأنشدنا آخر:

أَمَا وَاللَّهِ أَنْ لَوْ كُنْتَ حَرًّا

وَمَا بِالْخُرْأَنْتِ وَلَا الْعَيْتِ

وأدخل «أن» من كسرها كلها، ونصب ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ

لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] فإنه خصّ ذلك بالوحي، وجعل

﴿وَأَلَوْ﴾ مضمرة فيها اليمين على ما وصفت. وأما نافع

فإن ما فتح من ذلك فإنه ردّه على قوله ﴿أَوْحَى إِلَيَّ﴾ وما

كسره فإنه جعله من قول الجن، وأحبّ ذلك إليّ أن أقرأ به

الفتح فيما كان وحياً، والكسر فيما كان من قول الجن،

لأن ذلك أفصحها في العربية، وأبينها في المعنى، وإن

كان للقراءات الأخر وجه غير مدفوعة صحتها.

القول في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ كَانُوا يَقُولُ سَفِيهُنَا

فقالوا ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ وفيه

مسائل:

المسألة الأولى: في الجد قولان: الأول: الجد في اللغة العظمة يقال جدّ فلان أي عظم ومنه الحديث «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جدّ فينا» أي جد قدره وعظم، لأن الصاحبة تتخذ للحاجة إليها والولد للتكسّر به والاستئناس، وهذه من سمات الحدوث وهو سبحانه منزّه عن كل نقص.

دين النصارى. النوع الثالث مما ذكره الجن قوله تعالى ﴿كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ السفه خفة العقل والشطط مجاوزة الحد في الظلم وغيره ومنه أشط في الصوم إذا أبعد فيه أي يقول قولاً هو في نفسه شطط لفرط ما أشط فيه.

واعلم أنه لما كان الشطط هو مجاوزة الحد، وليس في اللفظ ما يدل على أن المراد مجاوزة الحد في جانب النفي أو جانب الإثبات، فحينئذ ظهر أن كلا الأمرين مذموم فمجاوزة الحد في النفي تفضي إلى التعطيل ومجاوزة الحد في الإثبات تفضي إلى التشبيه، وإثبات الشريك والصاحبة والولد. وكلا الأمرين شطط ومذموم.

الطبرسي ج ٢٩ ص ٧٦ - ٨١

وقيل تعالت آلاؤه ونعمه على الخلق، عن القرظي، والجميع يرجع إلى معنى واحد وهو العظمة والجلال على ما تقدم ذكرهما، ومنه قول أنس بن مالك «كان الرجل إذا قرأ سورة البقرة جد في أعيننا» أي عظم، وقال الربيع بن أنس أنه قال ليس لله تعالى جد وإنما قالته الجن بجهالة فحكاه سبحانه كما قالت، وروي ذلك عن أبي جعفر الباقر (ع) وأبي عبدالله (ع) ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ أي جاهلنا ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ أرادوا بسفيهم إبليس عن مجاهد وقتادة، والشطط السرف في ظلم النفس والخروج عن الحق فاعترفوا بأن إبليس كان يخرج عن الحد في إغواء الخلق ودعائهم إلى الضلال، وقيل شططاً أي قولاً بعيداً من الحق وهو الكذب في التوحيد والعدل.

ابن عربي ج ٢ ص ٧١١ - ٧١٢

سَفِيهُنَا الذي هو الوهم ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ بأن كان يتوهمه في جهة، ويجعله من جنس الموجودات المحفوفة باللواحق المادية فيماثل المخلوقات صنفاً، أو نوعاً.

﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ معناه تعالى أصل ربنا وأصله حقيقته المخصوصة التي لنفس تلك الحقيقة من حيث إنها هي تكون واجبة الوجود فيصير المعنى أن حقيقته المخصوصة متعالية عن جميع جهات التعلق بالغير لأن الواجب لذاته يجب أن يكون واجب الوجود من جميع جهاته، وما كان كذلك استحال أن يكون له صاحبة وولد.

المسألة الثانية: قرء جدّاً ربنا بالنصب على التمييز وجدّ ربنا بالكسر أي صدق ربوبيته وحق إلهيته عن اتخاذ الصاحبة والولد، وكان هؤلاء الجن لما سمعوا القرآن تنبهوا لفساد ما عليه كفره الجن فرجعوا أولاً عن الشرك وثانياً عن

... ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ الاختيار كسر إن لأنه من قول الجن لقومهم وهو معطوف على قوله ﴿فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ أي وقالوا ﴿تَعْلَمُونَ جَدُّ رَبِّنَا﴾ وقال الفراء: من فتح فتقديره فأما به وأما بأنه تعالى جدّ ربنا، وكذلك كل ما كان بعده ففتح أن بوقوع الإيمان عليه، والمعنى تعالى جلال ربنا وعظمته عن اتخاذ الصاحبة والولد، عن الحسن ومجاهد، وقيل معناه تعالت صفات الله التي هي له خصوصاً، وهي الصفات العالية التي ليست للمخلوقين عن أبي مسلم. وقيل معناه جد ربنا صفاته، فلا يجوز عليه صفات الأجسام والأعراض، عن الجبائي. وقيل تعالت قدرة ربنا، عن ابن عباس. وقيل تعالى ذكره، عن مجاهد. وقيل فعله وأمره، عن الضحاك. وقيل علا ملك ربنا، عن الأخفش.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ عَظْمَةَ رَبِّنَا﴾ من أن نتصوره مدركة فتكيفه، فيدخل تحت جنس فيتخذ ﴿صَاحِبَةً﴾ من صنف تحته، أو ﴿وَلَدًا﴾ من نوع يماثله ﴿وَأَنْتُمْ كَانْتُمْ يَقُولُ

البيضاوي ج ٥ ص ١٥٤

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾...

وقوله ﴿مَا آتَخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيان لذلك وقرئ
جداً على التمييز وجد ربنا بالكسر أي صدق ربوبيته كأنهم
سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقدوه من الشرك
واتخاذ صاحبة والولد. ﴿وَأَنْتُمْ كَأَنَّ يَقُولُ سَفِينًا﴾
إبليس أو مرده الجن ﴿عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ قولا ذا شطط
لفرط ما أشط فيه وهو نسبة صاحبة والولد إلى الله.

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريان بالكسر
على أنه من جملة المحكي بعد القول وكذا ما بعده إلا
قوله وأن لو استقاموا وأن المساجد وإنه لما قام فإنها من
جملة الموحى به ووافقهم نافع وأبو بكر إلا في قوله وإنه
لما قام على أنه استئناف أو مقول وفتح الباقون الكل إلا
ما صدر بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوف على
محل الجار والمجرور في به كأنه قيل صدقناه وصدقنا

الخازن ج ٧ ص ١٥٧ - ١٥٩

الجد لا ينفع ذا الغنى غناه وقال ابن عباس عظمت قدرة ربنا
وقيل أمر ربنا وقيل فعله وقيل آلاؤه ونعمائوه على خلقه وقيل
علام ملك ربنا ﴿مَا آتَخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾...

يقال: فلان ذو جد في هذا الأمر إذا كان له حظ فيه،
وهو الذي يقال له بالفارسية (البحث). والمعنى: أن
حظوته من الملك والسلطان، والقدرة العظيمة عالياً، فلا
تكون له صاحبة ولا ولد، لأن صاحبة إنما تكون
للضعيف العاجز الذي تضطره الشهوة الباعثة إلى ومنه

القرطبي ج ١٩ ص ١ - ٩

سعيد بن جبير: «وأنه تعالى جد ربنا» أي تعالى ربنا. وقيل:
إنهم عَنُوا بذلك الجد الذي هو أب الأب، ويكون هذا من
قول الجن. وقال محمد بن علي بن الحسين وابنه جعفر
الصادق والربيع: ليس لله تعالى جد، وإنما قالته الجن
للجهالة، فلم يؤخذوا به. وقال القشيري: ويجوز إطلاق
لفظ الجد في حق الله تعالى؛ إذ لو لم يجز لما ذكر في
التران، غير أنه لفظ موهم، فتجئبه أولى. وقراءة عكرمة
«جد» بكسر الجيم: على ضد الهزل. وكذلك قرأ أبو حيوة
ومحمد بن السَّمِيع. ويروى عن ابن السَّمِيع أيضاً وأبي
الأشهب «جد ربنا»، وهو الجدوى والمنفعة. وقرأ عكرمة
أيضاً «جداً» بالتنوين «رَبُّنَا» بالرفع على أنه مرفوع،
بـ«تعالى»، و«جداً» منصوب على التمييز. وعن عكرمة
أيضاً «جَدَّ» بالتنوين والرفع «رَبُّنَا» بالرفع على تقدير: تعالى
جَدَّ جَدَّ رَبُّنَا؛ فحذف الثاني بدل من الأول فجَدَّ وأقيم
المضاف إليه مقامه. ومعنى الآية: وأنه تعالى جلال ربنا أن
يتخذ صاحبة وولداً للاستئناس بهما والحاجة إليهما،
والرَّبُّ يتعالى عن الأنداد والنظراء. قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ
كَأَنَّ يَقُولُ سَفِينًا عَلَى اللَّهِ شَطَطًا﴾ الهاء في «أنه» للأمر أو

قوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ كان علقمة ويحيى
والأعمش وحمزة والكسائي وابن عامر وخلف وحفص
والسلمي ينصبون «أنَّ» في جميع السورة في اثني عشر
موضعاً، وهو: «أنه تعالى جد ربنا»... وجاز ذلك وهو
مضمّر مجرور لكثرة حرف الجار مع «أنَّ». وقيل: المعنى
أي وصدقنا أنه جد ربنا. وقرأ الباقون كلها بالكسر وهو
الصواب، واختاره أبو عبيدة وأبو حاتم قوله تعالى:
﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ جَدَّ رَبِّنَا﴾ الجد في اللغة: العظمة والجلال؛
ومنه قول أنس: كان الرجل إذا حفظ البقرة وآل عمران جد
في عيوننا؛ أي عظم وجل. فمعنى: «جد ربنا» أي عظّمته
وجلاله؛ قاله عكرمة ومجاهد وقتادة. وعن مجاهد أيضاً:
ذكره. وقال أنس بن مالك والحسن وعكرمة أيضاً: غناه.
ومنه قيل للحظ جد، ورجل مجدود أي محظوظ، وفي
الحديث: (ولا ينفع الجد منك الجد) قال أبو عبيدة
والخليل: أي ذا الغنى، منك الغنى، إنما تنفعه الطاعة.
وقال ابن عباس: قدرته. الضحاك: فعله. وقال القرطبي
والضحاك أيضاً: آلاؤه ونعمه على خلقه. وقال أبو عبيدة
والأخفش: ملكه وسلطانه. وقال السدي: أمره. وقال

الغلوّ في الكفر. وقال أبو مالك: هو الجور. الكلبي: هو الكذب. وأصله البعد فيعبر عن الجور لبعده عن العدل، وعن الكذب لبعده عن الصدق؛ قال الشاعر:

بأية حال حكموا فيك فاشتطوا
وما ذاك إلا حيث يممك الوشط

الحديث، وفي «كان» اسمها، وما بعدها الخبر. ويجوز أن تكون «كان» زائدة. والسفيه هنا إبليس في قول مجاهد وابن جريج وقتادة. ورواه أبو بردة بن أبي موسى عن أبيه عن النبي ﷺ. وقيل: المشركون من الجن: قال قتادة: عصاه سفیه الجن كما عصاه سفیه الإنس. والشطط والاشتطاط:

ابن كثير ج ٤ ص ٤٢٨

رَبَّنَا أَيُّ تَعَالَى رَبَّنَا، فأما ما رواه ابن أبي حاتم... عن ابن عباس قال: الجد، أب ولو علمت الجن أن في الإنس جد ما قالوا تعالى جد ربنا، فهذا إسناد جيد، ولكن لست أفهم ما معنى هذا الكلام، ولعله قد سقط شيء والله أعلم. وقوله تعالى ﴿مَا أَخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ أي تعالى عن اتخاذ الصاحبة والأولاد، أي قالت الجن: تنزه الرب جل جلاله حين أسلموا، وآمنوا بالقرآن عن اتخاذ الصاحبة والولد.

وقوله تعالى ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَى جَدُّ رَبَّنَا﴾ قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى ﴿جَدُّ رَبَّنَا﴾ أي فعله وأمره وقدرته. وقال الضحاك عن ابن عباس جد الله آلاؤه وقدرته ونعمته على خلقه، وروي عن مجاهد وعكرمة جلال ربنا، وقال قتادة: تعالى جلاله وعظمته وأمره، وقال السدي: تعالى أمر ربنا، وعن أبي الدرداء ومجاهد أيضاً وابن جريج: تعالى ذكره، وقال سعيد بن جبيرة ﴿تَعْلَى جَدُّ

الشوكاني ج ٥ ص ٣٠٤ - ٣٠٥

الصادق، والربيع بن أنس: ليس لله جد، وإنما قالتها الجن للجهالة. قرأ الجمهور «جد» بفتح الجيم، وقرأ عكرمة، وأبو حيوة، ومحمد بن السميع بكسر الجيم، وهو ضدّ الهزل، وقرأ أبو الأشهب «جدي ربنا» أي جدواه ومنفعته. وروي عن عكرمة أيضاً أنه قرأ بتنوين «جد»، ورفع «ربنا» على أنه بدل من جد، ﴿مَا أَخَذَ صَحْبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ هذا بيان لتعالى جدّه سبحانه. قال الزجاج... وكأن الجن نبهوا بهذا على خطأ الكفار الذي ينسبون إلى الله الصاحبة والولد، ونزّهوا الله سبحانه عنهما.

يقال جدّ في عيني: أي عظم، فالمعنى: ارتفع عظمة ربنا وجلاله، وبه قال عكرمة ومجاهد. وقال الحسن: المراد تعالى غناه، ومنه قيل للحظ جدّ، ورجل مجدود: أي محظوظ، وفي الحديث «ولا ينفع ذا الجد منك الجد» قال أبو عبيد والخليل: أي لا ينفع ذا الغنى منك الغنى: أي إنما تنفعه الطاعة، وقال القرطبي والضحاك: جدّه آلاؤه ونعمه على خلقه، وقال أبو عبيدة والأخفش: ملكه وسلطانه، وقال السدي: أمره، وقال سعيد بن جبيرة ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَى جَدُّ رَبَّنَا﴾ أي تعالى ربنا، وقيل جدّه قدرته، وقال محمد بن علي بن الحسين، وابنه جعفر

الألوسي ج ١٥ ص ١٠٤ - ١٠٦

بكسرها في الجميع، واتفقوا على الفتح في أنه استمع، وأن المساجد لأن ذلك لا يصح أن يكون من قول الجن بل هو مما أوحى بخلاف الباقي، فإنه يصح أن يكون من قولهم، ومما أوحى، واختلفوا في أنه لما قام فقرأ نافع، وأبو بكر بكسر الهمزة، والباقيون بفتحها كذا فصله بعض الأجلة، وهو المعول عليه، ووجه الكسر في أن هذه وما

﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَى جَدُّ رَبَّنَا﴾ اختلفوا قراءة في أن هذه وما بعدها إلى ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمُونَ﴾ [الجن: ١٤] وتلك اثنتا عشرة، فقرأها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وحفص بفتح الهمزة فيهن، ووافقهم أبو جعفر قري ثلاثة ما هنا، وأنه كان يقول، وإنه كان رجال، وقرأ الباقيون

بعدها كل جملة على إرادة اللفظ دون المنسبك من أن وما بعدها، وإلا لما صح أن يقال الموحى كيت وكيت وهذه العبارات، فإن كانت إن في كلامهم مكسورة الهمزة، وصحت دعوى أن الحكاية اقتضت فتحها مع صحة إرادة هذه العبارات معه، فذاك وإلا فالأمر كما ترى، فافهم وتأمل، والجد العظمة والجلال، يقال جد في عيني أي عظم، وجل أي، وصدقنا أن الشأن ارتفع عظمة وجلال ربنا، أي عظمت عظمته عز وجل، وفيه من المبالغة ما لا يخفى، وقال أبو عبيدة والأخفش: الملك والسلطان، وقيل الغني: وهو مروي عن أنس والحسن في الآية، والأول مروي عن الجمهور، والجد على جميع هذه الأوجه مستعار من الجد الذي هو البخت، وقوله عز وجل ﴿مَا أَخَذَ صَنْجَةً وَلَا وَلَدًا﴾ عليها تفسير للجملة، وبيان لحكمها، ولذا لم يعطف عليها، فالمراد وصفه عز وجل بالتعالي عن الصاحبة والولد لعظمته، أو لسلطانه، وتعالى وكأنهم سمعوا من القرآن ما نبههم على خطأ ما اعتقده كفرة الجن من تشبيهه سبحانه بخلقه في اتخاذ الصاحبة والولد، فاستعظموه ونزهوه تعالى عنه. وقرأ حميد بن قيس «جد» بضم الجيم، قال: في البحر ومعناه العظيم، حكاه سيبويه، وإضافته إلى ربنا من إضافة الصفة إلى الموصوف، والمعنى تعالى ربنا العظيم، وقرأ عكرمة «جد» منوناً مرفوعاً ربنا بالرفع، وخرج على أن الجد بمعنى العظيم أيضاً، وربنا خبر مبتدأ محذوف، أي هو ربنا، أو بدل من جد، وقرأ أيضاً جداً منوناً منصوباً على أنه تميز محول عن الفاعل، وقرأ هو أيضاً، وقتادة جداً بكسر الجيم والتثنية والنصب، ربنا بالرفع، قال: ابن عطية: نصب جداً على الحال، والمعنى تعالى ربنا حقيقة و متمكناً، وقال غيره: هو صفة لمصدر محذوف: أي تعالياً جداً وقرأ ابن السميع «جداً» ربنا، أي جدواه ونفعه سبحانه وكان المراد بذلك الغنى فلا تغفل.

بعدها إلى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ﴾ ظاهر كالكسر في ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا﴾ [الجن: ١] لظهور عطف الجمل على المحكى بعد القول ووضوح اندراجها تحته وأما وجه الفتح ففيه خفاء، ولذا اختلف فيه، فقال الفراء، والزجاج، والزمخشري: هو العطف على محل الجار والمجرور في آمننا به كأنه قيل صدقناه. وصدقنا أنه تعالى جد ربنا، وأنه كان يقول سفيهننا، وكذلك البواقي، ويكفي في إظهاره المحل إظهار مع المرادف، وليس من العطف على الضمير المجرور بدون إعادة الجار الممنوع عند البصريين في شيء، وإن قيل به هنا بناء على مذهب الكوفيين المجوزين له، ولو قيل إنه بتقدير الجار لا طرد حذفه قبل أن، وإن كان سديداً كما في الكشف، وضعف مكى العطف على ما في حيز آمننا، فقال فيه سعد في المعنى لأنهم لم يخبروا أنهم آمنوا بأنهم لما سمعوا الهدى آمنوا به، ولا أنهم آمنوا بأنه كان رجال إنما حكى الله تعالى عنهم أنهم قالوا ذلك مخبرين عن أنفسهم لأصحابهم، وأجيب عن الداهيين إليه بأن الإيمان والتصديق يحسن في بعض تلك المعطوفات بلا شبهة، فيمضي في البواقي ويحمل على المعنى على حد قوله «وزججن الحواجب والعيونا» فيخرج على ما خرج عليه أمثاله، فيؤول صدقنا بما يشمل الجميع، أو يقدر مع كل ما يناسبه، وقال أبو حاتم: هو العطف على نائب فاعل أوحى، أعني أنه استمع كما في أن المساجد، على أن الموحى عين عبارة الجن بطريق الحكاية كأنه قيل: قل أوحى إلى كيت وكيت، وهذه العبارات، وتعقب بأن حكاية عباراتهم تقتضي أن تكون أن في كلامهم مفتوحة الهمزة، ولا يظهر ذلك إلا أن يكون في كلامهم يقتضي الفتح، كاسمعوا، أو اعلموا، أو نخبركم، لكنه أسقط وقت الحكاية، ولا يظهر لإسقاطه وجه على تقدير الظهور، فالفتح ليس لأجل العطف فإن النائب عن الفاعل عليه

القاسمي ج ١٦ ص ٣٠٥ - ٣٠٦

اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد. فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطربهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد.

اتخاذها، وأن الولد إنما يكون عن شهوة أزعجته إلى الوقاع الذي يحدث منه الولد. فقال النفر من الجن: علا ملك ربنا وسلطانه وقدرته وعظمته أن يكون ضعيفاً ضعف خلقه، الذين تضطربهم الشهوة إلى اتخاذ صاحبة، أو وقاع شيء يكون منه ولد.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ * لَمْ يَكُنْ لَهُ يَدٌ وَلَمْ يُؤَلَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

(سورة الإخلاص، رقم ١١٢، الآية ١ - ٤)

مصادر تفاسير الآية

٥٢٩ - ٥٢٧	ج ٨	أبو حيان الأندلسي	٢٢٤ - ٢٢١	ج ٣٠	الطبري
٥٧١ - ٥٦٥	ج ٤	ابن كثير	٢٩٩ - ٢٩٨	ج ٤	الزمخشري
٨٢٦		الجلالان	١٨٥ - ١٧٤	ج ٣٢	الرازي
٥١٨ - ٥١٥	ج ٥	الشركاني	٢٨٣ - ٢٧٤	ج ٣٠	الطبرسي
٣٥٦ - ٣٤٥	ج ٣٠	الآلوسي	٨٧٠ - ٨٦٩	ج ٢	ابن عربي
٢٩٩ - ٢٩٠	ج ١٧	القاسمي	٢٠٠ - ١٩٩	ج ٥	البيضاوي
٣٩٢ - ٣٨٧	ج ٢٠	الطباطباتي	٣٢٢ - ٣٢٠	ج ٧	الخازن
٢٨٧ - ٢٨٦	ج ٢٥	جوهرى	٥١٥ - ٥١٤	ج ٤	البغوي
٢٦٦ - ٢٦٤	ج ٣٠	المراغي	٣٧٢ - ٣٦٩	ج ٦	الماوردي
٤٠٠٥ - ٤٠٠٢	ج ٦	سيد قطب	٢٥٠ - ٢٤٤	ج ٢٠	القرطبي

الطبري ج ٣٠ ص ٢٢١ - ٢٢٤

القول في تأويل قوله جل ثناؤه، وتقدست أسماؤه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ذكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب رب العزة، فأنزل الله هذه السورة جواباً لهم، وقال بعضهم بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه، فقالوا له هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله، فأنزلت جواباً لهم. ذكر من قال: أنزلت جواباً للمشركين الذين سألوه أن ينسب لهم الرب تبارك وتعالى. حدثنا أحمد بن منيع المروزي ومحمود بن خدّاش الطالقاني . . . عن أبي بن كعب قال: قال المشركون للنبي ﷺ أنسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ حدثنا ابن حميد. . . عن عكرمة قال: إن المشركين قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن ربك، صف لنا ربك ما هو، ومن أي شيء هو، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخر السورة. حدثنا ابن حميد. . . عن أبي العالية ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال: قال ذلك قادة الأحزاب: أنسب لنا ربك، فأتاه جبريل بهذه. حدثني محمد بن عوف. . . عن جابر قال: قال المشركون: أنسب لنا ربك، فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ذكر من قال: نزل ذلك من أجل مسألة اليهود. حدثنا ابن حميد محمد بن سعيد قال: أتى رهط

من اليهود النبي ﷺ فقالوا: يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلقه، فغضب النبي ﷺ حتى انتفع لونه، ثم ساورهم غضباً لربه، فجاءه جبريل عليه السلام فسكنه، وقال: اخفض عليك جناحك يا محمد، وجاءه من الله جواب ما سألوه عنه قال: يقول الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدَ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ فلما تلا عليهم النبي ﷺ قالوا: صف لنا ربك كيف خلقه، وكيف عضده، وكيف ذراعه، فغضب النبي ﷺ أشد من غضبه الأول، وساورهم غضباً، فأتاه جبريل فقال له مثل مقالته، وأتاه بجواب ما سألوه عنه ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَنَهُ وَعَلَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر: ٦٧] حدثنا ابن حميد... عن قتادة قال: جاء ناس من اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا أنسب لنا ربك، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى ختم السورة. فتأويل الكلام إذا كان الأمر على ما وصفنا: قل يا محمد لهؤلاء السائلين عن نسب ربك وصفته ومن خلقه: الرب الذي سألتهموني عنه، هو الله الذي له عبادة كل شيء، لا تنبغي العبادة إلا له، ولا تصلح لشيء سواه. واختلف أهل العربية في الرفع ﴿أَحَدٌ﴾ فقال بعضهم: الرفع له الله،

يريد عن خدام العقيلة. والصواب في ذلك عندنا: التنوين، لمعنيين أحدهما: أفصح اللغتين، وأشهر الكلامين وأجودهما عند العرب. والثاني: إجماع الحجة من قراء الأمصار على اختيار التنوين فيه، ففي ذلك مكتفى عن الاستشهاد على صحته بغيره. وقد بينا معنى قوله أحد فيما مضى بما أغنى عن إعادته في هذا الموضع وقوله ﴿اللَّهُ الصَّكَّدُ﴾ يقول تعالى ذكره: المعبود الذي لا تصلح العبادة إلاّ له الصمد. واختلف أهل التأويل في معنى الصمد، فقال بعضهم: هو الذي ليس بأجوف، ولا يأكل ولا يشرب: ذكر من قال ذلك: حدثنا عبدالرحمن بن الأسود... عن ابن عباس قال: الصمد الذي ليس بأجوف. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قال: الصمد المصمت الذي لا خوف له. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد مثله سواء. حدثني الحرث... عن مجاهد قال: الصمد المصمت الذي ليس له خوف. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قال: الصمد الذي لا جوف له.

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا وكيع، وحدثنا ابن حميد... عن مجاهد مثله. حدثنا ابن بشار... عن الحسن قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا الربيع بن مسلم عن إبراهيم بن ميسرة، قال: أرسلني مجاهد إلى سعيد بن جبير أسأله عن الصمد، فقال: الذي لا جوف له. حدثنا ابن بشار عن الشعبي قال: الصمد الذي لا يطعم الطعام. حدثنا يعقوب... عن الشعبي أنه قال: الصمد الذي لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب. حدثنا أبو كريب وابن بشار... عن الضحاك قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا أبو كريب عن عامر قال: الصمد الذي لا يأكل الطعام. حدثنا ابن بشار وزيد بن الأخرم... عن سعيد بن المسيب قال: الصمد الذي لا حشوة له. حدثت عن الحسين... سمعت الضحاك يقول في قوله: الصمد الذي لا جوف له. حدثني العباس بن أبي طالب... عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: لا أعلمه إلا قد رفعه، قال: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا ابن عبد الأعلى... سمعت الحسن يقول: الصمد الذي لا جوف له. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن عكرمة قال: الصمد الذي لا جوف له. وقال آخرون: هو الذي لا يخرج منه شيء، ذكر من قال ذلك: حدثني يعقوب... سمعت عكرمة قال في قوله: الصمد الذي لم يخرج منه شيء، ولم يلد ولم يولد. حدثنا ابن بشار... عن عكرمة قال: الصمد الذي لا يخرج منه شيء. وقال آخرون: هو الذي لم يلد ولم يولد. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن أبي العالية قال: الصمد الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا سيموت، فأخبرهم تعالى ذكره أنه لا يورث، ولا يموت. حدثنا أحمد بن منيع ومحمود بن خدّاش قالوا ثنا أبو سعيد الصنعاني قال: قال المشركون للنبي ﷺ أنسب لنا ربك فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَكَ يُولَدَ وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله جل ثناؤه لا يموت ولا يورث، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكَ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكن له شبهه، ولا عدل، وليس كمثل شيء. حدثنا

بمحدث لم يكن فكان، لأن كل مولود فإنما وجد بعد أن لم يكن، وحدث بعد أن كان غير موجود، ولكنه تعالى ذكره قديم لم يزل، ودائم لم يبد ولا يزول ولا يفنى. وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معنى ذلك: ولم يكن له شبيه، ولا مثل. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن حميد... عن أبي العالية قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ لم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء. حدثنا بشر عن عمرو بن غيلان الثقفي، وكان أمير البصرة عن كعب قال: إن الله تعالى ذكره أسس السموات السبع والأرضين السبع، على هذه السورة ﴿لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ. وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾، وإن الله لم يكافئه أحد من خلقه. حدثني علي... عن ابن عباس ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ قال ليس كمثله شيء، ف سبحانه الله الواحد القهار. حدثني الحرث... عن ابن جريج ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا﴾ مثل. وقال آخرون: معنى ذلك أنه لم يكن له صاحبة. ذكر من قال ذلك: حدثنا ابن بشار... عن مجاهد قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ قال: صاحبة. حدثنا ابن بشار... عن مجاهد مثله. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد مثله. حدثنا ابن حميد... عن مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ قال: صاحبة. حدثنا أبو كريب... عن مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ قال: صاحبة. حدثنا أبو السائب... عن مجاهد مثله. والكفو والكفاء والكفاء في كلام العرب واحد، وهو المثل والشبه، ومنه قول نابغة بني ذبيان.

لا تقذفني بركن لا كفاء له

ولو تأففك الأعداء بالرّفد

يعني: لا كفاء له: لا مثل له. واختلفت القراء في قراءة قوله ﴿كُفُوا﴾ فقرأ ذلك عامة قراء البصرة ﴿كُفُوا﴾ بضم الكاف والفاء وقرأه بعض قراء الكوفة بتشكين الفاء وهمزها كفتاً. والصواب من القول في ذلك أن يقال إنهما قراءتان معروفتان، ولغتان مشهورتان، فبأيهما قرأ القارئ فمصيب.

أبو كريب... عن محمد بن كعب الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد. وقال آخرون: هو السيد الذي قد انتهى سؤده ذكر من قال ذلك: حدثني أبو السائب... عن شقيق قال: الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤده. حدثنا أبو كريب وابن بشار وابن عبد الأعلى... عن أبي وائل قال: الصمد السيد الذي قد انتهى سؤده، ولم يقل أبو كريب وابن عبد الأعلى سؤده. حدثنا ابن حميد... عن أبي وائل مثله. حدثنا علي... عن ابن عباس في قوله ﴿أَلْضَكَمْتُ﴾ يقول السيد الذي قد كمل في سؤده والشريف الذي قد كمل في شرفه العظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف، والسؤدد وهو الله سبحانه هذه صفته لا تنبغي إلا له. وقال آخرون بل هو الباقي الذي لا يفنى. ذكر من قال ذلك: حدثنا بشر... عن قتادة في قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ أَلْضَكَمْتُ لَمْ يَكِلْهُ وَلَمْ يُولَدْ﴾ قال: كان الحسن و قتادة يقولان: الباقي بعد خلقه، قال: هذه سورة خالصة ليس فيها ذكر شيء من أمر الدنيا والآخرة. حدثنا ابن عبد الأعلى... عن قتادة قال: الصمد الدائم. قال أبو جعفر: الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمى أشرافها، ومنه قول الشاعر:

ألا بكر الناعي بخيري بني أسد

بعمرو بن مسعود بالسيد الصمد

وقال الزبرقان: ولا رهينة إلا سيد صمد. فإذا كان ذلك

كذلك، فالذي هو أولى بتأويل الكلمة المعنى المعروف من كلام من نزل القرآن بلسانه، ولو كان حديث ابن بريدة، عن أبيه صحيحاً كان أولى الأقوال بالصحة، لأن رسول الله ﷺ أعلم بما عنى الله جل ثناؤه، وبما أنزل عليه، وقوله ﴿لَمْ يَكِلْهُ﴾ يقول: ليس بفان، لأنه لا شيء يلد إلا وهو فان بائد، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ يقول: وليس

الزمخشري ج ٤ ص ٢٩٨ - ٢٩٩

محتاجاً إليه، وإذا لم يكن إلا محتاجاً إليه فهو غني، وفي كونه غنياً مع كونه عالماً أنه عدل غير فاعل للقبائح لعلمه بقبح القبيح، وعلمه بغناه عنه، وقوله ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وصف بالقدم والأولية، وقوله ﴿لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ﴾ نفى للشبه والمجانسة، وقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ﴾ تقرير لذلك، وبت للحكم به. فإن قلت: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، ولا يقدم. وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدماً في أفصح كلام وأعربه؟ قلت: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو، وهذا الظرف، فكان لذلك أهم شيء وأعناه وأحقه بالتقدم وأحراره. وقرئ «كُفُوا» بضم الكاف والفاء، وبضم الكاف وكسرها [كُفُوا] مع سكون الفاء. فإن قلت: لم كانت هذه السورة عدل القرآن كله على قصر متنها وتغارب طرفيها؟ قلت: لأمر ما يسود من يسود، وما ذاك إلا لاحتوائها على صفات الله تعالى وعدله وتوحيده، وكفى دليلاً من اعترف بفضلها وصدق بقول رسول الله ﷺ فيها: إن علم التوحيد من الله تعالى بمكان، وكيف لا يكون كذلك والعلم تابع للمعلوم يشرف بشرفه ويتضع بضعته، ومعلوم هذا العلم هو الله تعالى وصفاته، وما يجوز عليه، وما لا يجوز، فما ظنك بشرف منزلته وجلالة محله وإنافته على كل علم، واستيلائه على قصب السبق دونه، ومن ازدراه فلضعف علمه بمعلومه، وقلة تعظيمه له، وخلوه من خشيته، ويعده من النظر لعاقبته.

اللهم احشرونا في زمرة العالمين بك، العاملين لك، القائلين بعدلك، وتوحيذك، الخائفين من وعيدك، وتسمى سورة الأساس لاشتغالها على أصول الدين. وروى أبي، وأنس عن النبي ﷺ: «أسست السموات السبع والأرضون السبع على ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني ما خلقت إلا لتكون دلائل على توحيد الله، ومعرفة صفاته التي نطق بها هذه السورة عن رسول الله ﷺ: «أنه سمع رجلاً يقرأ قل هو أحد فقال: وجبت، قيل يا رسول الله وما وجبت؟ قال: وجبت له الجنة».

﴿هُوَ﴾ ضمير الشأن، و﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن كقولك: هو زيد منطلق، كأنه قيل: الشأن هذا وهو أن الله واحد لا ثاني له. فإن قلت: ما محل هو؟ قلت: الرفع على الابتداء والخبر الجملة. فإن قلت: فالجملة الواقعة خبر لا بد فيها من راجع إلى المبتدأ فأين الراجع؟ قلت: حكم هذه الجملة حكم المفرد في قولك زيد غلامك في أنه هو المبتدأ في المعنى، وذلك أن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هو الشأن الذي هو عبارة عنه، وليس كذلك زيد أبوه منطلق، فإن زيدا والجملة يدلان على معنيين مختلفين، فلا بد مما يصل بينهما... وأحد بدل من قوله الله، أو على هو أحد وهو بمعنى واحد، وأصله وحد. وقرأ عبد الله وأبي: هو الله أحد بغير قل، وفي قراءة النبي ﷺ الله أحد بغير قل هو، وقال «من قرأ الله أحد كان بعدل القرآن»، وقرأ الأعمش: قل هو الله الواحد، وقرئ أحد الله بغير تنوين أسقط لملاقاته لام التعريف، ونحوه: «ولا ذاكر الله إلا قليلاً» والجيد هو التنوين وكسره لالتقاء الساكنين، و﴿الْصَّكْمُ﴾ فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده... والمعنى: هو الله الذي تعرفونه وتقرؤون بأنه خالق السموات والأرض وخالقكم، وهو واحد متوحد بالإلهية لا يشارك فيها، وهو الذي يصمد إليه كل مخلوق لا يستغنون عنه وهو الغني عنهم ﴿لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ﴾ وقد دل على هذا المعنى بقوله ﴿أَفَن يَكُونُ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ﴾، [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم، وهو قديم لا أول لوجوده وليس بجسم. ولم يكافئه أحد: أي لم يماثله ولم يشاكله، ويجوز أن يكون من الكفاءة في النكاح نفياً للمصاحبة، سألوه أن يصفه لهم، فأوحى إليه ما يحتوي على صفاته، فقوله ﴿هُوَ اللَّهُ﴾ إشارة لهم إلى من هو خالق الأشياء وفاطرها، وفي طي ذلك وصفه بأنه قادر عالم لأن الخلق يستدعي القدرة والعلم، لكونه واقعاً على غاية إحكام واتساق وانتظام، وفي ذلك وصفه بأنه حي سميع بصير، وقوله ﴿أَحَدٌ﴾ وصف بالوحدانية ونفي الشركاء، وقوله ﴿الْصَّكْمُ﴾ وصف بأنه ليس إلا

الرازي ج ص ١٧٤ - ١٨٥

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قبل الخوض في التفسير لا بد

من تقديم فصول:

الفصل الأول: روى أبي، قال قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة قل هو الله أحد، فكأنما قرأ ثلث القرآن، وأعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من أشرك بالله، وأمن بالله»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من قرأ قل هو الله أحد مرة واحدة أعطى من الأجر كمن آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وأعطى من الأجر مثل مائة شهيد»، وروي أنه كان جبريل عليه السلام مع الرسول عليه الصلاة والسلام إذ أقبل أبو ذر الغفاري، فقال جبريل: هذا أبو ذر قد أقبل، فقال عليه الصلاة والسلام: أو تعرفونه؟ قال هو أشهر عندنا منه عندهم، فقال عليه الصلاة والسلام بماذا نال هذه الفضيلة؟ قال لصغره في نفسه وكثرة قراءته قل هل هو الله أحد» وروى أنس قال «كنا في تبوك فطلعت الشمس مالها شعاع وضياء وما رأيناها على تلك الحالة قط قبل ذلك فعجب كلنا، فنزل جبريل وقال إن الله أمر أن ينزل من الملائكة سبعون ألف ملك فيصلوا على معاوية بن معاوية، فهل لك أن تصلي عليه ثم ضرب بجناحه الأرض فأزال الجبال وصار الرسول عليها الصلاة والسلام كأنه مشرف عليه فصلى هو وأصحابه عليه، ثم قال: بم بلغ ما بلغ؟ فقال جبريل كان يحب سورة الإخلاص، وروى أنه دخل المسجد فسمع رجلاً يدعو ويقول أسألك يا الله يا أحد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، فقال غفر لك غفر لك غفر لك ثلاث مرات» وعن سهل بن سعد «جاء رجل إلى النبي ﷺ وشكا إليه الفقر فقال إذا دخلت بيتك فسلم إن كان فيه أحد وإن لم يكن فيه أحد فسلم على نفسك، وأقرأ قل هو الله أحد مرة واحدة ففعل الرجل فأدر الله عليه رزقا حتى أفاض على جيرانه» وعن أنس «أن رجلاً كان يقرأ في جميع صلاته ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فسأله الرسول عن ذلك فقال يا رسول الله إني أحبها، فقال حبك إياها يدخلك الجنة» وقيل من قرأها في المنام: أعطى التوحيد وقلة العيال وكثرة الذكر لله، وكان مستجاب الدعوة.

الفصل الثاني: في سبب نزولها وفيه وجوه: الأول: أنها نزلت بسبب سؤال المشركين، قال الضحاك إن المشركين أرسلوا عامر بن الطفيل إلى النبي ﷺ وقالوا شقت عصانا وسبيت آلهتنا، وخالفت دين آبائك، فإن كنت فقيراً أغنيانا، وإن كنت مجنوناً داويناك، وإن هويت امرأة زوجناكها، فقال عليه الصلاة والسلام لست بفقير، ولا مجنون، ولا هويت امرأة، أنا رسول الله أدعوكم من عبادة الأصنام إلى عبادته، فأرسلوه ثانية وقالوا قل له بين لنا جنس معبودك: أمن ذهب أو فضة، فأنزل الله هذه السورة، فقالوا له ثلثمائة وستون صنماً لا تقوم بحوائجنا، فكيف يقوم الواحد بحوائج الخلق؟ فنزلت: ﴿وَالصَّفَٰتِ﴾ [الصفات: ١] إلى قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ [الصفات: ٤] فأرسلوه أخرى، وقالوا بين لنا أفعاله فنزل: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ﴾ [الأعراف: ٥٤] الثاني: أنها نزلت بسبب سؤال اليهود روى عكرمة عن ابن عباس، أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ومعه كعب بن الأشرف، فقالوا يا محمد هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فغضب نبي الله عليه السلام فنزل جبريل فسكنه، وقال اخفض جناحك يا محمد، فنزل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما تلاه عليهم قالوا صف لنا ربك كيف عضده، وكيف ذراعه؟ فغضب أشد من غضبه الأول، فأتاه جبريل بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ [الأنعام: ٩١] الثالث: أنها نزلت بسبب سؤال النصارى، روى عطاء عن ابن عباس، قال قدم وفد نجران، فقالوا صف لنا ربك أمن زبرجد أو ياقوت، أو ذهب، أو فضة؟ فقال إن ربي ليس من شيء لأنه خالق الأشياء فنزلت: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قالوا هو واحد، وأنت واحد، فقال ليس كمثله شيء، قالوا زدنا من الصفة، فقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فقالوا وما الصمد؟ فقال الذي يصمد إليه الخلق في الحوائج، فقالوا زدنا فنزل: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ مَرِيْمٌ وَلَمْ يُولَدْ﴾ كما ولد عيسى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ يريد نظيراً من خلقه.

عشر: سورة الأساس، قال عليه الصلاة والسلام «أسست السموات السبع والأرضون السبع على قل هو الله أحد» وما يدل عليه أن القول بالثلاثة سبب لخراب السموات والأرض بدليل قوله: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْفَطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ [مريم: ٩٠] فوجب أن يكون التوحيد سبباً لعمارة هذه الأشياء وقيل السبب فيه معنى قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢]. الرابع عشر: سورة المانعة روى ابن عباس أنه تعالى قال لنبيه حين عرج به أعطيتك سورة الإخلاص وهي من ذخائر كنوز عرشي، وهي المانعة تمنع عذاب القبر ولفحات النيران: الخامس عشر: سورة المحضر لأن الملائكة تحضر لاستماعها إذا قرئت. السادس عشر: المنفرة لأن الشيطان ينفر عند قراءتها. السابع عشر: البراءة لأنه روي أنه عليه السلام رأى رجلاً يقرأ هذه السورة، فقال أما هذا فقد برىء من الشرك، وقال عليه السلام من قرأ سورة قل هو الله أحد مائة مرة في صلاة أو في غيرها كتبت له براءة من النار. الثامن عشر: سورة المذكرة لأنها تذكر العبد خالص التوحيد فقراءة السورة كالوسمة تذكرك ما تتغافل عنه مما أنت محتاج إليه. التاسع عشر: سورة النور قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ نُورٌ وَالسَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [النور: ٣٥] فهو المنور للسموات والأرض، والسورة تنور قلبك وقال عليه السلام «إن لكل شيء نور ونور القرآن قل هو الله أحد» ونظيره أن نور الإنسان في أصغر أعضائه وهو الحدقة، فصارت السورة للقرآن كالحدقة للإنسان. العشرون: سورة الأمان قال عليه السلام «إذا قال العبد لا إله إلا الله دخل حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي».

الفصل الرابع: في فضائل هذه السورة وهي من وجوه: الأول: اشتهر في الأحاديث أن قراءة هذه السورة تعدل قراءة ثلث القرآن، ولعل الغرض منه أن المقصود الأشرف من جميع الشرائع والعبادات، معرفة ذات الله ومعرفة صفاته ومعرفة أفعاله، وهذه السورة مشتملة على معرفة الذات، فكانت هذه السورة معادلة لثلث القرآن، وأما سورة ﴿قُلْ يَتَّخِذُ الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] فهي

الفصل الثالث: في أساميها، اعلم أن كثرة الألقاب تدل على مزيد الفضيلة، والعرف يشهد لما ذكرناه فأحدها: سورة التفريد. وثانيها: سورة التجريد. وثالثها: سورة التوحيد. ورابعها: سورة الإخلاص لأنه لم يذكر في هذه السورة سوى صفاته السلبية التي هي صفات الجلال، ولأن من اعتقده كان مخلصاً في دين الله، ولأن من مات عليه كان خلاصه من النار، ولأن ما قبله خالص في ذم أبي لهب فكان جزاء من قرأه أن لا يجمع بينه وبين أبي لهب. وخامسها: سورة النجاة لأنها تنجيك عن التشبيه والكفر في الدنيا، وعن النار في الآخرة. وسادسها: سورة الولاية لأن من قرأها صار من أولياء الله ولأن من عرف الله على هذا الوجه فقد والاه فبعد محنة رحمة كما بعد منحة نعمة. وسابعها: سورة النسبة لما روي أنه ورد جواباً لسؤال من قال انسب لنا ربك، ولأنه عليه السلام قال لرجل من بني سليم «يا أخا بني سليم استوص بنسبة الله خيراً» وهو من لطيف المباني، لأنهم لما قالوا انسب لنا ربك، فقال نسبة الله هذا والمحافظة على الأنساب من شأن العرب، وكانوا يتشددون على من يزيد في بعض الأنساب أو ينقص، فنسبة الله في هذه السورة أولى بالمحافظة عليها. وثامنها: سورة المعرفة لأن معرفة الله لا تتم إلا بمعرفة هذه السورة، روى جابر أن رجلاً صلى فقرأ قل هو الله أحد فقال النبي عليه الصلاة والسلام إن هذا عبد عرف ربه فسميت سورة المعرفة لذلك. وتاسعها: سورة الجمال قال عليه الصلاة والسلام «إن الله جميل يحب الجمال» فسألوه عن ذلك فقال أحد صمد لم يلد ولم يولد لأنه إذا لم يكن واحداً عديم النظير جاز أن ينوب ذلك المثل منابه. وعاشرها: سورة المقشقة، يقال تقشيش المريض مما به، فمن عرف هذا حصل له البرء من الشرك والنفاق لأن النفاق مرض كما قال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]. الحادي عشر: المعوذة، روى أنه عليه السلام دخل على عثمان بن مظعون فعوذ به وباللتين بعدها، ثم قال «تعوذ بهن فما تعوذت بخير منها». والثاني عشر: سورة الصمد لأنها مختصة بذكره تعالى. الثالث

المستلزمات، بل العقل كالإنسان الذي له همة عالية فلا ينتقاد إلا لمولاه، والهوى كالمنتجع الذي إذا سمع حضور غني، فإنه ينشط للالتجاع إليه، بل العقل يطلب معرفة المولى ليشكر له النعم الماضية والهوى يطلبها ليطمع منه في النعم المترتبة، فلما عرفاه كما أراد عالمياً وغنياً تعلقا بذيله، فقال العقل: لا أشكر أحداً سواك، وقالت الشهوة: لا أسأل أحداً إلا إياك، ثم جاءت الشبهة فقالت: يا عقل كيف أفردته بالشكر ولعل له مثلاً؟ وبها شهوة كيف اقتصرت عليه ولعل ههنا باباً آخر؟ فبقي العقل متحيراً وتنغصت عليه تلك الراحة، فأراد أن يسافر في عالم الاستدلال ليفوز بجوهرة اليقين فكان الحق سبحانه قال: كيف أنغص على عبدي لذة الاشتغال بخدمتي وشكري، فبعث الله رسوله وقال: لا تقله من عند نفسك، بل قل هو الذي عرفته صادقاً يقول لي: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فعرفك الوجدانية بالسمع وكفاك مؤنة النظر والاستدلال بالعقل، وتحقيقه أن المطالب على ثلاثة أقسام قسم منها لا يمكن الوصول إليه بالسمع وهو كل ما تتوقف صحة السمع على صحته كالعلم بذات الله تعالى وعلمه وقدرته وصحة المعجزات، وقسم منها لا يمكن الوصول إليه إلا بالسمع وهو وقوع كل ما علم بالعقل جواز وقوعه، وقسم ثالث يمكن الوصول إليه بالعقل والسمع معاً، وهو كالعلم بأنه واحد وبأنه مرئي إلى غيرهما، وقد استقصينا في تقرير دلائل الوجدانية في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلَ اللَّهِ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

المسألة الثانية: اعلم أنهم أجمعوا على أنه لا بد في سورة ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] من قل وأجمعوا على أنه لا يجوز لفظ قل في سورة ﴿تَبَّتْ﴾ [المسد: ١] وأما في هذه السورة فقد اختلفوا، فالقراءة المشهورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ أبي وابن مسعود بغير قل هكذا ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وقرأ النبي ﷺ بدون قل هو هكذا ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّكَمُ﴾ فمن أثبت قل قال: السبب فيه بيان أن النظم ليس في مقدوره، بل يحكى كل ما يقال له، ومن حذفه قال: لئلا يتوهم أن ذلك ما كان معلوماً للنبي عليه الصلاة والسلام.

معادلة لربع القرآن، لأن المقصود من القرآن إما الفعل وإما الترك وكل واحد منهما فهو إما في أفعال القلوب وإما في أفعال الجوارح فالأقسام أربعة، وسورة ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ [الكافرون: ١] لبيان ما ينبغي تركه من أفعال القلوب، فكانت في الحقيقة مشتملة على ربع القرآن، ومن هذا السبب اشتركت السورتان أعني ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ في بعض الأسماء فهما المقشقشتان والمبرثتان، من حيث إن كل واحدة منهما تفيد براءة القلب عما سوى الله تعالى، إلا أن ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ يفيد بلفظه البراءة عما سوى الله وملازمة الاشتغال بالله و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يفيد بلفظه الاشتغال بالله وملازمة الإعراض عن غير الله أو من حيث إن ﴿قُلْ يَتَّابِهَا الْكَافِرُونَ﴾ تفيد براءة القلب عن سائر المعبودين سوى الله، و﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تفيد براءة المعبود عن كل ما لا يليق به. الوجه الثاني: وهو أن ليلة القدر لكونها صدقاً للقرآن كانت خيراً من ألف شهر فالقرآن كله صدف والدر هو قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلا جرم حصلت لها هذه الفضيلة. الوجه الثالث: وهو أن الدليل العقلي دل على أن أعظم درجات العبد أن يكون قلبه مستنيراً بنور جلال الله وكبريائه، وذلك لا يحصل إلا من هذه السورة، فكانت هذه السورة أعظم السور، فإن قيل فصافات الله أيضاً مذكورة في سائر السور، قلنا لكن هذه السورة لها خاصية وهي أنها لصغرها في الصورة تبقى محفوظة في القلوب معلومة للعقول فيكون ذكر جلال الله حاضراً أبداً بهذا السبب، فلا جرم امتازت عن سائر السور بهذه الفضائل. وليرجع الآن إلى التفسير. قوله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن معرفة الله تعالى جنة حاضرة إذ الجنة أن تنال ما يوافق عقلك وشهوتك، ولذلك لم تكن الجنة جنة لآدم لما نازع عقله هواه، ولا كان القبر سجنًا على المؤمن لأنه حصل له هناك ما يلائم عقله وهواه، ثم إن معرفة الله تعالى مما يريد بها الهوى والعقل، فصارت جنة مطلقة، وبيان ما قلنا أن العقل يريد أميناتودع عنده الحسنات، والشهوة تريد غنياً يطلب منه

ساكنة، ولما التقى ساكنان حرك الأول منهما بالكسر، وعن أبي عمرو، أحد الله بغير تنوين، وذلك أن النون شابهت حروف اللين في أنها تزداد كما يزدن فلما شابهتها أجريت مجراها في أن حذفت ساكنة لالتقاء الساكنين كما حذفت الألف والواو والياء لذلك نحو غزا القوم ويغزو القوم، ويرمي القوم، ولهذا حذفت النون الساكنة في الفعل نحو (لم يك) ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ﴾ [هود: ١٧] فكذا ههنا حذفت في أحد الله لالتقاء الساكنين كما حذفت هذه الحروف.

وقد ذكرنا هذا مستقصى عند قوله: ﴿عَزَّ وَجَلَّ﴾ [التوبة: ٣٠] وروى أيضاً عن أبي عمرو (أحد الله) وقال: أدركت القراء يقرؤونها كذلك وصلاً على السكون، قال أبو علي قد تجري الفواصل في الإدراج مجراها في الوقف وعلى هذا قال من قال ﴿فَأَضَلُّنَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا﴾ [الأحزاب: ٦٧ - ٦٨] ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ . نَارُ﴾ [القارة: ١٠] فكذلك (أحد الله) لما كان أكثر القراء فيما حكاه أبو عمرو على الوقف أجراه في الوصل مجراه في الوقف لاستمرار الوقف عليه وكثرته في ألسنتهم، وقرأ الأعمش ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فإن قيل لماذا؟ قيل أحد على النكرة، قال الماوردي فيه وجهان: أحدهما: حذف لام التعريف على نية اضمارها والتقدير قل هو الله الأحد. والثاني: أن المراد هو التذكير على سبيل التعظيم.

المسألة السادسة: اعلم أن قوله: ﴿هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ألفاظ ثلاثة وكل واحد منها إشارة إلى مقام من مقامات الطالين. فالمقام الأول: مقام المقربين وهو أعلى مقامات السائرين إلى الله وهؤلاء هم الذين نظروا إلى ماهيات الأشياء وحقائقها من حيث هي هي، فلا جرم ما رأوا موجوداً سوى الله لأن الحق هو الذي لذاته يجب وجوده، وأما ما عداه فممكّن لذاته والممكن لذاته إذا نظر إليه من حيث هو هو كان معدوماً، فهؤلاء لم يروا موجوداً سوى الحق سبحانه، وقوله: (هو) إشارة مطلقة والإشارة وإن كانت مطلقة إلا أن المشار إليه لما كان معيناً انصرف ذلك المطلق إلى ذلك المعين، فلا جرم كان قولنا هو إشارة من هؤلاء المقربين إلى الحق سبحانه فلم يفترقوا

المسألة الثالثة: اعلم أن في إعراب هذه الآية وجوهاً: أحدها: أن هو كناية عن اسم الله، فيكون قوله: (الله) مرتفعاً بأنه خبر مبتدأ، ويجوز في قوله ﴿أَحَدٌ﴾ ما يجوز في قولك: زيد أخوك قائم. الثاني: أن هو كناية عن الشأن، وعلى هذا التقرير يكون الله مرتفعاً بالابتداء وأحد خبره، والجملة تكون خبراً عن هو، والتقدير الشأن والحديث: هو أن الله أحد، ونظيره قوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بِشَخْصَةٍ أَبْصُرَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الأنبياء: ٩٧] إلا أن هي جاءت على التانيث، لأن في التفسير: اسماً مؤنثاً، وعلى هذا جاء ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصُرُ﴾ [الحج: ٤٦] أما إذا لم يكن في التفسير مؤنث لم يؤنث ضمير القصة، كقوله: ﴿إِنَّكُمْ مَن يَأْتِ رَبُّكُمْ بِجُورٍ﴾ [طه: ٧٤]. والثالث: قال الزجاج: تقدير هذه الآية أن هذا الذي سألتكم عنه هو الله أحد.

المسألة الرابعة: في أحد وجهان: أحدهما: إنه بمعنى واحد، قال الخليل: يجوز أن يقال أحد اثنان وأصل أحد وحده إلا أنه قلبت الواو همزة للتخفيف وأكثر ما يفعلون هذا بالواو المضمومة، والمكسورة كقولهم وجوه وأوجوه وسادة وأسادة. والقول الثاني: إن الواحد والأحد ليسا اسمين مترادفين قال الأزهري: لا يوصف شيء بالأحادية غير الله تعالى لا يقال: رجل أحد ولا درهم أحد كما يقال: رجل واحد أي فرد به بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها فلا يشركه فيها شيء. ثم ذكروا في الفرق بين الواحد والأحد وجوهاً: أحدها: إن الواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه. وثانيها: أنك إذا قلت فلان لا يقاومه واحد، جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف الأحد، فإنك لو قلت فلان لا يقاومه أحد لا يجوز أن يقال: لكنه يقاومه اثنان. وثالثها: أن الواحد يستعمل في الإثبات والأحد في النفي، تقول في الإثبات رأيت رجلاً واحداً وتقول في النفي ما رأيت أحداً فيفيد العموم.

المسألة الخامسة: اختلف القراء في قوله: ﴿أَحَدٌ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقراءة العامة بالتنوين وتحريكه بالكسر هكذا أحدن الله، وهو القياس الذي لا إشكال فيه، وذلك لأن التنوين من أحد ساكن ولام المعرفة من الله

في تلك الإشارة إلى مميز، لأن الافتقار إلى المميز إنما يحصل حين حصل هناك موجودان، وقد بينا أن هؤلاء ما شاهدوا بعيون عقولهم إلا الواحد فقط، فلهذا السبب كانت لفظة (هو) كافية في حصول العرفان التام لهؤلاء، المقام الثاني: وهو مقام أصحاب اليمين وهو دون المقام الأول، وذلك لأن هؤلاء شاهدوا الحق موجوداً وشاهدوا الخلق أيضاً موجوداً، فحصلت كثرة في الموجودات فلا جرم لم يكن هو كافياً في الإشارة إلى الحق، بل لا بد هناك من مميز به يتميز الحق عن الخلق: فهؤلاء احتاجوا إلى أن يقرنوا لفظة الله بلفظة هو، فقبل لأجلهم هو الله، لأن الله هو الموجود الذي يفتقر إليه ما عداه، ويستغني هو عن كل ما عداه، والمقام الثالث: وهو مقام أصحاب الشمال وهو أخس المقامات وأدونها، وهم الذين يجوزون أن يكون واجب الوجود أكثر من واحد وأن يكون الإله أكثر من واحد فقرن لفظ الأحد بما تقدم رداً على هؤلاء وإبطالاً لمقالاتهم فقبل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾.

وهنا بحث آخر أشرف وأعلى مما ذكرناه وهو أن صفات الله تعالى إما أن تكون إضافية وإما أن تكون سلبية، أما الإضافية فكقولنا عالم، قادر مريد خلاق، وأما السلبية فكقولنا ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض والمخلوقات تدل أولاً على النوع الأول من الصفات وثانياً على النوع الثاني منها، وقولنا الله يدل على مجامع الصفات الإضافية، وقولنا: أحد يدل على مجامع الصفات السلبية، فكان قولنا: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تاماً في إفادة العرفان الذي يليق بالعقول البشرية، وإنما قلنا إن لفظ الله يدل على مجامع الصفات الإضافية، وذلك لأن الله هو الذي يستحق العبادة، واستحقاق العبادة ليس إلا لمن يكون مستبداً بالايجاد والإبداع والاستبداد بالايجاد لا يحصل إلا لمن كان موصوفاً بالقدر التامة والإرادة النافذة والعلم المتعلق بجميع المعلومات من الكليات والجزئيات. وهذه مجامع الصفات الإضافية، وأما مجامع الصفات السلبية فهي الأحدية، وذلك لأن المراد من الأحدية كون تلك الحقيقة في نفسها مفردة منزهة عن أنحاء التركيب، وذلك لأن كل ماهية مركبة فهي مفتقرة

إلى كل واحد من أجزائه، وكل واحد من أجزائه غيره فكل مركب فهو مفتقر إلى غيره، وكل مفتقر إلى غيره فهو ممكن لذاته، فكل مركب فهو ممكن لذاته، فالإله الذي هو مبدأ لجميع الكائنات ممتنع أن يكون ممكناً، فهو في نفسه فرد أحد وإذا ثبتت الأحدية، وجب أن لا يكون متحيزاً لأن كل متحيز فإن يمينه مغاير ليساره، وكل ما كان كذلك فهو منقسم، فالأحد يستحيل أن يكون متحيزاً، وإذا لم يكن متحيزاً لم يكن في شيء من الأحياء والجهاد، ويجب أن لا يكون حالاً في شيء، لأنه مع محله لا يكون أحداً، ولا يكون محلاً لشيء، لأنه مع حاله لا يكون أحداً، وإذا لم يكن حالاً ولا محلاً لم يكن متغيراً البتة لأن التغير لا بد وأن يكون من صفة إلى صفة، وأيضاً إذا كان أحداً وجب أن يكون واحداً إذ لو فرض موجودان واجبا الوجود لاشتركا في الوجوب ولتمايزا في التعين وما به المشاركة غير ما به الممايزة فكل واحد منهما مركب، فثبت أن كونه أحداً يستلزم كونه واحداً (فإن قيل) كيف يعقل كون الشيء أحداً، فإن كل حقيقة توصف بالأحدية فهناك تلك الحقيقة من تلك الأحدية ومجموعهما فذاك ثالث ثلاثة لا أحد. الجواب: أن الأحدية لازمة لتلك الحقيقة فالمحكوم عليه بالأحدية هو تلك الحقيقة لا المجموع الحاصل منها ومن تلك الأحدية، فقد لاح بما ذكرنا أن قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ كلام متضمن لجميع صفات الله تعالى من الإضافيات والسلوب وتام الكلام في هذا الباب مذكور في تفسير قوله ﴿وَاللَّهُ يَكْفُرُ إِلَهًُ وَحِيدٌ﴾ [البقرة: ١٦٣].

قوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكروا في تفسير ﴿الصَّمَدُ﴾ وجهين: الأول: إنه فعل بمعنى مفعول من صمد إليه إذا قصده، وهو السيد المصمود إليه في الحوائج، قال الشاعر:

ألا بكر الناعي بخير بني أسد

بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وقال أيضاً:

علوته بحسامي ثم قلت له

خذها حذيف فأنت السيد الصمد

به عند المصائب. السادس: قال الحسين بن الفضل البجلي: الصمد هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه. السابع: أنه السيد المعظم. الثامن: أنه الفرد الماجد لا يقضي في أمر دونه.

وأما النوع الثاني: وهو الإشارة إلى الصفات السلبية فذكروا فيه وجوهاً: الأول: الصمد هو الغني على ما قال: ﴿هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [الحديد: ٢٤]. الثاني: الصمد الذي ليس فوقه أحد لقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨] ولا يخاف من فوقه، ولا يرجو من دونه ترفع الحوائج إليه. الثالث: قال قتادة لا يأكل ولا يشرب ﴿وَهُوَ يَطْعَمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤] الرابع: قال قتادة الباقي بعد فناء خلقه: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. الخامس: قال الحسن البصري: الذي لم يزل ولا يزال، ولا يجوز عليه الزوال كان ولا مكان، ولا أين ولا أوان، ولا عرش ولا كرسي، ولا جني ولا إنسي وهو الآن كما كان. السادس: قال أبي بن كعب: الذي لا يموت ولا يورث وله ميراث السموات والأرض. السابع: قال يمان وأبو مالك: الذي لا ينام ولا يسهو. الثامن: قال ابن كيسان: هو الذي لا يوصف بصفة أحد. التاسع: قال مقاتل بن حيان: هو الذي لا عيب فيه. العاشر: قال الربيع بن أنس: هو الذي لا تعثره الآفات. الحادي عشر: قال سعيد بن جبير: إنه الكامل في جميع صفاته، وفي جميع أفعاله. الثاني عشر: قال جعفر الصادق: إنه الذي يغلب ولا يغلب. الثالث عشر: قال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد. الرابع عشر: قال أبو بكر الوراق: إنه الذي أيس الخلائق من الاطلاع على كيافته. الخامس عشر: هو الذي لا تدركه الأبصار. السادس عشر: قال أبو العالية ومحمد القرظي: هو الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يلد إلا سيورث، ولا شيء يولد إلا وسيموت. السابع عشر: قال ابن عباس: إنه الكبير الذي ليس فوقه أحد. الثامن عشر: أنه المنزه عن قبول النقائصات والزيادات، وعن أن يكون مورداً للتغيرات والتبدلات، وعن إحاطة الأزمنة والأمكنة والآفات والجهاث.

والدليل على صحة هذا التفسير ما روى ابن عباس: «أنه لما نزلت هذه الآية قالوا ما الصمد؟ قال عليه السلام هو السيد الذي يصمد إليه في الحوائج» وقال الليث صمدت صمد هذا الأمر أي قصدت قصده. والقول الثاني: إن الصمد هو الذي لا جوف له ومنه يقال لسداد القارورة الصماد، وشيء مصمد أي صلب ليس فيه رخاوة، وقال قتادة، وعلى هذا التفسير: الدال فيه مبدلة من التاء وهو المصمت، وقال بعض المتأخرين من أهل اللغة الصمد هو الأملس من الحجز الذي لا يقبل الغبار ولا يدخله شيء ولا يخرج منه شيء، واعلم أنه قد استدل قوم من جهال المشبهة بهذه الآية في أنه تعالى جسم، وهذا باطل لأننا بينا أن كونه أحداً ينافي [كونه] جسماً فمقدمة هذه الآية دالة على أنه لا يمكن أن يكون المراد من الصمد هذا المعنى، ولأن الصمد بهذا التفسير صفة الأجسام المتضاغطة وتعالى الله عن ذلك، فإذا يجب أن يحمل ذلك على مجازة، وذلك لأن الجسم الذي يكون كذلك يكون عديم الانفعال والتأثر عن الغير وذلك إشارة إلى كونه سبحانه واجباً لذاته ممتنع التغير في وجوده وبقائه وجميع صفاته، فهذا ما يتعلق بالبحث اللغوي في هذه الآية.

وأما المفسرون فقد نقل عنهم وجوه، بعضها يليق بالوجه الأول وهو كونه تعالى سيذاً مرجوعاً إليه في دفع الحاجات، وهو إشارة إلى الصفات الإضافية، وبعضها بالوجه الثاني وهو كونه تعالى واجب الوجود في ذاته وفي صفاته ممتنع التغير فيهما وهو إشارة إلى الصفات السلبية وتارة يفسرون الصمد بما يكون جامعاً للوجهين.

أما النوع الأول: فذكروا فيه وجوهاً: الأول: الصمد هو العالم بجميع المعلومات لأن كونه سيذاً مرجوعاً إليه في قضاء الحاجات لا يتم إلا بذلك. الثاني: الصمد هو الحليم لأن كونه سيذاً يقتضي الحلم والكرم. الثالث: وهو قول ابن مسعود والضحاك الصمد هو السيد الذي قد انتهى سؤدده. الرابع: قال الأصم الصمد هو الخالق للأشياء، وذلك لأن كونه سيذاً يقتضي ذلك. الخامس: قال السدي الصمد هو المقصود في الرغائب، المستغاث

(الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزيز ابن الله)، وقالت النصراني المسيح ابن الله) ولم يدع أحد أن له والدًا فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال ﴿كَمْ يَكِلِدُ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال: ﴿وَكَمْ يُؤَلِّدُ﴾ كأنه قيل الدليل على امتناع الولادة! إتفاقنا على أنه ما كان ولد لغيره. السؤال الثاني: لماذا اقتصر على ذكر الماضي فقال ﴿كَمْ يَكِلِدُ﴾ ولم يقل لن يلد؟ الجواب: إنما اقتصر على ذلك لأنه ورد جواباً عن قولهم ولد الله والدليل عليه قوله تعالى ﴿أَلَا إِنَّمَا تَزِدُّهُمْ عُقْبًا﴾ [الصفحات: ١٥١-١٥٢] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم وهم إنما قالوا ذلك في الماضي، لا جرم وردت الآية على وفق قولهم.

السؤال الثالث: لم قال ههنا ﴿كَمْ يَكِلِدُ﴾ وقال في الفرقان ﴿وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الفرقان: ٢]؟ الجواب: أن الولد يكون على وجهين: أحدهما: أن يتولد منه مثله وهذا هو الولد الحقيقي والثاني: أن لا يكون متولداً منه ولكنه يتخذه ولداً ويسميه هذا الاسم، وإن لم يكن ولداً له في الحقيقة، والنصارى فريقان: منهم من قال عيسى ولد الله حقيقة، ومنهم من قال إن الله اتخذته ولداً تشريفاً له، كما اتخذ إبراهيم خليلاً تشريفاً له، فقوله: ﴿كَمْ يَكِلِدُ﴾ فيه إشارة إلى نفي الوالد في الحقيقة، وقوله: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ [الإسراء: ١١١] إشارة إلى نفي القسم الثاني، ولهذا قال: ﴿لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَمْ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ﴾ [الإسراء: ١١١] لأن الإنسان قد يتخذ ولداً ليكون ناصراً ومعيناً له على الأمر المطلوب، ولذلك قال في سورة أخرى ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [يونس: ٦٨] وإشارة إلى ما ذكرنا أن اتخاذ الولد إنما يكون عند الحاجة.

السؤال الرابع: نفى كونه تعالى والدًا ومولوداً، هل يمكن أن يعلم بالسمع أم لا، وإن كان لا يمكن ذلك فما الفائدة في ذكره ههنا؟ الجواب: نفى كونه تعالى والدًا مستفاد من العلم بأنه تعالى ليس بجسم ولا متبعض ولا منقسم، ونفى كونه تعالى مولوداً مستفاد من العلم بأنه تعالى قديم، والعلم بكل واحد من هذين الأصلين متقدم

وأما الوجه الثالث: وهو أن يحمل لفظ الصمد على الكل وهو محتمل، لأنه بحسب دلالاته على الوجوب الذاتي يدل على جميع السلوب، وبحسب دلالاته على كونه مبدأ للكل يدل على جميع النعوت الإلهية.

المسألة الثانية: قوله ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله، وإذا كان الصمد مفسراً بالمصمود إليه في الحوائج، أو بما لا يقبل التغير في ذاته لزم أن لا يكون في الوجود موجود هكذا سوى الله تعالى، فهذه الآية تدل على أنه لا إله سوى الواحد، فقوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى أنه ليس في ذاته تركيب ولا تأليف برجه من الوجوه، وقوله: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ إشارة إلى كونه واحداً، بمعنى نفي الشركاء والأنداد والأضداد. وبقي في الآية سؤالان:

السؤال الأول: لم جاء أحد منكرًا، وجاء الصمد معرفًا؟ الجواب: الغالب على أكثر أوهام الخلق أن كل موجود محسوس، وثبت أن كل محسوس فهو منقسم، فإذا ما لا يكون منقسماً لا يكون خاطراً ببيان أكثر الخلق، وأما الصمد فهو الذي يكون مصموداً إليه في الحوائج، وهذا كان معلوماً للعرب بل لأكثر الخلق على ما قال: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ يَقُولُ اللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] وإذا كانت الأحدية مجهولة مستنكرة عند أكثر الخلق، وكانت الصمدية معلومة الثبوت عند جمهور الخلق، لا جرم جاء لفظ أحد على سبيل التنكير ولفظ الصمد على سبيل التعريف.

السؤال الثاني: ما الفائدة في تكرير لفظة الله في قوله: ﴿اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾؟ الجواب: لو لم تكرر هذه اللفظة لوجب في لفظ أحد وصمد أن يردا، إما نكرتين أو معرفتين، وقد بينا أن ذلك غير جائز، فلا جرم كررت هذه اللفظة حتى يذكر لفظ أحد منكرًا ولفظ الصمد معرفًا.

قوله تعالى: ﴿كَمْ يَكِلِدُ وَكَمْ يُؤَلِّدُ﴾ فيه سؤالات:

السؤال الأول: لم قدم قوله ﴿كَمْ يَكِلِدُ﴾ على قوله: ﴿وَكَمْ يُؤَلِّدُ﴾ مع أن في الشاهد يكون أولاً مولوداً، ثم يكون والدًا؟ الجواب: إنما وقعت البداءة بأنه لم يلد. لأنهم ادعوا أن له ولداً، وذلك لأن مشركي العرب قالوا

ذلك في كتابه، فما باله ورد مقدماً في أفصح الكلام؟ والجواب: هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الله، واللفظ الدال على هذا المعنى هو هذا الظرف، وتقديماً الأهم أولاً، فلهذا السبب كان هذا الظرف مستحقاً للتقديم.

السؤال الثاني: كيف القراءة في هذه الآية؟. الجواب: قرئ **﴿كُفُوا﴾** بضم الكاف والفاء وبضم الكاف وكسرها مع سكون الفاء، والأصل هو الضم ثم يخفف مثل طنب وطنب وعنق وعنق، وقال أبو عبيدة يقال كفو وكفء وكفاء كله بمعنى واحد وهو المثل، وللمفسرين فيه أقاويل: أحدها: قال كعب وعطاء لم يكن له مثل ولا عدل، ومنه المكافأة في الجزاء لأنه يعطيه ما يساوي ما أعطاه. وثانيها: قال مجاهد: لم يكن صاحبة كأنه سبحانه وتعالى قال: لم يكن أحد كفواً له فيصاهاه، رداً على من حكى الله عنه قوله: **﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَابًا﴾** [الصفات: ١٥٨] فتفسير هذه الآية كالتأكيد لقوله تعالى: **﴿لَمْ يَكِلِدْ﴾**. وثالثها وهو: التحقيق أنه تعالى بين لما بين أنه هو المصمود إليه في قضاء الحوائج ونفي الوسائط من البين بقوله **﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾** على ما بيناه، فحيث ختم السورة بأن شيئاً من الموجودات يمتنع أن يكون مساوياً له في شيء من صفات الجلال والعظمة، أما الوجود فلا مساواة فيه لأن وجوده من مقتضيات حقيقته فإن حقيقته غير قابلة للعدم من حيث هي هي، وأما سائر الحقائق، فإنها قابلة للعدم، وأما العلم فلا مساواة فيه لأن علمه ليس بضروري ولا باستدلالي ولا مستفاد من الحس ولا من الرؤية ولا يكون في معرض الغلط والزلل وعلوم المحدثات كذلك، وأما القدرة فلا مساواة فيها وكذا الرحمة والجود والعدل والفضل والإحسان. واعلم أن هذه السورة أربع آيات، وفي ترتيبها أنواع من الفوائد:

الفائدة الأولى: أن أول السورة يدل على أنه سبحانه واحد، والصمد على أنه كريم رحيم لأنه لا يصمد إليه حتى يكون محسناً و **﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾** على أنه غني على الإطلاق ومنزه عن التغيرات فلا يبخل بشيء أصلاً، ولا يكون جوده لأجل جر نفع أو دفع ضرر، بل

على العلم بالنبوة والقرآن، فلا يمكن أن يكونا مستفادين من الدلائل السمعية. بقي أن يقال فلما لم يكن استفادتهما من السمع، فما الفائدة في ذكرهما في هذه السورة؟ قلنا: قد بينا أن المراد من كونه أحداً كونه سبحانه في ذاته وماهيته منزهاً عن جميع أنحاء التراكيب، وكونه تعالى صمداً معناه كونه واجباً لذاته ممتنع التغير في ذاته وجميع صفاته، وإذا كان كذلك فالأحادية والصمدية يوجبان نفي الولدية والمولودية، فلما ذكر السبب الموجب لانتفاء الوالدية والمولودية، لا جرم ذكر هذين الحكمين، فالمقصود من ذكرهما تنبيه الله تعالى على الدلالة العقلية القاطعة على انتفائهما.

السؤال الخامس: هل في قوله تعالى **﴿لَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَلِّدْ﴾** فائدة أزيد من نفي الولدية ونفي المولودية؟ قلنا: فيه فوائد كثيرة، وذلك لأن قوله **﴿أَلَلَّهُ أَحَدٌ﴾** إشارة إلى كونه تعالى في ذاته وماهيته منزهاً عن التركيب، وقوله **﴿أَلَلَّهُ الصَّكْمُ﴾** إشارة إلى نفي الأضداد والأنداد والشركاء والأمثال وهذان المقامان الشريفان مما حصل الاتفاق فيهما بين أرباب الملل والأديان، وبين الفلاسفة، إلا أن من بعد هذا الموضع حصل الاختلاف بين أرباب الملل وبين الفلاسفة، فإن الفلاسفة قالوا: إنه يتولد عن واجب الوجود عقل، وعن العقل عقل آخر ونفس وفلك، وهكذا على هذا الترتيب حتى ينتهي إلى العقل الذي هو مدبر ما تحت كرة القمر، فعلى هذا القول يكون واجب الوجود قد ولد العقل الأول الذي هو تحته، ويكون العقل الذي هو مدبر لعالمنا هذا كالمولود من العقول التي فوقه، فالحق سبحانه وتعالى نفى الوالدية أولاً، كأنه قيل إنه لم يلد العقول والنفس، ثم قال: **والشيء الذي هو مدبر أجسادكم وأرواحكم وعالمكم هذا ليس مولوداً من شيء آخر، فلا والد ولا مولود ولا مؤثر إلا الواحد الذي هو الحق سبحانه.**

قوله سبحانه: **﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾** فيه سؤالان:

السؤال الأول: الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر ولا يقدم، وقد نص سيبويه على

تبطل مذهب اليهود في عزيز، والنصارى في المسيح، والمشركون في أن الملائكة بنات الله، والآية الرابعة تبطل مذهب المشركين حيث جعلوا الأصنام أكفاء له وشركاء.

الفائدة الرابعة: أن هذه السورة في حق الله مثل سورة الكوثر في حق الرسول لكن الطعن في حق الرسول كان بسبب أنهم قالوا: إنه أتر لا ولد له، وههنا الطعن بسبب أنهم أثبتوا لله ولداً، وذلك لأن عدم الولد في حق الإنسان عيب ووجود الولد عيب في حق الله تعالى، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿قُلْ﴾ حتى تكون ذاباً عني، وفي سورة ﴿إِنَّا آَعَطَيْنَكَ﴾ [الكوثر: ١] أنا أقول ذلك الكلام حتى أكون أنا ذاباً عنك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الطبرسي ج ٣ ص ٢٧٤ - ٢٨٣

فلان لا يقاومه واحد جاز أن يقاومه اثنان، ولما قلت: لا يقاومه أحد لم يجز أن يقاومه اثنان، ولا أكثر فهو أبلغ، وقال أبو جعفر الباقر (ع) في معنى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي قل أظهر ما أوحينا إليك، وما نبأناك به بتأليف الحروف التي قرأناها عليك ليهتدي بها من ألقى السمع وهو شهيد، وهو اسم مكنى مشار إلى غائب، فالهاء تنبيه عن معنى ثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن الحواس، كما أن قولك: هذا إشارة إلى الشاهد عند الحواس، وذلك أن الكفار نهوا عن آلهتهم بحرف إشارة إلى المشاهد المدرك فقالوا: هذه آلهتنا المحسوسة بالأبصار، فأشر أنت يا محمد إلى إلهك الذي تدعو إليه حتى نراه وندركه، ولا ناله فيه، فانزل الله سبحانه ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فالهاء تثبت للثابت، والواو إشارة إلى الغائب عن درك الأبصار، ولمس الحواس، وأنه يتعالى عن ذلك بل هو مدرك الأبصار ومبدع الحواس، وحدثني أبي عن أبيه عن أمير المؤمنين (ع) أنه قال: رأيت الخضر في المنام قبل بدر بليلة، فقلت له علمني شيئاً انتصر به على الأعداء، فقال: قل يا هوياء من لا هوياء هو، فلما أصبحت قصصت على رسول الله ﷺ فقال: يا علي علمت الاسم الأعظم فكان على لساني يوم بدر، قال: وقرأ (ع) يوم بدر ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فلما فرغ قال: يا هوياء من لا

بمحض الإحسان وقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ إشارة إلى نفي ما لا يجوز عليه من الصفات.

الفائدة الثانية: نفى الله تعالى عن ذاته أنواع الكثرة بقوله: ﴿أَحَدٌ﴾ ونفى النقص والمغلوبة بلفظ الصمد، ونفى المعلولية والعلية بلم يلد ولم يولد، ونفى الأضداد والأنداد بقوله: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾.

الفائدة الثالثة: قوله: ﴿أَحَدٌ﴾ يبطل مذهب الثنوية القائلين بالنور والظلمة، والنصارى في التثليث، والصابئين في الأفلاك والنجوم، والآية الثانية تبطل مذهب من أثبت خالقاً سوى الله لأنه لو وجد خالق آخر لما كان الحق مصموداً إليه في طلب جميع الحاجات، والثالثة

المعنى

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ هذا أمر من الله عز اسمه لنبيه ﷺ أن يقول لجميع المكلفين هو الله الذي تحق له العبادة، قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله عز وجل ومعناه الذي سألتهم تبين نسبته هو الله أحد أي واحد، ويجوز أن يكون المعنى الله أحد لا شريك له ولا نظير، وقيل معناه واحد ليس كمثل شيء... عن ابن عباس، وقيل واحد في الإلهية والقدم، وقيل واحد في صفة ذاته لا يشركه في وجوب صفاته أحد، فإنه يجب أن يكون موجوداً عالمياً قادراً حياً، ولا يكون ذلك واجباً لغيره، وقيل واحد في أفعاله لأن أفعاله كلها إحسان لم يفعلها لجر نفع، ولا لدفع ضرر، فاختص بالوحدة من هذا الوجه إذ لا يشركه فيه سواه، واحد في أنه لا يستحق العبادة سواه لأنه قادر على أصول النعم من الحياة، والقدرة والشهوة، وغير ذلك مما لا تكون النعمة نعمة إلا به، ولا يقدر على شيء من ذلك غيره فهو أحد من هذه الوجوه الثلاثة. وقيل: إنما قال أحد ولم يقل واحد لأن الواحد يدخل في الحساب ويضم إليه آخر، وأما الأحد فهو الذي لا يتجزأ ولا ينقسم في ذاته ولا في معنى صفاته، ويجوز أن يفعل للواحد ثانياً ولا يجوز أن يجعل للأحد ثانياً، لأن الأحد يستوعب جنسه بخلاف الواحد، ألا ترى أنك لو قلت:

هو إلا هو اغفر لي، وانصرني على القوم الكافرين، وكان يقول ذلك يوم صفين وهو بطارد، فقال له عمار بن ياسر: يا أمير المؤمنين ما هذه الكنايات؟ قال: اسم الله الأعظم، وعماد التوحيد لا إله إلا هو، ثم قرأ: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْغَنِيُّ الْعَزِيزُ﴾ [آل عمران: ١٨]، وآخر الحشر، ثم نزل فصلى أربع ركعات قبل الزوال، قال: وقال أمير المؤمنين (ع): الله معناه المعبود الذي يأله فيه الخلق، ويؤله إليه الله المستور عن إدراك الأبصار، المحجوب عن الأوهام والخطرات، وقال الباقر (ع): الله معناه المعبود الذي أله الخلق عن إدراك ماهيته، والإحاطة بكيفيته، وتقول العرب أله الرجل إذا تحير في الشيء، فلم يحط به علماً، ووله إذا فزع إلى شيء، قال: والأحد الفرد المتفرد، والأحد الواحد بمعنى واحد، وهو المتفرد، الذي لا نظير له، والتوحيد الإقرار بالوحدة، وهو الانفراد، والواحد المبين الذي لا ينبعث من شيء، ولا يتحد بشيء، ومن ثم قالوا: إن بناء العدد من الواحد وليس الواحد من العدد لأن العدد، لا يقع على الواحد بل يقع على الاثنين، فمعنى قوله ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أي المعبود يأله الخلق عن إدراكه والإحاطة بكيفيته، فرداً بآلهيته متعال عن صفات خلقه. ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ قال الباقر (ع): حدثني أبي زين العابدين (ع) عن أبيه الحسين بن علي (ع) أنه قال: الصمد الذي قد انتهى سؤده، والصمد الدائم الذي لم يزل ولا يزال، والصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، والصمد الذي لا ينام. وأقول أن المعنى في هذه الثلاثة أنه سبحانه الحي الذي لا يحتاج إلى الطعام والشراب والنوم، قال الباقر (ع): والصمد السيد المطاع الذي ليس فوقه أمر ولا ناه، قال: وكان محمد بن الحنفية يقول: الصمد القائم بنفسه الغني عن غيره، وقال غيره: الصمد المتعالي عن الكون والفساد، والصمد الذي لا يوصف بالنظائر قال: وسئل علي بن الحسين زين العابدين (ع) عن الصمد فقال: الصمد الذي لا شريك له، ولا يؤوده حفظ شيء ولا يغرب عنه شيء، وقال أبو البخثري: وهب بن وهب القرشي، قال زيد بن علي (ع): الصمد الذي إذا أراد شيئاً

أن يقول له: كن فيكون... قال وهب بن وهب: وحدثني الصادق جعفر بن محمد (ع) عن أبيه الباقر (ع) عن أبيه (ع): أن أهل البصرة كتبوا إلى الحسين بن علي (ع) يسألونه عن الصمد، فكتب إليهم بسم الله الرحمن الرحيم، أما بعد: فلا تخوضوا في القرآن، ولا تجادلوا فيه، ولا تكلموا فيه، بغير علم، فقد سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار، وإن الله سبحانه قد فسر الصمد فقال: ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدَ وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، ﴿لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يُولَدَ﴾ لم يخرج منه شيء كثيف كالولد، ولا سائر الأشياء الكثيفة التي تخرج من المخلوقين، ولا شيء لطيف كالنفس، ولا ينبعث منه البدوات: كالسنة والنوم والخطرة والغم والحزن والبهجة والضحك والبكاء والخوف والرجاء والرغبة والسآمة والجوع والشبع، تعالى أن يخرج منه شيء، وأن يتولد منه شيء كثيف، أو لطيف ﴿وَلَمْ يُولَدَ﴾ ولا كما تخرج الأشياء اللطيفة من مراكزها كالبصر من العين، والسمع من الأذن، والشم من الأنف، والذوق من الفم، والكلام من اللسان، والمعرفة والتمييز من القلب، والنار من الحجر، لا بل هو الله الصمد الذي لا من شيء، ولا في شيء، ولا على شيء، مبدع الأشياء وخالقها، ومنشيء الأشياء بقدرته، يتلاشى ما خلق للفناء بمشيئته ويبقى ما خلق للبقاء بعلمه، فذلكم الله الصمد الذي لم يلد ولم يولد، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. قال وهب بن وهب: سمعت الصادق (ع) يقول: قدم وفد من فلسطين على الباقر (ع) فسألوه عن مسائل، فأجابهم عنها. ثم سألوه عن الصمد، فقال: تفسيره فيه، الصمد خمسة أحرف «فالألف» دليل على آنيته، وهو قوله عز وجل شهد الله أنه لا إله إلا هو، وذلك تنبيه وإشارة إلى الغائب عن درك الحواس، «واللام» دليل على إلهيته بأنه هو الله، والألف واللام مدغمان لا يظهران على اللسان، ولا يقعان في السمع، ويظهر أن في الكتابة دليلان على إلهيته بلطفه خافية، لا يدرك بالحواس ولا يقع في لسان واصف، ولا أذن سامع، لأن تفسير الإله هو الله الذي أله الخلق عن

يزال، ولا يزول ملكه. وأما «البدال» فدلِيل على دوام ملكه، وأنه دائم تعالى عن الكون والزوال، بل هو الله عز وجل مكون الكائنات الذي كان بتكوينه كل كائن. ثم قال (ع) لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله حملة لنشرت التوحيد والإسلام والدين والشرائع من الصمد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين (ع) حملة لعلمه حتى كان يتنفس الصعداء، أو يقول على المنبر سلوني قبل أن تفقدوني، فإن بين الجوانح مني علماً جماً هاهنا هاهنا لا أجد من يحمله إلا وإن عليكم من الله الحجة البالغة، فلا تتولوا قوماً غضب الله عليهم قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور، وعن عبد خير قال: سأل رجل علياً (ع) عن تفسير هذه السورة فقال: قل هو الله أحد بلا تأويل، عدد الصمد بلا تبعض، بدد لم يلد فيكون موروثاً هالكاً، ولم يولد فيكون إلهاً مشاركاً، ولم يكن له من خلقه كفراً أحد.

ابن عربي ج ٢ ص ٨٦٩ - ٨٧٠

والواحد هو الذات مع اعتبار كثرة الصفات، وهي الحضرة الاسمائية لكون الاسم هو الذات مع الصفة، فعبر عن الحقيقة المحضة الغير المعلومة إلا له بهو. وأبدل عنها الذات مع جميع الصفات دلالة على أنها عين الذات وحدها في الحقيقة، وأخبر عنها بالأحادية ليدل على أن الكثرة الاعتبارية ليست بشيء في الحقيقة، وما أبطلت أحديته، وما أثرت في وحدته. بل الحضرة الواحدية هي بعينها الحضرة الأحادية بحسب الحقيقة، كنوهم القطرات في البحر مثلاً...

﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ أي، الذات في الحضرة الواحدية بحسب اعتبار الأسماء هو السند المطلق لكل الأشياء، لافتقار كل ممكن إليه وكونه به، فهو الغني المطلق المحتاج إليه كل شيء، كما قال: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [محمد: ٣٨] ولما كان كل ما سواه موجوداً بوجوده ليس بشيء في نفسه، لأن الإمكان اللازم للماهية لا يقتضي الوجود، فلا يجانس ولا يماثل شيء في الوجود.

﴿لَمْ يَكُنْ لَكَ﴾ إذ معلولاته ليست موجودة معه، بل به، فهي به هي وبنفسها ليست شيئاً، ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾

درك ماهيته وكيفيته بحسب أو بوهم، لا بل هو مبدع الأوهام، وخالق الحواس، وإنما يظهر ذلك عند الكتابة، فهو دليل على أن الله سبحانه أظهر ربوبيته في إبداع الخلق، وتركيب أرواحهم اللطيفة في أجسادهم الكثيفة، وإذا نظر عبد إلى نفسه لم ير روحه، كما أن لام الصمد لا يتبين، ولا يدخل في حاسة من حواسه الخمس، فلما نظر إلى الكتابة ظهر له ما خفي ولطف، فمتى تفكر العبد في ماهية الباري وكيفيته أله وتحير، ولم تحط فكرته بشيء يتصور له، لأنه تعالى خالق الصور، وإذا نظر إلى خلقه ثبت له أنه عز وجل خالقهم، ومركب أرواحهم في أجسادهم. وأما «الصاد» فدلِيل على أنه سبحانه صادق، وقوله صادق، وكلامه صادق، ودعا عباده إلى اتباع الصدق بالصدق، ووعدنا بالصدق، وأراد الصدق. وأما «الميم» فدلِيل على ملكه، وأنه الملك الحق المبين لم يزل، ولا

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قل أمر من عين الجمع، وارد على مظهر التفصيل، هو عبارة عن الحقيقة الأحادية الصرفة. أي، الذات من حيث هي بلا اعتبار صفة لا يعرفها إلا هو، والله بدل منه. وهو اسم الذات مع جميع الصفات دلاً بالإبدال على أن صفاته تعالى ليست بزائدة على ذاته، بل هي عين الذات لا فرق إلا بالاعتبار العقلي. ولهذا سُميت سورة الإخلاص، لأن الإخلاص تمحيص الحقيقة الأحادية عن شائبة الكثرة. كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «كمال الإخلاص له نفي الصفات عنه» لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة. وإياه عني من قال: «صفاته تعالى لا هو ولا غيره» أي، لا هو باعتبار العقل، ولا غيره بحسب الحقيقة، وأحد خبر المبتدأ.

والفرق بين الأحد والواحد أن الأحد هو الذات وحدها، بلا اعتبار كثرة فيها. أي، الحقيقة المحضة التي هي منبع العين الكافوري، بل العين الكافوري نفسه، وهو الوجود من حيث هو وجود بلا قيد عموم وخصوص، وشرط عروض، ولا عروض.

الصرف الوجود المحض. ولهذا سميت سورة الأساس،
إذ أساس الدين على التوحيد، بل أساس الوجود.
وعن أنس، عن النبي ﷺ، أنه قال: أُسِّتِ السماوات
السبع، والأرضون السبع على: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،
وهو معنى صمديته.

البيضاوي ج ٥ ص ١٩٩ - ٢٠٠

العاطف لأنها كالنتيجة للأولى، أو الدليل عليها ﴿كَمْ
يَكِيدُ﴾ لأنه لم يجانس، ولم يفتقر إلى ما يعينه، أو
يخلف عنه لامتناع الحاجة، والفناء عليه. ولعلّ الاختصار
على لفظ الماضي لوروده رداً على من قال الملائكة بنات
الله، أو المسيح ابن الله، أو ليطابق قوله ﴿وَكَمْ يُؤَلَّذُ﴾
وذلك لأنه لا يفتقر إلى شيء، ولا يسبقه عدم ﴿وَكَمْ
يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ ولم يكن أحد يكافئه، أو يماثله
من صاحبة، أو غيرها. وكان أصله أن يؤخر الظرف لأنه
صلة كفواً، لكن لما كان المقصود نفي المكافأة عن ذاته
تعالى قدم تقديماً للأهم، ويجوز أن يكون حالاً من
المستكن في كفواً، أو خبراً، ويكون كفواً حالاً من أحد،
ولعل ربط الجمل الثلاث بالعطف لأن المراد منها نفي
أقسام الأمثال، فهي كجملة واحدة منبهة عليها بالجمال.
وقرأ حمزة ويعقوب ونافع في رواية كفواً بالتخفيف،
وحفص كفواً بالحركة، وقلب الهمزة واواً، ولاشتمال
هذه السورة مع قصرها على جميع المعارف الإلهية، والرد
على من ألحد فيها جاء في الحديث أنها تعدل ثلث
القرآن، فإن مقاصده محصورة في بيان العقائد،
والأحكام، والقصص، ومن عدلها ب كله اعتبر المقصود
بالذات من ذلك.

لصمديته المطلقة، فلم يكن محتاجاً في الوجود إلى
شيء. ولما كانت هويته الأحدية غير قابلة للكثرة
والانقسام، ولم يكن مقارنة الوحدة الذاتية لغيرها، إذ ما
عدا الوجود المطلق ليس إلا العدم المحض، فلا يكافئه
أحد ﴿وَكَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ إذ لا يكافيء العدم

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير للشأن كقولك هو زيد
منطلق، وارتفاعه بالابتداء وخبره الجملة، ولا حاجة إلى
العائد لأنها هي هو، أو لما سئل عنه، أي الذي سألتهموني
عنه هو الله إذ روي أن قريشاً قالوا: يا محمد صف لنا ربك
الذي تدعوننا إليه، فنزلت وأحد بدل أو خبر ثان يدل على
مجامع صفات الجلال، كما دل الله على جميع صفات
الكمال، إذ الواحد الحقيقي ما يكون منزّه الذات عن
أنحاء التركيب والتعداد وما يستلزم أحدهما كالجسمية
والتحيز والمشاركة في الحقيقة، وخواصها كوجوب
الوجود، والقدرة الذاتية، والحكمة التامة المقتضية
للألوهية، وقرىء هو الله بلا قل مع الاتفاق على أنه لا بد
منه في قل يا أيها الكافرون، ولا يجوز في تبت، ولعل
ذاك لأن سورة الكافرون مشاقة الرسول، أو موادعته لهم،
وتبت معاتبة عمه فلا يناسب أن تكون منه، وأما هذا
فتوحيد يقول به تارة، ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى. ﴿اللَّهُ
أَلْضَمُّدُ﴾... من صمد إليه إذا قصد، وهو الموصوف
به على الإطلاق، فإنه يستغنى عن غيره مطلقاً، وكل ما
عداه محتاج إليه في جميع جهاته، وتعريفه لعلمهم
بصمديته بخلاف أحديته، وتكرير لفظة الله للإشعار بأن
من لم يتصف به لم يستحق الألوهية، وإخلاء الجملة عن

الخازن ج ٧ ص ٣٢٠ - ٣٢٢

وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله لا يموت، ولا
يورث، ولم يكن له كفواً أحد. قال لم يكن له شبيه، ولا
عديل، وليس كمثله شيء، أخرجه الترمذي، وقال وقد
روي عن أبي العالية أن النبي ﷺ ذكر آلهم، فقالوا انسب
لنا ربك فاتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾،

بسم الله الرحمن الرحيم
قوله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عن أبي بن كعب
«أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك،
فأنزل الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ اللَّهُ أَلْضَمُّدُ»، والصمد
الذي لم يلد ولم يولد لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت،

وذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح. وقال ابن عباس أن عامر بن الطفيل، وأربد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ فقال عامر: إلام تدعونا يا محمد، قال: إلى الله، قال: صفه لنا أمن ذهب هو، أم من فضة، أم من حديد، أم من خشب، فنزلت هذه السورة وأهلك الله أربد بالصاعقة، وعامر بالطاعون، وقد تقدم ذكرهما في سورة الرعد. وقيل جاء ناس من أحبار اليهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: صف لنا ربك لعلنا نؤمن بك، فإن الله تعالى أنزل نعته في التوراة، فأخبرنا من أي شيء هو، وهل يأكل ويشرب، وممن ورث الربوبية، ولمن يورثها، فأنزل الله هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يعني الذي سألتهموني عنه هو الله الواحد في الألوهية والربوبية، الموصوف بصفات الكمال والعظمة، المنفرد عن الشبه والمثل والنظير، وقيل لا يوصف أحد بالأحدية غير الله تعالى، فلا يقال رجل أحد، ودرهم أحد، بل أحد صفة من صفات الله تعالى استأثر بها، فلا يشركه فيها أحد، والفرق بين الواحد والأحد أن الواحد يدخل في الأحد، ولا ينعكس، وقيل إن الواحد يستعمل في الإثبات، والأحد في النفي، تقول في الإثبات: رأيت رجلاً واحداً، وفي النفي ما رأيت أحداً، فتفيد العموم، وقيل الواحد هو المنفرد بالذات فلا يضاهيه أحد، والأحد هو المنفرد بالمعنى فلا يشاركه فيه أحد ﴿اللَّهُ الصَّكُّمُ﴾... فإن فسر الصمد بهذا كان من صفات الأجسام، ويتعالى الله جل وعز عن صفات الجسمية، وقيل وجه هذا القول إن الصمد الذي ليس بأجوف معناه هو الذي لا يأكل ولا يشرب، وهو الغني عن كل شيء فعلى هذا الاعتبار هو صفة كمال، والقصد بقوله الله الصمد التنبيه على أنه تعالى بخلاف من أثبتوا له الإلهية، وإليه الإشارة بقوله تعالى ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥]، وقيل الصمد الذي ليس بأجوف شيثان أحدهما دون الإنسان، وهو سائر الجمادات الصلبة، والثاني أشرف من الإنسان وأعلى منه، وهو الباري جل وعز، وقال أبي بن كعب: الصمد الذي لم يلد ولم يولد لأن من يولد سيموت، ومن يموت

يورث منه، وروى البخاري في أفرادته عن أبي وائل شقيق ابن سلمة قال: الصمد هو السيد الذي انتهى سؤده، وهي رواية عن ابن عباس أيضاً قال: هو السيد الذي كمل فيه جميع أوصاف السؤدد، وقيل هو السيد المقصود في جميع الحوائج، المرغوب إليه في الرغائب، المستعان به عند المصائب، وتفريج الكرب، وقيل هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله، وتلك دالة على أنه المتناهي في السؤدد والشرف والعلو والعظمة والكمال والكرم والإحسان، وقيل الصمد الدائم الباقي بعد فناء خلقه، وقيل الصمد الذي ليس فوقه أحد، وهو قول علي، وقيل هو الذي لا تعثره الآفات، ولا تغيره الأوقات، وقيل هو الذي لا عيب فيه، وقيل الصمد هو الأول الذي ليس له زوال والآخر الذي ليس لملكه انتقال، والأولى أن يحمل لفظ الصمد على كل ما قيل فيه لأنه محتمل له فعلي هذا يقتضي أن لا يكون في الوجود صمد سوى الله تعالى العظيم، القادر على كل شيء، وأنه اسم خاص بالله تعالى انفرد به له الأسماء الحسنى والصفات العليا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. قوله عز وجل ﴿لَمْ يَكُنْ لَهُ يَوْمَ وَلَدٌ﴾ وذلك أن مشركي العرب قالوا: الملائكة بنات الله، وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله فكذبهم الله عز وجل، ونفى عن نفسه ما قالوا بقوله لم يلد يعني كما ولد عيسى وعزير، ولم يولد معناه أن من ولد كان له والد فنفي عنه إحاطة النسب من جميع الجهات، فهو الأول الذي لم يتقدمه والد كان عنه، وهو الآخر الذي لم يتأخر عنه ولد يكون عنه، ومن كان كذلك فهو الذي لم يكن له كفواً أحد أي ليس له من خلقه مثل ولا نظير ولا شبهة فنفي عنه بقوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾... عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال «قال الله عز وجل كذبني ابن آدم، ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون علي من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» والله سبحانه وتعالى أعلم.

القرطبي ج ٢٠ ص ٢٤٤ - ٢٥٠

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾... وأصل «أحد» وَحْدٌ؛ قُلِبَت الواو همزة.

ومنه قول النابغة:

كَأَن رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بِنَا
بِلَيْدِي الْجَلِيلِ عَلَى مُسْتَأْنِسٍ وَحْدٍ
وقد تقدم في سورة «البقرة» الفرق بين واحد وأحد، وفي كتاب «الأسنى»، في شرح أسماء الله الحسنى أيضاً مُسْتَوْفَى. والحمد لله. و«أحد» مرفوع، على معنى: هو أحدٌ. وقيل: المعنى: قل: الأمر والشأن: الله أحد. وقيل: «أحد» بدل من قوله: «الله». وقرأ جماعة «أحد» الله «بلا تنوين، طلباً للخفة، وفراراً مِنَ التقاء الساكنين؛ ومنه قول الشاعر:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ
وَلَا ذَاكَ رَأَى اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا
﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾...

عَلَوْتُهُ بِحُسامٍ ثُمَّ قُلْتُ لَهُ
خُذْهَا خُذَيْفَ فَأَنْتَ السَّيِّدُ الصَّمَدُ
وقال أبو هريرة: إنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقال السدي: إنه: المقصود في الرغائب، والمستعان به في المصائب. وقال الحسين بن الفضل: إنه الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقال مقاتل: إنه: الكامل الذي لا عيب فيه؛ ومنه قول الزبرقان:

سَيِّرُوا جَمِيعاً بِنِصْفِ اللَّيْلِ وَاعْتَمِدُوا
وَلَا رَهِيْنَةَ إِلَّا سَيِّدُ صَمَدُ
وقال الحسن وعكرمة والضحاك وابن جبير: الصمد: الْمُصْمَتُ الَّذِي لَا جَوْفَ لَهُ؛ قال الشاعر:

شِهَابٌ حُرُوبٍ لَا تَزَالُ جِيَادُهُ
عَوَائِسَ يَغْلُكُنَ الشَّكِيمَ الْمُصَمَّدُ

قلت: قد أتينا على هذه الأقوال مبيّنة في الصمد، في (كتاب الأسنى) وأن الصحيح منها ما شهد له الاشتقاق؛ وهو القول الأول، ذكره الخطّابي. وقد أسقط من هذه السورة من أبعد الله وأخزاه، وجعل النار مقامه ومثواه، وقرأ «الله الواحد الصمد» في الصلاة، والناس يستمعون، فأسقط: «قُلْ هُوَ»، وزعم أنه ليس من القرآن. وغير لفظ

«أحد» وأدعى أن هذا هو الصواب، والذي عليه الناس هو الباطل والمحال؛ فأبطل معنى الآية؛ لأن أهل التفسير قالوا: نزلت الآية جواباً لأهل الشرك لما قالوا لرسول الله ﷺ: صِفْ لَنَا رَبَّكَ، أمِن ذهب هو أم مِن نحاس أم من صُفْر؟ فقال الله عز وجل ردّاً عليهم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. ففي «هو» دلالة على موضع الرد، ومكان الجواب، فإذا سقط بطل معنى الآية، وصح الافتراء على الله عز وجل، والتكذيب لرسول الله ﷺ. وروى الترمذي عن أبي بن كعب: أن المشركين قالوا لرسول الله ﷺ: أنسب لنا ربك؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾. والصمد: الذي لم يلد ولم يولد؛ لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وأن الله تعالى لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾... ورؤي عن أبي العالية: إن النبي ﷺ ذكر آلهتهم فقالوا: أنسب لنا ربك. قال: فاتاه جبريل بهذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فذكر نحوه، ولم يذكر فيه عن أبي بن كعب، وهذا أصح؛ قاله الترمذي.

قلت: ففي هذا الحديث إثبات لفظ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وتفسير الصمد، وقد تقدّم. وعن عكرمة نحوه. وقال ابن عباس: «لَمْ يَلِدْ» كما وَلَدَتْ مريم، ولم يولد كما وَلَدَ عيسى وعزير. وهو رد على النصاري، وعلى من قال: عزير ابن الله. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ يَكُنْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾... وفيه تقديم وتأخير؛ تقديره: ولم يكن له كفواً أحد؛ فقدّم خبر كان على اسمها، لينساق أواخر الآي على نظم واحد. وقرئ «كُفُوًا» بضم الفاء وسكونها. وقد تقدم في «البقرة» أن كل اسم على ثلاث أحرف أوله مضموم، فإنه يجوز في عينه الضم والإسكان؛ إلا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لَمْ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ [الزخرف: ١٥] لعلّة تقدّمت. وقرأ حفص «كفوًا» مضموم الفاء غير مهموز. وكلها لغات فصيحة.

القول في الأحاديث الواردة في فضل هذه السورة؛ وفيه ثلاث مسائل:

الأولى: ثبت في صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري: أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددّها؛ فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ، فذكر ذلك له، كان الرجل يتقّالّها، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن». وعنه قال النبي ﷺ لأصحابه: «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فسق ذلك عليهم، وقالوا: أينا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «الله الواحد الصمد ثلث القرآن» خرجه مسلم من حديث أبي الدرداء بمعناه. وخرج عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: «أحشدوا فإنني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد؛ ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثم دخل، فقال بعضنا لبعض: إني أرى هذا خبراً جاءه من السماء، فذاك الذي أدخله. ثم خرج فقال: «إني قلت لكم سأقرأ عليكم ثلث القرآن، ألا إنها تعدل ثلث القرآن» قال بعض العلماء: إنها عدلت ثلث القرآن لأجل هذا الاسم، الذي هو «الصّمد»، فإنه لا يوجد في غيرها من السور. وكذلك «أحد». وقيل: إن القرآن أنزل أثلاثاً، ثلثاً منه أحكام، وثلثاً منه وعد ووعد، وثلثاً منه أسماء وصفات؛ وقد جمعت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ [أحد] الأثلاث، وهو الأسماء والصفات. ودل على هذا التأويل ما في صحيح مسلم، من حديث أبي الدرداء عن النبي ﷺ، قال: «إن الله عز وجلّ جزأ القرآن ثلاثة أجزاء، فجعل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ جزء من أجزاء القرآن». وهذا نص؛ وبهذا المعنى سميت سورة الإخلاص، والله أعلم.

الثانية: روى مسلم عن عائشة: أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ فقال: «سلوه لأي شيء يصنع ذلك؟» فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن، فأنّا أحب أن أقرأ بها. فقال رسول الله ﷺ: «أخبروه أن الله عز وجلّ يحبه». وروى الترمذي عن أنس بن مالك قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرؤها لهم في الصلاة فقرأ بها، افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؛ حتى يفرغ

منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها؛ وكان يضع ذلك في كل ركعة؛ فكلّمه أصحابه، فقال: إنك تقرأ بهذه السورة، ثم لا ترى أنها تجزيك حتى تقرأ بسورة أخرى فلما أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بسورة أخرى؟ قال: ما أنا بتاركها وإن أحببت أن أوّمكم بها فعلت، وإن كرهتم تركتم؛ وكانوا يرونه أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره؛ فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «يا فلان ما يمنعك مما يمنعك مما يأمر به أصحابك؟ وما يحملك أن تقرأ هذه السورة في كل ركعة؟» فقال: يا رسول الله، إني أحبها؛ فقال رسول الله ﷺ: «إن حبّها أدخلك الجنة» قال: حديث حسن غريب صحيح. قال ابن العربي: «فكان هذا دليلاً على أنه يجوز تكرار سورة في كل ركعة. وقد رأيت على باب الأسباط فيما يقرب منه، إماماً من جملة الثمانية والعشرين إماماً، كان يصلي فيه التراويح في رمضان بالأتراف؛ فيقرأ في كل ركعة «الحمد لله» و «قل هو الله أحد» حتى يتم التراويح؛ تخفيفاً عليه، ورغبة في فضلها وليس من السنة ختم القرآن في رمضان».

قلت: هذا نص قول مالك، قال مالك: وليس ختم القرآن في المساجد بسنة.

الثانية - روى الترمذي عن أنس بن مالك قال: أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقال رسول الله ﷺ: «وجبت». قلت: وما وجبت؟ قال: «الجنة». قال هذا حديث حسن صحيح. قال الترمذي: حدّثنا محمد بن مرزوق البصري عن أنس ابن مالك عن النبي ﷺ قال: «من قرأ كل يوم مائتي مرة قل هو الله أحد، مُحيّ عنه ذنوب خمسين سنة، إلا أن يكون عليه دين». وبهذا الإسناد عن النبي ﷺ قال: «من أراد أن ينام على فراشه، فنام على يمينه، ثم قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مائة مرة، فإذا كان يوم القيامة يقول الرب: يا عبدي، ادخل على يمينك الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث ثابت عن أنس. وفي مسند أبي محمد الدارمي، عن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة، غفرت له ذنوب خمسين سنة» قال: وحدّثنا عبد الله بن يزيد قال حدّثنا حيوة قال: أخبرني

نفث الفقر عن أهل ذلك المنزل وعن الجيران». وعن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة بورك عليه، ومن قرأها مرتين بورك عليه وعلى أهله، ومن قرأها ثلاث مرات بورك عليه وعلى جميع جيرانه، ومن قرأها اثنتي عشرة مرة بورك عليه وعلى عشرة قصر في الجنة، وتقول الحفظة انطلقوا بنا ننظر إلى قصر أخينا، فإن قرأها مائة مرة كفر الله عنه ذنوب خمسين سنة، ما خلا الدماء والأموال، فإن قرأها أربع مائة مرة كفر الله عنه ذنوب مائة سنة، فإن قرأها ألف مرة لم يمت حتى يرى مكانه في الجنة أو يرى له». وعن سهل به سعد الساعدي قال: شكى رجل إلى رسول الله ﷺ الفقر وضيق المعيشة؛ فقال له رسول الله ﷺ: «إذا دخلت البيت فسلم إن كان فيه أحد، وإن لم يكن فيه أحد فسلم علي، واقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ مرة واحدة ففعل الرجل فآذره الله عليه الرزق، حتى أفاض عليه جيرانه. وقال أنس: كنا مع رسول الله ﷺ بَبَنُوكَ، فطلعت الشمس بيضاء لها شعاع ونور، لم أرها فيما مضى طلعت قط كذلك، فأتى جبريل، فقال له رسول الله ﷺ: «يا جبريل، ما لي أرى الشمس طلعت بيضاء بشعاع لم أرها طلعت كذلك فيما مضى قط؟» فقال: «ذلك لأن معاوية بن معاوية الليثي توفي بالمدينة اليوم، فبعث الله سبعين ألف ملك يُصلُّون عليه». قال: «ومِمَّ ذلك؟» قال: «كان يكثر قراءة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ آناء الليل وآناء النهار، وفي مشاه وقياه وقعوده، فهل لك يا رسول الله أن أقبض لك الأرض، فتصلي عليه؟» قال: «نعم» فصلى عليه، ثم رجع. ذكره الثعلبي، والله أعلم.

أبو عقيل: أنه سمع سعيد بن المسيب يقول: إن نبي الله ﷺ قال: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ عشر مرات بُني له قصر في الجنة. ومن قرأها عشرين بني له بها قصران في الجنة. ومن قرأها ثلاثين مرة بُني له بها ثلاثة قصور في الجنة». فقال عمر بن الخطاب: والله يا رسول الله إذا لَنَكْثِرَنَّ قصورنا؛ فقال رسول الله ﷺ: «الله أوسع من ذلك» قال أبو محمد: أبو عقيل زهرة بن معبد، وزعموا أنه كان من الأبدال. وذكر أبو نعيم الحافظ من حديث أبي العلاء يزيد بن عبد الله بن الشَّخِير عن أبيه؛ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قرأ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ في مرضه الذي يموت فيه، لم يَفْتَن في قبره. وأَمِنْ من ضغطَ القبر. وحملته الملائكة يوم القيامة بكفها، حتى تجيزه من الصراط إلى الجنة». قال: هذا حديث غريب من حديث يزيد، تفرد به نصر بن حماد البجلي. وذكر أبو بكر أحمد بن علي ابن ثابت الحافظ عن عيسى بن أبي فاطمة الرازي قال سمعت مالك بن أنس يقول: إذا نُقِسَ بالنافوس اشتد غضب الرحمن، فتنزل الملائكة، فيأخذون بأقطار الأرض، فلا يزالون يقرؤون ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يسكن غضبه عز وجل. وخَرَجَ من حديث محمد بن خالد الجَنَدِيُّ... عن ابن عمر قال قال رسول الله ﷺ: «من دخل يوم الجمعة المسجد، فصلَّى أربع ركعات يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، و ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ خمسين مرة فذلك مائتا مرة في أربع ركعات، لم يَمُتْ حتى يرى منزله في الجنة أو يُرى له». وقال أبو عمر مولى جرير بن عبد الله البجلي، عن جرير قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حين يدخل منزله،

أبو حيان الأندلسي ج ٨ ص ٥٢٧ - ٥٢٩

رادة على عباد الأوثان، والقائلين بالثنوية، وبالتثليث، وبغير ذلك من المذاهب المخالفة للتوحيد. وعن ابن عباس أن اليهود قالوا: يا محمد صف لنا ربك وانسبه، فنزلت. وعن أبي العالية: قال قادة الأحزاب انسب لنا ربك، فنزلت، فإن صح هذا السبب كان هو ضميراً عائداً على الرب، أي «قل هو الله»، أي ربي الله، ويكون مبتدأ

هذه السورة مكية في قول عبد الله، والحسن، وعكرمة، وعطاء، ومجاهد وقتادة، مدنية في قول ابن عباس، ومحمد بن كعب، وأبي العالية والضحاك، ولما تقدم فيما قبلها عداوة أقرب الناس إلى الرسول ﷺ، وهو عمه أبو لهب، وما كان يقاسي من عباد الأصنام الذين اتخذوا مع الله آلهة جاءت هذه السورة مصرحة بالتوحيد،

فيتوالدا. ودل على هذا المعنى بقوله: ﴿أَنَّهُ يَكُونُ لَمْ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَمْ صَحْبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١] ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ لأن كل مولود محدث وجسم وهو قديم لا أول لوجوده، وليس بجسم ولم يكافئه أحد يقال له كفو بضم الكاف وكسرها وفتحها مع سكون الفاء، وبضم الكاف مع ضم الفاء. وقرأ حمزة وحفص بضم الكاف، وإسكان الفاء. وهمز حمزة. وأبدلها حفص واواً، وباقي السبعة بضمهما والهمز، وسهل الهمزة الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع، وفي رواية عن نافع أيضاً كفاً من غير همز نقل حركة الهمزة إلى الفاء وحذف الهمزة. وقرأ سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس «كفاء» بكسر الكاف وفتح الفاء والمد كما قال النابغة: «لا تقلدني بركن لا كفاء له». الأعمش: لا كفاء له لا مثل له. وقال مكّي: سيبويه يختار أن يكون الظرف خبراً إذا قدمه، وقد خطأه المبرد بهذه الآية، لأنه قدم الظرف ولم يجعله خبراً، والجواب أن سيبويه لم يمنع إلغاء الظرف إذا تقدم إنما أجاز أن يكون خبراً، وأن لا يكون خبراً. ويجوز أن يكون حالاً من النكرة وهي «أحد» لما تقدم نعتها عليها نصب على الحال، فيكون «له» الخبر على مذهب سيبويه واختياره، ولا يكون للمبرد حجة على هذا القول. انتهى. وخرجه ابن عطية أيضاً على الحال. وقال الزمخشري. «فإن قلت» الكلام العربي الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقر، ولا يقدم، وقد نص سيبويه على ذلك في كتابه، فما باله مقدماً في أفصح الكلام وأعربه؟ (قلت:) هذا الكلام إنما سيق لنفي المكافأة عن ذات الباري سبحانه وتعالى، وهذا المعنى مصبه ومركزه هو هذا الظرف فكان لذلك أهم شيء، وأعانه، وأحقه بالتقديم، وأحره. انتهى. وهذه الجملة ليست من هذا الباب وذلك أن قوله ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كَفُوءاً أَحَدٌ﴾ ليس الجار والمجرور فيه تاماً، إنما ناقص لا يصلح أن يكون خبراً لـ «كان»، بل هو متعلق بكفو، وقدم عليه فالتقدير، ولم يكن أحد كفواً له أي مكافئه فهو في معنى المفعول، متعلق بـ «كفو» وتقدم على «كفو» للاهتمام به إذ فيه ضمير الباري تعالى. وتوسط الخبر، وإن كان الأصل التأخر، لأن تأخر الاسم

وخبراً وأحد خبر ثان. وقال الزمخشري: وأحد بدل من قوله الله، أو على هو أحد. انتهى، وإن لم يصح السبب فهو ضمير الأمر، والشأن مبتدأ، والجملة بعده مبتدأ وخبر في موضع خبر هو وأحد بمعنى واحد، أي فرد من جميع جهات الوجدانية، أي في ذاته وصفاته لا يتجزأ، وهمزة أحد هذا بدل من واو، وإبدال الهمزة مفتوحة من الواو قليل من ذلك امرأة إناة يريدون، وناة لأنه من الونى وهو الفتور، كما أن أحداً من الوحدة. وقال ثعلب: بين واحد وأحد فرق، الواحد يدخله العدد والجمع والإثنان والأحد لا يدخله، يقال: الله أحد ولا يقال زيد أحد لأن الله خصوصية له الأحد، وزيد تكون منه حالات. انتهى. وما ذكر من أن أحداً لا يدخله ما ذكر منقوض بالعدد. وقرأ إبان بن عثمان، وزيد بن علي، ونصر بن عاصم، وابن سيرين، والحسن، وابن أبي اسحق، وأبو السمال، وأبو عمر، وفي رواية يونس، ومحبوب، والأصمعي، واللؤلؤي، وعبيد، وهرون عنه «أحد الله» بحذف التنوين لالتقاء مع لام التعريف، وهو موجود في كلام العرب، وأكثر ما يوجد في الشعر نحو قوله: «ولا ذاكر الله إلا قليلاً»، ونحو قوله: عمرو الذي هشم الثريد لقومه». ﴿اللَّهُ الصَّكْمُ﴾ مبتدأ وخبر، والأفصح أن تكون هذه جملاً مستقلة بالإخبار على سبيل الاستئناف كما تقول: زيد العالم، زيد الشجاع. وقيل: الصمد صفة والخبر في الجملة بعده، وتقدم شرح الصمد في المفردات. وقال الشعبي، ويمان بن رباب هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وقال أبي بن كعب يفسره ما بعده، وهو قوله لم يلد ولم يولد. وقال الحسن الصمد المصمت الذي لا جوف له. ومنه قوله:

شهاب حروب لا تزال جياده

عوابس يعلكن الشكيم المصمدا

وفي كتاب التحرير أقوال غير هذه لا تساعد عليها اللغة. وقال ابن الأنباري: لا خلاف بين أهل اللغة أن الصمد هو السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في أمورهم وحوائجهم، قال الزمخشري ﴿لَمْ يَكِلْ﴾ لأنه لا يجانس حتى تكون له من جنسه صاحبة

تري كلامه وتمثيله بالظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ومعنى قوله «مستقراً» أي: خبراً للمبتدأ ولـ «كان» (فإن قلت:) فقد مثل بالآية الكريمة، (قلت:) هذا الذي أوقع مكياً، والزمخشري، وغيرهما فيما وقعوا فيه، وإنما أراد سيبويه أن الظرف التام وهو في قوله: «ما دام فيهن فصيل حياً»، أجرى فضله لا خبراً كما أن «له» في الآية فضله فجعل الظرف القابل أن يكون خبراً كالظرف الناقص في كونه لم يستعمل خبراً، ولا يشك من له ذهن صحيح إنه لا ينعقد كلام من قوله «ولم يكن له أحد» بل لو تأخر «كفواً» وارتفع على الصفة وجعل له خبراً لم ينعقد منه كلام، بل أنت ترى أن النفي لم يتسلط إلا على الخبر الذي هو كفواً، و «له» متعلق به، والمعنى ولم يكن له أحد مكافئه، وقد جاء في فضل هذه السورة أحاديث كثيرة، ومنها «أنها تعدل ثلث القرآن». وقد تكلم العلماء على ذلك، وليس هذا موضعه والله الموفق.

هو فاصله فحسن ذلك. وعلى هذا الذي قررناه يبطل إعراب مكى وغيره أن له الخبر، «وكفواً» حال من «أحد» لأنه ظرف ناقص لا يصلح أن يكون خبراً، وبذلك يبطل سؤال الزمخشري وجوابه. وسبويه إنما تكلم في هذا الظرف الذي يصلح أن يكون خبراً، ويصلح أن يكون غير خبر. قال سيبويه: وتقول ما كان فيها أحد خير منك، وما كان أحد مثلك فيها، وليس أحد فيها خير منك إذا جعلت فيها مستقراً، ولم تجعله على قولك: فيها زيد قائم، أجريت الصفة على الاسم فإن جعلته على فيها زيد قائم ثم نصبت، فتقول: ما كان فيها أحد خيراً منك. وما كان أحد خيراً منك فيها إلا أنك إذا أردت الإلغاء فكلما أخرت الملقى كان أحسن، وإذا أردت أن يكون مستقراً فكلما قدمته كان أحسن. والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربي جيد كثير قال تعالى ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾. وقال الشاعر: «مادام فيهن فصيل حياً» انتهى. وما نقلناه ملخصاً، وهو بالفاظ سيبويه فأنت

ابن كثير ج ٤ ص ٥٦٥ - ٥٧١

ربك، فأنزل الله عز وجل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها إسناده متقارب، وقد رواه ابن جرير عن محمد بن عوف عن سريج فذكره، وقد أرسله غير واحد من السلف. وروى عبيد بن إسحق العطار... عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قالت قریش لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فنزلت هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. قال الطبراني، ورواه الفريابي وغيره عن قيس عن أبي عاصم عن أبي واثل مرسلًا، ثم روى الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عثمان الطرائفي... عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: لكل شيء نسبة، ونسبة الله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والصمد ليس بأجوف.

... قال البخاري... عن ابن أبي هلال: أن أبا الرجال محمد بن عبد الرحمن، حدثه عن أمه عمرة بنت عبد الرحمن وكانت في حجر عائشة زوج النبي ﷺ عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ بعث رجلاً على سرية، وكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم، فيختم بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد محمد بن ميسر الصاغانى... عن أبي بن كعب أن المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. يا محمد انسب لنا ربك، فأنزل الله تعالى ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. وكذا رواه الترمذي، وابن جرير، عن أحمد بن منيع زاد ابن جرير، ومحمود بن خدّاش عن أبي سعيد محمد بن ميسر به زاد ابن جرير، والترمذي قال: ﴿الصَّكَمُ﴾ الذي لم يلد ولم يولد، لأنه ليس شيء يولد إلا سيموت، وليس شيء يموت إلا سيورث، وإن الله عز وجل لا يموت ولا يورث. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ولم يكن له شبيه، ولا عدل، وليس كمثله شيء. ورواه ابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد محمد بن ميسر به، ثم رواه الترمذي... عن أبي العالية فذكره مرسلًا، ولم يذكر حدثنا، ثم قال الترمذي، وهذا أصح من حديث أبي سعيد.

... قال الحافظ أبو يعلى الموصلي... عن جابر رضي الله عنه أن أعرابياً جاء إلى النبي ﷺ فقال: انسب لنا

ﷺ، فذكر ذلك له، وكان الرجل يتقالتها فقال النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن»، زاد إسماعيل بن جعفر عن أبي سعيد قال: أخبرني أخي قتادة بن النعمان عن النبي ﷺ، وقد رواه البخاري أيضاً عن عبد الله بن يوسف والقنبي، ورواه أبو داود عن القنبي والنسائي عن قتيبة، كلهم عن مالك به، وحديث قتادة بن النعمان أسنده النسائي من طريقين عن إسماعيل بن جعفر عن مالك به. . . . قال البخاري حدثنا عمر بن حفص. . . عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه «أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة»، فشق ذلك عليهم، وقالوا أينا يطيق ذلك يا رسول الله، فقال «الله الواحد الصمد ثلث القرآن»، تفرد بإخراجه البخاري من حديث إبراهيم بن يزيد النخعي، والضحاك بن شريحيل الهمداني المشرقي، كلاهما عن أبي سعيد، قال الفريبري: سمعت أبا جعفر محمد بن أبي حاتم وراق أبي عبد الله قال: قال أبو عبد الله البخاري عن إبراهيم مرثد، وعن الضحاك مسند.

. . . قال الإمام أحمد. . . عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: بات قتادة بن النعمان يقرأ الليل كله بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «والذي نفسي بيده إنها لتعدل نصف القرآن - أو ثلثه - . . . قال الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو أن أبا أيوب الأنصاري كان في مجلس، وهو يقول: ألا يستطيع أحدكم أن يقوم بثلاث القرآن كل ليلة؟ فقالوا: وهل يستطيع ذلك أحد؟ قال فإنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ثلث القرآن، قال فجاء النبي ﷺ وهو يسمع أبا أيوب فقال «صدق أبو أيوب».

. . . قال أبو عيسى الترمذي. . . عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «احشدوا فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن»، فحشد من حشد، ثم خرج نبي الله ﷺ فقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، ثم دخل فقال بعضنا لبعض قال رسول الله ﷺ: «فإني سأقرأ عليكم ثلث القرآن» إني لأرى هذا خبراً جاء من السماء، ثم خرج نبي الله ﷺ، فقال: «إني قلت سأقرأ عليكم ثلث القرآن ألا

أحدٌ؟ فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال «سلوه لأي شيء يصنع ذلك»، فسألوه فقال لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ «أخبروه أن الله تعالى يحبه» هكذا رواه في كتاب التوحيد، ومنهم من يسقط ذكر محمداً الذهلي، ويجعله من روايته عن أحمد ابن صالح، وقد رواه مسلم والنسائي أيضاً من حديث عبد الله بن وهب. . . عن سعيد بن أبي هلال. . .

. . . قال البخاري في كتاب الصلاة، وقال عبيد الله عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، فكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ حتى يفرغ منها، ثم كان يقرأ سورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلّمه أصحابه، فقالوا إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بالأخرى، فلمّا أن تقرأ بها، وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال ما أنا بتاركها إن أحببت أن أؤمكم بذلك فعلت، وإن كرهتم تركتم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم، وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر فقال: يا فلان «ما يمنعك أن تفعل ما يأمر بك به أصحابك وما حملك على لزوم هذه السورة في كل ركعة»، قال إني أحبها، قال «حبك إياها أدخلك الجنة» هكذا رواه البخاري تعليقاً مجزوماً به. وقد رواه أبو عيسى الترمذي في جامعه. . . عبيد الله بن عمر، فذكر بإسناده مثله سواء، ثم قال الترمذي غريب من حديث عن عبيد الله عن ثابت. قال وروى مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس أن رجلاً قال: يا رسول الله إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ قال: «إن حبك إياها أدخلك الجنة»، وهذا الذي علقه الترمذي قد رواه الإمام أحمد في مسنده متصلاً، فقال حدثنا أبو النضر حدثنا مبارك بن فضالة عن ثابت عن أنس رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني أحب هذه السورة ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فقال رسول الله ﷺ «حبك إياها أدخلك الجنة». قال البخاري: حدثنا إسماعيل. . . عن أبي سعيد أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي

هو ابن عوف عن أمه، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط قالت: قال رسول الله ﷺ «قل هو الله أحد، تعدل ثلث القرآن» وكذا رواه النسائي في اليوم والليلة...

... قال الإمام مالك بن أنس... عن عبيد بن حنن قال سمعت أبا هريرة يقول: أقبلت مع النبي ﷺ، فسمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد، فقال رسول الله ﷺ: «وجبت - قلت وما وجبت؟ قال - الجنة» ورواه الترمذي والنسائي من حديث مالك، وقال الترمذي حسن صحيح غريب لا نعرفه إلا من حديث مالك، وتقدم حديث «حبك إياها أدخلك الجنة»... قال الحافظ أبو يعلى الموصلي... عن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا يستطيع أحدكم أن يقرأ قل هو الله أحد، ثلاث مرات في ليلة فإنها تعدل ثلث القرآن» هذا إسناد ضعيف وأجود منه.

... قال عبدالله بن الإمام أحمد... عن معاذ بن عبدالله بن حبيب عن أبيه قال: أصابنا عطش وظلمة، فانتظرنا رسول الله ﷺ، بنا فخرج فأخذ بيدي فقال: «قل»، فسكت، قال: «قل»، قلت ما أقول؟ قال: «قل هو الله أحد والمعوذتين حين تمسي، وحين تصبح ثلاثاً، تكفيك كل يوم مرتين»، ورواه أبو داود، والترمذي، والنسائي من حديث ابن أبي ذئب به. وقال الترمذي حسن صحيح غريب من هذا الوجه. وقد رواه النسائي من طريق أخرى عن معاذ بن عبد الله ابن حبيب عن أبيه عن عقبة بن عامر، فذكره ولفظه «تكفيك كل شيء»... قال الإمام أحمد... عن تميم الداري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله واحداً واحداً صمداً لم يتخذ صاحبة، ولا ولداً، ولم يكن له كفواً أحد عشر مرات كتب الله له أربعين ألف حسنة»، تفرد به أحمد، والخليل بن مرة ضعفه البخاري وغيره بمرة...

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾

قد تقدم ذكر سبب نزولها، وقال عكرمة لما قالت اليهود نحن نعبد عزيز ابن الله، وقالت النصارى نحن نعبد المسيح ابن الله، وقالت المجوس نحن نعبد الشمس

وإنها تعدل ثلث القرآن». وهكذا رواه مسلم في صحيحه عن محمد ابن بشار به. وقال الترمذي حسن صحيح غريب واسم أبي حازم سلمان.

... قال الإمام أحمد... عن أبي أيوب عن النبي ﷺ، قال: «يعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة؟ فإنه من قرأ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ في ليلة فقد قرأ ليلته ثلث القرآن»، هذا حديث تساعي الإسناد للإمام أحمد، ورواه الترمذي، والنسائي، كلاهما عن محمد بن بشار بن دارزاد الترمذي، وقيية كلاهما عن عبد الرحمن بن مهدي به فصار لهما عشاري، وفي رواية الترمذي عن امرأة أبي أيوب عن أبي أيوب به، وحسنه ثم قال وفي الباب عن أبي الدرداء، وأبي سعيد، وقتادة بن النعمان، وأبي هريرة، وأنس، وابن عمر، وأبي مسعود، وهذا حديث حسن، ولا نعلم أحداً روى هذا الحديث أحسن من رواية زائدة، وتابعه على روايته إسرائيل والفضيل بن عياض. وقد روى شعبة وغير واحد من الثقات هذا الحديث عن منصور واضطربوا فيه.

... قال أحمد... عن أبي بن كعب، أو رجل من الأنصار قال: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ بقل هو الله أحد فكأنما قرأ بثلاث القرآن»، ورواه النسائي في اليوم والليلة من حديث هشيم عن حصين عن ابن أبي ليلى به. ولم يقع في روايته هلال بن يساف.

... قال الإمام أحمد... عن أبي مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «قل هو الله أحد تعدل ثلث القرآن»، وهكذا رواه ابن ماجه عن علي بن محمد الطنافسي عن وكيع به. ورواه النسائي في اليوم والليلة من طرق آخر عن عمرو بن ميمون مرفوعاً وموقوفاً.

... قال الإمام أحمد... عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أيعجز أحدكم أن يقرأ كل يوم ثلث القرآن؟» قالوا نعم يا رسول الله نحن أضعف من ذلك وأعجز، قال «فإن الله جزء القرآن ثلاثة أجزاء، فقال هو الله أحد ثلث القرآن»، ورواه مسلم والنسائي من حديث قتادة به.

... قال الإمام أحمد... عن حميد بن عبد الرحمن

بعد خلقه. وقال البيهقي نحو ذلك. وقوله تعالى ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ أي ليس له ولد، ولا صاحبة. قال مجاهد ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾ يعني لا صاحبة له، وهذا كما قال تعالى ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [البقرة: ١١٧] أي هو مالك كل شيء وخالقه، فكيف يكون له من خلقه نظير يسامه، أو قريب يدانيه تعالى وتقدس وتنزه. قال الله تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا. لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا. تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَفْطَرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَخِرُّ لِبَآلٍ هَذَا. أَن دَعَا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا. وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا. إِن كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا. لَقَدْ أَحْصَيْنَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا. وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥] وقال تعالى ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ. لَا يَسْخَرُونَ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧]، وقال تعالى ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نِجَالًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ. سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨-١٥٩] وفي الصحيح صحيح البخاري «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولداً وهو يرزقهم ويعافهم»، وقال البخاري... عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «قال الله عز وجل كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقلوه لن يعيدني كما بدأتني، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقلوه اتخذ الله ولداً وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفواً أحد»، ورواه أيضاً من حديث عبد الرزاق عن معمر عن همام بن منبه عن أبي هريرة مرفوعاً بمثله تفرد بهما من هذين الوجهين. آخر تفسير سورة الإخلاص، والله الحمد والمنة.

الشوكاني ج ٥ ص ٥١٥-٥١٨

خبر المبتدأ الأول، ويجوز أن يكون الله بدلاً من هو، والخبر أحد. ويجوز أن يكون الله خبراً أول، وأحد خبراً ثانياً، ويجوز أن يكون أحد خبراً لمبتدأ محذوف: أي هو أحد. ويجوز أن يكون هو ضمير شأن لأنه موضع تعظيم،

والقمر، وقالت المشركون نحن نعبد الأوثان أنزل الله على رسوله ﷺ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَمْ كُفُوا أَحَدٌ﴾...

وقال مالك عن زيد بن أسلم ﴿الصَّمَدُ﴾ السيد، وقال الحسن وقتادة هو الباقي بعد خلقه، وقال الحسن أيضاً ﴿الصَّمَدُ﴾ الحي القيوم الذي لا زوال له، وقال عكرمة ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لم يخرج منه شيء ولا يطعم، وقال الربيع بن أنس هو الذي لم يلد ولم يولد كأنه جعل ما بعده تفسيراً له، وهو قوله ﴿لَمْ يَكِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو تفسير جيد وقد تقدم الحديث من رواية ابن جرير عن أبي بن كعب في ذلك وهو صريح فيه، وقال ابن مسعود، وابن عباس، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله بن بريدة، وعكرمة أيضاً، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وعطية العوفي، والضحاك والسدي ﴿الصَّمَدُ﴾ الذي لا جوف له. قال سفيان عن منصور عن مجاهد ﴿الصَّمَدُ﴾ المصمت الذي لا جوف له، وقال الشعبي هو الذي لا يأكل الطعام، ولا يشرب الشراب. وقال عبد الله بن بريدة أيضاً ﴿الصَّمَدُ﴾ نور يتلألأ، روى ذلك كله وحكاه ابن أبي حاتم، والبيهقي، والطبراني، وكذا أبو جعفر بن جرير ساق أكثر ذلك بأسانيده، وقال حدثني العباس بن أبي طالب... عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال: لا أعلم إلا قد رفعه قال «الصمد الذي لا جوف له» وهذا غريب جداً، والصحيح أنه موقوف على عبد الله ابن بريدة. وقد قال الحافظ أبو القاسم الطبراني في كتاب السنة له بعد إيراده كثيراً من هذه الأقوال في تفسير الصمد، وكل هذه صحيحة، وهي صفات ربنا عز وجل هو الذي يصمد إليه في الحوائج، وهو الذي قد انتهى سؤده، وهو الصمد الذي لا جوف له ولا يأكل ولا يشرب، وهو الباقي

قوله ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضمير يجوز أن يكون عائداً إلى ما يفهم من السياق لما قدمنا من بيان سبب النزول، وأن المشركين قالوا: يا محمد انسب لنا ربك، فيكون مبتدأ، والله مبتدأ ثان، وأحد خبر المبتدأ الثاني، والجملة

الحسن، وعكرمة، والضحاك، وسعيد بن جبير، وسعيد بن المسيب، ومجاهد، وعبد الله ابن بريدة، وعطاء، وعطية العوفي، والسدي: الصمد هو المصمت الذي لا جوف له، ومنه قول الشاعر:

شهاب حروب لا تزال جياده

عوابس يعلكن الشكيم المصمدا
وهذا لا ينافي القول الأول لجواز أن يكون هذا أصل معنى الصمد، ثم استعمل في السيد المصمود إليه في الحوائج، ولهذا أطبق على القول الأول أهل اللغة والجمهور أهل التفسير، ومنه قول الشاعر:

علوته بحسامي ثم قلت له

خذها حذيف فأنت السيد الصمد

وقال الزبرقان بن بدر:

سيروا جميعاً بنصف الليل واعتمدوا

ولارهنينة إلا سيد صمد
وتكرير الاسم الجليل لإشعار بأن من لم يتصف بذلك فهو بمعزل عن استحقاق الألوهية، وحذف العاطف من هذه الجملة لأنها كالنتيجة للجملة الأولى، وقيل إن الصمد صفة للاسم الشريف والخبر هو ما بعده، والأول أولى لأن السياق يقتضي استقلال كل جملة ﴿كَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾... وقالت اليهود: عزيز ابن الله. وقالت النصارى: المسيح ابن الله فأكذبهم الله فقال ﴿كَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾ قال الرازي: قدّم ذكر نفي الولد مع أن الولد مقدّم للاهتمام لأجل ما كان يقوله الكفار من المشركين: إن الملائكة بنات الله، واليهود: عزيز ابن الله، والنصارى: المسيح ابن الله، ولم يدّع أحد أن له والدًا، فلهذا السبب بدأ بالأهم فقال ﴿كَمْ يَكِلِدْ﴾ ثم أشار إلى الحجة فقال ﴿وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾ كونه قيل الدليل على امتناع الولد اتفاقنا على أنه ما كان ولدًا لغيره، وإنما عبر سبحانه بما يفيد انتفاء كونه لم يلد ولم يولد في الماضي، ولم يذكر ما يفيد انتفاء كونه كذلك في المستقبل لأنه ورد جواباً عن قولهم: ولد الله كما حكى الله عنهم بقوله ﴿أَلَا إِنَّمَا مَنَافَىٰ إِنَّهُمْ مِّنْ أَفْكَهَمَ يَكْفُورُونَ وَلَدَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٥١-١٥٢] فلما كان المقصود من هذه الآية تكذيب قولهم، وهم إنما قالوا ذلك بلفظ يفيد النفي فيما مضى، وردت الآية لدفع

والجملة بعده مفسرة له وخبر عنه، والأول أولى. قال الزجاج: هو كناية عن ذكر الله، والمعنى: إن سألتهم تبين نسبته هو الله أحد، قيل وهمزة أحد بدل من الواو وأصله واحد. وقال أبو البقاء: همزة أحد أصل بنفسها غير مقلوبة، وذكر أن أحد يفيد العموم دون واحد، ومما يفيد الفرق بينهما ما قاله الأزهري: أنه لا يوصف بالأحدية غير الله تعالى، لا يقال رجل أحد، ولا درهم أحد؛ كما يقال رجل واحد ودرهم واحد، قيل والواحد يدخل في الأحد والأحد لا يدخل فيه فإذا قلت لا يقاومه واحد جاز أن يقال لكنه يقاومه اثنان بخلاف قولك لا يقاومه أحد. وفرق ثعلب بين واحد وبين أحد بأن الواحد يدخل في العدد، وأحد لا يدخل فيه. وردّ عليه أبو حيان بأنه يقال أحد وعشرون ونحوه فقد دخله العدد، وهذا كما ترى، ومن جملة القائلين بالقلب الخليل. قرأ الجمهور ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بإثبات قل. وقرأ عبد الله بن مسعود وأبي ﴿اللَّهُ أَحَدٌ﴾ بدون قل. وقرأ الأعمش «قل هو الله الواحد» وقرأ الجمهور بتنوين أحد، وهو الأصل. وقرأ زيد بن علي، وإبان بن عثمان، وابن أبي إسحاق، والحسن، وأبو السماك، وأبو عمرو في رواية عنه بحذف التنوين للخفة كما في قول الشاعر:

عمرو الذي هشم الشريد لقومه

ورجال مكة مستنون عجاف
وقيل إن ترك التنوين لملاقاته لام التعريف، فيكون الترك لأجل الفرار من التقاء الساكنين. ويجاب عنه بأن الفرار من التقاء الساكنين قد حصل مع التنوين بتحريك الأول منهما بالكسر ﴿اللَّهُ الصَّكَمُ﴾ الاسم الشريف مبتدأ، والصمد خبره...

وقيل معنى الصمد: الدائم الباقي الذي لم يزل ولا يزول. وقيل معنى الصمد ما ذكره بعده من أنه الذي ﴿كَمْ يَكِلِدْ وَلَمْ يُؤَكِّدْ﴾. وقيل هو المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد. وقيل هو المقصود في الرغائب والمستعان به في المصائب، وهذان القولان يرجعان إلى معنى القول الأول. وقيل هو الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد. وقيل هو الكامل الذي لا عيب فيه. وقال

له». والكفاء في لغة العرب النظير، يقول هذا كفوك: أي نظيرك، والاسم الكفاء بالفتح.

وقد أخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، والمحاملي في أماليه، والطبراني، وأبو الشيخ في العظمة عن بريد لا أعلمه إلا رفعه... وقال: أو ما سمعت النائحة وهي تقول:

لقد بكر الناعي بخير بني أسد
بعمرو بن مسعود وبالسيد الصمد

وكان لا يطعم عند القتال، وقد روي عنه أن الذي يصمد إليه في الحوائج، وأنه أنشد البيت واستدل به على هذا المعنى، وهو أظهر في المدح وأدخل في الشرف، وليس لوصفه بأنه لا يطعم عند القتال كثير معنى. وأخرج ابن جرير، وابن المنذر، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ في العظمة، والبيهقي في الأسماء والصفات والشريف الذي قد كمل في شرفه، والعظيم الذي قد كمل في عظمته، والحليم الذي قد كمل في حلمه، والغني الذي قد كمل في غناه، والجبار الذي قد كمل في جبروته، والعالم الذي قد كمل في علمه، والحكيم الذي قد كمل في حكمته، وهو الذي قد كمل في أنواع الشرف والسؤدد، وهو الله سبحانه هذه صفة لا تنبغي إلا له ليس له كفو وليس كمثل شيء. وأخرج ابن أبي حاتم، وابن جرير، وابن المنذر، والبيهقي عن ابن مسعود قال ﴿أَلْصَكْمُ﴾ هو السيد الذي قد انتهى سؤدده فلا شيء أسود منه...

قولهم هذا ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ هذه الجملة مقررة لمضمون ما قبلها لأنه سبحانه إذا كان متصفاً بالصفات المتقدمة كان متصفاً بكونه لم يكافئه أحد ولا يماثله، ولا يشاركه في شيء، وآخر اسم كان لرعاية الفواصل، وقوله «له» متعلق بقوله «كفواً» قدم عليه لرعاية الاهتمام، لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته. وقيل إنه في محل نصب على الحال، والأول أولى. وقد رد المبرد على سيبويه بهذه الآية لأن سيبويه قال: إنه إذا تقدّم الظرف كان هو الخبر، وههنا لم يجعل خبراً مع تقدّمه، وقد رد على المبرد بوجهين: أحدهما أن سيبويه لم يجعل ذلك حتماً بل جوزه. والثاني أنا لا نسلم كون الظرف هنا ليس بخبر، بل يجوز أن يكون خبراً ويكون كفواً منتصباً على الحال وحكى في الكشاف عن سيبويه على أن الكلام العربيّ الفصيح أن يؤخر الظرف الذي هو لغو غير مستقرّ، واقتصر في هذه الحكاية على نقل أول كلام سيبويه ولم ينظر إلى آخره، فإنه قال في آخر كلامه: والتقديم والتأخير والإلغاء والاستقرار عربيّ جيد كثير انتهى. قرأ الجمهور «كفواً» بضم الكاف والفاء وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعرج، وسيبويه ونافع في رواية عنه بإسكان الفاء، وروى ذلك عن حمزة مع إبداله الهمزة واواً وصلاً ووقفاً، وقرأ نافع في رواية عنه «كفاً» بكسر الكاف وفتح الفاء من غير مدّ، وقرأ سليمان بن عليّ بن عبدالله بن العباس كذلك مع المدّ، وأنشد قول النابغة: «لا تقدفني بركن لا كفاء

الألوسي ج ١٥ ص ٣٤٠ - ٣٥٦

وقال مكي أصل أحد واحد، فأبدلوا الواو همزة، فاجتمع ألفان لأن الهمزة تشبه الألف، فحذفت إحداهما تخفيفاً وفرق ثعلب بين أحد وواحد بأن أحداً لا يبنى عليه العدد ابتداءً، فلا يقال أحد وإثنان كما يقال واحد وإثنان، ولا يقال رجل أحد كما يقال رجل واحد، ولذلك اختص به سبحانه، وفرق بعضهم بينهما أيضاً بأن الأحد في النفي نص في العموم بخلاف الواحد، فإنه محتمل للعموم وغيره، فيقال ما في الدار أحد، ولا يقال بل إثنان، ويجوز أن يقال ما في الدار واحد بل إثنان، ونقل عن

و... أخرج ابن أبي حاتم، والبيهقي في الأسماء والصفات عن ابن عباس أن اليهود جاءت إلى النبي عليه الصلاة والسلام منهم كعب بن الأشرف، وحبي بن أخطب، فقالوا: يا محمد صف لنا ربك الذي بعثك، فأنزل الله تعالى السورة، وكون السائلين اليهود مروى عن الضحّاك، وابن جبير، وقتادة، ومقاتل، وهو ظاهر في أن السورة مدنية، وجاز رجوع الضمير إلى ذلك للعلم به من السؤال وجرى ذكره فيه وهو عليه مبتدأ والاسم الجليل خبره وأحد خبر بعد خبر...

يعتقدونه إلهاً، وذلك على ما تضمنته كتبهم أنهم يقولون الأب هو الأقنوم الأول من الثلاث، والابن هو الثاني الصادر منه صدوراً أزلياً مساوياً بالأزلية له، وروح القدس هو الثالث الصادر عنهما كذلك، والطبيعة الإلهية واحدة، وهي لكل من الثلاثة، وكل منها متحد معها، ومع ذلك هم ثلاثة جواهر لا جوهر واحد، فالأب ليس هو الابن، والابن ليس هو الأب، وروح القدس ليس هو الأب، ولا الابن، وهما ليسا روح القدس، ومع ذلك هم إله واحد إذ لهم لاهوت واحد وطبيعة واحدة وجوهر واحد، وكل منهم متحد مع اللاهوت، وإن كان بينهم تمايز، والأول هو الوجود الواجب الجوهرى، والثاني هو العقل الجوهرى، ويقال له العلم، والثالث هو الإرادة الجوهرية، ويقال لها المحبة، فالله ثلاثة أقانيم جوهرية، وهي على كل تمايزها تمايزاً حقيقياً، وقد يطلقون عليه إضافياً أي بإضافة بعضها إلى بعض جوهر وطبيعة واحدة هو الله، وليس يوحد فيه غيره، بل كل ما هو داخل فيه عين ذاته، ويقولون إن فيه تعالى عما يقولون أربع إضافات: أولها فاعلية التعقل في الأقنوم الأول، وثانيها مفعولية التعقل في الأقنوم الثاني الذي هو صورة عقل الأب، ثالثها فاعلية الانبثاق في الأقنوم الأول، والثاني اللذين لهما الإرادة، رابعها مفعولية هذا الانبثاق في الأقنوم الثالث الذي هو حب الإرادة الإلهية، التي هي للأقنوم الأول، والثاني، وزعموا أن التعبير بالفاعلية والمفعولية في الأقانيم الإلهية على سبيل التوسع، وليست الفاعلية في الأب نحو الابن إلا الأبوة، وفيه وفي الابن نحو روح القدس ليست إلا بدء صدوره منهما، وليست المفعولية في الابن وروح القدس إلا النبوة في الابن والانبثاق في الروح، ويقولون كل ذلك مما يجب الإيمان به، وإن كان فوق الطور البشرى، ويزعمون أن لتلك الأقانيم أسماء تلقوها من الحواريين، فالأقنوم الأول في الطبع الإلهي يدعى أباً، والثاني ابناً وكلمة وحكمة ونوراً وضياء وشعاعاً، والثالث روح القدس ومغرباً، وهو معنى قولهم باليونانية اراكليط، وقالوا في بيان وجه الإطلاق أن ذلك لأن الأقنوم الأول بمنزلة ينبوع، ومبدأ أعطى الأقنوم

بعض الحنفية إنه قال في التفرقة بينهما أن الأحدية لا تحتل الجزئية، والعديدية بحال والواحدية تحتلها لأنه يقال مائة واحدة، وألف واحد، ولا يقال مائة أحد إلا ألف أحد، وبنى على ذلك مسألة الإمام محمد بن الحسن التي ذكرها في الجامع الكبير إذا كان لرجل أربع نسوة فقال والله لا أقرب واحدة منكن صار مولياً منهن جميعاً، ولم يجز أن يقرب واحدة منهن إلا بكفارة، ولو قال والله لا أقرب احداكن لم يصير مولياً إلا من إحداكن والبيان إليه، وفرق الخطابي بأن الأحدية لتفرد الذات والواحدية لنفي المشاركة في الصفات، ونقل عن المحققين التفرقة بعكس ذلك ولما لم ينفك في شأنه تعالى أحد الأمرين من الآخر قيل الواحد الأحد في حكم اسم واحد، وفسر الأحد هنا ابن عباس وأبو عبيدة كما قال الجوزي بالواحد وأيد بقراءة الأعمش قل هو الله الواحد، وفسر بما لا يتجزأ ولا ينقسم...

وقوله تعالى ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ مبتدأ وخبر، وقيل الصمد نعت والخبر ما بعده وليس بشيء. والصمد قال ابن الأنباري لا خلاف بين أهل اللغة أنه السيد الذي ليس فوقه أحد الذي يصمد إليه الناس في حوائجهم وأمورهم وقال الزجاج هو الذي ينتهي إليه السؤدد ويصمد إليه أي يقصده كل شيء...

وعن قتادة هو الباقي بعد خلقه، ونحوه قول معمر هو الدائم، وقول مرة الهمداني هو الذي لا يبلى ولا يفنى، وعنه أيضاً هو الذي يحكم ما يريد، ويفعل ما يشاء لا معقب لحكمة ولا راد لقضائه...

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وهو لا بد أن يكون بصيغة الماضي، ونفي المولودية عنه سبحانه لاقتضاءها المادة فيلزم التركيب المنافي للغنى المطلق، والأحدية الحقيقية، أو لاقتضاءها سبق العدم ولو بالذات أو لاقتضاءها المجانسة المستحيلة على واجب الوجود، وقدم نفي الولادة لأنه الأهم لأن طائفة من الكفار توهموا خلافه بخلاف نفي المولودية، أو لكثرة متوهمي خلاف الأول دون خلاف الثاني بناء على أن النصارى يلزمهم بواسطة دعوى الاتحاد القول بالولادة والمولودية فيمن

ولم تتغير لأنها الحد الذي ينتهي إليه الاتحاد فلا مانع في جهتها من الاتحاد، وكذا لا مانع في جانب الناسوت منه، فلا يتعاضى الله تعالى شيء زعموا أن المسيح عليه السلام كان إلهاً تاماً، وإنساناً تاماً ذا طبيعتين ومشيتين قائمتين بإقنوم إلهي، وهو أقنوم الكلمة، ومن ثم تحمل عليه الصفات الإلهية والبشرية معاً لكن من حيثيتين ثم إنهم زادوا في الطنبور رنة، وقالوا إن المسيح أطعم يوماً الحواريين خبزاً، وسقاهاهم خمراً، فقال: أكلتم لحمي، وشربتم دمي، فاتحدثتم معي، وأنا متحد مع الأب إلى رنات اخر هي أشهر من أن تذكر، ويعلم مما ذكرنا أنه لا فرق عندهم بين أن يقال أن الله تعالى هو المسيح، وبين أن يقال إن المسيح ابنه، وبين أن يقال إنه سبحانه ثالث ثلاثة، ولذا جاء في التنزيل كل من هذه الأقوال منسوباً إليهم، ولا حاجة إلى جعل كل قوم لقوم منهم كما قال غير واحد من المفسرين والمتكلمين ثم لا يخفى منافاة ما ذكره للأحادية والصمدية، وقولهم إن الأفانيم مع كونها ثلاث جواهر متميزة تمايزاً حقيقياً جوهر واحد لبداية بطلانه لا يسمن، ولا يغنى، وما يذكره من المثال لإيضاح ذلك فهو عن الإيضاح بمعزل وبعيد عن المقصود بألف ألف منزل وكنا ذكرنا في ضمن هذا الكتاب ما يتعلق ببعض عقائدهم مع رده إلا أنه كان قبل النظر في كتبهم، وقد اعتمدنا فيه ما ذكره المتكلمون عنهم، واليوم لنا عزم على تأليف رسالة تتضمن تحرير اعتقاداتهم في الواجب تعالى، وذكر شبههم العقلية والنقلية التي يستندون إليها، ويعولون في التثليث عليها حسبما وقفنا عليه في كتبهم مع ردها على أكمل وجه إن شاء الله تعالى، ونسأل الله تعالى التوفيق لذلك، وأن يسلك سبحانه بنا في جميع أمورنا أقوم المسالك فهو سبحانه الجواد الأجود الذي لم يجبه من توجه إليه بالرد. ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ كُفُوءاً أَحَدٌ﴾ أي لم يكافئه أحد، ولم يماثله، ولم يشاكله من صاحبة وغيرها، وقيل هو نفي للكفاءة المعتمدة بين الأزواج وهو كما ترى، وله صلة كفوءاً على ما ذهب إليه المبرد وغيره والأصل أن يؤخر إلا أنه قدم للاهتمام لأن المقصود نفي المكافأة عن ذاته عز وجل، وللاهتمام أيضاً قدم الخبر مع

الثاني الصادر عنه بفعل يقتضي شبه فاعله، وهو فعل العقل طبيعته وجوهره كله حتى أن الأقنوم الثاني الذي هو صورة الأول الجوهرية الإلهية مساو له كمال المساواة، وحد الإيلاد، وهو صدور حي من حي بآلة ومبدأ مقارن يقتضي شبه طبيعته، وهنا كذلك، بل أبلغ لأن للثاني الطبيعة الإلهية نفسها فلا بدع إذا سمي الأول أباً، والثاني ابناً، وإنما قيل للثاني كلمة لأن الإيلاد ليس على نحو إيلاد الحيوان والنبات، بل بفعل العقل، أي يتصور الأب لاهوته وفهمه ذاته، ولا شك أن تلك الصورة كلمة لأنها مفهومية العقل ونطقه، وقيل لها حكمة لأنه كان مولوداً من الأب بفعل عقله الإلهي الذي هو حكمة، وقيل له نور وشعاع وضياء لأنه حيث كان حكمة كان به معرفة حقائق الأشياء وانكشافها كالمذكورات، وقيل للثالث روح قدس لأنه صادر من الأب والابن بفعل الإرادة التي هي واحدة، والابن ومنبثق منهما بفعل هو كهيجان الإرادة بالحب نحو محبوبها، فهو حب الله، والله نفسه هو الروح الصرف، والتقدس عينه، ولكل من الأول والثاني وجه لأن يدعى روحاً لمكان الاتحاد، لكن لما دعي الأول باسم يدل على رتبته وإضافته إلى الثاني، والثاني كذلك اختص الثالث بالاسم المشاع، ولم يدع ابناً وإن كان له طبيعة الأب وجوهره كالابن لأنه لم يصدر من الأب بفعل يقتضي شبه فاعله يعني بفعل العقل، بل صدر منه فعل الإرادة، فالثاني من الأول كهابيل من آدم، والثالث كحواء منه، والكل حقيقة واحدة، لكن يقال لهابيل ابن، ولا يقال لها بنت، وقيل له مغزى لأنه كان عتيداً لأن يأتي الحواريين، فيغيرهم لفقد المسيح عليه السلام، وأما الفاعلية والمفعولية فلأنهما غير موجودين حقيقة، والأبوة والنبوة ههنا لا تقتضيهما كما في المحدثات، ولذا لا يقال هنا للأب علة وسبب لابنه، وإن قيل هناك فالثلاثة متساوية في الجوهر، والذات، واستحقاق العبادة، والفضل من كل وجه، ثم إنهم زعموا تجسد الأقنوم الثاني، وهو الكلمة واتحاده بإشرف أجزاء البتول من الدم بقوة روح القدس، فكان المسيح عليه السلام المركب من الناسوت، والكلمة، والكلمة مع اتحادها لم تخرج عن بساطتها،

بيان ماهيته تعالى، ولوازم ماهيته ووحدة حقيقته، وإنه غير مركب أصلاً ومن قوله تعالى لم يلد إلى أحد في بيان أنه ليس ما يساويه من نوعه ولا من جنسه لا بأن يكون سبحانه متولداً، ولا بأن يكون متولداً عنه، ولا بأن يكون موازياً في الوجود وبهذا المبلغ يحصل تمام معرفة ذاته عز وجل . . .

ما فيه من رعاية الفواصل . . .

لا يتولد عنه غيره لأنه غير متولد عن غيره، وبين أنه تعالى وإن كان إلهاً لجميع الموجودات فياضاً للوجود عليها فلا يجوز أن يفيض الوجود على مثله، كما لم يكن وجوده من غيره، ثم عقب ذلك ببيان أنه ليس في الوجود، ما يساويه في قوة الوجود فمن أول السورة إلى الصمد في

القاسمي ج ١٧ ص ٢٩٠ - ٢٩٩

له جل ثناؤه.

قال الإمام: ونكر الخبر لأن المقصود أن يخبر عن الله بأنه واحد، لا بأنه لا واحد سواه. فإن الوحدة تكون لكل واحد. تقول (لا أحد في الدار) بمعنى لا واحد من الناس فيها. والذي كان يزعمه المخاطبون هو التعدد في ذاته. فأراد نفي ذلك بأنه أحد. وهو تقرير لخلاف ما يعتقد به أهل الأصلين من المجوس، وما يعتقد القائلون بالثلاثة، منهم ومن غيرهم.

وسياتي لابن تيمية كلام آخر في سر إثارته بالتنكير ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ أي الذي يصمد إليه في الحوائج، ويقصد إليه في الرغائب. إذ ينتهي إليه منتهى السؤدد، قاله الغزالي في (المقصد الأسنى). وهكذا قال ابن جرير: الصمد عند العرب هو السيد الذي يصمد إليه، الذي لا أحد فوقه، وكذلك تسمى أشرافها. ومنه قول الشاعر:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ

بَعَثُوا بَنِي مَسْعُودٍ بِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
قال الشهاب: فهو (فَعَلٌ) بمعنى مفعول. وصمد بمعنى قصد. فيتعدى بنفسه وباللام وإلى. وقال ابن تيمية رحمه الله: وفي الصمد للسلف أقوال متعددة، قد يظن أنها مختلفة وليست كذلك بل كلها صواب . . .

ثم توسع رحمه الله في مأخذ ذلك واشتقاقه والمأثور فيه، إلى أين قال:

وإنما أدخل اللام في (الصمد)، ولم يدخلها في (أحد) لأنه ليس في الموجودات ما يسمى أحداً في الإثبات مفرداً غير مضاف. ولم يوصف به شيء من الأعيان إلا الله وحده. وإنما يستعمل في غير الله في النفي وفي الإضافة

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي الخبر الحق المؤيد بالبرهان الذي لا يرتاب فيه، وهو ما يعبر عنه النحويون بالقصة أو الحديث أو الشأن. قال أبو السعود: ومدار وضعه موضعه، مع عدم سبق ذكره، الإيدان بأنه من الشهرة والنباهة بحيث يستحضره كل أحد، وإليه يشير كل مشير، وإليه يعود كل ضمير «الله أحد»، أي واحد في الألوهية والربوبية. قال الزمخشري: (أَحَدٌ) بمعنى واحد. وقال ابن الأثير: (الأحد) في أسمائه تعالى، الفرد الذي لم يزل وحده ولم يكن معه آخر. والهمزة فيه بدل من الواو. وأصله (وحد) لأنه من الوحدة. وفي (المصباح): يكون (أحد) مرادفاً (لواحد) في موضعين سماعاً:

أحدهما: وصف اسم البارئ تعالى، فيقال هو الواحد وهو الأحد، لاختصاصه بالأحدية. فلا يشركه فيها غيره. ولهذا لا ينعت به غير الله تعالى. فلا يقال (رجل أحد) ولا (درهم أحد) ونحو ذلك.

والموضع الثاني: أسماء العدد للغلبة وكثرة الاستعمال. فيقال أحد وعشرون، وواحد وعشرون. وفي غير هذين يقع الفرق بينهما في الاستعمال، بأن (الأحد) لنفي ما يذكر معه، فلا يستعمل إلا في الجحد، لما فيه من العموم، ونحو ما قام أحد. أو مضافاً نحو (ما قام أحد الثلاثة). و(الواحد) اسم لمفتتح العدد. ويستعمل في الإثبات، مضافاً وغير مضاف. فيقال (جاءني واحد من القوم). انتهى.

وقال الأزهري: الواحد من صفات الله تعالى، معناه أنه لا ثاني له. ويجوز أن ينعت الشيء بأنه واحد. فأما (أحد) فلا ينعت به غير الله تعالى، لخلوص هذا الاسم الشريف

يصدر عنه ولد، لأنه لا يجانسه شيء ليتمكن أن يكون له من جنسه صاحبة فيتوالدا. كما نطق به قوله تعالى ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً﴾ [الأنعام: ١٠١] ولا يفترق ما يعنيه أو يخلفه، لاستحالة الحاجة والفناء عليه، سبحانه. انتهى.

وقال ابن تيمية: وقد شمل ما أخبر به سبحانه من تنزيهه وتقديسه عما أضافوه إليه من الولادة، كل أفرادها. سواء سموها حسية أو عقلية، كما تزعمه الفلاسفة الصابئون من تولد العقول العشرة، والنفوس الفلكية التسعة التي هم مضطربون فيها، هل هي جواهر أو أعراض؟ وقد يجعلون العقول بمنزلة الذكور والنفوس بمنزلة الإناث، ويجعلون ذلك آباءهم وأمهاتهم وآلهتهم وأربابهم القريبة. وذلك شبيهة بقول مشركي العرب وغيرهم، الذين جعلوا له بنين وبنات، قال تعالى ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٠] وقال تعالى ﴿أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ وَلَدَ اللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [الصفات: ١٥١-١٥٢] وكانوا يقولون: الملائكة بنات الله. كما يزعم هؤلاء أن النفوس هي الملائكة، وهي متولدة عن الله، فقال تعالى ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: ٥٧] والآيات في هذا كثيرة... فهو سبحانه منزّه عن ذلك ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ أي ولم يكن أحد يكافئه، أي يماثله من صاحبة أو غيرها. وقال الإمام: الكفو معناه المكافئ والمماثل في العمل والقدرة. وهو نفى لما يعتقد بعض الوثنيين في الشيطان مثلاً. فقد نفى بهذه السورة.

وفي العدد المطلق. وأما اسم الصمد فقد استعمله أهل اللغة في حق المخلوقين، كما تقدم، فلم يقل صمد بل قال ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ فبين أنه المستحق لأن يكون هو الصمد دون ما سواه. فإنه المستوجب لغايته على الكمال. والمخلوق، وإن كان صمداً من بعض الوجوه، فإن حقيقة الصمدية منتفية عنه. فإنه يقبل التفرق والتجزئة. وهو أيضاً محتاج إلى غيره. فإن كل ما سوى الله محتاج إليه من كل وجه، فليس أحد يصمد إليه كل شيء، ولا يصمد هو إلى شيء، إلا الله. وليس في المخلوقات إلا ما يقبل أن يتجزأ ويتفرق وينقسم وينفصل بعضه من بعض. والله سبحانه هو الصمد الذي لا يجوز عليه شيء من ذلك، بل حقيقة الصمدية وكمالها له وحده واجبة لازمة، لا يمكن عدم صمديته بوجه من الوجوه، كما لا يمكن تنفية أحديته بوجه من الوجوه.

وقال أبو السعود: وتكرير الاسم الجليل للإشعار بأن من لم يتصف بذلك، فهو بمعزل من استحقاق الألوهية. وتعرية الجملة عن العاطف لأنها كالنتيجة للأولى. بين أولاً ألوهيته عز وجل المستتبعة لكافة نعوت الكمال، ثم أحديته الموجبة تنزهه عن شائبة التعدد والتركيب بوجه من الوجوه. وتوهم المشاركة في الحقيقة وخواصها. ثم صمديته المقتضية لاستغنائه الذاتي عما سواه، وافتقار جميع المخلوقات إليه، في وجودها وبقائها وسائر أحوالها، تحقيقاً للحق، وإرشاداً لهم إلى سننه الواضح. ثم صرح ببعض ما يندرج فيما تقدم، بقوله سبحانه «لم يلد» تنصباً على إبطال زعم المفترين في حق الملائكة والمسيح. ولذلك ورد النفي على صيغة الماضي. أي لم

المراغي ج ١٠ ص ٢٦٢ - ٢٦٦

ما جاء في الدين من التوحيد والتنزيه تفصيل لما أجمل فيها...

وأثر عن ابن عباس أنه قال: لم يلد كما ولدت مريم، ولم يولد ما وُلد عيسى وعُزير، وهو ردّ على النصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، وعلى اليهود الذين قالوا: عزير ابن الله...

هذه السورة تضمنت أهم الأركان التي قامت عليها رسالة النبي ﷺ، وهي توحيد الله وتنزيهه، وتقرير الحدود العامة للأعمال، بيان الصالحات وما يقابلها، وأحوال النفس بعد الموت من البعث وملاقاة الجزاء من ثواب وعقاب، وقد ورد في الخبر: «إنها تعدل ثلث القرآن» لأن من عرف معناها، وتدبر ما جاء فيها حق التدبر، علم أن

سيد قطب ج ٦ ص ٤٠٠٢ - ٤٠٠٥

وكل حدث وكل حركة إلى السبب الأول الذي منه صدرت، وبه تأثرت. . وهذه هي الحقيقة التي عني القرآن عناية كبيرة بتقريرها في التصور الإيماني. ومن ثم كان ينحى الأسباب الظاهرة دائماً ويصل الأمور مباشرة بمشيئة الله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]. ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. . . ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]. . . وغيرها كثير. . .

وبتنحية الأسباب الظاهرة كلها، ورد الأمر إلى مشيئة الله وحدها، تنسكب في القلب الطمأنينة، ويعرف المتجه الوحيد الذي يطلب عنده ما يرغب، ويتقي عنده ما يرهب، ويسكن تجاه الفواعل والمؤثرات والأسباب الظاهرة التي لا حقيقة لها ولا وجوداً

وهذه هي مدارج الطريق التي حاولها المتصوفة، فجذبهم إلى بعيداً ذلك أن الإسلام يريد من الناس أن يسلكوا الطريق إلى هذه الحقيقة وهم يكابدون الحياة الواقعية بكل خصائصها، ويزاولون الحياة البشرية، والخلافة الأرضية بكل مقوماتها، شاعرين مع هذا أن لا حقيقة إلا الله. وأن لا وجود إلا وجوده. وأن لا فاعلية إلا فاعليته. . . ولا يريد طريقاً غير هذا الطريق.

من هنا ينبثق منهج كامل للحياة، قائم على ذلك التفسير وما يشيعه في النفس من تصورات ومشاعر واتجاهات: منهج لعبادة الله وحده. الذي لا حقيقة لوجود إلا وجوده، ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعليته، ولا أثر لإرادة إلا إرادته.

ومنهج للاتجاه إلى الله وحده في الرغبة والرهبة. في السراء والضراء. في النعماء والبأساء. وإلا فما جدوى التوجه إلى غير موجود وجوداً حقيقياً، وإلى غير فاعل في الوجود أصلاً؟

ومنهج للتلقي عن الله وحده. تلقي العقيدة والتصور والقيم والموازنين، والشرائع والقوانين والأوضاع والنظم، والآداب والتقاليد. فالتلقي لا يكون إلا عن الواحد والحقيقة المفردة في الواقع وفي الضمير.

. . . فإن الأحدية التي أمر رسول الله ﷺ أن يعلنها: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. . هذه الأحدية عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. . وقد تضمنت السورة - من ثم - أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام الكبيرة. . .

إنها أحدية الوجود. . . فليس هناك حقيقة إلا حقيقة. وليس هناك وجود حقيقي إلا وجوده. وكل موجود آخر فإنما يستمد وجوده من ذلك الوجود الحقيقي، ويستمد حقيقته من تلك الحقيقة الذاتية.

وهي - من ثم - أحدية الفاعلية. فليس سواه فاعلاً لشيء، أو فاعلاً في شيء، في هذا الوجود أصلاً. وهذه عقيدة في الضمير وتفسير للوجود أيضاً. .

فإذا استقر هذا التفسير، ووضح هذا التصور، خلص القلب من كل غاشية ومن كل شائبة، ومن كل تعلق بغير هذه الذات الواحدة المتفردة بحقيقة الوجود وحقيقة الفاعلية.

خلص من التعلق بشيء من أشياء هذا الوجود - إن لم يخلص من الشعور بوجود شيء من الأشياء أصلاً!

- فلا حقيقة لوجود إلا ذلك الوجود الإلهي. ولا حقيقة لفاعلية إلا فاعلية الإرادة الإلهية. فعلام يتعلق القلب بما لا حقيقة لوجوده ولا لفاعليته!

وحين يخلص القلب من الشعور بغير الحقيقة الواحدة، ومن التعلق بغير هذه الحقيقة. . . فعندئذ يتحرر من جميع القيود، وينطلق من كل الأوهام. يتحرر من الرغبة وهي أصل قيود كثيرة، ويتحرر من الرهبة وهي أصل قيود كثيرة. وفيه يرغب وهو لا يفقد شيئاً متى وجد الله؟ ومن ذا يرهب ولا وجود لفاعلية إلا لله؟

ومتى استقر هذا التصور الذي لا يرى في الوجود إلا حقيقة الله، فستصحبه رؤية هذه الحقيقة في كل وجود آخر انبثق عنها - وهذه درجة يرى فيها القلب يد الله في كل شيء يراه. ووراءها الدرجة التي لا يرى فيها شيئاً في الكون إلا الله. لأنه لا حقيقة هناك يراها إلا حقيقة الله.

كذلك سيصحبه نفي فاعلية الأسباب. ورد كل شيء

أفسدت عقائدهم وتصوراتهم وحياتهم، نشأت أول ما نشأت عن انطماس صورة التوحيد الخالص. ثم تبع هذا الانطماس ما تبعه من سائر الانحرافات.

على أن الذي تمتاز به صورة التوحيد في العقيدة الإسلامية هو تعمقها للحياة كلها، وقيام الحياة على أساسها، واتخاذها قاعدة للمنهج العملي الواقعي في الحياة، تبدو آثاره في التشريع كما تبدو في الاعتقاد سواء. وأول هذه الآثار أن تكون شريعة الله وحدها هي التي تحكم الحياة. فإذا تخلفت هذه الآثار فإن عقيدة التوحيد لا تكون قائمة، فإنها لا تقوم إلا ومعها آثارها محققة في كل ركن من أركان الحياة.

ومعنى أن الله أحد: أنه الصمد. وأنه لم يلد ولم يولد. ولم يكن له كفواً أحد. . . ولكن القرآن يذكر هذه التفرعات لزيادة التقرير والإيضاح:

«الله الصمد» . . . ومعنى الصمد اللغوي: السيد المقصود الذي لا يقضى أمر إلا بإذنه. والله - سبحانه - هو السيد الذي لا سيد غيره، فهو أحد في ألوهيته والكل له عبيد. وهو المقصود وحده بالحاجات، المجيب وحده لأصحاب الحاجات. وهو الذي يقضي في كل أمر بإذنه، ولا يقضي أحد معه. . . وهذه الصفة متحققة ابتداء من كونه الفرد الأحد. . .

وهذا كذلك يتحقق بأنه «أحد» ولكن هذا تأكيد وتفضيل. . . وهو نفي للعقيدة الثنائية التي تزعم أن الله هو إله الخير وأن للشر إلهاً يعاكس الله - بزعمهم - ويعكس عليه أعماله الخيرة وينشر الفساد في الأرض. وأشهر العقائد الثنائية كانت عقيدة الفرس في إله النور وإله الظلام، وكانت معروفة في جنوبي الجزيرة العربية حيث للفرس دولة وسلطان!!

هذه السورة إثبات وتقرير لعقيدة التوحيد الإسلامية، كما أن سورة «الكافرون» نفي لأي تشابه أو التقاء بين عقيدة التوحيد وعقيدة الشرك. . . وكل منهما تعالج حقيقة التوحيد من وجه. وقد كان الرسول ﷺ يستفتح يومه - في صلاة الفجر - بالقراءة بهاتين السورتين. . . وكان لهذا الافتتاح معناه ومغزاه. . .

ومنهج للتحرك والعمل لله وحده. . . ابتغاء القرب من الحقيقة، وتطلعاً إلى الخلاص من الحواجز المعوقة والشوائب المضللة. سواء في قرارة النفس أو فيما حولها من الأشياء والنفوس. ومن بينها حاجز الذات، وقيد الرغبة والرغبة لشيء من أشياء هذا الوجود!

ومنهج يربط - مع هذا - بين القلب البشري وبين كل موجود برباط الحب والأنس والتعاطف والتجاوب. فليس معنى الخلاص من قيودها هو كراهيتها والنفور منها والهروب من مزاولتها. . . فكلها خارجة من يد الله؛ وكلها تستمد وجودها من وجوده، وكلها تفيض عليها أنوار هذه الحقيقة. فكلها إذن حبيب، إذ كلها هدية من الحبيب!

وهو منهج رفيع طليق. . . الأرض فيه صغيرة، والحياة الدنيا قصيرة، ومتاع الحياة الدنيا زهيد، والانطلاق من هذه الحواجز والشوائب غاية وأمنية. . . ولكن الانطلاق عند الإسلام ليس معناه الاعتزال ولا الإهمال ولا الكراهية ولا الهروب. . . إنما معناه المحاولة المستمرة، والكفاح الدائم لترقية البشرية كلها، وإطلاق الحياة البشرية جميعها. . . ومن ثم فهي الخلافة والقيادة بكل أعبائهما، مع التحرر والانطلاق بكل مقوماتهما. كما أسلفنا.

إن الخلاص عن طريق الصومعة سهل يسير. ولكن الإسلام لا يريده. لأن الخلافة في الأرض والقيادة للبشر طرف من المنهج الإلهي للخلاص. إنه طريق أشق، ولكنه هو الذي يحقق إنسانية الإنسان. أي يحقق انتصار النفخة العلوية في كيانه. . . وهذا هو الانطلاق. انطلاق الروح إلى مصدرها الإلهي، وتحقيق حقيقتها العلوية. وهي تعمل في الميدان الذي اختاره لها خالقها الحكيم. . .

من أجل هذا كله كانت الدعوة الأولى قاصرة على تقرير حقيقة التوحيد بصورتها هذه في القلوب. لأن التوحيد في هذه الصورة عقيدة للضمير، وتفسير للوجود، ومنهج للحياة. وليس كلمة يقال باللسان أو حتى صورة تستقر في الضمير. إنما هو الأمر كله، والدين كله؛ وما بعده من تفصيلات وتفرعات لا يعدو أن يكون الثمرة الطبيعية لاستقرار هذه الحقيقة بهذه الصورة في القلوب. والانحرافات التي أصابت أهل الكتاب من قبل، والتي

المصادر

- ١ - الآلوسي، محمود شكري. روح المعاني. القاهرة: إدارة الطباعة المنيرة. ٣٠ ج. توفي ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م.
- ٢ - ابن عربي، محيي الدين. تفسير القرآن الكريم. بيروت: دار اليقظة العربية، ١٩٦٨. جزءان. توفي ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م.
- ٣ - ابن كثير، أبو الفداء اسماعيل. تفسير القرآن العظيم. القاهرة: دار الفكر. ٤ أجزاء. توفي ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م.
- ٤ - أبو حيان الأنديلسي: التفسير الكبير المسمى بالبحر المحيط. الرياض: مطابع النصر الحديث. ٧ ج. توفي ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م.
- ٥ - البغوي، أبو محمد الحسين الفراء. معالم التنزيل بهامش تفسير الخازن. توفي ٥١٦هـ/ ١١٢٢م.
- ٦ - البيضاوي، ناصر الدين أبو سعيد عبد الله. أنوار التنزيل وأسرار التأويل. بيروت: مؤسسة شعبان. ٥ ج. توفي ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م.
- ٧ - جوهرى، طنطاوي. الجوهر في تفسير القرآن العظيم. القاهرة: مطبعة البابي الحلبي، ١٩٣١. ٢٥ ج. من علماء القرن العشرين.
- ٨ - الخازن، علاء الدين علي بن محمد البغدادى. تفسير الخازن المسمى لباب التأويل في معاني التنزيل. القاهرة: البابي الحلبي، ١٩٥٥. وبهامشه تفسير البغوي المعروف بمعالم التنزيل للحسين بن محمد الفراء البغوي. ٧ أجزاء. توفي ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م.
- ٩ - الرازي: فخر الدين أبو عبد الله محمد. التفسير الكبير. طهران: دار الكتب العلمية. ٣٢ ج. توفي ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م.
- ١٠ - الزمخشري: أبو القاسم جار الله. الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأفاويل في وجوه التأويل. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. وبهامشه كتاب الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال للإمام ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير الإسكندري المالكي: ٤ أجزاء.
- ١١ - الشوكاني، محمد بن علي بن محمد. فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير. دار الفكر للطباعة والنشر. الطبعة الثالثة. ١٩٧٣. ٥ أجزاء. توفي ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م.
- ١٢ - الطباطبائي، محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٩٧١. ١٩٨٥. ٢١ ج.
- ١٣ - الطبرسي، أبو علي الفضل بن الحسن. مجمع البيان في تفسير القرآن. بيروت: مكتبة الحياة، ١٩٦١. ٣٠ ج. توفي ٥٤٨هـ/ ١١٥٣م.
- ١٤ - الطبري، أبو محمد بن جرير. جامع البيان في تفسير القرآن. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، ١٩٧٨. وبهامشه تفسير غرائب القرآن لنظام الدين الحسين بن محمد القمي النيسابوري. ٣٠ ج. توفي ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.
- ١٥ - عبد الباقي، محمد فؤاد. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٤٤. «عيسى» ص ٤٩٤ - ٤٩٥؛ «مريم» ص ٦٦٥؛ «المسيح» ص ٦٦٦.
- ١٦ - عبده، محمد. تفسير القرآن الحكيم. القاهرة: مطبعة المنار، ١٩١٧ - ١٩٣٤. المشتهر باسم تفسير المنار. ١٢ ج. توفي سنة ١٩٠٥.
- ١٧ - القاسمي، جمال الدين. تفسير القاسمي المسمى محاسن التنزيل. القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٧. ١٧ ج. توفي سنة ١٩١٤.
- ١٨ - القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري. الجامع لأحكام القرآن. القاهرة: دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٧. (مصور عن طبعة دار الكتب). ٢٠ ج. توفي ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م.
- ١٩ - سيد قطب. في ظلال القرآن. القاهرة: دار الشروق، ١٩٧٨. ٦ أجزاء. توفي سنة ١٩٦٦.

٢٠ - الماوردي، أبو الحسن علي بن محمد. تفسير الماوردي. توفي ٤٥٠هـ/١٠٥٨م.

٢١ - المحلي: جلال الدين، وجلال الدين السيوطي. تفسير الجلالين. دمشق: دار القلم. توفي المحلي

٨٦٤هـ/١٤٥٩م. توفي السيوطي ٩١١هـ/١٥٠٥م.

٢٢ - المراغي، أحمد مصطفى. تفسير المراغي. القاهرة: البابي الحلبي، ١٩٤٧. ٣٠ ج. من علماء القر العشرين.

